

المذكرات

11.12.2017



تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
«المتنبى»



المذكرات



الجزء الأول

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
«المتنبى»

روح المذكرات

ليس الموضوع الذي اعالجه (١) الآن ذا مسكاة كبرى في ذاته ، إذا نظر اليه أنه مذكرات شخصية ، كتبها رجل ما كان في مقام تشخص اليه أبصار العالم ، ولا هو من أمة كان له التقديم والتأخير في مجرى سياستها . أنا أعرف أنه ما كان لبلادي إلى عهد قريب كيان لعرف به في العرف الدولي ، ولا هي من إحكام الأمر بحيث يرهب بأسها ويسمع صوتها ، ولا هي من العلم والفن بحيث يُمَكِّنُ لها في مجالس العلماء ، ولا هي رابحة الصفقة في أسواق الحضارة ، فيتنافس العارفون في اقتناء بدائعها وأعلامها . وأعلم أن من الأشياء ما يكبر بكبر مصدره ، ومن الرجال من يعظم في العيون بقدر ما لأمته من عظمة .

أصور بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة ، وأدوّن كل حق عرفته ، ليشاركني أبناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من أضجروني بقصورهم ، وآلموني بفرورهم .

كتبت كتباً كان الجِدُّ سداها ولحمها ، وما جَوَّزَتْ لِنَفْسِي الحِمَاذَ عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتأخرين ، وأريد هنا أن أنزع قيوداً أثقلتني وأنا أراعيها ، وأن أبعد عن ذاك الطراز المقيد ، وأخرج إلى هذا الأسلوب المطلق .

أحاول اليوم ، وقد رأيت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومررها ،

(١) كنت أحرص في هذه المذكرات على ألا أتكلم عن نفسي ، وألا أقول قلت وفعلت ، فتعذر ذلك لأن أكثر ما فيها مما سمعته أذناي ، ورأته عيني ، ووعته نفسي ، فن الصب ذكره مجرداً من سامعه ورأيه وواعيه ، وهوّن عليّ هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بدعاً ، وتابعت طريقة من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات .

وكرعت خلفها وخمرها ، أن أهزل أحيانا ، وأسخر أحيانا ، وأنحك أحيانا ، وأبكي أحيانا ، لأن نفسي سئمت التزام الجِد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمناً طويلاً ، وطبيعتي تمضي على العيش الرتيب .

ورجائي ألا يبادر القاري في الحكم عليّ ، فيتهمني أنني أكتب صحيفة في التشاؤم ، والتشاؤم يكثر في الشيوخ ، فأنا وإن قضيت شرطاً كبيراً من العمر في سلطان التفاؤل ، لا أتفادل ولا أئشام . وأفضل جهدي أن أزن الأشياء بمقاديرها ، وأن أعطي كل أمرٍ حقه .

وامنية النفس يوم تنشر هذه المذكرات ألا يشمئز منها نالها وسامها كثيراً ، وأنا إلى هذا لا أطمع أن يجمع الملا على استحسانها ، فذلك بضية ماتت حتى الآن لتأليف ، ومن أين لصفحات محدودة أن تستوفي عامة شهوات النفوس .

ربما يتألم بعض من عرضت لذكرهم بما قد يسخطهم ، فأنا لا أحفل غضبهم ، ولا أسمى إلى رضاهم . ولعلي كعمدت أحيانا هتك سترهم لأنهم يهتكون بأعمالهم ستر هذه الأمة لا يبالون .

وإذا كنت لم استخذِ أمام من كان في أيديهم النفع والضر ، فأنا لا أصانع من لا يرضيهم إلا سكوتي عن مساوئهم . دأبت على قتال الأُردباء ، والشبابُ غضٌّ ، والرغبة في اطالة حبل الأجل عظيمة ، فخري بي ألا أكف عنهم ، وأنا أطوي آخر مراحل العمر ، وأنفض اليد من بهرج الحياة . قصدت بما دونت التحذير من دجل الدجالين ، والتنبيه على أحابيل المبطلين ، والعمل على مكافحة الظالمين ، ليُعرف أن كل جيل لا يخلو من دعاة يخلو لهم الجهر بالحق مهما جشعهم ، ومن أفضل الطرق إليه ضرب السفهاء في وجوههم بميوبهم .

جربت السكوت عمن لم يأتوا ببرهان واحد على حبهم الخير ، وما جنيت من الاغضاء إلا البلاء .

الجهر بالحق ، ومقاومة الظلم ، من أول مراتب النهوض ، « والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

لقب أسرتنا

تفضل رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالنيابة رصيفي الدكتور فارس نمر باشا يوم افتتاح مؤتمر الدورة الثالثة عشرة وسألني في الملامح بعد أن تكلمت في المضافات والمنسوبات أن أكشف الغطاء عن حقيقة اسم أسرتنا « كرد علي » ، وأذكر الأصل في هذه النسبة وهذه الاضافة فوعده باجابة طلبه وان أحل هذا اللغز الغامض الذي طالما كان موضع أخذ ورد ، كنت فيها في مصيبة ، ومصائب الدنيا كثيرة ومن جعلتها هذا الاسم .

جاء جدي من مدينة السلجمانية من بلاد الاكراد (شمال العراق) وسكن دمشق قبل نحو ١٥٠ سنة وامي شركسية من قفقاسيا فأنا على رغم أنف من آمن وكفر من جنس آري لا يقبل التزاع ، وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي . سباني أبي محمداً وكناني بفريد ، فلما دخلت المدرسة الثانوية سألني الناظر التركي من أي محلة أنا ، وكان من عادتهم أن ينسبوا التلميذ إلى حيه الذي يسكنه ، فحرت في الجواب لأن اسم محلتي ما كان من الرشاقة بحيث أجوز لنفسي أن يطلق عليّ اسمه « زقاق البرغل » فقلت له أنا من التعديل ، اسم محلة أخرى كان يسكنها أبي لما كان طفلاً ، فكنت محمد لمعدل ، ست سنين مدة الدراسة الثانوية ، ولما وظفت في الحكومة لم يرض رئيس الديوان أن يمدني إلى اسم اسرقي فاكنتي بمحمد فريد وحذف اسم عائلي على عادة الاتراك ، ولما بدأت أكتب في الصحف كان أقصى همي أن أعود إلى اسمي الأول وإلى لقب بيتنا القديم فأصبحت « محمد كرد علي » واغبتعت ان حافظت عليه طول عمري وبه اشتهرت . واستبان لي بعد ذلك أن في الناس من يحيدون جاهلين أو متجاهلين

عن اطلاق الاسم الذي اخترته ، ومنهم من يجب المناكدة أو لا يحفظ اسماً ولو كررته على مسامحه ألف مرة ، فما لبث بعض من عرفوني حتى في أيام ظهوري في الرياضات والوزارات ان تداخلوا في صيغة اسمي يحاولون أن يبدلوه بما يتراءى لهم فعدت إلى البلاء الذي أصبت به في العقد الثاني من عمري ، وكنت أظن بعد أن رجحت معركة الاسماء أنني نجوت مما لم ينج منه المصريون في التسمية ، لقد أضاعوا انسابهم وأصيبوا بيلبلة عظيمة كادت تكون هزلاً ، وهل من المعقول أن يكون اسم شقيق أحمد زكي باشا ، محمود بك رشاد ، واسم شقيق حسن صبري باشا محمود بك فؤاد ، واسم عم علي ماهر باشا عبد الرحمن بك فهسي ، واسم شقيق محمد بك الخضري عبد الله بك عففي ، وان يكون اسماعيل صدقي باشا شقيق عزت بك شكري . نعم ظلمت في كرب من هذا اللقب وهو وان لم استسغه كثيراً لأنه ليس ببلغ ولا فصيح ، لكنني رأيت في المحافظة عليه معنى من معاني الثبات ، وقد صقل على الأيام بعض الشيء . ومن الغريب أن أحد وزراء معارف سورية مازال يناديني إلى اليوم « محمد علي بك » وأحد وزراء مصر للمعارف أيضاً ما برح يخاطبني « بكردي بك » وقد قلت للأول لما سمعته يكرر هذه التسمية : أنت وزير معارف ومفروض فيك الذكاء والمعرفة كيف لم تحفظ اسمي على حقيقته وقد ورد في الكتب والصحف وعلى الألسن مئات الألوف من المرات ، فان كنت لم تتعلم أبسط الأشياء فأني شيء كملت بالله عليك ؟ أما وزير معارف مصر فما خلصت من تحريف اسمي في خطابه لي إلا بعد أن هددته بأني سأعمل على تحريف اسمه وأعامله بمثل ما يعاملني ، وأنا على شك إلى الآن فيما إذا كانت حفظ اسمي كما اتزل ، وكذلك رأيي في وزير الشام . والانك من كل هذا وذاك ان هذا المجمع بجمع فؤاد الأول للغة العربية الذي كان لي شرف الانضمام اليه منذ تأسيسه ما برح مكتبه بجود علي باسمي محرفاً ، ويتكرم ويزيد عليه لعتاً أو رتبة

مثل « الفاضل » أو « صاحب العزة » وما رقاني الى أرق من هذين اللقبين مدة سبع عشرة سنة ، هذا والرئيس والاخوان يخاطبونني بسماعتك وصاحب السعادة وهذه ما أكثر ما أسميها في مصر من مختلف الطبقات ويزيدون فيها « بك » فتكون سمادة البيك ومن لم ينسوا اني عملت وزيراً مدة طويلة لا يحرموني ، جبر الله كسرهم ، من لقب معاليك وصاحب المعالي . ألقاب مجموعها ما أحبتها ولا حرصت عليها ، ولطالما عمدت إلى اتقانها بكل حيلة كما حرصت على عهد الترك ألا أترين برتبهم ، وفعلت في عهد الفرنسيين حق بحوث من وسام جوقة الشرف . ولطالما أعلنت لمن يؤذوني بالقابهم ان لفظ الاستاذ أحب الألقاب إلى قلبي ، وان ابتدأت حتى صارت تقال المستجدي في الشوارع ، ولقد جرى على لسان زملائي أعضاء المجمع العلمي العربي أن ينادوني بالاستاذ الرئيس وهذا كان منسجماً مع الحقيقة لكنه سبق ان تكفى به ابن العميد في القدماء وكان لقب كثير من الرؤساء في فارس أزماناً طويلة .

ولقد خلت جمهوريتنا السعيدة من هذا الحرج وقضت الا يطلق بعد الآن على احد من أبنائها الا لفظ « السيد » مهما بلغ من مكانته ، وإذا هنّ لكم ان تعرفوا أصل معنى السيد في اللغة فارجعوا إلى المعاجم لستعوا على ما تريدون ، والظاهر ان من مضى عليهم زمن طويل وهم يسرحون ويمرحون بألقاب الترك لا يروقه التخلي عنها ، وإذا خاطبهم مخاطبهم بالسيد يمتبرون ذلك تحقيراً لهم ، ويهللون اذا أضفت إلى خطابك « سعادتك » « دولتك » « معاليك » « نخامتك » ولكن المولمين بهذه التحليلات سوف يذهبون من الارض ويخلفهم جيل شعبي جديد يقنع بلفظ « سيد » وبمدها نعمة على العالمين .

وبعد فقد كاد هذا التبديل في صيغة اسمي ايام الصبا ان يحرمني راتب التقاعد (الماش) ذلك ان خبثاء في ديوان المالية قالوا ان محمد

فريد الذي كان موظفاً في قلم الامور الأجنبية كان تركياً مات من سنين رحمه الله وان دعواي اني أنا هو غير صحيحة ، وشهد معلمان كانا اخرجا من خدمة المعارف بسوء سيرتهما ، فما وسعني الا أن أتيت بشهود عدول من كبار رجال الدولة عرفوني في ذاك الديوان منذ أول نشأتي ومنهم جبراني ولدائي في المدارس ، وما نلت حتي في الراتب بعد هذا الا بإعزاز للديوان من مصدر عال لم يسع المالية إلا ان تعطيه على مضض ، وكان من المقاومين في اعطائي ذلك وزيران من وزراء المالية لا يعرفان من أمرها أكثر مما أعرف من علم الكيمياء مثلاً هذا الى ما عرفاه من الاذى لمن لا يشايعهم على أهوائهم . هذا ما أورثنيه اسمي من الاضطراب وضيق الوقت والاثبات والاشهاد وهاكم الآن ما كتبت في مذكراتي بشأن هذه المعضلة الخطيرة عسى أن يكون فصل الخطاب في هذا الباب ولا احتاج بعدها الى سؤال ولا الى جواب وأخلص أنا من العذاب فلا يطلق عليّ « افندي » ولا « بك » ولا « باشا » ولا « خواجه » ولا « شيخ » ولا صاحب العزة ولا صاحب السعادة ولا صاحب المعالي وبكى هذه الالقاب المشرقة فقت وهي ألقاب لا يجوز لي ان اتقلدها بعد ان حاربتها بالقلم واللسان .

حاول احدُ خُلص أصدقائي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ان يبدل كنيتي « كرد علي » ويستعيض عنها بعلي فقط وأخذ يقنني بذلك زمناً ويكتب لي بها إذا راسلني وحجته ان هذا الاسم من الالقاب المربعة فاذا أطلق عليّ يؤخذ منه ان صاحبه كردي فظ لا يعرف غير السلب والنهب الى ما شاكل ذلك . وكنت أحاجه في هذا المعنى واريد أن بتفضل عليّ بكنية أسرتي يطلقها عليّ في الكتاب والخطاب وأقول له ان في كني الافرنج والعرب اقل من كنيتي وأخوف منها ، وان في أجدادنا الماضين من كانت كنيتهم أوحش وأسمج مثل ابن بصاقة وابن ابي كدية وابن كتاكت وابن كينا وابن زبر وابن بهابم وابن فار وكم في الرجال الاجلة من لزمهم ألقاب قبيحة كماوبة بن عبد الكريم الضال وانما ضلّ في طريق مكة

وعبد الله بن محمد الضعيف وانما كان ضعيفاً في صحته لا في حديثه
وقد كتب الاستاذ المؤيد إلى صديقي المحبوب الاستاذ رفيق بك العظيم في
القاهرة مانصه : « ان الانكشارية كانوا يلقبون الطائشين منهم بألقاب مرعبة مثل
قره محمد وكور أحمد ودلي يوسف وبكري مصطفى وبالطهجي مسمود
وبهلوان أيوب وانجه بيرقدار ، وكرد علي الخ ... ثم انقرضت بانقراضهم
واستبدلت الألقاب بمثل مدحت وعزت وبهجت ونشأت عند الانزاك ، ومثل
حمدي ووجدي وشهدي عند المصريين ، وتوفيق ورفيق وامثالهما عندنا
فيقول الترك مثلاً خليل رفعت محمد مدحت أحمد عزت والمصريون محمد
حمدي أحمد وجدي والعرب محمد توفيق أحمد رفيق محمد حسن محمد علي
الخ ولم يمد يلقب بتلك الألقاب القديمة إلا النادر ممن يوم لقبه من لا يعرفه
انه شخص مرعب ولو كان أرق خلق الله وأطفهم . فلو انقضت اليك
بطاقة زيارة صحبة خادمك من زائر لا تعرفه وقد وقف بالباب ينتظر الجواب
ولما قرأتها وجدت عليها لقباً من تلك الألقاب المفزعة قره محمد مثلاً أو
بالطهجي مصطفى أفلا يأخذك العجب وكيف تتصور هذا الزائر . وبعد
فقد جاء في ألفية ابن مالك :

ترخيماً حذف آخر المنادى كيا سما لمن دعا سعادا

أما حذف أول المنادى أو وسطه ففيه نظر وعندي (وان لم يكن لي
عند) انه لا بأس به لتتمكن من ترخيم لقب أختينا المشار اليه ... «
هذا وقد أردت ما تقدم على سبيل العلم أولاً والفكاهة ثانياً والحمد
لله خير الأسماء .

ذكريات الطفولة

وما شفني بالماء إلا تذكراً لما به أهل الحبيب نزول
وما عشت من بعد الأجابة سلوة ولكنني للنائبات تحول
يقول العلماء إن من علت بهم السن يذكرون ما وقع لهم وهم أطفال ،
ذكرهم حوادث الشباب والكهولة والشيخوخة ، ولا يذكرون من الحوادث
ما قرب منهم عهده ، وأول ما يصابون بنسيانه أسماء الاعلام . وأنا أتذكر
حوادث وقعت لي بين السادسة والثامنة من عمري ، وأذكر الأشخاص
الذين كانوا معي كأني أراهم الآن ، وأذكر الزاوية التي كانوا واقفين فيها
أو قاعدين ، والمقعد الذي جلسوا عليه ولونه وشكله ، وأذكر أكثر
ما قلت لهم وما قالوه لي ، وما تأثرت به نفسي ، وجل في خاطري .

استصحبني والدتي وأنا في السادسة لتزور أسرة الاستاذ الشيخ محمد
الطنطاوي (في زقاق النارجية بمحلة القيمرية بدمشق) فأدخلوها القاعة
البرانية التي يجلس فيها الشيخ (السلامك او المنذرة) فوق نظري لأول
مرة على رفوف في الحيطان ، مصفوف عليها مجلدات ، فشفت متعجباً بما
نظرت وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الجدران فقالت :
هذه كتب يقرأ فيها العلماء . فأعجبني هذا المنظر الطريف ، وقلت لامي :
أنا أحب أن أعلم هذه الصنعة .

وكانت أُمِّي تذكرني بما قلت كلما أرادت أن تبث همي على حفظ
دروسي ، للوفاء بما كنت رجوته من تعلم تلك الصنعة . وكان أبي ينشطني
على الدرس ، ولما أصبحت يافعاً وشاهد استغراقي في كتيبي ، حتى الهزيع
الثاني من الليل ، أخذ ينصح لي بالاعتدال في المطالعة ، خشية على عيوني
وصحتي ، وكثيراً ما كان يطبق المصباح ليضطرني إلى النوم .

أسلمني أهلي إلى مدرسة « كافل سيباي » الابتدائية ، وأنا في الخامسة من عمري ، يتولى ابن عمي ملاحظتي وهو دون العاشرة . وكان مرة في سدة الجامع مع بعض الأولاد يؤذّن بصوت رخيم ، وصوته كان جميلاً ، فدخل المعلم فارمض الفتى وبال على ثيابه ، فقطرت على رؤوس بعض المصلين تحت السدة من الأولاد قطرات ، فكانت قصة ضحك لها كل من في المدرسة .

رأيت في الصف مشهداً استغربته ، رأيت ذات يوم شيخاً ما كنت رأيته من قبل وشاهدته ، وقد ظهرت من بعض الأطفال حركة لم يستحسنها على ما يظهر ، يسرع فيضرب المذنب على رأسه بطرف جيبه ، وبوجه بلهجة مغربية ، فاستغربت صورة الضرب بالجبة ، فسألت من هو هذا الضارب ؟ فقيل لي هذا المفتش ، وهو أعلم من شيخنا ويقدر أن يعزله . فقلت في نفسي : ياليتني أكون مثله . وما كان هذا المفتش إلا استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري الذي اتصلت به بعد سنين ، وقد بدأت أكتب في الصحف ، وأطاب العلم عند المشايخ .

وضعتني مرة عند شيخ قرب دارنا ، كان اتخذ له من دكان متسع مكتباً ، وحشر فيه عشرات من الأطفال ، والباب مقفل ، والطاقات مسدودة ، فكانت رائحة كريهة وللشيخ عصا طويلة يضرب بها الولدان في صدورهم وظهورهم ورؤوسهم ، ولعله ضربني ضربة واحدة من أول يوم ، واستعفيت في الغد من الذهاب إلى هذا الكتاب ، وبكيت لوالدي فرق لي ، وقلت له : لا أحب التعلم إذا كان المعلم يضرب كل ولد في الكتاب ، سواء أخطأ أم لم يخطئ ، فأعفوني من الدوام على المكتب وبقيت أسرح وأمرح طول الصيف ، واطوّف الماء عند عصر كل يوم في صحن الدار ، وأصبح وأغطس في الحوض حتى أتبرد ، ولما انتهت العطلة المدرسية رجعت إلى « كافل سيباي » .

أركبني والدي معه على فرسه ، وقصدنا قرية جسرين في القوطة اول

مرة ، وكان ابتاع بها مزرعة منذ اشهر قليلة ، واخذ يعمّر في الدار هناك 'عليّة' إلى جانب عليّة كانت من قبل ، والنجارون ينجرون الابواب والنوافذ ، وصمدت سائماً منصوباً على الطريق من خارج الدار ، واصحبوني برجل بلا حظي وأنا اصعد ، حتى لا تراق رجلي فأقع ، وما زال بعض من رأيته من الفلاحين هناك ، كأنهم أمامي الآن أنظر اليهم واحادثهم ، وكنت بعد سنين أذكر لهم ما قلته وما قالوه فيتزون طرباً لهذه الذكريات . وكان أحد سادة القرية أبا سعيد درويش عند أبي مجلسان في دهليز بيتنا هناك ، فطلبت إلى والذي أن يزيد في نفقتي اليومية ، وما كانت تتجاوز المتاليكين (نصف القرش) ورجوته زيادة متاليك آخر فأبى ، وقال إن متاليكين يكفيانك ، فغضبت وظهر الغضب في وجهي ، فلما رأي أبي أبو سعيد أحب أن يبدد من أمي وبداعبني فقال لي : إن أباك قال لي إن الدرهم التي كانت عنده مخبوءة في البدررايات (سلات الارز) دفنها لك في التراب ، أي اشترى لك المزرعة ، فلم يعد عنده ما يطبخ ، أليس « الحانوت » أحسن لك من متاليك زائد على خرجك كل يوم ؟ فسكت وقلت في نفسي : المزرعة أكبر ، وفيها أشجار اعلق عليها أرجوحتي وألعب عليها ، وتقذفني بها اختي وأقذفها ، وفيها حقول واسعة أطير عليها طياري في الهواء ، وفيها نهر صغير أصبح فيه .

وما كنت أزعج إلا عندما يقال لي غداً السبت تهيأ للنزول إلى البلد ، وإذا تخلفت فرفاقت في الصف يسبقونك ، وفي ليل مفارقة القرية وألمعها ينقبض صدري ، وأغبط الضفادع على استمتاعها في مناقعها ، وأندب حظي على حرمانني سماع نقيقها أياماً . وبين القرية والحاضرة ثمانية كيلومترات ، لا بد من ركوب ساعتين على ظهر الحمار ، وصرف الاسبوع كله في الدار ، والخروج إلى القرية آخر الاسبوع . يتخيرون لركوبي الحمار حتى إذا سقطت عن ظهرها يكون الخطر أقل ، وأصل إلى الأرض بدون ألم يذكر . وما زلت أذكر أنني أردت مرة اجتياز جدول صغير فكاد التيار يأخذني

لو لم ننفذني شقيقتي الكبيرة . وسقطت مرة من رأس غصن عال من شجرة جوز ، حاولت نصب أشوطة الأرجوحة عليه ، وما أظن علوه يقل عن ثلاثة أمتار ، ووقفت على أرض لينة ، فتألمت كثيراً ، ولم أبك مخافة أن يشعر أهلي ، ويلوموني على تسلق الشجرة ، وكثيراً ما كنت أعر في البيدر وأنا أطير طياري ، فتتخذه يداي ، ويتهيج وجهي ، ثم أعود فأطيرها وأنا موجه ، أكنم وجهي مخافة أن يضحك مني أبناء الفلاحين ، وينسبوني إلى ضعف الهمة ، وقلة الرجولة . ولا أزال إلى اليوم أذكر بعض من كنت أقذف معهم طياري تحلق في الجو ، ويعجب لتحليتها صبيان الفلاحين ، ويعجب من ممي بعلمي ، ومن سرعتي في العدو ، وبعضهم مازال حياً والله الحمد ، أذكرهم بالعبابنا ويذكرونني ، وهم كانوا أنرابي في القرية ، ومن أحب أهلها إلى قلبي ، وفي مقدمتهم السيد عبد المعطي درويش ابن ذاك الذي قال لي وأنا غاضب على أبي لامتناعه عن إعطائي مناليكا آخر زيادة على نفقتي : إن أباك دفن في التراب درايمه التي كانت مخبوءة في السلال وما بقي عنده ما يعطيك .

كان والذي كل سنة يدعو بعد الحصاد زمرة من الحصّادين الذين حصدوا حبوبنا ورجدوها أي أنوا بها من الحقول إلى البيادر (الاجران) ويسمون هذه الدعوة (الجورة) ويدعو معهم أجراءنا ومرايعينا والمصيفين والنواطير والحارس والخطيب وبعض أصحابه من وجوه القرية ، ويأتي بهم إلى أجمل حمام يستحمون فيه « حمام القيشاني » وهناك كنت أفرك ظهور أجرائنا ، فيضحكون ويدعون أي أنزع الأوساخ عن أبدانهم بيدي الصغيرة . حتى إذا أتموا استحمامهم يأتون إلى دارنا يتناولون ما هيء لهم من طعام شهي ، وأعد لهم من الحلوى المعروفة بالبقلاوة وكانت تحشى بالفسق إذا كان سعره معتدلاً ، وإذا غلا ثمنه تحشى باللوز أو الجوز . ويعطى كل واحد من العمالة الذين أحسنوا الخدمة مقداراً من البقلاوة يحملونها إلى عيالهم في القرية ، ويقبض كل من أجاد عمله قدرًا من المال يناسب مكانته

وغنائه . وقد بطلت هذه الجورة أي ضيافة العملة في أيامي ، وأصبح العامل يفضل أن يأخذ ريالاً أو ريالين على أن يعطل يوماً كاملاً في الحاضرة للاستحمام ، وتناول الطعام .

كانت لي خالة امرأة أب محبوبة من إخوتي وأخواتي ، نحبها كما نحب أمنا ، وكنا نناديها بيا (أمي ستي) ، وكانت تتولى تربية كل ولد أتمت أمي إرضاعه . و (أمي ستي) من أصل الباني قوية الشكيمة وبقية بارة . كنت أدهش من مواظبتها على صلواتها ، وكانت تهجد من الليل ولصلي مئة ركعة ، وتتوضأ من حوض الماء في صميم الشتاء ولا تخاف البرد ، ولا تشعل النار لتدفأ ، وتهمهم عندما تقرأ وردها ، فكنت وأنا في الفراش أسمع تتمتها وهممة القطعة التي كانت أمي ستي تديها في فراشها معنا ، وكانت لها سبعة أطول من أيالي شتاء ، يقولون لها الألفية لأنها تضم ألف حبة كبيرة ، وعندنا إلى اليوم بعض حباتها احتفظ بها أهلي للبركة .

شعرت أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحب الاجتماع إليهن ، وأفضله على الاجتماع إلى أزائي ، وأحب سماع كلام من يختلف منهن إلى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهن من كن أرضعني فصرت ابنهن من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكانت الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممنني إلى صدورهن ويقبلنني وأضممن وأقبلن ، وأحسن ما كان يشوقني الجلوس في حجورهن ، والعبث بنهودهن وشعورهن وضافأرهن . وكنت أحب ذات الشعر اللثيث ، ومن وجدت لمعاناً في وجهها أعتقد أنها ندهنه بالزيت في الحمام ، وذلك لأن أمي حملتني معها إلى حمام القرية مرة ، فشاهدت الفلاحات يدهن أجسامهن بالزيت والزيتون فقلت لا بد أن يكون كل النساء على تلك الشاكلة .

وكنت أشتاق جداً إلى سماع ما يقص علي النساء من حكاياتهن الشهية ولا سيما ما كان فيه نكتة وشيء من الغرابة وكنت أميز بين التي تحسن

الحديث وبين التي لا تحسنه ، وأرجح الأولى ، ولو كانت عجوزاً شطاء
بشعة الصورة ، على الصبية ولو كانت خلابة المنظر وكانت لي أخت من
الرضاع جميلة الوجه بضة اسمها (بحرية) ، وكنت أستغرب هذا الاسم
وأقول في نفسي : لعلها ولدت في البحر بيروت فسموها بحرية . وكنت
أقبل (بحرية) قبلات حارة وتقبلني كذلك ، وقالوا لي مرات : ليتها تجوز
لك حتي نزوجك منها متى كبرت ، وبالطبع ما كنت أعرف ما هو الزواج
وأجيهم زوجوني بها فاني أحبها ، وكنت يومئذ في السابعة من عمري وربما
كانت هي في الخامسة عشرة . وبقيت بعد ذلك أوتر مجلس النساء مهما كان
لونه ، على مجالس الرجال إلى أن شبيت وشبت .

ومن كنت أعبت بهن امرأة مرايعنا سلطان في القرية (وسلطان اسمه
وهو أفغاني الأصل) كنت أكثر من زيارتها وهي عجوز شواء فقدت
بنيها كلهم ، فكنت أسمعا تندبهم أكثر الاخايين فأشفق عليها ، وكنت أفلي
شعر رأسها لأخرج لها الصببان ، فأجعل بين ظفري حركة يسمع لها
صوت كأنني أقتل القمل فتسر وأضحكها . وأعظم ما كان يعجبني في دارها
الواسعة بالنسبة لدور الفلاحين في القرية ذاك النبات المعروش واسمه « الساعة »
ويحمل زهراً مدوراً ملوناً مستديراً فكانت تتحفني منه بما أحب فأحمله إلى
أمي فتسر وتفرح بعشرة امرأة مرايعنا الحزينة ، وتدعو لي ولأولادها
بطول العمر ودوام الصحة .

أخذتني أُمي معها إلى عرس عظيم في دار آل البكري ، وأجلستني
إلى جانب تخت المغنية ، وكانت صاحبة التخت أشهر مغنية في عصرها ،
على ما قيل لي بعد ، اسمها أنيسة بنت جلالة ، وهي حنطية اللون ، دعجاء
العينين ، تلاطف من يقترب منها ويكلمها من المدعوات ، وأظنها عند الصباح
رقصت وهي تنفي ، وكان بيدها سيف . استمعت إلى أنيسة وجوقتها ، ثم
غلبني النوم فما صحت ، والوقت كان صيفاً ، إلا على صوت المؤذن ينغم
بالصلوات في المأذنة القريبة بصوت جميل ، ولبيل تلك الليلة أنيسة يرت

صوتها في فناء تلك الدار القوراء ، والنساء يصفقن كصفقاً حاداً بين حين وآخر ، ويدعون للمغنية ، ويستحسن كل ما تغنيه ، فطربت كثيراً ، واطن كان ذلك اول عهدي بالطرب ، واخذت ادرك معنى الصوت الحسن واشتاق الى سماعه ، وانوقع ان اسمع ما ينعش ، وكثيراً ما كنت اقول لامي بمد تلك الليلة المطربة ، خذيني معك الى العرس كما اخذتني الى عرس بيت البكري ، واذا احتفل بعرس ولم تأخذني معها اغضب وتدمع عيني ، واغبطها لانها سمعت بنت جلاله ، لاعتقادي بأن أنيسة تكون مغنية كل عرس يحفل به .

أذكر أن (امي ستي) كانت تخوفها علي* من العين ، إذا عمل لي والدي مضربة ، أتقي بها برد الشتاء تبادر إلى ترقيع أكمامها بقطع ليست من لون قماسها ، ليقول من يشاهدوني ألبس مرقمة اني ابن فقراء ، فتتخطائي عيونهم ولا ينظرون الي* نظر حسد ، وأذكر أن أبي ابتاع لي على العيد صرماية حلبيه أي نملاً حليياً احمر ، ومعها جوارب غليظة من شغل الاكراد بطن قدمائها بالسختيان ، وذلك لأخرج معه صباح اول يوم من العيد الى المقبرة لزيارة الأموات . وكنت لشدة فرحي بهذا النمل الاحمر اضعه بجانبني في الفراش ، وانتبه مرات قبل ان يؤذن الصبح ، ويحين وقت الخروج الى المقبرة ، ثم الذهاب الى المسجد الجامع لصلاة العيد ، والفرجة على (السلامك) اي حفلة خروج الباشا والى البلد بالمساكر من الجامع الى السراي . وكنت افرح فرحاً كثيراً لقرب ايام العيد ، فاذا انقضت اكتب ، وذلك لما يقام فيه من الألعاب في الشوارع ، فافرح بذلك اكثر من فرحي بما يصنع في بيتنا من الحلوى والمعول ، ويجلب له من المريات والملابس وغير ذلك مما يعمل بالسكر والقلوب من الجوز واللوز والفسق . فان هذه الأشياء كانت موفورة في بيوت اهل اليسار معظم أيام السنة . واكثر ما يطربني في الأعياد الألعاب المألوفة : ركوب (الدويجة) و (المآرجوحة) و (القلابة) و (المراكبات) التي تجر باليد او بالحمار .

كنت أستاذ كل الاستياء عندما يكرهني أهلي على الذهاب إلى الحمام

مع والدي — وما كانت الحمامات إلا في الأسواق ، والبيوت يومئذ لا تعرفها — أستثقل الحمام لما فيه من الحرارة الزائدة . ولكي يضطروني إلى الرضا بحكم والدي والدي ، كانوا ينصبون لي خيلاً أشبه برجل فطيع له قرون تنطح ، يحملونه وراء الخواوي في بيت المؤنة المظلمة ، ويمسكونني بيدي لأرى هذا الخيال ، ويقولون لي هذا البُعْبُع ، إذا لم تقبل أن تذهب إلى الحمام اليوم نقول له أن يأكلك ، فأذهب صاغراً مثلاً من هذا التحكم خائفاً من سطوة البصع . وأذكر أن والدي أخذتني معها إلى حمام النساء فقالت لها إحداهن : لماذا لم تأت بأبيه معه ؟ فانقطعت أُمي عن أخذني معها إلى الحمام من ذاك اليوم .

وحملني أبي على دابته عصر يوم من أيام القيظ الشديد ، وأركبني أمامه خوفاً عليّ من أن أهوي عن الدابة إذا ركبت ورائه ، وقصد إلى قرية دمر لزيارة الأمير عبد القادر الحسني الجزائري في قصره . والتقينا بالشاذروان أي في نحو منتصف الطريق بعربة يركبها مشايخ ، قال لي أبي إن فيها صديقه الشيخ سليم المطار من أكبر العلماء . فسأل الشيخ والدي عن مقصده من الركوب في ذلك الوقت فقال : لزيارة الأمير . فقال له : إن الأمير ممرض ولم ينزل من غرفته . فقال : إذا أتابع سيرتي لسترج الصبي في حديقة الأمير قليلاً ثم نعود . وسرنا حتى بلغنا قصر الأمير ، فلما أخبر بوصول والدي ، سأل هل معه ابنه ، فقبل له نعم ؛ نزل من غرفته ورأته . وربما كنت رأيته مرات قبلها فأنسيت ، ولا أذكر صورته إلا هذه المرة . فكان يلبس قفطاناً أبيض مثل قفاطين المغاربة وعلى رأسه طاقية بيضاء ، ووضعني في حجره ، وقرأ عليّ رأسي المودتين وبعض الآيات والتوسلات .

والسبب الذي حدا بالأمير على أن ينزل من غرفته وهو منحرف المزاج ، ولم ينزل لأحد من زواره ذاك اليوم ، كونه يعتبرني ابنه الروحي

وذلك لأنه صنع لي « التابعة » فمشت بعدها . وكانت أمي مات لها ولدان قبلي فقال لها من يمتقدون بهذه الامور إن الأمير يعمل التابعات ، فإذا عمل لك تابعة يعيش ولدك الذي في أحشائك . والتابعة كناية عن قصبة تلف عليها خيوط من الحرير ويقرأ عليها ويعزَّم ، وتأخذها الجبلى وتدفعها في قبر مهجور ، وترجع خطوات إلى الوراء ، وأظنهم قالوا يجب دفنها قبل شروق شمس السبت . وبعد مدة سمعت أن الأمير توفي وحزن والذي ووالدتي عليه (١٣٠٠ هـ) .

أخذني والذي قبيل طلوع الشمس يوم السبت لزيارة سيدي أبي خارج سور البلد ، قرب الباب الشرقي . وكانوا يمتقدون أن كل ولد زوَّره أهله قبر هذا الصحابي ثلاثة أسابيع يفتح الله قلبه للعالم ، وتحسن ذاكرته فيحفظ دروسه . وصيغة الزيارة أن تتقدم من القبر بخشوع وتقرأ الفاتحة ، ويأتيك السادن بمصا يضربك بها على رجلك ، ويقول لك : احفظ درسك ، فتبكي وتقول له أحفظه ، ثم يناولك حبات من الزبيب تقضمها . وما كان الضرب بالمصا موجماً بل كان صورياً . وبهذا هياً لي أهلي سبيل الحفظ والتعلم أنابهم الله !

وحمدت الله يومئذ على نجاتي من لطيف خرافة أخرى عليّ ، كانت تمثل بالقرب من الباب الشرقي أيضاً قرب مستشفى المجذمين (الأعاظلة) وكان الاعتقاد السائد أن كل من يصاب بالبرداء (الملاريا) — والكينا على ما يظهر كانت عزيزة — يأتي به أهله إلى النهر الأسود الذي تلقى فيه قاذورات قسم عظيم من مدينة دمشق ، ويفطسون المريض سبع غطسات — وأظنهم قالوا الأفضل أن يوم السبت — فيشفى باذن الله .

واطالما ذكرتني خالتي وأمي بعد أن كبرت قليلاً كيف كنت أنادي كل ساءة (ياخذى) بدون أن أعلم ذلك من أحد ، بل كنت أنادي بفطرتي . ومعنى (خدا) بالفارسية (الله) وقالنا لي إني بينا كنت أنادي يوماً في فناء الدار ندائي المعتاد زار والذي أحد أصحابه المسيحيين ، وقالنا لي إنه كان يعرف الفراسة ، فلما سمع منادائي تأمل وجهي قليلاً وقال

لأبي في الحال : يافلان اعتن بهذا الصبي سيكون عالماً ، — والله أعلم .
ومن حسن توفيق أن والدي كان ينوي أن يجعل علينا وصياً أحـد
رجلين من أصدقائه : الأول تاجر غني والآخر مزارع عظيم ، فما هي
إلا أعوام قلائل حتى بلغت مبلغ الرجال فأقمني وصياً على اخوتي ولم يحتاج
إلى أحد في هذه المهمة . ولو كان قدّر لي أن أكون صغيراً احتاج الى
وصي ، ووصى والدي مضطراً أحد خليليه هذين لما خرّجاني إلا في صنعها
حتى أعرف كيف أغتني ، ولا يجوز أن ينفقا شيئاً من مالنا على
تعليمي وتعليم اخوتي . ذلك أن الصديقين كانا لا يقدران حاجات الزمن ،
وكانا في عقلية أهل القرن الماضي من أن العلم اذا لم يضر لا ينفع .
ولطالما حثت المزارع أحد الصديقين بمد ما كبرت أن يعلم ولداً من أولاده
فن الزراعة الحديثة فكان يحاول ألا يحبسني وينقل الحديث إلى موضوع آخر .
وسمعت والدي غير مرة يشير على صديقه ذاك التاجر العظيم أن يعلم أحد
أولاده اللغة الفرنسية ليستعين به في تجارته الواسعة فيمد هذه النصيحة
مستغربة واستمعت اليه مرة يقول لوالدي يافلان إن كاتباً براتب ثلاثمائة
قرش في الشهر يغنينا عن تعلم ابني لغة اجنبية . فاذ كان حالي ياترى مع
أحد الصديقين الصادقين لو كتب لهما ان يكفلاني حتى أشب ؟

وما برحت أذكر قصصاً مستغربة سمعتها من والدي وأنا صبي في
أواخر العقد الاول من حياتي ، ومنها ماجرى له مع الامير سليمان الحرفوش
المتغلب في تلك الأيام على أرجاء بعلبك (وهو الذي قتلته الدولة العثمانية
في قلعة دمشق) قال : كنت في بدء حياتي التجارية تعرفت الى هذا
الامير ، وكان يزورني في مخزني ، واحتاج الى المال فأصبح يقترض
مني ما يلزمه حتى تجمع لي عنده خمسمائة ليرة ذهبية ، وعاد بعد حين
إلى بلده واعد أن يعيد اليّ بأسرع ما يمكن ما اقترضه مني قرضاً حسناً
وطال هذا الوعد أشهراً اضطرتت بعقبها الى أن أقصد الامير في بعلبك أتقاضاه
ما استدان مني ، ونزات عند امرأة عجوز أربعة أشهر حتى تيسر المال لمديني

ودفعه الى ريات فضية ، فأودعته عند حبيب مطران من خدام الأمير يومئذ — وهو الذي غدا بمنسنيين من أعيان سورية ونال رتبة باشا — ليحفظه لي عنده ريثما أعود الى بلدي ، وسألني الأمير لماذا أمنت على مالي حبيب مطران ؟ فقلت له : لأن المسيحيين يعرفون قدر الدراهم أكثر من المسلمين . ثم دنا الرحيل فأمر الأمير مناديه في القسبة ، أن يعلن أن عميل الأمير مسافر فأعد أهل البلد طعاماً اختار كل واحد منهم اللون الذي يحسنه ، وحملوه كماداتهم الى رأس العين . وحضر الأمير فتقدم والذي اليه وسارته في أذنه قائلاً له : اني وحيد أمي وبلغني أن من عادتكم بعض الأحيان أن تلدفوا الى مدينتكم ماله في ذمتكم فاذا بعد عنكم قليلاً أرسلتم من يقتله ويميد اليكم ما أخذه منكم ، فان كانت عينك في المال الذي أعطيتني فانا مستعد من الآن لأن أعطيك سنداً بقبضي له وأذهب الى بلدي بحشاشة نفسي ، فطمئنه الأمير وذكر له معروفه يوم ضائقته وأصعبه بمبدين أسودين ، اسم أحدهما دُعَيْدِس واسم اخيه قَضِيب ، وأوعز اليهما أن يذهبا من طريق الجُرد ويوصلاه الى قرية منين في جبل قلعون وبأخذنا من شيخها وصلاً بوصله . قال وبينما نحن سائرون أصيل ذاك النهار في محل اسمه « بير صرير » صادفنا سرباً من الفزلان فاصطاد أحد الرفيقين واحداً منها وتبسم لصديقه وتبسم له ، ثم تهامسا كأنهما يذكران أمراً وقم لهما . فسألتهما عما يشيران اليه فأبيا أن يوحا به ، وبعد إلحاحي عليهما قالا انهما كانا يجتازان هذا النجد منذ مدة فشهدا رجلاً وقع في نفسها أن معه شيئاً يسلبانه اياه فامتنع منها فقوي ظنهما أن معه مالاً فقتلاه ، وما أشد خيبة أملهما اذ لم يسقطا في جيبه على غير قرشين . فلما سمع أبي هذا الحديث اللطيف هلع قلبه وقال لهما : أسرعا اسرعا ، والشقيان القاتلان يعلمان أن في الخرج الذي تحت والذي عشرات الألوف من القروش . وسلم الله ووصل عميل الأمير الى منين بعد أن نقض عنه غبار الموت كما قال : وعاد الرفيقان المحترمان يحملان الايصال الى أميرها بوصول من رافقاه الى مأمنه . ولو كان والذي يفكر ملياً ما خاطر بماله ثم يروحه مع أمير يجهل أمره ، والغالب أنه لم يكن يعرف يومئذ أن عشرة الكبراء تنعب الرأس والرجلين .

عوامل المثبطين

خرجت إلى ميدان العمل أعزل لا أحسن الحرب ولا الضرب ، ويدخل المرء في الحرب يوم يدخل العالم كما قال فولتير . وما إن مشيت خطوات قليلة حتى وقف المثبطون في طريقي ، يحاولون صرفي عما عقدت العزم على التمحض له . وكانت تأخذني الصدمات فأنتقمها . وما أدري إن كان ما لقيت جلب لي نفماً ، أو عاد عليّ بضرر فيما استقبلت من الأيام . ومع هذا ما وئيت ولا تراجعت ، ولا قطعت خيط الرجاء من النجاح .

ما خرج ما نشرته لأول نشأني عن مقالات ، لم تصل إلى أكثر من أقوال مبتدئي ، وكان جمهور الناقدين من المشايخ غالباً ، يتطالون لأن يكونوا المهيمنين على كل ما له الصال بالدين والدنيا ، كانوا يقتابوني منفردين ، وقد يتفقون لي في الحضرة ، ومنهم من يستكتب الفينة بمد الفينة تقريراً باسمه ، يقدمه إلى صاحب السلطة ، ويحذره عاقبة أمره ، وبذلك كبروني في عيون الحكام أكثر من جرمي ، وألبسوني من خيالهم حلة تزيد على جسمي . ورأيت منهم من تراجعوا بمد حين ، وراعهما ما سمعوه من قوتي على حين لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زغاب له أمام بواشق كاسرة وعلم من عرفوا من أنفسهم العجز بعد ، فكفوا ألسنتهم وكفوني شرم . ومنهم من ظلّ يطعن في الاتّحايين حتى لا يقال إنه تراجع ، ومنهم من اعترف بقصوره ، وطلب أن يقدم في الدعوات ، ويدعى إلى الحفلات ، ويذكر اسمه في المناسبات !

توفر أحد المقدمين فيهم على الطعن عليّ في درسه في المسجد الجامع سنين ، لأنني لم أمكنه من إلقاء محاضرة في ردهة الجمع العلمي ، وهو لا يحسن أن يحاضر ، وبضاعته من الادب والعلم مزجة ، وادعى بأخرة

أنه قرأ ما كتبه في الاسلام فاستحسنه ، وأحب أن يجملني ببركاته من أصحاب الجنة ، وكان من قبل يتوعدني بالنار ، ولما رأي أسير سبر المؤمنين حديثه نفسه أن يمقد الصلات ممي ، وعزم أن يزورني ويتودد إليّ فما زدت على أن قلت للوسيط : ليحذف صاحبك هذا المدح الآن من قدحه فيّ أمس ، فاذا زاد القدح فأنا أسأحه ، وإذا زاد المدح فهو وشأنه ، ولا وقت لي لسماح مصانعات المصانعين ، ولا للدخول في محاحكات الماحكين .

وكان من أحدهم ، وهو مثل الشيخ السالف ، ضيق فكر وقلة بضاعة أن يزودني بآرائه في كل ما أكتب ، ويقدم فيّ تقاريره متبرعاً بالتجسس عليّ أكثر من خمس وعشرين سنة ، وما تعب ولا كف ، كان يطالع كل ما أكتب ويستعين ببعض طلبة العلم ، يستخرجون له الضار من كتاباتي ، والضرار في سياسة الدولة ، وفي الدنيا والاخرى ، قاتله الله ما أشد سلاطته وعيئه . وكان يكثر من إنهامي بالوهابية عند الاثراك ، ورأيت بعد سنين يثني في مجلس خاص على الملك عبد العزيز آل سعود ، وعلى الوهابية فقلت له : الحمد لله يا شيخ على أن أحياني حتى رأيته تثنى على من كنت لعلهم عليهم وعليّ اعواماً طويلة . وما أظنك الآن تتوقع من هذا المدح إلا أن تحج وتأخذ من صدقات ابن سعود ، فرأيت من تمام الحيلة أن ينقل عنك أنك من أجبابه . وكان الأمر كما قلت له . ذهب إلى الحجاز في الموسم بعد أن قضى حياته في التجسس ، ومات بعد مدة غير مأسوف عليه ، وكنت كثيراً ما أنصح له أن يكف عن الوشاية ، ويقطع عن الغيبة والنميمة فيقول : إذا انقطعت عن هذه الخطة لا يسقيني اهل هذا البلد الماء البارد .

وتألفت جماعة باسم الدين وألفوا مجلة دينية ، وأنشأوا يتسقطون لي ولاخواني الثورات ، ويقولونني ما لم أقل ، وولجوا كل باب للظهور بالنيل مني ، فكان صراعاً ظاهراً بين القديم والحديث ، وبين المجددين والجامدين ، ورجعوا بعد ثلاث سنين بصفقة المقيون ، وقد نفذت ثرتهم ، وفرغت

جيبتهم ، فأراحوا قراءهم من حشوم الذي ادعوا أنه حقائق ، متعزقين غيظاً لأنهم ما سمعوا كلمة واحدة في الرد عليهم . وكانوا ينتسبون الى العلم لما نجحوا في باب من أبوابه ، فودعتهم لما فقدتهم بمقالة «أعداء الإصلاح» تقرؤها في كتاب (القديم والحديث) وقال لي أحد أساتذتي إنني لم أكتب أشد منها ، ومنهم من تجسس بعدئذٍ للغريب على الغريب ، مقابل عرض تافه من عروض الدنيا . وهو الى هذا يظهر الغيرة على الدين . أسخِفَ به وأسخِفَ بمقول من يعتقدون صلاحه .

جانب الاتحاديون رجلاً مصرياً محكوماً عليه في مصر بعدة أحكام لجرائته على شتم قومه كان يمزج وجود مثله في السفهاء الهجائين ، يحفظ من معاجم الشتم كل قبيح مقذع . ولما أغدقوا عليه الذهب الوهاج واثته قريحته في اختراع أساليب التشني والتشهير . وكانوا لا يطلبون منه الا أن يقف مني ومن أصحابي ، في جريدة لهم سموها (المشكاة) ، موقف الهجاء . وظنوا لقلة تجاربهم أن الشتم سلاح قوي فعال ، وما دروا أنه سلاح العاجز الحق . فأشرت على أصحابي بالاعراض عما يلفظ به سفيه المشكاة . وكان يلفظ أنه يود لو أجنبناه بكلمة في جريدتنا أو في جريدته ، ومضت الايام وهرب المستأجر للتطاول على الاحرار ، هو وبعض من أنشأوا تلك الصحيفة السخيفة الى الاستانة ، فصادفني في أحد شوارعها ، فاقترب مني يخفض لي جناح الذل ، ويهش ويهش ، طالباً العفو عما بدر منه نحوي . فأكدت له أنني لم أقرأ شيئاً مما كتب ، فزاد ألماً وسب نفسه على أن كانت حملاته كصرخة في واد . وعهد الاتحاديون الى (ع . س) أن يمدهم بنوره في المشكاة ، فغذاها بزيتة المكر ، كما كان (ز . م) المصري الذي أعطى نفسه لقب باشا ، وهو يستجدي الاكف في القاهرة ، وأخذ الخلف يسير على قدم السلف ، يطمئن الطمن المبرح بمن يرسم له سادته الطمن عليه ، ويحمل على أبناء بلده ليتقرب من قلب الغريب . وتجسم لؤمه يوم برأني الحكمة مما كان أقيم علينا من الدعاوي . وكنت اعتصمت بمصر ، وأخي مسجون في الاستانة

بدعوى نشرنا قصيدة في الإصلاح ، لأحمد علماء المدينة الشيخ ابراهيم الأسكوبي ، كانت نشرتها بعض الصحف الشامية قبل نشرنا لها . فمأسس نشرها الأول ، ونحن أغلقوا صحيفتنا دون غيرها ، ورأيت (ع . س) يوم تبرئتنا ، يخاطب المحكمة ويهددها ويقول لها إنها لم تعرف من برأت ، برأت أعظم عدو للدولة وعدد سيئاتي .

ولما قرأت ما كتب قلت : هذا والله من أبشع ما رأيت من ضروب الوشاية واللاؤم . صاحب الجريدة مشرد عن بلده ، واخوه مسجون في العاصمة ، وجريدتها معطلة ، والكتاب اللبق يحاول نكبتنا أكثر مما نكبتنا ، ويطمع في أن يظهر لمن استخدموه أنه يحب الدولة ونحن نبغضها . وقد نفاه الاتحاديون في الحرب العامة الى الاناضول . ووصمته حكومتهم بالخيانة فذل . ودارت الايام واتيت بهذا الرجل إلى عمل يرفع منه واحسنت عشرته فقال لي احد رصفائي متمجبا ، كأنك نسيت ما كتبته فيك ؟ فقلت لعمرى ما نسيت وما عاملته بما عاملته به إلا مكافأة له على عنايته بالادب العربي في العهد التركي ، وهناك سر لا يعرفه إلا الخالص من الاصدقاء ، وهواني كنت أكثر السواد بمثل هذا النوع ، على تخالف بيننا في العقل والروح حتى لا يكونوا عيوناً علي وعلى ديواني فاستميلهم واتقي شرهم ، وما زلت مع صاحبي هذا حتى فرق الموت بيننا ، وقد ابنته يوم مات ، وذكرت مزاياه الحسنة ، واغضيت عن غيرها ، وما خسرت شيئاً ، والله أعلم من الخاسر منا .

وأذكر أنني ناقشته مرة واحدة ، وبالحرى أنني أجبت صاحب الجريدة على ما كان يحاول أن يجرّني اليه ، وكان يفيض على هذه الجريدة بآرائه ، فسولت له نفسه أن يثير الرأي العام ، أو أن يجعل للجريدة الخاملة التي يكتب فيها شهرة بين الصحف ، وأظنه كان يقصد الغايتين . كتب في تلك الجريدة يقول : إني ما قصدت بما كتبت الا إلقاء التفرقة بين الانصارى والمسلمين . فكتبت في الجواب على خلاف العادة : إني ما زلت منذ وعيت على نفسي ، أسمى للتأليف بين الطوائف ، وأدعو الى القومية العربية ، على ما هو باد فيها

كتبت ونشرت . ورجوت صاحب الجريدة أن يتباعد عن الخوض في هذه الموضوعات المؤذية . وكان صاحب الجريدة حذراً في البقاع الدززة وظهر في دمشق بمد مدة محامياً مؤلفاً صحافياً ، وهو أمي وما أكثر حظ الغريب عندنا ، وما أوفر الآمين يومئذ في المحامين والمؤلفين والصحافيين ، بل في المدرسين المتعممين والمتطبيين والقواد والولاة .

أوردت هذه الأمثلة من عمل الجماعات والأفراد في حرب الناشئة ، ومقاومة كل داع الى الإصلاح ، ورب سفيه كان يرزق من الطمن علي ، وبئست الطعمة . قلت يوماً للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد بالقاهرة : بلغ عدد الجرائد الأسبوعية الساقطة التي لطمن فيك نحو عشر صحف أما من وسيلة للتخلص منها ؟ فقال بيرودة قلب : دعهم يعبثون ولو بالطمن في . وأنا كنت شهد الله أحب أن يتعلم هؤلاء الطاعنون ولو بالطمن علي أيضاً .

طريقة التماس الشهرة بالتحكك بأربابها شائعة كثيراً ، وقد نامت في مصر ، وعهدي بها على حصّة موفورة فيها ، وأكبر ظني أنه كان لتطبيق العقوبات على السفهاء دخل كبير في قمعهم ، وقلّ أن رأيت في مصر والشام من اصحاب الأقلام على كثرة من رأيت منهم ، رجلاً اتخذ سب الناس وشتمهم سلباً إلى الكسب والشهرة فباء بغير الفقر ، ووُسم بغير الرفاعة وربع غير المقت .

كان في بيروت وكيل لبعض الصحف ، وكان من أتباع شيخنا الشيخ طاهر الجزائري ، وزين لشاب أديب الطمن في الشيخ قائلًا له إنه لا يشتر إلا إذا سلك طريق الخط من العلماء المشهورين . فكتب الشاب المغرور مقالتين في الطمن على الشيخ فأدى ذلك الى سقوطه وسقوط الجريدة التي نشرت له ؛ لأن فضل الأستاذ لا يطفأ بمقالة ، وأدرك المدركون أن غرض الكاتب أن يشتر على حساب الشيخ الجزائري ، حتى يقول العامة انها كالأمثال الأقران .

يحب الجمهور المطاعن ونلذ له ، ويشغف بالمباحكات مها كان لونها . واتى

زمن والجريدة التي تخلو من هذه المهارات لاتسكاد تقرأ حق ليضطرب أربابها أن يخلقوا موضوعات يناقشون فيها غيرهم ، ويتحينون الفرص لفتح أبواب المطاعن لتروج جرائمهم الكاسدة . وكان القوم يتلقفون الصحف التي ترى رواجها بالقذف في الأعراس ، كما يتلقفون اعز شيء عليهم ، وإذا نفذت أعدادها ، يدفعون في اقتناء النسخة الواحدة عشرة أضعاف ثمنها ، وأكثرهم يؤيدون فريقاً على فريق ، ويزينون لهذا ما ينكرونه على ذاك ، والجمهور مجنون ، ونعوذ بالله من جنون الجماهير .

النقد شيء والطعن شيء آخر . وقد رأيت أحداً من المنورين السع صدره لنقد الناقدين . ومن هنا جاء امساك النقاد عن النقد النافع اثلاً يزعج المنتقد عليه ، ويتخذ من ناقدته عدواً له . ورأى النقاد في مصر على عهدنا الأخير أن يدهن بعضهم لبعض ، ويسكنوا عن نقد ما ينتقد ، وفي النقد حياة المجتمعات ، والمنتقد يزيد قدره إذا ما تلقى الانتقاد بالقبول ، ولقد بلغت الفحة ببعض أصحاب النفوس الصغيرة أن توهمت أن كل أعمالها سديدة لالستحق إلا الإعجاب والتقريظ .

قال أحد علماء المشرقيات وكان قفى سنين في القاهرة إن من سوء حظ النقد في مصر أن معظم النقاد ينزلون العاصمة فتضطرم واجبات الجوار والمعرفة إلى أن يصانع بعضهم بعضاً ، ولو كانوا متفرقين في بلدان مختلفة لا يرى الواحد صاحبه كل يوم لجزروا على نقد من يجب نقده منهم ولما أصيبوا في هذا الشأن بحياء لاحتل له .

الصادق عنه عن العلم

لما ضعف العلم الاسلامي حاول بعض الامسر القديمة التي استحلّ
أبناءؤها الاستئثار بالمدارس والامواقف والوظائف الدينية بدون أن يكون
لهم شيء من العلم ، أن تبقى لهم هذه المنافع والمظاهر وقفاً أبدياً على الدهر.
وفكروا في أسهل حيلة تُديم عليهم نعمتهم ، فكان منها منع الشبان من
التعلم ، ليكون القضاء والافتاء وأعمال التدريس والوعظ والخطابة والامامة
مُحكَرَةً لهم ولا يُعقابهم من بعدهم . وعمن دأبوا على هذه الدعاية شيخان
من دمشق ، كان يعزّز عليها أن يتعلم إنسان ، وما كان عيشهما يطيب
إلا إذا صدّا الطلبة عن العلم .

وكان الشيخ طاهر الجزائري يكرهها كراهة عظيمة ، وسألته ذات
يوم عن سبب كراهته لها ، وعما حدث بينه وبينها فأدى إلى هذا المراء
العظيم ، فقال : إنها مازالا يحولان بين الناشئة وبين التعلم ، وبمعملها
انقطع أربعون شاباً عن طلب العلم . فقلت له : هذا حقٌ وقد حاول
أحدهما أن ينصح لوالدي ، وأنا في أول نشأتي ، ليخرجني من حظيرة
الدرس إلى التجارة . وقال له وأنا أسمع ، وهل ترانا نحن العلماء في
حالة حسنة ، وإن أحداً لِيُطلب العلم ثلاثين سنة ، وغاية ما يحصل عليه
راتبٌ ضئيل في إحدى المدارس ، أو إمامة في أحد الجوامع ، قد
لا يتجاوز راتبها المئة والخمسين قرشاً ، فإن كنت تريد الخير لبيتك ،
فالطلع ابنك عما مُشغَلاناً به قبله أعواماً ، وما عاد علينا بُغْيٌ
ولا رفاة .

وكان شيخنا يقول : لولا أن مُشغل كلا الأخوين أحدهما بالآخر
للإختلاف بينهما في قضية ، وكان الواحد يتغيب سنة في الاستانة للاهقة

دعواه ، ويعود في السنة التالية إلى بلده ، فيسافر أخوه فيتذرع بمثل ما تذرعه به شقيقه ؛ وظلاً على ذلك طول العمر ، ومآناً ولم يُدَّتْ في تلك الدعوي المباركة - لولا أن تُشغلا بانفسهما لنزل بالناس منها شرٌ كثير . وكبرتُ وصرتُ أكتب بالصحف ، وأصبح لي أصدقاء وأعداء ، وكان ذاك الشيخ الذي سوَّلت له نفسه أن يمتعني من ورود حياض العلم ، يوم كنت طالباً صغيراً ، ينظر إليّ نظر من آمن لمن كفر ، وأنا وكثير من أهل البلد نعرف مبلغه من الدين والأخلاق . قال لي يوماً : بلغني أن عندك خزانة كتب . قلت صحيح ما بلغك ، منها ما كان اشتراه والذي لي ومنها ما ابتعته أنا . فقال : أريد أن أزورها ، فقلت له : لا تزورها ولا تراها . قال : ولمَ ذلك ؟ قلتُ : لأنك تسرق الكتب على ما أكّد لي غير واحد ، ولذلك لن تراها . فبغت من قولي وتفارقنا ، فكان في شيخوخته يطمئن عليّ وعلى الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري وغيرها وأنا ما قلت له ما قلت إلا لأنه كان حقيقة يسرق صفحات وأحياناً كراريس من الكتب المدبجة المذهبة ، ومنها ما أخذ طرته . واستحل لذلك مجموعات دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وخزائن الأفراد في كل مكان دخله فشوه الأصل ولم ينتفع كثيراً بالفرع . وبعد ذلك يُعْتَبَر علينا ، لأننا لا نحترم هؤلاء الذين ينسبون زوراً إلى الخواص ، وعلم الله أن الدوام أكثر منهم عملاً بالدين ، والوقوف عند مناهي الشرع .

أخفق بعض القضاة

لم أر فيما رأيت من أنواع العداوات أشد من تمادي المشايخ ، ولا أكثر من غمط بعضهم حق بعض ، ولا أشد من تهالكهم على أبواب الأُمراء والحكام . ولقد رويت لي روايات عنهم ما كنت أصدقها ، لولا أن رؤاها لم يُعرفوا بكذب ، ولما أخذت أُلعرِف إلى الرجال رأيت ما هالني ، وأيقنت أن القليل منهم عرّفوا الكرامة وعزة النفس ، وهم الذين جعلوا صناعتهم بصنعهم علامة ضعة ، وكانت آية الشرف . ولقد أُصيبت جهرتهم بفرور ظنوا معه أن سلطانهم القديم على الملوك فمن دونهم يبق لهم بهذا الجهل وهذا الفساد .

قلت يوماً لعالم درس تاريخ الاسلام درس تَدَبُّر وعرف استخراج عبره : أما كان في العصور الماضية قضاة جاهلون فاسقون سارقون ، فكتب الأُدب تتعرض لذكر كثير مما كانوا يُشتمون به ، أليس مارُوي عنهم بصحيح أم صنموه للنكتة ؟ فأجاب : أكثر مارُوي في سيرة القضاة قديماً صحيح ، والجهل وسوء الخلق ما انقطع دابرهما من الارض ولكن إذا فرضنا أنه كان في المملكة الإسلامية ألف قاض في الدهر الثَّابِر ، وألف مثلهم في هذه الأيام ، فإن الأُلف السابقين كان فيهم عشرة فاسدون لا يصلحون ، أما الأُلف اللاحقون فالفاقدون منهم يُمدَّون بالشرات .

وأظنُّ السلطان بيلديرِم بايزيد الثَّاني هو الذي جمع قضاة مملكته وأمر بقتلهم لما ثبت له من قلة دينهم وتلاعبهم بالحكومة . فلما حقت عليهم كلمة العذاب لجأوا إلى أحد ندمائه ، ورشوه بمبلغ من المال ، فذهب إلى السلطان لابساً ألبسة السفر ، فسأله السلطان عن الداعي إلى اكتسائه هذه الكسوة فقال : إنه ذاهب إلى صاحب القسطنطينية — وكانت يومئذ بأيدي الروم —

لآتي من عنده بقسيسين يتولون القضاء في مملكة السلطان ، فضحك هذا وعفا عن القضاة ، على ألا يعودوا إلى سالف سيرتهم القبيحة .

وما زالت حال القضاة في تدهور ، المصر بعد مصر ، حتى كانوا هم السبب الاعظم في إدخال قوانين الغرب على الدولة العثمانية . والحكومة المصرية والإمارة التونسية ، لكثرة ما أساءوا إلى الشرع ، وعبثوا بأصوله وفروعه ، وبقلة دينهم وقلة علمهم ، أمست أحكام المحاكم الشرعية سلسلة من الخلل والخلل ، فأكرهت دول أوروبا الدولة الإسلامية على قبول قوانينها ، ظناً منها أن الفساد آت من الشريعة ، وما العيب إلا من جهل المنفذين لأحكامها ، وفساد أخلاقهم .

وقد شاهدنا تحسناً ظاهراً في قضاة الشرع ، لما أنشأت الدولة مكتب النواب في الاستانة ، وكان المتخرجون على أساتذته إلى الاستقامة والعلم أكثر ممن سبقهم ، وعلى مثل ذلك شاهدنا القضاة في مصر لما أنشأوا يختارون الصالحين وكان في الجيل الماضي يتولى الاغمار القضاء . أما أنا فقد بحثت سيرة من أمني أمرهم من القضاة منذ خمسين سنة فرأيت من نعمته مستقيماً قد لا يتعفف عن قبول الهدايا من أرباب المصالح .

قصة لطيفة وقعت لقاض من أهل دمشق كان في دومة من الفوطة . وكان مضحاكاً خفيف الروح والظل ، يحفظ كثيراً من النوادر والفكاهات ، أثناء ذات يوم رجل اسمه محمد عبد النافع ، أحد ظرفاء دومة بكتاب يقول فيه : إن الله خلقه بغير إرادته ، وأتى به إلى هذا العالم ولم يستشره ، وزين له أن يتزوج ففعل ، ورزقه أولاداً ليقرب بهم عيون والديهم ، فكانوا علة افلاس والدم ، وشقاء والديهم ، وإن فقره يزيد كلما زاد عدد أولاده ، فهو لذلك يلتبس من القاضي أن يجاب إلى محكمته العادلة المذمومة عليه ، وهو الله سبحانه ولعالم ليتقاضى وإياه . فرأى القاضي أن صاحب الدعوى من أصحاب النكتة ، فانتظر حتي أنجز أرباب الاشغال مراجعاتهم ، وأغلق باب المحكمة ، ولم يترك فيها غير الموظفين ، وطلب المدعي ، وهو والحاضرون يتكفون الجدة ، فسأله

من دعواه على الحق تعالى ، فقال : إن دعواه مكتوبة في القصة التي قدمها . فقال القاضي المدعي بعد أخذ ورد قليلين : هل تسقط دعواك يا شيخ ، إذا أعطيت من مال الله خمس ليرات وكيس طحين ؟ قال اقل . قال القاضي : أنا سائلك سؤالاً تحييني عليه بصراحة ، فقال : الأمر لسيدي . فقال القاضي : جاء هذه البلدة قضاة كثيرون قبلي فلم لم تتقدم اليهم بهذه الشكوى ، لينصفوك عن تدعي عليه سبحانه ؟ فقال له : لم يكن القضاة الذين يقدمون لثولي القضاء في بلدنا مثلاً لك ، كانوا يخافون منه ! فصنف الحاضرون لصفياً شديداً ، استحساناً لهذا الجواب . وربما قال القاضي في سره : إنه والله لصادق . فأنا أعلم من نفسي أن معظم القضاة لمهدنا لا يخافون الله ، وهم لصوص تحمل رؤوسهم عمام بيضاء ، وأن طعامهم وشرابهم ولباسهم ومسكنهم من أموال اليتامى والأيتامى .

وبلغني عن قاض ولي صفد فارثى قبل أن يصل إليها بمبلغ عظيم . ونزل مدة في دار من تناول مالاً من خصومه ليسلبه ملكه ويمطيه لمن وشاه . وقد خلف ثروة طائلة انفقها أولاده بعده في سفتين . كنت أقول وأنا أرى هذه الروايز من البشر المضر : إن المولى أخذ يجازي في العاجلة وينقد عند الحافرة ، وكان يجازي بالسيئة فيرجي العقوبة إلى الآجلة . ورأيت عشرات ممن جمعوا أموالهم من القضاء خصوصاً ، رأوا في حياتهم خروج ما كسبوا من أيديهم ، وهذا من الجزاء العاجل .

العلماء يحترقون

إلى عهد قريب كان العالم يحترق ويعيش من كسبه ، ويربأ بنفسه عن التماس احسان السلطان ، وأكل أموال الأوقاف والمدارس والجوامع . والناس يرون طلب العلم فريضة ، والأخذ منه بتصيب نافعاً في الدين . وقلّ أن يتطلب صاحبه مكافأة عليه في الدنيا ، وإذا نفعه في حياته جاءت الفائدة منه مُزْدوجةً ، وكل فرد يرى الأخذ عن المشايخ ، وإلقاء الرجال شرفاً عظيماً .

كان بنو العمادي مفااتي دمشق ، خرج منهم فقهاء وسلسل الافتاء في بينهم عدة بطون ، ولما ضعف الأحفاد عن اللحاق بالأجداد ، وأصبحوا وليس لهم من العلم إلا زيبه ، صارت تصدر عنهم فتاوى ضعيفة تدل على جهل بالشرعية ، وتناقضها أيدي العارفين ، ولعرض على الشيخ اسماعيل الحائك في جملة من تعرض عليه من أهل الفقه . وكان الشيخ اسماعيل حائكاً بالفعل ، وهو فقيه حنفي محقق مشهود له بين أقرانه ، ومعروف في بلده ، فبين وجه الخطأ فيها ، ويدل على الصواب ، والقول الصحيح ، أخذاً من المراجع والامهات المعتمدة . ويبلغ المفتي اعتراض الشيخ اسماعيل على فتاويه فيفضب ويفضب جماعته ، ولا يجدون للنجاة من تحككه بفتاواهم باباً

وكان من عادة الشيخ اسماعيل أن ينقطع يوم الجمعة عن عمله في الحياكة ، ويذهب في الضحى إلى الحدائق راكباً حماره ، يجعل في خرجه ماياً كل ، وكتباً يطالها . وكان في طريقه إلى زهته يجتاز بدار الفتوى غالباً ، فاتفق في بعض الجمع أن صادف الشيخ وهو ذاهب إلى البستان ، على باب آل العمادي ، ابن المفتي وأخاه فلم عليها . فقال له أحدها بهكم وازدراء إلى أين يا شيخ اسماعيل ، هل أنت ذاهب لأخذ منصب الفتوى ؟ فأجابه الشيخ : أفعل إن شاء الله . ومضى الشيخ في طريقه ، وتحول من سكة أخرى إلى داره فأخذ شيئاً مما كان

ادخّر من الدراهم ، ودفع لزوجته جانباً ، وسافر على حماره يريد الاستانة ، فبلغها في أربعين يوماً . وجعل يجلس في حانوت على باب الخان الذي كان نازلاً فيه . وعرف صاحب الحانوت وجيرانه ، أن هذا الرجل الشامي من العلماء . فسكانوا يحترمونه ويكرمونه . واتفق أن تُعرضت على الدولة من بعض الدول الأجنبية ، فتوى لعذر على علماء الاستانة الاجابة عليها ، وقص بعضهم على الشيخ اصة الفتوى ، وعجز العلماء عن معالجتها ، وحمل الشيخ على الذهاب إلى أمانة الفتوى ، ليأخذ السؤال منها ويحجب ففعل . ولما عرض ما كتبه على شيخ الاسلام أهجه ، فبعت يستدعيه ، وعرض جوابه على السلطان فسرّ كثيراً ، وصدرت إرادته بمنح الشيخ منحة عظيمة من الدنانير ، وقال لشيخ الاسلام : لا شك أن هذا العالم الكبير قدم الماصمة لغرض له يريد تحقيقه ، فأسأله ما شأنه وما يريد ، فقال الشيخ اسماعيل : افتاء دمشق وتدرّس المدرسة الفلانية والوقف الفلاني ، فكتب له المراسيم بها . وعاد شيخنا الحائك على حماره حتى بلغ دمشق . وحدثته نفسه أن يجتاز بيت العمادي قبل أن يدفع كتاب السلطان إلى والي البلد بنصبه مفتياً ، فصادف على الباب أيضاً شقيق المفتي ، فسأله بتألف أين كنت يا شيخ اسماعيل ؟ إننا لم نرك منذ زمن طويل . فأجابه ألمت كنت قلت لي أن آخذ الفتوى ؟ فأنا عملت بقولك فوجهها عليّ السلطان ، فسقط في أيدي بني العمادي ، وذهب الحائك العالم بالافتاء ، وخصومه يظنون أن منصبهم يدوم لهم بالجهل آخر الدهر .

أدب

دعاني السيد توفيق البكري نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية إلى تناول طعامه في سرايه في الحرنفش بالقاهرة المعزية ، فرأيتُه متكلاً منطقاً ، حلو الحديث ، يمت الى الأدب بصلة قوية ، وهو أقرب الى أن يكون شاعراً منه إلى أن يكون نائراً ، وأدنى إلى أن يكون أمير مجلس من أن يكون رجل سياسة . يحيد الفرنسية اجادة حسنة ، ويجمع بين معرفة القديم والحديث . وسألت عنه استاذة الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي ، وكنت أعلم أنه أخذ عنه كثيراً ، وأن بينها صحة وثيقة فقال لي : ما رأيت رجلاً فتح الله عليه بفلط مثل توفيق البكري في كتابه أراجيز العرب ، فهو من أوله إلى آخره مقلط . وهذا كلام غضبان ينطوي على كثير من المبالغة . ومما قال لي الشيخ الشنقيطي في ذاك اليوم : انه ليس في مصر من يفهم كلام العرب غير اثنين (الشيخ محمد عبده) و (أحمد تيمور بك) — وأظنه سمى شخصاً آخر نسبته — وهذا أيضاً من المبالغة بمكان .

بعث اليّ السيد توفيق البكري ذات يوم يستدعيني إلى داره لغرض مهم . فذهب الفكر حالاً إلى أنه يريد أن يستنصرني في مسألة له خاصة وقدم لي مبلتاً من الجنيهات لماونتي على اصدار مجلة المقتبس . فقلت له : يا صاحب السماحة — وكانت رتبته باية استانبول — إن المجلة رأس مال ودخلها يفي بخرجها ، وشكرته ، وظهر عليّ الانتباض . ثم التفت وقلت له : ثق أنت جريدة الظاهر — وكنت رئيس تحريرها — لا تدخل في مسائلكم وهذه مسائل لا تنفع القراء ، وليس من مصلحة الجريدة أن تخوض فيها . فسر بذلك ، وانصرفت ولم ألقه بعدها . كان السيد البكري على جانب عظيم من الذكاء ، وضع عدة كتب في الادب ، ونشر في الصحف والمجلات نظماً ونثراً ، وكانت عظيم الهمة في الطبع والنشر . وأحب أن تقرأ أسفاره في الشام ، فدفع اليّ عدة مجموعات منها أرسلتها إلى أصحابي .

والظاهر من حاله أنه كان يحب المفامرات السياسية ، أثر الجهد في مجموعته العصبية ، فاستلزمت صحته ان يصرف عدة سنين في مستشفى الأمراض العقلية في لبنان ، عاد في آخرها إلى مصر فمات فيها . ولو كان عقله على نسبة ذكائه ، لجاء منه رجل ينفع مصر كثيراً .

ليس من اشتهروا في القاهرة هم كل رجال مصر فهناك في الريف من اصقاع الفلاحين ، الوف من فضلاء القوم امتازوا بصفات طيبة ، وعلم جم ، وأدب غزير وهم لم يشتهروا ، ويذهبون من هذا العالم ولا يعرف بهم أحد ، وما زلت أهتدي إلى أناس من هذا القبيل كلما زرت بعض ضياع الوجه البحري والوجه القبلي وتحادثني نفسي أن بعض من اشتهروا كانوا مدينين بشهرتهم لزوجهم العاصمة ولا اعتبارات اخرى تنشأ بالضرورة في البلدان الكبيرة .

دعاني صديقي عبد المظي حسين عمدة الصوالم في الشرقية يومئذ (أي قبل أكثر من ثلاثين سنة) مع استاذي الشيخ طاهر الجزائري ، وصرنا عنده ثلاثة ايام ، فكان يزورنا كل يوم شيخ من قرية قريبة من الصوالم أنسيت اسمه واسم قريبته (عرفت بأخرة ان اسمه الشيخ حسين ابو مكي) وكان في نحو الستين من عمره ، يذاكر شيخنا في مسائل عويصة من العلم تدل على تبجهره في الشرع وشدة حرصه على نشدان الحقيقة ، فسألته عن ترجمته ، وأنا متعجب من حاله ، فعلمت انه يعيش من زراعته ، وانه درس في الازهر حباً بالعالم والنفقه بالدين فقط ، ولم يأت القاهرة منذ عهد الطلب ، وشهد الله اني ما عدت عليه خرافة واحدة على كثرة ما افاض فيه من الاحاديث خلال الايام الثلاثة التي لزمنا فيها وسلانا . ومن العجب الا يظهر مثل هذا العالم بالمظهر الذي يليق بعلمه ، ولا يعرف قدره حتى اهل قريبته . وكم في المغموين من هم افضل من النابهين .

وكم في العرس ابهى من عروس ولكن للعروس الدهر ساعد

أُمِّي صَاحِبُ أَفْهَرَقْ

تولى ولاية سورية على العهد العثماني وال اسمه حسن باشا . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، قيل انه كان مصارعاً عند السلطان عبد العزيز . وكان طيب القلب ، تقي السريرة ، لا يحب الحاق ضرر بأحد . هذا الوالي الأمي دفع عن سورية غائلة عظيمة ، لما جيء به من بغداد إلى دمشق ليحقق في قضية جمعية سرية كانت فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي . وكان دخل فيها نحو ثلاثمائة انسان فيما أذكر في دمشق فقط . وأدجنني رفيق بك المظم في جملة الداخلين على صغر سني يومئذ ، وأنا لا أعرف إلا من أدخلني ومن أدخلته بعدي . كان المشير عبد الله باشا قائد الجيش الخامس يؤكّد وجود الجمعية ، ويؤيد رأيه أحد كبار الاعيان ، واتفقا على أن الجمعية تبدي نشاطاً كبيراً في بث دعوتها ، وأن برنامجها مضر بكيان الدولة . فلما جاء حسن باشا كذب المشير وصاحبه تكديباً قطعياً ، وزيف تقاريرها إلى المايين ، وأطفئت المسألة وخفت صوت الجمعية وصار للوالي حظوة عظيمة في ولايته ، ولولا سياسته لخربت عشرات من البيوت ولا مثلات السجون بالمجرمين السياسيين ، هذا ما تم على يد أمي بصير . وكان هذا الوالي سأل كبيراً من علماء بغداد أن يدعو له فقال له : بِصُرِّكَ اللهُ بالعواقب ، فكان حقاً من البصراء بالمواقب .

كنت في تلك الاعوام كاتباً في قلم الامور الاجنبية فشهدت نبجلاً في ذلك الوجيه يكثران من زيارتي . وقال أحدهما يوماً هازئاً بمن يطعن على والده لظوعه في كشف سر الجمعية ان هذه وظيفته . وهو يفاوض المايين مباشرة بالارقام ، ولا تسلسل عن حراجه مركزي يومئذ ، وعما كان يليقه عليّ أحدهما من الاسئلة ، فكنت أتباله ، والتباله ينفع في مثل هذه الأحوال ، وأتخاشى معهما الخوض في شيء اسمه سياسة حتى مضت الأعوام الطويلة ، وما عرف صاحبائي أنني رب شبهة ولله الحمد . وأم ما كان إعجابان به أنني كنت متمكناً من الفرنسية . ومعرفة المسلم

الفرنسية في ذاك الدور كانت لعمد منقبة عظيمة . وقد طلب مني والي الولاية حسن باشا أن أدرّس ابنه النجيب هذه اللغة ، فكنت أكرر له اللفظة أربعين مرة فينساها في المرة الحادية والأربعين ، فغضبت على اليوم الذي تعلمت فيه هذه اللغة ، وما جنيت منها إلا لشهي الولاية عليّ كل حين تعليم أولادهم .

كان ذاك الوجيه شريك المشير في القول يتأصل حزب الاتحاد ذكياً منوراً غير محدود العقل . وكان بعض الاعيان يتنافسون في كسب رضا رجال الاستانة والتقرب من قلوب عمال الدولة في سورية ، وعلى ذلك كانت تتوقف مظاهرهم ، وبغير هذه الاساليب لا تحمي ثروتهم . وأذكر أن والدي ابتاع لي كتباً من إحدى التركات ، وكانت تباع التركات في الجامع الاموي بعد صلاة الجمعة ، وغرم فيها ألفاً وخمسمائة قرش فبلغ ذاك الوجيه الخبر ، وجاء إلى دارنا في المساء ، وكان يعرف والدي وله به صحبة فطالب إليه أن يعطيه الكتب أو بعضها على سبيل العارية فأبى والدي أن يدفعها إليه وقال له : إنني اشتريتها للصبي يتعلم بها ، ولا سبيل إلى أن أخرجها من خزائنه حتى لا أكسر شوقه . وقال لي بعد انصرافه : يا ولدي لو دفعناها إليه ما عادت إلينا .



اجتماعات مفيدة

كنا جماعة نجتمع على قراءة كتاب بعض ليالي الاسبوع ، يكون موضوعه الدين أو التاريخ أو الأدب ، فاذا فرغنا من المذاكرات العلمية نجرنا الاحوال إلى البحث في الشؤون السياسية ، وكان اجتماعنا في بيوتنا ، وفي مدرسة عبد الله باشا في غرفة محمد علي افندي مسلم ، وكان على جانب عظيم من الأدب والتهديب ، ومن أخصاء شيخينا سليم افندي البخاري والشيخ طاهر الجزائري روح تلك الجماعة . وكان يدعي صداقتنا كلنا أحد رجال الشرطة والظاهر من حاله أنه يحب الجماعة ويمشق الاجتماع بهم ، وان نفسيته ليست نفسية شرطي يعمل لحساب الشرطة التركية ، وينقل إليها أخبار جماعتنا ، وكثيراً ما كان بعضهم يفتح قلبه وينطلق حرّاً في كلامه . وأظن الكبار منا يومئذ بعلمهم وتجربتهم ما كان يحفى عليهم أمره ، وما استطاعوا دفعه عنهم خيفة أن ينهوا الانظار اليهم ، وعندها لا تؤويهم دمشق ، ويشتتون تحت كل كوكب ، وهذه القاعدة في تأليف قلوب أصحاب الاخبار كثيراً ما كان يعتمد اليها أصحابنا وأنا أناهم عليها مكرهاً ، فكنت أبش في بعض وجوه بعضهم وقابي بلغهم . كان هذا المجلس نافعاً من كل وجه ، كأنه مبعث دعاية إلى الحق والنور في عاصمة ماخلت في كل عصور الاسلام من علماء عاملين ، يرمون بصرهم إلى بعيد ، ويرون من واجبه أن يعملوا الائمة كل مفيد . وكان بعضهم ينظر إلى هذه الجمعية نظر الريبة ، وتذهب الظنون في الحكم عليها مذاهب ، وكلما كانت المطاعن توجه إلى القائمين بها يزيدون تألفاً وتماسكاً . وعقل الشيخين الرئيسين ردعنا ضربات أصحاب الاغراض ، وبقيا شر الدسائين والسائسين وكانت معظم الطاعتين يعرفون مايجري فيها من الاحاديث النافعة ، وما يلقي فيها من النكات والبدايع ، فتشتاق نفوسهم إلى الانضمام إلى أربابها ، ولا يتيسر لهم ذلك .

عرف بعض الأعيان أن جماعة أكثرهم من العوام ، يجتمعون عند أحد التجار مرة أو مرتين في الأسبوع ، برئاسة شيخنا السيد محمد المبارك وأن من جملة من يضم هذا المجلس استاذ الشيخ المبارك الشيخ طاهر الجزائري . وكان ذاك الوجه يكره الشيخ طاهراً كما يكرهني . فأرسل أحد خاصته ينبه على صاحب البيت الذي يختلف اليه الجماعة ، وكان تاجراً متمشياً متصولاً ، فقال له في سر ، إن الوالي غضب غضباً لا مزيد عليه على الشيخ طاهر وعلى تلميذه كرد علي ، فمن كلمها يستهدف لغضب الوالي وغضب الوالي من غضب السلطان ، وغضب السلطان من غضب الله ، فكلم التاجر شيخ الجماعة وتماهدوا في الحال على ألا يكلمونا — وأنا لم أدخل مجلسهم قط ولا أعرفهم إلا من بعيد — ولم يلبّ الدخول في هذه المؤامرة غير صديقين لنا السيد عبد الباقي الحسني ، ومحمد افندي الحكيم ، فأخذنا يتعمدان الاكثار من زيارتنا أكثر من قبل . وما لبث شيخنا المبارك أن تبين له تعجله في تصديق الدسائسين ، وأدرك كيف حيكت الدسيسة . وكان للشيخ طاهر يد طويلة في كشف المؤامرة ، وما خلت من نكات أضحكت جماعتنا وتلهوا بها زمناً . ذكرت هذا نموذجاً من أخلاق الأعيان .

وزار الشيخ طاهر على أثر الفتنة الفاشلة مدينة القدس ، وعاد بثني على أهلها ، فمجب الحاضرون من المبالغة في مديحهم ، وكلهم يعرف أن المقدسة لا يمتازون بشيء عن غيرهم من سكان مدن الشام . فسأله الأُمير شكيب ارسلان ، وكان حاضراً في الجلسة : يامولاي وما وجه تمييز اهل القدس عن غيرهم ، وأنا ارى ان اهل دمشق احرى بهذا الثناء . فأجاب الشيخ : اهل القدس جهلاء ويعترفون بجهالهم ، ويحبون ان يخرجوا منه ، فيحاولون ان يتعلموا اما غيرهم من اهل المدن الاخرى فانهم لا يدرون ولا يدرون انهم لا يدرون . فجعل المقدسة إذاً جهل بسيط وجهل غيرهم جهل مركب . فرفع شكيب يديه إلى السماء ، وقال : اللهم ارزقنا هذا الجهل البسيط . والشيخ يقصد من ذلك شجذ الهمم ، والقاء المنافسة بين البلدان لتب نحو العلا .

شعراؤنا

الشعراء الخمسة المجمع على تقدمهم البارودي فصبري فحافظ فشوقي فمطران .
كان البارودي مجدداً ديباجة الشعر الحديث وكان صبري مثال الرقة في الشعر
وحافظ آية الجزالة والوطنية الملتهبة وشوقي أمير الشعراء حقاً خاض في
موضوعات لم يخضها أحد قبله من شعرائنا ، ومطران أدخل في الشعر العربي
روحاً جديداً وكانت آية الإبداع في كتابته وشعره وأحسن ما به أنه
الشامي الوحيد الذي نزل مصر وتمصر وما عدت عليه غلطة فكان مخلصاً
لوطنه الثاني إخلاصه لوطنه الأول . وإذا قلت ان صديقي الأبر خليل
مطران هو أول من رفع رأس الشامي في مصر وكان مثال المروءة والفصل
لا أعد مجازفاً .

أما شعراء الشام والعراق فكثير عددهم ومن قرأت من المتأخرين شعرهم
واعجبت به خير الدين الزركلي بشارة الخوري فؤاد الخطيب شفيق جبري
خليل مردم بك عمر أبو ريشة محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) ومن العراقيين
رضا الشيباني معروف الرصافي جميل صديقي الزهاوي وكل قصائد هؤلاء
النوايع مما يرقص ويطرب ويعلم ويهذب .

شعر أصبع غيراً

وقع في ملك الخديوي اسماعيل جزء عظيم من أراضي مصر رأى أنها تحتاج إلى
ترعة يروها وكان أكثرها ما عرف الرعي منذ عرف التاريخ وأهلها يموتون بقرها
عطشاً والنبل على مقربة منهم فعمد الخديوي إلى الطرق التي ما عرف الناس
غيرها إلى ذلك العهد وهي السخرة فسخر الفلاح وكانت السياط تنال على
أجسام الفلاحين وهم يفتحون لغيرهم ترعة لا ينالهم منها أدنى خير وتقلبت

الاحوال وتنازل اسماعيل عن عرش مصر وكان الاحتلال فرأى اللورد كرومر مصالح مصر أن هناك أراضي واسعة ربما بلغت نحو نصف المزرع من أرض القطر المصري يومئذ وكان اسماعيل عجز عن ادارتها وما كانت لتفل له ما ينفق عليها فاستعان بالدائنين من الافرنج فما هي إلا أعوام حتى آلت إليهم ملكيتها وهم أيضاً ما عرفوا كيف يدبرونها . فكان رأي كرومر هو الصواب قسمها وباعها من المصريين فعاد إليهم ملك كان خرج من آبائهم بطرق غريبة وانتفعت مصر كلها بترعة الابراهيمية وهي ترعة صناعية طولها ١٥٠ كيلو مترًا تمتد على وجه الارض بعض الاحيان تمتد من ديروط إلى عمل اسبوط إلى الجزيرة في حيطان القاهرة ، أصبح ذاك الشر بعد نصف قرن خيراً لمصر .

فقيه السياسة الفالى

احتفلت الجمهورية السورية بمرور سنة على وفاة الزعيم العظيم السيد سعد الله الجابري رحمه الله واشتركت البلاد العربية بهذه الذكرى ذكرى عظيم خدم استقلالها .

وقد تلي في الجامعة السورية مقر الاحتفال من ضروب المظوم والمنثور كل جيد واثبتت الامة أنها تقدر رجالها أقدارهم .

خرج صديقي! سعد الله من الدنيا ولم يخلف سوى ثيابه واسماً لا يبلى وكان شقيقه الاكبر الصدر المقدم السيد فاخر الجابري هو الذي يتولى الاتفاق عليه لأن ماتؤديه اليه الامة ما كان يكفيه للصدقات أما أجور القنادق وسائر نفقات الفقيد الباهظة فكان يسدها السيد فاخر وما زال بنو الجابري في حلب منذ أيام الترك يحملون مشعل الوطنية العربية وقد عانوا في سبيلها أشد الآلام وما اتوى لهم عصب وظلوا على ما توجبه المروءة قدوة من أحب وطنه وعرف واجباته .

ما يغلب على مدن الشام

عنوان مستغرب وأغرب منه الحكم الذي نحكم به الآن في موضوع يصعب الخروج منه واعني به الغالب على كل مدينة والظاهر من التجانس في كل بلد . فاهل دمشق لاكلة فيه إلا للمسلمين وسائر الطوائف تتبع لهم في السراء والضراء وأهل حمص يشترك مسلموم ومسيحيوم مشاركة قوية لان اكلتنا الطائفتين غني وله رجال وأهل حماة لاشأن فيه لغـير المسلمين وأهل حلب يتقاسم المسلمون والمسيحيون السلطان شق الامة ولا أرى أجمل من تجانسهم واحترام بعضهم بعضاً وهذا قديم فيهم وبق متسلسلاً في أصولهم وفروعهم إلى اليوم . لذلك وقى الله بـلدهم شر الدسائس السياسية فلم تقم بها مذبة ولم يكـد يمتدي مواطن على مواطن كما حصل في دمشق وبيروت سنة الستين وبعدها وقبلها وأهل طرابلس نموذج المواطنين النخلص الوطنية الصحيحة وان كان أكثرهم مسلمين لايشعر كل ساكن فيها إلا أنه أخ لمواطنه حقيقة وأهل اللاذقية ديمقراطيون بكل ما في الديمقراطية من معنى شريف كأن صنيهم هذا تكفير لسيئات الارستقراطية المتأصلة في جبالها وأهل بيروت كسائر المدن التجارية في حوض البحر المتوسط مشاغل بتجارهم لانهمهم السياسة إلا إذا مزجوها بالتجارة والتجانس نقل فيهم . ولما كان المسيحيون أكثر كمالاً كانوا بالطبيعة المسيطرين على المسلمين وإن كانت الاغلبية في لبنان للطوائف الاسلامية وفي يافا الكلمة الاولى للمسلمين وفي القدس وتل أبيب لليهود وكذلك يقال في حيفا . وعكا وصفد اسلاميتان والناصرية نصرانية ونابلس وغزة اسلاميتان وهكذا كل بلدة يغلب عليها السواد الاعظم سنة الله في خلقه .

انصاف آلهة

كثيراً ما انتقدت في باطني ما أراه من اعتزال بعض أعضاء الاسرة المالكة في مصر يشيخون بوجوههم عن الرعية كأن لسان حالهم أنهم من عنصر غير عنصر الامة التي هم بعض أفرادها وما ميزهم عنها إلا كون جدم الاعلى كان له الفضل الاعظم على مصر واشتغل لمصر فقط لانفسه خلافاً لاكثر أخلاقه . نعم اشتغل أكثرهم بانفسهم فما أغنوا أنفسهم ولا أمتهم على نقيض ما كان من الامير عمر طوسون رحمه الله فان هذا من الشذوذ فيهم بسيرته وهديه . ويسرني أن بمض أبناء هذه الاسرة الكريمة طلقوا العزلة في العهد الاخير واختلطوا بسواد الشعب وعدوا أنفسهم خدمة للعملة وأرباب الصناعات والحرف والطبقات التي يسمونها النازلة وهي سواد الامة والحجر الاول في بنائها ، والرجاء أن بحري سائر أفراد البيت الملكي على هذه الطريقة لينفعوا وينفعوا . وأنا على حساب نفسي آليت ألا أسأل عن أخدم وكان صديقاً لي ويظهر لي التودد العظيم إذا قصده واجتمعنا . ولكن ما كان يسأل عني ولو غبت عنه سنين فهو من الضرب الذي يجوز أن نسميه انصاف الالهة كأنه نسي إن ما كان يمثل في الماضي لايتأتى الآن تمثيل مثله وأن القلوب لا تستمال إلا بالمطاف . وان كل إنسان في غنية عن الآخر مادام البشر كثيراً عديدهم . وما جزاء الاحسان إلا الاحسان ، وإن من لا يعمل الخير بدافع نفسي لا يجمله في نظر الامة شيء .

التطوير في المقالات

زرت الاستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ في إدارته فجاء ابنه محمد فقلت له أريد أن ألفت نظرك إلى المقالات الأدبية التي تكتبها في البلاغ كل اسبوع فانها مطولة جداً وما اخال احداً يقرأها واللغة العربية لغة الایجاز وأنت لا تكتب قصة ولا رواية تتوسع فيها لتأخذ من وقت القراء فهلا عودت نفسك الاختصار ما أمكن فلو كتبت ثلاثة أعمدة بدلاً من ستة لكان الأمثل بك ولماذا لا تقتدي بذلك وإيجازه في أدق الموضوعات السياسية وقد كان بطريقته هذه العامل الأول في اسقاط وزارة من أرسخ الوزارات واكفاءها فقال عبد القادر حمزة اسمع يا بني نصيحة الاستاذ الحكيمه واجملها منهاجك في حياتك الصحافية تنجح بحول الله .

الرافعي مؤرخ المصمر

طالعت كل ما خطته انامل الاستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي في تاريخ مصر الحديث فرأيت امانة المؤرخ وبحت العالم ونظر السياسي متجلية في كل صفحة من صفحات كتبه . ولقد حاول بعضهم ان يكتبوا في تاريخ مصر ومنهم حملة الشهادات العالية من جامعات الغرب واسانذة في جامعة مصر فما افلحوا وكانوا ان تمت لهم الادوات تخونهم التجربة فينقلبون نظريين لا عمليين ومنهم من عد التاريخ باباً من أبواب الرزق فكتب تاريخاً في سيرة بعض الولاة المتأخرين في مصر كان في كل صفحة ينادي على نفسه بالغلو والمراوغة ومنهم الافاقون أشبه بمراسلي الصحف اليومية لا يهمهم ان يكذبهم الواقع ولا تحمر وجوههم إذا انكشف كذبهم ولذلك حق لي أن أقول أن حبيبي السيد الرافعي هذا هو مؤرخ المصمر الحديث في مصر بلا مرأى بل مؤرخ الاقطار العربية لأننا لم نطلع على تواريخ لها تروي الغلة من كل وجه وإذا جود بعضهم في ناحية فالمعرقون أوفر عدداً على مارأيت .

تمثال تيمور

لقيت اسماعيل باشا تيمور في قصر عابدين وذكرته بما اقترحه يوم ذكرى والده في اوبرا مصر (فبراير ١٩٤٥) من اقامة تمثال له وحضنته على العناية بهذا الامر المهم الذي يحفز الشباب إلى السير على أقدام الشيوخ فبكى وقال لي لم أجد أحداً وفي لوالدي مثل ما وفيت له أنت فأجبتة لو كنت مت قبل أبيك لقام نحوي بأكثر مما فقت أنا نحوه . بدأت مصر باقامة تماثيل للسياسيين الوطنيين وهي بعيدة اليوم عن اقامة تماثيل للعلماء العاملين ولو كانوا من عيار أحمد تيمور باشا قضوا حياتهم كلها في عمل الخير ونشر العلم وما فكروا فيما سوى ذلك .

أما الاقتراح فقد كتبتة إلى صديقي الشيخ خليل ثابت بك رئيس لجنة الاحتفال ورئيس تحرير المقطام الذي جعل من هذه الجريدة مدرسة سيارة لعلم قارئها سياسة الدول والامم ولا لطالعه بغير المعلق .

عزيزي الاستاذ خليل بك ثابت المحترم

تفضلت وطلبت اشتراكى في إحياء ذكرى صديقي العلامة « أحمد تيمور باشا » رحمه الله . وإذ قد سبق لي أن دونت كل ما عرفتة من سيرته الخاصة والعامة لم أرَ الآن أن أشغل الناس بحديث معاد . وغاية ما أرجو أن ينجلي اجتماع يوم الذكرى عن تحقيق أمنية من عرفوا جهاد تيمور العظيم في خدمة الادب وذلك بطبع كل ما خطته يمينه من كتب ورسائل ومقالات وتعليقات . وإذا صحت النية على البر بعلم الاعلام فخبر ما يكون منه لتعليم المصريين أن يقام له تمثال ينصب أمام مجمع فؤاد الاول للغة العربية عنواناً على الاعتراف ببض أيادي ابن مصر البار على هذه اللغة وعلى تاريخ الاسلام . والسلام عليك أخي

محمد كرد علي

الشاميون في مصر

كتب إليّ أحد شبان الدمشقيين من نزلاء مصر ، وأنا في تحرير « المؤيد » ،
يرجو أن أعاونه في الجريدة على تأليف جمعية سورية اسلامية تتولى من الشاميين
في القطر المصري ما تتولاه جمعيات البر والاحسان التي يؤلف مثلها النزلاء الاجانب
فنصحت له أن يعدل عن هذه الفكرة لأن الشاميين المسلمين في مصر ينزلون على
اهلهم وعشيرتهم ، اما غير المسلمين من اهل الشام ، فان شعار بعضهم بالغبّة في
مصر فذاك لأن منهم من جاؤا القطر واستخدموا في اعمال آلت المصريين ،
كوظائف الامن العام وغيرها (ومنهم افراد كانت لهم علائق غير محمودة مع
ارباب المقامات العالية خلفوا بها الوفاً من الفدادين وعقارات كثيرة ، وتمتعوا
بأضخم الالقاب) فأبغضهم المصريون واستثقلوا ظلمهم .

ولما نشر هذا الرأي حملت عليّ كل جريدة فيها يد للبناني ، وانحوا عليّ الحياء
شديداً ، وزيفوا اقوالي ، وعتبوا عليّ أن وصمتهم بما وصمتهم ، فحمدت لهم
تماسكهم ودفاعهم عن ابناء مذهبهم ، وتمنيت لو كان المسلمون في كل ارض على
مثل هذا القدر من التعاون . وما انتقذني من ايدي المجرمين الذين كتبوا فيّ
ما كتبوا إلا الشيخ طاهر الجزائري واحمد زكي باشا وما قاله زكي باشا في معرض
الدفاع عني ، لينقذني من مخالب المهاجمين : إني لم ارزق حظاً من التعبير فيما كتبت
فبدت مقاتلي .

وحقيقة اني ما زلت اكره التمييز بين سوري ومصري ومغربي ، لمضرة
هذه التفرقة بين شعوب لا فارق بينهم في الحقيقة . ولقد زرت مع بعض اصدقائي
السوريين ناديهم في شارع وجه البركة بالقاهرة فأنتكرت على جماعته تسمية ناديهم
بالنادي السوري وعددت هذا هضمًا لحقوق مصر في مصر . وزاد انكارني لما
عرفت انهم ما ادخلوا منهم احداً من المصريين ، بدعوى ان السوريين المسيحيين
يأتون مع نسائهم إلى النادي ، والمصريين يحضرون وحدهم ، فقلت لصاحبي : إنكم

بذلك لسيئون لانفسكم اكثر مما لسيئون للمصريين ، فان تباعدكم عنهم يضركم وقد لا يضرهم ، اما وقد هاجرتم من بلادكم هجرة قطعية ، ومنكم من هاجر من مئة وخمسين سنة ، مثل اجدادك انت (اي مخاطبي) فلا معنى للاحتفاظ بالثوب القديم بل حسبكم الجديد وعليكم العناية به ، حتى يطيب العيش مع اهل القطر بامتزاجكم بهم فتفيدون وتستفيدون . ولاني اعرف رجالاً من الشاميين قضوا في مصر اربعين سنة واغتنوا فيها وتناسلوا ، وعظمت مظاهرهم ، وما عرفوا من المصريين إلا ظواهرهم ، فأبي جفاء اعظم من هذا الجفاء ؟ .

ولطالما تأملت نفسي في مصر والشام ممن ينتمي نادياً او جمعيه يسميه او يسميها بالكاثوليكية او المارونية او الارثوذكسية او القبطية او الاسلامية او العلوية او اليهودية ، . وكل ذلك تفرقات لا معنى لها في هذا العصر .

ظلّ المصريون اي سوادهم الاعظم إلى عهد قريب يتمتدون ان الشاميين ليسوا سوى اللبنانيين الذين جاءوا مصر ، وتاهوا وباهوا على عهد الاحتلال الانكليزي ، ذلك لأنه قلّ المهاجرون من مسلمي الشام من الطبقات الصالحة ، ولما هاجرت طبقة راقية من المسلمين ، أدرك المصريون أن الشام على غير ما كانوا يتخيلون ، وأن لبنان جبل من جبال الديار الشاميه اقتضت سياسة أوروبا ، وتنافس البرستانتية مع الكاثوليكية أن يتعلم قبل غيره . وأن في رجال الاسلام أناساً يفكرون تفكيراً صحيحاً ، وينشرون الجرائد والمجلات ، ويعرفون معنى المدنية ويتذوقونها ويدعون اليها .

قال أحد المفكرين إن مصر لم يجهها من الشمال إلا فاتح . ومن الغرب إلا صاحب طريق ، ومن الجنوب إلا خادم ، ومن الشرق إلا تاجر ، وهو كلام في جملته صحيح يثبت الواقع ، فالسوريون أتوا مصر تجاراً ولذلك يستغل ظلمهم بعض المصريين . وقد ادعى عميد الاحتلال لورد كرومر في بعض كتبه في مصر أن الجالية السورية فيها أرقى من جميع الجاليات بتهذيبها وترتيبها ، وأظنه تشيع لهم بعض التشيع ، وقصد بهذا الثناء مكافأته على حسن خدمتهم لدولته ، فحكم على المجموع بما لقيه من رقي أفراد .

لولا لائحة رياض باشا التي تحظر على غير المصريين الاستخدام في وظائف الحكومة المصرية إلا بشروط ، حتى لا يحرم المصريون التوظيف ، لزاد عدد السوريين كثيراً في خدمة مصر . وعادت هذه اللائحة مع هذا على السوريين بفائدة عظيمة ، فتعلقت همهم بالتجارة والزراعة ، وانصرفوا عن الاستخدام إلى الاعمال الحرة فاعتنوا ، وجاء زمن وقد بلغت ثروتهم في مصر خمسين مليون جنيه أو عشر ثروة القطر المصري ، وذلك قبل أزمة سنة ١٩٠٨ .

ومما كان يؤلم المصريين دعوى بعض الشاميين أنهم حملوا إلى المصريين النور والعلم ، وكانوا من قبل في عمية وجهل ، لا يقيمون وزناً للمدنية . وهي دعوى غير صحيحة كروها بعض اللبنانيين كثيراً ، وما زالوا يكررونها حتى اعتقد السذج من بينهم بصحتها ، فإن المصريين ، والتاريخ ناطق بذلك كانوا سائرين نحو المدنية قبل الشاميين بمشرات من السنين ، وكانوا يأخذون أنفسهم بمذاهب التعلم والتربية منذ فجر القرن التاسع عشر ، وقد أنشئت مدرسة الطب واللغات عندهم منذ أكثر من مئة وعشر سنين .

والشام لم يمد فيها شيء من علوم الحضارة الحديثة قبل أن وافاها المرسلون الأجانب بكثرة ، عقب مذابح سنة ١٨٦٠ ثم انشئت المدارس في لبنان ، ومن أهله من تعلموا في مدارس الاميركان البرستانية ، ومنهم من تعلموا في مدارس الفرنسيين الكاثوليكية . وبالاحتلال الانكليزي ١٨٨٢ كثر تلمذ اللبنانيين إلى مصر ، فمنهم من كان يستخدم في الحكومة ، ومنهم من يترجم في الصحف ، أو يستخدم في بعض المصارف والشركات كاتباً أو محاسباً أو وكيلًا أو مفسراً ، وكان المصريون في ذاك العهد يقبلون على التوظيف في الحكومة ، ويفضلون الوظائف على غيرها من مذاهب المعاش ، ومنها الصحافة .

فلما امتلأت الشواغر في الدواوين ، انقلب المصريون نحو الصحافة فأنشأوا جرائد ومجلات لا تقل بمكاتها ومظهرها عن الجريدتين اللتين عاونتها فرنسا وانكلترا ، ولا عرت المجلتيْن التعليميتين اللتين عاشتا بمعونة وزارة

المعارف . وما كان « المؤيد » و « اللواء » من حيث التحرير يقلان
يومئذ مكانة عن « الأهرام » و « المقطم » ، ولا تقل مكانة مجلة
« الثقافة » و « الرسالة » اليوم عن مكانة « المقتطف » و « الهلال » ،
فليس من الانصاف والحالة هذه أن يقال : إن الشاميين علموا المصريين ،
وقد سبق المصريون إلى إنشاء الصحف والمجلات ، وما حال دون اطراد
صدور ما صدر منها إلا داء التوظف ، وما زالت عقابله متجلية فيهم
إلى الآن ، وهو من أمراض مصر وقاها الله منه .

الاشتغال بالصحافة

بدأتُ أقرأ الجرائد العربية في الثالثة عشرة من عمري ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية . وبعد حين اشتركت بجريدتين (بيروت) الأسبوعية و (لسان الحال) نصف الأسبوعية . وما كان يصدر في دمشق إلا جريدة (سورية) الرسمية الأسبوعية ، وهي ذات وجهين ، وجهان منها بالتركية ، وجهان بالعربية ، وعريتها مترجمة عن التركية ، مثال الركافة وضمف التركيب ، تنشر فيها الأوامر الرسمية ، وما يسرّ الوالي من أنباء حكومته وإعلانات المحاكم .

وأولمت بمطالعة لسان الحال لأن فيه أخباراً طريفةً ممرّبةً عن الانكليزية ، وفيه مناقشات ومساجلات وأدييات ، واشتركت لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة افرنسية أسبوعية تصدر في باريس اسمها (صديق الريف) L'ami de la Campagne ، وكان أهم مباحثها الزراعة وما إليها ، تحجبُ سكّنى الأرياف لسكان المدن ، وفيها من كل فن خبر ، فشُفّتُ بدرسها ، وكنتُ أقرؤها قراءة تدبّر لا قراءة تفكّه ، وقد ألصفتها مرتين وأكثر ، حتى يجيء العدد الجديد . وأطالع بمض الصحف التركية الصادرة عن الاستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية . وقد أقرأ بعض المقالات التي تروقي أكثر من مرة ، ولا سيما مقالات كبار الكتاب المفكرين في السياسة والاجتماع . وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد .

ما كنت أظن أن هذه البُداءة تنهي بي إلى الغرام بالصحافة ، وبلغ بي الحال أن أحرر أولَ جريدةٍ ظهرت في دمشق ، وأطرد صدورها مدة ؛ واسمها « الشام » ، كانت تصدر أسبوعية لصاحبها مصطفى أفندي واصف (الشقلاي) ، مدير مطبعة الولاية ومدير إطفاء الحريق .

وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريدته . ولم يكن يحسن الكتابة بالعربية فانكل على صهره أديب أفندي نظمي (الطنماحي المصري) ، وكان هذا يلقب بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لأديب إسحاق ، ويصوغ من عنده بعض جمل . واتكل أيضاً على إسماعيل أفندي النابلسي من أبناء الأعيان . وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب ، ولا أرب له من تحرير الجريدة إلا أن يتخذ منها مساعداً إلى الترقى ، ووسيلة إلى التقرب من قلوب بعض من يهمه التقرب منهم . وكلا الرجلين كان في القضاء ، ويعرف القوانين والأنظمة المتعارفة ، ويتكلم بالتركية ويكتبها . وإسماعيل النابلسي من أحفاد الشيخ عبد الغني النابلسي عالم دمشق في المئة الثانية عشرة .

تملَّ صاحب « الشام » على ما قال من إعانت هذين المحررين له ، فهدى إلي بتحرير جريدته . ولما أخذت بالنقل عن التركية والفرنسية شعرت بخطورة العمل الذي وسد إلي . وأشد ما كان يؤاني كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الفيض حتى يؤذن للجريدة بالطبع . وما كان مراقب الجريدة غير صاحبها وهو من عمال الحكومة ، ومن اعرف الناس بما يرضيها وما يغيضها ، وغاية ما يتوخى ان يرضى الوالي عنه ابداً . والصعوبة في المراقبة انها لا قاعدة لها يرجع إليها ، وليس لها قانون ثابت معروف ، وربما كتبت القطعة لظن انها لا تروق المراقب فيقرها ويستحسنها ، وقد تكتب غيرها وانت لا ترى فيها ما يقال ، فتحذف . فلا قاعدة في المراقبة غير ذوق المراقب وهواه ، ولا قانون إلا ما يستمدّه من روح الحكومة الاستبدادية . واكثر ما يجب ان يتوقاه المحرر ذكر شيء يمس السلطان من قريب او بعيد ، او يمس أعماله ورجاله وجيشه وإدارته وسياسته ، وألا يشير إلى مسألة تاريخية فيها ذكر الخلافة والحرية والشورى والدستور وقتل الملوك وخطمهم .

ولطالما تأملت نفسي لحذف صاحب الجريدة المقاطع الكبيرة مما أكتب ،

وأحياناً المقالة برمتها . أما حذف الأخبار الصغيرة فأيسر ما يفعل . وقد يحذف ما يكون منقولاً من صحف الاستانة . فإذا سأله عن السبب في ذلك قال : إن هواء سورية غير هواء فروق عاصمة الملك . وكنت أسمع تعليقات وتمحكات ما أنزل الله بها من سلطان .

وددت منذ السنة الأولى أن أستعني من تحرير هذه الصحيفة إلا أن استاذي كان يقول : إن تحريرك لها بمثابة المشق (يمشق) عليه الأولاد لتحسين خطهم . وعلى هذا بقيت ثلاث سنين في تحرير (الشام) فلقيت من الصحافة عرق القربة لأول أمري ، وبعد ذلك اتصلت بمجلة « المقتطف » المصرية وأخذت أوازر فيها . وكان صاحبها شكاً إلى صديقي الأمير شكيب أرسلان أنه مضطر إلى أن يكتب المجلة كلها ، وحجمها يزيد على مئة صفحة في الشهر . وبكتابتي في هذه المجلة امتدت شهرتي . وكما طال المهمل بالصحافة زدت بها ولوعاً حتى بلغت منها الخلو والمر في مصر والشام .

ربّ شرٍّ أنتج خيراً . فالرقابة على ظاهرها شر محض ، وقد نشأ لي منه بعض الخير ، ذلك أني مرنت بها على البديهة والارتجال ، لأن تلك المقاطع والمقالات التي يحذفها قلم المراقب بحبره الأحمر ، يضطر المحرر أن يملأ مكانها بأشياء من نوعها ، تكون مقبولة في ذوق المراقب ، والجريدة لا يجوز أن تشطب منها سطور وأعمدة ، وتنتشر للعلا كالمين المقلوعة . والوقت ضيق ، والبريد حافز ، والطابع يرجوك المجلة ، والقراء يتوقعون تناول جريدتهم في وقت صدورها ، وإلا جاءك بعضهم إلى المطبعة ، يسأل عن سبب التأخير .

ربما قال القائل وأنت لماذا تتصعب هذا التصعب ، وتتمصّب هذا التمسّص ، اكتب ما يجوز المراقب ، وتوقّ ما تعرف أن مصيره الحذف ، وسر بما يمكن لسترح وترح . وهذا كلام يقوله من لم يمش في ذاك الجو المشبع بالكتافات ، ولا يفوتنا أن المراقبة من أشكال المشاكل ، وما هي إلا صراع

بين الحرية والاستبداد ، وناهيك به من صراع ، والقابضون يومئذ على زمام الامر يهزأون بالحرية وأنصارها .

ومما يضحك أن صاحب الجريدة طمع في طبع محرر جريدته الناشئ بطابمه ، فبشرني وهو فرح جذلات ذات يوم بأنه توسط لي مع الوالي فاستكتبه مقترحاً (إنهاء) لي برتبة ، وظن أن هذه البشارة من أعظم ما يرفه إلي من البشائر . وأكبر نعمة أحصل عليها في ذاك الدور ، فقلت له : وأين الكتاب الذي يطلب لي فيه هذا التشريف ؟ قال أرسل مع البريد إلى الاستانة . فقلت له ، وأنا ممتعض امتعاضاً عظيماً : أعلم ولا شك أنني لم أسمع لضرر إنسان في حياتي ، وإن كنت أنت قد سميت اضري باستحصال رتبة لي ، فسأضربك في مقاتلك وأنا أعرفها ، بحيث لا تقوم لك قائمة ، وعندها خاف صاحبي سورتي ، واستعاد الكتاب من البريد أو من الديوان بواسطة جماعة الوالي ، ونجوت من تقلد الرتبة ولُبس القصب ، وكان المدير يستغرب مني هذه الحركة ، وربما عدها في باطنه رقاعة ، لأن اسمين بالمئة من عمال الحكومة وغيرهم إذ ذاك كانوا مخدرة أعصابهم بهذه الخيالات ، يبذلون ماء وجوهم ولا ينجلون في سبيل أخذ رتبة ووسام وقد يدفعون في ذلك الرشاوى والهدايا العظيمة ، وكان بعضهم يرى أنه لا معنى للعيش بدون شرف السلطان !

كُتبت أول مقالة في مجلة « المقتطف » شيخة المجلات العربية في القاهرة وكان موضوعها « أصل الوهابية » فاتهمني المتهمون بأني وهابي ، وأصبح الوهابيون يمدوني منهم ، واستبشروا بقبولي دعوتهم ، وتكثيري سوادهم ، وظل المشاغبون يصمموني وأصحابي بالوهابية سنين طويلة ، والوهابي نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب الذي دعا إلى مذهبه في نجد في العصر الماضي ، وعاونه على بث دعوته الأمير ابن سعود الأول . ومذهبه مذهب أحمد ابن حنبل ، أحد الأئمة المشهورين عند أهل السنة . والوهابيون هم الذين قبلوا دعوته ، وكانوا قبلها في جاهلية جهلاء . فردم إلى الكتاب والسنة ،

وانتشلهم من تيه الوثنية إلى حظيرة التوحيد . ويحب الوهابيون أن يطلق عليهم اسم السلفيين أو الحنابلة .

وما أدري وجهاً لانهامي بالوهابية ، وكيف ينسب إلى جماعة من عرّف بهم بدون قذف ولا تحامل ، وكان الشعب في تلك الحقبة تبعاً لمشايجه وحكومته ، وهذه من مصلحتها أن يصم كل وهابي بالضلال . ومنشأ هذه الدعايات الكاذبة خوف العثمانيين على الولايات العربية من صاحب نجد . فلما دعا ابن عبد الوهاب إلى لباب الدين ، وألف شمل النجديين بمدّ لثنته ، لم تترك الدولة العثمانية باباً من أبواب الدس عليهم إلا ولجته . وأفعل التهم التهمة في الدين ، ومن تهمه بهذه التهمة كأنك دعوت إلى قتله ، وربما هدرت الحكومة دمه فقتلته الغوغاء . وما قصر علماء الحجاز واليمن والعراق والشام في إثارة النفوس على ابن سمود الأول ، ومن نقلهم من قومه من الظلمات إلى النور ، مدعين أن ذلك منهم غيرة على الدين ، وأرجح أنهم فعلوا ذلك تقريباً من السلطان ، ولالتماس عطاياه ورواتبه ومراتبه .

كان الاثر اك إلى آخر أيامهم يحسبون حساب أمراء نجد ، وآخر من استدعوه للتحقيق معه في المحكمة بدمشق ، صديقي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فسألوه عن (البريد الطيار) (كذا) بينه وبين ابن الرشيد ، وانهموه بأنه يسمى لسلب الخلافة من بني عثمان وإعطائها لأمير نجد ، فضحك وكان من ظرفاء العلماء ، وقال : إذا كنت أستطيع أن أسلب الخلافة من بني عثمان وأعطياها لأمير نجد فلماذا — وقبض على لحيته البيضاء — لا آخذها لهذه اللحية ؟ وهل الخلافة تفاحة حتى أخرجها من جيبى وأدفعها لمن أريد ؟ هذا والله من أجل ما سمعت ، فضحك المحقق وأطلق سراحه . وفي الواقع انهم آتهموه هذه التهمة لأنه وبمض علماء دمشق وبفسداد صرحوا يومئذ أن القوم ما عرفوا حقيقة الوهابيين ، وأن مذهبهم مذهب التوحيد لا غير . وكتبت مقالة في الزيدية أهل اليمن ، على غرار المقالة التي درست فيها مذهب الوهابية ، فلم أنهم بالقول بمذهبهم ، كما اتهمت باتباع مذهب ابن عبد الوهاب ، بمقالة كتبتها في حقيقتهم على أسلوب علمي . وكافت

تفيدني مقالة الوهابية من جهة لو عرفت الاتجار بالكتابات والمقالات . واقد دعيت بسببها إلى نجد غير مرة ، في عهد آل الرشيد وعهد آل سعود ، فاستعفيت من الرحلة إلى أرض لا غرض لي من زيارتها ، خصوصاً ونفسي زاهدة في الضيافات والخلع والمطايا . وفتقت الحيلة لأحد أصحابي من أهل لبنان باب رزق فقصد إلى أمير نجد ، وكتب له ما أراضاه ، فأثبت أنه من بحار الفينيقيين ، وأن التجارة متصلة في خلفائهم اللبنانيين .

وأول مرة (سنة ١٩٠١) دخلت مصر قاصداً زيارة آثارها ومصانعها والتعرف إلى رجالها ثم أرحل عنها إلى باريس لقضاء بضعة أشهر للدرس والنظر . فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الاسبوعية نقولا افندي شحاده بواسطة صديقي الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار أن أحرر له جريدته . ولما كنت اتوي السفر اعتذرت ثم عرضت مسألة في دمشق اضطررتني إلى البقاء في القاهرة فصرفت النظر عن الذهاب إلى فرنسا ، وقبلت بتحرير تلك الجريدة .

ولست جريدة الرائد المصري من الجرائد المقروءة ، وصاحبها رجل مهذب ، وهو من أهل زحلة في لبنان جعلها واسطة للطن بأصحاب المقطم ، وكان بينه وبينهم خلاف مالي قديم . وجريدة الرائد من جرائد المعبة لصطنع الطعن بالمتلدين وكأنها ابنة جريدة « المؤيد » أو ذيلها وكان صاحب المؤيد يمطف على صاحب الرائد المصري نكابة بأصحاب المقطم فيما كنت أرى . وظل السيد نقولا شحادة على طول مقامه في القطر المصري يتكلم العربية باللهجة الزحلاوية ، وكان يعرف دخائل السياسة المصرية إلا أنه كان كل ساعة يدق عنق سيبويه فلا تستطيع أن تدخل له سطرين إلى المطبعة قبل أن تنظر فيها وتنقيها . وما أظنه ارتقى عن الدرجة التي بدأ بها لأنه كملق بالكتابة وهو كبير السن . وبعد عشرة أشهر قضيتها في تحرير هذه الجريدة عدت إلى الشام فاراً من الوباء الذي انتشر في القطر المصري . وقد تخلصت من تحرير الرائد ؛ وما كنت أحرص على تحريره قليلاً ولا كثيراً .

الصداقة أيضاً

هبطت مصر للمرة الثانية (١٩٠٥) عازماً أن أصدر بها مجلة شهرية باسم (المقتبس) تبحث في العلوم والآداب ، وعرضت على الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، وكان يعرفني بما كتبته في جريدته ، وبما تنشره لي مجلة « المقتطف » من الفصول أن أكتب في صحيفته مقالات يُعَيِّن هو مقدارها ، ويطلع لي المجلة في مقابلها . فقال إنه لازم على إنشاء عدد أسبوعي من المؤيد ، يرسم الولايات العثمانية والاقطار الاسلامية سيمعده بتحريره اليّ وفي المطبعة أشغال كثيرة لا يستطيع إنجازها قبل شهرين . فلم أرتح لهذا الجواب وقلت له : لا يَسَمَنِي الانتظارُ ، وصاحب الحاجة أرعَنُ لأروم الا قضاءها .

وبعد أيام دفعت أصول المقالات إلى المطبعة العمومية ، لنشر المجلة المزمع نشرها ، وصدر العدد الأول . وما هي إلا أيام حتى طلب إليّ صديقي سامي أفندي قصيري أحد محرري المقطم أن أذهب لمقابلة محمد بك أبي شادي صاحب جريدة الظاهر اليومية وقال إنه محتاج إلى محرر . فقابلت رئيس تحرير هذه الجريدة محمود أفندي واصف فسألني إذا كنت أعرف الترجمة من الفرنسية فأجبت بالإيجاب ، فدفع إليّ بركات ذاك اليوم من شركتي (روزر وهافاس) فترجمتها في أقل من ربع ساعة فنظر فيها وقال : لا بأس : وذهب إلى صاحب الجريدة وأطلععه على الترجمة فأعجبته فماد وقال لي : نجلس هنا على هذا المقعد إلى هذه المنصدة ، وتبدأ بالتحرير غداً .

وكانت في زاوية الغرفة شاب قصير القامة أبيض البشرة تبدو عليه علائم النشاط ، بادرتني بعد انصراف محمود واصف إلى غرفة مدير

الجريدة ، فسلم عليّ ورّحب بلفظة وأدب ، وقال لي . أأنت فلاناً ؟ قلت : بلى . قال : أأنت الذي تكتب مقالات المقتطف ؟ قلت . نعم قال : كيف قلت ان يفحصك محمود واصف ، فقلت . لا يتسع المجال الآن لأقول لك شيئاً وسأذكر لك عذري . فتواءعدنا على أن نجتمع خارج الادارة في المساء ، وهذا الشاب هو الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المؤلف المشهور وكان يترجم للظاهر عن الصحف الانكليزية ، ولصاحبنا كأنا كنا نعرف أحداً أخاه منذ سنين . وقال لي : إن الرجل الذي رضيت بأن يمتحنك عاجز عن الكتابة ، ويزيده خبالاً مايتعاطاه من الخُذْرَات ، وقد يحفزه رئيس المُنَصِّدِينَ بمض الأيام ليدفع اليه مواد للجريدة ، فلا يرى أمامه غير اعلانات الجريدة الرسمية يطبها له للصف ، لتنشر في الصفحة الأولى من الجريدة على أنها مقالة افتتاحية ، وقصّصتُ باختصار على صديقي الجديد ما دعاني إلى الرضا بامتحان محمود واصف ، وهو أنني اصدر مجلة تضطرنني إلى المقام في مصر ، فأنا في حاجة إلى عمل آخر مع المجلة حتى تكفي في القاهرة وارادات ملكي في الشام . ثم إن صاحب هذه الجريدة لا يعرفني كما يعرفني صاحباً المؤيد والمقطم مثلاً .

وأخذت من الغد أترجم عن الصحف الفرنسية والتركية ، وأنقل البرقيات ، وأشغل الوقت بكتابة مقالة سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فتغير مقامي في الادارة ، وأخذوا ينظرون إليّ غير نظرم الاول : وبعد أيام جاءني سيد بقطر كاتب الاستاذ أبي شادي بك في مكتبه مكتب الحمامة وقال لي : هل تريد أن تكون رئيس تحرير الجريدة بدلاً من محمود واصف ؟ فقلت له : إذا رأي صاحب الظاهر أهلاً لذلك ، وعاد من الغد إلي وقال : إنك مقبول جداً هنا ، ونحن سنرفع هذا المحرر ، وزجو أن تكون عند قولك . فأكدت له انني كذلك . وبعد أيام رجع عليّ وذكر أنهم سيصرفون رئيس التحرير ، وطلب مني ألا أقول غداً مايشعر بزهد في هذه المهمة ، فقلت له : أنا عند قولي ، وثقة صاحب الجريدة في نظري شيء يمتدّ به ،

وما كان اليوم الخامس عشر من دخولي جريدة الظاهر حتى كنت في منصة رئيس التحرير أراش بضمة محروين ومخبرين ، وألصرف في سياسة الجريدة ، وقد علا رائي ومرتبتي .

ومضى شهران أو ثلاثة ، وانتشر المقتبس الشهري ، وقرظته الصحف والمجلات وكان تقريظ المؤيد من أحسن التقاريط ، أفادني في انتشار المجلة لأن المؤيد كان مقرأ في كل الطبقات ، وكان صوته يومئذ أعلى الأصوات ، وكان صوت الاهرام والمقطم خافتاً . وإذا بالشيخ علي يوسف يستدعيني ويقول لي : إن المطبعة انتهت من مطبوعاتها وإن الجريدة الاسبوعية التي كان عازماً على إصدارها كما كان قال ، يمكنني الآن أن أستلمها ، وأنه سيمهد إلي معها بفتح البريد ، قبل كل أحد في إدارته ، لا أنظر في الصحف الاجتماعية ، وأشير إلى المقالات التي يجب ترجمتها ، وأدفعها إلى محرويه محمد أفندي مسعود وحافظ أفندي عوض وأشرف على تحريرها وعلى الجريدة عامة . فأجبتة إني توليت رئاسة تحرير الظاهر ، وأن صاحبها صرف الرجل الذي كان قبلي ، واعتمد علي في إصدار جريدته ، فلا يسعني أن أتركه . وشكرت له وانصرفت . وكان من أهم العوامل التي دعفتني إلى الإبقاء كونه مسعود وعوض من أصدقائي ، وأعرف أن علي يديها قام المؤيد ، وأن لهما الفضل في إنشائه . وهما على غاية الكفاءة علماً وأخلاقاً . وكيف يجوز أن أرأسها وماضيها في المؤيد ماضيها ، وهما مصريان ، وأعرف مني بما ينفع جريدة مصرية ، وربما كان دخولي المؤيد على هذه الصورة مقدمة لإخراجها منه ، على ما وقع في نفسي واستنتجته من كلام صاحبها . وأنا ماضق علي الديش في مصر حتى أكون علة لقطع رزق صاحبين عزيزين ، ماشهدت منها إلا اللطف ، وهما أولى مني بهذه الخدمة .

ترك مسعود وعوض جريدة المؤيد بعد حين وأتى صاحبها بجميل أفندي مدوتر من أدباء السوريين يماونه في القلم الإفرنجي ، وعرض عليه سليم أفندي سركيس من كتاب السوريين أيضاً مؤازرته في القلم الانكليزي

فقبل منه . وأخذ يملأ أعمدة المؤيد بالإعلان عن نفسه . ومات المدوّر بعد مدة قصيرة ، وكنت تركت الظاهر مع جميع محرريه ، لمعجز الادارة عن تأدية الرواتب في اوقاتها ، وأخذت أترجم روايات لخليل بك صادق صاحب مجلة مسامرات الشعب ، وكان يلح عليّ أن أعطيه رواية لطبعها فأعده ، فلما فرغت من التحرير انصرفت إلى الترجمة فنقلت روايتين كبيرتين في ثلاثة أشهر .

وفي خلال ذلك دعاني الشيخ علي يوسف إلى تولي التحرير في جريدته فقبلتُ ، وكان ممي سيد كامل وكامل فيضي يتجرنان على النقل من اللغة الفرنسية ، وعُهد إلي النظر في المقالات الواردة من المؤازرين ، مما كان موضوعه الأدب والإسلام والتاريخ ، والإشراف على الجريدة ، وكتابة الافتتاحيات إذا اقتضت الحال . ووقع لي لما اصطفاه الشيخ في سورية في آخر السنة الثانية لتولي تحرير جريدته ، وكان أوصاني بالانتباه لجميع شؤون الجريدة ، أن حدثت الأزمّة المالية في مصر ، فاضطرت إلى كتابة فصول في معالجة الأزمّة ، وفي الشؤون المالية والاقتصادية ، موضوعات ما سبق لي الاشتغال بها ، خضتها مضطراً بعد درس مستعجل ، لأن حالة الجريدة تستلزمها . والجريدة اليومية لا تتطلب التعمق كثيراً ، ولستأزم الخوض في الموضوعات التي تشغل بال قرائها ذاك اليوم .

عرفتُ في المؤيد سرّاً من المصريين ، وكان تحريري فيه الدعامة الثانية في شهرتي بعد مجلة المقتطف ، وبه صار لي أصدقاؤا وإخلاصي في خدمة مصر ، فصاروا يفتحون لي قلوبهم ، ويطلعونني على ما لا يطلع عليه إلا خاصة الخاصة منهم ، وكنتُ جدّ حريص على صداقتهم ، وم كانوا كذلك

لهم مُنتهى حبي وصَفْوُ مودّتي ومحضُ الهوى مني وللناس سائرُهُ
وقد حاربت مع المحاربين ذنلوب مستشار المعارف ، وانتقدتُ عليه ما كان يرمي إليه من تأخير الدروس العربية ، فأدرك رجال ذاك الدور

وناشئته ما يحمل قلبي من حب مصر ، وكنت أوقعُ مقالاتي ، فعرفوني وجازوني على خدمة بلادهم بصدائقهم وثقتهم ، فاغتبطت ونشيطت ، وأصبحت في مصر كأني في بلدي ، تهمني من وراء الغاية سياستها وسعادتها . كان الشيخ علي يوسف في عهده من أعظم الكتاب الذين قدَّبوا المسألة المصرية على وجوها كلِّ مُقلِّب ، وكان ذا بديهة مؤاتية ، وعارضة قوية ، شهدته يرُدُّ على لورد كرومر عميد إنكلترا في وادي النيل ردَّه المشهور الذي جعل منه كتاباً بمد — وقد نقلت له عن الفرنسية النصوص اللازمة — يدفع رده للطبع ورقة بعد ورقة ، وأمامه ضيوفه في مكتبته يلفظون ويتجاورون . وكان العقلاء ينعون عليه تلونه في مشربه ، ويقولون إن أصحابه اليوم أعداؤه غداً وأعداءه اليوم أصحابه غداً ، ومن كان في مثل حاله يخدمُ العظماء لا يُستكثر عليه هذا ، ومن تمَّ له مظهرٌ عظيم بعد أن كان نكرةً قد يزدهيه العز . ومع ذلك كان الشيخ علي على صفات حسنة من سمة الصدر ، وفرط الذكاء ، والاعضاء عن يؤله ، والاحسان لعدوه . ويقول من ينتقد سيرته أيضاً إنه لو عُرضَ على صاحب اخلاق أن يظعن فيمن نشلوه من سقَطَته ، ورفعوه بأفلامهم وأموالهم ، لآثر الخروج من الصحافة كلها على ارتكاب ما ارتكبه مع أخلص محبيه وُحَمائه .

ومما لا يُمذر عليه أيضاً تقليدُه رئيس الحزب الوطني مصطفى كامل باشا صاحب جريدة اللواء ، وكان هذا يطالب باستقلال مصر جبهة ، وله قبول عند الناس أكثر من الشيخ علي ، والأموال تنصب على إدارته كما تنصب ماء المطر من قم الميزاب . وكانت تربيته عصرية ، ويُعدُّ من الخطباء الأبيناء . وكلاهما يصدع بأمر الخديوي . فأحب صاحب المؤيد أن يظهر بمظهر صاحب اللواء على ضعف موارده فأضاق ، وزاد ضائقته اشتغاله بالمصاربة في الأراضي ، فغمر كل ما يملك حتى اضطر آخر عمره أن يتقلد مشيخة طريقة ويأتي أموراً لا تتفق مع ماضي رجل كانت جريدته لسان حال العالم الاسلامي .

لما اشتد الضغط على الافكار في الارض العثمانية أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني لجأت إلى مصر كما لجأ إليها بمض أحرار الشاميين وعاهدت النفس على نشر جريدة يومية باسم المقتبس في دمشق ، إذا نفس خناق الحرية ، أخدم بها الديار الشامية خاصة والبلاد العربية عامة . فلما أعلن القانون الأساسي وسقطت دولة الاستبداد رجعت في سنة ١٩٠٨ إلى دمشق وأنشأت مطبعة وأصدرت المقتبس اليومي السياسي مع المقتبس الشهري العلمي ، وكان المقتبس السياسي أول جريدة يومية صدرت في دمشق .

وباستقلالي بجريدة يومية ، وكنت أكتب في مثل هذه الصحف باسم غيري ، عرفت مقدار التبعات ، ولقيت خيراً قليلاً وشرّاً كثيراً . عاضدني بعض العلماء المنوّرين والشبان المثقفين ، وقاومني بعض المشايخ الجامدين ، وسرّاق العمال المستبدّين ، وعادى المقتبس كل مضرّ مهمل كان حاله وشأنه ، غير خائف ولا مجهم ، وما كان الأهالي والحكام يمهّدون مثل هذا النقد وهذه الحرية في الكتابة ، ولا أنكر أنّ التيار كان يأخذني أحياناً ، ويشطّ بيّ القلم على غير إرادتي ، لكنني لم أُلجأ إلى الطعن الشخصي بأحد بل كانت جملة المطاعن موجهة للأعمال النابية عن حد القوانين والدساتير .

ولم يرَ الحكام وجهاً لتقليم أظافري وإخفات صوتي ، أفضل من الالتجاء إلى المحاكم ، يقيمون عليّ "القضايا" ، فكنت أصبر عليهم ، وأصحابي يُعجّبون من صبري على ماألقي من العاتات ، وكانت نزاهة القضاء تشجعني على المضيّ في طريقي . وكان القضاء الاتراك والعرب على السواء ينصفونني كل الانصاف ، والمعدل عدلٌ عند كل جنس وفي كل لغة . وتتلخص الدعوة التي دعوت إليها في المطالبة بالاصلاح ، وطرده لصوص الموظفين من خدمة الدولة وحفز العرب الى العمل النافع ، والتذرع بالمشايخ المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ، ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة . وفقّمت في هذه الدعوى إلى حدٍّ ماكنت أُنطال إلى

مثله ، وكان المصفقون لي أكثر من المصفرين ، وتحبلى الانتفاع بما يلش من المقالات والافكار ، وكان معظم القوم لم يَمَهّدوا تلاوة الجرائد ، فحببت المقتبس اليهم المطالعة ، وكلما رأيت فتوح الجريدة في ازدياد نشاطاً ومفاداة . والواقع أن العامل الأكبر في انتشار الجريدة ، وثقة الامة بها ثقة عمياء ، اقتصارها على مواردها الشرعية من الاشتراكات والمبيعات والاعلانات فقط ، وتنزهها عن كل عَرَض مادي منها كانت مصدره . وحاول الاتحاديون القابضون على زمام الأمر أن يرشوني فلما يسّوا مني تحيولاً أن يقتالوني وخصوا الذي أعدوه للقتل بمبلغ من المال لا يستهان به فنصحته صديق له اطلمه على ماينوي ويّئن له عاقبة ماستجني يده فأطاد الدرهم الى أصحابها . وتعرضت بسبب الجريدة للأخطار والمغامرات مرات وأشاع الوالي في رجال الأمن القُرْسان ، أن من يقبض عليّ حياً أو ميتاً يرقبه ويكافئهم . وساعدني التوفيق ولم أحبس يوماً واحداً ولا خرت قرشاً واحداً ونجّيت من الخدمة عشرات من الموظفين فيهم الوالي ومتصرفان وعدة قوام المقام ومديرين وقضاة وغيرهم من صفار المال وكبارهم ، حاولت الحكومة شغلي بنفسي ، فهددتني وروعتني بطرق مختلفة فيها وعد ووعيد ، وأغلقت الجريدة غير مرة لأسباب تافهة أشهراً ، تُغرّمت بها مئات من الجنهات ، ثم عوّضت عليّ الحكومة زمن الحرب العامة ، لما اشتدت حاجتها الى الجريدة ، واعترفت بأنها ظلمتني بالاغلاق مرتين ، حتى أزمعت أن أترك الصحافة . ولولا أن هددتني ضمناً بفتح الحسابات الماضية ما كنت أعود إلى إصدار صحيفتي . أما مجلة المقتبس العملية فانقطع صدورها في الحرب العامة ، بعد أن صدر منها ثمان مجلدات . وعددان من المجلد التاسع ولم تكد يمدّها إلى الصدور . ولما وضعت الحرب أوزارها أخذت نفسي تكره الصحافة شيئاً فشيئاً ، وانصرفت إلى التأليف ، وكان السبب الأكبر لاغلاقي المقتبس السياسي أن سلمت تحرير الجريدة بعد وفاة أخي أحمد ، وأنا في الوزارة ، إلى محرر أراد أن يخدم بعض الأحزاب على حسابي وبلسان جريدتي ، وأطال لسانه

في بعض زملائي الوزراء فأمرت بإغلاقها (١) وكان ذلك ختام حياتي الصحافية ولم أكتب بعدها في غير المجلات العلمية ، والسع لي الوقت لنشر ما كنت أعد من التأليف فطبعها في مصر والشام ، والحمد لله على كل حال .



(١) كنت غير راض عن بعض ما ينشر في المقتبس في عهد الانتداب الأول وقد كتبت يوم ٢٩ كانون الأول ١٩٢٤ الى شقيقي أحمد أسأله عن مقالة للصفدي وعن أخرى لراصد وهددته بسحب امتياز المقتبس اذا هو ظل على نشر مثل هذه الآراء السخيفة يكتبها أطفال السياسة وهم من طبقة تسجد للفرنسيين بمشر ليرات وقد سجل الانتداب لفرنسا بقرار دولي ومن سياسي أن أتفاهم مع المتدينين ولو غضب الصفدي وأمثاله ، واتهمني بالمروق من الوطنية . وأوعزت اليه ألا ينشر في المقتبس شيئاً لهؤلاء الاحداث لأنني لا أريد أن يكون المقتبس كالعمران فارورة أقذار وأوساخ . وبهذه المناسبة أن بعض ما نشر من المطاعن بالمقتبس في بعض رجال السياسة ومنهم صديقي حقي بك العظيم لم يكن بإعزاز مني ولا لي رأي في نشره ولا نشر غيره .

ناظم باءا والمقتبس

شق على والي سورية في عهد الحرية والدستور أن يسمع في الجريدة المطالبة باصلاح شؤون الولاية ، ونقد ادارته أحياناً . وله الحق أن يتأفف وهو ممن ربوا في عهد الاستبداد الحميدي ، ورجل هذا نشأته . يصعب عليه ان يسمع أصوات الأحرار ، وهو الذي اعتاد أن يرى أعظم أعيان ولايته يقبلون ركبته ويلثمون أذياله . ووهم بأني أطاول على مقامه لاسقاطه ، وأن الشعب قد مقتته ومقت حكومته ، لكثرة ماردت من أخبار الضعف في ادارته ، فلم ير ليشغلي عنه أنجع وسيلة من أن يقيم عليّ بعض العمال ممن انتقدت أعمالهم ، دعاوي لدى الحاكم ، يزين الوالي لهم اقامتها ، ويمانونهم عليّ ، وهم في باطنهم لو تركوا واختيارهم لما أقدموا على اقامة قضايا قد تنكشف خلال النظر فيها سيئاتهم ، وهم أدرى بأنفسهم وبما يرتكبون ، والخائن خائف . وأنى زمن علينا أمام القضاء نحو من ثلاثين دعوى من هذا القبيل ، يطلب بمض أربابها جزاء المفتري أي حبسنا ثلاث سنين . وجاءنا الفرج بعد حين على ما لم يكن في الحسبان ، وذلك بتعيين رجل من أهل القدس اسمه اسحق روجي افندي البديري رئيساً لمحكمة بداءة الجزاء ، فدرس عامة الدعاوى المرفوعة علينا ، فوجدها كلها من نوع واحد فوحدها ، وأقنع المحكمة بأن صاحب الجريدة لا غرض له إلا الاصلاح ، ولا حرج في القوانين على من يطالب به ، وليس فيما كتبتة الجريدة ما يمس عاطفة المكتوب فيه ، ولا ما يثلم شرفه ومروءته ، فحكمت المحكمة بتبرئتنا من كل القضايا ، فصعق الوالي والاتحاديون ، ومن سارت تحت علمهم ، واستأنفوا النظر في الدعاوي أمام محكمة الاستئناف ، فحكمت بتأثير رئيسها شكري بك ، وكان تركياً من جماعة الاتحاديين ، بسجن شهر واحد على أخي

أحمد مدير الجريدة المسئول ، ثم أنزل الحكم إلى النصف ، وطلب إليه بمض رجال القضاء أن يدخل من باب من أبواب السجن ، ويخرج من آخر لتتم الصيغة القانونية ، ويقال إن المدير محبس ، ويقيد ذلك في السجل فأبى . وأعلنت الحرب العامة فذهبت الدعوى مع ذهاب المملكة كلها . ومن الغريب أننا ما كنا نعرف رئيس المحكمة السيد البديري الذي حكم ببراءتنا ولا هو يعرفنا إلا من الجريدة .

قلت إن الوالي كان يتألم للتعرض لأعماله في المقنيس ، وكانت بيننا برودة بسبب ذلك ، وهو يوالي اقامة الدعاوى على الجريدة بواسطة أعوانه ولكثرة مارآه أصحابه حانقاً عليّ عرض عليه أحد أعيان الجزائريين ، بل أمير من أمراءهم وباشا من باشاواتهم أن يقتلني . فقال له الوالي : لاتفعل ، وتبين بعد أن هذا الجزائري كان من الخائنين للدولة ، ونفي بسبب ذلك إلى الاناضول . وخاف الوالي هذه المرة مغبة القتل ونهى عنه . أما ذاك المشقي فلطالما قتل الفلاحين وهتك اعراضهم بواسطة أعوانه الاشرار حتى اغتنى وترك ثروة كبيرة ، تمزقت شذر مذرفي بضع سنين ، وكان في تجويز قتلي يرمي إلى غايتين ، الاولى مصانعة الوالي ، والثانية خلاصه من نقد جريدتنا لتزويراته أحياناً .

جاءني ضابط تركي اسمه جميل بك ، وهو من دعاة حزب الاتحاد والترقي ، يخاطب بالتركية ، ويثرثر في فضل الجمعية على العالمين ، فرجاني أن أصلح الوالي ، وطلب أن أرافقه إلى دار الحكومة لهذا الغرض ، فقلت له : باسم الله ، اعلم يا صاحبي أن ليس بيننا وبين الوالي عداوة شخصية ، وما نكتبه في الجريدة فلمصلحة الدولة ، ونحن إذا لم نوجه الكلام إلى الوالي المسئول فلننوجهه ؟ فلما اجتمعنا في دار الولاية سرّ الوالي جداً ، وظن أن الأمر يقف عند هذا الحد بهذا الصلح ، فلا أعرض له بعدها . فيسير كما يشاء مع من يدبر الأمر في هذه الولاية

الغظيمة على هواه لا كما تقضي القوانين والمصلحة ، ومما قال لي : لقد أسقطني من الانظار بما كتبت عني في جريدتك ، وأصبحت خجلاً في نفسي ، حتى إنني لا أقول للحدودي أن يسير بي بين البساتين إلى داري ، لئلا أستهدف للعن في الطريق ، ويقولوا : هذا هو الوالي الذي يكتب المقتبس في إجراءاته الخارجة عن النظم والأوامر المرسومة . قال : وفي الحق إنني لم أرك يوماً أهنتني بكلمة واحدة ، أو تعرضت لشخصي بإشارة أو تصريح . فأجبت : إنما نكتب ما نكتب لتعرض رأينا على أنظاركم ، وننسلّم على عورات الضارين في الادارة الحكومية ، وغرضنا في ذلك شريف ما أظنه يسوءكم ، وهو إصلاح حال الادارة التي لم يغير الحكم الجديد شيئاً من روحها ، ونحن لا نخرج بحال عن استعمال الحرية التي منحنا الدستور إياها . أما قولكم : إنما لم نذكركم بما فيه إهانة شخصكم الكريم . فنحن لا نقول بهذه الطريقة ، ونعلم الأدب وحرمة الكبار منكم ، وأي دخل للخصوصيات في مسألة عمومية .

وحقاً كانت هذا الأسلوب في الانتقاد مما يؤلم عمال الدولة وغيرهم أكثر من السباب والشتائم ، وكنت أتوقّى أن أمسّ إنساناً فيها أكتبه ، وحسرت الجهد في مناقشة العمال ، وكان كل ما يكتب في الغالب مستنداً إلى وثائق ، مدعوماً بنصوص القوانين ، ويؤازرني سراً في ذلك بضعة شبان سوريين تخرجوا من المدرسة الملكية في الاسنانة ، مدرسة السياسة والادارة ، وعادوا إلى سورية ليتمرّنوا في دواوين الولاية ، ثم يعينون قوام المقام ، وهم الذين كانوا يكتبون بالديق والجليل مما يجري في مقر الوالي ، ومنهم من كانوا من أعزّ أحمائي ، وعمن عرفوا باخلاصهم للدولة وحبهم للعرب والعربية . وعمدنا في مراسلات الجهات على أناس متعلمين من أصدقائنا كانوا يعاونوننا بجلب الأخبار الصادقة حباً بالإصلاح لا طلباً للظهور ولا للمادة ، ولذلك جادت تأثيرات الجريدة فوق المأمول ، فكانت لإدارة فعالة في تنحية الولاة ، وعزل المتصرفين ، وقوام المقام وغيرهم .

ارثت محكمة الاستئناف في جنابة ارتكبت في دمشق ، كانت من أظلم ما سمع من أصناف الجنايات ، فما زلنا نكتب في تبرئتها للقائد ، وكان والده من كبار المرابين ، حتى أقيمت المحكمة بكل من فيها من كتاب وأعضاء . وكان عبد الرحمن باشا وزير العدل على عهد أواخر السلطان عبد الحميد الثاني ، رجلاً عظيماً يكره المرشدين كراهة شديدة ، إذا ثبت له أن بعض القضاة تلوث برشوة وأضاع الحقوق والدماء ، يفتناظ ويحنق ويكتب بجانب اسمه (م) في مفكرته ، ولا يعود إلى توسيد عمل اليه ، ولو طلب اليه ذلك السلطان نفسه ، وكان السلطان يحترمه لهذه الأخلاق ولا يتدخل في شؤونه .

أصبح للمقتبس مكانة لم تحرزها جريدة من جرائد السلطنة العثمانية ، التي تصدر باللغة العربية ، لأنها كانت تكتب بحرية زائدة حتى ليظنها المارفون جريدة من الجرائد الوطنية في مصر ، تصدر على عهد العميد لورد كرومر ، وفي ذاك العهد كانت حرية مصر تشبه حرية بلاد الانكليز . ولطالما هدد أصحاب الظلمات صفار الموظفين إذا لم ينصفوهم بأن يرفعوا شكواهم إلى المقتبس ، أي أن المقتبس صار حكومة او محكمة على الأقل ، وهذا النفوذ هو الذي كان يتخوف منه الولاة ويكتبون به إلى مرجعهم الأعلى في دار الملك ، وهو يعظم وينمو كل يوم .

ويمذر الاتحاديون على تأففهم من نقد الجريدة ، لأنها كادت تكون رأياً عاماً في ديارنا ، وهذا مارق ولن يروق أحداً من الامة منذ القديم ، وسياسة الترك مع العرب في معظم أدوار التاريخ نمط واحد ، وهي ألا يترفوا للعرب بشيء من الحقوق ، لئلا يرفعوا رؤوسهم أمام غالبهم وسادتهم ، وكانت المركزية في عهدهم من أشد ما عهد من نوعها تشبه مركزية فرنسا مع كل ما في الحكم الاستبدادي من عوج . وكان كل انسان يطلب اصلاحاً في أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركياً أم من عنصر آخر من عناصر الدولة ، يعامل أسوأ معاملة . ينفي ويسجن ويصادر

ويقتل هو ومن يقول بقوله ، ويتقولون عليه الاقاييل ، وأقل ما يتهمون به أنه مارق من الدين ، يدعي النبوة ، ويقول بأباحة النساء ، وشرب الخمر إلى آخر أكاذيبهم . ويمد من بلفتنا أخبارهم من هذا القبيل بالمعشرات وكثير من هذا الطراز فتلوا ولم يعرف بهم أحد . ولذلك كان من المستغرب نجاتي من تلك الأيدي الأثيمة .

لا تمجن من هالك كيف هوى بل فاعجب من سالم كيف نجا
كنت عارفاً هذه الحقيقة عن رجال الدولة ، ومع ذلك كنت أمضي في سبيلي أحاربهم ، وأنا عارف بما يهدد حياتي كل حين ، وليس لي مستند إلا عواطف الامة ، وإذا جدَّ الجد يقل الآخذون بيدي ، وأترك وشائي ، ولسان الحال يقول : (يداك أوكنا وفوك نفخ) .



الرفيق الطيب

كان لوالدي صداقة وثيقة العرى مع السيد عبد الغني القوتلي (جد رئيس جمهورية سورية الحالي) وكثيراً ما سمعته يقول : يا بني قد تلد الولادة مثل عبد الغني القوتلي ولكن أعظم منه باخلاقه وكرمه فلا . وكان أبي يعجب من ثباته على عمل الخير وتفنته في ممارسة ضروبه .

قال كان يدعو الى قصره العظيم كل مدة أربعائة أو خمائة فقير يهيء لهم الذمالمال التي تفاخر بها دمشق ويجهز لهم الحلويات وما يتبعها من صنوف الفاكة حتى إذا طعموا خرجوا من الباب ، وخدامه قد اعدوا لكل مدعو قاشاً مع بطاتته يعمل منه ثوباً ، ونملاً يلبسه برجله ، وريالاً ينفق منه على عياله ، يعمل كل هذا لا يتبجح ولا يتفجج ولا يقصد إلا وجه ربه .

بلغه مرة أن أحد سماره الذين يختلفون إلى داره قال ان السيد عبد الغني القوتلي وجد كنزاً في داره فممر منه جامع السادات في سوق مدحت باشا فكم القوتلي الامر حتى جاء شركاؤه من البر فبعث يدعو صاحبه الذي اتهمه بالمشور على الكنز ليتناول طعام المشاء معه ، ولما فرغوا من طعامهم استدعى صاحب الدعوة كاتبه وأخذ يحاسب عملاءه حتى نظر في حساب جملة منهم فكان مجموع مارج بواسطتهم خمسة آلاف ليرة عثمانية - وهذا المبلغ ضخماً جداً في حساب تلك الايام - والتفت الى المدعو صاحب الكنز وقال له يا أبا فلان ان من يربح من تجارته في سنة مثل هذا المبلغ العظيم عدا غلة أملاكه في القرى وريعتها في المدينة لا يصعب عليه أن يبني مسجداً بمائة ليرة . وهكذا بكته بهذا الاسلوب الرقيق .

وقصصت يوماً على شكري القوتلي قصة رويت لي مرة عن جده العظيم

قلت : بلغني أن جدك حمل اليه ذات يوم من قرينته اثنا عشر حملا من الحطب ، وكان يطل من طنف غرفته على الشارع فشاهد أحد الجمال يقتطع حملين ويسوقها أمامه فاتبعه السيد حتى رآه أناخ الجمالين أمام بيت في محلة النوفرة فبصر في الدار فرآها خالية من كل شيء يدل على حياة ، فأمسك بيد الجمال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلة أرز وسلة بن وكل ما يلزم للطعام وقال له مما زحنا الآن يلزمك الحطب أما من قبل فماذا تعمل به ؟ مثال من التفنن في الاحسان .

وكان السيد القوتلي لا تنقطع صدقانه بجزيرها على مئآت من أهل السمر ومن ابتلاه الله بالفقر مما تنوء به خزائن الملوك يومئذ ، فكان حقاً ملك الكرم في عصره ، ومثال الرجل الصالح ، والمسلم الذي تمثل الاسلام حقيقة ، دأبه جباية الأموال ودأبه انفاقها في وجوه البر وعلى المحايج والمموزين . وكثيراً ما قلت للسيد شكري حفيده قبل توليه رئاسة الجمهورية يجب وضع ترجمة حافلة لجدك فان في سيرته ما ربما يحفز الناس إلى عمل الخير وليس من العدل أن يقتصر أرباب التراجم على الترجمة للفقهاء والمحدثين والادباء والشعراء فقط ، وما كان أجدر رجال المال والاعمال أن يتدارس الناس سيرهم ليقتمدوا بهم ، فكان يصرح باني أعرف عن جده ما لا يعرفه هو فقلت له : الفضل في هذه المعلومات لوالدي .

وحدثني من أثق بصدقه من قدماء أصحابي أرباب المطابع قال : إلى اليوم يتحدثون في حيننا حي القيصرية بقصة وقعت لتاجر مفلس مع السيد عبد النبي . ذلك أن أحد جيرانه من التجار تأخرت أحواله فعزم أن يبيع داره ويتوسع بثمنها ويستعيد شرفه فبلغ القوتلي ما صارت إليه حال جاره فأرسل يدعو له وقال له : انتهى إلي أنك في ضائقة وأنت تريد بيع دارك قال : نعم ياسيدي ضرورة دفعتني إلى ذلك قال السيد : أنت إذا زهدت في جيتي فانا لا أبيع جوارك مهما كلفني الأمر وهذه صرة من النقود تدبر نفسك بها وكف عن البيع لأجل خاطري ، فذهب صاحبه مجبوراً إلى الكسر

وكان اميناً صادقاً واشتغل بالتجارة فاسترجع بعد زمن نعمته وخفّ إلى من أسدى إليه هذه اليد ، وأولاه هذه العارفة يشكره بعيد إليه المبلغ الذي كان أقرضه إياه إلى أجل غير مسمى . فضحك السيد وقال للتاجر : أنا لا أنزل عن جوارك وأنفق أضعاف أضعاف هذا المبلغ لبقائك جاري وإن كان لا بد من رده فارجوك أن تصدق به على من تحب . وهكذا ظهرت هذه المكارم في الحسن والحسن إليه على أشرف ما كانت عليه أخلاق المسلمين يوم كانوا مسلمين عاملين باكثر شروط الاسلام ، وما تردوا في بؤرة هذه المادية القذرة . يوم كانوا مسلمين لابورقة الهوية وتذكرة النفوس وكتب الجغرافيا .

حدثني الاستاذ الشيخ عيد السفرجلاني مربّي ثلاثة أجيال من أبناء دمشق وقد اشتهر بتقواه وصلاحه قال : حججت في بعض السنين واتفق أن كان في الموسم السيد عبد الغني القوتلي ، فلو قلت لك ياسيدي أنه لم يبق في الركب الشامي رجل لم يأكل على مائدة القوتلي أو أخذ من صدقاته لكنت صادقاً في قولي ، وأعتقد أنني لا أقول إلا ما رأيت .

قال إن فقراء بيت الله الحرام انهالوا عليه بما يضجر منه الحليم فكان يفضل عليهم مغتبطاً واتفق ذات صباح أن الشمس كادت تشرق والسيد يسارع إلى المسجد ليصلي الصبح حاضراً وعلى ظهره عباءة ثمينة فلقية الشحاذ والسيد لا يحمل كيس دراهمه فما وسعه إلا أن خلع عباءته ونجا بريشه مجرداً إلا من ثوب رقيق .

وحدثني أبي أن السيد عبد الغني القوتلي قاطع أخاه مراد أفندي ، وكان لا يقل عنه بكرمه وحسن اخلاقه ، لانه بلغه أن السيد مراد قال للأفلاحين في الحديث اتركوا مقبرة المرابمين بعد الآن لا تدفنوا فيها موتاكم وقد خصصتكم بالارض الغلانية للدفن فقال السيد عبد الغني لأخيه ما كفاك بضع مئات من الافدنة في الحديث وبالآ حتى تمتدي على قبور المسلمين لتقيم عليها حديقة الدار التي تبنيها . وكان مراد وعبد الغني شريكين في الاملاك والتجارة

الاول يتعهد أملاك الغوطة والمرج والثاني يقوم على التجارة في المدينة .
وربما يسأل أحد الفضوليين وما معنى هذا الاسم التركي (قوتلي) يطلق
على أسرة عربية وقد حل هذا الاشكال لي من أثق به ، قال كان يقال
لهذه العائلة بيت النحاس وكانوا تجاراً كباراً في الثياب وكان حجاج الاناضول
من الاتراك يأتون في طريقهم إلى الحج كل سنة ويتاعون هذه البضائع
ويقولون عند ما يسامون فيها بالتركية (حاجي قوتلي قماش ايسترز) أي
يا حاج نطلب منك قماشاً متيناً (قوتلي) . وما زالت هذه الكلمة تتردد
بين البائع والمشتري حتى غدت تطلق على بني النحاس والله أعلم .



لبنان

أحسن تعريف مختصر للبنان ان جباله أكثر من سهوله وانه من أجل سواحل الشام اشتغلت فيه يد الخالق وأيدي الخلائق قروناً وكان في الاسلام عمالة من عمالات دمشق مقطوراً معها يسارها في السراء والضراء بدون أخذ ورد . ولما أراد البركسات أن ينشروا مذهبهم في الشرق لم يجدوا أحسن من لبنان فجاءوا وأنشأوا مدارس في الجبال ثم أقاموا الجامعة الاميركية في بيروت وغار اليسوعيون من اللاتين على الكتلكة فحذوا حذو الاميركان . ولبنان عش الموارد والموارنة كاثوليك مرتبطون بالكروسي الباباوي في رومية . ونفخ الواغلون على البلاد في السكان روح التعصب الديني فكان من ذلك الضرر عليهم وعلى البلاد عامة . ولما تخرج الطلاب بالجامعة الاميركية لم يطب عيشهم في بلادهم ففارقوا في الارض وكان الاحتلال الانكليزي لمصر والاحتلال يحتاج إلى من يخدمه فرأى في اللبنانيين المتخرجين باللغة الانكليزية أحسن أنصار فأخلصوا كلهم له ونسوا مصلحة مصر فاستفادوا من ذلك فوائد مادية لا تقدر وخسروا كثيراً في المعنويات .

وقويت الهجرة إلى الاميركتين فكان اللبنانيون في الطليعة من أكثر من هاجروا ، غادروا البلاد إلى غير رجعة ، فبدأت القرى تخرب والعيش في تلك الجبال يضيق . ولما جاءت فرنسا إلى هذه الديار عطفت على لبنان من النصارى عطفاً غريباً فاسترجع الجبل بعد ذلك بعض قوته واشتدت الدعايات للاصطياف فأصبح جبل لبنان مثابة المصطافين من الشاميين والعراقيين والمصريين وغيرهم من الامم فأفاد من ذلك وما هو إلا جيل حتى غدا كل لبناني يفكر في الدعاية للاصطياف كما يفكر في مصلحة أولاده وبيته .

وظل التعصب الذميم في بعض العناصر اللبنانية على أشده حتى إذا أراد اللبنانيون بل أرادت فرنسا أن يحملوا لهم كياناً خاصاً وألفوا الجمهورية

اللبانية كانت سورية خلالها تعد يدها إلى اللبنانيين وهم يتأون بجانبهم ، ولما تألفت الجامعة العربية لم يدخلوا فيها حتى كعهدت لهم سورية بحقهم وبغير حقهم . وإلى اليوم يتدلل لبنان على سورية ويهدد ضمنا بأنه إن لم يعطه ما سأل كل يوم ينضم إلى دولة قوية ربه وعلمته . ولا يجب أن ننسى مع هذا أن الاكثية الساحقة في لبنان للمسلمين ولكن النصارى سبقوا وتعلموا قبلهم بواسطة الاوربيين والاميركيين وأخذوا يملكون هذه الاعمال .

انا على يقين ان الصحف اللبنانية غداً متى صدر هذا الكلام ستسلفني بالسن حداد وتقول في " ما قاله مالك في الحزوق قد حدث ذلك مرات والمثل الدارج يقول : (من احب ان يسكر لا يمد الاقداح) .



جمعية الاتحاد والترقي

استلمت جمعية الاتحاد والترقي زمام الدولة ، بتهديد السلطان عبد الحميد الثاني ، ونشرت الدستور ودعت المجلس النيابي الى الاجتماع ، وزالت شوكتها بعد أن الف السلطان جمعية سرية سماها الجمعية المحمدية ، اغتالت بعض أفراد الاتحاديين في الاستانة ، وبث فيها روح الثورة والمصيان ، وعاد الاتحاديون فتغلبوا على السلطان وخلصوه ونفوه الى سلاطيك ، وقضوا على زعماء الحركة المحمدية في العاصمة والولايات ، وأخذوا يكثرون من اغتيال المعارضين لسياستهم ، من أرباب الاعلام في الاستانة ، وأحبوا أن يجروا على هذه الطريقة في الولايات ، وكانوا من قبل يحاذرون أن يأتوا فيها شيئاً مما أتوه في دار الملك فبدأوا بي ، وأرسلوا دركياً تركياً بهددني في رابعة النهار ، وأنا سائر مع رفيقين لي على جادة الصالحية ، وقال لي مامعناه : يكفي ياسيد ماعملت فالعاقبة لا تعرف ماتكون . ولما انتهرت هرب . وفي غضون تلك المدة أعطى الاتحاديون مبلغاً من المال لأحد الاشقياء ليفتاني قائلين له : (إني كافر وعدو الدولة) فذكر لأحد أحبابه ما أنيط به القيام به فقال له : ويحك إن أهل دمشق يمزقونك إذا فعلت ما أمرك به الجمعية ، الرجل معروف بأنه ليس بكافر ، وأهل هذا البلد يحبونه ، فالأولى لك أن تعيد الدراهم لمن أخذتها منهم ، والله يرزقك من غير هذا الباب .

هذا كل ما استطاع الاتحاديون أن يأتوه انتقاماً لجميتهم مني ، بعد أن أصليتهم ناراً حامية على السياسة التي نهجوها مع العرب ، وكانوا يرسلون اليّ يمدوني باعطائي ماأطلب من المال ، على أن أعدّل لهجتي في نقد أعمالهم، واقترحوا عليّ أن يمينوني والياً في إحدى الولايات ، او في منصب يبادل

منصب الولاية ، على أن أترك الجريدة . فأجبت إن مطالبنا بالاصلاح إذا تحققت ترق الشام فأستفيد أنا في جملة ملايين من الخلق ، وأنا لا أكتب لغنم أصيبه ، وغابتي لتعليم الشعب المطالبة بحقوقه ، ودعوته إلى القيام بواجباته ، حتى تلتظم أمور المحكومين والحكام معاً .

علم الاتحاديون حرصي على الدستور ، وعلى الحكم النيابي ، يوم قامت الجمعية المحمدية في الاسنانه والولايات ، ودخل الناس أفواجا ، كيف تهورت في حرب هذه الجمعية الارتجاعية حتى قررت قتلي . وقال لي عبد الرحمن باشا اليوسف من كبار الاتحاديين : إن القوم يعني جماعة المحمدية ، يبيتون لك القتل ، فأنا مرسل لك ثلاثة أشخاص من شجعان الاكراد يرافقونك حيث ذهبت ، أو تنقطع على الاقل عن التجول ليلاً في المدينة ، فقلت له : إنهم أضعف من ذلك . وهذا مثل قولي لفوزي بك البكري وقد طلب مني أن أكف عن التعريض بشفيق بك المؤيد ، وقال لي إن والده عطا باشا قال : إذا لم أعدل عن غمز أعيان البلد فإن قتلي محقق ، فأجيبته : إني إذا في موتي لسعيد ، وأنا أعتقد أن عشرات من الشباب يقومون بعدي يستلمون زمام ما بدأت به ، وأي سعادة لي أعظم من ان أرى في أمتي من يتصدى للقتل لمقصدٍ شريف ، ويناقش بالحسنى كل من يقف في سبيلنا .

وبينا كانت الجمعية المحمدية تحاول قتلي ، كان جماعة من شبان الميدان — أعظم حي في دمشق — يتحالفون على حمايتي من الأشرار ، وقضوا بالمناوبة بينهم عشرين يوماً يتناوبون حراستي منذ خروجي من داري إلى أن أعود إليها ، في المزيج الأول أو الثاني من الليل ، أخذوا على أنفسهم أن يحموني من إطالة أيدي الأذني إلي . وهؤلاء كانوا من قراء المقتبس ومن المعجبين بما يكتب في الحكم الظالمين ، وما عرفت ما بدا من مروءتهم إلا بعد مدة ، وما كنت أعرف منهم معرفة شخصية سوى رجل واحد فقط .

وبعد هذا آتھمتُ بالارتجاع ، أي بمشايعة من يحاول إعادة العهد الاستبدادي ، وأنا الذي كنت من أول الناقين عليه ، والمحاربين له ، وللفرار منه فارقت الأهل والوطن سنين ، ورضيت بالاستخدام في الصحف المصرية حتى أعيشَ شريفاً لا أسفً إلى ما قد يُسَفُّ إليه بعض أمثالي . هذا عملي وهذا عمل الاتحاديين ، والاتحاديون أعاجم لا يفهمون ولا يحبون أن يفهموا ، أقوياء الشكيمة ، لا يرضيهم إلا أن يسير كل إنسان في المملكة على برنامجهم الأعرج ، بدون بحث ولا نظر ، وإلا فالقتل مصيره ، والقتل أيسر الأمور في نظرهم ، وأي حرج عليهم فيه ماداموا يحاولون سلامة الوطن ! وما أعرف كم مرة هددني الاثراك وأشياعهم بالقتل منذ قبضت يدي القلم ، حتى خرجوا من الديار الشامية . وكان يضحكني وعيديم ، كما كنت أهنأ بوعودهم .

جاء مصر قبل اعلان الدستور العثماني بسنة أو سنتين أحمد رضا بك صاحب جريدة تركية ، كان يصدرها في باريس ، واجتمع الي المشتغلين بالمسائل السياسية من اللاجئين إلى مصر من أبناء العرب ، وسألت رفيق بك العظيم ، وكان يدخل مع كل جماعة تتذرع بامر ينفع الشام وغيرها ، وقد اختلط به كثيراً ، عن رأيه في الدستور الذي يطالب به ، فقال انه يرى أن يكون دستوراً فيه التفوق للاثراك في كل حال ؛ ولا ينال سائر العناصر شيء من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة ، فقلت له : ان القوم لا يفلحون ، وكيف لمملكة سكانها ثلاثون مليوناً أربعة منهم من العنصر التركي ، وخمسة عشر مليوناً من العنصر العربي ، والباقيون من أجناس مختلفة ، ومنهم الأكراد والبشناق والشركس واللاز والروم والارمن ، ان يكون بعض الاقلية الكل في الكل ، ويهمل امر سائر العناصر ، ولا سيا العنصر العربي (البغي آخر مدة القوم)

سلطان الداعيان

استدعاني ناظم باشا والي سورية وطلب إليّ أن أتولى تأديب ابنه ، وقال لي : أكتفي منك بأن تلقنه ما أخذته من أفكار شيخك الشيخ طاهر الجزائري ، فاعتذرت بأن أشغالي الزراعية في القرية تحول دون غشيان الحاضرة كثيراً . فلم يقبل عذري على ما قرأت في أسارير وجهه . وعدّه مخرجاً من هذه السخرة ، أو ترفعاً عن تدريس طفل ، أو سوء أدب من صغير إلى كبير . ورد كلام العظيم كان غير مألوف ، ولو كان في غير معقول .

وأنت علينا سنة جفت فيها الينابيع ، وغاض ماء الانهار ، فقام جيراننا أهل نهر المنيحي في الغوطة يمتدون على نهرنا نهر الداعيان ، ورفعوا بسط الماء القاسم بيننا ، فسال معظمه من ناحيتهم . والداعيان يروي أراضي أوسع وقرى عامرة بالسكان أكثر من المنيحي ، فشق الأمر على أصحاب الحق في قرانا ، وأرادوا ردّ مقسم المياه إلى حاله بالقوة . واجتمع كبار المزارعين وكنت في جملة من انتدبوا لرفع ظلامة الأهلين إلى الحكومة ، فنزلت هذه على إرادة المغبونين ممن كانت الحق في جانبهم . فتأثر أحد أصحاب نهر المنيحي ، لانكشاف المؤامرة عند أهل القرى وعند الحكومة ، وخصني بقسط وافر من غضبه ، أن كانت لي يد في إرجاع القديم إلى قدمه .

مضت أيام ونشبت فتنة في اليمن ، وأقبلت الحكومة العثمانية في دمشق لتسخر الدواب لنقل مهمات الجيش ، وكانت تضع يدها في جملة ما تضع على الجياد المطهمة وخيل السباق . ومن اعتدت عليهم أحد وجوه تجار الخيل أخذت خيوله ، وكان يعدّ بعضها للسباق ، أو لتباع من الجيش الانكليزي في مصر ، فمظم ذلك عليه ، واستكتب أحد اصحابه بياناً بالعربية في وصف إدارة الوالي . وبما قال فيه : انه سلّم لحيته لذاك الوجيه (خصمنا في

(الماء) يحجره إلى حيث يشاء وشفع ذلك ببعض العبارات الجارحة .
 وعلّق هذا البيان على جدران المدينة فاهتم له الوالي ، وحاول
 بكل ماله من وسائل أن يعرف الكاتب . فقال له ذاك العين : إن
 كاتبه فلان ، يريدني ، مدعياً أن البيان كتب بقلمه ، وليس في المدينة من
 يكتب بالعربية غيري ! فصدر أمر الوالي بتفتيش داري ، ففتشوها وروّعوا
 عيالي ، وأخذوا أوراقى ودفاترى . ولما بلغنى الأمر لغيت عن الانظار في
 بعض القرى ، وكان ذلك في شتاء ١٣٢٢ (١٩٠٤) ، ولما لم يجدوا أقل
 إشارة إلى أنى أنا واضع ذاك البيان ، أراد الوالي تلافي الأمر ، فكلّم الأمير
 شكيب أرسلان قائلاً : إنه ليس له نحوى أدنى فكر سيئ : وما يجب أن
 يقول الناس عليه بسببى ، فجنّته وأمر أن تدفع إلى أوراقى ، وكان فيها أشياء
 لا تروق السياسة المتبعة يومئذ ، والغالب أنها لم تهتم كما اهتم لاطمن عليه .
 وحاول أمين سره ولي أفندي أن يؤخر أوراقى عنده فأخذتها منه على رغم
 أنفه . وهذه الحادثة السياسية استجحات فكاهة أدبية كما قال الأمير شكيب
 أرسلان ، وكان يردد أبياتاً نظمها على البديهة فيما أصابى ، راقى الشيخ
 طاهراً فأراد على أن يتمها قصيدة يصف الحال ، ومن اللذ كانت قصيدة في
 أكثر من خمسين بيتاً بدأها بقوله يداعبني :

ألا قل لمن في الدجى لم ينم	طلاب المالى سيمر الأثم
ومن أرقه دواعي الهوى	قدوت الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا نخبي فتى	شريد الكتاب طريد القلم
رى الأرض ضيقاً كشق اليرا	ع ويهوى على ذا الوجود المدم
ومنها :	

وفي كل يوم سؤال وبحث	وأنى تولى وأيت انهزم
وقد كان في كبسهم بيته	بجلق قال وقيل عمم
فكانت على كتبه غارة	كفارات عرب (الصفا) بالثم
وقالوا سينفى إلى (رودس)	وقالوا سيجزى بما قد جرم

وقالوا سيجمله آدم
وقد قيل (فزان) من دونه
وبعض بسجن عليه قضى
و (كرد علي) غدا عبرة
فيا كرد لا تحزنك الخطوب
ومن رام أن يتعاطى اليبا
فندي حرفة القول حريفة
وكم نكتة أعقت نكبة
ومن بالكتابة أبدى هوى

بمراقبة لا تستريح القدم
وتلك السموم وتلك الحم
وبعض بضرب عليه حـكم
ففات ومنه الرجاء انصرم
فان الهموم بقدر الهمم
ن توقع أن يتلى بالنقم
وكم أدركت من لبيب وكم
وكم من كلام لقلب كلم
فان الكتابة منها القسم

وبقي ذاك الوجيه المعتدي علينا في الماء يحمل احقاده إلى مجيء احمد
جمال باشا قائداً عاماً على الشام اوائل الحرب العامة ، فكان مما نصح له فيما
قيل ان الدولة لا تستريح في هذه الديار إلا إذا سلمتني ، فاني عدوها
اللدود ، اتلاعب بقول الناشئة فأفسدها وان مقالاني في الحكومة تشهد
باجلال عقدة الوطنية ، والخروج على الجامعة العثمانية . وقد قال لي جمال
باشا بعد مدة مشيراً الى هذا الاقتراح بما يقرب من الصراحة . قال لي ،
وانا في بيته ازور بامرہ الادبية التركية المشهورة خالدة اديب خانم ،
وكانت تزيلته إن بعض الاعيان اقترح عليه قتلي ، فقلت له مها قيل فاني
مدين بالحياة لك ، فقال كنت أنوي شنقك ولكني وقّرت عليك .

والحق مع ذاك الوجيه في أن يحاول التخلص مني ، لاني منذ أنشأت
جريدة القبتس اليومي في دمشق ، وأنا أنبه الحكومة لتنفذ الاهلين من
تسلط أعيانها ، وأن تقصيمهم عنها لثلا تزيد في سيطرتهم ، فيقوون على
الميث بحقوق الشعب وحقوق الدولة ، ولو بمحتشاعن مصادر ثروة معظم
تلك الطبقة ما رأيناها تمدومصدرين اثنين سرقة الدولة وسرقة الأهالي .
وقد حاول ذاك الوجيه أن يستميلني بعد مدة ، وأظنه ما اقتنع أن يبدأ
ضمينته كان لدفاعي عن حتي وحقوق الضعفاء في قريتي وما جاورها ،
وكننت الظافر في تلك الوقعة ، وتأكدت أن الاعيان يبعضون من أرباب
الأقلام كل من يلبه الافكار .

نجوت من الفاروقى وجبل الدروز

لا اعتدى بعض دروز حوران على جيرانهم أهالي قريتي غصم ومعربة وسكانها مسلمون سنيون ومسيحيون، وقتلوا منهم نحو ستين رجلاً وامرأة، ونهبوا بعض قرى السهل القريبة منهم، كتب المقتبس هذه الاخبار مفصلة، وما زال يكتب فيمن دأبوا على شق عصا الطاعة، حتى عزمت حكومة الاتحاديين أن ترسل حملة على الجبل لتعيد الأمن إلى نصابه، وتضرب على أيدي الخارجيين على السلطان. وأرسلت الحملة بقيادة اللواء سامي باشا الفاروقى. أخذت الجريدة تروي الاخبار بصورة تفت في عضد العصاة، وتضعف شوكتهم، حتى قال لي سامي باشا الفاروقى إنه كان من نفع «المقتبس» في الحملة، ومن تأثيراته فيمن أدخلوا بالأمن، ما يوازي تأثيرات فرقة من الجند، وأن صوته نفع الدولة كما كان يتوقع من عشرة آلاف جندي في مثل هذه الحال. وكان صاحبنا خليل رفعت الحوراني يكتب في الجريدة من الكتابة في كل ماله علاقة بأحوال الجبل، يبين مسالكه ومضايقه، وسهوله ووعراته، يلقطها من أفواه العارفين، ولا سيما من صديقنا علي آغا العسلي والد شكري بك، فكان كلامه على الطرق والمياه، وعلى أخلاق القوم وعاداتهم مما يزيد أمراء الجبلش بصيرة، وأكد رئيس أركان حرب الحملة أنهم انتفعوا بالخرايط التي رسمها خليل رفعت الحوراني وغيره في جريدة المقتبس أكثر من انتفاعهم بما لديهم من المصورات المختلفة، ذلك لأن الخريطة الوطنية مفصلة، فيها ما يحتاج إلى معرفته بدون تحريف في الاسماء، وخلت من الاغلاط التي تسرب إلى الغريب إذا أراد أن يكتب في شؤون بلد غير بلده.

ونارت عرب الكرك خلال هذه المدة لائن الدولة أرادت لإحصاء نفوسهم، كما أحصت نفوس حوران وجبل الدروز، فقامت الحملة الفاروقية

بتأديبهم فم الأمن الأرجاء ، وشنق بمض زعماء الدروز والكركيين ،
فذل المتزعمون وأرباب النفوذ في المدن والقرى . ولا تسلم عما أصبح للقائد
الفاروقي من الموقع في القلوب ، وغدا اسمه مضرب الامثال في الرهبة يخاف
منه البادي والحاضر .

وما هي إلا أيام حتى وقع الاختلاف بيني وبين القائد ، وانصرفت عنه
فلم يترك وسيلة لاسترضائي إلا أنها ، وأنا لا أزيده إلا نجهاً ، وانقطع صوت
الجريدة عن نشر محامده وأعماله ، كما كانت من قبل ، وما عاد يجري فيها
ذكر لجبل الدروز ولا للصحة . حداني على ذلك ما ثبت عندي وعند صديقي
شكري بك العسلي من أن الفاروقي جار على بعض رؤساء الدروز فماقتهم
بما لا يستحقون ، وأعفى من العقوبة اكابر المجرمين ، وربما وقع له أن جرّم
البريء وبرأ المجرم ، فأكبرت الأمر جدّاً ، ولت نفسي على تحمسي
في تأديب الجبل ، وعلى اغضاب القوم ، وفيهم الاصدقاء والخللان ، وفيهم
كرام الناس ، واصحاب النجدة والمروءة . فدهش القائد لوصولي إلى حقيقة
ما جرى ، وما ظن أنني اصل إلى كشف مآدر في سرّ . وما زلت أكثر
له عن نابي ، وهو يرجو ان أقبله او اقبل دعوته ، فأرفض ويتوسط
بعض أجبائي من ضباط العرب ليقتنوني بحسن حاله ، ويذكروا لي محبته لي ،
ويريدوني على أن أزوره ، وبت مصراً على الابتعاد عنه ، أشير من طرف
خفي لما حصل ، وهو يدرك أنني لم اذكر لجماعته إلا بمض ما أعرف ويحاذر
ان ابدأ بتسطير ما لا يليق من اعماله على صفحات الجريدة .

وأصيب القائد بالحمى بعد حين ، وبلغني أنه كان يقول في بحرانه :
لئن أحياني الله لأنتقم من (كرد علي) و (العسلي) انتقاماً يتفق
ومعاملتها لي ، سأقتلها شر قتلة ، وأجعلها عبرة ، فأريح البسل منها ،
وقضى نحبه بعد أيام . وقيل إنه كان أدخر من الاموال التي دخلت عليه
جانباً عند أحد التجار العراقيين بدمشق فانكرها بمده ، ولم يصل إلى أسرته
منها شيء ، لأن ذلك التاجر كان عارفاً بأصل هذه الاموال وآثر الفاروقي

أن يجباها عنده ، لعلمه بأنه يظهر أمره إذا أودعها في أحد المصارف
والغالب أن التاجر الباقعة لاشتهاره بالامانة لم يأخذ منه الفاروقي سنداً
بماله ، فاستحل أكله بعد موته .

حدثني صديقي يحيى بك الاطرش أمير الجبل في عهده أنه مانجا من
يد الفاروقي يومئذ إلا بفضل ماهدى اليه وانه سجنه في درعا ، وكان
كل مرة يومه انه سيحكم عليه ، فيادر الى تقديم مايرضيه . وأماما اضطرتني الحال
الى التزام الصمت في الجريدة عن الفاروقي إلا لكونه من أبناء العرب
وصعب عليّ إذ ذاك ان نقضح أنفسنا أمام الأتراك ، فيكون مما نكتب
حجة لهم علينا في إقصاء العرب عن الوظائف الكبرى ، مع أن من
كانوا على هذه السيرة منهم يعدون بالعشرات ، والفاروقي إن صح مانسب
اليه ، هو ابن تربيتهم . فاكثفت بمقاطعته فقط وعرفتني ، فإني عرفت ،
وأسفت على ماقدمت له من الخدم ، واحتسبت عملي في خدمة أوتي ، ورجائي أن
اكون مخطئاً في حكمي عليه .

ووقع لي مرات أن وقت في مثل هذه المآزق ، فكنت أخلص
القصد ثم يلتوي عليّ الأمر بالتواء من وضعت نقى به ، فأخاصم حتى
من بأيديهم اضرارى ولعطيل عملي . طعن بي أحد الكتاب المصريين مرة
لأنني ماطلعت كما تلوع غيري فقلت إنه اشعر من شوقي وحافظ ، وما
جعلت من مجلة الجمع العلمي بوقاً لشعره ، قال : إني مااشتغلت مع انسان
إلا اختلفت معه في الآخر ، وكان هذا الطعن صحيحاً من بعض الوجوه
ومن لي بأن ينصفني الطاعنون فينظروا في وجه اختلافي مع من اتصلت به هل
كان لاجل حظ نفسي أم للمصلحة العامة ، وأظن أن في تبجهمي لمن
تبجحت شيئاً من المنطق أكثر مما في دعوى خصومي . وهذا الفاروقي
هل من سبيل معه الى ألا تتخالف في الآخر ؟ أنا مع هذه الطبقة خادم
أمين ماداموا على الحق ، فاذا انضح لي أنهم حادوا عنه فكيف تود أن
أحاسنهم ولا تتنازع . ؟

في المهزيمتين

من أجمل الذكريات ذكريات الصبا وما فيه من مغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرء مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها إذا طعن في السن ، « والذكريات صدى المنين الحاكي » وهي مما يُجرّص على تدوينه لما تحمل من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال العثمانيين قبل أكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طرافة وتفكيه . ولكنرة ما نهزمت ، ووفقت في هزائمي كلها ، فأبنت عن مهارة في الهزيمة دعائي بمض الطرفاء « هزيمة » وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله) أن أوسس في القاهرة مدرسة أعلم فيها كيف ينهزم الخائف الذي يترب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الأزهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أجيب الطلب لو طال ذاك الحـكم في قطرنا أكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي واحتال لاقفال الجريدة واغلاق المجلة والمطبعة قبل صدور الحكم علينا ، وبعت إلى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحائه ، فوافقه بلسان البرق على إلقاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية كان لأحدهما اتصال بآدارة البرق ، عرفا بالأمر فطلبا إليّ أن ألبس ثيابي وأسير معهما ، فإن الشرطة تأتي بعد حين إلى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت معهما وأنا لا أعرفهما وغاية ما عرف أخّي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروعة من الشباب ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام أكرم أهل الدار مثواي

فيها انتقلت إلى حي السويقة ، وأويت إلى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي بطرني بصوته الرخيم وإنشاده البديع ، ثم عدت إلى داري وأعددت معدّات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً إلى الاختفاء في البيوت ربّما ينظر في دعواي ، وقد يطول النظر فيها عمداً ، فالأولى أن أصرف هذا الوقت في أوروبا ، وكنت منذ سنتين أريد الرحيل إليها للدرس والبحث فتعوق العوائق .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٢٧ هـ ركبْتُ من دمشق يرافقي صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك . ومن قرية القابون سرنا قبيل الفجر ، ومنها إلى قرية برّزه فمرّبا فبسيمة فدير مُقرّن فكفّير الزبت فدير قانون فكفّر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا إلى سوق وادي بردى فبعيتا الفخار فكأمد اللوز فجبّ جينين فلألا فبملول ، وفي هذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدايح ، وأنجبدنا قاصدين جزين في جنوبي لبنان . وعاد صاحبي إلى البلد وسرت وحدي إلى تاتّر فمأطور فالختارة فدير القمر وبّت فيها ، ووصلت إلى الباروك مارّاً ببيت الدين وكفرنبرخ . وبّت ليلتين في الباروك ومنها سرت إلى عين زحلّا فبت فيها ، ومنها إلى حمّانا فقرّ نابل فصلبّا وبّت فيها ثلاث ليال ، ومنها إلى بحدّس فبكفّياً فبيت شباب ، وقضيت في هذه القرية الكبيرة فيما أذكر ثلاث ليال ثم قصدت إلى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة أيام واخترت المقام في هذه القرية لأنّ كون على مقربة من الفربكة بلد الاستاذ امين الريحاني اقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت إلى بيروت في دار صديقي السيد احمد إلياس وبّما تيسر لي بعد الغروب النزول إلى باخرة نمساوية قبيل إقلاعها بقليل .

كان رأي في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليّ جرّأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك ، وكان

الوالي عدوي نقل من دمشق إلى بيروت ، فالأولى أن ترحل إلى مصر براً . فقلت له هذا متعذر الآن فقال : إذا تأوي إلى القرى ، وتتخذ من بيوت المجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع إلى الرجال ، وعلى هذا أردت النزول في عين زحلنا في دار عجوز ، ولما وقعت عليها علياً بكت ، فسألته ما يبكيك يا أماء ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته ، ثم سألتني عن ديفي فقلت لها برلستانات ، ففرحت ، وقالت : وأنا برلستانات وهذه التوراة ، وأشارت إلى المنضدة ، والقسم يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القسم خفت أن يحكي تلك الليلة وتنكشف له حقيقتي .

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذهني شبه البرلستاناتية على الكشركة ، حتى لا أستطيع أن أتكلم ساعة في البرلستاناتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه إذا كان ذكياً يتجلى له أمرى بعد قليل . فلما قالت المرأة ان القسم يحببها من الليل ، ادعيت أن غرفتها لم تعجبني ، واكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت إلى أسفل القرية فنزلت في الفندق . وكننت صنعت اسماً أردت أن اسمي به ذاك اليوم ، وهو اسم أحد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رأني صاحب الفندق وغرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكى في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استمر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي .

وفي لبنان لا بد لك أن تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وزهباك وزهباك ، امور كانت العرب تحرص على كتمانها . واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد انسه بك وتبسطه معك إذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك إذا كنت (مقرشاً) أم لا ، فان معاملة الموسر تختلف عن معاملة المسر ، ويود أن يطلع على مقدار مقامك عنده ليكون على

بصيرة من أمره . وأنا في تلك الحال لا أستطيع أن أقول إلا اني برستاني ،
والحكومة طاردني ، والوالي غاضب عليّ ، والانتظار ترمقني . وقد جازت
برستانتني على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته ،
واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرستانت ، فتمت الحيلة
على الخوري والخورية عشرة أيام . وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرستانت
وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرستانت
كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك . واتماماً لما نحيات له كنت
أطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من يتيق أن أشرب
منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتها في الحديقة ، لأوهمها
اني تناولت من عرقها .

ودعوى البرستانتية ما نفعتني في « بيت شباب » ذلك ان صديقي أمين
الريحاني قال لي إنه زار حبس مار بطرس قرب بيت شباب ، وهو بلبس
المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وانه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له :
وانا اريد ان ازوره واكتب فيه مقالة بالعربية . فقال لي : وانت في اي
حال الآن ؟ فقلت له : لا بدّ من زيارته . ومن القداستصحبت ولداً من
ابناء القرية يداني على قلاية الحبس ، فما إن حييته حتى وجهه إليّ السؤال
عن مذهبي . فقلت له : برستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ،
وهل انت الذي صبأت عن دينك الاصيلي ؟ قلت له : جدي . قال :
وهل لك راتب من البرستانت ؟ قلت لا ، قال اتعرف القراءة ؟ قلت :
قليلاً . قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرستانتية
إلا ليتزوج ، إلى غير ذلك مما أفاض فيه . واظن معلوماته عن النصرانية
لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .
وكان الحبس أكرم في بحفنة من التسعين المجفف فاخذت أتناول منه ،
والغلام الذي يرافقي يحدّثني بنظره ، والغالب أنهم لا يتناولون منحة
القس امامه ويجمعونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم .

وبدا المطر ينهمر ، فلا والله ما خلصت من عظامه ، وتكفيره لي ، وتخوبيتي عاقبة أمري ، إلا بانقطاعها ، وهروا أنا ودليلي ، وقد اعطيت الحبس شبه وعدٍ أن أعود إلى قراءة الكتاب ، وارجع إلى حجر الكنيسة . وسرّ دليلي بما سمع من وعظ الحبس لي . وقال لي أن انتصح بقوله حتى انجو من المذاب يوم الدينونة . ثم قال : (يا معلمي ، شفت هذا الحبس ؟ كان قبل أن ينقطع في صومعته يقف ساعة امام المرأة يصفف شعره ويرطّله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه امله ، دخل في الرهبنة ، فقلت له : هذا قد بقع فيمشق المرء ويحيب أمله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانتقطاع إلى الله عزاءً له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طفين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين جمجوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجائي من الوالي ، وكان من انسابه الا انه مشهور بكرامته له ، وأحب أن يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي أنك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لئلا السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوك يمرّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ؟ فرجوت ان يرجي هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي إلى ما بعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا الدولة العثمانية بجندها وحراجه سلطان عليّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت إلى بلدي عن طريق الاسناتة . وكان الداعي إلى الرحلة شراً فأتتج خيراً كثيراً .

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها ، وطول الطرق التي سلكتها برأ ولأثني كنت فيها كل ساعة معرضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي إلى جميع الخافر والتمكنات والمرافئ في سورية لاعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الاساليب حتى أعني أُرِي ويغم على الوالي أمري ، وأقنعه بأنني خرجت من ولايته فما اقتنع ، حتى ان أحد خلاني أتاني بورقة من أوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليها شعار البواخر الفرنسية (الميساجري ماريتيم) وكتبت كتاباً بالريشة الدقيقة يشمر بأنني كتبت على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من يروت باسم أخي عساء بنفس خناقه قليلاً ويكف الطالب عني ، فلما أُلقي إلى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكنني ما برحت دمشق . وبهذا فقط أثبت أنه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة إلى المدينة المنورة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة من نقد صحفيي ، ولو أياماً قليلة ، وكان الوالي في هذه المرة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به إلى سورية مرة أخرى ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فنفذ لهم ما أرادوا ، وهو ما كانت من حزبهم ولن يكون ، ورأى أن الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الجند والدرك ان كل من يأتي بي اليه حياً أو ميتاً يرقيه من جندي عادي إلى رتبة « بوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

كنت قادماً بعد العصر إلى ادارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند

تحيط بها ، فغمزني أحد الشبان أن أرجع ، وكنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبمّني فقال لي : إن أذاك فبضوا عليه الساعة وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت إلى دارى وقع في قلبي أن اقوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . وكان الأمر كما حسبت ، فخرجت من دارى سائراً على قدمي بين الحداثق لا ألوي على شيء ، وممي السيد حكمة المسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والانهار طافحة بالمياه ، فطلبت إلى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى إلى مجاز يمرّفه ، وما كان اكثر لمجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأسندت على شاطئى النهر ، كأنها جمر وضع لأعبر عليه ، وسرت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت إلى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسنى ، وكان حانقاً عليّ لأنني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تمرّيضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر المجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بإيعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسبق القائمان بها إلى الاسنانة المحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لهما النجاة من القتل .

قصدت دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبّاني ثلاثة ايام في دار بعيدة . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دمر فبلغنا المزة . وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة هذه ، وكبست في صالحة دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم تقف في المزة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها سرنا إلى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده اياماً على غاية من الهناء والطائفة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

كالمطف والمبابة ، وهذه أول مرة ابست فيها ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكونت موبوءة ، وذلك لينطلي أمري على من يراني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشعثت هندمي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني أحد أصدقائي عبد القادر آغا سكر من أعيان حي الميدان وأبطال الرجال يريد أن يصحبني إلى مصر فظننته هازلاً فإذا هو يمجّد ، ورجع بعد أيام يركب حصانه ، وقد ابتعت حصاناً بمحملي ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحديدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفاؤها قال الوالي : الآن يفر صاحب المقتبس مغتناً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته أن لدمشق عشرات من المناوذ وأن من اتهم تهق لا يهرب من طريق السكك الحديدية مادامت الأرض واسعة . وسرنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد أجمل ذكرى ، وقد كنم وجودي في بيته حتى عن أهله وأسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من الممانين بدلائهم على مخبئي .

سلكنا سبيلاً موجاً في أول مرحلة رحلتها من حوش بلاس ، فاجتزنا أرض المزة وبلاس والأشرفية وصحنايا والدرخبية والطاية وشعجب من قرى وادي العجم فدير القدس فالحارّة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجولان ، وانتهينا عصر اليوم التالي إلى نهر الرقاد ، ولم نهوّم في الطريق إلا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من أن يعرف أصحاب الحكومة بالأمر فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل ، والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقنا عليهم وشربنا ماءً ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا أننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : إن صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد أمرتنا الولاية بالقبض عليه !)

✓
وَعَرَفَ صَاحِبِي عَبْدِ الْقَادِرِ آغَا فِي الْجَوْلَانِ إِلَى رَجُلٍ نَجْدِي اسْمُهُ
عَبْدُ الْمَزِينِ الْحَبِيسِيِّ يَقُودُ إِلَى مَصْرٍ مَعَ سِتَّةٍ مِنَ الرِّعَاةِ سَبْعَةَ وَسَبْعِينَ جَمَلًا ،
هُوَ مَلِكٌ أَحَدُ أَصْدِقَائِي الْحَاجِّ يَاسِينَ دِيَابَ مِنْ تِجَارِ دِمَشْقَ . فَذَكَرَ عَبْدُ الْقَادِرِ
آغَا لِلْحَبِيسِيِّ " مَا وَقَعَ لِي ، وَمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ شَرِّ يَصِيبُنِي إِذَا سَقَطَتْ فِي يَدِ أَحَدِ
رِجَالِ الْحُكُومَةِ ، وَانَّهُ رَافَقَنِي حَتَّى يَبْلُغَنِي مَأْمَنِي ، فَقَالَ إِنَّهُ سَمِعَ بِقِصَّتِي .
وَمَا قَالَ لَهُ صَدِيقِي أَنَّكَ إِذَا أَخَذْتَهُ تَحْمَسُنَ لِأَهْلِ دِمَشْقَ ، وَهُوَ بِحِمْلِ دِرَاهِمٍ
يُعْطِيكَ بِقَدَرِ مَا تُحِبُّ . فَأَجَابَهُ : يَقُولُ لِي إِنَّكَ تَحْمَسُنَ لِأَهْلِ دِمَشْقَ إِذَا نَجَا
بِرُوحِهِ ، وَلَعَرَضَ عَلَيَّ أَنْ أَخْذَ مِنْهُ أَجْرَةً ، وَمَتَى كَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِأَخْذِ
أَجْرًا عَلَى الْمَعْرُوفِ .

وَعَادَ صَاحِبِي عَبْدَ الْقَادِرِ آغَا سَكْرًا ، وَسَرَتْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ مَعَ جَمَالِ
النَّجْدِيِّينَ ، فَقَطَعْنَا سَهْلَ الْجَوْلَانِ وَبَقَيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ دُونَ عَقَبَةِ فَيْقَ . وَاقْتَرَبَ
مِنِّي سَاعَةٌ نَزُولِي فَارَسَ مِنْ خَفَرَاءِ شَرَكَةِ الدِّخَانِ ، يَحَادِثُنِي وَيَتَحَبَّبُ إِلَيَّ ،
فَأُزَعِّجُنِي بِكَلَامِهِ ، وَلاَحِظْتُ أَنِّي مُتَعَبٌ كَثِيرًا فَقَالَ لِي : مَا لَكَ وَلِلْجَمَالِ تَتَجَرَّ
بِهَا - وَرِعَاةُ الْجَمَالِ يَوْهَمُونَ مِنْ نَصَافِدِ أَنِّي أَنَا صَاحِبُهَا - لَوْ فَتَحْتَ لَكَ
دُكَّانًا فِي سُوقِ بَابِ الْبَرِيدِ بِبِلْدِكَ لَعِشْتَ فِي نَعِيمٍ ؛ وَخَلَصْتَ مِنْ هَذَا الشَّقَاءِ ،
وَمِنْ قَطْعِ الصَّحَارِيِّ وَالْبَرَارِيِّ ، فَتَنَاءَبَتْ وَتَنَاسَلَتْ . فَقَالَ لِرَفَاقِي « إِنَّهُ لَمَبَانُ الْمَسْكِينِ »
وَتَرَكَنِي وَانْصَرَفَ .

وَمِنْ الْفَدِّ هَبَطْنَا الْعَقَبَةَ فَأَشْرَفْنَا عَلَى أَرْضِي غَوْرَ بَيْسَانَ وَبَحِيرَةِ طَبْرِيةَ
وَنَهْرِ الْأَمْرَدَنِ (الشَّرِيمَةِ) فَاجْتَرَأْنَا الْجَسَرَ الْقَدِيمَ الْمُتَدَاعِي سَبَاحَةً عَلَى الدُّوَابِّ ؛
ثُمَّ تَوَقَّلْنَا الْجَبَلَ إِلَى مَوْقِعِ الدَّلَائِيكَةِ ؛ وَهُوَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ مَنفَرَجَيْنِ مُتَآزِيَيْنِ ،
وَبَقَيْنَا لَيْلَتَنَا فِي سُوقِ الْخَانِ بِلَدِ الصَّبِيحِ عَلَى سَاعَتَيْنِ مِنَ النَّاصِرَةِ . وَفِي الْيَوْمِ
الرَّابِعِ دَخَلْنَا فِي غَابَةِ عَظِيمَةٍ مِنْ شَجَرِ الْبَطْمِ نَحْوَ سَاعَتَيْنِ ؛ فَبَلَّغْنَا قَرْيَةَ
دُبُورِيَّةَ ؛ وَفِي مَنطَاقِ أَرْضِ هَذِهِ الدَّسْكَرَةِ يَبْتَدِيءُ مَرَجُ ابْنِ عَامِرٍ (سَهْلُ
يَزْرَعِيلِ) فَقَطَعْنَاهُ عَرَضًا فِي أَرْبَعِ سَاعَاتٍ حَتَّى بَلَّغْنَا قَرْيَةَ اللَّجُونِ ؛ وَمِنْهَا إِلَى
وَادِي عَارَةَ ؛ وَطَوَّلَهُ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ ؛ وَهُوَ ضَيْقٌ مُتَوَازِي الْأَضْلَاعِ . وَبَقَيْنَا

الليلة الخامسة في عيون الاساور على ساعتين من قيسارية ؛ واجتازنا في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وفلنسوة والطيرة ومسكة ، فبلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا .

وحدثني من أتق به بعد مدة ؛ أن جماعة من أعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا أهل قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وأشاروا اليهم إذا رأوني أن يحملوني الى مكان بعيد ، ويبعدوني عن أنظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان أهل القرية من القرى المستخرجة يتدبون أناساً من شجعانهم وأصحاب المروءات منهم ، يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين وباتوا يترصدون المآبر والمساالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أنني بلغت مصر . وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي مادمت حياً .

وفي اليوم السابع اجتازنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل بربرة ، بير هديد ؛ غزة . ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة . وقضينا الليل في دير البلح . وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رَفَح أول حدود مصر والشام . وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعلية : ها أناذه . وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لانبعد عنه كثيراً ، والرمال لا يتبدل شكلها .

ذكرت هذه المراحل لاني قطعنا على راحتنا وما كنت لا قطعها لو خيرت . وقد استفدت من هذه الرحلة فوائد جغرافية وطوبوغرافية . وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وافريقية أو بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق ممبدة لسلوكها السيارات . وقصدت بتقييدي هذا لتسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدع قديم بطل ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الانباعر فاستحليتها وهي مُرّة .

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق ادن بالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد أن عدت ماوقع لي منذ خرجت من بلدى إلى أن دخلت الاسماعلية ، وأملت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من أعمار الطرق منذ كان الاسلام : وكان رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام وزولي على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صفحة واحدة ، وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من طعامهم 'نمنن' العراق وجريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالمسلة أو على الساج 'يسجر' بعر الاباعر ، والرمال تسفو فتدخل كل مايعمل هناك من خبز وأدم ، وكل مطبوخ ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي إلا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة ايام أسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس إلى مياه الجفار البشعة المهوّعة ، وهي بعض ماء البحر روثها الرمال قليلاً . وأذكر ان «خوي» المحبسي ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحذو لها بصوت يذكّر بنجد وأهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه بذكرة شرب منها وأعطاني فاذا بها لبن رائب ثم أرادني ان اشرب واشرب ، وارتدت ان اعطيهم شيئاً فأشار إليّ الا افعل . وكنت أتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنياً وأنا غير مغبون . وكنا امرأة زولاً على بشر أنثى على عهد الخديوي عباس الثاني ، وعليه كتب اسمه ، فاتاني وليد بمقطف من الطاطم (البندورة) الصغيرة فأجبت أن أعطيه ريالاً فصرخ «خوي» بشلك ، ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضرب بنا فتجن لانزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تمودوا الكثير نضطر أن نعطي كل مرة كما أعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وأنا في هواجس أدبر وأقدر . وسرت قبيل الفجر أمام قطار الجمال وأنا أقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فلما أن أنجو وأدخل أرض مصر ممتاً بالنعم بمد هذا الشقاء ، أو أعود أدراجي وأنا في قبضة الترك إلى مطبق من مطبقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة . وبعد خمس ساعات سألت المحبسي متى نبليغ رفح فقال : قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعتراضنا قائلاً إن إخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع ، فأقنعناه بأن هذا حصان راعي الجمال الذي تراه . فأخذ « البشلك » وهي قطعة أساوي قرشين ، ولم يمسننا بسوء ولم يحقق من أمرنا غير ما رأى .

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها ، وكلمهم نجديون لا يعرفون الفصول ، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالإشارة ولا بالمبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون إلينا ويختلف إليهم ونشرب القهوة معاً ، وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمره ورواجه وكساده . ولم اسمع في أربعة عشر يوماً بلباليها كلمة هجر وبذاء ، ولا تجديفاً ولا لعناً ، ولا نعيمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكرأ . وكان أولئك الأعراب مواظبين على صلواتهم ، يتيممون بالرمل إذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه إذا وجد . وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير البيطار على محمد أبي الفرج شيخ بني عطا وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى ، وبت ليلة في الزباز (الزبزة) عند صديقي فواز بن سظام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته ، وكان

الميش في اللبتين اللتين قضيتهما في بلاد الشراة « ديمقراطياً » وفي ارض
البلقاء « ارستقراطياً » ، نمنا هنا على فرش الحرير محشوة بربش النعام ، وشربنا
في الصباح لبن النياق .

سألني أحد الاشراب أي الميش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام
البداءة ؟ فقلت له : ابقوا على بدائتكم واقربوا من المدنية ما سمحت لكم
حالتكم وإياكم أن تغفلوا عن تعليم أولادكم . وإني اخاف إذا عاشتم الحضرة
فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم أمركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم
إلى مائتة منه حضارتنا من النفاق والكذب والزور والخديعة . ولولا
الفترات المتواترة عندكم لآثرت أن اعيش في هذه الديارات بين البوادي
ولو اشهرأ في السنة .

زرت في تلك الرحلة عمان والصلت والكرك ومادبا ومؤته ، وجئت
ممان فقصدت إلى عاملها صاحبي القديم حلیم بك ابو شعر وطلبت منه ان
يصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنأدى دركياً واسراً إليه شيئاً في
أذنه ، واطنه قال له أن ينتبه لحديثي مع البدو وان يخبئه بخبري كله .
وشكرت له لأنه لم يقل له جثني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور إلى
قلوب الانحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في
ذاك الاسبوع . وانتهى بنا السير قبيل الغروب إلى عين ماء عذبة على خمس
ساعات من ممان فقلت للدركي : نتمشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل
يمكن هذا وبعد ساعة نصير إلى قبيل العرب فيذبجون لنا ؟ فأقنمته بأن
نأكل من زادنا لأنني لا اريد ان اشق على الفقراء فتزل واكلنا .

وفي المساء كنا نزولاً على العربان فما ان ترحلنا حتى سمعت صوت
« المهباج » لعمل القهوة واصواتاً أخرى تنبي بأن الخروف يذبح . فقلت
الدركي : قل لهم انا تعشيننا : فقال : هذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين
ترام من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسبك) فانهم
ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا

ساعتين فخرج الحروف في قصعة صغيرة وجملت تحته رفاق من الخبز لُبت بالمرق والابن الرائب فأصبنا منه قليلاً لإرضاء لهم ، وكنا نراهم . والقريب من القصعة يتبعهم للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من فوق رؤوسنا وتتجاوز العظام أيدي البدو فأسمعهم وهم يَمرقونها بأسنانهم كما يَمرق الكلاب العظيم . وخمنت من تناولوا من الحروف تلك المشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت اننا سنزل على مثل هؤلاء الاعراب يكرمونا هذا الاكرام على فقرهم لملت اليهم من معان على الاقل بعض الثياب أكسو بها بعض أبنائهم وبناتهم لأنهم كانوا أشبه بمرأة .

وأعظم ماملاً نفسي سروراً في رحلتي إلى المدينة المنورة أن رأيت العمران بدأ يسري ، بفضل السكة الحجازية ، إلى بعض المحطات ، وأخذت المدينة تدخل في تلك القفار ، ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الاودية في ارواء الارض ، فأنشئت الحقول والحدائق بمد بلدة معان ، وبدأ الاعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظل استثمار الخط إلى اليوم لرأيت قرى قامت على جانبي هذا الطريق الطويل ، وصار للبادية ما تبلى به وتعيش ، ولقامت بمد الديار الشامية حتى مدينة الرسول « هجرات » على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل السموود فأغنى أهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكث ، وحجب اليهم عيش المدر بمد عيش الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام أن جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وأدب لا يكونان في أبناء العرب ، فان هؤلاء يضطجعون ويأخذون حربتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والافغان والجاويين والبرانيين والقوقازيين والسودانيين والأتراك ، كأن أبناء العرب يرون ان صاحب هذا القبر الشريف هو بعض أبناء عمهم أو احد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة ، على ما هو الحال بين أبناء أسرة واحدة .

ولسأني وقد ألبستك بما قصصت عليك ، وأنت هل لمبت بقطع هذه المسافات التي قطعناها ركباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عباده ويمينهم . كنت إذا ركبت دابتي إلى قريتي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع إذا نزلت عنها ساعة أو ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص أقل مرحلة قطعناها هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثمانى عشرة ساعة في اليوم ، وسرنا في اليوم الأول اربعاً وعشرين ساعة متتامة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكثني بنوم ثلاث ساعات نشط عقبها للركوب كأننا نمنا ثمانى ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالأعراء على الأرض بميدان عن القاذورات والرطوبات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا أتبرم به كثيراً ، وهو جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هزيمتي مدينة القاهرة قصدت إلى مقهى « اسبلنديدار » نوأ ولم أكن أحمل ممي شيئاً إلا ما عليّ من ثياب وسخة . فكان كلما جاء واحد من اصحابي الصحافيين يعمى عليه أمرى ، حتى أتكلم وأضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنا النصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطلبان ينظرون إلينا شزراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلمهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من لبيبه ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين العثمانيين . واخذني حقي بك العظم وصورني بذلك الهندام المجيب ، وساقني رفيق بك العظم أمامه إلى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساحة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت إلى قيافتي . وعندها بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع إليّ قواي إلا بعد نحو اسبوعين ، حمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يامصر ملجأ الأحرار ،

سبك نجوت منه ونجوت به

زارني في داري قبل الحرب العامة بنحو سنتين أحد موظفي خارجية فرنسا (ج. ب) ، وكان أوصاني به قنصل دولته في دمشق ، فرأى على مكتبي جريدة (الطائر) ففتح الكلام بأن قال : إن أهل الشرق الأدنى يتوهمون أن هذه الصحيفة هي لسان حال خارجيتنا ، والصحيح أنها لسان حال نفسها لا تنطق بلسان الحكومة ، ولا هي من الصحف الرسمية . ثم قال إن جريدة المقتبس إذا خدمت سياستنا ، فلصاحبها أن يطلب ما يجب مقابل خدمته ، وقرب وبعد من هذا المعنى . فأجبتة بلطف بما معناه : إنك تعرف ولا شك الاتحاديين ، جماعة حزب الاتحاد والترقي ، القابضين اليوم على زمام الدولة ، وتعرف أن الأتراك مثلنا من أهل الاسلام ، لا فرق بيننا وبينهم إلا هذه اللغة ، وتعرف أن جامعتنا بالأتراك لم تبدأ بفتح العثمانيين أرض العرب ، بل كانت علائقنا بهم وشيجة منذ انتحلوا الاسلام أوائل الحكم العباسي ، وقد ساروا معنا في قتال الصليبيين جنباً إلى جنب ، وبهم وبالأكراد دفعناكم عن بلادنا في القرون الوسطى . ولما بدا للاتحاديين أن يتركوا العناصر كان من رجال العرب أن حاربوهم بكل ما عندهم من أسباب الكفاح . وذلك لأن العرب لا يريدون أن يتخلوا عن لغتهم وقوميتهم ، يعتزّون بتاريخهم ويفجّبون بحضارتهم . وأنتم كيف تريدوننا أن نسير معكم مع مخالفتكم لنا في الجنس والمدينة واللغة والدين . وكيف نشايكم وأنتم تحاولون القضاء على لغتنا وقوميتنا في كل أرض حلتتموها . بدّلوا سياستكم في الجزائر وتونس ، والمسلمون طيبة قلوبهم يعتفون بجميل من يسدي إليهم يداً ، ونحن في الحال نردد صدى امتنانهم منكم ، بدون مقابل على ما ننشر ثم إنني وإخوتي مكفيون مؤنة الرزق ، ولنا مزرعة في

الغوطّة نرتفق بريمها ، وأنا واثنين من إخوتي نعمل في الجريدة ، فإذا كانت الصحيفة مثلاً تكلف غيرنا في السنة ألف ليرة فنحن تكلفنا خمسمائة وجريدتنا رائجة ولها قراء ، وتباع في جميع مدن سورية ، ولها موارد جيدة من الاعلانات .

تلمل الزائر من هذا الجواب ، وأكد عليّ قبول اقتراحه فقلت له : لا يسعنا إلا أن نكون مع العثمانيين . وجاءني بعد الحرب العالمية بأكثر من ست عشرة سنة يزورني في داري فلم يحدني . والغالب أنه اشتاق إليّ وأراد أن يذكرني باجتماعنا السري على عهد العثمانيين ، وبما بدر على اساني يومئذ ، والسياسة تتبع الأحوال ، وتبدل بتبدل الأزمان .

ومن كان يظن بأن ما جرى بيني وبين الرجل قد حفظت صورة منه في دار القنصل . وتصرّفت الأقدار تصرفها ، ونشبت الحرب العامة ، ووضعت الدولة يدها على القنصليات ، وفنشت أوراقها ، وأهمها الاطلاع على أسماء من كان لهم من الأهالي صلة بها ، فخرج تقرير ذاك الرسول الذي كان قصدي قبل الحرب ، وفيه تفصيل لما وقع لنا من حديث ، فدهشت الحكومة العثمانية من تصرّجاتي هذه ، وكانوا يتهموني بالصلاتي بفرنسا تارة وبانكلترا أخرى ، ويرمونني بخيانة الدولة على كل حال ! ثم خرجت لي أشياء في أوراق دور قناصل فرنسا في بيروت وحلب ، ومنها منشور عام من سفير فرنسا في الاستانة إلى قناصل دولته في الديار الشامية يقول فيه : إن كردعلي شخص لا يركن إليه ، وإن الحكومة التركية استرضته مؤخراً ، وبرأته من دعوى كانت أقيمت عليه ، وحذّروهم مني وقال : لمني لا أسير إلا مع الأتراك .

وكان السبب في نزع الثقة مني أنني أبنت عن رغبتني لأحد أصحابي في باريس ، وهو المسيو لسانتليه صاحب مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ، بزيارة ألمانيا في عودتي من فرنسا (١٩٠٩) فقال لي : إذا فعلت اخرجك من صداقتي ، ولا أعرفك ولا تعرفني . وعجيب من حال بعض السياسيين من

الغريبيين ، يطلبون منا أن نوالي من يوالون ، ونعادي من يعادون ، ونحن لا ندخل لنا في سياساتهم المتبدلة .

ووقع الاتحاديون في كتب ضبطوها من البريد على ما يؤيد أيضاً لعلي بالعمانيين ، وهو كتاب من رفيق بك المظم إلى فرع حزب اللامركزية في دمشق ، جواباً على كتاب رئيس الحزب خلاصته أنهم عرضوا عليّ الدخول معهم فأبيت ، وقلت لهم : إن الدولة تعد برنامج هذا الحزب خروجاً على سلطانها . فكان جواب رفيق بك : دعوه وشأنه ، إنه يعترض أبداً فيخرب ما يزيد أن نعلمه . ذكر لي ذلك ضياء بك ضيف جمال باشا الذي أشرت إليه في مكان آخر .

أدرك الاتراك أنهم ضلوا كثيراً باتهامي زمناً بأمر أنا بريء منها ، وجاءني التبرئة بطبيعتها تمشي على قدميها ، ومضت أعوام وأنا أرمى بكل كبيرة ، ويهموني بأني عدو أزرق لدولتهم ، جرياً على العادة المتبعة في اتهام من يقصد اتهامه بأقصى التهم وأشدّها . وكنت أرى من الغضاظة عليّ أن أبريء نفسي مما ينسب إليّ ولم يخطر لي ارتكابه ببال . وما كان يتأتى لي ذلك ، ولو أتيتهم بألف برهان على برائي ما صدقوني ، لأن معظم الخلق ينضح من انائه ، والكذاب يعتقد أن كل إنسان يكذب ، والسارق يعتقد أن كل امرئ يسرق . وكنت اكتفي بأن أقول إن كانوا يهتموني بأن لي ضلعاً مع الانكليز أو الفرنسيين فإن من يشايح دولة لا بد أن تظهر على كلامه امارات الحزب لها ، وتبرير مواقفها في سياستها ، فهل يجد الاعداء يا تري في كل ما كتبت في جريدتي المقتبس وفي الصحف التي آذرت فيها في مصر كالمؤيد والظاهر واللواء والرائد المصري كلمة واحدة تشيبي للدول صاحبة المطامع في الشرق . ولطالما انتقدت سياسة الدولتين إذا رأيت ما يحق لي تقده .

وبعد فإن هذه التقارير والشهادات كانت سبب نجاتي من القتل اثناء الحرب العامة . وكان اعدائي واوليائي يقولون اني سأكون اول المصلولين

من ابناء العرب إذا وضع الميزان للحساب . وكان الاتراك يحرقون عليّ
الأرّمْ ، لكثرة ما تأذوا بما كتبت . والحق إنني كنت انحي على القائمين
بالامر ، كلما تقاضيتهم بعض حقوق العرب المشروعة ، وهي مطالب لانفراجهم
من حظيرة الدولة وتزيد قلوبهم ارتباطاً بها . واكثر ما كنت اردد نفمته
التعليم باللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، وجعل المحاكمات بالعربية في
الولايات العربية ، وان يعرف المال بأجمعهم اللغة العربية ، إلى غير ذلك من
المطالب المعقولة ، وكان بعض الاتراك يتألمون من سماع هذه النغمة ، لئلا تسري
بزعمهم إلى الاكراد والالبان والروم والارمن وغيرهم من العناصر العثمانية .
بالغ الاتراك في اضطهادي ، وانا صابر لا يزيدني ما اتقى من اذام
الإثباتاً على المطالبة بحقوق الامة . ولقد اغلقوا الجريدة مرات في عهد الدستور
والحرية ، بضروب من التهم المضحكة لفقوها ، وآخر اغلاق كان لنشري
مقالة عنوانها (حجاب النسوان) نقلت عن صحف الاستانة ، فصدر الامر
باقفال الجريدة شهراً ، بدعوى أن المقالة خدشت الازهان ! ثم رخصوا
بإعادة صدورها ، فاستنكفت من معاودة نشرها واعلنت اني لا احب العودة
إلى الصحافة لما اورثني من متاعب ، وهنا عرض عليّ قنصل فرنسا معاونته
بواسطة صديقي جورج فاخوري اولاً ، ثم كلني شفاهاً بنفسه ، فأبيت اخذ
شيء منه ، وشكرت له عاطفته الكريمة . واخذ الجواسيس براقبوني ،
ويتبعونني في غدوي ورواحي ، ويكتبون اسم كل من يزورني في داري ،
وازوره في داره او مكتبه . ودام ذلك اشهرًا حتى اعلن النفير العام ،
وعزمت الدولة العثمانية على الدخول في الحرب إلى جانب دول اوربا الوسطى .

والى سورية خلوصى بك

نصب والياً على سورية خلوصى بك شيخ المهندسين في الدولة العثمانية ، وهو رجل عظيم بأخلاقه وعلمه ، وكان يحب الشام ويمطف على أهله . وقيل لي انه كان ربي فيه صغيراً ، وإنه يحسن التكلم باللهجة الدمشقية ، وأنا لم أكله بها . جاء في أول النفي العام قبل اعلان الحرب العامة بأشهر قليلة ، فزرته أول مرة في مكتبه ، فقابلني بمبوس وتجهيم ، ثم قال لي : إن الوقت ضيق ، وأشار إليّ أن أزوره بمد رمضان ، وكنا في أوله . وبعد أسبوع بث يطلبي اليه بواسطة الشرطة فأتيته ، فقال لي : إن الحالة السياسية الحاضرة اقتضت أن يعجل الاجتماع بي ، وذكر لي أنه يحمل من الاستانة اضبارة ما أتهم به ، وإن الحكومة تنسب إليّ مسألتين ؛ احدهما أنني أعقد الآمال على استيلاء فرنسا على هذه الديار ، والثانية أن قنصلها في دمشق يزورني وأزوره . فلما سمعت قوله انتصبت قائماً ، والفيظ آخذ مني ، ضربت يدي على مكتبه بدون اختياري ، وقلت له بصوت عالٍ ، مما يخالف أصول الأدب مع الكبراء : إنني أرى يادولة الوالي ان وجودي اصبح عبئاً ثقيلاً على الحكومة العثمانية في هذه الارجاء ، وأنا منذ مدة والجواسيس يتبعوني حيث سرت ، وتكتب كل يوم قائمة بالاماء من يدخل بيتي أو أدخل بيته ، ويراقب بريدي مراقبة مضحكة ، فهلا امرتم باخراجه من المملكة كلها ، او بحبسي في إحدى القلاع ، او نفيي إلى بلد بعيد ، انقطع فيه عن اتيان ما لمقتدره ضاراً . اما آسالي مع فرنسا فان لم أكن اول من يعرف غوائل الاستعمار فأنا ولا شك احد افراد خمسة على الاكثر يعرفون ما هنالك . وأما صداقتي لقنصلهم فسيبها انه رجل مستعرب يحسن العربية ، وكان اسمه المسيو اتافي ، وهو يستعير مني كتباً ، وأنا أستعير منه الصحف

الممنوعة ، ثم إنني إلى ذلك أجتمع مع معظم القناصل ، لأنني أحب أن أتخبر لجريدتي ، وهم عارفون بالحركة السياسية ، ووكلاء الدول طبقة مهيبة في أهمهم ، واجتماعي بهم أعود عليّ وعلى امتي وجريدتي من اجتماعي بالعامّة ومن في حكمهم .

فجدق الوالي النظر فيّ دقيقتين ثم أجاب : يا هذا ليس لك أن تفضب ، مادمت موقناً أنك على حق . وأنت عالم بأن المشتغلين بالسياسية عرضة أبداً لظمن خصومهم فيهم ، ينالون من شرفهم ، ويهيمونهم بأمانتهم ، ويضربونهم في كل عزيز عليهم . إذا عرفت هذا فليس لك إلا أن تضحك مما يلصق بك أعداؤك من التهم ، فمن الطبيعي أن يعاملوك هذه المعاملة ، ولا تتوقع منهم غيرها . فشكرته على هذا العطف واللاطف ، وانصرفت من لدنه وهو يرجوني أن أزوره كلما السع لي الوقت ، فقلت له ضاحكاً : على شرط ألا أجيء بواسطة شرطي . قال : وهو كذلك .

وجئت الوالي العظيم بعد أسبوع فقال لي : وهو ضاحك مستبشر ، أكثر من زيارتي لتقلل من تقارير الجواسيس فيك ، فإني لا حظت أن تقاريرهم خفت هذا الأسبوع ، وآخر تقرير منهم كان فيه أنك اجتمعت وشكري بك العسلي وشخصاً آخر سماه ولا أذكر الآن اسمه ، وأتيتم براقصة وعريتموها من ثيابها ولففتموها بالعلم الفرنسي ، فضحكت وقلت له : من رأنا ونحن على هذه الحال المنكرة ؟ وهؤلاء أغلقنا النوافذ والشبابيك أصلحنا الله ؟ وثقوا أن هذه الرواية الخلاقية لا يمثل مثلها في باريز ، كأن تكون في المرء أو في غرفة مفتحة من كل أطرافها ، وإني لم أجمع مع شكري بك وأصحابه على منكر قط .

زرت الوالي بعد العيد فأهل بي ورحب وبشّ لي كثيراً ، وقدمني إلى من كان في مجلسه ، ومعظمهم من كبار الموظفين الاتراك والنواب ، فاتفق أنني ما كنت عرفت واحداً منهم ، فقال لي : من الغريب أنك لا تعرفهم وهم أرقى فئة من عمال الدولة هنا ، فقلت له : إن بعضهم جاء سورية

من عهد غير بعيد ، وليس لي بهم علاقة ، ولم يتفق لي الاجتماع بهم ، لأنهم في واد وأنا في واد . ثم قال لي : أهني نفسي وأهنتك ، أهني نفسي لأنك تذكر اجتماعنا في أول شهر رمضان ، وقد ذكرت لك ما يوجهونه إليك من التهم ، لاني في ذاك النهار برأتك على الفراسة للجماعة الاستانة ، ونفيت عنك ما ألصق بك ، وأنا الآن أعقبط بأن كنت صادقاً في تبرئتي لك . لأن أوراق قنصل فرنسا أثبتت أنك كنت واخوانك مخلصين صادقين لهذه الدولة ، وكنا نعتقد في جماعة الاخلاص ونرميكم بالخيانة ، فثبت الآن أن من توهمنام مخلصين هم الخائنون حقاً ، وأنتم الصادقون (وأشار إلي أحد الباشاوات) فاسرح وامرح بعد الآن ، فقد بُرئت برأة قطعية ، فلك تهنئاتي وتهنئات حكومتي . فشكرت وانصرفت ، وفرحت وفرح مي كل من يحبني فرحاً عظيماً .

استحكت أواصر الصداقة مع الوالي ، وغدا يكلمني بحرية قلما عهدتها في تركي ذي منصب سياسي خطير ، ولكن خلوصي بك كان عالماً كبيراً من علماء الدولة العثمانية ، قبل ان توسد إليه الولاية ، والعلماء أحرار بالطبع . وصرت اجلس في حضرته الساعة والساعتين ، وهو يمازحني بمازحة الائب لابنه ، وبلاطف بعض الموظفين والعامل ، وبمض كبار ارباب المصالح . سألتني مرة ماذا دبرت لاعفائك من الجندية ، أألت بمن أصابهم القرعة ؟ فقلت له أصابني القرعة وأصابني مصيبة بدفع أربعين ليرة بدلاً نقدياً . فقال : أحسنت بأدائك البدل ، وبإثارك دفع المال على الخدمة الفعلية ، فقلت له : ولم ذلك ؟ وأنا لم أفهم قول سيدي الوالي أحسنت . وكيف أحسن بتعريجي هذا المبلغ ، في وقت مُسَدَّت فيه أبواب المصارف في وجوه معاملها ، فلا يستطيع أكبر غني أن يأخذ شيئاً من ماله ، ولا رجاء لمضيق أن يستدين من أحد ديناراً واحداً . قال : نعم أحسنت لأنك لو دخلت في الخدمة لأفسدت الجيش ، فلو كنت في خمسة آلاف جندي لفضضتهم ، بما توردد لهم من البراهين على قلة فوائد الحرب ، وعلى فظاعة

القتل ، فيرجعون من حيث أتوا . فقلت له : كأن مولاي يعرف ما في قلبي ، والله لو علمت أن هذه الدعوة تنجح ما تأخرت عن الجهر بها لحقن دماء البشر ، وتقليل نصيبه من الشقاء .

قلت لخلوصي بك ذات يوم إن قنصل ألمانيا يطلب مني أن أعود إلى إصدار جريدتي المقتبس ، وبلح كثيراً للإسراع بذلك وكان صديقي لطيف بك الخالدي المهندس كلني سرّاً أن أصدرها وقال : إنني إذا بقيت على امتناعي عن إصدارها ، يعد الاتحاديون ذلك تمرداً على الدولة ، وينبشون دفاتري القتيقة ، وهم لا يتلكثون عن إيقاع شرّ بي ، والعهد قريب بما كتبت فيهم وفي حزبهم . وقلت للوالي : إنني قلت للقنصل بالواسطة إنني أحتاج إلى ألفي ليرة عثمانية لإصدار الجريدة ، لأنني مدين بألف ، وأريد استخدام الألف الأخرى في تمديتها سنة أو سنتين على الأقل ، فاستعظم القنصل هذا المبلغ ، وقال إن جريدة من جرائد الولايات لم تقبض قط اعانة عظيمة كهذه . وقال لي الوالي مرة : لإلام أقول لك أن أعود إلى إصدار جريدتك وأنت تأتي ، وما أدري وجهاً لبائتك وعليك دين فمن يسدّ عنك ديونك وأنت مدين بألف ليرة كما أخبرني شكري بك العسلي ، فقلت له توفها عني فرنسا أو انكثرا أو إيطاليا فدهش الوالي لقولي إيطاليا وقال : صحيح إن لفرنسا وانكثرا مطامع هنا ولكن ما شأن إيطاليا في الأمر ؟ فقلت له : إنني في السنة الماضية (١٩١٣) رحلت إلى إيطاليا لأبحث عن مواد تاريخية كانت مجموعة في خزانة خاصة لأحد علماء المشرقيات الإيطاليين ، فكتبت صحفكم الاتحادية ، أني قبضت من إيطاليا عشرة آلاف ليرة . وبينما كنت أبكي في رومية يوم افتتاح مجلس نوابها ، لانزعاج طرابلس وبرقة من الحكم العثماني ، وقد تمرضت حكومة إيطاليا لذكر ذلك ، وفاخرت به في أول جلسة من دورة مجلس النواب كان أعدائي يتهمونني بأنني ذهبت إلى رومية لقبض رشوة حكومتها ، وأنا لا ناقة لي ولا جمل في ليلية . فضحك الوالي حتى بدت ثناياه ، وضحكنا ضحكاً سمعه من كان ينتظر على الباب ليؤذن له على الوالي . ولما جاء الأذن يستأذن لأحدم سلامت وانصرفت .

جمال باشا والمقتبس

بينما كانت المفاوضات جارية بشأن اصدار المقتبس ، وأنا اقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، وقنصل ألمانيا يلحّ على الاتحاديين لاقناعي باصداره حالاً ، نصب قائداً على الشام ناظر البحرية احمد جمال باشا . ولما خلا بالوالي خلوصي بك ذكر هذا له ما يقترحه القنصل بشأن اعادة المقتبس ، فسأل جمال باشا عني وقال : أليس هذا هو الذي كان يكتب فينا تلك الكتابات المرة ؟ فقال له : نعم هو بيمينه . فلما رآه قد استغرب هذا الاقتراح قال له سأطعمك على ما ظهر له من اشياء تثبت شدة لعلقه بثمانينه ، وجاءه بالامور التي ظهر فيها ذكره في القنصليات الفرنسية ، فدهش القائد لما رأى وقال : وعلى ذلك فالرجل قد ظلم ظلماً فاحشاً ، وعلى الدولة لا على المانيا أن تموض عليه خسائره الناشئة من اغلاق جريدته مرتين . وطلب الوالي إليّ مقابلة القائد فذهبت اليه وبجئنا في شؤون الجريدة . ودفع إليّ في الحال كيساً فيه اربعمائة ليرة عثمانية ، وقال لي : بعد أيام سأتم لك المبلغ إلى ألف ليرة ، واكراماً لخاطري ، وقبض على لحيته ، أصدر الجريدة بأسرع ما يمكن ، فقلت له إن الجريدة تصدر بعد غدٍ بحسب أمرك فسر كل السرور .

وعادت الجريدة إلى الظهور ، وبقيت مدة لا أكتب فيها مقالات افتتاحية ، فلفت القائد جمال باشا المرسيني نظر القائد أحمد جمال باشا إلى ذلك ، فسألني عن سبب امتناعي عن الكتابة ، فقلت له : كتبت فحذف المراقب ما كتبت غير مرة ، فقال : اكتب وأنا أراقب ما تكتب ، فكتبت مقالة قرأها مع الأمير شكيب أرسلان ، وأرسلها لنطيع ، وأمر ألا يحذف شيء مما أكتب ، وأن يتخطى قلم المراقبة مقالتي وقال لاني أعرف كيف أدير القلم في خدمة الحكومة ، واقدر الحال الذي نحن فيه .

وبقيت على ذلك حتى صدرت جريدة (الشرق) جريدة الدعاية التركية الالمانية ، ووسدت إليّ رئاسة تحريرها ، وطلب مني القائد رفع اسمي من

جريدة المقتبس ، لتزوج الجريدة الجديدة ففعلت ، وتركت الجريدة لآخي احمد يتولى تحريرها وحده .

وأخذ جمال باشا يحترمني كثيراً ، ويمارحني وتبسط ، ولكن لا بالصورة التي كان يعاملني بها الوالي خلوصي بك فمع هذا كانت صداقة أكيدة ، وعين الحب ظاهرة فيه كل الظهور . سألتني القائد مرة مازحاً : مالك لا تكتب مقالات في العرب ، ومجد العرب ، وفضل لغة العرب ؟ كما كنت تكتب قبل الحرب ، فقلت له : الآن نحن في شغل شاغل عن ذلك ، وبعد الحرب نعود بمحور الله إلى ما كنا عليه ، فضحك ضحك استمراء ، ولسان حاله يقول : انن كذبت الآن هذا لاصليبتك . وسألتني مرة كم عمرك ؟ فقلت ثمانٍ وثلاثون سنة . قال هذا كثير فقلت له : يعني أنني صرت كبشاً ثميناً ، وحان وقت ذبحي لتأكلوا لحمي ، فضحك كثيراً .

وما زال جمال باشا يظهر لي كل عطف ، ويتجنب إليّ ، ويقول في كلام الممجب بصاحبه . قال لي أحد ولاتهم ، ونحن نجتاز الجسر في الاسنانه ، أواخر الحرب العامة ، وكان جمال باشا قد غادر الشام منذ مدة . قل لي ماذا كان منك لجمال باشا حتى وقمت من نفسه هذا الموقع ؟ فأجبتني : لم آت شيئاً ، ومن انا ، وهو ورجل عظيم ، حتى أؤثر فيه . فقال لي : ليس الامر كذلك ، كنا منذ أيام نذاكر من يحسنون الادب العربي ، والمجلس غاص ، فذكروا رجلاً يعرف هذا الادب معرفة عظيمة ، فضحك جمال باشا وقال : إن فلاناً لا يعرف واحداً من مئة مما يعرف كرد علي . فقلت لصاحبي : هذا من حسن ظنه بي . وقال في القدس علناً وأنا أخطب امامه على مائدة ضمت زمرة كبيرة من اعيان الديار الشامية : إنني لا أفهم أحداً ممن يخطبون امامي باللغة العربية في سورية وفلسطين إلا كرد علي ، فاني افهم ما يقول ، ويكهرب أعصابي أيضاً . هكذا قال ويسر المولى أن عظمت في عينه ، وأنا اعرف بنفسي من جمال باشا . وكان من إعجابه أن استمتعت براحة نسبية مدة الحرب العامة ، والناس يومئذ في بلاء وشقاء .

سأل صديقي الاستاذ كمال ملص صاحبه وصاحبي الشيخ اسعد الشقيري هل كان جمال باشا على شيء من الشهور الديني فأجابه نعم كان على جانب بارز منه . وقص عليه قصة تشمر بنيرته على المسلمين قال : أمر جمال باشا مرة أن يرسل من المنزل إلى دار مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجبا مقدار من الارزاق ومبلغ من الورق المالي لاعداد ضيافة عظيمة في داره بدعو اليها أعيان بيروت على اختلاف طوائفهم . وحضر الباشا الدعوة ونزل صاحب البيت مع المدعوين لاستقباله في مدخل الدار ، فلما وقعت عين جمال باشا على المفتي قبّل يده ، وأشار اليه بالصمود ثم اشار إلى الشيخ اسعد الشقيري أن يلحق به ، ثم صعد هو ورائهما ، حتى إذا جلس الجمع كان على يمين القائد الشيخ المفتي وعلى شماله الشيخ الشقيري وعند انتهاء المأدبة عاد الباشا وقبّل يد المفتي شاكرًا له حفاوته . وركب الباشا مع الشقيري طائداً إلى منزله وقال له في الطريق : أتني أعرف من هو مصطفى نجبا وما رفعت شأنه اليوم إلا لأرفع بذلك شأن المسلمين .

ووقع لي ان ذكرت لجمال باشا أن خالد بن الوليد لما جاء دمشق فاتحاً ركز العقاب راية الرسول في رأس الثنية المروفة بثنية العقاب (الثنايا) اليوم المطللة على الغوطة والمرج من الشمال ، وهي ذاك الجبل الهرمي الشكل الصعب المرتقى ، وحارب بني غسان في يوم فصيحهم فكتب له النصر عليهم . وقلت له ان مما يحفظ هذه الذكرى العظيمة اقامة مسجد في قمة ذاك الجبل العالي فوعدني بذلك . ثم راجعته مرة ثانية فأثني على هذه الفكرة وقال انه لن ينساها ووعد بان يقوم بانجازها على ما أريد بعد الحرب . ولحظت منه غيرة دينية وشعوراً اسلامياً في احاديثي الكثيرة معه ، ولكنه كان في المسائل السياسية لا يفرغ لاحد زلة إذا حاد قيد أئمة عن قانون الوطنية العثمانية . وبما اعده له في باب الفيرة الدينية ما اقترحه عليّ من أن أضع على

رأسي عمامة لبوسد إليّ افتاء دمشق فأتمكن من ادخال الإصلاح على اهل السلك العلمي ، فتبسمت في المرة الأولى لكلامه وقلبت الحديث إلى ما يشبه الهزل . فلما تكررو ذلك منه بعد حين قلت له : اظن مولاي يهزل في اقتراحه هذا عليّ . فأقسم انه يحجد وانه يتوقع من ذلك خيراً للمسلمين لاعتقاده أن من الصعب أن يقوم بهذا من لم يثقف الثقافة اللازمة . وقال إن معالجة المشايخ ببلمس الإصلاح خدمة للإسلام والمسلمين . فشكرت له فضله وغيرته ، وتنصلت واعتذرت من عمل قد لا يجلب عليّ غير الضرر .



الجاروس السافل

سألت صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر عن (خ . ز) ، وكان والده سكن الأناضول . سألته وقد أتى دمشق بمض السنين يهب المدارس الأهلية هبات جيدة فكان الجواب : إن الرجل مطعون في آدابه ، يستعمل أشياء لا تليق بشريف . فحفظت هذه الترجمة ، وصرت كلما ذكر اسمه في الجريدة أذكره بصورة عادية . وبينما كانت الدولة العثمانية في جنائ قلعة في مركز حرج للغاية وذلك في الأشهر الأولى للحرب العامة جاءني الدكتور شهبندر يصعبه (ذاك التاجر) إلى قرية المزة حيث كنت ساكناً ، وقال لي : هلم نسمر عند رضا باشا الركابي فرافقتهما . فبدأ الدكتور يذكر ما يقاسيه جيش الدولة في حرب جنائ قلعة من الضربات ، وقال ان الواجب أن يفكر أهل هذه الديار في مصيرهم ، كأن تؤسس جمعية سرية تتصل بالانكليز للاتفاق على خطة إلى غير ذلك .

فذكرت للجماعة ما لقينا من القوم عندما أنشأنا حزب الائتلاف ، وأن هذه الائمة يصعب الائتكال عليها ، لأنها لم تربّ تربية سياسية مُعرّفا الصواب في قولها وعملها ، وقد جرّبناها غير مرة فضاع تعبنا وجهدنا معها وقلت إن الحرب تتقدم وتتأخر تبعاً للامحوال ، وما يدرينا أن تكون النتيجة غداً للدولة ، وأرى البحث في مصير الديار الشامية أكبر من عقولنا ، ونحن يسمنا ما يسمع أهلها إذا نزل البلاء . فقال الدكتور متهمكاً : وكيف إذا تدعي أنك تخدم العرب ؟ وأين حميتك ووطنيتك ؟ فقلت له : لم أصحح شيئاً من هذا مع الأسف ، وإذا مت فاكتب على قبري : هذا خائن العرب ، وانظرم قصيدة في هجوي ، وأنا لا أدخل ولن أدخل في مثل هذه المسائل . فقال الباشا صاحب الدار : اذا كان فلان يمتنع عن الدخول فأنا لا أدخل ، وافترقنا متماهدين على الكتمان .

لحظت بعد حين ان جمال باشا أخذ يزيد في إكرامه وإكرام الركابي وأن عطفه على الدكتور يتناقص ، ولم ادرك إلا بعد مدة أن ذاك الرجل المنحط — الذي لم آمنه على روحي ، واشترك معه في جمعية سرية ، لأنه لم يؤتمن على عرضه — كان له الصال عظيم بجمال باشا ، وانه كان مفلساً فوق بينه وبين والي تلك الولاية العظيمة الغنية التي ينزلها ، ولشاركا لاستغلال النقليات على الطرق الحديدية ، وأعاد إليه الوالي بضائع كان اباعها وعاد فباعها بأثمان باهظة ، واشتركا في كل انواع التجارة ولا سيما المأكولات واعطى لشريكه معملاً عظيماً يستثمره . وكان جمال باشا ينفق على والده ذاك الجاسوس ، مقادير من الأرزاق من المنزل يمونها بها ، ولما مات خرج في جنازتها سرية من الجند منكسي اسلحتهم . وهكذا استغل الجاسوس الوشاية بنا .

قال لي ذاك الجاسوس المنحوس ذات يوم ، وقد صادفته في المرح الأضمر في طريق إلى داري : أرايت هذا الشاب ؟ وأشار إلى أحد المارة ، وكان يلبس ألبسة من الجلد ، وهو شاكي السلاح . فقلت له : نعم قال : هذا ابن مرضعتي ، ولي عليه سلطان عظيم ، لأنه ربي في دارنا ، فأنا إذا قلت له : اقتل جمال باشا بقتله بدون توقف . فجسست في الحال نبضه ، لأرى إن كانت حرارته متصاعدة عن المعتاد . وقلت له : أمريض أنت أم مجنون ؟ ويحك ولماذا ، أسألك بالله ، تقتل أحمد جمال باشا ؟ قال : حتى يستقل العرب . وهذه فرصة لنا في هذه الحرب القائمة . فقلت له متحمساً : قولك هذا من أسخف الآراء ، وهل تقتل رجلاً مسلماً جاء ليدفع عن ديارنا أعداءها ؟ وينقذنا من براثنهم . وبالله لو بمثل الاستانة كافراً ، وجاءنا يقول إني على أن أدفع عنكم عدوكم قبلنا يديه ورجليه ، ثم إن الدولة يا صاح إذا قتل جمال باشا لا ندم عشرات مثله ، ترسلهم ليخلفوه ، فيجعلون عالي ارضنا ساقلاً ، انتقاماً من اهلها لقتلهم رجل الدولة . فبالله عليك إذا بدرت من لسانك هذه البادرة الآن ، وما كنت أظنها تبدر منك ، فلا تقتل لأحد

مثل هذا القول ، وأنا اجاهدك على كتابان ما بسطت به لسانك . وهكذا اتقيت شره ، وأعتقد أنه نقل كلامي إلى جمال باشا ، وربما كان هو الذي وضع له صيغة استدراجي بهذا اللسان . ولما دخل الحلفاء الاناضول قبضوا على ذاك الجاسوس ، وزجوه في السجن أشهراً ، وصادروه في كل ما يملك ، فمات بعد أشهر قليلة مجرداً من كل نعمة .

بقيت تحك في صدري حالة ذاك الجاسوس أربعاً وعشرين سنة ، ولم أرَ فرصة أخلو بها بالدكتور شبندر لأذكره بما قال في نعمته ، يوم سألته عنه قبل الحرب ، وما كان فعله معنا من ابلاغ جمال باشا صورة اجتماعنا ، وإعاقبه على تهوره معه ، وهو يعرف أكثر مني مبلغه من الأخلاق ، حتى كانت السنة الماضية (١٩٣٨) فذكرت له ذلك في داره في القاهرة ففكر ملياً بضع دقائق وقال : صحيح هكذا كان ، الحق معك . وقد يفلب على المرء حسن الظن في الخلائق ، فيعاملهم معاملة الشرفاء . وأنا لم أحتط هذه المرة مع ذاك السافل إلا بعد أن وقمت غير مرة مع غيره ، فامتنني الأيام ، ولو عملت باقتراح شبندر لكان القتل مصيري ومصيره لا محالة . كثيراً ما قلت لصديقي شبندر أوائل الحرب العامة إنني في ريبة من أمر عبد الكريم الخليل - شاب كان يعمل مع أبناء العرب وأحزابهم المشتغلة بالاستقلال - وهو يفلذب حسن الظن ويستبعد ان يصدر منه ما يؤذينا ، على ما رأى من شدة اختلاطه بجمال باشا ، وكانا يتهامسان ، والاعيان ينتظرون في الباب الاذن لهم بالدخول فلا يؤذن لهم . وصلب جمال باشا عبد الكريم ، فتبين بعد ذلك ان الرجل على تقية مستحكة فيه ، كان يشغل للترك وللعرب في آن واحد ، مثل رجل من بني الجندي قتله الترك ايضاً وكان يشغل لهم وللعرب والافرنج ، ومثل رجل من بني الشنطي وكان مذهبه كذلك وقد صلب ايضاً . وربما اشتغل أحدهم لعدة دول وعدة مذاهب سياسية .

سئلت وأنا في بيروت قبل اعتقال عبد الكريم الخليل بأيام عما اذا كنت داخل

في الجمعية التي فيها فأجبت بالسلب ، ثم لقيته فقلت له : بلغني انك تقول هنا
إني والركابي داخلان في جميتك فهل دخلت معك ؟ وهل سألتك يوماً عما
تعمل منذ عرفتك ؟ قال : لا . فقلت له : لماذا تذكر اسمي وأنا لست معك
ولا من رأيك ؟ قال إن القوم يسألوني عندما أريد ادخال احدهم في جميتي
فيما إذا كنت والركابي داخلين فإذا قلت لا ، لا يدخل أحد معي . فهددته
بان لا يتجر باسمي ، ولا يعود إلى ذكرى لأحد ، وانا اكنم سره ولا أتدخل
في شؤونه . فعاهدني واطنه عاهد كثيرين قبلي ، وعهده عهد اولاد طائشين ،
وكان على شيء من البلاهة ، مهملاً لأوراقه ، وربما تركها في أيدي من
لا يعرفهم ، وخرج لقضاء حاجة . ومثل هذا لا يستودع سراً ، ولا يلقى
المؤتمرون معه إلا شراً .



المنطوعون بالجاسوسية

حقيقة إن اسم «عاليه» كان يفزع الاحرار خلال الحرب العامة فالى هذه القرية اللبنانية كانت يساق المتهمون بالسياسة ، يحشرون فيها زرافات ووحدانا ، وفيها يمدد الديوان العرفي اى المحكمة التي تصدر فيها الاحكام النافذة عليهم ، لا استئناف فيها حكمت ، ولا تقصص لما أبرمت ،

وقد طلب هذا الديوان مرة إلى جمال باشا أن يبعث بي اليه للتحقيق ممي في بعض المسائل ، او لاستشهادي بأمر ، فأبى لإرساله ، وامر ان يكتب بالسؤال فأسأل عنه في دمشق بدون ان اذهب إلى عاليه . ولم يبلغني ذلك إلا بعد حين وبالعرض ، وهذا من منن الباشا عليّ ، فانه لم تسمح نفسه أن اضايق بشيء بعد ان ثبت اخلاصي للدولة بأوراق القنصليات ، وتأكد أنني كنت اطالب بالاصلاح للمملكة بأسرها ، واني كنت أخدم الدولة زمن الحرب خدمة حسنة .

جاء بالشيخ عبد الحميد الزهراوي — وكان الاصلاحيون رأسوه على مؤتمر في باريز ، ثم استرضاه الاتحاديون وجعلوه عضوا في مجلس الشيوخ — إلى الديوان العرفي في عاليه مخفورا ليحاكموه . مع ان الحكومة ادعت يومئذ انها لا تؤاخذ احداً بما كان منه قبل الحرب ، بل تحاسب على الاعمال التي يقوم بها اعداء الدولة في مدة الحرب ، ومن قتلهم كان قتلهم بما قدمت ايديهم سابقا ، وفي الحرب لم يستطع أحد أن يتحرك فيما أحسب ، إلا أن يكون بعضهم تصدى للدعوة للانكليز .

ولما وصل الزهراوي إلى حلب أبرق إلى جمال باشا يقول له إن لديه معروضات خاصة ، يرجو ان يدلي بها اليه مشافهة . فأجاب القائد طلبه ، واستمع لما عرضه ، وما عرضه غريب في بابه . قال الزهراوي انه وان كان ذهب إلى

بارز ، ورأس مؤتمر الاصلاحيين ، فان نيته كانت سليمة ، وما كان يضمّر خيانة للدولة ، وان الرجل الذي كان يفاوض الاجانب ، ويعرف اللغة الافرنجية ، هو صاحب المقتبس كرد علي ، اطلقوا سراحي بضعة أيام لآتيكم بأعداد من جريدته تقرأون فيها مبلغه من الوطنية العثمانية . فأجابه الباشا عليك ان تقول هذا الكلام في الديوان العرفي في عاليه .

وذهب الزهراوي إلى عاليه ، واورد امام الديوان العرفي ما قاله لجمال باشا ، فالتفت رئيس الديوان وقال له : هل تعرف عثمان بك العظيم . فقال : نعم اعرفه . قال : هو شقيق رفيق بك العظيم . قال : نعم . قال إن الديوان العرفي برأ عثمان بك لانه لم يدخل فيما دخل فيه أخوه ، وما وجد وثيقة تثبت ادانته ، وحكم على رفيق بالقتل ، لانه ظفر برسائل مكتوبة بخطه تؤيد خيائنه . فأتت إن كان لديك شيء بخط صاحب المقتبس وتوقيعه يستدل منه انه احد اعضاء جمعية سرية تذرعت لقلب الحكومة ، او الدعوة إلى دولة اجنبية ، او غير ذلك من انواع الخيانات فأبرزه ونحن نأني به حالاً ، واما ان يجلب باشارتك فلا . وقولك إنه كتب اشياء في الحكومة في جريدته فهذا نعرفه وعندنا مجموعته .

هذا ما قاله رئيس المحكمة العرفية للمتطوع لقتل اخيه ، وهذا ما قاله جمال باشا التركي ، وتوسل به صاحبي العربي لخلاصه واتهامي . واطالما احسنت اليه مذ جاء منفياً إلى دمشق في عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، وآنسته وخففت من كربيته ، وكان يومئذ كذاك السامري لا مساس ، ومن يجراً ان يقترب من مغضوب السلطان ، وما رأى مني منذ عرفته إلا الاخاء واللفظ .

حاول الزهراوي الاشتهار بالعلم فكشفت الأيام أمره . بعث إليّ وأنا بمصر مقالة لنشر في مجلة المقتطف كتبها على أسلوب القرآن فدفعتها إلى منشيّ المجلة فلم تنشر ، وبعد مدة راجعته لكثرة إلحاح الزهراوي فقال لي صديقي الدكتور يعقوب صروف : إن من عادتي في المقالات الواردة من

المؤازرين أن أدفعها إلى ابنتي فتقرؤها ، فإذا رأيتهما قد فهمتها وكسوغتها
انشرها وإلا فلا . ومقالة صاحبك دفعتها على العادة إلى ابنتي فتلتها فما
أدركت مغزاها ، فقلت : إن كانت البُنيَّة لم تفهم فالقراء أجدر ألا يفهموا .
وكتب إليّ الزهراوي من حمص مرة يسألني عما إذا كنت قرأت
مقالاته في مجلة المنار (نظام الحب والبغض) فأجبتُه إني قرأتها ولم أفهم ما
يريد منها ، فقال : اقرأها ثانية نفهمها ، ووافني برأيك فيها . فقرأتها ثانية
فلا والله ما فهمت لها معنى ، وخفت أن أذكر له ذلك ، وبوعز إليّ أن
أقرأها مرة ثالثة فأجبتُه إني قرأتها مرة ثانية كما أشار إليّ ، والظاهر أن عقلي
غير مستعد لفهم الفلسفة العالية ، وهذه المقالات من هذا الطراز على ما ظهر لي
فاعفني من إعطاء فكري فيها .

وكنت مرة أتحدث إلى صديقي إبراهيم بك رمزي من أدباء مصر فقال
كلاماً فهمت منه أن الشيخ محمد الشربتلي مات ، فأسفت لوفاته فقال :
لأتأسف فإلغوض في حياة أخيه « المعتقداتي » الثاني الذي عندكم وهو الشيخ
الزهراوي . ويريد بالمعتقداتي الذي لا يبين عما يريد في كتابته . وكان
الشيخ الشربتلي مع الشيخ الزهراوي في هذا الباب فرسي رهان . كتب
الزهراوي جريدة « الحضارة » في الاستانة مدة لما كانت تفهم مقالاته السياسية ،
وكتب أشهراً في « الجريدة » بمصر فاضطروا إلى إخراجه منها لأن القراء لم
يفهموا أقواله ، ولا حلوا معمياته وألغازه . ولم يشهد من يتطوع في تربيته
غير صاحب المنار فانه صورده صورة لا تقل كثيراً عن تصويره للسيد
جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده !

وكان الزهراوي إلى ذلك خدعاً ، نصحني غير مرة أن أترك مطالعة
الكتب القديمة ، وأكف عن قراءة كتب الغزالي وابن تيمية وابن حزم الخ
وأكتب من فكري دون الرجوع إلى هؤلاء الأئمة قائلاً : إني أعلم منهم !
فكنت أجيبه إني ألسلي بكلامهم فقط أوقات الفراغ ، وقصصت ما دار بيننا على

استاذي الشيخ طاهر الجزائري فقال : إن الرجل يقصد غشك . فقلت له : عرفت ذلك وأجبتة جواباً مبهماً ، فقال ما معناه : إنه لم يتعلم ولا يرغب في أن يتعلم ، ويشق عليه أن يتعلم أحد ، ما زادت معلوماته عما أخذه عن الشيخ فلان في المدرسة الرشدية في حمص ، وهو لا يحب أن يتعب نفسه بالمطالعة ، فإذا طالعت أنت تفوقت عليه ، فهو لا يجاري المتعلمين ، وما طمع عليه من حسد يحمله على أن يصد كل راغب في العلم ، حتى لا يظهر في المستقبل الفرق بينه وبين من تعلم .

عود إلى المتنوعة بالjasوسية ، ومن ذكرني وأكثر من ذكرني في الديوان العربي صاحب جريدة المفيد عبد الغني افندي العربي فانه بدا له أن يتوسع في أجوبته فكتب فيما قيل نحو مئة صفحة كبيرة ، ذكر فيها حتى صبيان المدارس ، رجاء أن تعدل الحكومة عن مس كبار المجرمين بأذى إذا التمت المسألة إلى حد بعيد ، وقد خصني من هذه الصفحات بأربع ، الله أعلم بما حشاها به . وهو أيضاً لم ير مني إلا التذشيط الجميل . وكان من سيف الدين الخطيب ان ذكرني غير مرة وما قال انهم كانوا في المدارس لا يعرفون ماهي السياسة ولا الاحزاب والجمعيات ، فصاحب المقتبس هو الذي علمنا ودرنا . وهذا كالعربي والزهراوي ممن قتلوا صلباً وما أغنت عنهم وشاياتهم بالابراء .

ومن الاشراف الذين أثبتوا وطنيتهم ولم ييوحوا باسم أحد ، على كثرة مالاقوا من التعذيب ، شاب متعلم من أهل صيدا اسمه توفيق البساط فانه آثر الموت والنكال على كشف سر أحد . ومنهم صديقي سامي بك العظيم ، وكان مراسلاً للمقتبس في الاستانة ، فانه اهين في الديوان العربي فتباله ، وأنكر ان يكون يعرفني ، أو أنه كان يرأسني بما يحدث من الأحداث الدقيقة في العاصمة ، فبريء على أنه أبله ، كما بريء بعده بهذه الصفة صديقي الأمير طاهر الحسني .

واقعت أيقنت بعد الاستقصاء أن بعض ما اتهم به المتهمون في عاليه كان قائماً على الظن ، ولم يرجع في الاكثر إلى وثائق قانونية . وقد سألت الوالي خلوصي بك ، وكان ذهب إلى بيروت واجتمع إلى أعضاء الديوان العرفي ، عما كانوا يتهمون به فقال : لإنهم اتهموا بضروب من التلفيقات ، أنزل الله البلاء بهم ، أي بالاتحاديين . ومن الحق أن نقول إن من اتهموا ما خلوا من شهادة بعضهم على بعض ، ومن أصحابهم من تبرعوا بالشهادة عليهم كما كان من شاب شهد على بعض أصحابه . ذكرت ذلك لوالده وكان صديقي فأنكر فعل ابنه ، وقال إنه يقصد مما فعل انقاذ عمه ، أي أنه تطوع بالوشاية ببعضهم وهياً للحكومة العثمانية أسباب قتلهم حتى يتقذ عمه ، ولولا أن القائمين بالأمر كانوا يرجعون إلى المنطق وإلى القانون في معظم الحالات ، لأمثلات بيوت عاليه وبيوت القرى المجاورة لها من المجرمين السياسيين ، لكثرة ما وشى الناس بعضهم ببعض . وقد قال أحد ضباط الديوان العرفي : إن حال أهل هذا القطر عجيب ، كنت في الروم أبلي عضواً في احد الدواوين العرفية في بلد كذا . وكنا نأتي بالبلغاري لتقريره فلا يباح بشيء ، ونعذبه أنواع المذاب ، ونحمي الطست ونضمه عليه ، فيسيل دمه ويحرق جلده ، فلا نسمع من فمه اسم أحد ولا اشارة الى سر والأهالي هنا يتبرعون محتسبين بالوشايات حتى أضجرتنا كثرتها ، وبلبلتنا أنواعها ، ولو عملت الحكومة بما ورد مع البريد فقط من الكتب الصادرة عن أميركا بأسماء السوريين ، وفيها أشياء كتبت عمداً لتضر بالكتوب اليهم ، لبلغ المتهمون بالخيانة الوفاً . فنحن نشفق عليهم وهم لا يشفقون على أنفسهم ، وعلى أبناء وطنهم وجنسهم .

ومثل ذلك حدث أوائل الاحتلال الافرنسي فأت تقارير الجواسيس كثرت على القائد فأحالتها إلى الديوان للترجمة ، فكان بضعة تراجمة يترجمون كل يوم عشرات من هذه الاوراق ، فلما رآها متشابهة في معناها ، وأنها كلها تقارير وشايات دنيئة يبدو الغرض الشخصي منها ، قال إنها من شكل

واحد ، وهذا لا يفيد سماعه ولا العمل به ، فأمر بإحراقها كلها قبل النظر فيها وكانت بضعة الوف . وقال لي رجل من اسرة هاني في بيروت :
إنني أعرفك من زمن ، فقلت له : أنا لا أذكر أنني رأيتك ، فأين كانت هذه المعرفة ، قال : كنت رئيساً على التراجمة أول الاحتلال فعرفتك من التقارير التي كتبت فيك . وأنا اعرف ان احد المستخدمين عندي كتب في ثلاثة تقارير للسلطة الفرنسية لاني دعوته مرات الى القيام باحسان عمله ، وطلب مني مرة ان أشهد له في المحكمة شهادة زور تنفعه في مسألة إرث فأبيت . وكان عندي ثلاثة التمسوا مني زيادة رواتبهم ليرة أو ليرتين لكل واحد ، والقانون لا يسمح بذلك فلما أبيت اجابة طلبهم شكوني إلى السلطة .

السياسيون والصمافيون

يُحسِن رجال السياسة استدراج البسطاء لتسقط الأخبار . وعن رأيت من هذا القبيل الهر لودفيد قنصل ألمانيا في دمشق زمن الحرب العامة ، كان يهودياً ألمانياً داهية ، سألتني مرة : هل تعرف فلاناً وفلاناً قلت نعم أعرفهما قال : أريد أن تقفني على ماهيتهما . فقلت : ليسا من بلدي ولا علم لي بهما . قال : وكيف ذلك ؟ قلت : وهل الواجب أن أعرف الخلق كلهم ؟ قال : لا . ولكن هذان بمن يجب أن أعرفهما وهما من أرباب الأقلام . قلت : ما عرفتهما فقال : جاءني منذ أيام يشكوان ضيقاً وضنكاً فأعطيتهما على سبيل الصدقة عشرين ليرة عثمانية . فسكت ولم أبد استحساناً ولا استهجاناً .

وكان هذا القنصل كثيراً ما يسألني عن جمال باشا فأثني وأبجد ، وأذكر له أن القوم يحبونه ويدعون له بالتوفيق . ورأيت انقاء شره ألا أقول له شيئاً إلا إذا كان من هذا البحر والقافية . وحاول مرة أن أصرّح له برأيي في الباشا وضايقتني فقلت له : إن عوام دمشق يمتقدون أن يوم ينزل عليهم جمال باشا من الشمال أو الجنوب أو الغرب تمطر السماء وتنزل الرحمة ، فهز رأسه وهززت رأسي ، وتفارقنا بسلام .

مضت أيام وانتصر الجيش العثماني في كوت الأمانة بالعراق ، وأسر ثلاثة عشر ألف جندي والجنرال الانكليزي طاوسهند ، فجاء القوم يهتفون القائد العام أحمد جمال باشا في فندق فكتوريا بدمشق فرحاً فرحاً . وخففت لتهنئته مع أرباب الصحف ، ولم يكن منهم في دمشق غير اثنين صحبتهما فلما دخلنا على جمال باشا عبس . وكان قبل دخولنا يضحك ، فسلمنا وجلسنا ثلاثتنا . فافتتح الباشا الكلام وقال موجهاً الخطاب إليّ : هل قصرت معكم

في كل ما طلبتم مني ؟ فقلت له : قد أغرقتنا بأنعامك . قال : فما هذا الذي يبلغني عن قرع بعضكم أبواب الأجانب لأخذ إغانات منهم ! هل رأيتم اجنبياً قط جاء يدق بابنا ؟ يطلب مثل هذا الطلب منا ولما سمعت قوله هذا سررتني عني ، وتذكرت حالاً ما كان قاله لي القنصل عن شخصين استجدياه . ثم تكلم الباشا هنا كلاماً لم يبق معناه على خاطري ، وانتفت إليّ وسألني لماذا توقفت عن إصدار مجلة المقتبس ؟ فأجبتُه إن من الصعب صدورها ، والزمن زمن حرب ، والناس متجهة عقولهم وقلوبهم إلى ساحات القتال ، ومتى انتهت الحرب بالنصر إن شاء الله أعود إلى إصدارها ، ثم إن الورق عزيز جداً ، فقال لي : أنا عندي ورق تعال إلى بيروت أعطك منه المقدار الذي يلزمك ، وعد إلى إصدار مجلتك ، واكتب بها مقالات لتعلم الاخلاق فقلت له : سيكون ذلك بسعدكم ، ومؤازرة رصيفي هذين . قال : نعم ، فضحكنا وانصرفنا .

وبلغني من رجل كان حاضراً في مجلس الوالي خلوصي بك أن هذين الرجلين استأذنا عليه بعض الايام فرحب بهما ولاطفهما ، فأخذا يندبان طالعهما ، وقالا إنهما لقيا أعظم الشدائد لانصالحهما بخدمة الاتحاديين - الحزب المنقلب يومئذ على الدولة - وأن أحدهما ضرب وُسجن وأهين من أجل نزعته الاتحادية ، فكيف وإخلاصهما إخلاصهما يعطى كل واحد منهما عشر ليرات في الشهر إعانة لجريده ، وآخذ أنا الف ليرة عثمانية دفعة واحدة ، وقد حاربت الاتحاديين وسقيتهم من دنيّ كل كدر ، فابتسم الوالي ، وكطلع بعينه من وراء زجاجة نظارتيه ، وقال بين هازل وجاد : الغالب أن الدولة تعطى كل واحد بقدر ما يساوي ، رأت فلاناً يساوي ألفاً فأعطته ألفاً ، ورأت الواحد منكما يساوي عشر ليرات فرتبت له عشر ليرات مشاهرة . فتألم الصحافيان لهذا الجواب وانصرفا من لدنه يلتمان الساعة التي جمعتهما به ، وصرحا بما صرحا به حتى سما ماسما . ولو لم تكن الحرب والصحافة مقيدة ، لسلخا جلده الوالي ولعنا آباه وأمه .

عقول الاتحاديين والانكليز

زارني في دارني قبل الحرب العامة مدير الشرطة ، وهو من أصل الباني وكثيراً ما كان يزورني ويدعي صداقتي ، ويبوح إليّ بذات نفسه ، ويتظاهر ببنفس الاتحاديين ويذكر مساوئهم . وكنت معه كما كنت مع جمهور الموظفين ابتاع منه ولا ابيعه كما يقولون ، لأنني كنت أغلب سوء الظن مع كل من ساير الاتحاديين ، وما عرفت ترجمته الحقيقية وميله الأكيد ، وما قال لي : إن جماعة الاتحاديين يزعمون أن لك ضلماً مع الانكليز ، وأنتك تقبض منهم كل شهر تسعين جنياً . فتأثرت وقلت له : جماعتك لا يعرفون الوطن والوطنية ، ويفصلون كل شيء على الدينار معبودهم ، لأنه هو في نظرهم كل شيء لا يمدله الشرف ولا المروءة ، ولا حب الخير . توهوا لما رأوني أَدعوا إلى الإصلاح أني أخدم مقصداً خاصاً ، ونسوا أن في الكتاب من يكتب للنفع العام ، وعندهم أن كل من يطالب بمطلب شريف ، هو مدفوع بمامل من العوامل . لو عقل أصحابك لسألوا دائرة البريد عما يحمل كل يوم إلى الجهات من جريدة المقتبس ، وهم يرون انتشارها العظيم في دمشق ، أو لسألوا المطبعة كم عدداً تطبع كل يوم وما دخلها من الاعلانات . ومن كانت جريدته رائجة هذا الزواج ، يستطيع أن يعيش بدون معاونة دولة اجنبية . ثم إن الحكومة التي زعموا أني آخذ معاونتها لا تعطني درهماً إلا إذا رأت مغناً لها ، وهل رأى أصحابك في صحيفتي إلى اليوم كلمة تشعّر بأني مشايخ لانكلترا أو أن الأمر عكس هذا ، ناقش أعمالها أحياناً ، وأتقدها النقد المعقول المعتدل ، ولا أغلو مخافة أن يدخل القنصل على الوالي إذا غضب على الجريدة ، فلا يخرج من عنده إلا وقد أوقفها لأجل مسمى أو غير مسمى .

ومن غريب المصادفات أن الاتحاديين بينما كانوا يتهمونني بالتشيع للانكليز ، كان قنصلهم حانقاً عليّ إلى التي ليس بعدها . فقد خرج ذات يوم للصيد فاعترضه بمض السلبة فنجأ منهم بعد جهد . فكتبت الجريدة أنه كان عليه أن يطلب جندياً أو جنوداً يحرسه كلما خرج إلى مكان بعيد ، حتى لا يقع عليه ما تكون عاقبته سيئة ، فيحدث بذلك مشكلة للحكومة . وكان هذا القنصل في جده فأطلق عليه العرب بتادقهم ، وما زال الرصاص في صدره . وقام القنصل بعد مدة يريد أن يؤسس نادياً في دمشق سماه « النادي الشرقي » فدخل معه كثير من الموظفين والاعيان ، وأبیت الدخول معتذراً بأن في النادي مسكرات وقماراً ، وأنا لا أشرب ولا ألعب ، فزاد القنصل غضباً عليّ . وكان رجائي بمض القائمين بتأسيس النادي أن اعد خطاباً لياقي يوم افتتاحه فأعدته فمنعني القنصل من تلاوته .



التجارة في السياسة

صادفت في الطريق في الاشهر الاولى للحرب العالمية صاحبي بشارة افندي الاصفر ترجمان قنصلية المانيا بدمشق وأحد كبار تجارها ، فقال لي إن القنصل قال له : لماذا لا يأخذ صاحب المقتبس اعانة مني لجريدته ، انه إذا طلب معونة اعطيه بقدر ما اعطيت ارباب الصحف بأجمعهم في سورية . وقال : يا أخي كل يوم لا تنشب حرب كالحرب الحالية ، وهذه فرصة لك لا تقع على مثلها ، خذ من القنصل ما هو مستعد لاعطائك اياه تبني به على الاقل داراً لأولادك . فأجبت : إنني أخذت من جمال باشا ما كنت في حاجة اليه من المال ، حتى أصدرت جريدتي ووفيت ديوني ، واخزانتان الالمانية والعثمانية في حكم خزانة واحدة الآن ، والكيسان ككيس واحد ، ورجوته أن يسلم على القنصل وببلغه شكري ، لحسن عاطفته نحوي ، واتبعت هذا بقولي : قل لسعاداته إنني إذا احتجت إلى شيء لا تأخر عن طرق بابكم . فاستغرب صاحبي هذا الجواب ، لانه لم يحقق رغبة قنصله ، وكان يجب أن اغلب الفكرة التجارية على الفكرة السياسية ، وقد نقل كلامي بالطبع إلى قنصله ، وقنصله نقله لقائد الجيش ، وهذا أعجبه من هذا الالباء ، واليه أشار لما لقيته مع الرجلين اللذين طلبا معاونة القنصل يوم جئنا نقدم تهانينا اليه بانتصارات كوت الامارة . وقوله لي لما سألتني عن السبب في توقف مجلة المقتبس عن الصدور إنه يعطيني ورقاً لاصدارها ، لا كتب فيها مقالات لعم الناس الاخلاق .

ظن بعض المشتغلين بالصحافة في الشرق أن الجرائد باب من أبواب الكسب فقط ، والماهر من يكون خراجاً ولاجأ . وهذا مازهدني في الصحافة منذ قام المتجرون بالوطنية . ولقد اقترح عليّ كثيرون أن اعود الى اصدار

جريدة المقتبس فاعتذرت قائلاً : إن نفسي سئمت منذ سنين هذه الصناعة ، وقد رأيت كل حكومة منذ عهد الترك تحاول أن تفسد أخلاق أرباب الصحف ، حتى غدا معظم الصحفيين يجوزون لأنفسهم ان يقبضوا زمن السلم معونات من بعض الدول ، ومن الشركات ، ومن كل من يريد ان ينتفع من الثروة العامة . وصعب على الشريف أن يمتن هذه المنة التي عز فيها الصدق ، وهي من أشد ما يكون احتياجاً له . ومن المتعذر أن تسقط على صحيفة لم تلوث بما لوثت به الصحف في الغرب . عدوا الجرائد متجرراً ومرزقا يحمل لصاحبها كل مال فخرجت هذه الأداة الجميلة عما وضعت له من نقل صادق الأحاديث ، والدعائيات الوطنية النافعة ، والدعوة إلى الحق والمدنية .

لو تيسرت لي الأسباب لاصدرت جريدة أوزع أكثرها مجاناً أبعد بها عن كل ما يدنس سمعتها ، وأعتقد ان صوت مثل هذه الصحيفة يصل إلى اعماق القلوب ، ويؤثر في الائمة التأثير المطلوب ، لاني أتوخي ان اصونها عن كل ما يكون منه استخفاف بالقراء ، أي بالكذب عليهم والتضليل لهم . الجرائد مرآة الائمة واذا اراد الغربي أن يحكم علينا بما ينكشف في هذه المرأة ، واعتقد أن هذه الصحف ناطقة بما في قلوبنا ، معبرة عن تربيتنا وأخلاقنا ، فالويل لنا ثم الويل .

السياسة صعبة المراس جداً ، ولا سيما الجزء العملي منها ، واطن احسن تعريف لها انها خلاصة العقل البشري ، وزبدة علوم العالم ، وبحاجة صاحبها إلى حسن فراسة ، وبعد نظر ، وبديهة مطواعة ، وقريحة فياضة ، ودرس متواصل ، وأطن من جمعوا هذه الصفات قلائل في الغرب فما بالك بالشرق .

بفضائل الانكليز

سألني الأمير زيد بن الحسين ، وهو يتوب عن أخيه الأمير فيصل في الحكم أثناء نفيه في أوروبا : لماذا لا يحبني الانكليز ، فقلت له : ربما يطمع الانكليز أن يماشهم المرء بدون بحث ولا سؤال ، وأنا أحب أن أضع رجلي على صخر مخافة أن أنهور إذا نرت في الرمل . فأدار وجهه إلى الحائط ، وأحسبه ظن أنني أعرض بوالده في هذا الجواب .

استدعاني الأمير فيصل ليلاً ، وطلب إليّ أن أدعو الشاميين ليقولوا بانتداب انكلترا عليهم ، فيوحد الانتداب في أرض العرب ، وكانت اللجنة الاميركية على وشك الشخوص إلى سورية ، لتسأل أهلها رأيهم في الدول التي يفضلون أن تنتدب عليهم . فقلت : كان عليكم أن تأمروا بذلك قبل ستة أشهر على الأقل ، لاعداد الافكار لقبول هذا الرأي . فقال : في الوقت متسع لمن يعمل ، ويمكن تدارك ما فات ، وأنت بما لك من الثقة عند القوم تدعوم فيستجيبوا لك . وكان وراءه صديقي الدكتور أحمد قدري يشير إليّ ألا أناقشه ، وأن أظهر امتثال أمره ، فسكت .

ومن الغد وردت عليّ كتب من الأحزاب بدمشق ، يطلب إليّ كل حزب منها أن أذهب إلى اللجنة الاميركية وأذكر لها رأيي . ومن هذه الأحزاب من يطلب بالاستقلال التام الناجز للاحماية ولا وصاية ، ومنها من يشير ضمناً إلى القول بالانتداب الانكليزي . وكانت الصيغة التي لُقِّنها القوم : « نريد انتداب أميركا علينا ، فان لم يمكن فانكلترا ، ونرفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً . » ففكرت في نفسي وقلت : كيف أطلب انتداب دولة ، والاستقلال غاية كل وطني عاقل ، وهل من اللائق أن أطلب الانتداب الانكليزي ، وقومي في مصر تحصد هم رشاشات البريطانيين في

شوارع القاهرة والاسكندرية ، وكان ذلك خلال ثورة مصر الاخيرة .
لينتدب من لينتدب بدون طلب مني ، ولزمت بقي لا أخرج منه . ولم
أذهب إلى اللجنة الأمبركية ولا طلبت انكلترا ولا فرنسا ولا اميركا .

وكان المطلعون يعرفون من الماقدات التي حصلت بين الانكليز والفرنسيين
أن سورية ولبنان من حصة فرنسا ، وقالت لي صديقتي ميس بل الانكليزية
قبيل الحرب العامة ، من دون سؤال وقع مني لها : إنكم حصة فرنسا
فهي أففقت كثيراً على سورية ، وجهزتها بالمدارس والخطوط الحديدية وغير
ذلك من المشاريع ، ونحن الانكليز لم ننفق شيئاً عليكم ، فاستغربت كلامها
كل الاستغراب وكأن قولها كان نبوءة بما سيحصل ، وهي من جماعة
الاستخبارات الانكليزية ، ذهبت بضع مرات من دمشق إلى بغداد على
متون الابل ، وآخر مرة وقعت فكسرت ساقها ، وجعلت معاونة الحاكم
المراق لما سقط في سلطان بريطانيا العظمى .

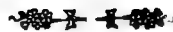
بعث إليّ الأمير فيصل من باريس كتاباً بخطه يقول : إن الانكليز
السكسونيين (انكلترا وأميركا) يماونونا على نيل استقلالنا وأتينا سنحرزه ،
ويوصي ألا أعبأ بغير هذا ، وأن ارفض كل قول يخالفه ، واطنه كان
يقصد بكلامه تضليل دقلي ، وربما كان جماعته أشاروا اليه بالكتابة إليّ
في ذلك . ولما جدّ الجدّ أوعزت انكلترا إلى الأمير فيصل أن يبارح لندن
إلى باريس ليتفق مع الفرنسيين وأوصت به ، فكان الانتداب لفرنسا على
سورية ولبنان ، وذهب كل ما أمله المؤمنون كفقاقيع الصابون .

عاد فيصل إلى الشام وهو يطمع في أن يكسب رضا البريطانيين والفرنسيين .
أي ان يجمع بين الضررتين المتنافستين ، ولا يزيد غلمان السياسة إلا إحراجاً .
ويقللون علناً من مكانة الفرنسيين ويهددون ويتوعدون ، ولا يدرون ما هم
فاعلون ، حتى دخل جيش الاحتلال بالقوة إلى دمشق وحلب ، وركن
بعض أولئك السياسيين إلى الحرب ، بمقد أن هلك بتحميمهم وتحميم
غلاة الوطنية ، والفيورين على الدين مئات في دمشق وميسلون .

إنني مازلت أعجب بالانكليز فرادى ، ولا أرخصهم جماعات ، تروقي ادارتهم ، ولا لعجبي سياستهم . وكما ذكرت أن عرب السلطنة العثمانية كادوا ينالون استقلالهم ثلاث مرات ، وتكتب في قائمة الامم وحدثهم ، وأن الانكليز كانوا يقضون على هذه الامنية ، ألم الالم كله ، ولا استطيع مها أحسنت ظني ، ان أغتفر هذه الاساءة ، وعندما أرى ان من الثورات الاخيرة في جزيرة العرب ما قام فيما قيل بايد اجنبية ، تشتد كراحتي لهذه السياسة يتبعها القوي مع المستضعف . وكما تمثل لعيني ان الانكليز في فلسطين يسلحون الصهيونيين ، ويجردون العرب من السلاح ، ويحكمون على هؤلاء باحكام ثقيلة جداً ، وقد يعفون أولئك من العقوبات ، أو يخصصونهم منها بما خف ، يزيد غمي وتألبي .

ولقد جرت عدة محاولات لارجاع السكة الحديدية الحجازية كما كانت قبل الحرب ، فكان الانكليز يقاومون هذا المشروع سرراً فيما بلغني لاثمهم يحاولون ألا يكون ركوب الحجاج في غير بواخرهم ، وأن ينقطع الاتصال بين اجزاء الامارات العربية . وبذلك تأخرت تجارة الشام والحجاز ، وطادت الوحشية إلى الجزيرة ، وقد كانت أوشكت تدخل في المدينة .

انا اعرف ان الاستعمار الانكليزي أخف انواع الاستعمار ، يبقى للمستعمرين ما يتبلغون به ، ولكنني ما أحببت الاستعمار قط فأحبه منهم . هذا رأيي فيهم ، وهذا ما يفسرونه ببغضي لهم . وما قيمة ببغضي وحي لدولة تملك خمس سكان الارض .



الامير فيصل

عرفت الأمير فيصل بن الحسين ، وعرفت اخوته قبل الحرب العالمية . ووافق دمشق في الحرب ضيفاً على جمال باشا ، فتأكدت الصداقة بيننا ، وكنت أدخلو به ساعات ، ونتفاوض أموراً كثيرة ، ويروح كل منا لعشيرته بما لا يروح به لأقرب الناس اليه . ولطالما كان الشيخ اسعد الشقيري ، ونحن في معسكر القائد العام ، يحرضني على قطع الوقت معه ، لئلا يضيق صدره ، او يتبرم بالمقام في الشام ، وقال لي مرة : عجباً لهؤلاء القوم (يريد جمال باشا وجماعته) دعوا ابن الرسول واهلوه هذا الاهمال .

وكان الامير يقترح عليّ اعداد بعض ألوان من الطعام ، ويستأذن جمال باشا بالتخلف عن مائدته ، ليكون في ضيافتي . ومقصده من ذلك أن نخلو بانفسنا في دارنا ، بعيدين عن البيئة الرسمية في المعسكر . ويأتي معه احياناً من يجب من اصحابه ، وبطبيب والده الخاص ، وهو تركي يدعي أنه لا يعرف العربية ، مع انه قضى سنين طويلة في الحجاز ، وكنت ألفت نظر الامير إلى التوقي أمام طبيبه ، فكان يقول لي إنه من خواصهم ، عاش بنعمة أبيه زمناً ، وعلمت بمد مدة أن جمال باشا اتي هذا الطبيب في حوران ، وكان الشريف حسين ثار في الحجاز ، فقال له باشمئزاز : أنت تركي ، ولعد من حاشية الشريف حسين ، وتدخل في حرمه ، فكيف لم تطالع على نيته في العصيان على الدولة ، والغالب أن هذا الطبيب كان عند حسن ظن الامير فيصل فيه ، كان صادقاً لآل الحسين ، ومات منذ بضع سنين في القاهرة .

ولما أراد الأمير فيصل ان يفرّ إلى الحجاز نافضاً يديه من العثمانيين ، وقد كتب له والده أن يمجل العودة اليه ، بمث مع أحد آل البكري أسدقائه ، يقترح عليّ أن اصحبه إلى مكة ، فقلت له إن القوم ينكبون

عياي إذا هربت ، وإن صحتي لا تحتمل عيش البوادي ، فعدت راضي معقولا ، وعذرتني على توقي الشر والضرر . ولما عقدت الهدنة ودخل الأمير فيصل دمشق مع الجيش العربي وجيوش الحلفاء ، كان أول ما طلب إلى أخي أن يكتب إلي في استانبول بالحضور حالا ، ولما زرتة كانت لقاءنا لقاء أخ بأخيه ، وتفضل وعاون المقتبس على الصدور ، وكان توقف قبل جلاء العثمانيين عن دمشق . ومع هذه الصداقة القديمة المستحكمة الأواخي ما كنت أرى أمجيته ، وقد أصبح أمير سورية ، على نحو ما كان يفعل بمعضهم ، ومنهم رئيس المؤتمر السوري ، فانه ما كان يتوقف عن الاختلاف اليه قبل الشمس في غرفة منامه ، ولا في ساعة متأخرة من الليل ، وهو يهيم بالدخول في فراشه . يباغته في خلوته وجلوته حتى ضاق به ذرعاً على ما فطر عليه من سعة صدر . ثم غضب على والده الملك حسين ، وكتب فيه ما لا يكتب وطعن في نسبه بما لا يقره عليه قائل . أظلمني على الطعن صديقي الأمير شكيب ارسلان في برلين وقال : انظر ما كتب صاحبك ، فقلت له هو صاحبك قبلي ، وأنما تتقارضان المديح . قال شكيب ؟ أنت تعرف ما بيني وبين الهاشميين من أجل السياسة التي انتهجوها في معاداة الدولة ، ومع ذلك لا أستبجح أن أظعن بهم هذا الطعن ، وأرى من واجبي إذا رأيت الطفل منهم أن أقبل يده لأنه ابن الرسول .

كثر من يصدعون الأمير فيصل بزيارتهم ، وهو يقابلهم بلطف ، ويرضيهم بما تصل يده اليه ، وكانت الفوضى بادية في ادارته في دمشق ، على نحو ما كانت ظاهرة في حملته بالبادية . وإذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحاري ، فهو لا يعذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن . والفوضى تبدو جلية في الحضر أكثر من البوادي . وكان الاسراف في قصره كثيراً ، وفيه سراق من كل صنف وأناس لا يهتمون لغير مصالحهم ، وكان الانكليز يملطونه كل شهر مئة وخمسين ألف جنيه مصري ، بنفقة بكثير من التبذير ، هذا عدا ما في هذه الديار من موارد تدخل خزانة الدولة ،

وهو يحرص على ارضاء مشايخ الاعراب ، ومقدمي الریف ، والزعماء من سكان المدن واستمالة قلوب المسلمين وغير المسلمين ، والشاميين والحجازيين والمرايين والبريطانيين والأجانب ، لذلك كان من واجب أصحابه أن يوفر له وقته ، ولا يزيده أعباءاً إلى أعبائه بمقابلاتهم وطلباتهم ، وهو مضطر كل ساعة إلى أن يقابل أصنافاً من الخلق ، ولو لم يكن لديه إلا المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين ، وكل من الفريقين يحاول أن تكون لدولته الكلمة العليا في الشام ، لكفاه ذلك همّاً ومشغلة . أضف إلى هذا أن القوم لم يربوا التربية السياسية المطبوبة ، وم خارجون من أيدي حكومات عبثت بحضارتهم ، وأضرّت بتربيتهم .

استصحب الأمير فيصل من باريس الكولونيل تولا ، فأنزله في دار عبد الرحمن باشا اليوسف ، وتعرفت إليه أول وصوله ، ونهت على حاشية الباشا وأقاربه ألا ينطلقوا أمامه بالكلام ، ولا يستعملوا معه غير الأدب متحفظين ، إذ قد يدرك الغريب الأعجمي مرمى ما يتكلم به المتكلمون من نبرات أصواتهم ، وأسارير وجوهمهم ، وإن جهل اللغة التي يتخاطبون بها . وطال زول الكولونيل في دار صديقي عبد الرحمن باشا ، وهذا يكرر رجاءه ألا أنقطع عن الدار ، لأن أعماله الخاصة تضطره إلى انقياب ، فأكون أنا مع ضيفه على المائدة ، نائباً عن صاحب البيت ، وكان السيد تولا لا يترك القصر في النهار كثيراً ، ويجلس في ردهة الاستقبال يتوقع أن يكلمه أحدهم أو أن يتكلموا أمامه . وتبين بعد أشهر وقد نجحت مهمته ، أنه يحسن العربية ، وما نطق بحرف منها أمامي ، ولا أمام أحد من أهل الدار ، مدة مقامه بينهم . فحمدت الله تعالى وجماعة المضيف على هذا الاحتياط ، وعلى ما ظهر به بيت عزيزي الباشا من مظاهر الوقار والأدب أمام الغريب .

تعلمت هذا التحفظ من حادثة وقعت لنا في كمال الأديب التركي المشهور قصها علي صديقي الأمير أمين أرسلان قال : كانت نامق بك مسافراً في

قطار الشرق من الاستانة إلى سويسرا ، يصحبه بعض ادباؤهم ، وكانت في المركبة عجوز افرنجية . فأخذ مع رفاقه بأطراف الحديث ، وتناشدوا الاشعار ، وطارقوا إلى ما ابتلوا به من رفقة تلك الشطاء الدرديس ، وأطالوا في هذا الباب وأكثروا وهي كالتمثال المنصوب لاتبدي ولا كمد ، ولا تتكلم ولا تبسم ، ولا لمبس ولا تنقبض . ولما قربوا من لوزان تقدمت العجوز اليهم ، وكلتهم بلغة تركية راقية ، وقالت إنها مسرورة بسماع كلام ادباء الترك ، وقالت إنها لم يجر لسانها باللغة التركية منذ مدة ، وعرفت نفسها فكانت امرأة سفير انكلترا في الاستانة سابقاً ، فصمقوا لما بدر من فلتات لسانهم ، ولما دل ما فاهوا به على قبح أدب . ثم دعته إلى تناول الشاي في منزلها من الغد في مدينة لوزان ، فأحبوا أن يقاتوا من دعوتها ، فأصرت عليهم ، وأرسلت من عرف المنزل الذي ارتادوه ، فاضطروا إلى الحضور مكرهين ، يثمترون بأذيال الخجل ، وأروها قد دعت سرباً من حسان الاوانس والمقائل ، وما تركت للاديب التركي ورفاقه مجالاً ليبتدروا ، وودعته إلى الباب ومن حولها الشابات الصباح ، كآهن بعض وصيفاتها وخادماتها . وهكذا ضربت الانكليزية رفاقها في القطار ضربة موجعة على ام الرأس .

والانكليز من أعرف الأمم بتسقط الاخبار ، ومن أقدر الخلق على كظم غيظهم ، حدث أن سفير انكلترا في الاستانة أرسل إلى قنصل دولته في دمشق ، قبيل الحرب العامة بنحو شهرين ، يقول له إن ضابطين تركيين برتبة كبيرة غادرا الاستانة إلى فلسطين ، ولم يعرف الغرض من سفرهما ، وطلب اليه التحقيق عن الدواعي اليه . فبحث القنصل عن الضابطين فلم ان وجهتهما فلسطين ، وملاً سلتين من المآكل والمشروبات ، وتحين دخول الضابطين إلى المركبة في قطار فلسطين فركب معها فكلما بالفرنسية فقال لها بالانكليزية إنه سائح اميركاني ، ولا يعرف غير الانكليزية ، وأخرج كتاباً انكليزياً يتلوه وتغابي ، ثم نبش السلة وفتح زجاجة من الويسكي

ودعاها لتناول قدحين فأجاباه إلى دعوته اللطيفة ، ثم شرب وناولها واطعمها ما يميزان به ، وأخذاً بأطراف الحديث ، وقال أحدهما لصاحبه لنتكلم فهذا حيوان لا يفهمنا . ولكن القنصل كان يحسن التركية ، وما إن بلغ القطار محطة سمخ حتى عرف المهمة التي هما مسافران من أجلها . ونزل من القطار وانزل سلتيه ، وسلم على رفيقه ، وانتظر قطار دمشق فركبه ، وكتب إلى سفيره بسر الضابطين .

ومما يدل على مهارة الانكليز بأخذ الأخبار حادثة سمعتها عن رجل منهم عاش بين الاتراك في الحرب العامة أربع سنين ، وهو من أعلق الناس بقلوبهم ، ومن أقرب رجال الحكومة إلى أخذ أسرار الدولة . ذلك أن جمال باشا لما أتى الديار الشامية استصحب معه من الاستانة شاباً شركسياً اسمه ضيا بك ، كان مقدماً عند الاتحاديين ونائباً في مجلس النواب العثماني وتعارفت إليه وتحككت به ، فألفيته ذكياً مرحاً يحفظ بعض جمل بالعربية ويوردها في المناسبات ، وكان يناديني (يا خالي) إشارة إلى أن أُمِّي شركسية وهو أخوها . وكان يطلعني على أشياء تخصني ويقوي عزمي ويبدد همي ، وأنا أستغرب منه ذلك وأقول : هي التربية ، ولا بد أن يكون هذا الرجل عاش مع جماعة راقين مدة في أوروبا . وأصبحت لضيا بك منزلة في معسكر القائد العام ، يذهب في المهمات ، ويؤمن على الأسرار ويجتمع إلى من يحب ، ويختلط بالناس ، ولا يعرف عنه غير هذا .

وبلغني بعد الحرب أن هذا الرجل الشركسي كان انكليزياً صرفاً . ولد في القوقاز بين الشركس فحذق لغتهم ، ثم انتقل إلى آسيا الصغرى ، ونشأ بين الشركس كسنة كأنه واحد منهم ، وتدخل مع الاتحاديين فعُدّوه في جملتهم ، وانتخبوه نائباً في المجلس النيابي عن إحدى مقاطعات الأناضول ، ثم نشبت الحرب الكبرى ، فكان من حاشية جمال باشا يركب بركوبه وينزل بنزوله . وقيل لي بعد الحرب إنه كان معه مجوهرات كثيرة ، كان يهدي منها من يريد إكرامه واستخدامه وذكرت اسمه لأحد رجال الترك

بعد عقد الهدنة مع الحلفاء ، وما كان من أمره فقال : عزمت عليك ألا تذكرني بقباوتنا .

عود إلى الأمير فيصل . قيل إن مبايعة فيصل بملك الشام كانت بتدبير جماعته الذين عول عليهم واصطفاهم لسياسته ، وكانوا يمتقدون أنهم يجعلون انكلترا وفرنسا أمام أمر واقع إذا هم تقدموا فبايعوه ، فلم يرض الانكليز والفرنسيون عن هذه المبايعة ، وما دام هذا الملك سوى أشهر معدودة . وسواء كان الانكليز راضين عن هذه المبايعة أو غير راضين ، فقد خذلوه لما جاء دور الرسميات . وبدخول الجيش الفرنسي دمشق خرج الملك فيصل وبث الفتنة في الجنوب ، ونادى بالنقمة على المحتلين ومن عاونهم ، فكان من ذلك قتل الحوارنة ورئيس الحكومة علاء الدين بك الدروبي ، وأحد وزرائه عبد الرحمن باشا اليوسف . وكان هذا دعائي إلى أن أصحبه في رحلته هذه ، فاعتذرت وقلت له : مادمننا نساfer غداً إلى بيروت فأنا في هذا النهار أتفرغ لقضاء أشغالي ، فسلمت بفضل الله من هذه الغائلة . وعلاء الدين بك الدروبي من أهل حمص ، تخرج بعد أن درس في المدرسة المليكية بمحسين حامي باشا في الإدارة . وأظهر نكراناً لجميل فيصل ، وتناسى أفضاله عليه بعد رحيله ، فطعن فيه في دار الحكومة في خطاب رسمي . وتهور بعد ذلك بزيارة حوران ، وكان متصرفها السيد أبو الخير الجندي كتب إليه سراً أن الحالة الروحية سيئة في لوائه ، فالأولى أن يرحلته فلم يستمع له ، وكان في ذلك حنقه وحنف صديقه وغيرها ، وبمقتلها خربت حوران ، بما ضرب عليها من القرامات ، وما عرف القاتل الحقيقي . كان القوم على عهد فيصل في قلق واضطراب ، يمتقدون أعظم الاماني على ملك الهاشميين ، ويرجون بهم إرجاع دولة العرب . وأكثر ما أضرّ بذلك الملك وعجّل في القضاء عليه الاعتماد على الصعاليك الانغمار ، ومعظمهم أطفال في السياسة يريدون الظهور والانتفاع قبل كل شيء ، وكان الأهلون من ذلك في غمرة ، ولو طال ملك فيصل ، وأراد الانكليز نجاحه لما كان

مصيره ما كان . فقد رأيتهم لما صحت عزيمتهم على فلاحه في ملك العراق كيف هبوا له ذرائع التوفيق ، وكان هو قد تلم سياسة الخلق في الشام فما ارتكب ما ارتكب هنا من أغلاط . هذا والعلاء العارفون بمحمون على أن استمداد الشاميين للحكم أكثر من استمداد العراقيين ، والنور باكر الأولين قبل أن يباكر الآخرين ، ولكن حظ العراق أعظم من حظ الشام ، وللبقاع نصيبها من الشقاء والسعادة .

ومن أسباب زوال ملك فيصل من الشام ضعف إرادته ، ومن ضعف إرادته أنه كان من أسرع ما يكون إلى نقض القانون فيعفو في الحال عمن النمس منه الصفح عنه ، ولو كانت المادة مادة قتل والمساعدة بها تضر بمصالح الدولة ، وكان كثيراً ما يعمد إلى سياسة الارضاء ، فقد نصب الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين رئيساً على العلماء في دمشق ولما تتجاوز سنه يومئذ الحادية والعشرين .

وكان المتكلم الأخير مع فيصل هو الذي يقبل رأيه ويموّل على كلامه مهما بلغ من سخف وضعف . وقد صحبه صديقي الاستاذ فائز بك الفصين — وهو من أذكى العرب ، كان أبوه زعل الفصين من رؤساء اللجاة — في رحلته إلى باريز فلم يلبث أن رجع ، فسألته عن سبب عودته قبل إتمام أعمال الأمير فقال : إن الأمير يصعب العمل معه ، فهو أذن يستمع لكل من يأتيه بخبر ، تراه أبداً متقلقل الرأي ، ضعيف العزيمة ، وحقيقة ما قاله ابن الفصين ، فإن الأمير لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبيين ، ما وقعت وقمة ميسلون ، ولا دخل المنتدبون أرضنا بالقوة . ومع هذا فقد كان من أفضل أولاد الحسين ، أسمع صوت العرب في الغرب ، وعرف السياسيين بأن للشعوب العربية مطالب يشعرون من أجل تحقيقها ، وأنهم أمة ذات ماض مجيد ، يجب أن ينظر إليه بعين الاعتبار ، فنشأت بذلك مسألة اسمها المسألة العربية .

بطريرك الروم

عرفت صديقي البطريرك غريغوريوس حداد قبيل الحرب العالمية ، ولا أذكر بأي واسطة من وسائط التعارف كان اجتماعنا أولاً ، وبلغني عنه أن أحد الشماسة جاءه ذات يوم يقول إن الخنطة التي كانت مخزونة في مخزن الدبر بدمشق قد كادت تنفذ ، واقترح على بطريركه أن يخصص بصدقاته أبناء طائفته بعد ذلك اليوم . وكانت البطريركية لما اشتد الجوع أيام الحرب العامة توزع طعاماً على الفقراء من جميع الطوائف . فعبس البطريرك ، وصمت دقائق ، ثم قال للشماس ساخراً : إذهب ولا لمط صدقة إلا لانسان ترى منقوشاً على جبينه (روم ارثوذكس) ، وخصه بالطعام ولا لمط لغيره شيئاً . ثم قال بصوت متهرج : إدفع الصدقة لكل من يطلبها ، فأنخلق كلهم عيال الله .

نقل إليّ هذا الحديث عن ثقات أعتقد صدقهم ، فمظالم البطريرك في عيني ، وأيقنت أن نفسه صفت من لؤنات التعصب الأعشى ، وكنت في دعوة أقامها في دمشق قائد الجيش جمال باشا ، وكان السيد غريغوريوس في جملة المدعويين ، ولما اقترب من الردهة همست في أذن القائد وقلت له : إن هذا البطريرك من العلماء الأجلة ، ومن أهل التقوى والصلاح ، وهو إلى هذا عريق في عثمانيته أكثر منكم ومني ، وقصصت عليه باختصار ما كان منه مع الشماس في توزيع الصدقات على المحاييج من كل نخلة . فقال لي الباشا : هذا الرئيس الديني جدير بأن يعاون إذاً . فقلت له : ويكون لمعاونته إذا تفضلتم دولتكم بذلك أحسن الأثر عند طائفته ، وعند جميع الطوائف ، ولا سيما عند المسلمين ، لأنه محبوب عندهم ، وموقر عند عقلائهم وأهل الرأي منهم . واتصل بي أن « صاحب الدولة » ارسل إلى

« صاحب القبطة ، مقابر وافرة من الحنطة ، ومنحه مبلغاً عظيماً من المال وأحله من نفسه محل التجارة والاكرام ، وما زال على معاوته حتى غادر الشام .

ماطلعت البطريك على حديثي مع قائد الجيش مدة الحرب ، لأن صداقتنا كانت حديثة العهد يومئذ ، وقد توطدت دعائم المحبة مع البطريك بعد ذلك ، وصرنا نقضي ساعات معاً نتذكر في امور علمية وأدبية ، ونخوض في موضوعات اجتماعية وسياسية ، وما كنا نتعارض ولا تتصادم . قضيت في سوق الغرب في لبنان أياماً ماكدت أفارق صديقي ، وكان مصطافاً هناك في ديرهم ، إلا وقت النوم ، وكنت أشهد مائدته في الظهر وفي العشاء ، وما استطعت لما له من السلطان على القلوب أن أفلت من ضيافته . ولما انشأت المجمع العلمي اهداه ما عنده من الآثار والماديات . وفرغ بعض السنين محل عضو في المجمع كان فيه رجل من طائفة الروم فأحب البطريك ان اجعل خلفه شخصاً من ابناء طائفته فأيت ، وقلت له : عضويات المجمع توزع على ارباب الكفاءات ، لا على المذاهب والديانات ، فغذرنى .

كانت معرفة غريغوريوس بالتاريخ الاسلامي والفقه الاسلامي كفاء سعة عقله وعظيم تجاربه ، وكان من الخطباء الأتينا ، والأدباء المارفين ، لا تمل حديثه ولا تامل من مجلسه ، وكنت كلما اطلت النظر في اخلاقه أقول إن هذا الرجل جمع بين النصرانية والاسلام ، واخذ من روح الديانتين كل ما لشدت حاجة البشر إليه .

ولما أخذ بعض ابناء طائفته يتعمون منه اشياء ويتحاملون عليه . تطوعت لرد هجاتهم ، وقلت لبعض أصدقائي منهم : إنكم تحاولون العبث باوقاف الطائفة ، وان تتصرفوا بأمورها على هواكم ، والبطريك فيما أرى يحول بينكم وبين ما تحيلون له ، والله لتبكن عليه بكاءً كثيراً اذا فقدتموه ، فكانوا يبسمون لقولي ويدركون اني عرفت ما تكن صدورهم . وكان عما يمدون عليه أنه يعطي لابنة اخته راتباً شهرياً ، فكنت اقول لهم : إن الذي يأتي طائفته بعشرات الالوف من الجنيئات ، يصرفها في تعليم أولادهم وإطعام فقرائهم ،

تستكثر عليه إعطاؤه عشرات من الليرات في السنة لسيدة محتاجة ، وهي الوحيدة الباقية من رحمه في الارض .

دامت صداقتي مع السيد غريغوريوس إلى ان وافاه أجله ، وكانت من امتع الصداقات ، وأوفاه صفاء . ولما نقل جثمانه من لبنان ليدفن في دمشق ، كان المسلمون هم الذين تولوا الاحتفال بتشييعه ، فحضر جنازته منهم ما لا يقل عن خمسين ألف انسان آسفين مكتئبين . وقد عجبت النزلة الاوروبية يومئذ ان احتفل المسلمون برئيس ديني لا صلة لهم به في الظاهر ، هذا الاحتفال الباهر الذي يدل على عاطفة كريمة ، فأجبت بعض من سألني عن سر ذلك منهم قائلاً : لا لمجبوا لهذا الحب المتجلي في هذا الحفل ، فتحابب الناس متأصل في قلوبهم في هذا القطر منذ زمن طويل ، وما كانت تقع امور غير مستحبة بين ابناء هذا الوطن أحياناً إلا بالاعابك ، والماب ساسة الدول العثمانية ، ورجل من عيار هذا الراحل العظيم يحبه جميع الطوائف ، لأنه على شدة تمسكه بدينه ما غفل عن حقوق وطنه ووطنيته . ومع انه بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ، وطائفته في هذه الديار أكبر الطوائف النصرانية عدداً ، فهو اقرب الرجال إلى قلوب السواد الأعظم من السكان ، يحبونه جميعهم لاعتز رجل من رجالهم ، وكثيراً ما أطلقوا عليه اسم بطريرك المسلمين محمد غريغوريوس . وزار مرة بيروت فخرج إلى لقائه اربعون سيارة تحمل مستقبلين من ارق طبقة من المسلمين وكانوا يصرحون وهم فرحون بمقدمه عليهم : إنا نستقبل حبر النصارى والمسلمين . كان السيد غريغوريوس من التقشف والزهد على جانب عظيم ، خرج فيما روي لي عما يملك من صلبان الذهب ، باعها وأنفق ثمنها في إطعام الفقراء وإغاثة البائسين مدة الحرب العامة ، وكان يرفع ثوبه ، ويخفف نعله ، ولا يألم إلا اذا قصده قاصد وليس لديه مال يواسيه به . واطالما قلت امام الموافق والخالف إن غريغوريوس من اعرق الناس في حب قوميته ، وأكثرهم تناغياً بعربيته ، واتقى لو كان كثير من مشايخ المسلمين على سمته وأخلاقه ، او كما قلت .

وفد جناق قلمة وتؤون

ألف جمال باشا في السنة الأولى للحرب العامة وفدأ من مفاتي سورية وفقهاؤها وشمرائها ووجوها ، وشفعه بأربعة من الصحفيين أدمجني في جملتهم . فسافر الوفد إلى الاستانة ثم إلى جناق قلمة (الدردنيل) ليزور المشاهد التي تدل على عظمة الدولة ، ويرجع إلى سورية ينحبر أهلها بما رأى وما سمع . والحقيقة أن الباعث إلى ارسال هذا الوفد كان للامتداح من أعمال جمال باشا أمام ولاية الامر في الاستانة ، وكان مركزه مزعزعا فاعتزم تثبيته بهذه الوساطة .

وكان الوفد برئاسة الشيخ أسعد الشقيري العكاوي ، الداهية الباقعة ، الذكي القلب ، الخفيف الروح ، وكان يحطّط باللغتين العربية والتركية ، ويحسن في جملة ما يحسن ادب الكبراء ، ويعرف طبائع الاتراك ، لانه عاش بينهم زمناً طويلاً ، وكانت دراسته الاولى في الازهر ، ويرجع السبب في طلاقة لسانه إلى كون ابيه او جده من اهل وادي النيل .

واتم الوفد مهمته على ما يحب مرسله ، ونجحت في هذه الرحلة اطماع بعض افراده وجشعهم ، فتأذى بهم رئيس الوفد ، وكان يتوسطني لاكم بعض من يشذون عن قانون الجماعة ، ومصطلح الممدنين في الاكل والجلوس والسير والاجتماع والخطاب ، فألقى ويلقى هو من بمضهم عنناً وما دعا إلى هذه البلبلة الا عدم التجانس بين الوفدين ، على ان الوفد لو كان من غير جماعة المشايخ ما كان له ذاك الوقع في نفوس اهل الاستانة ، وما عرفوا ان منهم الجهلاء ، ومنهم من يشهد الزور ، ويكذبون ولا يرون في الكذب غضاضة ، وقد يفتونك فيما تمتقده محرماً ، ويبيحون لك ما كان محظوراً ، ومنهم من يحبون ان يستثمروا كل شيء لجيوبهم ومظاهرهم .

تمارض احدى اعضاء الوفد صديقي الشيخ بدر الدين النعماني الحلبي ،
لما بلغنا الاستانة ، وتختلف عنا ولم يرافقنا الى جنات قلعة . وركب الوفد
إلى هذه الارعاء باخرة من بواخر المستشفيات الخاصة بنقل المرضى ، وكان
الخطر محققاً بنا من الغواصات ، ودأب المشايخ يتلون حزب البحر ، داعين
الله ان ينجينا من الفرق ، فنجونا ببركات انفسهم الطاهرة ، وائر حزبهم
في البحر وما هاج ، بفضل توسلاتهم ، وتخطئنا غواصات الحلفاء وما كنا من
المفرقين ، ولما عدنا إلى استانبول رأينا مريضنا قد ابل ، فقال لي إنه كان
يدعو الله آناء الليل واطراف النهار ان يفرق سفينتنا ، لينقذ سورية من
ثلاثين شيخاً ، وان غرقت انا معهم فانه يبكي ، ويسره ان يكون المشايخ
طعام الاسماك في قاع البحر . وطالب ذلك شيخ ايضاً ، وقد ظلمه من ادخله
في سلكهم . قال هذه النكتة وكلامه لا يخلو من حقيقة جارحة .

وعدنا إلى مسافط رؤوسنا يحمل كل واحد منا نوط الحرب وساعة
من ذهب ، ولكل واحد من ارباب الجرائد مئة ليرة عثمانية معونة لجريده .
فسقط في ايدي بعض اعضاء الوفد لما بلغهم ما ناله ارباب الصحف ، وود
بعضهم لو كان في الامكان عده في الصحافيين ، حتى يقبض ما قبضوه ،
ولو بمخلع عمامته وحلق لحيته ، وجعله في مؤخرة الصفوف .

زرت القائد العام في فندق فيكتوريا لدن عودتي من الاستانة ، وصادفت
عنده رضا باشا الركابي ، فرحب بي ترحيباً كثيراً ، وشكرني على مهوتي
في الاستانة ، ثم قال لي : بلغني انك تحب الذهاب إلى جبل الدروز ،
لتحدث اهله بما رأيت في دار الملك . فقلت : هكذا النية اذا صدر امر
دولتكم . فقال : نعم تفعل ، وسأرسل معك نسيب بك الاطرش ليتولى
خدمتك بما لا تقدر ان تتولاه بنفسك ، وعندها تكلم الركابي فقال : يا حضرة
الباشا كان لفلان ، يعني ، صحيفة سوداء قبل الحرب ، فلما جئتم هذه
الديار بيض صحيفته بخدمة الدولة (او ما هذا مناه) فقاطمه جمال باشا
وقال : ثبت لي اخلاصه وغيرته على هذه الدولة ، واني ما وثقت به إلا

بعد ان جربته عشرين مرة . ومعني هذا انه وضع علي عيوننا يأتونه بأخباري ، واهم ما كان يهتم له شخصه ورأيي فيه . وانا كيف افوه بشيء يؤله وهو الذي عاملني معاملة رفع بها من مقامي ، ووقائي اذى المؤذين ، وما اكثرهم إذا شاهدوا ممن يؤذونه ضعفاً .

وكان في جملة العيون علي شاب من اهل حمص ذكر لي هو ذلك ، وذلك الجاسوس السافل الدمشقي وكان الشيخ الشقيري قال للباشا ، وقد رأي في عودتي إلى دمشق كاسف البال واجماً ، لأن فربقاً من اصحابي سيقوا إلى سجن عاليه مدة غيابي : إن فلاناً الذي خدمك كثيراً في الاستانة ما ذا يكون مصيره بعد أن قبض على أصحابه ، وادعوا السجن وهن التحقيق في عاليه ؟ فأخبه إنه راض عني كل الرضا ، ويعتقد بقوة ايماني وعقيدتي الوطنية ، ويجب أن ألقاه ليطمئني بنفسه . وكان أن صدر منه الكلام الذي قاله لي في فندق فيكتوريا .

ولقد شجعتني على المضي في نفل حسنات قائد الجيش ، كلما دعا إلى ذلك داع ، نصيحتان لعظيمين يعرفان نفسية الكبراء في هذا الشرق . إحداها نقلها لي صديقي الشيخ أحمد حسن طيارة صاحب جريدة الاتحاد العثماني في بيروت قال : ابلغك نصيحة الشيخ طاهر الجزائري - لما عرج على بيروت في طريقه إلى مصر قبل نشوب الحرب بأيام - قال : انشر للائترك كل ما يردونه في جريدتك ، وقل لصاحب المقتبس ان يجري على مثل طريقتك ، وإذا لم تفعل فأنتما مقتولان لا محالة . ولكن حب الكسب غلب على طيارة فنشر في جريدته حوادث لا ترضي العثمانيين ، كان يبعث اليه بها احد قناصل الحلفاء مع اجرتها القليلة ايام النفير العام وقبله بقليل ، وانا عرضت على جريدتي مثل هذه النشرات لم ار من الحكمة نشرها ، وهي صادرة عن اجنبي لا اعلم النية فيها ، والدولة في اخرج اوقاتها ، فسبق صاحبي إلى عاليه ، وهو من جماعة الاصلاحيين ، وربما كان مع غيرهم أيضاً ، وحوكم مع من حوكم فحكم عليه بالقتل .

والنصيحة الثانية صدرت عن رجل عرف الزمن وأهله معرفة حصيفة ،
 ألا وهو خلوصي بك والي سورية ، فاني لقيته في الاستانة مؤتمراً فانا من
 جناح قلعة ، وكان استقال من ولاية سورية لأن جمال باشا عزم على قتل المتهمين
 بالسياسة في عاليه ، ولما لم يقنعه ولم يقنع الاستانة برأيه في الإبقاء عليهم استقال ، على
 شدة الحاح رجال الدولة بالإبقاء . ولما لقيته ظهر الكدر على أسارير وجهي ، فالتفت
 إليّ وقال : خلوصي حيث كان خلوصي ، فقلت له : بيقك الله ياسيدي ، إن مقام
 دولتك لا يحتاج إلى دليل ، وارجو أن تتمتع بالصحة أنت وعيالك . وانا انذب فقط
 سوء حظنا ، فقد كان أقصى آمالنا أن ننفع بثمرات عملك وتجاربك ، وقد علم مولاي
 مبلغ تعلق اهل سورية بشخصك الكريم ، لكثرة ما لقوه من عنايتك بأمرهم ،
 وغيرتك على مصالحهم . وكان اهل دمشق خرجوا لوداعه لما رحل عنهم
 يسكون ويأسفون . ثم قال لي : اسمع مني ثلاث كلمات تنج من هذا الرجل
 السفاح (جمال باشا) لا تطالب الذهاب إلى المانيا او النمسا ، فانه يعتقد انك
 تحاول الفرار للاتحاق بالهلفاء ، كما كنت طلبت ذلك آنفاً وارتاب منك ،
 ولا تنكث الاجتماع بالاهلين على ما كنت تفعل ، والزم دارك واقل من الاختلاط ،
 وحاول من حين إلى آخر أن تمدحه في الجريدة ، وإلا فأنت مقتول .
 وإذا رأيت نفسك في ضيق ، وإيقنت بتغير قلبه عليك ، فاكتب لي ان
 الجريدة لا تقى وارداتها بنفقاتها ، فأفهم انك ازمعت ان تنضم بالاستانة ،
 وانا كل ساعة مستعد ان اجد لك وللدكتور عبد الرحمن شهنذر هنا منصبا
 لا يقل راتبه في الشهر عن خمسة آلاف قرش لكل واحد منكما . فودعته
 وكلي اسف على فراقه ، وانفذت امره في كل ما نصحني به ، وحفظت
 اجل ذكرى لا شرف والى عرفته من ولاية العثمانيين .



أهـرار التـرك

عيل صبر والي سورية خلوصي بك مني ، لكثرة ما ذكرت له خلال احاديثنا اسم الاتحاديين، ولقولي له جماعتكم الانحاديون ، وعمل الاتحاديون وقال الاتحاديون فقال لي : أنا لست اتحادياً ولعنة الله على الاتحاديين . هم فئة تسيطر بالمملكة إلى الخراب ، وعلى أيديهم ستفقر وتبيد . وإني ما وصلت إلى هنا والياً عليكم حتى دخلت في كل المضايق ، وعرفت تصارييف الدهر بأهله . وأشار إليّ بالكف عن نسبته إليهم . وقال لي يوماً : ثق يا فلان أن بلادكم خرجت من حكم العثمانيين وبالأأسف ، بفعل هؤلاء الاتحاديين المجانين . ولما سمعت ذلك منه تطلعت ذات اليمين وذات الشمال مخافة أن يكون سمعه احد . وخفت ان يكون اصيب بضربة جنون ، فما زدته على ان تفاقلت وتفايت كأنني ما سمعت . وكيف لا اخاف ان يكون استدرجني للكلام ، وانا كنت يومئذ احتاط في كلامي مع كل تركي ، واتوقى اكثر ابناء العرب ، فبالأحرى ان احذر واليهم ، على ما كان بيني وبينه من صلات كلها ود وحرمة وثقة .

ووقع لي مع جناب شهاب الدين بك من علماء الترك وادبائهم - وكان دعاه جمال باشا هو وصديقه سليمان نظيف بك العالم الأديب المشهور لزيارة الديار الشامية واوصاني بأن الزمهما واكرمهما ، ونزلا في دار صديقي عبد الرحمن باشا اليوسف ، وقد خلونا مرة بأنفسنا في ردهة الاستقبال ، وكثيراً ما كنا نخلو ونتمسار - وقع لي ان قال ما ادري كيف اصف هؤلاء الذين قبضوا على زمام الملك ، وكأنهم مستأجرون للقضاء الأخير على هذه الدولة ، لأنهم سخفاء اغبياء يحاولون ان يستأثروا فقط بالدعوة إلى القومية التركية (المتكلم من صميم الترك) ولا يتركون مجالاً لنصف سكان المملكة

وهم العرب ان يجروا على مثالهم في هذا المضار . هذه المملكة يا صاحبي لا لميش إلا كما لميش امبراطورية النمسا والمجر ، ولا معنى ان اختص انا بالدعوة للقومية التركية ، ولا يكون لك انت العربي حظ منها . فلما ان ادعو انا وتدعو انت ، ولما ان اكف عن الدعوة وتكف انت . هذا هو الانصاف .

قال : حقاً ! اننا ضما في إدارة الشعوب والممالك ، وقد حاولنا فيما مضى ان نُنتزك الروم فخرج الروم عن حكمتنا ، ثم حاولنا بعد ان نترك الصرب والبلغار والرومان فخرجوا كلهم عن حكمتنا ، وحاولنا ان نُنتزك الالبان فتزعوا ايديهم من ايدينا ، والآن نحاول ان نترك العرب وسيخرج العرب من سلطاننا . وسألته ما العمل إذا ؟ قال : لا شيء ، قريباً يخرج عليكم الافرنج من البحر فتسقطون في ايديهم غنيمة باردة . نبه على من تحب وتعرف ان يدخر قوتاً في بيته يكفيه وعياله اشهرًا ، فربما طال حصاركم ، ولا تفكروا فيما سوى ذلك .

وقال لي مرة « جناب » المشار إليه ، ونحن سائررون في بعض ازقة دمشق على الاقدام ، وقد رأى حمل حطب على حمار يسوقه صاحبه مذعوراً ، كأنه يهرب حشيشاً أو أفيوناً . أصبح إن الحطب عزيز في هذا البلد ؟ فقلت له : نعم ، حتى أتى منذ مدة احاول ان أجلب إلى داري حطباً من قريتي وأخشى ان يصادر في الطريق . فاهتز لهذا وقال : اذا كان مثلك لا يقوى على جلب حطب بيته من مزرعته ، فكيف تطلب من العرب أن يحبوا الترك ؟ كل جفاء يبدو من العرب نحونا هم معذورون فيه .

هذه حرية علماء الترك ، وهذه نفوسهم الصافية ، وهذه ثقتهم بالخلصين من ابناء العرب . ولقد بالغ الاديان التركيان لما حلت الاستانة بالحفاوة بي . وكان سليمان اظيف يقول لي : انا هنا اخدمك كما كنت أنت تعاملني في دمشق . فأقول له : إن مقامك يا مولاي عظيم جداً ، فأرجوك ألا تعاملني هذه

المعاملة . فكان يقول : أنا أقوم بواجب ، وساططكم على أما كن لا عهد لك بها في هذه العاصمة ، وحقيقة أطلعني على خزائن كتب لا أعرفها وعرفني إلى شخصيات عظيمة ما كنت لولاه اصل إليها . وكانوا إذا حضروا مجلسه يوم الأحد من كل اسبوع يعرفني إلى من لم اكن أعرف بقوله : هذا من أحرار العرب هذا صديقي فلان . ويدعوم إلى ان يتكلموا بحرية أمامي كأني منهم ، وبذلك عرفت مكانة رجال الترك معرفة يصعب أن يعرفها كثيرون حتى من الترك أنفسهم ، وأوقفني على ما كان يستتر عن الغرب لا محالة ، أهديته لما كان في دمشق اعداداً من مجلة المقتبس فطالعها مطالعة امان ، وقال بعد أيام لصديقه جناب بك شهاب الدين : طالع هذه الاعداد التي تفضل صديقنا كرد علي وأهداني إياها ، اننا إلى الآن لم نستطع (اي الترك) أن ننشر مثلها ومتى طالعها تحسبكم على العرب . فقلت له : هذا من فضلك وحسن ظنك بالعرب . فقال : هذه الحقيقة وتعرف اني لا أحب النفاق .

وفي الحق ان المنورين من علماء الترك وأدبائهم كانوا يحبون العرب . ويمجبون بالآداب العربية وتاريخ العرب ، ويشمئزون من كل من ينال منهم وبطن فيهم ، وكان رجال الاستانة مثلاً من هذا اللطف والمطف .

قلت لصديقي علي كمال بك - من أكبر ادباء الترك وكتابهم ، وكان يحفظ جانباً عظيماً من شعر المتنبي والمعري ويستشهد به في كتاباته بالتركية - عندما دخل الأمير فيصل إلى دمشق وكنت في الاستانة : بلغني ما ساعني من أخبار بلدنا ، بلغني أن شكري باشا الايوبى عامل الاتراك معاملة نابية عن الانسانية ، لما جلست الحكومة العثمانية عن ديارنا ، وأنه لم يحسن معاملة النساء خاصة . فقال لي : لا تصدق يا عزيزي ، العرب لا يصدر منهم مثل هذا ، لو دخل الاتراك عليكم ظافرين لاملوكم بمثل هذه المعاملة ، أما أنتم العرب فلا تفعلون ذلك . فتوقف فكري لقوله ، وجاءت الاخبار بعد اسبوعين أن الامر في دمشق كان خلاف ما بلغني أولاً ، وأن الاتراك لقوا عند سقوط دمشق من اخوانهم العرب كل رعاية . فذكرت ذلك لعلي كمال بك فقال : أما قلت

لك ، أنا عارف بطبايعكم ، وكان قضى شطراً من حياته في مصر وفي حلب ، وهو الذي مزقه الكاليون شر ممزق لما وافت جموعهم ضواحي الاستانة ، وكانت لي معه في مصر وفي أوروبا مذاكرات ومهامسات . وكان الاتحاديون لأول نشأتهم غاضبين عليه فقلت لطلعت باشا وزير الداخلية : إنكم تحسنون صنماً إذا استدعيتموه من أوروبا ، وكان أمامكم هنا ، وربما سار معكم ، إذا أحسنتم سياسته ، وذلك خير من أن يكتب فيكم وهو بعيد . فاستدعوه وجملوه استاذاً في دار الفنون ثم أصدر جريدة (پیام پیام) ووقع الخلاف بينهم لأن الاتحاديين لا يهتمون الحرية ولو كان من بدرت منه تركياً من صميم الترك مثل علي كمال بك .

واتفق لصديقي أحمد جودت بك صاحب جريدة (اقدام) أكبر صحف الاستانة في عهد العثمانيين أن نشرت جريدته مقالة عن اليمن فيها طعن في العرب ، فتحتمس بعض طلابنا في الاستانة ، وهاجوا ادارة (اقدام) وحطموها الزجاج ، ومزقوا الاثاث ، وشتموا صاحب الجريدة . فكتب المقتبس يوج طلبة العرب ، على ما أتوه مستنكراً له واعتذر عن صاحب (اقدام) بأنه قد لا يكون اطلع على المقالة ، ولو رآها لما نشرها . وصحیح أن الامر كان كما قدرت ، وصاحب (اقدام) كان آية في أدبه واطلاعه ، ما أحصيت عليه غلطة في باب الطعن بالعرب ولا غيرهم ، وعلى العكس كان يرفع مقام الامة العربية ، وما كان في رجال الصحافة من يماثله بوقوفه على روح المملكة العثمانية وخصائص شعوبها . وكان لدفاعي عنه في المقتبس تأثير كبير في الأندية التركية في العاصمة والولايات أدركوا به أن العرب يحبون الترك ، وأن عقلاءهم يربأون بأبنائهم عن أن يشبوا على المشاغبة والسلطة وقلة الانصاف . وأثبت أحمد جودت ، ولطالما أثبت من قبل ، أنه عظيم في ذاته واخلاقه ، ولم يخط النفس هواها ، وظل على حبه للعرب وتقدير قدر علومهم وآدابهم وماضيهم وحاضرهم . كانت لي صلات عظيمة بكثير من ادبائهم وشعرائهم وعلمائهم ، ومنهم صديقي جلال نوري بك وكان صاحب جريدتين يوميتين احدهما تصدر بالتركية

والثانية بالفرنسية ، وكان من عظماء المفكرين فيهم ، وله عدة تأليف مفيدة نقل بعضها إلى العربية ، ولم ار في جميع ما قرأته من كتبه ومقالاته كلمة واحدة تشعر بالخط من قدر العرب ، وعلى العكس كان معجباً بتاريخهم اكثر من العرب أنفسهم ، وقال إن امته لم تنجب عالماً واحداً يذكر من عيار ابن رشد ولا غيره من علماء العرب وفلاسفتهم .

ومنهم صديقي لطفي فكري بك وهو من الاكراد المتكرين ، على ما كان صديقي دبران كيليكيان رئيس تحرير جريدة صباح من الارمن المتكرين ، وكان هذا غاية بين كتاب السياسة عند الترك بقلمه وطول باعه ونفسه . وكان لطفي بك عظيماً في حريته وبلاغته حتى قال فيه صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان قرأ مقالاته في جريدته التي كانت تصدر في الاستانة لسان حال المعارضين ، لما سمعه يخطب في حديقة الامة بدمشق : ما رأيت مثل هذا الرجل جمع الله له المزايا العجيبة التي قل أن يمن بها على أحد ، فهو كاتب عظيم ، وخطيب عظيم ، جميل الوجه ، جميل النغمة ، قوي الحجة ، واسع الحرية .

هذا إلى أمثالهم ممن يقل في رجالنا أشباههم ، وقد تقدمونا في الكتابات السياسية والاجتماعية . وكثيراً ما كنت أعارض بين مقالات أرقى جرائدنا وأرقى جرائدهم ، فأجد جرائد الترك أرقى كتابةً وبحتاً وتوسعاً من جرائد الاقطار العربية ، ذلك لأن دولة الترك العثمانيين امتازت منذ القديم برجالها في السياسة ، كما امتازت برجالها في الحرب ، ولم تنجب في غير هذين الفرعين ، وأرباب القرائح عندهم كانوا يدرسون كما يدرس أرباب العبقرية من الافرنج ، يحاولون ابدًا اتقان صناعتهم . وكلامي هذا يتناول المملكة العثمانية ورجالها من الترك قبل انفصال العرب عنهم بعد الحرب الكبرى .

جمال باشا والبارون أوبنهايم

كنت مع جمال باشا في حلب بعد قدومه الشام بمدة وجيزة ، وكنت نازلاً معه في فندق بارون ، وبينما أنا جالس في الصباح على سطح الطابق السفلي مع الشيخ أسعد الشقيري تمازح ومتضاحك ، وقمت على رأسي من الطابق العلوي قطعة من الخبز ، فالتفت فرأيت جمال باشا مع والي سورية خلوصي بك ، فوجهت الخطاب إلى جمال باشا في الحال وقلت له : ولم الخبز تقذفنا به يا باشا ؟ فنعمتكت علينا دافقة ، يقول المثل العربي (أجمع كلبك يتبعك) وأنتم بحمد الله أشبعتم كلابكم ، وهم يتبعونكم حيث ذهبتم . فأغرب وصاحبه في الضحك وقال : قبحك الله ، لسانك طلق لا يسكت فأجبته : إذا وجد مجالاً للقول قال .

وقال لي الباشا في هذه السفرة : هل تعرف البارون أوبنهايم ، فقلت له : أعرفه من مصر معرفة جيدة ، فقال لي : إحدّر منه هو رجل دساس فحفظت وصيته وعملت بها . ووافي البارون أوبنهايم دمشق لتأسيس جريدة ألمانية عثمانية باسم (الشرق) ، فاستدعاني وتفاوضنا طريقة إصدارها ، وبحسنا في الاشخاص الذين سيؤكثروننا ، ومما قلته له لنضم إلينا يوسف أفندي العيسى فقال : ومن هو يوسف العيسى فقلت : صحافي من يافا . فسألني عن دينه فقلت روم أرثوذكس ، فانتقبض ، وكان كثيراً ما ينتقبض صدره من المسيحيين إذا رآهم أو ذكروا أمامه ، وذكرت له أن العيسى ما كان من حزبي ولا من أصدقائي ، ولما كتب في الصهيونية أحبيته . فانتفض البارون وقال : إذا حارب الصهيونية فهو عدو بلاده ، فسكت وساد السكوت ، ودفع في نفسي في الحال أن البارون يهودي النحلة (ابن حليم) حرّفت أوبنهايم على ما يظهر) يؤيد ذلك أنني كثيراً ما سمعته يقول بدون أن يُسأل :

الحمد لله إني كاثوليكي تقي . Grace à Dieu je suis un bon Catholique .

وعاد البارون بعد حين يحاول مفاوضاتي فأعرضت عنه ، واغضيت عن الاجتماع إليه . ورأيت في الشارع مرة فلم اسلم عليه السلام الذي كان يتوقه مني . وبعد حين علمت أن البارون قصد إلى جمال باشا في القدس وشكاني إليه ، مدعياً اني لم أساعده على إصدار الجريدة المساعدة الواجبة لأنني افرنسي النزعة والمواطف ! وهو ألماني ، لأحب له النجاح في مهمته قال : ولو كنت افرنسياً لكان عطفه أكثر من ذلك . وقال : إن ديار الشام لا تستريح مادام هذا الرجل حياً ، اقلوه فان خيانتهم لكم لا تحتاج إلى دليل ، وأشياء من هذا القبيل انبثق بها ، وهو لا يرى من الباشا إلا الابتسام ، وقال الباشا على المائدة لرئيس أركان حربه فؤاد بك : جاءني هذا الصباح البارون أوبهايم يسود لي صحيفة (كردعلي) ويقترح عليّ أن أقتله لأريح البلاد منه ، بدعوى أنه افرنسي بشعوره ، ولأنه لم يعاون البارون على إصدار الجريدة ، وبالحق إن (كردعلي) كبر في عيني كثيراً لأنه أنفذ إرادتي ، فأنا الذي حذرته من البارون منذ مدة ، فما نسي قولي له ، ولم يخرج عن العمل بإشارتي .

ومن عجب الاخلاق أن هذا البارون نسي أو تناسى سعيه في قتلي زمن الحرب العامة ، وباعتني منذ بضع سنين وأنا في مكتبي الرسمي في وزارة المعارف ، فقابلته بتجهّم ، فلم يفهم ما قدمت يداه ، وألحّ بطلب تأليني هدية لخزانة كتبه ، فأعطيته إياها لأسلم من إلحافه ، ثم جاءني هذا الربيع (١٩٣٩) إلى داري ، وكان كتب لي كتاباً يطلب مقابلتي فلم أجبه ، وقصدني مرة ثانية في داري فلم أقبله ، وأنا في الدار . وبلغني أن دولته حجزته من التصرف بأمواله ، لاسرافه فيما قيل في الاتفاق على ربيعة له (هو في الثمانين من عمره اليوم) والحقيقة أنه من أصل يهودي ، واليهود اليوم أعداء ألمانيا الألداء ، ولديه مجموعة من الماديات النفيسة يخشون

خروجها من ديارهم ، وهو ينفق على حفريات يجريها في أقصى حدود الشام
بمعرفة علماء معروفين من الألمان ، ومنهم من يكتب له الكتب فتصدر
باسمه ، لأنه على ما قال لي أحد علماءهم لا يحسن أن يكتب بلغته كتابة
لائقة ، وهو من طبقة العوام فيها ، ومعلوماته ضئيلة حتى في الفن الذي
يدعيه ، وهو فن العاديات والآثار ، وقلت لمن يتولى من كتب البارون ما
يتولى ، ما قاله أحدهم في القديم : اللهم ارزقني خطأ يخدمني به أرباب
الخطوط ، ولا ترزقني خطأ أخدم به أرباب الخطوط . وكم في المؤلفين المزيف
وكم من أغنياء بما لهم فقراء بمقولهم ومعارفهم .



أحرار العرب

كنت أبدأ أحاذر التبسط مع القناصل (ومع الأجانب عامة) في سياسة العثمانيين . وكثيراً ما ألقاني إذا جالوا في مثل هذه الجولات ، وكنت أوصي رفائي بمن يختلفون اليهم أن يأخذوا حذرهم فلا يصرحون بأفكارهم لأننا لانأمن من أن يشبع ما يقال لهم . وهم في الغالب يدنون منه المهم ، وما كتب يتناقل ولا يؤمن ذبوعه . وما كان يخطر بالبال أن تنشب الحرب الكبرى ، ويتوصل العثمانيون إلى أن يضعوا أيديهم على أوراق القنصليات ولا سيما قناصل فرنسا . وقد احتاط قناصل البريطانيين ، فأحرقوا ما لديهم من الأوراق ، وكان عند قنصل دمشق مصورات وخرائط حفظ النقاط المهمة منها وأحرق الأصل .

ومن رجالنا من كانوا لا يمتحاطون كثيراً في كلامهم مع القناصل ، ولهذا سقطت الدولة العثمانية في أوراق وكلاء الدول على أسرار باح بها بعض أحرار العرب ، وكانت من العوامل في تجريم بعضهم ومحاكمهم في الديوان العرفي ، والحكم عليهم بالقتل صلباً ، ومن صلبوا وهم زهرة الرجال صديقي عبد الوهاب بك الانكليزي ، ولما حكم الديوان العرفي عليه بالقتل بكى أعضاؤه ، ولو عرف أنه سيحكم ويحكم عليه لرضي باقتراح طلعت باشا وزير الداخلية عليه ، أراد أن يهيء له سبيل الهرب من الاستانة إلى الخارج وقال له اذا طلبت إلى سورية فلا أستطيع اتقاذك .

وعبد الوهاب بك الانكليزي من الممتازين بملهم وأخلاقهم ، قل أن أنبت الشام مثله في عهدها الأخير . كان مرة قائم مقام في « الباب » من عمل حلب ، وكان الأعيان على عادتهم يستحلون أكل أعشار الدولة ، ويقومون للوصول إلى ذلك بحيل مدهشة ، فزاد هذا المال بدون ضجة

أكثر من عشرين ألف ليرة عثمانية ، فكتب والي الولاية إلى وزير الداخلية بما وفق له قائم مقام الباب ، فكتب وزير الداخلية إلى عبد الوهاب بك مباشرة كتاباً بخطه ، يشكره على عمله الجليل الذي أخبره به والي ، ويهنئه على صدق العمل وحسن الإدارة ، ومما قال له ، وقرأته بنفسي : لو كان عند الدولة عشرة قوام مقام من عيارك لعدت من أرقى حكومات العالم . والوزير يومئذ طلعت باشا الاتحادى المشهور الذي خاف على حياة عبد الوهاب واقترح عليه أن يهربه إذا كان له شيء يتذرع به لمحاكمته فأبى .

ذكرت وأنا ادون هذا برقية وردتني ذات صباح من أنطاكية هذا نصها :

وقد يجمع الله الشقيتين بعدما يظنات كل الظن ألا تلاقيا

سليم الجزائري شكري العسلي عبد الوهاب الانكليزي

وهؤلاء الثلاثة أصحاب اغتبطوا أن اجتمعوا بعد فراق طويل ،

صاحبهم الاتحاديون مدة الحرب في ساحة الشهداء بدمشق . وكانوا من أخلص أصدقائي ، وهم من أعظم شباننا بذكاهم ومعارفهم واستقامتهم .

وشكري بك العسلي كان قائم مقام في الناصرة ، ودرس المسألة الصهيونية

واطلم على خفاياها ، ولما انتخب عضواً في مجلس النواب العثماني ، أراد

الاتحاديون أن يبيعوا من الصيونييين ثلاثة ملايين دونم من أرض فلسطين

صفقة واحدة ، بمماونة جاويد بك وزير ماليتهم ، وكان مذهبه مذهب اليهود

الصائبة (دونمة) ، فكان شكري بك أول من رفع عقيرته في أضرار

الصهيونية ، وخطب في الموضوع حتى سقط المشروع . وكان شكري بك

هذا صنو عبد الوهاب بك إذا ذكر اسم أحدهما يذكر معه اسم صاحبه .

أما سليم بك الجزائري فهو رجل الجيش ، درس علوم التبعة والمصافات

في المدرسة الحربية بالاستانة ستين ، وأبان عن اقتدار قل أن كان لأمثاله ،

وكانت دعوته العربية متجلية فيه ، والآثراك يضمرون له الشر ، فلما قويت

كلية الانحاديين في الحرب قتلوه أيضاً ، وهو من أنبع من أخرج العرب

من رجال الحرب ، وهو ابن أخي شيخنا الشايخ طاهر الجزائري .

قتل الاتحاديون ثلثة من أبناء العرب بدعوى خيانة الوطن ، حاسبين الحرب العسامة فرصة لا تتاح كل حين للخلاص منهم . قتلوا نحو ثلاثين رجلاً ما أظن يستحق القتل منهم غير أفراد قلائل ، هذا إذا تسامحنا في فرض العقوبة . مثل ذنب من قال (شفيق بك المؤيد) لوكيل فرنسا في القاهرة أقطعوا بجيوشكم الخط من الاسكندرونة ، ونحن في الداخلية ننادي حالاً باسمكم . هذا رأي ، إن صح أنه قاله ، والقانون لا يقتل إلا من أثبت فعلاً بالشروع بالعمل ، وظهرت نتيجة أثبتته إلى حيز الوجود . وبعد كتابة ما تقدم قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الفصين وهو ممن اشتغلوا بالمسألة العربية ان العرب ألفوا ثلاث جمعيات سرية عقيب انتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) وحرب الطليان في طرابلس وبرقة مع العثمانيين وهي جمعية العهد ألفها ضباط العرب مثل سليم الجزائري وعزيز علي ونوري السعيد وامين لطفي الحافظ فدخل فيها أكثر الضباط العرب والثانية ألفها طلاب المدارس العالية في الاسنانة وعلى رأسهم عبد الكريم الخليل ، والثالثة ألفها عبد الغني الربيعي وهي التي أظهرت نشاطاً عظيماً في الحرب العالمية ويقال انها انكليزية النزعة . وقد قتل الترك معظم رؤساء تلك الجمعيات . ولقد حاولت أن استعطف القائد العام على المجرمين السياسيين ، فالتصمت من فضله العطف عليهم ، في محاضرة القيمة في سينما جناف قلعه بدمشق ، محل دار الندوة الآن ، وذلك عقبى عودتي من دار الملك مع الوفد السوري (١٩١٥) وتوسلت اليه أن يرحمهم ويرحم عيالهم ، فاستدعاني من الغد فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا وقال لي : إذا كنت تريد رضا الباشا عنك فلا تذكر السجناء في « عالية » بخير ولا شر ، وأنت هل تذكر أحد بسوء ، فمالك ولهم ؟ فالتزمت الصمت بعد ذلك .

أما صديقي الشيخ أسعد الشقيري خطيب الجيش ، ونديم أحمد جمال باشا ، والمقرب اليه أكثر مني بكثير ، فانه ما ترك باباً يمكن الدخول منه إلا ولجه ، ليرق قلب القائد العام عليهم ، وخاب سعيه في كل ما تدرع به

ومن ذلك اشارته على بني البكري أن يقيموا مأدبة لجمال باشا في قصرهم في قرية القابون ، وكان الامير فيصل بن الحسين في جملة المدعوين ، وهناك خلا الأمير مع الشيخ أسعد بجمال باشا ، ورجاه اصدار عفوه عنهم أو حبسهم أو نفيهم فرد قوله .

وكذلك تقدم الشيخ أسعد في بيروت وقبّل ركلة القائد جمال باشا في دار عزمي بك والي بيروت ، يتوسل اليه أن يجعل اولئك السجناء في قلعة يموتون فيها بأجلهم ، وأن يرجع عن قتلهم لما في القتل من الشؤم على الدولة . فتجهّم القائد للشيخ الشقيري ، وغضب عليه غضباً شديداً ، وذلك بمشهد من عبد الرحمن باشا اليوسف ، وهو الذي قص عليّ ما وقع ، وقال له : أنت شيخ لا تعرف السياسة فلا تتعدى طورك ، وأنا أعرف ان مثلك إذا خدم مثلي خدم آماله وأفكاره ، وأنت تحاول أن تتدخل فيما لا يعينك ، كأنك تقصد أن تلقنني ما لا أعلم . وهذه مسائل تتجاوز دائرة تقديرك ، فكف عن تعجيزي بذكر هؤلاء المعتقلين .

ودخلت على الشيخ الشقيري في الفندق لأودعه ، وأنا مسافر إلى بيروت فرأيت مصفر الوجه ، كأنه لم يرقد منذ أيام ، ولما رأيته دمعت عيناه وبكى ، وقال لي : يا فلان شنى الجماعة . ومن الفد شنقوا بالفعل في مدينتي دمشق وبيروت . وهذا أم رجيل شنى . وأغرب من هذا أن بعض الأتريدياء يتهم مثل هذا الشيخ بأنه عن زين لجمال باشا شنقهم ، وهو لم يترك حيلة لخلاصهم إلا تذرّع بها من تلقاء نفسه ولوجه الله .

كان جمال باشا على ما يظهر يكره الوساطات . كلمته ست مرات أنا والدكتور شهبندر في رضا بك الصلح وابنه رياض بك فكان جوابه لي وشهبندر آخر مرة يخاطبني : هل تعرف كل شيء ؟ فقلت : كلا . قال : إن رضا الصلح الذي تتوسط له قد أتى امرأ لو أناه ابني لاغرقته في البحر حباً بسلامة الدولة ، ثم اقف أبكي عليه بصفته ابني (علمت بعد سنين ان الرجل كان يتهم بالدعوة لانكلترا) وطلب ألا نعود إلى الكلام في هذا المتهم ،

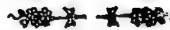
ومع ذلك رأينا ان لمجيز الباشا بالعفو عن الرجل وابنه قد أفاد ، فلم يقتلها كما كانت نيته ، واكتفى بنفيهما إلى آسيا الصغرى ، وكان لسايله أكثر مما كنا نطلب منه ، وما كنا نتطلب إلا حقن دمهما ولو بالسجن سنين .

جئت جمال باشا ذات يوم مودعاً إلى بيروت ، وكان قبل يوم صلب فيها يوسف الهاني من أغنى تجارها ، لتوقيه بياناً بطلب فرنسا للاستيلاء على هذه الديار . فسلاني الباشا : ماذا يقول القوم عني الآن في بيروت بعد قتل يوسف الهاني ؟ فقلت له وأنا أتبسم : يقولون إنهم توسلوا إليك بأنواع التوسل وأقلموا لك اعمل المآذب ، وأتوك بأجمل النساء يضرعن اليك ، وما تركوا شيئاً يمتقدونه انه يسرك ويؤثر في عواطفك إلا فعلوه ، ولا انساناً يمتقدون أنه ذو منزلة عندك إلا رجوه أن يتوسل إليك ، ومع كل هذا شنقته ، شنقته ، شنقته ، فضحك وضربني على كتفي وقال لي : اذهب بسلامة الله .

ولقد بليت من هذا الرجل بمصيبة ، فكان يطلبني لمقابلته أحياناً فازور في نفسي جواباً او جوابين اقدر أنهما يجزئاني فيما يسألني ، فيثفق سؤالي في غير ما قدرت ، فأجيبه في الحال جواباً كجوابي له عن ابن هاني القليل ، يسره ولا يضرني ، فيعلم أن كلينا عالم بالترهات . وسألني مرة من هم المشار اليهم من رجال دروز جبل حوران ، فذكرت له منهم من كان اسمه على خاطري فقال : أظن انه فاذك غيرهم ، فاستأذنته وسألت من هو اعرف مني برجال الجبل ، فكتب إليّ جريدة باسمائهم دفعها اليه . وكان ينوي أن يستدعيهم لأخذ ما يلزم من قراهم من الحبوب للجيش .

ولما عدت في السنة الأولى مع الوفد كان الدكتور شهبندر قد ركن إلى الفرار لانه قرأ في وجه جمال باشا الغضب ، وأحس بأنه غادر به لاحالة ، لما كان ذاك الجاسوس السافل قص عليه خبر اجتماعنا الاخير في قرية المزة قبيل سفري ، وما قال شهبندر وما قلت انا : فسلاني جمال باشا عن شهبندر ، وقال إنه بلغه أنه مختبئ في دمشق وأني اعرف مخبأه ، فقلت له : بلغني انه قد فر إلى جهة غير معلومة ، ولا أعرف غير هذا . فقال : أنت تعرف أمره

وتكتم عني ، لأنه خرج من البلد ثم عاد وهو الآن متوارٍ عن الانظار .
فأكدت له اني لا أعرف شيئاً عنه ، فاستغرب ذلك ، ولم أنج من الحاحه
في استنطائي حتى قلت له بعد اخذ ورد : إن شهيندر ليس بشجاع فيخرج
من هذا البلد ويعود اليه ، وهو أيضاً ليس بمجنون يكتب له أن يزرع يده
من القفص ثم يقف ببابه يتوسل بالرجوع اليه . وبعد أيام عاد فسألني عن
شهيندر فأجبت اني لا أعرف إلا أنه هرب . فقال : وهكذا تحقيقتي الأخيرة .
فقلت له : الحمد لله على أني لم أكذب . وسؤال الباشا عن الدكتور شهيندر
غريب ، فانه يعلم ما بيني وبينه من صداقة ، وكان عليه أن يعرف خلقي ،
وقد رأى انه ما سمع مني كلمة تضر أحداً ولا ذكرت أمامه انساناً بسوء ،
ولا أفسيت سرّاً عرفته ، طول مدة ارتباطي به ، فكيف كان يريدني أن
ادله على خبأ الصديق شهيندر حتى يقتله ، وكنا يومئذ نستر على أعدائنا ،
ونعمل لهم ما استطعنا من خير .



كره الاتراك للعرب

بدت كراهة الاتراك للعرب ، منذ فتح العثمانيين الولايات العربية : أمة غالبية من مصلحتها اخفات صوت الامة المغلوبة ، وأمة مغلوبة تبكي مجدها الضائع ، ولا عزاء لها إلا ما تردده ألسنة بنبيها من عبارات الالاف على ماضيها ، وكان الترك منذ أول فتحهم استأثروا بالمناصب الرئيسة في السياسة والادارة والقضاء والجندية ، وخرجوا من ديار العرب بعد أربعة عصور من حكمها ، وما أشركوا العرب في سلطنتهم اشراكاً فعلياً ، وربما كانت بعض افراد من العرب استتركوا وتركوا جنسيتهم ، وذابوا في البوتقة التركية ، ودخلوا مع الاتراك على انهم منهم ، ولا أذكر انهم ادخلوا في وزاراتهم غير ثلاثة من ابناء العرب ، وذلك في آخر ايامهم ، ولم يوسدوا إليهم سوى وزارات لا شأن لها الزراعة والاقواق .

كان السواد الاعظم من الترك سكان آسيا الصغرى يرون حب العرب من القربات ، مذ كان للترك ذكر في آسيا الصغرى ، وهم على ذلك الى اليوم . والذي رأيته ان حب العرب ظاهر فيمن كان على الفطرة السليمة من الترك . ويقبل بين طبقة المتعلمين منهم ، أو من كانوا اقرب إلى المشتغلين بالحكم . حدثني صديقي الياس بك مطران ، وقد رأيته في بيروت قبل ان تضع الحرب الغامة أوزارها ، وكان جمال باشا نفاه إلى الاناضول في جملة من ابعدهم من اهل سورية ، قال : وانا أسأله عن حاله في منفاه : إنه بمن جدأ من هذا النقي ويشكر جمال باشا عليه ، لأنه عرف الشعب التركي حق المعرفة ، وثبت له انه شعب قل نظيره بأخلاقه وميزاته ، وأن ما رآه من لطف الترك وطيب قلوبهم يمجز لسانه عن شكره قال : ولقد ودوا مدة مقامي بين اظهرهم ألا امشي إن امكن على الأرض حرصاً على اكرامي ،

وكانوا يقبلون يدي وعيني وركبتي ، ويتبركون بي فأقول لهم أنا مسيحي فيقولون الست عربيأ من بلاد محمد (ﷺ) فابكي وبسكون ! هذا هو الشعب التركي الذي اغتبطت بأني رأيت في أرضه ، أفلا أشكر من تقاني بمد ان رأيت ما رأيت .

ومع هذا كان بعض العمال من الاتراك المتعصبين لقوميتهم لمصبأ اعمى يشتمون كل الاشتماز من رجل يتكلم بالعربية ، وإذا كان موظفاً عندهم عدوا عليه من النقص تكلمه بالعربية ، وربما وضع الرئيس بجانب اسمه علامة تؤخر ترقيته ، وكان كثير من الاتراك والاكراد وغيرهم من العناصر يعرفون العربية وينكرون أنهم يعرفونها ، يرضى عنهم بعض اصحاب الدولة ، كأن معرفة اللغة العربية جرم من الأجرام .

ومذ تولى أمر الترك مصطفى كمال باشا (كمال آتاتورك) انتقل تباغض الترك والعرب إلى الطور العملي ، بقطعه كل صلة مع العرب والعربية ، حتى لقد كان يُضطهد كل من يتكلم في تركيا بالعربية ، وكل من يكتب التركية بحروفها العربية القديمة ، وكانت الرسائل في بريد تركيا تقبل باللغات كلها إلا اللغة العربية ، ويخطب الخطيب في الجمع والاعياد بالتركية وينادي المؤذن إلى الصلاة بالتركية ، وحذفوا من لغتهم كل ما أمكنهم حذفه من الالفاظ العربية ، واستعاضوا عنه بالفاظ افرنجية وتركية قديمة . وأراد رئيس الجمهورية الاول أن يترك كل شيء . ورأيت كتاب قراءة تركية في العقائد الاسلامية كتب بالحروف اللاتينية ، على طريقة السؤال والجواب ، ومما جاء فيه : ومن نبيك ؟ سيدنا محمد رسول الله . وهل محمد من العرب ؟ معاذ الله هو تركي . وهذا من السخافة التي اشبهت سخافتهم في دعواهم مؤخراً أن الترك هم من نسل الحسين ، وقد ألفوا في إثبات هذه الاكذوبة الكتب وكتبوا الرسائل والمقالات ، والترك فرغ من فروع التثر معروف أصلهم وموطنهم معرفة أكيدة لا تقبل المجادلة . نشأت العداوة قديماً بين العرب والترك من أجل المنافع والمناصب ،

واليوم ذهبت الدواعي لاثارتها . والعهد بجمهور العرب وعقلاهم أنهم لا يكرهون الترك ، ويتمنون لهم كل خير ، يفرحون لفرحهم ويتألمون لما يسؤم . ولما ظفر الترك باليونان في وقعة سقارية ، وكان الترك قد خرجوا من الشام ، ودخلت هذه في حكم الحلفاء ، والنفوس لا تزال مملوءة غيظاً من استبداد العثمانيين ، أقام أهل سورية الزينات والمهرجانات فرحاً بهذا الظفر الذي أحرزه اخوانهم الترك ، ولكن سياسة السكاليين أبت إلا قطع كل صلة مع العرب خاصة ، ومع أهل الاسلام عامة ، وكان اقتطاع الترك في العهد الأخير لواء الاسكندرونة من جسم سورية بدون مسوغ شرعي ، والسواد الأعظم من سكانه عرب ، مؤلماً لقلب كل عربي .

حدثني أحد أصدقائي من قناصل فرنسا ، ونسيت إن كان المسيو بيات أو المسيو اوتافي ، وكان كلاهما يحسن العربية ويكتبها كأهلها ، قال : كنت قنصلاً في طرابلس الغرب ، أسمر عند الوالي في بعض ليالي الأسبوع ، ويسمر معنا القناصل وكبار موظفي الولاية ، وكان دأب هذا الوالي التركي لمن العرب جهاراً . فاتفق في إحدى الليالي أن كان المجلس خالياً من سماءه وقد قذف لسان الوالي لعناته المهودة ، فالتفت إليه متأثراً من تردد هذه النعمة وقلت له : ولم دولتكم تفضلون العرب إلى هذا الحد ، وتلعنونهم عند كل فرصة ، وهل لهذا من سبب ؟ إذا كان هناك شيء أرجو أن تفضلوا ببيانته . فقال : لا أعرف لذلك سبباً ، وهذا ما ألفتة من صغري ، وكأنه مغروس في قلبي ، وأشربته مع اللبن . فقلت له عند ذلك : أنت مخطيء يا صاحب الدولة بفضك العرب ، وبلغنك لهم كل حين ، وكانت على العرب أنفسهم أن يعضوكم معاشر الترك ، لأنكم كنتم السبب في زوال دولتهم ، وعشتم أجيالاً بما أتوكم به من دين ومدنية ، وركتم كثيراً في الأقطار التي افتتحتوها وهي بالحقيقة من فتوحهم . ولما إذا أنصفتنا وألقينا نظرة عامة على ما قام بأيدي العرب من المصانع ، مبتدئين بالاندلس حتى نصل إلى الهند لا نجد فيه يداً تركي ، وهو من صنع علماء العرب

ومهندسيهم وحكوماتهم . ذهبت دولة العرب منذ أعصار وأعمالهم في الحضارة بارزة للعيان ، على كثرة ما دمرتم فيها ، وأتم إذا ذهبت غداً من الارض هل تبقى لكم غير تلك الجوامع التي عمرها سلاطين آل عثمان في استانبول ؟ دعك ياسيدي من غمز العرب ، ولصاؤون عن بعضهم ، فبغض أمة بأسرها أو لمن قوم بعينه أبداً ، لا يليق بمن كان في مثل مكانتك ومنصبك . قال : وما سمعت الوالي بعد تلك الليلة فاه بكلمة يشتم منها بغض العرب ، ورجع عن لعنهم على ما ظهر لي .

هذا ما بقي في ذهني من المعاني التي ذكرها القنصل ، وقد وقعت لي حادثة غريبة تدل على مبلغ سمي الاتراك في تجهيل العرب ، وذلك أن إسماعيل فاضل باشا ، كان والياً على سورية ، وأصله من أهالي كريت ، وما أدري إن كان رومي الأصل أو تركيه ، وأرجح أنه من أتراك اقريطش ، وكان يدعي صحبتي ، ويحاول استمالي . طلب مني عامل جبل عجلون وكان تركياً ، وأظن اسمه سزائي بك ، أن أنتخب له ستين معلماً لستين مدرسة أهلية ، عزم سكان عجلون أن ينشئوها بأموالهم ، فقضيت ثلاثة أشهر أبحث عن معلمين يحسنون التعليم في الجملة ، فلم أظفر بأكثر من ثلاثة عشر معلماً ، ومنهم من كان صاحب دكان ، ومنهم من كان له كتاب خاص . ورافقتهم إلى الوالي ليسلموا عليه ويودعوه ، ولاأطلب لهم رخصة بالركوب في القطار بنصف اجرة . وكان أول سؤال سألهم إياه هل تعرفون اللغة التركية ؟ فأجابوا بغير الإيجاب . فامتقع لونه ، والتفت إلي قائلاً : وكيف ذلك ؟ فقلت له أرجو أن يتعلموا ، والآن سيعلمون أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والخط والحساب والعبادات ، وانصرفنا من لديه غير موقنين ، فقلت للمعلمين إذا لم يكذب حدسي فأنتم غير ذاهبين إلى عجلون غداً ، وبعد ساعتين تناولت برقية من عامل عجلون يتوصل إلي

ألا أرسل المعلمين ، بعد أن كان يلجّ بسرعة لإفادهم . فعلمت أن ذلك كان بإيعاز الوالي ، وأنه قال له : كيف ينتخب فلان المعلمين وأنت ترضاهم ؟ وأظن الوالي ما عثم أن رفع من عجّلون ابن جنسه الذي كان يريد لأهلها الخير . ومضت أيام ثلاثة ، وزرت الوالي في داره بعد الغروب ، وكان احتسى كؤوساً من المسكر ، وعيناه تغدحان شرراً ، فأول ما قال لي : يا فلان هل أنت ولد ؟ فقلت له : أنا رجل بحول الله ، فقال : كيف تظن أنا نعمطي العرب سلاحاً يقاتلوننا به ، العلم سلاح ولا يزيد أن نسلحك إن من سياستنا ألا نعلمكم ، فتأملت لهذا ، ودعوت الله في سري ألا يطيل أيام هذه الدولة ، وقلت في نفسي إذا هم منعوا التعليم الابتدائي عن رعاياهم العرب ، وهو بمثابة الخبز في التغذية ، كيف تصفو لهم قلوب الخواص منهم ؟ .

وطلب مني هذا الوالي أن يقضي يوماً في مزرعتي ، فقلت لأعيان القرية اطلبوا منه تأسيس مدرسة لتعليم أولادكم ، فأظهر استحساناً لهذا الاقتراح وقال عليكم تقديم البناء ، والمعارف ترسل إليكم المعلم ، فتبرعت لذلك بخمس وأربعين ليرة عثمانية عني وعن إخوتي ، وتبرّع أحد الوجوه بالأرض للبناء ، واخذ الفلاحون يتعاونون الحجارة ويأتون بها من المقلع ، ثم رأيت المهمة قد تراخت وأصبح بعض أهل القرية يصرحون بأنهم لا يريدون تأسيس مدرسة ، فعلمت أن أحد الدمشقيين من اعتاد ضمان أعشار القرية والانتفاع من جهل أهلها قال لهم : إن تأسيس المدرسة في قريتهم يسهل على الدولة أخذ أبنائها للجنديّة ، مع أنهم كانوا كلهم يخدمون فيها أسوة سائر القرى ، والغالب أن اخفاق المشروع كان باغواء الوالي فنفسد سياسته عند العمل ، وكان عند القول استحسنته وأظهر الرغبة فيه .

وكنّت في الاستانة أنزل في (قاضي كوى) عند امرأة مسيحية ، وكان زوجها طبيباً تركياً في الجنديّة برتبة عالية فكف بصره ، وكنّت أتحدث إليه وألاطفه فعرف أنني من دمشق ، فقال لي : إن ابن اختي اسماعيل

فاضل كان والياً عندكم ، فسكت . ثم قال لي في جلسة ثانية : إن ابن اختي يحب أن يراك ، هل تأمر بضرب ميماد للاجتماع معه ؟ فسكت وتشاغلنت . ثم أُلحَّ في المرة الثالثة فقلت له : قل لابن أختك إن الذي يحاول أن يبقى العرب في الجهل لا أرى أن أجتمع إليه وهو يعرف معنى هذا الكلام ، وانقطع الحديث وما عدت أجتمع بالدكتور الاغمي كالأول .

والشيء بالشيء يذكر إن عدوي اللدود ناظم باشا والي سورية ، وكان يسكن « قاضي كوى » أيضاً حاول غير مرة أن يكلمني ويتعجب إليّ فرأيت الابتعاد عنه ، وهذا الوالي حاول قتلي لما كان في سورية ، وما أدري بأي وجه كان يود أن يكلمني ، وأنا رأيت ألا أضيع وقتي معه ، وأسمع اعتذاره وهو من المعروفين بكثرة المداهنة ، والقدرة على الضحك من كل من يواجهه ، وخلاصة ما بينتنا أني حاولت أن أدعوه لانفاذ القوانين ، وتوخي هو أن يفلت منها وأن ينجو من نقد جريدتي بأي حالة كانت .

رجع إلى الاتراك ومحاولتهم إبقاء العرب في الجهل . قصّ عليّ الشيخ طاهر الجزائري قصة عجيبة في هذا الباب قال : قال لي كمال بك مدير معارف الولاية في إحدى المشايا ، وكان كرع كوءوساً من الشراب ، وهو سكران طافح : يا شيخ ما هذا الاهتمام منك بنشر المعارف ؟ (وكان الشيخ في أول شبابه مفتشاً لمعارف سورية ، وهو الذي أنشأ لها مدارسها الابتدائية ، وألف لها كتب التعليم الابتدائي كلها) أنا أخذت من وزارتي كتاباً سرياً بالأرقام تقول فيه إنه تبين أن المعارف عند المسلمين في سورية قد ارتقت إلى درجة كافية فاعمل جهدك على أن تؤخرها لا على أن تقدمها . وكان عدد الاميين يومئذ في ديارنا أكثر من سبعة وتسعين في المئة ، وأظن هذه الحادثة وأمثالها مما وقع للشيخ طاهر الجزائري هي التي حدثت به على أن يبخس دولة الترك بفضاً شديداً ، ويلقى الله ببغضها وكراهة سياستها ،

وكان يقول من سوء بخت المسلمين أن الدولة العثمانية استولت على اعمر الولايات الاسلامية وأهمها ، وكان مع هذا ينوء كثيراً بتربية الشعب التركي ، وارتقاء الاسرة وتقدم البيوت ، ووفرة الأدب والتهديب في جماعتهم .

وبعد فانا بهذه الوقائع عرفنا مبلغ حب حكومة الترك للعرب في الدور العثماني ، وكانوا يوسدوت عن قصد للعربي الذي لا يجيد التركية تدريس البلاغة التركية ، وللتركي الذي لا يحسن النطق بكلمتين بالعربية تدريس النحو والصرف والمنطق وبلاغة العرب في مدارسهم الثانوية . وحدث أن أرسلت الاستانة إلى مدرسة تجهيز بيروت معلماً أرمنياً لتدريس الدين الاسلامي وكان لما عينوه يصرخ قائلاً لهم أنا مسيحي لا أعرف الاسلام ، ويحييه من عينه ، لا بأس يمكنك أن تدبر نفسك ، وهذا ليس بالأمر الصعب عليك . ومثل ذلك كان في دمشق انتدب للعلوم الدينية مسيحي مشترك .

لأن من أدرك سر توفر الأتراك على تهجيل العرب يقيم بعض العذر للمسلمين على ما صاروا اليه من التأخر في هذه الديار . وكانوا لغبائهم يرون من الواجب عليهم أن يسكتوا عن مساوي الحكم العثماني ، لأن القائمين بالأمر مسلمون . وبهذه الدعوى خدر الأتراك الأعصاب وجعلوا العرب وراء الامم الراقية . على حين كان جيرانهم من النصاري يرتقون سنة عن سنة معتمدين في رقيهم على مدارسهم الطائفية ، وعلى ما تفضل الجمعيات التبشيرية فتبعث به اليهم من المبشرين والمرسلين ، يفتحون لهم المدارس ، ويعلمونهم اللغات والعلوم ، ويعمدونهم للكفاح في ميدان الحياة ، والمسلمون لشقايتهم يمتصون بدولة الخلافة ، وتقويهم كلمات الاسلام والمسلمين ، ومشايخهم ينمون أفكارهم باسم الدين ، وهم كانوا من العوامل في تضييعه ، لسكوتهم عن الحق واقرارهم الباطل ، وأصحاب الخلافة التركية يكافؤونهم على قلة دينهم ، وينفلونهم الرواتب والرتب ، ويخلعون عليهم السيم والقصب . وكان الذين يبيعون ذمتهم أيام دولة الخلافة هم بأعيانهم الذين أصبحوا يتقربون

الى من جاء بمد الترك ، يتجسسون لهؤلاء كما كانوا يتجسسون لآؤائك ،
وبصانمون القادمين بمثل ما كانوا يدهنون للراجلين ، ومنهم من يمدون
أيديهم اليوم فيقبضون من صناديق الاستخبارات ما يسدون به نهمهم ، ويزيدون
به راتباً آخر الى روايتهم ، ويصدعون بما يؤمرون بالدعوة الى تفريق
القلوب ، وتمزيق الامة شيعاً حتى إن منهم من قالوا وما خجلوا لكبير من
ساستهم لانهم رأوه في الحلم برقع في الجنة مع الصالحين من المؤمنين ، ومنهم
من قال احمدا الله على وجود الأجانب عندنا فان بوجودهم حفظ الدين
وكان قبل أشهر ينادي بالقيام عليهم من أجل الدين .



دعوة غريبة

قال لي الشيخ أسعد الشقيري ونحن في المعسكر في سفح قلسيون
أواخر الحرب العالمية . أطلعني أمس جمال باشا على كتاب ارسله اليه من
الاستانة كاتبه الخاص فالح رفيق يقول له فيه إنه زار منتديات العاصمة بعد
ان تفتت عنها مدة ، وتعرف إلى رجال (ترك بوردي) (ترك اوجاعى)
(ترك درنكي) فرآهم على شبه الاجماع ان دخول الترك في الاسلام قد
أخرهم وأخلهم ، واطمع فيهم اعداءهم : جرّدهم من شخصيتهم ، وأبعدهم من
قوميتهم ، وانتزعهم من حجر حضارتهم ، وانهم لو ظلوا على عبادة الكواكب
كما كان طوران ما وجد أهل الغرب اليوم سبيلاً إلى محاربة دولتهم ، الى
غير ذلك من السخف . وإذا صح قول فالح رفيق فيما كان يذهب اليه
الأتراك الذين رأهم فهم جماعة الاتحاديين ، ومن قال قولهم ، وتقرب منهم
وصانهم من شبان الترك وكهولهم ، ومن هذه الزمرة خرج اناس التحقوا
بالكاليين ، ومنهم الدكتور رضا نور وزير معارفهم ، فانه صرّح في كتابه
تاريخ الترك ان مرّده جميع ما صار اليه الاتراك من البلاء يرجع إلى اسلامهم ،
وأنهم لو لم يسموا لكانوا ارقى مما هم عليه ، وأنهم غفلوا عن العلم فتعلمت
العناصر التي كانت تحت حكمهم ، وهم لم يعلموا أبناءهم وكان على العثمانيين
ألا يتركوا المجال للعناصر غير التركية ان تتعلم .

وإذا جاز هنا الاستنتاج فلنا أن نقول ان مقام به كمال آتاتورك من
القضاء على ما رأى الخير في القضاء عليه من أوضاع الترك والاسلام ، إنما
قام عن رأي من كان أمامه من انصار كثار مألؤه على هذه الافكار الغريبة ،
وكان هو يفكر فيها ، وهو طالب في المدرسة الحربية . فطبقها في كهولته
وهو صاحب قوة . والشروع ملزم كما يقولون ، فلما بدأ آتاتورك

بدعوته استجاب لها الطامعون في المناصب والمغانم ، والناس تبع لصاحب القوة يقدونه في كل ما يحب ، ويسرون على هواه ويحبون اليه ، وربما غلوا فأعطوه أكثر مما يتقاضاهم . فأصل المسألة إذاً قديم ، وهذه الدعوة أقدم من ظهور الاتحاديين أيضاً . وقد أتم الكالبيون ما بدأ به الاتحاديون من قبل ، وجهروا بالدعوة ونفذوها ، ولو عاشت دولة الاتحاديين إلى ما بعد الحرب الكبرى لدعوا إلى مثل دعوة الكالميين ، وربما زادوا واغرقوا . ذلك لأن تلك الأفكار كانت مفروسة في طبقة من الفتيان لا يعرفون عن الاسلام شيئاً يذكر ، أما عن العرب والشرق فصورة مشوهة لم يصور الصليبيون أبشع منها . كانت الدعاية إلى الكفر بالاسلام ، والرجوع إلى عبادة الاصنام ، والاخذ بالقومية الضيقة قومية الترك . الخالصة ، ظاهرة قبل العهد الكالي في تركيا ، وكان توفيق فكرت من أكبر شعراء الترك المتأخرين وهو الذي تنصر بأخرة ومات على غير الاسلام يحفز أرواح ناشئتهم ، ويدعوهم إلى التجرد من مشخصاتهم القديمة ، ومما قال وهو ما حفظه المتعلمون من الفتيان عندهم .

ساده توركدن بر حكومت قورمى لازم كليز

بشقه قومي بورد مزدن قوغمى لازم كليز

أسكى زماندن وار بزم بر مذهب مخصوصمىز

پت پرستكدر پدردن مذهبي مورمىز

جد مزاول جنكيز عاقلدر بزم

جد مزجد الحسينه معادلدر بزم

معناه : علينا أن نؤسس حكومة من الترك فقط

وأن نطرد الشعوب الأخرى من حجرتنا

نرجع إلى ما كان لنا من مذهب قديم

ورثناه عن أبينا وهو عبادة الاصنام

إن جدنا الأعظم هو العاقل جنكيز

وجدنا من عيار جد الحسين

أي أن شاعرهم دعا إلى ثلاثة أمور : أن يشيد الترك ملكهم من

أنفسهم ، وإطردوا منه كل عنصر غريب عنهم ، وأن يمددوا إلى عبادة الأصنام مذهبهم القديم المتسلسل فيهم ، وعليهم أن يفاخروا بجدهم جنكيز الماقل الحكيم ، فهو مثل جد الحسين سبط الرسول . يعني أن جنكيز الذي خرب الممالك وأتى على الحضارة ، ولم يهد مثله فاتح سفك الدماء على وجه الدهر ، هو مثل رسول الله ، وجنكيز هو الذي وضع قانوناً سماه (اليساق) أي المظهور ، حلال فيه المحرم وحرم فيه المحلل .

ولم يطبق الترك دعوة توفيق فكرت بالحرف لأنها هذيان وهراء . وكان العرب وكل من لهم صلات بالأتراك من المسلمين يعلقون آمالاً كبيرة على رئيس جمهورية الترك الحالي عصمت اينونو ، لما عُرف من اعتداله وتدينه (وهو مشكوك في جنسيته) ويمتقدون أنه يعدل بمض التعديل في دستور الترك ، حتى تنزع الفوارق من بينهم وبين جيرانهم الشرقيين ، فإن قانون سويسرا صعب تنفيذه في مجتمع متأخر كالمجتمع التركي . والقوانين لا تخلق الاثم والاثم تخلق القوانين .

كانت العرب أكثر العناصر تأذياً بالدعوة التركية ، ذاك لأنهم أصحاب هذا الدين الذي شكوا من انتحاله أولئك المارقون ، وأصحاب المدنية التي عاشت دولة الترك ببقاياها ، واحتقار لفة العرب وقوميتهم من النعمات القديمة وإليها أشار الشاعر المهجاء أشرف بك لما غضب أحد أدبايهم أديب بك على ما عبثت به يد المراقبة في ديوانه بقوله :

أصول ندر چیزلر هر اُردن برطاقم برلر

أديب صائمه كيم سادهنك ديواني چیزمشار

كچن ككون أنجمنده بوق لأمش حيرت

بتون هيئت عربجه بر كتاب ظن أيلوب قرآني چیزمشار

ومعناه : من الأصول أن يحذف من كل تأليف عدة أماكن

فيا أديبي لا تظن أن ديوانك فقط هو الذي حذفوا منه

حدث أن كان منذ أيام حيرت (أفندي) متغيباً عن المجلس (مجلس المعارف)

فظننت الهبة كلها القرآن كتاباً عربياً فحذفته

تؤون مع الاتحاديين

سقطت القدس أو كادت بأيدي الحلفاء ، فرأى جمال باشا أن يبادر إلى مغادرة سورية على ألا يمود . وقبل سفره ألقى خطاباً في دعوة أقامها في دار الحكومة بدمشق لأكثر من مائتي شخص ، قال فيه إن طامسه قضى عليه أن يمهّد إليه ائزال العقوبات بأعداء الدولة ، فكان هو الذي تولى في الاستانة قتل جماعة صالح باشا (ابن الصدر الأعظم خير الدين باشا التونسي ومن أسهار البيت السلطاني) كما قتل في سورية من ارتكبوا ما يعاقب عليه القانون في سبيل سلامة الدولة ، ونسي أن يذكر أنه قتل كذلك خلقاً في ولايتي اطنة وبغداد لما وليهما . وكان يستحل غالباً اهراق دم كل من يمتدّد أن في قتله حياة الدولة ، ويجب كل من يسهل له ذلك . وقيل إنه سمح للضباط خلال الحرب أن يقتلوا بالقرعة للارهاب ، من يشاءون من الجنّد ، بدون محاكمة ولا تحقيق ، ولا أعتقد صحة هذا الخبر . وعزم مرة على قتل أحد المهندسين لانه أمره أن ينجز طريقاً في مدة عيناها هو له فما أتمه ، ولم يمف عنه إلا لكونه تركياً يافئياً ، فتوسل اليه أصحابه الاثراك أن يقي عليه فعفا عنه بعد اللتيا واللتى .

ولما غادر جمال باشا أرض الشام اعتزلت رئاسة تحرير جريدة الشرق ، فبعث لي جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير أكبر القواد بعد قائد الجيش الرابع ، وكان معروفاً بحسن السيرة والناس يحبونه ، أن أعود إلى ما كنت عليه زمن جمال باشا الكبير في جريدة الشرق ، وهو يطميني راتبي ريالاً فضية لا ليرات ذهبية ، اذ نصب الذهب من خزانة الجيش ، فقلت للواسطة : ليست المسألة مسألة فضة وذهب ، المسألة أني استعبدت مرة واحدة في حياتي ، ولا أحب أن أستعبد مرة ثانية ، استعبدني جمال

باشا الكبير لانه حماني منذ وافى هذه الديار من دسائس الدساسين ، وأنا
أكره الاستعباد مهما كانت صورته ، واستكفوطة الحمام انتقل من
جسم إلى جسم .

ثم لما قدت مع بعض التجار وأخذت مبلغاً من المال اتجر به في المانيا
والنمسا ، وسافرت الى الاستانة ، وزرت جمال باشا الكبير فأهل وسهل
كثيراً ، وسألني عن سبب مجيئي فذكرته له فقال : وأنت تشغل بالتجارة ؟
كان عليك يا صاحبي أن تمارسها منذ عشرين سنة ، ولو فعلت لكنت اليوم
غنياً . وأدعز إليّ أن أقابل سبني بك أحد امناء سر أنور باشا ، وكيل
القائد العام ووزير الحرية ، فقابلته مرة ثم وعيدني ان اقبله مرة ثانية
فجئته ، وحجبتني ربع ساعة فتركته وانصرفت . فسألني جمال باشا بعد
ايام عما تم بيني وبين سبني بك فقلت له : قابلته مرة ، وكان في الزورة
الثانية على ما يظهر مشغولاً فما اذن لي بـقابلته ، فكلمه بالهاتف وبما سمعته
يقول له إن « كرد علي » لم يخدم في سورية جمال باشا ، بل خدم الدولة
العثمانية ، ومن العار ان يقول القوم هناك إننا غيرنا سياستنا . وسمعته ايضاً
يعتب بسبني ، ويرجوه منهكاً ان يقبلني للمثول بين يديه إذا جئته ، وان
يتنازل فيكلمني ، فاني احسن الكلام ، وقال اشياء في مدحي اغرق فيها
جداً حتى عرقت خجلاً . وكانت النية ان يعطوني شاحنة من الورق للجريدة
والحجلة وسبعة آلاف ومائتي ليرة عثمانية ورقية مخصصات سنة كما كنت آخذ
في جريدة الشرق ، وان اذهب وانصرف كما اشاء في سورية .

ولما سقطت دمشق هرب جمال باشا وجماعته من الاستانة ، وكان ارسل
يطلبني الى مواجهته قبل سفره بثلاثة أيام ، ولم تصلني دعوته إلا بعد أن
غادر الاستانة بثلاثة ايام ، وما ادركت ما كان يقصد من مقابلتي له ، وقد
قال لي لما سقطت دمشق : إياك أن تمود اليها ، فان الشريف حسيناً يقتلك ،
ثم لقيت جمال باشا المرسيني على الجسر في الاستانة ، فسألني عن حالي
فذكرت له ما كان ينويه اخوه جمال باشا الكبير فقال : تعال نذهب معاً

إلى وزارة الحرية وأنا أعرف سيني بك فتأخذ ما وعدت به ، فاعتذرت لأنني لم أر من الحق ان آخذ معوتهم بعد سقوط دولتهم .

شخص انور باشا وكيل القائد العام إلى سورية وزار الحجاز ، فقال للشيخ اسعد الشقيري في طريق المدينة ، وكان جمال باشا يرافقه في تلك الرحلة : إيه يا أسعد افندي دبرت انت وجمال باشا مسألة (كرد علي) وانقذتما من القتل ، وما علمتا ان (كرد علي) بعد الحرب لا يكون غير (كرد علي) قبل الحرب . فأجابه الشيخ : من انا حتى آتي ما لمزوه دولتكم إليّ ، سلوا احاكم جمال باشا عما ظهر للرجل ، وعما يعمل الآن ، فأجاب جمال باشا : لم أعض عن (كرد علي) قط ، وقد استبان لي انه كان صادقاً للدولة ، كما ثبت بأوراق القناصل ، وإذا لم يقنعك قولي فاني مرسل الآن برقية إلى الديوان العرفي في عاليه ، وعنده اضاير المهملين بالسياسة ، ليرسل لنا إضباوته ، فتعرف إذا كان داخلًا في جمعية سرية لقلب الدولة ، اوله مدخل مع إحدى الدول صاحبة المطامع في سورية او غير ذلك من الجرائم ، ولعرف انه عرضت عليه رشادي عظيمة من دولة غريبة فأني اخذها وفضل خدمة الدولة العثمانية ، ثم إنه اليوم يسير معنا قلباً وقالباً . فاذا كانت السياسة التي اتبعها في سورية لا تعجبكم فأنا اعود إلى الاستانة ، وترسلون إلى هنا من ترضيكم سياسته . وعندها اورد الشيخ أسعد آية « إن الحسنات يذهبن السيئات » وترجمها بالتركية ، وقال إن حسنات (كرد علي) الحاضرة تمحو سيئاته الغارة ، فقال انور باشا : يا شيخ انا امزح واعترف بحسن سياسة جمال باشا .

والغالب أن جمال باشا حاذر من شر بلحقني من صاحبه انور باشا ، فأوعز إليّ ان أكتب له رحلته إلى المدينة المنورة ، وان لم أذهب معها ، على مثال ما كتبت رحلة الوفد السوري إلى دار الخلافة وجنات قلعة ، وبذلك استمال قلبه إليّ في الظاهر ، وكان الامير شكيب أرسلان من جماعة انور يحبه ويحبه ، وكنت انا من أخصاء جمال يحبني ويحمني ، والله أعلم

بنيات الاثنين نحونا ، وانا لا أعتقد بأن قلب أمثالهما من القلوب التي تحب ،
وما حبها لنا إلا لاستخدامنا في الدعوة لهما والدولة .

أكد لي بعض المارفين أن انور باشا كان إذا اراد قتل انسان ،
وقام إلى الصلاة وأتم صلاته ، ورأى ان امره لم يتفد ، يأمر بقتل من امره
بالقتل وتلكأ ، ثم يقتل الاول الذي كان قضى بقتله ، وكان في آخر أيام
الحرب يعذب في سجن استانبول نحو مئة ضابط ، لأنهم قالوا إن الاستمرار
على الحرب لا يورثنا إلا خسارة في الانفس والاموال ، وذلك بانواع من
الارهاق لم يروا افطع منها في محكمة التفتيش الديني في المصور الوسطى .
وكان انور باشا يتظاهر بالدين والعفة ، ويمعمل له في مزارعه أربعة آلاف
جندي في آخر سني الحرب ، والدولة في حاجة شديدة إلى الجند يومئذ ،
وهذه المزارع اغتصبها من رجل رومي فيما احسب ، وصودرت منه يوم
سقوطه فافقر عياله .

واشترك انور باشا ذلك التي التي ، مع جميعه جمعية الاتحاد والترقي
في تجارة السكر فربحوا عشرات الملايين من الليرات ، في زمن كان فقراء
المملكة العثمانية ، وكل اهلها فقراء ، يحرمون السكر اربع سنين ، وبغت الاوقية
منه عندنا بريال بمعنى أن الرطل الشامي كان يساوي ليرتين عثمانيين وربع ليرة ذهباً ،
ولا أعلم أي دين هذا وأية امانة .

أما صاحبه جمال باشا فقد ذكر لي عبد الرحمن باشا اليوسف ، أنه
ذهب ذات صباح يودع عقيلة جمال باشا في الحطة ، وكانت مسافرة إلى
سويسرا ، فرأى أربعة جنود يرفعون إلى القطار حقائب ثقيلة ، يلهمثون كلما
حملوا واحدة منها . وكانت عشر حقائب ، فذهب به الظن إلى أنها ذهبٌ
لما شاهد من ثقلها ، وقد رأينا عيال جمال باشا بعد الحرب يشكون الفقر .
فهل استحال ذلك الذهب ، إن صح انه ذهب ، في مصارف المانيا ماركاً
المانياً من الورق ام ماذا ؟

وكذلك كان حال بعض رجال الدولة استحلوا الاتجار بهذا الضرب من

الاحتكار في اشد اوقات الضيق التي اصبحت به الامة ، فاعتنى كثير منهم في الحرب بمثل هذه الوسائل ، وما بقي لهم ولا لذراريهم ما جمعوا . ومن الذين اغتنوا سفير فينا حسين حلمي باشا ، فانه ربح بالسكر مئات الالوف من الليرات على ما أكد العارفون ، وكان هذا الرجل من عظماء الممانيين في عصره ، يحفظ القوانين ويحسن الكتابة الرسمية ، وكان مشهوراً بالاستقامة ، وانا ما اعتقدتها فيه ، منذ قص عليّ عبد الرحمن باشا اليوسف ان جده سعيد باشا شمدن مؤسس بينهم كان يعطي حسين حلمي باشا راتباً مقررأ كل شهر قدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً ، مدة مقام حسين حلمي كاتم اسرار ولاية سورية أو رئيس ديوان الانشاء (مكتوبجي) . ومن يقبض مثل هذا المال من صاحب نفوذ له كل يوم مشا كل ذات شأن مع الحكومة والاهالي يتعذر عليك أن تعده عفيفاً مستقيماً ، وإن قيل عنه أنه كان ينفق نصف راتبه ويدخر النصف الآخر خلال المناصب التي شغلها ، ولذلك اقتصد مبلغاً يعد ثروة في تلك الايام . وإذا صحّ تلونه بتجارة السكر فتكون عفته ضرباً من العفة التي لا اعرف كيف اصفها ، فما العفة بالاغضاء عن المبلغ الحقير وأخذ الكبير ، بل بالزهد فيها على السواء . ومن جاءني يدل عليّ بهذا النوع من الاستقامة ، فأنا أفضل عليه قطاع الطريق .



الاهداء والاستهداء

وشاء ربك أن ينشأ (ي . ر .) من بيت يحب ربه أن يهدي إليه . وكان قاضياً ، ورجائي أن يكون من قضاة اللجنة لا من قضاة النار . فنشأ ابنه على حب الاهداء والاستهداء ، ولذي بعد حين عادة الاهداء وأنقن عمل الاستهداء . وأهدى صاحباً ، أول نشأته ، صندوقاً من التفاح ، وادعى انه من حديقة بيته وهو لا يملك يومئذ داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ، ليوم مهديه انه لم يكن استهداء ، بل هو من ماله وصلب حاله . فأجابه صديقه بالشكر جواباً داعبه فيه ، فأظهر انه ما أحب منه هذه الدعاية ، وحلف ألا يهدي غيره بعدها شيئاً . اتخذ من مداعبته بما أغضبه حجة لينقطع عن الاهداء طول العمر . وخلاصة ما كتب له صديقه : «إني أردت أن أقابلك على هديتك ، كما جرت عادة الناس ، وتطلعت ذات اليمين وذات الشمال في الأرض التي أورثنيها أبي ، فلم أرَ غير صنفين من الحاصلات : التبن والشعير ، وهما أجدر بالتقديم إلى البغال والحير ، وشجيرة القنب ، وهو لا يستخدم في غير الشنق والحرق ، فإن كنت ترغب في استهداء شيء منها فأنا على أتم الاستعداد لأرسل المقدار الذي يلزمك عن طيبة خاطر . »

ودار الفلك دورته ، وعمَّـلَ هذا المهدي على بعض بلاد الجزيرة ، فمرف أهلها ، أو عرفهم هو بنفسه أنه يحب الاستهداء ، فأهدوه حتى كادت تستنزف هداياه وُجْدُهم ، فما هي إلا أشهر معدودة حتى صدر الأمر بنقله إلى عمالة أخرى بعيدة ، أرادت الدولة بهذا النقل ألا يفوت سائر عمالاتها عدله وإصلاحه ، لأنه كان حيث ينزل لا يفكر في الاستهداء بقدر ما يفكر في نشر العلم وفتح المدارس وعمارة الطرق ، وإبطال الرشوة ، وإمتاع الفلاح بحقوقه ! ولما آذنت ساعة الرحيل كتب إلى صديق له .

أن اهل تلك العمالة - التي قضى بين أهلها أياماً عدها من أمتع أيامه ، لانه ما خلا فيها يوماً من استهزاء شيء - هم فقراء بالنقد اغنياء بالماشية ، إذا احبوا ان يهدوا المولى عليهم هدية يهدونه مما حوت اسطبلاتهم وحظائرهم : بقرًا ، حميراً ، خيلاً ، بغلاً ، خرافاً ، تيساً ، معيزاً ، دجاجاً ، طيوراً إلى ما شاكل ذلك من الحيوانات والدواجن . وانه اجتمع له من هذه الاصناف قطمان يتسدر عليه ثقلها إلى مقره الجديد ، وليس يرى في ناحيته من يشتريها ، ويدفع له ولو تمنناً زهيداً فيها ، ولا تسمح نفسه بارجاعها إلى أهلها ، وسأل صاحبه أن يمن عليه برأي يخرججه من ورطته ، لينتفع بما كسبه من المال الحلال !

وعين الله ترعى هذا الفاضل الكامل الذي فاق كل مستهزئ أو مرائش على اختلاف في الاسماء ، ولشد ما صرف وكده ، وبذل ما أوتيته من ذكاء ودهاء في اختراع طرق توصله إلى غرضه . وكانت له مزبة لا تنكر عليه وربما عدها بمض أترابه ضعفاً ودناءة ، وما هي إلا تفضل وتساهل . ذلك انه ما كان يجب أن يشق على المهدي ، فان كانت المسألة تحتل عشر ليرات قنع منه بخمس ، وإن كانت تساوي خمسا رضي منه بنصفها ، لاعتقاده ، وهو من دارسي الاقتصاد السياسي ، بأن الربح القليل من الكثير أعود على فاعله من الربح الكثير من القليل .

حقيقة ان خطب الرجل سهل ونفسه متواضعة . كان مرة محافظاً في احدى العواصم فوضع مجعلاً مقررًا على كل من له علاقة به ، ليحمل إليه ولو إناء من لبن رائب وعشرين رغيفاً من الرقاق ، وطبقاً من الزبد أو القشدة ، وما شاكل ذلك من المأكول الذي يجود عندهم ، ويخرج من ارضهم ، أو لعمله ايديهم . يأتي هذا ليجمع للخبز والملح بينه وبين من يدير شؤونهم حقوقاً وواجبات ، فانظر بالله ما أطيب هذه النفس !

وكان اذا زاد ما يصرفه من هذه الأصناف عن طعامه يبيع الفضل ويجعله نقداً في صندوقه ، وقاعدته ان الساقية الحارية خير من النهر المقطوع ،

وانه اذا اقتصر على الاخذ من المسائل الكبرى بقوته 'جعل المسائل الصغرى والعدل بتقاضاه وهو من أكبر الغير عليه ، أن يساوي بين الجميع في القضاء والافتضاء . ولولا ان الله حجب إليه المفارقة في بعض الليالي ، وكان يخسر في أكثر ألامه ، لخلف ثروة عظيمة لا تخلف نصفها عشرة من اقرانه مجتمعين . هذا مع كل هذه القناعة في الاخذ ، والضمانة في العطاء !

وارتقى هذا البطل المغوار ، وعين الله عليه ، بهذه الصفات النادرة ، واصبح له من السلطان ما يستطيع معه أن يضرب وينفع في الامور الكلية ، فأغلى الجعالة والهدية ، ورفع ثمن كل قضية . واستنجد به اناس من المشتغلين بالدفاع عن حقوق الناس . كانوا اقصوا بدعوى سوء حالهم وجهلهم ، فأخذته الشفقة عليهم أكثر مما اشفق على حقوق هذه الامة ، لأن المجموع في نظره اغنى من الفرد ، فهم لذلك احق بالرعاية ، فعلمهم ساعة من علمه اللدني ، وأفاض عليهم من ادبه الكسبي ، وارحمهم على بركة الله إلى ما كانوا عليه ، وما اخذ من افرادهم ما يشق عليهم اداؤه ، بل كان مجموعه حسناً بلغ ثمانمائة دينار ، ثم انه أخذ على ان يؤديه كما قال الى رئيسه يتقاسمونه ، وكان هو واسطة خير ليس غير ، ورضي أن يخدمهم لوجه الله لأنه كان دائماً يقصد بمثل هذه الخدم وجه الله ، وقد تناول ما تناول وقلبه مطمئن بالإيمان ، ونفسه تحمته ، والله أعلم بالسرائر ، بأن ما آتاه كان رحمة بهم وبالقضاء ، وفي عمله لإحقاق الحق ونصرة للعدل . ومن عجب امر هذا الرجل المولع بالاستهداء أنه نوع الاساليب في اخذها ، وما ترك فرصة تفلت من بين يديه ، وكل ما يساوم عليه تكون عقابه الانتفاع بشيء يأخذه على سبيل الذكرى لتواضعه ، ومن تواضعه انه لا يجوز كسر خاطر احد يقدم اليه شيئاً مهما قل ، فاعجب لهذه النفس الترابية التي لا تعرف الزهو والكبرياء .

وهو إلى هذا يحب أن يظهر بالعلم ، وأن يشتهر بالأدب ، وليس أشق عليه من رؤية أحد يتفرد دونه بشهرة ، او تكذب له مكانة في أندية

العلماء ، ويرى ان تفوقه في هذا الباب لا يكون إلا باسقاط ارباب هذا الشأن ليخلو له الجو ، ويستأثر بالصيت الحميد دونهم . وكان يسره ألا يذكر احد بمحمدة ، ويدعو إلى الاعتدال في تقرير الممدوحين ، حتى يكون الناس كأُسنان المشط في الاستواء . وهو إذا كان يحب الاقتصاد حتى من اموال مهديه ، فكيف لا يحب الاقتصاد في مدح من يقدم منافسيه . وما ادري اين تعلم مكارم الاخلاق افي مجالس الذكر عند اخوانه اهل طريقته الدينية ، أم مع اخوانه في الماسونية الذين ارتقى الى اعلى درجات رتبهم ، وبرز أي تبريز في محافلهم . ومن مزياه ان كل مفعول جائز ، وأن للمرء أن يعمل كل ما يريد ، لا يصده عن سبيله صاحب قوة ، ولا مصطلح من عادة وخلق ، وانه إذا جاز سرقة مال الغير فمن أيسر الأشياء أن يسرق أفكار الغير ، ويغير على ألقابه فينتحلها غير خجل ولا وجل .

وعلى كثرة معرفته نسي ان المرء لا يأخذ اكثر من جرمه ، وأن من واجب العاقل ان يقف حيث وضعته الفطرة ، وان من نجاح في ناحية يستحيل عليه أن ينجح في جميع النواحي ، وانه إذا تعلم فرعاً من فروع المعارف البشرية ، بطول الزمن وكثرة التمرين ، يتعذر عليه ان يتعلم مثلاً علم الأخلاق ويملمه ، وصياد الديفار غير صياد العلم ، وحب الدنيا لا يجتمع في قلب امرئ مع حب الآخرة ومن الصعب الجمع بين طرفين متباعدين ، والاحتياال على سلب الناس ثم النفاق عليهم بالأخلاق الفاضلة .

مسكينة هذه الأئمة بليتها بالجهلاء كبلتها بالمتعلمين ، ومصيبتها بالمعلمين « المتجيبين » كصبيتها « بالمطربشين » « المتبنطلين » . وربما كانت البلية بالمتعلمين أظلم لأن المتعلم يعرف كيف يضر ويؤذي ، وكيف يهدي ويستهدي ، وكما في الخلائق من إذا تأملت فيهم يعجبك ظاهر حالهم ، وإذا خبرتهم تلاقس نفسك ، تراهم على حسن سمت وجميل وقار ، وتستمع من أفواههم ألفاظ

المروءة والشرف والصون فإذا فحصت نفسيتم فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .
وتكرم بمض الملمين والمديرين فعاملوني كما عاملوا أكثر اسلافي وأخلافي
بالهدايا يقدمونها ، وكنت اردھا اليھم ناصحاً لهم ألا يعودوا إلى اتيان
مالا يلبق صدوره من طبقتهم ، ومنھم من كنت ادفع اجرة عن هديته
حتى أعيدها اليه . ومن اجل ما رأيت من ضروب الاهداء هدية أحد التجار ،
زار المجمع العلمي العربي واعطاه اعانة دفعتمها للآذنين يشترون بها بذلاً صيفية ،
وما جاء الشتاء حتى رأيت يرسل إلي صندوقاً من سمك بحيرة الریحانية ،
وكان هو ضامناً لها ، فرأيت بعد التردد الكثير قبولها والمقابلة عليها ، وماذا
أرسل بدلها ، وليس عندي تقاح ولا دراق ، فقام في نفسي ان اهديه بدل
هذه الالطاف كتباً ورسائل ، وأجبت ان تكون من الجنس الذي يتيسر
له الاستفادة منه ، ويتسلى به آونة فراغه . وكانت هدية السمك تتكرر
مرتين او ثلاث مرات في كل شتاء ، ودام الضمان ثلاث سنين ، فكنت
في المرات الأخيرة في حرج من قلة الظفر بكتب تروق صاحبي وتنفعه ، وخفت
أن تنفذ من حوائث الوراقين في مصر والشام . ولما انتهت مدة الضمان
هنأته وهنأت نفسي ، وحمدت الله على النجاة من هدايا السمك اللذيذ ، وإرسال
كتب تلذ مطالعتها في مقابلها . وسألت صاحبي إذا كان ربح من الاسماك
فقال إنه خسر ، وعين مقدار الخسارة ، فقلت له : أصلحك الله . وقع
العجز في ربح ضمانك لكثرة ما أهديت من هذا السمك الذي تلذ به عشرات
من اصحابك ، أتقنت فن الاهداء ، ولم تتعلم كصاحبي ذاك فن الاستهداء ،
فكان شأنك ما رأيت .

إن كان يقل في الامم المصلحون ، فإن في امتنا يكثر المفسدون ، وإذا
كانت هناك اختراعات تنفع الامم وتنشل الدول ، فإن هنا اختراعات تضر بالجماعة
وتدك معالم الممالك . وما عهدنا عندنا مخترعاً اخترع ما ينفع ، ولدينا عشرات
يخترعون في الشر فقط ، يفسدون ولا يصلحون .

وهذا الرجل طلب صداقتي وأنا لا أعرفه (ي . ر) وخدمني على العهد التركي خدمة أنقذني بها من معضلة ، وبت أرقب الأيام لا كائنه على جميله ، وسعيت لما حانت الفرصة بإسناد منصب كبير اليه ، تولاه وهو لا يصدق أنه يبلغه . وكان غاية ما عرفت عنه يومئذ أنه يحسن عمله ، لا يأتي ما يؤاخذ عليه ، متوسط الذكاء ، وفي طبقة الموظفين كثيرون مثله .

وما تربع في اللدست حتى حدثته نفسه أن السعادة اقبلت ، وان من لا ينفم الفرص يضيق الحزم ، فشر عن ساعد الجدد ، إلى اقصى حد ، ورجع إلى فطرته ، فأظهر ما كان يكتنه من مذهبه ، وتجلت فيه عادة الاستهزاء ، فأخذ بالكبير والصغير ، فكان له فيه اختراعات ومكتشفات ، واطرح كلمة خذ ، وأتقن كلمة هات . وساعده ديوانه أن كان متشعب الجنبات ، كثير الاموال جم الصادرات والواردات ، وكونه عارفاً بصناعاته تخرج فيها من البررة كما يقول الترك ، وأنقضا قبل ان يبلغ الحلم بحكم الضرورة . وعرف بمرور السنين مداخلها ومخارجها ، كما عرف أهلها كبيرهم وصغيرهم . أما معلوماته فما زادت عن معلومات المدرسة الابتدائية ، وكان يصطنع الرزانة ويتعمد الوقار ، ويسكت في المجالس ، ويسم كأنه يفهم ما يلقى فيها ، وهو بعض منسياته ، على حين لا يمتاز عن العامة بمعلوماته ، إلا انه يتقن عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة .

وزعمت لك أنه أتقن فن الاستهزاء ، وله فيه مخترعات ومبتدعات ، أما الاهداء فما عرفه ، اللهم إلا ما كان من ورائه رد عادية غريب عنه ، او الاستشفاع إلى رجل له يد باسطة في تأخير أموره وتقديمه ، أو له سيطرة عليه من بعيد أو قريب ، وأحب أن يقوى في ذاته فلم ير خيراً من الاعتصام بجمعية سرية . فالتخذها مجناً يتترس وراءه ، فيدراً به عن نفسه العوادي ، وأخلص في خدمتها حتى وصل إلى أرقى درجاتها ، ونال أعظم مراتبها وأوسمتها ، واقترح يوماً على صاحبه أن يدخل في جمعيته فتوسد إليه

الوزارة بمد أربعة أيام ، فقال له : إنه ما تولى منصباً باستظهاره بجمعية ولا بجماعة ، وأولى له ثم أولى ألا يكون شيئاً من أن يدخل في شيء لا يريد له الوصول الى شيء قد يريده وقد لا يريده . وأحب أيضاً ألا يخله من معاونته فتوسط له باعطائه مبلغاً من المال باسم صحيفة له يشرف عليها ، والمترجم له لا يحسن الاهداء إلا إذا كان من مال غيره ، وفي سبيل تلويث سمعة من لم يتلوثوا ، من باب ودت الزانية لو كان كل النساء زانيات .

وأزبدك أن الرجل ما عرف معنى للصدقة طول عمره ، ولا عطف على بائس عائل ، ذلك لأن قلبه ما أحب إلا معبوداً واحداً هو المال . ومن قواعده أن ما دخل عليه من النقد لا يخرج من صندوقه إلا الى المصارف والخاويء في داره ، ويرى انه لا يناسب منزله أن يتنازع شيئاً من السوق فيأتيه بكل ما يحتاج إليه أولئك الذين قضت الاقدار عليهم أن يصبحوا تحت يده ، يصرفهم ويصرف بأموالهم .

ومن اختراعاته في الاستهداء أنه إذا جاء لاستلام منصب جديد يرسل منشوراً الى من هم تحت إشرافه من المال في الارحاء يقول فيه إن بيته يحتاج في سنته الى ست صفائح من السمن ، ويرجو ان ترسل إليه مصحوبة بقائمة ثمنها : فيأتيه السمن هدية من كل مكان ، حتى لفص داره بما ضمت من الصفائح وتسمي بسمنها أغنى مما يملك منه تاجر كبير .

هذا الى ما يطلبه من كل مأمور من الحاجات الاخرى ، وهو على رأس كل سنة وفي الايام الاولى من كل موسم يجدد طلب السمن ، ويطلب الصفائح منه ، ومرءوسوه يبيضون صحائفهم معه بأن يدرؤا عليه كل ما يطلب وما لا يطلب من حنطة وخراف وأوز ودجاج وطيور وأسماك وزيت وعسل وبيض وفاكهة وبقول . فان فاض ما عنده منه عن حاجته ، وحاجته منه قليلة جداً ، اتجر بما اختزنه ولا يعرضه في السوق على أيدي سماسرة بررة إلا عند ارتفاع الأسعار ، والخوف على الفقير من الجوع . فيبيعه نكاية بالحائنين من التجار والمضاربين !

رأيت بهذا انه وضعُ جُعلا على كل واحد له به شبه اتصال ، ومهر في استخراج الهدايا وتطبيق أساليب الاستهداء مهارة زائدة ، وهو أبدأ يجد ولا يتوانى في الاستخراج ، والجد ينفض الماء من الحجارة . والكتان منه ومن يعطيه أصل النجاح في هذا الباب ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وله مع من كانت يده كزّة لا تندي بشيء اسلوب منتج للاهداء : يبدأ بتهدية تهديدا خفيفا . كأن يقول انه مقصر في عمله ، او ان المستشار تكررت على مسامعه الشكوى من تقصيره ، وقلة معرفته ، وجهله بوظيفته ، وانه حاول هو رد هذه الشكاوى ، وهو يجهد ليقية العزل او النقل ، فيهرول المهدد بالبائس من ساعته ويدفع له هدية من الورق او الورق او من تلك الاصناف التي تمون بيت صاحبه طول السنة ، فيستغرق ما يعطيه إياه راتبه اشهرًا ، ويضطر المسكين الى الرجوع على ارباب المصالح ليدس عجز ميزانيته الخاصة ، بما حوته جيوبهم وغرّمه إياه رئيسه الجليل .

وصاحبي هذا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويمارس من اركان الاسلام ما لا يكلفه مالا ، يصلي ويصوم ، اما الزكاة والحج فلا ، ويعتقد الى هذا بنعيم الآخرة الا انه يفضل عليه نعيم الدنيا . ولدوام هذا النعيم تراه يرضن بالذائق لا يبذره كيف اتفق . وما وصل الى سمي انه دعا احداً الى طعامه ، ويفضل ابدأ ان يتناول من طعام غيره ، وكيف يعمل حتى تتكرر له المآذب ، ولا ينقطع سندها عنه ولو في الاسبوع مرة او مرتين ؟ ولبلوغ ذلك هده ذكاؤه الى اختراع كان من جملة ما مسجل من اختراعاته . ولما كان يستطيع طعام الناس اكثر من طعام بيته رأى ان يعود مرءوسيه الكرم فأنشأ يدرهم عليه ، ويستطعمهم بأن يقول لأحدهم : إن اهل بيتك يا هذا يجيدون طهي الصنف الفلاني . ومن الند يطبخ له فيدعى إليه او يحمل إلى داره مع أطباق اخرى لذينة يقدرون انه يستطيعها . ويقول لآخر :

بلغني ان الصنف الفلاني من الطعام يحسن حريمك تحضيره . وأنت يا فلان
« ممن كان الحجاب بينه وبينه مكشوفاً بمض الشيء » متى تدعونا الى دارك
ثانية ، فقد طال المهمل بآخر أكلة اصبتها من طعامك الشهي . ومنهم من
يكلفهم أن يخرجوا به إلى الحدائق والمنتزهات أيام العطلة مع ثلة ممن اعتاد
قبول دعوتهم ، فيجشم الداعي نفقات تدخل الضيم على وفره ، إلى غير
ذلك من ضروب التطفيل والتدجيل .

للصوص يسرقون على الاكثر في الليل من يحاولون سرقة ، وهذا
يسرق ليله ونهاره ، وقريحته لا تفتأ تملي عليه اختراعات في هذا الباب .
وهو لا يبالي بما يقول فيه مستخدموه في سرهم من التغالي في هذه الدناءات
ويلمنونه في قلوبهم .

وما انتهت مهمة هذا العامل الجهد حتى كان قد استرهن من المقارات
والمجوهرات الشيء الكثير ، ووظف امواله في أعمال رابحة ، وكثرت صفقاته
المالية حتى كادت تماثل بتنوعها وتفرعها أعمال مصرف من مصارف الرهونات .
وفي خزانته الخاصة من الاحجار الكريمة المرهونة التي يصب فك رهنها
ما لا تجد له مثيلاً إلا في قصور الملوك . اغتم شدة عوز الناس فاستثمر
أمواله بالربا الفاحش واحتال على الذهاب بالأصل المرتهن ، وهو كلما زاد
الراهن عجزاً عن الاداء في الميعاد أقدم على ضبط عقاره وحليه .

وسألت بمض المارفين عمن أخذ هذا المحتال دروسه الأولى فقال إنه
أخذ عن أستاذ له كان أعظم لصوص عصره ومصره . كانت هذا قابضاً
سنين طويلة بيد من حديد على ادارة فيها كل أسباب الاستهزاء وأخذ
الاموال ، وكان مخترعاً أيضاً إلا أن اختراعاته محدودة يجتري بضروب قليلة
منها ، يترج بها كثيراً ، وما وفق لما طلب إلا بمشاركته لرؤسائه في المغام
وتهيشته لهم كل ما فيه مباحج حياتهم . وبينما كان الموظفون لا يتناولون في
الدور الحميدي روايتهم القليلة بصورة مطردة ، وبينما كان أرامل المتقاعدین

وبتامام لا يأخذون ما يتبلغون به كانت لسول له نفسه أن يقتطع من رواتبهم مقداراً معيناً يعرفه الصيارف . وإذا كان في نساء المتقاعدين ذات الجلال يشفع لها حسنها فيعف عن راتبها ولا يعف عن عرضها . ومات وخلف ثروة كبيرة ما جمع مثلها أعظم الخائنين ، وقد أنفق في حياته وأسرف في انفاقه ، وعاش عيش الملوك ، وارتكب كل محرم ، واحتقب كل اثم .

هذا الاستاذ البارع خلف ذاك التلميذ الأبرع ، ومات من خلف ، وكلاهما لم يترك ذكوراً يذكرونه بالرحمة ، وخلف مئآت ممن سلبهم نعمتهم يحاربون إلى السماء ، في كل صباح ومساء ، ألا يبارك الله له فيما أخذ واقتطع ، وأكل وبلغ . وكانت عاقبة الأول تبديد كل ما جمع ، وستكون مثلها عاقبة الثاني ان شاء الله .



غاياتي من سياحائي

زرت أوروبا أربع مرات (في سنة ١٩٠٩ و ١٩١٣ و ١٩٢١ و ١٩٢٨) وكانت الغاية من رحلاتي تجديد مارث من قواي ، وترويض الجسم ، ولسلية الروح ، والتعرف إلى مدنية الغرب ، ودورها في أرضها درساً عملياً ، بمد صرف جانب من الوقت في درس النظريات . وما كنت أدخل بلدة قبل أن اطالع في وصفها كتاباً أو كتباً ، حتى ألتذ بما اشاهده ، وأستفيد من زيارتها استفادة حقيقية .

زرت فرنسا وانكلترا وإيطاليا والمانيا وسويسرا والنمسا والمجر والصرب والبلغار واليونان والبلجيكا وهولاندة واسبانيا ، ومنها ما زرته أكثر من مرة مثل انكلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا ، وأخذت فكراً إجمالياً عن أوصافها وشؤونها وعاداتها وسمياتها . والاشتغال بموضوع خصائص الشعوب رياضة ذهنية إذا قيس بالنصب الذي يلقاه من ينصرف إلى الأعمال العلمية الجافة ، ويصرف ساعات عمره في تحليل المركبات .

كنت في فرنسا وفي الجزء الفرنسي من بلجيكا وسويسرا كأنني في أرضي وداري ، بين معارفي وأحبابي ، وذلك لمكان اللغة ، أما في سائر الممالك فقد كنت شبه متطفل عليها ، أدرس حالتها في الكتب ، وأستعين بالتراجمة وبأصحابي الشرقيين والمستشرقين على النفوذ إلى روح تلك الشعوب ، عرفت الاولى مباشرة وعرفت الاخرى بالواسطة . وشتان بين ما حققته بنفسك حتى استسقت وتعلمته ، وبين ما حققه لك غيرك ورويته عنه . وما أدركت سر هذه الحضارة الغربية في الجملة ، ولا تذوقتها بمض تذوق إلا في ربوع سويسرا . والغالب أن البحث في الأمر الصغير المنظم أسهل من درس الكبير المنتشر . أدركت ذلك في رحلتي الثانية ، وفي الرحلة الاولى لم

أعثر في فرنسا ، على معرفتي بتاريخها وأدبها ، على ما أتلقف به حضارتهم ، وإن كتبت في مدينتها كتاباً ونشرته .

استعنت على التقصي والبحث بما كنت أبذل من دراهم قليلة ، قد يضمن بها بعض أرباب الرحلات ، فكنت أستميل قلوب التراجمة بدعوتهم إلى تناول الطعام معي في بعض الوجبات ، فأخذ عنهم ما يسوغ استخدامه من المعلومات ، ومنها ما كان يجلي أمامي شيئاً من حقائق تلك الأمم ، وألقاني عما يعود على التراجمة من فائدة مادية . فقد يقترحون عليّ زيارة بعض الأماكن وشراء بعض الأشياء من محل كذا ، وأنا عارف بأن ليس لي من وراء ذلك كبير أمر ، وأعرف أن الترجمان يأخذ قسطاً مما انفق .

قال لي ترجمان في مدينة قرطبة من أرض الاندلس ، وقد صرفت في تلك المدينة الجيلة بضعة أيام : إنني احترف هذه الحرفة حرفة الترجمة في هذا البلد منذ أربع عشرة سنة ، رافقت خلالها مئات من أجناس البشر ، ومنهم عرب من شمالي إفريقية ، ومن بلادكم مصر وما وراءها ، فما دعاني واحد منهم إلى تناول طعامه ولا قهوته ولا شرابه قط ، كما فعلت أنت ، وكنت تحرص طول المدة التي قضيتها هنا ألا افارقك ليل نهار ، تريد أن تواكفي حتى في فطور الصباح ، عجبت من صدور هذا منك ، على حين يظهر من حالك أنك لست غنياً ، فما السرّ في كرمك هذا الذي استغفرت به ، فأجبت : السرّ في ذلك أن أهل بلادنا اعتادوا أن يأكل الصديق عند صديقه ، وقد تأصلت فينا هذه العادة على الأيام ، ومنا اليوم من إذا لم يكن في بيته من يواكله يقف على بابه يتسقط رجلاً يدعو إلى مشاركته في طعامه . فتمجب من هذه العادة ، وما عرف أي أقصد بدعوته أولاً أن أزيل عني وحشة القرية ، وأن أستفيد منه أشياء لا تعرفها الكتب ، وأني أقم ، باتفاقي زيادة طفيفة على نفقائي المقررة ، على فوائد يصعب تلقفها بغير هذه الصورة ، وهي في نظري لا تقدر بثمن لأنني أحب سماع كل غريب . كثيراً ما كان يعذلني بعض أصحابي على استغفائي عن مرافقة أحد في

رحلاتي ، والواقع أنني ممن يصعب عليهم أن يقيدوا أنفسهم ويقيدوا غيرهم ، وما دمت في مهمة أريد القيام بأعبائها أولاً وبالذات من الصعب ان يتيسر لي استصحاب من يوافقني على تحقيق مآربي كلها . وأكثر من يرحلون منا إلى الغرب تكون رحلاتهم للتجارة أو للزهوة . وهذان الصنفان من أرباب الرحلات لا يوافقاني على ما أريد الدخول فيه . فالتاجر لا يهجه أن يجتمع إلى عالم مشهور ، ويسمع كلامه ويحمل فوائده ، ولا أن يدرس مخطوطاً عربياً في خزانة كتب ، ولا أن يبحث عن الاسفار النادرة ، بقدر ما يهجه أن يقابل اصحاب المعامل ، ويقضي ساعات مع وكيله وعمله ، وكذلك الذهاب لغرض السياحة والزهة ، لا يهتم إلا للاطلاع على ماتجمله المدنية الغربية من المباهج . وهم التاجر الاقتصاد في النفقة ، والمتنزه يهون عليه التوسع فيها ، ومثلي قد يؤثر التوسط في ذلك . ومن المتعذر الجمع بين المطالب المتباينة . على أنني كنت في معظم البلدان ولا سيما في الرحلتين الاخيرتين أتمنى لو كان معي رفيق من لحمي ودمي أفزع اليه فيؤنسني ، وأبوح اليه بذات صدري ، فيسري عني همي ، وتنادر وتضاحك ، ولكن كنت أقول إن كل ما في الترافق من محاسن يزول ساعة يتخالف المتصاحبان ، ويمتد أحدهما ان صديقه يمتدي على حقوقه ، ويستأثر بالوقت او بالنفقة دونه ، ويحجف به ولا يعرف له قدره .

أكثر ما كنت ارتاح اليه مقابلة علماء المشرقيات ، فأنهم لقربهم من منازعنا ، ومعرفتهم بماداتنا ، ووقوفهم على غابرننا وحاضرنا ، اقرب اليينا من معظم من في الغرب من اهل المدارك ، وبهم كنت اعرف إلى سائر الطبقات ، فهم بلا جدال همزة الوصل بين الشرق والغرب . ويبالغ المستشرقون باكرامك في بلادهم إذا توقعوا منك بعض الفائدة لهم او لامتهم ، لأن عودتك إلى وطنك ، ومنهم من يدعوك إلى داره مع فقره الظاهر ، وذلك لمعرفة المادات الشرقية . اما هم فقد وقفوا عليهم قبل كل شيء على خدمة دولهم .

دعائي احده المستشرقين في باريز على غير معرفة قديمة به ، فمجيبت
لهذه الدعوة وسألت احد اصدقائي ممن لهم اتصال بالداعي عن سر دعوتنا
فلم يعرف ، وحضني على الحضور . وكانت الدعوة جامعة اسباب السرور ،
وفيهما اكثر من اثني عشر مدعواً ومدعوة ، وانصرفنا في ساعة متأخرة
من الليل شاكرين لحفاوة الداعي ، ولطف من دعا من الاوانس والعوائل .
وما إن عدت إلى دمشق حتى تناولت كتاباً ضخماً من طريق رسمي ومعه
اضبارة كبيرة ، كأنها مسودات كتاب ، وإذا بصاحبي صاحب الدعوة
المجهول سرها ، يدعوني ان اكتب له معلوماتي عن القباب في سورية ومن
رقد تحتها من الأولياء والقديسين ، فوضعت مقترحه في إحدى جلسات
المجمع العلمي فقال بعضهم : إن هذا الموضوع يحتاج إلى درس خمس سنين ،
وقال آخر : إنه يحتاج إلى خمسة اشخاص ، يدرسون ويبحثون خمس
سنين ، وقال آخر غير ذلك . واستقر الرأي على ان هذا البحث ليس من
اعمال المجمع ، وعمله لا يتعدى اللغة والادب . وعند ذلك فهمت سر تلك
الدعوة ، وزال عجبى ممن حاول باطعامي وجبة من طعامه ان اضع له تأليفاً
يضع اسمه الشريف عليه . وبديهي ان الكتاب الذي يتطلبه لا يكتب في
خزانة الكتب ، ولا في مكتب مؤلفه ، بل يحتاج إلى التنقل في ارجاء
سورية ليدرس قبة قبة ، ومنها ما يتعذر الوصول اليه ، ولا تسد عما يحتاج
ذلك من اوقات ونفقات ، والكرم الحائمي الذي ظهر من صاحبنا المستشرق
هذا يعد من التجارات الراجعة التي ترجع منها عشرة آلاف .

وفي الحق إن ما لقيته من كرم إخواني علماء المشرقيات في انكلترا
وهولاندا وألمانيا واسبانيا وفرنسا وغيرها صادر عن عاطفة شريفة وليس
فيه ما يؤخذ عليهم . وللكرم عند الغربيين كسائر عاداتهم اصول وحدود ،
فلا تتوقعن ممن لا تعرفه ، وليس بينك وبينه حقوق سابقة أن بكرمك ،
ولا تستغربين إذا زرت احداً ولم يقدم لك فنتجان قهوة ولا كأس شاي
ولا كوباً من المرطبات فان ذلك لا يقدم لك إلا إذا دعاك صاحب الدار ، وعندئذ

يحتفل بك كثيراً إذ يكون على استعداد للقائك . وإذا دُعيت يجب عليك أن تحيب بالاجاب أو تمتذر إذا كنت تريد التخلف . وإذا أكلت طعام الدعوة وجب عليك أن تزور أصحابها بعد أيام لشكرهم . وإذا دعيت إلى تناول كأس من الشاي كان عليك أن تكتب بالقبول أو الرفض ، ولشكر رنحمد على كل حال . والخلاصة فإن لكل شيء في الغرب قيمة وقاعدة ، ويأويل من لا يعرفها . وعليك أن تلاحظ أن الوقت في أوروبا ثمناً غالياً أكثر من بلاد الشرق ، فإذا أعطاك الغربي من وقته ساعة فكأنما أعطاك الشرقي عشر ساعات .

اشتغلت في خزانة الامير ليوني كاتاني في رومية شهراً كاملاً (سنة ١٩١٣) ولما أنجزت عملي قدمت له بضع مجلدات من مجلة المقتبس هدية ، واستأذنته بالسفر إلى سويسرا ، وشكرت له فضله على قبولي للبحث في خزانته العظيمة ، فقال لي وهو مرتبك : ولم هذه السرعة في سفرك ؟ أرجئ هذا لأيام أخر ، فقلت له : قد ضاق صدري في رومية من عدم فهم اللغة الإيطالية ، وإن كان الخاصة كلهم يكلموني بالفرنسية وكذلك في النزل فإن الكلام فيه بالفرنسية أيضاً على المائدة ، لأن تزلاه من أجناس مختلفين من أهل الأرض ، ومع هذا فأنا مستوحش وأريد أن أسمع كلام الشعب ، ولا يتيسر لي ذلك إلا في سويسرا الفرنسية ، وفيها أنوي أن استريح شهراً ، وهذا غير ميسور لي هنا ، وأنا من الصعب علي أن أعلم لغة في برهة قصيرة ، مع سهولة تعلم الإيطالية على من يحسن الفرنسية . وربما كان سبب ارتباك الأمير لما استأذنته كونه ذكر حالاً أنه لم يدعي إلى داره ، ولا عرفني إلى أهل بيته ولا إلى أصحابه ، وقد قضيت معه ثلاثين يوماً ، وأيقن أن هذا مناف للعرف ، وهو يعرف حفاوة الشرقيين بالغربيين في بلادهم . وقد كتب لي إلى سويسرا يدعوني ثانية أن أعود لانجاز عملي ، ويقول إن وجودي عنده يحدث له سروراً عظيماً . وقال لي احد أصحابي الإيطاليين إن الأمير ذكرني في احد كتبه بخير . ولما نشروا

قائمة خزائنه التي أهداها لمجمع لنشاي العلمي في رومية قدموا لها المقالة التي كتبها في الأمير بالعربية وترجموها إلى الإيطالية .

كان الأمير خلال مقامي عنده مشغول الفكر أكثر الأيام بانتخابات مجلس النواب . سألتني نائب (رافنا) في جنوبي إيطاليا ، وكان نازلاً معي في منزلي ، عما أعمل في رومية ، فقلت له : لمني أبحث عن مواد تاريخية حفظت في خزانة الأمير كإتاني صورها الشمسية ، فمجب لمعرفتي به ، واحتواء خزائنه على هذه المجموعة ، وقال لي ابلغه سلامي ، وذكر لي إشارة يعرفها الأمير وقعت في المجلس النيابي ، ثم قال : إن الأمير اليوم يحاول أن يعاد انتخابه في هذه الدورة نائباً في مجلس النواب ، وما إخلاله بنجح ، فهو منكم ويغار عليكم ، أي أن عواطفه مع الشرق والعرب . وقال : إنه خطب في مجلس النواب وذكر أن ما أقدمت عليه إيطاليا في الاستيلاء على طرابلس وبرقة لا يليق بأمة كانت مبعث النهضة في العالم ، وأن الاعتداء على شعب آمن مطمئن في أرضه بلا مسوغ شرعي أشبه بعمل قرصان بحري منه بعمل دولة شريفة . قال : وما اكتفى بذلك بل كتب في الصحف الإيطالية والأجنبية يقبح عمل الحكومة ، فما اظنه يفلح في الانتخابات هذه المرة ، وكان الأمر كما قال . أخفق السيد كإتاني معانه أنفق في هذه السبيل عشرين ألف جنيه ذهباً ، وأنفق منافسه خمسة وثلاثين ألف جنيه فاحرز الأثرة وكثرة عليه . ولقد شهدت الأمير مدة الانتخابات يتغيب عن مكتبته في الصباح ساعة أو ساعتين ، وكان من قبل يواصل النهار وزناً من الليل في عمله ، فسألت أحد أمناء سره السنيور جويدي الصغير (ميكال انجلو) عما يشغل بال الأمير هذه الأيام فقال : مسألة تجديد انتخابه عضواً في مجلس النواب ، فقلت له : قل له أرجو ألا يتنجح في الانتخابات ، فإن عند إيطاليا مئات يصلحون للنيابة عن أمته ، وليس عندها غير واحد من عيار كإتاني في علم المشرقيات ، والنيابة لا تشرفه كما تشرفه تأليفه وأعماله العلمية ، والأجدر

به ان ينصرف إلى ما اشتهر به . وقال لي جويدي بعد أيام : لقد استجيت دعوتك ، إن الأمير لم ينجح في الانتخابات .

كان الأمير ينفق في السنة على العلم فقط عشرة آلاف جنيه ، وكان غنياً جداً يقدرون ثروته يومئذ بمئة مليون لير أو بخمسة ملايين جنيه ايطالي ذهباً عدا ثروة زوجته . وهذه الثروة الضخمة تبخرت كلها بعد الحرب الكبرى بفعل الايام التي لا تقي سميماً في سمادته ولا شقياً في شقائه ، تخفض العالي وتعلي من سفل .

قلت إن الامير كابتاني وهب خزانة كتبه لأحد مجامع ايطاليا العلمية ، وقد رأيت أحد علماء المشرقيات في اسبانيا الاستاذ ريبيرا عز عليه ان تفرق كتبه بعد وفاته ، فأوصى بها لتلميذه الاب آسين بلاسيوس ، على أن يشتغل بها طول حياته ، ويفتح بابها لطلاب الاستشراق ، ثم يتركها لمن يرى فيه الكفاءة للاستعانة بها بعده . فان لم يظفر به يجعلها في أحد دور الكتب العامة في اسبانيا . وفي هذه الخزانة جزازات السيد ريبيرا في تراجم ثلاثين الف عالم من علماء العرب وأدبائهم في الأندلس وهي من الاعمال العظيمة في خدمة المدنية الاسلامية ، وتاريخ المسلمين في الاندلس خاصة .

وباهداء العلماء مجموعاتهم في الغرب إلى دور الكتب العامة اغنت خزائهم ، فجاوزت في الالم الكبرى أعداد الكتب في خزائن عواصمهم البضعة الملايين . وللخزائن الكبرى والصغرى قوائم وسجلات تستطيع أن تجد فيها ما تميل للكشف عنه في دقائق قليلة ، وأكثرها من حيث الانتفاع بالسرعة العجيبة خزائن المانيا فيما رأيت . والامان مشهورون بتدقيقهم ، ومعرفة استخراج الفوائد ، والانتفاع من كل مادة الانتفاع المطلوب ، وعلماءهم من أكثر الالام اشتغالاً ودؤوباً ، وصفهم بذلك مدام دي ستال الأديبة الفرنسية العظيمة في كتابها (المانيا) وقالت إن علماء شمالي المانيا — في القرن الماضي — يشتغلون ست عشرة ساعة في اليوم . وكنت في أكسفورد في مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) أسمع النادي بنادي مستشراقي كل أمة لمقابلة

نائب الملك ، فلما نادى جرمانيا جاء نحو ثلاثين مستشرقاً ، وكنت أسامر صديقي العلامة ثوران الفرنسي فقال لي وقد هاله ما رأى من انحناء قاماتهم : أرايت انحناء ظهورهم إنه ليس من طول السنين بل هو من كثرة الاشتغال . رأيت روح الجماعة والاجتماع ترفرف على كل شيء في الغرب ، لذلك تمّ لبعض الأئمة الفقيرة بالقليل الذي جمّته واحسنت استخدامه اعمال يستحيل على الأفراد ان ينجزوها ، ضاهت بها ماتم في الممالك الكبرى . قلت لترجماني في لندرا : اجتهد أن تتناول طعام الظهر وطعام المساء كل مرة في مطعم جديد حتى نرى مختلف المطاعم والترتيبات فيها . وبعد يومين قلت له : كأنتك نسبت أن تنوع لي المطاعم ؟ وأراك لم تصحبني إلا إلى مطعم واحد فقال : إنا لم ندخل إلى مطعم دخلناه من قبل ، فقلت : وهل انشئت المطاعم التي دخلناها كلها على طراز واحد . قال نعم ، هذه شركة رأس مالها ثلاثون مليون جنيه أسست في لندرا سبعين مطعماً كلها من طراز واحد وذات ثلاث طبقات ، فمجبت لهذه المشاريع الضخمة التي تم عن غنى القوم وثقة بعضهم ببعض .

أجمل ما كان يطربني في أوروبا بلاد الريف ونشاط الفلاحين فيها ، وما فيها من عناية ظاهرة وما هناك من غابات وحقول ومزارع ومباقل ليس لنا مثلها في الشرق . وأكثر الاصقاع الاوربية لا فرق فيها بين المدن والقرى إلا اسبانية ، فإن الفرق فيها ظاهر بين الريف والمدن ، والغالب ان اسبانيا كصغر اكتفت ببذل العناية بالمدن وغفلت عن القرى ، فجاء الفرق واضحاً بين المدنيين والريفيين . العصور الوسطى جار حكامها إلى اليوم في مصر وأسبانيا وكذلك القرن العشرون بما فيه من رفاهية .

ظاهرة غريبة تتمثل لمينيك في بلاد الانكليز وهي انك تدفع الخوان (البخشيش) في المطاعم والفنادق لا إلى يد من تريد اكرامه من الخدمة والخدامات ، بل تجمله تحت طبق الأكل فيجني الخادم او الخادمة الموكل بذلك الخوان يلتقطه في سرّ بعد ذهابك ، وهو يرفع الأطباق والصحاف

والكؤوس المستعملة . وإذا دفعت حلواناً لأحد غلمان الفندق او اعطيت الحمال او الخوذي او اياً كان من اصحاب هذه الحرف دراهم لا ينظر فيها ويضعها في جيبه ولا يزيدك على كلمة شكر ، وانت بالطبع تعرف واجبك فتعطيه ما يجب ان يمطى . وفي المانيا ينادون غلام القهوة او المطعم او الحانة بيا سيدي الخادم (هراوثا) مبالغة في الاحترام كما يبالغ الانكليزي فيختم كتابه بقوله « عبدك الخاضع » وقد يكون في كتابه ما فيه .

اما في فرنسا فقد يهينك غلام المطعم او غيره من ارباب هذه الحرف إذا استقل ما ادبته له ، وقد يساوئك على المقدار الذي يستطيع ان يستخلصه من جيبك . وليس في طول فرنسا وعرضها شيء يقضى بغير هبة ، واهل هذه الطبقة لا رواتب لهم في المحال التي يمولون فيها كالفنادق والمطاعم والمقاهي والحانات ، وربما قاسمهم من يستخدمونهم اربابهم ، ويزيد ما ينفق في هذه السبيل عشرة في المئة . وانت لا تأمن سماع كلام قاس ، إلا إذا كنت في مطعم او فندق يزيد على القائمة نفقة الخدمة عشرة في المئة فيريح قلبك . وكثيراً ما كنت ادفع الحلوان سلفاً في البواخر والفنادق حتى انصح وعند مغادرتي المحل ادفع ايضاً ما تيسر ورأيت البلدان الانكليزية السكسونية في هذا المعنى اقرب إلى المقول من المالك اللاتينية .

ومن القواعد الشاقة في الفنادق الكبرى والبواخر الغنية أنك تضطر الى أن تلبس في الظهر كسوة غير كسوة العشاء مراعيأ فيها قواعد الأزياء الرسمية . وهذا التشدد على اتفه في بريطانيا وفي بواخرها . ويتشددون كذلك في جميع السهرات والمجتمعات . ومن دور التمثيل كاللاوبرا في باريز ما اذا كانت كسوتك لا تناسب مصطلحهم وأنت في الدرجة الاولى ، يخرجونك من محلك ، ولو كنت حاصلاً على تذكرة دخولك من قبل ، واذا جئتهم بكسوة عادية تطلب مكاناً رفيعاً يأبون عليك ذلك ولا يدخلك . والحاصل فان تشدد الاوربيين في الرسمية مما يصعب على الشرقي الخضوع له ولتطبيق رايحه المعقدة . والشرقي الذي عاش في الفوضى مضطر في الغرب الى ان ينفق جزءاً من وقته ليسير الأزياء .

والخشمة في الظاهر غالباً في بريطانيا العظمى والحكومة لا تترف رسمياً بوجود أما كن الفحش ، والحرية في الديار اللاتينية أوسع ويباح كل محرم إذا بعد عن الانظار بحسب مارسمته القوانين . الانكليزي يستتر ويبالغ في التستر أكثر من غيره من الأمم والحياء يغلب عليه ، وقد يفتح الاتيني معك حديثاً إذا ابتسمت له وكنته ، وربما مازحك وتوسع معك في القول ، وربما مازحك وسخر منك . . وهذا لا تراه في الأرض الانكليزية ، وإن كانت الدعاة تغلب عليهم كما تغلب على سائر اجناس البشر .

لكل امة في الغرب مصطلح ، قد تخالف فيه جارتها تخالفاً لا يدرك مداه إلا الذي يطيل المقام بينهم ، وللحرارة والبرودة ، والبعد من سمت الشمال والغرب من الجنوب دخل كبير في تكوين الرجال والنساء ، فالشابة في بلاد الانكليز لا تبلغ الحلم قبل الثامنة عشرة على حين ترى في جنوبي إيطاليا جدّة لا تتجاوز سنّها الخامسة والعشرين ، ولا يختلف الهواء بين جنوبي جزائر بريطانيا وشمالها ، والمسافة لا تقل عن ثمانمائة كيلومتر . ورأيت شمالي فرنسا والمانيا وإيطاليا أرقى من جنوبها ، وجنوب اسبانيا أرقى من شمالها . وشاهدت البلاد البرستانتية أرقى من الاصقاع الكاثوليكية ، كما هو مائل للبيان في سويسرا ، وأيقنت أن الامم الأوروبية كلها لا تعرف الشرق والاسلام والعرب معرفة حقيقية ، وقد استأثر بهذه المعرفة علماء المشرقيات في كل امة وقليل مام .



علماء المشرقيات والاسلام

أشرت في الفصل السابق إلى أثر بنف علماء المشرقيات من أهل الغرب في التقريب بين الشرق والغرب . وكنت كلما مدحتهم أمام جماعتنا ، يتأففون من سماع كلامي ، لأنهم من الصنف الذي لا يعمل ، ولا يجب أن يعترف لأحد بأنه يعمل . وقد رأيت أن أنشر هنا مقالتين في هذا الباب كنت نشرتهما في جريدة (البلاغ) المصرية (١) قلت :

بدأ علماء المشرقيات بطبع كتب العرب والاسلام يوم اخترعت الطباعة في الغرب خلال القرن السادس عشر من الميلاد ، وما زالوا يبالغون بالعناية فيما يطبعون ، ويقربون مناله على الباحثين بما يمارضون عليه الكتب من اللسخ ، ويحملونها به من الفهارس ، وقد طبموا من هذا التراث العظيم إلى الآن ما تألف منه خزانة عظيمة في مختلف العلوم والفنون ولولا عنايتهم لبقيت أمهات كثيرة من كتب السلف مهملة لا ينتفع بها ، ولعميت علينا أسرار عظيمة من كنوز مدينتنا .

أما الشرق الاسلامي فلم يشرع بطبع كتبه إلا بعد قرنين ، من هذا التاريخ . وقلمما "جو"د الطبع ، وعُني بالتصحيح والتعليق ، ووضع الفهرسات ، ذلك لأن معظم من عانوا هذه الصناعة صناعة الطبع والنشر كان قصدم الربح لا الخدمة العلمية ، خلافاً لعلماء المشرقيات من الغربيين ، فانهم يتوخون بطبع كتبنا الفائدة العلمية قبل كل شيء .

(١) راجع بحثنا المطول (أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية)

في المجلد السابع من مجلة الجمع العلمي العربي .

كنا على عروبتنا نخلط وزنكب الفاحش من الأغلاط ، وكانوا على عجمتهم يجيدون ويجودون ، وما خلونا مع ذلك من دعوى عريضة ، وظلوا هم على تواضعهم ، يزيدون ما ينشرون تجويداً الحقبة بمد الحقبة . وجدنا فلم تقدم إلا قليلاً .

في مصر اليوم أكثر من مائتي مطبعة ، وفيها ألوف من الدارسين والعالمين ، ومصر تبيع مطبوعاتها من العالم الاسلامي ، ومع هذا مازلنا نتوقع عناية علماء المشرقيات بنشر ما حوت خزائن الشرق والغرب من أسفارنا ، ننتظر ما ينشرون ، ولا تحفزنا المهمة إلى تناول ما تناولوا وتقليدنا فيه ، وهم الغريباء عن هذا اللسان ، والدخلاء على هذه المدينة . ولو قدر فقط لعلماء الأزهر ودار العلوم منذ خمسين سنة أن يختص كل واحد منهم بنشر شيء من مخلفات علماء الاسلام لما بقيت الوف منها ، لو طبعت لغيرت من طرق تفكيرنا ، وأجزاء مادتنا من البحث والنظر .

نحن لو رزقنا جانباً من همم المستشرقين ودؤوبهم ما احمرت وجوهنا خجلاً عند ارادة التنظير بين ما يفعل الغريب بما لا غيره ، وما يفعل القريب بمجده وتراثه . وفي الحق إن من شهد بروح الاخلاص بما قننا به في هذه السبيل ، وقابله بما تم على أيدي اولئك الأعاجم ، لا يسمه إلا أن يبالغ في الثناء على ما بذلوه من خدمة العلوم والآداب ، فأحيوا ما كان مدفوناً ، وعرفونا بما كان عندنا مجهولاً ، فخدمونا بالعرض وخدموا العلم بالذات ، جزاهم الله عنه خيراً .

أماي الآن مجموعة من أمهات كتبنا القديمة في الدين والتاريخ واللغة ، نشرها مؤخراً ثلاثة من علماء المشرقيات من الألمان . الأول كتاب (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) لأبي الحسن الأشعري جامع مذهب أهل السنة ، نشره في مجلدين العلامة ريتز وهو اليوم ينشر (الوافي بالوفيات) للصفدي . ونشر العلامة برتزل كتاب (التيسير) في القراءات السبع (والمقنع) في رسم مصاحف الأمصار وكلاهما للداني المتوفى ٤٤٤ وقد آتم

في مصر طبع كتاب (طبقات القراء) لابن الجزري في مجلدين وكان بدأ بطبعه العلامة برجستازر ، فلما مات آتم تعليمه ما بدأ به الاستاذ .
ونشر العلامة كرينكو (جبهة اللغة) لابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهرسته في مجلد ضخمة ، و (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) لابن حجر العسقلاني في اربعة مجلدات ، وكتاب (التيجان) لوهب بن منبه ، و (أخبار عبيد بن شربة) و (حماسة ابن الشجري) ويطبع ويصحح كتاب اعراب ثلاثين سورة لابن خالويه والمجلدات الثلاثة الأخيرة من (التاريخ المنتظم) لابن الجوزي ويطبع معجم الشعراء للعزرباني و (المؤلفات والمختلف) للأمدي وكتاب (نحاة البصرة) للسيرافي وكتاب (الجواهر في معرفة الجواهر) لابي الريحان البيروني إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر . وهو يحذق العربية ، تلمها كالفارسية والهندية بدون استاذ ، عدا ما يعرفه من لغات اوربا ، فكان هذا الكامل المامل بجمع علمي برأسه .

هذا مثال من عناية الغربيين بالعلوم الاسلامية ، ونقائهم في نشر أصولها وفروعها ، ولو اردنا ان تمثل لذلك بامثلة أخرى ماعز على الباحث ايجادها ، فهل بلغنا مساماة أولئك الجهابذة الاعلام ، أو وصلنا إلى نصفهم أو ربعهم ؟ ونحن اصحاب البيت زهدنا فيه وبما فيه ، فانتقل إلى من حرص على بقائه والانتفاع بما حواه ، فنظمه على أحسن نظام وترتيب ، ووقاه المواد والبوائق .
عنيت أتم اوربا بلغتنا حتى فنلندا والسويد والنرويج ، وبذات جهوداً غير قليلة للنشر آدابنا وعلومنا ، ونحن متناومون عما نسمع ونرى ، كأن الامر لا يعنيننا . واثن كان لنا بعض المذر في الماضي لتخلفنا في ميدان الثقافة ، لما عذرنا اليوم وقد تمثلنا كثيراً من طرائق القوم وأساليبهم ، وجاريهم في كثير من مظاهرهم ، ولكننا على ما يظهر لم نحسن تقليدكم في تسلسل افكارهم ونشاطهم ، ورعايتهم للنظام ، ولوعهم بالترتيب . وقصارى الرجل منا أن يوسع عليه في الرزق فاذا نال ما لطمع فيه نفسه فكانه حاز السعادتين .

قال لي أُمس عظيم من عطاء مصر « إن الطلبة الذين خرجهم محمد علي في مدارس الغرب قد انتجوا انتاجاً نافعاً للعلم ، مع أنه ما كان يدرّ عليهم في اليوم غير ثلاثة قروش ، اختارهم من التابهين من طلبة الازهر اذذاك ، وأدار شؤونهم وهم في باريز ومصر ادارة عسكرية فأفلحوا وافادوا . وأن الازهر لما كان العالم فيه يتبلغ براتب لا يتجاوز في الشهر ثلاث جنيهات أو أربعة او خمسة كان يفيد المسلمين اكثر من المهد الذي زبدت فيه الرواتب حتى أصبح الاسناد يتقاضى ثلاثين جنيهاً او اربعين او خمسين ، وإن المدرّس بهذه التوسعة عليه انصرفت همته إلى رفاهيته ، وكانت من قبل مصروفة إلى الافادة والاستفادة .

في هذا القول كثير من الحق لا يسع المنصف إلا اقراره . وسر هذا الوفاء استحكام داء التوظف في الدينين والديناوين ، سرى إلى من وكل الله اليهم أمر دينه وخدمة شريعته ، وكان المأمول أن تبعدهم مواهبهم الكسبية واللدنية إلى مدى أرفع من المنافسة على المناصب ، والطمع في تساق المراتب ، وأن يجملوا لهم غاية نافعة غير المادّة يتوجهون اليها بمقولهم وقلوبهم ، وكان بعض الطلبة من العرب اليوم ، على استمتاعهم بحرياتهم والتوسعة عليهم في ادراعاتهم ، لا يطعمون في غير احراز شهاداتهم ، حتى اذا حازوها كانت التوظف في دواوين الحكومة ومقاصير القضاء أقصى ما طمع فيه نفوسهم ، لاعتقادهم أن الموظف يعيش آمناً مطمئناً في حياته وعيانه ، فاذا تم لهم ما أرادوا لووا وجوههم عن المقاصد العالية ، وما لهم ولها بل مالها ولهم ، وهم قد بلغوا ما طالوا اليه من رفيع الدرجات .

كلّا قلنا لاسأذتنا الدينين والمدنيين إن علماء الغرب ممن يخدمون العلم أجل خدمة هم من طبقة الفقراء المفلوكين ، قالوا ونحن أيضاً صمالك مفايلس ليس لنا مال يساعدنا على اتمام امر ، ولا حكومات تعطف على ما تنوفر على اخراجه ، ولا جمعيات منظمة تضم شملنا وترعانا ، كلام من يقر على نفسه بالمجز المطلق ، وحجاج من ماتت فيهم المهم فاعتذروا عن

كسليم وتقصيرهم اعتذاراً لا يؤيده الحق . هذا ونهضة الغرب ما قامت
لأول عهدها إلا بأيدي ابنائه لا بأيدي حكوماته ، وأبنائه هم الذين أكرهوا
ساداتهم وكبراءهم على السير في طريق سمادتهم ، فانشأ الافراد الصالحون
الحكومات الصالحة .

أظننا لم نشهد رجلاً جود شيئاً ولم يظفر بمن يماونه على تحقيقه . وشهدنا
من قدمت بهم الهمة عن اتمام عمل جدي ينتظرون أن تضمن لهم منه
الماديات من أول يوم ومن يعتقد منا أن كل عالم أو أديب أو مخترع أو
مكتشف في الغرب ينال كل رعاية منذ اليوم الذي يتكوّن فيه عمله تكوّن
الجنين في بطن امه ، وأنهم كلهم من أصحاب الالوف وعشرات الالوف
فهو مغالط لنفسه ولامته . فما كل حرفة في الغرب تغني صاحبها ، ولولا
الغرام بالمعنويات كحسن الذكر والاثر ، وعظيم الاجر والفخر ، ما قام دين
ولا صلحت دنيا . ولولا هذه العوامل ما بهرتنا هذه المدنية الحديثة وغزتنا
بكل ما فيها من قوة وابداع ، ونحن عما يصلح لنا منها غافلون .

لولا تفضيل المعنويات على كل أمر ما قام علماء الاسلام في الدهر الغابر
بما عقت الايام عن تحقيق عشر معشاره اليوم على أيدي من خلفهم .
وقرأنا سيرة أئمة المسلمين فما رأينا الموسع عليه منهم غير أفراد في كل عصر ،
وأيقنا أن الاصل في جماعتهم الفقر . وهذا لم يمنع العاملين منهم من الضرب
بسهم وافر في كل ماكانوه من أدب وعلم .

ليت شعري ماذا أصاب هذه الامة ، وهوأؤها هوأؤها ، وسماؤها
سماؤها ، وأرضها مازالت تلك الارض التي سار على أديمها الآباء والجدود ،
ونحن نرى اليوم أدوات العلم والعمل موفورة ، والعلماء غير مقتر عليهم
كما كانوا في سالف الاعصر ، يستمتعون بحريتهم ، والمبر تأنيهم ترى فيمتدرون
عن القصور والاتكال بما لا يقبله المنطق ولا يقره العقل .

ألفنا أن تتوقع كل خير من الحكومات تضمن لنا مقدمانه ونتائجها .
ومن هي الحكومات حتى نعتصم بها ونجملها معقد آمالنا في كل شيء ؟ للحكومات

فروض غير التي تتطلبها منها ، إن هي أحسنت القيام عليها فليس من الانصاف أن نتقاضاها غيرها . الحكومات لا يتطلب منها غير احقاق الحق ، والقاء السلام ، وضمان حريات الناس ، وما عدا ذلك فهي ان لم تر من مصلحتها التثبيط فلا يسعها التثبيط .

الحكومات منا ولنا ، فهل سمعتم بحكومة قام فيها عقلاء من بنينا ، وتذرعوا للقيام بمشروع مفيد فحات بقوتها دون انبمائه ؟ هل حاربت حكومة أولئك الافذاذ من رجالنا لما أجمعوا على تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية المروة الوثقى وبنك مصر ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومشروع القرش وغير ذلك من المشاريع العالمة والاقتصادية والصناعية ، أم شهدناها تأخذ بأيدي القائمين عليها ، وتفاخر بهم لما أثمرت جهودهم .

لا أحد يضمن لأحد في هذا الكون نجاحه ، وما وقف مشروع قط إلا بضعف في تراكيبه ، وخور في عزيمته القائم به ، وليس في مقدور أحد أن يشغل مكان غيره ، يستصفيه هبناً ليناً ، ويتصدر فيه من دون صاحبه إن لم تؤهله له نفسه ، والعاقل الماقل يشق أبداً بذاته طريق نجاحه ، ولا يعتمد على غير جهده وكده .

انظروا قليلاً في سيرة نوابغ مصر لعمري هل ترونهم توقفوا في أول أمرهم على احد ، أم ذلّوا بأنفسهم لأنفسهم ما عترض سبيلهم من العقبات ، وراحوا ينسجون بأيديهم أسلاك مجدهم ، وينشؤون بدؤوبهم صرح سعادتهم ، حتى إذا تمت ادوات الفضل فيهم ، صفقت لهم أمتهم وهلت ، ومضت تمشي وراءهم طائفة مختارة .

قل للعالم الازهري ، إن ما يتطلبه منك دينك ومجتمعك كثير ، وعليك وحدك تبعة عملك . وقل للعالم المدني إن اكتفاءك بأخذ المناصب وتوقع الترقية في مصالح الحكومة صنيع من سقطت همهم ، وأمتك ترجو منك أكثر مما تقوم به ، وقل لمن يتعاملون ، لو كملتم العلم للعالم ، وآمنتم أن العلم يقصد لنفعه ولذته ، وقمتم بواجبكم من دون جلبة ، لحمل اليكم علمكم شيئاً من الماديات

أيضاً . أما أنتم فكونوا على مثل اليقين أنكم مضمون لكم العيش إن
عَلِمْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَعَمِلْتُمْ ، ونشطتم وما ونيتم ولا تهاملتم .
قل للدينين كم من كتاب أشرتم فحللتم به غامضاً ، وجلوتم بمضامينه حقيقة
قل لهم إن العلم النظري وحده ، وحفظ الدساتير جميعاً ، لا يغنيان الغناء
المطلوب إن لم يقرنا بالعمل المنتج .

قال أحدم لشيخ الاسلام ابن تيمية إن فلاناً حفظ صحيح البخاري
فأجابه : زادت نسخة أخرى في البلد . ومن الحكمة أن لا يزيد عدد النسخ
من البخاري بل أن نستخرج منه ما ننتفع به وننفع .

وقل للمدينين لو فكر كل واحد منكم في موضوعه حق التفكير ،
وخدم صنمته ما وسسته الخدمة ، ونشر للناس تحقيقاته ومبتدئاته ، لاصبحت
الخزانة العربية في جيل واحد غنية بمطالبكم وأبحاثكم ودراساتكم ، واستغنى
قومنا في الآداب والفنون عن الكتب الاجنبية .

داء الشرق الانكسار ، وداء الشرق قلة الاحتفال بالكفاءات الموجودة ،
وداء الشرق إهمال التنظيم وعصيان القانون ، وداء الشرق قلة الدؤوب والملل
من الاتقان . فهل تصح نيائنا على معالجة هذه الالام لنتسوي امة رشيدة
يكون لها الحق في الحياة على اختلاف مظاهرها ، وهل نتعلم أن البكاء
لا يجدي ، وأن التمجيد بالباطل لا ينتج ، وإن العظمة الحقيقية بممارسة العمل .



مع مواطنينا

كان المستخدمون من النصارى في الحكومة على العهد العثماني قليلاً عددهم في الشام ، فلما خرجت من حكم العثمانيين أخذوا يتقلدون اعمال القضاء والادارة والمعارف والامن العام والاشغال وغير ذلك . وكان منهم وزراء العدل في بعض السنين ، ووزير العدل يعين قضاة الشرع ! وقد كثر اليوم عددهم في الدواوين بالنسبة لنفوسهم ، يدخلون منها الصالح وغير الصالح ، وقد يفض الطرف عن السارق المرتشي منهم أكثر مما يفض عمن كان مثله من المسلمين ، ويتسامح مع من تقل مؤهلاتهم في التعيين ، على ما لا يجد مثله غيرهم من أرباب المذاهب الأخرى .

ألفت الحكومة في الحرب الأخيرة مجلساً للميرة فكان رؤساؤه ومرووسوه من النصارى ، فزار احد الطرفاء مكاتبه في دار الحكومة ، فلما وقع نظره على المستخدمين قال هذه بيعة للنصارى لا ينقصها إلا ناقوس . وقال أحد المفكرين من رجال السياسة لأحد أرباب السلطة العليا أن تسمة وتسمين وثلاثة أرباع عمن ينتج الخنطة في سورية هم من أهل الاسلام أفما كان من الانصاف أن تنصبوا عضواً واحداً منهم في مجلس الميرة مع مواطنيهم النصارى ، وذلك نزولاً على اعتبارات ما زلتم أنتم تراعونها ؟ وقد جرت عادة كبار النصارى إذا وسد اليهم أمر من أمور الحكم ألا يصطنعوا غير أبناء مذهبهم ، يستكثرون من استخدامهم في مختلف درجات الاعمال ولا يعينون المسلم إلا كارهين . قال أحد أعيان الكاثوليك وهو يمدح بعض رجال الانتداب ومنهم كبار الضباط وأنا أوافقه على حديثه ولكن هنالك عشرات من المستخدمين منا ينفق الواحد منهم خمسة أضعاف راتبه ومنهم الذين يكتبون تراجم الناس في جزازات ، فهؤلاء ليس من مصلحتهم أن يدلوا على أرباب الشرف

والتزاهة وسمى أناساً من تجار المسلمين من أهل الخير والمروءة .
والغالب أن دولتي الانتداب في الشام لم تريا من مصلحتها إلا الاعتماد
على غير المسلمين في الادارة فقد قيل لي ان احصاء الموظفين في فلسطين
هكذا : ٦٠ في المئة من المسيحيين (وهم لا يتجاوزون مئة وخمسين ألفاً)
و ٣٠ من المسلمين و ١٠ من اليهود وأما حكومتا الانتداب في سورية
ولبنان فما اعتمدت إلا على المسيحيين في الترجمة وأغرقت الدوائر بسوادهم
في لبنان وإلى اليوم تحاول اغراق دواوين الشام بهم .

وحدث مرة أن جاء ضابط افرنسي يستلم قلعة دمشق ، فاستلم معها
السجناء ، وعرضت عليه قوائم بأسماء المحبوسين بمسائل سرقات واختلاسات ،
فسأل عنهم ، فأجيب هؤلاء المفلسون وأكلة أموال الدولة . فقال : أف
ما أقل الأمانة في هذه الدولة ، وعرض بالمسلمين ، فقال له كاتب جريدة
الأنباء : ولكن يا سيدي ان معظم الموقوفين غير مسلمين ، فهذه الضابط
وقال : هذا يؤيد ما كان يقال لما في أوروبا من أن أخلاق المسلمين في
الشام أرق من أخلاق غيرهم من الطوائف .

وبعد فان انصراف المتعلمين من النصارى في سورية ولبنان وفلسطين
إلى التوظف مبدأ فقرهم ، وان ارتاشوا بحسب ما يظهر الآن . وقد كانوا في
متاجرهم وصناعاتهم أسعد حالاً ، والموظف منها كانت درجته لا يخرج عن
كونه عبداً بأجر زهيد يفتى في غيره ، ولضمحل ارادته ويموت فقيراً
معدماً ، الا من نهب وسلب .

كان المسيحيون يتعلمون الفرنسية لتعاطي التجارة والصناعات الحرة ،
فلما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان كانت الفرنسية لهم أداة التوظف
في مختلف الدوائر ، على نحو ما أصبحت الانكليزية في فلسطين . كتب
إليّ الاستاذ فارس الخوري من حيفا أول الاحتلال الانكليزي يقول :
« اللسان الرسمي في هذا الاقليم هو لسان الدولة المحتلة ، ولذلك أصبح
لا يليق بالوظائف الا من كان عارفاً بهذا اللسان ، فافتحها غلمان المدارس

وتراجمة السياح ، واحتلوا القسم الأعظم منها ، وناهيك بخبرتهم وتجربتهم وأخلاقهم دليلاً على مجرى الإدارة والعقل الذي يرافق الأعمال . ومثل هذا يقال في بعض من تعلموا الفرنسية واستخدمتهم حكومة الانتداب في لبنان وسورية .

يحاول النصارى في هذه الديار أن يكونوا ، كما كان المسلمون فيها على العهد التركي ، لا ارتباط لهم إلا بالدولة القائمة ، وكان من الثقة التي وضعتها فيهم حكومتنا الانتداب أن اغتنوا بعض الشيء فتوفروا على تعليم أولادهم ، وبنوا القصور ، وعمروا المزارع هذا ما كان من حالهم ومعايشهم ، أما إذا وقع حدث عظيم فانهم ينحازون ابداً إلى الفريق الذي فيه أهل دينهم ، وإذا جاء دور المفاتم تقدموا فأخذوا حصصهم ، وقد يطلبون زيادة على حقهم ، يدعى المسلمون إلى الكريهة وهم يدعون إلى السعادة ، وانهم لمهرة فيما ينفعهم واتقاء ما يضرهم ، ولا شك أنهم سبقوا المسلمين إلى التعلم والتمدن ومنهم كثير من أهل الفضل والعقل الراجح ، وقل مع هذا أن رأينا من قام بناصر المسلمين في مطالبهم الوطنية اللهم الا أفراداً يمدون على الأصابع ويتحركون في دائرة مميّنة لا يفامرون البتة ، فإذا زال الخطر تقدموا أول المتقدمين يطالبون بحقوقهم المفصولة ، ولم نر في الثورتين الفلسطينية والسورية منهم سوى أفراد قلائل جداً اشتركوا فيها بالفعل ، وتولى المسلمون كُبرى الثورتين وقتلوا بالمئات والألوف .

في اليوم الذي انهزمت فيه فرنسا أمام ألمانيا في النصف الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ نسيت الطوائف البابوية وفي مقدمتهم الموارنة أنفصال فرنسا عليها منذ اجيال وراح بعض رجال الدين منهم يفاوضون ايطاليا لتكون القيمة عليهم ، فدهش الفرنسيون لهذا التبدل الفجائي يأتيه من سحوم وعدّوهم حزبهم الصادق في الديار الشامية . أرادوا أن يبدلوا السيد الكاثوليكي بسيد كاثوليكي آخر . عجب الفرنسيون لهذا وزاد عجبهم ان رأوا المسلمين على اختلاف طوائفهم يشاطرونهم مصابهم ويخففون من

آلاهم وشهدوا أناساً كانوا بالظاهر من المنحرفين عنهم ، وربما كانوا من المضطهدين منهم ، يحيئونهم يوم محتهم ويواسونهم ويأسفون لما حل بأمتهم . وقد ادرك بعض المنتدين أنهم كانوا مخطئين في حكمهم على المسلمين وأنهم باعتمادهم في الأخبار على التراجم أضلوا الصواب وكانوا على غير هدى منذ ملأوا الوظائف بغير الكفاة من غير المسلمين ولا سيما في المعارف والجمارك والبريد والامن العام حتى لقد حاول بعض الاغمار منهم أن يستأثروا بالوظائف في دواوين كثيرة ايجملوها كدواوين المالية في مصر وفقاً على الاقباط .

رأيت علائق النصارى مع اخوانهم المسلمين منذ نحو خمسين سنة اقرب إلى الاءاء والصفاء من اليوم ، فان توم بمضهم أنه صار لهم عزة وقوة حرك فيهم نزغات غريبة ما كانت تظهر من قبل ، كتب غوستاف لبون الفيلسوف إلى احد رجال الاسلام يمتدبر بأن الترية التي يلقنها الكاثوليك خاصة لا يتأنى منها الا ان تخرج أناسا بكرهون المسلمين . وإذا كان بعض أهل الذمة يذكرون شيئاً من العبث بحقوقهم على العهد العثماني ، فليس هذا من قانون الاسلام ولا من صنع المسلمين أبناء هذه الديار ، بل هو ممن كانوا يحكمون ولا راداً لحكمهم أهل السياسة يومئذ ، فهم الذين كانوا يسوقون الرعاع لائمات بعض الطوائف أحياناً ، ويزينون لبعض اذئابهم أن يعملوا على التفرقة بين أبناء الامة الواحد . وعهدي بالنصارى والمسلمين في القرى يتحابون ويتساندون كأنهم أبناء بيت واحد ، أكثر من هذا العهد الذي قد ينظر المواطن فيه إلى مواطنه شزراً ، ويحتقره في باطنه على ما يضر بمصلحة الطائفتين .

لما اعوز القوات في لبنان أيام الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٩) منح جمال باشا قائد الجيش الرابع مقادير وافرة من الخنطة حملت إلى الجبل من الارحاء المجاورة ، فما كان من بعض المطارنة والاعيان هناك الا أن اتفقوا على اخذ نصف القمح وانجروا به لحسابهم ، وخطط النصف الآخر

بالتراب ، فأكل الفقراء منه وهلكوا . وكان ذلك بمراى من بطريك الموارنة يومئذ . وأشاعوا أن القائد كعمد اجاعة الجبل ليهلك أهله لأن أكثرهم نصارى ، ولو نفذ البطريك كعالم دينه لما انتظر اعانة من أحد ولباع بعض أملاك الكرسي البطريكي وصرفها في اطعام أبناء الطائفة ، وأملاكه تسفرق ربع لبنات ، وبذلك كان يتيسر له أن ينجد قومه زمن العسرة ، ولو كانت الرحمة وجدت طريقاً إلى قلبه لحذا على الاقل حذو الجامعة الاميركية في بيروت فان رئيسها السيد دودج لما نفذ ما عنده من المال زمن الحرب ، ولمذر عليه جلب شيء من اميركا لاطعام الفقراء ، رهن أملاك الجامعة واستلف مالاً اطعم به البائسين والمعوزين حتى عقدت الهدنة ، وكان الرئيس الاميركي فهم من النصرانية ما لم يفهمه منها البطريك العربي .

وكان بعض الملتزمين للجهش من أهل لبنان يجوزون مزج الدقيق بالمال والرماد فانكشف أمرهم ، وحكت عليهم الدواوين العرفية باحكام مختلفة ، وعملهم هذا لا يرضى به الاسلام ولا تقول به النصرانية . وبعض النصارى هنا على الاغلب تجار وللتجارة خلقوا فاذا صار لهم شيء من الامر عملوا فيه باخلاق التجار لا يستهدفون غير الربح ويعرفون كيف تصل ايديهم اليه . كانت الطوائف الاسلامية كالشيعة والنصيرية والاسماعيلية والدروز اخوان الكثرة الكاثرة من أهل السنة في الشام ، وكانوا يرضون بكل ما يعطونه من حقوق ، فلما جاء الغريب انتفضوا كما انتفض المصفور بلله القطر ، وقاموا يطالبون بحقوقهم المزعوم وبذكرون حوادث افرايدة وقعت في الدهر الغابر ، ويقع مثلها بين أبناء الارب الواحد ، ولا يفتأون يرددون نعمة الاحقاد القديمة ، وود اصفرم عدداً لو أسس دولة برأسها ، وأن يجعل كياناً خاصاً لبضعة الرف . وأعظم ما يبعث بعقولهم الجبل وقلة الحساب للمستقبل ، ويعرف العقلاء منهم حق المعرفة أن نار الاكثرية أحسن في العقبى من جنة غيرهم .

من غريب أمر الطوائف في المنشأ ان الكاثوليكي يفض الارثوذكسي أكثرهما

يبغض المسلم ، ويمتد كفره وهلاكه ، فاذا كان للباباوي مصلحة ينحاز إلى الارثوذكسي ويترك المسلم . ورأيت المسيحيين لا يتبايعون على الاغلب إلا مع أبناء دينهم ، ولا يستخدمون إلا أبناء طوائفهم ، وهذه الخلة المضرة راسخة في الأثرمن أكثر من غيرهم ، ولو عاملهم المسلمون هذه المعاملة المضحكة ، وقاطعوه مدة لاثوا جوعاً ، واضطروا بعد حين إلى الهجرة ، ولكن سماحة الاسلام أكثر مما يصور لهم بعض قسيسهم الذين سمعت أن من مواعظهم لابناء طوائفهم أن المسلم إذا كان مسكاً يجب على المسيحي ألا يضعه في عُبه . وأرجو أن يكون هذا الكلام غير صحيح .

وعهدي بالمسلم في مدينة دمشق يوصي مسيحياً بأولاده بدمه ، وكذلك المسيحي مع مواطنه المسلم . وأعرف جماعة من النصارى وجل أصدقائهم من المسلمين ، وهم كأبناء أسرة واحدة ، وأعرف مسلمين لا يألفون إلا المسيحيين ولا يتعاملون إلا معهم . وما ينتقد على المسلمين وعلى المسيحيين فهو أثر عصور الظلمات ، خلقته الحكومات وغمته وغذته ، ثم جاءت مدارس المبشرين فأذكت نار التباغض . وكان الروم الارثوذكس يميلون إلى سياسة اسلامية ، وقال لي أحد مندوبي فرنسا في دمشق : إن الروم الارثوذكس لا يسرون إلا معكم فهم منكم فقلت له : لنا الشرف بذلك .

وأختم هذا الفصل بقصة مضحكة وقعت لي مع رجل من المنتسبين للأدب ومن أعضاء المجمع العلمي العربي . ذلك أنني قضيت مدة في أوروبا بعض السنين ، ولما عدت رأيته قد قرّظ كتاب مختصر تاريخ سورية الألب لامنس اليسوعي ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، وبالنسبة في الثناء عليه ، وأنا أعرف من هو لامنس وما يكتب ، وما رأيته في الاسلام والعرب . فطلبت الكتاب فرأيته لم أشق أوراق صفحاته ، فقلت للعقراط الزميل هل تعرف الفرنسية ؟ قال : لا . قلت : كيف تقرّظ كتاباً كتب بالفرنسية في مجلة جليلة الشأن كمجلة المجمع العلمي ، على حين لم تقرأ الكتاب ، ولا تحسن هذه اللغة ، ولا ترجم لك مترجم ما يحويه . فكان جوابه : أليس الألب

لامنس مشهوراً بتأليفه وعلمه ، فكتابه من الطراز الذي يصدر منه ؟ .
وقرأت كتاب لامنس فكانت كمروني هزات ألم عند تلاوته ، لما أرى
من غمظه حق العرب والمسلمين ، والعبث بالتاريخ والحقائق ، ولما أتممته
كتبت فيه نقداً لأنشره في مجلة المجمع ، وأجبت قبل أن أدفعه للطبع أن
أقرأه على بعض زملائي ، فلم يستحسنه العضوان المسيحيان ، وقالوا إنه ينم
عن تمصّب ، أما السيد لامنس فله أن يقول فينا ما شاء ، ولا ينسب إلى
التعصّب ، ومن السباحة أن نسكت عما يهيننا به من أقواله ، وارتأى هذان
الزميلان أن أطوي النقد ولا أنشره فأبيت . وخرجت من المجمع فاتبعني
أحدهما برجل من أصحابي المستخدمين كانوا في دار الكتب . يمرض عليّ
ألاّ أنشر النقد على كتاب لامنس . فقلت له : لا بد من نشره مهما كلف
الحال ، فقال : إن المفوض السامي هو الذي أمر بتأليف هذه المحاضرات
التي جعلها لامنس بعد ذلك كتاباً . فقلت له : إن المفوض السامي أمر أن
يحاضر لامنس بتاريخ سورية ، ولم يأمره أن يطمعن بالعرب والمسلمين ،
ولا أن يحرف تاريخنا ويسقط رجالنا . ثم التفت إليّ وقلت له : هل يستطيع
المفوض السامي أن يقتلني كما كان يفعل جمال باشا مع من يفضّض عليهم من
أعداء الدولة ؟ قال : لا . قلت : غاية ما في الأمر أن يكتب إلى مندوبه
في دمشق يقول له : أوعز إلى « كرد علي » أن يستقيل من رئاسة المجمع العلمي ،
فأستقيل ضاحكاً وأقبع في داري ، ولي فيها ما يشغلني أكثر من عمل
المجمع وألذ وأطرب .

ونشرت نقدي ، وردّ الأّب لامنس عليه ردّاً ضعيفاً ، وأراد أن
يدخل المهارات في مناقشته فما مكنته . وكان من نتائج هذه المناقشة أن
صدر الأمر برفع الكتاب من المدارس ، وكانت النية ادخاله في المدارس
الاسلامية والنصرانية . وهو كتاب إذا قرأه التلميذ المسلم ينشأ على بغض
أبناء دينه ويحتقرهم ويمتن الاسلام وإذا قرأه الطالب المسيحي يكره المسلمين
والاسلام والعرب والعربية .

وبعد فأرجو ألا يحمل كلامي هذا على غير محمله من ارادة الخير لمجموع هذه الامة ، على اختلاف الملل والنحل ، وأن يعرف من لم يعرف أن الاديان جاءت للسلام ، وأطهير النفوس ، وهي متحدة في جوهرها ، فالنصرانية دين الرحمة والمحبة ، والاسلام دين العدل والاحسان . فدرس بعض من تلقوا هذا التراث اشياء ليست من متن الدينين ولا من مصلحهما ، ووضعوا من عند انفسهم هراء ما انزل الله به من سلطان .

اضحكنتني جملة وردت في جريدة نونسية هزلية مرة ، وقد جاء دمشق رجل من ابناء تونس اسمه صالح التونسي درس في جامع الزيتونة ، وكان من التعصب على جانب عظيم ، فمزم ان يظهر علمه بالقاء درس عام في الجامع الاموي ، فأسفر درسه عن قيل وقال ، كاد يؤدي إلى تالطم وتلاكم ، فكتبت تلك الجريدة فصلاً ، عننت له ما معناه (فساد التعليم في جامع الزيتونة احدث فتنة في دمشق) ونحن نقول من الواجب اصلاح التعليم عند النصاري والمسلمين ليخرج المتعلمون المواطنين اتراباً متحايين ولا يؤدي فساد التعليم إلى ما لا تحمد عقباه . قرأت في تقايبدي أن سائحا ألمانيا عاشر أهل العراق نحو عشرين سنة ، واطلع خلالها على علومهم وأحوالهم ، فألف كتاباً قال فيه إن الأمم الشرقية آخذة بالانقراض لرداءة التعليم بين أظهرها وخمود أفكار بنينا .



مع العامة

ربما خفي على كثيرين عذري في الاعراض عمن لا يستحقون صداقتي ولا عداوتي . الناس درجات في الصداقة ودرجات في المداوة . فمنهم معارف قضت حالة من الحالات أن تعرفهم فليس لك مع هؤلاء أن تزعم أو يزعمون لك أن بينكما صداقة . ومنهم من عرفتهم فراكك متمهم ، فصحبهم صعبة وقية لم تدخل في الصميم . ومنهم من كانوا لك بمثابة الأخ والوالد والولد . وهكذا يقال في العداوات ، فمنها عداوة من كمرض عنه لا يحب أن تصاحبه ، ومنهم من قد تضطرك الحال اليه ، وكلاهما يكن لصاحبه عداوة ، فأنتما لا تتحابان ولا تتعاديان علناً ، ومنهم من تجاهره ويجاهرك المداوة لاتبالي به ، لأن أقل ما يبثه لك مما يسوءك ، وأدنى ما يضمره ثلك وسلبك .

كنت مرة في الشمال وعزمت أن أذهب إلى احد الاقضية لافتش مدارسها ، فعرض عليّ العامل الاكبر هناك أن يصحبني فقبلت . وأخذ في خلال الطريق يسألني عن رئيس الوزارة وعمله ، وعن علاقته بالسلطة وعن الوزارة وطول عمرها وقصره . أسئلة ما أظن وزيراً يسألها عن وزارته ، وكنت كلما وضع سؤالاً من أسئلته أبسم ولا أجيب . وبعد أن أنتم كلامه قلت له : بهمني أمر المدارس والكتائب قبل كل شيء ، ولا أصرف علاقة الرئيس بالمتدينين ، ولا ما يكون منه إلا في الرسميات ، والرسميات معروفة لكل أحد ، ثم حددت النظر فيه وكتبته بنعومة في البيان ، وخشونة في المغزى قائلاً : ظمعي من عينوني وزيراً ، لأن لي خلقاً من الصعب أن يلتئم مع حكومة من الحكومات ، أما أنت فقد خلقت لتكون مع كل حكومة ، لأنك تأخذ أخباراً ونأني بأخبار ، ومثلك يتفق على من عينوه أياً كانوا .

م (١٤)

هذا الرجل من الأذكياء ، ويعرف الإدارة بالنظر والعمل ولا يفسر كلامه إلا بأنه يريد أن يستدرج وزيراً أكبر منه مقاماً وتجربة ليتسقط من لسانه الأخبار ، بأسلوب يوم أن الوزير تجوز عليه طريقته في استدراج بعض المستخدمين في ديوانه ، إذا حاول كشف مخبأتهم . ولقد كانت برقيات هذا العامل تترى في تهنيتي في الأعياد والمواسم ، فلما تركت الوزارة انقطعت تهنئاته وبرقيات ، لأنه كان يهني الكرسي ، ويريد دوام صداقة الكرسي ، وعلاقته بالكرسي لا بصاحب الكرسي . ومعظم من يدهنون لأرباب الدولة هم على هذه الشاكلة ، أصحاب لهم مداموا في الكراسي ، فإذا تخلوا عنها فكأنهم لم يتعارفوا ساعة اليهم .

وتنكر ودّ المرء في لحظ عينه وتعرف عقل المرء حين تكاتبه مضت أعوام وكنت في مأدبة حافلة فتقدم ذاك العامل يحيني ويمد يده ليصافحني ، فأعرضت عنه مظهراً أنني لا أعرفه ، وأحب أن يكلمني فتصامت ، وتركتم محلي ، فعدا ورائي ، وأنا لا أزيد إلا تجبهاً ، فلاحظ أحد أصحابي ذلك ، وسألني لماذا أحاول الابتعاد عن هذا الرجل على هذه الصورة ، فقلت له : إنه ممن لا يحبون إلا الكرسي ، ولا يحترمون إلا الكرسي ، وذكرت له ما وقع منه ممي فقال : لك الحق ، وغريب منه أن يحاول استخبارك واستدراجك .

قالوا خص بالبلاء من عرفته الناس ، بل خص بالبلاء من عرف الناس . وكيف لا تهزأ برجل لا يسأل عنك إلا إذا كان له مقم يحاول أن يمينه على أخذه ، أو فائدة خسيصة يتوقع استحصالها ، وهو يدعي صحبتك ، وتمضي السنون ، ولا يراك ولا يسأل عنك ، إلا إذا واجهك بالعرض في الطريق ، أو في أحد المجالس ، ولا يزورك إلا في وقت يختاره ولا يناسبك وقد يستغرب أنه لم يجده ، وأنت ليس بينك وبينه موعد ، كأن مقامك يقضي عليك أن تكون تحت الطلب ابداً لترضيه وترضي غيره . وعندني أن من كانت هذه حاله هو أحد رجلين : إذا كان متعلماً مهذباً يامل غير

معاملة الجاهل الذي لم يتهذب ، وهذا يضحك من عقله ويقال له ما قاله الشاعر :
إذا ما تميمي أتاك مفاخرًا فقل عدّ عن ذا كيف أكلك للضب
جاءني مرة رجل من جيراني لم أره حياتي ، كان أهلي وأهله أصدقاء .
فقلت له معانبا : إني أسكن في جوارك منذ سبع سنين ، والآن تسأل
عني مع معرفتك بصداقة أهلنا ، ثم علمت أن زيارته كانت تجارية ، يجب
أن يستجديني لأكلم له مدير الشرطة ، ليميد الحارس الذي كان يقف
أمام داره . فتأفقت وقلت له : لن أكلم مدير الشرطة ، وأنا ليس لي
مال أخاف عليه اللصوص ، ومن كان غنيا فليسع هو ليحرسه الحراس ،
وكان من الأغنياء الذين لم ير أحد ما في داخل دورهم .

هذا خلق يلومني عليه أيضاً بعضهم ، ذلك أنهم اعتادوا أن يدهن
بعضهم لبعض إذا تراءت الوجوه ، وأن يلعن بعضهم بعضاً في الغيبة ، وأنا
أمتت هذا الخلق الوضيع وإن علمت أن العالم يكرهون من يحيد عن
مصطلحهم مهما بلغ من سخف ، ويسخرون في سرهم ممن سار على قواعد
مفقولة وضعها لنفسه فاراحتها .

كما يؤلاني أن يتسلق العامة إلى مقامات الخاصة ، وإن يحاول الجاهل
أن يكونوا سادة العلماء ، وهذا ناشئ عن تحاذل الخواص ، ألقوا الحبل
على الغارب ، وما أهتمهم غير أغراضهم الموقته ، فترك المجال للهج الرعاع .
وربما كانت لهؤلاء رابطة تربطهم أكثر من الفريق الآخر الذي منه يؤمل
الخير العام . يقول أبو حيان التوحيدي في طلب الخاصة رضا العامة :
إن التصدي للعامة خلاقة ، وطلب الرفعة بينهم ضمة والتشبه بهم ققيصة ،
وما لمرئض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه
أكثر مما يأخذ منهم من اجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم .

يهمس كثيرون أنني ضنين بجاهي ، لا أشفع لكل من يقصدي ، ولو
بالكذب عليه . حقيقة أنا لا أشفع لكل أحد ، ولا أحب التوسط لمن
لا أعرفه ، فالشفيع مسؤول عن شفاعته ، فكيف أشفع لمن لا أعرف ،

وشفاعتك شهادة فيه . وإطالما توسطت لبعض أهل هذه الطبقة التي يفسك أصحابها لتشهد لهم الزور ، ثم ندمت على ما أقدمت عليه ، وقد ثبت لي بمد أن ليس لهم حق في شكواهم ، وأنهم كذبوا علي* ولم يصدقوني حقيقة أمرهم . ثم إن من تعتقد أنهم يحققون ما ترجوه منهم ، قد لا يجيبونك إلى طلبك ، إما لأن المسألة عقيمة متمذرة ، أو لأنهم يأبون النزول على ما يطلبه منهم ، ولذلك علمني الدهر ألا أوصي بمن يحاول أخذ وصاتي ، واكتفي بأن أقدم طالب الوصاة للموصى عليه فقط ، وهو وشأنه ، ولو كانت القوانين نافذة على الكبير والصغير لما احتاج هذا الصغير أن يتوسط أحداً في الحصول على حقه . والظاهر أن خمسة في المئة ممن يطلبون الشفاعة هم محقون فقط . وهذه المسائل تروج على الأكثر في الحكومات التي تعمل شاكين ، وبين أمة جاهلة لا تعرف مالها وما عليها .

وصعب أن يجب الخلق من يبدو لهم بهذا الخلق ، فالرعونة تغلب على صاحب الحاجة لايهمه غير قضائها ، وكثير من هذا الضرب من البشر يقرعون بابك بعد أن يكونوا قرعوا أبواباً كثيرة وما ينجحوا . وصاحب الشرف يرى من الفضاضة أن تهمل وصاته ، أو يتخذها من 'نكتب له حجة يخرجها ذات يوم يتبجح بها .

دعاني أحد أصدقائي في القاهرة إلى النزول في داره ، وأقيمت لي مأدب كانت الصحف تذكرها وتذكر أسماء من يحضرها ، فكثر المراجعون لي ، لما عرفوا أن لي علاقات مع رجال الحكومة المصرية ، ومنهم أصدقائي فكان بعضهم يقصدني على غير معرفة سابقة ، ومنهم من يحاول حل مشكلته القديمة مع زوجته ، لأن ولها صديقي ، ومنهم من يطمع أن يتقدم في درجته ، وثالثة تود أن ترتقي وظيفتها وراتبها في التعليم ، ورابع يود أن يدخل ابنه مجاناً في المدرسة ، ويعني من أجورها لفقر حاله ، وخامس اختار أن يبيعني مديحه ، وسادس أن ابتاع اطاراً كتب فيه قصيدة بمدحني بها ، وكلهم ظنوا أنني أصبحت في مصر ، أقدم وأؤخر في دفع ألم المتألمين

وجلب الاحسان إلى البيوت وادخل السرور على القلوب ، واحقاق الحق ، وازهاق الباطل . وضاق صدري من الحالة التي صرت إليها ، فلم أرَ أحسن من أن أكتري لي غرفة في منزل يوناني ، وكثمت اسم منزلي ، وتواريت عن الأنظار حتى آن الرحيل من مصر ، وبقيت معظم السنين أوتاد لي منزلا لا يعرفني فيه إلا الخلد من أصدقائي ، مخافة أن أضيع أوقاتي في الشفاعات ، وأخجل من أحابي في الحكومة ويخجلون مني ، إذا لم يستطيعوا أن يجيبوا طالبي فيما التمسته منهم لارضاء من لا أعرف .

كثيراً ما سمعت من استاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجمع الناس على حبه يمتد نفسه ساقطاً ، ذلك لأن معنى الاجماع أن الممدوح يوافق كل انسان ، لا ينكر منكراً ، ولا يدعو إلى معروف ، وصاحب الإصلاح ، في العادة يمتقه فريق ، ويرضى عنه آخر ، ومن أراد تطبيق ما يعلم ، يتأفف منه السواد الأعظم .

ولقد نصحتني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وفت أوقاتي من الضياع ، وفكري من البلبلة ، وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة « الشام » قال : إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تلق باذنك لما يقال فيك من خير وشر ، وارم بصرك فقط إلى الهدف الذي يمنيك الوصول إليه ، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات الشمال ، وإذا وضع لك واضع حجراً في طريقك فتنح عنه ، وعد إلى سلوك محجتك .

تقبلت هذه النصيحة ، وما عبأت بعدها بسماع أقوال المثبطين ، ولا بمصانعة المداحين ، وعرفت مع الزمن أن أصوات أهل هذه الفئة تضيق في الهواء كالهباء ، وانهم كسالى لا يعملون ، ويشق عليهم أن يروا أحداً يعمل ، وما كنت أرد على من يناقشني ، لئلا أدخل في أخذ ورد ، فإن كان ما قاله مما ينفع أنقله وأنشره وأشكره عليه ، وإن كان من الهراء المعتاد أتحوّل عنه ، ولا أشغل الوقت بما كتب . وأكثر من جروا على هذه الطريقة إنما يكتبون للشعْب ، والكشف عن المساوي ، والظهور على الاقران

وكل صعلوك مغمور يحاول في العادة أن يشتر بالليل بمن هم أفضل منه . وما أفلح من ساروا على هذه الطريقة ، ودخلوا في الاعتراض ، وبمدوا عن الاشتغال بخويسة أنفسهم ، اثثارون الطعانون يقضون أعمارهم في حسرة ولا يأتون ما ينفعون به أنفسهم ولا غيرهم ، ورأيت منهم جماعات ماتوا بغيظهم ، وكان من نجحوا من الفريق الذي يقلل من الاعتراض .

ونصح لي استاذي لما أصدرت مجلة المقتبس في القاهرة ألا ألفت إلى المشاغبين ولا أكثرث بهم ، وإن جلوا ، فإن الحكيم من يسمى إلى تمام القصد وأقل ما يستفيد المشاغبون لإضاعة وقت من أكثرث بهم ، وإن قلَّ فالوقت ثمين . قال أقبل على شأنك واعرف مقتضى زمانك ، ولا يمنعك تنكيت المنكئين المكبتين من تنبيك على غلط فرط منك فيما سلف ، وكلما عثرت على شيء من ذلك في عدد فنبه عليه فيما يلي فإن ذلك أقرب إلى الاعتماد على ما تكتب . وأكثر العلماء الذين انتفع الناس بكتبهم كانوا على هذه الطريقة ولم ينكها الا الحشويون ومن نحنا نحوم . وقال : أعرض عمن يبحث عن تفضيل بلدة على بلدة ونحو ذلك فإن مثل هذا من مباحث الحشوية . قال وقد سألتني منذ أيام أحد السياح عن حد المصري والسوري فقلت له : المصري من ينفع مصر والسوري من ينفع سورية ، وكل من نفع بلدة فهو منها طبعاً ، فالمصري الذي ينفع سورية مصري سوري والسوري الذي ينفع مصر سوري مصري ومن لا نفع لديه لكليهما فهو ليس بمصري ولا سوري . وقد انتهت أمريكا لهذه الحكمة الكبرى فجعلت كل من ينفع أميركا نفعاً ما أميركياً فنجحت .

قيم الأشياء

قال لي احد اصدقائي من أسانذة كلية الآداب بمصر : ألا تنكسر قلوبنا إذا رأيناك تلقي في الجمعية الجغرافية الملكية ، تحت إشراف كلية الآداب ، ثماني محاضرات في الادارة الاسلامية ، كان البحث مائلا فيها ، وتكون المكافأة عليها خمسين جنهاً ، في حين اني السير ديزين رُس ، مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ثلاث محاضرات على منبر تلك الجمعية نفسها ، لم تنم عن شيء من العناية ، اللهم إلا ما كان هناك من قصص أضحكت السامعين ، فلما انجز محاضراته دفعت اليه الحكومة مئتي جنيه فامتعض وعبس ، ثم زادوه مئة أخرى فسكت ، وما أظهر رضى ولا شكر . فقلت : لا تأسف يا أخي فان القوم لا يعطون على الغناء ، ولا على قدر الغناء ، وإنما عطاؤهم قائم على الارضاء ، وعندكم من ذلك نماذج كثيرة في الجامعة وغيرها في تفضيل الغربي على العربي . إن بلادكم مأخوذة بكبار اصحاب القبعات ، ولو كنت أفرنجياً لنظرت إليّ حكومتكم غير ذلك النظر . وأظنها مع هذا لا تراني بالعين التي ترى بها العربيّ الغريب ، لسابقتي في خدمة مصر ، ولأن من خدموا هذا القطر باخلاص يضارع اخلاصي قلائل ، ومن خدمها كان موظفاً يمشي بخيرها ، ومن مصلحته أن يعمل لها . ولما منح وزير المعارف هذه المكافأة القليلة قال لمعيد كلية الآداب : إن هذا لاجل (فلان) فقط ، وإياك أن تأتيني بأحد من فلسطين أو غيرها .

لما صدرت ارادة الملك فؤاد الاول عليه رحمة الله بتأليف مجمع اللغة العربية الملكي ، وكان اعضاؤه عشرة من المصريين وخمسة من الاقطار العربية وخمسة من المستشرقين من أهل الغرب رأى وكيل وزارة المعارف يومئذ أن تكون نفقات إقامة الغريب من العرب في مصر أقل مما يخصص لنفقة اقامة

المضو الغربي . ورأيت هذا القرار ماساً بالكرامة ، فمزمت أن استقيل من عضوية المجمع الجديد ، لهذه التفرقة التي لا موجب لها بين العربي والغربي ، لو لا أن الملك لم ير وجهاً لهذا التمييز بين الاعضاء الاجانب على اختلاف أصقاعهم واجناسهم .

واقسم أن مشروع المجمع الذي عرضه زميلي الاستاذ فيشر على مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة ، وتأليفه ونشره يكلف الحكومة المصرية الوفاً من الجنيئات ، لو أتى بمثله مؤلف من أبناء العرب لانهايات الصحف لضربه وتدميه ، وتسخر منه وتقع فيه ، ولكن صاحبي افرنجي ، والافرنج عامة لا يقولون عبثاً ، ولا يضعون من التأليف إلا ما يفيد ، ولا يرسلون مثلنا القول جزافاً . وهذا مما يثبت قاعدة ان الاشياء تمظم بمظم مصدرها .

حقيقة أن من نشأوا من أمة صغيرة لا ينظر إلى أعمالهم بها عظمت بالعين التي ينظر بها إلى من جاؤوا من أمة عظيمة . ومن كان على حال كسالي مثلاً لا أمة تمضده ، ولا جامعة يرتبط بها ، ولا مجمع يأخذ بيده ، كثير عليه لعمر الحق ما تم على يده ، ومستغرب منه ما انتجه . ورب مشروع أردت أن أبدأ به موقناً فيه الخير للعلم والآداب ، ولهذه الامة العربية التي تنقصها أشياء ، فأخبرني عن المغامرة فيه قلة الظهير والنصير . واني لا استحي من هذا التصريح ، وارجو ألا تؤثر هذه المشبطات في نفوس الناشئين على عهدي ومن بعدي .

لا أكنتم أني اغتبطت بما صار إليّ ، وقلت وما زلت أقول إني نلت من المظاهر فوق ما كنت أرجو ويرجو من كان في مثل حالي ، وأن عشرات من القداماء والمحدثين لم يحصلوا على بعض ما حصلت عليه ، وانا ما كنت أعد طول حياتي من الموسرين ، ولكنني ما كنت أعد من المعسرين . وكنت أرى من التوفيق العظيم ، إذا طبعت الكتاب وردت عليّ نقاقه فقط بعد سنين ، أو نشرت مجلة أو جريدة وما خسرت شيئاً يذكر على نشرها . ذلك

لائي أقدر الحال والموقع ، وأعرف ان من يقرأ الكتب والصحف في أمي لا يتجاوز بضعة الالوف ، في حين يعد من يقرأون الكتب في الانتم الكبرى لهدنا يمدون بمئات الالوف . وما توقعت ربحاً مما كتبت ونشرت قط ، وربما كان لمن قدر له أن يكتب مقدار ما كتبت ان يجني فوائد مادية كثيرة ، وانا ما خلقت تاجراً ، وللتاجر منازع غير منازعي . ومن طبعي إذا أقبلت الدنيا ان لا أسر بها ، وإذا نخطتني لا أستاذ . وكيف أسر وأكتب وانا عارف طاقة أمي ، ومبلغ معرفتها ودرجة نهضتها .

لو كان في امكاني ، وأنا أرى الفقراء لا يقدرون على اقتناء الكتب ، على حين هم الذين يقرؤون ويستفيدون ، لطبعت من أسفاري وأسفار غيري الوفاً ووزعتها عليهم مجاناً . ومن عظيم الأسف أن المقتدرين على ابتياع الكتب إذا اهديت اليهم اخذوها ، ومنهم من لا يشكر على هديتك ، على ما تقضي بذلك قواعد اللياقة واللباقة ، أما أنهم يطالعونها ويستفيدون منها فهذا علمه عند ربي . ورأيت منهم من يبيع هذه الهدايا ويلتفع بثمنها مع استغنائها عنه ، وذلك قبل ان يقص ورقها ، او ينظر في صفحة منها ، ويؤسفني ان تماور الأيدي بعض النسخ من الكتب ، وقد يتناولها المقتدرون على اقتنائها ، لكنهم مثل اكثر الجمهور في هذا الشرق الفقير ، يمدون الكتب من الكاليات ، خلافاً للافرنج فانهم يمدونها من الحاجيات ، فترى الواحد منهم يقيد في مفكرته الشهيرة ثمن الكتب والصحف كما يقيد نفقة الخبز واللحم والمشروب والملبوس ، واجور حضور التمثيل والسينما والزهرة .

فأمة كأمتنا هذا مقدار سخائها على العلم ماذا يرجو منها المشتغلون بالتأليف ؟ ومتى ياترى يقدر لا بنائها وبناتها أن يولعوا بالمطالعة ، ويمدوها حاجة من حاجات النفس ، لا غنية عنها لغذاء الروح . امم الغرب بما بلغته من درجات الرقي هي التي يعيش منها ، بما تبدل في سبيل العلم ، الوف من المؤلفين لا صلة لهم بجامعة ولا بحكومة ولا بمجمع ، ولا يطلب منهم

إلا أن يجودوا عملهم فقط ، وينتجوا انتاجاً مطرداً ، فتنهال عليهم الأرباح ، وقد يثري الممتازون منهم الذين كتبت لهم شهرة كما يثري ملوك الفولاذ والحديد والنفط في اميركا .

نعم لمظم قيم الأشياء إذا صدرت من اناس كان لأمتهم قيمة في الوجود وقد كان الملوك والأمرء والأعياء عند العرب في الدهر الغابر يتولون الاخذ بأيدي المؤلفين ، واليوم تظاهروهم في الغرب الجامعات والجمعيات والجماعات . وترى عندنا اعمال الافراد ضعيفة على نسبة اوضاع ديارهم والمؤلفون بمعدل لا يؤبه لهم ، وأكثر من يصنفون الكتب منا هم من طبقة الموظفين في الدولة ، ومعظم ما يؤلفونه كتب للمدارس طمعاً بربحها المضمون ، او قصص للعامة لا تملو عن مستوى عقولهم ، يقبلون على مطالعتها فلا تفيدهم كبير امر ، ويستفيد منها المؤلف والطابع اكثر مما تفيد المتصفح والمطالع . والقراء من وراء ذلك لا يتناولون إلا ما يمرض عليهم بالحاح ، ولا يدرون غالباً بالجيد الذي يكتب وينشر .



هزل مصر والسّام

تشهد في مصر ما تشهده في الممالك الكبرى من مظاهر الحياة . ففيها الجدل على أتم حالانه ، وفيها الهزل على غاية من الاتقان ، ويُطربني جدّها وهزلها ، وأنا في مصر مصري وما أنا بمصري ، فلئن تخطيني جنسيتها ، فما حرمتي الفطرة . شاركت أهلها في عواطفهم وشعورهم ، وكثير من أطوارهم . كانت إقامتي في مصر منقطعة ، فلم أرَ أن اعرض لسياستها إلا بقدر معلوم ، وما عُنيت العناية اللازمة بالوقوف على تراجم أهلها ، وتوخيت أن أعرف بجملات عنهم ، وذلك لتشعب أطراف موضوع لا يبرز فيه إلا من تمحض له وانقطع إليه . واحتاج على الأكثر أن أعرف من رجال مصر تراجم العلماء والأدباء ، أما تراجم السياسيين وغيرهم فشرح يطول .

من الطبيعي أن يتألف المتشاكلون في الفكر والثقافة . وفي القاهرة من ذلك ضروب وألوان ، ولا يصعب كثيراً على النازل عليهم أن يصل إلى الطبقات المنوعة ، إذا كان أدلاًؤه مهرة ، مادام المصريون معروفين بهذا الظرف وهذا اللطف . وبعض سكان عاصمتها كأهل المواسم في الغالب لصدم متاعب العيش فيها عن الافتكار فيما تفكر فيه الناس في العادة ، من مثل الوفاء ولعهد الصاحب ، فيصدق عليهم أنهم من الطبقة التي لا يسرها من حضر ، ولا يسؤها من غاب ، أو أن هذا من خلق عدم المبالاة المتأصل في بعض أفرادهم .

مصر من البلاد التي يعيش فيها الغريب خمسين سنة ، ولا يفتأ كل حين يقع فيها على شيء جديد ، ويظفر بموضوع طريف ، ما كان له به عهد بالأمس . غرت صديقي وحيد بك الأيوبي وهو وأنا في ميعة الشباب وكان من أبناء الأعيان المفكرين المثقفين ، وتفارقنا زمناً ثم التقينا قبل اثنتي

عشرة سنة ، وإذا به رئيس جمعية جهرية سماها اسماً غريباً (البُـمـكـوكـة) وبمكوكة الناس مجتمعهم على ما في القاموس . كانت هذه البمكوكة تلتئم كل ليلة في قهوة متواضعة من منعطفات شارع ابراهيم باشا ، ثم انتقلت إلى قهوة السلام في نفس الشارع . ويبدأ اجتماع أعضائها من بعد العشاء وينصرفون في ساعة متأخرة . وتتألف من محامين واطباء ونواب وموظفين ورؤساء دواوين ومؤلفين وصحافيين وأعيان أصحاب أطيان موسرين وغيرهم ، ولا يقل المواظبين منهم عن ثلاثين رجلاً ، ما فبهم إلا الممتاز بأدبه وفضله . فاذا اجتمعوا تجردوا عن مظاهرهم ، وكانت اجتماعاتهم للمرّح والتناذر وسماع الأخبار . ويجهرون بأن بمكوكتهم فوق الأحزاب وفوق السياسة ، ولا غاية لهم إلا الضحك والاضحاك . والرئيس وحيد بك الأيوبي ، ونائب الرئيس ادوارد بك القصيري من أكبر المحامين في مصر .

هؤلاء الجماعة من رجال الأعمال ، فاذا انتدوا كل ليلة - وقد يزورهم في بمكوكتهم اخوات لهم من حين إلى آخر - فليترويج عن نفوسهم ، ولليخوض في لهو الحديث . ولك أن تصف جماعة البمكوكة بأنهم مجددون في أوقات الجد ، وهازلون في أوقات الهزل ، وبما أحيلا اجتماعاتهم ، وأوقع في الأذن أصوات محاضراتهم ، وشرّف في الرئيس بضمي إلى حملتهم ، وأمرني أن انشيء بمكوكات أو بما كيك في بلاد الشرق ، فصعدت بأمره ، وأنشأت في داري بمكوكة يختلف إليها أخلص الأصدقاء . ولكن إذا شابه خلاني بما ككة دمشق اخواني بما ككة القاهرة في دراساتهم وثقافتهم ، فلن يشاركوهم بخفة ارواحهم وتنكيتهم . بلاد الشام سهلية جميلة مستدلة ينلب الانتفاض على أهلها ، وبلاد مصر سهلية حارة يغلب المرّح والطرب على أهلها .

ولله ما يجري في هذه البمكوكة المصرية ، فان كل أعضائها ، والرئيس علي رأسهم ، يصطنعون المرّح ويلتمسون الضحك ، وتاهيك بجمعية فيها مثل الدكتور محبوب بك ثابت المشهور بعلمه وحفة روحه وحضور نكته

وأذكر أنني عدت من الشام في بعض السنين ، وكنت مثلهفا شوقا الى اخواني البعكوكيين ، فقصدت الى البعكوكية لأستطلع طلع أحوالهم ، فرأيت بعضهم مكتئبا ، والرئيس مقطبا ، فسألت عن السب فقيل لي إن الرئيس مصاب بضعف بعض الاعصاب ، والاعضاء في حزن من جراء ذلك ، وكل منهم يكدر قريحته ، ويستوحى علمه ، لايجاد علاج يمد إلى الاستاذ نشاطه وصحته ، ويتنافسون في هذا الشأن ، ولا تنافس وزراء السلطان ابراهيم العثماني في ايجاد مقو لضعفه ، مع الفارق بين أعضاء البعكوكية وأعضاء وزارة الفاجر ابراهيم . وفي الحقيقة أن أعضاء البعكوكية كانوا يجدون في شفاء رئيسهم مخافة أن يصاب المرؤوسون بمتل ما أصيب به رئيسهم . ولا تسئل عما ذكر خلال تلك الايام من نكات وحكايات وأشعار وآثار ، وأكثرها مما يضحك الثكلى ويسلي الحزين ، التزم فيها جانب التورية والتعريض ورعاية آداب الاجتماع .

رجعت إلى الشام وكتبت كتابين مطولين في فترة قصيرة الى الرئيس أذكر له بعض مافتح الله علي من أدوية لدائه ، فلما قرأها الرئيس على الاعضاء تجددت لهم عناية بمداوانه ، وبقي القوم يهتمون لذلك أشهرا ، لتأخو ليلة من الاماع إلى سير مرض الرئيس وإلى مظهر من الادوية ، وإلى مادفقا لمعرفة من طلاس وأدعية الى غير ذلك مما ينجع في شفاؤه والرئيس يشكو ، وهم يخففون عنه آلامه ويسلونه ، ولما عدت في الشتاء التالي إلى القاهرة سألت الرئيس عن حاله ، فضحك وقال : وأنت أيضا صدقت مازعمته لكم ، اني ادعيت هذه الدعوى لأضحككم ، وقد حصل المقصود من هذه الفرية حولا كاملا ، وأنا بحمد الله ليس لي ما أشكو منه مما ذكرته لكم . فمجت وأكبرت صفات الرئيس وجهه لمرؤوسيه ، كما كنت أعجب بكرمه على كل بائس مملق . وقلت له إن انتسابي إلى بعكوكته أحب إلى نفسي من كل لقب لقيت به ، ومن كل مجمع علمي

شرفني بمضويته ، فمع جماعته السلوى والسرور ، ومع أولئك كد الذهن ، وكرب الجد .

يكتب رئيس البعكوك في الاحايين في جريدة الاهرام قطعاً لطيفة في اللغة والادب والسياسة . وجاء البرق ذات يوم ينقل كلام أحد رجال السياسة ويقول إن الانكليز يرايطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال ، ومن الغد كتب الرئيس بضمة أسطر في الاهرام يكبر هذه العناية بامر مصر ، ويقول ان عندنا الآن إذا احتلال واستقلال ، فماذا نسميها ؟ نسميها (الاحتلال) نأخذ من الأول حرفين ومن الثاني ثلاثة . وسأله مكاتب التيمس في القاهرة ، وماذا تسمي ذلك بالفرنجية فقال على البديهة Occupendence مأخوذة من Occupation الاحتلال و Indépendance الاستقلال . وكثر السائلون الرئيس عن هذا الاسم الجديد ، وعما إذا كان له أصل في اللغة ، وهنأوه على توفيقه للمثور على هذه اللفظة الجيلة وعيناً حاول أن يقنعهم أنها لفظة وضمها وضماً ، وما كان يرضي بعضهم إلا أن يكون وجدها في معجمات اللغة .

ورئيسنا يعطف على كل من يمدد الناس ثقيلاً الظل ، فاذا سمع بمن هذه حاله احتضنه وبره . وقد إصحب أحد الصماليك المدممين إلى مطعم الكونتنتال ينفديه او يمشيهِ . وقد اعترض عليه مرة نائب رئيس البعكوك قائلاً له : إن فلاناً في حاجة إلى (بنطلون) فسرأويله ممزقة ، وانت تنفق عليه في الوجبة الواحدة ما يزيد على الاربعين أو الخمسين قرشاً صحيحاً ، اعطه ثلاثين قرشاً يشتري بها بنطلوناً بعشرين والشرة ينفقها على عياله . فأجابه الرئيس : سبحان الله يا ادوارد بك ، ألا تعلم اني إذا عاوتته على ابتياع بنطلون جديد اكون قد غيرت معامله وابدلت شكله ، واطن الرئيس بقصد باستصحاب الفقراء إلى مطاعم الاغنياء ليقول لهؤلاء بلسان الحال إنه لا قيمة لما تتعاطمون به من الانفاق ، وأن الفقير قد يشاطرهم هناءم ببذل عرض قليل .

وعقل رئيس البعكوكه ، والحق يقال ، ليس من العقول المحدودة ، عقله مبتكر مبتدع ، فقد اصدر في صباه ثلاث جرائد في وقت واحد بأسماء مختلفة ، ومديرين ومحررين منوعين ، جعلها كلها لمقاومة الاحتلال ، وجعل لها كتاباً ومراسلين ومحررين ، وكان يصدرها في اوقات مختلفة . وليس لها كلها ادارة غير جيب الرئيس وقطره ، يكتبها أو أكثرها وينشرها على أنها ثلاث جرائد مختلفة الوضع والطبع ، متحدة المنزع والغاية . ولم تكشف هذه اللعبة إلا بعد مدة ، وله من هذه الالاعاب اشياء تسر ولا تضر ، يضحك منها ويضحك .

في مصر اليوم عدة جماعات ومجتمعات تظفر في بعض حواشيتها بأفراد ممتازين يختلفون إلى المقامي وزهدون في الاجتماع في بيوتهم ، وكذلك الحال في الشام ، وكانت فيها الاندية الخاصة او البعاكيك في كل حي من احياء المدن والقرى الكبيرة . ولي جماعة في « بار اللواء » امام ادارة جريدة الاهرام بالقاهرة ، وهم بقايا صالحة من ارباب الثقافة المالية ، والوطنية الحقة الصامته . ومنهم صديقي القديم الابراهيم محمد بك علي المهندس . وقد وقع لي وانا اسير معه في بعض الشوارع ، وهو اسود البشرة محمود الصفات — وامه شريفة من اسرة الاسدي في اسبوط — خدم السياسة المصرية بما يخدمها به الرجل الشريف اعواماً طويلة ، وما طلب على خدمته وطنه مكافأة ، ولا طمع في مظهر من المظاهر التي يطمع فيها المتجرون بالوطنيات — وقع لي ان لاقيت على الجادة صديقاً لي آخر اسمه صالح افندي السوداني ، وهو مزاحم محمد بك علي بلون السواد ، وهو من ارباب الاقلام الخلفين في خدمة مصر ، فقلت لهما : خطرت ببالي الآن قصة وقعت لي في بلدي ، وانا في صدر الشباب ، وكان لنا جار ، وهو اخي من الرضاع ، اسمه رشيد الهبل من ابناء البيوتات القديمة ، خلف له اهله ثروة جيدة ، وكان اسود اللون قائمه مثلكما — ولكما المثل الاعلى — وكنت يومئذ اركب الخيل وعند والدي وعنده ما نمنطيه عند الاصيل ونخرج إلى المتزهات

والبساتين ، فقال لي والذي يوماً : إنك يا بني تثبت كل يوم حسن فوقك ، أما رأيت في هذه المدينة الكبيرة اجمل طلعة من جارنا ابن الهبل تصحبه إلى زهنتك ، ودعا لي بالتوفيق والغبطة . والتفت إلى الصديقين وقلت لها من باب مطابقة الحديث للترجمة : اليس قول والذي يصدق عليّ الآن ، ولا شك ان الناس هنا ادق شعوراً ، فيضحكون إذ يرونني بينكما فضحكنا ضحكاً كبيراً . وثالثة إنني لأفضل هذين الاسودين بما فيها من صفات غرة على كثيرين من البيض اصحاب الصحائف السود .

كان الشيخ طاهر الجزائري كثيراً ما يتحدثنا بأخبار الدكتور حسين عودة نزبل صيدا ، يلقيها علينا ممزوجة بهزل وغير خالية من جد . فامتلات الرؤوس بأخبار صاحبه ، وود كل واحد منا لو يطير إلى صيدا ، فيتعرف إلى هذا الطبيب . وما كتب لأحد من جماعتنا ان يقوم بهذا الغرض قبل صاحب هذه المذكرات . فاني قصدت إلى صيدا لآلتي فيها جامع شتات الفضائل ببلدنا حسين عودة ، فأبل غليل شوقي إلى رؤيته .

واريد ان يعرف اولاً من هو الدكتور عودة . ولد الدكتور في دمشق والتحق في صباه بمدرسة القصر العيني في القاهرة لأخذ الطب . فرسب لشدة ذكائه عدة سنين ، وما زال يرسب في صفه ، حتى جاء مصر الأمير عبد القادر الحسني الجزائري يوم فتح قسم من ترعة السويس سنة ١٨٦٣ وقد رجاء أهل حسين عودة ان يكلم الخديوي اسماعيل ليسهل على ابنهم أخذ شهادة الطب ، فصدر الأمر بمنحه شهادته ، فاغتبط واختار السكنى في صيدا ، زاهداً في نزول بلدته الاصلية ، لثلا يكون موضع سخرية عند ارباب الهزل من أهل دمشق ، لان خلقته وقيافته لضحكان حقيقة ، فهو مجذور وفي عينه الواحدة شتر ، وفي رجله هرج . وولاء لمدرسته لم يرض ان يخلع بزتها طول عمره ، فكان إذا بلي المعطف ، وقد كتب على ازواره (تلميذ القصر العيني) اوصى على معطف جديد من نمطه وذلك كل عشر سنين مرة ، ورفع الازرار عن المعطف القديم ، واناطها بالبذلة الجديدة ، يذكر الناس بأنه خريج كريم ، من ذلك المعهد العظيم .

كانت هدايا الدكتور تترى إلى صديقه الشيخ طاهر الجزائري بدمشق بحملها المسكار كل مدة من عاصمة الفينيقيين الى عاصمة الامويين ، آتدرون ما كانت تلك الهدايا النفيسة ؟ كانت قصاصات من جرائد مصرية وسورية قديمة وحديثة ، أفدما لاي زيد على بضعة أشهر ، وعمر أحدثها شهر واحد فقط . وكان يقطع من كل جريدة ما راقه ويجمع الباقي ويضعه في كيس نظيف أبيض ويخطه جيداً حتى لا تمتد الأيدي الى السرقة منه . وقد اتحفني المهدي اليه مرة بشيء منها ، فلما رأيتها قديمة استمفيت من أخذ حصتي في الدفعة الثانية ، وأحييت أن أخص بها من يحبون الجرائد ، ولو كانت قديمة بالية .

كان الدكتور حسين عودة مولماً بالحشائش ، يطب مرضاه بها على الدوام . وقد ملأ المجلات الطبية في عصره بفوائدها ، فأول ما وقعت عيني عليه في داره مجموعات عظيمة من هذه الحشائش مرتبة مصفوفة بحففة ، جعلت على متاضد ومقاعد ، وكتبت اسماؤها عليها ، مثل ماترون من نوعها في متاحف النباتات ومعارضها ، وألقيت نظري على الحائط فاذا به عال جداً ، لا يقل علوه عن اثني عشر ذراعاً ، فسألته ولم هذا الحائط شاهق الى هذه الدرجة ؟ فقال : لأن النظر إلى البحر يوءذني ، ويحمل الكرب إلى قلبي ، ولذلك كان هذا السور نعمة عليّ لأنه يحول دون نظري وما يكره !

كان الدكتور يطب الاغنياء في بيوتهم بقرش ونصف فاذا زاروه في عيادته أخذ منهم ربع قرش (متاليك) أما الفقير فان قصده او ذهب هو اليه بنفسه ، لا يقيض منه شيئاً ويمطيه بمن الدواء ، والدواء بالطبع بعض تلك الحشائش . ولذلك يمد الدكتور عودة من أبر الأطباء بيمينه الذي اقسامه يوم خرج من المدرسة الطبية إلى مدرسة الحياة . وسرت مع الدكتور في اسواق صيدا وضاحيتها ، فرأيت اهل البلد كبيرم وصغيرم رجالهم

ونساءهم أطفالهم وبناتهم يعرفون الدكتور ويعظمونه ويسألونه في الطريق علاج اسقامهم ويدعون له بطول العمر .

ودعت الدكتور وقد شفيت النفس من المتمة به ثلاثة ايام ، وكنت نازلاً في الطبقة الثالثة من فندق المطران فقيل لي بعد الغروب بثلاث او اربع ساعات ان الدكتور آت لزيارتك ، فعجبت وخففت لالتقاء على السلم وقلت له لماذا تصدع نفسك ياسيدي ، وقد ودع كل منا صاحبه في النهار ، فقال : هذا واجب أقوم به ، فشكرت له ادبه وتفضله . ورأيت في هذه الزيارة الليلية يحمل « نبوتاً » اطول منه ، وفانوساً صغيراً ، ويلبس في رجله قبقاباً عالياً . فسألته بأدب ، لم يلبس القبقاب والوقت صيف ، فأجابني بما معناه : إن دبابات الارض كثيرة ، ولا يأمن الساري في الليل من شرها ، فلكي يكون بمأمن من قرصها يحمل هذا المصباح يستصبح به ، علته يراها قبل أن تصل اليه ، فادا اقتربت منه ضربها بالمصا ، وإذا حاولت الصعود اليه لمذر عليها الصعود إذ يقتلها قبل أن تصل إلى رجله ، وكان في قوله جاداً ، وكان جداً كله ، وهذا وجه لطافته .

ومن جملة جده انه كان يعتقد انه يعيش العمر الطبيعي ، والعمر الطبيعي عنده مائة وخمس وثلاثون سنة ، أو مائة واربعون لا أدري ، ولما كان هو على غاية من التقوى ولم يسيء استعمال قوته قط ، فانه بالغ بحول الله هذا العمر لا محالة . أما هو فعاش في هذا الامل اللطيف نحو كسعين سنة ، ومن اخبار جده ، وهو معتقد بما يقول ويفعل ما حدث له مرة ، وهو يتنزه على شاطئ البحر مع صاحبه الشيخ طاهر ، وقد لحق بها احد الطلبة ، وكان هذا لا يخلو من جذب ، على ما يظهر ، فمضت أربع ساعات على اجتماعه اليهما ثم التفت إلى الدكتور وقال له : ياسيدي الدكتور أرجو ألا يكون في حضوري ما ينقص عليك خلوتك إلى الشيخ ، فأجابه الدكتور بدون توقف : يا بني نحن لم نحس أنك معنا ، إنا في شغل عنك ، نحن الآن ندبر أمر ثلاثمائة مليون من المسلمين . وهكذا كان وما شاء الله كان .

اللطيف الخفي

ما تطلعت إلى ما في ايدي الخلق ، ولا حسدت ذا نعمة على نعمته ، وكانت نفسي راضية كلما اغضبتني الايام ، ضاحكة مستبشرة مهما قست الازمات . اضقت اول شبابي ، وكنت اعول أسرة كبيرة مؤلفة من بنات واطفال صغار ، والمنظور اليانا بين قومنا وفي حيننا انا من الاغنياء . وكان ممولنا في معاشنا على مزرعة لنا اذا اكدى ريعها بعض السنين نصيب ، فلا ارى غير الصبر على الشدة ، مع اني استطيع ان اقترض ما اتوسع به بالنظر لما كان تحت يدي من ملك ثابت يقدر يومئذ بنحو عشرة آلاف دينار عثماني . فكنت اجانب الاستدانة مخافة ان اعجز من قابل عن الاداء ، فتضطرني الحال إلى الرجوع الى الاصل ، ويخشى ان ينزع من بيننا بعض ما نملك ، وبذلك حفظ ماورثناه وزاد ولم ينقص .

ولما انشأت الجريدة والمطبعة ، كان بعض المعارف يقروضونا ما يلزمنا من المال ، علماً منهم بأننا نرجع اليهم ما اخذناه منها كانت الحال ، واعتماداً على ما نملك ، فنعمننا بهذه الثقة ، وما أزعجتنا الازمات الاقتصادية كما ازعجت غيرنا ، وما اسففنا لتناول شيء لا يحل لنا ، وما وقفت اعمالنا من قلة . قال لي صديقي الاستاذ عبد القادر بك المؤيد ، وكان رحمه الله من رجال المال والاعمال ، وله عليّ عطف كبير : إنك اخذت من جمال باشا الف ليرة ، فلم لا تبتاع او تبني لك داراً ؟ فقلت له : قد بنيت في دمشق اربعين داراً ، فقال وكيف ذلك ؟ قلت : كنت مديناً لاربعة اشخاص فدفعت اليهم ديونهم كاملة ، وأمسيت ولادين عليّ ، فسارت اشغالي بانتظام . فسكت ثم قال : وفاء الدين قبل كل شيء . ومعظم من وفيهم ما كان لهم عليّ من دين في تلك الايام المدهمة (سنة ١٩١٤) ، وقد امتنعت المصارف من اداء ما عندها لمعاملها من أموال ،

كانوا يقولون إن ليرة واحدة يوم اقرضونا تساوي بضع ليرات يوم ارجاعها وكانوا جد مسرورين ومتعجبين .

حدث في بعض السنين ان تأخر أكثر المشتركين عن دفع ما عليهم لادارة الجريدة في أوقاته ، وكانت سنة رديئة الغلات ، وأتى الشتاء قاسياً بثلوجه حتى انقطع الطريق بين دمشق وبيروت أربعة وأربعين يوماً . فتأخرت الادارة على خلاف المادة عن اداء المياومات والمشاھرات ، لنحو ثلاثين عاملاً من عمال الجريدة والمطبعة ، وغلت أسعار الحاجات ، وكان الورق قليلاً في مستودع الجريدة ، فأخذنا نبتاعه بالثمن الفاحش ، وبالطبع كنت وشقيقي اللذين يشتغلان ممي على تلك النسبة من الضيق . وكنت أحضر إلى ادارة الجريدة فلا أجد مكاناً أجلس فيه ، لكثرة ما تساقط من ثلج ومطر على السطوح ، فلا أصل إلى تلفيق الجريدة إلا بمشقة زائدة . وفي تلك الحقبة جاءني الرجل الذي كان يحاول ان يرشني لأخدم دولته وأطلب ما أشاء ، فرددته بلطف ، ونظاھرت بالنفي ، ولم أقص ما وقع لي معه إلا على استاذي سليم افندي البخاري فقط ، فقال : نعم عملت ، وفي الله العوض عن هذا المال مهما كان مقداره .

ومضت أيام ونحن على هذه الحال صابرون ، لا نعرف لما نحن فيه نخرجاً ، وديوننا عند المشتركين لا تقل عن آلي ليرة عثمانية ، لا نستطيع استيفاء شيء منها ، فاذا بأزمئتنا تنفرج بطريقة ما خطرت لنا ببال . وافانا عالم من أقاصي كردستان اسمه بديع الزمان عازماً أن يطبع رسائل وكتباً فطبعتها له بسرعة ، وكانت اجرتها حسنة ، وأخذت ترد علينا من وكلائنا في الديار الشامية وغيرها سفائح من المال هي بعض مالنا عندهم فكانت جملتها كبيرة . ووضعت قائمة بما ورد على الادارة في شهر واحد من مال ، وفينا به جميع ما علينا للمستخدمين ، وعاشت بيوتنا والجريدة ، ولم يبق علينا ذمة لأحد ، واطلمت استاذي البخاري على هذه القائمة فسر جداً وقال لي : أما قلت لك إن في الله العوض ؟ وها قد عوضك من مالك ما كان متأخراً عنك ،

ولم تلوث ذمتك بـمال فيه كل الشبهة ، ولو كنت تناوأت ذاك المال العظيم الذي عرض عليّ لقتلني الاتحاديون أول يوم عثروا فيه على أوراق قنصل فرنسا ، وقد عشت بحمد الله بعد ذلك أعواماً ، ونمت بالحياة ، وقطفت ما كانت حصرماً وحراماً كله ، وقد أصبح طيباً حلالاً ، وعمرت داراً وتمتعت وعيالي بمباهج الحياة ، ورييت أولادي السنة وزوجهم كلهم ورأيت أولادهم . وهذا من اللطف الخفي الذي لا اعرف لمعليله .

أتت علينا أعوام قلّدت فيها البركة فكان يلد لي الصبر على الضائقة ، ويزيد عزائي إذا أيقنت أنني ما استندت لاثوسع في النفقة بجارة لأقراي وجيراني . عرضت عليّ في أول نشأتي قطعة أرض في قريتي مساحتها فدانان ، فقلت لشريكي أنا لست مستعداً لابتاعها ، وغاية ما أستطيع أن اقتصده مبلغ كذا ابتاع به الأرض الفلانية ، وهي أقل من نصف مساحة الأولى فقال لي : خذ هذه أحسن لك ، وتستطيع أن تقلب المبلغ المرهونة لقاءه عند المصرف الزراعي إلى حسابك ، وتدفعه مقسطاً على سنتين ، فأجبتني إني لا أحب التعامل بالربا دائماً ولا مديناً ، وابتعت الأرض الصغيرة فأثرتها وزرعها وبعت منها أشجاراً للوقود ، فجمعت نحو ضعفي ثمنها في سنتين . واضطرت غير مرة إلى ابتاع أرض من مزرعتنا من أحد الشركاء فاشتريت بالربا ، فما رأيت البركة فيها ، وربما وقعت عليّ بعد حساب الفائدة التي أدبتها بضع سنتين إلى الصيارف أو المصرف ضعفي ما كنت مضطراً لأخذها به ، ومع ذلك لطف الله بي .

ووقع لي أن تعرضت حياتي للخطر مرات ، ونجوت على أهون سبيل ومن عادتي ألا أتوق كثيراً (ومن التوقي عدم الافراط في التوقي) وأستمد الرأي من أصحابي إذا وقعت في مأزق ، فهم يشيرون وأقبل مشورتهم وأنحمل تبعها وحدي . وكانت مشوراتهم سديدة أبداً ، وإذا مرض الطبيب الماهر يحتاج إلى من يطبه . وما وقعت في يد خصومي قط ، ومنهم من كان يبيت لي القتل ، ويتطلع كل حين إلى اهانتني ، ولم أحبس ولم أنف ،

وكنـت أهادن الخـصم وأتعـقل ، وأرجـى الحـلة عـليه إـلى وقـت تـكون فـيه قـوى المـدافع والمـهاجم متـكافئة بـعض التـكافؤ .

ومـن اللـطف الخـفي أن المـصلحة اقـتضت بإيـماز المـنتدين أن يـقام مـعرض الصـنائع الشـرقية بريـاسـتي ، بصـفـتي وزـيراً لـلعـارف والفـنون الجمـيلة فـي مـديـنة دـمـشق ، وفـي قـاعات المـجـمع العـلمي المـربي ، وـكان هـواة العـاديات وبـعض بـيـوت دـمـشق وغيـرها مـتأثرين مـن السـلطة لـأنـها أخـذت عـدة صـناديق مـن النـفائس إـلى مـعرض مارـسيليا عـارية مـسترجـعة ولم تُـلـمـدها إـلى أربـابها . وفـي هـذه الحـالة الرـوحية تـحتم انـشاء المـعرض فأـعلنت أني آخـذ عـلى عـهـدتي وحـسابي الخـاص جـمـيع ما يـمرض مـن الآثـار ، مـدة انـعقاد المـرض ، فـقبل بـذلك حـتى جـمـاعة مـن الفـرنسيـين ، لـأن الحـكـومة كـانت فـقدت ثـقة الـاهـلين بـها . وـكان مـقدار مـن عـرض آثـاره ومـصنوعاته ٨٦ شـخصاً وعـرضت فـيه (٦٢٧) قـطعة مـختلفة ، وزار المـعرض أربـعون ألف إنـسان مـنهم ثـلاثة عـشر ألف امـرأة (٨ - ١٥ حـزيران ١٩٢٨) وكنـت فـي مـدة المـعرض فـي قـلق عـظيم مـن لـمـهدي هـذا لـاصـحاب الآثـار والمـبـيـمين عـليها ، مـثل اـدارة الاوقـاف ، كنـت أخـشى السـرقـة والحـريق وغيـر ذلـك مـن المـصائب ، فـمنّ المـولى بـمرور هـذا الـاسبـوع ولم يُـفـقد شـيء ولم يـعـطب شـيء ، وما تُـعـرض اعـيد لـاربـابه سالماً . وريـج تـجار الـاقـمشـة أربـاحاً طـيبة ، وما خـجلت أـمام المـواطنـين ولا أـمام المـنتدين .



أصـاب الانكـليز

كان لرضا باشا الركابي سطوة أوائل الاحتلال الانكليزي بعد الحرب الكبرى ، عينه المارشال اللنبي حاكماً عسكرياً في دمشق . وكان عند العثمانيين رتبة عالية في الجيش ، فاستقال باعلان النفي العام ، قيل لمرض أصابه . وأصاب الانكليز باعتمادهم عليه ، وأثبتوا أنهم قد يحسنون الاختيار ، فالركابي من أقدر من تولى الأحكام في الشام بعد انتزاعها من أيدي العثمانيين . ومع أنه جندي أتقن طرفاً من القوانين ، تعلمها لما ولي ولاية البصرة بالوكالة ، ومحافظة المدينة بالأصالة وهو من فئة قليلة وقفت على روح الجماعات يشند ويلين عند الاقتضاء ويتجاهل ويتعابى .

قلت له يوماً : أرجو أن نوعز لفلان أن يواظب على عمله في المجمع العلمي ، فانه هناك الكاتب والمحاسب ، ولا يأتي إلى عمله غير مرة أو مرتين في الأسبوع ، والقبض والصرف في يده ، ويتخلفه تتأخر الأشغال . فقال مستفهماً جاداً : ومن هذا ؟ فقلت له ، بأسلوب من التهكم شديد : هو قريبك الذي وضعته عندني بدون علمي ، وفرضته عليّ فرضاً ، ما هذا التجاهل يا باشا ساعحك الله ؟

وله أمثال هذا كثير كان يصدر منه فأفكره ، وأذكره له فيقطب أو يتكلف التبسم ، وكأنه يقول في باطنه لا يجروا أحد عليّ مثلك . وكنت للصدقة القديمة بيننا أذكر له ما يحضرني من غلطاته الادارية ، حرصاً على مصلحة الحكومة الجديدة ، فكان يشق عليه سماع كلامي ، وقد يكون ما بدا منه موعزاً اليه به من مقام عال ، وهو لفرط مهارته يوم من يوم أن ما يأمر به كله من بنات أفكاره .

كان الركابي يعتمد على الغريب في انشاء حكومته ، أكثر من اعتماده

على أبناء البلد . وكثير ثناؤه على مدير الشرطة الفلسطيني ، وما كنت أجيبه بحلوة ولا مرة ، على نحو ما كان يبدو منه اذا ذكرت انساناً بخير أمامه ، كان يسكت وينظر الى وجهي ، كأنه لا يوافقني على قولي ضمناً . وأقيل الركابي مرة من منصبه فزرتة ، فوجدت داره محاطة برجال الشرطة السرية ، فقلت له : والله لقد شمت بك ، وأنا أشهد الساعة الجواسيس يقفون في مدخل دارك ومخرجها ، وما جاءوا إلا بأمر مديرهم صنيعتك ، فأنت الآن تنال جزاءك لاعتمادك على مثله ، كأنك لم تجد من أبناء البلد من يقدر أن يكون مدير شرطة في هذه المدينة ؟ ويكون أكثر ادارة من هذا الذي أضجرتني بثنائك عليه . فسكت ، كأن الكلام غير موجه اليه .

قال لي يوماً : قل لأصحابك فلان وفلان أن يمتدوا وإلا عزلتهم ، فقد بلغني أنهم يتجوزون في الخروج على القوانين ويضيعون الحقوق . فقلت له : إن هذه الملاحظة إذا صدرت منك يكن لها الوقع الذي تتوخاه ، فانهم أحبابك مثلي ، وأنت الذي أتيت بهم إلى الحكومة ، والأجدر بي الا أكون سفيرك اليهم بذلك . ولو كان ينوي عزلهم حقيقة ما توقف عنه ، كما فعل مع من لم ترضه حالتهم وأراد انقاذ الحكومة منهم ، فتحام بطرق له غريبة ، فيها كثير من الدهاء والذكاء .

كنت أقول للركابي باشا : انكم تسارعون إلى تعيين الموظفين من الفلسطينيين وفلسطين فيما أحسب ستفصل عنا ، فان كنا نحبها فلنترك لها رجالها ، ونحن هنا في غنية عنهم وعندنا من عيارهم كثير ، والمصلحة أن نوظف من كثرت شكواهم من حرمان الوظائف ، والأولى بنا أن نستخدم الشبان ونمرنهم لننتفع بمواهبهم ، فكان يشق عليه قولي . وما أدري إن كانت هذه خطة مدبرة بينه وبين أولياء الشأن حتى يخلو الوطن القومي اليهودي الجديد من الرجال ، ويعمل اليهود في أرض الميعاد منفردين لتأييد سلطاتهم عليها .

وقال لي الأمير فيصل في هذا الصدد شيئاً فقلت له : قلتم لنا أو قالوا ستكون الولايات العربية كلها دولة واحدة ، فاعتبطنا وفرحنا ، وتطوع أبناءنا في خدمة السلطان والدك لتحقيق هذه الغاية ، ثم قلتم سيستقل الحجاز وحده ، وسورية وحدها ، والعراق وحده ، فرضينا مرغبتين ، والآن نحشر الرجال كلهم في سورية ونخلي فلسطين من أبنائها ، فتقولون إنكم وفلسطين سواء . فأكد لي أن مصير سورية الجنوبية وسورية الشمالية واحد ، ولعله كان يعني أن يكون لهما انتدابان مختلفان فقلت له : اللهم استجب ، وأكبر ظفي أن هذا الكلام كان مما لقنه من الذين كانوا يوحون إليه من وراء ستار . ولعله كان لمن حرص كثيراً على جلب الفلسطينيين إلى سورية الجنوبية ، دخل في نقل حديثي إلى من يعينهم الشأن . فكان درس الأمير فيصل الذي القاه عليّ فصل الخطاب في هذا الباب . ارتأى الركابي مرة أن يصانفي ، وهو معزول عن منصبه ، فقال لي أثناء زيارته لي في داري ، وقد استقبلته في مكنتي ، وأنا وراء منضدتي : أرى أنه سينبت علم كثير من هذه الغرفة ، فشكرت لطفه ، وما كان يصدر منه بعض هذا المدح لو كان قابضاً على زمام الأمر . لانه يتبدل نفسه وهو في المنصب تبدلاً محسوساً على ما كنت أراه .

بدا له أن يعرّب الحكومة والأهالي ، فكان لا يسمح لأحد أن يتكلم بالتركية أمامه ، ولو كان لا يعرف غيرها ، وينفر من كل من يلفظ لفظة واحدة منها ، وقيل انه استدعى مرة ترجماناً ليترجم له كلام رجل تركي وينقل له كلامه بالتركية ، وهو يعرف التركية كالأتراك ، قضى جل عمره لا يتكلم بغيرها ولا يكتب سواها .

ولما عاد الركابي من شرقي الأردن ، وقد أقبل أو استقال من رئاسة وزارتها ، حدثه نفسه أن يكون مع الفرنسيين كما كان مع البريطانيين ، لأنه خدم الفرنسيين خلال الثورة السورية كما قيل ، فأقبل يتودد إليهم ،

وما أدري أي خبيت وعده بمعاودة الفرنسيين ، إذا خاض المعركة النابابية ، فتورط ودخل الانتخابات ففشل ، وكان كل رجائه أن يعود إلى رئاسة الوزراء في سورية ، وأتخذ لذلك عامة الأسباب ، واستكتب الصحف والكتاب ، ناسياً أن التجلي لا يصاد ، وأن من الصعب التمتع بالحظوة في دورين .

نحي السيد الركابي مرة فجمع له عبد الرحمن باشا اليوسف أعيان البلد ، وأصرّ عليّ أصراراً شديداً أن أرافقهم إلى الأمير زيد انشفع بالركابي فنعيده إلى عمله . ولما استمع الأمير إليهم ودعهم ، وأشار إليّ بالتخلف عنهم ، وقال : وأنت أيضاً يا استاذ نشفع للركابي كأنك لا تعرفه ؟ أندرون ماذا كانت مكافأة عبد الرحمن باشا من الركابي ، لما عاد فاستلم زمام الحكم ؟ كانت مكافأته أن أثار عليه فلاحيه في البطيحة ودياب على ما نقل إليّ . وإذا ثار عليه فلاحوه خسر مزارعه هناك ، ونعنها لا يقل يومئذ عن مليون ليرة عثمانية ذهبية .

ونقل لي أنه دخل عليه أثناء جلاء الترك مبلغ من المال عظيم أعطاه الاثراك آياه ليستخدمه في أمور سياسية لمصلحة الدولة التركية ، وقيل إن البدو سلبوه إياه ، والذي عرفته أنه يكره المرششين والمارقين ، ولو صح ما يتهمة به بعضهم لكان له في آخر أيامه مال يترفه به ، وقد رأيتاه مقتراً عليه على كثرة الرواتب التي درت عليه ، والهبات التي وصلته ، والنفقات المستورة التي كان إليه صرفها ، وهو غير منهم بريء ولا يقامر .

لما دخل الفرنسيون دمشق ارتأيت أن يؤلف وفد من شبان المسلمين الذين يحسنون الفرنسية لزيارة الجنرال غوايه ، وقلت في نفسي إن ما حسبه العقلاء قد وقع ، والعاقل من يخفف الشر ما أمكن . والآنجي أن يظهر شبان البلد بمظهر الكرامة . فاتفقت مع السيد صبحي الحسيبي على الأشخاص الذين يدعون إلى الذهاب ، على ألا أكون معهم . وكانت الركابي دخل الدار ، وأنا خارج منها ، فسأل عن سبب مجيئي فذكر له ابن الحسيبي

ما عولنا عليه من دعوة الشبان لزيارة القائد ، فقال : إنه يطمع في أن يستفلكم . كأن بيبي وبين الفرنسيين حاجزاً لا يزيله غير هؤلاء الفتية ، وكانت النتيجة التي كنت أنوقعها أن المنتدين لم يتعرفوا الى شبان دمشق وأنوا بغيرهم ، ووسدوا اليهم الوظائف ، فكان أعظم عظيم منا يحجبه المستخدم اللبناني (الذي جرى التمويل عليه) الساعة والساعتين لا يبالي به ، وظهر للداخلين أننا أمة لا نعرف مصلحتها . وكل ذلك بفضل نصائح الركابي واساءة ظنه بي .



تأثير البيئة

لشدّ ما أشعر في مصر اني غير ما أنا في الشام ، وفي الغرب غيري في الشرق ، وفي القرية غير ما أكون عليه في الحاضرة ، ولذلك أعذر بعض من كسوتهم بيئتهم ، فتصدر عنهم آراء مستغربة متضاربة ، ولا أعذر من يطلق المنطق الصحيح ، مهما كان البلد الذي ينزل فيه ، والنحلة التي ينتحلها ، فالمنطق واحد في كل جيل وقبيل ، وفي كل مصر وقطر .

حدّث شهوة الشهرة والاغراب صاحبي أمين الريحاني اللبناني (١) على ان يظهر مرة في مظهر مؤرخ ، وما كان يُعرف بغير الكتابات الادبية ، ومعظم تاريخه في نجد كان املاء صاحب نجد على ماروي الراون . فاقبّس من كتابي (خطط الشام) السيئات التي راقته وجسمها ، وألبسها ثوباً من خياله ، ونشرها في كتاب سماه « الفسكات » حمل فيه على بعض رجال الاسلام ، وزيف ما قاله المنصفون فيهم ، ولجأ إلى قاعدة « خالف مُعرف » وما نصّح به المسلمين أن يتركوا التناغي برجالهم وتاريخهم ويتبعوه ، وما أعرف إلى أين ؟ ولعله يقصد أن يلتحقوا به ليمثلوا ملته ، وكانت جاهر كثيراً أنه خرج عليها ، وإن كان حبها مما أشربه قلبه ، وهو معذور في ذلك ، فإن من المعتقدات ما يُتوارث مع الدم على ما يظهر . وغريب هذا القول ممن يدعي

(١) كتبت هذا قبل أن أنجم بفقده ، وكنا منذ تفرقنا يجب أحداً صاحبه محبة أكيدة ، ثم طرأت بيننا اختلافات في الرأي ، أهمها جرائته على الطعن بتاريخ العرب واليهود رجال الاسلام . وكان على ما يظهر صاحب أحوال ، مأخوذاً بالخيال ، وبعض ما كتبه لا يفهم ، وآخر ما كتبه جملة مطولة في رثاء الدكتور عبد الرحمن شهنر ، أرسلها لي فلم أحلّ معيبتها ، ودفعتها إلى الاستاذ فارس الخوري قتلاها ، وهو أيضاً لم يفهم منها شيئاً وأوصى الريحاني أن يدفن على طراز لايشمر بدينه فأني مطارنة الموارنة الا ان يحملوه الى مرقد الأخير على حسب طقوسهم لم يُخلّدوا بشيء منها ، فلم يُفك من تأثيرات رجال دينه في الحياة وفي الممات .

الفلسفة ويلقب بفيلسوف القُرَيْبِكَة - والفريكة مزرعته التي ولد فيها -
ونعته بالفيلسوف سواء كان من صنعه او صنع أحبابه جميل وعجيب .
والربحاني إذا حاول كتابة التاريخ الاسلامي ، وهو فارغ الذهن منه ،
مثلي إذا توخيت ان أدون مناقب قديسه وشفيعه مارمارون ، أو بطل لبنان
يوسف كرم الذي غلا بعضهم بشجاعته غلواً مضحكاً ، ليقولوا للناس إن
جبلهم الاشم أنبغ الابطال كما أنبغ الفلاسفة . إن الربحاني ما تحلل على ما رأيت
من تأثير البيئة ، وإن قال بالفلسفة ، ودعا إلى حرية الرأي ، وغاية ما أرجو
له ومنه ألا يخرج عن المنطق .

كان الربحاني مرة عندي في الدار هو والسيد فارس الخوري يتفاوضان ،
وأنا ومن حضر في ناحية بحيث نسمع كلامهما ، فكان مما قالاه ان انصارى
في الديار العربية بأسرها لا يكاد يتجاوز عددهم المليون والنصف المليون ،
تتخدم أوروبا آلة لسلب حق الاكثية في الاستقلال ، فالأولى بنصارى
الشرق أن ينتحلوا الاسلام ، أو يهاجروا إلى أميركا أو غيرها ، ويتركوا
العرب يؤلفون دولتهم الجديدة ، وهم لا يقلون عن ستين مليوناً . ومن كان
يقول بهذا القول عاد ينصح المسلمين أن يتركوا تاريخهم ويتبعوه .

أشرت غير مرة على منشيء جريدة هزلية أن يرعى رجال المسلمين
قليلاً ، ولا يهزأ بهم ويسخر منهم على الدوام ، وقلت له إن الانصاف يقضي
عليه إن كان لابد من الضحك والاضحاك أن يشرك معهم مواطنهم من
ابناء دينه ، فكانت بسم لقولي ، ومن مصلحته ألا يسقط احداً من أبناء
نحلته ، وقاعدته وقاعدة امثاله أن يرفع ابداً من شأنهم ، وإن كان بعضهم
موضوع كل سخرية .

ورأيت صحفاً لبنانية تتجاهل ان في العالم شيء اسمه النهضة المصرية ،
وما اوتت ذلك إلا ان هذه النهضة عربية اسلامية في ذاتها ، ويسوء
المتعصبين أن يعترفوا بما وصلت اليه مصر من الرقي ، وأن ينسب لغير ابناء
دينهم شيء من النهوض ، وكان بعضهم إذا اضطروا الى ذكر امر عن مصر ،

يذكرونه باشمزاز وتقزز ، وهذا من اشنع اصناف التعصب ، يحمل في مطاوية ،
المكابرة في البديهيّات والمحسوسات . وما إخال هذا التويه ينطلي حتى على
السذج من سكان مزارع قم لبنان .

لي صدق من اعيان الموارنة وأغنيائهم المثقفين ، سافرت معه مرة بجرأ
من بيروت إلى مرسيليا ، وعدنا معاً من مرسيليا إلى بيروت وكنا طول
الطريق نتصارح وتبادل الافكار ، وتناقش مناقشة جميلة ، وكذلك كان
دأبنا كل عام منذ خمس عشرة سنة نتفاوض في السياسة الوطنية . فكان إذا
ذكرت له سورية انقبض صدره ، ويزيد انقباضه إذا ذكرت له الوحدة
السورية ، وبينت له فوائدها الاقتصادية والقومية ، وكان يدعي أن النصارى
يذوبون في الوحدة السورية إذا تمت ، لأن الأكرثية تكون بيد المسلمين ،
ويصبح النصارى اقلية ، ولبت هناك من يسأله ولم لم يذب النصارى تحت
حكم المسلمين خلال ثلاثة عشر قرناً في هذه الديار ؟

وكثير ما صرح فقال : إنكم (أي المسلمون) منحنون ونحن (أي النصارى)
ارتقينا الى درجة لا نستطيع معها أن نعيش معكم ، والى اليوم لم تأنوا يبرهان
على ترفيكم ، ومتى كشفتم حجاب نساكنكم على الاقل تثبتون أنكم تعدتم ،
فكنت أقول له ان رجالنا اليوم احسن منهم أمس ، وان الحجاب يزول
بطبيعته على ما نشهد ذلك في مصر وبعض حواضر الشام ، وان الحجاب
اليوم مفقود تقريباً من القرى . ورجوته غير مرة أن ينزل عليّ ضيفاً في
داري ، لأجمله الى مختلف الطبقات من المسلمين فيسمع كلامهم ، ويحكم
بنفسه أنا ارتقينا ، وأنا لسنا كما يتوهمنا المتعصبون شعباً لا يقيم للحضارة وزناً .
وقال لي غير مرة : لو كان كل المسلمين مثلك لدخلنا في الوحدة معكم ،
فكنت أقول له : إنك تطلب المستحيل لو كان كل المسلمين مثلي لاقرضوا ،
وعجبت من هذا المنطق المقلوب ، والتمويه الذي لا يجوز على قائل .

ومن جملة ما أورد عليّ من عيوب المسلمين قوله لإنهم غير أهل للحكم
وذكر لي مثلاً على إثبات قضيته وقع له في محكمة لبنانية رئيسها مسلم ،

و خلاصة ما قال ان له اراضي كان ابوه يملكها من قبل ، لم يحكم له المحكمة بها لأنه غير مسلم ، وبحث عن هذه الأرض فعلت أنه حكم له بها في محكمة البداية ، وكان الرئيس مسيحياً . ثم اخذ هذا الرئيس وادع السجن مدة لما ثبت عليه من الرشوة ، ومألت القاضي الذي لم يحكم في الاستئناف وهو صديق لي قديم ، فعرفت ان مساحة تلك الاراضي واسعة جداً ، تبلغ عشرات الألوف من الأفدنة ، قامت عليها مزارع وأحياء وجوامع وكتاتيب ، وهي اليوم تساوي بضعة ملايين من الليرات ، وكان أبوه ادعى ملكيتها ومعه سند تملك مزور ، وأرادت الحكومة العثمانية القبض عليه فهلك قبل أن يقع في قبضتها ، فانظر إلى هذه الأهواء الشخصية التي مزجت الخصوصيات بالعموميات .

أبحرت مرة من بيروت قاصداً مرسيليا ، وكان رفيقي في الدرجة الأولى زمرة من أعيان تجار اللبنانيين المسيحيين من نزلاء أميركا الجنوبية عادوا بعد أن لهدوا أهلهم ووصلوا رحمهم ، ونشقوا هواء مساقط رؤوسهم ، فتعرفت إليهم وحصلت في الحال معهم ألفة ، كأننا كنا أصدقاء من القديم وما كنت عرفتهم من قبل ، وبمضهم عرف اسمي من الصحف والكتب ، وكان معنا على ظهر الباخرة آنسة افرنسية راقية لصحبنا طول الطريق ، لا تكاد تفارقنا إلا في ساعات النوم ، فمجت من هذا الحب المائل بيننا وهذه المواطن التي كنا نبادلها ، وقالت لي : عجيب تحباب السوريين ، فقلت لها : صحيح أننا أبناء وطن واحد إلا أن أول لمارفنا كان في هذه الباخرة ، فزاد عجبها ، فقلت لها : نحن السوريين على ذلك إذا كنا خارج أرضنا ، بعيدين عن المؤثرات الطائفية والنعرات السياسية .

فتح لي اولئك الوطنيون قلوبهم ، وكانوا يأسفون لتعزيق سورية إلى دول صغرى ، ويودون لو تمت الوحدة العربية ، ليكون لهم كيان في أرض المهجر ويعتروا بقوميتهم ، على ما يرون اقل الامم شأنًا يفاخر أبناؤها بمنسبتهم . ولم أعلل كلام رفيقي الافاضل ، وكانوا يتكلمون عن عقيدة

لا رياء فيها ولا تدجيل ، إلا لكونهم عاشوا في أرض حرة ، وأدركوا فيها معاني الوطنية والقومية ، وساموا من عسطلات رجال الدين ، وتضليلات الكهنوت الغربي . وما كانوا كالذين يدعون الفلسفة وأعمالهم على خلافها ، ولا كذاك الصحافي 'يضحك قراءه على حساب المسلمين ويستثني من السخرية عمداً أبناء طائفته ، ولا كذاك الوجيه الماروني الذي يطعم أن يستولي على أرض تبلغ مساحتها مساحة ناحية كبيرة بطريقة غير شرعية ، وإذا لم توافقه الحكمة على رغبته فالمسلمون أغنياء أرباب كمص وأصحاب أغراض ، وليسوا أهلاً لتولي الاحكام . نعم أدرك اوائك التجار الأذكاء من اللبنانيين أن بلادهم لا تنجح إلا اذا اتحد أهلها ، وتحابوا على اختلاف نحلهم وأصقاعهم وقصوا عليّ من ويلات رجال الدين قصصاً لا يبرح بها إلا أمثالهم من المنورين الأحرار ، وما كانوا بحاجة إلى أن يصانموني ، ولا أن يصانموا غيري ، والذي يظهر غير ما يبطن قد تدرك حقيقته بالنظر إلى وجهه .

ثوب الرياء يشفّ عما تحته فاذا التحفت به فانك عاري

ولطالما قلت مع القائلين إن جماعة الانفصال عن سورية من أهل لبنان لا يبلغون خمسة في المئة ، وأكثرهم ممن يطعمون في حلب العترة ، وأن بتولوا الوظائف ويستثمروا لبنانيّتهم ، والباقيون وهم السواد الأعظم لا يرون غير الوحدة مخرجاً ، لما يتوقعون من ثمراتها الجنية ، يقطعها المواطنون على السواء . وكلهم لا يصورون المسلم شخصاً مرعباً ، كما يصوره رجال الدين والسياسة والمستوظفون جرياً وراء أغراضهم .

حدثني صديقي لبیب الرياشي من أدباء لبنان النصاري ، وهو الذي وضع كتاباً في الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال : سألتني أحد قضائنا في جونية عما أكتب في النبي العربي ، فقرأت له فصلاً من فصول كتابي ، فاستمع إليه وهو واقف موقف الخشوع والتأدب . فسألته لم يقف على هذا الشكل ؟ فقال : إن من عادتنا أن نقف اجلالاً لمن نرى أنهم كبار

أفلا تقف لأعظم عظيم في العرب الذي هدى ثلاثمائة مليون من البشر لعبادة الخالق . ونحن وإن كنا نصارى فالواجب علينا لمظيحه لأنه رسول العرب ونحن منهم . فانظر الى هذا الأدب وقسه بما صدر من مسيحي آخر يوم احتل الفرنسيون دمشق بعد وقعة ميسلون قال لصاحبه المسلم ، وهو أخوه في الماسونية وينتحل الكتلكة : يا فلان هل بقي لكم شيء تستطيلون به علينا ، أصبحتم أنتم ودينكم ونيكم وكعبتكم تحت أقدامنا . وكان هذا الرجل وأبوه وجده ممن عاشوا بنعمة المسلمين ، وما رأوا منهم إلا كل رعاية . فكان هذا شموه الذي أوحته اليه بيثته ، يوم رأى أعلام الفرنسيس ترفرف على سورية ، فأهان الاسلام وصاحبه هذه الاهانة . وكان الجيش الفرنسي اتصل به يومئذ ما ينبعث من أفواه بعض المتعصبة ، فنشر منشوراً علقه في الكنائس جاء فيه أن كل من يذكر الاسلام ورسوله بسوء يقتل بالرصاص حالاً ، فسكتت ألسن المتعصبين والحمد لله رب العالمين ، رب اليهود والنصارى والمسلمين ، ورب المجوس والبراهمة والبوذيين .



عظيمان عن ابن عمران

ألا من حديثه نفسه أن يعرف كيف يحفظ الحظ بمض الخاملين فيرفهم إلى مراتب الناهين في الحكومات الاستبدادية فليسمع ما قصه علي والذي :
(كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول تنزل في خان من خاناتها ، ولم تكن الفنادق يومئذ معروفة ، وكنا نتألف ونشترك في النفقة والسمر . وكان يزورنا درويش شاب أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو إمارات الذكاء عليه ، وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعم بمئزر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم . وما كان يشاركنا في النفقة ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة . وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي وليد قرية خان شيخون من عمل حلب .

« وجرنا الحديث في إحدى المشايخ إلى البحث عن أفضل من مشى على الأرض بعد رسول الله ، وذهبت بنا الآراء كل مذهب ، وأخذ كل منا يدلي بما يراه ، فصرح أبو الهدى برأي لم يرض عنه الجماعة ، وعدوه تهجماً على الصحابة الكرام . قال إن نقطة واحدة أهرقت من دماء آل البيت أفضل من كل من مشى على الأرض بعد الرسول ، فقال له مناقشوه : فأين إذاً يا جاهل يبق أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكبار الصحابة والأئمة ، وقام أحدهم ولطم أبا الهدى على وجهه ، وحاول أن يزيد صفعاً ، فجلت بينهما ، متذركاً عن أبي الهدى بأنهم لم يفهموا قصده ، وأولوا كلامه تأويلاً ما كان يريده .

« مضت أيام انقطع فيها أبو الهدى عن مجلس أصحاب الخان ، وعرضت في غضون ذلك لبعض الشاميين مسألة اقتضى أن يكلم بشأنها ناظر الضبطية (الامن العام) فالتدبني اخواني للقيام بهذه الوساطة ، بدعوى أنني أعرف

قليلاً من التركية ، وصورتى مقبولة ، وأني جسور اعتدت مقابلة الكبراء ، فذهبت الى النظارة ، واستأذنت على الناظر ، ولما فتحت لي ستارة البهو ، كان أول ما وقع عليه نظري ذاك الصاحب الذي انقذته من الصفع يوم الخان ، شاهدته قاعداً في صدر المجلس والناظر جالس بين يديه جلسة الصغير مع الكبير . وأدركت في الحال أن الشيخ أبا الهدى أصبح ذا مظهر جديد حتى صار مثل ناظر الشحنة على رفعة مقامه يقعد منه مقعد الخبث المتأوت . ولم ألبث أن عدلت على رأسى عمامتي ، ورددت طرف جبتي على قامتي ، وتقدمت بأدب نحو أبي الهدى أسلم عليه أولاً ، وأظهر أنني أحاول تقبيل يده . فلما شاهد أبو الهدى حركتى هذه انتصب قائماً وخفّ للسلام علي ، وعانقني بلهفة عناق الأخ أخاه ، وأخذ يسألني عن صحتي وأعمالي . وانتفت إلى الباشا الناظر يعرفني اليه ترفيلاً جميلاً ، ويثني علي الثناء المستطاب ، قائلاً هذا فلان من أعيان دمشق وكبار تجارها ، وهو على جانب عظيم من الأدب والفصاحة ، ثم تكلمت في المسألة التي جئت من أجلها فأنحلت في الحال .

« وبعد مغادرة النظارة علمت أن السبب في تقدم أبي الهدى هذا التقدم السريع هو أن امرأة الناظر هذا أصيبت بمرض أعجز الأطباء ، وكان يحبها حباً جماً ، فتذرع بكل مافي وسمه لشفائها ، ولما كاد يئأس من عافيتها وصفوا له أبا الهدى الصيادي ، وما يكتب من حجب وتأمم ، وما يقرأ من أدعية وعزائم ، فاستدعاه ليطب حبيبته بما عنده من بضاعة المشايخ ، بعد أن عجز الطب الحديث عن برئها . والغالب أن الشيخ لم يقطع ترتيب الطبيب ، وترك السيدة تتناول ما وصف لها من أدوية وعقاقير فبرأت بعد أيام . فمظم مقام الشيخ في عين سيدها وشاع بذلك ذكره في دار الملك ، وكثر قصاده والمتقدون به ، وجمهور الترك يحسنون ظنهم بمن يأتيهم من طريق الدين بما يلائم عقليتهم ، ويسارعون إلى تصديق من يمتقدون فيه الخير . ولم تمض أيام حتى أصيبت إحدى حظايا السلطان عبد الحميد الثاني

بمرض يشبه عارض امرأة الناظر ، فعلم الوزير بالامر وعرض على مولاه ما كان من الشيخ أبي الهدى مع زوجته ، وقال فيه كل خير حببته إلى السلطان ، فاستدعاء لمداداة حظيته بأدعيته ، فجاء يداوبها بما داوى به امرأة الناظر ، فشفيت الجارية بعد أيام . وأعقب ذلك اتصال أبي الهدى بالسلطان عبد الحميد . أقبلت السعادة على الشيخ الصيادي فتقمصها ، وسبق اليه العز بعد التحول . فاصبح مستشار السلطان ، وأحد الرجال الممتازين في دولته ، يستأمره في المسائل العظمى ، ولا يصبر نفسه عن فراقه زمناً طويلاً ، وكان من أعماله مكافحة المذهب الوهابي لئلا يتسرب إلى العراق والشام ، لأن السلطان كان يخاف على ملكه في ديار العرب من الوهابيين وصاحبهم . وقد يعتمد الشيخ أحياناً اظهار الغضب على السلطان ، فينقطع عن غشيان قصره مدة ، فلا يرى السلطان بداً من أن يسترضيه بالبهات العظيمة ، ليعود إلى ما كان عليه معه من التواصل ، وأصبح صاحب الكلمة العليا حقاً بين أرباب الدولة ، والشفيق الصادق الذي لا ترد شفاعته ، يشير على السلطان بنصب من يرضى عنهم من الرجال ، وينصب حتى (الصدور العظام والوزراء الفخام) وبعمله هذا أصبحت الوزارات أو بعضها رهن اشارته في كل ما يطلب اليها .

وكان من سياسته أن يحمل سلطانه على الاعتقاد أنه صاحب النفوذ الاكبر في الولايات العربية ، رضاه رضا العرب وغضبه غضبهم ، وأن عرب السلطنة العثمانية في قبضته ، يحركهم ويسكنهم كما يشاء . واقتضته هذه السياسة أن يتخذ لها من الذرائع السرية والجهرية ما يلجأ اليه بعض الماكرين من السياسيين الماهرين ، ويتحيل لبلوغ مقصده بكل ماؤتيه من ذكاء ودهاء . ولقد رأى من متمات هذه السياسة أن يفتح باباً لكل طالب ، فشخص اليه أرباب المصالح من الاقطار العربية ، يتوسلون بجاهه للحصول على رغائبهم . هذا يريد أن يتولى القضاء أو الافتاء ، وهذا يرغب في ترقية درجته في دائرته ، وهذا ينشد عملاً يمشى به في بلدته ، وهذا تحلب شفتاه لاحراز رتبة وتقلد وسام ، وهذا يكتفي بأن يثبت له نسبه ويصادق عليه ، وهذا بطمع

في الاستيلاء على وقف عظيم ، وهذا ينازعه جاره او شريكه في أرض ويحاول هو استصفاءها كلها ، كل هؤلاء ومن على شاكلتهم يفتدون على السيد أبي الهدى فينشلهم من الفقر ، ويسودهم على الدهر .

وعلى ما بلغ الشيخ من مقام سام ، ظل محافظاً على ما كان عرف به أول أمره ، فلم تله مباحج الحياة ولا القرب من خليفة الترك ، ولا ما كان يتمتع به من جاه غريض ، عن ممارسة طريقته ، والولوع بالانشاد كما كان ينشد ليالي الخان مع مواطنيه الذين ماعرفوا قدره . فأقام إلى جانب قصره لهذا الغرض زاوية ، ينزل بنفسه إلى حلقة الذكر فيها ، مرتين في الاسبوع ، وينشد ، وهو يضرب على الطار ، ما طاب له أن ينشد . ويترنم بقصائد كان يؤثرها ويقول إنها من شعر شيخه الرواس ، زاعماً ان هذا الشيخ كان بغدادي الاصل ، تعلم في أزهر مصر ، وأنه وافاه في آخر عمره إلى قرية خان شيخون ، وأعطاه الطريق ودفع اليه شعره ولفته سره . وقد بنى الصيادي لشيخه زاوية في مدينة السلام ، وفاءً لحقه عليه ، وتكريماً لاسمه ، وتنويعاً بتقواه ، كما بنى مثلها في أماكن من ديار العرب ، رأى حاجتها ماسة إلى نشر طريقته . أما الشيخ الرواس صاحب الشعر الذي كان محبباً إلى قلب أبي الهدى فقد حدثني الثقة أنه شخص موهوم ، وما عرف رجل اسمه الرواس صاحب طريقة وشاعر مقبول الشعر . سر من الاسرار لم ينكشف لأحد ،

يقول بعضهم إن أبا الهدى لم يكن على شيء كثير من العلم والأدب أول ظهوره ، فلما عظمت شخصيته جلب معلمين لأولاده ، فكان بحجة أنه يلاحظ دروسهم يستمع لما يلقى من الاساتذة ، وبذلك تعلم ما قوي به على وضع بعض كتب في التصوف والأدب بلغت نحو أربعين رسالة وكتاباً . وقيل إن بعض خواصه نحله بعضها ، وإنه ما كان ينظم ولا ينثر ، والناظمون والناترون بمض قاصديه وعفاته . على أن من زاروا الشيخ في أواخر أمره كان يستنوبهم بحمائل حديثه ، وسعة محفوظه ومكارم أخلاقه ، وشدة عطفه على العرب من دور سائر العناصر العثمانية .

وأهين الشيخ في الانقلاب العثماني (١٩٠٨) اهانة لا يليق صدورها من أولياء الأمر يومئذ ، سلطوا عليه الرعاع ، وهم يحملونه مريضاً إلى الحبس وهو شيخ معمر ما كان مع السلطان في مقام المتجسس ، بل في مقام الناصح المرشد ، دلت على ذلك تقاريره التي عثر عليها في جملة ما ظفروا به من اضبارات السلطان المخلوع . وأكد العارفون انه ما خاطبه مدة اتصاله به إلا بما فيه نفع الدولة ، حتى لقد قال كبير حزب الاتحاد والترقي لجماعته ، لما عرّتهم الدهشة بما في هذه الأوراق : اكتبوا الأمر ولا تنشروها ، وإذا فلتتم لملو منزلة أبي الهدى في النفوس ، وربما عاد القوم فقدسوه وتبركوا به ، فتزيدون ولياً آخر إلى أوليائكم .

هذا يحمل ما يقال في أولية السيد أبي الهدى وخاتمته ، وهو لم يتوخ في معظم ما أناه إلا رضاء السلطان لتدوم له نعمته ، وما كان في الواقع غير رجل وصل إلى ما وصل إليه بمواهبه وجربزته . وما كانت لنعمة الإصلاح مكان في نفسه ، ولا لتوسيد أعمال الدولة للكفاة شأن عنده ، بل كان هواه في تكثير عدد أنصاره ، وارضاء المرتزقة الذين دأبوا في كل زمن أن يمشوا على عاتق المسلة حلقة طفيلية تمتص الدم وتغرق العظم . والمصلحون أفراد في كل أمة ، وأبو الهدى ما ادعى أنه منهم ، فهو قد نشأ على حب الطريقة ، والتغني بالجمال ، والغرام بالخلوات ، وبقي طول اتصاله بالسلطان لأم له في الظاهر إلا بث دعوته واثبات نسبته . سعى لما فطر عليه وأخذ من نفسه ، ولا ينفي الانسان إلا بما عنده .

بعد أن استمتع أبو الهدى بالخطوة لدى ابن عثمان أعواماً ، وخدم السلطنة العثمانية بمحاربه الوهابية ، جاء رجل آخر من أبناء العرب نفق عليه بأسلوب خالف فيه أسلوب الأول ، وخدمه في سياسته الداخلية والخارجية ، وكان من عادته أن يبدد أوهامه ، ويحرفه على ساسة الغربيين ، ويقفه على أحابيلهم ودسائسهم ويقول له أبداً : إن دول الغرب إذا وقع

اتفاقها على الدولة فلا رجاء في بقائها ، أما وهي متخالفة فملى السلطان أن يسرح ويمرح ، وألا يلتفت إلى ما يلقيه بمض رجاله في رؤوءه بتخويفه غضب رعاياه وغضب ادريا ، فهذه مسائل ليست في الحقيقة مما يجب أن يأبه له أمير المؤمنين .

هذا الرجل من أهل دمشق ينتسب إلى قبيلة الموالي العربية ، جاء السلطان العثماني بجهاز لا بأس به من لئات ومعلومات حقوقية ومالية ، واسمه أحمد عزت العابد ، من أسرة ذات وجهة وسابقة في خدمة الدولة . وكان أيضاً نادر الذكاء ، واسع الحيلة ، أوصله إلى الملك أحد كبار مقربيه ، وكان من قبل في منصب عال في الاستانة ، فاخبره السلطان ثم جملة موضع ثقته ، واتخذ منه رجلاً يرسله في المظالم ، ويعمل عليه في الخطوب .

كان اسم وظيفته الرسمية قرين الخضره السلطانية والسكران الثاني في القصر الملكي ، وعمله في الحقيقة من أهم الاعمال . كان ينظر في الارادات السلطانية ويرى فيها رأيه ، وقد يوقف نشر بعضها بمد صدورها إذا وقع فيها على نقص ، أو ما يلاحظ منه ضرر يعود على السلطان أو السلطنة ، فتعاد الارادة لتلبس قالباً ثانياً ثم توشح بالاسم السلطاني ، أو يصرف النظر عنها بالمره . والسلطان يحمد ذلك من ممتده ويرفضه ، لاعتقاده اخلاصه ومعرفته . وأكد المارفون أنه كانت تعرض للسلطان في الليل عوارض لضرب لها أعصابه فتصدر بمض اراداته في تلك الساعة خداجاً ناقصة . فنزلة أحمد عزت باشا في القصر كانت إذا منزلة المستشار الثقة وصاحب الخبر الأمين .

تفانى ابن العابد في حب مولاه ، وكان يهون عليه أن يخطر ضروب الالهانات ، وأن أشوه صحيفته عند الخواص والعوام إذا كانت في ذلك رضا سلطانه ، وربما كان من أهم أعماله مراقبة أحوال الوزارة وما تنقضه وتبرمه ، وكثيراً ما يلقى من ذلك عتاً إذا كان رئيس الوزارة أو أحد وزرائها حراً أياً كما وقع أن هجم عليه مرة رضا باشا وزير الحرب وضربه بالكرسى على رأسه فأدماه ، لما دخل عند انعقاد مجلس الوزراء ، وليس

من حقه أن يدخل إليه ولا أن يتكلم فيه ، وكان الوزراء يتفاوضون في نورة اندلع لهيبها في اليمن ويفكرون بإرسال حملة تطفئها .

نعم كان يحمل من نفسه مجناً يدرأ به عن سيده ، فيحتمل دونه تبعه أعمال سياسية خطيرة . ووقع له لما خبأ في جيبه برقيات أتت من قائد الحملة اليونانية ، لأن مولاه كان يحاول التسوية في إعطاء الجواب ، ولا يحب في باطنه أن يدخل في حرب مع اليونان ولا مع غيرهم . فرضي ابن العابد أن يطمئن به العطن الشديد ، ويُغضب رجال الدولة ، وكانوا يرون اشهار الحرب على العدو ضربة لازب .

ربما لم يحنق الأتراك على أحد من أبناء العرب الذين شاركوهم في الحكم مثل حنقهم على ابن العابد ، جاهره بالكراهة الشديدة ، وكرهتهم له ناشئة من استئثاره بمقدرات المملكة ، وببعض الفنائم التي كانت وقفاً على أفراد منهم ، ولاُمور كانوا يعزونها إليه تتعلق بالأعراض . وحدثنى أحد من اختلطوا به كثيراً أن حب قوميته كان ماثلاً فيه كل المثل ، حتى ليجهز بقوميته أمام أعرق الأتراك في التفني بقوميتهم ، ولطالما أظهر لهم الوشم الذي طبع على معصمه الأيمن ، وهو يوقع الأوراق الرسمية لبريهم أنه فخور بمريته ، وأن أصحاب الدولة في حاجة ماسة إليه ، على طول استئثارهم بأُمور الملك ، ولكن هذه الفصول أشبه بالهزل منها بالجد . ولو كان على اخلاص فيما زعم لآتى بدليل حسي على حبه قومه ، ومن يهوى أُمته وكان في مثل مقامه ينهض بها ويدلها على الطريق السوي ويحقق لها امنية من أمانى المصلحين . وإذا جئنا ندرس أخلاق المترجم له فلا نجد أنها تخرج عن أخلاق سائر المتعلمين من أبناء السلطنة في ذلك العهد ، يتقنون لغة الدولة للتسلق إلى المناصب ، ويتفقهون فيما يلزمهم من العلم ، ليجدوا السبيل إلى تسديد أعمالهم ، ويجمعوا أموالاً من طرق يستحلونها . ولم نسمع أن أحداً من أبناء العرب على العهد الأخير بذل لقومه من ماله وجاهه ما يفهم حقيقة ، ومنهم من كانوا إذا خلوا بالأتراك يبرؤن من قوميتهم ويشتمون قومهم . أما أبو

الهدى الصيادي وعزت العابد فقد أرضيا الناس بالقشور ، وقد تكون مرة مضرّة أحياناً ، فأعمياهم بالناسب والرتب والأوسمة ، وحملوا حثالات من الموظفين على رقاب الامة حتى ضجت بالشكوى من مظالمهم واستباحتهم كيد الضمفاء . كان من دواعي تقدمها كونها من أبناء العرب ولم ينفعوا من تقدما على حسابهم بشيء يذكر . وكان السلطان يصطنع العرب وغيرهم من العناصر ليقوى بهم على الترك ، وهؤلاء كانوا ينفذونه وما زالوا به حتى خلعوه . كان عزت العابد مثل رجال السلطنة في أخلاقه ، ولا يتيسر أن تكون سيرته أطيب من سيرتهم في مملكة غاية ما يقال فيها أنها مجموعة عناصر متشاكسة ، نصف أهلها على النصف الآخر جواسيس ، كما قال أحد الظرفاء ، وفي عهد سلطان حبت اليه الوشايات حتى أصبح الابن يتجسس على والده ، والمرأة على زوجها ، وهو لا يرى سلامة مملكة إلا إذا كان رجاله مختلفين ، وامته متدبرة متباغضة ، كأنه كان يجب أن يحكم رعيته بالدسائس لا بالعدل والاحسان .

وبينا كان الشيخ الصيادي متوفراً على تأييد نفوذه في ارض العرب ، ودعوته اناشيد وطارات ، وخوانق ورباطات ، كان أحمد عزت باشا يجد لانشاء الخط الحديدي الحجازي من حيفا إلى درعا ومن دمشق إلى المدينة ، لتربط جزيرة العرب بآسيا الصغرى رباطاً محكماً ، واليه يرجع الفضل بعد اعانات العالم الاسلامي في تمديد هذا الخط العظيم ، وقيل إنه ما انتفع بشيء من أمواله . ولو تأخر سقوط عبد الحميد عامين آخرين لالتصل الخط بمكة ثم بصنماء .

لهج عزت باشا بتجهيز الشام والحجاز بالكهرباء ، وخطوط الحديد والترام ، كما لهج منافسه بعمل كل ما يؤثر في أفكار أهل الأمصار ، ومن الطرق إلى ذلك ارضاء قصاده ، وكان يعاني من تثقلهم ما لا يكاد يحتمله انسان . وخدم عزت باشا مولاه أيضاً في المسائل العربية ، وكان ملأً بها لأنه عاش زمناً في الشام حتى بلغ الكهولة ، فمرف نفسه العرب

أكثر من رجال القصر السلطاني ، ومعظمهم لم يخرجوا من فروق الى بعض الولايات إلا على سبيل الزهرة أياماً معدودة . والقالب أن سلطان العثمانيين صنف كبار رجال سلطنته أصنافاً صنفاً منهم احتفظ به لخدمته في العاصمة وآخر أرسله إلى الولايات . وابن العابد جمع تجارب أهل القاصية والدانية من رجالة .

كان عمل العربيين العظميين عند السلطان متشابهاً من وجه ، ومتخالفاً من آخر ، وهو صدق السلطان عن الاخبار ، وكانت المنافسة بينها على أتمها ، قضت سياستها أن يعرف (ولي النعم) أنها عدوان لدودان ، فكان أحدهما يتكلف الطعن بالآخر ، ويظهر كل واحد مساوي قرينه ، وبتزديد في بغضه له .

مات ابو الهدى فقيراً ، وكان متلاًفاً مسرفاً ، وهلك زميله غنياً موسراً ، ضاماً إلى ثروته الأصلية من روائبه الضخمة والانعامات السلطانية المتواترة عليه ، عشرات الألوف من الليرات ، أخذها من الامتيازات والشركات وغيرها ، فمدت ثروته بمئات الالوف من الدنانير ، وكان جد عارف باستثمار الأموال وانتهاز الفرص للارتقاء ، وهو إلى هذا مقتصد اقتصاداً هو البخل بعينه . كان الأول قروياً من بيت فقير ، وكان الثاني مدنياً من بيت غنى . عانى الأول شيئاً يمت في ظاهره إلى المعاد ، وبني الثاني بما يحتاجه من القوانين وعلوم السياسة . فسكان تربية الأول تربية قديمة ولك أن تقول إنها تربية ابن القرن الحادي عشر من الهجرة ، وتربية الثاني تربية ابن القرن التاسع عشر للعباد . حاول الأول أن يمد الخلق إلى ماض خيالي لانفع منه ، وحرص الثاني أن يدفع ببلاده إلى الأمام بعمرائها ومدنيتها . استفاد الأول في حياته ثناء من أحسن اليهم ، وما نفعه يوم سقوطه ، واستفاد الثاني ما كثرت به أمواله فكان عملياً في حياته ما أمه المدح ولا القبح ، ولا ثناء صحيفة ولا قول شاعر . عشق الشيخ المعنويات وهام الباشا بالماديات .

الرجال الذين عرفتهم في مصر

دخلتُ مصر لأول مرة (سنة ١٩٠١) وبدأتُ أعرف إلى رجالها ولا سيما رجال الصحافة منهم وكانت كثيرهم الفاهرة يومئذ من أبناء سورية ولا سيما من لبنان . وكان الشيخ عبد الحميد الزهراوي الحمصي نزيل دمشق ألّف رسالة في الفقه والتصوف وطلب مني أن أطبعها له في القاهرة ففعلت . وعرف اسم الطابع من البريد ، لأن الرسائل الواردة من مصر تفتح كلها . وعمل الجواسيس من هذه الرسالة موضوعاً يقتربون به إلى ولاية الأمور ، فكان طابع الرسالة كؤلفها من المفضوب عليهم . فاضطرت إلى البقاء في القاهرة ريثما تسكن العاصفة وينسى الذنب الذي اقترفته .

وكانت جريدة (مصباح الشرق) أرقى جريدة اسبوعية صدرت ، يحررها محمد بك المويلحي وبؤازره فيها أبوه ابراهيم بك من أكبر كتاب ذاك العصر ، وأقدرهم على كتابة الهزل في الجسد . ويطبعها في المطبعة العمومية بشارع عبدالعزيز حيث يطبع « الرائد المصري » الذي بدأت احرق فيه في الشهر الثاني من نزولي مصر .

ولم اجرؤ على التعرف إلى المويلحيين ، وخصوصاً الاب ، وتباعدت عنه لما رأيته ينال كثيراً من استاذي الشيخ محمد عبده ، ويتقول عليه ما لم يقله ، ويصنع عليه أموراً لم يفعلها ، وقيل انه كان مدفوعاً إلى ذلك من مقام عال . وأنا كنت يومئذ أعشق الشيخ ، وأفتخر بالانتساب إليه ، وأعجب ببلاغته والقائه ، وأدهش بسيرته وحرите . وكنت أحضر دروسه في التفسير مرتين في الاسبوع في الرواق العباسي في الأزهر . وأغشى مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الاسبوع . وسمعت أحد الحاضرين في بعض مجالسه يقول والمجلس غاص بأصحاب الشيخ : أرى ابراهيم

المويلحي في هذه الأيام ساكناً عن مولانا الاستاذ . فقال الشيخ : أما أحمد الله على ذلك ، ولولا أن الأسد مصاب بالنسيان لافترس جميع الحيوانات . أو ما هذا معناه .

لقيت من الشيخ محمد عبده أول كثر في به عطفاً استعبدني به ، ولقد قال لجماعته ساعة اجتمعنا أنه قرأ ما كتب في مشروع السكة الحديدية الحجازية ولم يدرك الغاية منها ، ولا تخيل عظم هذا العمل ، ولما قرأ ما كتبت ، وأشار إليّ ، في مجله المقتطف ، وقع في مقالتي على ما لم يقع على مثله في الجرائد الاخرى . فعندها شخصت الابصار اليّ ، وقد عرفني إلى جماعته بما قال لمربياً مقبولاً نفهني ، وما أظنه كان يقصد بالتنويه بمملي إلا الاخذ بيد شاب مغمور إلى طريق الشهرة . وبالفعل كان من حسن حظي أن تعرفت بعد هذه الجلسة إلى كثير من الرجال ما كان يتيسر لي أن أعرف أمثالهم في أشهر طويلة . وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الامة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم . كان الشيخ إلى علمه الواسع رجل سياسة عظيم ، يستخدم الاساليب السياسية لنفع الامة . رأيت الشيخ محمد شاكر ، وكان من أذكى الأزهريين في عصره ، يحمل في بعض الصحف على الشيخ بامضاء مستعار . وما راغني وأنا عنده في عين شمس جالس في المجلس وما كان أتى أحد من الزوار ، إلا والشيخ شاكر يحضر ويسلم على الشيخ تسليم حب وتمظيم ، وبقبل راحة الشيخ من قفاها وباطنها ويبالغ في احترامه ، فاستغربت ذلك ، وكان الشيخ لاحظ هذا فما زادني على نظرة بابتسامة وعلمت بعد ذلك أن الشيخ هو الذي أشار إلى الشيخ محمد شاكر أن يغمزه في الأحياء ، ويظهر للملاء أنه من خصومه ، ليقنع القصر أنه وياه على طرفي نقيض . ذلك لأن الشيخ كان يريد اصلاح معهد الاسكندرية ، وما كان يرى من رجال الأزهر من يحسن الاضطلاع بذلك غير الشيخ شاكر . واعتقد أن الجناب العالي لا يرضي بالشيخ شاكر لهذا العمل ، إذا كان موصي عليه

من الشيخ محمد عبده . فأوعز إلى الشيخ شاكر أن يظهر الخلاف عليه ، فتم له ما أراد من اصلاح المهدي الاسكندري على يد الشيخ شاكر . وكان المشهور أن الشيخ شاكر من أخصاء الشيخ ، وهو الذي اقترح على لورد كرومر أن يجعله قاضي قضاة السودان ، لكفاءته وبعد همته .

كنت أعلم أن الخديوي عباس كان يحب بالشيخ محمد عبده ، ويعتمد على رأيه ويستشيريه في الأزمات ، ثم غضب عليه فتقدمت بعض الصحف تنادي بإسقاطه . وقبل إن سبب غضبه منبعث من كونه قاومه في بعض مسائله الخاصة في الأوقاف ، وكان ذلك مبدأ المداوة . وكان المبعث بأموال الأوقاف على ماروي لي صديقي عبد الرحمن بك فهمي (وكيل وزارة الأوقاف سابقاً) السبب الأكيد في جعل وزارة الأوقاف وزارة برأسها كسائر وزارات مصر تابعة لمجلس الوزراء مستقلة في موازاتها .

كان الفضل في تقديمي الى فضلاء المصريين في رحلتي الأولى إلى مصر لصديقي رفيق بك العظيم والسيد محمد رشيد رضا وكان من أعظم أمانتي النفس أن أتعرف الى علماء القطر وأدبائه ، فقرت اليهم منهم بنفري لم أشهد مثلهم في أرض الشام . ولا سيما جماعة الشيخ محمد عبده وجماعة دار العلوم ، وهم أيضاً من أصدقاء محمد عبده بفتخرون بالنسبة اليه . وكان شوقي اليهم لا يوصف بعد أن غادرت القطر في الرحلة الأولى على ألا أعود اليه ، لكثرة ما كنت متبرماً بالعيش فيه . فلما أقمت شهراً في بلدي عاد الحنين إلى مصر وأهلها . وما أعظم تبدل الحالات النفسية .

كان أصحاب الشيخ المفتي بحكم منصبه أخلاطاً ، المتخرجون في دار العلوم نمطاً واحداً . ولمقد اجتماعات هؤلاء كل مساء في قهوة مناتيا أمام حديقة الازبكية ، والها كان يختلف المشايخ والافنديه والبكوات والباشاوات : محمد المهدي . أحمد الاسكندري . محمد الخصري . عبد العزيز شاويش . حسن توفيق العدل . سلطان محمد . حفي ناصف . أحمد ابراهيم . حسن منصور . محمد دياب . محمد عبد المطلب . وكلهم تلاميذ دار العلوم وأكثرهم يدرس

فيها أو في مدارس أخرى ، وكان يرأسنا الدكتور عثمان باشا غالب مدير القصر العيني ، وهو عالم بالطب والمواليد الثلاثة ، وله تأليف جليلة وثقافة افرنسية ، يحسن هذه اللغة كما يحسنها أدبائها . ويختلف الينا شاعر النيل حافظ ابراهيم . ولا نسل عن روعة ذاك المجلس ، وإن كان أكثر من فيه من الشبان ، ولكن شبان ولا كالشبان ، ومجلسهم في الحقيقة مجمع علمي في مقهى ، نسمع فيه من كل فن خبراً .

هذا عداء من كان يختلف إلى هذا المقهى من رجال العلم والأدب ، وكان مجبهم على غير اطراد . أمثال علي بهجت ، اسماعيل رأفت . مصطفى لطفي المنفلوطي . محمد لطفي جمعة . أحمد مفتاح . وبصورة مستديمة أمام العبد الشاعر . وبجيء إلى هذا المجلس بعض الصحفيين ، وإن كان عشهم في قهوة اسبلنديدار في شارع ابراهيم باشا . وهناك تلقى محمد مسعود . حافظ عوض . داود بركات ، يوسف الخازن . أحمد الأتاني . صادق عنبر . نجيب شاهين . اسكندر شاهين . محمد السباعي . ولي الدين يكن . ابراهيم سليم النجار . خليل زينية . سليم سر كيس . علي يوسف الكريدي . الياس فياض . طانيوس عبده . سامي قصيري . توفيق حبيب . يوسف يكن . يوسف البستاني . مصطفى الدمياطي . احمد حلمي . ومن علماء السوريين وأدبائهم الراتين في هذا المقهى . سامان البستاني . رفيق العظم . شبلي شميل . عبدالرحمن الكواكبي . خليل سمادة . رشيد رضا . خليل مطران . داود عمون . وبعد حين انضم اليهم الشيخ طاهر الجزائري ، ولاجله كان يحضر احياناً أحمد تيمور بك واحمد زكي بك العالمان المشهوران . ويتردد اليها كثير من رجال القضاء والادارة امثال محمود رشاد . اسكندر عمون . سعيد شقير . نعيم شقير . ابراهيم مصور وهناك كثير من الأدباء والامراء لا يختلفون الى المقاهي كثيراً ويقصدهم من يريد منهم في بيوتهم ومكاتبهم أمثال قاسم أمين . فتحي زغلول . حسن عاصم . محمد فريد . محمود سالم . محمد محمود التركزي الشنقيطي . ابراهيم اليازجي . يعقوب صروف . فارس نمر . محمود سامي البارودي . اسماعيل صبري . أحمد شوقي . عبد العزيز فهمي .

أحمد لطفي السيد . جرجي زيدان . علي يوسف . مصطفى كامل . أحمد كمال .
اسماعيل حسنين . محمد البيلاوي . عبد الحميد البكري . عبد العزيز محمد .
عبد المحسن الكاظمي .

ولم يكن يذكر في مصر يومئذ من يتولون زعامة الآداب والعلوم اليوم
مثل محمد مصطفى المراغي . علي مسرور الزنكلاني . محمود أبو الميoun . طه حسين .
علي مشرفة . سليم حسين . ابراهيم الهلباوي . عبد الرزاق السنهوري .
محمد حسين هيكل . مصطفى عبد الرزاق . عبد الرحمن الرافي . أمين الرافي .
مصطفى صادق الرافي . أحمد أمين . أحمد زكي . علي ابراهيم . عبد القادر حمزة .
منصور فهمي . عباس محمود العقاد . ابراهيم عبد القادر المازني . انطون جميل .
خليل ثابت . عبد المنعم رياض . محمود شلتوت . محمود عزمي . أحمد حسنين .
صادق جوهر . محمد توفيق دياب . عبد الحميد حمدي . أمين سرور . اسمعيل لطفي .
سعيد لطفي . أسعد برادة . امين معلوف . أحمد نسيم . محمد الهراوي . أحمد
الكاشف . أحمد محرم . علي فؤاد . محمد رياض . عبد الحميد العبادي .
عبد الوهاب عزام . عبد الرحمن عزام . أحمد حسن الزيات . محمود الزناتي .
محمد عبد الواحد خلاف . عبد الوهاب خلاف . زكي محمد حسن . أحمد عاصم .
محمد عوض محمد . عبد الرحمن البرقوقي . عبد العزيز البشري . احمد فهمي
المعروسي . أحمد ضيف . أحمد الموامري . علي الجارم . أحمد فريد الرفاعي .
حسن ابراهيم حسن . محمد أحمد الغمراوي . أمين موسى قنديل . توفيق
الحكيم . مصطفى زيادة . أحمد عبد السلام الكرداني . وحيد الايوبى .
ابراهيم مصطفى . عبد الحميد نافع . حسن الشريف . حسن السندوبي . محمد
بدر . محمد عبد الله عنان . علي فكري . اميل زيدان . امين الخولي . شفيق
غربال . صبري أبو علم . محمد فهمي . محمد أحمد جاد المولى . محمود تيمور .
محمد فريد أبو حديد . أحمد زكي أبو شادي . محبوب ثابت . أحمد عيسى .
جرجي صبحي . ابراهيم رمزي . طنطاوي جوهرى . أحمد خليل . فؤاد
صروف . محمد هاشم عطية . عبد الرحمن الجزيري . الدمرداش محمد . ابراهيم

مدكور . احمد مصطفى المراغي . كامل كيلاني . راشد رستم . محمد امين
 حسونة . عبد الوهاب حمودة . أمين واصف . نسيم صبيحة . يوسف كرم
 محمد صبري . مظهر سعيد . أمير بقطر . عبد الله عفيفي . فكري أباطة .
 حسين شفيق المصري . أحمد وفيق . سلامة موسى . محمد الصادق حسين .
 محب الدين الخطيب . ابراهيم جلال . صالح جودت . عبد العزيز أحمد .
 محمد عبد الغني حسن . توحيد السلحدار . أمين عثمان . أحمد الشايب . حافظ
 رمضان . ابراهيم دسوقي أباطة . فؤاد أباطة . علي أدهم . عبد الحميد السنوسي .
 مصطفى نظيف . حسن القاياتي . محمود محمد شاكر . أحمد محمد شاكر .
 محمد بدران . عزيز خانكي . حنفي محمود . عبد الحميد بدوي . علي توفيق شوشه .
 هؤلاء الذين عرفتهم في الدور الأخير من العلماء والادباء ، وقرأت
 كتبهم ومقالاتهم وعاشتهم وجالستهم وهم جيل جميل ، وأكثرهم بين الأربعين
 والخمسين وقليل منهم تجاوز الستين . وبعضهم سبقونا إلى رحمة الله . ولعل
 هناك من يماثلهم في القطر لم ألاحظ ببقائهم وأعرفهم من كتبهم أمثال أمين
 سامي . محمد فريد وجدي . أو هم ممن شغلتهم مناصبهم عن اظهار علمهم
 واشتهروا في ناحية اخرى وهم في حقيقتهم علماء مفكرون ، مارسوا خدمة
 الآداب على كثرة ما لديهم من الشواغل . عرفت منهم حافظ عفيفي . أحمد
 شفيق . علي ماهر . بهي الدين بركات . طلعت حرب . محمد علي علوبة .
 محمد حلمي عيسى . نجيب الهلالي . صبري ابو علم . محمد الشماوي ، علي الشمسي
 جعفر ولي . محمد رياض . علي زكي العربي . سفي اللقاني . سليم حسن
 أحمد فخري . عادل غضبان . السيد احمد صقر . شوقي ضيف . عدا من
 نسبتهم ولم يبقوا على خطري .

أخرجت مصر في العهد الأخير عطاء في معظم الفنون والعلوم ، وتغير
 نظام الأزهر فأخذ يخرج من دار العلوم والجامعة طبقات من الأدباء
 والباحثين ما كان لمصر ولا للشرق العربي عهد بأمثالهم ، فنبهوا وساعدوا
 على نبوغهم كونهم من أمة متألفة منذ عهد محمد علي الكبير ، وكان لهم

عما تدر ديارهم من أخلاف الرزق ، ويفيض فيها من معين النقي ، أكبر معوان على التشقق والتلم . يضاف إلى ذلك ما خص به المصري من ذكاء فطري ، وما امتازت به أرضه لقربها من أوروبا ، فكان احتكاكهم بالغربيين أكثر من جميع أمم الشرق . ولا يكاد يجول في الخاطر فن إلا ونجد فيه اليوم إحصائياً أو عدة أخصائيين ، وأكثر ما غلب عليهم من العلوم علم الحقوق والطب وهندسة الري ، وهم متأخرون في التجارة والصناعات ، لا يضاھون في مضارها الرومي والارمني واليهودي والطلبياني والسوري من سكان حوض البحر المتوسط .

قال لي أحد أصدقائي في القاهرة منذ بضع سنين إن فلاناً يريد أن يتعرف إليك ، فقلت له : أرجى ذلك الآن . وسألني عن السبب الذي من أجله استنكفت عن الاجتماع إلى صاحبه . فقلت له إن من عرفتهم من الرجال في هذا البلد قد شغلوني عن غيرهم ، واستهواني لطفهم وأدبهم عن أن استكثر من الصحاب . وللصدقة قواعد لا بد من مراعاتها ، وهي مشاركة الصديق صديقه في فرحه وتزجه ، وفي كل حالاته ، لا بد له من ذلك في السفر والحضر ، فإذا كثر على المرء عدد الأصدقاء ، فله أن يختار حالاً من حالين ، إما أن يصرف شطراً من وقته في تمهيدهم ، والقيام بواجباته نحوهم ، وإما أن ينصرف إلى عمله فيضعف عن وفاء حقهم . انكم كلكم معاشر المصريين تحبون بما فطرتهم عليه من حسن العشرة ، ورقة الخصال ، وحضور الذهن ، وجميل الأدب ، فإذا كبرت جريدة من أعرفهم منكم اقتضى لي أن اقتطع من وقتي جانباً انفق في خدمتكم وتمهيدكم ، وليس لي كاتب سر يعاونني ويخفف عني حمل عبء الجزئيات لأنهنش بشغل الكليات . ورجل واحد لا ينهض بواجبات كثيرين ، ومطالب الحياة وافرة ، وشهوات النفس لا تقف عند حد ، ولا بد للمرء من تحقيقها ، والعمر قصير ، والزمان غادر غير ماذر .

درجت على البعد عن رجال السياسة ما وجدت إلى البعد عنهم سبيلا ،
وكنت أنظر إليها بأنها علم واختار تحاميلها في العمل^(١) ، وما عرفت من رجال
السياسة إلا من قضت الأحوال بعمرته بدون تقصد . وزهدني في بعضهم
اني لحظت أن منهم من يترفعون عن الناس ويشمخون بأنوفهم ، وقد تغير
أخلاقهم إذا جلسوا على منصة الحكم . ومن الصعب أن تألف من روحه غير
روحك ، ومن غايته في الحياة غير غايتك . وكيف تخال من يعتقد في
باطنه أن بينك وبينه فوارق ، وأنى تحب من يرفعك ويسترضيك ما دام يؤمل
منك منعا ، ويتباعد عنك إذا ظهر له انه في غنية عنك . من عادة رجل
السياسة خصوصاً ان يحاول الانتفاع من كل قوة تعرض امامه ، وانا
لا احب في الجملة ان استثمر .

عرفت بعض امراء البيت المالك في مصر فأكبرت فيهم ادبهم وفضلهم ،
وصادقت منهم الأمير عمر طوسون ، والأمير يوسف كمال ، فرأيت من تفانيهما
في خدمة مصر ما عظم موقعهما من القلب والعين ، ولو كان كل أمير في
الشرق يقوم بواجبه كما يقومان لتغير ولا جرم وجهه ، ولزادت بين الأمم
قيمة أهله . كان منهما أن جملا ما هما فيه من نعمة سائبة وقفاً على خدمة
مصر ، وشغلا ساعات الفراغ في تدوين الابحاث ووضع الكتب . فأخرجنا
من ذلك مجموعات مفيدة جداً ، يتعذر على كل مؤلف أن يصل إلى مثلها .

(١) كتب إلى الأمير شكيب ارسلان من لوزان يوم ٣٠ نيسان ١٩٢٨ ما نصه :
ما ذكرته لي عن مصر والشام واحوالها السياسية كله معروف ومؤسف ولكن المنافسات الشخصية
وحب الظهور والرئاسة وما يتبع ذلك هي التي تبلي الأوطان بهذه الأمور ، وأكثر ما يقع منها
يكون بلية على الذين بدأوا بها وجعلوا دينهم من أول الزمان الكيد لزيد والدس على عمرو
والارجاف بخالد ظناً بأن هذا هو الذي يسقط الجميع بقبي هناك رئاسة واحدة لا نزاع فيها ...
نعم ان الذين سنوا هذه السنة حسداً من عند أنفسهم وكانوا يعتدون على الناس الذين ما تعرضوا
لهم طول الحياة بأذي هم م الذين وقعوا اليوم في الحفر التي طامأ حفروها لغيرهم ، والله تعالى يصلح
الأحوال ويهلم الناس عزم الأمور وان كان لا بد من قاذورات السياسة في البلاد فالأولى بالمازم
الرشيد ان يلجأ الى قنة العلم ويترك هذه القاذورات لمن يتمرغون فيها هـ .

الدعابات الأجنبية

كثرت رحلات الاجانب قبيل الحرب الاخيرة إلى الشام ، ولكل دولة من الدول بيننا ظهراء ولكل مذهب سياسي جديد أو عتيق متحلون . فبعضهم يعمل للديمقراطيات (حكم الشعب) وآخر يعمل للديكتاتوريات (حكم الفرد) ، وآخر يعمل للشيوعيين المتطرفين ، او الاشتراكيين المعتدلين ومنهم من يجذ الاثراك السكاليين ، وآخر يدعو للملك ابن السمود أو للامير عبد الله بن الحسين إلى غير ذلك .

جاءني منذ خمس سنين أحد نواب إيطاليا يحمل من استاذة صديقي العلامة نلينو وصاة ، يقول إنه يجب أن يدرس حالة التعليم الابتدائي في سورية وفلسطين والعراق ومصر ، لتطبق حكومته من هذه الانظمة ما ترى فيه فائدة لأهالي طرابلس وبرقة (ليلية) وطلب مني ان اذكر معلوماتي في هذا الشأن ، فاعتذرت بتغير بعض نظم التعليم بعدي ، وأرسلته إلى الوزير السيد سليم جنبرت مع كتاب مني . وعاد من الغد ورفيقه الذي معه ، وهو ايطالي ولد في سورية ، يقول إنه يكتفي بما لدي من معلومات عن التعليم وان كانت قديمة ، وأشار إلى أن الوزير الذي أرسلها اليه لا يعرف شيئاً من أمور المعارف ، فقلت له : إن من عنده من الموظفين يعرفون ، وكان عليه أن يطلب منهم ما يلزم ، فقال رفيقه : نحن نكتفي بمعلوماتك فقط ، وعرض بأني أحلها على وزير عامي .

ومما ذكره النائب الايطالي أن فرنسا في سورية على ما رأى ، عنيت فقط بتزيين المدن وأهملت القرى . فقلت له : إنها أجزت في القرى أشياء نافعة ، وطدت الامن ، وعبدت بعض الطرق ، وخفقت الضرائب ، ومنعت السخرة ، ورفعت سلطة المتقربين على المستضعفين ، وزى اليوم اضعف الفلاحين بقم

على أكبر أرباب النفوذ من المزارعين وغيرهم قضية ويربجها إن كانت محقاً إلى آخر ما قلت . فاقترح علي ان اذهب الى رومية لآلقي محاضرات ، والتي باصحابي المستشرقين ، فاعتدت عن الرحلة (لآلتي ذهبت إلى رومية مرتين) لتماقدي مع الجامعة الاميركية بالقاهرة لالقاء محاضرات فيها ، خلال انعقاد جلسات مجمع اللغة العربية الملكي التي انا مضطر لشهودها بصفتي عضواً فيه . وقال لي إذا زرت طرابلس وبرقة ، وأجور السفن رخيصة جداً ، تشهد ماتم فيها من الاصلاح على يد الحكومة الفاشستية ، وما أنشأناه من الطرق والجوامع وعمرنا من الدساكر والقرى . وقال إن من سياسة ايطاليا الاستعمارية ان تجعل بيت العربي إلى جانب بيت الايطالي حتى يمتزجا على الايام . وذكر ما تحرص عليه ايطاليا من اسكان ابنائها في ليبيا ، وماتهي لهم من سبيل التشويق لذلك .

ثم صرّح بأكثر من هذا وقال : لماذا لا نحب الذهاب إلى ايطاليا ؟ واحبابك فيها كثار وهل تحسب لاصحابك هنا حساباً (يعني الفرنسيين) أم هم يحولون دون ذهابك ؟ فقلت له : إنني لأخشاهم ، ولأهم يحظرون علي السفر إلى الجهة التي اختارها ، على أنني لا أرى إن صح أنهم لا يرضيهم ذهابي إلى ايطاليا ، أن آتي ما يفضيهم . ولم أغضبهم وأنا لم ألق منهم إلا كل رعاية منذ وافوا هذه الديار ، فقد ادخلوني الوزارة مرتين بدون علمي ، ورفعوا مقامي بين ابناء قومي ، ولما دنت معهم فما اختفلنا ، كانوا يقنعوني فأسير معهم ، او أقنعهم فيسيرون معي . واتفق ان اخلف مع مستشاري فعزوت اليه أموراً حققوها ورأوا صدقي فيها ، فما لبثوا أن نحووه عن عمله ، واستعاضوا عنه بمستشار من اصحابي ، واوصوه أن يسير معي سيراً حسناً . وكان لهم اثر ظاهر في مظاهرتي على تأسيس المجمع العلمي العربي والمتحف ودار الكتب ، مما لم ألق بمضه من الحكومات الوطنية نفسها . ثم إن يعادي يعادي لسبب ، وانا لم اجد سبباً لمعاداة المنتديين . أما الفرنسيون عندنا فهم من طبقة الموظفين ينفذون فقط ما يؤمرون به . ولي في باريز اصدقاء اعزة علي لا أرى ان يجول في خواطرهم أنني اتيت مالا يرضيهم ،

وإن كان ادبهم يمنهم من التصريح بشيء من ذلك ، فليس ينبغي ،
الفرنسيين إذاً إلا الثقة المتبادلة .

ومن الغد لقيت في ساحة الشهداء أحد أصحاب الأخبار ، وسلم إلي ،
وقال لي بأشفاقاً جداً ، إن نسيبه (الرجل الذي كان مع النائب الإطالي)
حدثه أمس بحديثي مع النائب بخذافيره ، وبالذبح هو نقله إلى من يشاء ،
لهم في البعثة ، وما كنت أعتقد أن الأمر يجري كما جرى ولا أن
رفيق السائح الإيطالي هو إيطالي متبلد في ديارنا وله فيها أقارب .

وبعد مدة عرضت عليّ محطة باري اللاسلكية في إيطاليا أن أوافيها
بخمسة عشرة محاضرة في الموضوعات التي اختارها ماعدا السياسة ففعلت ،
والقيت المحاضرات باسمي . وقال لي أحد أصحابي إن قبولك بمحاضرة
المستمعين من محطة باري اللاسلكية هو خدمة إيطاليا من طريق غير
مباشرة . فأجبت إنها خدمة العرب من طريق مباشر ، والموضوعات علمية
أدبية تاريخية فكاهية . فالعرب هم الذين أتوخي نفهم ، وهم الذين يستمعون
إليها ، ولو طلبت مني سائر المحطات العربية في الغرب أن أوافيها بمثل هذه
المحاضرات ما تأخرت عن اجابة طلبها ، مادام الذين يستمعون إليها هم قومي .
أما خدمة سياسة إيطاليا أو غير إيطاليا فلها أشخاص غيري يحسنونها أكثر مني .
وكتب إليّ في هذا الربيع (١٣٥٩ - ١٩٤٠) المستر باربر المستشرق

الانكليزي أنه وسدت إليه خدمة في محطة الاذاعة اللاسلكية في لندن
وطلب مني أن أوافيه بأحاديث تاريخية وأدبية لتلقى باسمي من تلك المحطة ،
فاخترت له عشرة أحاديث من مذكراتي الخاصة ، قدرت أنها بما يلد سماعه ،
فانتلها وأكد لي أنها ستحوز القبول من كل بد عند اللجنة الموكل
إليها النظر في أحاديث المحدثين . وأشرت إليه أن له الحرية أن يحذف من
أحاديثي ما يشاء ويبقي على ما يشاء ، فأرجعها بعد مدة معتذراً ، وما قال
في كتابه (وعندنا أنكم إذا جمعتم هذه الأحاديث في كتاب عن مذكراتكم
فإنه ولا شك يصادف قبولا عظيماً ، لا من العالم العربي ، بل من هؤلاء

الانكليز المهتمين بشؤون الأقطار العربية ... وعلاوة على ذلك فإنها ككل المذكرات الشخصية تتضمن بعض اشارات الى شخصيات بارزة بعضها لا يزال على قيد الحياة ، والبعض الآخر قد اختاره الله تعالى إلى جواره . ومع أن هيئة الاذاعة البريطانية هيئة مستقلة فنشعر بأن اعتقاد الجمهور أنها على صلة بالحكومة الانكليزية (كذا) قد يمرضنا للنقد إذا نحن أذعننا مثل هذه الأحاديث ، وأظن محطة الاذاعة اللندنية استفتت أيضاً اضبارتي ، فما رأيي على الأرجح حرياً بأن أستمع بثقتهم ، والله يعلم السر وأخفى .

والستر باربر الذي تفضل وطلب إليّ أحاديث للمحطة اللندنية ، كان زارني منذ سنين يحمل وصاة من الدكتور أحمد سامح الخالدي من رجال التعليم في فلسطين فأهلت به ورحبت ، ورأيته مستشرقاً مستغرباً ، وقد كتب كتاباً بالانكليزية في التمثيل العربي في مصر ، وهو من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، كان مراسلاً لجريدة التيمس فاستقال ، وهو على جانب عظيم من التهذيب ، سألت عنه احد رجال فلسطين فقال : هو كما قاله لك الخالدي من أحباب العرب ، وخبرناه بالاشتغال معه فكان صادقاً في قوله وعمله . وتباحثنا ساعات طويلة في سياسة الانكليز مع العرب ، وفي الوحدة العربية ، وفي اغلاط الحكومات الانكليزية في هذا الباب . وقلت له : إن العرب احبوا الانكليز فما قابلوهم على حبهم لهم بحب مثله ، وما شرط من يجب إلا ان يحب . وبحسنا في انحطاط المسلمين ، وفي ثورة فلسطين ، وفيما ارتكبه البريطانيون من الخطأ مع اهلها . وتحدثنا في تحزبهم الظاهر للصهيونيين ، وبشرني في قدمة ثانية ان حكومته قررت ان تغير سياستها في فلسطين ، وقال إنه ألف كتاباً في القضية الفلسطينية ، وما جاء فيه انه مُطلب إلى رئيس حكومته ان يختار محلاً في ارجاء الامبراطورية الانكليزية يؤوي اربعة وعشرين ألف مهاجر اشوري ، فكان الجواب انه لا يوجد مكان في الامبراطورية يتسع لهذا العدد . فعقب على ذلك بقوله : إذا كانت هذه الامبراطورية الكبرى ليس فيها مكان لاستيعاب هذا المدد من المهاجرين ، فهل في قدرة فلسطين الصغيرة

الرقمة ان تؤوي سبعة عشر مليوناً من اليهود ؟ وقال في محاضرة له في فلسطين القاها في بريطانيا وارسلها الي مطبوعة في كراسه : إن الصهيونيين كانوا عرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني ان يبيعهم فلسطين بمبلغ عظيم فأجابهم إن فلسطين وان كنت الخليفة ليست ملكي ، وهي ملك من عجنت تربتها بدمائهم .

اقترح علي أناس من العرب والافرنج من المتصلين بالملك ابن سعود صاحب الحجاز ونجد أن أذهب لزيارته في الحجاز ، أو أن أحج في الموسم ، فكنت أعتذر . ودعيت مرات منذ عشر سنين إلى زيارة بعض أمراء العرب فاعتذرت ، لأنني لا أريد أن أخدم سياسة احد . وإذا قضي علي ذات يوم أن أخوض غمار السياسة فيكون ذلك لما أعتقد فيه مصلحة الجماعة ، لا أخدم شخصاً بعينه ، ولا دولة برأسها . ولو كان لي مثل هذا المأرب لكانت مصر أولى الدول بالتطوع في خدمتها ، والأشياء فيها موفورة لي أكثر من كل قطر .

قصدي في العهد الأخير كثير من علماء المشرقيات من الالمان والروس والدانيمركيين والاسبانيين ، وبعض الهنود المسلمين وغيرهم . وكلهم كتموا المهمات التي جاؤا لأجلها ، وأعتقد أن أكثرهم يخدمون سياسة أمهم أو السياسة التي استخدمتهم . ومزحت مع رجل نمساوي جاء ليؤلف كتاباً في سورية ، فقلت له : كأنني بكم يا معشر النمساويين كستيقظون ذات صباح فترون على حدودكم مئتي الف جندي ألماني يريدون ضمكم إلى بلادهم ، فقال : إن الأمر لا يتوقف على مئتي الف جندي لأن خمسة وتسعين في المئة منا يريد الانضمام إلى المانيا . ومزحت مع جرمانى سويسري وقلت له : إن الثلاثة ملايين الماني سويسري ، وهم ثلاثة ارباع سكان سويسرا سينضمون إلى المانيا فما هسّ لقولي ، وقال : لا نريد ذلك لا نريد ، وهذا أمر لا يتم .

وجاءني مرة انكليزي موظف في وظيفة عظيمة في العراق يحمل لي سلاماً من صديقي الاستاذ مارجوليوث المستشرق الانكليزي ، وسألني رأيي

في الوهاية فذكرت له مذهبهم ، وقلت له انهم تخلصوا من الخرافات بعض الشيء ، وهم أشبه بالبرستانت عندهم . قال : هذا لا يهمني بل احب أن تذكر لي رأيك هل في مكنتهم أن يقوموا بدعوة سياسية ؟ فقلت : إذا ودّ البريطانيون ذلك . ثم قال : والحجاز ألا يرجي الخير منه للعرب ؟ فقلت له : إن المسلمين يمتقدون أن كل خير جاءهم كان من رسولهم محمد ابن عبد الله ، ولما كان من عقيدتهم ألا يقوم نبي بعده فالخير لا يتوقع من الحجاز . وتكلمنا في الثورة المصرية وقال إن القامخين بها شباب لا يقدرّون التبعات فقلت : ان أكثر الثورات في العالم قامت بأيدي الفتيان ، وثوار مصر أخطأوا بالنسبة لمصالحكم وأحسنوا لأنهم . وتكلمنا في تقسيم الديار الشامية وفي أراضي الانتدابيين الفرنسي والانكليزي . وبعد اشهر زحف ابن سعود على الحجاز واخذ الملك حسين الى قبرص .

وجاءني المستر لاياس مدير مدارس فيكتوريا بالاسكندرية سابقاً ، وكان قضى بضع سنين في دمشق ليُحَكِّم اللغة العربية ، ونقل إلى لغته ديوان الحماسة لأبي تمام شعراً فيما بلغني ، وكان عالماً فاضلاً ، وسمته سميت العلماء ، واخلاقه في الغاية من التهذيب السكسوني البديع . فقال لي : إن سكان نجد جديرون بأن يكون لهم نصيب من عنايتكم في التعليم ، وان تفتح لهم المدارس ، فالأمية غالبية عليهم ، فقلت له : يا صديقي كيف تنطال الى تعليم غيرنا ونحن من اعوز ما يكون إلى من يعلمنا ؟ إن عدد الأميين في ديارنا أكثر من تسعين بالمائة ، أقمسنا احرياء بأن نفكر اولاً في ابنائنا ثم نفعل الخير بغيرنا ، فنفكر في تعليم اهل نجد ! فاقنتع .

وكنت اهديت المستر لاياس نسخة من كتابي (غرائب الغرب) فجاءني بحد ثلاثة اشهر يقول انه طالعه بامعان ويشكرني على هديتي ، وسألني عن أحد فارس - وكنت اقتبست من كلامه فصلاً في الأخلاق الانكليزية - فقلت له هو أحد علماء اللغة ومن أوائل رجال النهضة الأدبية عندنا فقال : هذا لا يعرف الإنكليز ، وكذلك الحال في تين Taine الفرنسي فانه لا يقدر

البريطانيين قد رم بل هو عدوم ، فقلت له : هذا فيلسوف ، والفيلسوف لا يقول إلا ما يعلم ، ومن الصعب زحزحته عن الحق . فقال لي : أتريد أن تعرف أخلاق الانكليز على حقيقتها وتكتب فيهم كتاباً ؟ قلت له : نعم . قال : تكتب إلى صديقك الاستاذ براون في كمبردج بكتري لك غرفة في جواره ، وتذهب بنفسك تقضي ستة أشهر هناك تدرس الانكليزية ، وأنت بالنظر لتتمكنك من الفرنسية نحكم الانكليزية في هذه المدة ، وتدرس خلالها أخلاق الانكليز وعاداتهم ، وتدوّن منها ما يروقك . وقال : أظن ذلك يفضب أصحابك هنا أي الفرنسيين فقلت له : أنا اذا اعتزمت أن أقوم بهذه الرحلة العلمية لا يقف أحد في وجهي ، ولكن شب عمرو عن الطوق ، وصعب عليّ في هذه السن أن أدرس لغة أجنبية ، ووقتي لا يسمح بمغادرة بلدي هذه المدة الطويلة . وأظن هذا الكتاب الذي اقترح عليّ وضعه في الأخلاق الانكليزية سيكون له وقع كبير عند حكومة بريطانيا العظمى . سأل أحد أصحابي صديقي لاياس هذا عن رأيه في محاضراتي في المجمع العلمي العربي ، فقال إنها جيدة ليس عليها اعتراض ، إلا أنني اعطي الادريين فيها فوق استحقاقهم ، وابلغ في وصف حضارتهم ، وسأله أو غيره لا أدري على التحقيق عن محاضرات أحد الاعضاء فقال : ما خرجت عن وعظمة في كنيسة انجيلية ، وسأل بعضهم عن آخر فقال : يحاول أن يضحك الحاضرين وأكثر نكاته باردة .



عزت باشا العابد

أربعة أتراب نشأوا في القرن الماضي من حيٍّ واحد في دمشق ، وتخرجوا بعلم واحد في مدرسة واحدة ، فجاء منهم أربعة مثقفون . طاهر الجزائري ، سليم البخاري ، ابو الخير عابدين ، أحمد عزت العابد . قرأوا على الشيخ عبد الرحمن البوسنوي في المدرسة الحجازية ، وكان مربياً عظيماً ، فلقنهم مبادي العلوم ، واصول اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية . وانقطع الثلاثة الأولون إلى دراسة العلوم الاسلامية ، فكانوا علماء فقهاء ، وشذ عنهم تربهم الرابع فالتصرف إلى اتقان التركية والفرنسية ، وأجاد الكتابة بالعربية والتركية ، ونظر في القوانين فأتقنها ، ودخل في خدمة الدولة ، فساعدته وجاهته والده هولوا باشا على قطع المراحل الى المناصب العالية مسرعاً ، حتى صيره السلطان عبد الحميد الثاني العثماني قريباً له ثم كاتباً ثانياً في المابين وكان خادم السلطان الامين نحو ثلاث عشرة سنة وما سقط إلا بسقوطه .

وحاول أحمد عزت باشا العابد بعد أن صار السلطان عبد الحميد في أسر الاتحاديين في قصر ألاتيني في سلانيك ، وانقضى عهد الحكم المطلق ، أن ينتخب عن دمشق عضواً في مجلس النواب ، فقاومته في جريدتي (المقتبس) لأننا كنا نريد أن ينوب عنا الشباب المتعلمون ، ممن لم تصبغهم مصبغة الاستبداد بنيلتها الحالكة السواد ، وكنا نعتقد أن أنصار الحكومة الاستبدادية لا خير فيهم في العهد الدستوري ، وهم طالما زينوا للسلطان عبد الحميد أن يمضي في اضطهاد الحرية والأحرار ، والرجل الواحد من الصعب أن يفلح في دورين متناقضين .

وجس عزت باشا النبض ، وسبرنا بمسبار ذكائه ، فعرف ما نمتني تحقيقه

إذا خدمناه فيما يجب ، فوعد إن نحن سعيينا في انتخابه أو لم نقاومه على الأقل ، أن ينشيء في حيّ الميدان ، محلة أهله القديعة في دمشق ، مدرستين ومستشفين الذكور والاباث ، وأن يعلم خمسة أولاد من أبناء سورية العلوم العاليه في جامعات الغرب الى آخر ما وعد به . ولم أرض أنا وجماعتي إلا أن يضمن لنا القيام بمشاريعه فتأمين عايشاً أولاً ثم نتطوع لموئنته ، وأردنا أن نتمتع على شرفه في انقاذ ما عرض علينا ، فحفظنا أن تكون وعوده وعود بمض السياسيين فأيننا ، وما استطاع الدخول في معركة الانتخابات لإبقائه بالفشل .

وكنتم وأصحابي نعلق آمالاً كبيرة على ما يجري من الخير على يده هذا المثري العظيم ، اذا استمع لنصائحنا فلما رأينا أنه ليس من نيته أن يمنح أمته شيئاً أعرضنا عنه ، وقلت لشقيقه مصطفى بك : قل لشقيقك إن وطنه ينتظر منه اموراً ليس بالصعب عليه تحقيقها ، ولا تنقص كثيراً من ثروته . وبغير بها ترجمته في الدنيا ان كان يحب الدنيا ، وتشفع له في الدار الآخرة ان كان يعتقد بها . إن بعض ما ناله من الجاه كان لنسبته للعرب ، فما باله يتأخر عن خدمتهم ، وهو قادر على الاخذ بأيديهم إلى طريق السعادة ؟ وإن الفرد من أولاده ليعيش بنصف مليون ليرة كما يعيش بخمسين ألف ليرة ، على أن لكل واحد من ولديه ثروة خاصة لا يحتاج معها إلى ثروة أبيه ليعيش . (وأظن عزت باشا أوصى ببضعة آلاف ليرة عثمانية لتأسيس مدرسة في دمشق أخذتها جمعية الاسعاف الخيري لانشاء مدرسة الايتام) . ولا جاء عزت باشا إلى دمشق ، وكان المجمع العلمي العربي حديث النشأة يحتاج الى معاونات كثيرة ، ليقوم بفرضه العظيم ، وموازنته ضيقة لا تتسع لكل ما يحاول تحقيقه ، قرر أعضاؤه أن يتدبوا منهم أربعة ، فيهم أقرب الناس اليه ، تربه سليم افندي البخاري وصاحبه سليم بك عنحوري وفارس بك الخوري وصاحب هذه المذكرات . وأردت أن أستعني من هذه المهمة فاضطروني إلى السير معهم بصفتي رئيس المجمع العلمي ، وأرادوا

بهذا الوفد أن يهزوا أريحته لمعاونة بعضهم . فبعد مساومات ومهامسات احمرت لها الوجوه ، وعرقت الجباه والرؤوس ، تبرع الباشا بمئة ليرة سورية ، وبالطبعة الجديدة من دائرة المعارف البريطانية . وعاد عليّ الباشا من الغد في المجمع العلمي ، وهو بثوب المنامة ، يقول إنه لم ينام من الليل أمس لأنه رأى في دار الكتب الظاهرية مصحفاً شريفاً بخط جميل ، قيل له إنه ابتيع بثلاثة ريالات ، وأنه مسروق من إحدى خزائن المدينة المنورة ، وهو مستعد لأن يدفع لنا ثمنه ويأخذه ليميده الى مكانه الاصيلي . فبينت له أن المصحف دخل خزانة دار الكتب فأصبح في حكم الوقف ، ولا سبيل إلى اخراجه ، ولا فرق بين أن يحمل هنا أو يكون في المدينة . وقال أحد الخبثاء : ولعل الباشا كان ينوي أن يموض ما دفعه المجمع العلمي ، فإن المصحف يباع من المتاحف الكبيرة ، أو دور الكتب في العواصم الشهيرة ، بما لا يقل عن مئة وخمسين جنهما . والله اعلم بالنيات . وقال لي الباشا ، وانا اودعه على الباب ليرضيني بوعد معسول : إن له نحو سبعة عشر الف ليرة في ذمة حكومة سورية من اصل ماله من الديون على الدولة العثمانية فاذا قبضها يمطيني منها اربعمائة آلاف ليرة ، فما قبض ولا قبضت . وكان ما وصل المجمع العلمي هو كل ما سمحت به نفس أعظم غني في الشام .

أول رئيس جمهورية في سورية

خلف أحمد عزت باشا العابد ولدين علمها في باريز تلميذاً راقياً ، أحدهما عبدالرحمن بك درس هندسة المعادن ، واشتغل بالمسائل المالية والتجارية ، والثاني محمد علي بك وهو الأكبر درس الشرائع وصار مشاوراً للحقوق في الباب العالي مدة ، ثم جعل في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني سفيراً للدولة العثمانية في واشنطن ، واشتغل أيضاً بالمسائل المالية ، وكلاهما اغتنى في حياته أبيه .

وأنى محمد علي بك إلى دمشق يفتح بيت أبيه وجده ، ويحرص على تحسين سمعة أبيه . وصار مرة وزيراً للعالية ثم انتخب أول رئيس للجمهورية السورية . فكان ينفق من ماله الخاص علاوة على راتب الرئاسة مبلغاً في كل عام ، ليظهر بلاده أمام القريب والبعيد بالمظهر اللائق بها . وهو أعظم رجل سياسي عرفته الديار الشامية في دورها الأخير ، وأول وآخر سفير عثماني من أبناء العرب ، استوفى شروط الرئاسة لمعرفته التامة بالشؤون السياسية .

وكانت اجتماعي به قبل الجمهورية وفي خلالها تستغرق الساعات ، وهو يفضل ويطلب من موآرة الاجتماع ، وأنا اعتذر باشغالي ، وأنحمى صرف وقت كبير معه ، على ما في مجلسه من مناع للنفس ، ولطالما قال : أريد أن تكون وأنا في الجمهورية ، كما كنا قبلها ، وكنت أسمع منه فوائد في التاريخ الحديث ، وسياسة الدولة العثمانية ، وأحوال عظماء الأرض ، لم أسمعها من غيره . ولا عجب أن يعرف هذا ، فقد كانت يثثه من أرقى البيئات في الاستانة ، أيام صولة والده ، كتب له أن يجتمع الى عظماء الدول ، وعلماء الأمم ، على ما لم يكتب لأحد من رجالنا مثله . فكان حديثه عن الشخصيات والجماعات والدول والمالين والسياسيين والمترفين والمسرّفين ممتعاً جداً ، إذا بناء غيره

على مطالعته ، فقد كان هو يبينه على مشاهداته ومطالعته ، وكان ذا معرفة ناقبة بتاريخ أمته ، يعجب برجالها الماضين ، وذاك كرتة قوية ، وكان كثيراً ما يتلو علينا قطعاً من الأدب الفرنسي والأدب العربي حفظها أيام الصبا ، وكان إلى هذا على جانب من الظرف . وما اصدق ما وصفه به صديقي الأستاذ خليل مردم بك بقوله إنه ما رأى رجلاً اسمه اصغر من حقيقته مثل محمد علي بك العابد .

وهو لا يخلو من ضعف ارادة . سالم كثيراً مدة رياسته فلم يرض عنه حتى من سالمهم ، وذكر مرة بسوء أمام جمعية الأئم فتأثر مما قيل فيه ، وهم قد ظاهوه وما أنصفوه ، وما احتج ولا غير من معاملته . وحق أصحابه لما وقع عليه ، واعتدوا اهانة موجبة للسوريين في شخص رئيسهم الأول . وفرضوا عليه أيام رياسته أن يتولى الشيخ تاج الدين رئاسة الوزارة مرة ثانية ، ومع كرهه الشديد له لم يعترض على هذا التعيين الاعتراض اللازم ، مع ما في هذا من التعدي على حقوقه . واراد الشيخ أن يذهباً معاً إلى حلب ، والنفوس ممثلة من الشيخ ، فلقيا اهانة شديدة من الشعب ومن طلبة المدارس ، وما كان الرئيس مقصوداً بها ، وشط الرئيس الصغير على الرئيس الكبير وهو بفوقه علماً وسناً وروية ومقاماً ، فكان في هذه الرحلة يتقدم عليه في كل مكان . ولما عاد الرئيس من رحلته عرض عليه أحد كتابه مجموعة ما كتبه الصحف فيه وفي رئيس حكومته ، وما لقياه من الاهانة فقال : إن كل ما قالته صحيح : رحلة كان منها اهانة الحكومة واهانتنا ، أغلقنا فيها المدارس وملاطنا السجون .

والغالب أن محمد علي بك كان يحسن الظن بأوضاع الغرب ، ومن ذلك أنه جعل معظم ثروته أسهماً مالية فخر نصفها في العهد الأخير فكانت في ذلك قهره ومرضه . وكثيراً ما كنت أزين له ان يتناع المزارع وينشئ المقارات في بلده فما كان يرى رأيي . ولطالما عرضت عليه ان يبني داراً

فخمة تليق به فكنت اشعر انه يريد أن يسكن في أوروبا بعد انتهاء مدة الرئاسة ، وهكذا فعل .

كان أعداء السيد العابد يتهمونهم بالامساك وما كان في الحق ممسكاً على ما صوروه ، كان يطعم الفقراء كما يطعم الأغنياء ، ويتصدق ويعطي من يراه أهلاً للعطاء ، ولكن الفوضى كانت منتشرة في بيته ، ينفق على الغالب بلا نظام . وكان من أثر ذلك أن رُمي بالشح ، وأُظن حساده وخصومه كانوا يريدونه أن يخرج عن كل ماله ليمدوه في الكرماء ، فيمسي مثلهم صعلوكاً معدماً وهذا أمر لا يعقل ، ولا يطلب من رجل بقدر قدر المال .

وكان مع علمه بالمواضعات المدنية والمصطلحات الجمهورية ، وتشده في المحافظة عليها ، لا يتسكك عن الاستمتاع بحريته في غير الأوقات الرسمية ، يزور أصحابه كما يزورونه ، ويعاشرهم معاشره الاخوان ، ويكون في بيوتهم ويكونون في بيته ، كواحد منهم ، لا فارق بينهم ولا تمييز ، وكثيراً ما كان يقص عليهم من الفكاهات والنوادر المستظرفة ما يقصد به تسليتهم واضحاكهم ، أو مشاركتهم في مرحهم ، وجلب السرور إلى قلوبهم ، فيعظم في العيون والقلوب ، ويدعو العقلاء إلى الاعجاب بنبله وفضله .

وكان لفرط أدبه يحتمل مني أحياناً قسوتي في خطابه وجوابه ، ويفضي لما يعرفه من حبي له وجهه لي ، عن تومسي في انتقاد أعماله ، وهو موقن أن ما أقوله أقوله بما لي عليه من الدالة ، وما أكنه له من الحرمة ، وغيره مني على مصلحته ومصلحة البلد . قال لي وقد عدت من مصر بمض السنين : إنه ذكرني وذكر غيري من أصحابه وأصحابي ، لتوسد إلينا مقاعد في الوزارة الجديدة فقلت له : أخطأت خطأ عظيماً ، ألا تذكر أنني أقسمت لك يوم كنا ننزه بين دمر والهامة في السيارة ، وأنت تأسف لعدم مشاركتي لك في الحكم ، أنني لا احب الدخول في شيء من أعمال الحكومة مهما كانت درجته ، واني زاهد حتى في رياستك هذه ، وان صداقتنا قامت على التشاكل في الفكر والمحبة المتبادلة ليس إلا ، فلماذا تذكرني

للعفوض السامي وانت تعرف أن الوزارات بعد أن تقلدها الموام ووصل إليها مثل (غ . ل) لم تعد لها تلك الروعة ، ولا ذاك أنشرف الموهوم ! وصعب الآن على من كان له مثل أخلاقي أن يقوم فيها بما يرضي وجدانه وأمته . فأرجوك بعد الآن ألا تذكرني للعفوض ولا لغيره . وقد أدرك أنه ما دام ذكر اسمي ولم يُوفق لانعام رغبته ، فلا معنى لأن يمت " علي " فيقول إنه سعى وأخفق ، وأنا لم أطلب منه شيئاً .

كتبت هذا ، وأنا أقول : ترى هل تجتمعنا الأيام بصديقي محمد علي بك العابد فأقرأ عليه هذا الفصل ليلاحظ ما قد يلاحظه عليه ، وطويت ما كتبت ، وصعدت الى غرفتي أقيل ، وإذا بالمدنياع يعني هذا الصديق الأبر من جنوة فأومضني ففقدته ، وما زال الدهر يفرق بين الحبيب وحبيبه .



سورية والرجال

ذهبت وصديقي عبد الرحمن باشا اليوسف إلى سوق الغرب في لبنان آخر سنة من سني الحرب المشؤمة (١٩١٨) لنقضي أياماً هناك ترويحاً للنفس ، وكان لا يخوض في السياسة الحاضرة مع كل أحد ، ويخاف مثلي من التبسط مع كل انسان حتى من أخيه وأبناء اخوانه ، فما وجد آمناً لنا من أفق سوق الغرب نتبأث فيه الاسرار ، فقال : إن جمال باشا قال له ولحمد باشا العظيم ، وقد بدا عليه اليأس من نتيجة الحرب : إن الانكليز سيستولون على سورية ، فهل لظنات أني أترككما هنا ، تتمتان بقصوركما ومزارعكما ، سأسوقكما أمامي الى الاناضول ، نفتقران كما نفتقر ، ولشحذان كما لشحذ . قال ابن اليوسف هذا ، وسجد على الأرض قائلاً : يارب اقرض هذه الدولة التي أذللتنا وأهانتنا . وشأت الاقدار يوم حم القضاء أن يعضي جمال باشا على وجهه لا يلوي على شيء ، وظل أهل هذه الارض في ارضهم .

قال الجنرال غورو أول مفوض سام في سورية ولبنان الحبيب باشا السعد الوجيه اللبناني : إذا كنت تعتقد أن دولة من الدول يهملها شخص لذاته ، مهما بلغ من مكانته أكثر من اهتمامها بمصلحتها ، فانت على خطأ . إن فرنسا تقادي بمئة رجل مثلك إذا كان لها من وراء ذلك أقل فائدة .

قال المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان للشيخ تاج الدين رئيس دولة سورية : حقيقة إن الرجال متفاوت ، فقد عرضنا على وزاراتكم وعلى الوزارة اللبنانية مشروع حصر الدخان ، فما اطلع أحد على مانتاقتهم فيه ، ولا انتشر خبر عن المشروع الذي عهد اليكم النظر فيه . أما في لبنان فقد

تناقلته الألسن ثاني يوم دفعناه لوزارتها ، وفي اليوم الثالث كان نص المشروع منشوراً برمته في بعض الصحف البيروتية . ولما عوتب صاحبها على نشر هذا المشروع قبل أوانه ، وكان من أعضاء الوزارة ، قال إنه غفل عن ثيابه ، وكان يجب أن نص المشروع في جيبه فسرق منه ، ووصل الى الجريدة فنشرته ، فأين وزارة من وزارة ، ورجل من رجل .

دخل علي مستشار المعارف ، وأنا في مكنتي بالوزارة ، ظاهر الغضب على محرر جريدتنا المقتبس لنشره في الجريدة لعريضاً ببعض رصفائي الوزراء ، خدمة لاغراض من يخدعهم من حزبه ، فسألني المستشار عن غضبي على خلاف عادتي ، فذكرت له السبب فقال : لا أعرف كيف أعلن هذه الاخلاق فيكم ، تسقطون أبدأ رجالكم من الاعين ، ورجالكم قليلون مها بلغ عددهم لا يتجاوزون المائة ، فاذا أسقطتموهم كلهم ، فمن يبق لكم يخدمكم في السراء والضراء ، وينفعكم باسمه ومكانته .

كان استاذنا الشيخ طاهر الجزائري ، وهو على سرير الموت ، يقول لمن حوله من أصحابه : أذكروا من عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد ، ودونوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسواهم ، ونوهوا بهم عند كل سانحة ، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز ، وأظنهم على كثرة ما كدوا حافظتهم وذاكرتهم ، لم يمدوا أكثر من خمسين رجلاً . وكان يقول لنا : تجاوزوا عن سيئاتهم ، وانتفعوا بحسناتهم . وشيخنا هذا قضى عمره في السعي إلى الإصلاح والتجدد .

لم اجتمع بالمفوض السامي المسيو بونسو الذي وقاه أصحاب الأخبار هدة من مقابلتي إلا يوم زرته مع رصفائي الوزراء لشكره على اختيارنا للوزارة ، وقال لي هو وأمين سره المسيو موغرا ، كل منهما على حدة ، : ان صديقك المسيو ماسينيون (أستاذ كولييج دي فرانس) يحبك كثيراً ويقول فيك الخير ، فقلت للمفوض إنه صديقي من القديم ، وان صداقتنا

قامت على تبادل الافكار وخدمة العلم ، فمطف أحدنا على الآخر عطف الحبيب على حبيبه ، وهو لا يرى عيوي ، ويبالغ بحسناتي . وأنا مثل غيري لا أدخل من عيوب ، ولكن (عين الحب رمداء) كما تقول العرب في أمثالها . ففرت من هذا الكلام أن صديقي ماسينيون هو الذي اقترح على المسيو بونسو أو على وزارة الخارجية أن يضمني الى الوزارة ، وليس لرئيسها يد في هذا الشأن ، فإن الرئيس قبل سنتين من وزارته هذه أراد أن يؤلف وزاره ائتلافية ، على عهد المفوض السامي المسيو دي جوفنيل ، وكان هذا صديقي وقد نوه بي في جريدة الماتين مرة ، وكان من رؤساء تحريرها : فاقترح عليه أن يأخذني وزيراً للمعارف في وزارته فأبى وقال : أنا لأعمل معه ، ولم تؤلف الوزارة يومئذ ، ودخلت في الوزارة الثانية بدون ارادة الرئيس . وكان يوهني أنه هو الذي اختارني لمؤازرته ، وأوعز الى صديقه السيد جميل الالكبي وزير المالية أن يقنعني بأن الشيخ هو الذي وقع اختياره عليّ وليس لاحد عليّ منة إلا له .

دعوت صديقي السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي لزيارة الشام ، وكانت له صلة ود بالمسيو بونسو المفوض السامي منذ كان في تونس ، فأنزله في قصر الصنوبر ببيروت حيث يسكن . ولما جاء دمشق سأفني عن وزارتنا فقلت له : إنها مستنفض بعد حين ، ويحجي رئيس جمهورية ، ووزارة جديدة ومجلس نواب . فسألني عما أصبح إليه فقلت : لا أدري ، ولا يعرف ذلك غير صاحبك المسيو بونسو ، فهل ترى مانعاً ، اذا حضرت لك مناسبة عند عودتك ، أن تسأله عما يكون من أمري بعد الوزارة الجديدة . ومضت أيام ولم ألق صديقي التونسي إلا بعد زهاء سنتين في الجمع اللغوي الملكي في القاهرة . فقال لي : لا لظان يا صاح أنني أنسيت ما عاهدت إليّ السؤال عنه ، سألت عن مصيرك المسيو بونسو ، ونحن ننزه في حديقة القصر صباحاً ، فلم يحيني على سؤالي إلا أنه قال إنه يعرف ما بيننا من

صداقة ، ومن الفد قال ، ونحن في نفث البقمة التي كنا فيها أمس : ياسيد
عبد الوهاب ، ثق أن من الصعب جداً حكم هذه البلاد ، ما قصدني رجل
من أهلها إلا طعن بغيره ، فاذا استخبرته عما يجب أن يعمل يقول : لو
تخيرتني للحكم لأريتك العمل الشديد . وصاحبك السيد (كرد علي) مارأيته
يوماً يطمئن بأحد ، ولا أناني في أمر خاص به منذ عرفته ، وهو حقاً
رجل جدير بالاحترام (وقال أكثر ذلك من المدح) فأنا لا أرضى له
الرياسات لأنها متعبة ، ولا لعود عليه بخير . وصدقي لفرط حزمه لم يكتب
إليّ بما جرى مخافة أن يقع كتابه في يد أحد المناوئين .



المجمع العلمي العربي

١١ عدت من الاستانة بعد هدنة الحرب العالمية (١٩١٨) جاني صديقي القديم رضا باشا الركابي الحاكم العسكري في دمشق يسلم عليّ في داري ويطلب إليّ قبول رئاسة مجلس المعارف . فقلت له : إني أنوي العودة إلى إصدار الجريدة والمجلة ، ونشر كتيبي الجاهزة ، فوعدني بأن أماني تتحقق كلها مع القيام بالعمل الذي يطلب قيامي به . وقال : إقبل هذه الوظيفة التي ستكون وزارة فيما بعد ، فليس عندي غيرك للقيام بها . فاعتذرت وبما قلت في الاعتذار إليه إني لم أربّ نفسي لأكون موظفاً ، ولو أجببت التوظيف ، كما تعلم ، لكنت اليوم في أرق المناصب . وأصرّ عليّ كثيراً وقبض بيده على لحيتي وقال : اكراماً لهذه . فأخجلني فقبلت ، على شرط أن يماونني مماننة فعلية مدة وجوده في الحكم ، فاذا تنحى عنه استقلت معه . وبدأت رئيساً على جماعة من الشيوخ ، منهم من درس العلوم الدينية ، ومنهم من شدا شيئاً من الأدب ، والتجانس فيهم قليل . وبعد مدة كتبت للاستاذ ساطع الحصري الحلبي في الاستانة أريده على الشخصوس إلى دمشق ليتولى ادارة داري المعلمين والمعلمات ، فلم يجبني على كتابي ، وقام له تلاميذه بدعاية واسعة النطاق ، فاضطر الركابي بالدرار ببض الاحزاب أن يرضى به مديراً عادماً للمعارف . فلزمت عندئذ داري ، وكان ما تم على غير إرادة الركابي وقال لي : أنت الذي جنيت على نفسك بامتداحك الرجل واستدعائك له . وكنتم عني ماجرى على عادة السياسيين في التكمّم ، وقال في الغيبة : إني لا أعذر . ولو صرح بما جرى على جليته لمذرتة من أول ساعة . بيد أن الركابي أكثر عليّ من اللحاح في البقاء ، وزيّن للأعضاء إقناعي ، فكانوا يتوسلون إليّ أنواع التوسل ، وبصرحون بأنني إذا لم

أقبل بالبقاء فالحكومة تصرفهم من الخدمة ، فأكون السبب في قطع ارزاقهم وهم أرباب عيال يجب علي أن أراعيهم وأرحمهم . وعند ذلك قلت للركابي : إذا كنت تحرص على بقائي في الحكومة ، فأنا أرضى على أن يتقلب هذا المجلس برئيسه وأعضائه بجمعاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة ، فقبل وصدر المرسوم بذلك .

رأى الركابي باشا دعاية كبيرة لساطع بك الحصري ، فنزل على رغائب الدعاة ، وتركني وشأني . فلما قبلت برئاسة المجمع العلمي ، وكان أعضاؤه معي في مجلس المعارف ، وفيهم أخصاؤه وأقرباؤه سُري عنه ، وظننت انه يعاونني بالفعل كما وعد . بيد أنه عاد إلى التحلي عني ، وصدغ بأمر الحكومة لما ارادت أخذ المخصصات الموضوعة في الموازنة للمجمع العلمي الجديد ، وما كان منها أنفق أكثر من ثمانمائة جنيه ثمن كتب وآثار وترميم المدرسة العادلية مقر المجمع ورواتب الموظفين ، وصرف أيضاً الرئيس والأعضاء ، وأبقى عضوين اثنين أحدهما صاحب نوادر يسليه في داره ، والثاني ينظم له قصائد يمدحه بها . وقضى هذان المضيوان اشهرًا لم يتحدثهما النفس ان يفتحا البريد اليومي فضلاً عن ان يتم على يدهما شيء من الأعمال اللهم إلا إذا كان يُعَد من ذلك قراءة الصحف ، وتبادل النكات والحكايات ، وتناول اكواب الشاي والقهوة . فأصيب المجمع لأول نشأته بهذه الصدمة . اما مؤسس المجمع الذي نشر دعوته بين علماء الشرق والغرب ، فأولوه ثقتهم وصفقوا له ، وهو طفل ، فقد باء بالخجل ، وقال خصوم العرب : إنا قوم لا ثبات عندنا ، والدليل انا افسدنا بيدنا ما اسسنا قبل ان نظهر ثمراته . قلت للركابي وهو يمدلني على لمجلي في شراء الآثار والمخطوطات وغيرها : إن من الامور ما يجب عمله بسرعة ، ومنها ما يتحتم التريث به ، وشراء الآثار والمخطوطات من الامور التي كستدعي العجلة ، لأن تجارها آخذون بملقطها من كل مكان ، فلا يبقى الا التافه بعد برهة قصيرة ، ونحن عازمون أن نؤسس متحفاً ودار كتب تليقان باسم دمشق التاريخي . وذكرته الى

ذلك أني دخلت خدمة الحكومة بالحاحه ، مشترطاً أن يماونني ، حتى اذا خرجنا الى بيوتنا كان لنا من عملنا الطيب ما نتمزى به أمام امتنا . وقلت له ، وقد أغضبني عبوسه : إن هذا الكرسي الجالس عليه — في مكتبة بدار الحكومة — لا يليق لك ، وهزرتة هزة عنيفة ، فأعني أعمل في هذه الفرصة السانحة ، وأموال الدولة تبدد ، واحسب ما يأخذه المجمع من بعض ذاك الاسراف ، ثم تشهد النتيجة .

وفي الواقع إن المجمع العالمي لم يلق تنشيطاً يذكر من السلطات المحلية منذ أنشأته ، وأصابه من مقاومات أرباب المقامات ما لا يشرف الاسم العربي ، قال لي مرة الأمير فيصل بن الحسين : ألا تخاف الله ، نحن في صدد تأليف جيش وتنظيم حكومة ، وأنت بما لك من النفوذ على أعضاء مجلس الشورى تأخذ الالوف من الجنهات للمجمع وداري الآثار والكتب ، وأسرف في انفاقها ، حتى لقد كبدت الدولة خمسة آلاف جنيهه أنفقها على بضعة أحجار جلبتها من تدمر . فضحكت ، فقال : بالله ، قل لي كم صرفت في هذا الباب ، فقلت له : ليس مقدار ما صرفت على ذكر مني الآن ، وعلى كل فما أنفقته أقل من هذا المبلغ الذي ذكرته سموك ، وأرى أن تتفضل وتستأمر رئيس حكومتك . فسأله عند انصرافي من لدنه ، فكان الجواب إنه صرف في هذه السبيل نحو خمسة وعشرين جنيهاً فقط . واستحى الأمير فيصل أن يعود معي الى موضوع المجمع وإسرافي بماله ، عقيب وقوفه على حقيقة ما أنفقت ، وما خفت الله فيه .

وفي غضون تلك المدة تفاوضت وناظر المالية صديقي سعيد باشا شقير في أمور المجمع فعرض بشراء الآثار ، وقال إنه ليس من الحكمة أن يصرف في جلب حجر مثلاً خمسة آلاف جنيهه ، والحكومة تحتاج إلى مسائل أهم بكثير الآن فلم افهم مراده ، لأنه لم يصرح بأنني انا الذي انفقت خمسة آلاف جنيهه على احجار تدمر ، وكانت المناقشة بعيدة المرمى ، عبارة عن درس مالي صدر عن رجل مقتصد الى رجل قد يوصم بالاسراف في

أموال الدولة . وما عدنا الى المناقشة مع صاحب المال في هذا الموضوع ،
والغالب أن وزير المالية كان بلغ مسامحه اسرافي هذا ولم يرجع إلى الكاتب
وما كتب في حساب هذه المادة .

نعم لم يلق المجمع العلمي من السلطات الوطنية تنشيطاً بل اتى تثبيطاً ،
فالامير الذي له الحق أن يفاخر بأن المجمع انتهى في أيامه خذله بهزل
الهازلين وارباب الاحزاب ، والركابي ضربه ضربة تكاد تقضي عليه ، وضرب
رئيسه ، وكان قبل أشهر يتوسل اليه ان يبق في الحكومة بالصفة التي يختارها .
ولما توقف المجمع بصنع أرباب الأعراض عرضت وزارة المعارف
لائحة على مجلس الوزراء لاطراد أعمال المجمع فطرحها وزير الخارجية
الدكتور عبد الرحمن شهنندر بدعوى الاقتصاد . واراد الملك فيصل أن يتلافى
ما فرط ، ووعد أن يوعز إلى حكومته بإعادة المجمع إلى سالف حاله
ولم يبر بوعده .

عاد المجمع إلى سيره في ظل الانتداب الفرنسي وعدت إلى رئاسته ،
وجرى التبديل في أعضائه والزيادة عليهم . وكان أكثر أعضاء الشرف
يبنون عن اخلاص ، ومعظمهم من الموظفين ، عملوا ممي بدون أن يتوقوا
مكافأة على عملهم فخدموا العلم والآداب أجل خدمة .

وآذى المجمع السيد فائز الخوري ، فخطب في مجلس النواب في عدم
فائدته (١) ، فألغى القسم الأعظم من تخصصاته ، بموافقة وزير المالية السيد
شاكر نعمت الشهباني ، وهذا رجل لا يعرفني ، ولا يعرف ما هو المجمع العلمي ،
بمحت أصوات أعضاء المجمع وهم يصرخون أن أعمال مجعهم ممطلة ، ولا يصح
أن يبقى أعواماً بدون رئيس ، والكتلة لا تستجيب إلى النداء وتحاول أن

(١) الغالب ان صديقي السيد فائز نعم على جرأته في المجلس وكأنه اعترف بما وقع منه
وعرف انه ليس من المناسب ان يقف السيد فارس الخوري بيني معي المجمع العلمي العربي وشقيقه
ينقضه ولكن الغرم عليّ كان في هذه المسألة وذلك اني حرمت راتب المجمع العلمي بضع سنين كان
مجموعها ثلاثين الف ليرة سورية تعادل بأسعار اليوم مئة الف ليرة سورية .

ترضهم بالكلام وأنا أقول ، وكانت تحاول الا تفضيني : لا أود العودة إلى الرياسة ، وإذا وسد العمل إلى الكفوء أعاونه ما ساعدتني صحتي ووقتي دون أن أنحمل تبعه رسمية . وبلغ الأذب بالوزير عبد الرحمن الكيالي مرة أن اخذ يساومني في جلسة المجمع على راتب الرئيس وذلك لا تنازل عن بعض مخصصات الرياسة ليمطى الفضل لمضوين رضي عنها . فقلت له سواء كنت انا او غيري في الرياسة ، فعلى عاتق رئيس المجمع واجبات لا بد له من القيام بها ، ومخصصاته التي لا ترضون باقرارها مستكثرين لها أقل من راتب سائق سيارة رئيس الجمهورية ، وهكذا كانوا يرفعون أقدار العلماء .

والح^ج علي^ي الأمير مصطفى الشهابي لما تولى وزارة المعارف الحاحاً شديداً لقبول الرياسة ، فلما رفضت ورضي بشروطي أشار الي أنه لم يستطع أن يخالف ارادة الكتلة في اقصائي عن الرياسة .

وحمل الوزير الكيالي صديقي خليل مردم بك أن يكتب الي وأنا في مصر بقبول الرياسة ، وأكد لي أن الامر تم من كل وجه ، ولم يبق أدنى عائق ، فلما أجبته بالإيجاب قال : إن القوانين لا تبيح الجمع بين راتب التقاعد ومخصصات المجمع ، مع أن من أعضاء الكتلة البارزين من جمع بين رواتب كثيرة . واقترح السيد جميل مردم على ابن عمه الاستاذ خليل مردم أن يقبل برياسة المجمع فأبى وقال : إن الاعضاء الدمشقيين لا يقبلون أن تكون الرياسة الا لرئيسه ومؤسسه .

وظهرت بعد ذلك نية الكتلة وقال لي الأمير شكيب أرسلان إنهم عرضوا عليه برياسة المجمع في أوروبا فأبى قبولها وقال : إن الأولى بها رئيسه ، فأكدوا له أنني تقاعدت وذهبت في سبيلي . وكان السيد جميل مردم في ذلك الاسبوع فاوض ابن أخي بسام في باريس وقال له مرتين : أكتب الي عمك انه لا يكون رئيس المجمع غيره ، ونحن نعتز به بعلمه وشهرته الخ . هذا ولم يطلب منه أحد هذه الرياسة ولا توسل اليه منوسل لتقلدها .

وعادوا بعد حين يرشحون الرياسة الأمير شكيب أرسلان فانتخبته أول المنتخبين ، وأشرت الى رصفائي بانتخابه ، وقلت لهم إن الأمير خدم العرب والاسلام أعواماً طويلة أجل خدمة فحري بالامة وهو الآن في شيخوخته أن تكافئه هذه المكافئة القليلة على جهده الكبير ، فانتخب وعين وهو في اوربا ، فكان نصبه عندي من حسنات الكتلة الوطنية . ولما هبط مصر ليتابع سفره الى الشام حدث الانقلاب العظيم في الاوضاع السياسية في سورية ، فرجع أدراجه الى سويسرا . وبقي المجمع العلمي معلقاً في الفضاء كما كان منذ بضع سنين خلت ، والعامل الاول في تأخره فأثر الخوري شاكر نعمت الشهباني ، جميل مردم ، والسيد جميل هذا كان بدأ وهو وزير المالية فأنقص موازنته ، وحاول أن يقيه مدة وزارته بلا رئيس . زارني بأخرة صديقي العلامة فارس الخوري يصحبه صديقاى الشامران المعبوطان فؤاد الخطيب ، خليل مردم بك ، ففتح قصة رياسة المجمع العلمي وقال إنه اعجب بما صدر مني ، وسمعه بأذنه من لساني في داري وداره في اوقات مختلفة ، من حبي للأمير شكيب أرسلان . ومعاونته على احراز الرياسة فقلت له : لالمعجب ، وايشند عجيبك اذا صدر مني غير ذلك . اعلم يا صاح أن للحجارة والحوزية رابطة فمن باب أولى أن يكون للعلماء مثلها ، وبئس العلم لا يؤثر في أخلاق صاحبه : إني صديق الأمير منذ سبع وأربعين سنة ، مألقيت منه الا كل خير وود ، فكيف لعمرى لأعوانه ، وقد خدم العرب والاسلام طول حياته ، وما إخال أحداً يعرف قدر الأمير شكيب كما أعرفه ، ولا أحد يعرفني كما يعرفني شكيب . ثم ماهو هذا الراتب الذي خصص له فيجسد عليه ، وعندي أنه ثقل الالوف لشكيب ، ولو خیرت لاخترت أن أخصه ببعض راتبي ، وأنا قد عرضت عليه هذه الرياسة منذ توليت وزارة المعارف في المرة الاولى على أن اكون معه كأنهم سر ، وتكون له الرياسة دوني .

وقلت أيضاً : وتذكر يا فارس أنني قلت لك أمام الأمير شكيب في فندق

« أوريان بالاس » ، اني زاهد في رئاسة المجمع العلمي ، وإني أفضل أن أكتب كراسة واحدة وأطبعها على تولي رئاسة المجمع سنة كاملة ، ولكني لا أحب أن أضرب من قفائي ، ولا أن أسقط في شرك الدسائس . إنكم عرضتم هذه الرئاسة على الأمير ، فقال لكم إن رئيسه أولى به ، فهو مؤسسه والمارف بخفائيه ، فقلتم إنه تقاعد ، وأشترتم الى أنكم ترغبون في أن تخصوه بهذه الرئاسة . وتقصوه عن تولي وزارة من الوزارات أو رئاسة من الرياضات . وأنا ليس لي بعد كل هذا إلا أن أعتب على من كان يريد أن يبعث برجل خدم هذه الأمة خدمة علمية لم يخدم مثلها أحد من أقرانه . وأنا اذا كنت بعد اشتغالي بالتاريخ الحاضر والغابر وبحي في تراجم الناس دهرًا طويلًا لا أعرف من هو فلان وفلان فمن يعرف ؟

وقال السيد خليل مردم في هذه الجلسة إن الأمير شكيب كان كتب اليه سرًا قبل أن يوافق على قبول رئاسة المجمع العلمي أن يطالعه اذا كنت أحرص على الرجوع اليها ، فأجابه يومئذ بدون أن يذكر لي ذلك ، أنه جرى هذا البحث في حضوره غير مرة فكنت أقول : شكيب أحق الناس بالرعاية ، وأني ما فتيت إلا بما ينبيء بمظلم حبي له ولا كباري لعمله ، وإني كنت فرحًا بقرب عودته الى هذه الديار ، فكيف يسألني رأيي في هذا الصدد ؟ وقد سمع ما انطوت عليه جوانحي من الاعظام والاحترام له وقال السيد الخوري : اني بقتازلي عن الرئاسة حللت العقدة ، وفرجت الكربة .

ومن قاوم المجمع من الافرنج المسيو اوستاش دي لوري مدير المعهد العلمي في دار اسمع باشا العظم ، فان هذا الرجل لم يترك باباً لا يدخل في شؤوننا إلا ولجه ، حاول أن يأخذ ما جهمناه من الآثار فأحرق ، وكان مصيره الفشل في كل ما حاول ، دام على هذا سنين حتى منقته انطأه خارجية فرنسا من التدخل في امورنا وقالت له إنه ليس بالمستشرق فليحسن علاقته مع علماء يعملون لانهاض لغتهم وخدمة تاريخهم ، وأوعزوا اليه أن يحسن علاقته مع المجمع ولا سيما مع رئيسه . ومن القد جاءنا يرجو أن

نضع ايدينا في يده ونأمره بأمرنا . فأغضيت عنه حتى رفعته دولته بخيانتة لها ، وذلك أنه اشترى ديناراً قديماً وباعه من بريطانيا العظمى بمبلغ عظيم ، وكان عليه أن يمرضه أولاً على حكومته ، فكفيئنا شره ، وكفى تجار العاديات ضره ، لأنه كان أبداً يتهدم ويتوعدم ، ويتاع منهم بضاعتهم بأثمان بخسة ، ويتجر بهسا وهو موظف ، وكنت سألت وكيل المندوب السيد شفلر اذا كان يجوز للموظف عندم أن يتجر بنفس البضاعة التي وكل اليه أمر ادارتها ، فقال إن لارجل ثروة خاصة وهو يتجر لحسابه .

لقيت الاقاي من الحكومات السورية في سبيل هذا المجمع العلمي ، كأنه كان بعض ملكي . وكان الأردباء الحسدة يعرفون حرصي عليه فيضربونه ليضربوني ، ويعبثون بمصلحته ابؤذوني ذلك لأنه قام قبل أوانه على ما قال أحد رصفائي وكان لا يصدق أن في دمشق مجمعا علمياً يعمل ويفيد ، بالنظر لما يعرف من قلة الاستعداد له في هذه البيئة الضيقة . على أن من قصدنا فائدتهم كانوا راضين كل الرضى ، ولا سيما طلاب المدارس والطبقة المستنيرة من الامة . وكان لمحاضراته أحسن وقع في نفوس السامعين ، نبه الأفكار الى مجد الامة ، وعلمها تاريخها وأدبها ، وعرف الناشئة الى آداب ما كانوا يعرفونها من قبل ، وأسمعهم نغمت فعلت في أفئدتهم ، وهبأتهم للنهوض ، وكانت مجلته على ما أجمع على ذلك علماء الشرق والغرب من أرقى المجالات النافعة ، قل أن صدر مثله ، وناهيك بمجلة يؤازرها نحو ثلاثين عالماً وأديباً من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات . وقد عني المجمع بوضع الفاظ لكثير من الكلمات الأفرنجية في شؤون الحياة ومصطلحات الدواوين وغيرها ، ودل الكتاب على مغالطهم ، والمؤلفين على تقصيراتهم ، والهور الذي كان يدور عليه تثقيف الناشئة بالأدب العربي والأدب الغربي .

وشهد الله أنني كنت افكر في أنجح الطرق لانجاحه ليل نهار ، مدة توليتي رياسته ، وما رأيت باباً يوصلني الى النهوض به إلا طارقه ، ولطالما بذلت ماء وجهي لأناس ما كنت انتازل للسلام عليهم من قبل ، حتى استهديت

له المخطوطات والماديات ، وكنت اقتصد من موازنته القليلة مالا أدخره لأموار تنفعه في المستقبل واحاول اعلاء مكانته بين علماء الشرق وعلماء المشرقيات . وكان من أثر حرصي عليه الاعتماد به عن السياسة ، فأصبح المعهد الوحيد في جميع ارض الانتداب يعمل حرّاً لا رقيب عليه ، ولا مستشار له يعلّي على من فيه ارادته . وكان الفرنسي في الشام سيداً في كل مكان إلا في المجمع العالمي العربي ، فانه كان يزوره خاشعاً متواضعاً حتى لقد قال المفوض السامي المسيو بونسو وهو يزور المجمع مع المفوض السامي في فلسطين كلاماً في هذا المعنى وان الفرنسيين في سورية يعدّون وفي المجمع العالمي يتلمعون . وقال بعض المفكرين : إن المجمع اتي كل معاونة من المنتدبين ، فلما تركته فترت همّتهم عن معاointه معاونة فعلية ، ولو شاؤا لأعادوه الى سالف عهده والله أعلم بما هنالك .

وبعد فقد صبرت الصبر الجميل في هذه السبيل ، ومن علائم الصبر صبري على أخلاق بعض من عاشرتهم في دار المجمع حتى أمهد كل عقبة تحول دون انبعاثه . دخل أحد أعيان طائفة الروم ذات يوم يزورني في مكتبي بالمجمع ، وكان عندي بعض الأعضاء ، فلما رأوه أخذوا كلهم يتكلمون معاً ، يعني كل واحد أن يظهر أمام الزائر بمظهرٍ مجيبه ، فاستقرب هذا وخرج ولم يفهم شيئاً من حديثهم ، ولما ودعته إلى الباب سألتني ما هذه الثروة ؟ فقلت له : الحال كما ترى . فقال : إن كانت أحد يدخل اللجنة فأت أول الداخلين إليها لطول صبرك على هؤلاء أمانك الله على هذه الرئاسة . وتجددت همّة بعض أعضاء المجمع في اول سنة ١٩٤١ لاعادته إلى سابق عهده ، ونشطوا لتحقيق غرضهم لما رأوا زيادة في وفر الدولة بضمة ملايين ليرة سورية اقتصدت بفضل حكومة مجلس المديرين . وكان بعض الرصفاء كثيراً ما يعرّض في العهد الأخير أنني بالقاء الجبل على الغارب قد أهملت المجمع حتى كاد يقضي عليه أبـد الدهر ، وان فقرتي من بعض الرصفاء تبعـد المجمع من الوصول إلى هدفه الأسمى فنزلت على ارادتهم وأزلت الخلاف ودعوت الأعضاء كلهم ودعوت معهم صديقي المسيو لا فاستر مندوب المفوض

السامي ومعاونته ومدير المعارف العام . وبعد أيام فاض رئيس مجلس المديرين الاستاذ بهيج الخطيب صديقي الاستاذ عبد اللطيف الشطي مدير المعارف في معنى اعادة الجمع وتقررت مفاوضات فجاء الاستاذ الشطي يزورني في داري ويعرض عليّ إذا كنت مستعداً إلى الرجوع لرياسة الجمع فأجبتة بالايجاب فجرى الانتخاب وانتخبتني وصفاً بالاجماع المطلق ، وعدت فاستلمت الزمام يوم ١٦ آذار سنة ١٩٤١ . وقلت للسيد بهيج الخطيب في معرض شكره على هذه العناية بالجمع إن أصحاب المال والسعادة عملوا في هذا الباب ما لم يعمله أصحاب الفخامة والدولة ، أي ان الوزارات القانونية والمجالس النيابية قاومت الجمع أما مجلس المديرين فاهتم بارجاعه لاعتقاده النفع منه . وكنت على ان استقيل من رياسة الجمع في صيف سنة ١٩٤١ لا أصراً وزير المعارف السيد محسن البرازي على اختيار شخص من الأعضاء لا اريده فأبى رئيس الحكومة إذ ذاك صديقي السيد خالد العظم قبول مقترحي واوعز إلى وزيره باختيار الاستاذ خليل مردم بك لهذا المنصب لأنه موضع ثقتي . وجرت امور في خلال هذه الازمة الجمعية . لا تشمر بتجرد كان ينبغي ان يصدر عن العلماء قبل كل الناس ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي بعض دورات المجلس النيابي تقدم السيد جوزيف ليان نائب حلب بالظمن بالجمع العلمي العربي وذكر عدم فائدته وكثرة ما يتفق عليه من مال الائمة فرد عليه اولاً نائب دمشق السيد نجيب الرئيس رداً محكماً ثم قام رئيس الحكومة السيد سعد الله الجابري فعدد ما قام به الجمع من الفوائد للغة وقال ان الجمع يمثلنا في العلم ودمشق هي الدعامة الاولى في نهضتنا . وفي جلسة اخرى طلب الاستاذ الرئيس إلى رئيس مجلس النواب الاستاذ فارس الخوري بصفته من أعضاء الجمع العلمي منذ نشأته ان يقول رأيه في الجمع فقام يعدد ما قام به من الاعمال للغة والتاريخ ، وابان ماله من الاثر الحميد في تحسين سمعة البلاد وما له من المكانة في عالم العلم وبين المستعربين من علماء الشرقيات . فكان قوله فصل الخطاب . واثبت رجال الحكم الجديد غيرتهم على العلم والآداب .

أربع شخصيات

الأولى

هو من الافراد الذين يحسنون الضرر والنفع ، ونفهم أكثر من ضررهم كان حازماً شديداً في ادارته ، يفضل ان يكون معاونوه ممن يفهم عن اموال الراعي والرعية ، واذا عن له انقاذ الخلق من ظلم ظالم يعرف كيف يلقيه في شرك لا يخرج منه سجين الليالي . واذا كان الفاسد على شيء من المزايا ويرجي الانتفاع منها ، وكان ممن يخشى سلاطة لسانه لا يتم اصلاحه معه الى النهاية ، ويهدده بأساليب له يظنها نافعة حتى يرعوي ويكف من شره .

كان يعرف السياسة المكافيلية ، ويعمل برابطة جأش ويحسن ضبط نفسه ، يداوي بالسكوت ما لا يحب الجهر به او يتسم ابتسامة صفراوية عندما لا يحب التصريح ، يعرف ما يعمل وما يعمل له ، ويعلي ارادته على الكبير والصغير ، واذا كان صاحب السلطة غراماً مستبدّاً يخفف من غلوائه بالبرهان ، فاذا عجز عن ذلك تحصل المشادة بينهما لأنه لم يتفذه الممقول وغير الممقول من رغائبه ، وهو ممن ألفوا مراعاة القانون ، وله مشاركة كافية في بعض فروع ادارته ، والظاهر من حاله انه تحت الطلب لخدمة أرباب الدول بلا قيد ولا شرط ، حباً بالمنصب وما يتبعه من ظهور وسطوة .

يؤله النقد اذا كان في الخدمة ، ولا يهش كثيراً للمناقشة ، ويفضل أن يأمر فيطاع ، وألا يسأل عن سر امره . ويظن ان كل من يرى م كالجندي في كتيبته ليس عليهم غير الطاعة . تتمثل فيه الفطرسية والغلظة وحب الانتقام ، وأظنه لا يحب غير أولاده ، ويقل جداً المخلصون في حبه . كان بارعاً بالتجاهل تجاهل المعارف ، وبالتغابي تغابي الماقل ، وآتقن

هذا التجاهل وهذا التفاني حتى لتظن انه يمتد الغباوة بكل من يلقاه . وطريقته هذه اذا سكت عنها من يخافون شره ، فان من لا يبالون مظهره يذكرون له عيوب ادارته في وجهه . أما الوفاء فاعرف لفظه ولا معناه ، واما الصداقة فصعب عليه القيام بهودها ، والعالم من الأزل لا يحبون إلا من ينفعهم ، أو يمتقدون انه ربما ينفعهم ، وكان قومه يرهبونه اذا كانت له سلطة ، فاذا ساوهم اشاحوا بوجوههم عنه ، لأنه من الشخصيات التي لا تحب اذا جردت من الحكم ، فلا هو حسن العشرة ، ولا تمتع الحديث ، ولا يخرج مع جلسائه عن احاديث العامة . والمناصب تعطي شيئاً من الرونق لبعض الرجال .

كان من سياسته أن يدخل في أحزاب وجمعيات مختلفة المنازع ، ويقسم لها كلها أن يخلص لها ، حتى إذا نجح حزب منها كان في مقدمة المتصدرين في الكراسي الامامية ، وأول المطالبين بالمقام الاعظم ، وهو كمظم رجال السياسة مولع بالوقوف على الدقيق والجليد من أسرار الشعب ، هو من العمال الذين لا يهشون ولا يشون إذا كانوا في دست الحكم ، ناعمين بالمر ، متمتعين بالقوة ، فاذا منحوا راحوا يعمدون ما كان لهم من صلات بقومهم ، ويفزعون إلى الله فلا يسمعهم إلا الصف الاول بين المصلين في المسجد الجامع ، وتراهم أبداً والسبحنة في ايديهم ، يستغفرون ويدمدمون ثم تشهدهم في زمن العزل يتوسعون في حريتهم ويفرطون ويحاولون أن يبرزوا على الاحرار بمن كانوا بالأمس يمتقونهم ولا يقربونهم . وقد يحملون من اخبارهم لعدوم ما لا يليق صدوره من كبير ، وتقوى فيهم ملكة النقد وهم عزل من سلاحهم ، وكانوا من قبل مهما علا الصباح من الظالم ساكتين . هو مثال من الشخصيات التي تغير اربابها المناصب ، ويتلونون في اخلاقهم منصوبين وممزولين ، ويكتسون في كل حال كسوة الممثلين الحاذقين ، ولكن بوقار كثير وفي غير تبذل .

تراه إذا كان في حاجة إليك يلقاك صباح مساء حتى لتخجل انت منه

ولا يخجل هو منك ، وإذا وافته السعادة فأحرز مقاماً لا ينشب ان يرفع وجهه إلى السماء ، ويحوله عن السائرین على الارض . دخلت إلى يده اموال كثيرة في عهدين ، اموال سرية وجهرية ، فبمدها مع غيرها في امور لا يحسبها ، فأعوز في شيخوخته ، واكبر الظن انه لم يتناول شيئاً ليس له فيه وجه حل .

الثاني

تخرج في ارقى مدارس الدولة العثمانية ، وخدمها خدمات كان فيها تاباً لا متبوعاً ، ووصل إلى ارقى الدرجات أيام حكم الغريب ، وعرف بالاخلاص له زمن قوته ، وهو على جانب من الذكاء والجرأة ، يظهر الغيرة على مصالح الرعية ، ويخدم صاحب السلطان ، ولا يرد لهفة الضماف والمظلومين . هو من طبقة العمال التي ترى السلامة في المسألة . يحرص على إرضاء اصحاب الحوائج ، ولو بالكذب أو المواعيد أو المأريض ، ويظن هذا من حسن السياسة والكياسة ، ولا يهتم لدفع المجتمع خطوة إلى الامام ، وبهمه ابدًا الاحتفاظ بهدونه وطمأنينته ، ولذلك يتحجب الى أرباب الحول والطول ، شأن الضعيف في ذاته يستمد قوته من غيره ، فاذا تخلى عنه صاحب القوة حار وخار . فيه رقة حاشية ، وجمال عشرة ، وتكلف رزاة ، وحب للتجمل ، وبذل إذا كان في البذل ما قد يحفظ المظهر ، ومع انه عصري في مناحيه ، يتذرع بالانتساب إلى الشرف ، وسحنة وجهه وسحنات آله تنادي بأن دعواه في ذلك غير صحيحة . هزأة يهزأ بالكبير والصغير ، ولا يستثني من سخريته إلا أصحاب القوة ، وهؤلاء يفرق في مجاملتهم ومصانفتهم . ويعبت بمن يدعون إلى الإصلاح ، ويضحك حتى من عقل من جعل دأبه نشر العلم ، ويقول جازماً إن كل جهد لا يمود على صاحبه بفائدة عاجلة باطل وعبت . يخيل اليك من حركته أنه يعتقد البلاءة في كل من يلقاه ، ويتوهم انه بروغانه يخفي عنهم ما أتى في سر . كان من صميم الاتحاديين حزب الدولة ، وفي فهم فقلده المالات

واثمنوه على اسرارهم ، فلما دالت دولتهم ، تبرأ منهم وأنكر أنه كان في جملتهم .
وكان في مقدمة الانتدابين أيام انتدابهم على بلاده لا يستقدون ان أحداً يدانيه
في اخلاصه لهم . وكان من اكبر زعماء الماسونية واخباره في محفله شائعة
دائمة ، ومع ذلك كان يحاول أن يرى نفسه من الالتحاق بهم .

هو يحب السلم من المغام ، ويدخل مع كل من يضمن له راحته وهناءه ،
ومن طبعه الابتعاد عن القيل والقال ، ومن دهائه إذا شعر أنه سيطرح
على مجلسه موضوع يتوهم أنه لا يرضى القوم اقراره ، ويلفطون فيمن كان
من الموافقين عليه ، يتغيب عن البلد ، وإذا لم يعرف من قبل ما سيعرض
في الجلسة وطرح فيها ما لا يوافقه ، يصاب في الحال بوجع في بطنه ، وبذهب
إلى الخلاء ومنه إلى داره ، ولا يعود إلى ديوانه حتى يقرر زملاؤه ما يقررون ،
كأنه يتقاضى راتبه لينظر في المسائل السهلة التي تروقه ، أما الصعب منها
فله أن يلقيه على كواهل غيره . وهذا من جملة عيبه ، يعيب حتى برصفائه
ولداته . كان منذ فارق المدرسة إلى أن ذرف على الثمانين يلهج بالمطف
على من كان لأهله شيء من الحمد ، يشير من طرف خفي إلى ان من كان
أجداده نبلاء يحمل في نفسه شيئاً من النبل يؤهله للتصدر ، ويمتعه بما تتمتع
به الفئات المختارة ، من جاه عريض ، ونعمة سابقة ، والنبيل الذي يعنيه
ان لم يكن على صفات تنبئ به لا يشرفه جدوده ، وربما كان أسلافه ممن
أضاعوا بأيديهم مجدهم ، وهم من أكلة اموال المدارس والجوامع والأوقاف ،
او من خدام الدولة البائدة اشتهروا بسرقاتهم وجاسوسيتهم ، او من غير
تلك الطبقات الشريرة ، فيوم انهم كبار في عيته ، وما هم في الواقع إلا صغار ،
وإذا حاسبناهم حساباً سيراً خرجوا وليس لهم من مزايا الرجال قليل ولا كثير .
إن من لم يرزق صفات تؤهله للظهور والتبذل لا يجدي البكاء عليه ،
وأولى له ان يذهب من طريق من نشأوا غير نشأته ، ويترك المجال لمن جاروا العصر
وما جمدوا ولا امتلكوا ، ولا وقفوا عند حد التفاخر بالمعظم الرميم .
وما شرف الانسان إلا بنفسه أكان ذووه سادة أم مواليا

دأب هذا السياسي يثني على كبير كان مقدماً في الدور البائد لتوسطه لبعض طلاب الوظائف وإيصالهم إلى ما يشتهون من المناصب والمراتب ، ولعله كان هو من جملتهم ، ولا يمدح السوق إلا من ربح . ولطالما زعم له أنه نفع العرب ، لأن الوظائف هي كل شيء في نظره . ومع أن الرجل الذي يتفنى بمحامده قد اضر بالدين والدنيا ، وأقل ما يقال فيه أن صناعته كان أكثرهم سبة على الإسلام ، هذا أمر لا بهمه ، ولا يفكر بأنه كان الواجب على صاحبه أن يخفف من مصائب الدولة ، لا أن يزيد بها بلاء على بلاء . وإلى هذا يمتدح بان سيرة أكثر القضاة كانت سيئة ، ومنهم الجهاد الذين لا يصلحون لشيء ، لأن معظمهم ما عرفوا القضاء إلا آلة للكسب ولقد بدا لمدحت باشا والي سورية العظيم أن يعرن الشاميين على الحكم فطلب أن يختاروا له أربعة من أبناء العائلات ، فلما ولاهم عسفوا الشعب فخبجل المتوسطون لهم أن رأوا أولئك المتصرفين يظنون الوظائف غنيمة يتغنمها من يتولاها . كأنه لاجتاح على ابن العائلة أن يخالف القانون ويهزأ بالشرع ، وواجب الكبار أن يسامحوه إذا سرق ، وأن ينفذوا الطرف عن مساويه ، ويبرئوه مما الصق به ، ويصيدوا إليه نعمة أهله ، وإن كان هو السبب في تمزيقها ، والظاهر أن هذا الممر الكبير كان لكثرة ما رأى من هذه النماذج القبيحة من المستخدمين وطعد نفسه على الالس بهم ، وأوحى إليه غرامه بمسألة الخلق ، والاحسان لأرباب البيوتات أن يقرم كلهم على مام فيه .

كانت الامية غالباً إلى عهد قريب على المال ، وكانت بعض القضاة والحكام ورجال الجندية أميين ؛ ولطالما قلت حق في الرسميات من الخير اغلاق مدرسة معلمها أئمة ، وسد محكمة قاضيها طائفي وأن لا يوسد التدريس والقضاء لامثالهم . وقد رأيت من هذه النحلة المخجلة في الاقاليم والحواضر نمودجات كنت إذا شهدت تلاعبها أناجي المولى في سرى عن سر خلقه لها وهو كمال لا يصدر عنه البعث .

كانت الامور أبداً على العهد الركي الى الهزل ادنى منها الى الجدد قال أحد الظرفاء من أصدقاء بيتنا وكان أمياً عامياً لصديق له من الظرفاء أيضاً . أراك لانوقرني التوقير الواجب مع إني صاحب سبعة كراسي في دار الحكومة (أي عضو في سبعة مجالس) فأجابه : مالي ولك ان شاء الله تكون صاحب مئة كرسي ، فصرخ فيه صاحب الكراسي : ياخبيث إذا كنت صاحب مئة كرسي فانا إذا صاحب مقهى لاعضو من أعضاء الحكومة ، ومن الغريب أن يكون من جملة كراسي هذا (العم المحترم) كرسي في مجلس المعارف .

الثالث

هذا كان على جانب من الحزم والروية ومن المداورين أيضاً ، ومن الحرص على حماية أبناء أسرته وأبناء البيوت القديمة ، وسياسته أن يستكثر أبداً من الراضين عنه ، يرضيهم في نطاق القانون أو بالخروج عليه وعلى شدة نفاقه بارضاء الناس عزاً من يحبه منهم ، وتشجلى عبقريته ، وتمثل للأعين عفته إذا جاءه من يطعم في حمايته من أهله ، فانه يصرف عندئذ كل مافيه من حيلة ليلغفه ما يشاء بمخالفة القانون جبرة . وحماية الاهل والاقارب ماثلة في أكثر من اصطلاحنا على اطلاق اسم الكبراء عليهم . وابتلاه الله بقريين ، ما اظن ان الله خلق أحط من اخلاقها ، ولا أوغل منها في الفساد على انواعه ، وكلاهما جمع مالا عظيماً من التوظيف ، وكلاهما فقد ثروته برمتها ، أضعافها الاول في حياته ، والثاني لسنتين من وفاته . وكان لاشأن لتسيبها هذا الا معاومتها على اجرامها ، يجهد كل جهده ليربها متى انكشفت سيئاتها في جريمة جديدة ، وهكذا حال بعض رجال هذا الزمان يتعاملون ما يستعينون به على تقلد الحكم ، وتبقى اخلاق بيوتهم راسخة في نفوسهم ، واذا قلت لهم في ذلك اجابوك وما خجلوا .

في السياسة ومن لا يرضيه ان يسير بسيرتنا فليقم في داره . فانظر إلى هذا الذكاء كيف يتبحر عندما يعرض الحظ النفساني ، ومن الدليل على تجسم هذا الخلق في هذا المترجم له انه يمين كل جاهل ساقط اذا كانوا ممن يختلفون اليه ويصانعونه ، ويرجو منهم خيراً ساعة الضيق ، يرشح الوظائف أسقط صناعته وأسقط أقربائه وهو ولا شك عارف بتجردهم من المزاي ، وماذا يهمه اذا كانوا جهلة أو متجسسين أو مرتشين اذا سدّ هو نهمتهم وأوصلهم الى رغائبهم بالحق الضرر بخزانة الامة وادخال الخلل على مصالحها . وهذا ما رأيناه من أكثر السياسيين وأرباب الأحزاب يعمون عن كل عيب في جماعتهم ، ولذلك كان من اللازم عزل السياسة عن الادارة ، فمن يتولى أمراً ادارياً يجب ألا يكون له دخل في السياسة .

ورحم الله طلعت باشا وزير الداخلية في آخر أيام العثمانيين ، وأحد الخالصين الصادقين من الاتحاديين ، فقد عرض عليه أحد معارفه أن يوظف أحد ذينك الشقيين ، بدعوى أنه سبق له أن خدم في الادارة ويحمل شهادة عالية ، فقال له ما زبدته : مادمت جالساً على هذا الكرسي يستحيل أن يلي هذا خدمة في الحكومة لأن الحكم عرض ، ومن لا عرض له لا يؤتمن على أعراض الامة . وقد ثبت عليه أنه بث بزوجه إلى أحد كبراء الدولة كفتيه وترقص له ، وزوجها مقبض بأنها حظيت بالقبول منه . أظن بعض ساستنا يحتاجون إلى تغيير تركيب أدمغتهم حتى تكون لهم متانة أخلاق الوزير التركي طلعت .

المدارس لم تشوراً من المعارف ، لا تلقن عقلاً ، ولا تنزع خلقاً متأسلاً .

الرابع

وهذا سياسي آخر ساد باستخدام ما لديه من قوة موروثه ، مضافة إلى ما أوتيته من قوة مكتسوبة . لم يدرس الدروس المصرية ، ولا تعلم لغة شرقية ولا غربية ، ولا دخل مدرسة مدنية ولا دينية ، ولم يتخرج

بأحد ، ولا عمل تحت اشراف أحد ، وبرز للعالم كبيراً بمظهره وهذا لا يستغرب في الشرق موطن الخوارق والمعجائب .
هناك ذكاء وقوة حجة وحركة لا تقتر ، وهناك تجديد وجود أحياناً ، وأناة وطيش أحياناً ، ومطامع عظيمة يبذل في تحقيقها آخر درهم ، ومغامرة إلى أقصى حدود المغامرة ، وثبات في الشدائد ، واستهانة بكل عزيز اذا كان من وراء ذلك ما يؤدي الى التفوق على منافس . ولو بذل بعض هذه العناية في تحصيل العلم لعد من العلماء المتمازين .

يجب من الاعمال ما يكون ذريعة الى التمجيد به ، ويحلوله أن يناصر المشاريع النافعة ولو كان القائمون عليها بمن جاهره بالعداوة . ظاهرة غير باطنية وسريته غير سيرته ، ودهاؤه يفوق اخلاصه ، واسع الحيلة ، صبور على الأذى ، يحسن استمالة القلوب ، ويحسن تنفيرها . وسياسته اخترعها لنفسه لم يقرأها في كتاب ، ولا رواها عن المعاصرين والغابرين ، يستخدم كل ما يجوز وما لا يجوز في سبيل أغراضه ، وهو بارع في الدس على خصومه ، ومن أكثر الناس وعوداً ، ويمتد أنه بالاكثر من الوعود يرضي الطالبين ولو مؤقتاً ، وقد بلبس وعوده حلة يستلطفها لأول وهلة من لم يكن له عهد بطريقته ، واذا انكشف أمره يعود فيبي قولاً آخر يقوله ، واذا اشير اليه بالافلال من هذه الوعود هزأ بالقائل هزأه بأرباب القول ، وقد يقع له أن يمد عشرة أشخاص بمغفم واحد ثم يدفعه لآخر غيرهم ما كان داخلاً في زمرة من أقسم لهم أن يخصهم بالنفع ، ومن قلة عقل الموعودين أن يمودوا بعد حين يصدقون ما يوعدون به .

ربما غالى منافسوه في الطعن عليه ، لانهم يمتبرون أنفسهم أعلم منه ، وهو الذي جاءهم بأساليب في التآمر يكاد لا يظهر لهم سرها إلا بعد وقوعها ، ولو كان عقله على مقدار لجأته عند حاجته لجاء منه الرجل الذي ينشل الدول من سقطتها .

من سياسته أن يعزى العامة أكثر من الخاصة ، لانتقاده الخير في العوام وانه لا ينقمه غيرهم في مواطن ليس لخاصة استمداد مثلها ، ولهذا كان معظم من يصطنعهم من صنف قليل البضاعة من المعرفة ومن الأخلاق ، ويرى أنه لا يضيره سوء اختياره ما داموا يخلصون له ، وفيهم من المزايا ما يعرفه هو فيهم ، وهو الى هذا يعاشهم ويتقرب من ذهنيهم .

يخلص لكل من يوليه ثقته من الدول ؛ ويفي فيمن يمتدح أنهم وخدم يقدمون ويؤخرون في حاضره ومستقبله . خدم دولاً ثلاثاً كان في كل واحدة منها الامين المخلص ، رضي رجالها بكل ما أبدعته قريحته من ضروب الارضاء ، ويهون عليه كل أمر اذا كان من وراء ذلك جلوسه يوماً واحداً في الحكم . وهداياه تترى الى من بأيديهم التأثير فيه وفي منصبه ، يأخذها من أي مال وصلت اليه يده ، وغرامه باكتساب المال يوازي غرامه في الاسراف فيه ، تراه عصبياً مجدداً الى أقصى حد ، وربما تسامح بأمور لها مساس بالدين اذا صلحت له الدنيا كما يحب ويهوى .

واذ كان هواه السياسة يرعاها أبداً لا يصعب عليه أن يدوس الحق برجله اذا تعارض مع سياسته ، وكثيراً ما عطف على المفضول وترك الفاضل ، وهو على مضض اذا استخدم بعض الكفاة ، لأنه في باطنه لا يحترمهم وهم لا يحترمونه وبدلون عليه أيضاً بما امتازوا به من صفات وخصائص . وقال بعضهم فيه إنه يحسن اختيار عماله ولا يحسن الاحتفاظ بهم الى النهاية . وفي الازمات يلجأ الى اشياء يخيل اليك معها انه يرجع بالبلاد القهقري ثلثمائة سنة ، وهذا ينافي دعواه التجدد والتعدن ،

لو قيست هذه الشخصية بالشخصيات التي تكلمنا عليها قبل هذا الرأينا صاحبها بذل اولئك الدارسين المجريين الذين صدوا سلم المعالي درجة درجة ، ونسجوا مجدهم خيطاً خيطاً ، فقد شهدناه خدم نفسه وخدم المصلحة العامة بالمكن على اسلوبه الخاص وأضر نفسه ونفع من احبهم . أما الثلاثة الآخرون

إذا أنوا بشيء يذكر في سياستهم وادارتهم اللهم الا أشياء ماطبقوها وامورا
موهومة مانفعت من رعوهم ، وهذا لم يحصر ذكاه في دائرة واحدة بل
أرسل به الى ساحات واسعة يحول ويصول ويخطئ ويصيب ويمنع وينفع .
قيدت هذا الكلام لما فيه من عظة وعسى ان يدرك الفطن من مغزاه
أن الكبار مادامت هذه منازعهم لا يرجي الآن قيام حكومة رشيدة بايدينا .
نقول هذا والاسف آخذ منا بعد أن رأينا كيف يسير أرباب الطبقة الاولى
من رجالنا تحت الايدي الغريبة . وننساها ان يكون عملهم أحسن ياترى لو
كانوا في حكومة مستقلة تتجلى فيها أخلاقهم وقرائهم في قيمها الحقيقية ،
بدون أن يكون لها من يرقعها ويجبر نقصها .



في مصر ومن أجل مصر

دخلت الفندق بباريز ، وكنت على أن أقضي فيها بضعة أيام في طريقي الى أكسفورد ، لحضور مؤتمر المستشرقين (١٩٢٨) ، وما كنت أعلم أن سموّ خديوي مصر عباس حلمي ينزل هذا الفندق ، وله فيه جناح خاص . وانفق أن كان واقفاً على رأس السلم ، فأهل بي كثيراً ، وكنت تشرفت بمعرفته من قبل ، فتحدثنا ملياً ، ثم تفضل ودعاني الى تناول الطعام معه من القد في غابة بولونيا من ضواحي باريز ، ولم يكن معنا غير صديقه وصديقي حافظ عوض بك الكاتب السياسي المصري ، ووكيله بباريز وهو مصري اسرائيلي (خليفة بك بوبلي) . فذهب الحديث بنا كل مذهب ، ولحظت أنه كان غاضباً على الأمير شكيب أرسلان ، فحاولت عبثاً أن يحل الرضا محل الغضب . ثم ذكر له حافظ كتابي (خطط الشام) فقال الخديوي انه لم يره ، فقلت : أقدم نسخة منه ، فقدمتها لذنّ عودتي . فكتب إلي جواباً يشكرني ويقول في آخره : (وهنأتك على هذا العمل الصالح الذي كان ضرورياً لرفي سورية التي نجحنا ونمزّها ، ولا نبرح مفكرين في خيرها ، اقتفاء لاثّر جدنا ساكن الجنان محمد علي) .

وربما كان الخديوي يودّ لو كان ملكاً على الشام ، وكانت سورية في بدء خروجها من حكم الترك تؤمل لو كان لها ملك من آل محمد علي ، خصوصاً بعد أن خرج منها الملك فيصل . وبلغني أن فرنسا فاوضت الأمير يوسف كمال ، خلال الثورة السورية ليتولى ملكها ، فاشترط لذلك أن يكون المفوض السامي الفرنسي في سورية سفيراً كسائر السفراء ، وهو يتعهد أن يقيم من أعمال العمران ما يشغل السوريين عن كل ثورة ، فلم يقبل بالطبع اقتراحه ، ولا يقلّ الطالبون لملك سورية إلى اليوم عن عشرة

أشخاص ، ومن الناس هنا من يفضل الحكم الجمهوري ، ومنهم من يحب الحكم الملكي المقيد .

ندبني الجمع العلمي العربي وحكومة سورية لتمثيلهما في حفلة تكريم أحمد شوقي شاعر مصر . وعرضت خطابي على مراقب الخطب ، فحذف منه جملة ، كان في حذفها على صواب ، لأن الكلام يتم بالاستغناء عنها ، وهي تورثه تطويلاً . وأرادني أحدهم أن أحذف تحية الملك ومن تقدمه من آله في حكم مصر ، فأبيت وقلت : لا أحب أن أخرج على حدود الأدب ، وأنا منتدب عن دولة وعن مجمع علمي هو الوحيد في الشرق الأدنى ، ومن كان له ما يقال مع صاحب مصر فهو وشأنه . وعلى هذه الصورة قرأت خطابي في الأوبرا الملكية بالقاهرة ، فكان له وقع عظيم في النفوس ، قوبلت فيه بمאصفة شديدة من التصفيق مرات . وتعرفت بمد ذلك الى بعض رؤساء الأسرة المالكة ، واستحكت بيننا الصداقة .

ودعاني شوقي ، وأظن بإشارة من القصر الى زيارة جلالة الملك فؤاد الأول ، فقابلني جلالته بمقابلة عطف عظيم ، وطلب اليّ أن أعود الى سكّني مصر ليوسد اليّ عملاً علمياً في قصره العالي ، وزادت رغبته في ذلك لما ذكرت له الصحف والمجلات المصرية التي آزرت فيها ، فقال إنك بمساهمتك بخدمة السياسة والأدب في مصر تمد مصرياً . وذهب الفكر بي مذاهب لما ذكر الملك المحبوب مقترحه ، فتوسط صديقي شوقي لاعفائي من تقلد المنصب الجديد . فقال شوقي لكبير الأُمراء إن صاحبي عزفت نفسه عن سياسة قطره ، فيصعب عليه أن يمالج سياسة غيره ، وأنا أجد لكم شاباً مصرياً كفواً للعمل الذي نحبون توسيده اليه ، فأجابني : نحن نعرف شباب مصر ونعرف أن نختار منهم متى أردنا ، وإنما نود أن نستخدم شخصية صاحبك . وهكذا تفضل ملك مصر العظيم فأغضى عني بحسب ما تراءى لي وشكرت تلك المواطف الجميلة . وكنت أخجل كلما كثرفت بلفائه بما كان يفيضه عليّ من

مكارم أخلاقه ، واستخيلته مرة لأقدم شكري لجلالته على ما أولاني من فضله بضمي الى أعضاء مجمع اللغة العربية الملكي (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) فتفضل وقال : « إنه كان يخشى ألا أقبل بهذه المضوية أما وقد قبلت فهو يشكرني » .

وكننت علم الله أود امتثال أمره الكريم في سكني مصر لولا أن هواءها لا يلائمني كما يلائمني هواء دمشق مسقط رأسي ، وفي أرضها دفن أبي وجدي ، ولولا أنني لأحب أن أشرع بأمر جديد قد يخالف من بعض نواحيه مانهجته حتى اليوم ، فيظهر التناقض بين يومي وأهسي . ولا عدت الى مصر بعد كئيب سبع سنين عاد الملك فؤاد الأول أحسن الله اليه بكرر اقتراحه الاول في ارادتي على سكني مصر ، فأجبت في قصر القبة العامر إني رهن أمره في كل ما يلوح لخاطره الكريم ، سواء كنت في الشام أو في مصر ، لأحتجج إلا الى اشارته العالمة لأصعد بأمره . وارسلت من جهة ثانية صديقي السيد محمد البيلوي الى قصر عابدين ، وقد سمعت أن الامر كاد يتم بتوسيد عمل الي في القصر ، حتى لا يبادروا الى تبليغي ارادة ملوكية ، لأستطيع قبولها واكره ردها . وكان جلالة الملك يحرص على جلب العلماء الى بلده ، ذكر ذلك في حديثي معه اول اشرفي بمقابلته فقال : (إني أود أن أجلب الى مصر كل اخصائي في فنه وأدبه ، حتى لا تبقى دون غيرها في مضمار التقدم ، ولطالما أردت بعض المشتغلين بالعلم في الغرب أن ينزلوا على الرحب والسعة ديارنا ليفيدوها بمقولهم وقرائنهم ، وقد أزور بعضهم في بيوتهم أحملهم على هذا الغرض ولكن بعض علماء الغرب لا يقدر أن يتفكروا عن أعمالهم ، ويصعب عليهم أن يرحلوا طويلاً الى الشرق) .

وكان هذا المليك العظيم يشارك مشاركة عظيمة في العلوم المختلفة ، حتى اتاحس وأنت في حضرته أنك في حضرة عالم لافي حضرة ملك . قال

لي في احدى مقابلاته ان السير دنسن رُس مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن قال له إنه ينوي الذهاب الى فارس ليقنع رجال سياستها بالعدول عن الخط الفارسي واستعمال الحروف اللاتينية كما فعل السكاليون ، فتألم المليك لهذا المسعى وقال للمستشرق الانكليزي : اذا فعلت فأنا أنقض يدي من صداقتك ، وأقاومك بكل ما في وسعي ، وذكر له جمال الخط الفارسي وجمال الخط العربي وكان (طيب الله ثراه) فتح مدرسة في القاهرة وحشر اليها أعظم الخطاطين من الأتراك لما بارت صنعهم في تركيا ، وكان من أثر ارشاده أن يقول المستشرق الموما اليه بعد حين : ان اللغة العربية والحروف العربية والقرآن والاسلام كلها قواعد بناء واحد إن هدمت واحدة منها نداعى البناء كله .)

أبيت سكني مصر مع أبي أجد بين ظهرائي اخواني فيها من السلوى ما لا يتيسر لي أن أنعم بمثله في بلدي . وتفتني مغريات الحضارة على ما لا أجد له شبيهاً في الشام ، وعليّ بصدق بمض الشيء قول أبي تمام :
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط اخواني

لما هدت أنا وصديقي الشيخ أسعد الشقيري ألا نشغل بشيء اسمه سياسة بعد الحرب العامة لكثرة ما لقينا من آلامها ، فانقطعت بالفعل الى الأعمال العلمية الصرفة . واذا اشتركت في الوزارة مرتين ، فالوزارات في سورية على عهد الانتداب كانت وزارات لعمين من المتدينين لا دخل لها في السياسة ، وإنما هي وزارات جدية بأن يطلق عليها اسم وزارات ادارة ، والسياسة بيد الدولة المنتدبة . وبهذا بررت بتعهدي وخلصت من غوائل كثيرة ، وما كنت في الوزارتين شهد الله ، أفكر في غير اصلاح المدارس ولعميم التعليم الابتدائي . وكنت لهذا السبب أبعد ما أمكن عن عطاء السياسة

لئلا يمهّدوا اليّ بمسائل لا أحب الدخول فيها ، وتتخذش الخطوة التي رسمتها
لنفسى بعد الحرب ، وصعب عليّ أن أدخل آخر الأمر ما تباعدت عنه في
الأول ، والمسائل العلمية لا تترك لمانها وقتاً للتفكير في غيرها .

وحاول مقّي القدس ان تكون الحفلة الأولى من أسبوع شوقي برياسته
وكانت اللجنة جعلتها برياستي بدون علمي . لأنني مندوب عن مجمع علمي
وعن دولة سورية ، والمقّي مندوب نفسه فقط . فرفضت اللجنة اسمي في
اليوم الاول وجعلتني في اليوم الثاني ، وسرته بهذا التقديم ، واستكتب
في الصحف انه رئيس المجمع العلمي في فلسطين ، وما عهدنا لفلسطين
بمجمعاً علمياً الى اليوم .

ودعينا إلى الجامعة الاميركية في القاهرة لتناول الشاي انا وصديقي
الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي ، وكان جاء الى مصر ليكرم شوقي أيضاً ،
فالتقينا في محطة الد على سبيل المصادفة ، وزلنا معاً في فندق كوينتنال .
وقلت لاسعاف انا لاحب لإجابة هذه الدعوى ، والوقت ضيق وعندنا
اجتماعات أخرى لابد من حضورها ، وبدأت الحفلة تصاغ فيها الاماديج
لمقّي فلسطين ، وكلما رجونا انتهاء الاحتفال زاده شمراء الطلبة وخطباؤهم
تقدبساً وتمجيداً ، وزدنا من جراء ذلك تبرماً ومضايقة ، ولما رأيت الامر
بطول استأذنت وانصرفت على شدة حرص مدير المدرسة على بقائي ، وقلت
لاسعاف : إن التفاق رائج عند الغربيين وواجه عند الشرقيين ، وعند
المدنيين كما هو عند الدينين ، وأسفت على مخالفة قاعدتي في الا أحضر
حفلة لا أعرف الغرض منها ، ولا اشترك في مأدة لا أنين الاشخاص
المؤلفة منهم . وحدث بعد سنين أن دعيتي هذه الجامعة أيضاً إلى حفلة
شاي لتكريم الاستاذ فنسنتك أحد علماء المشرقيات الهولانديين فاعتذرت
لأنني لا أعرف من يحضر فيها . وقلت لمن آخذني قبل سنة لامتناعي عن إجابة
دعوة الجامعة الاميركية أيضاً : إن معرفة الاشخاص في الدعوات الخاصة

من القواعد الأميركية ، وكان على الجامعة التي تحمل اسم أميركا أن تجري على هذه الخطّة ، وإذا عدّ امتناعي عن الحضور شذوذاً ، فأنا أحب هذا الشذوذ إذا كان فيه ما يريحني ويريح الناس .
وجريت في الدعوات التي اقمتها في العهد الأخير على كتابة أسماء المدعوين في رقعة مطبوعة ، فكان بعضهم يمتدّر لتخلفه عن الحضور لانه سقط في قائمة الأسماء على اسم من لا يجب الاجتماع به ، فارتفع بذلك حرج عن أصحابي واستحسنوا ذلك ونسج بعضهم على منواله .



سياسة

قال لي رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسيني إن دارة افرنسية رست في ثغر بيروت فيحسن أن تذهب لتحية قائدها باسم حكومة سورية ، فقلت له : جرت عادتك أن تبعث في مهاتك غيري ، فأرسل أحد رصفائي نائباً عن الحكومة ، واعفني من هذه الرسالة ، وأنا لا أحب التشريفات ولا أحسنها . فأصر عليّ بالذهاب ، وأرفقني بكاتب مؤتمن عنده ، ليكون شهيداً على ما أقول ، وما علمت ان كان انتدابي لهذه التحية هو من عندياته ، أم كان بإيعاز من مقام أسمى .

ولما وصلت الدارة كان وكيل المفوض السامي المسيو ترو هناك ، وقد اخذت منه الخمرة فقال : إنكم في دمشق تلعبون وتهزلون ، والرئيس لا يحضر الى مكتبه كل يوم ، ، وسياستكم تنج نحو سياسة الوطنيين المتطرفين . فأجبت أن ما بلغه غير صحيح ، وان الرئيس مواظب على عمله أكثر من اللازم ، حتى انه قضى أمس الجمعة وهو يوم عطلة في دار الحكومة ، من الصباح إلى الغروب ، وجثته في المساء وسألته اذا كان كُفُذى ، فقال : لا . فقلت له : اذا أحببت أن تطول خدمتك ، يجب عليك أن تأكل في أوقات معينة وتنام ولستريح ، وان كان لا بد من الاقامة في قصر الحكومة ، حتى أيام التعطيل ، فات من بيتك بسرير ، وأوصهم على طعام يحمل اليك . وذكرت له أن اتجاهاتنا السياسية ليست مع المتطرفين ولا مع غيرهم ، وایس من دليل حيي على صحة هذا القول على الحكومة ، وأقنعتهم بأن حكومتنا لا تتساهل بواجبها . ذكرت للشيخ حديثي مع ترو ، وقلت له ان القوم على مارأيت يتربصون به وبحكومته الدوائر ، فلما أن يكتبوا الى المفوض السامي المتغيب في باريز فيتفق مع وزارة الخارجية على اقالة حكومتك ، ولما ان ينتظروا

جميعه لانتقاد برنامجهم ، فتدارك امرك والا تداعت وزارتك . فشرع في الحال يتخذ الوسائل فنجح وبقيت وزارته في الحكم بعد ذلك نحو سنتين . كان المسيو بروير مندوب المفوض السامي يكرهني ويجب مستشار المعارف المسيو راجي ، وكان هذا خصمي منذ توليت الوزارة ، فقد كان يتدخل فيما ليس من شأنه ، وانا اقف في طريقه بالقليل من الوسائل التي كانت لدي . وقد دعيت مرة لتفاوض في منهاج التعليم الثانوي برئاسة كاتم السر العام المسيو ترو في بيروت ، وكان مني مستشاري ، ولحق به المندوب المسيو بروير فحضر الجلسة ، وليس من حقه ان يحضرها ، فلما تكلم مستشار المفوضية وتكلمت انا ، اراد مستشاري ان يتكلم فما فهم الحاضرون ما قال ، وتبسموا مما اورده من المبارات ، وانفضت الجلسة .

وتخلفت عن الجماعة وبقيت مع المسيو ترو وقلت له جاداً : اما بلفك انه كادت تقوم فتنة امس في دمشق ، فقال : لا ، وكيف كان ذلك ؟ فقلت له : انت تعلم ان الفقراء والاغنياء سواء امام الله ، وفي الجامع عندنا لافرق بين السلطان والشحاذ . وقد شاء مندوبكم المسيو بروير ان يحضر صلاة العيد في الجامع الأموي ، فتأخر عن الميعاد ، ولما حضر كان المصلون اقاموا الصلاة ؛ فغضب وشتم خصوصاً لما رأي انهم لم يخصصوه في السدة بكرسي عظيم ، احسن من كراسي الجالسين من غير المسلمين ، فالحمد لله على انطفاء هذه الفتنة . فضحك وضحكت معه . وكان كلامي صادف هوى في قلبه ، ولعله يريد ان يقول انظر بالله عليك أليس الحق مع المفوض السامي في عدم رضاه عن هذا الرجل ؟ وكان عين في هذا المنصب على غير ارادته .

وكان هذا المندوب بروير يرسل سيارته في ساعة متأخرة من الليل الى ترجمان المستشار ليستشيره في بعض ما يعنى له من المسائل ، ذلك لأن الترجمان كان موضع ثقة المستشار ، والمستشار موضع ثقة المندوب ، وقد بلغ من دلال الترجمان الأخرق ، أنه كان كل سنة يبيع أسئلة البكلوريا

من الطلاب ، فأنكشف تلاعبه بعد عزل المستشار ، وكان نصيبه الطرد من عمله . وكان هذا الترجمان ممن يعتمد عليهم أحد أعضاء الكتلة الوطنية ليكون وسيطه الى المستشار فالمندوب ، فيتمكن من قلب الحكومة التاجية ، واستلام زمام الوزارة . وقبل لي إن التقارير اللازمة في هذا الباب كانت تكتب في قلم مستشار المعارف ، فما نجح يومئذ ذاك في سمعه للوزير ، ولا وفق المندوب ولا مستشاره ولا ترجمانه . وكان هذا الوطني دأب على تقصي أخبار كل وزير بمفرده ، يسأل حتى شرطيه عن حركانه وسكناته ، ويمده بالترقية متى استلم زمام الحكم ، إذا هو أطلعه على أحوال وزيره .

وضايقي هذا المندوب ، وضايق رصيني في الوزارة السيد صبحي النبال وزير العدل ، والسيد عبد القادر حسني الكيلاني وزير الزراعة ، وقد عرضت على مجلس الوزراء مسألة الدخان ، فكان يريدنا على أن نقول باحتكاره ، ونحن نرى المصلحة في استثمار الحكومة له ، وأن نطلق الحرية للأهلين في زراعته وصنعه ، وكان يترامى إلينا أن الشركة طالبة الاحتكار وضمت مبالغ عظيمة للوزارة إذا أجابنها على طلبها ، ومنحتها الامتياز بالاكتكار . ولما أصرونا على رأينا نحن الوزراء الثلاثة ، شكنا المندوب الى المفوض السامي ، لامتناعنا من إعطاء الدخان للشركة ، مدعياً أن واردات الدولة تنقص إن لم يكن الاحتكار ، وهكذا كان رأي وزير المالية . فسأله المفوض السامي عما إذا كان الوزراء الثلاثة المصرون على إطلاق الحرية للدخان هم ممن يهتم بالرشوة فقال : لم يُسمع عنهم شيء من هذا القبيل ، فعندئذ قال له على ما اتصل بي : ليس الوزير موظفاً حتى يرسم له خطة ، ونطلب منه انتهاجها ، الوزير صاحب مهمة ، وصاحب فكر ورأي ، ولا يليق أن نوعز إليه بأعطائنا الرأي الذي نؤثره . هؤلاء الوزراء أعرف بمصلحة بلادهم ، فإذا كانوا يفضلون إعطاء الدخان إلى شركة فأقرم على طلبهم ، وإذا أحبوا جملة حرام فأمض ما يحبون . فرجع المندوب بخفي حنين ، وخاب أمل من يقولون ممة بالاكتكار من الوزراء .

وفي وزارة الشيخ تاج الدين الثانية تقرر احتكار الدخان في سورية ولبنان بفضل المفوض السامي المسيو دي مارتيل ، فحدثت من ذلك ضجة كبرى في لبنان ، وتدخل بالأمر بطريك الموارنة ، وما أمضى المسيو دي مارتيل إلا ما أراد ، وانتفع بذلك فيما قيل بعض العظماء في الجمهوريتين السورية واللبنانية ، ممن وافقوا على الاحتكار لتربح الشركة الفرنسية من مال سورية الفقيرة مئات الألوف من الليرات كل عام .

وكان هذا المفوض السامي يبغضني ، وهو وحده من بين المفوضين الساميين في سورية الذي تحبهم لي ، ولم اجتمع اليه سوى مرتين في بضع سنين قضاها في ارضنا ، اولاهما لما دعا عظماء الدولة لاختذ آرائهم في الحالة السياسية ، تونعت معه في نقد السياسة المتبعة توسعاً أحق صدره عليّ ، والثانية لما دعاني الى الشاي ، وأراد المندوب صديقي المسيو لافاستر تقديمي له : وتعرفني اليه التعرف الذي يليق ، فقال له : إني اعرفه ، بلهجة قاسية . فكان يدعوني بعدها الى الحفلات فلا أحضر ، والغالب أنه كان يترامى إلى مسامعه اعتراضاتي على سياسته وكان يأتي أموراً تتنافى مع وقار منصبه العالي ، والحق إن السياسة الاقتصادية التي لهج بها كثيراً وانتهت بري ألوف من الفدادين من أرض حمص كانت عمله الوحيد الذي يفتخر به .

كيف وضعت تأليفي

سألني الاستاذ منير الشريف إذا كنت أشرت في مذكراتي إلى الاسباب التي دعيتني إلى وضع تأليفي ، فقلت له : إنك لفت نظري إلى أمر ما جال في بالي ، فقال : أكتبه ففيه فائدة وتعليم . فكتبت هذا :

كان أول ما نشرته ترجمة رواية قبعة اليهودي ليفان سميتها (بتيمة الزمان في قبعة ليفان) (١٣١٢ هـ) وكنت يومئذ آخذ الأدب عن استاذي السيد محمد المبارك ، فترجمت الرواية كما يترجم المترجمون بمبارة سهلة مع المحافظة على الاصل ، وعرضتها على استاذي ينظر فيها فمأراقتها ، وفضل أن تكون مسجوعة على طريقته ، فنشرت بعضها ونثر هو أكثرها فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع . هكذا كان الاستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به أولا ، وأدرك هو ضعف طريقته بعد أعوام . وقال لي وأنا قد زعت قيود السجع نزعا : ما أسعدك تخلت عن السجع ، وعمدت إلى الكتابة المرسلة ، بدون تكلف الاسجاع والازدواج ، وأنا ما زلت محافظا على الطريقة القديمة ، ما قدرت أن أنخل عن الملكة العقيمة التي غلبت عليّ ، وإذا أردت اليوم أن اكتب كتابا خاصا في غرض من الاغراض يتعاصى عليّ تسطيره ، ذلك لأنني اريده مسجوعا وقريحتي لا تواتيني ، والسجع مستحكم فيّ رضيت أم كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع .

وكتبت بعد ذلك كتبا كانت لي بمثابة تمرين على التأليف ، ولم أطبعها منها ترجمة الاسماء التركية لرضا باشا نقلتها إلى العربية والفرنسية (١٨٩٣ ، ومنها لمريب بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجدان والحرية المدنية والحرية السياسية لجول سيمون ، ولما رجعت إلى ما نقلت لم يرقني ، ونقلت

إن القراء من باب أولى لا يستسيقونه . ونشرت بعض فصول في جريدة المؤبد من كتاب الحرية السياسية .

وكننت احب أن أضع تأليفاً في حرية العرب فكننت فيها دفاثر لم أستحسنها بمد سنين ، ورأيتني لم احكم الموضوع ، وكانت معلوماتي التاريخية فيه ضئيلة لم تكف لتصوير البحث ، ولم اعطه كليتي وما درسته على ما يجب كما درست أكثر الموضوعات التي عالجتها بمد . ولما أعدت النظر فيما كتبت لم أرَ أحسن له من طرحه في سلة المهملات وليتني أيضاً نبذت « رواية بقيمة الزمان » في زنبيل سقط المتاع أيضاً ، ولكن الشباب وحب الظهور يومئذ حفزاني إلى طبعها ، على أنها كانت لي بمثابة الخطوة الاولى نحو التأليف ، ما خلت من فائدة وتدريب عليه . وكانت معاملة لي ، على صغر حجمها ، ألا اعاود طريقة الاسجاع التي بطل زيتها في هذا العصر .

ولما نشرت مجلة المقتبس حاولت ان اضع بعض التأليف التي كنت ارى فيها نفعاً ، فاستغرقت الجرائد السياسية ومجلة المقتبس العالمية كل وقتي وجهدي ، وصرفت في ذلك بضع سنين (١٩٠٦ - ١٩١٤) منها ثلاث سنين في مصر أخرجت خلالها من المقتبس العلمي ثلاثة مجلدات ، وأخرجت في دمشق خمسة مجلدات وعددين اثنين من السنة التاسعة . وما وفقت خلال هذه المدة إلا لطبع جزء من ترجمة « تاريخ الحصار » لشارل سنيوبوس ، نشرته في المجلة أولاً كما نشرت « رسائل البلقاء » وطبعتها تباعاً في أجزاء المجلة وجعلتها بمد كتاباً برأسه طبعته مرتين . ثم طبع طبعة ثالثة وقد نقحته وزدته زيادات كثيرة ، وأصبحت هذه الرسائل النادرة مرجعاً للمتأدبين والباحثين ، لما حوت من نصوص لا أثر لها في الكتب المطبوعة ، وكانت مما أعان بعض ناشري المخطوطات في الآداب والتاريخ فعارضوا عليها بعض نصوصهم ، وأجمل ما فيها رسائل عبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، واستفاد منها كثير من الابداء الذين عرفتهم في مصر والشام وتأدبوا بأدب هذين الكاتبين العظيمين ، ومنهم اليوم أساتذة ورؤساء في

الجامعتين المصريتين ودار العلوم والأزهر والمجمع العلمي العربي .
وطبع لي صاحب مجلة مسامرات الشعب روايتين عربيتين عن الفرنسية وهما
« الفضيلة والزيلة » و « المجرم البريء » نقلتها بسرعة وطبعتهما بسرعة ،
ولم أنظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فتسللت اليها هفوات
مطبعة وغيرها ، مضافة إلى رداءة الترجمة ، على أن القراء يومئذ قرأوها
وربما استحسنتوها ، وما هما في الواقع غير كتابين لم يدخل موضوعهما قلمي
وكتبتهما لغيري ، وكانت الغاية من نشرها مادية صرفة ، والمادة شيء
والادب شيء آخر .

استخرجت (١٣٤٣ هـ) بعض ما نشرت من المقالات في مجلة المقتبس
ومجلة المقتطف وجريدتي المؤيد والظاهر وغيرها وسميته « القديم والحديث »
وطبعته في مصر ، ولم أرض عن طبعته لأنها حملت أغلاطاً فاحشة ، ولم
ينظر أحد في تجاربه . وكان صديقي الاستاذ محمد لطفي جمعة كثيراً ما يحثني
على جمع هذه المقالات مخافة أن تضيع في الصحف اليومية والمجلات العلمية
وهذه المقالات أو أكثرها لأرضيني اليوم ، وكانت شيئاً في عهد
كتابتها وفي ذلك دليل على ضعف ابن آدم يستهجن اليوم ما كان
استحسنه بالأمس ،

وشعرت بالحاجة الى وضع تأليف صورت في نفسي موضوعاتها ،
وبحثت قليلاً عن مراجع للاستمانة بها ، فلم يساعدني الوقت على البدأة
بها ، وتبرمت بما كان يضيع من وقتي في تحرير المجلة وفي أشغالي الأخرى
فزاني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري بقوله : « إن المجلة تأليف وزيادة ،
وكان لا يرى تكبير حجم مجلة المقتبس ، ويؤثر تجويد المقالات ويوصي
بكتابة مختصرة ، وعنده ان يضع ورقات جيدة التأليف أفضل من مئة
صفحة مملوءة حشواً وطويلاً . ولذلك كنت أصرف جهوداً في تأليف
المجلة أستقصي أبحاثها وانقل آراء العلماء المحدثين والقدماء . وتأليف مجلد
كل سنة من مجلة مختلفة الموضوعات أصعب في الحقيقة من وضع كتاب

ذي موضوع معين ، خصوصاً إذا كان منشئها يكتب أكثر صفحاتها ، وينظر في مقالات مؤازريه نظراً بليغاً ، ويتوخى ان تكون موضوعاتها من الطريف المفيد . ومن أين لصاحب المجلة أن يضع كتاباً ويجود فيه يومئذ والأبحاث تعرض له بالمشرات ، وهو مضطر إلى قراءة أكثر من ثلاثة آلاف صفحة بالعربية والفرنسية والتركية كل شهر عدا الجرائد السيارة ويكتب كل يوم بضعة أعمدة في موضوعات شتى ، ويصحح مقالات وأخباراً لايقع عليها المد .

كان صديقي الاستاذ رفيق بك العظيم كثيراً مايجثني على وضع التأليف المنعمة ، وقد كتب لي مرة من القاهرة (١٣٢٢ هـ) يقول : « وبودي ألا توزع قواك التي وهبت لك في أجزاء منشورة وفصول مبتورة ، وأن توجه نفسك إلى تأليف كبير يكون لك ذخراً وللأمة نافعاً ، وأفضل مايجتاجه قومك الآن التاريخ . . اقترح عليك هذا حرصاً مني على ملكتك العلمية أن تفو في مستقبل الايام آثارها بين متفرق الجرائد وفي ثنايا المجلات والله موفقك وهاديك » .

كنت منذ القديم أفكر في موضوع مشئت المادة متنوع الأبحاث ، وهو وضع تاريخ سياسي ومدني مطول للديار الشامية ، فإن ماكتب في هذا الباب لم يحجم أصحابه حول الموضوع كثيراً ، وأخذت ابحت عن الكتب وأزور المعالم والمجاهل في هذا القطر ، واستكثر من اقتناء الاسفار النادرة باللغات الثلاث العربية والفرنسية والتركية ولا سيما الاسفار العربية القديمة التي أحياها علماء المشرقيات من الغربيين . وكنت أطالع كل ذلك مطالمة تدبر والقط جواهرها ولما استوفيت البحث في خزائن مصر والشام وبعض خزائن الاستانة علمت همي أن أرحل إلى أوروبا ليتسع مني مجال النظر في خزائن كتبها العربية والافرنجية ، فعرضت فكرتي على السيد مارتين هارتمان من علماء المشرقيات الالمان وكان جاء دمشق وقلت له إني مززع الرحيل إلى باريز ولندن وأكسفورد وكبريدج وليدن وبرلين ومونيخ

وليسيك وغوتا وفينا ورومية والانسكوريال وعمرها ، لاجت في خزائنها عن مخطوطات العرب في التاريخ ، فقال : إن الفكرة حسنة ولكنها غير عملية ، وتنفيذها يستغرق من وقتك حولين على الأقل ، نحتاج فيها إلى نفقات طائلة ، فالأولى أن نذهب إلى رومية ، وفي خزانة الأمير كاثاني صاحب كتاب تاريخ الاسلام صور صورها بالتصوير الشمسي من خزائن العالم ، فيها ما خلفه الثقات من مؤرخي العرب في تاريخ الاسلام ، مما لم يطبع حتى الآن ، فإذا زرت خزائنه في التاريخ فكأنك رأيت جميع تواريخ العرب المحفوظة إلى اليوم في خزائن الغرب . فقصدت مصر وزودني صديقي أحمد زكي باشا بوصاة منه إلى صديقه الأمير ليوني كاثاني في رومية فقدمت عليه فرحب بي وسهل علي مهتي ، فكنت كل يوم أبحث ثلاث ساعات في الصباح في خزائنه مدة شهر .

ولما نشبت الحرب العامة كانت بعض فصول الكتاب قد نسجت . وأنا حائر في وضع التاريخ السياسي ، أجمله على الدول أم على السنين ؟ وحائر أيضاً في الكلام على كل إقليم بإقليمه على النحو الذي عرفته العرب ، ويدخل الكلام على جغرافيته وطوبوغرافيته وتاريخه السياسي والمدني ، ثم عدت عن الطريقة التي اتبعتها في تأليفه بمد أن ألفت جانباً منه على الاقاليم ، واطلع أصدقائي عثمان مردم و خليل مردم وبدر الداغستاني على مسودات « خطط الشام » وما جمعت له من المواد وأعدت له من الفصول والابواب ، فالحوا عليّ بأجزائه وطبعه ، وأرجأنا الأمر إلى ما بعد الحرب . ولما وضعت أوزارها أخذ السيد الداغستاني يحثني كثيراً على طبع الكتاب ، وكان هو مثلي ومثل رفاقي الذين كاشفتهم بالموضوع يخشون ضياع التعاليق التي علمتها ، والمواد التي جمعتها بطول السهر والدؤوب وكنا كلنا نقول إن شعباً يطالب باستقلاله حري أن يكون له تاريخ يرجع إليه ، ويقول الامم . هذا ما كنت عليه ، وهذا ما صرت إليه .

استطرد : أراد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكبرى أن
أؤلف له كتاباً في سورية الداخلية كما ألف له مجلدان في سورية الساحلية
(ألوية اللاذقية وطرابلس ونابلس وعكا) فطلبت للقيام بهذا التأليف ألف
ليرة عثمانية ذهبية فاستعظم ماطلبت ، وقال ان تأليف الجزئين الخاصين
بولاية بيروت لم يكلف الواحد منها ثلاثمائة ليرة عثمانية ورقية ، وكان
من وضعوها وترجموها من الشبان المبتدئين أخذوا من المواد التي وقعت
لهم من الكتب المتداولة ، وما عنّ لهم الخوض فيه من المباحث باديء
الرأي . فقلت له إني في صدد تأليف تاريخ مطول في الديار الشامية
وقد جمعت له مواد وقعت عليّ غالية جداً ، فقد انققت على سياحين لي
الى اوروبا للبحث في الخزائن ، وعلى ابتياع ما اضطرت الى ابتياعه من
كتب علماء المشرقيات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والادب وغيرها
مبلغاً لا يقل عن الف وخمسة ليرة عثمانية ذهباً ، صرفتها مجزأة على أعوام
فاذا نزلت عن هذه المواد ، وكتبت كتاب سورية الرسمي لايقي للمواد
التي جمعتها وانققت عليها هذا الانفاق طلالة ولا جدة ، فلم يقع
اتفاق بيننا .

واجتمعت بعزمي بك في الاستانة بفد أن تنحى عن ولايته - وكان من
أذكياء الانحاديين يغلب عليه الجدّ ويحرص على انهاض المسلمين - فقال لي
إنه آسف لأنني لم اجد طلبه إلى تأليف كتاب عن سورية الداخلية ،
فأجبتة وأنا كذلك آسف لعدم انفاذ أمرك . أنت استكثرت المبلغ الذي
طلبته مع أنه دون ما صرفت ، وما كنت أتوقع من ذلك تجارة أترج بها ،
وربما لم تنس كيف وصلت إلى تلك المواد التي جتيتها بالمجهود العظيم ، ثم
خاطبته منهكاً : هل ألفت ياسيدي كتاباً قط ؟ قال : لا ، قلت إذًا هذه
صناعتي ، وأنت اسمح لي أن أقول لك إنك لا تميز بين المؤلفين وما يؤلفون .
قلت لي إنك انققت على ما ألف لك لولاية بيروت مبلغاً زهيداً على التأليف
والترجمة ، وتقترح أن أجري على ما جرى عليه غيري ، وربما كان بعضهم يكتب

لك هذا بدون أجر ، لأنه لم ينفق قرشاً على موضوعه من قبل ، ولا استعد له وهو منه خالي الذهن ، ويتطال في هذه الحرب الزبون أن يصون نفسه عن الدخول في الجندية ، ويتخذ من انقطاعه إلى التأليف حجة لاعفائه منها ، والأرواح لنفسه ان يكتب كتاباً ، وما كتب حياته كتاباً ولا رسالة ، وهو جالس في حجرته يأكل الأكل الجيد ، ويلبس اللباس الجيد ، وينام النوم الهادئ ، على فراش وثير ، بعيداً عن الخطر في ساحات الوغي .

وقلت له إن من طببي الا اهين العلم ، وما سبق لي ان اسقطت قيمته ، بل رفعت من شأنه ما استطعت ، ولقد انفق في سبيل التعلم اولاً ثم التعليم ثانياً ثم نشر ما علمت ثالثاً ، نفقات لم ينفقها فيما احسب انسان ممن عرفت من ابناء وطني ، وارجو الا كمد ذلك تبجحاً ، وان توقف ان هذا هو الحق . وبذلك لا أواخذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت أعده تفضلاً عليّ ، بل سخرة من سخرات الحرب المعقوته ، حمدت الله على أن نجوت منها .

وكان عزمي بك يحاذرني ويمتقد أني من جماعة جمال باشا ! وأذكر أني كتبت مقالات في الحملة على المحتكرين البيروتيين في جريدة الشرق فما وسعه إلا أن شكرني عليها واستزادني منها ، وإن كانت ضمناً موجهة اليه ، ولشير من طرف خفي إلى أنه ضيف الادارة ، يتلاعب المحتكرون بالأسواق ، وهو ساكت لا يبدي ولا يبعد .

وإذا صح أن يكون لي تأليف زمن الحرب الكبرى فكتابان من كتب الدعاية أحدهما رحلة الوفد الشامي إلى الاستانة وجناق قلعة ، والثاني رحلة أنور باشا إلى المدينة ، وهما كتابان كتبتهما وطبعتهما على نفقة الجيش ، وأنا غير راض عن أكثر ما فيها ، وهما كتابان لغيري لا لي ، وفيها صورة من سياسة تلك الايام ، وما كتبه الكاتبون والشعراء في معاونة الدولة العثمانية وهي في أحرج أوقاتها . وبحمت في الحرب في عدة خزائن عن الكتب النادرة ولا سيما خزائن دار السلطنة فالتقطت منها فوائد عظيمة .

وبعد الحرب عاد السيدان خليل مردم وبدر الداغستاني ، وقد فجعنا بحبيبتنا عثمان بك يحنان على نشر (خطط الشام) ويسهلان عليّ أمر طبعه ، وأنا أحجم مخافة أن أنكب بطبعه إذا طبعته على نفقتي كما نكبت بتأليفه . فاستقر الرأي على تأليف لجنة من أصدقائي خليل مردم ، بدر الداغستاني فوزي الغزي ، فخري البارودي ، لطفي الحفار ، سامي العظم . جمعت نفقات طبع الكتاب بالاشتراك فورد عليها من اشتراكات الشام ومصر وغيرها ما طبعت به الاجزاء الستة اي نحو الف ايرة عثمانية ذهبية . وندر طبع كتاب في الشام على هذه الصورة ، ودل طبعه على روح التمسك بين أبناء الوطن الواحد ، وكان من النادر أن يثق القوم بانجاز كتب تطبع بالاكتتاب وابقنوا لثقتهم بهذه اللجنة أن الكتاب يطبع لامحالة ، فدفنوا الاشتراكات عن طيب خاطر . طبع من الكتاب ألفان وما بقي من نسخته بعد الاشتراكات وهي نحو ألف نسخة أهديت منها للمجامع العلمية والخزائن العامة والمجلات والأصحاب والفقراء نحو ثلاثمائة نسخة ، وبيع الباقي ولم يرد عليّ من ريع الكتاب مائتا ايرة أي نحو ثمن ما أنفقت على تأليفه ، وعلى ثلاث رحلات رحلتها الى أوروبا ، وعلى شراء الكتب النادرة ، واشتغلت خمساً وعشرين سنة مقتباً بوضع كتاب كبير في تاريخ بلادتي وحضارتها قرأه قومي وعلّموا فيه تاريخهم ، وأصبح مرجعاً للباحثين من العرب والافرنج كان صديقي الاستاذ عارف النكدي يستبعد وضع تاريخ الديار الشامية ويقول إنه ضائع في تضاعيف التواريخ العامة مندمج فيها ، فمن الصعب استخراجها ، ولما انتشر الكتاب ورأى توفيقتي في وضعه اعجب مما وفتت اليه فطلبت منه ان يكتب نقده في التأليف الجديد في مجلة المجمع العلمي العربي ، فكان ينتقد كل جزء عند صدوره وانتفعت ببعض نقدهات ونشرتها في آخر الكتاب اسوة ماجاءني من نقد الباحثين والعلماء . ولم انشر تقريراً مع ان التقاريط التي كتبت في الكتاب غير قليلة . ومن طبعي ان يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه المؤلف وللناس وللعلم . ولذلك

لم اشر في كتيبي قط ولا في المجلات والجرائد التي كتبها تقریظاً او شيئاً يشبه المدح في عملي بل كنت اشر النقد فقط . وهذا ما كان صدقي العلامة الارب استاس ماري الكرملی يستغربه مني ، ولطالما قال لي إنه مارأى مؤلفاً في الشرق يتطلب النقد طلباً وينشره .

نشرت (خطط الشام) في دمشق وكنت افضل طبعها في مصر لعلمي بأن الكتاب الصادر عن القطر المصري يلقي قبولاً في العالم العربي لا يكون مثله لكتاب يطبع في الاقطار العربية الاخرى ، وعاقبت عن طبعه في وادي النيل مسألة التصحيح ، ومن الصعب ان اقضي فيه اشهراً للنظر في تجارب الطبع . وطبعت في القاهرة كتابي (غرائب الغرب) وكانت الطبعة الاولى منه في دمشق ، وزادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيها ما كتبته في المقتبس من مقالات في وصف المدينة الاوربية ومنها مقالات ايطاليا وسويسرا كتبها في لوزان في أيام قليلة ، وكنت أكتب ثلاثاً أو اربعاً منها في الجلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة أعمدة في الجريدة ، وكتبته بنشاط غريب ، وقلما كنت اعاد النظر فيها ثانية . ووقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر وقد قضيت فيها مرة ستة أشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على المقتبس بدمشق وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً عليّ أن أكتب على الاقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت أجمع في ذهني الموضوعات التي أريد معالجتها ، وأجلس يوم البريد صباحاً إلى مكنتي فأكتب حتى الظهر ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها لتشر في جريدتي على اسبوع .

وكثيراً ما كنت أقضي أشهراً لا تنشط نفسي لكتابة شيء ، وقد أكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلبي في سنة . وقلما كتبت غير كتابة الهواة ، وما اضطررت الى الكتابة التجارية إلا في الصحف السياسية على الاغلب . ولهذا النشاط والفتور عوامل نفسية كثيرة يعرفها من يكتب ويؤلف . وقد لاحظ بعض المعارفين أن كتابي « غرائب الغرب » (الطبعة الاولى منه)

كان في أوله رائقاً وفي نصفه الأخير جافاً . والسبب في ذلك أن الجزء الأول من هذا الكتاب كتب في بيئة حافلة بالمسرات ، كتب في باريز في غفلة الدهر ، والقسم الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكنت إذا أحببت أن أسرح نظري لا أجد أمامي غير جدار من الطين لا جمال فيه ولا شيء مما ينعش الروح والصدر .

دعيت إلى مؤتمر المستشرقين في ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ وسألت رصفائي أعضاء المجمع العلمي العربي عن الموضوع الذي يرون أن أخوض فيه هناك ، وقلت لهم إن كل عضو لا يسمح له الكلام أكثر من عشرين دقيقة ، على ما رأيت في مؤتمر المستشرقين في اكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وقد تكلمت فيه على نهضة العربية الأخيرة ، ولما دون العرب والمستعربين على النهوض بها ، وعلى نشر دوائها المخطوطة . فقال أحد الأعضاء صديقي الدكتور اسعد الحكيم : قل لهم إن الاسلام أصبح معروفاً عند الأمم بما نقل إلى لغاتهم من كتبه ، فليس من اللائق بعد الآن ببعض المؤلفين أن يطلقوا ألسنتهم فيه بما لا يليق ، ولا أن يطعن بالمسلمين والعرب الطعن الذي لم ينشأ إلا عن أحقاد قديمة ولمصبات رديئة . فقال الأعضاء : هذا هو الموضوع . وقلت لهم : ليتني كنت قيدت أشياء عرضت لي ولها صلة بما تريد فقالوا : تكلم بقدر ما عندك من المادة ولا يطلب منك الزيادة . فأخذت بدرس الموضوع درساً خفيفاً لا كتب فيه سبع صفحات . ولما أزمعت الرحيل حددت الحكومة لي مدة الرحلة أربعين يوماً فاستقمت لمتها ، وعدت من تلقاء نفسي عن السفر ، وفرح رئيس الوزراء لانه كان يود أن يذهب إلى باريز وكذلك وزير المالية ، فأبّت المفوضية أن نحيبها إلى رغبتها إذ لا غاية ترجى من سياحتها . ولما عدت عن الذهاب إلى ليدن انصرفت إلى درس الموضوع الذي اقترح عليّ أن أعرض له في جلسات المؤتمر ، واتفق أن تركت الوزارة بعد حين فسيطرت على وقتي كما أشتهي ، وما زال الاتفاق يتسع ويمتد ، وأنا محدثي نفسي أنني سأخذ مما كتبت محاضرات للمجمع العلمي حتى كتبت

أكثر من تسعمائة صفحة ، كان منها « كتاب الاسلام والحضارة العربية » ، طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد سلخت في تأليفه ثلاث سنين لم أقطع فيها يوماً واحداً عن التأليف ، ومدة اشتغالي كل يوم ثماني ساعات فأكثر . وشاهدت تبسيراً في النقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره . فكنت أذكر ما تلوته من ثلاثين أو أربعين سنة في هذا البحث أو المباحث فاسقط في الحال على ما أنوختي ، وقرأت ورجعت إلى أكثر من خمسمائة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين إنه أجود كتبي تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب يحتاج إلى الرجوع اليه الموافق والخالف . والكبير والصغير ، والعربي والأفريقي . وما كتب إليّ الأمير شكيب أرسلان فيه : « أنا معتقد أنك وفقت فيه توفيقاً كبيراً وأنه خير ما كتبت بل من خير ما أخرج من الكتب في هذا العصر ، ولعمري إن هذا الموضوع كان يُعوزُه كتاب جامع محيط بأطرافه كهذا الكتاب سدّ هذا العوز ، وكفى الناس مؤثمة نشدان الأدلة من هنا ومن هنالك ومن هناك . الى أن قال : ولذلك مست الحاجة إلى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب ، وبأخذ على المكابرين أو المتجاهلين أفواه الطرق ، فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن ينقل الى لغة مشهورة من اللغات الأوروبية فانتا نحن في حاجة إلى أن يملعوا هم عنا أكثر مما نحن في حاجة إلى أن نعلم نحن عن أنفسنا » .

وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » صورة من حالة العرب قبل الاسلام وحالتهم بعده ، فيه اشارات إلى تأثيرات الاسلام واثنته في الاقطار المغلوبة ، ومناقشة من نالوا من الاسلام والعرب وكتبوا فيها بالهوى ، والاستدلال على نقض أقوالهم بكلام علماء منهم تكلموا نازعين ربة التعصب الديني . وقد رددت فيه أمهات الشبه التي أوردها الشعوبيون أعداء العرب والاسلام ، وعرضت لما أثر الاسلام في اوربا من طريق الاندلس وصقلية ، وما كان من الخير لهاتين الجزيرتين وما والاها من حضارة

العرب ، وعرضت ما كان من تخريب التتار من الشرق والبربر والصليبيين من الغرب في كيان العرب والاسلام ، وما كان من غارات المستعمرين على ديار الاسلام والشرق عامة ، وما أخذته الافرنج من علوم العرب ، وما اخذه هؤلاء عن الامم الحديثة لما حاولوا النهوض في العصر الماضي ، وذكرت ما أتى به الاسلام من علوم خاصة به ، وما عبث به العابثون في هذا الشأن في المصور التالية مما كان فيه تدلي أهله . وأفضت في سياسة الامة العربية والامم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكسة والاكراد والفرس والهنود . وتوسعت في ادارة الحكومات التي توات على ارض المسلمين من عهد صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام إلى يوم الناس هذا . فكان من هذين الفصلين الاخيرين موجز من تاريخنا فيه زبدة مايجب حفظه من تاريخ الاسلام والعرب .

وحاضرت ببعض فصول هذا الكتاب في الادارة الاسلامية في دار الجمعية الجغرافية الملكية بمصر فتصدت السيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية في مصر لطبعها فطبعتها باسم « الادارة الاسلامية في عن العرب » وهذه المحاضرات دخلت منقحة في الكتاب وهي مقتطعة منه عندما كان تحت الطبع . كما فعل طابع كتابي « غرائب الغرب » اقتطع منه مقالات « غار الاندلس وحاضرها » ونشرها على حدة بعد نشرها في « غرائب الغرب » وكذلك رسالة « الحكومة المصرية في الشام » فانها محاضرة دخلت في كتابي « خطط الشام » .

وقضيت عاماً وبعض عام في وضع كتاب (امراء البيان) وكنت كتبت بعض فصول منه حاضرت بها في ردهة المجمع العلمي ونشرتها في مجلته ، ثم رجعت اليها وحذفت منها وزدت . وهذا الكتاب من الكتب التي جمعت مادته في نحو عشرين سنة اي منذ تخليت موضوعه . وجاء في مجلدين ايضاً وطبعته كصنوه لجنة التأليف في مطبعتها بالقاهرة وكان الداعي الاكبر الى تأليفه بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الافكار وذلك على الطريقة

الغربية الحديثة في التحليل والنقد. هذا بعد أن رأيت المؤلفين من القديم
يعنون بالشعر والشعراء فقط ، ولم يعنوا العناية المطلوبة بالكتابة والكتاب
وهم الذين خلفوا لنا مؤلفاتهم ورسائلهم وعلمونا أكثر من الشعراء .
والشعراء على الأغلب ما عرفوا غير المديح والهجاء والثناء والاستجداء ،
وزادوا الناس من بضاعة الكذب ، وعلموهم المبالغات والتلو . وهذا الكتاب
تقرر في دراسة السنة الخامسة التوجيهية في المدارس المصرية العالية وكان
بذلك أول كتاب عربي لمؤلف غير مصري الجنسية بدرس في وادي النيل
على ما ظن وكذلك درس في كلية الآداب كتاب الاسلام والحضارة العربية .
وفي خلال هذه الفترة نظرت نظرة ثانية في ترجمة (تاريخ الحضارة)
وكنت نشرته تبعاً في المجلة وأخرجت منه الجزء الأول (١٩٠٨) واتممت
ترجمة الجزءين الآخرين الأخيرين منه ولم يطبع كما لم يطبع كتاب محاضراتي الأخيرة
في مصر والشام وهي تبلغ نحو ثمانين محاضرة . وكتبت جانباً من
(كنوز الاجداد) ولم أتمه . واحتيت بالطبع كتاب سيرة احمد بن طولون
للبلوي من اهل القرن الرابع ، وعلقت عليه شروحاً وتقايد وطبعته في دمشق .
وبهذا الكتاب تجلت لنا نواح كانت غامضة من سيرة هذا الرجل العظيم ،
ومن تاريخ مصر والشام في القرن الثالث وما إليها ، ومن علاقة مصر
ببغداد والخلافة العباسية يومئذ ، وفيه قصص جميلة يمثل بها ابن طولون
اللاعين بدارته وسياسته ، وذكائه ودهائه ، ولينه وشده . وقال صديقي
العلامة كرنكو : « إن هذا الكتاب فتح باباً جديداً لمعرفة ذاك الدور
الطولوني العظيم الذي تقل الاخبار الاكيدة عنه ، لأن الطبري على
جلالة قدره في التاريخ كان على ما يظهر مقلداً من حوادث مصر والشام
في عهده » .

ومن التأليف التي وضعها زمن الحرب الأخيرة ولا تزال في المخطوطة
كتاب المذكرات وكتاب سميت أقوالنا وأفعالنا (طبع في مصر) وهو في
بعض مشاكلنا الاجتماعية والسياسية . وكتاب المذكرات اشبه بمجريدة يومية

وكتاب الأقوال والأفعال يشبه مقالات المجلات العلمية وفيه ما طرأ عليّ منذ وعيت إلى الآن . كان الفضل في تأليفه لصديقي عالم تونس سيدي حسن حسني عبد الوهاب ، ولطالما حثني على تدوين ما كنت أقص عليه مما وقع لي ويقول أن في تدوينها كل فائدة لقراء العربية . وعنيت بتاريخ حكام الاسلام للبيهقي علفت عليه وخدمته (طبع) ومن التأليف التي وضعت بعض أقسامها وهيأت لها موادها « معجم القرى الشامية » ثم ملئت منه ولم أتمه بعد أن اضعت فيه وقتاً وهو كتاب مفيد لكنني أصبحت أحب أن أكتب ما فيه فكر أكثر من الكتب التي لا يتطلب فيها غير تصحيح النقل وقد مرقت الجزازات التي أنعمها منه حتى لا أعود إلى البحث فيه واقترح عليّ في خريف سنة ١٩٤٣ أن أكتب لسلسلة اقرأ مختصراً في وصف مدينة دمشق وتاريخها واقتصادياتها وغطتها فكتبته في ١٥٠ صفحة صغيرة . ونشرت كتاب المستجد في فعات الأجواد للقاضي التنوخي وأنا أعد للطبع كتاب البزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي . وطبعت كتاب الأشربة لابن قتيبة وعلفت عليه . وعنيت بوضع تاريخ غوطة دمشق مرجت فيه الزراعة والادارة والأدب وهو يطبع الآن في مجلة ما يطبعه المجمع العلمي العربي من مطبوعاته . هذه تأليني والدواعي إلى وضعها ، ولو كنت خصصت أوقاتي كلها للتأليف ، ولم أصرف أعواماً في السياسة ، لكانت مجموعة ما كتبت أكثر ولو كنت احسن الدعاية لتأليني لصادفت رواجاً أكثر مما صادفت ، ومع هذا انتشرت في اقطار بعيدة ما كان يحول في الخاطر انها وصلت إليها . والمزاء الوحيد في الكتب ان لها قراء في الأمصار تتناولها السنة بعد السنة إذا كانت مفيدة وصالحة للبقاء ، وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها أكثر من شهرتها في حياته . وبعد ذهاب المؤلف من الارض بقدر بقيمته الحقيقية . ورجائي ان يكون ما كتبت خالصاً لخدمة الأمة العربية ، وألا يكون ما خطته يميني مما يسود الوجه يوم تبيض وجوه ولسود وجوه .

فهرس الجزء الأول من المذكرات

ص	ص
روح المذكرات	٣
لقب أسرتنا	٥
ذكريات الطفولة	١٠
عوامل المثبتين	٢١
الصادون عن العلم	٢٧
أخلاق بعض القضاة	٢٩
الدلاء يحترفون	٣٢
أدب	٣٤
أمي صاحب أخلاق	٣٦
اجتماعات مفيدة	٣٨
شعراؤنا - شر أصبح خيراً	٤٠
فقيه السياسة العالي	٤١
ما يغلب على مدن الشام	٤٢
انصاف آلهة	٤٣
التطويل في المذلات - الرافعي مؤرخ العصر	٤٤
تمثال تيمور	٤٥
الشاميون في مصر	٤٦
الاشتغال بالصحافة	٥٠
الصحافة أيضاً	٥٦
ناظم باشا وانفتحت	٦٤
الأخلاق الطيبة	٦٨
لبنان	٧٣
جمعية الاتحاد والترقي	٧٥
سلطان الأعيان	٧٨
نجوت من الفاروقي وجبل الدروز	٨١
في الهزيتين	٨٤
شبك نجوت منه ونجوت به	٩٩
والي سورية خلوصي بك	١٠٣
جمال باشا والمفتي	١٠٧
الجالوس السافل	١١١
المتطوعون بالجالوسية	١١٥
السياسيون والصحافيون	١٢١
عقول الاتحاديين والانكاز	١٢٣
التجارة في السياسة	١٢٥
بغض الانكاز	١٢٧
الأمير فيصل	١٣٠
بطريك الروم	١٣٧
وفد جنات قلعة	١٤٠
أحرار الترك	١٤٤
جمال باشا والبارون أوينهايم	١٤٨
أحرار العرب	١٥٢
كره الأتراك للعرب	١٥٨
دعوة غربية	١٦٦
شؤون مع الاتحاديين	١٦٩
الاهداء والاستهداء	١٧٤
غياقي من سياحاتي	١٨٤
علماء المشرقيات والاسلام	١٩٤
مع مواطنينا	٢٠١
مع العامة	٢٠٩
قيم الاشياء	٢١٥
هزل مصر والشام	٢١٩
الطف الخفي	٢٢٦
أحباب الانكاز	٢٣١
تأثير البيئة	٢٣٦
عظيما عد ابن عثمان	٢٤٢
الرجال الذين عرفتهم في مصر	٢٥١
الدعائيات الأجنبية	٢٥٨
عزت باشا العابد	٢٦٦
أول رئيس جمهورية في سورية	٣٦٩
سورية والرجال	٢٧٣
المجمع العلمي العربي	٢٧٦
أربع شخصيات	٢٨٧
في مصر ومن أجل مصر	٢٩٦
سياسة	٣٠٣
كيف وضعت تأليفي	٣٠٧

المذكرات



الجزء الثاني

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يقال في الحقائق نفسه ويسومها طلب الحال فتطمع
«المتنبى»



نمن الجزء الواحد { خمس ليرات سورية في سورية ولبنان
ستون قرشاً مصرياً في مصر وسائر البلاد العربية

رؤساء الوزارات

اتفق أن وسدت رياسات الوزارات لأناس لا عهد لهم بالحكم والادارة ، فن حقي بك العظيم إلى صبحي بك بركات إلى أحمد نامي بك إلى الشيخ تاج الدين الحسني إلى السيد جميل مردم بك كلهم قفزوا إلى الرياسة قفزاً ، وارتجلوا لها ارتجالاً . وجاءوا بالسادة جميل الاشبي وعطا الأيوبي ونصوحي البخاري من المتمرنين على الادارة أشهراً قليلة ، لغرض اقتضى ذلك . وأتوا بوزراء مختلفة درجاتهم ، ومنهم المتعلم ومنهم العامي ، وبمضهم كالواتي لا يفتحون أفواههم بما يتوهمون أنه يؤلم مرجعاً عالياً على الأغلب . وكذلك الحال في لبنان ارتجل الوزراء والرؤساء ، ومنهم من كانوا معروفين بفساد أخلاقهم وسرقاتهم قبل الانتداب وظلوا في عهد الانتداب على فسادهم وسرقاتهم ، ومنهم من كانوا لصوصاً وبجاهرون باللصوصية ، فجمعوا بذلك ثروات طائلة صرفوها في القمار وغيره . ولو حسن الانتخاب لحي بأقرب من هذه الطبقة إلى الصدق والامانة ، وادراك معنى التعاون .

عملت وزيراً مع حقي بك والشيخ تاج الدين خمس سنين وسبعة أشهر ، وكان أكثر من معنا من الوزراء مقتدرين وكانوا بانتخاب المفوض السامي . وكان الرئيسان على مثل ما كان عليه أكثر رؤساء الحكومات ، يستوحون المندوب والمفوض في المسائل الكبرى . وغاية ما كان يطمع فيه رئيس الوزارة ألا يعمل وزيره ما يفضب الجماعة ، وأن يكون على اتفاق مع مستشاره ، وهو ينصرف الى التشريفات ، واتقاء خصومه ، والتمويه على أوليائه ، وارضاء مستخدمي الانتداب وكل من له صلة بهم .

وقلما كان الرئيسان اللذان اشتغلت معهما يوقفان لي عملاً ، ورضيان مني فقط أن يأنيا للخدمة في المعارف بأناس قد لايجوز استخدام أمثالهم

فيها ، فتحصل مشادة قليلة يفي وبينها ، اريد اختيار الكفاة وأصحاب الاخلاق السليمة في الجلة ، ومن كانت لهم شهادات ، وهما يحبان مراعاة سياستها ، وحماية صنائعها .

أبى الشيخ تاج مرة أن يصادق على قائمة المعلمات والمعلمين الذين عينتهم ، وكانوا كلهم يحملون شهادات تؤهلهم للخدمة ، أو أدمج له معهم اثنين لا يحملان شهادة ، واقترب وقت فتح المدارس ، وأنا أنوسل إليه أن يعفني من تعيين هذين الشاين المقترح تعيينها ، حتى لا يقول المنتدبون أنني اخالف القوانين المعمول بها ، ولا أفتح المجال لتصديق ما قاله في المستشار السابق ، ولما نفذ صبري من الحاحه أشرت إلى المستشار أن يطلب المندوب أوراق التعيينات الجديدة مصادقاً عليها ، وهذه هي المرة الأولى والاخيرة التي التجأت فيها إلى المندوب . ذلك أن الرئيس ما كان يسمح لنا أن نزر المندوب إلا في الاوقات الرسمية مدعياً أن ذلك أدعى إلى حفظ كرامتنا مع أنه كان ليل نهار يطلب رضا أقل واحد من جماعة الانتداب والغالب انه كان يخاف على منصبه من بعض وزرائه ومنهم من لو جوز لنفسه بعض ما جوزة هو لتركة جانباً وأستأثر بالرياسة دونه .

حرص رؤساء الوزارات في كل دور على استخدام ذويهم وخواصهم والافصال على أنصارهم وصنائعهم . وأعظم من كان له الغرام العظيم بحماية الأهل والأقارب السيد حتي العظم ، فقد حاول املاء الدواوين بأناس من ذوي قرباه وفيهم الصالح وغيره . وكان الشيخ تاج يكثر من استخدام الضعاف لأعمال الحكومة واطالما بينت له مضار هذه السياسة ، فكان يورد عليّ حججاً لتفضيل الدمشقيين في التعيين ، وأنا أقول له إن المملكة ليست عبارة عن دمشق فقط ، وإن هذا التخصيص سيدعو الحلبيين الى الانفصال ، إذا ظل المركز يحرمهم الوظائف .

حاول الشيخ وقد فرضت عليه فرضاً ، أن يتخلص مني غير مرة ، وأراد منذ الاشهر الاولى أن يخرجني من الوزارة مع الاستاذ سعيد المحاسني

وزير الداخلية فحدثت أزمة وزارية كان المقصود في ظاهرها اخراج ثلاثة وزراء ، ومنهم السيد جميل الاشقي ، ولكن هذا كان ممنا نحن الاثنين في الظاهر ، والحقيقة أنه كانت من آخا ص الخلاصين للشيخ ، ثم سمحت المفوضية باخراج المحاسني ولم توافق على اخراحي .

وحاول الشيخ في رأس الوزارة أن يورثوه رواتب والده من الاوقاف وهو عارف أنه لا يحسن التدريس ولا يستطيع المواظبة فاحقق على ما بذل من وعد ووعد . ومن هددهم الاستاذ الشيخ عبد المحسن الاسطواني قاضي دمشق ورئيس التوجيهات العامة فردده وفرق هذه الاموال على عشرات من القراء العميان وحاول الشيخ تاج الدين بكل ماله من حيلة أن يقنع السيد الاسطواني بتوجيه دروس أبيه اليه وهدده بالمزل ان لم يجبه الى طلبه فقال انك مقتدر على تنحيتي من المنصب ولكنك لا تحكم على قلبي وديني . ونذرع رئيس الحكومة باقالة الاستاذ الاسطواني فلم تجبه السلطة الفرنسية الى طلبه .

كان بمض رؤساء الوزارات والوزراء من الآخذين بمبادي الماسونية ، يستعينون بقوة هذه الجمعية السرية على الوصول الى المناصب ، وقل أن رأيت موظفا كبيرا لم يدخل الماسونية ، ومعظم من انضموا الى حظيرتها عندنا كانوا من الطامعين في حمايتها ، وهم موضع نظر بسيرتهم ، دخلت الماسونية أرضنا منذ العصر الماضي وقاما تم على يدها شيء ينفع ، ذلك لأن المقدمين فيها لم يقوموا بما تدعو إليه قوانينها من الخير ، ورأينا معظم الرؤساء منهم يستحلون أكل أموالها ، وإذا كان الخير في فطرة بعضهم فانهم لا يلبثون أن يتعمدوا عنها كاتمين أسرارها ، آسفين على ما أضاعوه من المال والوقت مدة ارتباطهم بها .

مسألان مضحكتان حدثت احدهما في أيام رئيس الوزارة حتي بك والثانية في عهد الشيخ تاج الدين ، وبمرضهما هنا فكاها وتسلية . حرص الأول أن يكسو الوزراء والموظفين ألبسة مزركشة بالقصب أيام التشريفات ، وأن يصنف خدام الدولة أصنافا ، يجعل لكل صنف منهم بذلة خاصة وقصبا خاصا . وكانت تساوي البذلة يومئذ نحو ثمانية عشر جنها مصريا ،

إذا عزم صاحبها على بيعها لأكساوي جنهين ، وكان السيد حق العظم للوصول إلى ما يحرص عليه من ذلك وللسرعة في انفاذه ، يأتي الى مجلس الوزراء بالرسم والخياط وصانع القصب ، يمرض على وزرائه النموذجات ، ويشاورهم في الطراز الذي يقع اختيارهم عليه . والمجلس يضيع وقته في هذه الامور وأرباب المصالح ينتظرون منه البتة في أشغالهم . وقد استعملت كل ماعندي من حجة حتى أقنعه بأن ابتداع هذه الكسوات بحجف بالموظفين وأكثرم فقراء فأصر على انفاذ مشروعه . ولما صنع لنفسه بذلة قلت له : الآن حصل المقصود فان اكتساء رئيس الحكومة بالقصب يجزي عن اكتساء الموظفين كلهم ، على نحو ماقلت له لما عرض عليّ وسام جوقة الشرف : لما كنت دولتك تقلدت الوسام فكان الوزراء كلهم تقلدوه ، ونحن إلى الآن لم نأت ما نستحق به هذا التشریف فاقتنع وأعفاني . وانتهت معضلة القصب بعد أن أضمتها بها بضع جلسات من جلسات مجلس الوزراء ، وما انتهت في الحقيقة إلا لما شكاني الرئيس إلى المندوب ، وسألني هذا عن سبب الامتناع ، وعن استنكافي من لبس القصب فقلت : إني لم ألبس هذا القصب أيام الدولة العثمانية ، وسلطنتها الضخمة سلطنتها ، فأنا لا أرى أن ألبس بذلة رسمية في هذه الحكومة الصغيرة ، وإني مستعد للمتنحي عن الوزارة أو يلغى المشروع فألغى .

أما المشروع الثاني في وزارة الشيخ تاج فقد كان الخطاب فيه أسهل ، لأنه كان محصوراً بالوزراء ، ذلك أنه حرص على لباس وزرائه (الفراك) وسألته لما عرض علينا أن يقتني كل وزير كسوة منها : وما هي الفراك ، ألبست البذلة التي يكتسبها غلمان الفنادق ؟ فقال : نعم . هي من هذا النوع فقلت له : وما الفائدة من اقتنائها ، فقال : اذا دُعيت إلى المفوضية وغيرها لحفلة راقصة تجددونها حاضرة . فقلت له : أنا لا أعرف الرقص ، وما اعتدت أن أرقص للقرء في دولته ، فأرجوك اعفائي من هذه الكسوة ، ومن هذه النفقة الضائلة . واستحسن على ما يظهر بعض رصفائي قولي ، ونجبونا

من بذلة الفراك . أما رئيس الوزارة فاستصنع واحدة منها ، كان يلبسها في الحفلات الراقصة والساهرة ؛ وما كانت تلبق له وهو بدين قصير القامة أعرج وعلى رأسه عمامة ، وثوب الفراك مقطّع من أمام ومن وراء .

وبلغني عن أحمد نامي بك أحد رؤساء الحكومات في سورية ، أن حب الأناقة بلغ منه أن كان يُبدل بضع حلل في اليوم والليلة ، وله في الأزياء والتأنق غرام ، وهو لا يكاد يفارق المرأة ينظر فيها إلى هندامه ونظامه أبداً ، ويسأل مُخلصانه عما يرون في كسوته من نقص يمكن تلافيه . ونامي بك كان من أصحاب سلاطين العثمانيين ، ولذلك سمي الداماد أي الصهر ، وكان أبوه فخري بك شركسياً مصرياً عرفته ، وكان رئيس بلدية بيروت زمناً ، وكانت له مشاركة في الآداب ، وعلى جانب من الاخلاق ورأيت نامي بك في داره يوماً وقد تليت أمامه قصيدة في مدحه لا أحد متشاعري بيروت جاء فيها ذكر التاج . وكان في المجلس أحد وزرائه السيد يوسف الحكيم - وهو الذي رأى أن يحيطه بسور يحول بينه وبين الناس - لما ورد ذكر التاج أقسم بالله أنه لا يليق هذا التاج إلا لهذا الرأس ، يعني نامي بك .

وكان يوسف الحكيم في ابعاد صاحبه عن القوم مثل ما كان من السيد احسان الجابري حاجب الملك فيصل بن الحسين لما بوع ملكاً على سورية فكان حرصاً على جلال هذا الملك ، يعين لمن يواتيه الحظ بالثول بين يدي الملك دقيقتين أو أربعاً ، ويقول للملك أن ينهض لواحد ، ولا ينهض لآخر ، ويقلل من الكلام أو يكثر ، على حسب ما يرى . وكذلك فعلت الحكومة الوطنية فحظرت على رئيس جمهوريتها ابن الاناسي ألا يخرج من قصره ، ولا يظهر لأحد ، ولا يسأل عن أحد ، وأحاطوه ببضعة أفراد من الدرك في حبسه المزروق .

في الفترة التي مضت بين اشتغالي بوزارة حقي بك واشتغالي مع الشيخ تاج ، كان رئيس الحكومة السورية التي سموها حكومة الاتحاد السيد

صبحي بركات ، وهو من أهل انطاكية لا ينطق بجملة واحدة صحيحة باللغة العربية ، وقد وصل إلى الرياسة بطريقة عجيبة ، كان يقاتل الفرنسيين مع ابراهيم بك هنانو صاحب ثورة الشمال . وتوسط له أحد أقربائه ممن يعتمد عليهم الفرنسيون ، فعدوه من المؤلفة قلوبهم ، وعهدوا اليه برياسة اتحاد سورية ، وكان صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي بعد رفعت آغا والد صبحي بركات من أعظم رجال سورية لأنه كان يقاوم الاتراك في عصره . قال ابن بركات في دار الحكومة علناً ، إنه لم ير أحداً خدمه مثلي ، ولم يطلب منه جزاءً على عمله بالتاميح ولا بالتصریح . وكان كلما فتح لي موضوع الوزارات ليرضيني ، أقول له لعاون كما يجب مع المنتدبين ، وسير الاشغال بما يفرض عليك ، ولا تذكرني في هذا الموضوع لأنني لا أطمع في وزارة ، وأنا راض بمركزي ، وأريد لك النجاح . وقال مرة في حلب لأحد أصدقائي عمر نهان ، بعد أن أقبل من منصبه بمدة : إن كل ما فعله في دمشق لم يأسف على صدوره منه إلا ما كانت من مشاكستي . ذلك لأنه كان يتخيل أنني أطلب منه وزارة ، فكذب ظنه لما رأي في الثورة لعرض علي" الوزارة أربع مرات وأرفضها . ولما جعل رئيس مجلس النواب ، وطلب من فرنسا مطالب نافعة ، وذهب إلى باريس للمطالبة بها حمدته على ما فعل ، امام أصحابي ، وقلت إنه كفر بذلك عما سبق له عند تولي الامر ، فواجب الكتلة الوطنية الآن ، وقد استلمت الحكم أن تكافئه لانه أضاع بما صرح به منصبه ، فبلغه ما نهت به وأحب أن يزورني ليشكرني ويعود إلى التواصل بعد التقاطع ، فاييت وبقينا متباعدين .

كان صبحي بركات يشارك في بعض الموضوعات ، ومن طبعه أن يطيل لسانه في وزرائه وفي غير وزرائه ، ولذا غضب اخنل" توازنه . غضب علي مرة فلما لم يستطع أن ينتقم مني ، أحب القضاء على المجمع العلمي العربي ، وسبب غضبه أن وزير المعارف في حكومته الدكتور رضا سعيد الأيتوني أقام في رمضان مأدبة لرئيسه وللوزراء ودعاني معهم ،

وكتب بطاقاتٍ باسم كل مدعو وضعها على الأطباق ، يعين بها لكل إنسان مكانه الذي يجلس فيه فكان المقعد الذي اختاره لي صاحب الدعوة بعد شقيق رئيس الحكومة . فقلت لأحد أخصاء الداعي وأنا خارج من الدار إن صاحبك بلغ من المصانعة مبلغاً عظيماً . لأنكم تعرفون مبلغ احتقاري للتسريعات ، ولكن الرجل أعمد تحقيري بوضعه لي بعد أخي صبحي بركات ، وسني ومقامي يؤهلاني لأكون فوق شقيق الرئيس على كل حال ، وليس لأخيه من المزايا إلا أنه شقيق رئيس الحكومة ، وما زاد على كونه فلاحاً من فلاحٍ أنطاكية . فنقل صاحب الدعوة كلامي إلى رئيس الحكومة ، فغضب غضباً عظيماً ، وتجهم لي فقاطعته ، ودام التقاطع أشهراً ، ثم أرسل لي أحد وزرائه السيد جلال زهدي بعد مدةٍ يسترضيني ويدعوني إلى معاودة الاجتماع مع الرئيس فقلت له : أسألك بالله وبكل عزيز أن تقول له : كفاه إدلالاً علينا بمنصبه ، وما مكانته إلا من طريق هذا المنصب فقط ، وليعلم أنه إذا استقال غداً لا يبقى له أحد من كل من يصفاه اليوم . ليلزم داره وألزم أنا داري ، انرى من يقرع بابه كل يوم . وأظنه يوم مفارقة الحكومة لا يختلف إليسه إلا من يأملون عودته إلى الحكم ، وقليل ما هم ، ففاظه هذا الكلام أكثر مما غاظه كلامي الأول في أخيه ، وأقيل ابن بركات وبقي في حاب ودمشق كما تنبأت له لا يقترب منه أحد . والدكتور الأيتوني وزير المعارف يومئذٍ من أكبر من خدموا السيد صبحي بركات ، قام له مدة وزارته بمثابة وكيل خرج في داره ، يشتري له حاجاته البيتية ، وإذا مرض أحد عنده بات عنده ممرضاً لمريضه ، ومع كل هذا غضب عليه مرة ، فقال في الملاء يوم الجمعة في قاعة الاستقبال : كنت أظن رضا سعيد شيئاً فإذا هو كرش مملوء ...

وقد أرسل لي ابن بركات في الثورة السيد لطفي الحفار ليأخذ رأيي في وزارة جديدة نؤلّفها ، وترك له حبيبه جلال زهدي فيها ، وإذا لم تقبل

به يتركه ، على أن يكون هو الرئيس ، فقلت له . إنني في أشد الضيق ،
ونالته لو أعطيت خمسمائة ليرة ذهبية كل شهر على أن اكون وزيراً معه
لا أقبل ، وكيف أرضى برئاسة من قال منذ أيام علناً انه لم ينم ليلة يوماً
هادئاً مثل الليلة التي ضربت فيها دمشق وخربت على رؤوس أهلها ، وذكرم
بكل قببح ، وشتم أعراضهم ، وهو الذي احتفل بمرسه ودمشق تلهب
بالنيران ، وأتى بالراقصات والمغنيات يرقصن ويفننن في داره ، فكان هو
يطرب ومن ورائه وأمامه يصعد أنين المظلومين ، وبكاء المنكوبين ، فان
كان نسي ما قال فأنا وأهل بلدي لا ننسى . واقام مثل هذا الفرح في دار
فؤاد بك المدرس بحلب وأنى بالراقصات ، والبلاد يذوب بالثورة كما يذوب
الملح . وقد نصحت له بالكف عن هذا الاستهتار الذي يأتيه في بيروت ،
من الجلوس في الحانات ، والراقصات من حوله ، فقال : أنا أتمتع بحريتي ؟
فقلت له : رئيس حكومة اسلامية لا يستطيع أن يكون حراً على هذه
الصورة ، فهل شهدت رئيس حكومة لبنان أو رئيس جمهوريتها ، يجلس
مثل هذه الجلسة في مكان عام ، إن كان لا بد من الاجتماع إلى هذه الطبقة
فاعمد إلى دارك ، وليكن ذلك على الأقل بدون تبذل .

ونشأت لي صداقة مع الجنرال أندريا قائد موقع دمشق أيام الثورة ،
وقال لي عند أول اجتماع معه : إنكم كلكم ثوار ، فقلت له : إن الثائرين
منا خرجوا إلى القوطة يقتتلون مع جماعتكم . فقال : لا ، إن منكم
الثائر بالسلاح ، ومنكم الثائر بالفكر . فقلت له : أنا لا أقول بقولك . فقال :
إن كان الأمر على ما تقول فلم لا تميّنوننا على اظهار الثائرين . فأجبت
مرتجفاً : يا جنرالي ليست هذه صنتي . فانتبه وغير مجرى الحديث . وقلت
له ذاك اليوم : أظلمعون في استبقاء سورية أم في الاحتفاظ بصبحي بركات ؟
فقال : اللهم سورية فقلت : نحواً إذاً صبحي بركات عن منصبه فالنفوس
حائرة عليه . ومن القد قصد الجنرال الى المفوضية في بيروت ، وبعد ثلاثة
أيام كان ابن بركات في داره كأحد الأفراد لا سلامات ، ولا شرطي ،

ولا حاجب ، وأنصاره أمثال وزيره الحلبي نصري بخاش الذي ما كان يعرف إلا خدمة المراجع العليا بما يكتب لها ، وكذلك جملته عضو محكمة التمييز وهو رومي هاجر حديثاً من الأناضول ، ولا يتكلم كلمتين بالعربية فضلاً عن أن يقرأها ويكتبها ويفهم أسرارها ، واسمه نيقولاكي أفندي .

دخلت على الشيخ تاج الدين في مكتبته الرسمي فرأيت عنده صديقي الأستاذ سامي العظيم يلتبس منه أن يوافق على تعيين شخص من بني العظيم أعرف أنه لا يصلح لشيء . فقلت له : يا سامي ، إلام تستعملون هذه الخرق البالية ؟ وتحشون دواوين الحكومة بمن كان عليكم رحمة بهذه الأمة أن تتركوهم في بيوتهم ، وتأخذوا للخدمة من الشباب حملة الشهادات العالية الذين ملأوا المقاهي ، وهم لا يجدون عملاً لهم بعد الدراسة ، والتفت إلى رئيس الوزراء وقلت له : كما فعلت بفلان ، وأنا أعرف أنه قريبه ، وجعلته مدير ناحية داريا وهو أمي يكتب له كاتب القرية أوراقه الرسمية ، ثم انه غني يملك مزرعتين ، فلماذا لا تتركونه لمزروعاته ، وإني لأفضل أن أملك مزرعتين على أن أكون وزيراً ، ولو أمكنني المقايضة لقايضته . فسكت ، ثم قلت له : وفلان الذي جعلته مدير ناحية دمر فقال إن بني فلان افتقروا وليس عندهم ما يأكلون ، فقلت له : وهل الحكومة رباط أو زاوية دراويش يقصدها أرباب البطالة والجوع ، فترى من واجها لإطعام كل من جار عليه الدهر ، أو جلب لنفسه الفقر بسوء تصرفه . ثم إنك جعلت مدير ناحية تدمر رجلاً دخل مستشفى المجاذيب مرتين ، وفي عقله شيء إلى اليوم ، فهل يجوز أن يتولى مثل هذا العمل ؟ فقال : وهذا افتقرت أسرته . فقلت : بالله تقناً نقول لي افتقرت وانك ترحمها بتعيين أحد أفرادها لتعيش فاذا كان الأمر يسير على هذا الشكل فلماذا نفتح المدارس وزبني الشبان ؟ ونحن لا نختار للوظائف إلا من يرق قلبنا عليهم ، وعندي أن تقتصدوا من هذه الموازنة الضخمة التي تخصصونها بها وزارة المعارف كل سنة ، وتأخذوا موظفيكم حيث شئتم ، وليأت هؤلاء المتعلمون جوعاً حتى يطعم من يؤثر

بالرحمة . فاضطرب الرئيس لهذه المجاهرة وقال لي : تفضل الى غرفتك !
كان الشيخ تاج الدين منذ الاشهر الاولى لوزارته يحاول أن يبدلي ،
ووعده بوزارتي غير واحد ممن يريد إسكاتهم من المستوزرين . وتذرع أن
ينحني عن الوزارة ، فما قبلت المفوضية باقتراحه ، وتراعى إليّ أنه قيل
له : إذا ترك فلان وزارته تمسقط الوزارة ، فخاف عليها وأرجأ صرفي من
الخدمة إلى فرصة أخرى . ومما قالوه له في المفوضية إن الرجل لساناً وقلماً ،
وهو سيسألنا عن سبب إقالته فماذا يكون جوابنا وهو عارف بعمله محبوب
منا ومن الشعب ؟

رجائي وكيل المندوب أن التي كلكة في مدرج الجامعة السورية ، وكان
من انصار رئيسها (وكان يبره بالمال) ليجمعها بزعمه كصلاح يعقد بيني
وبين رئيسها ، وكان بيني وبينه تحالف في الأخلاق والعقلية . وسرت
في نهاية الاحتفال مع المسيو بونور مستشار المعارف في المفوضية ، وأنا خارج
من التكية السليمانية ، فقال لي : ونحن بمزول : إني أبلغك سلام المسيو
هوبنو (مدير السياسة) وهو يقول إنا نمتنون منك ، ونفتخر بوجود
شخصية مثل شخصيتك في الوزارة . فأسرعت إلى الشيخ تاج ، وذكرت
له ما بلغته ، فاصفاره وجهه ، وانكب على مكتبه ، وأطرق دقيقتين ،
ثم رفع رأسه فقلت له : أظن أن الذي دعاء إلى هذا الكلام ما كان
شاع من صرفي ، فعاد إلى الاطراق أيضاً دقيقتين ، ولما رفع رأسه وهو
على هذا الاضطراب ، ولم يفه بكلمة واحدة ، قلت له : السلام عليكم ،
وانصرفت . والغالب أن مدير السياسة أبلغني ما أبلغني حتى لا يبرو همتي
فتور في العمل إذا عرفت أن انتشبت في المفوضية يجري بنتاجتي .

قلت للشيخ تاج الدين إن الوعاظ قد جرى تصنيف درجاتهم ، ونالوا
رواتب ما كانوا يحلمون بها ، ودفعت لهم الحكومة المتأخرات من المشاهرات ،
فمن الواجب أن يعلموا الاهلين دينهم ، وما يتفهم في دينهم ، ومن
أخذ الاجرة طولب بالعمل . وزيت له أن يأمرهم بالتدريس لشدة الحاجة

إلى ذلك ، وضربت له مثلاً بسكان الشاغور أحد أحياء دمشق ، وقلت له إن عددهم لا يقل عن ستة عشر ألفاً ، وقالما تجد بينهم من يعرف الحلال والحرام ، لا يحسنون التطهر ولا التماثل ، ولا إقامة الشعائر على الاضول ، فإذا كان من سكان الحاضرة من هم على هذه الشاكلة فما بالك بالقرى البعيدة فقال : سأذكر ذلك للمفتي . وبعد أيام عدت فسانته هل أوعز الى المفتي ليشرع الوعاظ بالتدريس ، فاجاب : إن المفتي يحاذر أن يشغبوا عليه ، فلا يجروا أن يدعوهم إلى ما تريد فقلت : إن المفتي إذا أمرته يأتى حالاً بامرك ، وجماعة الوعاظ مرتبطون بمقامك مباشرة ، فانت تدعوهم الى واجبههم فيطيعونك . فقال : سئرى . وعدت بعد أيام وذكرته بالموضوع فتعلمل ، وقال : وأنت ماذا تنتظر من هؤلاء المشايخ فقلت : لأننا بتعليم العوام دينهم تقتصد الحكومة من السجون ومن الشرطة والدرك ، وتجدد الصحة وتخف الامراض ، ويقل الشغب وترتاح السكان . فقال : دعك من هذا وهل يعلمونهم غير الخرافات ؟ فقلت له : وهل دين الاسلام خرافات ؟

وقصصت ما وقع لي مع الرئيس بعد حين على أكبر علماء البلدة فقال : كان عند الشيخ جواب سؤالك لكنه كعمد ألا يجيبك ، ذلك لان الخسة والاربعين واعظاً الذين أخذوا كما قلت رواتب جيدة ، ما كان العلماء يقبضون مثلها ، لا يقتدر على التدريس منهم سوى سبعة ، والباقيون من العوام ، لا يحسنون التدريس ولا الوعظ ، وهم المصفقون له ولايه ، فقلت له كنت أحب وقد دخلت الدسائس في السياسيات ، أن يكون الدين عنها بمعزل ، وبقي هؤلاء المدرسون الجهلة الى اليوم يقبضون الرواتب فقط . واقترح على الشيخ أن تدرس العلوم الاسلامية في المدرسة السيمساطية وكانت خراباً فعمرت ، وذلك بأن يختار لها بواسطة وزارة المعارف في مصر عالم مصري ، يديرها ويتولى تدريس بعض الفروع التي يؤثرها وينتخب لمعاونته في التدريس من يشاء من أسانذة السوريين . وما ذكرت

أن هذه المدرسة إذا خرجت كل سنة عشرة من الطلبة يتولون المناصب الدينية ، لامتضي أعوام حتى يكثر الكفاة من أهل هذا السلك ، فيصبح علم الطالب بعد ذلك شرطاً أساسياً في تقلد الوظائف الدينية ، وأكدت له أنه إذا تم هذا ، وجعل أحد رجال المعارف عضواً دائماً في مجلس المدرسة ، والمعارف لا تخلو في كل زمان من علماء ، يمود هذا عليه بسمعة طيبة ، خصوصاً وأبوه شيخ وجده شيخ وهو شيخ ، وسلسلتهم في المشيخة كالحلقة المفرغة لا يعلم أين طرفاها .

وذكرت للرئيس أن هذا المشروع لا يحتاج أول الامر إلى أكثر من عشرة آلاف ليرة سورية تؤخذ من اموال الاوقاف ، فقال : إن مدير الاوقاف لا يرضى بإعطاء هذا المبلغ الضخم ، فقلت له : إن مدير الاوقاف قريبك وصنيعتك ، ولا يتأخر عن إعطائك ماتأمر به من مال الوقف الذي لم يقفه المسلمون إلا على إقامة الشماز وكعلميم الدين ، والغالب انه لم ير من مصلحته ان يتعلم احد التعليم الديني ويفضل ان يكونوا من الجبهة ليسوقهم إلى انفاذ اغراضه .

بدا للشيخ تاج الدين او لغيره ان تنشر دولة سورية كتابا في اعمالها خلال ثلاث سنين ، فهدى اليه بكتابته ، وقال ، ينبغي بحث همتي ، : إنه سيكون لك تأليف جديد ، فأجبتة هازئاً : في أيامك السعيدة ألفت وعرفت ، ومن قبل لم تألف ولم أعرف ، ولما هيأت مواد الكتاب للطبع عرضتها عليه فاعتذر بكثرة أشغاله عن قراءتها وسمح بطبعها . ولما كتبت مقدمته قرأتها عليه فسمحها متكارهاً . ولما صدر التقرير - ثم نقل الى الفرنسية - قال لي إنه طالعه ولم يعجببه ، فقلت له : إن التقرير يعزى اليه ويصدر باسمه ، وليس فيه اشارة الى أنه تأليفي ، فالرئيس استعار قلبي فقط ، فليس من اللائق إذا أن يمدح نفسه في تقريره ، وبالارقام فقط يقنع من يقنع بصالح حكومته . ولما نشر التقرير في الشام ومصر وفرنسا وردت على الشيخ كتب ثناء واستحسان فاطلعتني

على بعض ماورد عليه ، وقال لي : إنه لو كان رئيساً للجمهورية ، وقيل له : هل تؤثر أن ينقص من رياستك عام ويخرج مثل هذا التقرير عن حكومتك ، لفضل انقاص مدة رياسته وصدر مثل هذا التقرير . وعندئذ قلت له : صحيح يا أستاذ أنا لا أعرف ولا أحاول أن أعرف سوق العوام إلى السياسة التي أحبها أو يحبها غيري ، ولا أحسن الكذب على هذا والتمويه على ذاك ، ولكن لي عملاً في الوزارة قلّ ان يستطيع أحد أن يقوم به مثلي . وهذا اشارة إلى ماكان يشكي منه من أنني لا أعمل معه في السياسة .

ولما قال هذا عرض عليّ أن أتناول من صندوق الحكومة الف ليرة سورية مقابل وضعي لهذا التقرير فقلت له : لست موظفاً صغيراً لأُسف الى أخذ مكافأة على شيء قمت به ، وما أنا إلا أحد أفراد ستة قاموا بهذا وكنت أنا المدون له ، وبرزته بهذه الحلة ، ومن الغضاضة على وزير ان يأخذ أجراً على ما هو داخل في نطاق واجبه ، وهو يتناول مشاهرة جيدة تزيد عن حد الكفاية . فاستغرب هذا الكلام .

ما كان الشيخ ناج في الواقع يرغب في كتابتي كثيراً ، لأنها لا تمير عن كل مايجول في صدره ، رجاني أن اكتب له ترجمة حياته فكتبها له في صفحة واحدة فلم ترضه . وبعد أيام ضحك وأخرج لي ورقة وقال : أنظر ما كتبوه لي ، وإذا بترجمة حياته كتبت بمبالغات مدهشة ، كان أقل ما فيها ان دمشق لم تخرج من عهد معاوية بن أبي سفيان رجلاً من عيار ناج الدين بن بدر الدين ، بدهائه وحلمه وعقله ، فضحكت وقلت له : من كتب هذا ؟ فتلصكاً ولم يجب . فقلت له : أخبرني فقال : فلان ، أحد أرباب الجرائد ، فقلت له : لا عجب ، فالكتابة عند هذه الطبقة على مقدار المنفعة . لفهم هذا عني ، إن هذه الترجمة سخيفة جداً وأعداؤك يتناولون بها منك . مامعنى قول من تبرع لك بهذا الكذب أنك أحلم وأعقل ممن جاء بعد معاوية بن أبي سفيان ؟ وهل ترضى أن يخدعك مخادع بمثل

هذا الكلام ؟ إن على هذه الأرض مشى خلفاء وملوك وعلماء وعظماء ما أخرج التاريخ أعظم منهم . على هذا الصعيد « ياشيخي » مشى سليمان بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، وعليها مشى الرشيد والمأمون ، وعليها مشى نور الدين وصلاح الدين ، وعليها مشى ابن تيمية وابن عساكر . فإذا نشرت هذا كنت محل نقد العقلاء ، فطواها وأظنه لم ينشرها ، كما نقش اسمه على كل مخفر وحائط ودار حكومة وجامع وجسر ومدرسة ببيت أو رمت في أيامه ، فلما جاءت حكومة الكتلة حطمت كل ما ذكر اسمه عليه من الأجرار . كدت أخشى أن يقول من يقرأ بعض فصول هذه المذكرات : إني جعلتها كتاباً أنال به من بعض المنظور إليهم . إنها الحقيقة التاريخية أدونها ، وإذا تلججت نفسي بقول الحق ، لا أبالي أن أقول ما قاله أبو ذر الغفاري : « قول الحق لم يدع لي صديقاً » ، وإذا كان القوم لم يعتادوا سماع الكلام على الرجال بهذا الأسلوب ، وهذه الحرية ، فأنا لا أستطيع أن أقول فيهم غير الذي عرفته ، ولا أن أبتدع لهم قرائع لم يرزقوها ، وغاية ما أنحرأه ألا أنقول عليهم . فاسمع هذه القصة نعمة لهذا الباب العجيب الذي طال إلى ما لا أريد .

مرض رئيس الوزارة مرة ، ولما تماثل للشفاء أراد أن يكون الاحتفال بسلامته احتفالاً يسمع صدهاء البعيد والقريب ، وما كان له مال يستعين به في ذلك ، وكان صرف النفقات السرية قبل انقضاء السنة ، واستزاد بضعة ألوف من الليرات ، فهداه ذكاؤه إلى طرق باب ما خطر على بال إنسان . خطر له أن يطوف أرباب « السيارات » أي مشايخ الطرق في الشوارع ويقوموا بهذا الزيجاج ، رافعي أعلامهم ، ضاربين طبولهم ، ناشري سبجاتهم ، قابضين على حياتهم وثعابينهم ، متممين بمأثمهم الخضر ، مكثسين أكسيبتهم البلق ، وان يحنتموا اطوافهم في أنحاء البلدة بدار الحكومة يحيون رئيسها على سلامته . ولما لم يجد الشيخ أمامه مالا يرضي به هؤلاء المطبلين تناول من ميزانية الصحة مبلغاً من المال كان وضع فيها لمداواة المسؤولين .

كنت متغيباً في القرية ، والصل بي ما حدث في الحاضرة عند عودتي ، وأنه قتل أحد الأهلين أمام دار الحكومة في (الدوسة) داس حصان أحد المشايخ رجلاً في جملة من داس عليه . وأسفت أسفاً كثيراً لما جرى ، وذكرت الأمر لأحد الوزراء الذين يعتمد عليهم الرئيس ، ولتمه لتوقفه عن نصحه ، حتى لا يحجي مثل هذه البدعة القبيحة بدعة السيارات ، وكانت بطلت من دمشق ونواحيها منذ سنين فاقسم أنه لم يبلغه شيء قبل طواف المشايخ ، وسماع صياحهم في الطرقات ، وقال : ألا تعرف الى هذا أن الشيخ لا يستمع لنصيحة أحد ، فقلت له : إنه أساء بما فعل ، ونحن ندعي أمام الغريب أنا أصبحنا أمة متقدمة ، وهو بأحيائه هذه السنه السيئة . يعود بنا الى ما قبل عشرين أو ثلاثة . وكان من أثر أخذ مخصصات المسؤولين أن ألفت من قابل هذه المادة من موازنة الصحة ، لأن المستشار المالي قال إنه لا حاجة اليها ، لأنها أخذت لغير ما وضعت له فوقع الاستثناء عنها .

أما حتي بك فما اظنه على طول مقامه في الرياضات خالف المنتدين في مسألة واحدة ، وكان يجيب على كل مسألة تعرض عليه بالإيجاب والقبول ، حتى لقد قال أحد رجال الانتداب ، وقد أضجره باستكانته ، وسرعة موافقته على المسائل المعروضة : إنا نريد رئيس وزارة يقول لنا نارة نعم ، ونارة لا ، لا أن يقول لنا نعم دائماً فان هذا لا فائدة فيه . ولذلك سماء وأمثاله بعض الظرفاء بالواوية أي الذين يقولون أبداً « وي » oui ويقال في أميركا لهذا الصنف من الناس الذي يجيب الى كل ما يطلب (يس مان) . وأذكر أنه أملى علي كتاباً بالتركية وأنا معه في الوزارة ، وما علمت أنه يريد أن يرى خطي ، لأنه وضع في البريد الى تركيا على ما يظهر كتاب اشتبه به المشتبهون أنه مني ، وبشر بالصالي بالآتراك بعد خروجهم من هذه الديار . ولو كان ذكوراً لقال لمن قالوا له أن يفحصني على هذه الصورة ، إني من المستحيل أن أشايح الترك ، أو لسألني على الأقل عن الكتاب المشتبه

به ، وهو الذي يعرفني معرفة أ كيدة من مصر قبل توليه هذه الوزارات نحو عشرين سنة .

وظلّ حقي بك منذ أول الاحتلال الى عهد قريب في منصة الحكم حتى تقاعد . وغضب عليّ مرة لان جريدة المقتبس تناولته بالنقد فأكدت له بالواسطة ان الجريدة تخلت عنها واخي يتصرف بسياستها وحده ، وما أدري إذا كان اقتنع بكلامي ، اما انا فحاولت أن اقنع شقيقي بالكف عنه فما اطاعني . وكان من اثر غضب حقي بك هذه المرة ان اوعز الى قريبه السيد عبد القادر العظيم ، يعضده نسييه الآخر السيد بديع المؤيد العظيم ، ألا ينتخبني لرئاسة الجامعة ، وحثاه بالطلاق ألا ينتخب غير الدكتور رضا سعيد اخيهم في الماسونية .

ولا انسى لحقي بك معاويتي ، وهو رئيس الوزارة ووكيل رئيس مجلس الشورى ، على اخذ تقاعدي في نطاق القانون وكان السيد مصطفى نعمت من الاعضاء يقاومني كثيراً وكذلك جماعة المالية والسيد جميل مردم وزير المالية يومئذ وخلفه السيد شاكر نعمت الشعباني . وهذا لم يبادر الى امضاء تقاعدي الذي ينص عليه القانون إلا لما اوعز اليه محمد علي بك المايد رئيس الجمهورية بسرعة اتمامه . ومن الغريب أن يظهر هذان الحليان مصطفى نعمت وشاكر نعمت وهما من ضباط اركان الحرب عند العثمانيين بهذه المقاومة لي بدون موجب وما أدري كيف يكون تحكمها إذا كان صاحب العلاقة بها ضيفاً . ومن مزايا حقي بك انه مهذب تهذيباً تاماً واقرب الى الخير منه الى الشر ، وعفيف عن أموال الدولة ، ويعتقد بصحة مذهبه لا يوارب فيه . فقد قال منذ اول يوم اتى الشام من مصر ، وكان يتزلها من سنين طويلة : انا افرنسي ، وكل ما يصدر عن الافرنسيين صواب ، وظل ثابتاً على رأيه لم يوافق كغيره ، ممن يعمل اذا وظفت له وظيفة كأعظم الانتدابين ، وإذا صرف من الخدمة شاغب وادعى الوطنية وبكى وناح على حقوق سورية الضائعة .

ومن خطيئات حتي بك تذره احياناً بتوظيفه اشخاصاً في سيرتهم ما ينفر منهم ، وكنت في القريتين فالفصل بي انه عين او كاد قائم مقام عليها ، رجلاً حرص على تعيينه في خدمة الحكومة فكتبت له اذكر ما عرفه من سيرته فصرف النظر عن تعيينه . وبعد سنتين أصر على رئيس الجمهورية لجعل صاحبه مدير شرطة دمشق فقال له الرئيس محمد علي بك العابد : يمكن تعيين هذا الرجل وزيراً ورئيس وزارة ورئيس جمهورية ولا يمكن أن يكون مديراً للشرطة ، فأصر حتي بك على تعيين مرشحه ، فقال له رئيس الجمهورية ، على فرط حلمه وتهذيبه : انا لا اقدر ان اعمل مع من لهم مثل هذه العقليّة ، وكان رئيس الجمهورية على حق في هذا الرفض ، لأن الموصى به على غاية الاقتدار في القوانين ، وقابل البضاعة من الاخلاق .



مع المنسوب

دعائي مندوب المفوض السامي الكولونيل كاترو إلى تناول طعام المساء مع المسيو فرانكلين بويون . وكان هذا قادماً من أنقره ، وقد عقد مع الأتراك محادثة ادعى أنه حفظ بها حقوق امته . وكان يشهد كثيراً بمناقبة الترك ونهضة الأتراك ، ومما قال إن عندهم وزراء لا يتجاوز أعمارهم الخامسة والعشرين ، ويتكلمون الفرنسية كالفرنسيين ، وأخذ يفيض من هذه المبالغات ، والغاية من ذلك التورية بأنه حالف دولة عظيمة ، وبالع بيهضتهم لأنهم أرووه أنها في نفسها نهضة افرنسية .

وكان المدعوون بالطبع ينصتون ، ويشغلهم الطعام الذي بين أيديهم عن غيره ، وأكثرهم لا يعرف اللغة الفرنسية إلا أن المندوب صاحب الدعوة أراد أن يسمع الحاضرين نغمة أخرى ، فسأني عن رأيي في الأتراك ، فاكفيت بأن قلت له خلاصة ما قرأته منذ شهرين في المجلة العالمية الباريزية ، نقلاً عن مجلة ايطالية ، من أن العالم الشهير لمبروزو من علماء تشريح الدماغ قال : إن الولد التركي تنمو قواه إلى الثالثة عشرة ، على نحو ما تنمو قوى الأطفال عادة ، فإذا جئت تفحص عقله بعد سنين اي في سن العشرين مثلاً تجده كما عهدته في الثالثة عشرة ، وهكذا حتى آخر سن الشباب والكهولة الخ . قلت هذا ما قرأته ولا أعلم مبلغه من الصواب ، والذي أعرفه أن لمبروزو عالم جليل لا يقول جزافاً . فدهش فرانكلين بويون لهذا الكلام ، وكان لسان حال كاترو « لم آمر بها ولم تسوعي » .

كان كاترو على صفات ممتازة ، ومنها الاستقامة واخلافة المرشحين من جماعته وجماعتنا ، والقاء رهبته في قلوب مستشاريه ، إلا أنه كان لا يرى أن يترك لأعظم الشخصيات في الولاية المنتدب عليها استقلالاً فكرياً ،

ويكره من يراجع في بعض آرائه . وروى لي أحد الوزراء ، عن كان مذهبه بمحاشاة الانتداب ، أنه عثر لكانرو على تقرير قال فيه إن المخلصين حقاً لفرنسا في سورية هم أربعة فقط (وذكر اسماءهم) والأخير كان وزير المالية وهو أشدم اخلاصاً لأنه أعطى فرنسا الخط الحديدي الحجازي بكل ما فيه من أدوات وقاطرات وشاحنات ، وماله من معامل وأماكن بدون أدنى جلبسة . والحقيقة أن هؤلاء الأربعة كانوا منذ اليوم الأول ينفذون رغائب المندوبين بدون اعتراض البتة ، ومن هذا الراموز يطلب المندوب ان يكون الناس كلهم بالطاعة والخضوع ، وامثال هؤلاء مئات في سورية لأن الناس عبيد الدنيا ، ودنيانا بيد المنتدين ، من شاءوا اطعموه واشبعوه ، ومن شاءوا حرموه واجاعوه .

سافرت إلى فرنسا في سنة ١٩٣١ فقال لي المندوب كانرو نجتمع في الوقت القلاني هناك ، فأسأل عني في محل كذا . وبعد انتهاء عملي سألت عنه فقبل إنه في الجزائر بتمهد املاكه ، فرحت إلى لندرا ازور المنحف البريطاني وجامعتي كبردج واكسفورد ، ولما عدت لم ار ان أسأل عن المندوب ثانية ، وكانت نفسي تحدثني ان من نيته ان يستعملني لغرض له في باريس ما ادري ما هو ، ولكنه على كل حال ينفعه ولا ينفعني . وركبت القطار إلى مدريد فالاندلس فجبل طارق ومنها إلى مرسيليا فليون فسويسرا فألمانيا فإيطاليا فمصر فسورية .

ولما جئت مصر قرأت في المقطم لصريحاً منسوباً إليّ قالوا إني قلته لأحد أصحاب المجلات الفرنسية وخلاصته ان سورية أصبحت بفضل فرنسا جنة ارضية ، وان السيد بديع المؤيد احد رصفائي في الوزارة صرح بمثل هذا التصريح وانا وافقته عليه ، فبعثت في الحال تكذيباً لما نشر باسمي ولا علم لي به ، وهو ظاهر البطلان ، إذ يستحيل ان تحمل حكومة الانتداب سورية جنة في عامين ، ولم يكن مضى على احتلالها اكثر من ذلك . وعرض على زميلي ان يكذب فقال : وهل انا مجنون كصاحبي حتى اترك

منصبي من اجل كلمة قيلت على لساني كذباً . والحق معه فاته لايزعجه ان يكذب عليه وربما يجوز الكذب احياناً . ولما بلغت دمشق قيل لي ان السلطة غاضبة عليّ لتكذبي خبر المقطم ولائي ذهبت إلى المانيا ، وكان في دمشق ضابط استخبارات يجب ان يكون السوريون كلهم عبيداً للانتداب . زرت كاترو فأخذني على ما بدر مني ، ولا سيما على عدم الاجتماع به في باريز ، وعده عليّ من الذنوب اني زرت المانيا ، واجتمعت إلى جمال باشا (قائد الجيش الرابع زمن الحرب) عدوم الدود ، إلى غير ذلك من الامور التي ارتكبتها ، ولا ترضي حكومة الانتداب ، فقلت له : هذا ما جرى ، وانا ذهبت لأزور ابن اخي شفيق حسان في مونيخ ، وعرجت على برلين وليبسيك لاتباع كتباً لي وللمعارف ، خصوصاً وقد سنحت لي فرصة لذلك ، وقيمة الألف مارك ليرة عثمانية واحدة ، فابتعت مقداراً من الأسفار ، وإذا زرت جمال باشا فلأن له عليّ يداً ، والوفاء يقتضي ان الهده ، وهو اليوم فرد لا قوة له ولا حول ، وقد حماني زمن الحرب وانا اذكر له هذا الجليل ، واجب ان افهم ضمناً انه لو كان عامل اخواني الذين قتلهم بمثل ما عاملني لكانوا له اليوم وهو في محنته مثل ما انا له وزيادة . وقلت : إنكم كنتم الى امس تصفون مصطفى كمال باشا زعيم الترك بأنه رئيس عصابة اشقياء ، فلما قضت سياستكم بملاطفته صرتم تطلقون عليه في جرائدكم لقب مصلح تركيا الأكبر . فاجتماعي بجمال باشا ، وإن كان كما تقول هو من اعدائكم ، لا يضر احداً ، وليس له الآن من السلطان ما كان له في هذه الديار زمن الحرب . فقال لي : فملى هذا لا نستطيع ان نعمل معاً . فقلت له : الحل الأجدد بي وبكم إذا ان تقبلوا استقالتي ، وإن شئتم دفعتم اليكم الساعة ، فقال : ادفعها إلى رئيس الحكومة ، وانصرفت ، فمهد إليّ برياسة المجمع العلمي العربي فقط .

ولما اقتضت مصلحة حكومته ان تستدعيه من سورية تأسفت لنقله ، وقلت لغير واحد من المتدينين وغيرهم إن فرنسا لا تحسن صنماً بهذه الطريقة

القائمة على المبادرة إلى نقل موظفيها ، بعد تمكنهم من معرفة البلد الذي نزلوه ، واحاطتهم بدقائق الاعمال التي تقلدوها ، وكان من المصلحة ابقاؤهم زمناً طويلاً كما يفعل الانكليز في مصر . وكاترو هذا إذا كانت له بعض اغلاط لا يرتكبها فيما احسب في المستقبل ، وقد زادت تجاربه واسعت معرفته ، وذكرت له الصفات التي عرفتها فيه ، وقلت إنني اعذره على ما وقع بيني وبينه من سوء تفاهم ادي إلى التخلي عن مناصبي ، فهذا من الحوادث الشخصية . ومضت الأيام ، ولقيت صديقي الاستاذ نسيب مسلم في باريس ، وكان محبوباً عندهم ثم غضبوا عليه يوم ثورة دمشق ، لاعتراضه على ضربهم قرية مضايا بدون مسوغ ، وكان قائم مقام الزبداني ، فأخرجوه من الخدمة فقال لي : إنه اتي كاترو في الاستانة ، وكان ملحقاً عسكرياً بسفارة دولته فيها ، فقص عليه ما قلته فيه ، عندما جرى نقله من دمشق ، فقال له : عجيب ، وهل قال لك ذلك ؟ إنني ليسرني قوله . قال له : نعم ، قال هذا في حضور جماعة ، وكان في قوله جاداً مخلصاً . وبعد أشهر اجتاز كاترو بدمشق وأحب الاجتماع إلى اناس اختارهم ، فكنت في جملتهم ، وأردت أن أتملص من زيارته ، فأصر عليّ بالاجتماع إليه متصرف البلد صديقي السيد نورس الكيلاني ففعلت . ولما اجتمعنا في دار الحكومة سأاني عن حالي فقلت له : إن حالي أحسن حال ، ارتقي المتحف ودار الكتب والمجمع العلمي ، لانصرافي إلى النظر في شؤونها . وشغلت أوقات الفراغ بتأاني ، فطبعت منها في هذه الفترة في القاهرة ودمشق سبعة مجلدات . وهواء العلم ألدش للقلوب من هواء السياسة الفاسد . ولاني لا أشكر لمن كان السبب في إخراجي وإخراجي من الوزارة . فانقبض وجهه من الجملة الأخيرة ، ثم قلت له : وأنت قل لي كيف حالك مع الاتراك وما رأيك فيهم بعد أن زدت بهم خبرة ؟ وقلبنا الحديث .

وعاد الكولونيل كاترو إلى سورية بعد حين مديراً لاستخبارات الشرق مع المفوض السامي الميسو بونسو ، واتفق أن كنت متغيباً في الجبال للاستجمام

فلم أستطع أن أزور المندوب ، كما تقضي بذلك العادات المتبعة ، واغتنمت بعد مدة شخوص المفوض السامي الى دمشق ، وبعثت إليه كتاباً أطلب مقابلته خمس دقائق للسلام عليه ، والاعتذار عن قصوري بالقيام بالواجب في جيبته الأولى ، فجاءني كتاب من مدير الاستخبارات بدمشق يسألني عما كان في نيتي أن أقوله للمفوض السامي، وهل لزيارتي صبغة سياسية ، فأجبتته شارحاً للحال ، ذاكرًا تقصيري في المرة الأولى بالواجب ، وأن ليس لي ما عرضه عليه إلا إذا رأى في وقته متسعاً لزيارة الجمع العلمي ليطالع على ما جمعه من الآثار والمخطوطات وغير ذلك . فبعث لي مدير الاستخبارات بموظف يسألني إن كان ثمة أشياء لأحب أن أكتبها بتوقيمي ، وطلب أن أذكرها له ليعرف المقصد من زيارتي . وقال إن فلاناً من ضباط الاستخبارات قال : إني أوشك ألا يقبلني المفوض السامي . فقلت له : أبلغه إذاً أنني حاولت أن ألقاه لأقوم بواجبي ، ولا أحب تصديمه بزيارتي بعد الآن ، فانتقل ما جرى إلى المفوض السامي ، فلما استحسن على ما يظهر فعل دائرة الاستخبارات ، وارسل لي مندوبه في دمشق المسمى بيرآليب بصورة رسمية يتمنر باسم المفوض السامي عن زيارتي ، وأنه في قدمته الثانية تكون أول زيارته للجمع العلمي ،

كان السبب في حنق الكولونيل كانزو عليّ أنه طلب مني العلم الكبير الذي كان يحمل أمام الملك فيصل ، لما بويع ملكاً في دمشق ، وكنت اخذته في جملة ما أخذت من الأعلام وغيرها ووضعت في المتحف ليحفظ . طلب أخذ هذا العلم ليجمله في المتحف العسكري بباريز ، فأجبتته إن العلم أصبح ملك الأمة وأنشبه بالمال الموقوف ، والوقف لا يجوز لإخراج شيء بعد دخوله في ملكه ، وإذا أعطيت العلم يتمنر عليّ الخروج في شوارع دمشق ، لأن أهلها يصمونني بالخيانة ، وألح عليّ مرتين في أخذه فأشحت في المرة الثالثة بوجهي عنه ، وتشاغلت عن حديثه ، فاحمر حنقاً وأبغضني من ذلك اليوم .

قال لي الكولونيل كاترو وهو رئيساني المذهب : إن الكاثوليك كانوا يأملون بمجيء الفرنسيين إلى هذه الديار أن تطرد المسلمين من الوظائف وتستعصم عنهم بكاثوليك ، وهذا مالا تأتيه حكومة في الأرض . والغالب أن سياسة الكاثوليك نجحت بعدئذ ، فلم يدخل المفوضية وتوابعها في سورية مستخدم إلا من الكاثوليك والموارنة ثم من الروم الارثوذكس والبركساتان واعتمد الانكليز في فلسطين على النصارى أيضاً ومزجهم بمجاعة من الدروز ، وكانوا في مصر أيام الاحتلال ، لا يعتمدون على غير النصارى السوريين .

انتخب الاطباء بدمشق الدكتور يوسف عرفتنجي مدير صحة في سورية وهو كاثوليكي النحلة ، فأرسل مرسوم نصبه إلى البعثة ليصادق عليه فوقف مدة ، وعلمت بالأمر فذكرت للكولونيل كاترو أن أوراق الرجل متأخرة ولم يتم تعيينه ، فقال لي : إنه مسيحي ، والمسلمون لا يرضون عن هذا التعيين ، فأجبت إن اطباء المسلمين هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ونحن هنا لا ننظر إلا إلى الكفاءة ، ونعمة الطائفة هذه مما يردد في لبنان ، والرجاء ألا تنقل الى هنا ، فانها مضره بنا . فعند ذلك رضي أن يوقع تعيين مدير الصحة الجديد .



نكتة

دعاني رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الى تناول الغداء في داره ، واكد علي بالحضور ، وكنت أستتكف من غشيان داره في غير الاعمال الرسمية ، واتصون عن شهود مائدته ومائدة غيره ، إلا اذا عرفت المدعوين بأعيانهم ، اثلا يكون منهم من استنقله ويستنقلني ، وقال لي إن مجيئك ضروري في هذه المرة . والدعوة لا كرام صديقك المسيو بينار (كاتم سر البشة الألمانية في باريز) والمدعوون مديرو المدارس الألمانية في بيروت وحلب ودمشق وعقيلاتهم ، وكلهم ممن لمرف فاجبت الطلب .

ولما جلسنا الى الخوان قال لي الشيخ : قصّ علي السيد بينار القصة التي قصصتها علي منذ أيام ، فقلت : قصة الجمل ؟ فقال : نعم . قلت : نصرف النظر عنها ونفكر في ايراد قصة اخرى ، فقال : هذه طريفة في بابها . فلم البث ان قلت : كان في الاستانة في آخر أيام دولة بني عثمان شاب اديب من ابناء الاعيان معروف بخفة الروح وسمة الفضل ، وهو صاحب جريدة هزلية سياسية اسمها (قره كوز) اي خيال الظل ، وكانت لكثرة ماتحوي من المغزى تترجم بعض الصحف الالمانية والفرنسية ما ينشر فيها من النكات والقصص . واسم منشئها صلاح الدين بك جمجوز . كان من اصدقائي رجال الصحافة التركية ، وهو نائب في مجلس النواب عن مدينه استانبول . سأله بعض المكارين ذات يوم رأيه في الحاج عادل افندي رئيس مجلس النواب العثماني وكان من قبل شيخاً معهماً . فأجابه إنه رئيسنا ، وليس من حقي ان اقول فيه الا خيراً ، فقال السائل : قل لنا مادرجته من المعرفة ، وهل يليق لهذا المنصب الكبير ؟ فقال : هذا مالا أعرفه . ولما ألح السائل بطلب جواب سؤاله قال : اذاً اقص عليكم قصة وانتم وشأنكم ، وانشأ يقول : كان في سالف

الزمان جمال رأى لا اشرف على الموت ان يجمع جماله ويطلب منها ، وهو في آخر عهده بأيام الدنيا واول عهده بالآخرة ، الصفيح عماد برمه نحوها مذ كانت في خدمته . فقد يكون ارتكب معها اموراً ما كانت منه عن قصد ، كأن يضربها بعصاه ، ويشح عليها بالملف او الماء او يسير بها مراحل طويلة أو يحملها احمالاً لا لطيق حملها ، اذا نفق معه بعض الجمال ، فيحمل الجمال الحية حمولة ما نفق معه إلى غير ذلك .

وكان هناك جمل في أخريات الصفوف فتقدم قائلاً لصاحب الجمال : كل ما بدر منك نقيم لك الاعذار فيه ، وليس لنا أن نؤاخذك عليه إلا مسألة واحدة لا نفتقرها لك ، وهي أننا كما ترانا مئة جمل طوال عراض ، وأنت ما برحت طول الوقت الذي قضيناه في اسفارك تقطرنا بذنب حمارك الصغير الذي تركبه ، هذا ما لا يسمنا السكوت عنه . فضحك المدعوون ضحكاً كثيراً حتى كادت إحدى السيدات أن تقع عن الكرسي وكان الحضور طبقوا القصة على الشيخ تاج الدين .

ولما انصرف المدعوون آخذني الشيخ على استثنائي بالكلام في الدعوة ، زاعماً أنني لم اترك لغيري مجالاً ليتكلم في نوبته ، فقلت له : لقد حرت في أمري معك ، إذا سكت اطلب مني الكلام ، وإذا تكلمت ترميني بالاكثر . تندبني لاثوب عن حكومتك في مواطن تكون معرفة اللغة الفراسية شرطاً فيمن يمثل سورية ، فأقول لك عندك وزراء غيري يعرفون اللغة ، فنقول : نعم ، ولكنهم يتكلمون خمس دقائق ويصمتون ، وأنت تتكلم طول الليل والسامعون ينصتون لك ، وقلت له : ما هذه الحال معك ؟ وأنا لم أقصر خلال المائدة من ان اقل لك ما يقال : وانقل الى ضيوفك ما تقول وأجل اقوالك . وانصرفنا وهو لا يظهر غضباً ، وأظنه نوى في سره فقط ألا يدعوني ما حي .

وقعة في مصر

قامت منذ بضع سنين ضجة على الجامعة الاميركية في القاهرة ، وصنمها
بعض الصحف الوطنية بأنها مدرسة تبشير لا دار علم ، وأن غايتها تنصير
المسلمين ، وقد نصرت اناساً فيما قيل . واتفق أن كنت متعاقداً مع هذه
الجامعة لالقاء محاضرات علمية في دارها ، فكتب لي من مصر بعض الغيّر
على الدين أن أمتنع من اللقاء ما وعدت بالقاءه . وحاولت بعض الجمعيات
بالقاهرة أن تثني عزمي عن أن أهبط وادي النيل وأرادتني بعض الصحف
الاسبوعية التي عرفت بفراغها بالادب المكشوف والفن المكشوف على الامتناع
عن اللقاء محاضراتي ، ولما حاججهم بأن غيري من المصريين المسلمين يحاضر
في الجامعة الاميركية ايضاً ، فيسمعي ما يسعهم ، قالوا إن المحاضرين المصريين
ليس لهم مثل مكاتي في ديار الاسلام ، فلا يضير المسلمين إلقاؤهم محاضرات
في هذه الجامعة التبشيرية !

وحظيت بلقاء جلالة الملك فؤاد الاول فكان مما تفضل وقاله لي : وهذه
المحاضرات ألا ترى صرف النظر عن إلقائها في الجامعة الاميركية ؟ فقلت :
لئنني يا مولاي لماقدت والجامعة قبل ان تشير الصحف إلى انها مدرسة
تبشير بأكثر من شهر ، ولا يليق بالرجل ان يرجع عما امضاه ، فان
كانت مصر على ما لها من الوسائط لم تعرف إلى اليوم إذا كانت الجامعة
الاميركية مدرسة تبشير ، فأنا في الشام أولى بالأعراف ، لينتظر القائمون
بهذه الضجة فان رأوني أخدم العرب بهذه المحاضرات ، فأنا لا اريد منهم
جزاء ولا شكوراً ، وإن رأوها مضرّة تخدم الجامعة فقط ، فليطلقوا في
ألسنتهم . وعندي ان هذه الجامعة لو بدا لها أن تمتنع من إلقاء هذه

المحاضرات لكان الواجب عليّ أن أؤدي إليها مالاّ حتى تتمكني من إلقائها في قاعتها لما أتوقع من نفعها . »

وجاءني من إدارة الأمن العام رجل عرفته قديماً في الصحافة ، ودعاني بلطف إلى زيارة المدير ، فبادرت إليه . فقال لي إن عميد كلية الشريعة في الأزهر الشيخ مأمون الشنّاوي كتب إلى شيخ الأزهر يقول له إنني أقرر تشريماً في الجامعة الأميركية ، وما كان التشريع المزعوم إلا أنني قلت نقلاً عن المؤرخين إن امراء المسلمين في الاندلس كانوا أيام عزهم يتزوجون من بنات امراء النصارى ، فلما تراجع أمر المسلمين أصبح امراء النصارى يتزوجون من بنات المسلمين كرهاً .

وحسن لي مدير الأمن العام أن اقابل الشيخ الظواهري شيخ الأزهر في مكتبه ، ولما اجتمعت إليه عاتني على عدم زيارتي له - وكان سأل أحد معارفي عما إذا كنت زرت الشيخ المراغي شيخ الأزهر السابق ، فامتعض لما علم أنني زرت مرتين - وقال لي : أرأيت كيف أتيت بك لزيارتي بواسطة الأمن العام ؟ وأخذني إلى داره وغداني معه ، فأراني غضبه ورضاه . ومما استفدت ذلك اليوم من علمه الواسع أن أباه كان من أولياء الله ، ورجا أن تحفي بركانه ، وأن من كراماته أنه كان يطعم خمسين ألف إنسان من طعام رجل واحد ! ذكرت هذا الحديث العالمي الذي أسمعنيهِ الشيخ الظواهري لأحد شيوخ الأزهر الاستاذ الزنكلوني فقال لي : أما ذكر لك أيضاً أن أباه دخل على الخديوي إسماعيل في بعض الأيام ، وقال له إنه رآه في منامه في حالة حسنة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، رآه راكباً بغلة والرسول يمشي في ركابه ، فصاح الخديوي مستهجنًا نفاقه وأمر بطرده من مجلسه ، وقال له كان عليك أن تمكس المسألة وتقول إنك رأيتني على الأقل أسير في ركاب الرسول . ومن أنا حق يمشي رسول الله في ركابي ؟ أنا أتمنى أن أكون غيرة أقدام محمد (ﷺ) .

واثبت شيخ الأزهر بمحاضراتي في الجامعة الأميركية فحذف بعض
جمل قليلة ، ذكرني بما كان من قلم المراقبة على العهد العثماني ، وبمحكمة
التفتيش الديني في المصور الوسطى في الغرب . وتأخرت الجامعة عن نشر
المحاضرات مدة لأن الاستاذ الظواهري طلب الى ادارة الأمن العام أن
تحول دون نشرها ، فلم تنشر في كتاب إلا بعد اعتزال الشيخ الظواهري
مشيخة الأزهر ، فنشرناها كما كتبها اول مرة . وهذا كل ما استطاع
الشيخ الظواهري ان يأتيه تأديباً لي على اغفالي زيارته لما هبطت مصر ،
وعلى جرأتي على زيارة الشيخ المراغي منافسه في رئاسة الأزهر . فانظر إلى
اي حد يبلغ حب الدنيا ببعض علمائنا .

دعاني صديقي الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني من هيئة كبار
العلماء ، ومن شيوخ الأزهر ، ومن تلامذة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ،
إلى داره مرتين ، فاعتذرت بكثرة أشغالي ووعدت بالتشرف به قريباً ،
وفي المرة الثالثة اعد ضيافته ودعاني بلسان صديقي الدكتور منصور فهمي
فسأته عن كون معنا في الدعوة ، فقال : أصحابك أولاد عبد الرزاق
الشيخ مصطفى بك وعلى بك ، وربما جاء الاستاذ المراغي شيخ الأزهر ،
وما أظنه يحضر لأنه مدعو إلى مأدبة رسمية لا يسمه التخلف عنها . فحضرت
ودهشت أن رأيت في الدعوة مفتي مصر الشيخ عبد المجيد سليم وعميد كلية
أصول الدين في الأزهر الشيخ عبد المجيد اللبان ، وهما ممن عرفت . فلما
رأيتها عتبت في باطني على الداعي ، لأنه لم يذكر من يكون معنا على
جلسته . وأخذت اعرض لما طامني به صاحبها بالأمس شيخ الأزهر السابق ،
يوم الدعوى عليّ بأنني أضع تشريعاً جديداً في الجامعة الأميركية . فقلت
للحاضرين وكلهم مشايخ ، والخطاب موجه للعفتي والعميد ما فحواء : إنكم
ياسادتي تسيئون إلى الدين بالهيمنة عليه بهذه الصورة ، وهل تعرفون
ما تنطوي عليه القلوب ، والقلوب لا يعرف ما فيها غير علام الغيوب ؟ تفكرون
دين هذا فتعدونه من أصحاب النار ، وترضون بإيمان ذاك وتدعونه في أصحاب

الجنة ، هذا والاسلام يطعن به في مدينة القاهرة ، ويطعن برسول الله في كتب ونشرات ، والعلماء لا يردون على هذه المطاعن ، ويحاولون أن يقفوا في سبيل رجل مثلي صرف حياته في خدمة الاسلام والمسلمين والعرب والعربية ، فيما نشر من كتب ومجلات وجرائد ، وما أتى من محاضرات ومسامرات ، وما جرأ انسان أن يقول له وهو في جهاده منذ أكثر من أربع وأربعين سنة أنه خالف الشرع في مسألة ، أو أحصيت عليه زلة يستوجب بها التكفير ، وتأليفه اليوم تقرأ في الأقطار الاسلامية من دون نكير . خير لكم ياسادتي وأسباب النشر موفورة لديكم ، وفي مصر أكثر من مئتي مطبعة تطبع لكم ، أن تردوا في كتب ورسائل غارات المغيرين على الدين ، لا أن تناووا فقط من رجل هو من صميم المسلمين ، تشبعت نفسه بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم من أعلام الاسلام . إن العلم أيها السادة لم يقف عند افق الأزهر ، وفضل الله غير محصور في أحد ولا في بلد ، يحوزه كل من اشتغل ودرس ، والمناصب الكبرى لا تنبئ بعظمة أربابها ، وما العظيم إلا من يفيد امته .

فاعتذر الشيخان عن شيخ الأزهر السابق وقالوا : أما كفاه ما حل به ، وأنت من ينكر عليك علمك واخلاصك وجهادك ؟ فأجبتهم : المسألة أنني احب من السادة العلماء ألا يتسرعوا في تكفير مسلم ، ويستعملوا الحكمة التي كانت ديدن الشيخ محمد عبده ، ولو كان حياً ما خرج بعض أرباب الاقلام عن حظيرة الدين ، ولنتمحضوا على ما كان يشتهي لخدمة المسلمين ، ولجلهم بمجمل سياسته كما جلب قاسم أمين في عهده ، وكان من قبل ناشراً على الاسلام .

لمت نفسي لما انتهى الحديث على هذا التعريض القاسي بالشيخين ومن لفّ لفها ، وآخذتها على ما بدر مني من الحدة على من ليس لها يد في الذي وقع ، والمسألة ان الشيخ الظواهري قواني ما لم أقل ، وأوصل المسألة إلى الملك المحبوب حتى طلب جلالاته مني أن أعدل عن لقاء المحاضرات في الجامعة الأميركية .

واحب بعض اصدقائي من أرباب الصحف أن يكتبوا شيئاً في الموضوع أو أن يتلقفوا مني حديثاً فأيت ، حباً بمصر ، ورجال مصر ، وبالجالس على عرش مصر . ومن المضحك أن أحد من اعتادوا التجسس عليّ من المشايخ في دمشق أحب أن يشارك بالتمائة بي كل شامت ، فدفع اشتراك جريدة لاحدي الصحف الدمشقية ، ليكتب في جريدته أنني سجننت في القاهرة . ولما عوتب الصحفي على نشره هذا الخبر الكاذب اعترف أن الشيخ أعطاه اشتراكاً فكتب له ما أراد قال : وأنتم ادفعوا لي اشتراكاً فأكتب لكم أن الشيخ المشترك لن يسجن فقط بل اكتب أنه داسه قطار فهلك ، مثال منك من اخلاق من نسيهم اهل العلم وأرباب الافكار .

استطرد : كان صديقي الاستاذ احمد تيمور باشا قد علق بمقيدته أول لشأنه — كما قال عن نفسه — شيء من آثار التربية في مدارس الأجانب : فكان يعرض ما يظهر له من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التي تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فيجد التناقض والتصادم ، فصار يتردد على كثير من كبار علماء الازهر وغيرهم لعله يجد عندهم فرجاً ، فرآهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات .

وأنا كنت كلما رأيت شيخاً من الشيوخ أعجب لهذا الذكاء كيف يمتقد صاحبه بأشياء لا تناسب الدين ، مثل رواية الظواهري كرامات والده وهي مما لا يقول به ذو مسكة من العقل ، فكيف بشيخ الازهر في هذا العصر ، ولا لعليل لذلك إلا البيئة التي ينشأ فيها الأبناء على قدم الآباء ، وتسلسل الخرافات فيهم فيثدو الاخذ بها عقيدة مسلمة وحقائق ثابتة وقد كان بالإمكان أن يخرج هؤلاء الشيوخ عما علق في عقولهم من هذه الخزعبلات ، لو سمحت همهم لأن يطالعوا كتب العلماء الأعلام من القدماء . والغالب أن منهم من يرى حزب العامة أكثر سواداً من حزب الخاصة ، ويظن ان مصلحته مع الحزب الكبير أكثر من الحزب الصغير فيتابع الجمهور على العمياء ، ولو كان في ذلك البت بالشرع . وما إخال أكثرهم يؤمنون

بما يقولون بأفواههم . ورحم الله صديقي السيد محمد رشيد رضا فإنه أصلي هذه الطبقة المخرفة في مجلته (المنار) نازراً حامية من نقده نحو أربعين سنة ، ومن لنا بمن يخلفه ويكون قوي الشكيمة مثله ، وعلى علم بالدين الصحيح السالم من تخريف المبطلين من المتأخرين .

دعاني السيد سعد الأبان نجل الأستاذ الأبان ، أحد شهود الحال في دعوة الأستاذ الزنكلوني السالفة ، إلى داره في « جاردن سيتي » وكان والده حاضراً ، وكذلك الحبيبان السيد الزنكلوني والسيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي وغيرها من الأصحاب ، فجزت محاورات المدعويين إلى ذكر الطرق ، وكان الشيخ الأبان يقدس عملها فواقفه السيد التونسي ، وأورد علينا ما تحققه من حسنات الطرق في الغرب الأقصى والأدنى والأوسط ، فقلت للحاضرين وقد ضاق صدري من هذا الحديث : أنا لا أنكر أن الطريقة السنوسية في صحراء افريقية نفعت وما أضرت ، وذلك لأن أربابها يزرعون الأرض ، ويمشون بكدم ، ويقفون في وجوه المبشرين ، ويذكرون الله أما سائر الطرق أو معظمها فما كانت إلا أداة شر على الاسلام ، يستخدمها المستعمر في أغراضه ، وامسحوا لي بالنظر لمعرفتي بالشام والعراق وآسيا الصغرى ومصر أيضاً أن احديثكم بما فعلته الطرق في تأخير العلم والمدنية ، والعبث بهاء الشرع الاسلامي ، وأفضت في ذلك فسكت الحضور ، وما بدا لأحد أن يرد عليّ قولي ، وكان انكارهم في قلوبهم فقط على ماظهر لي . ولما خرجنا من الدعوة قال لي الاستاذ الزنكلوني ما معناه : انت وزير وتكلمت كلام العلماء ، وزميلك السيد حسن حسني عبد الوهاب ، ليس وزيراً وتكلم كلام الوزراء ، أي أنه ججم وما أبان ، مراعاة للشيخ الأبان ، ومن يقول بالكرامات من الرجال والنسوان .

المصري خارج بلاده

رأيت في المنام (١٩ رمضان سنة ١٣٥٨ ، ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩)
صديقي أحمد شوقي بك أمير الشعراء فقص علي قصة رجل مصري رآه
في طرابلس الشام ، أعجب به . قال : « ان الاقدار ساقط هذا الرجل
إلى ذلك الثغر فأعجبه جماله فأنخذه موطناً له نحو خمسين سنة واشتغل
بالحمامة فعماش في رفاهية واعتنى وصار له مقام بين أهل وطنه الثاني » .
هذا ما علق بذهني من هذا الحلم — وأنا ما بنيت أعمالاً على الأحلام
قط ، ولا كفرت بها ولا آمنت — وقد ذكرني هذا الكلام بموضوع
كان يتردد على خاطري من مدة طويلة وهو « المصري خارج بلاده » ،
فقلت أكتبه هنا فهو لا يخلو من طرافة ونفع فأقول :

ترك جيش إبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير في الديار الشامية وما إليها
أولاً من المصريين ، أصبحوا بعد حين من الدهر كأهل الشام في مناحيهم ،
على نحو ما كان من بضعة ألوف من المصريين وردوا على فلسطين قبل الحملة
المصرية ، وكانوا السبب الظاهر في إعلان محمد علي باشا الحرب على والي
عكا بل على الدولة العثمانية ، لأنه طلب إرجاعهم إلى مصر فأبى الوالي على
محمد علي إعادتهم ، محتجاً بأن مصر والشام شيء واحد وكلتاها تابع للدولة .
وهؤلاء المهاجرون الأول تفرقوا في أنحاء فلسطين وأحالتهم بوثقتها شاميين .
والغالب أن المهاجرين في الدور الأول والدور الثاني لم يجدوا أيام هجرتهم
فرقاً كبيراً بين عيشهم في بلادهم الأصلية ، وعيشهم في موطنهم الجديد ،
ان لم تكن الشام يوم هاجروا أرقى من مصر . ولولا أنك تلح في سحنات
أهل غزة وبافا وحيفا وعكا مثلاً تلك السمرة الجميلة ، وتسمع في بعض

اسمائهم لفظ « المصري » لقلت انهم شاميون من عشرات البطون .
قص عليّ صديقي شكري العسلي ، انه رأى في ولاية قونية في آسيا
الصغرى كتلة كبيرة من المصريين من بقايا جيش ابراهيم باشا المصري
ما زالوا الى اليوم الذي رآهم فيه يتكلمون بلهجتهم المصرية كأنهم فارقوا
مصر بالأمس مع انهم تزلوا في صميم أرض الترك ، وأتت ثلاثة أجيال
على عجزهم .

وهذا ذكرني بما قاله أحد علماء المشرقيات من الادريين من أن قوة
التمثيل في العربي شديدة جداً ، حتى لو أسكنت قبيلة عربية في وسط
أوربا ، وغبت عنها أعواماً طويلة ، وعدت تنعدها لما ألفيتها انصبغت بصبغة
الأرض التي تزلها ، بل تشدها قد صبغت هي من كان في جوارها من
السكان الأصليين بصبغتها العربية ، ونشرت بينهم لغتها وبعض عاداتها . وقد
سأل أحدهم ييرلوتي الأديب الفرنسي قبل وفاته : أي الامم أحب إليك ؟
قال : العرب لأنهم لم يغيروا أخلاقهم منذ أربعة آلاف سنة .

وما أدري إن كان تم على أيدي المهاجرين المصريين في أرجاء قونية
شيء مما ارتآه المستشرق في العرب فعربوا من بجوارهم . وعلى كل فانهم
يصفق لهم لأنهم قضوا نحو مئة سنة في أرض الترك ، وما تزلوا عن
لغتهم وعاداتهم ، هذا مع أن الامية كانت غالبية عليهم . وروايتي عنهم هذه
تزد إلى أواخر عهد العثمانيين . ولست أدري إن كان ذلك القبيل من المصريين
قد احتفظوا بشيء من لغتهم على عهد الكمالين ، وقد حارب هؤلاء في
أرضهم كل ما ليس بتركي .

كان لي غرام منذ القديم بالبحث في خصائص الشعوب ، وبالطبع كان
لمبحث الشامي والمصري المقام الأول في نفسي ، أنظر التأثير الذي أحدثه
الاقليم في السحنة واللغة والخلق والمادة . وأمثل الآن لذلك بخمسة أشخاص
من أهل مصر عرفتهم معرفة جيدة . وكان الاثنان الاولان من أخلص

أصدقائي ، وقد عملا في التجارة مدة حياتها . والثالث صحبته أيضاً وهو صاحب مشروعات ، وعمل الرابع في الزراعة ، والخامس حوذى صاحب مركبة ما زال حياً يرزق . رأيت المصريين الذين اشتغلا بالتجارة في دمشق مثلاً نادراً في الرجال . يعرفان الجدل كثيراً ويعرفان الهزل كثيراً . وكان كلاهما مولعاً بالمطالعة ، ويقرأ كل ما تصل يده إليه من الكتب والصحف ، ومن المطالعة ألبا بأشياء ما كان واحد من عشرة آلاف من سكان البلد يعرف مثلها أو نصفها . فكانت معلومات الواحد منها لا تقل عن معلومات صحافي راقٍ ، لو كان كل منها يحسن لغة أجنبية ، وما كان الأول يكتب ما يمن له ، بل يقيد في دفاعه ما يستحسنه فقط من كلام غيره ، واسمه عبد الرؤوف المصري (الرفاعي) واسم الثاني محمد المصري ، وهذا اعتاد الكتابة ومرن عليها فكان يكتب كتابة يقل الغلط النحوي والصرفي فيها ، وقد تعلم بالسليقة وسار مع الطبع .

اشتغل عبد الرؤوف بتجارة الطرايش ، وكان غريباً في أمره وطوره ، وما تزوج إلا بعد أن ذرف على الستين ، وعاش أكثر من أربعين سنة في دمشق ولم يتعلم لفظة واحدة من لهجتها ، وما نزل عن لفظة واحدة من لهجته المصرية ، هذا مع شدة اختلاطه بأهله وأقاربه من أهل هذه الديار ، وهم لا ينطقون بكلمة واحدة باللهجة المصرية اللهم إلا أن كانوا معه ليسروه فقط ، ويظهر عليها التصنع والكلفة .

وجاء محمد المصري دمشق يافعاً وامتزج بأهل الميدان من أحياء دمشق واشتغل بالتجارة ، وعاش أهل البادية والحوارة والدروز والفوطيين والجليلين ورأيتهم بعد نحو خمس وأربعين سنة من هجرته شامياً صرفاً لا يستطيع عشرة منجمين حذاق أن يكشفوا أمره ، ويعرفوا أنه مصري إلا إذا حكوا عليه بمصريته من خفة روحه ونكتته الحاضرة . وقد كان يكتب في أسلوب الهزل في الجدل مقالات أنشرها له في جريدة المقتبس يتناول فيها الأحوال

الحاضرة ، وبينها على منامات ومشاهدات ، ويقدم لها مقدمات عجيبة ، يعرض فيها بالوالي وبمحكومته ورجاله . فتحدث مقالته من التأثير ما لا تحده عشر مقالات أفرغت في قالب الجذ يكتبها السياسيون والاداريون والحقوقيون . وكان الوالي أشد ما يكون تأثراً من مقالاته ، لأنه لا يقدر أن يجد له فيها مأخذاً يستطيع به مؤاخذته ، ليسوقه إلى القضاء ويحاكمه على ما باحق به من إهانة يزعمها ، ويعرف الوالي أن تأثير ما يكتبه « الميداني » وهذا الاسم كان توقيمه في الجريدة ، شديد الوقع في نفوس العوام . وما خلت حملاته من تأثير في إسقاط ذلك الدور المنحط ، وكان الخاصة والعامة سواء في الاعجاب بما يكتب الميداني لجمه في كتابته بين دعاة مصر وهزل الشام .

والرجل الثالث اسمه خورشيد وهي بك من مهندسي الري بمصر أتى هذه المدينة وهو في الثمانين وعاش فيها أكثر من ثلاثين سنة واقتنى أملاكاً في سفح قلسيون بدمشق ، وكانت لي به صلة أكيدة وصداقة دامت مدة طويلة . وابتاع قرية في وادي العجم اسمها بويضان ، وقدر أنه بالحفر عن الماء يجده لأن القرية كانت بين جبلين ، وفي الجبال مخازن المياه ، وهما جبل الشيخ (حرمون) وجبل الدروز (جبل الريان) . والغالب أنه نظر إلى بعد ما بين الجبلين في الخريطة ، وما قدر البعد الحقيقي بينها . فأنفق أموالاً طائلة ولم تنبجس المياه . والقرية التي حاول انباض المياه في أرضها من أشج القرى بمياها ، وأرضها صخرية قاسية .

وقال لي انه كان ينوي انشاء مدرسة زراعية بحماية لتعليم أولاد الفلاحين ، وأنه كان ذات يوم إلى نصفه في التراب يحفر والماء لا يجيئه ، وقد اشتد غضبه ، فخطب المولى تعالى ، وقال له : « أنت مطلع يارب على سررتي ومعرف أنني أقصد بهذا العمل خدمة الفقراء ، فلماذا ترض عليّ بالماء ، وهكذا لم يوفق بعد بذله مبالغ عظيمة وجهد دل على همة شماء . والنجاح غير مقدور لسكل أحد .

كان خورشيد وهي على جانب من الذكاء والفضل وحب الخير ، وكان من جهة اخرى يأتي اموراً لا تصدر عن أطفال وتنبئ ببساطة زائدة ، كان غيوراً على مصلحة البلد الذي نزل الى أبعد حدود الغيرة ، يشارك في مسائله العامة ، فيرأس مثلاً لجنة مقاطعة الترامواي والكهرباء ، وبين عن مرونة ومعرفة ودؤوب برغم تقدمه في السن ، يقصد بذلك خدمة المدينة ومحاربة الافرنج الذين يكرههم مع أنه صرف في انكلترا اثنتي عشرة سنة من أيام حياته وتعلم هناك ، وهو على مناح انكليزية . وبلغني أنه حرم ابنه ارثه وأعطاه لسبطه الدمشقي ذلك لأنه كان يكره زوجته المصرية ويحب الشامية . وكثيراً ما عمل الحب في رجل تزوج اثنتين فأنكر أولاد الأولى واستهام بأولاد الثانية . وقد أشرت اليه غير مرة ألا يحرم ابنه فأبى ونجم لي قائلاً إن أمه آلمته وآذنه . استنفدت من عشرة خورشيد بك أشياء كثيرة . ومما قاله لي إنه كانت بينه وبين أحمد عرابي باشا صاحب الثورة المصرية المشهور صداقة متينة في بلدة ذكرها لي فأنسيتها . قال : وكان عرابي برتبة ملازم فكان يختلف اليه رجل انكليزي ويتحدثان في خلوة ساعات ، وبقي الانكليزي على هذه الحالة سنين مع عرابي .

والمصري الرابع الذي عرفته كان فلاحاً في قريتنا ، وكذلك كان أبوه من قبله ، عرفته وأنا فتى ، واسمه عبد المجيد المصري استخدمته سنين في مزرعتي مراباً ، وكنت آلمته على الانبار والبيدر والعلف والبذار والابن وعلى السقيا والحراث والكرث ، وأثق به في حساب العملة ومحاسبة الفلاحين وأصحاب المواشي وغيرهم . فكان في غيبيتي وحضوري نمطاً واحداً في الاستقامة والتدقيق ، كأن المال ماله ، يعمل كل هذا ولا يمين ولا يثرثر ، ولا يقول نعمت وعملت ، كما هي عادة معظم الفلاحين المستخدمين عندنا . وكان صالحاً برأ لا يقطع صلاته ، ويعتمد أن يصلي مع الجماعة ، إذا كان في القرية لا في الحقول والفيطان ، وكان يتنفل ويصوم اياماً من السنة فوق الايام المفروضة عليه ،

وبماز عن أهل طبقة في القرية بكثير من الصفات التي تكاد تكون مفقودة فيهم وهي الامانة . وكنت إذا أراد عيالي ركوب الدواب من القرية الى دمشق اختاره من بين زملائه عندي لمرافقتهم ، لما كان عليه من التهذيب وقلة الفضول . وبقي الطابع المصري بدياً في شخصته ولا أثر فيه ولا في ابيه للهجة المصرية ، لأنها سكنا القرية منذ زمن طويل .

والمصري الخامس محمد حمزة المصري الحوزي وهو اليوم في عشر الثمانين وله اتصال بأسرة الشيخ محمد بنحيت مفتي الديار المصرية سابقاً وبيت الشيخ المهدي العباسي المشهور ويحفظ لها قصصاً ، وكان الشيخ بنحيت يعطف عليه ويمانه بمبالغ من المال لا يستهان بها . تزوج بشامية ورزق أولاداً كلهم اليوم « شوام » جاء هذه المدينة منذ خمس وأربعين سنة ، ويتكلم باللهجتين المصرية والشامية على السواء ، والمصرية أشد ظهوراً فيه ، وأكثر خصائصه مائلة فيه ، بفيض بالكلام في الدقة التي أركب في عربته ، حتى لا حاذر بعض الاحيان ان يستهويه الكلام ، فيفعل عن ضبط حصانيه ، أو يفلت الاجسام من بين يديه ، فنقع في نهر أو جدول ، أو نصير الى هوة أو منمرج ، يورد علي الفكات المستملحة ، ويشفعها بلفقات ليسمعي صوته ، وهو على المقعد الالامي ، ويرى صورتي وأرى صورته . وحدثت عن سروره إذا ذكرت له أشياء عن مصر الحديثة ، وكما كان سروره لما عرف أنني من أصحاب الشيخ بنحيت ، وأعرف أشياء عن العباسي ، ويسر جداً أنني أقدر النكتة قدرها ، في أكثر ما يورد علي سمي . وأظن أنه أدرك أنني انقبضت لما قصت علي مرة رؤيته في الليل ، وهو يسوق عربته ، أو أذاك الصالحين في مشهد الاربعين بصالحية دمشق ، وجنازة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وأظن هذه الخيالات وليدة الحشيش في نفس تحب أهل التقوى في أصل فطرتها .

وبشبه مشوارنا إلى القرية كل مرة مشوار صاحبين متحايين أحدهما

راكب والثاني سائق . وحالي معه تذكرني بما كان يقول لنا أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري : « إذا أردتم ان تنفعوا بالعوام فلا تظهروا أن بينكم وبينهم فروقاً كثيرة ، بل أوهموهم أن الفرق قليل بينكم وبينهم لا يبلغ أكثر من درجة أو درجتين » . وسائقنا هذا أعمله على ذلك ، فيزيد في الدعاء لي ولأولادي ، وأعمله أيضاً بما تستحقه قريحتي وحافظته ويوازي حديثه واكثره .

ليس لدينا إحصاء يركن اليه لمعرفة عدد المصريين اليوم في سورية ولبنان ، والمقيّد عند قنصل مصر في بيروت نحو اربعة آلاف ، على ما كان حدثني بذلك القنصل صدقي محمد بك حامد فيما اذكر ، وأكثرم يحترفون حرفاً دينية . وكان عدد المصريين قبل الاحتلال الانكليزي في الشام كثيراً جداً ، ادركت بقاياهم فكان منهم القراء والمغنون والآلاتية والسواس والسماسرة والمنجمون والمهرجون والطبالون والطباخون والحوذون والفراشون . وكان جمهورهم يومئذ يهاجر في طلب الرزق ينشدونه من أقرب طرقه ، ويندر فيهم التجار . وتقل هجرة الطبقة العالية هجرة قطمية : وربما كان انقطاع الطبقة الراقية عن الهجرة من مصر منذ دخول القطارين تحت راية الدولة العثمانية . وكان الشاميون والمصريون على عهد المماليك سواء في الجنسية والتابعة . وكانت الجنسية يومئذ جنسية الاسلام الواسعة ، لا هذه الجنسية الضيقة التي نسجنا بها على منوال الغربيين . كان القاضي المصري يعين في الشام ، والشامي يقضي بين الناس في مصر . والعالم المصري يدرّس في مدارس دمشق وحلب والقدس كما يدرّس العالم الشامي في مدارس القاهرة ومدارس الصعيد والوجه البحري .

ولطالما تمنيت لو زاد امتزاج المصري بالشامي أكثر من الآن ، ليعرف احدهما الآخر معرفة اكيدة ، وفي هذا الامتزاج من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية ما لا ينكر محله ، وستزيد غداً الحاجة الى هذا التمازج بمد أن نمت نفوس مصر فزادت خمسة اضعاف ما كانت عليه قبل ستين سنة ،

وعشرة أضعاف ما كانت قبل مئة سنة ، حتى كادت تضيق بمض أرجائها بسكانها ، وهم يحتاجون إلى مرتزق ، وصناعاتهم تحتاج الى مصرف . وقد تم بعد تحسين الري كل شيء في الأعمال الزراعية او كاد ، وانشأت مصر لها صناعة كصناعات الحرير والصوف والكتان والسجاد والجلود وغيرها . واقترب الاقطار الى نصريفها الديار الشامية (فلسطين وسورية ولبنان) وهي تروج عندنا لعدة اعتبارات حتى ولو فاقها الصناعات الغربية بمهاودة اسعارها وجمالها احياناً ، والنفاسة غالبية على مالمصنعه المعامل المصرية .

ان الحالة الاقتصادية ستضطرب المصري في وقت قريب الى الخروج عن عزلته مهاجراً في طلب الرزق . وها اننا نرى بعض المعلمين التعليم الابتدائي والوسط والعالي من المصريين متبطلين لاعمل لهم . ومع هذا نرى المصري كالفارسي لبدأ حتى اليوم لا يجب ان يغادر بلده ، لاعتقاده انها اجمـل الاصقاع ، لا يهنا له عيش في غيرها ، ويفلظ بزعمه من يهاجر منها ويهجرها . وأعتقد ان اصحاب الصناعات الحرة في مصر اذا جربوا الهجرة الى الديار الشامية هجرة قطعية او مؤقتة سيحمدون غب هجرتهم . وافضل باديء بدء ان يكون المهاجرون من الطبقة الممتازة ، فان هؤلاء في كل أمة وفي كل بلد سلطاناً على النفوس لا يكون مثله أبداً لأرباب الطبقات الأخرى . فقد رأينا ما كان من منافع القنصليات المصرية في بعض عواصم أوروبا وأميركا وآسيا ومدنها المشهورة ، وان مصر لتتفق مئات الألوف من الجنيهات مسانته على وكلائها وقناصلها فتجني بها من الفوائد المادية والمنوية ما لا يمرره الا من يحسن تقدير هذه الامور . وكما أن الامة يثملها أبناء طبقاتها الراقية فكذلك كل أمة لا تعرف كما يجب إلا في ارضها وديارها

زبد أناساً من الطبقة العالية من اهل مصر بقيمون بيننا على الاقل أكثر ايام السنة ، او يهاجرون اليها مهاجرة قطعية ، يقتنون الزارع ، ويمعمرون القصور والدور ، وينشئون المتاجر والمصانع والمخابر ، ويكون لهم من

الصفات التي تألف وتؤلف، وشخص واحد من أرباب القدوة الحسنة
يوثر-مالا تؤثر الجماعة ان كانوا من اخلاط الزمر .

قلت للسيد عبد الرحمن الكواكبي (صاحب ام القرى وطبائع الاستبداد)
هل في حلب من الرجال أمثالك كثير ، قال : عشرون رجلاً ، فقلت له :
أني اعرف حلب كما اعرف ما في جببي ، لأنها لم تنبغ لهدنا غيرك ، وما أظنني
مها فذشت في أعطافها وأطرافها أجد لك عدلاً في الشبهاء ، فضحك ! والمصلحة
تقضي علينا الآن ان يهاجر الينا الميار العالي من المصريين لينتفع منا وننتفع
منه ، يكون من الطبقة الموقرة المحترمة كما كان ذاك الهامي المصري الذي
أقام في طرابلس الشام وقص عليّ شوقي قصته .



النفثيش في الريف

كنت أتعى خلال تولي وزارة المعارف بتفتيش المدارس ، فأخرج لزيارة القريب والبعيد منها ، ومن المدارس ما كنت أزوره كل سنة مرتين ، وذلك لعدم الثقة بتقارير بعض المفتشين ، وقد ثبت أن منهم من كانوا لا يصدقون فيما يكتبون في سير التعليم ، وسيرة المعلمين والمعلمات والمديرين والمديرات ، ومنهم من كان يكتب تقريره وهو لا يعرف المدارس التي في عمله ، ومنهم من يكتب مقترحاته في مدرسة قبل أن يزورها ، ومنهم من يسخر أحد المعارف بأن يكتب له شيئاً عن معارف عمله ، وكشفت ذلك في مقفص حلبي قضى نحو سنتين في عمالة حماة وحمص ، وكان مقبلاً في حمص وهو لا يعرف مدارس حاضرتها فضلاً عن مدارس الريف ، فيتوسل الى أحد المعارفين صديقي الدكتور صالح قنباز فيكتب له تقريره .

أهم ما كان يزجني في رحلات التفتيش مسألة المبيت في الاعمال النائية عن الحواضر ، فإن أبواب النفوذ ومشايخ القرى يتنافسون في ضيافة الكبراء وليس من مصلحة الوزير ، ولا من شرف منصبه ، أن يبيت في بيوت الاهلين ، اثلا تكون عليه منة لأحد ، وتفادياً من أن يستغله المستغلون فيزيد على حسابه نفوذهم ، ويرهق الفلاح المسكين ، وليس هناك دور ضيافة أو فنادق مصغرة أو اناس يرضون بأخذ أجرة عن مبيت المرء وطعامه ومن القرى ما اذا أزمع بعض الاهلين أن يفتحوا بيوتهم لذلك بمنعهم صاحب النفوذ في القرية ، مشكلة ظاهرها اكرام القادمين ، وباطنها استغلال هذا الكرم لحساب بعض الشياطين . ولهذا كنت في حرج من المبيت في الاماكن التي لا فنادق فيها ، والفنادق لا توجد إلا في حواضر معينة . فلما أن أسير المئة والمئتين من الكيلومترات في السيارة حتى أبيت في بلدة

فيها فندق ، وإما أن ائقل على الأهالي أو أجلب سريراً أو سرراً وأنام في دار الحكومة مع رفاقي كما فعلت مرة في حسجة . وإما أن أقبل بالتزول على من لا أحب تناول طعامهم ، ولا النوم في فراشهم ولا ربط صلات معهم . حدث لي مرة في دير الزور على الفرات أن أويت ومن معي إلى فندق متواضع ، فجاء رئيس البلدية يصيح لا يليق بالوزير أن ينزل في هذا المكان وشدد في أخذي وبائع ، وأقسم الأيمان المفظلة حتى تركت الفندق إلى داره . وهناك دعا على العادة من أحب أن يدعوه ، فسلمت راحتي ، وتبرمت بيمض من لقيت ، وحجزت حريقي حتى اضطرت إلى الاستئذان للسفر قبل أن اتم مهوتي على ما أحب . وفي الرحلة الثانية إلى الدبر نزلت في خان ، وأوقفت شرطياً على بابه ، وآخر على باب غرفتي يمتعان دخول أحد عليّ ، فجاء رئيس البلدية نفسه ، وأهان الشرطيين حتى قرع عليّ الباب فكلمته وأنا في الفراش متمعب جداً بكلام جارح صرفته به عني ، فشكاني إلى قائد الموقع الكولونيل غودز ، فقال لي هذا من الغد في ممرض الكلام : كان دفع رئيس البلدية أمس عنك قاسياً ، ولم أيت قبول دعوته ؟ فقلت له : إنه أخرج صدري ، وحاول أخذي إلى داره بالقوة ، فما هذا الاكرام البارد ؟ وأحب أن أقول لك الخطة التي سرت عليها طول حياتي وهي أنني لا أزيد نفوذ الأعيان ، ولا أعمل على إسقاطهم ، إن نزل الوزير عند هذا الرجل وأمثاله يزيد نفوذه ، وربما يجعل المصروف على الوزير عشرة أضعاف ما كلف ، وقيد على الأهالي الفقراء ، فكيف يابق بمن راتبه عظيم ، وحكومته تدفع له نفقات سفره ، أن يمجز الأهالي ويأكل طعاماً ثمنه من مال الفلاح المسكين ، فاستغرب الكولونيل هذا الكلام وكشغلنا بمحدث آخر .

وهناك مشاكل في التزول على الفلاحين لا يدركها إلا المجرب . فان الفلاح إذا أكل عنده صاحب مظهر يقوم في ذهنه أن له أن يمجزه بالديق

والجليل من مشاكله مدى العمر ، ومشاكل الناس لا تنهي ، فكيف يلزم الرجل الذي تناول طعام مضيئه مرة ، وبات عنده ليلة ، أن يكون صاحبه ومحاميه على الايام . أكلة واحدة تقع على من اصابها غالية جداً لا ينجو من متاعبها ، ولو أطمع صاحبه عشر وجبات ، وأهداه ما يوازي عشرة أضعاف ما صرف . والفلاح يظن لقلة معرفته أن ذلك الضيف العزيز صار بحكم هذا الخبز والملح من جماعته ، وفي وسعه أن يعمل له كل شيء ، ومن واجبه أن يماونه في الحق والباطل .

وعلى هذا فالرحلة لا تطيب في القاصية إلا إذا صار لكل قرية كبيرة فندق ، أو رضي وجيه القرية أن يتناول أجرة ضيافته . ثم إنا رأينا من أفرطوا في إكرام الضيوف في الريف ، وألزموا بالجرى على هذه الطريقة أمسوا بعد مدة فقراء . والزام الكريم نفسه إكرام من يعرف ومن لا يعرف يزيد في نفقاته الى ما لا تحمله حالته فيفلس .



سياستي مع المنتدبين

قامت سياستي مع المنتدبين على الصراحة التي لا أستطيع الخروج منها ولو حازلته ، وعلى صدق العمل وصدق القول ، فكانوا أحياناً يعجبون بما يسمعون مني ، ويصدقوني كما اصدقهم على الأغلب ، وبالفوت باحترامي ورفع مقامي .

جرت بيني وبين المسيو روبردي كه أمين السر العام في المفوضية العليا محادثات ومحاورات اقتضاها وجودي في الخدمة . وكان كثيراً ما يذكر مالي من صراحة ، وبصارحي بأشياء ما أظن بصارح بها كثيرين . وبخطابي اذا خلونا بأنفسنا بدون ألقاب وبصفة المفرد ، مخاطبة الصديق صديقه . وكان قبل أن يتولى منصبه صحافياً . وقلت له مرة ان الصحافة توصل إلى كل شيء ، فقال : هذه كلتي وانا ابو عذرها .

وزارني مرة في المجمع العلمي وغبطني على اقامتي ، وقال لي إنه يتمنى أن يكون مثلي في دائرة صغيرة كدائرتي يتوفر على اصلاحها ، ولا تحب نفسه القيام بأمور لم يخلق لها ، وإن عدت في العرف كبيرة . وكان وقف له على باب المجمع موقف التعظيم لثلة من رجال الشرطة ، يحيطونه بصفته وكيل المفوض السامي فقال : لا أحب هذه المظاهر ، وما خلقت لهذه القيود المتعبة ، وسألني مرة لماذا لا ترشح نفسك عضواً للمجلس النيابي ؟ فاني بما أعرف من محبة الاهالي لك ، ينتخبونك للنيابة عنهم ، فقلت له : إنني احب تقسيم الأعمال ، وأعتد النجاح فيه ، فأنا أستطيع أن أدبر شؤون المعارف وأرأس المجمع العلمي ، ودخولي في النيابة يخرجني عن خطتي واختصاصي ، وأرى غيري أحق مني بأن يتولى النيابة عن الأمة ، وإذا تعرضت لتوليها تكثر علي الأعمال فيبدو ضعفي فيها . فقال : أحسنت

إن من اعتاد مثلك ممارسة القضايا العلمية المقررة يصعب عليه أن يكون بوقاً لغيره ، كأن يرسله حزبه ليدافع عنه في مسألة هو في باطنه يمتقد بطلانها ، فتما عملت بزهديك في النيابة .

ولما انفصل عن منصبه في سورية ، وأصبح عضواً عن دولته أمام جمعية الأمم للدفاع عن الانتداب في سورية ولبنان ، كان كل سنة يمود إلى ديارنا ليتزود بالمعلومات الجديدة لتقريره السنوي عن الانتداب ، ويقبض الجمل المقرر (مئة ألف فرنك) ، وكان يطلب مني كل مرة أن يتحدث إلي فأذكر له ما كان الأهالي يشكون منه ، ونتكلم بحرية ، كلام اثنين يهمهما نجاح أمر البلاد .

وجاء في بعض السنين يطلب مني الاجتماع به كالعادة فخففت إليه ، وكانت سورية تغلي كالرجل والاهلون على آخر من الجمر من التسويف في حل قضيتهم ، وقد سئمت تبدل أوضاع الحكم على غير جدوى ، وأشرف الساحل والداخل على الافلاس لما منيا به من بلية التقسيم ، ونكبة النقد المتزول الأسعار ، وبما نصب في الحدود من الحواجز الجمركية . وأحببت التوسع في القول مع صاحبي لعلمي بسعة صدره وسعة علمه ، وقلت عسى أن ينقل كلامي إلى من يهمهم الأمر ، فيكون منه بعض النفع لهم ولائمي خصوصاً وهو يعرف إخلاصي لهم وحيي لمدينتهم ، وأني لا أغش ولا اخادع وقلت له مرة : مهما أحببتكم فاني أحب هذه الديار أكثر منكم ، وبلادي ومصلحة بلادي أولاً ثم أتم ومصالحكم . وقال لي مرة : إن ما أنته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي لا تستطيع أن تأتي مثله في سورية على هذا العهد .

وسأل عن تلك الجلسة ، وما دار فيها من الابحاث الخطيرة وما بدر على لساني من آراء قد تضر بمصالح المادية ، كما قال لي أحد الأصدقاء لما أطلعتني على طرف مما دار بيني وبين السيد ديكيه ، وبما قلته له : لا ينبغيكم من العنت ، ولا ينبغي أرضنا من هذا الخراب السائرة إليه ،

إلا ربط لبنان بسورية ربط اتحاد أو وحدة ، فالساحل يكمل الداخل وكلاهما لا يمشى وحده ، ونحن لسنا متمصين على ما يصورنا بعض رجال لبنان ، ونحب أن نعيش مع اللبنانيين كما عشنا معهم أجيالاً على قاعدة الحكم الذاتي ، وإذا تمذر عليكم ذلك ، فتتجون من القيل والقال باعادة لبنان إلى ما كان عليه من الحدود في العهد العثماني ، ولמידون إلى سورية الاصقاع التي ما كانت تمد من لبنان وانتم وسعتم حدوده بضمكم إليه أقصى لا يجب اهلها أن يدخلوا فيه مثل صيدا وصور ومرجعيون وحاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك والحصن وعكار وطرابلس . وطرابلس هذه منفذ سورية الطبيعي الى البحر ، وأهلها من قدرأتم في المطالبة بالانضمام الى حكومة دمشق . وإذا تم الاتحاد أو الوحدة فتبقى بيروت وشأنها إن لم تحب الدخول معنا . فقال إن طرابلس والحصن وعكار هي أرض لبنانية منذ القديم ، ولا سبيل إلى ضمها إلى سورية . فقلت له : انها ما كانت في دور من أدوار التاريخ ممدودة من لبنان ، وما هي إلا قسم من سورية ، وهي سورية جغرافياً وطوبوغرافياً وإدارياً . فقال انها ضمت الى لبنان ، منذ اثني عشرة سنة فمن ينزعها منه ؟ فقلت له : ينزعها الذي ابتدعها أول مرة وضمها إلى لبنان بحجة قلم ، وما عليه الا أن يجري عليها قلمه مرة أخرى ، فاصفر وجهه لما سمع مني هذا وتأفف وعبس ، وأظهر تمللاً ما أوّلته إلا أنه بود قطع الحديث والاكتفاء بما قلت ، وأن اعجل بالخروج من عنده ، لأن في الباب أناساً يرى أن يستقبلهم أيضاً ، والوقت قصير ، وهو يكتفي مني بما قلت . وغادرت غرفته بعد دقائق وهو أشد ما يكون ضجراً من مجلسي فودعني وداعاً بارداً ما تعودته منه في الأيام الماضية .

وعاد في السنة التالية ، وكأنه ادرك ما بدر منه في العام الماضي ، وأني ربما كنت متأثراً من معاملته لي على ما بدتنا من صداقة . فتوسط للاجتماع به صديقي المسيو بنور مستشار المعارف في المفوضية العليا ، وهذا كتب الى المسيو كوله مستشار معارف سورية فأبلغني صديقي هذا رجاء المسيو

بونور بالاجتماع الى الميسو روبر دي كيه ، وقوله لاني من اصدقائه ، فقلت له : تفضل وأبلغ الميسو بونور أنني ولا شك صديق الميسو دي كيه كما قال ، ولكن امتي صديقي أكثر منه ، رأيت في السنة الفائتة قد استئقل كلامي ، وود لو أقطع سلسلة حديث كنت أراه نافعا لانقاذ سورية من محنتها ، إنك يا صاح تعرف حق المعرفة أنني من أنصار الوحدة السورية ، وقد كتبت هذا في بعض كتبي الأخيرة ، وقتله جبهة ودعوت إليه في الملا ، وما خفت ولا جبت من التصريح في كل فرصة وفي كل مجلس بهذا الرأي ، ولما ذكرت له الوحدة في آخر جلسة لي معه امتعض من قولي وتبرم به وتمنى لو وجد سبيلا ليخرجني من غرفته قبل أن أنجز حديثي الذي طلبه مني ، ونجاهل أن من طربي ألا أقول إلا ما أعرف لا أنافق ، لذلك عزمت ألا ألقاه بمدها . أما تقريره السنوي فيضعه ويعرضه على جمعية الانتم اجتماع بي أم لم يجتمع ، مادام عنده مثل صاحبه (فلان) يعتمد عليه ويحبه ، وربما كان في نظره أعظم رجل في سورية ، ومن كان عنده مثل هذا الصديق المتفاني في حبكم لا يحتاج كثيراً إلى مثلي . وأبديت ان أجتمع به ، واقطع هو في السنين التالية عن طلب الاجتماع ، وحرمني قول الحق صداقة عظيم مثله . قبح الله السياسة .

زار دمشق السيد برونه أحد نواب فرنسا وابن عم صديقي المستشرق أرتوركي ، يحمل لي سلاماً من صهره وقد طلب إليه يوم يوافي دمشق أن يجتمع إليّ ويخبره بحالي وصحتي وصحة أولادي ، وكان يعرف بعضهم وهم صفار ، فاجتمعنا ساعة ، ونذاكرنا في أمور كثيرة ، وبما قلته له إن (ش) (أحد كبار موظفيهم عندنا) قد ترك المجال لزوجته لتستلم هدايا المهدين ، حتى صار لها من الحلي والجواهر ما لو عزمت أن تضعه على أطرافها دفعة واحدة ما استطاعت أن تنهض به لكثرت ، وعندكم رجال أفضل من هذه الطبقة التي تيمثون بها إلينا ، فهلا رميتم غيرنا بجماعة المستعمرات

وخصصنا رجال يأتون من طريق فرنسا لا من طريق مستعمراتكم ،
وما هي إلا أيام حتى نقل المشكو منه إلى مقاطعة أخرى وبقي فيها سنين ،
وبقيت زوجته بالطبع على طبيعتها ، تستهدي المجوهرات وغيرها ، وباسم الله
وما شاء الله .

وأخاضونا عن هذا العامل بعامل مثله أو أحط منه (ف) وكان هذا
أسرق من فأر الحبس ، وذا نفس وضيفة ، حتى رضي أن يدفع عنه
رئيس الدولة اجور مبيته وثمان طعامه في الفندق أعواماً . هذا ودولته
لمطيه راتباً جيداً يمكن أن يعيش به عيشة راضية ويقتصد منه لمستقبله .
وقلت لأحد أصحابي منهم إن وجود مثل هذا الموظف عار وشنار ، إنه
لا يمثل نفسه ، بل يمثل دولة عظيمة ، فكيف يليق أن يسف هذا
الاسفاف . وما أقيل هذا العامل إلا بعد مدة طويلة ، ومن غريب الاتفاق أن
معظم أهل الاستقامة من عمالهم لم يكتفوا في ربوعنا طويلاً ليراعوا المصلحتين
مصلحة أمهم ومصلحتنا ، وكان من كثير من المنحطين بأخلاقهم أن قضوا
معظم خدمتهم عندنا ، وحرمانا طبقة مختارة متمرنة على إدارة الشؤون .

زار دمشق نائب باريز الميسو سوليه ، وفي السنة التالية زرت باريز
فأتى إلى الفندق يزورني واقترح عليّ أن أزور الميسو بيرار وزير معارف
فرنسا ، قائلاً إن من باب الالباقة أن يزور وزير معارف سورية وزير معارف
فرنسا ، فأجبت مقترحه ، وضرب لنا الوزير موعداً ، فزرنه في مكتبه
الرسمي ، وتحدثنا في أحوال سورية ، وما سألني : هل أنتم تتكلمون
بالسريانية هناك ؟ فقلت له : كنا نتكلم بها من نحو ألفي سنة واليوم نتكلم
بالعربية ، ولم يبق من مواطنينا من يتكلم بسريانية محرفة إلا ثلاث قرى
في شمالي دمشق ، فتمجب من ذلك ، وقال : ما هكذا قرأنا في صبانا .
فقلت له : الظاهر أن الكتب التي اعتمدتم عليها كانت من طبعات قديمة
صححت أغلاطها في الطبعات الحديثة ! وسألني إذا كنا كلنا نصارى ، فأجبت :

فينا النصرى وفينا المسلمون ، والسواد الأعظم من أهل الاسلام ، والمذاهب كثيرة عندنا لا تقل عن عشرين مذهباً ، فقال : وهذا لم أكن أعرفه . فقلت له : ربما كانت معلوماتكم مأخوذة عن مصادر قديمة غير موثوق بها . وانصرفت من عنده متعجباً — وأظن النائب سويليه كان يجب أيضاً — من أن يكون وزير المعارف ، في أرض العلم والمعارف ، في هذه الدرجة من المعارف . وقلت في سرِّي كم رفعت السياسة اناساً إلى الرتب العليا وهم في حقيقةهم غير أهل لها .

عرف القاريّ العزيز مبلغ وزير معارف فرنسا من العلم ، ومع انه ليس بالكاكب ولا بالشاعر ولا بالأديب ، ولا ألّف حياته كتاباً ، ولا نمتق خطاباً ، انتخب عضواً في المجمع العلمي الباريزي ، والاسباب الموجبة التي أوردوها لتسريفة هذا أنه كانت تدرع أيام وزارته بإعادة الثقافة القديمة Les humanités إلى المدارس الثانوية ، أي أن يمود الفرنسيون إلى درس اللاتينية واليونانية يصرفون فيها أعواماً طويلة ، فما وافق مجلس النواب على هذا الاقتراح القليل الثمرة ، الكثير المنع والتعب ، وهو مشروع يؤخر فرنسا خمساً وسبعين سنة إلى الوراء كما قالت مجلة (الأخبار الادبية) Les Nouvelles littéraires وقال المجمع الذي ضمه إليه : إن مجرد تثبيت السيد بيرار بفكرة الثقافة القديمة كاف لأن يؤهله لمضوية الأكاديمية ، قلت لما قرأت هذا : ولا عجب فالمجمع العلمي في باريز يعيش في العصر العشرين بمقلية ابن العصر السابع عشر يوم أنشأه منشؤه .

قلت لأحد رجال الانتداب : إني يا صاح مصرح لك بما يصعب على المتطرفين هنا أن يصرحوا به من أعمال دولتكم في ربوعنا ، وفي الخلائق من يقلبون أعيان الحقائق إذا غضبوا على شخص أو جماعة ، أو اختلفوا وإياه في مسألة أو مسائل . وأنا جدّ عارف بما كانت ديارنا عليه في العهد التركي ، وما صارت إليه في عهد الانتداب . إنكم وطدتُم الأمن ، ونظمتُم

الدرك بنظامكم البديع ، حتى صار خيراً كله ، وكان على عهد العثمانيين شراً كله وأنقذتم الفلاح من السخرة التي عاش فيها زماناً ووقته من ظلم المستبدين ما أمكن ، حتى ليقاضي أصغر فلاح أعظم وجيه ، ونحكم المحكمة على هذا إن كان مبطلاً ، ويصل الفلاح الضعيف إلى حقه . ولقد خففتم عنه الضرائب ، ونظرت في صحته فأقمت له المستشفيات والمستوصفات يطب فيها مجاناً . وكوفحت الملاريا والأمراض الوافدة ، وجففت بعض المياه الراكدة والمجاري الضارة ، وعبدتم من الطرق مئات من الكيلومترات ، حتى سهل السفر من أقصى حدود مملكتنا إلى أقصاها ، وتيسر التنقل في الأودية والسهول والحزون والجبال ، وعمرتم خزان حمص وجسر الفرات وعشرات من المعابر والجسور ، ربطت الأطراف بعضها إلى بعض ، وأنشأتم مدارس كثيرة ، وثرتتم التعليم بقدر ما ساعدت الحال ، وشيدتم بعض دور الحكومة وأنشأتم غير ذلك من المصانع ، وأصلحتهم الإدارة والقضاء ، إلى آخر ما قمتم به من الأعمال النافعة ، وهي في نظري عظيمة إذا قيست بالخراب الذي كان عليه هذا القطر في العصر العثماني .

ولكن قل لي بأبيك ماذا عملتم للزراعة حياة هذه الأرض ومورد ثروتها الوحيد ؟ فصمت قليلاً وقال : لا شيء ، وملاحظتك في محلها . فقلت له : وهذا أغتفره أيضاً واعتذر عنكم عذراً مقبولاً ، وأظن عذركم قلة المال وامتناع الشركات عن توظيف أموالها في اصقاع لم تستقر حتى الآن حالتها السياسية ، وذلك عملاً أيضاً برأي المسيو آشار مستشار الزراعة ، ومن رأيه أن الزراعة الصغيرة أنفع لسورية والسوريين من الزراعات الكبيرة ، وكان يفضل أن يشتغل الأهالي وخدمهم ، ولو على صورة يبدو الضعف عليها باديء بدء ، على أن تكون زراعتهم وصناعاتهم الزراعية في أيدي شركات تستثمر كل شيء لنفسها .

قلت له : إنني أغضي عن هذا التقصير أيضاً وما زلت أقول إن كل شيء صدر منكم يمكن الجواب عليه ولو جواباً ضعيفاً ، وأمر واحد لا يجاب

عليه وسياستكم اقتضته ، وقد أضر بنا كثيراً ، وأعني به تقسيم سورية إلى دول ، وأنتم ترونها إذا أنصفت لا يتألف منها مع فلسطين وشرقي الأردن أكثر من دولة صغيرة ، وقد حركتم عرق الطائفية في النفوس فأذكيتم جذوة التمسب الديني بين أبناء الوطن ، فزادوا تباغضاً وهم أحوج ما يكونون إلى أن يتحابوا ، وزدتمهم تباعداً عن السواد الأعظم من السكان ، ومصالحهم في التقارب والتفاهم واعتمدتم على غير المسلمين في دواوينكم فبرهنتم على تحزب لا ينطبق مع الاصول التي عرفت عنكم .

كنت في دعوة رئيس الوزراء ، وكان الى جانبي الكولونيل ترا كول مدير استخبارات الشرق ، فأردت أن أفتح معه حديثاً ، فسأله عن سير الثورة في فلسطين (الثورة التي نشبت قبل الثورة الاخيرة) فقال لي : لا شيء ، فقلت له : إن جيشاً منظماً يقضي بالطبيعة على ثورة يقوم بها شعب أعزل في أيام قليلة ، فقال : أنتم ماذا تاملون هنا ؟ فقلت له لا بد أنك شاهد ما نصنع قال : أنجب أن اصدقك ؟ لو كنت مكانكم أمس وجاء هؤلاء المتظاهرون الى دار الحكومة يهتفون لاستقلال فلسطين ، لأخذت منهم عشرين رجلاً وصلبتهم . فقلت له : ولماذا تقتلهم وهم طالبوا مطالبة سلمية فقط ؟ فأطل عليهم رئيس الوزراء من الشرفة وحيام وقال لهم : سأسمعى لمعاونتكم على طلبكم . فماذا حدث من ضرر في ذلك ؟ ثم إنا لسنا هنا كجبال باشا في عهد الحرب العامة جئنا لنقتل الخلق فمن يستحق القتل يقتله القانون ، فقال : أقول لك الحق ، المسلمون بهائم . فاضطربت لهذا اللمت الذي نعمت به المسلمين . وأحببت أن أضعف له تهووه هذا ، فقلت له : أظنك لم يمسلم فلسطين . قال : لا جميع المسلمين بهائم ، Tous les musulmans sont bêtes فزاد غضبي وقرأه في وجهي ، فأحب أن يسترضيني ، وكان أمامه كأس من الشمبانيا تناوله وقدمه الي فامتنت من أخذه وقلت له : أظنك نسيت أني مسلم ومسلم قائم بما فرض الاسلام علي ، وهذا الحجر محظور في ديني ، فسكت وسكت .

ولما انتهى المدعون من طعامهم وانصرفوا ، ذكرت لرئيس الوزراء ما فاه به مدير الاستخبارات ، وكان الرئيس يحاذر منه ، لانه يريد به الشر ويفضه ، وقلت له : هذا ما وقع ، فالرجل اذا لم يحضر غداً الى مكنتي ويبتذر مني ومن الحكومة رسمياً عما جرحني وجرح امتي به بهذا الكلام الجاف ، فأنا مستقيل بعد غدٍ من الوزارة فأصبح من أفراد الامة ، وأشر هذه القضية في الملاء في نشرتين بالعربية والفرنسية . ومما قلته إن حكم هذا الرجل حكمه الجائر على أمة عظيمة لا أرضى مثله أن يقوله لي ، فالسلمون فيهم رجال كالاوربيين بعلمهم واخلاقهم ، وأي سخافة أن يحكم على ثلاثمائة مليون من الشعوب المختلفة حكمه هذا . أنا إذا قلت للمسلمين أنهم بهائم قد يقبلون مني اعظم من قولي لصدوره عن حب لهم يراد به حضهم على الاخذ بأسباب الترقى ، أما ان اسمعها من فم تراكول فلا .

فأبلغ رئيس الوزراء ما جرى وما قلت ، وعرف كيف يستغل الحادث فجاء مستشار الداخلية المسيو فوكنو من الغد إلى غرفة رئيس الوزراء ودعاني فسألني المستشار عن القصة ، فقصصتها عليه كما وقعت فقال المستشار : اما كان تراكول سكران ؟ فقلت له : لا . وبعد انصراف المستشار تقدمت إلى رئيس الوزارة وقلت له : استرحت من تراكول ، فهو سينحى . فاستبعد ذلك وقلت له : سترى ، وما مضى عشرون يوماً حتى عين الكولونيل الذي ازعجني بكلامه السخيف قائداً على فرقة في الجزيرة ، فجاء يودع رجال الحكومة ، وودعني في الجملة ، فلما صار في الباب قال لي وزير المالية السيد توفيق شامية إنه يحبك كثيراً . قلت : هو فاني في حبي وانا ايضاً فاني في حبه ، وكانت تنجية تراكول بفضل المسيو بونسو المفوض السامي وكان من اعقل من تولوا هذا المنصب في عهد الانتداب .

ضقت ذرعاً بمستشار المعارف المسيو راجي ، وكان يتدخل في كل الأمور ، اعتاد ذلك من أيام سلفي وزير المعارف السابق الذي هان عليه أن يكون بيد المستشار كالميت بيد الفاسل . فكان راجي يفاوض المدارس

مباشرة ، ويراسل ارباب المعامل في فرنسا لبيتاع منها للوزارة الادوات والآلات والكتب والورق وغير ذلك ، ومن ثم ما اقتضح به امره تدخله في اضراب طلبة الجامعة عندما اردت انقاص موازنتها لاخذ الزائد لانشاء مدارس في القرى ، وهو الذي أهاجهم فهاجوا ، ثم دعاهم الى السكون فسكنوا . فكتبت كتاباً خاصاً الى المسيو بونسو المفوض السامي ، أذكر هذه المسائل ، واقول إن مثل هذا الرجل يضر بسمعة دولته ، وأنتم إنما جئتمونا لترشدونا وتعلمونا ، ومصلحتكم تقوم بمستشارين ينفعون ولا يضررون .

وافتتحت الكتاب (٢٨ كانون الاول ١٩٣٩) بما كمر به : تفضلوا فاسمحوا ان ألفت نظركم العالي الى امر يهم فرنسا ويهم سورية على السواء وان أعرب لكم عن رغبتى الصادقة في ان ارى العلائق منسجمة كل الانسجام بين الدولة المنتدبة وحكومة بلادي ، وتقوم علائق الود بين البلدين بمدة امور لا اذكر الا واحداً منها واعني به نشر الثقافة الفرنسية والسورية ولا تنتج هذه النتيجة الحسنة الا اذا كان من يمثل هذه الثقافة الفرنسية العليا في سورية متحلياً بصفات عالية وعلى سيرة حسنة ذلك لان بيده احياء العلم الفرنسي والعمل على الجمع بين الامتين بحجامة الفكر والثقافة . وليت شعري هل يقوم من عهد اليه القيام بهذه المهمة بامانة واخلاص . اما انا فأشك في امره كثيراً . ان سلوك مستشار المعارف خلال السنين الاخيرة يدعو السوريين الى الشك في حسن نية الدولة المنتدبة فهو لا يضر بسورية فقط بل يتناول ضرره الى اسوأ من ذلك هو يسود اسم الفرنسي في سورية واليكم باختصار ما قدمت يداه . وهنا اوردت عشر مسائل اساء فيها المستشار الاستعمال فثبت عليه بالتحقيق سوء عمله ولما ارسلت الكتاب في البريد اخذت مسودته وتلوت ترجمتها على رئيس الوزراء فقال : ولماذا لم تفتحنى بالامر قبل ان قمت بما قمت به ؟ فقلت له : لأنني تأملت نفسي لما أهاج رئيس الجامعة بالاتفاق مع المستشار جمهور الطلبة احتجاجاً علي ، فحاولت ان اكتب في الصحف حقيقة المسألة ، او ان ادلي بمحدث لاحد محرريها ،

فأيت علي ذلك ، ورأيت انك عاوت مدير الجامعة اكثر مما عاونتي ، وانت
تعرف اني على حق وهو مبطل ، فوقع في نفسي ان اشكو المستشار مباشرة
ثم اعرض عليك ماتم ، فقال : اما والامر كذلك فلا يسعني إلا ان امشي
مك ، ولعله كان يعرف ان المستشار يعمل مع السيد جميل مردم بك ،
بواسطة ترجمانه ، على إقالة الوزارة ليتولى الحكم ، فرأى ذلك خير وسيلة
للخلاص منه .

وكان من اثر كتابي للعفوض السامي ان وقع التحقيق عن المستشار
فثبتت صحة اقوالي فيه ، واquil من منصبه بعد نحو عشرة ايام . وكان
ذلك بفضل المسيو بونسو . ولم يمهّد فيما علمت ان اقل مستشار في سورية
وابنان في عهد الانتداب من اجل خلاف مع وزير . وربما كان كل من
تولوا الوزارات الين عبركة مفي فسددوا وقاربوا واتفقوا مع مستشاريهم ،
ولو كان الاتفاق على مضض ، وأنا غالب مستشاري فقلته ، ولجأت الى الطرق
القانونية في شكواي منه ، وذلك بعد ان اغضبني مرات واغضبته ، وهذا أيضاً
من فضل المسيو بونسو العاقل الذي لا يفر بمن يكلمه بالمعقول .

جاءني المسيو راجي مستشار المعارف بموازنة الجامعة السورية ، وكان
من اعظم المنتدين عطفاً عليها وعلى رئيسها للصدّاقة بينها . وكان هذا يهدبه
في كل فرصة هدية عظيمة يستديم بها صداقته وحمايته للجامعة — ورجاني أن
اصادق عليها بسرعة فألقيتها في القمطر ، وجاء بعد يومين يطلبها ، فقلت له :
لاني لم انظر فيها ، وبعد تسويف ما طال اكثر من اسبوعين ، وهو يراحمي
بالحاح ، مللت منه فنظرت فيها فاذا هي تحمل في مطاويها اسرافاً عظيماً
ما توقعت ان اري غيره ، وفي الامكان أن يقتصد منه خمسة وسبعون الف ليرة
ولما عدت واجتمعت بالمستشار قلت هذه الميزانية عمل اخرق والاسراف
فيها ظاهر فقال : أنا الذي نظمها ، فقلت : ولو كنت أنت ، ففضب وأظني في ذاك
اليوم قلت له : أرى أنك لم تطالع على ترجمة حياتي : فقال : وكيف لا .
قلت : لاني على ثقة أنك لا تعرف دقائقها . اعرف يا صاح أني مازلت منذ

خرجت الى معترك الحياة احارب الظالمين والمرأشيين والسارقين من الموظفين ، وقد كتبت ذلك في كتيبي وفي الجرائد والمجلات التي حررتها أو آذرت بها ، ودعوت الى اسقاطهم حهرة في المجالس والمجتمعات ، وتحملت في سبيل دعوتي كل اذى وأقيمت علي القضايا ، وابتليت بأشد البلايا ، وليس من نيتي الآن أن اناقض نفسي ، فأعمل في آخر أيامي ما يخالف ما عملته ودعوت اليه في أولها ووسطها . ليس عندي صندوق أدفع منه الهدايا لمن أحاول استمالة قلبه ، أنا صحفي بيضاء ، وجبيني ناصع ، وأجري على بصيرة ، ولا أخاف أحداً إلا ضميري . فلما ذكرت لفظة (الهدايا) احمرت اذنه الواحدة ، حتى صار لونها احمر اذكن ، وأخذت تمضطرب كرقاص الساعة . فتركتني بدون ان يسلم عليّ وخرج مغاضباً ، وراح من ساعته يشكوني الى حاميه المندوب . ومن الغد كلم المندوب رئيس الوزراء ، ونقل له ما قلته للمستشار ، فقال : إنه لم يبلغه ما جرى ، وماذا يقول لي وأنا ثقافتي افرنسية وعن الفرنسيين أخذت . فقال له المندوب : صحيح هذا ، وأنا اجتمعت معه مرتين ، فرأيتُه حسن المأثي ، لطيف العشرة ، وما عرفت السر في ان ييؤده المستشار بمثل هذا الكلام القاسي . فقال الرئيس لا بد ان يكون المستشار فاه بأشياء اغضبت الوزير ، فأجابه هذا الجواب ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، وما صادقت على الموازنة او ترفع منها الزوائد ، فاضطر رئيس الوزراء لاقرارها حسماً للنزاع وارضاء المندوب ، ولأنه لا يحب ان يفضيه من اجل مبلغ زائد في ميزانية الجامعة .

وكثيراً ما كنت اطرح في القمطر اوراقاً يبني المستشار ان ابادر للمصادقة عليها ، لعلمي بأن فيها اشياء لا يرتاح لاقرارها قلبي ، وتنطوي على اسرار صعب كشف غامضها . واذكر اني حققت مرة سيرة إحدى معاملات دمشق فثبت لي ان في سلوكها بعض العهدة ، واحببت نقلها إلى مكان قريب ، فراحت إلى وكيل المندوب وترضته فكلم رئيس الوزراء بشأنها ، فرجاني هذا ان اصرف النظر عن ابعادها ، كما التمس مني المستشار ذلك واكثر

عليّ الشفاعة بها ، فضجرت وخرجت عن اعتدالي وقلت له : ابلغ سماعة وكيل المندوب ان وزارتهم لا تساوي في نظري شيئاً ، كيف تحموت معاملة ثبت بتحقيقات الشرطة وغيرها انها سيئة السيرة ، وتردوت كلام وزير احب ان يطني مسألة قدرة بإبعاد المعلمة عن المركز ، وكان الواجب طردها من سلك التعليم بدون توقف ، واكدت عليه ان ينقل كلامي هذا إلى الوكيل ، وفهم اني فهمت ما جرى ،

ومثل هذه المسائل كانت تؤاني كل الألم وإطالما همت بالاستقالة لولا ان كان يحول دون امضاء ما ارغب فيه صديقي الاستاذان مصطفى عمر وشفيق جبري ، وكأنا من اعظم رجال الوزارة ويدي اليمنى فيها ، فأرجع عما قصدت حباً بالمصلحة ، وكان الخير في هذا التصبر والصبر ، لأنّ المستشار اقبل بمدد مددة ، وتفرغت للعمل على ما احب بدون عائق حتى آخر ايام الوزارة .

المشهور عن الفرنسيين انهم كالصربين اضعف الالم في معرفة الجغرافيا ، وقد لا يحسن المتعلم منهم جغرافية بلاده دع غيرها . وكثيراً ما وقع لي ان تحدثت في فرنسا إلى بعض اهل الطبقة المتوسطة فكانوا يستغربون ما اقصه عليهم من أحوال الديار الشامية ولا يعرفون اين هي من مصورات البلدان ، وكنت اراهم اجمل ناس بأثم الشرق عامة والمسلمين خاصة ، ورأيت بعض المنورين منهم في عهد الانتداب في الشام حاولوا في دائرة اختصاصهم ان يدرسوا ، فأتي بعضهم بنتائج حسنة ، ودونوا كتباً من ذلك في الآثار والاقتصاد والعادات ، تألفت منها مجموعة والتعمق في مدوناتهم يقل ، وبفوقهم الانكليز السكسونيون في ذلك

كان بعض من ألقام في السفر والحضر إذا سألوني عن أشياء وأخبرتهم بما أعلم ، يظنون اني اتزود فيما أروي ، وأستملي من خيالي معظم أقوالي ورأيت بعض الاوربيين يمتقدون أننا سود البشرة كالزنوج - والانراك لفرط ادبهم يطلقون على الكلب الاسود اسم (عرب) لانه أسود كالعربي

بزعمهم — ومن الغربيين من يعتقد أن أهل سورية يأكلون البشر ، ومن يرتحل منهم إلى سورية يمدونه كالذاهب إلى أرض واق الواق ، فإذا عاد إلى أهله سالمًا هناك أصحابه تهتئة من دخل منطقة الخطر وخرج سالمًا .

كنت مرة في لوزان نازلاً في منزل كان فيه ممي سيدات وسادة من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، فجرّ الحديث على المائدة إلى الكلام على الاسلام ، وأوردوا عليّ المطاعن التي وجهت إليه ، فكنت أفندها ولا سيما مسائل الزواج وتمدّد الزوجات وابين فيها حقيقة الدين ، وازجم لهم ببعض آيات الكتاب العزيز ، وأورد لهم شواهد من التاريخ والاحوال الحاضرة ، فيجبون من هذا التباين بين ما يسمعون مني وما يروونه عن غيري . ودام هذا الحوار عدة ليالٍ ، فكان معارفي هؤلاء يستغربون أقوالي ، ويتلطفون فيقولون إنهم لا يشكون في صدقي ، فمن أين جاء هذا التناقض إذًا ؟ فكنت أقول لهم إن ما قرأتموه هو مما كتبه رهبان المصور الوسطى ، وما زلت متناقضون إلى اليوم حقائق مسلمة ، وما هو إلا مما أملاه التعصب القديم ، ومن مصلحة الرهبان ألا يقولوا غير هذا ، وألا يسمعوا غير سوء القالة عن الاسلام والمسلمين . وبهذا علمت علم اليقين أنه رسمت للاسلام وأهله صورة قبيحة جداً في قلب كل غربي ، وأن العرب والمسلمين عامة مقصرون في هذا الباب ، وكان عليهم أن يمددوا إلى التعريف بأنفسهم وبدينهم وتاريخهم ، كما تفعل أصغر الأمم شأنًا . وكثيراً ما اشتبهت لو انشئت مجلة باللغة الفرنسية والانكليزية ، تبين حقائق الاسلام والعرب ، ولصحح ما جاء ويحيي في الكتب الافرنجية من الأغلاط ، وما يقرب كل يوم من الهفوات الفاحشة إلى ما ينشر في الصحف والمجلات .

وقد انتبه إلى ذلك حكيم عظيم من حكماء فرنسا هو غستاف لبون فارتأى أن يمد النظر في كل ما يدرس من مادة التاريخ في مدارس فرنسا ، ولا سيما تاريخ العرب والاسلام ، حتى لا يتعلم أبناؤها تاريخاً محرفاً مكذوباً

وقال مرة : إن مدينة فرنسا مدينة بأمور كثيرة للعرب وأن الفرنسيين لا يشيرون إلى ذلك إذ يمد بعضهم الاعتراف به مما يتنافى مع حب الوطن والوطنية .

كانت الكتلة الوطنية ، في آخر أيام وزارتي الأخيرة ، كثيراً ما تهيج الطلبة وتحملهم على الاضراب والاستخفاف بالمدارس وقوانينها واسانذتها ومديرها ، فكنت انصح سرّاً لبعض اصحابي منهم ، وارجوهم ان يتركوا الطلبة في دروسهم حتى لا يشتغلوا بما يصددهم عنها ، فيخسرون انفسهم ، ويخسرهم اهلهم ووطنهم . واضربت مرة مدرسة تجهيز دمشق وتجهيز حلب ، وجرت فيها امور ثمت بالنظام ، فجاءني الى داري ترجمان المستشار ، ومعه كتاب كتب على الآلة السكّانية ، مفاده صدور امري باغلاق تجهيز دمشق الى اجل غير مسمى ، فاخذت الكتاب واستدعيت المستشار فقال : لا بد من الاغلاق . فقلت له : إن في اغلاق المدرسة تحدياً للطلبة ، وقد تسري دعوتهم الى سائر المدارس ولا سيما الابتدائية ، فنقع في مأزق اصعب . فأصر على تنفيذ الاغلاق ، وقال إن المندوب يرى ذلك ، فاجتمعت بالمندوب وقلت له : إنا بذلك نزيد النار اشتعالاً ، وليسمح لي سماعة المندوب ، وكان المسيو سولومياك ، وهو من خير المندوبين في دمشق يشبه الكولونيل كاترو والمسيو لافاستر بحزمه وحسن ادارته وعفة نفسه — ان اقول له إني اعرف روح البلد وادق ان العنف في هذه الاحوال لا يجدي شيئاً وانا وإن كانت الامور السياسية من شأن المندوب ، ارى هذه المسألة مسألة ادارية ، وللوزير ان يتكفل بحلها . فقال : هل تتحمل انت تبعه عدم الاغلاق ، فقلت له : نعم أنحمله ، اتركني اعمل وحدي . فاستدعيت من الغد اساتذة مدرسة التجهيز وقلت لهم إن النية اغلاق المدرسة وإذا اغلقت لا يعلم متى تفتح ، وأبنت لهم ما ينتج من الضرر من ذلك للطلبة ولهم ، بقطع رواتبهم مدة التعميل ، وأوعزت اليهم ان يتطوعوا كلهم لاعادة الطلبة الى الدروس ، ومن الغد كانت الصفوف تامة وشكرني وقال : حقيقة إنكم تعرفون اهل بلدكم .

أما مدرسة حلب فإن مستشار معارفها رأى طرد ثمانين طالباً منها ، فاستدعيته الى دمشق واستدعيت معه مستشار المفوضية المسيو بونور وغيرهم وقلت : إني غير مستعد لأن أطرد أحداً ، لأنني بطردي ثمانين طالباً أضي على مستقبلهم ، وأدعو أهل حلب أن يثوروا على الحكومة ، فما أحب أن تشب ثورة في الشهباء ولا في غير الشهباء ، فسرّ مستشار المفوضية من كلامي ، وكان يعرف مثلي أن مستشار حلب غير أهل لمنصبه وان رأيه هذا من الآراء « الخنفسارية » فلما صدر مني رفض الاغلاق تهلل وجهه كثيراً . وأذكر أنني لم أسمح إلا بطرد طالب واحد طرداً موقباً ، وعادت المدرسة الى الانتظام في سيرها .

ومن الغريب ان هؤلاء الطلبة المساكين الذين كانوا يحملونهم على مخالفة النظام ، ويأعدون بينهم وبين دروسهم ، ويعلمونهم التهجم على أساتذتهم ، عادوا فانقلبوا على الكنتلة نفسها لما تولت الحكم ، وكانت لهم يد في زحزحتهم عن كراسيهم ، واهانوا بعض زعمائهم . وهذا ما كنت احذر منه واطالما قلت لبعض اعيان الكنتلة : إنه لاثقة بصداقة العوام لأنهم لا يستجوت من نفص ايديهم من ايديكم يوم تنقطع فائدتهم المادية منكم ، وكذلك الاولاد فان افكارهم غير مستقرة ، فليست مظاهرهم قوة لكم . وحكومة تستند الى مثل هذه الركائز محكوم عليها بالانهيار ، فحققت الأيام قولي .

الحجّ عليّ رئيس الوزراء بتعيين معلمة افرنسية في ميثم الاناث ، وما كان لها راتب في موازنة هذه الدار . ولم تجر عادتنا في المدارس الابتدائية أن نعين معلمات من غير الوطنيات . ورأيت المستشار يتشدد في رفضها ، ويشير الى ان سيرتها غير حسنة ، والرئيس يزيد إلحاحاً حتى اضطرني الى ان اقول له إنه لا ينجح في مساعيه ، وان من الخير له أن يصرف النظر عن كميبتها ففعل ، وبعد أن كاد أحدنا يغضب الآخر ، وقلت له ما قاله المستشار : هل يرضيكم ان تكون معلمة يتيمانكم سيئة السيرة ، وعرفت سر

التعيين من كلام المستشار فأغضيت وتغافلت (وأنفك منك ، وإن كان اجدع) .
جاءني المستشار كوله يريد عزل المسيو بورين مدير الدروس الفرنسية
في تجهيز حلب . وكنت أعرف أن امرأته كتبت مقالات في جريدة
(لاسيري) الصادرة في بيروت غضب منها بعض الفرنسيين في الشهباء ،
فأحبوا الانتقام منها بطرد زوجها من وظيفته . وكانت حجته لاقالته أنه
لا يحسن التعليم ، وإن الطلاب يشكون منه ، فقلت للمستشار إن تعيين
الموظفين الفرنسيين هو من خصائصكم ، وإن كان الموظف عندنا من ابنائكم
يعد سورياً في العرف ، لأن راتبه من خزانتنا ، ولا يعين إلا بتوقيعنا
وأنا لا أريد أن أقبل هذا الاستاذ لأسباب منها اني عرفته ينفع الطلاب ،
وسمته مرتين في قاعة التدريس يدرس تدريساً حسناً ، وقد اخذ عنه
كثيرون من أبناء حلب لفتكم ، وما سمعت شكوى منه ، فاذا كان على
ما يزعمون من ضعف ، فما بالهم سكتوا عنه ثمانى سنوات ، وهو في
الخدمة ، ولم لم أعرف عيوبه إلى اليوم ، ثم إن الرجل مصاب بمرض
القلب ، إذا افلته يتأثر فيهلك حالاً ، ولست مستعداً لأن اقتل استاذاً
إرضاءً لخاطر من غضب عليه . وانا اعرف « يا سيد » ان هذا الانتقام
موجه إلى امرأة الرجل في شخصه الضعيف ، فان كان لهم ما يقال معها
فليحاسبوها على ما كتبت ، وهذه المحاكم مفتحة الأبواب لهم .

وناقشي المستشار مناقشة طويلة ، فأصرت على رأيي ، وكنت ارد
عليه بلطف ، لأنه كان لطيفاً ، وما استطاع ان يرحل الاستاذ الفرنسي
عن مقره ، وعجب من التزامي له . ولما نجوت من جمل وزارة المعارف
آلة انتقام من رجل شريف من عمالها ، جاءني صاحبة المقالات إلى
المكتب الرسمي وارادت ان تقبل ركبتي ويدي ، فتجاهلت ما وقع ، فقالت :
علمت بكل ما تفضلت وقلته بشأن زوجي ، وبوقوفك الشريف في الدفاع
عنه . واقسمت انا معشر السوريين اقرب إلى العدل من الفرنسيين . فقلت
لها : إنا نعلمنا هذا من اجدادنا ، ومن فلاسفتكم وعلمائكم .

لم يرتق فرع من فروع الادارة على عهد الانتداب مثل ارتقاء الدرك والفضل في ذلك للقواد المحنكين الذين تلمسوا اصلاح هذا السلك ، وكانوا من طراز عال علماً واخلاقاً وحنكة . جاءني وانا في مكنتي في قصر الحكومة الكولونيل بريفو قائد الدرك مودعاً . وكان من هذا العيار النفيس الذي ذكرت . ويذكر له اهل دمشق في احدي المظاهرات حادثة دلت على نبل وكرم أخلاق ، ذلك ان احد المتظاهرين رشقه بحجر في جبينه فأدماه ، وجيء بالضارب فانكر انه هو ، وقال إن الضارب طفل رآه ، ولو كان غيره لأمر في الحال باطلاق الرصاص على المتظاهرين . فقلت له : إنك يا حضرة الكولونيل لا تعرف أهل هذه الديار بقدر ما اعرفهم انا ، ولاني على ثقة ان مئات منهم يحبونك على البعد ، وهم لا يعرفون شخصك بل يعرفونك باعمالك ، ويعجبون بما قمت به من اصلاح الدرك ، حتى كان هذا الاثن الذي لم تشهد مثله ، نحن ياسيدي العزيز امة لنا مالمسائر الاثمن من محاسن ومساويء ، ولكن شيئاً واحداً ما عهد فينا وينافي طباعتنا وهو نكرا ان الجليل ، فلا نفي على وجه الدهر من بسدي الينا يداً ، بعد عنا او اقرب . ولما كنت أنت احسنت لهذا القطر ، فالقوم يعجبون بك ، ويتبعون إعجابهم بك بالثناء عليك والدعاء لك ، وأنا ادعوك بان تتمتع بالصحة حيث كنت انت وعيالك وان يكون النجاح قرينك في كل عمل تتقلده ، فتأثر من كلامي ودمعت عيناه . وددت لو امكن تقديم هدية صغيرة اليه باسم الاهلين تذكراً له على عمله المجيد ، ولكننا الشعب اعتاد ان يصرف الالوف في أمور غير منتجة ، ويففل عن القيام بأمور تعد في نظر العقلاء من الواجبات .

زارني الكولونيل برت قائد موقع دمشق ورئيس اركان حرب الفرقة يقترح عليّ ان ادخل في سلك التعليم فتاة مسلمة كانت امها جارة وقال لي : إن امها فقيرة وعلمتها ، فميتها في الدرجة التي تليق بها . ونشأت بيننا صداقة واخذنا نتزاور وما قال لي : لاني عرفتك وعرفت اخلاقك وصلاية عودك من التبليغات السرية التي نبلغها في حركة الادارة والسياسة ،

وما يقع من الحوادث الجسام ، واطلعت على ما وقع بينك وبين مستشارك ، وما كان من تغلبك عليه بالحق . ومما قال لي : لبي اشبه المسيو كلنصو رئيس وزارة فرنسا زمن الحرب العامة ، بصورة الوجه وصلابة الرأي . واستفدت منه اموراً كثيرة لأنه كان بحر معرفة وتجربة . وتفاوضنا مرة حال رجل كان هو يستقرب ما صدر منه ، فلما قلت له إنه اسرائيلي تونسي اهتز اهتزاز الطروب واجابني : الآن سریت عني ورفعت الاشكال ، لأنني كنت استفظع عمله ، واستبعد صدوره من افرنسي الاصل . وحقيقة إن الدخلاء على الفرنسيين كانوا دائماً احط من الفرنسيين العربيقين في جنسيتهم . فحسن الخلق والتهديب تنجليان في الفرنسي غالباً . ولطالما استبان لي الأدب في العربيق في افرنسيته ، حتى ولو كان من الطبقات النازلة ، اما الدخيل عليهم فيكون على الاكثر وضيع النفس إلا من رحم ربك . ولا عجب ان يكون الاصلاء على هذه الاخلاق الطيبة فهم امسة تتعلم وتهذب منذ احيال ، والمدينة متسلسلة في اعقابهم .

قال صديقي الامير طاهر الحسيني لاحد رجال الانتداب بعد مرور سنين عليه في سورية : لقد خدعتمونا بمن كان يفد علينا من رجالكم ، فكنا نظن ان جميع رجال الحكم والادارة من ابناء فرنسا هم من عيار القناصل الذين كانوا يشخصون اليها ، اخلاقاً وعلماً ونزاهة وسياسة ، فاذا عندكم مثل ما عندنا وعند غيرنا . وقلت الامير ان رجال السلك السياسي هم طبقة مختارة في فرنسا ، وقد يكونون من ابناء الاسر القديمة ، وعلى شيء من السعة ، لا يسفون الى ما يُسِفُ اليه غيرهم من ابناء الطبقات الأخرى ، ممن كان يقع نصيبهم بواسطة الاحزاب والمحافل الماسونية وغير ذلك .

وطالما رأينا بعض رجال الانتداب في الشام ممن تولوا مناصب عالية ، وهم في الاصل من رجال السلك الدبلوماسي على اخلاق حسنة وكفاءة ممتازة يملأون كراسيهم كما نقول ، يحبهم الاهلون وهم يحبون إليهم فرنسا بسيرتهم الطيبة . عرفت كثيرين من هذه الفئة ومنهم صديقي المسيو لافاستر .

فقد قضى سنين طويلة في ادارة المطبوعات ومندوباً للعفوض السامي في حلب ودمشق ، فكان مثلاً صالحاً في الجمع بين مصلحة حكومته ومصلحة وطننا ، ومن أقدر من عرفوا معنى التعاون النزيه .

كان يقصدني في وزارة المعارف لحسم بعض مسائل تتعلق بولاية حلب فتفاهم حالاً ، وما كان أقل من أعظم الوطنيين غيره على حلب ومصلحة أهلها ، وكنت اذا رأيت هذا أعجب به وأقوله له وأشكره على هذه الماطفة الشريفة وأبادر بما في طاقتي لاجابة طلباته كلها وربما زدت عليها . وكثيراً ما كنت أقول في سري : حبذا لو كان جميع المنتدبين كصاحبي لافلستر يبذلون من قلوبهم وعقولهم ، لخدمة ما وكل اليهم انجازها في أرضنا .

ليس كل من ينتقدون هم على صواب ، ولا كل من يمترضون على الفرنسيين يحققون ما يقولون . الديمقراطيات تخرج رجالاً ، والملكيات تخرج رجالاً ، ومن كان جوهره جيداً فمهما كان نوع الحكم الذي درج في ظله ينفع أمته ولا يضر غيرها . وفرنسا مهما كان حالها لا ينكر عليها عاقل بيض أياديها على العلم ، وهي ، مهما قال فيها الفاضبون عليها ، مهد النظريات الاجتماعية والسياسية . ونحن السوريين إذا اختلفنا مع بعض الحكومات التي تولت الأمر هناك من أجل قضية استقلالنا فالانصاف يتقاضانا ألا ننسى فضل القوم ، على ما ذكرت ذلك مفصلاً في غير محل من هذه المذكرات .

الفرنسيون يفلطون كما تفلط كل أمة ، ومن أغلاطهم السياسية نحو أنفسهم أنهم دخلوا في هذه الحرب الناشبة على ضعف استعدادهم لخوضها ، لا جرم ان العدل يقضي أن نعترف لفرنسا بحسناتها ، ونذكر إلى جانبها غلطاتها . وأي دولة في النصرانية والاسلام ، وفي الشرق والغرب ، لم تسجل عليها سيئات كما دونت لها الحسنات .

طفي حب المسادة على أمم الغرب كافة ، وكان لفرنسا نصيب منه ،

ففسد بمض أولى الأمر فيها ، وفست صحافتها ، وضمت أوضاعها وميزاتها .
اعترف عقلاؤهم بذلك مؤخراً وأقروا أن الواجب معاورة كل ذلك بالإصلاح
والنظر ، وتنشئة جيل جديد على غرار الاجداد ، يراعون الفضائل ، ويدركون
معاني الوطنية السامية .

كنت على مثل اليقين يوم درست أصول الحكم النيابي أو الحكم
الجمهوري والشعبي أن هذا الاسلوب بالنظر لما أقرؤه في صحف الغرب ،
وأعرف من أسرار هذه المدنية ، مالاق من كل وجه لجميع الدول ، وكانت
سويسرا وانكلترا في مقدمة من حسن أثره فيها ، لان الحرية تفلتت في
أبناء تينك الأمتين وتأسلت فيهم الشورى والغرام بها ، فكان كل فرد
فيهم مشتركاً فعلاً في الحكم ، ويفار على هذا الطراز منه كأنه هو له
وبدونه يموت ويفنى .

أما الولايات المتحدة وفرنسا حيث كانت الديمقراطية أيام ومواسم فان
الحكم النيابي في جوهره عندهما حكم القوضى ، واشتت الكلمة ، والاضطراب
الدائم ، والحزابات المستديمة وسوء الاستعمال والعبث . وكل من درس
أصول انتخاب أعضاء مجالس النواب والطرق التي يسلكونها للنجاح ،
وتسلكها الأحزاب والانصار ، بدون نظر الى حياة المرشحين وعيادهم
الذي يؤهلهم لتحمل هذا العبء الخطير — يدرك أن جودة الاختيار تكاد
تكون مفقودة ، وقد لا يصل إلى كرسي النيابة الا الوسط في علمه وتجاربه
وذمته ، ولذلك نصير أزمة الحكم الى أيدي بضعة من شياطين الأئس
في كل أمة بصرفون الامور على هوام ، والباقون تبع لهم . ومجالس
تتألف في حقيقتها من أناس متوسطين بقرانهم ، لا يبالون الشرف الحقيقي ،
هيات أن يحصل منها الاثر النافع من كل وجه ، ولا يرجى منها إلا أن تركب
ما يؤذي ، والنفع منها قليل ، ذلك لان الوسط لا شيء في هذا الجهاد العالمي ،
وما الشأن إلا للاشراف الممتازين من أرباب البصيرة . وكاد العقلاء في فرنسا

يجمعون منذ سنين على ان الديمقراطية افلست وذكروا من مساوئها الشيء الكثير ، وصاحب الدار ادرى بالذي فيه ، فدلوا على أن الفاظ الحرية والاخاء والمساواة كلمات جوفاء ليست إلا طلاء غراراً بلمعانه ، وخضاباً ينصل ولا يثبت على الحوادث .

إن من يصل الى منصبه مهما كانت درجته بقوة المال أو الجمال لا بد أن يستحل أخذ ما أعطي ، وقد لا يمطي إلا من يحب أن يأخذ ، ولا يتوقع من رجل هذه حاله إلا الانفاس في أمور خسيسة ، لانهمه كثيراً معالي الامور . ومنذ عرف تاريخ البشر كانت نفسية أهل هذه الطبقة فاسدة منحرفة . ومن ارثى صنع ما أمر به ، ولا خير للمجتمعات من اص ولا مراش .



خيالاتنا

لما زرت باريس بعد الحرب العالمية ، رأيت أناساً من الطبقة التي تفهم بحسب الظاهر لم يبلغها ما جدد من العلاقات بين سورية وفرنسا بعقب الحرب ، ومنهم من كانوا لا يعرفون أن لدولتهم جيشاً في أرضنا ، وأن فرنسا عهد إليها النظر في حال الديار الشامية مع انكاثرا ، بل بلغ الجهل ببعضهم أنهم لا يعرفون مركز سورية من مصور الامم ويمسدونها من أرض الترك في آسيا ، كما كان يقال لها على عهد العثمانيين ، .

ولدن عودتي من تلك الرحلة أسررت لبعض المشتغلين بالمسائل العربية أن القوم في باريس لا يعرفون ما يجري في ديارنا ، فالأولى أن توفدوا رجلاً أو اثنين ليقوما بنشر ما يجب أن يعرف عنا ويحثكنا بالطبقة التي يرجع إليها الحل والعقد عسى أن يكون من ذلك فائدة ، وقصصت عليهم بعض ما رأيته وصمته . وبعد أيام زارني أحد أصدقائي وهو زعيم عظيم من زعمائنا ، وكنت قدمت استقالاتي من وزارة المعارف ، وعرض عليّ الرحلة الى باريس في المهمة التي ارتأيت ايفاد رجل لاطلاع الفرنسيين على حقيقة مطالبنا ، وذلك مقابل الف ليرة سورية . فسألت صاحبي إذا كان يهزل أم يجسد فقال : وهل المجال مجال هزل ؟ فأجبتني : أراكم لم تهتدوا الى الطرق الموصلة للغرض ، فالمسألة أعظم مما تخيلون وبودي لو جمعتم مقداراً عظيماً من المال أولاً حتى اذا توفر لكم ، وضمت النفقة اللازمة مدة طويلة ، يهتدوا الى رجل أو رجلين من رجالنا بهذه المهمة ، ويمدات بما يلزمها هناك . وأرى أن من يراد ارساله في هذا الأمر الخطير ، يجب أن تأخذوا عليه العهود الاكيدة بأن يخدم الغرض الذي انتدب اليه فقط ، ومن أهمها ألا يقبل هدية من أي انسان ، وبأي صورة من الصور ، وألا يتقلد

حياته منصباً ما دامت سياسة البلد متقلقلة على أن تتكفل الجمعية بميشه وتربي اولاده حتى يكبروا ، وإذا مات لا يتركون للأقدار ، وإذا خان عهدكم تقتلون . هذا ما أراه لمصلحة سياستنا ، أما الألف ليرة التي تعرضها عليّ فهي لا تكفي لاستمد للخروج من بلدي ، ، ولو كنت غنياً لتوليت هذا المهم وأنفقت كل ما يقتضي له من النفقات من مالي حتى تصل امتي الى امنيتها . الجدل قليل وبالإلصاف في أفعالنا ، نظن المعضلات هينة الحل على ما يصوره انا الخيال ، ولذلك كانت الخيمة ملازمة أكثر أعمالنا .

انتدبت خلال الثورة السورية مع زمرة من أهل دمشق لنلتبس من المفوض السامي رفع ضرب المدينة فتعرفت في القطار الى أحد أذكفاء الطليان المثقفين فسألني عما كنا نفعل في بيروت أنا ورفقائي فقلت له : لاشك أنك قرأت في الصحف الغرض من الوفد قال : عرفت ذلك ، ورايتكم لم تهتدوا حتى الآن الى الطريقة الموصلة الى مطالبكم في الاستقلال ، إنكم شعب لا يعرفكم أهل أوروبا حق المعرفة ، ولا يتصورون ما نرمون اليه من المقاصد ، ولا ما بلغتم من درجات الرقي ، فعليكم اذا أردتم أن تفلحوا في رسالتكم أن تتخذوا أسباب الدعاية على نحو ما فعل غيركم من قبل . قال لعلهم أن الطليان قد وفقوا الى تأليف وحدتهم ، وما كان تحقيقها بالأمر السهل لما كانت تلتقي من المقاومة . وقد اشتغل لها ثلاثة أجيال منا حتى حصلنا على النتيجة . وكان أجدادنا يصرفون ثلثي جهودهم خارج ايطاليا والثلث الآخر في أرضنا ، ويرسلون أشخاصاً بمنازين الى العواصم الكبرى في أوروبا للاختلاط بالنواب والشيوخ والوزراء ورجال الصحافة ، يلقون محاضرات ويكتبون ويستكتبون مقالات يتلطفون فيها بعرض قضيتنا ، وبطول الزمن استجاشوا لهم أنصاراً ، وأسمعوا صوتنا الى من لم يكن يسمعه . ولما قمنا بالعمل الحاسم كان من عطفوا على مسائلنا قوة الظهر من ورائنا يدفعون عنا خصومنا . فكان عمل أجدادنا وآبائنا لإفهام الشعوب

والحكومات أننا أمة نصبو الى ضم شملها ، وأنا أهل للقيام بهذه الجامعة
وهي حقنا الصريح الذي يجب ألا ينازعنا فيه منازع .
قال وهكذا قامت وحدثنا وأنتم لم تأتوا من أساليب الدعاية شيئاً يعتمد
به على الوجه الذي توفرنا عليه اعواماً طويلة وفادينا ضروب المفاداة
في سبيله . وأهم ما يجب أن تلجأوا اليه ابلاغ أمانكم الى من يجب
أن يفهموها على جليتها وأن تثبتوا اذكم أبناء ذاك الماضي المجيد ، وأصحاب تلك
الحضارة المشهورة ، تودون اليوم أن تستميدوها بأنفسكم ، وظهروا للملاء
أنكم أهل للحياة . درس مفيد اللقاء علي وعلى رفاقي ذاك الغربي .
وأظننا لو جربنا على التعريف بنا وبمطالبنا أولاً وجمعنا ريبالاً من كل
مواطن لما احتجنا الى ثورة ولكننا أمة قد تبني أمورها على الأُحلام
تقول كثيراً وتفعل قليلاً



اصطحاب الـغنياء

سأني السيد سمد الله الجابري ، قبل أن يتولى للكتلة الوطنية وزارتي الداخلية والخارجية بأعوام ، لماذا أصحب عبد الرحمن باشا اليوسف ، والمعروف من نزعتي الابتعاد عن الأعيان ؟ فقلت له : إن صداقتي له متصلة بصداقة أبيه وجده لأبي ، وهو لا يشبه أكثر الأعيان الذين جمعوا ثرواتهم بالطرق المهودة ، وزعمته إنما انتهت إليه بالارث ، وعهده أقرب إلى الخير من بعض أمثاله ، ولم يعرف عنه أنه استحل الاعتداء على حقوق الفلاحين ، ولا عمد إلى التزوير في استصفاء مال أحد وإيقاع ضرر به ، وكان يفضل على الفقراء ويبرم ، وقد يهب المساكين وأبناء السبيل من الصدقات كل سنة ما لو احصي لكان شيئاً عظيماً .

ثم إنني أعتقد أن صحبتي لهذا النبيل قد تسوقه إلى الخير وتنفعه ولاضره ، فانظر إليه وكان طاماً على تأسيس مدرسة زراعية عملية في تل مسكن إحدى مزارعه في مرج القوطة ، وأن يقف عليها أراضي واسعة يتعلم الفقراء فيها علم الزراعة على الأصول الحديثة ، وتكون دعامة من دعائم التمدن في هذه الديار . فعاجلته منيته قبيل أن تتم امنيته .

وما خلا عبد الرحمن باشا من اناس كانوا يظهرون أمامه بمظهر الغيرة على مصلحته ، فصارحوه بأنهم يستغربون رضاه عن تصدري في مجلسه ، ولاموه على استماعه لحديثي ، وعلى العمل أحياناً بآرائي . فأجابهم إنه رأيي أعف عن ماله ، ولا اسف إلى شيء مما يسف إليه بعض حواشيه ، وأدعياه صحبته ، وأنني ما طلبت شيئاً منه ، وأنه لو كان يعلم أنني يهون عليّ أخذ هداياه لأعطاني كثيراً ، وأنه يحق لي أن ألتصبر مجلسه لأنني من أعلم

من يختلف إليه ، وأنه يرجو ان أكون لأولاده في مقام الناصح المرشد ، ونصيحة واحدة مني لهم لا يعلها شيء في نظره . قال ولكل هذه الاعتبارات أحترمه واجله .

وقلت لابن الجابري : وأناهل أعطيت عهداً على نفسي ألا أصحب حياتي غير الصعاليك ؟ وثق أن اختلاطي بطبقة الأعيان يعدل بمض التعديل في مشاربهم ، على أن من صحبتهم من هذه الطبقة كانوا إلى الخير غالباً . وكان استاذي الجزائري كثيراً ما يوصيني بأولاد الأعيان فيقول : إذا أردت دفع البلاد إلى الترقى ، فبادر بادخال النور على أبناء الأعيان ، فمندم المال والجاه ، وإذا ما علموا حملوا إلى أهلهم بذور الارتقاء ، وأصبحوا أعضاء نافعة في خدمة الأمة ، والمتعلم الواحد منهم يحدث ثورة في أسرته .

هكذا كان يرى شيخنا ، وهو رأي شديد فيما أرى ، ولا يتأتى تحقيقه إلا بالاختلاط بأولئك الميون ، والتأليف بين قلوبهم والابتعاد عما ينفرها . وكنت شهد الله كثيراً ما تحاسبني عزة نفسي على عشرة الكبراء في مصر والشام ، وأراني لا أستغني عنهم ولا هم يمنح يزهد في صداقتي ، على حين لا أستطيع مجاراتهم في الظهور بالمظهر الذي تنوق إليه نفسي ، ولا احب أن تكون لهم منة عليّ بحال .

نعم سبق لي أن حاربت أشخاصاً من الأعيان ، كانوا آفات على الوطن يستثمرون الفقير والضعيف ويستخدمون نفوذهم في مضرة الراعي والرعية ، وما كان الاعيان كلهم على هذه الشاكلة ، وكان بعضهم على حالة حسنة ، جمعوا ثرواتهم من التجارة والزراعة ، أو انتقلت إليهم من أجدادهم ، أو من طريق الاقطاعات ، فعمروها وأحسنوا الانتفاع بها . وهؤلاء ليس لك عليهم سلطان ولا يستطيع أحد مؤاخذتهم ، ومثل أولئك الاشراف يظهرون إذا عوملوا معاملة أولئك الظلمة الأجلاف .

في الأمثال : إن الرقيق نطفي أفن الأفين ، أي أن الدرهم نطفي

ضعف ضعيف الرأي . ومن صدق عليهم المثل من لصوص الأعيان ،
فأنا لا أصحابهم إذ لا خير منهم يرتجى ، وما تبغني من فئة مقيمة أبداً على
حوك الدسائس ، والاعتداء على من يهون عليها الاعتداء عليه . ومن هذه
الفئة طائفة كنت أرى من المستحيل زحزحتهم عن أخلاقهم ، ولما وضع
لي سوء حالهم بعد الاختبار قاطعتهم ، وكانوا يدهشون من ابتعادي عنهم ،
ولا يعرفون له سبباً ، ويمدون من الشذوذ الذي ألفوا أن يشهدوه مني
بزعمهم ، وأنا لم أرَ من واجبي بمد أن بلوتهم أن أنفهم بفكر ،
ولا أن أكون لهم سبيحاً يحفون وراءه ، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه .
الخير قليل في البشر ، والغالب عليه الشر ، والانسان كما قالوا مدني
بالطبع ، أي لا يستغني عن مداخلة الخلق فلم يبق إذاً إلا المبالغة في انتقاء
المشراء ، والزؤان على كثرته في صوبة الجبوب لا يحول دون الانتفاع
بالجبات الصالحة منه .

قال أحد رجال الدولة العثمانية في دمشق وقد جرى في حضرته ذكر
أحد أعيانها : نزلت بلاداً كثيرة ، وخبرت حال ايالات ومقاطعات عدة ،
فما وجدت أكثر استرسالاً في الغيبة والتنمية ، ولا أشد إغراقاً في السعاية
والوشاية من بعض أعيان هذه البلدة ، أما الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا
فهما من أقرب الناس إلى الخير ، ولا يخلو أفرادهم من أدب وفضيلة .

والمراد بالأعيان كبار أرباب الاملاك وبعضهم يحرص ابداً على رضا
الحكومة عنهم ، وإنك لتجد في هذا الصنف انواع السخف وضروب الشر ،
وهم لم تمهد لهم سابقة في المكرمات ، لذا دعوا إلى الحسنى شكوا
الفقر ، وإذا اريدوا على الصالحات صعدوا خدودهم ، وما أثر لواحد منهم
ان انشأ مدرسة ، او انفق على تعليم ولد فقير ، ولا على غير ذلك من
الاعمال الصالحة . سألتني بعض الاروام في مصر عما إذا كان عندنا (في مصر
والشام) اناس ينزلون عن نصف ثروتهم لأمتهم ، فكان الجواب سلباً بالطبع

فقالوا : إن من رجالنا من نزلوا عن جميع ثروتهم لأمتهم ، فقلت إنكم اشد حمية واصح وطنية منا .

سأل شيخنا العلامة الجزائري احد كبار تجار بيروت عن اسم والي بلده ، فقال إنه لا يعرفه فقال له : عجيب هو عندكم منذ نحو سنتين ، وأنت لا تعرف اسمه فضلاً عن شخصه ، فقال : أوقائي لا تتسع للبحث عنه ، وليس لي علاقة بالحكومة . فقال الشيخ : في بيروت التفريط وفي دمشق الافراط ، فان اعيان هذه المدينة لا يهتأ لهم بال إلا بالاحتكاك بوالاهم وحاشيته ، صباح مساء ، حتى لبسأهم لقاءهم ، ومنهم من يصدم عن بابه فيتحيلون للدخول عليه ، بكل مال لديهم من وسائل ، وأنتم معشر البيروتيين لا تتقربون من واليكم بل لا تذكرون اسمه .

وشيخنا هذا كان مرة في زيارة والي سورية ناظم باشا ، وقد ورد عليه الأعيان يحيمونه ، فمنهم من كان يقبل يده ، ومنهم من يلثم ذبله وركبته ، وكلهم متهاوتون في حضرته ، متهاكون على الغلو في تمجيده ، فاتقبض صدر الشيخ من هذا الصغار ، فلما انصرفوا انفت إلى والي وقال له : أيروقك أن تحكم اناساً هذه نفوسهم ؟ فسكت والي ، فعاد الشيخ وقال : أما أنا فلا أود بحال من الأحوال أن يكون من أحكمهم من هذا الطراز . اي ان استاذنا لا مأرب له أن يكون والياً على عبيد صغار النفوس . هذه الطبقة من الأعيان التي تفنى في صاحب الشأن ما دام صاحب حول وطول وتعرض عنه كل الاعراض في اليوم الذي يتزع منه الحكم وينقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه .

قصّ عليّ احد الشيوخ ان احد رجال الدولة نصب والياً على سورية فدعاه أحد الأعيان إلى النزول في داره ربناً تهماً له دار خاصة . واغتم ذلك الوجه فرصة نزول والي في بيته ، وكانت مشاكله كثيرة فأخذ يحل

ما يمكن حله منها بواسطة تزيله العظيم ، ولما اعتزل الوالي بعد مدة منصبه ، دفع إليه ذاك المضيف الكريم قائمة ضمنها ما انفقته على الوالي خلال نزوله ضيفاً عليه فاعتذر الوالي بأنه نسي أن يسدد هذا المبلغ في حينه ووعد أن يرسله إلى صاحبه من بيروت ، وبعد أيام وردت على ذاك الوجه ميسأة من الرخام تستعمل للتغوط وكتب الوالي السابق : هذه مقابل ما انفقته المضيف على ضيفه . وعمل ذاك الوجه ان صحح من احط ما يدون .

وكثيراً ما كان استاذي الجزائري يقول إن هؤلاء الاعيان لا يعرفون الكرم والشح غالب عليهم وإذا اضطروا يوماً إلى ان يأدبوا مأدبة لكبير يرجون خيراً لهم من ورائها ، فإن منهم من يقي عياله في مسغبة وتقتير شهراً كاملاً حتى يموض ما انفقته ،



اختلاف اجتهاد

يظهر أن الادارة ابنة التجربة ، وربيبة المِيران ، رائدها العقل ، وموحياتها البدئية ، وملهمتها البيئة . وربما كانت المسألة الواحدة تنحل في وقت حلاً يخالف ما حلت به في آخر . والحلول تبع للمكان والزمان . والادارة علم صعب قد يتفوق فيه من ليس على علم كبير ، وربما أخفق في معاناته صاحب المعارف الجمة ، ومن كان يظن فيه الكفاءة للتبريز على غيره .

لما توليت وزارة المعارف كان من أكبر همي أن أسرح من الخدمة العاجزين الجاهلين من المعلمات والمعلمين . وأن استعيض عنهم بمن يتخرج في دور المعلمين ، أو من أحرزوا الشهادة الثانوية ، وكان من أشد ما حرصت عليه نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى ، ولما أيقنت أن الريف يكاد يكون محروماً نعمة المعارف ، وأهله يدفعون الضرائب أكثر من غيرهم أزمعت أن أوثر القرى بالمدارس الجديدة ما أمكن . وآماني مارأيت من أن ليس في كل مئة قرية زيادة على ثلاث أو أربع مدارس ضعيفة ، فأنشأت ما استطعت من كتاتيب في بعض أمهات القرى علماً مني بأن أهل المدن يتوصلون إلى تعليم اولادهم بما لا تصل اليه ايدي سكان القرى ، وأنه لا يتمذر على أهل الحواضر بلوغ غايته من تعليم ابنائهم ، بما قام فيها من المدارس على اختلاف درجاتها ونزعاتها وان ابن القرية إذا لم تعلمه الحكومة يستحيل عليه أن يتعلم ، والبناء يقوم على أساسه ، واساس النهضة نشر التعليم الصالح في جمهور الأمة .

وعلى هذا خصصت القرى بأ أكبر قسط مما انشأت من المدارس الابتدائية ، واقللت من فتح مدارس جديدة في المدن ، وكنت احاول أن أجعل المعلم المتمكن من صناعته في القرى ، لأن في مقدوره أن يعمل بنفسه مستقلاً ،

وجملت الضعيف من المعلمين والمعلمات في الحواضر لتيسر مراقبتهم وتعليمهم ما تتطلبه منهم مهنتهم . وقد نجحت هذه التجربة . وحاول مرة بعض معلمي الحواضر ان يصصوا أمر المعارف في هذا التدبير ، فكتبت اعلاناً علقته على باب مدير التعليم قلت فيه ان كل من لا يحضر مدرسته في يوم كذا ويأت من الحاكم الاداري في عمله بشهادة تثبت استلامه التدريس بعد مستقيلاً . فلم يبق انسان لم يطلع الأمر ، وكانوا نحو مائتين فيما اذكر وقلت اني املاً الشواغر بمعلمين أجلبهم من مصر ويحملون الشهادات المطلوبة ويرضون بالرواتب المقررة .

وحاولت ان أشرف صناعة التعليم وأعرف القوم ان المعلم مرشد وممدن ، يجب احترامه واكرامه ، وان اهمى الاسباب لترغيب الشباب في هذه الصناعة ، وكان الاقبال عليها قليلاً ، لان الحكومة ما قدرت لضعف مواردها أن تجعل رواتب المعلمين على مستوى رواتب غيرهم من الموظفين في الدولة ، ولم تر من الحكمة ترك رجال الادارة أحراراً وقد يكون من توسيع سلطتهم ضرر على الرعية ، وأقل ما فيه أن تعود السخرة وأخذ الاعانات من الفقراء ، وكانت الطبقات النازلة تترقى بهذه المغارم في الدور الماضي . ولما انتهت مهنتي في الوزارة الثانية لامنى خلني على عنايتي مدة وزارتي بأهل القرى أكثر من أهل المدن في توزيع التعليم ، فأرسلت أعذر اليه وأقول له إن هذا اجتهادي وللمي كنت مخطئاً وارجو ألا يفلط هو كما غلطت انا ، واطنه ما اهتم خلال وزارته لفتح مدارس ابتدائية لافي المدن ولا في القرى ومن العمال من لا يقيم وزناً للفلاحين وربما عدم من الخلوقات المحترقة غير خليقين بأن يتسرب الى عقولهم قليل من النور والمعرفة . ومن العمال من لا يهمهم الا ارضاء حزبهم الذي اتى بهم اما القيام بواجب المنصب فأمر لاشأن له في نظرهم .

كان قسم عظيم من المعلمين والمعلمات قبل تخريجهم في دور المعلمين عبارة عن جهلة وجاهلات واكثرهم لا يعرف شيئاً من علم التربية الحديثة ،

ويعلم على طريقة الكتائب التي كانت شائعة في القرن الماضي ولذلك اخرج من الخدمة سلفي في وزارتي الاولى كل من لم يره صالحاً للتعليم . وجاءني ذات يوم احد من اخرجهم يشكو ظلامته ، ويقول إنه طرد من عمله بغير حق ، فقلت لمن كانت ممي : لاني ان اعيد معلماً اخرجه الوزير السابق ، لأن الملحوظ فيه انه يعرف ما ينفع ، ومن تلطف وكس لي الدار فأتى بالقائمة خارجها ، فهل بذلك عملي بمضر الشيء حري بالشكر ، وليس من العقل ان اعيد الكتاسة الى محلها السابق ، تؤذي السكان ، وتلوث المكان .

أما خلفي في الوزارة السيد نصوحي البخاري فقد أعاد الى سلك التعليم كل من كنت نحييتهم عنه . أراد من ذلك اتباع سياسة الارضاء ، وتجاهل أن الجاهل لا يخرج من بين يديه إلا جاهل . وكان صاحبي مولماً بالاقتصاد من موازنة المعارف على ضآلتها ، فلا ينفق ما كان عليه أن ينفقه في سنته حتى يستحق وبعض من كانوا معه مكافأة عن الأموال المقتصدة ! وهذا اجتهاد لا أرضاه ، لأن المنطق يأباه . اما اجتهادي فكان أن أنفق كل ما خصص لي في السنة نفسها ، لعلني أن لوازم المعارف كثيرة جداً ، ولو كان ما يظن أنه وفر عشرات الألوف ما صعب على الوزير انفاقه انفاقاً مثمراً ، في دولة حديثة العهد بإنشاء المدارس وينقصها كل شيء . ومن يحاول ارضاء جميع الناس يغضب المصلحة العامة ، ومن يمزج الادارة بالسياسة كمن يمزج السكر بالجيس ، او الكافور بالدبس .

أنت السياسة الى بعض الوزارات بأناس ما تصوروا حياتهم ما هي المعارف أو القضاء أو الاشغال العامة أو المالية ، وأنت بأناس كانت لهم دراسات خاصة نالوا عليها شهادات لتسهيل لهم طريق الاستخدام في عمل معين ثم تركوا الدرس إلا ما كان منه داخلاً في نطاق عملهم . وكان من هؤلاء من حسنت سيرتهم ، وحسن السيرة لا يكفي إن لم تكن للوزير قريحة مؤانية ، وعقل مولد ، ومشاركة قوية في تشعبات دواوينه

ومن اجتهادي في الادارة أن أسارع الى انفاذ ما أريد بمد أن أنظر في الجملة فيما تتجه اليه همتي ابادر لما أحاول تحقيقه وان اعتقدت أنه بقي هناك من استشيريه ، أو أرجع اليه من أضاير ودساتير وذلك لاعتقادي بأن انتهاء الأمر بسرعة على ما قد يعرض له من نقص أسلم في العاقبة من التراخي والمطالة ، وتقدير ما يحدث وما لا يحدث . وقد يكون النفع بالتأني أقل من الضرر الذي يحدث بالاسراع . والاسراع لا يحمداً ابداً وكذلك الابطاء ، والحالة هي الحاكمة على الانسان ، ولكل وقت حكمه واجتهاده . ولعلي صادفت بمض الفشل فيما عالجته بالمجلة من أعمال ، ولكن ما أصبته فيها من التوفيق كان أكثر . ربحت بالاقدام ما لم أربح مثله في الاحجام وفي التطويل اذاعة القرص ، ومن يحسب حساب كل شيء قد لا ينجز أمراً .

أخذني مرة الشيخ طاهر الجزائري على اخبار تنشر في جريدة المقتبس توهم انها مفتعلة على خصوصي السياسيين ، فاقسمت له اني ما اختلقت خبراً مازحاً ولا جاداً قط ، وعرضت عليه أن جريدتي اذا اقتصرت فقط على نشر ماثبت من الأنباء تسبقها الصحف الاخرى بالحوادث ، على حين ان معمول الصحف على الاسراع في نشر ما يترامى اليها ، على شرط ايراد المصدر . فان بدأ محرر الجريدة الخبر بقوله (جاءنا من مصدر ثقة) كانت روايته أدنى الى الحقيقة من قوله (شاع) او (يقولون في بعض الاندية) او (ننشر هذا بتحفظ) او ما شاكل ذلك من الصيغ . وقد شاهدنا صاحب صحيح البخاري على تحريبه الشديد ، واقتصاره على اصح الأحاديث قد وقعت له اشياء لم تصح عن الشارع صلوات الله عليه . هذا وقد صنفه جامعه في هدوء وتؤدة ، وبالغ بالتدقيق فيما روى ويروي له دهرأ ، فما بالك بالصحف الطيارة في عصرنا هذا ، عصر السرعة والتبدل والمفاجآت . فمترني ناقدني العظيم على اجتهادي في اذاعة الأخبار على هذا الوجه ، ولعل المتعنتين لا يرضيهم مني ذلك .

كنت اجتهد في شؤوني الخاصة والعامة ، وما ندمت على اجتهاد وقع

مني . كنت اذا بعت بعض حاصلات مزرعتي أو بعض مطبوعاتي بمن قد يرى فيه المدقق بعض الغبن عليّ اغتبط لآثي أو ظف المال الذي آخذه حالاً في شيء مثمر ، أو اسد به حاجة تقضي المصلحة بالتعجيل في قضائها . ووقع لي ان بعت شيئاً ثم سقطت اسعاره بعد ايام وعلى العكس ، فكانت الحكمة فيما فعلت ، والشاري يدخل على الربح والخسارة . وحدث لي ان ربح المبتاع كثيراً وان لضعاف المال الذي اخذته وصرفته بعد ايام قليلة . ولو كنت تشددت في النزول عما ملكت لخسرت لا محالة . والأرباح الكثيرة فرص والأرباح المعتدلة من الامور العادية .

من خلقي ألا اتدخل في مجهول ولا فيما ينافي العقل والشرع ، لذلك لم اجوز لنفسي يوماً اتباع ورقة بالنصيب ، ولا ان انجر بالورق النقدي ، ولا بالأسهم والسندات ، وما اشتركت ولا كفلت احداً كفالة مالية ولا وضعت توقيمي على سند ليس لي به علاقة ، ولا خزنت غير حاصلاتي توقفاً لارتفاع السعر . وقد لا ينبجج من هذا خلقه في التجارة ، والمضمون قليل واقل من القليل . وهذا اجتهد ايضاً ولا يلام المرء على اجتهاده . وانا بعد أن ثبت لي أن الخاسرين اكثر من الرابحين في هذه التجارات يمز عليّ ان ادخل في هذه الصفقات ، وكمن فرصة اضعتها وكان يمكن الانتفاع منها والتربح بها ، فأحججت وجبت ، ثم رأيت الخير فيما فعلت ، ذلك لآثي ابدأ كنت احاذر المغامرات .

اضعت سنين طويلة من ربح زراعتي فشاركت واجرت فربح الشركاء والمستأجرون كثيراً ، وكانت حصتي ضئيلة بالقياس الى رأس المال ، اي ثمن الأرض ، فما اسفت لما وقع لآثي استفدت ايضاً من توفير وقتي . وقد ضمن لي ربح ثابت على كل حال ، وهذا احسن من مال يتعبني ويشغل فكري وصعب على المرء ان يعمل اعمالاً عقلية ويكد ليملأ جيبه وصندوقه . وهذا اجتهد مني عاذ عليّ بضرر مادي وربحت منه في معنوياتي ارباحاً لا تقدر بمن في نظري . وعوض عليّ من جهة اخرى رواتب قبضتها زادت على ما جناه الشركاء والمستأجرون من ارضي .

كنت اسير على ما يوحيه إليّ عقلي عندما يقترح علي الانضمام الى اناس لا اعرف سيرتهم للمشاركة في مسائل ظاهرها نافع ووطني . وذلك لاني بلوت الاحزاب وعرفت اغراضها ، وأدركت مراحي الجمعيات . ومن فضل الله اني كنت اقل رفاقي تهوساً في الحزبية ، وتهوراً في الاقدام عليها واجتهادي هذا وقر علي اوقائي ومالي . وهذا لاني كنت في هذه المسائل افكر طويلاً ، واقول ليس من العقل ان يطلب مني مشابهة كل انسان ، واتباع كل رأي يفرض ويعرض . والمشاكل كثيرة ، واماني الامة لا تحدد ولا بد ان ينصرف كل فرد الى تحقيق ما اخذ من نفسه واعتقد قلباً وقالباً فائدته ومن حسن طالمي اني ما حرصت كثيراً على مسايرة بعضهم على كثرة ما اسمعونه من المغريات الخلمي على الالتحاق بجماعة اجهل اغراضهم ، وليس بيني وبينهم تجانس في الفكر والتربية ، ومتابعة آراء لم ابد فيها ولم أعد . وكيف لعمر الحق اقلد في شيء فيه اضاءة وقتي ومالي ورعا حياتي ، وقد ثبت لي انه ما أفلح في هذه الارض حزب ولا جمعية الاهم إلا إذا كان من بعض الشياطين ان اتخذوا من حزب مطية لأغراضهم الخاصة ، يصلون على منها الى المراتب والمكاسب . والمغفلون من يخدمون معهم في هذه المناحي على العمياء وبدون اعمال الروية ، يرفسهم الكبار بأرجلهم من غير حياء ، في اليوم الذي تتحقق فيه مآربهم . وكل حمية أراد اصحابها الظهور سقطت وكشنت ، وكل جمعية قصد بها الخير نمت وثبتت . ومن هذه الجمعيات ما أتى عليه ربع قرن ، وهو الى اليوم يقوم بالغرض الذي انشئ له ، ومنها ما لم يمش أكثر من ايام قليلة . اما الاحزاب السياسية فكانت اشبه بالمهازل ، في معظم الادوار ، لان السياسي على الاكثر يستحل كل ما يوصله الى الغرض الذي ينشده . فيعبث ما شاء له العبت ، ورأيت الجمعيات كلما قل عدد افرادها تكون الى النجاح ، وإذا كثرت المتشاكلون فيها تدوم وتنجح .

كنت في أغلب الاحوال أتابع اجتهادي واتحمل وحدي تبعته . وما ندمت

على ما اتيت قط إذا سبق لي اشتراك في الفكرة ، وكنت أرى ابدأ
تحميد المطامع ، وارضى بما يحصل ولو بمد جهد . فقد خاف زملائي لقلقة
المتمصين من المشايخ يوم بدأت بإنشاء المجمع العلمي العربي ، إذا نحن وضعنا اليد على
بعض التبايل وعرضناها في المدرسة العادلية الكبرى ، فأصررت على جمعها وعرضها
وقلت لرصفائي إن صريح هؤلاء المؤيّر لا يصل الى اكثر من سقوف بيوتهم
وما ضرني ان انحمل وحدي التبعة وامضي في تأسيس دار الآثار في سبيلي
لا ألوي على شيء . ولما لم اطع سلطان الوساس والمواجس كتب لي التوفيق ،
ولو اطمت من أرادوني على التسوية وخوفوني العواقب ، لفشل المشروع
لا محالة ، ولأعد المشاغبون عدتهم لمشاكستي ، وربما كانوا بلغوا مني مأربهم ،
فاجتهادي الخاص انتفعت المصلحة العامة . وما اخفقت في امر إلا اذا كانت
يتوقف أمامه على احد او على سلطة . ولو كانت آمالي في المجمع العلمي
مثلاً تجدد لها من يماضدها من حكومة او صاحب مال عظيم ، لآتت من
أكلها في عشرين سنة بما يفوق ما كصورته ، ولكن استعداد الحكومات كان
قليلاً لقبول هذه الامور . وما كنت اهتم انا لتحقيقه كان اصحاب الشأن
يضحكون منه في سرهم .

درجت على تنشيط الناشئة على الكتابة والخطابة والتأليف والنشر .
خلق تأصل في وعرفه قومي مني ، اقصد به تخرج شبان صالحين في الجملة .
وكان بعض رصفائي في المجمع يخالفوني في اجتهادي هذا ، وانا أرى أنني
اقوم بواجب عليّ لأن اسانذتنا أخذوا بأيدينا حتى تعلمنا فلهم في اعناقنا
منة لانوفها لهم إن لم ندفعها الى من بعدنا انعطى الذي اخذناه . وكان
أحدم يقول يجب ألا يفتح الباب إلا لمن جزل حظهم من الآداب ،
وأن على الشبان ان يترثوا في الظهور فلا يتطلون اليه إلا متى ذهب الشيوخ
من الوجود . ومعنى ذلك الانتظار ألا يتخرج بنا احد فتذهب تجاربنا معنا ،
اما هم فلينتظروا حتى يفنى هذا الجيل ، ثم يستلمون الزمام بعدنا بدون ان تكون
صلة بين السلف والخلف . وبهذا الاجتهاد لضيع فيما احسب الفائدة المرجوة

من التلاني ، وتبطل اعتبارات كثيرة نافعة ، جرى عليها العرف والمادة في كل عصر .
وهناك زميل آخر لا يروقه ان يفتح باب المجمع للمحاضرة فيه ،
أو المؤازرة في المجلة إلا لصفوة الصفوة ممن كان استعدادهم من المسلم به ،
اي ان يقتصر على طبقة راقية جداً ، وإلا فقد المجمع روعته . واضاع
مكانته ، ذلك لان زميلي هذا كان يزعم ان الخاصة الكفاة يستنكفون
عن القاء محاضراتهم ونشر مقالاتهم ، إذا فتح الباب لكل احد ،
بيد ان المحاضرين والكاتبين ليسوا كلهم على غرار واحد ، وكذلك العقول
لا تكون من طراز واحد . ومعنى الاختصار على النواحي المحاضرين والمؤازرين
ألا نسفي الى تعليم احد ، ومن ينقصه شيء لا سبيل له الى اتقائه ، والواجب
طرحه . ولو جربنا على هذه القاعدة لبقيت الآداب وفقاً على بضعة افراد .
ولا نعلم إذا كانت هذه الاثره تفيد أم ان الفائدة بكثرة العارفين ، وكل
امرئ يفيد بحسب سليقته وذكاؤه . نعم إن الاتقان شرط اعظم في كل
صناعة ، وإذا كان من المتعذر الحصول عليه فهل يجوز لنا ان نبرّ ذل الوسط ،
ولا يكمل النقص ؟ وربما كانت هذه القاعدة مما يمكن تطبيقه في جمهورية
افلاطون أو المدينة الفاضلة للفارابي ، اما في مجتمع كجتماعنا ، وفي جمهورية
كجمهوريةنا ، فمتعذر كل التعذر ، ومن ينشد الكمال المطلق بوشك ألا يسقط
على كامل ، ومن يتخيل انه لا يعمل إلا إذا توفرت له جميع الاسباب
بحسب رأيه ، محكوم عليه بالمقم ، وعدّه ولا تخف من طلاب الحال .

سجلت هذا هنا لانه من تجاربي الخاصة رجاء أن يستفيد منه من
يكثرون الاعتراض على كل ما يسمعون وما لا يفهمون ، ويحاولون لادنى نظر
ان يهدموا ما بني ولا يحسنون وضع لجنة في بناء جديد .

ذكرتني الطمن وكنت ناسياً

لما أجب طلب راديو الشرق الى القاء مسامرات في اذاعته أنحني مديرها بنسخة من مقالة كنت كتبها في جريدة المقتبس (عدد ١٧٨٧) خلال الحرب العامة ، وقال إنها وشاية من رجل مجهول ، وخلاصة المقالة أن صاحب اقدام كتب من سويسرا مقالتين قال في الأولى إن أحد أسانذة السوربون في باريز قال في خطاب له : إن علماء فرنسا لا يمدون علماء الا بالشفاعة والسياسة ، وأن فرنسا في المؤتمرات تبعث لتمثيلها باناس من الجنس الذي ارتقى بالرجاء والشفاعات ، في حين تبعث المانيا أمثال العالم فيرخو لينوب عنها ، وهو المعروف بعلمه وشهرته ، وأن المانيا تنتخب أمثال رجالها المتأبر التدريس ، ولذلك يهرع اليها الطلبة الأجانب من كل جانب ، ويرجعونها على فرنسا . واستنتج من ذلك أن فرنسا ليست بلاد درس ، ونصح للعلمين بتحصيل العلوم والفنون أن يذهبوا الى المانيا ويحققوا الألمانية . وقال في المقالة الثانية ، وقد استبشر بأن الدولة عزمت على جلب بعض الاختصاصيين من أسانذة الألمان الى دار الفنون في الاستانة ، ان الأمر لا يتم بجلب بضعة معلمين ، بل إن المملكة تحتاج من هذا الى سرية ، كملنا أفكار المانيا الاقتصادية ، وعلوم المانيا ونظامها وأوضاعها ، قال ونحن نريد من أولاد المسلمين أن نخرج رجالاً ونطلب لهم خبزاً في كل صقع ، ولذلك وجب علينا أن نخرج الشبان على الأصول الألمانية في العلوم والمعارف وهذه تجزئنا .

هذا ما قاله رصيفي التركي وقد قلت في التعليق عليه يومئذ : ومثل هذا القول أحق أن يخاطب به أهل سورية الذين حاولت فرنسا منذ عشرات السنين أن تلقنهم في مداوسها المسمومة بسموم النفاق والمكر أن

مدينة فرنسا أرقى المدينيات ، مع أن الوقائع منذ نحو مئة سنة أثبتت أن الأولوية لغيرها لا محالة ، وأن الفرنسيين أمة انحطت في أخلاقها ومناحيها ، ومن مثل هذه البضاعة الكاسدة تنفق على الشرق الاسلامي ، موهمة سكانه أنها ما برحت في طليعة الدول في كل شيء مع أن أقل الناس تفكراً يعرفون مبلغها بين الأمم والدول ، وقد علمتها ألمانيا بالعمل كيف فرطت وأفرطت في الماضي فأصبحت اضحوكة الأمم ، وأن فرنسا احتقرت الأديان ، واعتقدت أنها السكل في السكل ، فأثبت المولى عجزها ، وأن العبث الذي عبثته بمقول ضمايف العقول وضمايف القوة من اثم الشرق ، قد حوسبت عليه حساباً غير يسير ، وستحاسب على أكثر . وما ننسّ لانسّ ضربها بمصا من حديد على دين الاسلام ولسان العرب في تونس والجزائر ومراكش وكل بلد اسلامي استعمره أدنياء أبنائها .

ومثل هذه الدولة المنحطة في سلم الاجتماع التي اشتهرت بلادها بالفسق والفجور والخفة واللهو في أقطار الأرض ، ومع هؤلاء الأذعياء في العلم الذين أشار اليهم رصيفنا صاحب اقدام بمن يتولون التعليم والتربية في فرنسا دع مدارس الشرق النعس ، لا يسوغ لنا بعد الآن أن نفكر في أن نعلم أولادنا في بلادها ، بل نيمدّم عن مبادئها كما نيمدّد السليم عن الأجرب . كانت فرنسا تخدع السذج بحسن حالها ، ولكن الحرب الحاضرة (١٩١٤ — ٩١٨) كشفت عن عورتها في العلم والصناعة والسياسة والأخلاق إن فرنسا تفننت في اختراع أزياء النساء في عهدها الأخير ، ولكن ألمانيا اخترعت مدفع ٤٢ .

أعدت ألمانيا عقولاً ، وعلمت فرنسا فضولاً ، فكان من ذلك النتيجة التي رآها كل منصف في العالم . ان دولة اشتهرت بأنها آذت الشرق في استقلاله وأخلاقه ودينه ولسانه هي دولة لا يجوز لأدنى الأمم أن يجعلها قدوته ومعلمته ، فطريقنا بعد الآن الى ألمانيا ، فمن كلياتها نتغذى ، وبأدب أهلها نتعلم ، وعننا نأخذ . اهـ

هذا ماقلته منذ نحو ربع قرن ، وكنت أود لو طوى المقالة من أحب أن يذكرني بها اليوم ، لأنّ تعلّقي يومئذ على ما فيه من الغلو ، وتأثر بسياسة تلك الأيام ، لا يخلو من حقائق جارحة ، تجلت بعد هزيمة فرنسا الأخيرة عام ١٩٤٠ وقد قال مثل قولي كبار رجالها ، وضربوا أمهم في المحافل الرسمية بميوها في وجهها ، على أن تفوق التربية الألمانية والعلوم الألمانية من المسائل المفروغ منها ، ورجال التربية في فرنسا بحثت أصواتهم وهم يتنادون بالمدول عن طرائق قديمة عقيمة في التعليم والتربية ، والاخذ بمذاهب الألمان بالعلم ، وفي خزائني بضمة كتب في هذه الأبحاث ، ومن أهمها ما كتبه غستاف لبون وأدمون ديملان الفرنسيون أصلاً وتربية ، وما أظن فرنسا اليوم بعد أن رأت المبر تلو المبر إلا آخذة بالطرق الحديثة والنجاة من الأساليب البالية ، أما قولنا في مدارس سورية التبشيرية الاستعمارية فما زلنا فيه على رأينا الأول وإن آلم بعض العمى في حب قوميتهم *Les chauvins* لأننا نعتقد أنها تخرج انساناً ، لا لخدمة بلادهم بل لخدمة غيرها ، وإنا نعذر أصحابها على خطتهم ، فهم يصرفون أموال دولهم لتحقيق مقاصدهم ، ولو كنا أقوىاء لرددناهم على أعقابهم عن أرضنا ، ولحلنا بينهم وبين تأسيس هذه المدارس المضرة بوطننا وقوميتنا . أما الاستعمار الفرنسي فانا ما جبنناه قط ، ويوافقنا على رأينا عشرات من المؤلفين الفرنسيين ممن لا يهتمون بحزبية ، ولا يرمون بتعصبات سياسية وجنسية ، ونسأل اولئك الذين لا يرضيهم قولنا هذا بأعز ما لديهم هل يرون الجزائر بعد امتلاك فرنسا لها (١١٥) سنة قد تمتعت برضاء يشبه ، ولو من بعض الوجوه ، ما تمتعت به مصر ؟ وهل أخرجت الجزائر رجالاً يوازنون بأقدارهم العلمية والعملية نصف ما نبع من المصريين في عهد الاحتلال الانكليزي في وادي النيل ؟ (راجع ما كتبناه في غارات المستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم ص ٣١٧ ج ١ من كتابنا الاسلام

والحضارة العربية) أما أن فرنسا معاملة العالم فهذا ما لا ينكره عليها حتى أعداؤها ، فإن لها في التاريخ من ذلك حسنات يرفع أبنائها رؤوسهم بها . وشهد الله أنا كنا متآملين لما حل بالأمّة الفرنسية من المصائب الاخيرة ، وما كان الشعب مسؤولاً عن كل ما ناله من هزيمة وتفسخ ، فالشعب الفرنسي فطر على ذكاء ومضاء وفضائل وحب خير ، والمقلد منهم نجهم ونسترشد بعلم رجالهم وأدب كتابهم (انظر ما كتبناه في غرائب الغرب ص ٣٠٨ ج ١ تحت عنوان نحن في البلاد الفرنسية) .
والافكار على كل حال عرضة للتبدل ، خصوصاً بطول العهد وكثرة التجارب ، والعقل هو الحاكم والحكم ، لا المواطن والاحاسيس .



هل الماسونية

يوم انهزمت فرنسا أمام الجيوش الألمانية في حزيران ١٩٤٠ واحتل الألمان باريس يوم ١٣ منه انحلت الجمهورية الثالثة ، واستلم زمام الحكم المارشال بيتان رئيساً للدولة بقرار مجلسي الشيوخ والنواب ، فحل جميع الأوضاع الديمقراطية والأحزاب السياسية والجمعيات السرية ، ومنها المحافل الماسونية ، وقد قرأت في جريدة « كانديد » الصادرة يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٤٠ أنه افتتح في باريس معرض ماسوني ، عرضت فيه تركة « محفل الشرق الأعظم » ، « المحفل الأعظم » الماسونيين في باريس ومنها مسارح وسيوف من القصدير ، ومطارق وصناديق نيطت بها كرات سوداء ، وماآزر عملت من جلد الخنزير ، ومسجات البنائين و « بطارش » مطرزة رسم وسطها مثلث يلعب فيه نجم « صهيون » وما إلى ذلك من متاع كانت يستخدمه أبناء الأرملة عند إدخال شخص جديد ، ومنها مفروشات الغرفة السوداء التي يجمل فيها المنظم إليهم حديثاً معصوب العينين مع جمجمة إنسان ، وردة الزعماء التي يقررون فيها السلم والحرب ، وإن التينة حمل هذه التركة الغريبة في القطار والسير بها إلى جميع أرجاء فرنسا حتى يراها سكان أقصى الأرياف ، ويتجلى بها ما في الماسونية من امور .

وبحل المحافل الماسونية في فرنسا انحلت جميع محافل الشام ، وذهب الأصل بوجب زوال الفرع ، وتقاسم الزعماء تركتها ومنها تلك الأشياء التي كانوا يستعملونها . والماسونية حكومة في حكومة ، من شأنها إسقاط الأديان ، والتدخل بسياسة الاوطان ، ولذلك ألغتها ألمانيا وإيطاليا ، وحذت حذوها تركيا وبلغاريا ورومانيا والمجر ، فإن كانت في الماسونية بعض ما يستحب من التعاليم ففيها امور مضرة ، وكان إدخال الداخلين في محافلها

سقياً ورعياً من أضر ما فيها ، ولا عبرة بجودة القوانين والمبرة بالأيدي التي تنفذها .

منذ نحو خمس وأربعين سنة ، وأنا يعرض عليّ الدخول في الماسونية في مصر والشام ، ونذكر لي المرغبات فيها ، والقنائم المتوقعة لي منها ، فكنت أقول إن هذه الجمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك ، فما شأن المسلمين في الدخول فيها ؟ وأنا من طبعي ألا أدخل في مجهول ، ولا أسير على غير هدى . ورأيت أناساً انضموا إليها مخلصين فكانت سبب زوال نعمتهم ، وكانوا بعد خدمتها سنين من النادمين ، وما أفادوا إلا إنقاذ لصوص الموظفين وغيرهم من سلطة القوانين ، وأكثر من رأيت ممن شابعوها كانوا من أصحاب السيرة السيئة من طبقة المأمورين

كل هذا كان يجول في الخاطر ، ويصرح به اللسان ، ويكتبه القلم ، وما كنت أظن ولا أذكر الماسون هنا يظنون ، أن جمعيتهم أيضاً (ألعوبة صهيونية) ، صرفة لا يهودية فقط ، يسمى اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ومعنى مجد صهيون نزع فلسطين العربية من أيدي العرب ، وهي ملكهم منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن .



دعائيات

دارت بيني وبين الاستاذ فارس الخوري (رئيس مجلس نواب سورية) مراسلات دامت بضع سنين ، قامت على جدّ وعلى هزل . ونفي في بعض السنين الى أميون من قرى لبنان مع بعض إخوانه ، فكتب اليّ بدعوني الى زيارته فأجبت بكتاب مطوّل (٦ أيلول ١٩٢٦) قلت فيه : (كلما ذكرت أميون تذكرت مجالسنا مع صديقنا نجيب الأميوني — وليس اسم نجيب من اسماء الاضداد كأيّس وسليم وصادق ، قد ينقلب الى ثقيل ولديغ وكاذب — وما كان يقع لنا معه من الفككات وكيف كان يُسَلِّمنا بأدبه ، ويفيض علينا من واسع علمه ، ما اغتبطنا ولا نزال نغتنب به ، ومع هذا لم نفتأ نبرمه بأسئلتنا ، والنجيب يجب .

(كنت مرة في حلب مدعوّاً في دار احد اصدقائي من أتباع السيد المسيح وكان البهو غاصّاً بالاوانس والمقائل ، ورجال الظرف والمسكرم ، فأخذ النجيب يحدّثنا احاديثه ، فلا والله ما شكونا مللاً ، ونحن نتعاطى كؤوس ادبه نهلاً وعَدلاً ، ولكن النفس الامارة بالسوء حدثني أن اقاطعه ، لأنني لحظت من لواحق سيداتي هناك انهن يحببن ان يستمعن نبرات جرس جديد ، والنفس مولعة بالاطلاع على الطريف ، ولو كانت كثيراً غير ظريف . فاستأذنت الحضور راوياً اولاً ما وقع لاحد شعراء دمشق ، وقد زار في استانبول السيد ابا الهدي الصيادي الخاني أو الشيخوني ، وهو في آخر درجات السلم من مجده ، فأخذ شاعرنا ، وكان طلق اللسان ، ذكيّ الجنان ، يحدث الشيخ الصيادي بالقديم والحديث ساعتين استطالهما الشيخ ، وما كان يزيد على غير كلمات الاستحسان المعروفة . وهز الرأس والمنكبين ، وحياناً الصدر وماتحته الى المعجز ، فلما اعياه الحال ، التفت الشيخ الشيخوني

الى محدثه الدمشقي وقال له : يا فلان اذكر فقط ان امامك مكثار مثلك
 'يحب' ان يتحدث اليك في نوبته ، فتوح بلا سدود لإقطع لأصل أنا .
 فضحكا واستلم الشيخ زمام الكلام .

(قلت هذا وقد فتح الفتاح علي باب القول ، وحل عقدة من لساني
 نفقه القوم قولي ، وشمرت في تلك الساعة ، والانظار تحدجني ، بأن طبعي
 قد لان ، ولم يستمر علي طبعي ما حاولته من التحدث الى ذلك الرعيل
 الجليل ، فقلت : لاني قرأت في كتاب لأحد علماء الجغرافيا من العرب
 اسمه المقدسي ان كل بلدة كان في حروفها حرف صاد يقلب الحق على اهلها ، اما إذا
 كان فيها صادان كما صيرصة وصرصر فتموز بالله واستثنى من هذه القاعدة البصرة ،
 وانا استثنيت (حاصبيا) مطلع شمس الأميوني النجيب ، وقلت لهم إن الرقة
 تقلب على طباع أهلها ، واوردت ما حضرني من البراهين لمناقضة ما قالوه
 قديماً من انه إذا رقّ الهواء غلظّ الطبع ، ومثلت لهم بالسيد الأميوني
 غير خائف ولا وجل . وما قلت : ها هو اخي وقرّة عيني ، هذا ياسيداتي
 وسادتي ، أميوني حاصبيا ، اللبناني الغربي واللبناني الشرقي ، حائز مجموعة
 اللطف ، وجودة العقل ، وجميل النادرة ، واتم معرفون مثلي عدله في الاحكام ،
 ومقامه بين الخاص والعام ، وغناؤه في شرائع الافرنج والاسلام ، وشهد
 الله انه أكذب القائلين بالطباع الجليلة ، ونقض بشخصه رواية ذاك الجغرافي
 الذي نسب الحماقة الى اهل كل بلد ضم اسمه حرف صاد .

(والحمد لله على ان جاد لي بالحياة ، وحقق ظني في نبوغ النجيب ،
 فرأيت وزيراً لمعارف دولة لبنان الكبير ولولا انه من نحياء الابناء ، ومن حاملي
 الشهادات من المدارس العليا ، ولولا أن حكمه وعقله صحيحان غير مريضين ،
 ما تربع في ذاك الدست ، ولا لصدّر في دولة عجبت طينتها وخبرت بمادة
 العلم والادب ، ولو لم تكن أميون من قبل أورثت ما أورثت جده وأباه ،
 وحاصبيا من بعد هيأت مداركه وجملت قواه ، من ابن كان له ان يطمع
 في هذه المقاعد الشريفة ، والمقامات التي تتحلب لها شفاء الطالبين الملاحقين

الملحين ؟ بعد ان عِلِمَ عِلِمُ اليقين ان الكراسي في دُوَيِّلاتنا الشامية لاتعطي على الاطلاق إلا بالاستحقاق .

(ربما يتبادر الى ذهنك عند تلاوة هذا أن الكلام يصدق عليك ، بدعوى أن ما قارب الشيء يمطي حكمه ، فادفع عنك الظنون ، وبعض الظن لائم . وثئن كانت « الكفير » جارة « حاصبيا » حاضرتها ، وأنت وإن وليت وزارة المعارف ، فقد كان الفخر العظيم لحاصبيا أن أخرجت للامة وزيرين ، وللمعارف أيضاً ، أحدهما في وزارة الساحل ، والثاني في وزارة الداخل . وما ذاك إلا من تأثير تلك التربة الطيبة وخصوصية لها ، وللبقاع تأثير في الطباع . ولذلك وضعناك بذكائك في غرار الذكاء الاميوني ، لو لم نحدد ملكة ذاك الاقليم التي أورثك إياها الجدُّ الأعظم بسكنى « جلق » أكثر حياتك ، وأنت تزد مع ابن منير الطرابلسي .

وسكنت جاق واقتديت بهم وإن كانوا بقر

(ابشرك بشري يشاج لها صدرك وتقر عينك ، وتطيب لها حواسك الخمس ، وهو أن رصيفنا الانيس نال رخصة لاحد لها بفضل وزيرنا ، خشي على صحته « أنابه الله » ، وقال : انه وإن زاد منذ ثلاث سنين أكثر من ثلاثين كيلو بدمه ولحمه وشحمه ، فهو يجب له هذه الزيادة ، وأنا على ما تعلم أحببت له هذه الفسحة المستديمة حرصاً كل صحته أن نغال ، وحتى لا أترك لمشاقة من أمثالك ما يقال . هذا وإن كان بدمه عن المجمع يورث أعماله فتوراً ، وتفقد رأيه السيد الذي طالما أشار اليه ، وزعم اننا أبداً في حاجة الى الاسترشاد به ، وكانت ادعى أنه من أهل الرأي لا من أهل القياس . وإلا فمن يمتعنا بتلك المحاضرات البديمة التي تشرف كتاب محاضرات المجمع فنشرها بين دفتيه اثرأ خالداً فأورثته واورثتنا به صيتاً مستفيضاً . حقيقة إن النعم يجب ان تقرر بالشكر وإلا فهي معرضة للزوال .

(وهنا عادت معنا مسألة الصاد في اسماء البلاد . تذكر اننا كنا متفقين على انه اجتمع على بعض اصدقائنا الحرف والمحسية ، ونسيت ان اقول لك

يومئذ والقسوسية ، ولبعض القسوس كـبعض المشايخ صفات غريبة خاصة بطغمتهم من دون سائر البشر ، ولا يمل هذا إلا ان افكار هؤلاء الزاهدين المتبنين ، الساجدين الراكعين ، مصروفة الى الآخرة ، فلا تهمهم الدنيا ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

(اعود الآن وأنا في باب جيرون فأذكر اميون ، ومن لي بزيارتها فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك احوال)
 (قالوا للكردي: نريد ان نرسلك الى جهنم ، ونعطيك أجرة قدرها كذا ، فأجاب الاجرة طيبة والطريق خطر ، نعم ان الوصول اليك صعب الآن ، وعلى كثرة اشتياقي اليك والى إخوانك — بالله عليك إلا ما قبلتهم عني واحداً بعد واحد — يتعذر عليّ وأنا على ابواب الشيخوخة ، أن أركب اليك القطار والسيارة والمطايا ساعات طويلة ، وان اطلب إجازات من الوزارات والمفوضيات ، ليثبت لي ما قيل قديماً من ان عشرة الكبراء تعب الرأس والرجلين ، ومالي وكل هذا وخطي سهل في هذه الحياة لا اطمع الآن في وزارة ولا في إمارة ولا في ملك . . . والوزارات وما يتصرف عليها ياخال ، تحتاج الى علوم لدنية كسبية ، ومعارف حاصبانية كفيرية .)
 (أحمد إليك الله الذي لا يحمد سواه ، وأشهد أنني راض بما قسم لي قابع في كسر الزاوية المهمة التي وضعتني فيها الأقدار . قصة وقعت منذ نحو مئة وخمسين سنة قرأتها في بعض المخطوطات . حكى أن رجلاً نصرانياً شوهد في حالة غير شرعية مع امرأة مسلمة ، فحمل الى الحاكم فاعتقله ليصلبه من الغد . وكان للظنين ذمة على أحد المسلمين فهرع هذا إلى محبس غريمه يقول له : يا فلان إني معك كلمة إذا قلتها نجوت من القتل ، على شرط أن تقلني من المبلغ الذي كنت أسلفتنه . فقال له السجين : قل وهاك السند في جبي ، بارك الله لك به . فقال : إذا مثلت غداً بحضرة الحاكم قل له : الاسلام يجب ما قبله ، اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يطلق سراحك . ومن الغد جيّ بالنصراني إلى حضرة الحاكم

فقال له الجملة التي كملها من صاحبه بالأمس . فقال الحاكم : حسن ، عفوت عنك ، ولكنك تتزوج بالمرأة التي فضحتنا ونختن ، فأجاب بالسمع والطاعة . وهكذا نجا المسكين من القتل . وبينما هو عائد إلى داره سمع إطلاق المدافع فسأل عن سبب إطلاقها ، فقالوا له : غداً رمضان والاسلام يتقاضاك الامساك عن الطعام من الفجر إلى الغروب ، والصوم أحد أركان الخمسة فقال : سمياً وطاعة . وزاره بعد خروجه من محبسه أحد أصدقائه في بيته وما أدري إن كان سهلياً أو جبلياً ، فأخذ على العادة يسأله عن حاله ، فأجابه على الفور حالي خير حال : خرجت من ديفي ، وفقدت مالي ، وتزوجت بمومس ، وقطعت جزءاً من جسمي ، وودعت صيام النصارى خمسين يوماً واستقبلت صيام المسلمين ثلاثين يوماً ، فأبي حال أحسن من حالي ؟ فالحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواء .

(لم أسألك حاجة حياتي وحاجتي المهمة إليك اليوم ، وأعدت لك قضاءها في باب الأفضال العظيمة . أن تبحث لي مسألة تهتم العلم العربي خاصة ؛ وذلك بأن تتولى مع إخوانك الستة درس طبيعة أهل « حصرون » جيرانكم لننظر في جلسات المجمع العلمي القادمة إذا كانت نظرية الشيخ المقدسي في البلدان الصادية صحيحة أو غير صحيحة ، وتلطف بالأمر مع الاستاذين الصفديين (بدر الدين الصفدي وأديب الصفدي) وبلدهما يالهف نفسي مبتلى بهذه الصاد ، بحيث لا يفهمان المقصود من هذا التحقيق إلا بعد أن تؤخذ الآراء وتسطر في محضر بالسلب والإيجاب .

(واعلم وفقك الله أنكم إذا وصلتم إلى تحقيق هذه المعضلة تهون عليكم الإقامة القسرية خمس سنين في حسجة ، ويكون معالي الوزراء وأصحابهم غير مقبولين . لا جرم أن اليوم الذي لصح فيه قاعدة المقدسي يكون سميحاً على الأمة كاليوم الذي اخترع فيه الكهرباء أو البخار أو الراديو أو الراديو في ديار الغرب ، واليوم الذي تسقط فيه قاعدة المقدسي تسقط طوعاً أو كرهاً جميع نظريات العرب في الفلك والطب والكيمياء والفلسفة الخ .)

وأخذت مسألة البلاد الصادية (١) مكانتها من البحث والنظر ، حتى إن السيد فارس الخوري برأ إلى الله وإلى من البلدة المقصودة في هذا الحديث « حاصبيا » وقال إنه لم ينزلها في حياته سوى مرتين أو ثلاث لا يتجاوز مجموع مدتها الأسبوع ، وعي لا تكفي للتحلي بالنبوغ الذي جادت به على أنبائها البررة . قال : ولا ريب أن الشيخ المقدسي الجغرافي لم يعلن رأيه في البلدان الصادية إلا بعد أن وجد لقوله دليلاً ، ولمذهبه مبرراً ، وما كان مثله ليدون قاعدة اجتماعية مثل هذه بدون أن يسجل على أهل البلدان الصادية حماقات وبلاغات تدعم نظريته ، ولا إخاله اكتفى بخص وحدها وأنت غنمت الهزة وسألتي أن اتعاون مع رفاقي الستة وندرس اخلاق أهل حصرون لتمحيص قاعده الشيخ المقدسي ، وقد ذهب عنك أننا مقامون قسراً ضمن منطقة ضيقة لاستطيع براحها ، فكيف نصل إلى حصرون ونعاشر أهلها . ولكن اروي لك حادثة وقعت في هذا الصيف هي أن أهل حصرون تقموا احداثاً على رجل منهم اسمه مرشد المقدسي (ولعل اشتراكه بالاسم مع الشيخ المقدسي صاحب القاعدة الصادية فحل هذه النقمة) وعزموا على قتله . وكان من عادته أن يخرج في سيارته إلى طرابلس في بعض الأيام ، فقطع الطريق عليه ١٥ رجلاً منهم ، وحالاً اقبلت السيارة رشقوها برصاصهم وأبلاً حتى سكنت حركتها ، فتقدموا إليها وإذا بهم قد قتلوا السائق والراكب ، وما كان هذا الراكب المسكين إلا محافظ البترون فيليب ناصيف . وقد قبضت الحكومة على ١٤ منهم وهم اليوم رهن المراقبة في محكمة الجنايات . أفلا تصلح هذه الحادثة لاثبات قاعدة الشيخ الصادية ؟ وقال : (جاءني هذا الأسبوع شاب من « صور » يطلب إلي أن أكتب

(١) قال احد اترابي الأعزة وقد بلغ الحوار اقصى شدته في الصاد ما رأيك في صاد « مصر » وهل عندك ان حكمها حكم سائر الامصار المحكوم عليها باحكام الصاد ام هي بنباجة من تأثيراتها كالبصرة التي استنشاها المقدسي ! فقلت له وانا استنيت مصر وانفي راغم ، ولست بفضل الله « عبيطاً يا عبيط » حتى أعادي سبعة عشر مليوناً سكان مصر ، واقل ما ينالني من عقوبة حرمانني أن ابط وادي النيل ، وتنبه لي تلك الوجوه الصباح وفي هذا البلاء المبين ا هـ .

له كتاب توصية لرئيس محكمة صور الذي لا أعرفه ليعينه كاتباً في محكمته .
 فقلت له : اخطأت يا بني بطي هذه المسافة الطويلة لتتخذني وسيطاً لك
 لدى رجل لا أعرفه ولا يعرفني ، وأنت تعلم أنني اليوم لا أملك نصريف
 أمر نفسي ، فكيف أملك نصريف أمور غيري ؟ أفلا نجد في هذا أيضاً
 دليلاً آخر على عدوٍ صادٍ صور على هذا الشاب الغافل ؟ قاعدة المقدسي
 لا تتناول ما قبلها ، فلا تسري على الفينيقيين وإنما تجري على أهل زمانه
 وعلى من جاء بعده حتى اليوم .

(يا ليتك تكتب إلى الصديق العلامة أحمد زكي باشا نزيل صنعاء ليدرس
 لنا شيئاً عن سادها في عقول سكانها ، فدرس في إحدى جلسات المجمع
 مع آثار الصادات .

(يوم كنا في حسجة أقامت السلطة علينا خفارة ضيقة ، كان الجنود
 بها يقفون على بابنا بالحرب المسلولة ، ليمنعوا كل داخل وخارج . وبمشنا
 في أحد الأيام مع جمال جاء به الجند ، كيساً من القمح إلى المطحنة
 ليطحنه لنا ، وكنا قبل وضع هذه الخفارة قد أرسلنا رجلاً بكيس آخر
 ورافقه بدر الدين أفندي الصفدي إلى الطاحون ، فخطر لهذا الرفيق أن يرافق
 الجمال هذه المرة أيضاً ، جرياً على العادة السابقة ، لأن العادة في عرفه
 تثبت بالمرّة . فذهل عن تبدل الحال وقيام الخفراء ببنادقهم وحراهم على
 الباب . وحالاً رأى الجمال خارجاً بكيس الحنطة من الدار ، وثب من
 مكانه وهو بقميص النوم ، وبدون غطاء على رأسه ، وهب يعدو وراءه
 ليرافقه ، ولو لم يصدمه الجند عند الباب ، وبوجهوا حراهم إلى صدره ،
 لجري وراءه بلا حذر ، وكنت افتش عن سبب هذا الذهول الغريب إلى
 أن جئتني بالقاعدة الصادية فاهتديت إليه (انتهى كلام الصديق الخوري) .
 وآخر الحوادث التي تقرر إلى أمثالها في الحكم على الصاديين ما حدثني
 به أحدم بسنده الصحيح عن الدكتور داود أبو شمر ، وقد طام من
 « حصرون » بعد أن قضى فيها عاماً وبعض عام قال : إن صاحبة داره

دعت ابنته ذات يوم الى الطابق العلوي من دارها في حصرون ، ولما أخذت مقعدها دخل كلب لطيف المنظر ، فسأل رجل كان هناك صاحبة البيت عن ام الكلب فأجابته : ان الذئب أكلها ولم يبق منها شيئاً . فقال لها : بل أكلها مسلم صائم جوعان . فقاطمته صاحبة الدار الحصرية وقالت : بل افترسها رومي أرثوذكسي . فتألت فتاة أبي شعر وهي ارثوذكسية ألماً بدا في سحنها ، وحدث ما شئت أن تحدث عن انقباض صدرها الصغير ، لسماع هذا التعريض الكبير . مثال جديد من الحماقة ويحمل في مطاويه خبثاً أيضاً .

ونموذ بالله من غلظة جبلي ، وخفة ساحلي ، واستخذاء سهلي ، ونسأله ألا يكلنا الى انفسنا ، ولا يجعلنا ممن نقاد بزمام كالاتمام ، ولا نستضعف في الاحكام ولو على الاحكام ، ولا يستهويننا الخطام لارتكاب الآثام ، وأن يجعل لنا عبرة من الحمار ، يحجم اذا رأى الهوة سحيقة ، ومن الفيل لا يقدم على اجتياز جسر إذا شممه ورأى فيه خلا ، ونسأله أن ينزه قلوبنا من المطامع المردية ، فانها تقطع أعناق الرجال ، وينزه ألسنتنا عن حصائدها المؤذية ، حتى لا نكبت على الرأس في الأوحال ، ولا نخجل في أنفسنا من عمل أئيناه سرراً فافتضحنا به جهراً ... فقد حكم السلطان عبد الحميد الثاني أربعاً وثلاثين سنة فما شككنا في رعونته ، ولم يطال حكم عمر بن عبد العزيز أكثر من تسعة وعشرين شهراً فما خفي على الامة عدله وحسن ولايته . اللهم لا تلبسنا ثوباً تبدو من خلاله العورة المغلظة ، وارزقنا عقلاً نميز به بين الدرة والخزرة ، وأنشئنا نشأة صالحة نتمتع بها بحياة الرجل الصالح في الوطن الصالح ، ولا تجعلنا كالجمل يقتنذي بالسرقة ، ويؤذيه الريحان والياسمين ، ويموت من الورد والنسرين ، آمين يارب العالمين .

وهكذا كنا نسلي أصحابنا في محنتهم بهذه الدعابات . وفي بعض المآثور :

وطنية الأمير شكيب وجهاده

الى الآن لم تثبت وطنية الأمير شكيب أرسلان عند بعضهم ، فنأمل
عقول أبناء هذا الشرق وردد مي كلما تأملتها قول البهاء زهير :

يا أيها الباذل مجهوده في خدمة أفي لها خدمة
الى متى في لعب ضائع بدون هذا تأكل الالقمة
أشقى ومن أشقى له غافل كأنك الراقص في الظلمة

رأيت بعض من يدهنون للسلطة أوائل حرب المانيا انكلترا فرنسا
(١٩٣٩ - ١٩٤٠) يمترضون على الأمير شكيب لذهابه من سويسرا
الى برلين . وسأني أحدم غما إذا كان يلقى بمثله أن يذهب في هذا
الوقت المصيب الى المانيا . فقلت له : ولم لا يذهب ، أليس هو حراً بنفسه ؟
قال : لا : ليس هو حراً ، وذهابه الى أعدائنا ليس من الوطنية في شيء ،
فأجبت ، وقد آلمتني حقته : أي منة لكم على شكيب ، حتى لا يتحرك
إلا بأمركم ؟ وهل هو مستخدم عندكم تدرون عليه الرواتب والملاوات ؟
ها هو في أوروبا منذ أكثر من عشرين سنة ، يناضل عنكم بلسانه وقلمه ،
فما هي المعارضة التي قدمتموها له ؟ لو نبغ شكيب في امة غربية تقدر رجالها
قدروا ما شعر بالضيق حياته قط ، بل لكان موسماً عليه في الرزق والنفقة .
وقلت له إن الذي عرفته أن للأمير شكيب عقاراً في برلين ابتاعه زمن
الحرب الكبرى ، أيام سقوط المارك ، ويحاول اليوم بيعه ، أو استيفاء
ريعه ، ليرتفق بثمنه ، ولا يتم ذلك الا بحضوره . وما نجوت من اعتراضات
هذا الوقح الوتخ ، إلا بعد أن قلت له إن الأمير اليوم في نحو السبعين
من عمره ، فلهذا اصيب بما يصاب به بعض الشيوخ من خرف ، فعند ذلك
هش ، وأعجبه اعتذاري البارد الذي يشبه اعتراضه السمج .

ما ادعى شكيب ولا ادعى له المجنون بجهاذه العظيم أن جميع ما أتاه كان سديداً من كل وجه ، وأنه معصوم من الخطأ في الخطط السياسية التي انتهجها لخدمة امته . إن من يعاني السياسة في أدوار مختلفة ، ويقضي فيها زمناً طويلاً بالقياس إلى أعمار الخلق ، لا يخلو من هنات تؤخذ عليه منها بالغ من جلال القدر . ومتى كانت السياسة كالقوانين العلمية ثابتة على الأيام لا تتغير ؟ لم تطل خدمة رجل من رجالنا كما طالت خدمة الأمير شكيب في السياسة والأدب ، ولم يكن من أحد مثلما كان منه على اطراد لا قصور فيه ولا فتور ، ولم يشتهر واحد منا شهرة عالمية كما اشتهر الأمير شكيب . اشتهر بالسياسة كما اشتهر بالأدب ، وعرف عند الشرقيين كما عرف عند الغربيين ، فهو العيار المقطع النظير لم تنبغ الشام في موضوعه أجل منه .

وإذا أضت الحال بأن يرسم عوام الشام للأمير هدفه ، ويلزمونه باتباعه ، فيالضيعة الآمال ، وباللبؤس العلم والعلماء ، وإذا كان الرجل من هذا الطراز البارع ، يحتاج إلى شهاداتهم ، بعد صرف العمر كله في التطوع لخدمة الاسلام والعرب ، فيالشقائنا وطول بليتنا بالجهلاء وجهلهم .

بعض الناس يتطلبون من الرجال ألا يملطوا ، ويتوقعون من النابهين أن يكونوا على الصورة التي يصورها لهم الخيال . يحاول كل واحد من امتنا أن تسن له قانوناً خاصاً يطبقه على نفسه متى أراد ، ويحاول كل صملوك غبي أن يطبع الرجال بالطابع الذي يختاره ، ولا بعد الكمال المطلق الا ما تخيله .

كتبت إلى شكيب مرة أن يجمع لنا مقالاته التي تصلح للانتفاع بها في المستقبل ، يطبعها في كتاب برأسه وأن يؤازر مجلة المجمع العلمي ، فأجابني من لوزان (يوم ٩ مارس ١٩٣٠) بما يأتي « أما ما أشرت به من الكتابة في مجلة المجمع فواجب ، وإن لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ لكن يا أخي أصبحت من هذه الكتابة في خطب وأي خطب . كلما قرأ

الناس لي مقالات في الجرائد انهالوا عليّ بالافتراحت ، ولا ابالغ لك إذا قلت إن الجرائد والمجلات التي تبغيني أن اكتبها تزيد على أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن اجيبها الى رغبتها ، وبعضها إذا كررت الطلب ولم ابادر الى ارضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم استيائها . ولا أعلم لماذا كرم الاخلاق يؤدي بالانسان الى العبودية ، فأنا على ثقة أنني لو لم اكتب في بعض جرائد وبعض مجلات ، وكنت قابلاً في زاوية أقرأ نفسي وأكتب نفسي ما كانوا يطعمون هذا الطمع بي ، لكنهم ماداموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتي ، تشتد بهم رغبة المطالبة والالحاف في سؤالي مقالات . ومن الغريب أن هؤلاء السائلين هم يعرفون ما الكتابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحياً ، ولا يقال لها كوني فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهراً تاماً من الشروق الى أن تتوارى في الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تجرر في أقل من ساعة ، وأن على هذا المسكين الذي يتفاوضه كل هذي المشاق أشغالات أخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتباً لا بد أن يطالعها الخ . هذا لا يهمهم أصلاً بل يعرفون جملة واحدة من جميع بضائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال .

وفي أوروبا يطالبون الكتاب بمثل ذلك لكن لا يضيعون على كاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد وكل وقت عندهم له ثمن . وأنا مضى عليّ الآن (٤٤) سنة وأنا أحرك قلمي ، وأكتب إلى الجرائد مجاناً لا أبتني جزاء ولا شكوراً ، وأدفع اجرة البريد من كيسي ، فلو حسبت لا ثمن وقتي بل اجر البرد من ٤٠ سنة الى اليوم لكنت مبلغاً لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما لعبت وكل ما أنفقت من ذهني وعيوني ومالي ، وإنما أستمطر دموع شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطيه ساحة السنين ، وصار محتاجاً الى الراحة ولقد يقال لي إذا كان الامر كذلك فلا تبال بطلب زيد ، ولا باقتراح عمرو ، وامض في شغلك ، وأنت حر لست مقيداً بخاطر أحد .

والجواب : نعم كل هذا ممكن ، ولست مضطراً أن أرضي الناس بكل ما يريدونه مني ، ولكن الحصة التي أريد أن استخرجها من هذا ، على رأي الترك ، هي قصور أمتنا في معرفة أصول الاجتماع ، وسيرهم الى الآن على الطريقة البدوية . فكما أن المسافر في القلايدخل أي بيت يراه فيها ، ويرى حقاً على صاحب البيت أن يتلقاه ، وأن يقريه ، كذلك كل انسان منا يرى له الحق أن يستبد بوقت الآخر ، ويستثمر عقله وعلمه وجميع وسائله ، ولا يرى في ذلك عجباً . فهذه لا أجد منها شيئاً عند الانتم الأوروبية التي لا تفهم كيف أن الانسان يطالب الآخر بسطر واحد يكتبه مجاناً ، فضلاً عن المقالات الكثيرة والحوائج الثقيلة ، والتي لا تفهم من كرم الاخلاق أن الكرم يجب أن يصير عبداً لمن يكرمه ، بل الحرية عندكم هي فوق كل شيء .

ولشيرون بان نجمع ما كتبناه أو شيئاً مما كتبناه ، وهو أمر يحسب في صدري دائماً ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ إنني لا أريد أن أجمع كل ما كتبته فانه يملأ أجلاداً وأجلاداً ، ومن يقرأ هذا كله ؟ ومن يؤدي كلف طبع كل هذا ؟ ولكني أفكر في انتقاء الاحسن وجمعه ، واعادة النظر عليه ، ولصحيح شيء ، وحذف شيء ، وازافة شيء يسير إن وجد ضرورياً ، وهذا كله يستلزم وقتاً . فأما طبع كل ما خطته بنائي فغير مستطاع ، لانه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فاني في أوروبا منذ اثنتي عشرة سنة ، وفي الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات في السنة ١٢٠ مقالة في الاثنتي عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة فادا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب فهذه فوق أربعة آلاف صفحة أي ثمانية مجلدات كبار ، وهذا عن ١٢ سنة ، وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة ، وأنا اكتب ، فلا يقل المحصول في هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتي عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالاقول . كلا هذا لن أقدر على طبعه . وهذا كله ذهب في الجرائد الطائفة ، وهذا كله أفقت فيه جوهر حياتي ، وكفنته باجرة البوسطة ، من كيسي واجره

على الله . وغاية مكافأتي عليه أنهم بعد موتي سيقولون في ترجمة حالي :
كان رحمه الله يكتب كثيراً جداً سبباً أو ثمانياً من الساعات كل يوم ،
ولم يكن يساويه في ذلك إلا المرحوم كرد علي . فذلك أيضاً كان من
الافذاذ في هذا الباب . لا تحزن لقولي المرحوم كرد علي ، عسى لا يكون
ذلك قبل مائة سنة ، ولكن ينبغي ان تعلم انك لا تعطى حقك إلا بعد فراق هذه
الدنيا ، وما دام المرء حياً فقلوب معاصريه قاسية عليه ، وأنا افضل أن تقسو
عليك القلوب وأنت حي ، من أن ترثي لك وتكثر من انصافك وقد مضيت
بعد زمن طويل »

وكتب الأمير بعد سنتين انه متخذ بكل ما يكتبه سجلاً يومياً يذكر
فيه كل ما يكتبه من مكتوب خصوصي او مقالة او غير ذلك . وعندما انتهت سنة
١٩٣٢ جمع متوج القلم هذا العام فبلغ (١١٥٣) مكتوباً خصوصياً و (١٠٨)
مقالات وقصيدة واحدة ونحوها من الف صفحة من علاوات على حاضر العالم
الاسلامي وصفحات أخرى لم يحصها بعد من كتب أخرى . قال وكانت
المقالات السنوية تبلغ المئين ، والمكتوبات الخصوصية تبلغ في السنة الالفين ،
وقد كان يمكن ان تكون المقالات أكثر من هذا القدر بكثير ، وكذلك
ما أزعجه من التأليف ، لولا كثرة المكاتيب أو المكتوبات المتواردة من جميع
العالم الاسلامي ، فهذه المراسلات الخاصة تأخذ أكثر وقتي ، ولا مندوحة
لي عن الجواب لاني اعد ردة الجواب كرد السلام ، وأرى عدم الرد
نقصاً في المروءة . وإني أتألم من ضياع الوقت في كثير من الرسائل الخصوصية
التي خمس او ست منها فقط تأتي على النهار كله ولكن ما العمل ؟ كنت
مرة في برلين وكان أخي عادل يرسل لي من لوزان مجموع ما يأتي به البريد
باسمي ، فكتب لي مرة على سبيل المداعبة : جاء بريد سورية ، وبريد مصر ،
وبريد الحجاز ، وبريد العراق ، وبريد المغرب ، ولم يبق إلا بريد خراسان وماوراء
النهر . . الى ان قال والكتاب المعروفون في اوربا عاملون بقاعدة « الوقت نقد »
فلا يضيعون أوقاتهم بالجواب على الكتب الخاصة إلا ما ندر لأنهم ينفقون

بصارهم وأبصارهم على الكتابات التي يديعون منها ويعيشون بها ، أما نحن الشرقيين فلا نعرف هذا الحد من حب الذات ، والضيافة عندنا مقدسة حتى على الميون ، وقصارى ما يرجوه الواحد منا هو عدم المعاناة إذا تأخر الجواب لانه متى كثر الشيء لم يكن بد من التدرج في تسريحه ا هـ .

وكتب الي يصف عمله في كتبه وما يمد للنشر منها وختم قوله بهذا (كتب الله لك ولي السلامة حتى نشفي غليلنا نحن الاثنين مما نريد أن نكتبه ولا نموت الا وكل واحد منا قلمه في يده) . ا هـ .

كنت اذكر مرة لصديقي مصطفى بك العظيم بمض صفات الأمير شكيب فقال لي : إنا معاشر الشبان لا نعرف كل هذا ، فهل لك أن تمن علينا بكتابة فصل في مذكراتك ، نشقنا بسيرته ، ولعلم أبناء الجيل القادم فضل الرجال الذين عملوا لنا طول حياتهم ، فكتبت هذا وما هو في الحقيقة ترجمة مستوفاة لحياة شكيب الحافلة بمجلائل الأعمال ، بل هو مثال مصغر من جهاده ودؤبه وإخلاصه في خدمة العرب والاسلام توخيت ألا أخرج به عن اسلوب المذكرات ، ولكل مقام مقال .



تحرير بلاد العرب

قلت لمن حرصوا على مشخوصي إلى الحجاز في العهد السعودي : ليبدأ جلالة الملك ابن السعود بثلاث مسائل ، وهي كفني الآن عن ذهابي وذهاب أمثالي . ليجعل لكل من الحجاز ونجد موازنة خاصة ، يدخل في كل واحدة منها مبلغاً احتياطياً لا ينفق إلا في الطوارئ الشديدة . ويشرع بتدريب الفين أو ثلاثة من الجند ، يعلمهم على النظام الحربي الحديث ، ثم يزداد المجندون مع الأيام ، فقد رأى ما حلّ بالملك حسين لما غفل عن هذا الأمر المهم ، فالبسوا لا يكونون سياجاً لدولة فتية ولا عبوز . وليرسل إلى مصر خمسين طالباً ذكياً من أبناء الحجاز ونجد ممن درسوا الدروس الابتدائية ، يتعلمون في مدارس مصر الثانوية ما يؤهلهم للدراسات العالية ، كأن يكون منهم مهندس الطرق ، ومهندس الري ، ومهندس الكهرباء ، ومنهم يكون رجال الزراعة والتجارة والطب والادارة والتربية الخ ، على أن يزداد عددهم عشرة في كل سنة وبذلك يدوس جزء من أرض العرب عتبة الحضارة بقدم ثابتة مستديمة . وقد حقق الملك بعض هذه الرغبة .

من أقصى أماني كل عربي عارف أن يتحضر العرب ، ولا سيما أهل الحجاز وما إليها واليمن ونجد وما والاها ، كما تحضرت بحضارة هذا العهد مصر والشام والعراق ، على اختلاف بينها في درجات المدنية ، فإن هذه الأقطار الثلاثة تتمثل الآن الحضارة المصرية . ولا يتم التحضير المنشود إلا بأعداد فئة من الخاصة مختارة من أبناء تلك الممالك فتعمل هي على إسماعها في الأمثال « قتل أرضاً عالماً » . هذه الطريقة طويلة لكنها مأمونة قوينة وبغيرها لا يستقيم أمر هناك ، ولا سبيل إلى النهوض إلا بالكثارة من أهل هذه الطبقات ، والقضاء على الأمية قضاء أبدياً .

لا يُعجز صاحبي اليمن والحجاز ونجد شيء إذا عزمنا عزماً قطعياً على الدخول في التمدين على هذا الوجه ، فعندهما المال ، وأمامهما كل طرق النجاح مفتحة في هذا الباب ، وما قد رأينا الإمام ابن سعود لما صحت عزيمته على توطيد الأمن ، وتنظيم شؤون الصحة ، كيف آتم ما تفاخر بعمله . ورجائي أن يشغل المقربون منه لمصلحة العاهلين العظامين أكثر مما يميلون لمصالحهم الشخصية . وأن يدركوا أن التحرر السياسي لا يدوم إن لم يشغله التحرر الاقتصادي ، وأن الاستعباد الاقتصادي أشنع ضروب الاستعباد .

كتب إليّ الأمير شكيب أرسلان من الطائف يوم ١٥ المحرم ١٣٤٨ كتاباً في حالة الجزيرة ، وما يراه في اصلاحها ، رأيت ان أضمه إلى هذا الباب ، عسى أن يكون منه لأمتنا ما ينفعهم قال : ولا يخلو البلد (الحجاز) من أدباء وأبناء بيوت نبيلة مهيبة إلا أن هذا العدد قليل . ولكن الأمور في الحجاز أيضاً سائرة إلى الأمام ، وهناك نهضة ، وهناك فكرة عربية ، وهناك نزوع إلى ما زعت إليه سائر الأمم من الرقي العمراني والأدبي . وعسى أن نكون قننا بجزء ضئيل من التأسيس لهذه المشروعات النافعة لأن جلالة الملك ابن سعود ، والحق يقال ، رجل كبير واسع الإدراك ، سريع انتقال الفكر ، منطقي الحاكمة ، يقبل كل ما فيه خير للبلاد من مادي أو معنوي ، ولكنه يسير في الاصلاحات سير من يقبل منها شيئاً بلا تردد ، ومن يتروى في الشيء الآخر ، ومن يرد بعضها لأسباب لا تزال موجودة وبالأجمال هو يضع الهناء مواضع الثقب .

قال والحق يقال إن الطائف هي قطعة من الشام أقامها الله في الحجاز ، لا بل لك أن تقول هي قطعة من أعالي جبال الشام كملولة والنبك وعسال الورد وذلك الصقع الممتاز بحسن الهواء وعذوبة الماء ، فهي رحمة بجزيرة العرب ، وأظن أن مستقبل الطائف والجبال المحيطة بها ، والتي فيها قرى أعلى من الطائف ، سيكون عظيماً لاسيما إذا ارتبطت بسكة حديد مع جدة ، وربما تصبح مقصداً للسياح المسلمين والمصطفين من الأقطار المختلفة .

ومما يسرّك أن البلاد من الطائف جنوباً إلى أبها ، وهي مسافة ٨ أيام على الراكب ، ومن أبها إلى صنعاء ، وهي مسافة ١٥ يوماً كلها صقع واحد في الارتفاع عن سطح البحر . وفي حسن الهواء ، وعذوبة الماء ، وتزيد على جبالنا بحصب الأراضي ، وإن كانت جبالنا الشامية أغزر ماء ، وأسيح أنهاراً ، وهذه النجود والسهوب التي في هذه الدرجة من الحصب ، وحسن الاقليم والتربة الخصبة تشرف على تهائم وسواحل ممتدة من شمالي عسير إلى نواحي عدن من أعظم بلاد الله قابلية زراعة ، وإن كان الحر فيها شديداً . فالذي يراه هذا الما جز هو أن تمبيد الطرق ومد الخطوط الحديدية ، سيجمعان من جزيرة العرب الوطن السعيد الذي تتحقق به الأمان ، فالساحل ساحل والجبل جبل ، وكل منهما يكون متصلاً بالآخر بفضل المواصلات والطرق الحديدية ، وللناس في جروم البلاد وصرودها جميع نباتات الاصقاع الحارة والباردة ، دانياً بعضها إلى بعض . هذا فضلاً عما في مد هذه الخطوط الحديدية من تقريب المساف ، وتقريب الأفكار ، وتوحيد الخواطر ، وجمع كلمة الأمة العربية وادناء الاقاصي بعضها إلى بعض ، فإن المواصلات هي الأساس في وحدة الثقافة والحضارة كما لا يخفى ولما بدأ كافور بمشروع توحيد الأمة الإيطالية كان أول ما وجه إليه نظره مد السكك الحديدية بين شمالي إيطاليا إلى جنوبها ، وهكذا قل في سائر الممالك التي توحدت .

وستقول لي الآن : عظيم جداً كل هذا الذي تتخيله يا أخي شكيب ، ولكن هل في نية الملك ابن سعود والامام يحيى أن يمددا هذه الخطوط الحديدية التي تقول عنها ، وأن يربطاً أجزاء هذه القاصية بعضها ببعض ، وأن يعملا هذه الاعمال ، وأن يحققا هذه الآمال الخ ؟ فأجيبك : كلا ، هذه المشروعات لا أقول إنها على طرف النشام ، وذلك ليس لجهل الامامين المشار إليهما بفوائد الطرق والسكك الحديدية والمشروعات العمرانية ، ولكن لصعوبات اخرى لا تسكاد تحصى منها ما هو اقتصادي ، ومنها ما هو إداري

ومنها ما هو سياسي . فأما الموانع الاقتصادية ، فإن هذه المشروعات تقتضي ملايين وملايين من الجنيهات مما لا يوجد إلا عند الاوربيين . ومما لا مشاحة فيه انه لا يجوز إعطاء شيء من الامتيازات لمشروعات كهذه لرواد المطامع الأجنبية . وسامسة الاستثمار ، طلائع الابتلاع والالتهم ، على حين ان المسلمين وحدهم لا ينهضون ببذلاء كهذه ولا يدفعون اموالاً ولو وجدت عندهم لاجل المشروعات العمرانية ، لاثمهم اقل الناس اعتماداً على طريقة الشركات . واما الموانع الادارية فانك لا تجد لهذه المشروعات النفر اللازم لها من العرب ، وان اهل هذه البلاد تغلب عليهم البداوة كما لا يخفى ، فلا بد من وقت طويل حتى يرتقوا إلى سويّ اهل سورية مثلاً .

فأما اهل سورية الذين كان يرجى منهم ان ينتشروا في جزيرة العرب صناعاتاً وزراعاً وتجاراً وعمالاً فانهم يفضلون الهجرة الى أقاصي الغرب ، ولا يتركون زاوية من أميركا او افريقية الغربية واستراليا حتى يتنادوها بدون ادنى عناء ، وتراهم مع ذلك لا يريد الواحد منهم أن يطأ جزيرة العرب لا نجدها ولا سهّلها بقدمه ، وتراهم يشكون الحر الذي فيها ، ويتخوفون اذا جاؤها من مغبة الحر ، وينسون انهم يمانون من حر أميركا الجنوبية ورطوبتها وامراضها ما يزيد او يساوي حرارة جزيرة العرب التي هي في الواقع لا تعد شديدة إلا في الهائم . فأما الجبال الممتدة من الطائف الى صنعاء أي مسافة نحو شهر على الراكب فانها كأحسن ما يكون من جبال لبنان ، وتمتاز بخلو اهويتها من كل رطوبة ، فهي من اصالح الاقاليم للسكنى . ولقد بلوت هواء الطائف بنفسى ، وعرفت من سرعة انماشه للضعيف ، ما لم اعرفه من بلد آخر في حياتي .

فأما الموانع السياسية فإن ملوك جزيرة العرب اصبحوا يستوحشون كثيراً من مد الخطوط الحديدية في الجزيرة ، لما يرون وراءها من تقرب المواصلات مع الاجانب الذين يتمثل لهم شبح استعمارهم في كل ليلة ، ويجدون

ايضاً أن من العرب فئة ليست بقليلة لعمل كل شيء ، ولو اضررت بمجموع الامة وأحبط عليها استقلالها ، وذلك انتقاماً من الاشخاص ، وجرباً مع الانهواء والاحقاد الشخصية ، فيرى هؤلاء الملوك ان اعدامهم يكونون مطايا للاستعمار ، ولتدخل الاجنبي في الجزيرة ، بمجرد ما تلوح لهم الفرصة ، فيعدلون في سياستهم الى الانكماش في داخل اراضيهم ، والاعتصام بفلولاتهم ، موصدين في وجوه الاجانب ، ومن يحطب في جبل الاجانب . ابواب البلاد بقدر الامكان .

ولقد تحدثت مع جلالة عبدالعزيز بن السموذ فلم اجده ينكر شيئاً من فوائد هذه السكك الحديدية ، ومن وصل اقطار الجزيرة شمالها الى جنوبها ولكنني وجدته على حذر شديد في هذه النقطة مكثفياً الى هذه الساعة بسير السيارات التي اخذت تمشق بلاده شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قائلاً لأنني ارى فيها الكفاية في الوقت الحاضر . نعم إنه يجتهد في اعادة الخط الحجازي وربط المدينة المنورة بسورية عوداً على بدء ، لما يعود على القطارين الشامي والحجازي من فوائد هذا الارتباط ، ولكنه يأبى ان يسلم بمطالب فرنسا وانكارتا في امر القطع التي في سورية وفلسطين وشرق الاردن من الخط الحجازي ، وفي أمر الامتيازات التي يملكها الخط ، وبالجملة لا يرضى أن يفضي على تحييف الدول الاجنبية لوقفية سكة الحجاز العائدة للمسلمين .

فأنت ترى أيها الأخ أن دسائس الغرب في حق العرب هي أيضاً من جملة عوائق المشروعات العمرانية في ديارهم ، ولكنني واثق أن الامة العربية مع الزمن ستقلب على هذه الموانع ، وأنها ستتمو فيها الفكرة القومية السليمة من الأغراض الشخصية ، بحيث يصبح الكلام الأول لمن أيقنت الامة بأنه هو الأقدر على صيانة استقلالها ، والآنزع الى استرداد حقوقها . ولا بد أن يأتي زمن تضعف فيه السياسة الشخصية ، بل تذوب في السياسة القومية العامة . وهناك تنطلق أيدي الامة وأولياء أمورها في المشروعات العامة المادية والمعنوية بدون نكير ، وبدون حذر من الدسائس المعهودة ، لأن الدسائس الاجنبية إنما هي ميكروب لا يقدر أن يرعى إلا في أجسام الامم الضعيفة الجاهلة ا ه .

توارد الخواطر

كنت منذ سنين اطيل التفكير في انواع الحكومات في العالم فعلمني الزمن ان اكثرها غير صالح عملياً ، وخصوصاً في ديار كديارنا ، عرفت بتأخرها في بعض اوضاعها ، بانقياس الى الامم العريقة في حكم نفسها بنفسها . كنت انقد الحكومات الملكية المقيدة ويذهب بي النظر الى ان من الملوك من يحمل الضرر الى امته بسوء سيرته وان الصالح فيهم قليل وان بعضهم يرهق امته ليسرف فيما تهفو اليه نفسه اسراف جنون .

وكنت اذا نظرت في صورة الحكم النيابي أو الجمهوري اراه الى القوضى ومن ابعد اساليب الحكم عن الحرية الحقيقية ، يتغلب فيه الاقوياء وتكون السيطرة للحزب الغالب ، وهذا لا ينتظر على الاكثر في غير منفعة انصاره ومريديه وقد يفضلها على مصلحة الامة والدولة ، ولو كان يعتقد مضرتها . اما الحكومات الملكية المطلقة او الاستبدادية الفردية فضررها مشهور محسوس ، وخاصة في ايام الشرق حيث القول الفصل للطاغية من الملوك والطواغيت من المتغلبين ، وحيث الشعوب لم تتشبع بروح الشورى واصول الحرية ، تساق بالرهبة وتحكم بالجبروت ، ولا تعرف للنظم والطاعة الذاتية معنى .

وكثيراً ما كنت اخاطب النفس فأقول : ليت شعري الا يصلح الحكم في دولة على ايدي جماعة مختارين من رجالها تكون لكل واحد مزيتة واختصاصه يؤلفون مجلساً يرئسون احدهم عليهم فيكون رئيس تلك الدولة الى أجل مسمى ، فاذا خلا مقعد احدهم بعد ذلك يختارون هم من يخلفه لا الاهالي وذلك لان الاتكال على هؤلاء في اختيار نوابهم قد لا يكون الى الصواب كل حين ، ونصب النواب بطريقة معقولة مجردة عن الهوى في الجملة ربما

كان الى السداد أقرب . والنواب الذين ينتخبهم رؤساء الطبقات المختلفة أو يختارون بصورة من صور الانتخاب افضل ممن تختارهم الأحزاب وتدعو لهم . سأني صديقي الاستاذ ماسينيون وهو ممن يعنى بالسياسة الاسلامية في فرنسا اوائل الحرب الاخيرة (١٩٣٨ - ١٩٤١) عن حالة سورية السياسية فذكرت مساوئها والممت الى تخبطنا في كل ما جربناه من اساليب الحكم ، وقلت له ان حكومة الجمهورية كانت غريبة الشكل ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب . وقلت له رأيي في اختيار مجلس على الصورة التي ارتأيتها فاستحسن الفكرة وكتبته له على اسرع وجه مذكرة صورت فيها العمل وعينت الاشخاص الذين يجب التعويل عليهم في الحكم الجديد في هذا القسم العظيم من الديار الشامية . تعلقنا الاقدار بهزيمة فرنسا ، وبعد نحو سنة بدأت حكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان بتطبيق طريقة جديدة في الحكم تشبه من بعض الجوانب الطريقة التي اختارناها لنفسها في القسم الذي لم يحتله الالماني من بلادها ، وسموا المجلس الجديد المجلس الاستشاري والى الآن لم يعين افراده ، وهذا المجلس اذا تمت له جودة الانتخاب يكون من أحسن المجالس . اما انا فأرى ذلك متعذراً مادام فريق الوطنيين يريد اطالة مدة حكمه بمسايرة الموحين وهؤلاء لا يرضيهم الا أن يكون كل من يعين ممن ترضى عنهم دواوين الاستخبارات

ولقد الح عليّ رئيس مجلس الوزراء صديقي السيد خالد العظم أن اكون عضواً في المجلس الاستشاري الذي عقده في عاصمة الشام فاعتذرت بأن اشغالي العملية لا تترك لي مجالاً للتفكير في شيء آخر ، وان نفسي الى اليوم ما طابت لتولي النيابات ، واضنها لا تعليب لها فيما بقي لي من أيام في الحياة . وقد جريت على قاعدة العفة عن مطالبة الامة بشيء ، جريت معها على ان اخدمها فيما اعتقد أن فيه الخير والا اطلب منها شيئاً .

وهناك سر آخر كتمته وما بحث به وهو اني اعرف ان المجلس سيراؤه
لا محالة احد رجال سياستنا المقربين جداً من المتدينين ، ومعظمهم ممن بلوت
فما حدثت ، فمن العبث ان اساهم مع من اعتقد عدم اخلاصه وكفاءته ،
وقد شب "عمرو عن الطوق . ولو كان قولى المناصب الكبرى بالعلم ما كان
يتولى الجبهة رئاسة الوزارات ورياسات المجالس على الغالب ولا كان للعلماء نصيب
مفروض في الزعامات .

لو كان من طبيي استئثار قوة غيري لما صعب عليّ تأليف حزب والسبي
في طرق توصلي الى الرياسة الكبرى ، ومن بلغوها ما كانوا من ارباب
الذكاء الذي لا نظير له ، ولا من ارباب العلم والفصاحة بالمكان الاعلى ،
ولا من الخبرة والتجارب على جانب ، ولكنني ما احببت أن اوجد مسعاهي
مع من يتعهد بشيء ثم ينتقضه بحسب هواه عند اقل بادرة ، ويترك من يماونه
في الازمات فيحترق كما احترق معظم من تولوا الحكم في ديارنا
على العهد الاخير .

ولقد كان أحد من يبدم النهي والأمر من كبار رجال الانتداب
يريدني منذ سنين على أن ادخل في السياسة وأشار إليّ بأنه سيمهد إليّ
رياسة الوزراء فأبيت . وقدمني هذا الصاحب إلى أحد كبرائهم مرة فذكر
له صفات فيّ غالى في تقديرها ثم قال إلا إنه لا يجب السياسة . نعم
هو على حق فيما قال ما أحببت السياسة لأنها جلبت عليّ الويلات وضياح
الأوقات . ولو كنت أعلم أنني أنجح فيها على طريقي مع هذه الدول المتقلقة
والحكومات المستضعفة لكنت أول مشغل بها ولا يقتصر مطمي فقط في
الرياسات الكبرى بل أقنع بأقل الأعمال إذا كان من ورائها فائدة محسوسة
للوطن . وبلغني أن بعض الأحزاب في العهد الأخير اقترح على أرباب
الشأن توسيد رياسة الوزارة إليّ بدون أن يفاوضني بذلك ، ولو سألتني من
قبل لحلت بينها وبين ما قالت فيّ .

إن العالم على أبواب حدث جديد لم يسبق له مثيل في التاريخ كما لم يسبق مثيل لهذه الحرب الحاضرة فكل ما يعمل من هذا القبيل موقت إذا ظفرت ألمانيا في هذه الحرب العوان . وهي التي كتبت لها الغلبة في كل مكان وطنته جيوشها في هذه الحرب الناشئة وستأتي العالم بقانون تجري تنفيذه على الأمم والشعوب في الغرب والشرق وإذا . تراجعت واضمحلت وغلبت بريطانيا العظمى في النهاية فإن هذه تعمل كل ما ترى فيه مصلحتها مع الشعوب والأمم ومن مصلحتها تكثير الحكومات باسم الديمقراطية وكل حكومة تسن لنفسها القانون الذي ترضاه من أكثر الوجوه .



المعارف والادارة

فما يلي صورة تقريرين ارسلتهما في أمر المعارف والادارة الى رئيس الدولة يومئذ الأول في طرق الاقتصاد من موازنة الجامعة السورية افتتح مدارس ابتدائية والثاني في الاصلاح اللازم في جزء عظيم من اجزاء الدولة وقد اقتضت في الأول على ماله علاقة بالتعليم عامة واقتبست الثاني برمته نموذجاً مما كنت اكتب في اصلاح الادارة .

هذا يامولاي زهاء خمسة وسبعين الف ليرة سورية من الوفرة (وفر الجامعة السورية) بنفق قليل منها على تأسيس فرعي الدروس الأدبية العليا ومدرسة الآلهيات تضافان الى الجامعة وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانمائة ليرة دينارية وبذلك نكون انفذنا ارادتك العالية في تأسيس هذين الفرعين المهمين لشدة الحاجة الى الباحثين والمؤلفين والقضاة والمفاتي والخطباء والائمة الدارسين على الاصول الحديثة ثم يصرف بقية المبلغ المقتصد وما يحصل من وفر المدارس والمعاهد الاخرى في الدولة على انشاء مئتي مدرسة ابتدائية هذه السنة تضم بين جدرانها على أقل تعديل عشرة آلاف من البنين والبنات وبهذا العمل نخطو الخطوة الاولى نحو التعليم الاجباري .

يقول المليون انما يشرع الاتفاق العام في سبيل النفع العام فقط . والنفع العام هو التعليم الابتدائي اي التعليم الذي يدر على مجموع الامة الخير ويتناول نفعه كل الطبقات من ابناء الوطن . ولعلمون حالفكم التوفيق شدة عوزنا الى هذا الضرب من التعليم حتى نخرج هذه الامة من الامية اصل بلائها وشقاؤها في كل دور ، ولعلمون ان ادارة الصحة العامة طالما اندرت وزارة المعارف باقتال المدارس غير الصحية في مدرسة في صميم دمشق

م (٢٨)

تضم نحو اربعمائة طالبة وهي لا تسع في الحقيقة مئة ولم تستطع المعارف أن تستأجر داراً قوراء تؤوي البنات فيها لضيق مخصصاتها وهكذا الحال في غيرها . وتعلمون أيضاً ان عشرات من القرى أعدت الدور وتكفلت بلوازمها على ان ترسل لها المعارف المعلم او المعلمة والى اليوم لم نجب الطلب لضيق موازنة المدارس الابتدائية . وانه لو كان للمعارف اماكن صالحة واسعة ل زاد عدد المتعلمين زيادة كبرى ولم يقف عند حد ٢٦٧٣٦ تليذا يدخل في ذلك تلاميذ التجيزيات ودور المعلمين والمعلمات ومدارس الصنائع والميائتم وطلبة لواء الاسكندرونة ، في دولة لا يقل نفوسها في الحقيقة عن مليونين وتعلمون أيضاً ان لواء دير الزور كان فيه ايام الدولة العثمانية نحو اربعين مدرسة وليس فيه اليوم سوى اثنتي عشرة مدرسة هذا مع انه اضيف الى املاك الدولة السورية من الشمال نحو ثلث الجزيرة العليا ونحن نتاخم العراق من جهة واربع ولايات تركية من اخرى وهي ماردين وسيورك واورفة وعينتاب . وتفي الدولتان المجاورتان كل العناية بالتعليم والتربية وتعلمون الحاجة الماسة الى زيادة مبلغ طفيف لمعلمين يعلمون ابناء القرى مبادئ الزراعة العملية وان عندنا مدرسة عظيمة في قضاء الميادين على الفرات تصلح لتعليم الزراعة العملية مع الدروس الابتدائية والمدرسة أرض واسعة جداً سهل ارواؤها وكذلك في شمسين في حوران فان فيها سرايا مخربة اذا رمت لتصبح مدرسة زراعية بسيطة من هذا القبيل ولها ارض واسعة يشقها نهر أيضاً ويمش الاولاد في المدرستين عيش بلادهم ولكن على طريقة منظمة نظيفة ويتعلمون ما يجب الارض اليهم وما يمكنهم في الحال زرعـه وغرسه من الحبوب والبقول والاشجار لا يكونوا اصحاب شهادات فالذين عن الاحتياج يطالبون الحكومة كل حين بان يستخدما في دواوينها ولو بأجر زهيد .

ان حالة الفلاح يا مولاي تحتاج الى اصلاح بليغ حتى يتعلم من الصنائع الزراعية والصنائع اليدوية ما يمكنه معه ان يعيش وتستفيد المملكة من عمله

وما برحت الصنائع الزراعية الى اليوم على حالة ابتدائية في جميع الاقضية والفلاح الراقي عندنا هو الذي يعمل الجبن والسمن وينسج بعض الاصواف الغليظة . اما الصنائع الاخرى فتكاد تكون مفقودة من معظم الاقضية فقد احتاجت المعارف في السنة الماضية الى اصلاح مقاعد مدرستها في مركز قضاء الميادين فلم تجد نجاراً في القضاء كله وبمض الاقضية لا نجار فيها ولا حداد ولا بناء ولا حذاء ولا حائك . وقد بدأت في السنة الماضية بعد أن شهدت هذا التأخر بالذات فأدخلت زمرة من أبناء لواءي حوران ودير الزور في مدرستي حلب ودمشق الصناعيتين ولكن الامة تحتاج من هؤلاء الصناع الى المئات بل الى الالوف ولذلك وجب على الحكومة أن تتوسع في تعليم البسائط من هذه الصناعات التي لا يستغني عنها اهل مجتمعها بل بلغ من انحطاطه .

ان عدة اقضية في الدولة السورية تحوي بضع مئات من القرى والمزارع وليس فيها سوى مدرستين او ثلاث . ان من القرى في ارجاء حلب ودمشق مافيه بضعة الوف من السكان وليس له مدرسة وفي غوطة دمشق مثال ظاهر من هذا النقص الذي يتحتم على حكومتكم السنية ان تنظر فيه كله نظراً بليفاً خصوصاً بعد ان ثبتت قابلية امتنا بدوها وحضرها للاخذ بأسباب التعلم والتعليم الابتدائي وما بعده ان امكن ، هو الخبز الذي يحتاجه الناس للغذاء . وأمتنا أحوج ما تكون اليه أولاً وفي دولتكم نحو خمسة آلاف قرية ومزرعة ومنها ما هو كبعض المدن ليس فيها الى اليوم سوى ٣٤٠ مدرسة ابتدائية ووسطى وعليا واذا لم نبدأ تجهيزها بالجهاز المطلوب فمقى نبدأ واذا لم تقتصد من الكليات كيف تتم لنا الحاجيات . هذا ما اراه صالحا لخير التعليم المنتج وبهذه الطريقة تُصرف الاموال على من جبيت منهم بطرق مشروعة معقولة ورأيكم العالي الموفق مولاي ،

دمشق في ٢٦ شوال ١٣٤٧ و ٦ نيسان ١٩٢٩

لمحاضرة صاحب الفخامة رئيس دولة سورية المعظم

أوصلني البحث في شؤون البلاد التي فتشتها بأمركم العالي في الولاية الاسكندرونة والفرات والجزيرة وحمص وحماه وبمض انحاء ولاية حلب الى أمور رأيت عرضها على فخامتكم لتنظروا فيها « أيدكم الله » وتجروا ما يمكن اجراؤه من الاعمال التي تعود بالنظر على هذه الدولة .

رأيت رغبة اكيدة في حرص الناس على تعليم أولادهم لا في المدن فقط بل في القرى الصغيرة . ومتى نشر قانون انشاء المدارس الذي تأخر في وزارة الداخلية على ما بلغني لأمور اعتبرتها جوهرية الآن يزيد عدد المدارس في الدولة خصوصاً في القرى والبلدان التي لا يصعب عليها أن تعاون الحكومة في انشاء الابنية لا يواء أولادها . واذا طبق هذا القانون بالتدريج وبموجب الحالة التي يعرفها المديرون وقوام المقام والمتصرفون لاعتراضي أعوام قليلة حتى يكون لكل مجتمع من الناس مدرسة . أما اتخاذ المدارس بالايجار فمحال أن تنتج منه النتيجة المطلوبة في التعليم فضلاً عن أنه يكلف الخزينة والاهلين مبالغ لا يستهان بها كل سنة .

خفت هذه المرة الدعاية التركية في لواء الاسكندرونة على نحو ما تجلت لي في رحلتي الماضية اليها وكان بمض الطلبة الذين درسوا سنين قليلة في مدرسة تجهيز انطاكية يقبلون مجاناً في المدارس العالية في انقرة بدون شهادات . وبالنظر للضيق المالي هناك أخذت الحكومة تمتنع عن اعطاء الكراسي المجانية حتى ان بعض من درسوا سنة او سنتين في المدارس العالية في انقرة من أهل هذا اللواء عادوا الى انطاكية يطلبون قبولهم في مدرسة التجهيز في الصف الذي يؤهلهم اليه علمهم واستعدادهم . وكثير من اهل القرى التركية في لواء الاسكندرونة زهدوا في الحروف اللاتينية وامتنعوا عن تعليم أولادهم التركية الا بالحروف العربية لانهم رأوا مصلحة اولادهم في ذلك وهم في ارض عربية .

شاهدت بعض مفتحي الوزارات يحتاجون أن يفتشوا ابدأ لانهم يكتفون بالظواهر ولا يهمهم الا قبض رواتبهم واخذ العلاوات والتعجيز في الوصول الى ترقيةهم فهم مفتشون ليس لهم من معنى التفتيش شيء يستحقون عليه هذه الرواتب وفي زمرتهم مفتش المعارف في لواءي حمص وحماة فانه يشغل وزارته في التافاهات وليس له من أدوات التفتيش ما يركن اليه اذا جد الجدد . فاذا كتب للمدرسة الابتدائية ان يكون معلما او معلمتها من الكفاءة يمكن نحيج الاولاد والا فهو لا يعرف كيف يدرب الناقصين والعاجزين من المعلمين او يكتب لوزارته بالاستعاضة عنهم . فقد زرت مدرسة دير بعليه على مقربة من حمص فرأيتها أشبه باصطبل منها بمدرسة وفيها معلمان يشبه عملهما عمل معلمي الكتاتيب الاهلية في القرى قديماً يتغيب أحدهما دائماً في حمص ولا من يماقبه والآخر يكتب لأهل القرية حججاً وتعاويز للمعجة والقبول وما أظن المفتش زار هذه المدرسة والا لكان اكتفى باكثر المعلمين كفاءة واخذ معلم الرقية والحجب على الاقل الى المدينة ليضعه تحت المراقبة مدة في مدرسة كبرى فاذا لم يصلح نفسه يخرج من الخدمة وكان الاولى اختيار واحد من المعلمين يحمله في قرية زيدل المجاورة التي بنى اهلها مدرسة كلفتهم ثلاثين الف قرش وهم يطلبون الى المعارف ارسال معلم ويكون هذا من أهل المذهب الغالب على تلك القرية .

إن فاقد الشيء لا يعطيه يامولاي ووظائف الحكومة للكفاءة لا لتأليف القلوب واكتساب الرضى ولذلك كان على كل وزارة أن تفكر ملياً يوم تريد توسيد أمر لا حدم أن تنظر قبل شهادته إلى ماضيه وأخلاقه وهذا ما يدعوني لأن أذكر لفخامتكم أن من صغار النقباء والعرفاء في الدرك اليوم من هم أكثر كفاءة من بعض مديري النواحي ويعملون عملاً نافعا لا يستطيع المدير القيام به لعجزه وعدم اهتمامه . وقد استطلعت رأي بعض كبار رجال الادارة فقائوا مي بلزوم الفاء هذه المديرات أو أكثرها وذلك أولى من بقائها في أيدي جهلة ينقصهم كثير من الصفات للادارة .

فم كثير من الموظفين لا يحسنون من النظام وحسن الترتيب ما يؤهلهم لهذه المراكز ومنهم من لا يعرف أكثر من البلد الذي هو فيه فاذا سأله عن أمر يتعلق بوظيفته مباشرة لا يحسن الفهم ولا الجواب فتتجلى لك جهاته وعدم عنايته ، وكأنه لا يهتم بغير مصانعة أصحاب الشأن أبداً والسعادة التي يربحها أن ترقى درجته ويكون في مركز في بلده أو بالقرب من بلده وقد يذكر لك ما يقاسيه وأولاده من شظف العيش قبل أن يطلبك على شكاوى الناس وما يجب عمله لتخفيف ضائقتهم والنظر في أحوالهم . وأحق الموظفين بالرعاية فيما رأيت موظفو لواء الجزيرة يجب أن تعطى لهم علاوات أو يعينون في أرقى درجات وظائفهم لصعوبة العيش المرفه في هذا اللواء وهذا ما أطلبه أيضاً لبعض المتصرفين فإن روايتهم لا تكاد تكفيهم لان يمثلوا الحكومة تمثيلاً كافياً ، ومراكزهم تضطرم للانفاق بالضرورة . وارى بعد هذا أن لا يطول مقام الموظف في الاقاليم النائية عن الحواضر القديمة أكثر من ثلاث سنين .

ان من أجمع الوسائل في توطيد شأن الحكومات أن تطبق مفاصل القانون على السيء ويكافئ الكفوء المستقيم وهذا ما رأيت يسير ببطء تقضي حالة هذه الدولة الفتية بالسير على خلافه ليزيد شعور الاهلين بأن العاصمة تهتم بشؤونهم كل الاهتمام . وما أحلى اليوم الذي ينتجى فيه الموظف الذي الجاهل ويعلمن للعلاء أنه نجي للسبب الفلاني ويكون ذلك بأسرع ما يمكن لا كما جرى بأحد قوام المقام في لواء الفرات فقيل ما قيل فيه واكتسبت أعماله درجة التواتر بل الثبوت وهو لا يزال في مركزه يأمر وينهى . وأنا لا أعلم السر في بقاء مثل هذه الحملات الطفيلية في منصات الحكم . وإذا لم يكن للعامل من أخلاقه وغيرته على مصلحة بلاده وأزع هبات أن ينفع فيه قانون سماوي أو ارضي .

نعم ان من اخرجوا من الخدمة أمثال هذا الموظف ومن أبناء سلكه من هم بلا جدال أقل ضرراً منه بمصلحة الدولة والملة . الرشوة يمولاي كالزنا صعب اثباتها ولكن إذا أمن الراشي والرائش طائلة العقاب تتجلى

الحقيقة من أيسر وجه . والرشوة أنواع ومن أبشعها أن يصانع القاضي أهله ولذلك تقضي الحكمة بأخذ بعض الموظفين في الاسبكترونة إلى جهة أخرى وأخذ بعض رجال القضاء في حلب وفي دير الزور إلى ناحية لأهل لهم فيها . ونحن لم نبلغ من الرقي درجة الكمال حتى يكون حكمنا مجرداً عن هوى الأهلى والولد . بيد أن المدلية كما سمعت من عارف من رجال الانتداب هناك احسن سلك أحسن بالاصلاح لما دخله من العناصر الجديدة الجيدة وأنا أحسست أيضاً أن الدرك الذي كان أداة شر وفساد في العهد التركي أصبح من أرقى الادارات في هذا العهد الحديث .

وإذا ثبت لدينا ان بعض المديرين وقوام المقامات ضفاف عن القيام بوظائفهم فأت من صفار المأمورين الذين عينوا شفقة عليهم او لاسباب أخرى في وزارة النافعة مثلاً من هم أضر على اعمال الدولة من غيرهم . فأمور لم يجد عملاً تجارياً ولا زراعياً ولا صناعياً لمطبخه ثلاثين او اربعين ليرة سورية وهو سالة كلية من حيث المعلومات وترسله يناظر على طريق أو بناية أو . جسر أسرع إلى تناول الرشوة من المتعهد وغيره من الماء الى الحدود . وقد ثبت لبعض الواقفين من رجال الانتداب في لواء الجزيرة ان كل عهد يقوم به الارمن هناك تكون أكثر مواده مفسوشة لان المراقبين لا يحسنون شيئاً من فهم ولا يهتمون بغير املاء جيوبهم والمتعهد جاء ليربح على كل حال . والرأي ان نختار الطريقة المتبعة في فرنسا يوم يراد تشييد مبان للحكومة وذلك بان يطرح العمل المنوي اتمامه لأرباب الاختصاص يكتب فيه كل من يريد التمهيد قائمة نفقاته ويمطي التمهيد بعد ذلك لمن يقع اختيار الحكومة عليه وترى شروطه أكثر موافقة اماطريقة المناقصة فلم تأت أكثر الاوقات بغير الضرر ومن المناقصين من تعهدوا فحسنت مراقبتهم فحسروا ، وبعض من خفت المراقبة على أعمالهم التزموا الطريقة المذكورة في ارضاء المراقبين الجهلة حتى يسكتوا عن نواقص مشروعهم

وما ادخلوا من الفش على العمل الذي اخذوا على انفسهم القيام به بشروط محدودة مقيدة . اما الطريقة التي سير عليها في انشاء تدمير الجديدة فأنتم تعرفونها وتوقنون انها غير ملائمة من حيث الاقتصاد والمثانة وربما كان يتأني اقتصاد ربيع المبلغ الذي انفق على تدمير وكان في الامكان ارضاء الاهلين الذين استنكفوا او أكثرهم عن السكنى في دور مهددة بالسقوط كل حين وليس فيها من المرافق اللازمة ما يرغب في اقتنائها . ولعل الفلطة التي ارتكبت في اقامة هذه الدور لا ترتكب في المستقبل . اما الجامع الجديد في تدمر فهو يكفي لاهل قرية سكانها ثلثمائة نسمة لا لبلد سكانه اربعة آلاف ولذلك ضاق بالمصلين فأخذوا ينشؤون لانفسهم جامعاً آخر . والمدرسة المنشأة هناك حسنة لو عمل الى جانبها مدرسة للاناث على طرازها . وعلى ذكر المدارس ارى ان يصدر امركم بانشاء مدرسة تجهزية في حمص أسوة بجارتها حماة .

واني لمغتبط جد الاغباط بما رأيت من قيام اعمال مهمة في بعض انحاء لواء الجزيرة الذي لم اضع فيه الدولة البائدة حجراً على حجر فالت بضعة من الجسور والطرق والمدارس ودور الحكومة مثال من العناية بذاك اللواء الجديد والحكمة تقضى بمضاعفة هذه العناية وان ينشأ فيه في السنة القادمة عشر مدارس ابتدائية لا تكلف اكثر من عشرة آلاف ليرة سورية وينشأ جامع فخم في عين دوار . اما عمل الاهلين في ارض الجزيرة فهو اعظم أثراً ذلك لان الحسجة التي لم تكن قبل ست سنين سوى قرية صغيرة أصبح سكانها اليوم نحو خمسة آلاف وكذلك يقال في القامشلي التي لم تكن تضم قبل ست سنين سوى بيت واحد وطاحون فأصبحت اليوم تحوي اثني عشر ألفاً من السكان مخططة على صورة هندسية جديدة منارة بالكهرباء مفروسة بالاشجار ، وغداً تلحق بها عين دوار وغيرها .

ولملمسون ايديكم الله ان معظم من هاجروا إلى تلك الارحاء هم من العناصر الكردية والسرانية والارمنية والعربية واليهودية . وجمهرة المهاجرين

في الحقيقة هم من الاكراد نزلوا في الحدود . واني ارى أن يسكنوا بعد الآن في أماكن بعيدة عن حدود كردستان لئلا تحدث من وجودهم في المستقبل القريب أو البعيد مشاكل سياسية تؤدي الى اقتطاع الجزيرة أو معظمها من جسم الدولة السورية لأن الاكراد إذا عجزوا اليوم عن تأليف دولتهم فالايام كفيلة بأن تليهم مطالبهم إذا ظلوا على التناغي بحقهم والاشادة بقوميتهم ومثل هذا يقال في اترك لواء الاسكندرونة فان حشد جبهتهم فيها قد يؤدي إلى مشاكل في الآجل لا يرتاح اليها السوريون فالأولى اعطاء من يريد من الترك والاكراد ارضاً من أملاك الدولة في ارجاء حمص وحلب .

ثم ان من ينزل من المهاجرين على ضفاف دجلة والخابور وجفجفج والبليخ والفرات يقطعون من شطوط تلك الأنهار ما يروقه من المساحات فيستقون منها للارواء ما يقتدرون على اروائه ويتركون ما وراءهم من الأرض بوراً لتعذر السقيا الآن ولا يبعد أن يجيء يوم تمتلك فيه تلك الشواطئ — مع ان اكثرها ملك الدولة لها حق النصف باعطائها لمن يريد — فاذا أحببت الحكومة أن تحمي موات الأرض البعيدة تلمذ على من ينزلها الوصول الى ضفاف الأنهار فتبقى أرضه عذياً : والأرض العذى لا قيمة لها في هذه الجزيرة التي توفرت فيها المياه الجارية وارتفعت في جوها درجة الحرارة في الصيف الى مثلها في مصر والعراق اي انها تبلغ من ٤٤ الى ٤٦ درجة . ولذلك نقضي الحكمة بأن توزع الأرض على نصاب عادل فمن يملك في الأماكن القريبة المأخذ يتحم عليه أن يحيي جانباً من الأرض الصعبة . ومهاجرة الكرد والارمن يجب في كل حال أن يمزجوا بالعرب في القرى الواقعة في أواسط البلاد لا على حدودها اتقاء لكل عادية لطراً ونحن الآن في أول السلم نستطيع التفكير والتقدير . بقيت مسألة مالية يظهر أثرها هذه السنة والمقل يقضى بحلها وأعني بها مسألة تعداد الأغنام . ومعلوم ان المواشي هي أهم مورد في لواء الجزيرة

واذا سقطت أسعار الصوف والسمن والماشية في كل مكان كان أكثر الاسقاع تأذياً بذلك من لا مورد لهم غير شياهم وجمالهم فالشاة التي نتقاضى منها خمسة وأربعين قرشاً سورياً يؤخذ عن مثلها في العراق نحو عشرين قرشاً سورياً وفي تركيا أربعون قرشاً تركيا أو نحو خمسة وعشرين قرشاً سورياً فاذا اتزلنا هذه الضريبة الى النصف توشك أن تدخل أرضنا قبائل كثيرة من العراق وتركيا على ما جرى من قبل ويتخذون ديارنا موطناً لهم وننجو من التهريب الذي كان على مقياس عظيم في السنين الفائتة . ولا بد من الملاحظة أيضاً ان الظروف الذي حال عليه الحول يساوي في قضاء القامشلي نحو ١٥٠ قرشاً سورياً ولا يساوي غير مئة قرش في قضاء عين دوار وذلك لصعوبة نقل الماشية في ربوع لعد مسافاتها بمئات الكيلومترات الى منافذ يمكن أن تقام لها سوق رائجة .

ولا أريد أن اختم تقريرى هذا قبل ان احيط علمكم الشريف بمسألة لها المقام الاول في عمران دولتنا واقصد بها مسألة التشجير . فان غرس الاشجار اذا كان سائراً سيره الطبيعي في الساحل كلاء الاسكندرونة فانه متأخر جداً في ولاية حلب ولواءى الفرات والجزيرة . فوزارة الزراعة يجب أن تضاعف عنايتها بهذا الامر وتهد الى اخصائيين من ارباب المهتم العالية ان يتوسلوا بكل وسيلة مع رجال الادارة لحمل الناس على تشجير أرضهم وحمل كل بلدية على اتياع مايمكنها كل سنة من الفراس وتهدده بالارواء والايماز لكل قرية أن تشجر ولو أرياضها كما فعل متصرف حمص وحمل بعض سكان القرى منذ ثلاث سنين على تشجير مساحات واسعة في جوار قراهم فنجح أكثره ومنه المثمر ومنه غير المثمر ولا يبعد ان يكون السليم في لواء حمص الآن من الاشجار الجديدة قد بلغ مليوني شجرة والهمة منصرفة بحمل الاهلين على اتمام مابدأوا به وبذلك يصبح لواء حمص نموذجاً بين الاولوية التي عملت بإرشاد الحكومة وقامت بواجبها .

هذا ما رأيته بحسب ما ساعدنى الوقت واذا درست كل قضية بذاتها درساً

فنياً تظهر نتائج لا تخطر لنا الآن ببال . ومن الصواب بعد هذا أن يكثر كبار رجال حكومتكم الرحيل الى الالوية البعيدة خصوصاً ما كان متاخماً منها لمجاورينا وان يكون من يتولى فروع الاعمال الحكومية فيها من أرق رجال الامة عقلاً وعلماً وعملاً يمطون الاختصاص الواسع بحسب كل اقليم وصقع ليمملوا مافيه المصلحة غير مقيدین على الاكثر الا بقيود العقل . والمسؤول تعالى أن يزيد في توفيقكم لخدمة البلاد مولاي المعظم

دمشق في ٨ رجب ١٣٥٠ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٣١

وزير المعارف

محمد كرد علي



الزغتيال السياسي

الأول مرة اغتيل رجل من رجال السياسة في الشام . اغتيل صديقي الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وهو يخدم الإنسانية في عيادته بدمشق ، بعيداً عن خليلته وأولاده في القاهرة ، وكان اتخذها دار إقامة في الربع الأخير من حياته . فاتهم بادئ بدء ثلاثة من كبار الكتلة الوطنية قتلهم ، فاتهم دبوا أمر القتل انتقاماً لكتلتهم ممن كان العامل الأكبر في تحطيمها ، فقامروا على اغتياله على أيدي خمسة من الرعا . وكان أحد المتهمين السيد جميل مردم هدد الدكتور في خطبه الرسمية أيام وزارته غير مرة ، ثم حاول أحدهم أن يقتله في طريق دومة فأخطأه ، ولكن تبين للمحكمة أن الدلائل القانونية كانت غير متوفرة على المتهمين ففبروا ما اعترفوا به في التحقيق الأول فبرأتهم وادعى المتهمون أن ما حملهم على اغتيال الزعيم غير دينية ! وأشياء كانت شائعة عنه من مثل انحلال عقدة الدين وعقدة الوطنية فخدعوا وارتكبوا ما ارتكبوا ثم ندموا على فعلتهم . وكان بعض أحباب شهبندر يخافون على حياته في الأيام الأخيرة ، ويطلبون إليه التوقي ، فكان يقول : أنا ابن الشعب وخادمه لم أؤذ ولا أؤذي . لكن الأقدار جرت على خلاف ما كان يُرجى .

كان شهبندر يهتم بحب الانكليز والدعوة لهم ، وقيل إنه انتفع في ماديته من هذه الخدمة ، وهذا اجتهد منه ، والمرء حرٌّ باجتهاده على ألا يفعل مصلحة أمته ، وإذا عد أعداؤه ذلك عليه سبة ، وأنكروا عليه عقيدته ، فإن من المتزعمين من كان يعمل لفرنسا ، ومنهم لاطاليا ، ومنهم لروسيا ، وغيرهم للأتراك ، وما كانوا يرعون إلا مصالحهم الخاصة ، وما كانوا مثله إلى الاستقامة وحب الخير . وشهبندر كان من القائلين بالوحدة

العربية ، ويعمل على اعداد قومه لها ، وكان مثال التسامح ، دام على نعمته السياسية منذ كان في المدرسة ، وفي ذاك الطور من حياته عرفته ، الى أن اتي مصرعه . ومهما اختلف الناس في الحكم عليه ، فهو أرقى علماً وأخلاقاً من أكثر خصوصه ، أحباب الأتس أعداء اليوم ، وهم يفوقونه بانحداد كلمتهم .

قلت في تأييده ان منزعه ما كان يخرج عن الدعوة لاقامة كيان سياسي ملته ، والسعي لشفاء اهلها من أمراضهم الاجتماعية ، والعمل على تهذيب النفوس بعلوم الحضارة الحديثة ، وثبت على هذه الدعوة النافعة ، وما عبأ بالمشيطات واستهان بحظ نفسه وأسباب نعيمه وراحته . وكان لفرط غيظه يتوسل الى اصلاحه بكل مالمديه من طرق ، فكان يثور على الظلم وعلى الجهل يحاول أن يقضي عليها ، ولو كان السلاح الذي وصلت اليه يده لايسد كل الحاجة . وبقدر ماكنت ترى الدكتور شهيندر متلطفاً في طب الابدان ، كنت تراه صلباً في مداواة مااستمعى من أمراض الأوطان .

ومما قلت إنه كان يرى اصلاح السياسة اولى المطالب بالتقديم ، وأنه عمل للجماعة كما عمل لنفسه ، وصرف من الجهود للنهوض بأمنه مالم يصرف بمضه من حاولوا أن يمدوا في قائمة العطاء ، ولو كان كل فرد من أرباب المداير يفكر في مصلحة قومه بالقدر الذي فكر به شهيندر ، لكانت حالنا على غير ماى اليوم ، ولكننا شيئاً مذكوراً في العرف الدولي ، وفي مجالس العلم العالمي .

وقلت أيضاً : ان التاريخ لايكذب مهادئ المدلسون فيه ، والتاريخ سيدكر الدكتور شهيندر وبذكر غناؤه وبلاءه ، موزوناً بميزان العدل والنصفه وسيقول إنه من خير من نبغ عند العرب في هذا القرن ، وإنه أحد أفراد قلائل قادوا بأنفسهم في مرضاة الوطن ، وأثبتوا أنهم كانوا شيئاً في الحياة ، لاكالذين دخلوا العالم وخرجوا منه لم يحس أحد بوجودهم . ولا يحول حبي لشهيندر ، وتقديري لجهاده ، دون قول ماأعرفه من

اخلاقه ، بعقب السنين الطويلة التي قضيتها في عشرته . كان على ما يظهر يحسن ظنه بمن يدهن له ، وهو لا يستحق الا الصفع والدع ، لذلك كثر من خرجوا على رأيه ، لما تصادموا وخاب ظنهم او ظنه فيما كان يؤمل كل واحد من صاحبه . وبني او يتناسي من كان مدحه بالامس فيقدح فيه اليوم ، يحسن ويهجن في فترة قصيرة من الزمن ، شأن بعض رجال السياسة . وكان في شبابه لا يرى لاحد مزبة إن لم يكن خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، حيث تلقى الدروس الثانوية ودرس الطب ، حتى ولو كان من عيار الامامين الشيخ محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري ، ويلج بأن من لم يدوس الطبيعيات والرياضيات كما درسها هو لا يحق له أن يسك قلماً ولا ان يؤسس جريدة أو مجلة أو ينشر كتاباً أو غير ذلك من أعمال العقل . فطابع الاثره كان متجلياً فيه تجليه في بعض من تخرجوا بالاميركيين الانجلييين .

كان بيانه في لسانه اوفر من بيانه بقلمه ، فهو اول خطيب فينا ، وقد يخطب في اليوم مرات ويجيد وهو في ارتجاله ابرع منه في لسنه ، ويزيد خطبه امتاعاً مادته من العلم ، ومعرفته تاريخ امته معرفة ندره أن يكتب لطبيب مثلها . وما كان بالكاتب الكبير ، وكتابه تعد من الدرجة الرابعة . ونظم بعض مقاطيع وقصائد في صباه ونشرها له الاستاذ كفهاير المستشرق الالماني في مجموعته ، فلما رأيتها منشورة الى جانب شعراء مجودين قلت : مالشهندر والشعر ، وشعره ليس مما يروي ويتناقل ، وفي نشره دليل ضعف صاحبه في القريض والادب وأولى له أن يترك الشعر لمن كان في فطرتهم ، وتمحضوا له اعواماً أمثال خير الدين الزركلي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب و خليل مردم بك وشفيق جبري وأمثالهم من شعراء الشام .

أما في التأليف فلم يؤاته التوفيق فيه ، وغاية مآثر له مقالات أكثرها مترجم عن الانكليزية ، نشرتها المجلات ولا سيما المقتطف والهلل . ونقل في الكهولة عن الانكليزية كتاباً في علم الاجتماع ماأظنه فهم مترجم وكذلك القراء بالطبع ، ولذلك طواه على غره ، وما أحب نشره بعد

أن طبعه . وله مفكرات عن الثورة السورية ، وكان من أكبر دعائها ، طبع بعضها والمفيد منها مارآه بعينه . وليس له غير ذلك من الكتب لأن السياسة لم تبق له مع طبه وقتاً لوضع تأليف ممتع .

وكما أنه لم يوفق في التأليف ولا في الشعر لم يواته التوفيق في تأليف أحزابه ، لأنه كان متساهلاً في تخير معاونيه وأنصاره ، يتخذهم كيف اتفق من الفريق الذي يمرض له باديء الرأي . وقد يكون بعضهم من الزیوف والذهب الابز الخالص قليل فيهم . وربما كان له ان يجيب من ينتقد عليه تسرعاً في اختيار الأشخاص أنه يختار أعوانه بمن يرام أمامه من الجمهور ، ويتعذر عليه أن يأتي بغير هذا الميار ، ومحال طلب صنف من الطعام غير مذكور في قائمة الاثوان . وعلى هذا يمكن أن يقال إن توفيقه في طبه أكثر من توفيقه في سياسته ، وأعني بالتوفيق التوفيق الذي يطمح هو وأجابه اليه مع أن اشتهاره بالزعامة السياسية أكثر من اشتهاره بصنمته الأصلية وهي الطب .

لمرض للنوائج واصحاب المبقرية أحوال يستغربها أرباب البصائر . طلب شهبندر وهو في وزارة السيد هاشم الاتاسي — على ماروى لي زميله في الوزارة وصديقه وصديقي رضا بك الصلح ، ان يقرر مجلس الوزراء ابعاد اثنين عن الشام ، وبوجودهما لا تستقر الحالة السياسية ولا تستقيم . وأنا اخجل من القاريء ان أصرح له من هما هذان الرجلان المضران ، وكانا من اغز احبائه ، وليس بينه وبينها إلا الصداقة ، وهما لا يعملان يومئذ في سياسة توافقه ولا تخالفه ، وكانا فقط إن أراد احد بهما السوء أحسنا الدفاع عن انفسهما ، وكان هذان الرجلان المضران صديقي وصديقه عبد الرحمن باشا اليوسف وأنا (البعد الفقير إليه تعالى) وإلى أين طلب إبعادنا ؟ توصل بنفينا إلى الحجاز ، رهن أمر السلطان حسين بن علي ، وبالطبع إذا ساقطنا حكومة ابنه فيصل على هذه الصورة ، لا يلقانا ملك الحجاز إلا بما يلقى أعداءه السياسيين فيدفعنا إلى سجنه المشهور خشية من سرية دعوتنا إلى رعاياه الآمنين المطمئنين . وسجنه لطيف وظريف ،

عبارة عن بثر تحت الارض عميقة جداً قد لا يخرج منها السجين سالماً ، وإذا كتبت له السلامة يتلى بمرض أو أمراض لا يبرأ منها .

ولما سقطت هذه الوزارة الاتاسية وهرب شهبندر وأصحابه ، قلت لرئيسها وقد جاء يودعي في داري : ليتكم نفذتم مقترح شهبندر بإبمادي وإبعاد عبد الرحمن باشا إذا لا تريدكم مقدار أنفسكم . فأجاب وهل رأيت هذا الاقتراح قد عمل به ؟ ومعنى ذلك أن شهبندر اقترح ذلك وما سمع له زملاؤه وأظنه لما خاب فيما بيته لي عاد في مجلس الوزراء فأقترح إلغاء المجمع العلمي العربي ، وكان من قبل بضعة أشهر يود لو يكون عضواً فيه ، ويقول لي إنني خدعت اروبا بهذا المجمع ، فأقول له : أنا اجتهد لأفهمها أنا أمة ذات مجد قديم تتوفر الآن على أحيائه .

ولما أنشأ شهبندر (حزب الشعب) ، قبل نشوب الثورة السورية ، اقترح عليه صديقي أسعد المالكلي أن يعرضوا علي الاشتراك معهم فقال الدكتور : دعوه وشأنه هذا رجل يحب ان يعيش . قال أسعد : الحمد لله على ان عشت وكتبت (خطط الشام) ، وبعد نحو خمس عشرة سنة عرض علي شهبندر نفسه ان اشترك معه في حزبه الجديد (الهيئة الشعبية) فاعتذرت . وقد وقعت لي معه بمض أمور تدل على إغفاله في النسيان الذي يحمل ضرراً عظيماً له ولغيره « راجع فصل الجاسوس السافل من هذه المذكرات » .

طلب لي شهبندر أن انفي الى الحجاز مقهوراً ، وأن أنزل مكة مأسوراً ، والله أعلم إن كنت أعود من هذه الرحلة الشاقة الى وطني وأولادي ، ولما كان سجين قلمة أرواد تأملت لما حل به ، ونوسلت بكل الوسائل الى استصدار العفو عنه ، فكانت البرقيات والرسائل تكتب ويوقع عليها في داري ، وأنا موظف ومحظور على الموظفين الاشتغال بمثل هذه المسائل . دفعت الى هذا بدافع من حبي لشهبندر ، ولما تقاضاني المروءة أن أقدم عليه ، ولا مئة لي في ذلك ، ولا نظرت أنه حاول الاضرار بحياتي ، بل أغضيت عما بدر منه ، وقلت إن العاقل لا يزهده في صاحبه بغلطة يغفلها ، أو ببادرة تبدر على لسانه ، وجل من لا عيب فيه .

ولما عرضت عليّ « الهيئة الشعبية » أن أُرأس لجنة تأيين شهيد أجبته الطلب في الحال وفاء له ، وخرجت بذلك عن خطي في عزلي ، وأنا حيادي غير حزبي ، ولهذا النظر أتوا بي ولا اعتبارات أخرى رأوها مجموعة فيّ ، واشترطت ألا أخلط السياسة ببرامج التأيين فارتضوا بذلك ، وهيات العمل على ما يجب ، وصرفت في ذلك أكثر من أربعين يوماً ، زارني خلالها مرات من لأحب أن أرى وجهه ، ولا يرى طاعتي ، واحتملت لمعجز من يحاولون الظهور على حساب شهيد وحفلة تأيينه ، واستغلال اسمه ، واستثمار حزبه له ، واستثمار بعضهم لحزبه ، ولما تم كل شيء وفي آخر دقيقة ، وأنا أنهياً للذهاب الى الجامعة مع أعضاء اللجنة التأيين لأُرأس الحفلة ارتأى أحد البارزين من أعضاء الهيئة الشعبية السيد زكي الخطيب أن ننقض مقررته اللجنة من الاشارة الى بعض القصائد الرديئة والكلمات النافهة ، بدعوى ان اغفال أقوالهم مما يضر بحزبهم ، قال ومن الكلمات ما إذا صرف النظر عن تلاوته ، أو لم تثل كما كتبها صاحبها ، تخرج بها بلدة برمتها عن رأي الحزب ، فامتنعت من حضور الحفلة ، وما سوغت لنفسى أن أكون آلة الموتورين ، ولا تكأة للمشاعبين ، ولا أن أصير امعة يعلو عليّ ابن الخطيب ارادته .

عفا الله عن أخي شهيد كان حركة دائمة في حياته وبعد مماته ، وكان ثورة كله ماحد عن خطئه ، وأنا كنت مثله طول حياتي ما حدث عن دعوتي الى الاخذ بمذاهب التعليم والتربية ، لاعتقادي بان الامة في حاجة اليها قبل كل شيء .

لما اذنبت من كتب ما تقدم لساءلت كما كنت اساءل عند كل اختلاف بظراً بيني وبين من اشتغل معهم ، هل كانت الحق ياترى معي في امتناعي من الخنوع لنقض ما تقرّر أم اني لا أفهم وهؤلاء المشاكسون يفهمون

أكثر مني ؟ وقد رأيت أن معظم من اختلفت معهم خرجوا عن قانون العقل واحترقوني في باطنهم أن أرادوا استتباعي لتحقيق اغراضهم .

وشهدت في هذه المسألة أن من احتال لارضاء الصماليك بالبعث بمقررات لجنة التأبين كان بعيداً عن الصواب بالنسبة لما جرى الاتفاق عليه وارضىوه من شروطي ، ذلك لأنني ما كنت أعد أقوال من يراد تلاوة أقوالهم مما ينفع في تأبين الفقيد العزيز ، وهل يوافق العقل على أن تلقى كلمات لأفراد ماعرفوا بادب ولا بشعر ولا بسياسة ولا بشيء ، وما كانت غايتهم من إلحاقهم في القاء كلماتهم إلا حب الظهور والتبجح أمام الجمهور .

وكيف لعمري أطيق اشغال الوقت باتقاء كلمات المغموربين الخاملين وأترك كلمات النابهين العالمين أمثال أصدقائي من أعلام مصر شيخ أطبائها الدكتور علي باشا إبراهيم ورئيس الوزراء محمد محمود باشا وعظيم وزرائها حلمي عيسى باشا ، وشيخ كتابها الاستاذ عباس محمود العقاد وشيخ صحافها الاستاذ عبد القادر حمزة باشا ورئيس مجلس شيوخها ورئيس نقابة محامها الاستاذ محمود بك البسيوني ونائبة القانون فيها الاستاذ عبيد الرزاق السنهوري وأضربهم بمن تفضلوا وأجابوا رجائي وكتبوا في الراحل الحبيب ما كتبوا .

وأن تغفل أيضاً كلمات علماء العراق أصدقائي البررة الشيخ رضا الشبيبي ووطه بك الراوي والشيخ محمد بهجة الاثري وإبراهيم بك الواعظ الى غيرهم من رجال لبنان وفلسطين وشرقي الاردن ومنهم من كانوا من أتراب الفقيد وعاشوا معه سنين ، وكلامهم حجة في الترجمة له أمثال العلماء الاجلة أصدقائي منصور جرداق وبواس الخولي وأنيس المقدسي ، هذا منطبق لانهمه وأرجوه لعالى ألا يمن علي بفهمه .

هزل ومزاح

كنت يوماً في انكلترا ، فلقيت في القطار انكليزيين يتضحكان ، فقلت للترجمان قل لهما : إني أعجب من حالكما ، فقد كنت أعتقد في الشرق أن الانكليز يبعدون عن الهزل ، وكل امرهم جد ، وأنهم عابسون لأن أجواء بلادهم أبداً عابسة ، وضحكهم قليل لأن الطبيعة لا تضحك في أرضهم إلا أياماً معدودة . وقد وصفكم الفيلسوف الاميركي أنسكم جزائريون Des insulaires منقبضون عن الخلق ، تؤثرون الوحدة والعزوف عن المجتمع ، إذا رأيتم انسان في فندق تجهدون ألا تتموه بالنظر الى عيونكم ، فلا يستطيع مجالسكم أن يقوله شيئاً في سوادها وبياضها ، فضحكا وضحكنا .

وزارني في دمشق مرة أستاذان احدهما روسي من جامعة لينينغراد ، والآخر من عنصر انكلوسكسوني . وتحدث الي الروسي ، وضحكنا كما يتضحك المتألفون ، والاستاذ الآخر ساكت مقطب لا يبدي ولا يبعد .

فأجبت أن احركه على ثقل شهادته في دمه ، والتفت مخاطباً الروسي : قل لصاحبك هل من خدمة يطلب مني قضاءها ؟ كأخذ معلومات عن بعض

المخطوطات ، أو الاجتماع الى بعض الشخصيات أو غير ذلك . فأجاب بمبوس : إني آت مع صديقي أرافقه ، وليس لي ما أسأل عنه . وهنا قلت له كلاماً استنتج منه اني اهزأ به ، وقال : قل للرئيس إن له شكلاً خاصاً . فقلت :

نعم أصبح لي هذا الشكل بعد أن رأيت الدنيا مهزلة ، والممثلين في مسرحها هازلين ، ولذلك لا أزال أهزل وأضحك ، والحياة كما قال أحد كتاب الغرب

فاجعة على من يشعر ، ومهزلة على من يفكر La vie est tragédie pour ceux qui sentent, comédie pour ceux qui pensent .

باغتني في بيتي زائراً بدون استئذان أحد محرري الفيغارو الباريزية ، وكان يحمل سلاماً من بعض أصدقائي في باريز ، ويعرف عني أشياء منهم ،

ويحاول على ما يظهر أن يجعل مني موضوعاً يسلي به قراءه ، فقلت له في جملة ما قلت : إن سلطان المفوض السامي المقيم في سورية ولبنان أوسع من سلطان رئيس جمهورية فرنسا . ذلك لأن رئيس جمهوريتكم تمتع بسلطة محدودة ، أما المفوض السامي عندنا فسلطته واسعة النطاق ، ممتدة الرواق ، ومفوضنا يعين رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات ، وينجيهم عند الاقتضاء . أليس من يعين رؤساء جمهوريات ويقيلهم ، أعظم من رئيس جمهورية ضيق السلطة ؟ فضحكت امرأته ، وضحك هو ضحكاً كالعبوس . وقلت له : إن سورية تفتنط أن كان فيها سبعون ألف في جبل من جبالنا يؤلفون دولة . أليس هذا من الارتقاء الغريب في هذا العهد ؟ وودعني على أن يلقيني من القيد ، وقال إنه سيميد إلى الصور التي دفعها إليه ، فما بعث لي بما كتب ، وما أعاد لي شيئاً مما أخذ . وسأله أحد خلاني عما كان من تأثير اجتماعنا فيه ، فقال إن الرجل هزاة يستخر من هذا الوضع ، ساعه الله على هذا الحـكم الجائر ، ومن يستخر من هذا الوضع ؟ .

لا جرم أن الانكليز يصطنعون الوقار كثيراً ، وجرعة الفرنسيس منه أقل من جرعتهم ، وفي طبقة المشايخ ورجال الدين وعمال الدولة كثير ممن يصطنع التزم والوقار . وقد احببت مرة أن اخرق الحجاب مع صديقي الشيخ مصطفى عبد الرازق (ويرجع عهد صداقتنا إلى سنة ١٩٠٩) وهو يطلب العلم في باريس بعد أن نال شهادة العالمية في الأزهر) وذلك عندما عهدت إليه وزارة الاوقاف المصرية في وزارة محمد محمود باشا . فكتبت إليه كتاباً اداعبه فيه ، فما اخذت جوابه ، ولما اجتمعنا اعتذر عن الاجابة ، وحفته العناية الآلهية بدخول أحد ارباب المصالح عليه في مكتبه الرسمي ، فقطع حديثه وما عاوده ، وهذا كتابي إليه ، وليعذرني السيد مصطفى على نشره ، فأنا هنا من الهالزين ابتمد جهدي عن عمل المزمتمين ، وارجوه أن يعفني من جده ، ويؤثر به مواطنيه المصريين .

اخي الاستاذ

الله احمد على ان رأيتك تتقلد الوزارة ، وتذهب بالقابها ، وتنوء بالقابها ، وتمتع بما يتمتع به الوزراء من مظاهر . الله احمد على ان تساوين بالقاب سبقتك الى التلقب بها مرغماً ، فما اخليتني عند كل فرصة ، على نعمة خصصت بها ، من تهكم بها لان ملمسه في الظاهر ، فهو كالضرب على ام الرأس . كنت الى امس الدابر كضايقي بلقب المعالي والوزير ، فاذا لبست بذلة قلت إنها لا تليق إلا بالوزراء ، وإذا وضعت على رأسي طربوشاً قلت هذا من كسوة اصحاب المعالي ، فالشكر لمصرف الاقدار على ما ابتلاك بما ابتلاني به من قبلك ، وعسى ان تطول لك مدة هذا البلاء على نحو ما طال بلائي . احمده واشكره على ان احياني الى زمن ادركت به ثأري ، وثبتت بمن طالما شئت منه التفكير الاذع ، ولئن اكتفيت اليوم بهذه الاشارة لأحملن ، إن فسح الله في الاجل وهبطت مصر ، كل ما يتحدثني المكر ان احمله للوزير صاحب المعالي ، وعندها ارد الصاع صاعين ، وأكشفي بما يشفي النفس .

وبعد فلا اكتمك ان الحسد دب هذه المرة الى قلبي ديباً ما شعرت بمثله من قبل . دب لما شهدت اثنين من خلاني يدخلان الوزارة (الثاني الدكتور محمد حسين هيكل باشا ^(١)) وقالت في نفسي : ولستم كان اغتباطي شديداً لو من الله علي فولدتني أمي في ارض مصر ، وأنا من المخالفين لحافظ ابراهيم في قوله رحمه الله .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً
فإن قوله هذا ابن المعجز ووليد العشاقم . أما أنا فلا أعتب على

اتفق أن عاد الشيخ مصطفى عبدالرازق بك والدكتور محمد حسين هيكل باشا وزيرين للاوقاف والمعارف أيضاً في وزارة حسن صبري باشا فأرأيت أن أعجز ابن عبدالرازق بتهنأتي كما هأته لا دخل وزارة محمد محمود باشا ، واكتفيت أن هأته بقلبي ، ورجوت له التوفيق . ولما عهدت اليها الوزارتان للمرة الثالثة لم أهني اخي الشيخ مصطفى لا بقلبي ولا لسان .

خاتي إلا لأنه لم يخلفني مصرياً ، حتى أحظى الخطوة التي أريدها من أبناء النيل وبنات النيل .

وإني لأعلم ، ولا خجل من الحق ، ان وزارة كالوزارة المصرية يؤلفها رئيس عاقل ، بإعاز ملك عاقل ، لا تشبه وزارة شامية ، يؤلفها ويسقطها ضابط صغير من ضباط الاستخبارات . وزارتنا وزارة متواضعة ، ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لو وظيفة مأمور المركز عندكم ، وإن قيل لكل من صاحبي البانيا وبريطانيا المظمى يا صاحب الجلالة .

كلمة جد أقولها لوجه الله : إني اهنيء الوزارة بك ، وأنت في نظر من عرفوا فضلك وخلقتك أعظم من الوزارة . ورجائي أن تدوم لك الصحة لتقوى بما عهد فيك من حزم وعزم على اصلاح وزارتك ، فهي أكثر الوزارات احتياجاً الى الاصلاح ، عرفناك يا حبيبي الاستاذ مصلحاً مجدداً ، فهل لك أن تنفذ خططك في التنظيم ، لننجز من اتمام الغريب ايانا بالمعجز المطلق ، حتى في تقويم ما عوج من أوضاعنا الخاصة ، ولو أتيناه بأفضل رجالنا يعالج شؤونها .

أما بعد فان التبعة عليك عظيمة ، فاعرف ، دام توفيقك ، كيف تقدم للعقلاء حسابك يوم مفارسة منصبك . ولا برج طير اليمين والبركة برفر عليك وعلى آلك .

ووجهت رتبة الباشاوية على الشيخ مصطفي عبد الرازق بك أولاً وباشا ثانياً فكتبت اليه يوم ١٥ المحرم ١٣٦٠ و ١١ شباط ١٩٤١ مانصه .
سيدي الاخ الحبيب .

وقع احسان جلالة الملك المحبوب بتوجيه رتبة الباشاوية عليك موقماً حسناً في قلب الداني والقاصي . وكساءات عما تكون حالة الاستاذ في مظهره الجديد ، وهو الذي ما كان يرضى عن التلقب بالشيخ بديلاً ، وقلت ها قد اتصل القديم بالحديث ، وجمع أخي المظامي الى المصامي ، فطلاب الاصل والفرع .

والمهم في هذا الباب ألا تقيد اخوانك بلقب الباشا كل حين ، تطلق لهم حرية التلقب ، ولو الى أجل مسمى ، من شاء أن يطلق عليك لقب شيخ تبسم له كما تبسم لمن يناديك يا باشا . وهذا لا يضرك ما دام لقب شيخ يولي الملقب به صفة رجل دين ، ولقب باشا يومي الى أن صاحبه رجل دنيا ، والرجل كل الرجل هو الذي اسمعه الله في الدارين « ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا » .

إذا تقرر هذا فلا حرج إذاً على من يلقبك في المجالس الخاصة بلقب شيخ ، حتى إذا كنت في الأندية الرسمية خاطبوك بالباشا . وبالنتيجة الأولى يذكرونك بمجدك القديم ، وبالتالي بمجدك العظيم . اعمل ولا تبال الناقدين ، فأنت تذكر ما لقي شقيقك علي بك من مرارة التخلي عن لقب شيخ ، وكيف نذبه ورثى الإمامة . وتفضل وأسأله هل يعاقب القانون من يسبقه لسانه الى تلقب مخاطبه عن غير عمد بما لا ينطبق على ما يرضيه من كل الوجوه . فقد شهدت خصومات شديدة نشبت بين أناس أطلقوا على صاحبهم لقب (افندي) وهو يحرص على أن يخاطبه قومه بلفظ (بك) وعندني أن ليس ما يمنع من اتباع لفظ الباشا بشيخ أو الشيخ بباشا ، وإن قل ذلك في مصر ، فالملقب أيضاً قليل أمثاله في المصريين .

هذا على شرط أن تنبه على الحافين بك من أتباعك وخدامك ألا يلوموا من يغلط من أحبابك عندما يقول لك يا شيخ ، فإن عادة اعتدتها أنا معك ثنتين وثلاثين سنة مثلاً يصعب عليّ نزعها بين عشية وضحاها ، خصوصاً والشيوخ مثلي هم من المحافظين على الأغلب ، وحافظتهم قد نخونهم ، وليست كذاكرة الشبهة والكحول .

هذه مشكلتك بالباشا مع نفسك ومع الناس ، بقيت مشكلة أخرى تحتاج أن يبت بها في حدود العقل ، وأنا المستهدف لها أكثر من غيري ، فيما يستقبل من دورات انعقاد مجمع اللغة العربية ، هذا إذا انفسح الأجل وشهدت جلساته ، وإلا فالاجتماع في سدره المنهى عند جنة المأوى .

في علمك أيدك الله أنه كان في الأعضاء القدامى (باشاوان) فأصبحوا اليوم بمن ضووا اليهم من اخوانهم الحدث ثمانية ، عدد أبواب الجنة ، وربما لا يطلع فجر العالم المقبل حتى يصبحوا عشرة مبشرة باللغة وأدبها ، اللهم زد وبارك ، أي يكون نصف الأعضاء من ساداتنا المصريين في هذا المجلس العلمي من الباشاوات ، فإذا تكون معهم حال أناوي مثلي يا زري ؟ وهو ما تشرف حياته برتبة ولا تحلى بلقب ، وقصاراه من دنياه ، أن تتكرم عليه أرضه بلقب (سيد) كلمة تطلقها على راعي البقر وراعي البشر سواء . الله يحب الحق ، إن روعة لقب باشا دونها كل روعة في الألقاب ، على نحو ما كان في الغابرين لقب شهاب الدين ، وكل لقب كان فيه (الدين) ومهما قبل في ثقل ظل بمض من يطلق عليهم لقب شيخ فانه ينطوي على معان جليلة محبة الى القلوب . أما كلمتنا التي استأزنا بها وهي السيد فما زلت أقلبها علي ألح فيها ما لفقوا لها حتى أخرجوها عن أصل معناها ، وأخذوا منها معنى السيادة ، فلا أهتدي الى وجه في التعليل . وبؤلني أن اسجل هنا أن السيد ككيس هو المسن من المز أي التيس والجمع تيوس كما في القاموس .

والغالب أن واضي اللغة كانوا يوم إيجادهم معنى التشريف للسيد في ظرف كالظرف الذي وضع فيه الجمع اللغوي لفظ (فنان) لارتيست . والفنان في الأصل (حمار الوحش) . وغفر الله لأخي الجارم كم حرص على اقرار هذه اللفظة حتى خشيت يومئذ ، اذا لم يقر الجمع كلمته ، أن ينتهي الأمر بحدوث أزمة جمعية ، كما تحدث ، وفاق الله ، الازمات الوزارية . ورأيته مغتبطاً لما وافقه اخوانه على اطلاق اسم حمار الوحش على المصورين والمصورات ، والشاعرين والشاعرات ، والمسمعين والمسمعات ، والراقصين والراقصات . وما أدري هل كانت بينه وبين هذه الفئة الجميلة طائفة من الطوائف ، وعهدي به ابن الشعر وريب الأدب ، غير مطمون عليه في سلامة ذوقه .

التمس عفوك لشارتي الى معان كان الأولى أن أصون كتابي عن
التعرض لها ، ولكن هل نحن ، رعاك الله ، إلا في صدد مجمع لغوي ،
ولا حياة في الدين ولا حياة في اللغة . وأسأله تعالى أن يجنبنا مصارع
السوء ، دعاء أدعو به في كل عسى ومصبح ، منذ قرأت ما قاله أحد علماء
الأمراض العقلية من أن ثلاثة أشياء تورث الجنون ، العشق ، والتعمق
في اللاهوت ، والبحث في أصول اللغة . وسلام عليك وعلى رصفائي
المشايع والباشات .

فأجاني الأستاذ بقدر ما سمح له رتبته ومرتبته وما قال : « ثم ابادر
الى الاجابة عما تساءلت عنه من حالي في مظهري الجديد ، ولو رأيتني لما
رأيت مظهراً جديداً فاني لأزال شيئاً معيماً يؤكد أسباب مشيخته اشتعال
الرأس شيئاً ، ولا يهولئك يا صديقي ما تقدر من روعة القلب ، فما تخفض
الالقاء حرراً ولا تسمى ، على حد قول الباشا البارودي ... » وانتهى
الامشكال ، والحمد لله على كل حال .



هذر

دعاني رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني لتناول الطعام على مائدته لتكريم الاستاذ محمود عزمي من رجالات مصر ، وكان معنا الآنسة فلك طرزي وثلة من الوزراء والامراء منهم قائد الثورة السورية صديقي سلطان باشا الاطرش وأمير من أمراء العراق ورأيت القوم ساكتين كأن على رؤوسهم الطير مؤثرين الخضم والفضم عن الكلام والمؤانسة فافتتحت الحديث موجهاً الخطاب الى صديقي عزمي بك ، فقلت له ان الآنسة طرزي افتتحت موسم محاضرات السيدات هذه السنة في ردهة المجمع العلمي العربي وتابع زميلاتها محاضراتهن بملها ، وهذه أول مرة يستقل السيدات بالقاء المحاضرات على بنات جنسهن ، وكان الرجال من قبل يتولون القيام بهذه المهمة . فقال الرئيس لقد نجوت من المشايخ . والتفت الى ضيوفه وقال لهم إن جميع مشايخ دمشق يخافونه ، فاجبته ولكن في دائرة المدل والمنطق ، فاني ورصفائي نعلم الناس وراقب بانفسنا مانقول وما نكتب ، والمشايخ في حل" منا مالم يتحرشوا بالمجمع العلمي فاذا فعلوا أخرجت لهم مساويهم ، وأنا من أعرف أهل البلد بها ، واذا التزموا السكوت لا أتعرض لهم . فقال سلطان باشا كلاماً يمدحني به على خدمتي المعارف وعلى ماألفت من الكتب . فقلت له : يا باشا اسمع مني ، أنا خدمت الامة مقابل أجرى ، واعطاني فوق ما استحق ، وأنت خدمتها خدمة عظيمة فهاذا كافأتك ؟ يا باشا لا تؤاخذنا نحن امة لا تقدر الرجال اقدارهم ، ولو كنا نعرف للمحسن احسانه لا قمنا لك تمثالاً في كل بلد . والتفت الى ضيفنا العزيز وقلت له بالفرنسية ان هذا الرجل الذي يقرظني هو أشرف رجل فينا ، بل هو مثال الشرف . وبالطبع لم يرق هذا الكلام صاحب

الدعوة ، ولعله كان يريد ان أقول له إنه هو الذي نفع سورية بما لم ينفعها أحد قبله . وشتان بين من يعمل لمحض خير الامة ، ويهون عليه ذهاب ماله وخراب قصوره في سبيل قوميته ووطنيته ، وبين من يكاد لا يفكر حياته في غير مصلحته .

قالت لي ابنتي الكبرى مرة اني أعرف ان فلاناً من أصحابك وانك نجبه ولعرف له قدره ، فقلت لها : حق ماتولين ولكن الرجل لا يجب إلا نفسه على ما يظهر ، ولا يشتاق لاحد ، وقد الغيب عنه مدة فلا يسأل عني ، هذا مع الاعتقاد بانه يحبني ويحبنى ، وقد كان أبوه على شاكلته مع عثرائه واحبابه ، وعابتي ذات مرة على انقطاعي عنه ، فصارحته بمعاملته لآخوانه ومعارفه ، وكان يريد أن يزار ولا يزور ، واذا زار فبدافع قوي جداً ولا يسأل عمن غاب ، ويريد أن يشخص الاهلون الى مجلسه أبداً . فاجابتي البنية عجب وهكذا نساء هذه الاسرة ، اذا اجتمعت اليهن أظهرن كل لطف وشوق ، واغيب عنهن مدة طويلة فلا يسألن عني ، وكثيراً ما افاتحن بهذا الاهمال اذا اجتمعنا بالمرض ، فيمتدرون ويطلبن بالحاح العودة الى تبادل الزيارات . النساء كالرجال والفروع كالاصول .

تألفت وزارة في عهد من العهود دخل فيها أحد أصدقائي فشخصت اليه اهنته في مكتبه ، وكان في جواره مكتب أحد رصفائه في الوزارة فرأيت من اللباقة أن أزوره أيضاً ، وهو من معارفي ، ومشهور باستقامته وزاهته ، فتهلل كثيراً لزيارتي له وما كان بيننا تزاور من قبل واتفني منه بعد أيام بطاقة مطبوعة بالمطبعة على مثال النشرات التجارية التي ترسل لكل انسان يشكرني على تهنته بالوزارة باللسان الرسمي الجاف . فقلت لصاحب لي كان إلى جانبي : ان الرجل لا يعرف الواجب ، فان هذا المنشور العام قد يجوز ارساله لاكثر موظفي وزارته وغيرهم من عامة القوم ، ولا يرسل لأصحاب المقامات ، ومهما عظم الرجل في بلد كبير

لا يخلو فيه من عشرة أشخاص هم أعظم منه سناً وعلماً ومقاماً ، فعليه مع مثل هذه الطبقة أن يسمى بنفسه الى اربابها لا أن يكتبني بالبطاقات عن رد الزيارات ، وعليه أن يعاملهم بالمثل على الأقل إن لم يجب أن يزيد في اكرامهم . ودارت الايام وتقلب بالرجل الاحوال عزلاً ونصباً فما زرتة بعدها ولا سلمت عليه إلا السلام البسيط وذلك إذا لقيته عرضاً في شارع أو مجلس .

مسألة اعطاء كل انسان حقه من الخطاب والالقاء مسألة دقيقة ، فما كل من مسك القلم كتب كتابة مقبولة ، تستوفي غرض مرسلها وترضي المكتوب اليه ، فان ما يخاطب به الصغير لا يخاطب به الكبير ، وما يقال لزيد من المبارات لا يقال لبكر .

لما فقدت قرينتي جاءتني من أصحابي تعزيات كثيرة فأجبت كل واحد جواباً غير جواب الآخر ، فاستغرب هذا مني من اطلع على رسائلي ، فقلت له إن الاصدقاء درجات ومن عزوني من طبقات مختلفة ، وتختلف درجة صداقتي لشخص عن شخص ، وكلهم بحسب الظاهر صديق وحبیب ، ولذلك وجب ان يكتب لكل واحد بما يناسب علاقتنا وصداقتنا ، على ما يقضي بذلك الذوق ثم العرف والعادة .

عزيت مرة أحد أصدقائي البغداديين بوفاة أبيه ، وكان ذا منزلة رفيعة في نفسي وفي نفوس العرب ، وابنه في منصب كبير ، فكنت له كتاباً بخطي ودفنته الى رئيس ديوان الوزارة ليقراه فاستحسنه ، ولم نزد ان يكتب على الآلة الكاتبة بل ابقيناه بخطي زيادة في التكرمة ، وجاء الجواب بمدد في نشره مطبوعة زاد المعزى في آخرها بضع كلمات ظنها وفاء حق في التعميم ، فدفت الجواب الى رئيس الديوان فاستغرب صدوره من رجل تناول مثل ذاك الجواب اللطيف ، واجتمعت بصاحبي هذا بمدد حين وأخذته على كتابه وقلت له كان عليك ان تكتب بنفسك وبمبارتك وخطك جواب تلك التعزية ، او تمهد الى كاتب تلقته فكرك فيعبر عن رأيك اصدق تعبير ، ويكتب لك ما تريد انت لا ما يريد هو . اما انا فقد كتبت بقلبي وعاطفتي

وانشائي ، وما كنت موظفاً في ديوان من دواوين وزارتك ولا عاملاً في ناحية من ارجاء دولتك ، وقد تحتاجني انت ولا احتاجك ، وصداقي لك قد تنفعك وصداقتك لي لا تنفعني ولا تضرني . كانت عبارتي قاسية ، وهكذا جاءت ، ومن ادب صاحبي ان سكت وراعى حقوق الاخوة ، وما رأى ان يوسع شقة الخلاف ، بمد ان تجلي الحق تجلياً لا مجال للمحاكمة فيه . وما كنت أؤاخذه هذه المؤاخذه لو لم أكن على مثل اليقين انه ممن بعمل ولعظم التبعة على عظم فهم صاحبها ، وصاحبي هذا كان غاية في التهذيب والأمانة والسرورة ، جل من لا يسهر ولا يهفو .

واذكر اني لما زرت الاندلس ، ارسلت الى اصحابي في الاصقاع العربية بطايق بريدية من غرطانة عليها صور العاديات الاندلسية ، وكتبت على كل بطاقة سطرًا يخالف بلفظه ومعناه ما كتب على البطاقة الاخرى (واظن كان عدد البطاقات مائتين وكسراً) . ذلك لانه كان من المرسل اليهم الاستاذ المبجل والصدر المحترم والصدیق الذي تجمعني به عدة جامعات ، ومنهم القريب والنسيب . وكان لما ارسل وقع عند المرسل خصوصاً لما قابل بعضهم ما بعثت اليهم من العبارات .

عزيت وزيراً مصرياً بعزير عليه فأثاني الجواب بخط احد كتاب الوزارة على ما يظهر يحمل ييوسة الرسميات ، وما اظن الوزير كتب ذلك ولا أملاه ، وإنما هو من صنع كاتب صغير في الوزارة اعتاد ان يكتب هذه الكتابات الموجزة لصغار الموظفين عندهم ، وغلبت حسن الظن وقلت في نفسي لأشك ان الوزير وقع هذا الكتاب بدون ان يقرأه ، وكثيراً ما تخينني مثل هذه الرسائل الرسمية الجافة فألقيتها في سلة سقط المتاع ولا اعود إلى مراسلة صاحبها وكنت اذا اضطررت الى مراسلة بعض العظام ممن لهم علاقة بالجمع العلمي العربي او بوزارة المعارف اترك الرسميات واكتب كتاب الاخوان ، حتى لا أساق الى استعمال الييوسة الرسمية ، وتقرر مصطلحات الدواوين عن وفاء حق المكتوب اليه . وما عاهدت النفس عليه الا اكتب

لكبير ، وهو على راس منصبه ولو مات كل اهله ، او قامت الافراح في جميع بيوتهم ، حتى لا يتحفي بالجواب مكتوباً بيد خرقاء ، وله من ضيق وقته إذا اراد الدفاع عن نفسه ما يعبر موقفه . في ، ومع أنى ممن لا يرغب في لمظيم الناس بعضهم بعضا اكره من يكتب لي بما يكتب لكل انسان ، واذا تعمد الكاتب ذلك ، والغالب انه لا يتممه ، فاني اعده قد هجاني فاقطع صلتى به ، وهذا ولا جرم ضرب من ضروب الضعف البشري ، بيد انه مظهر من مظاهر عزة النفس وحب الكرامة ايضاً ، وله نظائر عند المدينين ، واشياع كثيرون في الاقدمين والمحدثين ، ومن عاملك معاملة لشعر باحتقارك يدعوك الى تحقيره ، ويضطرك الى ان تخرج عن تواضعك لتناقشه في منزلتك ومنزلته وإذا اظهر قحة قد يكلفك غير أخلاقك .

فقر الـعزّة

هبطت مصر أواخر سنة ١٩٤٤ وكنت آمل أن أهنأ بالاجتماع الى أحبائي ، وأنا أشتاقهم سنين ، فعلمت أن رئيس بمكو كننا الأستاذ وحيد بك الأيوبي اصيب بفلج منعه من الكلام ، وأنه كلما عاده أحد أحبائه بكى وأبكاه ، فأشار أحد الأُحباب اليّ أن الأولى ألا أعوده نثلاً أشق عليه . ثم نبي اليّ أستاذان عظيمان من أصدقائي محمد رياض باشا وجمفر ولي باشا ، وما هي إلا أيام حتى نبي صديقي رجل الاسلام ومصر الأمير عمر طوسون . أربع مصائب في أيام قليلة ، وكلهم على صفات ممتازة من العلم والاخلاق والاربيحية .

حدثني الوزير المصري حمدي سيف النصر باشا قال قضيت في السودان ضابطاً نحو أربع عشرة سنة وكنت وكيل الامير عمر طوسون في بعض شؤونه هناك ، ولا سيما في تربية بعض النابهين من أبناء السودانيين ، وقد علم منهم على نفقته الخاصة خمسين شاباً التعليم العالي . قلت له : وهذا عدا ما أنفق من الاموال في خدمة القضية السودانية ، وأنشأ المدارس والجوامع والمساجد في السودان ، الى آخر حسناته هناك وهنا ، ولا اراني مبالغاً اذا ادعيت أنه لم يخدم مصري قطراً غير قطره بأجل من خدمة الامير طوسون للسودان كما خدم مصر والاسلام بماله وقلبه وجاهه ، والأمير لا يعرف الا الخير ، وما تعرف الى غيره ، صرف فيه ماله ووقته . وحدث مرة ان مدارس العروة الوثقى ، وكان الامير رئيس مجلس ادارتها ، كادت تقف في أزمة مالية من أزمت مصر الشديدة ، فقرر مجلس ادارة الجمعية اغلاق ابواب مدارسها ، ربّما تنفّرج الأزمة ، فما رضي الأمير عن هذا القرار ، واقترض في الحال مبلغاً من المال أمد به الجمعية ، وكان الأمير يومئذ مضيقاً أيضاً . ولا أذكر أن ثروة عظيم في الشرق أنفقت على أعمال الخير مثلما أنفقت ثروة الأمير عمر ، ولا عرفت رجلاً دأب على خدمة قومه أكثر من خمسين سنة بمختلف الطرق

أكثر من الأمير عمر . وأظن من سيقراً هذا سوف يعطيني الحق في حزني على هذا الأمير لانه فذ العرب بأخلاقه وعلمه .

كنت أسمع بالأمير عمر طوسون وانه عالم الأمراء دؤوب على نشر العلم وفعل الخير ، وكنت أعجب بما كان من بلائه في الحرب الطرابلسية وغيرها ، وما كان لي شرف الاجتماع به ولا شرف مراسلته . ولما نجمت بأخي احمد كرد علي محرر جريدتنا « المقتبس » بمث الأمير يعزني تمزية لأرق منها ، ويذكر لي مناقب شقيق وحسن خدمته للأمة العربية فانظروا الى هذه الاخلاق الشريفة يعزني ومقامه مقامه ، وأنا لم أشرف بمد بالاجتماع اليه .

نعمي العظيم يقع موقع الألم العظيم من النفس ، فما بالك اذا كان الرجل الى هذا صديقاً برأ ، عرفته وعرفك فتنازجت وروحك وروحه ، ولا يستغربين اذا كان تأترك لفقد مثله أكثر من تأترك احياناً لفقد القريب ، ولطالما أحدث موت المظاء ثلماً في بناء الامم ، وما كل يوم تثبت الارض رجلاً من الصنف العالي كعمر ورياض وجعفر . فقد صاحب العزيز من أكبر المصائب ، لا يسلي شيء عنه من امور العالم .

دخلت على والدي في احدى العشايا قبل نيف وخمسين سنة وهو جالس في ثوبه يستعد لاستقبال سماره ، فرأيت متجللاً منقبض الصدر خلافاً لما اعتدت ان اراه ، فسألته عن سبب كآبته فما اثار جواباً . ولما ألححت عليه قال لي : إذا خذ هذه السبحة واحص مي الاسماء التي اوردها عليك . فاخذ يورد علي أسماء منها ما سمعت به ومنها ما لم اسمع ، حتى اذا قلبت ثلاثمائة حبة من حبات المسبحة وهو يقرن كل اسم بقلب (شيخ او افندي او آغا او سيد او بك او باشا) قال : كفي يا بني هؤلاء اصدقاء والدك طوتهم الخرسا (يريد الارض) واصبحت انا بعدم غريباً في هذه البلدة ، اليس من حق ان انقبض ؟ اما انا فاكبرت منه هذا العاطفة واعجبت بذكرته التي آحصت هذا العدد الدثر من الموتى في ساعة وبعض ساعة . سبحان الباقي بعد فناء خلقه .

المصريون والسوريون

بعض العرب يتهم المصريين بقلة العناية بحيرانهم سكان الاقطار العربية ويقولون ان لسان حال المصريين أن واجب غيرهم أن يعرفهم وهم غير ملازمين أن يقابلوا المعرفة بمعرفة لان لهم من ارتقاء ما لا يحتاجون معه الى غيرهم ، وهمسون بينهم أن من هبطوا مصر في أواخر القرن الماضي ما كانوا سداً على مصر ، وان كل من ينزلها اليوم ونزلها أمس لا يقصد غير الانتفاع بها وربما انتفع بضررها ، وفي المادة ان يطمع في الغني بما لا يطمع بالفقر ، ولذلك كان ادلال الغني على الفقر . وما يصدق على الفرد الى حد قليل لا يجب أن يطبق على الجماعة . وحال هؤلاء يستلزم روابط محكمة وأن ينظر الى الامور أعلى من نظر الافراد .

ليس من ينكر على الشعب المصري كرمه وأريحيته ، يتحل ذلك في الطبقتين الدنيا والوسطى ، وبعض أهل الطبقة العليا أيضاً ، ويدخل فيها أرباب الرأي والثقافة ، وهؤلاء ينظرون الى هذه المسائل غير نظر الكثرة الفائرة ، فان منهم من تشيعوا بروح الاقليمية ، فوهوا أن في مصر كل شيء فلا داعي لأن يعنى أهلها بأمور غيرهم ، ولا أن يأخذوا شيئاً عما سواهم ، لانهم سبقوهم وبرزوا عليهم ، والاشتغال بما لا يجب الاشتغال به مضية للوقت والمال ، والكامل لا يأخذ عن الناقص ، والعالم لا يقتدي بالجاهل ، وهذه القاعدة لا تطرد اذا أنصفنا ، فليس كل من ولد في مصر يكره من لم يولد فيها .

وترجع هذه النفرة في الجملة الى عاملين الأول ما كان من ضرر بعض هذا الغريب على مصر لما استعان به الحاكم في مقاصد تخالف مقاصد الوطنيين ،

فكان عيناً وعوناً لأعدائهم عليهم ، والثاني جهل الأصيل بحال التزبل أو الدخيل ، فالأول لا يعرف عن الثاني شيئاً يصح به إصدار حكمه على مجموعه ، فإن أمثال من يشكون منهم توجه اليهم من مواطنهم مثل هذه الشكوى ، وسيرة المتجرين بالدعوات لا تحمد في أمة من الأمم . ويشكو المصري الى ذلك من نصرف ذلك المرتزق في التجارة وغيرها . وهذه الشكوى تتناول الدخيل من الأجانب ، والدخيل العربي على كل حال أقل شراً من أكثر الدخلاء . ومن جهل بعض المصريين في الدهر الغابر أن كانوا يمتقدون أن سكان الشام غير مسلمين ، والمسلمون منهم عبارة عن أولئك المتشردين والمهجرين ، وبالاختلاط عرف المصريون سكان الشام غير المعرفة الأولى ، وأدركوا الطبقات التي لمطف عليهم ، والطبقات التي لا تهتم الا لاملأ جيوبها من خيرات مصر ، وتخدم على العمياء كل من يفضل عليها . وتقدم الدخيل في دواوين الدولة المصرية ، واغتنم المتجرون فرصة انتشار الأمن وعدل القضاء ، فتوسعوا في متاجرهم ، وهم من أكثر العارفين بطرق الكسب ، فأفلحوا وملكوا الأرضين والمقارات ، وعمروا القصور واغتنوا بنشاطهم واقتصادهم ، وبمنافستهم للغريب والقريب . ومصر مبتلاة بالغريب من أزمان طويلة لا تعيش وحدها مهما بلغ من غناها وعلمها ، ومهما دلت به من مركزها ، ومهما وضعت العراقيل في طريق المهاجرين اليها ، فالقوانين الطبيعية لا يتغلب عليها قانون ، ومصر في الواقع تقوى بمن ينزلها وتمصره تربح منه ويربح منها .

والخوف اليوم من أن مصر قد لضطرها أحوال الاقطار المتحدة معها الى الاتفاق عليها غير وارد فإن للاقطار الاخرى مواردها وهي غنية أيضاً تستطيع أن تقوم بأود جيش وحكومة كما هي الآن وكما حصلت ادارتها ارتقت اقتصادياتها وقويت معنوياتها .

يزيد اختلاط مصر بالاقطار العربية اليوم بعد اليوم ، وكان هذا التمازج مقصوراً على الشام ومصر فتناول اخيراً العراق وجزيرة العرب

وبعض شمالي افريقية ، ويزيد هذه الملائق احكاماً تلك المؤتمرات الطبية واللغوية والثقافية والهندسية والاثريّة والحقوقية والسياسية والاقتصادية والنسائية التي تعقد في مصر والشام والعراق والحجاز في كل سنة فيتمتع بذلك عشرات من أهل الرأي والعلم الى رصفائهم في مصر ، وكلما كثر تعرف هذه الشعوب قوي الأمل في تحقيق أماني العقلاء في الوحدة العربية الشاملة . ومن أم العوامل في تمازج العرب ان يشخص أهلها في كل داع الى البلد العربي المجاور يتجرون ويسكنون ويصطافون ، وعليهم أن يتبادلوا الأساندة فان الرجل الراقي اذا نزل على قبيل كان بالضرورة واسطة تعارف ، وصلة من صلات الوصل الجميل ، بين من أنت عليهم أزمان وبلد م مفصول جسماً وان لم يفصل روحاً عن بلد جاره . ومن أم ما يجب على المدارس تلتقيه أن تدرس بمنية تاريخ كل قطر دراسة واسعة بحيث يكون تعارف صغار العرب بهذه الدروس مقدمة الى اختلاطهم ببني قومهم متى كبروا . والحكومات في بعض الأدوار كانت السبب في قطع أوصالهم ، وقد زالت هذه الموانع اليوم ، وتحتم على كل عربي أن يشارك بهذه النهضة ما وسمه أن يشارك ، وليس عندنا ما يقال الآن للشعوب العربية الا قولنا : تعارفوا وعاطفوا ، فالتعارف رأس كل اتحاد والتعاطف روح كل اجتماع .



بسم الفترة

انقطعت نحو سنتين عن متابعة التدوين في مذكراتي لما عراني من دهشة الحرب على نحو ما مرأ العالم جمعة . وغريب ان أدون وأنا أشهد موت القرائح وجذب الأدب ، وانقطاع تبادل الافكار بين الغرب والشرق . قطع بين كل قطر وقطر ، ولعذر السفر في الجو او على اليابسة إلا بقيود ثقيلة ومراقبة شديدة ، وذلك حتى في حدود بلدين متقاربين ، اما السفر في البحر فتعذر إلا من الاجواء البعيدة عن الخطر قليلاً ، وملت الآذان سماع الاخبار لما تحمل من دعايات ، وما يتخللها من مبالغات ، واشتاقات النفوس الى العلم المجرد الذي كان يفيض من الغرب قبل الحرب ، وود الشيوخ لو طالت اعمارهم حتى يروا طلعة السلام في العالم وما تسفر الحرب عنه ، وها قد دخلت الحرب في الربع الاول من سنتها الخامسة وتمضي علي أيام لا أمد يدي الى المذيع انقطع منه خبراً من الاخبار ، وإذا اتفق ان قرأت صحيفة سياسية فقراءة عنوانها تجزئي على الاغلب ، إذ كل ما يكتب يراقب ، وكل ما يراقب تكثر الظنون في الحكم على صحته ، وكل قول يحاسب عليه قائله .

وصدق الجنرال كاترو وهو يعرفني إلى اركان حربه بقوله ان صاحبي هذا شهد مثلي الحرب المالمية وهذه الحرب . وأتم سمداء لأنكم لم تشهدوا إلا الحرب الحاضرة . ولعله يريد أني كنت مثله من شهود شديتين على البشر ، أما انا فقد شهدت ثلاثاً فكنت من شهود الثورة السورية عامين ، دع حروب الدولة العثمانية كحروب اليمن وحروب جبل حوران وحرب الارمن وحرب طرابلس وبرقة وحرب اليونان والبلقان وغيرها وربما كان مجموع سفي الحروب التي أدركتها أكثر من عشرين سنة .

طال تمويهي على نفسي هذه المرة لأجلب اليها السلوى فما أفدت شيئاً ،
و كنت أعلم الله شبه سجين مرهف عليه تراقب حركاته وسكناته وترسل
الميون عليه لترى ما يقول وما يفكر وما يعمل ، وينظر في كتبه اي تراقب
حتى يسمح له بقراءتها أما ان يكتب وينشر ما يريد فهذا مرام دونه حدّد .
ولولا ان كنت افزع ثلث ايام الشهر الى القرية ثم سكنتها لابتعد عن حركة
القصة واخبارها وآلامها لزدت غماً الى غمي وهماً الى همي ، وكنت اشغل
النفس في جملة ما أشغلها به بموضوعات ما كنت استحب ان أطرقها لاعتقادي
بأن غيرها أفيد منها كبحتي في غوطة دمشق وتاريخها وطبيعتها وأدبها
ولهجتها ، وككتابي مختصراً في وصف دمشق وتاريخها وحاضرها ، وكندوبي
لمذكراتي السياسية وغير ذلك وان قال بعض النابهن ان هذا من ام
ما نجب معالجته .

أي وربّي أصبحت أتألم لسامع تلك الاغنية الحزنة التي لم تتبدل يوماً
واحداً منذ أكثر من ألف يوم . قتل وجرح وأسروا ونسف وقذف واغراق
واحراق ، وقائع يرمضني سماعها ويزيد في ألمي كلما ذكرت من يقتل
كالبجاعة والطيارين والضباط وأمثالهم ، وأقدر لنفسي عدد من يقضى عليهم
باليتم من الاطفال والترمّل من النساء ، وأقدر في باطني الميون تبكي كل يوم .
هذا فقد ابنه ، وهذه مات وحيدها ، وتلك هلك ابو مئواها ، واولاد خسروا
من يكدهم لهم . وتألم نفسي هذه الايام أن ارى الاخلاق تفسد ،
والصدق يقلّ ، والفحش يزيد ، وألا يرى معظم السكان حرجاً في الكذب
والسرقة والسفاهة ، وغدا الانسان اشرف المخلوقات لاقيمة له الا بقدر
ما يستطيع ان يقتل أخاه في الانسانية . وفي الحروب ترتفع أسعار كل شيء
وترخص قيمة الانسان .

أنا هنا لا أظرف ولا أتلف ، وإنما هي خواطر نفس ابدية ، وحقائق
ابتنها لا أكاد اخفيها ، ولطالما حاولت ان احسن الظن بمستقبل الانسانية ،
فما هي إلا ايام حتى يظهر هذا الناطق المتمرد بمظهره الحق ويكتسي كسوة

الهمجية ، وليس هناك من يفكر في حرام او غبن اذا كان في الحرب
لصحيح الحدود بين دولتين واستئثار واحدة بارض كانت لغيرها ، وسر
الحرب اليوم استئثار احد الفريقين المتحاربين بالسياسة العالمية ، ومن قبض
على قيادها قبض على الفتى والسود .

كنت اعزي النفس بأن ادون عما قريب اخبار السلام وما فيه خير للبشر
واذا الامر يطول واذا النعمة في الاولى كالنعمة في الثانية ، واذا عقول
البشر كلها اتجهت الى جهة واحدة وهي البحث عن تكون له الغلبة من هذين
الفريقين المتقاتلين ، واختلفت الآراء فمن متشيع للحلفاء ، ومن عاطف على
اعدائهم مقدس للبطولة فيهم ، ومن شامت باحدى الدول لاساءتها في استعمارها
الى آخر ما يقول فلاسفة الحرب وطلاب الثارات اذا خلت الميادين . ويسألونك
مقئ لضع هذه الحرب اوزارها قل هذا ليس من علم الخلق ، وكذلك
من المجهول كيف تنتهي وعم تنجلي . وفي اعتقادي ان الغالب نفسه لا يعرف
ذلك وغاية ما ادرك ان الغالب سيملي ارادته وتصبح الدنيا أما انكليزية
سكسونية روسية او جرمانية يابانية والامر يومئذ لله .



دور حميد

بعد ان سقطت فرنسا في يد المانيا في السنة الاولى من الحرب الحاضرة تطورت السياسة فرأت بريطانيا ان تحتل سورية ولبنان لاسباب حرية فارسلت جيشاً طرد منها جيش الاحتلال الفرنسي او جيش من كانوا انتدبوا عليها بصك من جمعية الأمم ، وبعد قتال دام اربعة وثلاثين يوماً في اطراف القطر الاربعة عقدت الهدنة يوم ١١ تموز ١٩٤١ وعهدت بريطانيا الى الفرنسيين الذي سمو أنفسهم فرنسا المحاربة — أي الذين ظلوا على ولاء بريطانيا وتركوا فرنسا الأمم — بالنظر في سياسة سورية ولبنان كما كانت على عهد الانتداب . فاعز المندوبون الجدد الى رئيس دولة سورية وجمهورية لبنان بالتخلي عن الحكم وأتت السلطة الفرنسية للرئيسين بشخصين اعتمدت عليها فنصب المندوبون السيد تاج الدين الحسيني رئيس جمهورية سورية بمرسوم من المفوض السامي الافرنسي قال فيه إنه ثبت له بالبحث ان صاحبه خير من يتولى الامر في سورية ، ثم أعلنوا أن سورية ولبنان مستقلتان فارسلت اليهما بريطانيا العظمى والولايات المتحدة مفوضين سياسيين ونبذت عبارات الجملات الدولية .

ولما هلك الرئيس تاج الدين قام السيد شكري القوتلي أحد البارزين من زعماء الكتلة الوطنية فتبنى الزعامة بالاتفاق مع اصحاب الشأن وضمت الكتلة اليها أناساً ما كانوا من حزبها ، وبدأت الانتخابات في عهد حكومة موقتة ، وكانت الانتخابات في المدن حرة في الجلة وفي الاقضية تحت سلطة ضباط الاستخبارات الفرنسيين وجماعة الدرك السوري وهم يأترون بأمر الفرنسيين ومن نصبوه رئيساً للحكومة الموقتة ، فخرج النواب من طبقات مختلفة واثمر الضملاء بأمر الاقوياء وانتخبوا السيد القوتلي رئيساً للجمهورية

وأنفوا وزارة ضمت من سبق لهم تولي الوزارات من الكتلة وغير الكتلة ومنهم أربعة من رؤساء الوزارات وذلك برئاسة السيد سعد الله الجابري وهو كالسيد القوتلي ممن جاهدوا في سبيل الاستقلال واضطهدوا . وكان معظم البارزين في المجلس من رجال الكتلة ، وبعض نواب الاقضية والمدن غير متأهلين التأهل الكافي لحل هذه الامانة . وبات الرجاء معقوداً لما يتمتع به رئيس الجمهورية الجديد من الثقة ألا ترتكب الكتلة ما ارتكبته من الاخطاء في الدور الماضي . اما الانتداب الفرنسي فأخذ يتقلص شيئاً فشيئاً .

وأخذت بريطانيا العظمى تسمى لربط الممالك العربية برابطة واحدة فهدت الى نوري باشا السعيد رئيس حكومة العراق بمفاوضة مصطفى باشا النحاس رئيس الحكومة المصرية وبدأت المفاوضات مع حكومة سورية وحكومتى جزيرة العرب ولم يتعرضوا للاقطار العربية في شمالي افريقية بركة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . والغالب أنهم رأوا أنه لايسهل اليوم تحقيق هذه الأمنية . وما كانت انكلترا راضية عن الوحدة من قبل ولكن الحرب الحاضرة اثبتت لها فائدتها ، وتبدو الصعوبة فقط في حل مسألة فلسطين بعد أن وعدت انكلترا على لسان وزير خارجيتها بلفور بأن تجعل لليهود من ارض الميعاد وطناً قومياً ، وليس إيجاد حل يرضي الفريقين العرب واليهود بالتمنر على سياسة الانكليز ، خصوصاً بعد ان رأينا اليهود الواغلين على ذاك القطر قد تسلموا واخذوا يطيلون ايديهم على رجال الحامية من الانكليز ، ونسوا ان البريطانيين كانوا يحمونهم من العرب الى عهد قريب وينزعون من هؤلاء كل اسباب المقاومة .

وهناك صعوبة قليلة مع لبنان لأن من أهله من بلغ بهم التعصب الديني مداه ، ولا سيما بعض تلاميذ مدارس المبشرين ، فهؤلاء لا يحبون أن يدخلوا في جامعة أكثريتها مسلمة ، وقد سبق لرئيس جمهوريتهم أن صرّح بأن لبنان لا يجب أن يدخل مع سورية حتى في محالفات اقتصادية . قال هذا مع علمه

أن اللبنانيين يهلكون بدون أن تغذيتهم سورية بمحاصلاتها . ولبنان في الحقيقة مضطر إلى الدخول في الجامعة العربية ، والسوريون من أحرص العرب على هذه الوحدة وقد عزموا — كما قلت للعفوض السامي في فلسطين أثناء اجتماعي إليه مؤخراً — إذا أبى اللبنانيون الانضمام إلى الوحدة العربية أن يجمعوا من ميناء حيفا متفذهم البحري بدل بيروت ، وأن يقولوا لهذه عيشي وحدك كما تحبين . والغالب أن هذه الوحدة سيتمتع فيها كل قطر من الأقطار العربية بحكمه الذاتي ثم تلحق الجمارك والجوازات وقيود الحدود ويتوحد البريد والبرق والهاتف والنقد . وتصبح هذه الولايات مجتمعة الشمل بعد نشتها ، والنجاح مضمون للشعوب المتألفة المتحالفة . ولن يكون صوت الكبير كصوت الصغير في المعترك الدولي والتضال العالمي .

ووأيت اناساً من المفكرين يسيئون الظن بهذه الوحدة ويرون فيها سبباً جوهرياً لامتداد سلطة الصهيونيين تحت العلم العربي الموحد ، ذلك لأن فلسطين لا تكفي لتصريف بضائع مامل اليهود ولا حاصلاتهم من أرضها ومن المتعذر تصريفها في أوروبا أو في غيرها ، فإذا تمت الوحدة يستطيع الصهيونيون أن يصرفوا بضائعهم وحاصلاتهم في جميع الممالك الداخلة في الوحدة العربية ، وأن يتوسموا في ابتياع الأرضين في العراق والشام وغيرها ، وهذا مغنم غير قليل للصهيونية .

صديقي

في مذبح القدس

دعيت إلى القدس لالقاء أحاديث في المذبح خلال شهر رمضان سنة ١٣٦٢ - ١٩٤٣ مع ثلاثة من أصدقائي الأُسَادة طه الراوي العراقي والمصريان عبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد وكنا نحن الأربعة نحوم في أحاديثنا حول الوحدة العربية وإن لم تتفق على ذلك من قبل ، وما أوعز إلينا موعز بهذا الفكر . فكأننا والوحدة اليوم على كل لسان في ديار العرب قد رشحت أفكارنا من يئثنا فأخذنا على أنفسنا اعداد العقول لقبول هذه الوحدة . وكنا في فلسطين تتمتع بحرية مطلقة في الأحاديث التي ألقيناها ، ومنها ما كان قبل أشهر مما يحذفه المراقب . وتفضل المفوض السامي فقال لنا في جملة حديثه إن جماعته سألوه فيما إذا كانت أحاديثنا مما يجب مراقبته فكان جوابه إن أحاديث الضيوف تدور على الأدب والشعر ، ولا يراقب الأدب والشعر ، فاعفونا من النظر فيما خضناه من الموضوعات . وقد احتفى بنا ولاية الأمر هناك وودوا لو تزور فلسطين كلها فاعتذرنا بضيق أوقاتنا وأرادوني في دار الاذاعة الفلسطينية أن أقول كلمة في تهنئة المسلمين والمسلمات بميدم فقلت الكلمة الآتية :

« يا بني امي يا بني عمي . سلام عليكم طبتم وسليتم ، وسعدتم ولا شقيتم . تهنئات لكم بضيحكم ورجاء أن يعود عليكم وقد أظل السلام العالم ووقف عذاب الانسان للانسان ، وخفت أصوات الشهوات ، وقلعت أظافر المطامع ، وعاد البشر إلى سكونهم وأمنهم يتراحمون ويتعاطفون .

وعيد الاعياد يوم يحنو غنيكم على فقيركم ، وتعتمد يد موسركم إلى مصركم ، وينصف قويكم ضعيفكم ، ويكثر بين أظهركم صدق العهد وصدق الود ، وتقل الفوارق بين طبقاتكم ، وتتوحد الأفكار في باديكم وحاضركم فلا شعور إلا بالوطنية ، ولا دعوة لغير القومية العربية .

ما العيد إلا يوم يزيد عدد المتعلمين والمالين على الجاهلين والأُميين ،
ويوم تكون الكلمة العليا للمصلحين ، ويوم تنعمون كما تشاؤون في الحياة
الفاضلة ، لتفتبطون لا تشككون ولا تألمون .

العيد يوم تستمتعون بحرياتكم ، وتسنون بأنفسكم دساتيركم ، وتنفذون
بأيديكم قوانينكم ، تتحابون لا تتباغضون ، وتهضون لا تهجمون ،
وتتحركون لا تتجمدون .

وأسأل محبي الانتم ومحبتيها أن يوفر من السعادة قسطكم ، ويعلي بالعلم
كلتكم على نحو ما كان أجدادكم ، وأن يعمر بالعمل الصالح دياركم ، ويحفظكم
بالسلامة ، ويشملكم بالأمنّة ، ولا يجعل لغير العقل سلطاناً عليكم ، ولا
لغير السداد سبيلاً إلى أفوالكم وأفعالكم إنه سميع الدعاء .

كنت في السنين الأخيرة أهرب من السياسة ، كما كنت طول حياتي
أهرب من الظهور ، والسياسة ترصدني وتلحقني آخذةً بتلابيبي ، وذلك لما قام
في نفسي بعد أن عانيت من السياسة ما عانيت أن الاشتغال بالعلم أوفر عائداً ،
وان السياسيين قد لا يفيدون كما هو المتوقع منهم . وكنت إذا صادفت لطفاً
من بعض قدماء أصحابي كرئيس جمهوريتنا الحالي السيد القوتلي وقابلته
بمثله يفسره المفسرون بأني أطمح في منصب كبير فأضطر إلى الانقطاع عن
مجالس أصدقائي حتى أقطع الألسن عني ، وغاية ما أطلب اليوم أن تطول
حياتي حتى أعيد طبع كتيبي منقحة ، وقد عزفت نفسي عن الخدمة ، وهي
تحتاج من ذي الوجدان أن يعمل فيها عملاً نافعاً وإلا فأحجى به أن يتخلى
عنها لمن يحسنها .

عود إلى الوحدة العربية . في الحروب تختفي الأحزاب السياسية وتتضاءل
الحرية الشخصية ، وتبحث الانتم عن منافذ تخرج منها إلى دور سعيدي مرعية
الجانب موفورة الكرامة . ولما ظفر الحلفاء بأعدائهم من الألمان والطلليان
في شمالي إفريقيا وسقط بعض الأرض الإيطالية في أيديهم قويت الفكرة

في تأليف الوحدة العربية فإن اجتماع ملايين من العرب إلى غاية واحدة مع مصر تتألف منهم كتلة عظيمة يستحيل انتهاك حرمتها كل حين . وإذا جاءت هذه الوحدة ناقصة بعض شروطها في أول الأمر لا يأتي زمن طويل حتى تستجمع صفات القوة والسيادة ، وما يرجح بعض المفكرين يستبعدون قيام دولة العرب ، فهم متشائمون لا يولون نفقهم دولة من الدول لكثرة ما شاهدوا من وعود في الماضي لم يتحقق بعضها . ولا شك أن العالم سيتبدل بدلاً كثيراً ويلقى اسم الاستعمار والانتداب والحماية ، ويكتفى بمحالفات ومعااهدات تضمن للقوي شيئاً من الحقوق بدون جمجمة . والمأمول يومئذ أن يرفق القوي بالضعيف وبقل ظلم الظالمين في العالمين .



مفاسد الحرب

زادت الكارثة العالمية في الفساد ، وضمف معدل الأمانة ، وأصبحت السرقة والتزوير اموراً طبيعية تكاد لا تنكر ولو انكاراً سورياً كما كانت أيام السلم . وكان لبعض التجار في هذه الفترة وثبات واحتيالات ، وعلى كثرة ما ربحوا ما شبعوا ولا ارتووا . وكان المأثور عن جمهورتهم انهم أقرب إلى الشرف من أكثر أهل الطبقات الأخرى . ولو قد كشف لك الستر عن أعمال صفارهم والدخلاء فيهم لشهدت ما هالك من لصوصية دنيئة وأسفت على تدني الطباع إلى هذا الحد .

ورأينا رؤساء حكومات ما أهمتهم غير مصالحهم الخاصة ، وقد اساءوا استعمال نفوذهم بالتجارهم بالحبوب وغيرها من أصناف المأكولات ، ومنهم من زرع الحشيش المخدر واتجر به ، حللوا لانفسهم ما حظروا على الناس ، وذلك تحت حماية رجال الأمن . وكان هؤلاء يشددون الضمط على الفقراء ، ويأوئل من ينقل رطل خبز أو مدق قمح من قرية الى أخرى ، وعلى ذلك كان بعض رؤساء الحكومات قبل الجمهورية الرابعة مهريين رسميين وأكثر ما يهربون المأكولات يجمعون بلداً ليعطموها آخر ولا تهمهم من ذلك غير ما يدخل صناديقهم ، ولا يقيمون للبروة وزناً في هذا الزمان المصيب ، فكيف ينكر على صفار الموظفين استرسالهم في سرقة أموال الحكومة والامة . وادعى بعض هؤلاء الكبار أن غيره يحسن الانتفاع من منصبه أما هو ففقد عن ذلك مع انه ربح عشرات الالوف من الليرات من التهريب واستعان بقوة وظيفته على مقاسمة اناس من المهريين أرباحهم ، كان له منهب القسم الأعظم . وكان بعض رجال الأمن يحسنون القيام بأعمالهم ولا يرثشون أيام كان المتدبون يسيرونهم فلما استقلوا بأعمالهم ورفعت عنهم المراقبة

ونشبت الحرب نسوا ما تعلموا فأخذوا يجورون على الرعية ولا سيما في
الأماكن البعيدة عن الأنظار . ولا همّ للأمون على الأمن إلا مصادرة
الحبوب وتهريب المخطورات يشترك بذلك مع قاده .

ما عجب طباع البشر ! كنت اعتقد النزاهة في بعض الموظفين وإذا
الحرب تنادينا انهم كانوا كاذبين في دعواهم ، يظهرون التورع عن كل
ماليس لهم خوفاً وطمعاً ، وهم في الواقع ماعدوا سيرة رؤسائهم ، يترغون
معهم في حماة اللصوصية ، لا يبالون الشرف والنزاهة ، ودعواهم على فعلاتهم
ارتفاع اسعار المعيشة حتى لقد فقد التوازن بينها وبين رواتبهم ، نعم ان
مستوى العيش زاد خمسة عشر ضعفاً عما كان عليه قبل الحرب ولم تزد
الرواتب اكثر من ضعفين او ثلاثة ، فمن الصعب على من لم يكن له مورد
آخر غير راتبه ، ان يعيش بمشاهرة ضئيلة . وهذا ايضا ليس فيه مبرر
لسلب الرعية واضاعة حقوقهم . ولولا ان انشأ الانكليز في هذه الاقطار
مشاريع استلزمت شغل عشرات الالوف من الابدني العاملة كفتح طرق
وانشاء جسور واقامة حصون ومستشفيات وثكنات ومستودعات وماوي وملاجئ
لم الفقر الطبقات النازلة وربما كانت تنشب ثورات وتنتشر مجاعات . وكما
لضخم الورق النقدي نقصت قوته على الشراء فزادت الاسعار ارتفاعاً . كان
في سورية ولبنان قبل الحرب نحو ثلاثين مليون ليرة سورية من الورق
النقدي متداولة فزادت في الحرب ثلثمائة مليون آخر . وهكذا حال مصر
والعراق وبعضهم في الاقطار الثلاثة لكثرة الجيوش النازلة فيها يملون
ويربحون . أما الثروة العامة فمصابة بداء مجهولة نتيجته ، ولا يتجلى ما تؤل
اليه الا بعد الحرب وان رأينا بعض الأملاك والاراضي ترتفع اسعارها
الى ضعفي ما كانت عليه ثم تعود الى النزول .

طلعت علينا الحرب العالمية الماضية وهذه الحرب الطويلة الحاضرة بضروب
من التبدل في اخلاقنا ومنازعتنا وأهم ما كان محسوس الاثر ذاك الفجور

الساري في الطبقات . الامور المالية تزيد وتنقص ، والثروات تقل وتكثر ،
والارض لعمر وتخرّب ، والشجر يكتسي ويعرى ، لكن فساد أمة نذير
اضمحلالها ولا تنفع معها ثروتها ولا صناعاتها ولا فنونها ولا علومها . لا جرم
أن الفحش لا يرتفع من الأمم في حال ترقّيها وتدنّيها ، اما بعض العالم اليوم
فقد استحلوا كل محرم بلا حياء ، وكادت النخوة تفقد من الرؤوس ، وكان
لكثرة الجبوش المنوعة دخل كبير في الاسترسال في البغاء فعم البلاء وأنذر
هذا السقوط بسوء المعّبي .



الهزل

الهزل ينفع في الاحايين والجد نافع كل حين ، يدخل الهزل النشاط على النفوس وهو عون على الجِد ، واذا استكثر منه يسمج ولا ينفع وربما غلب الهزل على من كان تحصيل الرزق هيناً في أرضهم ، ولهم شيء من الفراغ يخلون فيه الى أصحابهم وعشرائهم ، والهزل قد يكثر في الحواضر لأنها لا تخلو من متبطلين ، يسهل عليهم تحصيل رزقهم بدون سعي عظيم . ومن لم يرزق حظاً من أدب النفس لا يدري كيف يهزل الهزل الجليل ، ولا كيف يتهكم التهكم الذي يسر ولا يسوء . وهزل الناس فرع من أدبهم يسمو بسموه وينحط بانحطاطه . ومن الهزل الفظيخ أن بعض المفرطين في هزلهم يخلفون أكاذيب مضرّة تجوز لساعتها على سامعها ، كأن ينعون اليه زوجته أو أباه أو أمه أو عزيزاً عليه ، وهم يظهرون الاسى على ما حلّ به . وهذه « المقالب » — واحداً مقالب كما يسميها المصريون او « التراكيب » مفردتها تركيبة كما يدعوا لها الشاميون — خالية من الذوق وفيها غلظة وسماجة ، لا يقدر فيها من يجرؤون عليها عظم الخطار الذي ينشأ من هزلهم هذا .

رأيت كثيرين من الهزالين ومنهم رجل في مصر جمع الى نبل المحدث جميل الأدب ، وعرف بابتداع المقالب يقصد بها ادخال المرح على أصحابه وتسليةهم فيما لا تهتز له أعصابهم كثيراً ، كأن يوم بالواسطة عقيلة صديق له أن سير زوجها هذه الأيام فيه ما يدعو الى الريبة ، فتغضب وتعاتبه أو تصارمه أياماً ، وقد يدعو جماعة من معارفه الى تناول الطعام في دار صديق لهم يوم كذا ، فيخف المدعوون الى دار صاحب الدعوة المزيفة في الوقت المعين ، او يزور هو على لسان صاحبه دعوة الى بيته يدعو اليها من لا يعرفهم

صاحب البيت . ورأيت في دمشق رجلاً صرف عمره وهو يهزل وأصحابه
كثار تختلف درجاتهم في المدنية والثقافة ، ولا يفتأ يخلب ألبابهم بما يسمعون
كل يوم ، وما عرفت أنه أغضب انساناً بهزله ، ولا أساء الى قريب ولا بعيد
بنقده ، أو ظهر من كلامه بذاعة . اذا اجتمعت اليه لا تحب أن تفارقه
لكثرة ما يسمعك من تهكم ، ويورد على مسمعك من قصص ونوادر وبعضها
واقعي بطيها ، بما يمزجها به من أفلاويه ، ويبرزها في قالب شفاف من رقيق
حسه وصائب نقده . وقد ينسب بعض قصصه الى نفسه مخافة أن يرتكب
كبيرة الغيبة ، وفي هزله درس أخلاق ونقد عادات .

هذه الفئة من أرباب الهزل يجب الاتقاع بما تلقى من دروس لتستفيها
العامة أكثر من دروس الخواص . يقول ابن المقفع إن آثرت أن تفاخر
احداً ممن تستأنس اليه في هو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدّون
أن تتكلم فيه بما كان هزلاً فاذا بلغ الجد وقاربه فدعه ولا تخلطن بالجد
هزلاً ولا بالهزل جداً ، فانك إن خلطت بالجد هزلاً هجنته ، وإن خلطت
بالهزل جداً كدرته ، غير أني علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تستقبل
فيه الجد بالهزل أصبت الرأي وظهرت على الاقران وذلك ان يتوردك متورد
بالسفه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من
الوجه وثبات من المنطق .



استعمال العقل

كان استاذنا الجزائري يحذرنا من القول الا بعد الاستثبات ويغض
الينا الاستنتاج الا اذا استوثقنا بما لدينا من النصوص ، ولا يجب أن نتوسع
باعطاء الآراء اذا لم نكن على بصيرة من صحتها . وكان التزيد في نقل
الاخبار من أشد ما يسوءه ، ولا يجب الا كثار من التعليق على الحوادث
بما لا يفهم منها . وهو يريدنا أبداً على ان نستعمل عقولنا قبل ان
نشرع بالكلام .

حدثني صديقي الأمير أمين ارسلان قال كنت نلميذاً في المدرسة الملكية
في الاستانة وكنت اختلف الى منزل السيد جمال الدين الافغاني وكان من
عطفه علي ما جبرني على غشيان مجلسه كثيراً . قال دخلت عليه صباح احد
الجمع فوقع نظري على كتاب في مذهب كوفوشوس بالفرنسية ملقاً على
المنضدة ، فنظرت الى السيد كالمتعجب من تنازله ، على جلالة قدره في الاسلام ،
لاقتناء هذا الكتاب ، فقلت له : ومولانا أيضاً يضيع وقته في تلاوة هذه
الكتب ؟ فقال : نعم فان فيها حكماً عظيمة . ثم قال : وهل أنت اليوم في سمة
من وقتك لنقرأ هذا السفر معاً فاجبته الى دعوته مع الشكر . وعند ذلك
أمر خادمه ان يمنع الناس من الدخول عليه طول النهار ، وأخذت أتلو
على السيد وهو يفسر لي ما أبهم علي ، وكان يدرك مقاصد المؤلف ومصطلحات
المذهب أكثر مني مع تمكني من اللغة الفرنسية . قال وما أمسى المساء حتى
أتينا على الكتاب برمته ، فقال لي السيد : وكيف رأيت يا أمين كلام
كوفوشوس ؟ فقلت شيء عظيم يستفاد منه يامولاي ، وما كنت أظن الامر
هكذا ، فقال لي وهو كذلك ، وعليك بعد الآن ألا تصدر حكماً في شيء
قبل الدرس وامعان النظر .

ولو جرى اكثر القوم على هذه الطريقة لا يقولون الا ما يملعون ، ولا يتفلسفون الا بمد التفكير لما سرت الاغلاط الفظيعة الينا ، ولتوفر علينا عذاء كبير وعبث كثير . نعم ان من نرى اقوالهم أكثر من افعالهم ، وخطأهم يزيد على صوابهم ، لو استعملوا عقولهم قليلاً لظهروا بمظهر من قل فضوله ورجي صلاحه .

قام مرة نائب حلي في مجلس النواب السوري يطلب الغاء المجمع العلمي العربي بدعوى انه يكلف الجمهورية مالا كثيراً ولم يأت بثمرة تذكر ، فنصدى الرد عليه رئيس مجلس النواب (السيد فارس الخوري) ورئيس الحكومة (السيد سعد الله الجابري) ونائب دمشق (السيد نجيب الريس) وغيرهم من النواب ، وبينوا له فساد حكمه على معهد ما زال يخدم الآداب العربية منذ ربع قرن ، تشهد لذلك مجلته ومحاضراته ، وما ينشره من الكتب ولو لم يكن من الجامعات النافعة ما انبرى العلماء في الاقطار العربية والمستعربون من الافرنج يذكرونه بالاعجاب والتقدير ، وما سأل رئيس المجلس ذاك النائب المتهور هل اطلمت على اعمال المجمع او حضرت محاضرة من محاضراته حتى تحكم عليه هذا الحكم ؟ فاجاب نعم حضرت مرة محاضرة لرئيسه وكان موضوعها الكذب ، فقال الرئيس فأنت على ما يظهر لم تستفد شيئاً مما قال الرئيس في هذا المعنى .

وأراد احد المنتظمين ممن تنطق ألسنتهم بما لا يمتقدون كيداً وحسداً ان يفضح المحاضرات التي يلقيها اعضاء المجمع وغيرهم في ردهته . فقال وهذا الرئيس يقتبس محاضراته من كتبه ، فاجابه احد العلماء الحاضرين وهل تستطيع أنت ان تألف مثل كتبه وكتبه موقع في نفوس العرب ، فهت ذاك المتدرع إلى تزيف ما لا يعلم ولو كان كل من حضرة النائب وجناب المتفلسف الناقد استعمل عقله ما جسرا ان يصدرا مثل هذا الحكم في أمر لا يعرفانه .

وبسرنا وقوع تبدل محسوس في العقول وفي صورة الحكم على الأمور .
رأينا احد رؤساء حكومة سورية (السيد حقي العظيم) وهو انتدابي يقول
أي فائدة أتت من المجمع العلمي العربي ، وهذا بجمع مصر يكفيننا المؤونة ،
وبالفائه تقتصد مبلغاً نصره في أمر آخر من اعمال الحكومة ، وشهدت
في المهد الاخير رئيس حكومة وطني (السيد سمد الله الجابري) يدافع في
مجلس النواب عن هذا المجمع العلمي دفاع الغيور على العلم العارف بما نجم
عن هذا المجمع من الفوائد العظيمة . وما وقع من الاول والثاني من الرؤساء
يدخل في باب الارتقاء المحسوس في العقول .



٥ المؤتمر النسائي

عقد في القاهرة في شتاء سنة ١٩٤٤ مؤتمر نسائي اشترك فيه وفود من الشام والعراق ولم يشارك فيه نساء جزيرة العرب ولا غيرهن ، وألقين الخطب وطلبن المطالب في اصلاح حال المرأة ، وبما قررنه مساواتهن بالرجال في الوظائف ، إذا تساوى الذكر والانثى في الشهادات والمؤهلات ، وأن ينتخبن ويُنتخبن أي يصبحن نائبات في المجالس النيابية ، يتولين أمور الناس في الحكم ، اي يتخلين عن بيوتهن وتربية أولادهن ، ويتصدين لشؤون لم يخلقن لها ، وبعض ما طلبن مما يتعذر تحقيقه لان النساء لم يفلحن في الحمامة ولا في الطب ما عدا القصر الخاص بامراض النساء ، ونجحن في ترميض المرضى والكيمياء العملية وتربية الاطفال ، ولم يأت منهن في الغرب الى اليوم مهندسة ولا قاضية ولا طباحة ولا خياطة ، وثبت انهن لم يأتين العالم بشاعرة ولا كاتبة من الطراز الاول ولا بعالمة ولا مخترعة من عيار الرجال ، وإذا نجحت حكومات النساء في بعض دول الغرب فالفضل فيه للرجال الذين كانوا يعملون من وراء حجاب ، وإذا اخفق الرجال في بعض الادوار فقد كان السبب فيه النساء مذكن حاككات بالعمل والظاهر أن الرجال هم الحاكمون . سررت بعقد هذا المؤتمر يتمرن بنات حواء على الخطابة والكتابة والتفكير ، أما هن فهما قررن وشاهدن من بعض الرجال صدوراً رحبة في سماع شكواهن فمن المستحيل أن ينفذ من مطلهرن إلا ما كان المنطق السليم يؤيده . ونصيحتي الى الفضليات منهن ان يمتنن بتعليم بنات جنسهن وأبنائهن جنسنا اولاً حتى اذا صار المتعلمون والمتعلعات أكثر من الاميين والاميات جاز لهن ان يطلبن بعض ما طلبن من الرجال ، وربما يخرجن يومئذ من تقرير ما يخالف طبائعهن ، ويتعذر عليهن تحقيقه من عدة اعتبارات ، لان الفطرة لم تؤهلن له ، وما أحب لهن الاشتغال بالبحث والسير مع الهوى ، وهن أعرف بما يعرض لهن من حالة صحية تخرجهن عن اترانهن مدى الشباب والكهولة .

محاضرات في المحافظات

كان المجمع العالمي العربي قرر انتداب بعض أعضائه لالقاء محاضرات في أمهات مدن سورية وطلب اليّ رئيس الجمهورية مثل هذا الطلب وكعذر انفاذه لما حال دونه من قيود مالية ترجع الى صرف المقتضى من النفقات في هذه الرحلات ، والموازنة لا تسمح الا بالقليل من الواجب انفاقه . وقد دعاني رصيني الامير مصطفى الشهابي محافظ جبل العلويين ، أو جبال النصيرية كما كانوا يسمونها قديماً ، الى القاء محاضرات في اللاذقية حاضرة محافظته فصحبت رصيني الدكتور جميل صليبا وألقينا ثلاث محاضرات على جمهور لا يقل عن ألف نسمة منهم مائتا سيدة وكان الحضور على غاية التهذيب والنظام ، كلهم أسمع تنصت لما يلقى وتقدر ما تسمع .

وقد اغتبطت أنا وزميلي بالبداة باللاذقية بعد أن فصلت أكثر من عشرين سنة عن سورية وجمعت على عهدالانتداب دولة قائمة برأسها كما جملوا الاسكندرونة وجبل حوران ! ولا تقل نفوس محافظة العلويين اليوم عن نصف مليون نسمة بين علوي وسني واسماعيلى ومسيحي . وطول سواحلها مائة وخمسون كيلومتراً وعرضها ستون . وسهولها كجبالها خصيبة ومياها دافقة وهواؤها معتدل وزراعتها متنوعة واشجارها المثمرة وغير المثمرة تأتي باحسن الفلات .

ويندر المتعاملون في أكثرية السكان من العلويين ذلك لان الحكومات السابقة لم ترعهم حق الرعاية وكانت تستثمرهم فقط ، وكانوا اذا آنسوا غرة من حاكمهم خرجوا عليهم ، وقد نفرهم بعض جهلة السواد الأعظم وباعدوا بينهم وبين الاسلام ، وما هم الا فرقة من فرقة عشش الجهل في عقول متتحليها ، وان زعم بعض سخفاء المقول أن أصلهم نصارى ومنه جاء اسمهم النصيرية ! ومثل هذا دعواهم في أن الدروز ليسوا من المسلمين ، وقد سعى المبشرون في تنصير العلويين والاسماعيليين والدروز فما أفلحوا .

جامعة الدول العربية

كنت في مصر لما انقضى مؤتمر جامعة الدول العربية فسألت بعض أعضائه أما حسن لأحدكم أن يأتي في المؤتمر على ذكر مراکش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وينادي بأنها أقطار عربية فيها عشرون مليوناً من العرب وهي جديرة بأن تضم إلى الوحدة العربية . وهلا خطر ببالكم أن تمرضوا لذكر الامارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي كعمدن ولحج والحميات التسع والشحر والمكلا وحضرموت ومقط وعُمان والكويت والبحرين . وقلت هذا لجلالة ملك مصر المظلم فابتسم وقال الاسباب معروفة وأشار الى احدى الدول الكبرى . وسألت أحد أعضاء الجامعة العربية عما اذا كانوا يفكرون في إلغاء الحواجز الجمركية بين الدول العربية ويطلبون الجوازات لتسهيل السفر بين البلدان الداخلة في هذه الوحدة فقال ولا تبطل جوازات السفر ، والجوازات أقل ما يطلب الغاؤه من هذه الشركة الجديدة . وقد وقع مندوبو الاقطار الداخلة في هذه الجامعة على صك الجامعة الجديدة وكلهم متفائلون خيراً بنتائجهم ، وما رأيت أحداً جراً فانتقد شيئاً منه فمضى أن يكون الباطن كالظاهر وأن تكون نتائج الجامعة العربية خيراً من مقدماتها .

المعارف والاصدقاء

عجيب حال بعضهم يطالبون بحقوقهم ويهملون اداء ما عليهم من حقوق ، ولا يهون عليهم أن يطالبهم انسان بحق له عليهم . لاحظت هذه المرة أن بعض معارفي من كبراء المصريين وأهل الأدب والرأي فيهم يمتبون عليّ اذا جئت مصر ولم أسأل عنهم ، لأن العرف انغربي الذي ساروا عليه في التزاور هو أن يبدأ القادم فيزور أصحابه اولاً ثم يزورونه . أما جمهرة أصحابي فكانوا اذا سبقت فزرتهم يكتفون من اكرامي غالباً بدعوتي الى طعامهم أو شرايهم ، ولا يرون من الواجب أن يزوروني ولا أن يسألوا عني بعدها ، سيان عندهم غبت أم حضرت . أنا أعذر من يتهاونون في هذه الحقوق بمض المذر اذا صح ما يبشرون اليه من طرف خفي أنهم في شغل شاغل عن كل أحد ما دامت شروط مجتمعهم متقلقلة ، وليس في وسعهم تنظيم أمرهم وسط الفوضى . وأعتقد أن معظمهم بهرعون الى أبواب المقامات السياسية أو الى من يتوقعون منهم فائدة محسوسة . وقد جريت في السنة الأخيرة (١٩٤٥) على قاعدة جديدة استرحت بها اذ رأيت العقل يوجبها ، وهي ألا أسأل إلا عن يسأل عني وأزور فقط من أعدهم من أخلص خلاني ، واعتذرت عن حضور الدعوات التي دعيت اليها وقد بلغت عشر دعوات ومنها رسميات لاني لا أريد أن يتخذ بعضهم من دعوتي اعلاناً عن كرمه والساع علاقانه ، وكنت عمدت منذ سنين طويلة ألا أواكل من لا أعرفهم ، ولا أحضر مجلساً اتفص فيه أو يتفص غيري من وجودي معه ، فربحت بذلك وقتي وصحتي وبانت لي درجة تلك الصداقات . وتوخيت للتذرع الى ذلك ألا يكتب اسمي في صحيفة اخبارية حتى قلّ من يقصدني ممن أريد أو لا أريد مقابلته ، وزرت في جملة من زرت

في الريف صديقي الكريم قليني فهمي باشا من أعيان مصر دعاني الى داره في مغارة من الصميد الأوسط واطلمت على ما أنشأ فيها من مدرسة ريفية ومدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية وكنيسة وجامع ، عدا سرايه في حلوان التي أعدها لتكون بمده مستشفى ووقف عليه ما يلزمه وعلمت ان صديقي يملك في تلك البلدة ستمائة فدان قسمها مناصفة بين أسرته وبين أعماله الخيرية . ولو جرى من رزقهم الله الغنى الطائل على الجود بعشر ما يملكون بصرفونه في البر لما بقي في وادي النيل فقير ولا جاهل ولا مريض .

غرائب

ما أحب أن تذكرني الصحف في أمر لي شخصي مخافة شغل اصحابي بشيء خاص بي ، واضطر الى مجاملتهم كما جاملوني . فجمعت بفقد ابنتي العزيزة سعاد فذكرت صحف دمشق الخبر وهرع الأصدقاء ورجال الجمهورية الى لعزبي في مزرعتي وفي البلدة ، ولم تجئني سوى لعزية واحدة فقط من الديار الشامية (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) مع كثرة أصحابي فيها ، ووردت عليّ لعزيات أكثرها بلسان البرق من اخواني المصريين ومن جملتها برقية من عظيم لم يسبق لي أن تشرفت بمعرفته شخصياً وإن كنا نعرف أحداً صاحبه غياباً منذ سنين طويلة وهو صاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الحكومة المصرية . ذكرت هذا هنا ليعلموني بمض المذاق على حبي المصريين وتقاني في حب مصر .

أنا والمقيدة

قال لي الاستاذ محمد اسماعيل النشاشيبي فكرت في أمرك ملياً وحمدت الله على أن أنشأك نشأة اسلامية ولم يجعلك مطية لأعداء الاسلام يتخذون من قلبك أداة لنشر دعوتهم ، ولو قدر لك ذلك لكنت بما رزقت من بيان وجلد شراً على أمتك . والسرف في هذا الذي عجب منه صديقي أني اعتقدت وأنا في العقد الثاني من حياتي أن الدين المعقول أجدى على البشر من الالحاد ، وأن من السهل الهدم والصعوبة في البناء ، ومن حاول أن يدك بناء قائماً على وجه الدهر وهو عاجز عن اقامة غيره كان خليفاً أن يمدد في الحق .

وقويت في نفسي هذه المقيدة عندما درست الاسلام دراسة علمية ، وتدبرت القرآن وسيرة الرسول وأصحابه ، وأخذت الشريعة من أصنى مصادرها ، وأجبت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، بسيداً في الجملة عن التقليد ، ولما جاءت نوبة العمل كنت أدون ما علمت ، ومع هذا رأيت أن أتباع عن الأبحاث الدينية لعلمي بأن في الأمة أناساً كثيرين انقطعوا إليها ، وآثرت أن أوجه وجهي شطر علوم المدنية ، لاعتقادي نفعها في انهاض الأمة ، وامة لا تصلح دنياها لا يغني عنها دينها ، والدنيا مزرعة الآخرة . وكان لي من التربية الأولى عون على تفهم ما شغفت به ، وما أوغلت في تقدير ما علمت بأدنى بدء ، ولا استرسلت في الغرام بما لفته بعد .

حكمت العقل فيما عرض لي من القضايا الدينية فلم أستطع حل بعض مسائل الآخرة من طريق العقل وسلمت بما جاء ، ولم يكن ما استعصى علي إدراكه سبباً في خروجي على الدين كله ، قبلت المقيدة بالتسليم

واعتقدت اعتقاداً جازماً بخالق الأَكوان ، وقلت انه لا يطلب من كل إنسان أن يعرف كل سر ، وأن يملأ بالمنطق كل أمر . ومن طبعي ألا أتفلسف إلا بعد درس النصوص أما أن اعطي حكمي في كل ما يمر في ذهني وقد شغل به قبلي أرباب العقول قروناً فما أثمر لهم طول تفكيرهم شيئاً ، فهذا ما كنت أتجنبه .

أهمني من الدين قبل كل أمر جوهره وجماليه الاجتماعية ففقت عن كل مال محرم في الشرع والعقل ، وما رأيت في استخدام الكذب فائدة ، وصنت قلبي ولساني عنه ، وتفانيت في حب الحرية ، وقالت من يحتالون ويستغلون السذج لمآربهم ، وعذرت بعضهم على نقص تربيتهم ، وما عذرتهم على الزور والخداع قط . كرهت التعصب والمصبيات فلم ادافع عن مسألة ما اعتقدت صحتها ، ولا ألقيت قولاً وأنا أوقن بضرته ، وقلما قبلت لنفسي تقليد أحد في آرائه ، أو سرقة آراء غيري وادعاء انها من عندي ، وقد وقع لي وأنا في العقد الثالث أن قللت استاذاً لي في رأيه ببعض رجال الاسلام ، ثم رجعت بعد الدرس عما اعتقدت ، واخترت مذهباً جديداً لي هداني إليه التجرد في البحث عن المصبيات الدينية .

اجتهدت في أقوالی وأفعالی وما ندمت على ما قد أتيت من خطأ ، مادام الخطأ غير مأمون السراية إلى أرقى العقول . مقتاً الظلم وقائلته وأهله مهما كان دينهم وجنسهم ، وما ونيت ولا تحولت عن دعوتي ، ودعوت إلى العدل وبالغت في تقدير من تشبعوا بروحه ، وأعترف أنني كنت أرفضهم فوق أقدارهم لأجمل منهم مهازاً لغيرهم ، وما كرهت حياتي مخالفاً لي في النحلة ، ولا مبايناً لي في الجنس ، ولا وضيعاً في المرتبة ، وإنما كرهت رديء الخلق والطبع ، ومن يجوز الخروج على نوااميس العقل ، ولطالما أكبرت كل عطف يبدو من صاحب القوة على الضعفاء الكباري لكل من يفعل الخير ويكسبه لا ينشره .

أما بعد فلا يطلب ممن كثر اطلاعه على الآراء المختلفة أن يظل على رأي واحد طول عمره في عويص المسائل ، فالاجتهاد فيها تبع أبداً للتجارب التي تستجد للدارس ، وكان الواجب أن يقوم المرء بكل ما وجب عليه ويبتعد عن كل ما عنه الشرع نهى ، ولكن النقص من خصائص البشر . أسأله تعالى أن يجنبنا مزائق المنافقين ممن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم .



عملية أخفقت

قلت في غير هذا المكان أن حكومتي بريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان وتبادلت هاتان الحكومتان مع الدوائين العظيمتين الرسائل السياسية . ومضت حكومة سورية في جمهوريتها وتبعتها حكومة لبنان ، فانتخبت النواب وانعقد المجلس النيابي وطلبت حكومة لبنان من حكومة الانتداب الافرنسي الاستيلاء على حصتها من أموال المصالح المشتركة وغير ذلك من المطالب ، فشق ذلك على فرنسا المحاربة ، وصدر أمر قائدهم بالقضاء القبض على رئيس جمهورية لبنان وعلى رئيس حكومته ، واعتقلوا مع بعض الوزراء في قلعة راشيا وعهدت الى السيد أميل اده رئيس الجمهورية الأسبق أن يتولى كبر هذا الأمر ، وشرع بانتخاب حكومة شرعية لا من رجال الشوارع كما وصموا الحكومة المفضوب عليها . فقامت مصر والعراق وسورية والمملكة العربية السعودية تقبض هذا العمل وعاضدت بريطانيا أهل لبنان معاضدة فعلية حتى رجع الفرنسيون عن قرارهم واستدعوا قائدهم الذي قيل انه لم يعمل إلا بما قضت به لجنة فرنسا ومجلسها العام ، وأعادوا المعتقلين الى كراسيهم .

استغرب كل عاقل عمل فرنسا المحاربة وخرقها الاجماع في استقلال لبنان . وقد وقف جلالة ملك مصر فاروق الأول وحكومته وحكومة العراق أجمل موقف في هذه القضية ، وأنحوا على من جرؤا على سلب ما ليس لهم ، وذكرهم بأنهم امة يحتل عدوها أرضها لا يحق لها أن تسيطر على بلد غيرها ، وهي لا مملكة لها ولا سلطان ، يصرف عدوها أمرها ، وهي لا تملك من استقلالها قليلاً ولا كثيراً . وفي الحق ان الفرنسيين المحاربين أو الأحرار قد خسروا في هذه الحركة عطف العرب

وكان عملهم وبالأعلى عليهم ، كأنهم ظنوا ان فرنسا في سنة ١٩٤٣ هي فرنسا سنة ١٩٣٩ تمتاز بجيشها واسطولها ، وتتمتع بمظمتها وسلطانها ، وأمد لبنان جزءاً من أمبراطوريتها ، وما هي إلا منتدبة عليه وعلى سوريه فقط . وقد زال الانتداب بزوال جمعية الأمم التي كانت عهدت إليها بإدارة سورية وباعتراف الدوائين اللتين لهما الشأن الأول في هذا الباب انكلترا والولايات المتحدة باستقلال سورية ولبنان على صورة لا مجال لدولة مها علت منزلتها أن تنقض هذا القرار .



مؤتمر المجمع اللغوي

دعيت في آخر سنة ١٩٤٤ لحضور مؤتمر اللغة العربية في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة وكان ضمني الى اعضائه مؤسسه عليه الرحمة ، وكنا نجتمع مرة كل سنة فحالت الحرب الحاضرة دون اجتماعنا أربع سنين . وقد رأيت بعد هذه الفترة تغييراً عظيماً في تركيب هذا المجمع ، وكان ينظر في تعيين أعضائه الى الكفاية العملية فأصبحوا يجري انتخاب بعضهم بتأثيرات الحزبية ، ولما جاء الدستوريون الى الحكم بدلوا في أوضاعه وأختاروا أناساً منهم أو ممن كانوا هم راضين عنهم ، ولما جاء الوفديون اختاروا أناساً منهم أيضاً ، ولا يبعد أن يجيء السعديون أو غيرهم يتولون زمام الحكم غداً فيضمون رجالاً الى أعضاء المجمع يرون من المصلحة ارضاءهم . والحزبية أضرت بمصر ضرراً بالغاً تناول كل عمل له اتصال بالحكم .

عرضت على المؤتمر ثلاث مسائل كبرى اذا أقرها يدخل التبليل في اللغة العربية . الاولى اختراع خط جديد يراد به الاستغناء عن الشكل فيكون هذا من بنية الكلمة وبذلك يزيد عدد حروف الهجاء كثيراً ويأتي هذا الخط السقيم فيحل محل خطنا الجميل ونستعيز عن هذا السهل الذي تملئناه بذلك الصعب الذي ما عرفناه . والاقتراح الثاني ان تبسط قواعد اللغة العربية في اللغة والصرف ولا يلتفت الى ما ورد في الجملوع والتأنيث والتذكير وغيرها ويحذف المترادف من المعجمات وكل ما كان له أسماء كثيرة من المسميات . والاقتراح الثالث وهو أعظم الاقتراحات ضرراً باللغة اختيار الحروف اللاتينية لكتابة الحروف العربية ، وبذلك يقضى على تراث ألف وخمسةائة سنة ولا يأتي جيل واحد على المسلمين حتى ينسوا القرآن .

هذه ثلاثة اقتراحات عرضت على المؤتمر فجرت المناقشة فيها طوال

دورته هذه ، ورددت كلها وخطب في تزييف الاقتراح الاخير ثمانية أعضاء ، وما جسر واحد من الفريق الثاني أن يجهر بمعاودة الحروف اللاتينية إلا أنهم جعلوا لردّها مخرجاً وهو أنهم أرجأوا النظر فيها الى السنة القادمة ، عسى أن يقوم من يعالجها معالجة أخرى او يقيض الله مخترعاً آخر يفكر تفكيراً ثانياً في اخراج هذه اللغة من ورطتها ، وما أظن نفعه الحروف اللاتينية كمود الى الانبعاث من مرقدّها لان في تحقيق ذلك هدم الائمة لا محالة ، وحدثني عارف ثقة ان وزارة معارف مصر أمرت باغلاق مسألة الحروف اللاتينية وكفى الله المؤمنين القتال .

وأريد ان أسجل هنا ألمي من تسرب العنصرية الحزبية الى مجالس العلم ، وتلوّث وجهه الجميل باصباغ السياسة . ورأيت هذه المرة أيضاً كثرة غرام بعض أرباب النباهة من المعمرين بمصانعة بعضهم بعضاً على ما لا يدخل في المنطق السليم ، والعلماء اولى الناس ان يصونوا انفسهم عن المصانعة والتزلف . شهدت صديقاً لي منهم قد امسك مع ما فيه من فضل عن القول لما أفضنا في مسألة الحروف اللاتينية لان مقترحها من حزبه ، وكان المفروض فيه ان يكون على خلاف هذا الرأي فيحاول بسكوته الا يفضب المقترح ولا ينقل عنه أنه يقول بالحروف اللاتينية ، لان ذلك مما يؤذي سمته ، ويود ايضاً ان يرضى المجدين الذين دأب بعضهم على التأفف من كل قديم ليقال عنهم انهم دعاة تجدد . وما اقول كما يقول خصومهم إنهم يحاولون نشر الالحاد ، وان كبيرهم المتفلسف يوحى اليهم آراءه فيتابعونه على العمياء ليقال عنهم إنهم مصلحون . والحر من يجاهر ولا يخاف فيقول مثلاً إنني عملت ما عملت لخدمة الغرض القلائى ، وقد عدت عما كنت ادعو اليه امس ، وأنا الآن أعمل لخدمة أغراض أخرى .

هذه الدنيا ام العجائب ، وهؤلاء الناس اغرب ما فيها ، فان أمثلهم يكتم حب الدنيا على ما لم يكن يتوقع صدورّه من مثله . إي وربّي إن ذنب الكبير كبير ، وانا لا اريد هذه الطبقة ان تتخلى عن مطامعها في الحياة ،

فقد فطرنا على حبها ونحرص على ما يضمن لنا الرفاهة فيها ، بل أريدها أن تصدق في مطالبها ومظاهرها . فلو قال فلان مثلاً أنا سياسي وبودي أن أعمل فقط في السياسة فآتي كل ما يأتيه السياسي لقلنا له : سر في طريقك لا تبال الناقدون أما أن يخالف السميت الذي طالما سار عليه ، فهذا مالا نرضاه امدو فضلاً عن صديق . المرء حر في اجتهاده فإذا كان اجتهاده مما يضر فيؤاخذ على تفريطه بقدر ما يؤثر عنه من فقه ومعرفة ، وما فطر عليه من ذكاء ونباهة .

أما أنا فأحب أن أوافقني بضمة من الصفوة المختارة على عمل أعمله ولا أطمع في أن يجمع السواد الاعظم على استحسانه وأفقد عطف المارفين ، وأظن من يسرون ما يسرون ، ويظهرون بما يظهرون ، يذهبون الى أن القوم أغبياء لا يدركون .

كان لي صاحب من أعظم رجال الدين ، وكنت أعجب بأوليته وبما فطر عليه من حب الحق والعدل ، وفي سبيل ذلك أؤدي وما التوى ، فلما تقدم به الزمان ، وتربع في دست السلطان ، هان عليه بنية جلب المغنم لمن يحب ، ووضعهم مواضع ليسوا لها بأهل أن يحلل لنفسه سلب الحق من صاحبه ليلقيه الى يد من لا يستحقه مدفوعاً بمامل الشفقة والمطف . وسالب الحق من صاحبه وحامله الى غير أهله سارق . والسرقة انواع كما أن الرشوة انواع . ولظالماً اشتبهت أن أرى في رجال الدين من يعملون حقيقة بما علموا . وشهدت بعضهم قد عفوا عن أشياء لقصور فيهم أو عجز أو لتوقع مظهر أكبر ومنعم أوفر ، حتى اذا فتحت أمامهم سبل الانتفاع أفتوا لأنفسهم بجواز ما اجترحوا .

وما برحنا منذ الزمن الأطول بين عالم ذكي يدور مع الأيام كيف دارت ، ويدوس كل ما يمنع عنه منافعه ويصده عن شهواته ، وعالم غبي يمتد الخرافات ويمف عن المحرمات . الأول شيطان متحرك والثاني غبي م (٣٢)

أخرس . وفتوى كل منها تكيفها أهواؤه . ذكروا أن أحد علماء مضر قال في درسه ذات يوم يحاول الطمن على الشيخ محمد عبده وكان اصطاف في الغرب ، ان كل من زار أوروبا كافر فقال له أحد الحاضرين : ما قول سيدنا الشيخ في الجناب العالي الخديوي فهو يسافر كل سنة الى تلك الديار ؟ فكان جوابه على البديهة : ويستثنى من ذلك صاحب الأمر والنهي الذي يذهب الى الغرب لاقتباس نظم الحكم النافعة .

وعلى ذكر الكفاية العملية يدعوني حيي لمصر أن أصرح هنا لمن يتهاكون على دخول مجالس المديرات والنواب والشيوخ وسلاحهم في اهليتهم لها أموالهم ووجاهتهم ثم حزييتهم ومصانعتهم وما اليها ، وهم غير أهل للجلوس على تلك المقاعد ، انهم بعملهم هذا يخونون المصلحة ويخونون أنفسهم . أما المصلحة فضررها ظاهر لان فاقد الشيء لا يعطيه ، والمجالس في حاجة الى من ينفذها بعلمه وتجاربه ، ومن يعجز عن هذا يسيء الى نفسه ، والماعقل على كل حال لا يرضى أن يكون عالة على غيره في أمر يحتاج الى روية ودربة ، اما أن يجلس مع الجالسين كالصنم لا يعيد ولا ييدي ، فليس من شأن الشريف . وفي بعض الأمثال الافرنجية . من وسد اليه عمل لا يحسنه وقبله فهو وضعيع .



الحروف اللاتينية

وهذا ماقلته في مؤتمر اللغة العربية في مجمع فؤاد الأول بالقاهرة عندما ناقشت صاحب هذا الاقتراح : سمعت زميلي عبد العزيز باشا فهمي يتلو علينا موضوعه في الدعوة إلى الاعتماد على الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية ثم قرأت مقترحه مطبوعاً فرأيتُه مفتناً في إيراد البراهين عارفاً بالاستطراد والاستنباط ، يريد أن يؤثر في عقل السامع والقارئ . وقد وقمت له مقاطع من الكلام خانه فيها اللفظ فجاءت تحمل هنات غير قليلة ومنها قوله إننا نحن الضعاف أي العرب نطأطيء كواهلنا أمام تماثيل الالهة نحمل أوزار الف وخمسمائة سنة مضت وأننا من أئس خلق الله في الحياة لأننا لم نعالج التيسير الذي فعله أهل اللغات الغربية ، وأن هذا الاستكراه الذي يوجب على الناس تعلم العربية الفصحى هو في ذاته محنة حائلة بأهل العربية وإن ذلك طغيان وبني وأن رسم الكتابة العربية طلاس مستغلفة مبهم وكل أمر الناس في فكها إلى السحر وما يتقذف في القلوب من الالهامات والاشراقات إلى غير ذلك مما لم يكن غير أسلوب خطابي يحاول أن يخرج منه ليفرض على الناس اختراعه الجديد . وما أظن زميلي معتقداً كل الاعتقاد أن الواحد من أبائنا اليوم يقضي كل سفي الدراسة من أولي وابتدائي وثانوي وعال وجامي ويخرج بعد هذا الزمن الطويل المريض غير مستطيع بسبب سوء الرسم قراءة أي نص مطبوع — بل المخطوط — من لفته العربية قراءة صحيحة . هذا ياسيدي الاستاذ مبالغة لا يؤيدها المشاهد المحسوس وكذلك قوله إن رسم الكتابة العربية هو الكارثة الحائلة بنا في لغتنا وأنه رسم لا يتيسر معه قراءتها وإن هذه المشقة تحمله على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين لأن قواعد عسيرة ورسمها

مضلل وأن الأمة إذا أجابته إلى دعوته وقبلت الحروف الهجائية التي زعم
انها لا تخل بشيء من نفيات الحروف العربية تنجو من هذا الحرج ويخلص
العرب من ذخائر مؤلفات كلفتهم هم وأسلافهم الهيل والهيلمان (كذا) إلا
أنه اعترف في مكان آخر أن الضرر من ذلك هو القضاء على تراث الأجداد
وأن هذا التراث يمكن للحكومات أن تتلافاه وذلك باتفاق مبلغ من المال
لطبع امهات المعاجم اللغوية وامهات كتب العلم والأدب والفنون بالرسم
الجديد وما إخال الاستاذ إلا ويعتقد أن هذا من الأقوال المعسولة لأنه
يشتر على أهل الأرض تلافى ما يفوتنا ولو قضوا في هذه المهمة مئة سنة
بالنظر لسعة التأليف في لغتنا وكثرة المؤلفات الصالحة التي كلفتنا ولا فخر
الهيل والهيلمان .

بلغ بالاستاذ فرط الغيرة على تبسيط اللغة أن رثى لها بما فيها من صعوبات
ومنها تبرمه بما في الأفعال من مجرد ومزبد وبالفعل الثلاثي يتبع أوزاناً مختلفة
ومن أن للفعل الواحد عدة مصادر ومن أن الأفعال تبني للعلوم والمجهول
والاعلال والابدال والمغرب والمبني ، ونمى على العربية تعدد جموعها وتشكل
الواحد من الأسماء الجامدة جملة أشكال وقال إنه ليس لهذه اللغة في مفرداتها
وقواعدها أول يعرف ولا آخر بوصف يريد أن يقول إننا لا يضربنا أن نجعل
لغتنا كلغة بعض القبائل البدائية قبل عصر التاريخ ساذجة كل السذاجة
بألفاظها وتراكيبها لاشواذ فيها ولا مركبات بل بسائط يتعلمها من يتعلمها
في بضع ساعات أو بضعة أيام وما أظن ما اختاره لهذه اللغة أصابته لغة
من لغات العلم لمهدنا أو لغة من لغات الشرق في آسيا . وقوله هذا خيال
جميل إلا أنه متمذر كل المتمذر على التطبيق . وماذا نعمل وهكذا خلقت
لغتنا ونحن لا يد لنا في وضع لغة أخرى مكانها حتى نرضي دعاة التبسيط
ولي أن أقول إن هذا شعر والشعر لا يدخل في الأبحاث العلمية .

يقول زميلي إنه يوشك أن تفزونا اللغات الأجنبية فنترك لغتنا ونستعصم
عنها بلغة من لغاتهم وهذا خوف لا محل له لأن العربية تزداد كل يوم

رسوخاً في نفوس أهلها بفضل النهضة التي نهضناها وبفضل توفر أسباب التعليم والنشر ، وما قال ان لفتنا كانت سبب تخلفنا في مضمار الحضارة وما أظن شيخ القضاة إلا ويعرف أن لاختطاط الشعوب الاسلامية في بعض مظاهرها عوامل اخرى لاعلاقة لها بمحروف الكتابة وقواعد الرسم وأن برهانه هذا ضيف لا يصح الاستدلال به على ما هو بصده . انه يعرف كما نعرف جميعاً أننا أنشأنا مدينة شهد لمظمتها كل من قاموا بعدنا وما حال هذا الخط ومن قبله القلم الكوفي دون الانتفاع بما آتينا من علوم القدماء وما وضعناه نحن بصنعنا وقرأتحننا من علوم وآداب كلفتنا الهيكل والهيكلان كما يقول زميلي الحضيف .

وتبرم حضرته من تعدد اللهجات العربية وأما ابشره بأن هذه اللهجات يقل عددها ولا يزيد كما ادعى لأنها تقترب كل يوم من الفصحى بفضل المدرسة والجريدة والكتاب والخطبة والمذيع . أي أن اللهجات الدارجة تتضاءل أمام اللغة الأدبية ، والفصحى تغلب على العامية اليوم بعد اليوم . ومن الحجج التي أدلى بها لاثبات قضية التمثيل لنا بالأتراك وهي في الواقع حجة عليه لاله . فالأتراك لما أخذوا بالحروف اللاتينية وقضوا على الأمية فيما زعموا بهذه البدعة الجديدة التي ابتدعوها قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم ، وعمر هذا الماضي لا يقل عن سبائة سنة . وهل الشعوب إلا تكلة ما صنع أجدادها وورثوه عنهم ؟ وشأن العربية غير شأن التركية لأن العربية تحمل تراث العالم الاسلامي كله وإذا عملنا عمل الأتراك نقضي على تراث علمي وأدبي ودني دام مطرداً خمسة عشر قرناً مما لم يهد لأمة مثله اللهم إلا إذا صح ما نقل عن قدم المدينة الصينية . ومعنى الزهد فيما خلفه العرب من آثار القضاء على مشخصاتنا ولا يرضى بذلك عربي ولا مسلم . سممت التركية من أرقى الطبقات وسممتها من الفلاحين والباعة ، سممتها من ابن استانبول عذبة رقيقة وسممتها من ابن آسيا الصغرى خشنة جاسية فما ثبت لي أن الحروف اللاتينية وفدت ببرائتها ورنه ألفاظها فما بالك بهذه

الحروف إذا اعتمدت للتعبير عن مفردات لغة فيها التاء والطاء والطاء والحاء والخاء والذال والضاد والصاد والعين والغين والقاف ، والتجويد أو موسيقى الالفاظ حاكم متحكم في كل لفظة وفي كل نبرة .

خسر الأتراك أي خسارة بما أتوا من العبث بلغتهم فلا يريد أن نتقل مثلهم ولا نجوز لأنفسنا الاقتداء بأهل لغة من اللغات فنحنانا غير منجهم ولفتنا تنسamy عن جميع لغات الشرق . وهانحن نرى اللغة اليابانية وحروفها صور وأشكال قد تصعب على المبتدئ بحسب الظاهر وما منعت اليابانيين من أن يأتوا بمدينة ضاهوا بها مدينة الانكلوسكسونيين أسانذتهم وقد بلغت أشكال اللغة الصينية مائة ألف شكل وما حالت أيضاً دون تعلمها وضنانه أهلها بها . إن هذه الصعوبة الموهومة في لغتنا ماوقفت في سورية دون تعليم الرجل البالغ من ابن العشرين إلى الخمسين في المدارس الليلية التي أنشأناها بما أخرجناه به في أربعة أشهر من الأمية يتعلم خلال هذه المدة القصيرة الكتابة والقراءة والحساب (الأعمال الأربعة) وقرأ في المصحف وفي الجرائد ويكتب ما يريد بعبارة .

إذن فالعربية ليست من الصعوبة بخطها على ما يزعم رصيفي ، والعرب إذا قصرُوا في التصور فقد عوضوا عنه هذا الخط الجليل والنقوش كما قال أسد علماء المشرقيات . واللبس إلى حروف الكتابة باللاتينية أقرب من اللبس إلى الحروف العربية وقد يحل الغربي نفسه الكتابة العربية قبل أن يحل حروف الكتابة بأحدى اللغات اللاتينية .

العربية تحتاج إلى من يحسن تعليمها على الأصول الحديثة . لغتنا سهلة يوم نتعلمها وكلكم تعرفون أن عدم العناية بثقيف العامة وفشو الأمية فيهم كان فيه الضرر البالغ ، نحن هنا لآحياء العربية ويخفى أن تدعو هذه الضجة حول هذا الموضوع إلى زعزعة السمعة الادبية التي أحرزتها مصر فان في اعتماد الحروف اللاتينية بدل هذه الحروف العربية الجميلة تناقضا مع الغاية السامية التي انشئ الجميع لآجلها . نحن لانملك بوجه من الوجوه

ادخال جديد مضر يكون منه القضاء على قديم مقدس . هذه الحروف هي ملك الشعوب الاسلامية كلها اختارها ثلاثمائة مليون من المسلمين إذا ابطلت تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر الاسلام .

وأرجو رصيفي أن لا يحاذر من موت عربيتنا الحسنة بفعل نشر لغات الاجانب بين أظهرنا وألا يدركها هذا المجمع ولا عشرون مجماً من مثله فان هذا لشاؤم غريب واللغة كل يوم تزيد انتشاراً على الالسن والاقلام . ولغة حرسها القرآن هذه القرون الطويلة لا يخشى عليها البوار وهي تزيد قوة مع الأيام وأتوسل إليكم يا رصفائي ألا نطيل المناقشة في هذا الموضوع لأن ذلك يقلل من قيمة عملنا ويظهرنا في الملأ بمظهر لا نرضاه لأنفسنا . اقول هذا على شدة اعجابي باجتهاد صاحب هذا الاقتراح وسلامة قصده .



قصص مصرية

قص مصري عارف على أحد أصحابي قصة عجيب صدور مثلها من أمي قال : حاول جندي من جنود محمد علي الكبير مرة أن يقتاله بمنجبر كان يحمله في كفه ، ولما سدده الى صدره اتقى ضربته بيده وقال له في الحال قد عفوت عنك وأنا اعرف بأنك تستحق الترقية وأن تكون ضابطاً ، وقد رفيتك الى رتبة كذا ، فشكر وتهلل ، وبعد قليل رقى به رتبة أخرى فتزوج الرجل ، وتوسع في عيشه ثم رقاہ ترقية ثالثة فرابعة حتى وصل إلى رتبة عسكرية عالية . واتى به ذات يوم الى حضرته ، وقد أعد له سكيناً فقال له الآن اقتلك ، بعد ان تنعمت بنعم الدنيا ، لتفارقها آسفاً ، ولو قتلتك يوم حاولت اغتيالي لقتلت بك صعلوكا ، وربما هانت عليك يومئذ مفارقة الحياة .

حكى الاستاذ محمد صفوت باشا من وزراء مصر قصة غريبة كانت السبب في تبدل أجناس حكام مصر على عهد الخديوي اسماعيل قال : كان الموظفون في الحكومة المصرية على ذاك العهد من الاتراك أو من أجناس أخرى غير مصرية . ونزل ذات عشية أحد هؤلاء الاتراك ، وكان مأموراً في بعض أعمال مركز السنبلاوين على علي العبد عمدة احدى قراها (إكوة) يصحبه خمسة من الفرسان ، فقال له : نحن ستة رجال نريد منك ست فتيات من ذوات الجمال نلهم بهن الليلة عندك ، فقال له العمدة : على الرحب والسعة ، وهذا يكون بعد العشاء ، وأخذ يظهر أنه يهيء لهم طعاماً ، والمأمور يلح في طلب البنات والعمدة يطاوله ويقول له : لا يتيسر ذلك قبل أن تغيب الشمس ، فان هؤلاء البنات يحاذرن الخروج من بيوتهن إلا مع الدجى . ثم قال له : ان النساء يفزعن من رؤية السلاح فلو تجردتم منه فتجردوا ووضعوا سلاحهم في مخدع مصائب لخدعهم ، ثم جاءهم باربعة وعشرين رجلاً

يحملون جبالا فأخذوا يقيدون الفرسان وقائدهم ، ووضعوم في غرفة اقلوا بابها اقلالاً محكماً وأوعز الى رجاله ألا يقدموا للواحد منهم أكثر من رفيف ومقداراً من المش في كل وجبة ، وذلك من تحت الباب ، وامتنطى حصانه وراح يطلب القاهرة وواصل سراه حتى وصل الى قصر الخديوي وكان هذا خارجاً منه ، فرمى بنفسه تحت غريته ، فسأله عزيز مصر عن حاله وعما يحمل من ثوب أبيض تحت ابطه فقال له : هذا كفي إذا صدر أمرك بقتلي فهو جاهز ، وقص عليه ما وقع له مع الفرسان وما فعل بهم ، فرأى فيه رجلاً جلدأ ذا شية جميلة ، وأعجبه ما أناه ، وقال له : وهل في المصريين من يجرو على أن يعمل مثل عملك . قال : نعم يا مولاي عبدك هذا . فصدر أمر الخديوي اسميل بطرد أولئك المأمورين من الخدمة ونفهم الى مكان سحيق ، وأخذ من يومئذ ينحي الغرباء عن خدمة الحكومة ، ويمين للوظائف المريقين في المصرية من أبناء مصر .

حدث أن اعتدى بمض جند الحامية الانكليزية حوالي سنة ١٨٩٢ على بمض نساء قلوب فلو سمهم أهل البلدة ضرباً واهانة فتمى الخبر الى ععيد الاحتلال أن لاحتد أعيان تلك المدينة محمد الشواربي دخلاً في الامر ، وان الفتنة دبرت بمعرفته ، فاستدعى المأمور الاداري في تلك الناحية الى نظارة الداخلية ، وهو مصري الاصل ، وقص عليه المستشار ما بلغ مسامع العميد في هذا الشأن ، فنفى المأمور ان يكون للشواربي يد في الفتنة فقال له هل تجرو ان تقول هذا امام العميد ؟ قال : نعم أقوله ولا أبالي لانه الحق . فاجتمع المأمور الى العميد ، وأبان له الاصل في وقوع الحادث ، وان نساء القرية لحق بهن اهانة من بعض الجند وهن يعلأن جراحهن من النيل ، فقابلهم رجال البلد بما يليق بمن يدفع عن عرضه وعاقبوم بما يستحق اعتداؤهم . وانفصل الامر على ذلك وطوي أمر هذا الحادث .

مضى نحو عشر سنين أصبح خلالها شواربي باشا من احباب العميد يوالي زيارته له ويتفاطفان ويتها مسان . وفي ذات يوم احب الشواربي أن يلتق

مأمور بلدته ، وكان هو المأمور نفسه الذي برأه يوم التحقيق الاول في مسألة اعتداء الجند على بعض نساء قليوب ، فأبى المأمور أن يستقبله في داره في آخر ساعة من اوقات الدوام ، وبمث يرجوه ان يأتيه من الغد الى دار الحكومة ، فشق رفض المدير على الباشا ، وابق من ساعته الى العميد الانكليزي وغيره يطلب نقل هذا المأمور الى مكان آخر ، لانه طال مقامه في مديريته وذلك ليم عدله الارزاء الأخرى . فبث العميد يستدعي الباشا وقال له : إن المأمور الذي تشكو انت منه هو صاحب اليد عليك يوم الاعتداء على الحامية ، ولولا شهادته الحسنة فيك لكنت تحت التراب منذ عشر سنين ، وزاد العميد ان الباشا أذكره بهذا الرجل المستقيم الحازم ، وأنه كان يستحق الترقية منذ مدة طويلة ونسي هو ان يرقبه ، فرقاه في الحال ثم رقاه في ستة اشهر ثلاث درجات . (قص عليّ هذه القصة أيضاً محمد صفوت باشا رحمه الله)

وعلى ذكر الشواربي باشا لا بأس بأن اذكر هنا ما حدثني به أحد اذكياء المصريين منذ اكثر من ثلاث وثلاثين سنة قال إن شواربي باشا قصد ذات يوم الى عميد الاحتلال الانكليزي لورد كرومر يرجوه ان يقتصر في الري على المهندسين الانكليز لانه ثبت أن بعض المهندسين من المصريين يضيعون حقوق الفلاحين في الري ، ولا كذلك المهندسون البريطانيون . فضحك اللورد وقال للباشا : إن المملكة الانكليزية واسعة تحتاج الى رجال أكفيا يدبرونها ، والمقتدرون عندنا قلائل ، وإن من عندكم من الانكليز قد بلغوا ثمانمائة رجل فلو طلبت عشرة آخرين لا أستطيع أن آتيكم بهم لأن من الصعب إيجاد رجال كالذين عندكم من أبناء البيوتات ومن الطبقة المتعلمة المتمرنة المشهود لها بالعرفه والاستقامة . اما إذا اردت أن آتيكم بموظفين من شوارع لندن فالخطب سهل آتيك بألوف ولكنهم لا ينفعونكم . وكان العميد لورد كرومر في حسن ادارته نفع مصر كثيراً مدة مقامه الطويل فيها عميداً .

حدثني من اثنى به أن الحكومة المصرية لما كانت تبيع أراضي الدائرة السنية اشار على الميعد بعض اصحابه ان يتناع لنفسه جانباً منها فأبى وقال له إن هذه الارضين هي ملك المصريين فلا يجوز ان يفتنيها الانكليز . قالوا ولو كان للميعد مأرب في المال لخرج من مصر صاحب بضعة ملايين من الجنيهات على الاقل ولكنه على ما كانت لمطيحه حكومته من رواتب ونفقات كان ينفق من ماله في هذه السبيل ، حتى غادر مصر وعليه دين عظيم وفته عنه أمته بان ردت عليه رأس ماله . ولطالما قلت لاصحابي إن لورد كرومر بسيرته الذكية كان للبريطانيين خير دعاية في الشرق ، لو انفتحت انكلترا مئة مليون جنيه لتتجيب الى قلوب العرب والمسلمين ما استطاعت تحقيق ما حققه لها رجلها العظيم بحسن ادارته وفطر عفته .

حدثني ثقة قال كان الشيخ محمد عبده مسافراً مرة الى اوربا ومعه صديقه فتحي باشا زغلول . وكان هذا يقرأ في بعض ساعات النهار على الشيخ فلسفة ابن رشد . ومن جملة من كان معها في السفينة رجل من القضاة اسمه عرفان باشا . وحدث أن قال الشيخ لابن زغلول : الغالب أنك تخطيت سطوراً فاللهي لم يتم فأعاد فتحي نظره فقال : حقيقة إن الأمر كما قلت يا مولاي ، ونظر عرفان باشا الى الكتاب فاذا هو مكتوب بالفرنسية ، واذا بفتحي يقرأ العبارة ويميدها بالعربية بمجرد الفاء نظره على الأصل ، فدهش عرفان باشا وقال : رجل يبلغ به ادهاف الحس أن ينقبه لسطر تخطاه القاري ، والقاري يتلو الكلام في هذا الموضوع الصعب بالعربية مباشرة ، أخذ المعاني عن كتاب كتب بلغة أعجمية ، ومعنى ذلك بالفرنسية Livre ouvert - والله إن المرء ليضيع معكاً ، ولذلك سابتعد في هذه الرحلة عن مجلسك ، وتنحى ناحية خوفاً أن يلحقه اثم هذا التبوغ . والغالب أن عرفان باشا كان من الاثره بحيث شق عليه أن يرى من تتعذر عليه مداناتها بملها وذكاها . فكان شأنه في هذا شأن محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب فقد روي أنه كان يأنس باهل البلادة ويستوحش من أهل الذكاء ، وسئل عن ذلك فقال : مؤونة التحفظ شديدة .

حدثني صديقي الاستاذ أحمد فهمي العمروسي ان الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله كان صديقاً للشيخ حسن الطويل الذي ظل طوال حياته مدرساً للغة العربية وعلوم الدين بمدرسة دار العلوم بالقاهرة وهو من اعظم علماء عصره ، وكان الشيخ حسن لاحظ مرة أن الشيخ محمد عبده أعرض عنه وتشاغل بحكم منصبه فأحب أن يداعبه لما دخل محفلاً عظيماً كان يتصدره الاستاذ الامام . وقد دعي للجلوس بجانبه مراعاة لعلمه ولكنه أبى واتخذ له مكاناً قصياً ثم حكى الحكاية الآتية معرضاً بأولي الحل والعقد .

قال : يحكى أن قرية من قرى الريف كان كل سكانها من القرود وكان من عاداتها انه اذا مات العمدة لا يتأني لولده ان يخلفه الا اذا استطاع بدهائه وذكائه ان يقتل اسداً ، فلما مات العمدة خرج ابنه هائماً على وجهه ينشد اسداً يشد وثاقه فاتفق أن مر به أسد فاستأذنه في الاقتراب منه دون أن يمس به بسوء فأذن له ، وطأته على حياته ، فقص عليه القرد الصغير قصته ورجا ملك الحيوانات الا يرضن على احد رعاياه المخلصين بخدمة جزئية كهذه فقبل الاسد واشترط عليه ان يعود اليه عقب أميينه عمدة فوراً ليفك وثاقه فوعده خيراً . ولكن نشوة الفرح بالوظيفة ملكت عليه حواسه واسته وعده وظل الاسد ملقى في الخلاء غاضباً محنقاً الى ان مر به كلب فما كاد يقع نظره عليه حتى اطلق ساقيه الى الريح وولى هارباً ، فناداه الاسد وامنه على حياته وطلب اليه ان يفك وثاقه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء فأسرع الكلب بفك رباط الاسد وحل وثاقه ثم اراد ان يتظرف مع الاسد فدعاه لينزل عليه ضيفاً في تلك القرية تكريماً له وكشريعاً فقال له الاسد : انني احرص على كرامتي من ان اتزل بأرض ، القرد فيها يربط والكلب يحل .

قص "علي" احد ادباء السوريين أنه بينما كان راجعاً من بلاده الى الازهر في مصر لقيته سيدة في ميناء يافا وكلته بلهجة مصرية وسألته فيما اذا كان

ذاهباً الى مصر القاهرة فأجابها بالإيجاب ، فقالت له بكل سذاجة : اريد ان احمك هذا الجواب لتعطيه الى امي . فقال في نفسه لا بد أن يكون لهذا الكتاب شأن وإلا لكنت السيدة وضعت في البريد والاجرة قرش واحد . فأخذه ووعداها ان يوصله . ولما بلغ القاهرة حدثته نفسه ان يسلم الكتاب الذي يحمله الى البريد تخفيفاً من عناء البحث عن بيت المكتوب اليها ، وعاد فرجح أن يحمله بنفسه ، وبعد بحث ساعة عن دارها في خط السيدة زينب اهتدى اليها ، ولما فتحت له ربة الدار الباب وعرفت ان ممة كتاباً من ابنتها اخذت تبكي ، ثم رجته ان يفض الكتاب ويقراها عليها فقراء ، وم بالانصراف فرجته ان يترث حتى تأتي ابنتها وتسمع هي ايضاً كتاب اختها ، مستدرة انها مثلها لا تقرأ ولا تكتب ، فجاءت ابنتها بعد حين وتلا عليها كتاب نزلة يافا ، واستأذن بالذهاب فقالت ربة الدار إن ابنتها يحب ان يسمع كتاب اخته ايضاً وهو لا يلبث ان يحضر ولا بد من ان تنفدى معنا واعتذر ثم ما وسعه الا القبول ، ولما طم اراد الانصراف فقالت من يخرج في هذا الحر ؟ ولا بد ان تقيل عندنا فقال ، ولما تم هذا الاكرام واحب مفادرة البيت اخذت عليه ربه المهد ان يزورهن كل اسبوع وان يعهد اليهن بغسل ثيابه . وبعد قليل ناز الازهر فكان صاحبنا من جملة من اعتقلوا من طلابه . وبعد ايام من سجنه سأله مدير السجن اذا كان له زوجة فقال : لا . قال : رأيت منذ ايام سيدتين تقفان على باب السجن في الشمس ساعات لسألان عنك فقال : ان لم يخطي ظني فالسيدتان هما اللتان حملت اليها الكتاب من يافا وقص عليه قصتها . ولما نظر اليها تأكد ذلك ورجا السجن ان يمنعهما من حمل طعام اليه بدعوى ان ذلك محظور على السجناء وقد لاحظ انها طالبتان ذلك من غير شك ، فلما أبى صاحب السجن اجابة طلبها اجابتا : اذا كان جلب الاكل ممنوعاً فهل يمنع جلب الشراب ؟ فكانا مدة سجن هذا الشامي يأتيانه كل يوم بمقدار عظيم من السكر والليمون والثلج ليعمل منه شراباً يكفيه ورفاقه

في السجن جميعاً . وظلت الام وابنتها على الوفاء لحامل الكتاب حتى خرج من القطر المصري للمرة الأخيرة . فلما قص عليّ هذه القصة قلت له هذه حقيقة اخلاق المصري وهذا مثال صريح من وفائه وكرمه ، تأصلت فيه هذه الاخلاق ولعلها كانت في الطبقات النازلة لا تقل عن الطبقات الاخرى ، تناولت سكان المدن وسكان الريف ، وربما كانت في الريف جلية أكثر من الحواضر .

لما شرع الخديوي اسماعيل بان يمهّد بإدارة مصر للمصريين أبناء الفلاحين كان مدير بني سويف احد أوائل الموظفين الجدد وهو من اهل تلك الناحية فأخذ أهله وجيرانه ومعارفه يدخلون عليه ويقضون ساعات في غرفته حتى اصبحت كأنها مقهى او منتدى ، يتحدثون ويتناقشون ، ويتناولون القهوة ويدخنون ، فضاق صدر المدير الجديد ، وهو الحريص على ان يخلو بنفسه ليفض مصالح أرباب المراجعة ، وفكر في الامر فلم يجد أحسن من أن يمهّد إلى الفراش التركي بأن يدخل غرفته ، والمجاس غاص بالانسياء والمجاسيب والمصانمين ، ويبربر بالتركية ويقول لهم ما يفهمون منه طردهم ، ففعل ما أرادّه المدير على القيام به . ولما كان الفراش يزجر خاف المدير نفسه صولته ، واختبأ وراء مكتبه مأخوذاً بالمادة التي تأصلت من خوف سطوة الغريب . وليس من السهل نزع عادات تأصلت قروناً إلا بطول تربية حرة ، وتوالي بطون بعد بطون .

عرفت صديقي الاستاذ امين الرافعي صاحب جريدة الاخبار المصرية وطنياً صادقاً يخدم مصر وسياسة مصر ويخدم الاسلام والمسلمين بروحه وقلبه ونبوغته ، وعرفت انه شريف بكل ما في الشرف من معنى . قال لي من كان له به خلطة وكان له مؤازراً في تحرير صحيفته أحياناً إن يجي باشا ابراهيم رئيس الوزارة المصرية عرف ان حالة أمين الرافعي المالية سيئة وكان يجب بخطته ، وان كانت الاخبار ، لا تتخرج من فقد حكومته ، فأرسل اليه كتاباً

معه حوالة بمشرة آلاف جنيه معونة لجريدته ، وقال إنه يرسل هذا المبلغ من يحيى ابراهيم القاضي لا من يحيى ابراهيم رئيس الوزراء وانه لا يطلب اليه ان يغير خطته ويكف عن نقد حكومته بل يريد على ان يظل على ما هو عليه لتستفيد الحكومة من آرائه . فلما كان من الاستاذ صاحب الاخبار إلا أن رد المبلغ مع الشكر ، وحجته انه ما أخذ شيئاً من أحد حياته بدون عوض ، ولا يريد ان يعود نفسه الآن أخذ شيء من احد . وجاء بعد حين فتح الله بركات باشا من أكبر زعماء السياسة في عصره ، وعرض على أمين الرافعي ان يتكفل له جماعته بوفاء ديونه وبأتونه بمحررين يدفعونهم أجورهم ، ويمطى هو كل شهر مئة جنيه ، ولطبع له الجريدة ، وبأخذ هو جميع وارداتها ، على ان يبقى على ما هو عليه حراً في آرائه ونقده ، فلم يقبل هذا الاقتراح ايضاً وهو في أشد الضيق . وبعد بضعة ايام وقفت جريدة الاخبار اضطراراً ، ولم يرض صاحبها مئة أحد ، وفضل ان يوقف عمله على ان يتناول شيئاً من طرق لا يرى معظم الصحفيين بأساً من أن يتناولوا منه . قال من قص علي هذا إن إحدى كبريات الصحف الانكليزية لما لت أمين الرافعي قالت مات رجل يقل جداً في العالم من لهم مثل أخلاقه اما في مصر فلا . نعم أمين الرافعي أمين الصحافة العربية ولو سار أرباب الصحف على هذا المثال من العفة لكان اسمها غير اسمها وتأثيرها في الافكار أكثر من هذا التأثير .

قال لي صديق قصدت فلاناً ذات يوم بكرة وكنت أنسيت عنده حافظة أوراقي بالامس فالتقيت في أسفل السلم بانسان لم يتبين لي من ملاحه ان كان مصرياً او سورياً او أرمنياً ولا ان كان تاجراً او زارعاً او مستخدماً في بعض المهن وصعدت معه بالمصعدة الى دار صاحبي فدخلنا عليه سوية فبادرني هذا بقوله نسيت الحافظة امسى خذها ، وخف لتوديعي على حالة بشر بانه مضطرب بعض الاضطراب ، وكأنه يريدني الا اسمع كلام الرجل الذي كان قاصده مثلي ، وما بان لي سر هذه المعاملة الخشنة الا هذه الايام وقد اتهم

صاحبي ذاك بالانتجار بالخدرات فظهر ان الشخص الذي ما احب ان اجتمع اليه طويلاً ربما كان شريكاً في هذه التجارة الشائنة . فقلت له ان من الاسرار ما لا يكشف إلا بالعرض وبعد مضي اعوام ، وربما يقضي لكشف الأمر البسيط عشر سنين وسر صاحبك ما عثم ان كشف بعد اشهر قليلة . وانا وقع لي شيء من هذا القبيل يصح درجه في باب الاقاصيص ذلك اني كنت اصدر جريدة المقتبس فانتخبت محكماً في قسمة اراضي عظيمة مختلف عليها بين اخوين وابناء اخ ، وشق على احد الاخوين ان اكون محكماً لانه شعر انه على جلال رتبته - باشا - لن يحكم المحكون الا بالحق الذي يرونه في تقسيم الأراضي بين الورثة ، وهو يريد ان يأخذ منها حصة الأسد . ونقل لي انه قال عني لاحد شركائه ومن هذا فلان الذي جثم به محكماً عنكم وهل هو إلا صباغ ؟

وما أدركت يومئذ قول ذاك الباشا المؤدب وما يقصد من وصفي بالصباغة اللهم إلا انه كان يشير إلي أنني صحافي أصبغ الناس بالصبغة التي أنجيلها . ومضى على هذا الحادث أكثر من خمس وعشرين سنة وكنت في زيارة صديقي الاستاذ محمد عبد الرسول في دار الكتب المصرية لجاءه شيخ شاب يطلب إليه مخطوطة فسأله صديقي عن اسم بلده فقال له إنه من أبيوقا . فضحك صديقي وأسرَّ إليَّ أن بلد هذا الشيخ مشهورة بسرقة الحمير وبتغيير أشكالها ، فاذا كان الحمير أبيض سودوه وإذا كان لونه إلى السواد صبغوه أبيض ، فضحك الشيخ وضحكنا ، ورأيت الايوقى يدرك النكتة وعلى شيء من الأدب فسألته عن اسمه وعمله ورجوته أن يكتب لي في مفكرتي اسمه واسم بلده ، وكان من طلاب التخصص في الأزهر ، ودافع فيما كتب عن قريته ، وأنكر أن تكون الآن كما كانت بالأمس ، وختم الصفحة التي كتبها بالآية الشريفة (وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وعند ذلك تجلج لي سر قول ذاك الباشا الدمشقي أنني صباغ وتغنيت لو حقق الله لي هذه الصفة لاستطيع صبغ الحمير بالصبغة التي اريدها.

ملك بالمجان

دعيت الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد بأكسفورد في صيف سنة ١٩٢٨ والتقيت في الفندق بباريز بسمو خديو مصر السابق عباس حلمي الثاني ، رأيت به واقفاً في رأس السلم فتصافحنا تصافح الاخوان ، وكمانقنا كمانق الممائلين ، ودعاني من الغد الى غابة بولونيا لتناول الغداء معه ، وقد اشار اليّ أنه يرغب في تقلد ملك سورية فقلت له ان سورية كسعد بتولي أمرها رجل من آل محمد علي خصوصاً وسموه عرف ادارة الملك ومرن على الأعمال الاقتصادية والمالية ، وبتوليّه زمام الشام يدخل روحاً جديداً اليها . فأشار اليّ ان ابحت في لندن عن رأي الحكومة البريطانية فيه . فحرت في أمري كيف اصل الى التعرف الى احد من يديم شؤون السياسة الانكليزية وهذا يحتاج الى الظهور بمظهر ما كنت مستعداً للظهور به . فلما عدت الى باريز سألت الخديو عن المهمة التي انتدبني اليها فقلت له كلاماً مبهماً خلاصته انه اذا لم يحسن سياسته مع الانكليز وهم غاضبون عليه لماشاته السياسة العثمانية الالمانية خلال الحرب الكبرى فان من العبث التثبت بهذا الأمر . ذكرت ما جرى هذه الأيام وقد مضى الخديو الى جوار ربه ناركاً بضعة ملايين من الجنيهات وليس له غير ولد واحد ، فقلت لو ألهم يومئذ بأن يصرف مبلغاً من المال في الدعاية كاستكتاب مقالات في الصحف البريطانية المقررة واعداد مآدب للتعارف والدعاية واهداء هدايا لمن يلزم ، واهل سورية من وراء ذلك ينادون به ملكاً عليهم لتولي صاحبي ملك الشام . فالامساك أضع علينا ملكاً حصيفاً كان اقل ما يعمله من الخير لنا ضم شملنا تحت لواء واحد ، وربما كانت الشام اندمجت في مصر بعد زمن ليس بطويل .

افلاس عن طمع

من حق كل انسان ان يحتال لماشه بالمعقول من الطرق لا بالاختداع والخلل . وذهب بعضهم الى انه مادام حكم من يسرق دجاجة حكم من يسرق جملاً ، وحكم من يسرق مصرفاً حكم من يسرق قرشاً ، فليس هناك ما يقعد ببعض اللصوص عن التوسع في السلب لان العقوبة واحدة . وشهدنا لصوصاً كباراً لم يقنعوا بسلب المئات وتجاوزوها الى سرقة الالوف والوف الالوف فأنشأوا مصارف في مصر والشام اعلتوا أنهم يدفعون فوائد لمن يودعون عندهم اموالهم تربو على ما تدفعه المصارف الاخرى فاستفوا ارباب السذاجة وجمعوا بذلك مبالغ جنتها اربابها بالتقتير والحرمان في طويل الاعوام . أخذوا لأول الامر من ربا ما أودعوا اكثر مما لمطي سائر البيوت المالية فلما تجمع لارباب تلك المصارف ما ايقنوا انه يضمن لهم الغنى نفذوا برنامجهم الذي كانوا أسروه في أنفسهم ، فكانت دعوى الافلاس بحيث لم يسلم عشرة في المئة من رأس المال . وذهب وفر كل اولئك المساكين الذي ادخروه لشيخوختهم أو أعدوه ليستمتع به أعقابهم . والغالب ان ارباب تلك المصارف توصلوا الى اتمام أحابيلهم بأساليب عرفوا بها التلاعب بالمعقول وبخاصة عقول من تخدعهم الظواهر وتقضي عليهم المطامع فتغاطل نفسها في الاخرق والكذاب .

وكان العامل الأول في مصارف ثلاثة من هذه المصارف الاغترار بمذهب صاحب المصرف وعندهم ان من كان مذهبه كذهبك لا تبلغ به قلة الذمة الى أكل مالك ، وما أدركوا أن شيطان المال لا يحرم ولا يحلل ويلذه استلاب النعمة من صاحبها واقتناصها من جانبها . ومن المفرورين من خدعتهم صداقة صاحب المصرف لهم فوهموا ان الصديق يعف عن مال صديقه .

وكان من المنكوبين الماجز والماجزة والطفل الذي يحتاج الى من يموله حتى يكبر ، ومنهم الشيخ الذي قضى عمره حتى جمع ما يتبلغ به يوم الهرم . أما اللصوص فنبأ لهم المجتمع الخارج فبرأئهم المحاكم على نحو ما تخترع ذرائع للقتلة تنجيهم بها من القتل . وكان قوانين هذا العصر وضعت لحماية الاثرياء لا لحماية الفقراء ، وكان لسان حال المابئين يخاطب الأولين زيدوا ما شئتم من ثروة بالطرق التي ترونها ، وتشير على الآخرين بقولها انكم لستم خلقاء أن تملكوا حتى ما قاسيتم في جمعه عرق القرية . وستنقضي القرون قبل ان يتمتع كل الطبقات بحقوقها ، وترتفع سلطة الاغنياء عن الفقراء . الدّين بالربا لا يقول به عاقل الا في الضرورات الملجئة ، والأولى ايداع ما يوفره الصناع والزراع في صناديق التوفير بفائدة قليلة وبمبلغ معين وذلك تحت اشراف الحكومة . والوسط اذا جمع مقداراً من المال لا يكفيه لتوظيفه في عقارات أو أرض أو شركة واذا تركه في داره للأقدار يسطو عليه اللصوص وكذلك اذا اشترى به سهام المصارف وحصص الشركات يقع أيضاً في أيدي السارقين أصحاب تلك المصارف وتلك الشركات . وباسم المذهب وباسم الصداقة تؤكل أموال الضعفاء فويل للفقير من الغني .



انتقام الربى

كان جماعة يتحدثون فذكر احدهم ما خدمت به المسلمين بكتابي الاسلام والحضارة العربية . وكان في المجلس رجل عرفته قصاباً ، ودكانه قريب من بيتنا القديم ، وكان مشهوراً بين أهل حيه بنجدته وأربحيته ، فأخذ ينهل لكلامهم ويحمد الله . فسأله بعض الحاضرين في ذلك فقال : منذ مدة طويلة اقترح عليّ أحد بني فلان ان اقتل صاحبكم الذي ذكرتموه هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر وقال انها كافران ومن اعداء الوطن ، وتمهد لي أن يعطيني خمسين ليرة عثمانية جزاء عملي ، ووعدني أن ينقذني من أيدي القضاء اذا قبض عليّ ، افلا احمد الله على أني لم أكن آلة لمن يحاول الانتقام من رجل ينفع المسلمين كما قلم .

نقل لي هذا الحديث بعد مرور سنين على التثبت باغتيال وما استغربت صدور ذلك من بيت عرف أهله بالصوصية والجاوسية . وما أدري من الذي تذرع منهم بهذا التذرع المشين ، والغالب انه ذاك الذي كان في المحكمة يعج الشرع من باطله وتزويره ، ويضج الايامى واليتامى من اكله أموالهم ، ومن اخوة هذا اللص من تجسس للترك واهلك من تجسس عليهم من العرب ، امتهن هذه المهنة الدنيئة هو وبعض أهل بيته . وقد اخلصت هذه الاسرة في جميع الادوار في تجسسها للتركي والأفريقي ، وأنا لم أكن بالطبع يومئذ من الساكتين عن سيئات لص المحكمة وكان له من المساوي ما لوقسم على عشرة لجأوا اشراراً يخنى بأسهم . أما هو فما رأى للخلاص من الانكار عليه اقرب من اغتيالي ، وجائزة القتل سهلة الاداء يأخذها من تركه من الثركات أو سرقة من السرقات أو من دعوى باطلة يتقدم بها الى المحكمة أحد المزورين ، وبذلك ينقم لنفسه من حيث لا يشمر به ، وربما كان يمتقد

أن يقتلي وقتل صديقي شهيداً يكسب الناس عن الانطلاق في نقد سيرته .
وما أظنه الا كان مسوقاً بأيدي الحزب المستولي على الدولة العثمانية يومئذ ،
فصادف ما اقترح عليه هوى في فؤاده ، والحزب يجازيه على فعلته بإبقائه
في محبته مدة يقطع ويبلغ وفي ذلك ربح عظيم له .

ليس من المستغرب ما بيته ذاك الذي ضري بالعبث بالشرع فأصحاب
الجبله الرديئة لا يلزم غير الشر ، أما من تطوعوا لتزييف خططهم فيرون
ان كف أذى الأشرار أيضاً لذة لا تعادلها لذة . وسكوت العارف عن
تلاعب المتلاعبين مدرجة الى تكثير سوادهم .

حقاً اني كنت اغلو في الإنكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة
مستحكمة في لا استطيع الرجوع عنها ولو حاولته ، ولطالما نصح لي بعض
أحبائي ممن يؤثرون العافية ان اشفق على نفسي وأخفف من الطعن في الأردياء ،
وذلك بالاغضاء عنهم اتقاء مكروهم ، وما كنت استمع للنصح لان من
طبيعة الشباب عدم المبالاة بالعواقب كثيراً ، وكنت أعد سكوتي عن
الظلمة ضرباً من التقية ، والتقية ليست من مذهبي . وأرى ابدأ ان لا سبيل
الى النجاة من الظلم الا اذا كثر الناقون على مرتكبيه . ونفاض زيد عن
مساوي عمرو خوفاً ورياء مؤد حتماً الى تفافم الشر .

سبحان الله ما اشد انتقامه ، فبعد ان جمع ذاك الخاسر الدني من الذهب
والفضة ما ظن معه انه دفن الفقر على الدهر ، عمر قصره عظيماً جمع فيه
كل نفيس مما سلب ونهب ، وجاءت الثورة تنسف القصر فأصبح رماداً لسفوه
الرياح ، وحرقت جميع ما فيه من متاع واعلاق .



كفاءة وعمل

أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٣١ وعلى ما صادف من المثبطات انتج ما ساعدت يمينته على انتاجه : أنار الافكار وخدم اللغة العربية بما وصل الى علمه وعلم مؤازريه . و ارادت بعض الحواضر العربية ان تحذو حذو دمشق في تأسيس المجمع العلمية فجاءت مصر بعد اعوام فأنشأت بمجمعها اللغوي فوضع ألوفاً من المصطلحات العلمية الجديدة وبسط قواعد اللغة العربية . وكانت بغداد وعمان وبيروت تذرعت بمثل هذا الغرض الشريف فاجتمع بجمع بغداد جلسات قليلة ثم انفض عن لا شيء . واتفق ان كان بجمع عمان ناقص التركيب لقلة الرجال فاخفق . أما بجمع بيروت فمع وجود أكفياه من العلماء والادباء في لبنان حالت الطائفية على ما يظهر دون مضيه في طريقه اذ كانت كل طائفة من طوائفه تحاول ان يكون لها التفوق على الطوائف الاخرى من حيث عدد الاعضاء والتفرد بالرياسة . وما كان الداعي الى تأليف بجمع لبنان في الحقيقة الا ليقال فقط ان في لبنان بجمعاً كما في سورية . ومن الغريب ألا يتولى تأسيس المجمع اللبناني ارباب الكفايات الحقيقية ، وأن يتصدى للرياسة من ليس عنده شيء من الادوات اللازمة لها ، وقام بعده شخص آخر وكان كصاحبه لم يؤلف كتاباً ولا عرف له رأي ولا اشتهر بادب ولا شعر ولا نثر ولا لغة .

قالوا ان مائدة العلم لا يجلس اليها طفلي لقد كذبوا فانا مازلنا نشهد في زماننا سلطة الطفيليين قائمة ، وعهدنا دعي العلم أقرب الناس الى الافتضاح ان لم يحقق الواقع دعواه ولو بعض الشيء ، ودعي العلم اليوم ينافس العلماء ويحاول ان يسكتهم بسلطته . ومن طال الى مايس له فهو الوقح الوديع ، واي فحة اعظم من ان يتذرع امرؤ برياسة علمية وهو ما اثبت ادني كفاءة

في عمل من اعمال العقل ، ويظن مع هذا ان مجرد عرض اسمه على العارفين
يوجب عليهم ان يطأطئوا رؤوسهم ويسلموا له . وقد توصل هذا المتطفل
الاخير أن يطرق باب من يظن انهم يعلمون ارادتهم على المجمع العلمي العربي
ليحمل اعضاءه على انتخابه عضواً مراسلاً زاعماً ان هذا المجمع اذا ضمه إلى جملته
يحق له أن ينتخب رئيساً في الحال للمجمع العلمي المتيد ! كسبت بارد لا يصدر
الا عن مأفون الرأي . ليت من كملعوا في بعض المدارس قشوراً من اللغات
والمعارف يعرفون مقدار أنفسهم ويحاسبونها على ما تأتي ونذر وعلى ما تحسن
وما لا تحسن . انحطت اللغة العربية في لبنان بعد أن ازهرت فيه زمناً ،
ومن جاهر بهذا النقص قام عليه الادعياء وطعنوا فيه بريدون اثبات
كفاءتهم بوقاحتهم .

بليت بيروت بعد الشهرة العظيمة التي استحققتها منذ أواخر القرن الماضي
بفئة تصرف كل شيء على قاعدة التجارة الشائنة وظن أن العلم تجارة ،
وفي وسع من يتماطها برأس مال قليل أن يشق طريقه في الحياة ، ولمتقد
أنها والاملاء سواء تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون وتلبس كما يلبسون .
اما طائفة المصطفين الاخيار فقد رأت العزلة وما تنازلت أن تنزل الى ميدان
تنافس فيه أرباب الدعوة العريضة فخلا لهؤلاء الجو . ولو تولى الاكفاء
القياد لابانوا على الاقل لاؤلئك الطفيليين مبلغهم من العلم والعمل .

عزة النفس

قص عليّ أحد أصدقائي من الوزراء السابقين أن أحد زملائه ذكر له أنه كان يرجع اليه خلال وزارتهم أمر توزيع النفقات السرية التي تصرف في الدعاية وأنه رأى كل من أراد اعطاءه من ارباب الصحف يقبض ما يسمح له به شاكراً الا صحافيين اثنين فانهما أبيا تناول شيء ، مع أن أحدهما أقرب الى قبول ما يعطى ، وعف الثاني عن أن يقبل شيئاً مع تصريح الوزير له بأن يمطيه مبلغاً أكبر مما يتقاضاه زملاؤه .

وعرفت كاتبين فنانين من أسرتين نبيلتين اشتغلا بالصحافة وما تناولا ما عرض عليها مراراً من المآونات المالية ، وأثبتا بتمهقهما أن نبيل المحتد اذا اقترن الى التربية الفاضلة جاء المرءى جداً شريف .

كم من فقير غفي النفس لمرغه ومن غفي فقير النفس مسكين وللقاريء ان يسمى المال الذي تصرفه الحكومات في الدعاية بالاسم الذي يمن لخاطره . يسميه معونة أو جائزة أو رشوة ، وكل ما يطلقه من الاسماء لا يخرج عن معنى أخذ شيء مقابل خدمة لا يقوم بها الآخذ ان لم يقبض الجمالة ، ولا يدفعها الممطي إلا إذا أخلص القابض في اتمام ما يتطلبه منه . ومن تدبر تناول الصحافيين أموال الحكومات حتى يحملوها في الاعين لا يتأنى له منها تجويز أن يجد وجه حلّ لما يقبضون . ومن عادة الدول أن تقطع هذه الادارات يوم تبدو من قابضها حركة تخالف سياستها . فالمال على هذا لا يدفع الا للحصول على أمر ما كان يتوصل اليه بتغير البذل . ولو كان ما يطلب اذاعته حقاً لنشر لهم بالحجان . وربما كانت منة للحكومات على الناشر إذا اختصته بما تحب نشره قبل غيره . لا يتوقف تناول مثل هذه المآونات على النفي ولا على الفقر فقد يكون الموسع عليه أقرب

إلى التهامها من المموز المعدم ، وليس حظ الفقراء من عزة النفس أقل من حظ الموسرين ان لم يكن اعظم ، ولو لم يكن الفقراء على جانب من الكرامة لهاجوا الاغنياء في بيوتهم واستلبوا منهم نعمتهم وكسوتهم . ومضى زادت سلاطة الفقراء توقع الاغنياء قرب زوال نعمتهم .

للحكومات اغراض تبذل في تحقيقها من الاموال التي انتمت عليها ولقد ما تأتية مشروعا ، لانه في سبيل الخير العام . ومما كانت الوسيلة الى ماتوقع من نشر الهيبة ، والظهور بمظهر القوة ، وتحويل الافكار الى المجرى الذي ترتبه ، فتبعة من يتناول هذه الممونات كمظم كلاً في البأس الباطل ثوب الحق ، وحاول افساد الضمائر ومضليل العقول . وليس لنا أن نصف الصحافي بما نصف به المحامي بشأن هذا رد الحق الى صاحبه ونزعه من غاصبه ، والصحافي إذا أجاز لنفسه أخذ الممونات يعبث بالمصلحة العامة ، ولك أن تقول بان الحكومة تفسده وهو يفسد القراء . ولو امتنعت الحكومات عن صرف المال في مثل هذه الطرق وزكت الصحافة وشأنها ، لراحت الصحيفة التي اشتهرت بصدقها وحريتها ولسقطت الجريدة التي لا قيمة لها ولا وزن لآرائها ، وفي ذلك فائدتان صون أموال الدولة والابتعاد عن تلويث سمعة الصحافة . ظهر تلاعب في احدى دوائر المعارف مرة فما كان من مديرها إلا أن أعطى ارباب الصحف مبالغ حتى يسكنوا عما وقع من الاختلاس وسوء الاستعمال . فسكتوا كلهم وفي أقل من هذا كانوا يقومون ويقعدون ، ورشا المدير بعض الطلبة حتى يسبوا الوزير في خطب لقنهم موضوعاتها . وهناك شركات تضيق حقوق الناس وتتعدى حدود قانونها لا تذكرها الصحف بكلمة نقد ولا نصيح ولا رجاء لانها تقبض على رأس كل شهر ثمن امتناعها عن الكلام . فهي مضطرة الى التفاوضي عن حقوق ارباب الحقوق مخافة أن تنقطع المشاهدة .

حمل الغرب الينا مفاسده فضممنها الى ما كان عندنا من مثلها فزدنا ضللاً وخبالاً ، وان في تسخير الكاتب قلمه لخدمة حزب أو دولة أو شركة على صورة لا تخرج عن طمس الحقائق والعبث بحق الغير لمن اعظم المضرات على الحاضر والمستقبل .

الثورة السورية

شهدت دورين كانا أشد أدوار حياتي دور الحرب العامة (١٩١٤ - ١٩١٨) دام أكثر من أربع سنين ودور الثورة السورية دام نحو عامين (١٩٢٥ - ١٩٢٦) وقد سالت نفسي في الحرب الكبرى برحلات قمت بها في بعض أرجاء السلطنة أما في الثورة السورية فلم تتجاوز البقعة التي اضطربت بها أكثر من أربعة كيلو مترات واضطرت إلى أن ألزم داري زهاء سنة ونصف لا أخرج إلا بعد الشمس وأعود قبيل الغروب ، وتخلفت عن زيارة مزرعتي حولين كاملين ، وحرمت كل نزهة في الضواحي ولو على ميل من المدينة .

هكذا اقتضائي التوقي يومئذ ولعلي كنت اتهم بمالأة الثوار لولا هذا الاحتياط - ومنهم من التحق بالثورة للنهب ومنهم الشريف المخلص الذي ثار في سبيل الحق والحرية - أو يهتمني بمض تجار الوطنية بمباشرة السلطة الفرنسية . وكنت في حرج وتقلقل وما احسست في حياتي بملل كما احسست أيام الثورة ولا حجزت حريتي كما حجزتها طوال أيامها . اني كنت بين عاملين قويين إن نصحت الثوار خوّنوني وإن محضت رجال السلطة النصيح ارتابوا في أمري وآذوني . والمائل على كل حال يمتنع في الازمات من التصريح برأيه وأسلم له أن يعمى ويتجاهل .

كنت عند قيام الثورة من الفئة التي لا تقول بها لاعتقادي بانها تخرب وتقنى وقلمًا تلنج بقدر ما تنفق ، فلما اندلع لهيها عدت احاول تخليص شيء من النار وتخفيف الشر ما أمكن . وهذا المنطق لا يجوز أيام الثورات والنفوس متحمسة ، والثائر مستعد للبطش بكل إنسان ، وصاحب السلطان لا يركن إلا لمن يماشيه ويعاونه على العمياء معاونة فعلية .

نشأت يعني وبين قائد موقع دمشق الجنرال اندريا معرفة خلال الثورة وأقسم لي مرة بشرفه العسكري وبحمية ابنه الوحيد أنه لا يجب أن يقتل أحد منا ولا من جيشه ، مع ان الحرب صناعته وما خلق إلا للضرب والطمع ، وأنه لا يحارب إلا مضطراً ، وطلب مني أن اعلن ذلك في الملاّ وصار يلقاني وألقاه منذ بدأ اتصالنا بزيارته لي في المجمع العلمي العربي ، ثم عرض عليّ الوزارة أربع مرات ، ولما قلت له إني إذا تقلدت الوزارة يقتلني الثوار في فراشي قال : تحميك . فقلت له : دعنا من هذا يا قائدي احموا أنفسكم أولاً . وقلت له : إني أخشى عادية الثوار . فقال لي ، إني على يقين أنك إذا خرجت إلى القوطة يُقبل الثوار يديك لما لك من المكانة عندهم . وأنا كنت موقناً أن لا معنى لقبول الوزارة والثورة مشتعلة وخصوصاً وزارة المعارف ، وأي معارف وأي مدارس مع ثورة .

تعرفت إلى السيد لكثير رئيس محكمة الثورة وشكرته على تبرئته صديقي فخري بك البارودي ، وكان برّاً كثيرين ممن جيّ بهم إلى محكمته من أبناء هذه الديار . فقلت له إنك بتبرئتك الاستاذ فخري بك والقنابل تلقى على دمشق ، والناس يقتلون في الشوارع والبيوت والحقول والحدائق ، قد أشرت بلسان الحال إلى أن هناك شيئاً أفعال من كل هذا وأرفع مكانة اسمه (العدل الفرنسي) الذي مثلته ، وإث وجود أمثالك في سورية يقيمون العدل على هذا النحو الشريف لا تفجع لفرنسا من عشرة طواير من الجند تنزل ديارنا .

كانت المسائل في الثورة إذا ردت إلى الضباط الفرنسيين ورجال القضاء المدنيين منهم تدخل في طور معقول في الجملة ، وإذا رجع الأمر إلى من سموهم الانتصار ، وهم مؤلفون من شركس وأرمن واسماعيليه ، فهناك الطامة الكبرى . جاءوا ببضعة رجال اتهموا بأنهم ثوار فلما مثلوا أمام محكمة المسيو لكثير أتى يشهد عليهم مستشار الشرطة بيجان فسأله الرئيس عنهم فقال : ثوار . قال : من قبض عليهم ؟ قال : أنا . قال : ولم يكن معك

أحد ؟ قال : كلا . قال كيف قبضت عليهم وهم عشرة ؟ قال بقوتي . فقال له لو كانوا عشر دجاجات اطلقن من قنن ما استطعت أنت وحدك أن تمسكن بيدك فهل تستطيع أن تمسك وحدك عشرة رجال مسلحين ؟ فأطلقهم الرئيس العادل في الحال ، ووجع المستشار الكذاب على فعله الدنيء أمام المحكمة .

والصلت الصداقة بيني وبين المسيو لكثير وكان يفضل ويكثر من زيارتي ويقص علي أشياء تدل على صفاء نفسه والصفاء بصفات الأحرار العارفين ، وأكد لي أن عواطفه اسلامية لأنه قضى ثلاثين سنة من حياته في الجزائر بين المسلمين . وياح لي يوماً أن الجزائر غاملين قائد جيوش الشرق زاره وشكره باسم فرنسا لتبرئته اسماعيل بك الحريري شيخ مشايخ حوران ، وانه قال له انك بهذه التبرئة حققت الدماء ، ولولا ذلك لاندلع لهيب الثورة في اقليم حوران من أجل شيخ مشايخها ، ونحن لا أرب لنا أن نضرب أحداً لأن فرنسا ليست في حاجة إلى نصر جديد .

أوردت هذا مثالا من عقلية الطبقة العالمة من الفرنسيين وكنت أرى صفات الخير متجلية في بعض ضباطهم وقوادهم ، ذلك ان رجال الحرب عندهم يختارون للخدمة بدون طلب منهم وأكثرهم مهذبون ، وربما كانوا من أبناء الأسر القديمة الشريفة . أما المدنيون ففيهم من يعرض نفسه للخدمة أو يقدمه لها حزبه أو جمعيته وجمهورتهم في الغالب من المتوسطين بخلقهم ومعرفتهم . وشتان بين من يكون العامل الأول في نصبه الشفاعات وبين من يُعينه رؤساؤه لمعرفتهم مزاياء . وفرق بين من يزكي نفسه ومن يزكيه من لا غاية لهم .

ولما أُحيل السيد لكثير على المعاش أردت ورئيس الدولة أن نبقيه في سورية لننتفع بمواهبه وأن نجعله مستشاراً لبلدية دمشق بدلاً من اولئك الفاسدين الذين أتونا بهم فلم تقبل حكومته وغادر سورية آسفاً ونحن أشد أسفاً .

مما اتهم به

يتمهوني بالتعامل على دولة الترك العثمانيين ، ويقولون ان (خطط الشام) و (الاسلام والحضارة العربية) و (القديم والحديث) من تألّفي ملئت بالطمع على هذه الدولة . وما كان لرجل تلقى ثقافة امة وأدبها ودرس تاريخها بلغتها وغير لغتها وعاش شطراً كبيراً من حياته بين أهلها وفي ظل حكمها وعاشر طبقاتها ودرس نفسيته إلا ويعرف عنها أكثر مما يعرفه الراضون عنها وهم من طبقة اغتنت بسرقتها وسرقة رعاياها وارتاشت بأكل أموال الأوقاف واستصفاء المدارس والمساجد أو كانت على الأقل من موظفيها أو كانت غرامها بتزيين صدورها برتبها وأوسمتها ، أو بمن استهواهم الدين فشفع لذلك الدولة عندهم كونها مساعة لآحرج عليها إذا ظلمت واستبدت .

أنا لا انكر أني أنظر في تاريخ العثمانيين نظر العربي لا نظر التركي ، ولما ظهر كتابي خطط الشام قرأه أحد الأتراك في أنقرة وربما كان من أصحاب الأخبار ، فقال : ما كنا نظن أن فلاناً يحكم على حكنا الديار الشامية هذا الحكم الجائر . ولو أنصف لقال : نرى هل اختلق وكذب أو قال ما وقع ؟ فاختلق والكذاب لا يصح أن يمسك قلماً ويكتب تاريخاً . فان كنت بالغت على رأيهم في وصف عهدهم الحديث عندنا فالعهد القديم من كتبه ؟ أليسوا مؤرخين منا ومنهم شهدوا ظلم التركي وسوء إدارته ؟ لو تجردنا من كل عاطفة ، وهذا من المتعذر ، لما حكمنا على دولتهم مهما تسامحنا إلا بأنها دولة ظالمة قضت أيامها كلها في الفوضى والاستبداد ، وخرّبت المدينة التي سقطت عليها في الاقطار الواسعة التي احتلتها وما أحدثت لها مدنية يُمتد بها . وربما زعم زاعم أن ظلمها عنصرها كان أشد ، ولكن عزاء الترك أن لهم الدولة والسلطان سلطانهم يهون عليهم

مالا يهون على غيرهم من العناصر . ولو كانت الدولة سالحة للبقاء لما رأينا
أم أجزاء أرضها في أوربا أحط من عامة الممالك الأوروبية بعد مقام الاتراك
فيها خمسة قرون ، ولما شاهدنا الممالك التي اقتطعت منها مثل مصر واليونان
ورومانيا وصربيا وبلغاريا تقفز إلى الترقى قفزة مدهشة منذ نجت من
معوج سياستها .

هذه حقيقة شهد بها أهل تلك الدولة أنفسهم وأمثلة رجال العلم فيهم ،
وكلهم على شبه اجماع مع مؤرخي الغرب بأن دولة الترك العثمانين ما كانت
إلا دولة حرب ، وليس السيف كل شيء في قيام الممالك . وإن معظم
الولايات التي استولوا عليها كانت قبل حكمهم أكثر رقياً منها يوم رحلوا
عنها ، ونحن نقول لو سلم العرب من استيلاء الترك عليهم أربعة قرون
لكانوا اليوم أرقى شعب شرقي ، ولو قدّر للشام أن يخرج عن حكمهم
يوم طرحت مصر نيرهم الثقيل عن عاتقها لكانت الآن كسويسرا عالماً ورقياً .



جزء مادی

اجتاز مرة بطريق الموارنة بيمض قرى الاصطيف في شمالي لبنان ، وكان بعض المصطافين من مسلمي طرابلس جالسين في المقهى ، فلم يلبث بعض رعاع الموارنة أن انهالوا عليهم بالضرب والشتم قائلين مالكم لاتقومون أما رأيتم سيدنا وسيدكم ؟ فسكت المسلمون على هذه الاهانة ، ورجعوا من الغد إلى بلدكم وأخذوا يفكرون في تأسيس مصايف لهم في سير من عمل الضعيفة . واتفق أن عاد من المهجر أحد أبناء تلك الناحية من المسلمين وقد أترى كثيراً فأنشأ في سير فندقاً ودوراً للاصطيف وعبد الطرق وأنشأ الحدائق ، وما جاءت السنة الآتية حتى استغنى الطرابلسيون عن أهدن وبشري وحصرون وحدث الجبة وغيرها من المصايف التي ألفوا الاختلاف إليها ، وبارت تلك الدور والقصور بواراً أبدياً . وعبثاً حاول بطريركهم أن يعوض أصحاب المصايف عن بعض ما فقدوه من الارباح وعبثاً توسل بعض أعيان الموارنة في تلك الناحية أن يعود الطرابلسيون إلى اتخاذ قرى لبنان الشمالي مصايف لهم ، وكان عمل الطرابلسيين أحسن جواب لمن أعمام لمصبرهم الديني فضربوا بمادياتهم لما حاولوا أن يضربوا المصطافين بمعنوياتهم ، وتنج من هذا امتداد العمران في صقم لا يسمع فيه المسلمون اهانة ولا قذفاً ، وكان عمل أولئك الاجلاف عبرة لمن يريدون أن يعيشوا في هذا القرن بعقلية أهل القرن الماضي .

لا يبعد أن يتصدى أهل كل ناحية من النواحي القريبة من لبتان لانشاء مصايف لهم في أرضهم . وفي جوار هذا الجبل من الداخل والساحل قرى لو نظمت بنظام الاصطيف قد تفوق لبنان بجودة هوائها وعذوبة مائها

كبعض أرجاء جبال العلويين وعكار والهرمل وجبل عامل وجبل الأربعين وجبل
قلمون واقليم البلان واقليم الزبداني وسفوح جبل الشيخ من نواحيه الأربع .
والشيء بالشيء يذكر فقد اذكر في ما صدر عن رعاي الموارنة في
معاملة اعيان الطرابلسيين بمقوبة إلهية حلت بأحد أعيان الموارنة ، وكان
أيام الاحتلال الفرنسي يجاهر المسلمون العداء ، ان ابنة له عشقت شاباً
مسلماً اسمه محمد وبعثاً حاول أبوها واهابها ارجاعها عن عشيقها والزواج
من احد أبناء المسيحية فما سمعت الا لصوت غرامها وظلت كسافح هازئة
بكل الاعتبارات فاصاب ابها المتعصب من ذلك مصيبة وأي مصيبة وهذا
بما نعمه جزاء مادياً والناس لهدونا لايهتمون لتفسير الماديات مع الأسف .



المجمعان العربيان

قال لي جلالة ملك مصر ان المجمع العلمي العربي اهداء مطبوعاته فقرأها ورأى طبعها المشرق والتعليقات المفيدة على الكتب القديمة فجمعكم يعمل خلافاً لمجمعنا فأجبتة ان المجمع المصري يعمل أيضاً ولكنه قصر في نشر اعماله في مجلته . وتفضل كما جرى منه في أعوام سلفت وأرسل اليّ أحد خاصته لتفاوض فيما يحفز بجمع فؤاد الأول الى العمل .

نحج بجمع دمشق لأن أعضائه أخلصوا في خدمته منذ وضع اساسه وكثيراً ما كان بعضهم يقرظني ويجهز بعلمي فيه فاقول لهم مخلصاً ان المجمع مدين لأعضائه مثل اخي فارس الخوري انشاءً ممي وحماه من تحركات السياسيين الاغبياء . والسيد فارس لا يحتاج الى تعريف بمد ان ثبت في مؤتمرات الدول العالمية انه رجل الدول العربية في السياسة وانه عارف بقضية مصر معرفة لا يدانيه فيها سياسي . ولجميع الاعضاء الذين عملوا ممي في دمشق منذ انشاءه كطاهر الجزائري ومسمود الكواكبي وسليم البخاري وعبد الله رعد وسليم عنجوري وعبد القادر المبارك من الأموات واسعد الحكيم وسليم الجندي ومرشد خاطر وجعفر الحسني وخليل مردم بك وجميل صليبا وحسني سبيع وشفيق جبري وعارف النكدي ومصطفى الشهابي وعبد القادر المغربي ومحسن الأمين وبهجة البيطار وهم في الغاية علماء وغيره على خدمته أما في الاسقاع القريبة فكان من هاونوه شقيب ارسلان انتاس الكرملې محمود شكري الالوسي راغب الطباخ فؤاد الخطيب احمد رضا سليمان ضاهر ادوار مرقص عيسى اسكندر المعلوم محمد اسعاف النشاشيبي عبد الله مخلص رضا الشبيبي بهجة الاثري داود الجلبى جرجس منش طه الراوي احمد الاسكندري

احمد تيمور رفيق العظم أمين المملوك عبد العزيز البشري احمد عيسى
ابوعبد الله الزنجاني الى عشرات غيرهم من المستعربين من علماء المشرقيات ومنهم
مرجليوث وماسينيون وكرينكو ونالينو وجويدي وبراون الخ .
أما اعضاؤه في مصر فقلّ منهم من عاون هذا المجمع معاونة فعلية كأنهم
يظنون ان دخولهم فيه من باب اعتراف المجمع بفضلهم فقط ولم يهد لاحد
ان كتب له رسالة أو أفاض عليه رأياً وغاية ما سمعنا منهم تقريراً لعمليتنا
وموازنة المجمع لا تسمح له بإعطاء كل من يؤازرونه مكافآت كما تفعل مجلات مصر
وجرائدها فتطوي اعضاءنا هناك ما يرضيهم ولذلك يحق لنا ان نقول ان
المادة دعت الى عدم الانتفاع بأدب اخواننا المصريين .

المستور السوري

عدل مجلس النواب الدستور السوري ليمسنى إعادة السيد شكري القوتلي
الى رئاسة الجمهورية مرة ثانية واجمع المجلس يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨ على
انتخابه فكان اجماعه أي اجماع الامة هو بعض ما تكافى به امة رشيدة
رجالاً اخلص في خدمتها حيانه . كل هذا واجب وحسن ولكن الذي
نريد الا ينساه كل عربي ان نعتدل في مدحنا وقدحنا فقد ورد في الاثر
احب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما وابغض بغيضك
هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما .

الافخوان المسلمون

قال الاستاذ سعيد التلاوي في جريدة الفيحاء يصف الافخوان المسلمين ولعل آلم ما يقع امام الانسان من حوادث واحداث تحز في نفسه وتدمي فؤاده ان يرى الباطل مرتدياً ثوب الحق والفساد مبهرجاً بدعوى الجهاد وهذا شأن الفئة التي اطلقت على نفسها اسم الافخوان المسلمين كأنما أرادت أن تفرض نفسها على الناس فرضاً وتحمل ميدان الدين والوطنية والقومية احتلالاً لا يكون معه مكان للذين لم ينتموا الى هذه الفئة .

اي اننا نحن الذين نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر في حاجة لنكون مسلمين حقاً أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء والقدر وبالاخوان المسلمين واذا لم نؤمن فاننا لاجرم نكون من الافخوان الكافرين! فالافخوان المسلمون جماعة طغت عليهم الانانية وفتنتهم الدنيا وغرتهم الحياة فطفقوا يعملون على بلوغ الشهرة والجاه والسلطان من اقرب الطرق وهو طريق الدين الحنيف واثريمة السمحاء وراحوا يركبون للوصول الى آمالهم وأمانهم كل مركب ، ولم يأس الناس تلك الحملات التي شنوها على كرام الوطنيين وعيون القوميين اثناء معركة الانتخابات الماضية ، تلك الحملات التي كشفت حقيقتهم واظهرت نيتهم وبينت طويتهم مضافة الى ما فعلوه من قبل في الموقف المعروف بفتنة « نقطة الحليب » التي قمها الرجل الصالح الصادق سمد الله الجابري وانتقد البلاد من كارثة كادت تقضي على خيوط الاستقلال والحرية والسيادة في ذلك الحين مضافة الى ما فعلوه من بعد في اليمن ، تلك البلاد العربية التي كان على رأسها ملك عربي مسلم لم يسمح لاجنبي ان يسطر أرض بلاده مدة أربعين سنة ولم يوقع على ورقة أو صك أو عهد بينه وبين دولة أجنبية فكان نصيبه رحمه الله القتل والتحييل به وسرقة

أمواله ونقلها بالطائرة مع الفضيل الورتلاني وتحويل قسم منها الى الاخوان المسلمين في القاهرة .

وما هذه الشواهد البسيطة الا مقدمة بسيطة كذلك لما يحاول الاخوان المسلمون ان يفعلوه الآن في سورية باسم الدين وباسم المجاهدين كأن الله جعلهم وحدهم على كل هذا قيمين واليه داعين . قال حقاً ان فلسطين لتصطي اليوم ناراً حامية سعرها القدر الدولي واجبها الفجور الصهيوني وان رئيس الجمهورية السورية ليصطي هذه النار بما فيه من حجة للوطن ككل عربي صحيح العروبة وككل مسلم صادق الاسلام ، اما الاخوان المسلمون فانهم لم يفعلوا شيئاً لاجل فلسطين غير جمع نفر من جماعتهم وسوقهم الى دمشق لمرضهم على الناس في الشوارع ارضاء لشهوات النفوس ثم يعمدون جميعاً في معسكرات التدريب وقد تحمل قضية فلسطين ولا ينتهي تدريب الاخوان المسلمين لانهم مشغولون عن الجهاد بدعوة الشعب الى الحداد ولانهم منهمكون بالحياة الدنيا عن خوض غمرات الحرب الضروس في الارض المقدسة .

فلو ان الاخوان المسلمين كانوا صادقين في دعواهم لما قام منهم خطيب يدعو الى نفسه ويطلق على ذاته الاقباب والنموت التي ينفر منها الله ويبرأ منها الدين ولذهبوا الى فلسطين يطلبون الشهادة والاجر والمغفرة ولما كانوا يفرقون الى الاذقان في حب الدنيا العرور ويتهاكون على ما فيها من منافع ومصالح يحاولون اقتناصها بقوة الدين وباسم فلسطين .

ان العرب اليوم لينظرون الى مأساة فلسطين فلا يرون فيها شيئاً يختلف عن مأساة الاندلس وانت عليهم واجباً قومياً دينياً يتقاضاهم العمل لتفادي تمثيل تلك المأساة ، وحقيق بالاخوان المسلمين ان يعفروا وجوههم بالتراب ويبللوا لحام بالدموع ويخلصوا العمل لله ويسيروا الى فلسطين آمنين مطمئنين ويدعوا العالمين اجمعين الى الجهاد .

عيد المهري الالافي

قال لي امين سر المجمع العلمي العربي صديقي الاستاذ خليل مردم بك ان المهري ولد سنة ٣٦٣ فيكون مضى على ولادته الف سنة فخلق بالامة العربية ان تحتفل بعيد الالافي . وكنت في احدى المشايخ على مائدة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مع ثلة من رجال الحكومة فذكرت له ما عرفناه عن مولد المهري فسر كثيراً بهذا النبأ وقال سنحتفل بهذا العيد احتفالاً عظيماً ، والمهري مفخرة العرب عامة ومفخرة الشام خاصة ، وسندعو الى مشاركتنا بالعيد اعظم علماء مصر والعراق وجزيرة العرب وشمال افريقية وهذه فرصة سانحة لتطلعهم على مافي ديارنا من بدائع الكنوز الطبيعية والآثار التاريخية . وذكرت لمن ييهم الامر من الوزراء الذين كانوا معنا على المائدة يستمعون الى كلام الرئيس الاول مايجب من فتح اعتماد مالي للعيد ، ومن الغد كتبت الى وزارة المعارف بالامر فاحالت مقترحي على مجلس الوزراء فردوه بدعوى قلة المال ولم يفتح وزير المعارف فاه بالدفاع عنه مع ان الكلام مع الرئيس كان يسمع منه يوم تلك الضيافة . وبلغ رئيس الجمهورية ماتم في هذا الامر الذي اهمه وكاد يهيم باتهامي بالاهمال فأثبت له أن الذنب ذنب حكومته فوعده بإيجاد المال وبلغني انه اقترضه من وزارة الاعاشة ريثما يجتمع مجلس النواب ويقره . ولم يشأ المجمع أن يشرع باعداد المعدات للعيد قبل أخذ كتاب وزارة المعارف بالموافقة على الاعتماد الذي طلبه وهو اربعون الف ليرة سورية وبمد أن وصل المال الى يدنا برمته . وكانت نية الرئيس أن يحتفل بهذا المهرجان في شهر نيسان من هذه السنة ١٣٦٣ ليرى الوافدون ربوعنا في حلتها الخضراء البديعة فضاع وقت غير قليل حتى حصلنا على موافقة الحكومة وتمت المعاملات القرطاسية فتقرر أن يجري

العيد في أواخر ايلول ليعبر لمن يشاركون بالاحتفال أن يعدوا خطبهم ومحاضراتهم وأبحاثهم وقصائدهم وينجزوا طبع كتب المعري وما له علاقة بالمعري .
وقبل موعد الاحتفال استدعاني رئيس الجمهورية وكان عنده وزير المعارف السيد نصوح البخاري فقال لي ان الوزير يقول ان المجمع العلمي العربي يعمل مستقلاً استقلالاً تاماً ولم يشرك وزارة المعارف في شيء من أمر المهرجان فأجبت ان المجمع يفاوض في كل ما يجب أن يفاوض فيه ، وأعرف ويعرف امين سره وكان أيضاً وزيراً للمعارف أن المجمع مرتبط بهذه الوزارة وأنه كتب اليه في مسائل العيد وأخذ أجوبة وقلت الغالب ان لدى وزارة المعارف موظفاً كبيراً مستبدأ بالامور حاول مرة أن ينضم الى المجمع عضواً فلم يجب اليه بفيته لانه لا يحسن العربية ، فأخذ يقاوم المجمع ، فبشرني الرئيس أن هذا الموظف نقل إلى عمل آخر واستراحت المعارف . ثم اجتمعنا في غرفة الوزير فاخرج اضبارة المهرجان ليثبت لنا قصورنا في مفاوضته على نحو مادعي أمام الرئيس الأول فبين بالقاء النظر على الاوراق أن الوزير موافق على الامور المهمة وأنه خاتمه ذاكرته ونسى ما رقه بقله من المعاملات ثم قال لي ولا مین السر العام كيف يجوز ألا يقول مثلي وأنا وزير المعارف شيئاً في عيد المعري ؟ فقلت له لك ذلك ومن حظر عليك ما تريد ، فكان أن أتى في اليوم الاول من العيد في مدرج الجامعة السورية بحضور رئيس الجمهورية ورجالها وعلماء العرب وغيرهم من العلية خطاباً ماثلننته إلا ابن عدة أشخاص وشبهته بالثوب المرقع رقعة جوخ ورقعة صوف ورقعة جلد ورقعة شفوف حرير ورقعة خيش بالية أي أن كلامه كان دون ما يجب لمن كان في مثل مقامه أمام أعيان البيان في هذا الزمان . واحتفل بالعيد ثلاثة أيام في دمشق وثلاثة أخرى في حلب وحمص وحماة والمرة واللاذقية فاقامت فيه المآدب الفاخرة باسم رئيس الجمهورية واسم امهات المدن السورية وباسم وزارة المعارف واسم المجمع العلمي العربي وباسم عين المرة حكمت بك الحراكي دما الوفد الى داره وتليت فيه الخطب والابحاث المتممة والقصائد الزنانة مما

كان نموذج أدب هذا العصر ، ودل على مكانة أبي العلاء المعري في قلوب رجال العربية كافة . وما أحب وزير المعارف الا أن يفيض على الوفد من أدبه فراققه في رحلته وكنا نود لو لم يتعب نفسه وينصرف الى القيام باعمال وزارتيه الدفاع والمعارف أي وزارتي السيف والقلم لان رئيس الجمهورية قال لنا ونحن نعرض عليه طلب اشتراك الحكومة في الامر أن نراجع رئيس الوزراء فقط فيما يمن لنا في الامور التي لها علاقة في العيد لأن وزير المعارف مشغول كثيراً وهو بتقليد وزارتين وكل معاملة تبقى في دائرته اثني عشر يوماً . فلما جاء الوزير يشكوني لم يسع الرئيس إلا مشايمة وزيره على شكواه التي لا معنى لها .

والمجمع على كل حال قام أحسن قيام بواجبه في اعداد العيد وذلك بفضل العاملين من أعضائه ولا سيما الاستاذ أمين سره العام ولطالما قلت له (والمتلف الشيء غارمه) أما وأنت الذي اهتديت الى ولادة المعري فالمفروض عليك أن تقوم بالمعبء الثقيل من اتمام الرغبة في الاحتفال بذكره . ولم ينقص العيد إلا اشتراك حكومات جزيرة العرب به ، ولعلها لا تقول بجامع الازهر بأدب المعري وتخشى ان اشتركت في تكريمه أن تعد شريكه فيما رمي به من الاتحاد والتعطيل ! واعتذر الفرنسيون رسمياً بأن قلة المواصلات مع شمالي افريقية دعت الى تخلف أعضائنا وغيرهم من رجالات تلك الاقطار عن الحضور . ومن المعروف أن فرنسا في كل زمن حاولت أن تقطع الصلات بين أهل شمالي افريقية وبين سكان هذا الشرق القريب ، وأن توم أهل الاقطار التي تحتلها أنهم ليسوا عرباً بل هم بربر لا شأن لهم بالعربية ولا بالعرب .



الوضع الحاضر

(الوضع الحاضر) (الوعي القومي) (التربية المثالية) (المجال الحيوي)
(المثل العليا) (الشخصيات البارزة) (السوق السوداء) تراكيب جديدة
يكثُر اليوم ترددها في الصحف وعلى الألسن . ويعنيها من هذه التعابير
الآن تركيب (الوضع الحاضر) فإنه أصبح من الكلام الذي يردده من
تولى الحكم ومن وراءه من النفعيين والوصوليين ، وكل من انتقد الوضع
بكلمة أو عابه ولو بالإشارة مرق من الوطنية مروق السهم من الرمية .
ومن لا يوافق على كل ما تواضع عليه الحزب المتغلب يعد خارجاً عن الجماعة ،
مرتبضاً في عقيدته السياسية ، حرباً بالاعتقال والنفي أو بالقتل والتعذيب .
بالأمس كان الناس في مصر يصفقون الوفديين الذين تولوا شؤون
الحكم خلال الثلاث سنين الأخيرة واليوم وقد أقال ملك مصر وزارتهم
يريد لمصر وزارة ديموقراطية تطبق أحكام الدستور أخذ الناس يصفقون
للوزارة الائتلافية الجديدة ويقيمون الأفراح مهللين . وكل من يتولى الحكم
في مصر وغيرها لا يلبث أن يستتبع جملة ممن كانوا البارحة مع الفريق
الذي تمت أيامه ، والناس مذ قامت الحكومات في الأرض عبيد منافهم .
حمل المخالفون على سياسة الوفد وعابوه بالالتجاء إلى من طالما حاربهم كي
يصلوا إلى الحكم ولاموه على إسرافه بأموال الدولة واستكثاره من خلق
الوظائف الجديدة التي لا لزوم لها يرضي بها جماعته ، واتهموه بأنه فشت
في أيام حكمه الرشوة والخلل في الإدارة ، وأنه عمل على اعتقال مئات
الأبرياء خالفوه في مراميه . فهل تقوى الوزارة الحاضرة يا ترى وفهم
الوزراء الأكفيا على تصفية حساب الوزارة السالفة ولطهر أداة الحكم
مما غراها من الصدا والخبث ، أما أنا فيخامرني الشك بقيام وزارة تفي

بوعودها ، وكل وزارة توفق إلى تحقيق بعض الإصلاحات أعدها حكومة عمر . زعمت الوزارة المصرية الجديدة أنها ستطلق الحرية للصحافة فهل لتعدل الصحف غداً في آرائها ولتصدق في حملاتها ، ولا يستحل حزب أن يخلق على حزب ما لا أصل له في غير رأس كاتبه وقائله وينهوت من المهارات إلى السفاهات . فقد رأينا ما أصاب القطر من التحول بحجز حرية الكلام في الخمس السنين الأخيرة للحرب الحاضرة وكانت مصر منذ نحو خمسين سنة تنعم بنعمة الحرية على اختلاف مظاهرها ، وامة ألفت الانطلاق يشق عليها الرضا بالتضييق ، وشعور الأئمة كشعور الأفراد على قدر فهمها وسعة مداركها .

هذا في مصر أما في الشام فالحرية ضعيفة بالقياس لحرية مصر لأن ولاية الأمر فيها يلجأون حالاً إلى إقفال الجريدة التي لا ترضيهم وتضييق صدورهم عن سماع ما يخالفهم ، ولذلك ترى الصحف متشابهة في معظم ما تقول ولا تقول إلا ما يرضي . وما أشوق النفوس اليوم إلى استماع أقوال الجرائد الحرة . وقد صدرت منذ سنتين مجلة للدعاية الأمريكية في مصر وما عرف قراء العربية أنها تنشر بعض مقالات تكتب بحرية حتى اقبلوا عليها إقبالاً لم يكتب للمجلة ولا للجريدة طبعت بالعربية . هذا ما كان من أمر الصحافة والحرية ومثل ذلك يقال في سائر أنواع الحريات التي يعمد إليها الناس لظهار أفكارهم وعواطفهم . وكان من العيب بالحرية في ديارنا أن انتشرت الرشوة وضاعت الحقوق فسرح الفاسدون ومرحوا في غفلة الزمن وعهد الحجب على الأقلام . هذا وإذا انتقد منتقد ما يجري قالوا له صه إنك تمكّر بكلامك الوضع الحاضر ، والوطنية تقضي بالسكوت عن الهفوات كأن الإبقاء على سلامة الوضع الحاضر لا تكون بغير الاغضاء عن المساوي والكف عن نقد الخلل . من أدب الوضع الحاضر أن يقول كل إنسان بالثورة ولو أورتتنا الضرر الظاهر ومن لا يصف السراق والقتلة

بالمجاهدين غضب الله عليه وعُدَّة المدو الاكبر لوطنه ومن لا يلمن المنتدبين
بالحق والباطل فهو انتدابي يحب الاستبداد ويأنف من الحرية ، وكل كبير
لا ينزل على إرادة الصغير هو جامد متحجر المقل لأن الفتیان الناشئين أوتوا
من الحكمة ما لم يكتب مثله للشيوخ المحتكين . وبالجملۃ فان أنصار الوضع
الحاضر لا يتخرجون عن فرض أعظم المقوبات على كل من لا يتابعهم على
أهوائهم ، والطمع بمروءة الخالف وشرفه ودينه ووطنيته أيسر ما يواجهه
أدعياء الوطنية إلى العارفين .



تدمير فرنسا بهودنا

مثلت فرنسا في ضربها مؤخراً دمشق وحلب وحماة وحمص واللاذقية وغيرها من القصبات الشامية صورة من صور الوحشية لظهر بها أمة مسلحة إذا حاولت أن تنال من شعب ضعيف غرضاً ترمي إلى الحصول عليه . ضربت فرنسا أمة عزلاء ضرباً قصدت به فرض معاهدة على ديارنا بالارهاب والقوة . وادعت أن العامة في دمشق استفزوها بحراقهم سيارة لها من سيارات النقل أمام البرلمان فما وسعها إلا تدمير دار الندوة على رأس من فيه من النواب والحامية ، وحاولت أن يكون عدوانها ساعة اجتماع المجلس تحت قبته ، ولكن الحكومة كانت اطلعت على ما كان يُبيّنت لها من الشر ، واتفق أنه لم تحصل أكثرية في المجلس يومئذ فتحول الحاضرون من أعضائه إلى دار زميلهم الاستاذ خالد العظم في سوق صاروجة ، فبادرت الحامية إلى قذف قصره العظيم بحممها فلم تصبه وأصاب قذائفها داراً من دور جيرانه فأفنت أهلها .

يراد من دعوى المتدينين استفزاز العامة لهم أن فرنسا كانت على حق في تدميرها المدن وإهلاكها السكان ، وقد أثبتت التحقيقات إثباتاً لا مجال للشك فيه أن فرنسا ضربت ماضرب ظالماً وعدواناً ، فكان ما ارتكبته سبباً في إخراجها من ديارنا . وكانوا ارتكبوا مثل هذا العمل الأخرق في الجزائر فقتلوا ألوفاً من الآمنين ، ولطالما أتوا هذه الأفاعيل المنكرة في الأقطار التي استعمروها ، ومع هذا ما زالت تحكم تلك الاصقاع . والجزائر في العرف الدولي مستعمرة حكمها حكم الارض الفرنسية ، والمستعمر أن يهلك من استعمره ! كما كان الحق لمن استرق انساناً قبل الاسلام أن يعينه أو يستبقه .

هذا ما آتاه الفرنسيون في القرن العشرين وهم الذين منوا على العالم بأنهم وضعوا حقوق الإنسان وحرروا العالم من ظلم الملوك . وما تاريخهم منذ ثلاثمائة سنة أكثر من اعتداء قوي على ضعيف . أما استعمارهم فهو من نوع الاستعمار الذي لا يبطون عليه . ولقد أتى زمن عليّ كنت فيه أَدْعُو إلى الأخذ من مدنية فرنسا واجاهر بحج فرنسا الممدّنة واكرهه إلى النفوس فرنسا المستعمرة ، ولكن العمل الأخير كاد يزهديني في مدنية أحببتها ودعوت إليها .

كنت إلى يوم ضرب دمشق أعتقد أن الراهبات والرهبان قوم استهواهم دينهم فتطوعوا في بث دعوته ، وأخذوا على أنفسهم خدمة الانسانية وتخفيف آلامها ، فأثبتت السكّانة الأخيرة أنهم شر أدوات الاستعمار ، وأن دعوى بعضهم خدمة دينهم نفاق وزور وكيف لعمرى زينت لهم كمال السيد المسيح القائمة على الرحمة والشفقة ازهاق أرواح الأبرياء من مخالفيهم في الدين ؟ ظهرت أديار الراهبان والراهبات هذه المرة أنها ثكنات عسكرية وحصون تدمير ، وأن بعض من أودوا إليها لا يحتلفون عن القنلة والاصوص . روى لي ثقة أن راهبة فرنسيسكانية أشارت الى جندي سنغالي يوم ضرب دمشق في وضّح النهار أن يطلق عياراً نارياً على أحد الشخصيات المعروفة وهو يجتاز الشارع وشوهد أحد رهبان الاخوة المريمين يطلق من مدفع رشاش ناراً حامية على حي قريب من قرية المزة وهو متشح بلباسه الاسود ، ثم دخل بيتاً ينبى لما تراءى له أنه خال من أهله . ولو لم يرو هاتين القصتين ثقات من أصحابي ما صدقت صدور مثل هذه الفضائح من اناس يدينون بدين المحبة . واخبرت أيضاً أن المستشفى الفرنسي يوم الوقعة الكبرى لم يقبل أحداً ممن جرحوا يوم المدوان . وقد ثبت أن قائد التدمير أمر بضرب المستشفى الوطني فارتاع المرضى وخرجوا هائمين على وجوههم الى الشوارع وأن بعض جنده اعتدوا على بعض المرضات . وكان بعض المستشارين من الفرنسيين في مقدمة الجيش يطلقون نيرانهم على الأهالي وهم يمدون أرقى

فئة من المدنيين الذين أتونا بهم لتعليمنا اصول الحكم ، ولم يروا من كل حكومة وطنية ومن كل وطني إلا الحرمة والاعتراف بجميلهم .

هذا ما جوز لأتقسه فعله أبناء ثورة سنة ١٧٨٩ المتشبعون بروح روسو وفواتير في عاصمة من أعظم عواصم الاسلام ، انهزموا أمام عدوم في ارضهم أقيح هزيمة ، وانقلبوا يمتدون على الآمنين في أرضنا . كانوا امام الألمان كالنعامه يوم دحروهم ، واستأسدوا في عقر دارنا . وما كان أكثرهم في الواقع الا قتلة ومثشردين . حدثني صديقي الاستاذ فخري البارودي وكان وكل اليه أمر رد المنهوبات الى أربابها في عاصمة سورية ، أن أكثر بيوت ضباط الفرنسيين وقوادهم كانت ملأى بالأمته التي سرقوها من بيوت السكان وأن دار القائد العام (الجنرال اوليفاروجه) كانت مثلاً مخجلاً في هذا الباب : سرق كل ما طالت يده اليه من دور الأهليين ، ومن دار المجلس النيابي ، وسرق في جملة ما سرق صندوقه الحديدي وحمله الى منزله وحاول فتحه بمطرقة عظيمة فذا استطاع نزع قفله ، وكان فيه ستون الف ليرة سورية ، وقد سرق مقداراً كبيراً من الكتب النادرة من خزانه المجلس الى غير ذلك من النفائس التي استحل أخذها ، وما حال عظم رتبته دون أن يحشر نفسه في عداد اللصوص . وقل أن نجبا ضابط من ضباطهم من تلويث يده بالدم الحرام والمال الحرام ، ولا عجب أن تجري حكومة فرنسا على هذه الخطة الموجاه في ديارنا وكل ديار نزلت فيها من الشرق والغرب ، وأن يستحل أفراد جيشها أموال الضعفاء فان حكوماتها ما زالت تتآمر على أموال رعاياها أنفسهم . وفي اختلاساتهم في شركة باناما وستافسكي مثال مصغر من أخلاق رجال السياسة والمال في فرنسا ، اشترك النواب والوزراء في هذه السرقات العظيمة فأتوا يبرهان آخر على انحلال أمرهم .

كنت أظن وأنا على أميال قليلة من القلاع التي كانت تطلق حمها على السكان خلال هذه القارة ان القائد الذي يأمر بالضرب على البيوت والمصانع ما كان الا سكراناً او محششاً فأكدوا لي انه كان يعاقر الحجرة منذ شرع

بضرب دمشق وبصدر أمره الى زبائنه وهو في تلك الحالة المضطربة ، وأنا
أوكد للتاريخ أن قائده الأعظم الجنرال دي غول كان أيضاً مضيقاً عقله
عندما أمر بضرب سورية لتصل فرنسا الى مأربها بهذا الضغط الجائر .

مسكينة فرنسا يحاول أبنائها الخالصون حمل النفع اليها بمقولاتهم وعلمهم
فيأتي الجبهة المجانين من بذها فيفسدون في ساعة ما قضى العقل في اقامته سنين
وفي تاريخها الأخير امور كثيرة ليس فيها ما يرفع الرأس . الخفة وبالإلأسف
ابداً متقلبة على الرزانة ، ولذلك تأخرت عن اتم اوروبا وكانت في القرن
السادس عشر أعظم دولة في الغرب ولكنها ما أفنت من الناس وما افنوا
منها أضحت دولة من دول الدرجات الثالثة أو الرابعة .

كانت فرنسا كما قال هريو في كتابه الايحاد G . Herriot : Créer
ذاهبة بالأولية بين الدول في القرن السادس عشر من حيث عدد سكانها
فكانت نفوسها نحو نصف سكان اوروبا وأصبحت في عهد لويز الرابع عشر
نحو ثلث اوروبا وفي سنة ١٧٨٩ نزلت الى الربع وبمحروب الثورة والامبراطورية
تدنت الى الخمس وأطرد هبوط ساكنها في القرن التاسع عشر على حين
كان جميع شعوب العالم يزيد زيادة مستمرة .

نعم ان عقلية فرنسا قضت أن تتفوق الامم عليها بكثرة نفوسها ووفرة
ثروتها ، وبلغ من ضعف سياستها أن كانت حيث ذهبت لتستعمر تصدى
لها انكلترا فتخرجها من البلد الذي احتلته : أخرجتها من الهند ، واقتتها
من اميركا ، وأبمدتها من كندا ، وطردتها من مصر ، وقضت هذه المرة
على سلطانها في الشام . فرنسا ترى من حسن السياسة اضطهاد كل اممة
لستعمرها ، وتحاول صبغتها بالصبغة التي ترتئها ، وتتولى كل شيء برجالها
ولا تترك لمن لستعمرهم ثروة تحفظ عليهم كياناتهم ، ولا تميل للفرق بين
استعمار واستعمار بأكثر مما فعلت انكلترا في الهند وأتته فرنسا في تونس .
الهند أعظم مستعمرة سكانها خمس العالم وتديرها انكلترا بثلاثة آلاف موظف
انكليزي وستين ألف جندي ، وتونس لا يتجاوز سكانها المليونين والنصف

مليون تحكمها فرنسا بثمانية آلاف افرنسي وألني تونسى ما عدا حاميتها .
ولقد حاولت فرنسا أن تعامل سورية كما عاملت أهل مستعمراتها الافريقية
والآسيابوية أي السودان الغربي والهند الصينية مثلاً فأخفقت ، وما أدرك
رجالها أنهم متدبون في سورية ، وشتان بين الانتداب والاستعمار أو الحماية ،
وكانت منذ حلت أرضنا لاملها بمقلية مستعمرة ، وعلى هذه الفكرة بنت
حصونها وقلاعها على حين تساحت في أرضها في هذا الشأن حتى استولى
عليها الالمان في أيام قليلة . وفي الذي ظهر من فساد رجالها وقلة أمانتهم
لامتهم والخلل بجمعها وجامعتها صورة نخجل منها كل أمة ، والملة في تقهرها
رجال جنديتها وأرباب الاموال فيها : عشق الضباط الالوسمة والرتب وتلغظوا
بجلواء الفنائم فاستهانوا بارواح من نزلوا عليهم ، واستحل المليون كل محرم
زيادة رؤوس أموالهم .

اطرد التدني في فرنسا منذ القرن العظيم قرن لويز الرابع عشر إلى يوم
الناس هذا ، ويرد تدنيها في الاكثر إلى الغرام باهراق الدماء لصنع بها
أكايل الظفر الموهوم . وأي سخف أعظم من أن يدعي معظم رجالهم أن
نابليون بحروبه الطائشة التي أفقدت فرنسا مليوني جندي قد أورثها مجداً ،
وأي مجد يأتي من حربها (سنة ١٩١٤ - ١٩١٨) وقد فقدت أكثر من
مليون ونصف من جندها وثمانمائة ألف مشوه وجريح ، وعاقبتها نحو ٢٨ دولة
حتى ظفرت بالمانيا . وقاية ما رجحت من حربها هذه استرجاع ولا يبق الاثراس
واللورين والانتداب على سورية ولبنان . وقد كلفها هذا الانتداب مليارات
من الفرنكات سرق عمالها القسم الاعظم منها وفقدت ألوفاً من جندها
ومئات من ضباطها في قمع الثورات لتغرم من ذلك محطة حربية تصل منها
إلى أملاكها في الشرق وتلشر ثقافتها ونجارتها . وكيف لعمري بمد اهرق
دماء الخلق مجداً ، وبخاصة إذا كان الدم المهرق هو بعض دم الاخ والمواطن ،
الفرنسيس يدربون على القتال والسيال ليقتلوا وليقتلوا ، والحكم على
الرجال أن يقتلوا هو ما يجب أن نخجل منه الامبراطوريات والجمهوريات

لانه جريمة الجرائم كما قال أناتول فرانس . قال انهم يوجبون على الفلاح المسكين الخدمة في الجندية ينفونه من بيته ، ويقصونه عن حقله وغابته التي غرسها آباؤه ، ويدربونه على الفتك بالناس في باحة ثكنة كثيفة ويهددونه ويسجنونه ويقولون له هذا شرف . ومن لم يشأ أن يشترق على هذه الصورة يقتلونه رمياً بالرصاص . قال نحن في فرنسا جنود ووطنيون ، ومن عدّ وطنياً كان تلقّيه بذلك من دواعي فخره وزهوه . وآية كل ذلك أن ينهض الفقراء بمساعدة الأغنياء ، ليقبوا عليهم عظمهم ويمتصوهم بالفراق ويميلون هم بدلاً عنهم ، وما كانت الثورة إلا من صنع مجانين وسخفاء قصد بها فائدة من وضعوا أيديهم على أموال الامة ، وأسفر ذلك عن اغتناء المحتالين من الفلاحين ، وأهل الطبقة الوسطى من المراهين ، وباسم المساواة قبض رجال المال على عنق فرنسا فأنشأوا منذ مئة سنة يمزقونها شراً ممزق وهم فيها السادة والمربوبون ، وتتألف جبهة الشعب من بالسين كستوجب حالتهم الشفقة ، وهم مفلوكون قدرون قتلون مصرقون في خدمة رجال المال . ومنذ مئة سنة كان كل من أحب الفقراء في هذه الديار (فرنسا) يمد خائناً للمجتمع ، ومن قال إن فينا أهل بؤس وشقاء عدّ من الافراد المضرين ، وسنوا قوانين تقضي على من يغضب للظلم ويعرف بالشفقة .

هذا قول أناتول فرانس ، أما عيوب فرنسا في معاملتها رعاياها ومعاملتها من تنزل عليهم فيعرفها عقلاء أبنائها أكثر منا وقد كتبوا فيها الكتب المظلمة . ونحن نقول على حسابنا ان فرنسا بفطرسية بعض رجالها في الشام وضيق نظرم وفساد آرائهم أصلوا العداوة والبغضاء حتى في صدور أصحابهم القدماء ، وخسروا بذلك ثقة أمة كانت تعاملهم بأمانة فاضطروها الى نزع يدها منهم ومصادقة دول أخرى .

الحرب الأخيرة

انتهت الحرب الأخيرة بظفر الحلفاء (انكلترا والولايات المتحدة وروسيا والصين) ومن حالفهن ووالاهن من الدول الصغرى ، وانهزمت ايطاليا والمانيا واليابان ومن عاونهن من الدول وذلك بعد انحياز الامان واليابان في الحلفاء ست سنين واستيلائهن على معظم أوروبا وجزء من آسيا وبعض جزر المحيطات العظمى ، وكان الفضل في هذه الغلبة لانكلترا وثباتها في الميدان وحدها باديء بدء . تلقت ضربات جيوش الاتحاد الثلاثي أو دول المحور في أرضها ومستعمراتها بصبر عجيب حتى تيسر للولايات المتحدة الأميركية اعداد عددها لخوض هذه الحرب الزبون الى جانب بريطانيا العظمى وحليفاتها . وكان بعض سكان الاقطار العربية في غضون الحرب يمججون بأعمال المانيا الحربية ويقدررون علمها وبطولة رجالها ويمطفون على الامان وعلى دولتهم مع علمهم بأن من مصلحة العرب انتصار الحلفاء وانكلترا من بينهم خاصة ، وذلك لأن انكلترا في أشد أدوار استثمارها لم ترهق الاقطار التي استعمرتها كما أرهقت فرنسا والمانيا وهولاندة وبلجيكا وروسيا واليابان وايطاليا الممالك التي افتتحتها باسم التمدن وما هو إلا شر استثمار .

انتهت الحرب وما ربحت منها دولة في الحقيقة ، وقد صرف كل من الغالب والغلوب جهوداً عظيمة ، وفادوا بأجمعهم بالمال والرجال على ما لم يسبق للبشر مثله ، وكانت خاتمة هذه المأساة العالمية نفس الأميركي كان لليابان مدينتين بمن فيها بالقنبلة الذرية التي اخترعتها فعد عملها أنقطع عمل تجرد من الانسانية ، استخدمت فيه آخر ما عرف البشر من أدوات التدمير . لم يقتل في هذه الحرب أقل من سبعة عشر مليوناً من الخلائق وهو عدد

ما سجلت مثله أعظم الحروب . وكان ربح انكلترا من هذه الصفقة القضاء على تجارة المانيا وصناعاتها واقامة التوازن بين الدول الاوربية ثم نشأ من هذا اضعاف فرنسا وايطاليا وهو ربح قد يدوم عشرين أو ثلاثين سنة ثم تيجر بعدها عثرة المائر فيجد بجمع شمله في ظل السلام والسكينة .

أما الشرق فقد خادنته العناية وربح بتفكير رجله وتؤدثهم أرباحاً سياسية واقتصادية لا يستهان بها ومن أرباحه استقلال أندونيسيا (جزائر جاوة وصومطرا وما إليها) ونجت طرابلس وبرقة والاربتة والصومال والحبشة من الاستعمار الايطالي ، وخلصت سورية ولبنان من الانتداب الفرنسي مستقلتين استقلالاً كاملاً في ظل الحكم الجمهوري ، وراجت صناعاتها وتجارتها ، وفشت الثروة وامتد العمران في المدن على انقطاع الصلة زمن الحرب بالبلدان التي كانت تتفايض واياها حاصلاتها ومصنوعاتها .

نكتب هذا والمفاوضات لا تزال دائرة بين انكلترا ومصر للبت في المعاهدة بين البلدين ومفادرة الجيش الانكليزي الاراضي المصرية . وعسى أن تحصل مصر على جميع مطالبها من حليفها وتستقل بأرضها استقلالاً تاماً مع سودانها . وما برحت مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين معلقة في سماء الافدار ، والارهابيون من الصهيونيين يرتكبون أنواع الفظائع لمحاربة انكلترا بكل ما لديهم من قوة ، والاميركان يعاضدون اليهود سرّاً .

وقد اتخذت انكلترا من شرق الاردن مخفراً في وجهه البادية منذ استت هذه الامارة بمد الحرب العالمية الماضية ، وجعلت منها محطة حربية للإشراف على جزيرة العرب وما تآخها من البلدان ولا سيما ترعة السويس واقتضت مصلحتها ان ينادى بأمرير ذاك الاقليم ملكاً .

وخرج العرب من هذه الحرب بهذه الجامعة العربية ويرجي أن تسفر أعمالها عن نتائج سياسية ومدنية مهمة وان يطرد سيرها على أقوم سبيل ويزيد احتكاك الشعوب العربية بعضهم ببعض وأن ينضم غرب شمالي افريقية وامارات جزيرة العرب الى مجموعة الدول العربية التي تتألف منها الجامعة الجديدة.

برنامج مصر

كان برنامج حكومة اسماعيل صدقي باشا التي تولت هذه السنة الحكم في مصر مكافحة المرض والفقر والجهل وقررت عقد قرض بخمسين مليون جنيه لتصرف في الاصلاح النافع وفي الوصول الى تحقيق هذا البرنامج حتى يصح ما روى عن لسانه ان حكومته اشتراكية لانها تقصد مداواة هذه الملل . وما كانت حكومة مصر أكثر من حكومة ارسنقراطية ينعم بها واحد من عشرين من سكانها فقط .

ولو كان لي من الأمر شيء لأهبت بالحكومة المصرية أن تقسم في الفلاحين جميع أراضي الدولة الصالحة للاستثمار ، وان تباع الأرض القابلة للاصلاح من فقراء الفلاحين يصلحونها في مدة تمييزها لهم ، ولاستصدرت قانوناً يقضي بالآيلاك المالك أقل من فدانين ولا أكثر من مئة فدان ، ولقضيت بحل الأوقاف الاهلية أوقاف الذرية ، ولا كثرت من تأسيس ملاجي لابناء الفقراء أعلمهم فيها الصناعات الضرورية ، ولا نفقت جزءاً عظيماً من الموازنة على التعليم والصحة ولاخذت خمسة بالمئة من كل مال مجموع في المصارف وعند الشركات أقيم به أعمال الاصلاح على أمتن الدعائم ، وبعد ذلك أحظر التسول والكدية ، والزعم أهل كل قرية وحارة ومنزلة باطعام العاجزين عن الكسب . ثم تفتتح الحكومة ملاجي للعجزة والارامل يأكلون فيها وينامون ويتعلمون ما يتدرون على ممارسته من الصناعات .

قد يسارع بعض من يقرأ هذا الى انكار ما ارتأيت ، ويزعم أن هذا من الخيالات ويقول أن هذا الرأي ما خرج عن مبادئ الشيوعية وما هو بها في الواقع ، ويستحيل أن تقضي على الشيوعية الا بالاقتراب منها لعمل بالنافع من تعاليمها ، تقبى الجيد ويتعمد عما لا يلائمنا ، والا كان الأثرياء

ورجال المال عرضة لسهام الشيوعية قبل غيرهم من الطبقات . ولو كنت في النواب أو الشيوخ لرفعت صوتي لاقرار قانون تحديد الملكية وبذلك اخفف البؤس ما أمكن ، وأتقي ضربات الشيوعية التي تقع على رؤوس أرباب السعة نتائجها المؤلمة .

يكثُر في مصر والشام من يملك بضعة آلاف من الأُفدنة أو بضع قرى ومزارع وهو عاجز عن اصلاحها أو اصلاح بعضها ، وكان القليل منها يجزئه ويعيش به سعيداً . واني لأخشى اذا كتب الظهور للشيوعية في الشرق ان تنزع من أرباب الاملاك الواسعة أملاكهم ، فليس من العدل أن يظل مئات الالوف من الخلق لا يملكون أكثر من قوت يومهم وتتضخم ثروات الافراد على ما نرى .

هذه خواطر عنت لي وقد أكون في بعضها مخطئاً ولكنني أعتقد اني على صواب في أكثرها .



الرسالة بمصر

قال لي شامي قبح إنك تكثر من ذكر مصر ، وممظم أمثلك التي تستشهد بها
أمثلة مصرية كأن الاقطار الأخرى ليس فيها ما يستحق النقل والتمثيل . يريد
أن يغمزني من طرف خفي بأن وطني يجب ألا تنسى الشام . والواقع أنني لا أعمد
في ذكر مصر وأحبها كما أحب الشام ، واعتقد أنها قطران يتم أحدها الآخر .
وما شأني إلا شأن رجل له ولدان إذا دعا للاول وتمنى نجاحه ، فلا بأول دعاؤه
بأنه يدعو على الثاني ولا يهتم بامرء . ولقد كنت منذ القديم لا ألتصور عندما
أكتب إلا قائمة كل عربي ولا أحصر كلامي في مصر والشام ، ومنهاجي يتناول
الاقطار العربية جمعة ، ولكن المعلومات عن مصر كثيرة وإذا سارت حكوماتنا
على أثرها ، وجملتها قدوتها نفلح كلنا فهي أوفر سكاناً ونظاماً وحضارة وكما
زادت صلاحاً سرى الصلاح الى جيرانها .

رأيت الشامي أبرع في الصناعة والتجارة من المصري ورأيت المصري أقمد
في السياسة والتفنن في العلوم الحديثة والقديمة . وإذا شاعت المسكرات والخدرات
في مصر أكثر من الشام أنادي بالاقلاع عنها كما أنادي أهل بلدي في الابتعاد عن
لعاظيها . والبلدان في نظري سواء في هذا الشأن يهمني مجموع الامة ولا أخص
القول حين أقول بقطر دون آخر . وأنا إذا لم يطب لي هواء مصر كما يطيب هواء
الشام فلا أدعو الناس إلى الزهد في سكف وادي النيل ، ولطالما وددت لو هاجر
المصري إلى الشام بمعدل ما يهاجر الشامي إلى مصر ، وتمنيت لو يقلل الشاميون
من الهجرة القطعية من الاميركتين حتى لا تفقد أروضا الرجال الأقوياء . نعم أحب
أن تأخذ الشام حظها من السكان ويتسع صدرها للتجدد ولا أحب للمصري
أن يكون لبداء لا يفارق الارض التي ولد فيها ، وهذا ما أطلبه لكل بلد عربي
حتى يكون من مجموع العرب دولة عظمى فيها كل ما كان في الدولة الاموية مثلاً
من المقومات والشخصيات . ومن سعى إلى نزع الفوارق من بين الشعوب
العربية غير آبه للعذاهب أعواماً طويلة لا يفرق بين قطر وقطر وأهل نخلة ونخلة .

الحكم على الجواسيس

قويت الجاسوسية في أصقاعنا في العشرين السنة الأخيرة وغزتها الدول بالأموال ترسل كل دولة زبائنها على الأرجاء التي تحاول الوقوف على أسرارها ولا لعدم في كل بلد من يهوت عليه الانحلال في وطنيته مقابل ما يقبضه من مشاهرات ومعاونات .

كنت مع الجواسيس في بلية منذ عرفت بأنني افكر في الامور العامة وظللت ممتحناً بهم مدة عهد الترك وإلى أواخر أيام الفرنسيين ، وقبض لي بطول الممارسة ان مهرت في معرفتهم حتى كدت أنامس كشف ما تكنه قلوبهم ، وأنحس ما يرمون اليه بأسئلتهم . ومن التوفيق أنهم قلما ظفروا مني بخبر يتقربون به الى من انتدبهم ، وربما كان مرسلهم هو الذي أعد لهم السؤال ودلهم على اساليب كشف الاسرار ، وكنت اغالطهم وأضحك منهم واعاملهم في الاكثر بالسخرية وقد اتجهت لبعضهم وأخرجهم بالأسئلة لا صدم عن سؤالي ، فينقطعون عن غشيان مجلسي . وما كنت أطلب منهم اكثر من ذلك . وكنت في الأيام الحرجة اغلق بابي في وجوه من أشك في اخلاصهم ، ومنهم من أوهمه اني عرفته لا قطع رجله عني ، وأذكر له كراهتي لكل متجسس من باب (اقول لك يا كفة حتى تسمي يا جارة)

ولطالما أشرت إلى اصدقائي ألا يتوسعوا في الحديث مع غريب لا تعرف تربيته ، وحذرتهم عاقبه التبسط مع الجهولين وبذلك نجوت من أحابيل المنجسة وكذلك شأن من عملوا بطريقي . وبلغ من قحة الجواسيس مدة الحرب الأخيرة أن كانوا يسألون أولادي واصحابي عن رأيي في الدولة الغلانية أو الشعب الغلاني او في نتيجة الحرب . وكان التنبيه على خاصتي يسبق محاولة ارباب التجسس كشف اسرارنا . وقد الجأ اتقاء للشر الى التواري

عن الانظار ، والامتناع عن الاجتماع ببعض رجال السياسة اياً كانوا وكانت جنسيتهم . ومع هذا ما كان الحريصون على تسقط الاخبار يمتقدون على ما اظن الا ان ما آتته تقية وما اقتنعوا أن رجلاً اشتغل منذ الصبا بالسياسة يعود فيتركها وفيه قوة .

وكثيراً ما كانت فراستي تصح في الجواسيس ، ونثبت الايام اني لم أكن مخطئاً في حكمي على بعضهم ، واني جد مصيب في بغضي لهم واحتقاري لحركاتهم . وقد أخطأ بعض اصحابي في تغليب حسن الظن هؤلاء المتهمين في شرفهم ، وفيهم من وشوا بخاصة اجابهم حتى اردوهم حتفهم ، او ساقوهم إلى الاعتقال اشهرأ واعواماً . وتجلى ذلك كل التجلي لما وقعت حكومة سورية على سجل دواوين الاخبار وفضح امر الجواسيس الذين اعتمدت عليهم حكومة الانتداب من ابناء هذه الديار ، ومنهم الموظفون في اداراتها ، ومنهم من يدينون بنير المذاهب الاسلامية ، ومنهم المسلمون ومن بيوت معروفة ويا للأسف .

ولطالما قلت ان القواد اشرف من الجاسوس واقل شراً منه . والجاسوسية التي امقت اربابها هي التجسس للغريب على القريب بما ينفع الاول ويضر الثاني . وأما اخذ الاخبار لمصلحة الأمة او الدولة فهو عمل إذا التزم فيه تحري الصدق وخلو الغرض ينفع ولا يضر ، وهو ما كانوا يسمون من يعاينه في الحكومات الاسلامية (صاحب الخبر) وعليه يعمل في الحسك . ولا بد للجاسوس من ان يكون على صفات فطرية تؤهله لاستراق الاسماع وسرقة الافكار .

تخلف المصري في التجارة

من كتاب العمل لمصر للاستاذ محمود كامل : ثبت من تحليل احصاء عام ١٩٢٧ أن نسبة الملمين بالقراءة بالكتابة في مصر لاتعدى ١٢٦ في الالف بينما هذه النسبة تصل بين الاجانب المقيمين في مصر الى ٧٩٩ في الالف من مجموع هؤلاء الاجانب ، ووصف الاجنبي ينصرف الى كل من ليس مصرياً . فنسبة الملمين بالقراءة والكتابة مثلاً بين السوريين والفلسطينيين تبلغ ٧٠١ في الالف من مجموع أفراد هذه الجالية الشقيقة أي نحو ستة اضعاف النسبة الخاصة بالمصريين . وبسبب هذا الوضع الذي جرد المصريين من السلاح العلمي الذي يمكنهم من الكفاح في سبيل الحياة الحرة الكريمة ارتفعت غالبية الشباب المصريين من حملة الشهادات قبول الحياة داخل مكاتب الوزارات والمصالح الحكومية في مقابل مرتب ثابت تافه . وهي حياة ذليلة راكمه تقطع روح الابتكار ، والاغلبية الماحقة من حملة الشهادات لطرق باب الوظائف الحكومية وتفلق بمجرد دخولها عقولها عن كل تفكير في كفاح أشرف ، وحياة أرفع ، ورزق أرغد ، وتجد نسبة المشتغلين بالتجارة بين المصريين لاندو ٣٦ في الالف لمجموع المصريين بينما هي بين الاجانب تصل إلى ١٥٥ في الالف لمجموع الاجانب أي أكثر من أربعة اضعاف العرب

هذا حكم مصري عارف على قومه وعلى عجزهم في التجارة وكنت منذ مدة أقرأ شيئاً على صاحب لي من علماء مصر وهو ممن تولى الوزارة بمد حين ، فكان مما تلوته عليه لاأخذ رأيه قولي أن الشامي والايطالي واليوناني واليهودي أقدر على معاناة التجارة من المصري . فانكر عليّ رأيي وأظهر الدهشة من صراحتي . ثم اطلمت على احصاء عملته احدي الصحف المصرية الكبرى في سكان شارع واحد من شوارع

القاهرة وهو شارع سليمان باشا عددت فيه حوانيته ودوره ووكلاته ومن يملكها ومن يسكنها ونوع التجارة التي تتعاطى فيها فكان حظ الوطني من كل ذلك ضئيلاً جداً لا يزيد على سبعة في المئة .

ليست الوطنية باخفاء العيوب الماثلة في الوطن ، ومن علائم الوطنية الا تكتم الحقائق التي تحمل عبء وقد قلت في فصل آخر أن من يجب بلداً يحض اهله النصح ولا يخفى على أبنائه ما اذا غضوا الطرف عنه يؤذيهم ويورثهم ادواء يمسر فيما يمد علاجها .

ولطالما اعترضت على القانون المصري الذي يفض عن التاجر المفلس فيمكنه من فتح محل تجاري باسم مستعار غداة تقرير المحكمة افلاسه . وقد رأيت أشخاصاً من المصريين والجالية الاجنبية اعتنوا بتكرار اعلان افلاسهم السوري فكانوا كل مرة يأكلون أموال دائنهم هنيئاً مريئاً تحت رعاية القانون ويمودون بالصفقة الراجعة بهذا الاحتياال .

ولذلك كان معظم التجار الكبار في مصر من غير المصريين ، والاجنبي بما تقلده من سلاح المعرفة يفوز كل سوق ويفوز بالربح الوافر وينازع الوطني في التجارة منازعته له في الصناعات ، وفي باب الزراعة يملك جزءاً عظيماً من أطيان القطر ويديرها أحسن إدارة .

كتب أرباب الافكار من المصريين في هذه الموضوعات كثيراً ، وتفنتوا ماشاءت قرائحهم في تحذير مواطنهم عاقبة الاسترسال فيما لا يجدي عليهم ، وأنا ألقى دلوى في الدلاء ، ومن الذوق ألا أنسب إلى الفضول والى التدخل في مسائل لا تعلق لي بها مباشرة . وأرجو على كل حال ألا يشق انتقادي على الوطنيين من المصريين ، فقول الحق لا يؤذي والمؤذي تضليل العقول والسكوت عن اصلاح العيوب .

عجز وكسل

قال لي صديق مصري نقاد أنه شاهد في عشية باردة من ليالي كانون
حول حديقة الازبكية بالقاهرة سرباً من الأطفال ينامون وایس علیهم
ما یقیم أذى البرد والشرطي یضربهم بحذائه بدون شفقة ، یطاردهم كما
تطارد الكواسر والجوارح . ومن الغد قرأت في بعض الصحف الافرنجية
التي تصدر في العاصمة أن شرطة مصر قبضت خلال السنة الأخيرة على
٨٦٠٠ متشرد ثم امتنعت من قبول من كان على شاكلتهم لقلة ما لديها من
الأمّاكن لایوائهم . وقد وصفت صحيفة افرنجية اخرى أكواخ الفقراء
القدرّة العارية من كل ما یحفظ على نازليها صحتهم ، وقالت انها على
قید غلوة من تلك الجادات العظمى والقصور المنيفة والمصانع الفخمة في
القاهرة والاسكندرية وبعض مدن الأقالیم ، وتمت لو أن الحكومة ابتاعت
تلك العیش وبنت للفقراء أحياء جديدة في الضواحي . وذكرت هذه
الصحيفة بعد يوم ما صادف التذرع باصلاح حال الفلاح من الخیمة وقالت :
اختلفت الطرق في معالجة أمره فمن قائل ان الامراض أكبر عامل في
تأخره ، ومن مؤكد أن المياه الملوثة والبيوت القدرّة والغبار هي من
مهلكاته ، ورأى أحدهم أن تبني له قرى نموذجية یضطر بعد حين إلى بناء
مثلا بنفسه ، ومن قائل إن الحشیش هو علة الملل في ضعفه ، وقال قليل
من المصلحين إن الواجب أن يبدأ بتعليم الفلاح وأن تشاد له مدارس ريفية
وأن یجعل التعلیم الابتدائي اجبارياً إلى غير ذلك من الآراء التي أدلى بها
أرباب المدارك . وقد ذهب ماكتبوه ونشروه في الهواء كما ذهب مشروع
الحفاء والكساء .

ومن یعرف مبلغ مصر من النفي وما لديها من الرجال والأدوات اللازمة

للتغلب على هذه النواقص لا يرى ما يبدو من التقصير إلا أثراً من آثار العجز والكسل . وموازنة كادت تبلغ مئة مليون جنيه لا يضيرها اقتصاد بضعة ملايين تؤخذ مما ينفق في البذخ والترف وتصرف في الضروري الحاجي . ويسرني ما تراسى إليّ من أخبار القاهرة أن وزارة الشؤون الاجتماعية اعتمدت مليون جنيه لإنشاء مآوي للأطفال وإذا املتق الهمة بتنفيذ هذه الفكرة لا تأتي أعوام قليلة حتى لا يرى متشرد في القطر ، وينقلب كيانه من فقر ومرض وجهل إلى شيء من السعة والصحة والمعرفة ، ويتم إصلاح الكساء والحفاء من ذاته بدون لعمل كثير ، وإني لأخشى ، والفقير لا يُنظر إليه بعين العناية اللازمة ، أن يأتي يوم يطالب فيه بمستوى من العيش أرقى من مستواه ويهجم على النقيض لمسلبه ماله وقراره ، ومتى زال الوم عن البائس يجراً على خرق القوانين ، وفي ذلك البلاء العظيم . نسمع كل حين في مصر نفثات جديدة تولدها غيرة المفكرين ، ثم لا نلبث أن نحفث نعمتها بخافة ولا يماود أحد ذكرها . وهذه مسألة الفلاح هل تمّ فيها على يد الحكومة والأهلين حتى الآن ما يوازي بعض تلك الضجة ؟

في مصر نشهد إسرافاً دونه كل إسراف وإمساكاً ثقل له الأمثال في الأمور النافعة ، أنا لا أفهم المغالاة في إقامة التزيّنات تصرف فيها عشرات الألوف من الدنانير وألوف من الأطفال يمرضون ويموتون ويحجوعون ويمرضون ويموتون . ولا كيف ينعم مئات ويشقى مئات الألوف . معظم أبواب الصرف في الحكومة المصرية معقول والالتزم منها توفير الماء النقي للفلاح والعناية بصحته وتعليمه وتوجيهه .

أعود فأقول إني أخشى على مصر من الدعايات السياسية الهدامة ، ولأجد الحالة الحاضرة تدوم كثيراً . إن مصر تحارب هذه الدعايات منذ ظهرت في العالم ، واليوم تزيد في كفاحها من غير هواة ، ولكن من بمصمها من تسرب ما يضر بكيانها إلى مدى بعيد ، ومن يضمن لنا ألا ينفجر الرجل

ذات يوم فيأتي لهيبه على الأخضر واليابس ؟ من الأمور ما يتعذر تلافيه
ساعة الخطر ، فحري بأهل البصيرة أن يتداركوا الأمر قبل استفحاله .
فقد خرجت حالة مصر في توزيع الثروة بين السكان عن حدود العقل ،
ثم هي تبذر المال في أمور قد يستغنى عنها ، ولشح في أشياء فيها كل الخير .
في مصر من الرفاهية ما لا يكاد يوجد له مثيل في العالم ، وفيها من
الفقر ما يتعذر لصور أكثر منه .



الفضول

ذكرت رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية في خطاب خطبته في المؤتمر الاخير (١٩٤٦) بما كان من أمر تعريب الفاظ الجيش المصري وكان المجمع شرع في هذا الامر المهم ثم سكنت عنه ، وقلت إن مصر قصرت عن العراق والشام في هذا المعنى . وقد عرب هذان القطران أكثر الفاظ الجيش تركيها وافرنجها ، فقال رصيفي الدكتور فارس نمر باشا . لقد صرف النظر عن تعريب هذه الالفاظ لأن جهة عالية لا تريده . وسألته من الغد ومن يكون هذا الكبير الذي حال دون انقاذ اللغة العربية من مئات من الكلمات الاعجمية ، بعد أن تم كل شيء للخلاص منها فسمى رجلاً ذا مقام سام فاستغربت صدور ذلك منه ، وسألته عن حجته في العدول عن هذا التعريب فقال إنه يزعم أن هذه الالفاظ التركية المتأصلة في الجيش المصري هي من تراث أسرتهم فلا يجب أن يعث بآرث أهله ولا أن يجيء المتأخر بنقض ما بناه المتقدم .

وعندي ان الغيرة على الجيد من أعمال الاجداد تكون بإحياء سيرتهم ولا معنى للتعصب للغة ذهب من عشرات السنين سلطان أهلها من القطر وصارت فيه الكلمة الفاصلة لاصحاب البيت ، ولقنهم غير تلك اللغة . وقد رأينا جلالة فاروق الاول ملك مصر لما قبض على زمام ملكه يمنع التكلم بالتركية في قصره ، وكانت قبله شائعة ، لان مصر عربية والجالس على عرشها عربي فلا يليق ببيته أن يتكلم لغة طوت الايام من فرضوها على غيرهم يوم كانوا هم أصحاب السلطان ، ونحن الآن لاتربطنا بهم صلة سياسية ولا ثقافية ولا لغوية ، وما نسينا احتقارهم للحروف العربية ولكل ما هو عربي ، وزهدم في لغتنا وفتحهم الابواب لدخول كل لفظ اعجمي في لغتهم .

اعطاط المسلمين

أحزنني ماقرأت في جريدة (أخبار اليوم) لمراسلها الانكليزي في لندن من أن بين الاثني عشر مليوناً من سكان إيران عشرة ملايين يحسبون من الجبايع الاميين وثمانية مصابون بالزهري وربع الاطفال يموت قبل مرور العام الاول من ولادتهم . ومساحة إيران أكبر من مساحة اسبانيا وفرنسا والمانيا وان التي عائلة ثرية هي التي تملك الاراضي ومنهم الوزراء والبرلان وقادة الجيش ومعظم رجال الحزب الشيوعي . كلام فيه مبالغة وفيه حقيقة ، واذا أضفنا إلى ذلك ما نعرفه من كثرة تفشى الافيون فيهم ندرك ما صارت اليه هذه الامة من الانحلال . وكانت قبل الاسلام وبعده آية في نظامها وأحكامها وصناعاتها ومدنيتها .

هذا ولا يزال التمسب الديني ينهك قوى فارس وما أتى رجال الدين فيها لمهدنا شيئاً يعتمد به في اصلاح الاخلاق ، ولا انتصبوا للحد من ظلم الملوك عندهم . وما نسينا الشاه البهلوي كيف وضع يده على أملاك الناس وسكنوا عنه ، وفي مقدمة الساكنين مشايخهم وزعمائهم . وفارس في الرسميات أمة دستورية تتضاد فيها سلطة الفرد المستبد أمام سلطة الجماعة وما تخال هذه الصورة المغرية في إيران الا نموذجاً ساروا فيه على طريقة الكالين من الترك في التهريج والدعاية . ولو قد ظهرت الحقائق في الملكين بصورتها الناصحة لكان من ذلك ما يدعو إلى خيبة الآمال من اصلاح يتولاه شرقي مسلم . وليس من ينكر أن الانراك والفرس نهضوا في العهد الحديث وأنهم ارتقوا في سلم المدنية بمض الرقي ولا يسعنا أن ننكر أيضاً أنهم ظلوا متخلفين عن الامم الراقية في أشياء جوهرية . وقال لي من اتق باخبارهم من العرب والافرنج ممن سكنوا سنين في

ايران ان حكومتها لانهم إلا بالظواهر وكثيراً ما تصرف وقتها ومالها في التافهات . تفتح مثلاً شارعاً في قرية بمرض خمسين متراً ولا تفكر في ان تصلح طريقاً ينجي منه السيل كل سنة فيأتي على عشرات من القرى يحطم أشجارها ويفسد زروعها ويفرق من سكانها وحيوانها . ومن ذلك ان حكومتها تنفق كثيراً في الكماليات وتمجز عن اسالة ماء طاهر في انابيب تسقي عاصمتها طهران . وما برحت المياه الملوثة تحمل الامراض لسكانها والطبقة العالية يحمل اليها الماء في صفائح ترسلها شركة أجنبية من مكان سحيق . قالوا ومعظم رجال الحكم والسياسة يقامرون ويشربون وبصرفون أوقاتهم في اللهو والمجون، على نحو ما هي اخلاق بعض حكام اهل الاقطار التي تمدنت في هذا الشرق القريب وإذا كانت أخلاق الأئمة على هذا المثال في التفسخ فماذا تكون أخلاق المؤمنين ؟ ومن بلغ من الضعف الى هذا الحد لا يرجى منه خير لمصلحته ولا لمصلحة قومه .

أكتب هذا وان قلت صلته بحسب الظاهر بالمذكرات وهو بتعليقات الصحف اليومية على الحوادث أشبه . وما زالت منذ الطفولة إذا قرأت كتاباً لرجل نشأ في فارس يذهب بي الفكر حالاً إلى حالة دولة المعجم اليوم وما هي عليه من الانحطاط المشهود بعد ذاك الارتقاء المحمود . وهذا يكفي ان يشفع لي في ان اعرض لهذا الموضوع مادام جزء كبير من حضارة الاسلام والعرب قام في أرض تلك المملكة العظيمة ، وفارس امس وفارس اليوم عضو متمم لهذا الجسم الكبير .



مشيخة الأزهر

لما خلت مشيخة الأزهر ب وفاة شيخه العلامة المراغي تطلع بمض جماعة كبار العلماء لهذه الرئاسة وحدثت مشادة بينهم وبين الحكومة ، هذه تحب توسيد المنصب لرجل رأّت فيه الصفات المطلوبة لسياستها والعلماء يدعون أن قانون الأزهر يحظر انتخاب مرشح من غير جماعتهم وقانونهم يشترط في الشيخ أن يكون أزهرياً درّس في الأزهر خمسة عشر عاماً ، وصرحوا أن مرشح الحكومة وإن كان أزهرياً وعلم سنين طويلة فإن تدرّسه كان في الجامعة المصرية لا في الأزهر إلى غير ذلك من الاعتراضات فلم تر الوزارة إلا أن تعتمد على تعديل نظام الأزهر حتى لا يبقى للظاميين في رياسته قول يقولونه ، وعينت بذلك مرشحها الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للإسلام . وهذا اللقب يطلق على صاحب هذا المنصب الخطير من القديم . ولما حظى الشيخ الجديد بالثول بين يدي جلالة ملك مصر التمس منه أن يعفيه من لقب الباشا الذي كان أنعم به عليه حين كان وزيراً للأوقاف واكتفى بلقب شيخ لقبه القديم منذ نخرج من الأزهر . وهو اللقب الذي ما كان قديماً أصحابه يألّفون غيره في مناداتهم له وخطابهم إياه . وهكذا أصبح يلقب بصاحب الفضيلة وكان بالامس يلقب بصاحب العالي ، كل هذا قشور في الحقيقة ، والمهم في الأمر أن يوفق الشيخ الجديد إلى إصلاح الأزهر إصلاحاً فعلياً والا فيكون كما كثير شيوخته ينعمون زمناً بهذه المظاهر ويمتنعون بالرواتب الضخمة ويتركون مناصبهم بعد ذلك بدون أن تعرف لهم مائدة تذكر في خدمة الإسلام والمسلمين .

عمريت ذو شعب

نشرت الاهرام لمراسلها في باريز (٩ فبراير ١٩٤٦) لصريحات زعمت انه أفضى بها شيخ الجامع الازهر الاستاذ مصطفى عبد الرازق (لمكاتب جريدة (الموند) الباريزية قال فيها ان فرنسا اكتسبت لنفسها مكانة ممتازة بما بذلته من الجهود الكريمة في الحقل الثقافي خلال العالم الاسلامي وانه يرجو ألا تتخلى عن تقاليدها لكي تحتفظ بما يمكنه لها العالم الاسلامي من حب . هذا الحديث ذو شقين أحدهما صحيح في الجملة والآخر ليس كذلك في التفصيل . أما أن فرنسا بذلت جهوداً في ثقافة العالم الاسلامي فهذا صحيح من بعض الوجوه وان كانت الاغراض التي ترمي اليها من وراء ذلك ظاهرة معروفة وقد أنت في هذه السبيل ماثباته كل دولة استثمارية فكان من مدارسها خير وشر . أما الشق الثاني فهو الذي ترد على عدم صحته براهين كثيرة . نظرة في حال مسلمي شمالي افريقية وأهلها الذين اختلطوا بالفرنسيين كثيراً ندرك بها هل يجب أهل مراکش والجزائر وتونس فرنسا أم يكرهونها كراهة ليس بمدى كراهة . وكيف يحبونها وقد اغتصبت أراضيهم من أيديهم يوم دمرت على ديارهم وأعطتها للمستعمرين من ابنائها . وسعت منذ وطئت أرض الجزائر في سنة ١٨٣٠ أن تحل جامعتهم وتقضي على لغتهم ثم حاولت أن تخلصهم بجنسيتها وتلقنهم تربية لاتبقى على مشيختهم . وليس في مسامي تلك الاقطار ولا سيما في الجزائر الطويلة العهد بحكمهم من يعد من عطاء الرجال في العلم والسياسة والفنون على نحو ما ترى في مصر والشام مثلاً وليس لهم من الثروة ما يعد شيئاً بالقياس الى ثروة أبناء هذين القطرين بل أن مستوى المعيشة فيهم أقل من مستوى المعيشة في أحط الاقطار العربية . فالقول بان

العالم الاسلامي يكن " لفرنسا الحب بعيد كل البعد عن الواقع فان ما جترحته
فرنسا في سورية من التدمير والقتل في السنة الماضية مازال ماثلاً للعيان
وكلا ذكر ترتجف منه الاعصاب .

ولقد أكد لي أحد العارفين أن مكاتب الجريدة حرف كلام الاستاذ
الاكبر وبادرت فرنسا باهدائه وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الكبير
وما ادري ان كان المهدي اليه قبل هذه الهدية . وقد احدثت هذه التصرفات
ضجة في الصحف المصرية والشامية وسكت صديقنا الشيخ مكرهاً
على ما يظهر .



طمس الحق

قال لي صديق عزيز عليّ أنه قرأ كتابي الاخير (دمشق مدينة السحر والشعر) وكان يود لو أغفلت ذكر ماقامت به فرنسا من الاصلاحات في سورية في عهد الانتداب فان تسجيل ما سجلت وان كان حقاً هو مما يضر بنا ، وما كل حقيقة تقال . هذا رأي اشبه بآراء رجال السياسة والناقد الحبيب منهم . أما المؤرخون فقلما يجوزون السكوت عما يستقدون انه الصواب ، وقول الحق من أم شروط المؤرخ والتاريخ يسجل الخير والشر ثم إن من غمط حق عدوه كان حرياً أن يهتم بالمصيبة لصديقه ومقترف ذلك يزيل بصنعه مسحة انصدق من كلامه ويفقد ثقة الناس ويكسب سبة الدهر .

الفرنسيون في آخر أيامهم في الشام أساءوا اساءة ليس بمدى اساءة قذفوا مدناً بمحرمهم قتلوا الابرياء وهدموا البيوت وأنوا على المصانع فانكر العالم وانكر عقلاؤهم هذا العمل المشين ، ومضاف هذه الاساءة على جريمة جنون اهل الغرب في هذه الحرب . وكل هذا لا يستلزم أن ننكر ما تم على أيديهم من الاصلاحات في الشام أيام اقتدابهم عليه . وقد ارتكب الفرنسيون سبة أعظم في الاثر من القتل والتدمير ، ارتكبوا المار بافساد الاخلاق بنشر الجاسوسية بمقياس واسع وجعلوا من بعض التلامذة والمعلمين جواسيس نمامين . واغرقت فرنسا في جاسوسيتها فتسكات لاتقر تبيين آذن أو فراش الا إذا شهدت دوائر الاستخبارات بحسن خاله ، والويل لمن كان في جزازته الخاصة شيء لا يرضيهم من سيرته ، فانه يحارب في رزقه ويبقى من المفضوب عليهم حتى المات والفرنسيون أجزموا في العهد الاخير مع انفسهم فلا يتوقع منهم إلا أن

يجنوا على غيرهم ، ومع كل ما أتوا ليس هناك ما يحول دون قول الحق فيهم
فبما احسنوا .

وهذه المناسبة شهدت بعض من يشتغلون بسياسة سورية لم ترضهم
بعض المواضع من كتاب دمشق فانا أقول لهم ان هذا ما عرفته ورأيت
النفع في تدوينه ، فاذا كانت غيري يعرف غيره فليبادر الى نشره .
ولا يلزم المؤلف أن يرضي بتأليفه كل الطبقات فـللسياسيين منازع لا أقول بها
ولا أحب لنفسى أن أكون لهم بوقاً ولا أجوز ان اخدم أفسكارهم واغضب
الحق . أوؤلف لنفسى ما اعتقد نفعه ، فاذا كان في أرباب المناصب السياسية
من يمتقدون أنهم أهل لعمل شيء من هذا القبيل فليبرزوا للميدان
فيحكم العقلاء لهم أو عليهم . أما تسخير أفلام الاحرار لاغراضهم فامر متعذر
عليهم وعلى غيرهم .



المرين النصيب

دفع إلي صديقي الاستاذ عبد الملك الخطيب باشا صورة مذكراته السياسية وفيها كلام عن صلته بالبيت الهاشمي ، وما شهدته من احداث الحركة العربية خلال الحرب العامة وبمدها ، وما دار بينه وبين الملك حسين بن علي وابنه الملك فيصل من الرسائل . وقد حملة جميل وفائه ، وفرط أدبه علي أن يعرض لذكري بالخير ، ويشير إلى ما كان من نصحي له أيام كان الشريف حسين ابن علي اميراً على مكة المكرمة أواخر أيام العثمانيين . وكان أعداء الأمير من الاتحاديين الاتراك يعتمدون لسويد صحيفته ويصفرون من شأنه ويلقنون العرب بفضته للترويج لسياستهم ، فسرت اختلاقاتهم إلى بعض أبنائنا من حيث يدرون ولا يدرون . وذكر السيد الخطيب ما كنت أعمد إليه ، وأنا في رئاسة تحرير جريدة المقتبس في دمشق وهو في مكة يرسل مقالانه عن الحجاز ، من ادخال بعض التعديل في عباراته حتى لا يكون منها ما يتأذى به إذا نشرت كما كتبت أول مرة . ذلك لأن النقد المعتدل أقرب الى سلامة كاتبه ، وأدعى إلى تأثير كلامه في الافكار .

ولما جاء السيد عبد الملك دمشق ، واطلمته على ما كان يتعذر اطلاعه عليه بالمكاتبه ، ووقف على مراحي الاتحاديين اصحاب الحكومة ، وعلى ما كانوا يقصدونه من حملتهم ونحاملهم على الأمير ، وهو الرجل المرحي يومئذ للنهوض بالعرب ، انتبه صاحبي لما يحاك لقومه من الدسائس ، وعاد الى الحجاز مزوداً بوسايل للأمير مني ومن بعض أصحابي وأصحابه ، طلبنا فيها رضاه عن ابن الخطيب فنفذ واستجاب للمتمسنا ، وما زال يمطف عليه حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ، ونودي بامير مكة ملكاً على الحجاز أو على العرب كما كانوا قالوا أولاً ، وأرسل ابن الخطيب إلى مصر معتمداً سياسياً له ، فتيسر له

الاختلاط برجال السياسة من البريطانيين والمصريين وغيرهم وأفاد من هذه
المشورة . ولو لم يستمع ابن الخطيب للنصح يسديه الصديق مخلصاً لظل في ارض
الحجاز مغموراً ولطمس ذكاؤه وعفت مواهبه ، ولما قام بما يندر في الحجارين
إذ ذاك من يحسن الاضطلاع به من العمل لخدمة القضية العربية ، وثمرة
التعقل في الحكم على الامور جنية شبيهة .

رأيت المستنصحين على ثلاثة ضروب ضرب يقبل نصح الناصح بدون
مناقشة ويشكره عليه ، وآخر يقبل بمضه ويفقل الآخر ، وثالث لا يقبل
من النصح ما يخالف هواه ، وربما هزأ بالناصح وعاداه . وفي الناس من
لا يراخون اكلامك إلا إذا وافق ما في نفوسهم ، ولا يسرم الا كلام من
ينفسهم ويراثهم . وقد وقع لي أن نصحت لبعض من استنصحوني فنجوا
من سقطات كان فيها لو لم يعملوا بالنصيحة افلاسهم أو حتفهم ، وعهدي
ببعضهم يمضون أصابعهم ندماً على كضييهم الحزم وعصيانهم على النصح . ومن
يزدرون بآراء أرباب التجارب هم في العادة من الخاسرين .



غلط غير مقصود

« وان قارئه ليتبين أنه يعنى بتخير الالفاظ وبجزالة الاسلوب عناية تتجاوز المؤلف حتى بين الادباء . وكانت يسمفه في ذلك سمة علمه باللغة ومفرداتها ، وربما دعاء تبخره فيها الى إثبات الغريب حين يجده أحسن اداء أو اصح وضعاً . وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها ، وقد يرميه البعض بالشدد ، ، هذا ما قاله رجل من أكبر رجال القانون في مصر الأستاذ عبد الحميد بدوي باشا في رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الأستاذ محمد توفيق رفعت باشا يوم استقبله المجمع بصورة رسمية عضواً فيه خافاً للرئيس الراحل . وهي شهادة لا تصدق على ما كان عليه الرئيس الماضي من المعرفة . فقد عرفته منذ انشاء المجمع فما تجبلى لي بهض ما قاله المصو الجديد فيه ، وعجت من رجل اشهر بنزاهة أحكامه كيف يجمّل صاحبه على هذه الصورة ، وما اوقعه في هذا الغلط إلا أن القاضي الكبير خدع على ما يظن بما قرأه لصاحبه معزواً اليه من الخطب الرسمية في أخريات أيامه . وما كانت هذه الخطب في الحقيقة إلا من انشاء الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري كاتب المجمع ، وهذا الوصف في اختيار جزل الالفاظ والتوسع في اللغة يصدق عليه لا على الرئيس . وكان كاتب المجمع أو المراقب الاداري كما يسمونه يكذ قريحته ويكتب لرئيسه وهذا يوقع .

إذاً لقد اشتط القاضي في حكمه على سلفه ، وأنت سقطة من اغتراره بما قرأه له مرقوماً باسمه ، والظاهر ان رجال القضاء يعتمدون على النصوص فيما يعرض عليهم فيعملون بموجبها ، والفتوى عندهم على قدر النص . وقال بعضهم ان صدور مثل هذا الحكم من قبيل المجاملة ، وأي مجاملة تصح في العلم ؟ أما المترجمون للرجال فلا يصدرن أحكامهم قبل أن يقدروا

ملابسات أخرى فينظرون في جملة ما ينظرون فيه الى بيثة الرجل واوليته وحليته وتآليفه ومقالاته . وكل ذلك لم ينظر فيه القانوني الكبير على ما يظهر ومرّةً مسرعاً فيما وقع عليه من خطب معزّوة الى الرئيس في مجلة مجمع اللغة العربية . ومثل هذه الغلطة التي ساق اليها الاغترار بالظواهر يرتكبها اعظم المتحرّين للحق ، والدرم الزغل يجوز على الصيرفي الخاذق .

وقد وقع من هذا القبيل على الايام تلفيقات نال بها من الصقت بهم شهرة مزيفة كانوا بها مدينين لمن هيأها لهم ، وكان فيها الكاتبون غير الموقعين والموقعون يجهلون أحياناً حتى ما يصدر باسمهم . وحدثني من أثق بهم من أدباء المصريين أن رجلاً من أبناء اعيانها لا يزال يستكتب مقالات وأقاصيص ينشرها في الصحف والمجلات وهو لا يحسن الكتابة ، يكتب له باجرة ، حتى اشتهر عند القراء بأنه كاتب ظريف ، وما هو من الكتابة في العير ولا النفير . قال واصيب هذا الوجه مرة بمعارض جنون وشفي بعد حين ولم يشف من داء الشهرة يصيبها من كتابات يمزوها اليه من يطمع في ماله فيخذه ويخدع الناس به .



منارة أفندق

اعجبت بثلاثة من رصفائي أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة الحاخام حاييم ناحوم افندي والدكتور فارس نمر باشا والاستاذ عبد العزيز فهمي باشا . اعجبت بثباتهم على الحضور . كف بصر الأول وما كف على شيخوخته وهو في عشر الثمانين عن أن يحمل نفسه على حضور الجلسات . وابتلي الثاني بمرض في المثانة مع الصمم الشديد ولا يزال وهو في عشر المئة يشهد الجلسات ويرأسها إذا تغيّب الرئيس بوصفه اكبر الاعضاء سنًا أما الثالث فهو أكثرهم عناية بعمل المجمع يدرس المسائل المعروضة درس تدبر قبل ميعاد المناقشة فيها ويبحث فيها بحث البصير وان لم تكن داخلة في اختصاصه يعمل هذا حباً بالعلم وتقانياً في اداء الواجب . وما أضعف مرضه تفكيره ولا حط من قواه . وعلى شيخوخته وهو في عشر الثمانين لا يتخلف عن شهود جلسات المجمع وجلسات المؤتمر السنوية . وهناك أعضاء لا يحضرون الا نادراً ومنهم من لا يحضر أبداً ومن الاعضاء من هم في مناصب كبيرة لا تسمح نفوسهم بالتخلي عن عضوية المجمع ولا تسح أوقاتهم لاعطائه حقه من دوام وعمل . وفي أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق مثال من أعضاء مجمع القاهرة ، ومن أعضائه من يطرد دوامه ويعمل بدمة ونشاط ومنهم أعضاء لا يحضرون ولا مرة في السنة ومنهم من لم ينفوه بادنى نفع لا يؤازرون في مجلته ولا يحاضرون في ردهته ولا يشهدون جلساته واكتفوا باللقب الذي أقادهم في معنوياتهم وماديّاتهم ومثل ذلك يقال في الأعضاء المراسلين في الشام ومصر . وكان أعضاء العراق من المبرزين فانهم قاموا بواجبهم نحو المجمع العلمي العربي بل بواجبهم نحو لغتهم وامتهم .

عيدنا الوطني

احتفلت دمشق عاصمة جمهورية سورية يوم ١٦ جمادى الاولى ١٣٦٥ (١٧ نيسان ١٩٤٦) بعيد جلاء الجيش الفرنسي عن اصقاعنا واشتركت في هذا المهرجان مصر والعراق والمملكة السعودية (الحجاز ونجد) واليمن ولبنان وشرقي الأردن . شاركتنا في عيد استقلالنا الذي فقدناه في اليوم الذي فيه قتل الملك الظاهر بيبرس البندقداري آخر رجل من سلالة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقبض على زمام الملك ، وأسس دولة المماليك ، وظللنا في أيام هذه الدولة وفي أيام الترك العثمانيين ثم في عهد الانتداب الفرنسي امة محكومة يتولى أمرنا ولاية من غير جنسنا وأحياناً من غير أهل نحتلنا ، ويسن قوانيننا غيرنا وقد يسنون ما لا يلائمنا ، وضعت فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة الحكم وملكة العلم ، وانحططنا في أخلاقنا وبياتنا وتفكيرنا وصناعتنا ، وانفجرت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن اختها لا تشاركها في غير الهواء والماء ، وكان من الطبيعي في هذا المجتمع المنحط أن يأكل القوي الضعيف ويغدو رجال الدين ورجال الدنيا أشبه بالعامية في أفكارهم وان تفرق البلدان في تهور الجهل المركب ، وكانت اذا هبت تتلمس سبل النجاة لا تهتدي الى سلوكها . فحق الامة ان تبالغ بالاحتفال لهذا العيد ، عيد الاعياد ومبدأ سعادة الابداء والاحفاد .

ولقد أتى رئيس جمهوريتنا غرامة السيد شكري القوتلي في خطابه ذاك اليوم السعيد على مجمل ما عانته الامة من الآلام حتى بلغت امنيتها وذكر بالخير من شاركوا في هذا الجهاد ، ونسي فئة صالحة كانت من العاملين الممتازين . ونحن لانومي هنا الى من لم يكونوا مع الثائرين في وقت من الاوقات ، بل الى من كانوا مع الثائرين من البداية الى النهاية . وكانت

عين الرضا متجلية على كل من حمل السلاح ، أما من شقيت حياتهم في اعداد الافكار للثورة الحقيقية ، ومهدوا السبل لانارة الافكار ، وجاهدوا سنين حتى لقنوا الامة معنى الوطن والوطنية والعرب والعربية فهؤلاء لا حظ لهم من التنويه لانهم ما حملوا السلاح .

ومما قال الرئيس الأول اننا نطوي اليوم صفحة الجهاد في سبيل استقلالنا لنفتح صفحة الجهاد لصيائمه وقد تكون صيانة الاستقلال أشق من الظفر به . وهذا كلام يجب الا ينساه كل وطني فالجهاد الذي ندخل فيه اليوم اصعب من الجهاد الذي كنا فيه ، وإذا قام كل واحد منا بواجبه ننهض في سنين قليلة نهضة لا يصل اليها شعب في أجيال ، ذلك لان أسباب النجاح متوفرة لدينا ، تربتنا خصبة وتربيتنا تحتاج الى تمهيد فقط .

ومن أول ما يتحتم على رجال الجمهورية ان يحسنوا اختيار العمال ويتشددوا في مراقبتهم يختارون الأطايب من دون نظر الى حزبيتهم ونحلتهم ، لا يقربون ذوي القربى ، ولا يصانمون في توسيد زمام الحكم الى من يرضون عنهم ، وبذلك ننجو مما كنا نشكو منه وننسبه للدخيل ، وعلينا يقع جزء عظيم من التبعة في الماضي كما تقع علينا كل التبعات اليوم .

نحن لا ينقصنا شيء من أدوات النهوض الا بعض الاختصاصيين في الفنون والصناعات نجلبهم من الامم التي سبقتنا الى التمدن ريثما يتخرج في ذلك أبناؤنا . وقد رأينا طالع هذا في بعض ما نظارنا فيه من المصالح العامة . فواجبنا على اي حال أن نسير بتعقل في اصلاحنا وننبذ الاسراف وتوخي صرف أموال الدولة الا في طرقها المنتجة .

عن الواجب

لو أحس كل فرد بالواجب عليه لمد بلده سميماً وأهله من أهنا الخلق ، ولو انصف الناس انفسهم بانفسهم لقلت حاجتهم إلى الوازع ، ولما احتاجوا كل ساعة إلى من يهيمن عليهم ، ولو انعدمت صفاقة الوجوه ما ادعى كسول بعد الهمة ، ولا مهمل فرط العناية ، ولا جاهل فضل العلم ، ولا طماع مقامات الزهد ، ولا أخرق مواقف السداد . رأيت بعض من يرجى منهم الخير أكثر العالم شكوى من بيئتهم ، وحالم أيام القوة لا تختلف عن حالهم أيام الضعف . رأيت من كتب عليه التقصير بفطرته لا ينفك عرضة له في جماع حالاته ، وبلقي معاذيره عن أهماله ويصطنع الجد ويتصنع في أقواله وأفعاله .

عمال الدولة أقرب الطبقات إلى النظام ، ومن أوسعهم علماً ومعرفة في هذا الشرق القريب ، فهل يحسون ياترى بالواجب إلى الحد الذي ينبغي لهم ويتوقع منهم ؟ وهل ينشطون للعمل بالقدر المطلوب منهم ؟ ونحن نرى أكثرهم يتشكون من كونهم في درجة لا يمكنهم من الانتفاع بمواهبهم ، فإذا ما وصلوا إلى أرق ما قدر لهم من الدرجات استبدان أنهم لا يمتازون عن غيرهم إلا بكثرة الشعوذة وعظيم الدعوى . والمرء إذا لم يأت في شبابه ببرهان على كفاءته لا خير منه في كهولته وشيخوخته .

إذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار
الفرق كبير بين عامل وعامل ، ويكاد الذي والغبي أن يكون اتاجها
في مستوى واحد ، والنافع عندهم هو الذي يتولى عملاً ولا يغير فيه ولا يبدل ، يرى الخلل ولا يصلحه والملة فلا يبحث عن أصلها ، يكثر الوعود ويبشر بما ليس له وجود ، وإذا فاز لا يحقق بعض الرجاء فيه . ولطالما أمت من بعض الموظفين في أعمال الدولة بمن لا يهمهم من وظائفهم إلا قبض الرواتب والترقي في الدرجات ، ولا تحذتهم ذمهم ان يعطوا من انفسهم بعض ما قبضوا من أجر

على عملهم . ويؤلفي كل الالم من يحاول أن يفتني منهم في أقصر زمن ، ولو عومل بمض المهملين بالصرامة ، وما سكت الرؤساء عن الاهال الصغير المؤدي الى الاختلال الكبير لما فطحت الرشوة في مصر والشام في دواوين كان الواجب أن تكون مثال الاستقامة والشرف ومن الغريب أن يتسامح المسؤولون بالرشوة إذا قام المرئشي بما يعتقد الكبير فيه انه نافع للوطن على أي حال ، أما أنا فما برحت منذ وعيت اغتبط كلما رأيت النكبة تحل بالعامل الساقط ، وعلى نسبة ذلك آسف يوم أرى عاملاً مستوفي التجربة يصرف بانقضاء مدة خدمته او لفرض آخر من اغراض الصنف .

تكون التبعات التي تلحق الكبراء على نسبة عظم مناصبهم ، وانك لترى بعض الوزارات على الحالة التي كانت عليها يوم تأسيسها يحييها النابون النابون والمتوسطون المغمورون ، وروح الذكي كما راح النبي ، وحال من قضى أشهراً في عمله كحال من قضى أعواماً لا يفكر في اصلاح ما تمثل لمينيه من عيوب ، ولا يعالج ما يبدو من معوج الطرائق ، همه أن تدوم مهمته طويلاً ، وان ينجز ما يمرض عليه من المسائل اليومية ، ومنصبه العظيم الذي أهله لان يقوم فيه بكل ما يعين له من الاصلاح يتسلمه للقادم كما يتسلمه الراحل .

ومن أهم ما تنتجه اليه هم هذه الطائفة يوم تولي الحكم حماية الأهل والولد ، ومن الفصل منهم بسبب ، يحلو لهم إيجاد الخارج لنفاذ ما قام في أذهانهم . والويل للمصلحة العامة بمن كثر ذوو قرياه وانصاره ، فأنهم يترجمون باسمه ويتفنمون فرصة انبساط جاهه ليملاؤا جيوبهم وعبابهم . والملك لا يسعد فيه الكبير والصغير الا اذا نفذت القوانين فيه على العدو والولي وبذلك تنجلي الفروق بين مملكة منحلة واخرى راقية ، مملكة ينخر جسمها سوس الاستبداد واخرى تمشي آمنة مطمئنة في ظل دستور نافذ الحكم على كل ساكن .

الكتابة الباردة

وأعني بها الكتابة التي تجردت من الحرارة بحيث لاتفعل في نفس قارئها ولا تبقي فيها أقل أثر نافع . فالكلام البارد قليل الفائدة وحرام ألعاب الفاريء بفك حروفه . وهذا النوع من البيان شبيه بمن يأكل في منامه حتى إذا أفاق لا يرى أمامه شيئاً ، ثم أي فائدة من كلام فاز لا يهيج له عصب ، ولا يلقى في روع تاليه ما يخرج معه بشيء بنفعه ، ولا يعينه عن فكر سقيم بفكر سليم .

قد تقرأ كتباً ورسائل ومقالات إذا انتهت من تلاوتها تصدر بلا محصل ، لأن واضعها ظنوا التأليف يقوم بتنميق الجمل والمعاني المطروقة والاستطرادات المبتذلة ، وأمور لبس منها فائدة إلا تكبير جرم الرسالة أو المقالة .

ومن التأليف الباردة ما يبدو بادي نظراً أن كاتبها يكتم بعض ما يعرف من الحق ويخدع قارئه ، وبعضهم لا يبتطال إلى أكثر من تزجية وقت المطالع وتسليته ، لا يحاول أن يهدم أصلاً من الأصول المموجة مخافة أن ينشأ عن تصريحه ازعاج أحد ، وما كان في شرع المؤلفين ان يسألوا كل الناس ويأثوم بما يرضيهم كل حين ، وأي صحيفة هذه التي نحاول أن نحرز موافقة عامة المنازع والاهواء . الحياة كلها جدال ، والتأليف لاتخرج عن حده ، فقول الحق هو الذي خلّدت به كتب الجاحظ ، ومن مشى على أثره من العلماء . ومن نافقوا القراء صدروا وما كتبوا لابساوي قيمة ما كتب عليه من الورق ولا يبقى إلا بمقدار ما تبقى أوراق الشجر

المساقطة على أديم الارض في الخريف . ومن جسروا وكتبوا ما عن لهم بحرية لقيت كتاباتهم القبول ، والتأليف الطريف هو الذي استهدف للاخذ والرد . وما أكثر من كان المعجز مانعاً لهم إلا من سرقة أقوال غيرهم . وأي نفع يرجى من كلام لا يصور حقيقة صادرة عن نفس ملهبة مقتنعة بما تقول ، مأخوذة بحب الحق وما الفائدة من تأليف لا ينم عن الزمن الذي وضع فيه ولا يصف أهله ولا يمرض لما يسؤم وما يسرم ، وأضر الناشئين من يتوخون ابقاء الناس في عمالة ، ويحاولون اقرارهم على ما هم فيه ، ولو كان ظاهر الضرر ملموس الفاهة . ومن الكتب ما يسوغ لك أن تضعه في أي قرن من قرون الانحطاط لأنها خلو من صفة من هذه الصفات التي تتطلب من التأليف ، كتبها كاتبها بفتور واكتفى بها من الجولان في دائرة ييدي فيها ويميد على غير هدى وليت شعري ما الفائدة المتوقعة من اغفال الحق في موقف يتحتم فيه الجد ، اللهم ان كان مقصود المؤلف من تأليفه ان يقال فقط انه ألف ورجح من تأليفه كذا من النقود كان المقصد الاول من التأليف كسب المال . والمعجب ان سألني بمض معارفي عما أجدت عليّ كني من فائدة مادية وقلّ أن سألني سائل ماذا كان من اثرها في أفكار من كتبت لهم .

واذ عودت نفسي أن أطرح من ذهني الارتفاق بالتأليف ، والتجارة بالأدب ، لمزيت بما كتبت له لأنه كان أكثره من الكتابات الحارة أي أنني لم أكنم شيئاً من الحق الذي عرفته ، وهززت شعور القاري حتى يتلقى ما قرأ بحرارة أيضاً ، ولو قدر لي أن اصانع في التأليف لفقدت الصفقتين المادية والمنوية ، ولو انصرفت همتي الى تأليف قصص مؤلفة و مترجمة لجئت مالاّ جماً ، ولكن كان هواي في بث فكرة جديدة أو احياء فكرة قديمة

بهذا الاسلوب الذي اصطنعه علماؤنا الاقدمون والمحدثون ، وما عدا ذلك لا يتعلق عليه كبير أمر عندي .

أنا من أنصار الكتابة الحارة لا الباردة ولا الفائرة لاعتقادي بأنها تأتي بالفوائد ، اريد من الكتابة أن تبقى أُرأ في النفوس ، وتنزع قديماً بالياً ولستعيب عنده بجديد مفيد ، ولو كانت في ذلك غضب خمسة ولسمين بالئمة من القراء ، ولا قيمة لغضب بعضهم ورضاهم اذا صدروا عن سخط وغرض .



الكتلة الوطنية

بعد مغادرة الملك فيصل هذه الديار اجتمع بعض فلول حزب الاستقلال وحزب الفتاة وتآلفوا جماعة الدخول في الانتخابات للمجلس النيابي فكانوا الكتلة الوطنية ، ولما تألف حزب الشعب قبيل الثورة السورية خاف السيد صبحي بركات رئيس الاتحاد السوري على منصبه فأكبر أمره أمام المحتلين ، فنفى بعض زعمائهم إلى حسيجة من الجزيرة ، ثم إلى بعض قرى لبنان مدة . وزعم بعض من لهم صلة بالفرنسيين بأن الكتلة ذات علاقة بالانكليز . وعطف الناس على هذه الكتلة يناصرونها بكل مافي وسعهم ، يفلقون حوائثهم في المدن اياماً ، للاحتجاج على بعض اعمال السلطة ، ويضربون عن اعمالهم ويشغبون . ودام آخر اضراب خمسين يوماً ظهرت فيه دمشق وحلب وسائر المدن والقصبات بمظهر من التكتاف لا نظير له ، وأبان الاهالي عن اخلاق حسنة ومعرفة بالواجب الوطني . ولما شلت الحركة الاقتصادية في سورية باجمها دعت حكومة الانتداب بعض الزعماء من الكتلة وغيرها وجرى الاتفاق على انتهاء الاضراب ، وارسال وفد إلى باريز للمفاوضة ، وعهد بهذه المهمة الى بعض المقدمين من رجال الكتلة ، وانقلب المفوض السامي المسيو دي مارتيل من جبار يضطهد الكتلة ويحتقر رجالها ، الى رجل عدل وذوق يحترم مقدميهم ويصانهم . وما أكثر تبدل السياسيين بتبدل سياسات دولهم ، فهم كالممثلين على المسرح كل ساعة في صورة ، وقضى الموفدون في باريز مدة لم يسألهم أحد عن سبب مجيئهم ، ثم فلوّضهم بعض رجال حكومتها ووقع الاتفاق على مواد المحالفة الجديدة .

وعاد رجال الوفد ممتعين وكتلتهم بثقة الامة ، تسير معهم راضية لانتخاف

لهم رأيا ، وجرت الانتخابات النيابية ، فكان النواب في المجلس من كل من
اجت الكتلة وضع ثقتها بهم ، ومن حرصت الحكومة المنتدبة على انتخابهم ،
واختاروا رئيساً للجمهورية احد البارزين من جماعتهم السيد هاشم الاتاسي
ولرياسة المجلس السيد فارس الخوري ولرياسة الحكومة السيد جميل مردم بك
يعاونه ثلاثة وزراء فقط ، كل واحد منهم يتولى وزارتين . ونزل الرئيس
السابق السيد محمد علي العابد عن رياسة الجمهورية قبل اتمام مدته بستة أشهر ،
بدأ أصحاب الكتلة يطبقون منهاجهم فأتوا الى بعض الوظائف بجماعتهم ،
وبعض من اعتمدوا عليه لم يعرف بانه من اصحاب الجد ولا اشتهر بمعرفة ،
وأخرجوا من الوظائف الكبرى بعض من ليسوا على سيرة حسنة ، او ممن
ثبت تلاعبهم في كل دور ، وظن بعض جماعة الكتلة أننا اصبحتنا امة حرة
مستقلة ، واحبوا ان يتحرروا من القيود القديمة ، وتركوا المستشارين جانبا
لا يستشيرونهم ولا يلتفتون اليهم . فكان من اثر هذا أن اشتعلت ثورات
خفيفة في بعض الانحاء ، وأهين عمال الجمهورية وروعوا وعيالهم ، وكان على
ما قيل السبب في ايقاد جذوتها بعض المتورين ، وقيل ان حكومة الانتداب
رأت من بعض رجال الكتلة عطفاً على بعض الدول الكبرى .

ولقد نصحت لبعض أصدقائي من رجال الكتلة ومنهم صديقي فخري بك
البارودي ألا يدخلوا في الحكم ويختاروا للوزارة جماعة من الحيايين ،
ينقون الحكومة من ادرانها ، ويجعلون كل شيء في نصابه ، وهم يقولون
في المجلس يراقبون عمل الحكومة سنتين أو ثلاثاً ، فإذا قلدوا الحكم بعدها
أخذوه نظيفاً لا شوب فيه ولا شائبة ، وبذلك يتحللون ايضاً من الوعود
التي قطعوها لبعض من خدمهم ، وبحقيقتها عبث بمصلحة الوطن ، فكان
جوابهم إن كل طائفة تحدث انقلاباً تتولى الحكم لتنفذ برنامجها .

بدت عيوب الكتلة للاعين بعد أشهر من توليها الحكم ، وربما وجد
الناقمون عليها معاضدة من بعض السلطات ، فساروا وأوغلوا في نقدها ، وكنت

كثيراً ما أطلب إلى أصحابي ألا يمجّلوا بانتقاداتها أو تظهر غلطاتها ، ولم تجر الكتلة على مثال الحكومات التي كانت المفوضية العليا لعميتها كميناً ، فتتشبّه الجسور والمعار وتفتح الطرق ولعمدتها ، وتقيم القصور والمدارس ودور الحكومة ، وتعمل ما يخفف الضائقة .

جاهر الحزب الذي تولى الحكم في فرنسا بالأقرار معاهدة وافقت عليها الحكومة الاشتراكية مبدئياً ، وفرنسا في صدد خوض غمرة حرب ، ومن مصلحتها أن يكون حكمها مباشراً في سورية ، فاضطرت حكومة الكتلة إلى التنحي ، وعرض رئيس جمهوريتها تأليف وزارة على الاستاذ مصطفى برمدا فأبى تأليفها ، وكان جرب طالمه مع السلطة لما عهدت إليه رئاسة دولة حلب ، فما استطاع العمل معها غير بضعة أشهر . ثم عرضت الرئاسة على السيد نصوحى البخاري فاستقال بعد ثلاثة أشهر من تأليف وزارته ولم يعمل عملاً وأضاع الوقت في التريث على غير جدوى . عند ذلك اضطر رئيس الجمهورية إلى التنحي .

قال رئيس الجمهورية السيد هاشم الاتاسي لأحد المتصلين به قبل تخليه عن الرئاسة بإبام ، وكانت ضيق الصدر من اضطرابه إلى الاعتزال : ما كنت أظن أن جماعتي وصوليون إلى هذا الحد ، لا يهمهم غير مرا كز في الحكومة يشغلونها ، يقولون أن جميل بك يبذر الاموال ، وتبذيره قليل إلى جانب اسراف سعد الله بك ، فقد كان هذا يتطلب أن نعطيه كل يوم ألف ليرة فلما أشرنا إليه أن يأخذ بالاقتصاد ، غضب وقاطعنا ولم يدخل قصر الجمهورية ثمانية أشهر . ونحن لم نهدي أعصاب بعض جماعتنا عن تولي الحكم ، ومعظمهم كانوا يحاولون أن يتقلدوا الوزارات ، إلا باعطاء كل فرد منهم مشاهرة تعادل راتب الوزير العامل .

هذا معنى ما روي عن لسانه وقلت لصاحبي لما قص علي كلامه : لوالا هذا القول قبل سنة لكان قوله مقبولاً ، أما وهو لم يرشدهم إلى الصواب في نطاق حقوقه الدستورية فعلى عاتقه تقع تبسة بعض غلطاتهم .

قلت لاحد رجال الانتداب وأنا في الوزارة ، والصراع بين الكتلة والدولة المنتدبة على ساق وقدم : أرى أن تمهدوا بالحكم للكتلة الوطنية على سبيل التجربة مدة ، لعل عند رجالها قرائح لم نرزقها ، ومعارف لم تتعلمها . فان احسنوا فيها ونمت ، وإلا فنستريح ولستريحون ، فاجابني لولا أن الهزل في مصالح الدولة لايجوز لعملي بهذا الرأي السديد ، وأنا على يقين أن الجماعة لا يصلحون للحكم . كذا قال وفيه شيء من التحامل عليهم .

على أن الكتلة ماخلت من أعضاء كانوا غُيِّبوا على المصلحة العامة ، وكان الصالح يذوب في الكثرة الغامرة . فنحى وزير ماليتهم الاستاذ شكري القوتلي عن وزارته لانه لم يرض على ماشاع باقرار الاتفاق مع المصرف السوري لما رأى فيه من الاجحاف بحقوق سورية فاستقال وكنم أسباب استقالته ، ولما سقطوا باتهام بعض أعضاء منهم بانهم يملون فيما قيل للعبادي الفاشستية كان من السيد فائز الخوري أن خرج منهم في جملة من الاعضاء ونشروا ذلك في الصحف إلا أن هؤلاء متى رأوا الخطوة أعيدت إلى اخوانهم بالامس يرجعون حالاً اليهم للاشتراك في المفانم لاثني آخر . وتولى أحد أعضائهم السيد لطفي الحفار رئاسة الوزارة نحو عشرين يوماً في آخر عهدهم ، فسارع إلى إرضاء أقاربه ، ومنهم ابن عمه رفاقه بضع درجات وأعطاه فرق رواتبه بضع سنين .

الجزازات

هي في هذا العصر كل شيء في الاعمال العلمية والسياسية والمالية يحتاجها التاجر والحاسب والسياسي والباحث والأديب كما يسير عليها الملك والرئيس . كنت منذ أيام بحث في الجزازات مع صديقي الدكتور حسني سبع وقلت له اني باغفالي أمر الجزازات بل بغير انتباهي لها ولصورة عملها اضعت سنين من حياتي في البحث على غير جدوى ، فكنت على طريقة من عاصرتهم من المشتغلين بالعلم والآداب تقيد ما تحب حفظه من المنشورات في دفاتر مزج فيها النكتة الدينية بالنادرة الأدبية بالقصة التاريخية بالبيت أو القصيدة من شعر بالفائدة العلمية بترجمة أحد المشاهير بمصدر من المصادر زريد أن يرجع اليه ذات يوم . وهذا مما يضيع الوقت ويصعب إيجاد المادة الضالعة بسرعة عند اللزوم .

كان الناس في مصر يدهشون من العلامة أحمد زكي باشا رحمه الله وبديته في حل عو بصات المسائل فان سؤالا يطرح عليه في الصحف أو غلظة يراها هو فيها يحمل الجواب عليه من الغد وما كانت الا الجزازات التي اتقن الباشا وضعها هي التي لمينه على ذلك يرجع اليها في الحال فتليبه وتحل اشكالاته واشكالات الناس .

وكننت ادهش قبل التوسع في معرفة الجزازات وأنا اتلو المقالات الافتتاحية في جريدة الطان ايام كان يكتبها السياسي تارديو ومجني الاحاطة بكل موضوع يخوض فيه وما كان السبب في ذلك الا الجزازات التي اتقنت تحضيرها ادارة تلك الجريدة كما احضرت الجرائد عامة مثل هذه الجزازات تستفتيها في كل مصبح ومسي وفي كل شارقة وبارقة .

وعمل الجزازات في الجامعات والكليات في العالم سهل على الطلبة

والاساتذة أعمالهم اذا أرادوا أن يؤلفوا أطروحاتهم ويضعوا تأليف لهم .
وقد سهلوا في المانيا طرق التأليف فاخترع المؤلفون طريقة جديدة فيها
كثير من الاقتصاد في الوقت والمال على ما حدثني بذلك صديقي الاستاذ جورج
انطونيوس رحمه الله قال ان المؤلف هناك اذا عن له أن يكتب في موضوع
يدعو ثلة من الشبان المتخرجين في الجامعات ويعرض عليهم موضوعه ويدعوم
الى مطالعة كتب يمينها لهم ، يريدون أن يقدموا له عن كل واحد منها تقريراً ،
ويلاحظوا ما يتطلبه المؤلف لأجل موضوعه فما هي الا أن تنال عليه المعلومات
ويكتب المؤلف كتابه في اسابيع قليلة .

فقلت للراوي ان هذه الطريقة عملية ولكنها لا لذة بها للمؤلف وأظنها
تحتاج الى نفقة طائلة مكافأة للعاملين فيها من الشبان ، قال ان السعر الذي
وضع للنظر في كل كتاب دينار الماني واحد أما الكتب فهي مسجلة على
كل مطالع في الخزائن العامة ويستعيرها الباحثون ولا يدفعون شيئاً مقابل
ذلك . هذه هي الجزازات وفوائدها في الجملة ولما تشرفت بقاء الملك فؤاد
الاول ايام ذهابي الى مصر لتكريم أحمد شوقي بك الشاعر قلت لشوقي
ان معلومات الملك عظيمة جداً قال نعم هو يتكلم من الجزازات ومن تكلم
أخذاً مما لديه منها أمن العثار وعظم في الانظار .



أمانة الوزراء

حدثت أن الدكتور عبد الرحمن الكيالي أيام كان يجمع بين وزارتين من أهم الوزارات وزارة العدل ووزارة المعارف حاول أن يجد على أحد الأرمن المتجنسين بالجنسية الاميركية وكان معروفاً بتهريب العاديات بتمثالين لاسدين عظيمين (ارسلان طاش) مازالا رابطتين الى اليوم في أرض الجزيرة من أملاك سورية ، وزنة كل واحد منها خمسة عشر طناً على الأقل مدعياً ان هذا الاميركي يرجى أن ينفعنا في امور لها مساس باستقلالنا !

وصدر المرسوم بهذه المنحة ونشر في الجريدة الرسمية فأصدرت المفوضية العليا الفرنسية أمرها الى دولة سورية بالرجوع عن قرارها لان أمر الآثار يرجع الى الدول عامة وليس لسورية وحدها أن تبث فيه . وحاول الكيالي أن يقنع القائمين على حفظ الآثار من الوطنيين لاقتناع المفوضية بالرجوع عن رأيها وقرار ما قرره الوزارة فلم يفلح قائلاً انه يتذرع بذلك للاحتفاظ بالكرامة ومراعاة سلطان الحكومة المحلية . وما عرف الذي حدها على هذا الاصرار في أمر يدرك مضرته الطفل الصغير ، ذلك ان التمثالين يساويان يومئذ مليوني ليرة على أقل تقدير أما قيمتها المعنوية فلا تقدر بثمن . والتمثالان كما يقول العارفون بالماديات من أهم ما نبش عليه من آثار ديارنا .

وجاءنا حاجي آخر اسمه فؤاد العادلي من أرباب الأوقاف العظيمة يشغل وزارة في عهد الشيخ تاج الدين البياني أنسيت اسمها وربما لم يحفظه أيضاً من وسدت اليه شؤونها فكان منه انه لم يعمل فيها شراً ولا خيراً لانه لم يحضر لادارة شؤونها الا اياماً معدودة من أشهر طويلة وكان شغله الوحيد الدعاوي التي يقيمها وتقام عليه ، وخلص من الوزارة باحراز لقب « صاحب المعالي » . وما يسر ان ما آناه الكيالي والعادلي من الاهمال لم يفعل منه شيئاً

معالي الوزراء الذين أتوا من الشمال امثال السيد ميخائيل ليان (الحلبي)
والسيد حكمت الحكيم (الادبي) والسيد حكمت الحراكي (الممرى)
وامثالهم ممن تقلدوا الوزارات بكفاءتهم . ومن أهم ما يتحلى به الوزير قبل
كل شيء نجرده عن الهوى وبعبءه عن المآرب الذاتية وسعة نظره وسداد
رأيه والامانة على ما آتمن عليه وابتناعه عن الحزبية والمصيبة الجنسية
والدينية ، والامانة من ورائه تراقب حركاته وسكناته ومن اسر سريرة
ألبيه الله رداها .



هب المريع والظهور

احتفل بالقاهرة بعض السنين اصحاب الاستاذ احمد أمين بك بتكريمه وحرص هو على أن اقول كلمة فيه مع أنني كنت في حالة لا تسمح لي بالقول مطلقاً وما قلت ان ماخص به صديقي من عمق في البحث وجمال في الاسلوب جمل منه مؤلفاً من أكبر مؤلفي العصر ثم رأس لجنة التأليف والترجمة والنشر فبرز في الادارة والتجارة تميزه في فنه واثبت واخوانه اعضاء اللجنة ان المصري اذا ثبت لا يصعب عليه أن يأتي بأعمال عظيمة كان بالامس يرى بانه عاجز عن تجويد مثلها ، لان الثبات كان مما ينقصه والخضوع للقانون مما لا يابه له كثيراً . وعزوت توفيق هذه اللجنة الى كونها موءلفة من اعضاء متماثلين في التربية وان غرضهم بث العلم والآداب . وحاول شيخ الازهر الاستاذ المراغي في تلك الحفلة ان يجعل الفضل للزهر في نبوغ أحمد أمين مع أن هذا قال لي انه لم يدرس فيه أكثر من سبعة أشهر ، ولكن أباه كان من شيوخه ، والازهرية على كل حال بقيت غالبية على أحمد أمين غذى بها لحنه ودمه وروحه وادبه . واذكر اني كتبت اليه بصفته مدير لجنة التأليف والترجمة والنشر ارجوه ان يتوسط مع من يلزم للمباشرة بطبع الجزء الثاني من كتابي (الاسلام والحضارة العربية) اذ ليس من مصلحة اللجنة أن تكون الفاصلة بين الجزئين اعواماً فكتب اليّ والغالب انه كان في حالة عصبية نسي فيها كل الاعتبارات يقول انه ليس هو خادمي ولا عبدي حتى أعهد اليه بمثل هذه المهمة الى غير ذلك من العبارات الغريبة التي تدل على رعونة كنت أحب أن يتجرد منها مؤلف فجر الاسلام وضحي اسلام وظهر الاسلام (وغروب الاسلام وليل الاسلام) .

حاول أحمد أمين أن يؤلف في الفلسفة ويظهر في ثوب فيلسوف وكان رفاقه وزملاؤه يسخرون من دعواه هذه ويحملون منها موضوع دعاية وحديث ضحك واضحك . ثم حاول أن ينتسب لفيلسوفهم الاعظم احمد لطفي السيد ولكن المشيخة بقيت متجلية في أقواله وافعاله وكان ظاهره وباطنه مع السنهوري وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي وتلك الطبقة يجمع أكثرهم الغرام وبقاعدة خالف تعرف وهم في الغاية علماء وأدباء شهادة الله .

باشاوان في مجمع ماهر

لا أقول ان عبد الرزاق السنهوري باشا ومحمد حسين هيكل باشا اساء الاستعمال بتعيينها نفسيهما عضوين في مجمع فؤاد الأول للغة العربية فان كلمة اساء الاستعمال حرام أن تطلق على من يضعون القوانين ويشرعون لمصر ، ولكن هذا التمييز ما خلا من مغمزها أحسن الظن ، وكان عليها أن ينضموا الى الخللدين المصريين في عهد وزارة غير وزارتهم أو أن يصرفا النظر عن هذه النسبة على نحو ما فعل رصفاؤها وزراء المعارف امثال نجيب الهلالي باشا وحلمي عيسى باشا وبهي الدين بركات باشا ومحمد علي علوبة باشا ومحمد العشماوي باشا وغيرهم . والمصريون مغرمون بالالفاظ في العادة ولو كانوا من عيار السنهوري في القوانين وهيكل في السياسة ، وكيف يجوز لنفسه رجل أن ينضم الى جماعة وهولا يفرغ ساعة واحدة في السنة لان يشاركهم في اعمالهم . ولو هدى الله صاحبي هذين لاستقالا من هذا المجمع وتركوا مكانها لمن يحسن لعمده ويتنفع به اللغة . جل من لا عيب فيه .

خلق غريب

عرفت الشيخ بدر الدين النعساني طالب علم في الازهر وعاد الى حلب بلده في اول عهد الدستور العثماني وكنت كثيراً ما أحثه على القيام بما ينهض بمدينته لعلهم بكفائه لذلك أكثر من جميع أهل بلده ، ولما وليت وزارة المعارف كان استاذاً في تجهيز حلب فكان مولماً بمدح الازراك وذم العرب ، ويتلو في الدرس على تلامذته اشعاره ويخرج عن المنهاج المقرر ، فيبلغ ذلك مستشار المعارف فادفع عنه وادفع ما اتهم به . وبقدر ما كنت أحبه كان يهزأ بي في دروسه ويطلعني علي جزاء احساني اليه . وكان خفيف الروح ظريف الحديث يأتي لزيارتي كلما جاء دمشق مستصحباً بعض المعلمين الحلبيين ممن اشتهروا بحجاسوسيتهم فكنت انبهه إلى هذا وأذكر له كراهتي لسكل من يتجسس .

ومالقيته مرة الا حدثته على وضع تأليف في نطاق اختصاصه ينتفع به الاسلام والعرب . وكان تأليفه الذي ختم به حياته سلسلة مقالات كان ينشرها في جريدة الشعباني ثم عن أغراض ظاهرها الغيرة على مصلحة الوطن ، وما كان يقصد بما يكتب إلا مصاحته الخاصة وهكذا انتهت أيام النعساني على ما لا ينطبق مع أماني الوطن وأماني العلم ويتنافى مع ما عرف به من الذكاء والدهاء .

انتخب المجمع العلمي العربي الشيخ النعساني عضواً مراسلاً فلم يتنزل أن يشكره ولا بكلمة مع شدة الحاحي عليه بأن يقوم بهذا الواجب وظل على ابائه ، وأرادني المجمع على حذف اسمه فلم أوافق . ولما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية في مصر رجاني ألا انسأه وأجمله عضواً فيه أيضاً كأنه خدم مجمع بلاده حتى يخدم مجمع مصر ولكن هو حب الظهور بدون اتخاذ اسباب المشروعة له ومظهر من مظاهر الاثرة الممقوتة ، دل على ان العلم شيء والاخلاق شيء آخر ومن لا يتربى اخلاقه في بيته لا يتربى في مضمار الحياة .

وناء السهم

بما لا يبشر بخير ان يتخرج بعض الشبان في ارق مدارس الغرب
ويعودوا الى بلادهم وقد امتلأوا حماسة علمية وغيرة وطنية فما هو إلا أن
توظف لهم وظيفة حتى تبردهمهم وينسوا ما تعلموا لا يطعمون أن يزدوا فيه .
رأيت هذه الحال في عشرات من الشبان فسأني ما رأيت وخببوا ظني فيما
كنت فيهم أملت . وما العلم عند هذه النابتة إلا أداة من أدوات الكسب
متى بدأ ربح المرء منه فليس من الصواب أن يتمب نفسه باتقائه والاستفادة
من نتائجه ! وأكثر من يؤلفون يؤلفون كتباً مدرسية يترجمون منها ، وقل
ان يبتدع احدهم موضوعاً طريفاً او يلو على فكرة نافمة ، ولطالما حدثت
من يأتوننا بشهادات أطول من ليالي الشتاء على اتمام علمهم على ما هو المرجو
منهم ، فيعدون كلامي هذا من الفضول والتدخل في حريتهم الشخصية .
واقسم بالله أنني رأيت بعض الشبان الذين درسوا ارق دراسة بمد بضع
سنين من مفادرة المدرسة أشبه بالاميين في حديثهم وحركتهم ورأيت منهم طبقة
تستجيز السرقة والتجسس للحصول على المال وترتكب كل ما فيه العار
لالترقى في درجتها . وبعد ذلك صرت أقول في نفسي ترى هل نفمنا العلم
أم أضربنا بنا .



كتاب الى حبيب

صديقي صائب المعالي الاستاذ محمد علمي عيسى باشا المحترم

طلبت إليك منذ أيام جريدة باسماء من يرجي أن يشتركوا بكتابي (المذكرات) من المصريين ولعلك استغربت هذه الحركة مني وما عهدتني تاجرًا ولا طابعًا ولا ناشرًا بل مؤلفًا بسيطاً يعتمد على الطابعين في نشر كتبه . وما حداني على الظهور بهذا المظهر الجديد إلا اني احب ألا أنكسر أمام أي قوة واحارب ما ائسمت قوتي للحرب ، وإن كنت في الشيخوخة (ونصف الخبر عندك) فقد طرقت عدة أبواب لطبع ما لدي من التأليف وتجديد طبع ما نفذ مما طبع في مصر والشام ، فكنت أصد من دون سبب معقول .

راجعت لجنة التأليف والترجمة والنشر وهي مؤلفة من خيرة رجال المعارف ، وبعض الكهول منهم من أصدقائي الأعز ، وقد طبعت لي ثلاثة كتب في مطبعتهم نفدت بعد قليل من طبعها واعيد طبعها ثانية وثالثة ، وراجعت دار احياء الكتب العربية فوعدت ثم أخلفت ، واحببت الاعتماد على دار المعارف منذ سنتين فاعتذرت بقلة الورق وفاوضت لإسماعيل تيمور باشا ابن صديقي العلامة أحمد تيمور باشا فقال إن كنت تريد معونة للكتاب من الخاصة الملكية فالأمر سهل فقلت له إن خطط الشام هو كتاب أبيك وإليه مهدى فلا معنى لأخذ معاونة سامية . فأجاب أنا لا أفهم هذه المسائل وسأكلم شقيقي محمود فكان من الاستاذ محمود بك أن راجع من رجعت إليهم فأخذ ما أخذت من جواب ، ورجع المؤلف الذي لايهمه من الدنيا إلا نشر كتبه بخفي حنين .

فلما سدت الطرق في وجهي ورأيت اللجنة التي بمدوني من أعضائها

قد عاملتني بالاهمال ، ولم تكتب شيئاً في مجلتهم عن تأليني التي طبعتها على نفقتها ، طلبت إلى صديقي أحمد أمين رئيس تلك العصبة أن يكون الكلام عنها نقداً فقط لأنني ما أحببت قط المديح ولا التقريظ ، يشهد لذلك ما نشرته من مصنفات ومجلات ، وجرائد فكان منه أن أوعز إلى أحد شبابهم فكتب في الجزء الأول عن كتاب لي في مجلة الثقافة تقريظاً أوسعني فيه ثناءً خلافاً لما كنت أرجو .

وصديقي أحمد أمين كأكثر المشتغلين بالعالم في مصر وغير مصر أشغل من ذات التحيين ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته ، وأنا شهد الله ما تركت باباً من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف . سأله في الجامعة أحد تلاميذه من الحلبين عن رأيه في فقال تسألني رأيي في بلدك إنه أعرف المعاصرين بالمصادر . وهذا رأي الشيخ رشيد رضا في استاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، يعني أنني وشيخي في نظر الاستاذين العظميين من عيار مصطفى محمد الكتبي المصري بمعرفة أسماء الكتب .

هذه هي صداقة أحمد أمين لي وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف . وكثيراً ما نوّهت به وأردت إخواني في المجمع العالمي العربي منذ أول تأسيسه أن يختاروه عضواً مراسلاً فانتخبوه وما تنازل أن يجيهم بكلمة شكر فيما أذكر ولم يفلط خلال خمسين سنة أن يقابل جملي بمثله كأنه يمتقد أن ما أقوم به نحوه هو واجبي وأنه من عالم غير هذا العالم ، وشتان بين ثقله وخفتي ، وفرق بين جنسيتي وجنسيته هو مصري وأنا شامي ! فلسفة ركيكة لا أفهمها مع أنني فهمت فلسفة الشباب أمثال زميلي وحبيبي الدكتور إبراهيم بيومي مدكور . أين أدب من أدب انتخب المجمع العالمي العربي الامير عمر طوسون والامير يوسف كمال عضوين مراسلين معه فكتبنا يشكران ويفاخران بهذه العضوية وأظن لطفي السيد أمام هذين العظميين لا يعدو أن يكون أمامها شخصاً عادياً ولو تقلد الوزارة مرات . اتقن لغة السياسية ومصطلحات التشريفات

وكان رجل رسم وصاحب تقاليد . دعاني مع من دعا من رصفائي الدعوة الرسمية السنوية الى نادي محمد علي فلما لحظ ان بين الأعضاء الأجانب رجلاً له لقب وزير طار عقله ودعاه علناً من دون رصفائه الى الجلوس في مقام التكرمة فسكاته يقول بلسان حاله لسائر الرصفاء ان من كان وزيراً يفضلكم كلكم . فلما شاهدت هذا ضحكت وانتحيت ناحية اخرى وقعدت في آخر المائدة وجاورني زميلي الدكتور علي توفيق شوشة باشا وأقسمت بعدها الا أحضر دعوة طعام للداعي الكريم صاحب الذوق السليم .

أنا لا أطلب من الناس أن يمدحوني ويرفعوا من شأنني فخياتي ما كانت في وقت من الأوقات موقوفة على هذا النوع من المصانعات ولكن الهجمات مأمور بها ومعمولة ، والمصريون من أبرع الناس فيها على كل حال . من ذلك أن رصيفي المازني وهيكلي ما أضاعا قط كلمة في التعرض لمعملي وعمل اخواني في الشام انتخبها بجمعنا عضوين مراسلين فلم يتزلا أن يكتبنا له سطرًا . وكيف يرتكبان هذا الأثم والمازني دأب حياته يكتب المقالات للصحف والمجلات ودأب يستوفي المكافآت عليها ، وهيكلي أصبح بقلمه وحزبه بمن يدير دفة السياسة المصرية . وأي نفع يأتي من « كرد علي » وصحبه ؟ إذا احتجنا اليهم يوماً فهم تحت الطلب .

وفي المجمع المصري عناصر جديدة انضمت اليه منها ما كان من الطراز الأول أمثال علي عبد الرازق بك ومصطفى أظيف بك والشيخ عبد الوهاب خلاف واضرابهم ومنها ما كان مثل الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء وهذا كان لي صديقاً قديماً عرفته في دار آل عبد الرازق الاكارم ولما اضطهده الشيخ الظواهري في الازهر كنت من أول الحائقين عليه ، ولما نفس خناقه واعيد الى منصبه فرحت له فرحاً كثيراً . أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة كبار العلماء ؟ كان منه أن اهداني كتاباً له وكتب على ظهره (آية الاخلاص لصاحب العزة فلان) فراجعته فيما كتبه

ممازحاً وقلت له : وأين كلمة استاذ يا استاذ ، كأن هذه اللفظة (آية الاخلاص) تقوم مقامها وما حفظه شلتوت قد نسيه « كرد علي » منذ زمان ، والطوائل أو البليات بين أرباب العائم وأرباب الطرابيش قديمة لا تحتاج الى بيان .

وماذا اقول في مجلاتكم وصحفكم ، واحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بعد ان كان يكتب لي انه كان تقي فرفعته تنكر لي بأخرة من دون سبب وأعمته التجارة وجمع الارباح ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة . انتخبه مجمع دمشق عضواً فبلغ من مكارم أخلاقه انه لا يبادل اليوم مجلته مع الالحاح في طلبها . حقيقة الاخلاق تورث ، واخلاق المدنيين غير اخلاق الفلاحين ، والعلم والادب صناعة يتعلمها من يسهر على حفظ الدساتير اعواماً قليلة .

هذه المعاملة لقيتها من هذه الطبقات في مصر لا أدري وجهاً لتعليلها ، والحمد لله على اني ما جئت مصر يوماً أكاذر رجالها ولمففت حياتي عن الاخذ من خبز مصر حتى لا أشهد كراهية المصريين وتجهمهم ، ولا أفقد صداقة عشرات من اخواني امثالك ، وهم رأس مالي الذي اغتبط به ، فمجلة الثقافة لم تتنازل منذ نشأتها ان تكتب لي كلمة في كتبي اما احمد امين فيزعم ان اشغاله كثيرة وقد رأيت يسارع فيكتب للمصريين ما يشاءون .

هذه يا صاحب المعالي مسائل نافية ولكنها تمس العاطفة وتؤدي عزة النفس وتعرف أكثر من غيرك أنني لا اعبأ بها بيد ان ما حصل دل على مبالغ جماعتك من الوفاء ولو كنت اضع على رأسي قبعة لوقرت في نفوس المصريين وعدوني شيئاً فقد اعتاد المصريون مع الاسف ان يتلقوا الافرنج بضروب التجارة ، وللغربي في وادي النيل روعة وأي روعة وللخواجه ما ليس لغيره من اعظام نتيجة اربعين قرناً في العبودية . لا تفضب لهذا الحكم فهو حقيقة تاريخية لا مجال لانكارها .

تعلم أيدك الله كم جهدت لازالة الفوارق من بين المصريين والشاميين وأناي كنت أنهي على قومي لإنحاء شديداً لما عرف به بعضهم من معاكسة

مصر في استقلالها ، كتبت في ذلك المقالات الكثيرة منذ كنت محرراً في المؤيد حتى ملّ من ولدوا في أرضي وأعرضوا عني وحاربوني في ماديّاتي . ولعلم ان ليس في مصر من الشاميين من خدمها مثل ماخدمتها أنا بدون عوض ولا غرض فقد جاءت عليّ أيام فيها ، وأنا أحمل ريع ملكي في الشام وارتفق به في مصر مختاراً ، والانكليز يمرضون بما عندهم من ذهب برّاق استهوى كثيراً من كبار رجالكم ، أما أنا فما أخذت منكم منذ دخلت مصر سنة ١٩٠١ وساماً ولا رتبة ولا لقباً ولا راتباً ولا عطية ولا هدية ولله الحمد والمنة ، وكنت أبداً مرئاحاً لعملي وأعمده واجباً عليّ .

أطلت عليك ولا بد للمصدر أن ينفث ، أطلت لا أقول لك أن ما لاقيته من أصحاب المقامات أو العلية أو الطبقة المختارة دعاني أن اهزّ أربيحة قومي لطبع كتيبي واخرج عن العلور الذي سرت عليه حياتي حتى أفيد العرب واخدم الاسلام .

جسرين (غوطة دمشق) في ٥ أيار سنة ١٩٤٨ .

حاشية رجا يظن من يقرأ هذا أن المسألة تجارية والشاميون من أعظم التجار ولا والذي أخذ العهد على العلماء ألا يكذبوا ولا يصنعوا ليس الأمر كذلك ، وأرجو الا يتطرق اليوم في هذا الى بعض الأغبياء فأنا منذ كنت في ريمان الشباب أطبع كتباً ورسائل ومجلات وجرائد وأنشرها في البلاد العربية وقد أهديت من أعرف ومن لأعرف ثلاثة أرباعها ولو كان مأربي مادياً لجمعت منها ثروة لا بأس بها ولكن الغاية غير ما يتخيل ضعاف العقول ، الغاية النهضة بالأمة واصلاح ما اعوج من أوضاعها مها كلفني الأمر لا اريد من ذلك مظهراً ولا مالا ومروءي الآن تصفية حساباتنا مع هؤلاء الأفاضل والله أعلم بالمرائر .

(لاحقة) لا بأس أن يتلى هذا الكتاب على مسامع اخواني الأعزة جماعة فندق الكويتينثال ظهر كل يوم وسلامي عليهم جميعاً وعليك الف سلام .

المدين

رأيت في العقد الاخير نهضة دينية تهلت لها قام بها بعض الغير على الدين بمدان رأوا ضعف مشخصاته في كل مظهر من مظاهره . ادركوا ان ليس لهم مخرج مما صارت اليه الامة الا بتعليمها اصول دينها فانشأوا مدارس ودروساً في حلب وحماة ودمشق وأرادوا ارجاع الناس الى الجوامع وقد هان عليهم الاختلاف الى الحانات والملاهي ، ومن قام بكبر هذا الامر المهم العلامة الشيخ سميد النمسان في حماة والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار في دمشق وغيرها في غيرها فتخرج بهذين العالمين عشرات من الطلبة تلقنوا الشريعة على أصولها وقام في دمشق عالم من طراز آخر علم العامة تعليماً لا يخلو من جهود وحشو ولكنه ينفع من بعض الوجوه لان طلابه انبثوا في القرى الشامية وكان بعض أهلها على وشك الخروج من الاسلام بفعل الجبل كما حدث منذ سنين وقام العلامة الشيخ عبد القادر القصاب رحمه الله في دير عطية في جبل قلمون وعلم كثيراً من الطلبة انبثوا في الحماة الجبل فاعادوا الفضالين الى حبل الاسلام .

وكما فعل صديقنا العلامة عارف النكدي ففتح مدارس وكتائب لابناء الدروز في عيبة وما جاورها من القرى في لبنان وأخذ يدرس أبناءها القرآن الكريم يريد أن يميدم الى السنة كما كان من العلامة جمال الدين التنوخي من أهل القرن الثامن بما وقفه من الاوقاف العظيمة على هذه الغاية . وتعليم ابناء الدروز وبناتهم خطوة مباركة يخطوها ابناء هذه الطائفة نحو الاسلام الصحيح وذلك بفضل بعد نظر الاستاذ النكدي وذكاؤه النادر .

ثم استت ادارة الاوقاف في عاصمة الشام مدرسة العلوم الدينية واخذت تخرج طلبة منورين من طوائف اسلامية مختلفة وانصرفت هم افراد من

ابناء فلسطين ولبنان والعلويين وبلاد الشمال والجنوب في سورية فدرسوا في
الازهر وفي كليات الاختصاص فيه ومنهم من عاد الى وطنه بشهادات تدل
عن دراساتهم النافذة مثل السيد انور سلطان والشيخ علي الطنطاوي ويزيد
هذا الى علمه وفقهه انه كاتب من الطراز الاول وهو من الطبقة التي
تحسن ادب العربية احساناً يساعدها على فهم الشريعة اكثر من الجاحدين
ومن قلت عنايتهم بهذه الفروع .

كل هذا حسن ويشير الى خير عميم لكننا لم نجد من تعلموا قد
وسدت اليهم الوظائف الدينية التي استعدوا لها وما زال بعض الجامدين
الجاهلين الذين تلوثوا بالرشا واشتهروا باضاعة الحقوق قابضين على ازمة
القضاء والافتاء ومن مصلحة الرؤساء منهم ألا يتركوا مجالاً لظهور الشباب
وهم يبنذونهم من كل وجه حتى تكون المنافع وفقاً عليهم وعلى جماعتهم
على ما كانت عليه الحال في القرن الماضي والقرون الثلاثة قبله . فعلى من
يفرقون بين الصحيح والبهرج أن يتخلوا عن كل اعتبار ويطرحوا الجهلة
القاسدين جانباً ويستعصوا عنهم بلئنة الصالحة من مثل هؤلاء وبذلك فقط
نخدم الشريعة ويدرك القوم في الديار الشامية الفرق بين الحكم الاستبدادي
والحكم النيابي .



أمّ طم عاتنة

ظهر في جبال العلويين على عهد الانتداب رجل اسمه سليمان المرشد ادعى أنه الرب وأخذ أموال الفلاحين واعتدى على أعراضهم وملك ثروة طائلة وكثر اتباعه . وقد اعتادت هذه الجبال أن يكون لها رب جديد في كل قرن ويكون مصيره القتل . ولما كثر تعديه وامتدت يده بالقتل لافقت الانفس ساقته حكومة الجمهورية الى القضاء فحكمت عليه بالقتل وارجعت جميع ما استصفاه من قرى الضعاف من الرعية الى أربابه فأحسنّت بذلك للعدل والامة .

وقام في خلال تلك المدة في غوطة دمشق على عهد الانتداب رجل عامي من نمط آخر ادعى انه صاحب طريقة ، فكثر اتباعه واضل العقول وخرج في معظم حركاته على الاسلام ، فهو ان لم يدع كالأول مقام الربوبية فالظاهر من حاله أن دعواه قريبة منها . وزاد على ذلك أنه تعدى على الابكار وسلب أربعاً منهم عفافهن فحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس عشرة سنة والتغريب مثلها وبشرين ألف ليرة دية اعراض تلك الاوانس . فوقع هذا الحكم كالحكم السالف أحسن موقع من نفوس الناس . ولا شك ان في هذه الاحكام عبرة لمن يخرجون على قواعد الشرع والقانون ويشعبذون لاكتساب المال واستبعاد الخلق . واطن النور اذا عم الاقطار لا يقوم بعد الآن سليمان المرشد ولا طه أبو الورد بمثل هذه الدعاوي السكاذبة ، قبحها الله وقبح في الاكثر من يوافقونهم على مخرفتهم وضلالتهم .



القضاء أيضاً

عرضت في هذا الكتاب للقضاء والقضاة أكثر من مرة . وسلامة القضاء هي الدعامة الأولى في ارتقاء الأمة . ولقد حرت وأنا أرقب سير القضاء في أرضنا منذ وعيت على نفسي فما اهتمت الى تقرير خطة ناجمة لتقويم هذا الخلل الظاهر فكاد اليأس يقضي على آمالي في اصلاح القضاء . وآخر ما بلغني من حوادث القضاء حكم قاض في إحدى المواسم باقرار عقد بين زوجين ليس في قوانين الأرض والسماء ما يوافق عليه . ذلك أنه قضى بأجراء عقد فتاة في السابعة عشرة على رجل في الثالثة والستين والدة الفتاة لا تتجاوز الأربعين أي أن عريس الزوجة يصلح جداً لها . وأبوها ذو سعة من المال وابنته جميلة وطلابها غير قليلين فما نفع القانون الذي يحظر مثل هذه العقود ولا نفع نصيح الناصحين لوالدي الفتاة ولا للزوج . وراح القاضي بالرشوة التي تناولها يقر ما لا يقره العقل ولا الشرع وارتكب هذا الأثم الذي كان أقل ما ينجم عنه امتحان الفضيلة ونسل فاسد يأتي من هذا الزواج العجيب .

أيها المهيمنون على القضاء ارحموا الخلق واطردوا هؤلاء الفاسدين الذين يحكمون هذه الأحكام الجائرة باسم الدين فأقل ما يجب عليكم أن تسوقوا أولئك العلفاء من القضاة الى الامتحان وتنظروا نظراً بليغاً في سيرهم وسيرتهم ان سوء حال القضاء لم يعد سرّاً من الأسرار فاضربوا رؤوس القائمين به بمصا التأديب الشديد ليكونوا عبرة العبر .

رأى سليم

ليت الامير فيصل بن الحسين (جلالة ملك العراق فيصل) في الاحياء اليوم ليرى تحقيق رأيه الذي ذكره لي في كتاب من باريز يوم ٤ مارس ١٩١٩ وهو ان الامة الاميركية والامة البريطانية ممنا ومنصل الى ما نحن نتمناه ان شاء الله تعالى ، حقق الله هذه الامنية بعد مرور نحو ربع قرن واستقلت سورية وكانت صورة استقلالها من أجل صور الاستقلال وامتها وأحسنها . وفي هذا الكتاب برنامج ما يجب الجري عليه في الشام من دعاية معتدلة لاتمس حكومة من الحكومات وكان كل ما قاله سديداً وأنا أقر هنا بأنني كنت أشك في بعض اقواله ولكن الايام أثبتت أنه كان يعرف ما لا نعرف وكان لا يرى أن ببوح بالحقيقة كلها ونحن كنا على احر من الجمر لنعرف مصيرنا . قيدت هذا هنا لاخلص منه الى القول بان ما يعرفه الملوك قد لا يعرفه السوقة . رحم الله الملك فيصل عداد حسناته وأياديه البيض على العرب .



غش سياسي

قال العلامة محمد علي علوبة باشا : أعلن لورد كرومر ان التعليم في مصر يجب أن يكون وسيلة لتخريج الموظفين فقط وان البلاد ليست في حاجة الى العلم الواسع أو الى الاكثار من التعليم بوجه عام . وقال كرومر يوم افتتاح الجامعة المصرية القديمة ان التعلم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي في الجامعة .

وكل هذا يمد في باب الغش السياسي وقد شهدنا من الدولة التركية اموراً كثيرة من هذا القبيل كانت تجوز على العرب لضعفهم مثل قول وزارة معارفهم الى مديرها ان المعارف عند مسلمي الشام كثرت كثرة زائدة فأسع الى أن تؤخرها لا ان تقدمها وكان الأميون يومئذ في أرضنا ثمانية وثمانين في المئة . لعن الله السياسة كم تبدل الحقائق وتحميد عن العقول .

ذكر لي أحد رجال السودان أن الحكومة الانكليزية لا تخرج في كلية غوردون من الشبان الا من نجد لهم عملاً من الاطباء والحقوقيين والقضاة وغيرهم ويقولون انهم اذا أكثروا من المتعلمين يقومون فيما وقعوا به في مصر مع الشبان المتعلمين الذي يزيدون عن حاجة الحكومة فهم لا يبنون ان يخرجوا اهل شغب ودعاة ثورة وسخط .



الاسماعيليون وامامهم

أهدى الاسماعيليون في الشام زعيمهم آغا خان (وعددهم كما يزعمون يزيد في العالم على عشرة ملايين والذي عليه العقلاء انهم لا يتجاوزون المليونين) في عيدهِ الماسي ماسة عظيمة زنتها توازي زنة جسمه وكان أهدى اليه في عيدهِ الذهبي وزنه ذهباً (٢٥ الف جنيه ذهب) .

يهدى الاسماعيليون في ديارنا هذه الهدايا العظيمة لزعيم بعد من أغنى أغنياء العالم وهم في ذاتهم من أفقر فقراء العالم تقانوا في تمجيدهِ حتى خرجوا على نظام العقل . وأذكر أن والدته هذا الزعيم زارت سلميه مرة وهي قاعدتهم وعشهم فكان الاسماعيليون يملون الارض التي وطأها مركبتها أما من أسعده الحظ فقبل يدها أو رجلها فقد كتبت له سعادة الدارين . ربما انكر ما وقع ويقع بعض خواصهم ممن يحجلون من هذه السخافات والأمر صحيح لا سبيل الى إنكاره ولا يزول تكراره الا بالمدرسة والكتاب وأرجو ألا يمضي جيل واحد حتى يصبح أهل الاسلام بمعزل عن مثل هذه الخرافات .

محسنان مصريان

الاول أحمد تيمور باشا والثاني قليني فهمي باشا كان الاثنان يعطف كثيرا على من قعد بهم الدهر وأصابهم الشيخوخة يرسل وكيله رأس كل شهر ومعه كيس من الجنيهات المصرية الذهبية ويدفع لكل واحد ما يكفيه وأسرته وقد حلفهم أن يكتموا ما يصلهم منه فما امكن الا انتشار فضله بعد سنين فساء ذلك وقطع صلاته وادعى أن أطبانه خسرت وريمها ما عاد يوازي نفقائه . وبعد مدة صارت تأنيهم الحوالات المالية من احدى المصارف ولا يعرف المصرف ولا من صرفت بواسطته من عماله ولا المصروفة له . أما سائر صدقاته السرية فمجيبة من العجائب . وخزانة كتبه التي أعطاها للامة المصرية واشتغل بها طول حياته وحثت من الامهات النادرة والمخطوطات الفاخرة كل ثمين فقد قدرت بمئة الف جنيه .

أما المحسن الثاني قليني فهمي فاته يملك في مقاعة من بلاد الصعيد ستمائة فدان قسمها بين أسرته وبين أمته فأعطى الاولى نصفها ووقف القسم الثاني على مدرسة ثانوية ومدرسة ريفية وجامع وكنيسة وجعل سرايه في حلوان مستشفى . تيمور فيما قيل كان يملك اربعة آلاف فدان أعطى جزءاً منها للخيرات وقليني يمد رجلاً مستوراً فنزل عن نصفها وكلاهما في المكارم فرسا رهان . لو كان أغنياء المصريين يسرون على هذه السيرة الحسنة ما بقي في مصر فقير ولا جاهل ولا مريض فسبحان الملهم .

التاريخ الهجري

رأيت منذ خمسين سنة ان التاريخ الهجري كاد ينسى في ديارنا واعتمد العلماء والحكومات والتجار وغيرهم على التاريخ المسيحي فكان يشق عليّ هذه الاهمال واغضب لعدم حرصنا على مقدساتنا وقد وفقت فيما دعوت اليه وعادت الحكومات وغيرها في مصر والشام الى التاريخ الهجري تكتبه مقروناً الى التاريخ المسيحي .

وممن ناقشني في ذلك صديقي واستاذي العلامة الدكتور صروف منشيء المقتطف كتب الي من مصر يوم ١٠ جمادى الاولى ١٣٢٢ ما يأتي :
جارتك في التاريخ الهجري ولكن باخا العرب لا يثبت في الارض الا ما ينفع الناس والتاريخ الذي جرى عليه اصحاب الملايين والاساطيل والمدارس والمكاتب والمعامل ارباب العلوم والفنون وأهل الجهد والاجتهاد والخمس مئة المليون سكان اوربا والمئة والخمسون مليوناً سكان أميركا ، هذا التاريخ لا فائدة من تركه ولا يحتمل أن يزول وقد جعلت الصين واليابان تستعمله وكان العرب في اول عهدهم يستعملون تاريخ الاسكندر لانه كان شائعاً ولم يروا في ذلك ضعة اه .
ونحن نستعمل التاريخ المسيحي ولا يجب بحال أن نتخلى عن تاريخنا .



ادعاء الشرف

في الحديث الشريف : « ملعون بن ملعون من انتمى الى غير ابيه أو ادعى الى غير مواليه » وفيه : « خيار الناس في الاسلام خيارهم في الجاهلية اذا فقهوا ، وفيه الناس كالابل ترى المئة لاتجد فيها راحلة . » وبعد فقد كثرت دعوى شرف في دولة المعجم ودولة الترك في القرنين الاخيرين حتى بلغت مبلغاً من السخف عجيب ، وغالى الناس في النسبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام مقالة خرجوا بها عن المنطق . وانشأ من صحت انسابهم يستنكفون من ادعاء الشرف ويتحامون الظهور به في الملأ

كما حاضرت به في المجمع العالمي العربي في موضوع انحطاطنا ان قلت فيه : ولله كان من فرض الخليفة الثاني المعطاء للمسلمين أول خطوة خطتها الامة نحو الكسل . وبالمطاء خرجت التجارة من ايدي العرب على ما كان تنبأ بذلك أحد كبار الصحابة واغنيائهم حكيم بن حزام . اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ، ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصي الثمر وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب . وكان كل من يمت بصلة القرابة إلى آل علي أو آل العباس مثلاً يجب على الدولة ان تحبوه وذريته كل ماطمح نفسه اليه . حتى إذا كان العهد العباسي الاول أصبح ابناء الدعوة وهم يستأثرون بحجز من الجباية والخراج يتناولونه عفواً صغواً ، ونما أولاد العباس نمواً هائلاً حتى بلغوا في مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين الف انسان يمشون من بيت المال . ومن ضمن له عيشه على هذه الصورة ، لا يحتاج لان يعمل بيده ولا بعقله ، ويجد من وقته فراغاً يصرفه في شهواته ولذاته ، والنساء من أجل مايلبوه به ويعبت .

وكان في مكنة الموسع عليه ان يقتني من الجواري مايطيب له ، وان يجمع بين أربع زوجات مہرات ، ينسلون أولاداً يدفعون بهم الى الخدامات يربينهم والى مختلفات الدم والجنس برضعتهم . وبديهي أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيباً غير طبيعي بؤرة تحاسد وكيد ، لحرص كل زوجة على أن يكون لاولادها لا لاولاد ضرتهـا الشأن الاول في البيت . نعم عاشت الطبقة العالية المجمع على مكانتها هذا العيش الخفضال ، لم يفتها شيء من مباحج الحياة الا تمتت به سواء أحله الدين أم لم يحله ، هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جنيه ، وهو في ذاته مرصد لمصالح المسلمين فقط ، وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته واهلها عبيده ، وعلى المولى أن يستحصل ويجد ، وعلى سيده أن يستهلك وينعم . تأصل خالق الاستجداء في هذا القربق من ورثة الحسب والنسب حق وهم الواهون ان هذا العطاء غير معيب وهم لايتعلمون ولا يتفقهون ولم يتعلمون وهم ورثوا الشرف في دماهم وصفت فطرتهم ففدا العلم في متناولهم وطبيبي التنقل في بيوتهم! اهـ وكان في ردهة المحاضرات شخص من ادعياء النسب ، والناس مصدقون بانسابهم ، فاغتاظ وظن أننا نتعامل على الاشراف ونزيف الانساب وما فهم من كلامنا غير ذلك .

كان القوم على العهد العثماني يتفانون في اثبات شرفهم في سجلات وحجج ويشهدون من يشهدون على انهم من السلالة الطاهرة وزادهم استماتة في هذه السبيل كون هذا النسب ينجيهم من الخدمة العسكرية واذا قيل الخدمة العسكرية يومئذ فمناها الموت ومن نجا منه فبالمصادفة وطول الاجل . فكثرت لذلك العائيم الخضر ، وكانت شعار الاشراف في بعض القرون والدول ، واصبح الامر على غاية الاخلوكة وكان اكثر من خمسة وأسمين في المئة من ارباب هذه العائيم اميين جهلاء لا يعرفون حراماً من حلال ولا يحترفون حرفة يعيشون بها ليس لهم من دعواهم او الدجل والشعوذة .

ولو جئت تسأل احد اصحاب الخضر اي صفة بقيت لكم من صفات
الشرف بالله عليكم ، وهل هذا الذي انتم عليه هو شرع جدكم
الذي جاء به الابيض والاسود والاحمر والاصفر ، وابلغه لآل بيته
والامة اجمع ؟

وما اعجبني قط دعوى عريضة ولو قام في تصديقها الف شاهد



وعدة العثمانيين

جاء من الولاة العثمانيين في العهد الاخير من اخلصوا في خدمة الولاية التي وسدت اليهم وفي مقدمتهم مدحت باشا في سورية فانه كان مجدداً وحرص على ادخال ولايته في التمدن وعمل في اشهر ما لم يعمل غير في السنين الطويلة ومنها ما كانت ينكره بعض المتعصبين ومنها ما كان يصفق له بعض الاذكياء المنورين ولو كانت نية الدولة يومئذ ان تدخل في المدنية حقيقة لتركت امثال هذا الرجل سنين في عمارته بعالج اصلاحها ولكنها كانت تبين له القتل وقد قتلته بالفعل في سجن الطائف وقيل انه قال ذات ليلة في مجلس شراب : أنا خالع الملكين وأبني لها ثالثاً ، وأظن هذا الكلام مما تقوله عليه المنافقون ولو لم يكن لمدحت باشا في الديار الشامية إلا أنه وضع أساس التعليم الابتدائي فيها لمكفاه منقية . وجاء الصالحون من الولاة وما كانت اعمالهم توازي شهرتهم ومنهم حمدي باشا ورؤوف باشا وغيرها . ومن اعظم ولاة العثمانيين في العراق داود باشا عمل في العلم والصناعة ماعمله محمد علي الكبير في مصر إلا أن عمل هذا استمر وعمل داود باشا انقطع بعده كما انقطع عمل مدحت باشا في الشام .



غنى شعراء

القيت محاضرة في حلب (٢٣ شباط ١٩٢٣) كان موضوعها سيف الدولة قلت فيها انه كان الى جهاده في غزو الروم والدفاع عن بيضة الاسلام ظالماً مسرفاً في المال يستصفي أملاك الرعية ويصادر أموالهم ويبيد الدور والقصور ويظهر من الابهة والبذخ ما يعجز عن مجاراته ملوك العباسيين والامويين والفاطميين فانه احتفل بعرس أولاده وأولاد أخيه فانفق فيه سبعمائة الف دينار توازى قيمتها بسكة زماننا سبعة ملايين دينار ، وان قاضيه أبو الحصن كان إذا مات أحد أخذ تركته لسيف الدولة وقال : كل من هلك فللسيف الدولة ما ترك . وكان يصادر التجار بألوف الألوف . ونقلنا ما قاله ابن حوقل من أن بني حمدان أكبوا على نصيبين ، وكانت تضمن بمائة الف دينار ، بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى أن حمل ذلك بني حبيب وهم بنو عم بني حمدان الى ان خرجوا بذرارهم ومواسيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس إلى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وعادوا الى بلاد الاسلام على بصيرة بمضاره وعلم بأسباب فسادهم ، وقلوبهم تضطرم حقداً فلاحق بهم كثير من المتخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلاد الاسلام وخربوا الضياع ودكوا أسوار المدن . افضت في هذا كما افضت بإفضال سيف الدولة على الآداب حتى صارت حضرته بمن ضموا اليها من عظماء الشعراء والادباء والعلماء كحضرة بني العباس فاستعظم بعض أدباء الشبهاء ماقلته واستبعدوا أن يكون سيف الدولة على ما وصفت من ظلم واسراف ، والسبب في انكارهم انهم تشيعوا بما قاله أبو الطيب المتنبى في سيف الدولة فظنوا كل ما قاله فيه حقاً وصدقاً . وفاتهم اغراق الشعراء على الدهر في المدح والهجاء الى ما لا يقبله العقل . خلع المتنبى من الصفات على سيف الدولة اضعاف أضعاف ما يستحق فجازت

مبالغاته على من يأخذون الامور على ظواهرها بدون نقد الشعر . عاطفة وأدب لا تؤخذ منه حقيقة الرجال ولا تاريخ بلادهم الشعر كذب والتاريخ حقائق وشتان بين المذهبيين . وسيف الدولة حوى شخصه النقيضين أيضاً وبحق ما قاله فيه مسكويه لمات : « بكت الأمة منه وعليه » .

في خمسين عاماً تبدلت أساليب الشعر ومراميه وأخذت النفوس تهمز من سماع شعر المديح ، وتتأفف من المداح ، حتى كاد هؤلاء أن لا يجدوا من يستمع الى نفاقهم ، وبطل ذاك الزي البالي الذي كان قروناً لا يعرف من الشعر غيره ولا يهتز الاغناء والاذكياء من الامراء لسواه . واليوم ترى أكثر الأدباء يستظهرون من الشعر ما فيه وصف الطبيعة او ما ضم نكتة وغزلاً وقل أن يحفظوا شعراً فيه اكاذيب ، كان الشعراء يستجدون بها ويصفون العادل كما يصفون الظالم وينوهون بالجاهل ولا ينوهون بالعالم فالحمد لله على هذا التوفيق في تبدل الافكار ومعرفة الادب الحق .



الجنرال سبيرس

هو رئيس البعثة البريطانية التي دعيت باسمه وانتدبت على سورية ولبنان بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ وهو أول وزير بريطاني في هذه الديار . عطف عطفاً عظيماً على السوريين واللبنانيين وكان أول من عاونهم على نيل استقلالهم فله المنة العظمى عليهم لنزعه ربة الاستعباد الفرنسي عن أعناقهم ، وامتناعهم بحريتهم السياسية وسيادتهم القومية ، ناضل بشخصه وماله حتى تم مصير بلادنا كما أراد وأرادت دولته .

في رجال السياسة من يفعلون سراً ومنهم من يفعل جهراً والجنرال سبيرس المحبوب عمل لتحريرنا في السر والعلن كل ما اقتضى الواجب لانصافنا من خصمنا . فهو من الطبقة المختارة من السياسيين الذين يحسرون ألم المتألمين من الشعوب ، ويستخرون أنفسهم أو يستخرهم حكوماتهم لامتناع المستعبدين باستقلالهم . تفضل هذا الجنرال ودعاني الى قصره بدمشق مع من دعا من رجال سورية فتعرفت اليه والى السيدة قرينته الفاضلة واعجبت بأدبه وتواضعه وصحة احكامه وسلامة مقاصده ثم اقتضت عادي الابتعاد عن مجلسه العالي حباً بالا أكون شاغلاً وقته الثمين الذي كان يصرفه في خيرنا .

لم أسمعني الحظ ان ادرس سيرة كثيرين من عظماء الانكليز مع شدة إعجابي بهم ، والقليل الذين اعمت النظر في حياتهم أنبأوني بان رجال بريطانيا العظمى نط آخر من رجال الدول . ولا امثل لذلك الا برجلين كبيرين احدهما في الادارة وهو لورد كرومر عميد افكلترا في مصر ، والثاني في العلم وهو السير ويلكوكس المهندس الذي اسدى لمصر والمراق يدأ لا تنسى لاغناء القطرين . لا جرم ان امة تفيغ مثل هذه العظمين في قرن واحد حرية ان تعد امة عظيمة . وصاحبنا الجنرال العظيم هو أيضاً من افراد الدهر في السياسة الذين يلحقون بلورد كرومر والسير ويلكوكس . متمه الله بالصحة واجرى كل خير للانسانية على يده الكريمة .

الدم الطاهر

فرّ السيد عبد الرحمن الكواكبي من حلب الى القاهرة في المقد الاخير من سلطنة عبد الحميد الثاني العثماني خوفاً مما كان يتوقمه من جور الاتراك ، وجاء مصر ونشر في جريدة المؤيد مقالات في الاستبداد كانت لها وقع حسن عند أعيان البيان في ذاك الزمان ، لما حوت من امتاع وابداع . ثم رحل الى اليمن يحمل فكرة انشاء دولة عربية ، وقاسى أنواع المذاب ، وقطع صحراء الدهناء الصعب اجتيازها على الطيور فضلاً عن الآدميين ، فبلغ السلطان خبره وبث الميون والارصاد للقبض عليه ، فسلم السيد من أيدي زبانية الملك وعاد الى مصر ، وهنا نشأت لي معه صداقة وأخذت من تجاربه وحكمته .

وجاءني ذات ليلة يسمر ممي في داري مع الحبيب رفيق بك العظيم يستشيرني في أمر عظيم ، قال إن الخديوي عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاسكندرية ، وكان الخديوي يصطاف فيها ، ليقدمه الى السلطان العثماني ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ، ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب عليّ وعلى رفيق بك ابداء رأي في موضوع جدّ خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هواة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حارّ في أمره بين القبول والرفض ، وأنه شعر بالامس بوجع في ذراعه وما عرف له لميلا . وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول قم يا كورد علي فان صديقك أبي مات ، فاضطربت اضطراباً قد أن

اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجّيته بيدي ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل وأبنته الصحف تأييداً قدرته فيه قدره . شغل أصحابنا هول الفجعة ، وذهبوا الى أن الكواكبي مات مسموماً واستبعد بعضهم ذلك . وكان الناس يتهمون عبد الحميد بأنواع من النهم ، وكان بعض من اقتربوا منه يبرؤونه مما يرمى به . والغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكبي وأراد القضاء على أفكاره المضرة ، فأرسل مدير معارف بيروت عبد القادر القباني بأخذ أوراقه ، ويرضي أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً مصيناً من كتب الكواكبي المطبوعة ، أما المخطوطة فأخذها أحد البائسين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته ، واسمه (العظمة لله) ، وكان سياسياً كسائر ما خلطه يمينه .

فقدت الأمة العربية بموت الكواكبي رجلاً قوي الشكيمة ، نادر الشكل في الرجال ، بعمله وبمد نظره ووطنيته . غادر هذه القانية قبل أن يستمتع بجهاده (كان في الثالثة والخمسين من سنه) وكان يعرف من انحلال المملكة العثمانية ما لم يعرفه إلا أفراد ، ورزق من الشجاعة ما عجز وجوده في الخلق ، وكان يعتقد أصدق اعتقاد في دعوته ، ويتجلى النبيل في حديثه ، والاخلاص في حركته . ولا عجب فهو سليل بيت شريف أخرج للإمامة علماء أجلاء على الأيام ، ومنهم السيد مسعود الكواكبي شقيق السيد عبد الرحمن ، وكان هذا يقول لي أن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الحظ الاوفى أن زاملته سنين في المجمع العلمي العربي ، رأيته فيها ورصفاً مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال تراجمهم العظيمة ، وكانوا ممن اعتر بهم العلم وارتقى الفكر الاسلامي .

حللت روح هذين الحبيبين الشقيقتين والخبرين الكاملين فما سقطت
فيها على عيب من عيوب الآدميين ، جل الصانع ! وسجلت أنها تقدما
جبلها في كل ممانى الفضل والنبيل ، وما أسفًا إلى أن يعيشا كأكثر
أبناء الفقهاء عيش التوكل والخنوع ، يأكلون ويشربون ويقناسلون
ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل الى ايديهم . اللهم الطاهرينم عن صاحبه
كيفية قلبت به الاحوال ولا يحتاج الى من يدل عليه (ان غاب عنك أصله
فدلأله فعله) .

الافراط في الكرم

قال لي الاخ فارس الخوري انا أعرف أن رئيس الجمهورية (السيد
شكري القوتلي) صديقك ويستمع لمصائحك فهلا نصحت له بالكف عن
هذا الاسراف الذي يسرفه بماله ، ولسان حاله انه المجد ، وأي مجد إذا جاع
ابناؤه بعده ؟ فقد باع بالامس غيضة حور بألف ذهب عثماني ، واطنه انفق
اكثر ثمنها حتى الآن . فقلت له انك تعرف أن رئيسنا عاش في بيت
مارأى فيه غير المكارم والصدقات ، فقد كان أبوه كريماً ولكن بمقياس
صغير ، أما جده فكان مضرب الامثال بكرمه ، فرجل نشأ هذه النشأة
يستحيل ان يستمع لنصحي أو نصح غيري . ثم أني اعلم ويعلم العارفون
عن يقين ان الرئيس انفق في سبيل القضية ارثه من أبيه وانه جاءته ايام
كان فيها مضيئاً جداً ، وهو لا يقطع صدقاته واداراته عن اعتادوا التبلىغ
بماله ، فكان يستدين وينفق على يوتهم ، فالكلام في الاقتصاد لا يجدي فتيلاً
مع هذا الرجل ، وكل ميسر لما خلق له .

السيد خالد العظيم

جاءني أحد كتاب الصحف الدمشقية يلتبس حديثاً ينشره في جريدته فاجبته الى طلبه ، وان كنت من أكره الناس لمثل هذه الاحاديث ، ولايضائية في أكثر من الصحفيين والمصورين . وجرنا الحديث الى ذكر رئيس الدولة السابق السيد خالد العظيم فسألته ماذا تعرف عنه ؟ فسكت كأنه لا يعرفه إلا بالاسم فقلت له وانت تشتغل بالمصالح العامة ؟ اما بلغك ان السيد العظيم عفا عن راتب الرئاسة ولم يندس بالنفقات المستورة ؟ وانه انفق من ماله عشرين الف ليرة سورية على الولائم والدعوات باسم سورية مدة سبعة أشهر ، وكان مثال الحاكم العادل في رياسته دفع غوائل كثيرة عن بلده ، ومنها لما نقل مدير مصرف سورية ولبنان أموال فرع دمشق الى زحلة ، وبالطبع كان موعزاً اليه بعمل ذلك من المحتلين فهدده ابن العظيم أن يبيع الاموال في الحال والا يرسله الى السجن فاعيدت ، عمل هذا وقال الذين ادعوا ان الاموال تحفظ هناك ليس بصحيح فهذه اموال سورية إذا نهبت فلينهبها ابناءؤها الذين جمعت منهم فهي مالهم لاينزعهم فيها منازع . والثانية أن الانكليز لما احتلوا سورية وطرדوا الفرنسيين الفيشيين منها جاءه أحد رجالهم يحمل دفترًا فيه مئات من أسماء أهل دمشق وغيرها وطلب اليه نفيهم او تسليمهم للبريطانيين بدعوى انهم أعداء بريطانيا العظمى فتبسم السيد العظيم وقال مخاطبه ليس عندكم هنا أعداء بل أحباب ، ومارمى به هؤلاء المتهمون لا اصل له الا في مخيلة اصحاب الاخبار وكتابة التقارير ، وتناول الدفتر منه وطواه ، ولم يظهر عليه احدًا أسدل الستار عن تلك المأساة المنتظرة هذا الى غير ذلك من مآثره في

هضة البلاد الصناعية والاقتصادية وكان كل ما يأتيه في حياته يقصد به النفع العام . ينفق من ماله مقتطاً ولا يقول ولا يتبجح . وهذه الامور بلغتني بعد حين من بعض الاصحاب وذكرتها له فسكت خجلاً ففرط اذبه وتهذبه .

هذا الى صدقانه السرية والرواتب التي يدرها على ذوي الستر من المحاويج والمموزين فلو كانت على رأس ابن العظم قبعة لرفعتم من شأنه ولتفتنم بآثره ولكنه مسلم وعلى رأسه طربوش وعجيب ان تنسوا أو تقتناسوا مثل هذه الشخصية ، ولكن زامر الحي لا تطرب مزامره .

اختيار الوزراء

لم تظهر لي الحكمة في نصب وزراء ضعاف من الفريق الذي عرامن كل تجربة في الادارة والسياسة . والأحجى الا يمهّد بوزارة الامن سبقت له خدمة في أعمال حكومية لا تقل عن عشر سنين ، أو من أسلم الى التمرين مدة طويلة فأثبت خلالها كفاءة عملية مضافة الى ما هو مجهز به من شهادات

بالجهد لا تدار وزارة بل لا يدار ديوان صغير ، وعجبنا أن رأينا في هذا العهد تساهلاً في اختيار الوزراء ، وغاية رجائنا أن يكون هذا الحكم سالماً من الشوائب ، ندير دفته فئة صالحة من المصطفين الاختيار . ونحن أحرار في اختيار الأصلح للخدمة لا تنازعنا هذا الحق دولة ولا جمعية ولا حزب ، وعلينا تبعه من تقرب ونقصي ، ومصصلحة الامة فوق كل مصلحة . ومن يتحرى الأنسب يظفر به ، ومن حرص على الحسن يصل اليه .
قد عرفناك باختيارك اذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

المؤلف الشاب

الى ابني الروحي صلاح الدين المنجد : عجيت لما نزلت لك عن صورة
مخطوطة من كتاب رسل الملوك لابن الفراء وكان عليك ان تمجب
ان لم ادفعا اليك . كنت في كل زمن أرى الضنائة بالملم ابشع انواع الضن ،
والكتاب سواء نشرته أنا أو طبعه غيري فالهم ان يصدر للناس وينتفعوا
بموضوعه الطريف . وقد وفقت ونشرته في حلة انيقة ، وعلقت عليه ما زاده
امتاءاً ، وانيمته بملحق اماط النقباب عن حقائق حجة جاء أكثر فائدة من
الاصل . حليت القامض وبسطت الجمل فجزاك الله خيراً عن العلم .

اني ما زلت اعجب بمن يعرف واجبه ، ولو كان في مؤافينا الشباب كثيرون
مثلك يقومون بواجبهم لكانت الشام اليوم ارقى من مصر . سر في سبيلك
ولا تتاون لحظة عن متابعة ما أنت بصددده ، فقد استعددت لما تخوض عبابه
وستستعيد مجد الاجداد وتثبت انك ابن عبد الله شيخ القراء في دمشق
عليه الرحمة .



كبار الصحافيين

اقيمت في دار الاوبرا الملكية في القاهرة حفلة لتأبين صديقي الاستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الاهرام ، وتفنين الخطباء والشعراء في ذكر صفاته وذكروا فجيعة الامة به ، واثبتوا انه ممن وقع الاجماع على حسن بلائه في خدمة مصر نحو اربعين سنة ، اخلص لها في سره وجهره ونفمها بنبوغه وصفاء نفسه وحببه للخير .

وقد اقترحت في تلك الحفلة وضع كتاب يلم فيه بجهاد المؤبين وبذكر طرف من منازعه ونموذج من مقالاته ، وبعض آراء كبار رجال الفكر فيه ، فوعدني صاحب الاهرام يومئذ وكان حاضراً بانقاذ هذا المقترح . ومضت اعوام ومات صاحب الاهرام والكتاب لم يصدر ، ونسي داود بركات فلا يذكره اليوم الا بعض من عرفوه ، وهذه عاقبة النعم في الصحف اليومية يذكر الصحفي ما دام حياً والقوم محتاجون لقلمه ، فاذا مات ينسى في امته التي ينسى فيها كل شيء بعد حين .

قال لي داود بركات عليه الرحمة في سنة ١٩٠١ ونحن في المحجر الصحفي في بيروت وقد بعدنا عن مصر وانقطعت اخبارها عنا ثلاثة أيام ، والقلق باد على وجهه : بالله عليك لم لا تعطيني انبأؤها وكل ما فيها يطربني ، أطرب لشرة اهلها واعد السعادة في سعادتهم واطرب لنفمتهم ولهجتهم ولسكونهم وحركتهم بل أطرب لحيوانهم وجمادهم .

هذا الرجل الذي يحمل مثل هذه المواطف الشريفة لمصر اصابه ما اصاب الصحافي ، بنوه به في حياته فاذا غاب عنهم يقولون من ذكره اليوم بعد اليوم ولو كان من عيار هذا العظيم بامله وآدبه وأخلاقه وصدقه ، ومن أجل هذا كنت كثيراً ما أقول لمن صرفوا جهودهم في الصحف وكتبوا فيها

المقالات الممتعة وافادوا بما كتبوا أدب العصر وسياسة العصر امثال داود بركات وشكيب ارسلان وخليل مطران وامين الرافي وامين الجليل وخليل زينية وابراهيم سليم الفجار وجبران تويني ويوسف العيسى ونجيب الريبس ومعروف الارناؤوط وامين سعيد واضراهم من الشاميين والمصريين — ان يدخروا اشياء من محصول اقلامهم لتكون لهم ذكرى وان بعدم تلميهاً وسلوى .

دهاء الانكليز

يوم ضرب الفرنسيين مدينة دمشق في الثورة السورية كان احتجاج قناصل الدول شديداً جداً على فرنسا ، وكان الامل الاكبر فيهم صديقي المستر سمارت قنصل بريطانيا العظمى ، واثن انتهى هذا الاحتجاج باستدعاء القناصل كلهم من عاصمة الشام فقد أورشهم احتجاجهم مكانة عظمى لتألمهم للظلم ، وانكارهم تخريب مدينة عظمى مثل دمشق لأسباب تافهة .

والانكليز لاتدانيهم بدهائهم امة ، وقد اشتهروا عندنا بانهم جد اوفياء لاصحابهم ليس من السهل لديهم تركهم وشأنهم بعد الصداقة ، ولا يسارعون الى وضع ايديهم في ابدي غيرهم ثم ينسونهم كما يفعل الفرنسيون . فهم يترشون في صداقتهم وبتريشون في عداوتهم . وهذا من بعض ما خصوا به من الصفات .

كلمة حق

سألت الشيخ سليمان الاحمد عالم العلويين في عصره عن تاريخ العلويين فاجابني لا يوجد (ويا للأسف) وثائق مبعثرة يصح الاعتماد عليها بمثل هذا الموقف الا ما يؤخذ من أفواه الرواة واغلبهم اميون ، والتاريخ يتطلب الحقائق المرة والخاصة الموثوق بهم كانوا لا يعبأون بالتاريخ عياً أو زهداً قد لا يحمدم عليه اللاحق والله في خلقه شؤون . وقد استكتبت لكم منه ما قدرت عليه وعلى فضيلتكم الاستنتاج والتطبيق .

اما الكتب فليس هنا منها ما يشير الى شيء من ذلك الا مايكتب في تاريخ الكتاب بان يقال وفي هذه السنة حرق الوالي او المتصرف (بدون ذكر اسمه) المقاطعة الفلانية وقتل المقدم الفلاني دون أن يتعرض لسبب ذلك الا ما يتخيله بانه من فساد فلان المقدم او الآغا او نحوه . وهذه الكتب اما قصصية ضعيفة العبارة لا يؤبه لها . أو مذهبية بضن اهلها حتى على الشمس برؤيتها ، سواء أكانوا على هدى أم من امرهم ام على ضلال . والكتب القديمة النفيسة ذهبت طمعة للنار والتراب من الاهوال والويلات التي مرت في القرون الاربعة المتأخرة التي يؤلم ذكرها ولا خير في نشرها .

وفي هذا القرن كان أهل الحاضرة يمدون ما يفعلوه جهلة العلويين بفتيا علماء الدين فيمصوبونه بهم لدى الحكام ويفرونهم بهم وبالرؤساء ويحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة . وكانت الدين أعظم الوسائط التي توصل الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلوية من أشرف وأجل بيوت العلويين في حادث سنة ١٢٩٥ فاطلب تفصيله من صديقكم بدوي الجبل) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية بل على وجهاء البلد ورؤسائهم

السنين وعلمائهم ثم على أهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا لما بين عشائرم من الضمائن والاحقاد والقارات يسارعون الى الدخول بخاطر الاغوات ثم بخاطر الحكماء عن ايديهم . ومن تم له الفوز جردت له الحكومة المساكر الجسارة وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم وبمشيرته على عدوه ، ولا تسلك عما تفعل الهمجية ومضى دوخت تلك المشيرة وقتل اشرافها وذلك عاملت الحكومة المشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا أدري الى أي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم أسبابها بايدي المصلحين العظام الخالصين امثالكم والتبسط بشرحها لايحدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسماة الدين وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

والذي أراه أن قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال الطويلين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا اخرجت جردت المساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت فاذا رجعت المساكر عادت المشار الى ماكانت عليه يضبط الحاكم الحازم جماعهم . ومضى بدل بحاكم ضيف الادارة أو مرئس عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجهلة .

لما حكم ابراهيم باشا المصري دوخ البلاد وقطع دابر أهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها سلاب ولا قاطع سبيل فرلع الانام في مجبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف . فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره مثال ومنه ما ترى ضمن الرقعة المكتتبة فعذراً ايها الاستاذ العلامة فان التاريخ مظنة الاغفال والاخلال من كل الرجال فكيف بالمعزة ضعفاء المبارة مثلي .

مجمع قواد الاول

« باسمعالي الرئيسى وبافواينى الاعزة »

اليوم يودع بعضنا بعضاً ويتفارق الزملاء الى العام المقبل . واني لمفتبط ان كان لي الحظ الاموى بان رافقت المجمع منذ نشأته ، أيام كنا نجتمع اجتماعات خاصة في احدى قاعات مجلس النواب للمفاوضة في قانونه ، وذلك قبل أن يوافي القطر زملائي الاجانب . ومن فضل الله ونحن في آخر دورة الانعقاد الرابع أني لم أتخلف طوال هذه المدة يوماً عن الاشتراك في الجلسات واللجان . وياسادتي ان سروري بما وفق المجمع اليه من الاعمال لا يحول دون أن أبوح لكم بما كان يحول في خاطري ، خصوصاً ونحن كأبناء بيت واحد يجب على كل فرد منا أن يمره بالعمل الصالح . وهذا ما يقيم لي العذر على تصريح ربما كان من الاحجى الامساك عنه . ولكن هو الرأي قد ينفع إذا صدر من صميم القلب . ودخول المجمع في الدورة القادمة في طور جديد يستدعي اعترافنا بقصورنا ، ان كان يصح أن يسمى قصوراً .

« أريد ان اقول اننا في الاعوام الماضية قد أكثرنا على مارأيت من القول في الاحابين ، واشتدت بعض مناقشاتنا الى حد كان يجزىء بعضها ، وربما استغرق الكلام على لفظ واحد ساعة أو بعض ساعة ، نخرج خلالها قليلاً عن الموضوع المطروح للنظر ، ويدخل في صلب المناقشة ما لا يتصل بها بسبب ، فضاء بذلك وقت كان الواجب صرفه في السير الى الهدف الاسمى الذي نرمي اليه ، واذا عرفنا أن مجموع ساعات اجتماعاتنا العامة في السنة لا يتجاوز السبعين ساعة وجب علينا أن نقتصد في كلامنا وحركتنا .

« أنا لا أوجه بهذا القول ملاماً الى احد مادامنا كلنا نهم لنجاح ماوسد البنا من عمل ، وما دام بلاء كل عضو معروف في الحاضر والقابر ، بيد أني

والحق رائدي فيما أقول ، كنت أرى الجلسات لا تضبط ضبطاً محكماً ،
وان الاحاديث كانت تتماور فيها في آن واحد فيخلط الكلام ولا يستقصى
ما يقال برمته ، مما حال دون اشتراك بعض الاخوان في جميع المناقشات ،
وهي تحتاج قبل كل شيء الى هدوء وروية .

» ثم إن من المسائل التي أحب المجمع خوضها ، ورسم بعض الخطوط فيها
ولم يصل الى نتيجة منها مسألة تصحيح الاغلاط الجغرافية ، وقد كان لمهد
أعضاء لجنة الفنون منذ السنة الاولى أن يصححوا الاغلاط الشائنة ، وفوض
اليّ ارجاع الاعلام الاندلسية والصقلية الى مصطلح العرب ففعلت ، ورفعت
التقرير الى ادارة المجمع والى الآن لم يصدر أمر الرياسة بالنظر فيه ،
مع شدة الحاجة الى مثل هذه الاعلام ، والكلام يجري عليها كل
يوم في الصحف .

» أغفلت الرياسة على ما يظهر هذا التقرير اغفالها تقريري الذي قدمته
منذ أول الدورة الثانية وقد ضمنته خمسمائة كلمة في الشؤون العامة وشرحتها
شرحاً خفيفاً ووضعت لها ما يقابلها باللغة الفرنسية ، وما عرفت لهذا الاغفال
علة ودعائي الخوف من أن يأمر الرئيس بطرحها في سلة المهملات الى أن
تزدود بنسخة منها . هذا مع ان اقرارها يزيد في محصول المجمع السنوي
من الألفاظ ، وأنا لا أقصد بها ظهوراً ولا شهرة .

» ثم ان المجمع الذي هو ضالة المجمع المنشودة لم نسمع عنه سوى ما كتب
في المحاضر اياماً وقضينا في الاخذ والرد ساعات لم تسفر عن أثر عملي .
وما أدري ان كان بديّ بالعمل به ، أو هو لا يزال في عالم الخيال . واذا
لم يبدأ به الآن فحق يبدأ . واذا استحال اليوم وضع المعجم التاريخي وكان
من الصعب تأليف المعاجم السهلة للمبتدئين والمتنهمين في اللغة فلا اقل من
ان ننشر بضع كراريس على حروف المعجم في الالفاظ التي وضعا المجمع
لتداولها الايدي ويعرف المجميون مقدار وقعها من نفوس العارفين في
الاقطار المختلفة .

« اشار الى بعض هذه الامور زميلي الاستاذ نالينو في جلسة الامس لان هذه المسائل هي من العمل الرئيسي الذي انفي المجمع الملكي لاجله ، لا احياء الادب العربي الذي يسهل القبول به ويتمذر اي تمذر عند التنفيذ . وكل من عانى نشر الكتب القديمة يعرف قدر الجهد الذي يبذله كل من يطمح الى نشر نص قديم . ومن أعرف العلماء بهذه الامور اخواننا علماء المشرقيات ، فقد يقضي الواحد منهم السنين ولا يخرج بضع كراسات وأيت احدهم نشر من كتب العرب بمفرده ما لمعجز عن نشر مثله المجمع العلمية بمجموعها في السنين الطويلة ، وما ذلك الا لأن الرجل أخصى في هذا النوع من المعارف ، ومرن طويلاً على النظر في كتب الاقدمين .

« ثم ان مجلة المجمع لم تصل منذ انشئت الى كثير ممن يرجى انتفاعهم بها . وقد ملئت ، ولا عار في الحق ، بأشياء كان الاولى ان تتجرد منها ، واستنزفت صفحاتها على سبيل الاستثثار أو الاثرة ، وحرمت بعض الرفاق من المؤازرة فيها . والمقالات والتأليف بامتاعها وفائدتها لا بطولها وكثرة حروفها ، والمجلات تسمو بكثرة الايدي العاملة العاملة فيها . ولكم كنت اتخى لو اصدر المجمع مجلته في مئة صفحة منقحة موجزة وكف عن نشرها في أربعمائة صفحة وطبع منها عشرة آلاف ووزعها مجاناً .

« ساقني الى ماقلت النيرة على سمة المجمع والمعاونة على ايصال فوائده الى من يجب ايصالها اليهم . وكل منا والله الحمد غني عن طلب التمجيد بما له من اثر وسابقة . ولذلك ارجو ان يحل كلامي محله من الاخلاص وان يثبت في محضر هذه الجلسة الاخيرة ليكون لنا منه بعض الذكرى في السنين المقبلة ، فندخل السكال على عملنا ونجوده اكثر مما جودناه ، ونقوم حق القيام بما يفرض علينا لخدمة العرب والعربية . »

هذه صورة التقرير الذي اردت تلاوته فنفي رئيس المجمع توفيق رفعت باشا ، بما عرف فيه من ادب ، من انعام قولي ، وامر كتاب الجلسة ألا يثبتوا في المحضر شيئاً مما قلت .

ومن الغريب ان ما شكوت منه في تلك السنة لم يقو الرئيس الجديد على ملاقاته والى ساعة دفع هذه الاصول للعطبة لم يصدر المعجم الوسيط ولا غيره ولم تصدر مجلة الجمع منذ كسع سنين . وجلالة ملك مصر كما تصرفت بالسلام عليه يقول لي ولبعض زملائي الاجانب ان جمع دمشق يعمل اكثر من جمع مصر ، وكلا سمع ذلك أحمد لطفي السيد يتمتع ويمتاز غيظ الاسير على القدر .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً ككنقص القادرين على التمام

شهادة ملك بملك

قال الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الاردن في مذكراته : دعت الحكومة العثمانية امراء البيت العثماني لضيافة أقامتها كان الغرض منها الفتك بآل عثمان . وقد نعى الخبر على حقيقته الى السلطان عبد الحميد الثاني قبل جلوسه فاعتذر ولم تظهر الحكومة بمرادها .

وقال في السلطان عبد الحميد هذا : ولقد زعم الناس ان عبد الحميد الثاني كان ظالماً . لقد كذب الناس والله لم يكن بالظالم ولكنه الحذر والاحتياط . ولقد عرف بعد أن ذهب أنه لم يقتل أحداً ولم ينفذ حكم الاعدام في محكوم الا مرة واحدة ، وكان المجرمون يتركون في السجون حتى يدركهم الموت وأما الذين ينفون من بلادهم الى اسطنبول أو من اسطنبول الى الخارج فهم اوائك الذين عرض عليه أنهم أهل خلاف عليه أو على سلطانه ، فيخرجهم الى مكان لا يعرفون فيه ، فيقي دولته الفتن بهذا التدبير . وقال في الشام : رفعت الرايات العربية بواسطة الأيوبي (شكري باشا) وموافقة أحمد جمال باشا (لعله جمال باشا المرسيفي) القائد التركي المعروف ، وبارادة سلطانية اعلن الاعتراف باستقلال البلاد العربية (كذا) .

الخزانة التيمورية

اشتهرت خزانة العلامة أحمد تيمور باشا في الشرق والغرب لانها انتقاء عالم قضى حياته في جمعها والتعليق على امهاتها ووضع الفهارس اني لسهل الاخذ منها ، كانت أولاً في دار صاحبها في عين شمس من ضواحي القاهرة بجوار دار استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده فلما انتقل هذا الى جوار ربه شق على تلميذه تيمور أن يسكن تلك الناحية فنقل خزائنه الى قويسنا من عمل المنوفية احدى مزارعه ، وقد دعاني واستاذي الشيخ طاهر الجزائري لنصرف أياماً في قويسنا فقصيناها في البحث في نواذر كتبها بقرأ صاحبها من فهرستها اسماء المخطوطات ، ورجح الشيخ طاهر النادر والاندلس منها ، وأنا أكتب ما يقر عليه القرار حتى تجمع لنا من ذلك مقالة ممتعة في وصف تلك الخزانة العظيمة ، وقد رأيت الخزانة قريبة من عيش الفلاحين في قويسنا وقدرت ان النار بما نلتهم قصب بيوتهم فتسري الى البيت الذي فيه الخزانة ، فلفت نظر صاحبي الى هذا الخطر فما عثم أن يشرني بانه ابتاع أرضاً في الزمالك من أحياء القاهرة وهو على ان يبني فيها داراً لخزائنه ، وما هي الا اشهر حتى تم البناء ونقلت الخزانة الى الدار الجديدة ، ووقف صاحبها أفدنة يصرف ريعها على خزائنه . ولما توفي رأى ولداه اسماعيل باشا ومحمود بك ان ينزلا عن الخزانة لدار المكتب المصرية تجعل في زاوية منها فقل الانتفاع بها ، وسمعت هذه السنة ان وكيل دار الكتب المصرية اقترح أن تجعل في قلعة الجبل فنقلت الى هناك وبطلت الاستفادة منها ، وما نفع ذلك الوقف وما وقف الواقف .

الاعتراض والدعوى

كنت في شرح الشباب آخذ العلم عن شيوخ عظام في بلدي على طريقة تخالف الطرق المتعارفة إلى ذلك العهد ، فكان لقائي لهم ، بعد تلقي ما لا بد من أخذه من المبادئ ، لقاء اخوان لهم مجلس يجمعهم ، ورابطة تؤلف بينهم ، والندي لا يخلو من علم ودرس وتصحيح ، ونقد سياسة ، وإيراد نكات وفكاهات ، فكنا نارة نقرأ اعجاز القرآن للباقلاني ونعارضه على نسخ مخطوطة ، وأخرى تدارس الذريعة الى مكارم الشريعة المرغب الاصفهاني ونصححه على نسخ قديمة غير مطبوعة ، وآونة ندرس مقدمة ابن خلدون درس تدبر عميق وشرح وتعليق .

وكان في انبلد عالم جليل يفلب عليه التصوف ، يقرأ في داره لبعض تلاميذه الدروس المعتاد القاؤها عند مشايخ ذاك العصر ، وكان منهاجه واسماً مغرباً ، والكتب التي يدرسها من أطول الاسفار في فنها . فدخل الغرور بعض طلبته وغرتهم أسماء الكتب التي يحضرونها على شيخهم (المطول والاطول) فراحوا يزعمون أن من لم يقرأ هذه الكتب ليس بشيء ، وتراعى اليها أنهم يهزأون بالكتب التي نقرؤها في مجالس شبوخنا ، وتكرر اعتراضهم علينا ، وعلى حسن أخلاقهم وتصوفهم ، كانوا يستخفون بما ندرس وبطريقتنا بالدرس ، فضائق صدورنا ، وصدور الشباب ضيقة ، فاطلقنا عليهم اسم (جمعية الاعتراض) ولم ننجزم باكثر من هذا ، لانهم كانوا من اصحابنا وجيراننا ثم اعرضنا عن اعتراضهم ، وشغلنا بدروسنا ومطالمانا .

وما فتيء جماعتنا يتابعون النظر والدرس حتى فرق الموت بين الاساتيد والتلاميذ ، أما أصحاب الاعتراض فانفضوا من حول شيخهم بعد حين ، واشتغل كل واحد منهم بوظيفته وتجارته وزراعته ، ولم يعاودوا الدرس ولا عادوا يعملون عقولهم بما تعلموا من الدساتير ، ولا حدثتهم انفسهم بان يتبعوها بشيء من العمل ، ولا بالرجوع الى ما صرفوا فيه أجل أيام شبابهم من تصفح المطولات . ومضى لهم أربعون سنة أو تزيد لم يسمع لواحد منهم خلاصاً صوت في جامع أو ناد أو حفل بخطبون فيه أو يحاضرون ، ولا عهد لهم أن أنشأوا رسالة أو وضعوا تأليفاً أو نظموا قصيدة يضمنونها أدبهم وعواطفهم لان يكتبوا مقالة يتطلبون من ورائها اصلاحاً أو يثبتون فيها فكراً . وندموا فيما نظن ، وهم الاذكياء ، على اضاءة اوقاتهم في نقد غيرهم ، وخجلوا من انفسهم لاجحاجهم بها أيام الطلب ، وما أجدى عليهم اعتراضهم الا أنه أخرهم عن اللحاق بالعاملين .

أما تلاميذ أولئك المشايخ الذين جعلوا العلم مجلس أدب ، ومعملاً فيه العمليات أكثر من النظريات ، فقد برزوا الى ساحة الحياة وأفوا ووعظوا وتخرج بهم طلبة واشتهروا بدون أن ينظروا في المطول والاطول ، وظلوا على دؤوبهم في طلب العلم الى آخر أيام حياتهم ، وبعضهم اليوم في عشر الثمانين وما برحوا متوفرين على الدرس والتأليف ، وربما كتبت لهم شهرة تفوق شهرة مؤلف المطول والاطول . درهم عمل خير من قنطار كلام ، والدعوى ما أفادت صاحبها قط .

المدينة ابنة الفنى

يقولون ان التجار اغتنموا فرصة الحرب الاخيرة فرفعوا الاسعار على هواهم واغتنوا غنى فاحشاً وظهرت عليهم امارات الرفاهية ، على ما لم يكن آباؤهم ينعمون ببعضه ، وتجمعت لهم أموال عظيمة ما كانوا يحملون بكسبها حتى أصبح بعضهم لا يدري كيف يوظف ما يملك ، وأكثر ما يقال صحيح ، ولكن اما كان في اغتناء فئة من القوم فائدة عظيمة عادت على المجموع ببعض الخير ؟ نعم كان ذلك والدليل عليه ما يأتي .

فصد التجار دم المستهلك باغلاء الاسعار ، هذه قضية لاشك فيها ، والاسعار ترتفع وتنخفض بقانون طبيعي يزيد أرباب التجارة وينقصون منه إلى حد محدود ، إذا عرف هذا فالواجب الانسى ان من دواعي النبطة ان هذه الاموال المتجمدة وهي جزء عظيم من الثروة القومية لم تتسرب الى الخارج ، وبقيت في ايدي كاسيها بنفقةونها في أرضهم .

قام تجار الحرب بمشاريع عمرانية يستثمرون فيها اموالهم فمنهم من بنى الدور وأقام القصور ، حتى كادت بعض مدن هذا الشرق القريب لمد من اعظم المدن القريبة بظهورها وزينتها ، ومنهم من أنشأوا المعامل والمصانع أوجدوا بها خبزاً للعالم ، وكفوا طائفة من الفقراء ، وؤونة التكفف ، ومنهم من أنشأ ملاحه جوية أو ملاحه بحرية ، ومنهم من تصدق وافضل على الاعمال الخيرية فاقام دور المرضى والمجزة وعاون المتعلمين وبيوت العلم ومنهم من أسسوا الشركات لضمون القوى المبعثرة ، ويجمعون من القليل كثيراً ، علماً منهم بان الفرد محدود العمل ، محدود الربح ، عرضة للانفلاس والجماعة أقل منه تأذياً بذلك .

المدينة ابنة الفنى كانت تنبعث في الماضي من قصور الملوك ثم تنتقل

الى الامراء والمطاء فلاغنياء من التجار والزراع ، ونولا الغنى ما قام ما ينم
عن مدينة الاجداد من معابد ومدارس ومصانع وقصور وقناطر وجداول ،
ولولا الغنى الذي تجمع في أجيال وقرون ما كان في العالم شيء اسمه راحة
ورفاهية أو عظمة ومجد . كانت الثروات في الدهر الغابر وقفاً على الافراد
قلائل يحتكرون ما يشاءون من صنوف الغذاء والكساء وكان من تقسيم
الثروة اليوم وتعدد الايدي في استثمارها ، وتفنن القرائح في اتقان اساليبها
ما قامت به مشاريع في العمران على أساس ثابت ، ونظام محكم ، ومن
ابن يكون هذا لولم يربح الرابحون في الحرب هذه الارباح وتتشأ ثروات
جديدة ، جمعتها أيد جديدة ، وأحسنن التصرف بها عقول جديدة .

كان الناس اذا اغتنوا يخزنون نقودهم في الصناديق او يدفنونها في
الارض ، أما اليوم فالغنى لا يخاف الاعتداء على ماله اذا هو أدى الواجب
عليه للدولة والملة . وكان إذا ظهرت عليه آثار النعم واشتهر بأن في خزانته
ذهباً وفضة يصادر ويمذب ، ففدا لعهدنا مطلق انتصرف بحريته ، يعمل
ما أراد كيف أراد ، ويجد له من الحكومات من يظاهره على استكمال
أسباب اغتنائه . وأدرك كثير من أرباب الثروة الابقاء لثرواتهم إلا أن
يداوها بشيء من أعمال البر ، ويعطوا المجتمع قسطه الذي يستحقه منها .
كنت أشكر مرة لأحدهم تبرعه لاحدى الجمعيات النسائية بمقدار من
المال ، وعلى إعطائه مبلغاً عظيماً يصرف في رفاهية المتعلمين من أهل بلده
فقال : هذا ما يجب ، وصرف المال أو بعضه في مثل هذه الوجوه أحسن
لنا لأننا لانعرف كيف يكون مصير هذه الأموال . وهذا الموسر أعطى
بعض المشاريع النافعة مئات الألوف واعتقد أنه يعمل واجباً .

وعلى العكس رأينا ثرياً كرز الدين يطلب إليه الخير فيهرب من مطالبه .
وكثيراً ما يعد بأن يعطي مالا عظيماً لبعض الأعمال المتفق على نفعها ، ويبقى
على وعده مدة لا يتفقد قوله ، وإذا سئل عن سبب احجامه عن إمضاء
ما وعد به تمحل اعداراً لا تصدر إلا عن ناقص المقل زَمِن المروءة .

ومن لم يعمل الخير بدافع من نفسه لا تؤثر فيه الدعاية وتحميس الحمسين .
أثرى في الحرب من أرباب التجارات القديمة أفراد ، واغتنى آخرون
بالمصادفة كانوا فقراء أو مستورين ، وما أحرز رضا الخلق إلا من فكروا
في معاونة المحتاجين ، وبذلوا في الخيرات جزءاً مما كسبوا ، يجودون بفضلها
على مواطنهم . والأغنياء عمدة المجتمع يفقدون منه ويفقدونه .

ولقد رأيت شعور القوم يقوى حتى أصبحوا يزنون كل إنسان في أدق
ميزان ، ويعرفون عيار الناس مهما تكتموا ، وأخفوا ما يملكون وما تصل
إليه أيديهم من المشاركة في الخير العام .

مات في الأيام الأخيرة ثلاثة أغنياء ممن جمعوا أموالهم بطرق غير
شريفة ، وكانت الناس يلعنونهم وهم يُحملون إلى قبورهم لأنهم لم ينفعوا .
قومهم في حياتهم ولا بعد موتهم . وبئست الخاتمة .

ذيل على أقوالنا وأفعالنا

للغربيين طرق عجيبة في إيصال الخير إلى من يمتقدون أنه ينفهم من
الشرقيين في ماديّاتهم أو معنوياتهم . ذكر صدقي الاستاذ عبد المجيد نافع
في كتابه « السلام الاجتماعي » أسماء الوزراء المصريين الذين أدخلتهم الشركات
الأجنبية في مصر بصفة مستشارين أو مساهمين لتعطيهم مالاً ، وتنتفع بحسب
الظاهر بأرائهم ، وإن كان بعضهم لا يعرف شيئاً من الأمور الاقتصادية
والمالية . فحافظ عفيفي باشا يتولى رئاسة وإدارة (٣٢) شركة عدا رئاسة
بنك مصر ، وحسين سري باشا (٢٧) شركة رئاسة وإدارة ، ومحمد أحمد
فرغلي باشا يتولى (٣٢) شركة ، ومحمد محمود خليل بك يتولى (١٤) شركة
وهكذا حال محمد شريف صبري باشا وعلي ماهر باشا وإسماعيل صدقي باشا

وعبد المقصود أحمد باشا وعلي الشمسي باشا وعلي أمين يحيى باشا وأحمد
عبود باشا ومحمود شكري باشا وسابا حبشي باشا وتوفيق دوس باشا وحسن
مظلوم باشا وأحمد صديق باشا وحسن صادق باشا وحسن نشأت باشا من اصحاب
المقام الرفيع والدولة والمالي والسعادة والعزة وكلهم يتولون بضع شركات
تكون جملة رؤوس أموالها من المليون إلى العشرين مليوناً وأكثر . أنشر
هذا وإن كنت لا أشك في أمانة بعض هؤلاء الرجال ، ولكن رضاهم بتقلد
ما يتقلدون موضع نظر ، ذلك لأنه من الثابت أن المرء لا يجودّ عملين
فكيف يجودّ ثلاثين .

وبعد سنة من كتابة هذا وبعد صدور قانون الشركات في مصر كتبت
إحدى مجلاتها الشعبية في معرض الدعاية ما يأتي :

نزولاً على قانون الشركات احتفظ شريف صبري باشا واسماعيل صديقي باشا
وحسين سري باشا وحافظ عفيفي باشا ومحمود شكري باشا ومحمد فرغلي باشا
وعلي يحيى باشا ومحمد محمود خليل بك وعبد المقصود أحمد بك بالعضوية
في عشر شركات لا غير ... وكان كل واحد من هؤلاء عضواً في أكثر
من عشرين شركة .

بيدة القرى

هي قرية من عمل المنوفية بمصر اسمها كفر المصيلحة أو المصيلحة لم تحوز
مكانة كبيرة بكثره سكانها ولا باتساع رقعة أراضيها ، فأهلها لا يتجاوزون
الأربعة آلاف ، ومساحتها لا تتعدى الخمائة والسبعين فداناً . حصرها
أرباب السلطان في هذه البقعة الضيقة ، وجعلوا مما جاورها من الأرض
وقفاً ميتاً لا أثر فيه للتجديد . عظم شأن هذه القرية المباركة لأنها القرية
المصرية الوحيدة التي انتفت منها الأمية بفضل رجل من صالحى أهلها اسمه

« حجازي حجازي حسين عمر » أدرك ببعده نظره ما سيحل بأبناء قريته من مرض الجهل فعالج به بفتح كتاب ينفق عليه من ماله ، وأنشأ بمنح كل طفل يداوم على الكتاب دربهات وحلويات ترغبه بالتعلم . ونشأ ابنه وهو العلامة عبد العزيز فحمي باشا على قدم أبيه ، ينشط أهل القرية على العلم فأنبغت قريته المحامي والقاضي والمهندس والاداري والسياسي والطبيب والاديب وكان من أهلها خمسة وزراء أجلاء منهم أحمد حشمت باشا عم عبد العزيز فحمي باشا وهما من الأفاضل علماء واستقامة .

لو كتب لكل منزلة وقريه مثل حجازي حجازي لعدت مصر في رقيها كسويسرا وألمانيا ، ولو أحب كل نابه لقومه ما أحبه حجازي لأهل بلده لما أتى جيلان أو ثلاثة إلا وأهل تلك القرية صنف آخر من أجناس الناس ، ولكن أكثر الخلائق يقولون أبداً « أنا ومن بعدي الطوفان » لا يمينهم شيء من أمور قومهم ، إذا هم حصلوا على رغائبهم ، وتمت لهم ولأولادهم أدوات التفوق .

ومن خصائص أهل كفر المصيلحة أن أبناءها جدّ أوفياء لقريتهم لا ينزلون لغيرهم دن قيراط يملكونه من أرضها ، او مخدع صغير ورثوه في بيت ، يزورونها كلما سئحت لهم الفرصة لينشقوا تربتها ، ولا يقطعوا صلاتهم بأرض ضمت رفات أجدادهم ، وكان أجدادهم على ما يظهر على جانب عظيم من الدين وعلى عرق من الجهل عريق . حدث منذ نحو مئتي سنة أن اغتصب فتى من حي من أحياء القرية فتاة من أهل حي غير حيه ، فما كان من أهل الحي الذي كانت منهم الفتاة المنهوك سترها إلا أن هجموا على جامع أهل الحي الذي كان من أهله المعتدون على العرض وقتلوا منهم في صلاة الجمعة ثلاثة وثمانين رجلاً . عمل فظيع كهذا فيه معنى من معاني الحماية الاسلامية والحمية الجاهلية معاً . ثاروا دفاعاً عن الشرف وهو مما أمر الاسلام بالحفاظة عليه ، وقتلوا الأبرياء وهم في صلاتهم ، وهذا عمل جاهلي عار عن الانسانية والدين . ولكن حجازي حجازي رحمه الله عاجل

جهل قرينه بدرياق العلم فكان من تعلموا من أبنائها المثل الصالح بين البلدان ،
وعده عمله وعمل ابنه العظيم مفخرة من مفاخر مصر جديرة بالحمد بكل
لسان على وجه الدهر .

العمدة الصالح

ألت من رأيي ان الرأس الصالح يخلف الجسم الصالح ، حدثني أحد
كبار قضاة مصر انه قضى في اقليم الشرقية ثمانى سنين لم تعرض خلالها
على محكمته قضية من بلدة العزيزية المرتبطة بعمله ، اللهم الا ما كان من
قضية اقيمت في آخر مدته وجاء عمدة البلدة يقول ان المتخاصمين لصالحا
ولم يبق وجه لاقامة الدعوى . وكان هذا العمدة قتيلاً سرياً وغنياً أريجياً
يعرف ما ينفع وما يضر ، ولا يسوق أهل بلده الا الى طريق الخير .

واتفق ان خطر لرجل رومي ان يفتح له حانوتاً ببلدة العزيزية ، وكانت
الى ذاك العهد خالية من ابناء جنسه الذين ملأوا ريف مصر بمقاصيهم وحاناتهم ،
فابتاع لذلك في ضاحية القرية أرضاً وبنى عليها كوخاً اتخذ منه دكاناً ملائها
بما تملأ به في العادة امثال هذه الحوانيت من المشروبات والمأكولات .
وما هي الا ايام حتى جاء الرومي في الصباح يفتح حانوته ، وكان يسكن
على دقائق قليلة من العزيزية ، فرأى ما هاله رأى دكانه كأنه تبخر أو خسف
به ، والارض حرثت وزرعت ورويت في ليلة واحدة فشكا ما حل به الى الحكومة
وعجز ان يثبت دعواه أمام القضاء ، وسئل العمدة في جملة من سئل عن دعوى
الرومي فقال انه لم يبلغه شي مما يدعيه ، ورجع الرومي بخسارة ماله وخيبة
آماله حزينا كئيباً .

ولهؤلاء الأروام في مصر قصص مضحك ونبيكي وقل فيهم من يقيم

فيها مدة إلا ويجمع له مالا يحمله إلى بلاده ، وهم والحق يقال عنوان التضامن والوطنية والنشاط . سمعت مدير فندق عظيم في القاهرة وهو رومي يأسف جد الاسف لما دفعه إلى صاحب الفندق الوطني من اجور أربت على مئة الف جنيه في نحو ثلاثين سنة . ولما انصرف سألت صاحبه الموظف عنده وكم تبلغ يا ترى ثروة هذا المدير فقال وهو يعرفه معرفة جيدة : انها نصف مليون جنيهه ياسيدي ، وما نسيت وأنا في سن الشباب أسمع في القاهرة مع صديقي حافظ ابراهيم شاعر النيل مطربة مشهورة في مقهى قوله وقد ظهرت عليه امارات الغضب : ترى يا صاحبي هذه الجوقة وما هناك من خدمة أليسوا كلهم مصريين إلا الجالس إلى الصندوق الذي يقبض المال فهو رومي .

وفي الرومي موعظة لقوم جدد في اللعب
كما قال حافظ في قصيدته التي أحاطت بهذه المعاني وخصها ببحث قومه
على الاعتبار بأروام مصر .

هامش على سيرة المشايخ

وددت لو طأعتني النفس فاعفيتك يارفيقي القاريء من التصدي للمشايخ مرة أخرى بمد أن افضيت اليك بامثلة ينقبض لها صدرك من سيرتهم في كتابي اقوالنا وأفعالنا ، وفي هذه المذكرات وصفت لك من كانت الحكومات في كل زمن توقرهم وهم لا يوقرون أنفسهم ، وترفع درجاتهم وبمطاميرهم يخفضونها . الحكومات توسع عليهم والامة تجلبهم وتستمتع اليهم وهم ينظرون الى الدنيا غير نظر سائر المخلوقات لها . واني ان أسفت لعقبي فمعظم أسفي لما شهدت من قلة أمانة بعضهم وشدة جهلهم ، تعلموا قشوراً من العلم يستخدمونها في صناعتهم أما أخلاقهم فالى الانحطاط .

كنت أغلب حسن الظن في بعض افراد هذه الطائفة وازعم انهم اذا شعبوا يكفون عن العبث بالشريمة وانهم اذا وسع عليهم وقبضوا رواتب يتقبلون بها لا يسفون الى ما يسف اليه سائر الموظفين من خيبت الطعمة وفساد الذمة ، ولكن الايام جاءت على خلاف هذا الظن ، أثبتت أن من اعتاد أمراً يتعذر اقلعه عنه إذ يستحكم فيه فيصبح له في حكم العادة ، وان الفاجرة تنقض توبتها لاقول عارض ، والاصل تحدته نفسه أبداً ببرقة الناس ولو صام وصلى وحج .

عرفت في الطفولة رجلاً دخل في أول شبابه في الوظائف الحكيمية وما عثم أن اشتهر باضاعة الحقوق واستحلال ما لا يحل ومضت أيام وارتقى الرجل الى أعظم المناصب في سلكه فقلت لابد ان يكون أقنع عن خيمه وقبح عاده ، وهو على أن يصرف جهده في خدمة دينه وامته خصوصاً وهو خفيف الحاذ قليل العلائق بالدنيا ، بيد أنه عاد الى ما شب عليه يخترع الحيل لاملأه جيبه وصندوقه ، ووسيلته الى اشباع نهمته غض الطرف عن تلاعب مرؤوسيه على حين له كل الحق في صرفهم اذا ثبت له عجزهم وتلاعبهم ، أما هو فيحميم ليتناول الجمالات منهم بطريقة استحلبها ما يطمونه .

وذلك ان يبعث له مرؤوسه ما يلزم بيته من الزيت مثلاً فيرسل له منه مقداراً يكفي عشرة بيوت من مثل بيته بأسعار أقل من ثلث ثمنها الحاضر . والاطفال يدركون ان السعر الذي يزعم مرؤوسه انه ابتاعه به هو سعر وهمي لا وجه له من الصحة . والمأكولات لا ينقطع جلبها طول السنة وحاملها يقطع ربع او ثلث راتبه كل شهر ايسدد منه فرق الاسعار عن السوق . ولا شك ان هذا المتفقه العجوز سار مع عامة مرؤوسيه على هذا النهج الملتوي ليغض طرفه عن عبثهم بالحقوق ، وكان إذا قيل له ليسوا اهلاً لعملهم ويفلطون في كثير مما تخطئه أناملهم قال في معرض الدفاع عنهم يقيم الاعذار لجهلهم وقلة ذمتهم : انه إذا صح انهم يرتكبون أغلاطاً فالغلط يسري على الكبير والصغير .

لو كنت في منصب لي به السلطان على هذا المتلاعب الذي وصفت لحاسبته

حساباً غير يسير ولطهرت الدواوين من أمثاله لانه في نظري قذىّ يشين الدين والوطن ، ومن غر الناس بصلاته واوراده فهو حشرة سامة يجب قتلها ليسلم المجتمع من مضاره ، وليت شعري متى تصح عزيزة الحكومات على انقاذ الامة من هؤلاء الماجزين إلا عن عمل الشر .

النبيل الصلي

في السنة الماضية (١٩٤٦) تفضل الاستاذ ابراهيم دسوقي اباطة باشا من وزراء مصر ومن البيوت العربية بالمجد ورئيس جماعة ادياء العربية ، ودعاني الى طعامه فاعتذرت بقرب السفر ، ووعدت ان عشت أن اتقاضى من قابل الدعوة دعوتين ، وهبطت مصر وطالبت الوزير العزيز بحقي ، وشرطت فقط أن يطلعي الداعي الكريم على أسماء المدعوين ، فأشرت بمحذف اسم شخصين لأحب أن القاهما ، وتكرم فوجه دعوته الى ثلة من اصحابي المصريين والسوريين ، وفيهم الادباء والشعراء ، وصاحب الدعوة نفسه أديب وشاعر ، وكانت المأدبة من أمتع المآدب أنشدت عليها أشعار ، وأوردت نكات وفكاهات ، وزادت بهجة هذا الاجتماع بالتجانس بين من لبوا الدعوة (أو الكرزمة) طعام نصف النهار ، كما سماها الداعي في بطاقه الدعوة) . من ميزات السيد اباطة أنه يعطف كثيراً على الأدباء ، وإذا سمع بناشيء في الشعر والادب يحرص على ان يوصل اليه ما ينعشه من الرزق ، بدون أن يطلعه على اسم الساعي له بذلك ، فيرقه ان كان من عمال الحكومة حتى يوسع عليه في معاشه قائلاً ان اطروحته قد قدمها للامة بما نشر من ديوان وألف من رواية ، واصر من كتاب . والدرجات في القانون يسقط حكمها مع هؤلاء النوايخ ، اذ ليس من المعقول ان يقضي الواحد منهم سنين طويلة حتى يصل الى المرتبة التي تمكنه من تفرغه لاعمال عقله وقد يقفله الانتظار ،

ولضعف همته عن المضي فيما هو بسبيله . وإذا كان النبیه الاديب خارج الحكومة عمل صاحبنا على اسناد عمل اليه يعيش به في حرمة وكرامة . وكثيراً ما يصل احسان الوزير الى المحسن اليه ، وهذا لا يعرف اليد التي قلده هذه المنه ، وربما انقضى زمن وصديقي نفسه لا يعرف الشخص الذي نشله وأنعشه . ألا يمد هذا الوزير العاقل حامياً من حماة الادب Mécène ؟ يشبه من بعض الوجوه بعض وزراء الدولة العباسية أيام عزها بافضالهم على العلماء والادباء ، وكانوا يأخذون بأيدي أبواب القرائح حتى ينبع بفضلمهم أفراد عدوا مفخرة الدولة والملة . وكم في مصر من مخبات إذا كشفت تبيض الوجوه ، وكم فيها من مخزيات إذا عرفت لعرق منها الجباه .

اتفق يوم كتبت هذا أن قرأت صحيفة افرنسية اسمها كارفور Carrefour جاء فيها أنه قل اليوم عنصر حماة الادب ولم يبق امام الادباء الا توقع المعونات غير المطردة ، ومن الزاد اعطاء مال بدون مقابل ، او توسيد منصب ليس فيه عمل ، واذا حدث شيء من ذلك فباعتصاد شديد خالٍ من العاطفة . ألا نحمد الله بعد هذا على ان رأينا الشرق اقبل يستميض بعض مجده بالمعلاء من أبنائه ؟

الى شيخ السيوخ

نقل لي أنك قلت يوم نعت على رجال الحكم تقاعسهم في تنفيذ الاحكام على الغششة من التجار والباعة والفلاحين ، وآخذت المشايخ على تقاعدهم عن القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر - ان فلاناً قام اليوم بوظيفتنا ، وكلامك هذا يتأول على معنيين الاول اقرارك ضمناً انك وجاءتك مقصرون في وظيفتك وانا قمت عنكم بها ، او أنك تقصد اني اعتديت على

وظيفتكم وما كان من حقي ذلك ، وشهد الله اني كنت أحب ان أراك
وجماعتك تقومون بواجبكم ولا يفتح مجال لي ولا لغيري للتعرض لكم أترككم
تتمتعون بوظائفكم وجميع ما يتبعها من الفوائد بيد ان القصور الذي لمست
ولسه العارفون في هذا الباب دعاني الى سد هذه الثغرة وأنا مقرر ان ليس
لي أن اشرك الوعاظ في مواظبتهم لانها مما يتوقف الاضطلاع به على علم
لدني وعلم كسبي وكلاهما في نظركم وقف على طاعتكم . وسواء كنت على
استعداد للكلام في هذا الشأن او غير مستعد فحسن فبقي يشفع لي في هذا
التعدي على مقامكم . وسواء قمت بواجبي أو لمديته فليس فيما جرى ما ينكر
ما دام قد مضى على محاضرتي بضع سنين ما سمع احد منكم خلالها ولا قبلها موعظة
ولا خطبة ولا درساً ولا نشرتم كتاباً ولا رسالة ولا بحثاً وكذلك كنتم
طوال حياتكم الشريفة .

العلم كما لا يخفى على ناقد ذهنكم ينضج في صدر صاحبه كلما علت به السن
وانتم قد عمرتم ما شاء الله أن تمعروا واتجرت ما شئتم بما جمعت من مال فهاذا
دعا الى توقفكم عن اللقاء الدروس النافعة ووضع التأليف الممتعة . على حين
ترون البدع عن ايمانكم وشمالككم والمسلمون الذين بهم عزتكم تقرضهم امراض
اجتماعية كثيرة فهل فكرتم يوماً في مداواة بمضها والناس الحدوا وطفوا وهم
يتحللون من كل قيد فهلا دلتهم على طريق النجاة ، ونحت اشرافكم كثير
من الموظفين هل قاموا بما اسند اليهم ام كان الامر لا يعينهم يقبضون الرواتب
ويدعون للسلطان بالنصر ؟

وظيفتكم تدور على التعليم والهداية وساعدكم القانون فقضى ألا تخرجوا
من الخدمة الا بالموت وطال امد حياتكم على ما ليس من مصلحة هذه الامة
فمن علمتم انتم وجماعتكم ومن هديتم . انا لا اظال الى ان ابيع منكم بضاعتي
وارغب في ان يطلع الخلق على بضاعتكم واغتبط ويغتبط كل عاقل إذا
افدتم البر والفاجر والصانع والزارع والتاجر ، نفع الله بارشادكم الاسلام
والمسلمين انه سميع الدعاء فعال لما يريد .

شرقي الاردن

منذ أكثر من خمس عشرة سنة وملك شرقي الاردن عبد الله بن الحسين يتلطف ويدعوني لزيارته في عمان وأنا اعتذر بكثرة اشغالي . والواقع اني اعرف قرية عمان لا يتجاوز سكانها ثلاثة آلاف وهي الآن تربو على الاربعين الفا حتى تسكاد تعد من امهات المدن في الديار الشامية ، وماذا عسيت ان أرى من جديد في عمان وأنا دعيت منذ بضع سنين لزيارة تونس فما اجبت وكنت دعيت الى زيارة مراکش فأبيت ودعيت غير مرة الى زيارة نجد والحجاز فنكصت . واذا كنت لم أزر العراق على قربها وتكرر دعوة اخواني العراقيين لي كيف يجوز لي ان أזור شرقي الاردن وأنا أعرفها وأعرف ما يحاك فيها .

ثم أنا لا اعتب على جلالة ملك شرقي الاردن الا لسميه — ان صبح ما بلغني — في ضم سورية الى بلده أو ضم بلده الى سورية وذلك تحت الانتداب الانكليزي . قدر الله لنا معاشر السوريين ونحونا من سلطان الانتداب (بالعجوبة) فكيف بنا نعود سيرتنا الاولى بعد ان تمتعنا باستقلالنا واخذنا نعيش احراراً فما شأننا والعبودية .

وكانت هذه السطور لاناقة له ولا جمل مع العروش ولا مع الملوك ولا مع رؤساء الجمهوريات ولا مع الزعماء والاحرار والذي يدين الله به ان الحرية احسن من العبودية ولو كان الذي يحكمني من أكبر الصحابة والتابعين .

افراط وتفریط

كما يمتاز به الغربيون غرامهم الشديد بالآثار والمعاديات . تشهد كبيرهم وصغيرهم غنيمهم وفقيرهم عالمهم وجاهلهم مولماً بالنظر اليها يناغيها ويستوحىها ويدكر فيها . والسعيد فيهم من يتمكن من اقتناء شيء منها ان لم يكن الاصل فصورة عنها لصورها يد صناع .

نظرة الغربي الى ماخلف الاجداد من المصانع والاثاث واللباس والاواني والكتب والايقونات والتماثيل غير نظرة الشرقي لها نظره لها نظر الظلمآن الى الماء والعاشق الى قرب اللقاء ، تراه يحرق فيها تحديقته في كثر ثمين يملأ القلب والعين ، ويمتلئ بكل ما فيها من معان وذكريات ويهون عليه في سبيل الحصول عليها بذل المال والوقت ، وهو يفطم نفسه عن أكثر الشهوات إذا كان من ذلك احراز مجموعة شملت مكاناً من قلبه ، ويمتسب بما يحرز ويفاخر بما يدخر ويقتني . أما الشرقي فلم يبلغ إلى الآن جزءاً مما بلغه الغربي في باب الكلف بالطرائف والاعلاق يمر بها مروراً بأمر عادي لا يدرك محل الجلال منها لان ذوقه لم يهذب كما تهذب ذوق الغربي في هذا الباب ، ولذلك كان الشرقي منذ عصور يخرب بناء أثرياً من قلعة أو قصر لينني بحجارته رصيفاً أو يرصف بما دمر قناة أو يعمر كوخاً أو قنطرة ويزهد في طنفسة أو آنية أو كتاب ليصيب من ثمنها أكلة أو مسكرة .

لو حرص الشرقي على المنقول وغير المنقول من تراث أجداده ما امتلأت متاحف الغرب وبيوت بعض أفرادهم من آثارنا وعادياتنا . ولولا ان حكوماتنا انتبهت في العهد الاخير لجمع العاديات لافلت من أيدينا حتى الآثار القليلة المحفوظة في دور آثارنا فوصلت باهالنا إلى أيدي من يقدرها قدرها أكثر من مالكيها الاصليين . وإن ما نشهده من كثرة مخطوطاتنا العربية في خزائن الغرب ليقوم دليلاً على زهدنا في قديمنا وحرص الغربيين على كل ما يفيد في كشف أسرار المدينيات على تباين عصورها وشعوبها . وإذا عدنا فنظرنا إلى عناية الغربيين بنشر تلك المخطوطات واتباهاهم قبلنا بمشرات السنين إلى أحيائها نسقط على دليل مقنع مخلص منه إلى أن الغربيين يقدرون

الاشياء بقيهما أكثر منا ونستنتج أن من مجموع هذه الاذواق المثقفة في الافراد ومن جماع هذه العناية من الحكومات ظهرت هذه المدنية التي بهرتنا .
نقرأ في صحف الغرب أخبار الغلاة في حب العاديات والاعلاق النفيسة ،
وغرام الغربيين بكل قديم يصور حادثاً أو يرسم رجلاً ولا يبلغنا شيء من هذا
القبيل عن الشرقي الذي يحقر المهم وغير المهم . فهناك الافراط الغريب وهنا
التفريط العجيب .

قيم النظر

نقل احمد لطفي السيد باشا عن الفرنسية بعض كتب فلاسفة اليونان
فجاءت الترجمة ذات لونين لون مفهوم وهو الذي نظر فيه حافظ ابراهيم
عليه الرحمة وألبسه حلة عربية ، واللون الثاني وفيه التعميد الذي يقل أن
يفهمه أحد لاخذنه بحظ جزيل من الغشاة . ولما قيل المترجم البارع في ذلك
قال : أنا لم اترجم ما ترجمت لافيدكم وانما ترجمت ارسطو وافلاطون لافيد
اربعة وهم طه وهيكل والقادوا احمد امين ، وكفاني ان يفهم كلامي هؤلاء الاربعة ، اي ان
فيلسوف مصر لا يفهم قراء العربية بأسرهم ، بعد أن يدرك معنى ترجمته من هم في
غير حاجة الى تصفحها ، على حين في وسعهم ان يتلوا الفلسفة بلغتها الاصلية
لتمكنهم من بعض اللغات الغربية ، وطه حسين يطالعها في الاصل اليوناني
لانه يحقق اليونانية واللاتينية أيضاً .

وهكذا أراد أحمد لطفي السيد أن يفرض نفسه على الامة العربية
فيلسوفاً بهذا الضموض بعد ان ظل أعواماً طويلة يدعو الى استعمال اللغة
العامية المصرية بدلاً من اللغة العربية الفصحى ، ثم أصبح رئيساً لمجمع
لغوي عربي ، شأن ذاك اليهودي الذي كان يؤذن في منارة حمص (اتخذوا
منه مؤذناً لجمال صوته) فكان يقول في آخر أذانه وأشهد أن اهل حمص
يقولون ان محمداً رسول الله . وصاحبنا يشهد ان الامة العربية التي لا ترى
سلامتها بغير سلامة لغتها واستعمال الفصحى منها ، يرجع العامية عليها ويرأس
مجمعها اللغوي الذي وكل اليه سلامتها .

الشهرة الصادقة

قلما يشتهر رجل ليس على صفات بارعة تؤهله للشيعة ، وقد تزيد في شهرته أحوال عارضة من حوادث ذات ضجة وقعت له فیلنط الناس فيه بالخير والشر وتورثه شهرة أو لمظم بها شهرته بيد أن استاذنا العلامة الشيخ محمد عبده وصل إلى المسکانة التي وصل إليها بما كان تتحلّى به نفسه من مزايا كان معاصروه مجردين منها ، كتب له التفوق عليهم وما أضره تحامل خصومه عليه بل زاده رفعة في الأعين ، وليس يرشق إلا مشعر الشجر . ما أتت شهرة الاستاذ الامام من الكتب التي قرأها وأقرأها بل قامت شهرته بما تمثل من علوم الاسلام وعرضه على ميزان العقل واستخرج منه حكمة عممية تنفع أبناء عصره على اسلوب تقبله النفوس ولا يصوب حفظه واستظهاره على رايه وسامعه .

حضرت دروسه في الرواق المباسي بالأزهر في سنة ١٩٠١ في التفسير وكان مما عالجّه من الموضوعات ثلاثة دروس عرض في الدرسين الأولين لآيات الربا وفسرها بما فسرهابه المفسرون وأورد ما فتح عليه من معان جديدة فيها ، وكان الدرس الثالث فيما أثره الربا في البيوت المصرية وكان فيه خراياها . واستخرج من روح الكتاب العزيز معاني جديدة فيها ، هي موضع الدهشة من كلامه . عدد في هذا الدرس أسماء البيوت التي تعاملت بالربا دائنة ومدينة فاضحت ثروتها وافنقرت بمد الغنى وذات بعد العز . ذكر أسرار القطر المصري من الاسكندرية إلى اسوان وما كانت تملك من الاطيان العظيمة فخرجت عن ملكها بما جنت أيديها عليها وعلى بنينا .

لم يؤلف الامام كتباً ضخمة في الشريعة ، وكان من المسائل العملية التي نظر فيها هداية ألوف وتقنيف عقلية الجماعة بالدين الخالص ، ودعا

إلى استعمال العقل وأصلح ما استطاع إصلاحه من أوضاعنا بما لم يؤثر بهضه
عن مثات من العلماء قبله وبعده . أصلح الكتابة العربية وقضى على السجع
جملة ، فأخذنا نكتب لعتنا بذوق براعى فيه الطبع واسلوب القدمات . وأصلح
المحكم الشرعية حتى كاد يمدد الشرع إلى سالف بهائه ولم يجسر قبله انسان
في العالم الاسلامي ان يفتح فاه بضرورة هذا الاصلاح . وأصلح الأزهر
وكان قبل أن يرتفع صوته في ذلك اشبه برباط أو زاوية . وهكذا كان في
كل ما عاناه من ضروب الاصلاح يراعى فيه المصلحة والزمن . حتى اخرج
القطر المصري بل الاسلام من دور جمود مميت إلى عهد نور وعمل .

قام قبله وبعده من تولوا أكبر المناصب الدينية في مصر ، ومصر موطن
العلوم الدينية والعربية ، فبماذا نفعلوا المسلمين ؟ ولو تصدنا لمحاسبتهم ما كانوا
أكثر من طلبه عند هذا الشيخ ، ضماف القرائح لا ينتجون ، عقيم تفكيرهم
ضئيل انتاجهم نادر ابداعهم وغرامهم أن يبقى القديم على قدمه ، ومن خالفهم
كفروه إن لم يكن جهرة إذا رأوا من مقام عالٍ اماره رضا عنهم
وإلا فتكفيره سراً إذا كان في معظم قوته وعندما يحتاجون إليه في دنياهم
ينافقونه ولا يرون في النفاق حرجاً .

جراً أحمد شيوخ الأزهر على الشيخ مرة وقال له تالله نفثاً نقرعنا
وتنقدنا وهل أنت تزيدنا في شيء وما كنت إلا أزهرياً مثلنا درست مدارسنا
وتخرجت كما تخرجنا . فأجابه : نعم أنا أزهرى ولكنني يا ظالم بقيت سبع
سنين أكلس دماغي عن خرافاتكم .

محمد عبده من الأفراد المصلحين الذين كضن بهم المصور رغم انوف
منافسيه وإذا كنت تريد برهاناً محسوساً عن مكانته ومكانتهم عدّ لي اسم
خمس من أكبر كبرائهم وصلوا إلى درجة تلاميذه ليقع التنظير بينهم .
إذا شاء أن يلبو بلحية أحق أراه غباري ثم قال له الحق

كلمة لله

ما كلف بعضهم عن التصريح باتهامي بالغلو في الاشادة باستاذي الشيخ طاهر الجزائري وما حجل حساده أن يدعوا انه لم يكن من العلم على ما وصفته . ومنهم من هزأ في قوله ان من العادة أن يحب التلميذ استاذه ويبالغ في الغناء فيه . أنا لم اغال بمناب الشيخ ولا اخترعت له مناقب ليست له وغاية ما عرفت فيه صفات غرّ ألا يهتدي كثير إليها إلا بطول عشرة وكبير تأمل .

أدعو كل من يتقل على أنفسهم قول الحق أن يقارنوا بين عمله وعمل أكبر المقدمين في عصره هل يجدون فيهم ما يجدونه فيه بعلمه وأخلاقه . لنمثل برجلين عاش أحدهما في عاصمة الساحل وعاش الثاني في عاصمة الداخل من أوض الشام الأول كتب كتباً أكثرها تحريفات ومنامات وعددها كبير وفائدتها تافهة لآثمها من مضمفات العقول والمسلحون انحطوا لما أخذوا يتلون أمثالها . والثاني ادعى علم الحديث وروى منه كثيراً وكان في درسه العام يطبق بعضه على المناسبات وعمر طويلاً وفتن به العامة ولم يترك كتاباً ولا رسالة ولم يخلف تلميذاً أخذ العلم عنه ونفع به . اما الطبقة الثانية من العلماء فكانوا متوسطين في علمهم اتقنوا بعض فروعهم وما آتوا بمجديد ولا عرفوا معنى الإصلاح والتجديد .

نحن نحكم على علم العالم بنتائج عمل صاحبه فالشيخ طاهر الجزائري أسس المدارس الابتدائية في معظم الديار الشامية وألف لها الكتب وعلم المعلمين اصول التعليم والتربية في زمن لم يكن فيه ما يقال له علم إلا بعض فروع الفقه وبعض الأحاديث الموضوع أكثرها أما ما يطلق عليه اسم الادب فسخيف النظم والنثر ولم يبق للبلاغة في الخطب والدروس شيء يذكر ولا للكلام الوعاظ والقصاص ما ينفع العامة . وآس كل فرع من علوم العقل إلى تقاهة .

ألف الشيخ نحو أربعين رسالة وكتاب في العلوم المختلفة وأحيا من كتب القدماء عشرات وتخرج به كثيرون في مصر والشام وتنقف بثقافات فارسية وتركية وفرنجية وعرف عدة لغات شرقية وغربية فأنتم ماذا أبقيتم لنا بعد طويل حياتكم . أين تأليفكم أين دروسكم ، أين خطبكم أين أدبكم ، أين ما أنتم به في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ آتونا يبرهان واحد على انكم خدمتم غير أنفسكم وانكم غير نقلة في الفقه مقلدون في الأحكام أما تدوين شيء من علمكم وتجاربكم فهذا قد تركتموه للشيخ وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه .

بالعناد لا تثبتون كفاءاتكم وبجسد العلماء العاملين لا تنقصون من منزلتهم . سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن .
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان



المرل نسي

لما حظيت في الاسكندرية بلقاء الأمير عمر طوسون (رحمه الله) لأول مرة وجه إليّ سؤالين اثنين ، أحدهما كيف قسمت الديار الشامية بعد الحرب العامة الأولى ، الثاني هل صح كل ماقلته في وصف حكومة ابراهيم باشا في الشام . فعن الأول أجبت أن الانتداب الانكليزي كان على فلسطين وشرقي الاردن والانتداب الفرنسي شمل سورية ولبنان . فاقطعت فرنسا من جسم سورية القضية الأربعة (حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك) وضمتها إلى لبنان كما ضمت اليها المرمل وعكار وحصن الاكراد وطرابلس وما اليها . وبهذه الأراضي التي ضمت إلى لبنان أمكن هذا الجبل أن ينشيء حكومة فكبرت رقعته وزادت جبايته . ثم جعلت فرنسا من قضاء جبل الدروز امارة ومن جبال العلويين دولة ومن لواء الاسكندرونة إدارة مستقلة أي أنها نزعت أيضاً جبل الدروز والنصيرية والاسكندرونة من جسم سورية فضعفت صلة هذه الاقاليم بأمها سورية وأخذت فرنسا تعلمها وتدريبها على كراهة السوريين .

أما السؤال الثاني فاني ذكرت للأمير أني أدركت طائفة من عقلاء المعمرين كانوا رجالاً مدركين أيام ابراهيم باشا في الشام وقرأت جميع ماوصل إلى يدي من كتب بالعربية والفرنسية عن عهده فكان ماكتبته هو الذي تلخص معي وعصته بعد التفكير الطويل . قلت ولماذا أ كذب وأدون ما لا أعتقد باسم الأمير ؟ وهل أنا مصري حتى أضطر إلى مصانفكم ومصانعة بينكم الكريم . هذه الحقيقة أخذتها من مصادر مختلفة ووزنتها كثيراً قبل أن أتيناها . فحمد الله على ماحصل واغتبط أن يكون جده عادلاً في حكمه الشام .

وغاب عن ذهني يومئذ أن أقول للأمير أن العدل نسبي أي أن ما قامت به حكومة ابراهيم باشا هو عظيم بالنسبة للأتراك قبله وبمده . وهذا ما قاله فنصل انكلترا يومئذ وكتب به الى دولته وذكر ان الجباية كان يتشدد في تحصيلها وأصرف بالعقل وما كانت حكومة تلك الايام تضن على البلاد بما هي في حاجة اليه من اموالها وبذلك امتد العمران وعمرت القرى والمزارع . وعندى انه لم يكن ينتقد على حكومة ابراهيم باشا الا احتكار بعض ضباطها اصنافاً من التجارة لحسابهم يترجمون بها ، وربما كانت للحكومة الابراهيمية مساوٍ اخرى فات المؤرخين ذكرها او دونت ولم تصلنا او كان الخطب فيها سهلاً تمكن الاجابة عنها .

ومن الادلة على عدل حكومة ابراهيم باشا ان اهل سورية ودعوه بدموعهم يوم غادر أرضهم الى مصر باكين عهده السعيد . اما لصوص الاعيان الذين كانوا يرجون عودة العثمانيين الى الشام حتى يشاركهم في سلب الامة فهم كانوا فرحين مستبشرين . وقال معظم من اقيمتهم من ابناء القطر ان حكم ابراهيم باشا كان سارماً ، وهل كان يتأني ان يخضع سكان الجبال وسكان السهول من الشاميين للحكم الجديد الا بهذه الطريقة . والحكومة العثمانية ومن ورائها الحكومة الانكليزية تدسان الدسائس حتى لم تترك لابراهيم باشا ليلة واحدة ينام فيها هادئاً مطمئناً .

حكم ابراهيم فرع من حكم والده محمد علي فيه ما فيه من محاسن وغيرها ويعد من نوع الحكم العادل بالقياس الى زمنه والى حكم العثمانيين في جميع الادوار التي مرت على الشام .

العربية عند المسلمين

قال السيد جمال الدين الأفغاني : اهل الأتراك أمراً عظيماً وكلمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، واحب أن يعمل بها السلطان سليم (الأول) ، وهي جعل اللسان العربي لسان الدولة وتعميمه بين من دانت بالاسلام من الأمم ، ليتفقهوا في أحكامه ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائده أهله . فالعرب مايجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهم أحكامه والعمل بآدابه . وذلك ماتم ولا يتم إلا باللسان وهو أم الأركان اه .

شعر المسلمون بعد القرن الرابع بمآطراً من ضعف في تعليم اللغة العربية ، وقد تقسم الملك الاسلامي ملوك من الاعاجم ولا غاية لهم إلا الاحتفاظ بما ملكوا ، واللغة والعلوم في نظرم اذا انتشرت بطبيعتها فيها ونعمت وإلا فليست مما يتوقف عليه حياة الممالك ! وحياة الممالك سيف مسلول وسياسة نافذة . وكان أكثر من جاءوا من الملوك بعد القرن الخامس إذا اعتمدوا على العربية في معاملاتهم الرسمية فلا يستعملون بها في الناس ، وربما كانوا يتكلمون بلغتهم الخاصة في قصورهم ومع حرمهم وخدمهم .

من جملة العوامل التي حالت دون انتشار العربية ظهور نفعة القومية وذلك بأن تشدد أهل كل عنصر في نشر لغتهم الوطنية فقط . وكان الأتراك أصحاب الاقتراح الاول في اتخاذ العربية لغة الدولة أول من حاربوا هذه اللغة في جميع مظاهرها على عهد الكياليين ، حاربوها في المساجد والجوامع وفي الكتب والصحف وفي المدارس والشوارع وفي الرسميات والخصوصيات وكان بعض الأذكيا من العناصر الاسلامية يرادون الحواضر العربية الكبرى في افرقية وآسيا خلال قرون طويلة للاخذ عن علمائها علوم اللسان والشرع فيعود الجاوي والصيني والهندي إلى بلاده وقد أخذ يكتب العربية ويتكلمها

ويؤلف فيها إلا أن الدارسين قلائل جداً لا يكادون يسدون حاجة شعوبهم وأصبح الصيني والجاوي والفارسي يتلون القرآن في صلاتهم ولا يفهمون معناه ، وكذلك تركي تركستان وكذلك هندي باكستان .

مرة في بعض السنين بمصر مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين وهو شيخ جليل كان يتعذر عليه النطق بالعربية فيطلب منا أن نكتب له ما نريد القاءه عليه من الكلام باللغة الفصحى مكتوباً بخط نسخي واضح وكان هو يحيننا كذلك . على ما زى لهدنا بعض علماء المشرقيات يكتبون العربية كتابة جيدة ويمجزون عن التكلم بها .

بقيت العربية في الخواص من اهالي شمالي افريقية وللارام ولا سيما في الجزائر لغة ليست من العربية في شيء ، وفي عامتهم الفاظ افرنسية وإيطالية واسبانية ومالطية وبونانية . لا جرم ان انتشار العربية اليوم تبع لانتشار المعارف عند الشعوب العربية والشرقية ، وقد اخذت كل لغة من اللغات الاسلامية الوفاً من الكلمات العربية ادجبتها في لغتها فصارت كأنها فيها اصيلة فظهر بذلك ان العربية لا تستغني عنها لغة من لغات المسلمين ومنها لسان المالايو والاردو والفارسي . وكما حرصت العراق والشام ومصر وتونس — وهي الاقطار التي رسخت فيها العربية على الدهر وكانت من أول الاصقاع التي هبت اسير نحو المدينة الحديثة — على نشر العربية الفصحى في ابنائها يسري قبس من نورها الى الاقطار الاسلامية الاخرى .

والرجاء بعد ان يستقيم عمود السياسة في البلدان الاسلامية ، والسياسة اليوم فيها متزعزعة غير مستقرة ، يصبح للعربية شأن غير شأنها الآن ، ويسد النقص الذي احدثته الايام بحمل الملوك والحكومات . واذا رأينا اليوم تركيا تقضي على العربية في آسيا الصغرى بين ظهرائي بضعة ملايين من رعاياها فان ثلاثمائة مليون مسلم في الارض لا يستطيع ان تملي ارادتها عليهم . حاربت كل ما هو عربي أو يشتم منه رائحة العربية ، وكان الخير والشر من عملها مقصوراً على ارضها فقط . والايام كفيلة بتعيين مقدار هذا الخير الذي اتاها بهذه الثورة على العربية والاسلام .

في عمر الثمانين

يا نفس هو ذا الحادي يُهيب بك لاجتياز المرحلة الاخيرة دراك ، وِخفي في خَفٍ
من أنفالك للحاق بمن تقدموك من الِاهل والمشير ، فالوقت ضاق وانت
على اوفاز ، والمنزل منزل مُقلعة .

يا نفس لا تفضي ولا تفتي فقد مُعمّرت طويلاً ومتعت كثيراً ، وفنت
بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت
من الخلاق والمعارف ، وسمدت إذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ،
والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغم ، وعشت في
سلطان الرضا طيبة الطُعمَة لا يد لاحد عندك .

علموك ما كانوا يأملون منه اعدادك للتجارة لفتنين منها كما اغتنى اجدادك
فأخفق تقدبرهم ، وهدتك الفطرة لامور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ،
وصرفت فيها نقد عمرك اعتقاداً منك أن فيها سعادة لك ولغيرك .

أخذت عن أشياخ أدخلوا الممل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهدوا
الى العمل بها ، وانصرفت عنهم بشكوك ومعميات ما انحل لك بعضها حتى
الصلت بمن خَرَجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الامور نظر
تدبر . واقتديت بارباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما
سلموا واستسلمت كما استسلموا ، واغتبطت أن أرضيت هواك فيما قرأت
وبحثت ، وفيما سجلت ودونت .

وحظك الحظ فما ألفت الا أولى الفضل ، وما حرصت إلا على صداقتهم ،
ولا اختلفت الا الى مجالسهم ، وما شاقك الا سماع اخبارهم ، وكنت على الاكثر
لا لصحبين الا من تستفيدن من علمه وتجربته ، وتقربين من الاحاديث الغثة

فرارك من الطعام الواحد ، والمنظر الواحد . والنغم الواحد ، وما كنت كذلك
شهد الله في حبك ووفائك .

هان عليك ما أنفقت في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ،
وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعت به ، يوازي في نظرك أكثر
المسرات والشهوات .

درجت على بفض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الافكار على
ثورة السلاح ، ودقت في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألا مجد إلا من طريق
المعرفة ، فأحرزت لك شهرة سمعت وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربي
على رجائك رحت تزهدين فيما صرت اليه ، وتندمين على فترات ضاعت سدى
وان أكسبتك مرانة ومرونة ، وأفادتك عبرة وتجربة .

كان بذلك ما ينال عليك من الضربات في تأييد حق ونقويم مائل ،
حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلة ، وما عبأت بمن كانوا يحاولون التسلق
الى الشجرة بالحط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء
بما تتوهين غناه .

علمتكم الايام التحلم وما كنت حليلة ، وزيت لك اللين وكنت جاحدة ،
وأخذت من حوادث الدهر دروساً في الصبر والابانة بقدر ما سمح به مزاجك ،
وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت
الايام ضد طباعها ، وما أحبيت ان تستعمرى احداً ، ولا أن يستعمرى احد ،
وقلما أتيت شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقدر
حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل
بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلمهم ، وكنت تخلين عن أصحابك
في افراحهم ولا تتركينهم في آراحهم كأنك من اخوان الضراء لا اخوان
السراء ، إذا اقبلت الدنيا على صاحب تبسعين عنه ، وان أدبرت
تكثرين من مؤاساته .

وأكثر ما آذاك في طويل أيامك ان كنت تشهدين قوى عظيمة ضائعة ، وطريق الإصلاح مهيماً امام اصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فسادتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر . وقالت الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشق عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا ان ينالوا منك على ما حشروا من أبالستهم ، وافتروا من إفكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك الا الحق الذي أخذ من قلبك ، وإلا الفرام باستعادة عظمة الامة والملة .

ومن أشق ما مر بك أن كان أرباب المحك يحملونك على اثبات المثبت والتدليل على البديهي ، وان اضطرت الى عشرة قوم كان الجمل فاشياً في سوادهم الأعظم ، وقضى عليك بمد ذهاب من أخذت من أدهم ، واستهوك باخلاقهم ، أن تسمي هراء ادعياء لو انصفوا لعادوا الى الكتاب ، يبتدئون بالعلم من كتاب الهجاء .

عاداك من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة ، ووجهوا اليك من اتهم ما كان في وسعك رده لو جوزت اضاءة الوقت في مهاراتهم . وما قرفوك به أنك مستبدة فيما يبدو لك ، مفرطة في حرية رأيك ، حلوة الصداقة مرة المداوة ، ضئيلة بجاهك ، تكثرين من قول لا أكثر من قول نعم ، وهم كانوا يريدونك على ان تشهدي للمحق والمبطل وتدخلي فيما يمنيك وما لا يمنيك ، وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة اذا كان منه تنفيس كربة الفرد ، ومن مألوفهم أن كل من قصد انساناً في أمر يقضي عليه الظرف ألا يرده خائباً .

وعابوك انك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الاحايين ، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم فتكسرين قيود الرسميات ، وتبالغن برعاية من لا تجب مراعاته ، اذا تخيلت فيه ناحية اعجبتك ، فتلبسينه ثوباً اطول من قامته ، وتجميلينه في عيون البعيد والقريب والبيض والحبيب .

يا نفس الحق مر والصادع به معذب ، وصاحبه أبداً هدف لطمن الطاعنين ،
ومن يحاول اصلاحاً وتجديداً فهو عرضة المصصفين والمصفرين ، ولا يكرثك
هذا فالتعنوتون ما اعتادوا أن يستجيبيوا لاول صارخ يحاول زحزتهم عن
عقائدهم ، ومتى هسّ أرباب الارواح الجامدة لمن يحاول ادخال روح جديد
عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحكماء .

وكيف لطمعين يافس في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلالك غير
مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنايذة المخرقين والمضللين ، وكنت معهم
بين عاملين إما اقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، او الانكار عليهم
وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤدين ديناً .

سخرت من المتجربين بالوطنية ، وانحيت على المناكئين بالدين ، وعبت
بالواغليين على الادب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تتعامل
ولم تتعامل ، وأنت انصفت من انتقدت ، وما كعمدت أذى من زيفت
كلامه ، وخالفك في آرائه .

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يترب
صوته كل سامع . أنت اردت العقل أن يجري طليقاً من القبود الثقيلة ،
وأصحاب الاهواء حبيب اليهم الجلود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه
من آباءهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم في اقتباس الاصلاح ،
ولا أن يُثَمِّروا انفسهم في ادراك ما لم يسبق لهم معاناته .

أنت يافس لم تحسدي وحسدت ، ولم تشعقي وشمت بك ، ولم تؤذي
وأوذيت ، وكنت تمجدين العاملين ، وتأخذين بأيدي المبتدئين ، ولا لضنين
بما لعرفين ، ولا تدعين علم ما لا تعلمين . والى هذا كنت تهلين بسقوط
المنافقين والمتجسسين ، وتهلين بوم يدب التزيق في اموال جمعت يبيع
المروءة وفساد الذمة .

انت ما عادت إلا مأفون الرأي ، وما شاكت إلا زعائف الحشوية ،

وما تأفت إلا من زبانية السياسة ، واذا غلوت في القضاء على غلوائهم ،
فمذكرك كونك من الآدميين يحجز عليك ما يحجز عليهم من ضعف وغلط .
والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها .

كرهت يانفس التمسب والعصبية ، وحاربت الجهل والامية ، وفضحت
مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقت الحزبية والجماعات السرية ، وتقانيت في
الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جبهة للعرب والعربية ،
وللإسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتضت فيها خلف ما سحلمتبه ،
ولجأت الثمرة أكثر جفياً ولذت طمأ ، ولكن من الامور ما لا تتجلى
للبصائر أسرارها لأول نظرة ، وللأيام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور .
عاشرت أجيالاً ثلاثة كان في الأول مملوك ومؤدبوك ، وفي الثاني اخوانك
ومعارفك وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك . وكان جيلك الاول
خير اجيالك لما تخلله من آمال واحلام ، وبشارات بما كنت ترنجين في
دنياك من استفاضة الصيت واردة النفع .

جهدت كأن الموت لا يلافيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فاقصر حسابك
له من أجلك ولا زاد فيه ، وتعرضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن
حيلتك بل بقضاء وقدر .

وأدركت بأخرة أن ليس في العالم امس اليوم وغداً غير التكرار ،
وأن البشر في بلاء ومحنة ، فاذا خرجت من هذه الفانية وحسابتك عدل
سيئاتك ، او شالت الحسنات قليلاً في ميزانك ، فقد فزت فوزاً عظيماً ،
وأنت اذا لم يحقق الزمن أغراضك كلها فلست أول من أعوزته القوة وخانه
التوفيق ولا أول من برد فدفن في التراب ، فلا تسألني خالقك بمد الذي
جرى لك الا العفو والمافية .

الحق

يقول واضع هذه المذكرات : اثبت نصوص ما كتبته بالصورة التي كتبت
لاول مرة لم ادخل عليها شيئاً من التعديل . واذا امتد بي الاجل اتبعت
مادونت بديل .

وكان الشروع في كتب هذا اول شهر نشبت فيه الحرب العالمية الثانية
(١٩٣٩) وكففت عن التدوين في أواخر حزيران سنة ١٩٤٨
والحمد لله أولاً وآخراً .

جسرين (غوطة دمشق)



فهرس الجزء الثاني من المذكرات

صفحة	صفحة
٤٨٥ المؤتمر النسائي	٣٢٣ رؤساء الوزارات
٤٨٦ محاضرات في المحافظات	٣٤٠ مع المندوب
٤٨٧ جامعة الدول العربية	٣٤٦ نكتة
٤٨٨ المعارف والاصدقاء	٣٤٨ وقعة في مصر
٤٨٩ غرائب	٣٥٤ المصري خارج بلاده
٤٩٠ انا والمقيدة	٣٦٣ التفتيش في الريف
٤٩٣ عملية أخفقت	٣٦٦ سياسي مع المنتدين
٤٩٥ مؤتمر الجمع اللغوي	٣٨٨ خيالانا
٤٩٩ الحروف اللاتينية	٣٩١ اصطحاب الاغنياء
٥٠٤ قصص مصرية	٣٩٦ اختلاف اجتهاد
٥١٣ ملك بالجان	٤٠٤ ذكرتي الطعن وكنت ناسياً
٥١٤ افلاس عن طمع	٤٠٨ حل الماسونية
٥١٦ انتقام للهي	٤١٠ دعايات
٥١٨ كفاءة وعمل	٤١٨ وطنية الامير شكيب وجهاده
٥٢٠ عزة النفس	٤٢٤ تمدين بلاد العرب
٥٢٤ الثورة السورية	٤٢٩ توارد الخواطر
٥٢٥ مما اتهم به	٤٣٣ المعارف والادارة
٥٢٧ جزاء مادي	٤٤٤ الاغتيال السياسي
٥٢٩ المجمعان العربيان	٤٥٠ هزل ومزاح
٥٣٠ الدستور السوري	٤٥٩ هذر
٥٣١ الاخوان المسلمون	٤٦٣ فقد الاعزة
٥٣٣ عيد المعري الاافي	٤٦٥ المصريون والسوريون
٥٣٦ الوضع الحاضر	٤٦٨ بعد الفترة
٥٣٩ تدمير فرنسا بلادنا	٤٧١ دور جديد
٥٤٥ الحرب الاخيرة	٤٧٤ في مذباغ القدس
٥٤٧ لانعاش مصر	٤٧٧ مفاسد الحرب
٥٤٩ الاشادة بمصر	٤٨٠ الهزل
٥٥٠ الحكم على الجواسيس	٤٢٧ استيعال العقل

٥٥٢	تخلف المصري في التجارة
٥٥٤	عجز وكسل
٥٥٧	الفضول
٥٥٨	محافظ المسلمين
٥٦٠	مشيخة الازهر
٥٦١	حديث ذو شعب
٥٦٣	طمس الحق
٥٦٥	الدين النصيحة
٥٦٧	غلط غير مقصود
٥٦٩	متانة اخلاق
٥٧٠	عبدنا الوطني
٥٧٢	حسن الواجب
٥٧٤	الكتابة الباردة
٥٧٧	الكتلة الوطنية
٥٨١	الجزازات
٥٨٣	امانة الوزراء
٥٨٥	حب المديح والظهور
٥٨٦	باشاوان في مصر
٥٨٧	خلق غريب
٥٨٨	وفاء المهمم
٥٨٩	كتاب الى حبيب
٥٩٤	للدين
٥٩٦	احكام عادلة
٥٩٧	القضاء أيضاً
٥٩٨	رأي سديد
٥٩٩	غش سياسي
٦٠٠	الاسماعيليون وامامهم
٦٠١	محسنان مصريان
٦٠٢	التاريخ المهجري
٦٠٣	ادماء الشرف

٦٠٦	ولاة العثمانيين
٦٠٧	غش الشعراء
٦٠٩	الجنرال سبيرس
٦١٠	الدم الطاهر
٦١٢	الافراط في الكرم
٦١٣	السيد خالد العظيم
٦١٤	اختيار الوزراء
٦١٥	المؤلف الشاب
٦١٦	كبار الصحافيين
٦١٧	دهاء الانكليز
٦١٨	كلمة حق
٦٢٠	بجمع فؤاد الاول
٦٢٣	شهادة ملك بملك
٦٢٤	الخزاة التيمورية
٦٢٥	الاعتراض والدعوى
٦٢٧	المدنية ابنة الفنى
٦٢٩	ذيل على اقوالنا وافعالنا
٦٣٠	سيدة القرى
٦٣٢	المعدة الصالح
٦٣٣	هامش على سيرة المشايخ
٦٣٥	النبل العملي
٦٣٦	الى شيخ الشيوخ
٦٣٨	شرقي الاردن
٦٣٩	افراط وتفريط
٦٤٠	قيد النظر
٦٤١	الشهرة الصادقة
٦٤٣	كلمة لله
٦٤٥	العدل نسبي
٦٤٧	العربية عند المسلمين
٦٤٩	في عشر الثمانين
٦٥٤	لحق

المنكرات



الجزء الثالث

لُصِفُوا الحَيَاةَ لَجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ غَمًا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَلَمْ يَغَالِطْ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبُ الْحَالِ فَتَطْمَعُ
« المتنبّي »

الملكية أم الجمهورية

منذ تقلص ظل الدولة العثمانية عن ولاياتها العربية بعد الحرب العامة الأولى ، كان بعض من يهتمون بالمسائل السياسية يسألونني رأيي في الجمهورية والملكية ، وأيتها أولى ان ينادى بها في أمة تحاول ان تختار لها. من نظم الحكم الأنسب ، وتنهياً للاندماج في زمرة الدول الممدنة ذات السيادة ، فكنت أحرار في الجواب ، وكثيراً ما استعفي من الجهر بما لا يكون منه إلا الوقوع في خطأ يُنقل ، وإذا ألزمت بالإجابة فيكون جوابي بشيء من التردد لا القطع ، وربما عدت على نفسي باللائمة لأني لم ارض عما اضطرت الى التصريح به على البديهة ، وقد يتخلل ما قلت امور يناقضها المشاهد ، والمسألة جد خطيرة ، وهي ذات شقين متناقضين ، ووجهين غير متساكين .

للجمهورية حسنات ولها سيئات ، والملكية حسنات ولها سيئات ، أما البشر فسائر نحو الأنظمة الحرة ، متى خير لا يختار غيرها ، كما هو سائر نحو الاشتراكية والشيوعية ، متبرم من الرأسمالية . الجمهورية نسخت قانوناً عتيقاً وأنت بقانون كان نتيجة ارتقاء العلم وكثرة التجارب ، ويقوم الحكم الجمهوري على دعائم من الحرية ضرورية لقيام امر الجماعة . والملكية نظام لا بد فيه من إغماض الطرف عن بعض الحريات .

الجمهورية نظام شعبي طريف ، والملكية نظام تغلب تلبد ، الجمهورية بالانتخاب وفيها تجدد ، والملكية بالوراثة متسلسلة من الأب الى الابن او من الملك الى اقرب الولد للجد ، الاولى يطمح اليها كل من يحسن استمالة قلوب الشعب ، والثانية تتم بالاقرار للمليك وآله بالصدارة والحق المكتسب ، والملك رمز أمته وعظمتها وتاريخها اكثر من رئيس الجمهورية . ارتقى البشر في ضروب الحرية حتى ليظهر اليوم كراهته للنظام الملكي ، لأن هذا يتطلب من الشعوب ان يعطوا الطاعة فقط ، والنظام

الجمهوري يتمتع القائلين بما يشتهون . الملك يمثل شعبه ابدأً بسلطة لانهاية لها ، ورئيس الجمهورية يمثلها بسلطة مؤقتة محدودة . الملك يختار رجاله على الأغلب من ارباب البيوتات القديمة ، اكثر مما يعنى الرئيس بذلك . ولا يكون حزب هذا على الأكثر إلا سواد الشعب ، وقد يكون اعتماده على السقاط والأراذل .

تقوم الجمهورية على الأمل والتجدد ، والملكية على الرضا بما جرى الاصطلاح عليه ، الأولى تمثل جديداً متباعداً عن روح الماضي ، والثانية صورة من صور القديم قد تنصبغ بصبغة الحديث . والملك في ملكه كالأب في بيته وبخاصة إذا كان ممن اتقنوا صناعته ، وعرف ما ينفع أمته ويضرها ، والرئيس أشبه بوصي اخذ على نفسه ان يكفل يتامى حتى يشبوا ويقولوا . والملكية المقيدة نافعة إذا حسن انتخاب مجلسها أكثر من الملكية المطلقة التي لا يخلو القائم بها من لومة استبداد ، والملك الدستوري اقرب الى قلوب امته من الملك المستبد ، فهذا لا يجب إلا رياء ، وشتان بين من تخضع له مختاراً ، ومن خضوعك له عن رهبة او رغبة . والطاغوت من الملوك يختار لخدمته من يجيد الملقى له ، وقد يقضي من رجاله من يصدقه وينصح له . ولو اعتبرت الكفاءة في انتخاب الملوك كما هو مذهب المعتزلة لرجحت الملكية على الجمهورية .

الملكية تورث المملكة شيئاً من الاستقرار ، وهو من أهم العوامل في نهضة الممالك ، وربما رجحت كفة الملكية على الجمهورية إذا كانت من يتولى الملك ملكاً استوفى صفات الملك الحازم ، وهذا لا يتأتى كل حين ، والغالب أن يخلف الملك العظيم من ليس من عياره . وإذا زعم بعضهم أن الملكية تبذر الأموال ، فالجمهورية لا تقصر عنها في هذا الباب ولكن على طريقة أخرى ، أي بفتح الاعتمادات والايغال في تضخم الموازنات ، والمآل الى الاسراف واحد ، وإنما الاختلاف في الأسماء . وفي الملكية تسرق أموال الأمة بلا قانون ، وفي الجمهورية يلبسون السرقات صيغة قانونية كمن يمتثل على الزنا بصيغة من الحيل الشرعية . وفي الملكية

تكثر الشهوات ، ويستكثر الملك وآله من الاستمتاع بالنساء بما يخرج
عن القصد ، فيتناسل الأبناء وأبناء الأبناء ويكثرون كثرة يدخل الخلل
على إدارة الملك . وفي الجمهورية يكثر الفحش في أنصارها لسهولة الوصول
الى المال وعدم المبالاة في الاسراف فيه ، ولا يقيّد شرع ولا تستشعر
قلوبهم الخوف . وفي الجمهوريين من يحاولون أن يغتنوا في أسرع وجه ،
يغنون فرصة مقامهم القليل في الحكم . اما الملك فيرى ، وآماله في الملك
أطول ، أن المملكة مزرعته ، ومن شأن مالك المزرعة أن يجمي جهده
إنسانها وحيواتها ، ويدفع عنها ما يجعل خرابها ، ولسان حال الملكي :
كان أبي وهذا ظهوري ، ولسان حال الجمهوري : أنا واضع أساس
مجدي . في الحكم الملكي يكثر الزهو والبذخ ، والحكم الجمهوري أقرب
الى الطبيعة الساذجة وقد لا تقل الجمهورية عن بذخ الملكية في بعض البلاد .
إذا ابتليت مملكة بملك يحسن الهدم ولا يحب التعمير ، ويستبد ولا يعرف
العدل ، يشتد بلاء أهلها ولا ينقذهم من طغيانه إلا الثورة غالباً ، والثورة
لا تحمد مغبتها ، الثورة تنتهي بقتل الملك وإهلاك آله ومن ينبت إليه
بصلة الحكم ، كما حصل في اليمن مؤخراً وما أغنى عن الامام ما جمع
من مال وما سدّ من منافذ النور على شعبه . أما رئيس الجمهورية
فهما استبدّ كان من ورائه قانونه لا يتمتع بمنصبه أكثر من بضع سنين ،
وبمثل هذه البواعث نرى اليوم عدد الجمهوريات في العالم يزيد وعدد الملكيات
ينقص . والفرد مظنة الاستبداد أبداً ، والحكومة النيابية مهما دخلها
الفساد أقرب الى العدل والعقل .



مجالس النيابة

لما عهد الى السيد سلازار بوزارة مالية البرتغال اشترط شرطين أحدهما ألا تعتمد الحكومة في موازنتها مالا لتصرفه في الانتخابات ، والثاني ألا تنفق وزارة من الوزارات شيئاً دون اشرافه على صرفه ، وبذلك استقامت موازنة البرتغال ، وكانت منذ مئة سنة من الموازنات التي لم يتعادل دخلها وخرجها . وشرع الوزير ورصفاؤه بمشاريع شغلوا بها اليد العاملة ، فغمرت مملكتهم وصلحت حال أهلها .

أما حكومات الشرق العربي السارية على النظام النيابي فتعتمد مبالغ عظيمة للانتخابات لتضمن لها الأكثرية في المجلس ، ويدوم حكمها ويحقق منافسوها ، ولا يفوز بالنيابة فيها على الغالب إلا الجاهل الذي يستجدي الأصوات أو يبتاعها وعند نفسه انه يفادي بالثمة ليحصل على الألوف ، وغايته أن يقعد على مقاعد المجلس ويرفع يده بالموافقة على آراء جماعته .

وقد رأيت اصنافاً من النواب كان من اعظم الجرائم توسيد هذه المهمة الشريفة لهم ، فمنهم الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ومنهم من دأب طول حياته على التجسس لكل صاحب سلطة ، ومنهم من سعى بشباب قومه وشهد فيهم الشهادات التي ساقتهم الى حتفهم ، عين نائباً مراعاة لحاظ احد ذوي قرباه من ساسة لبنان ، فجلس بضع سنين في كرسي النيابة ولم يؤثر عنه ان قال كلمة في المجلس ، وقصاراه ان يقبض الراتب ، واذا عهد اليه امر افسده ، واذا وصلت الى يده اموال ابتلعها وكان سمساراً لطلاب الوظائف يعين لكل وظيفة ثمناً ، ورأيت نائباً آخر غرق في الجاسوسية للغريب وكان آلة شر في اجدى الثورات وقتل كثيراً من الأبرياء بأيدي سادته الذين تطوع في خدمتهم ، ولا بشأن له اليوم الا امداد بعض المقامات العالية بالأخبار التي يرتاحون الي سماعها كأنه

بعض رجال الأمن والمباحث . ومن خلا ذهنه من معاني الحرية كيف تطالبه باقامة صرحها والعمل لما يصلحها ، ويكفي أن يقال ان هذا النائب لايعرف الغرض الذي جاء لأجله ، وليس له مزية من مزايا الرجال . ولو قد كتب لك ان تطارحه الحديث في أبسط المسائل لتبينت مبلغه من العقل والمعرفة ولأيقنت انه ممن تملكته العامة وليدة الأمية البغيضة . حقيقة ان الحكم النيابي الذي أتنا به الغرب ينطوي على سخف كبير ، وحكم يقوم على مثل هؤلاء النواب لا ينشأ عنه غير الخلل في ادارة الدولة وسياستها ، وفي الغالب اذا اجتمع جماعة لامر عام ان يضلوا طريق الصواب ويتبع قويمهم ضعيفهم وعالمهم جاهلهم وان كان الحق مع هذا القوي وهذا العالم ، ويكون القول الفصل للثرثار لا لصاحب الأناة والتعقل ومجالس مؤلفة من مثل هذه الاعضاء المؤوفة يملئ فيها الشياطين ارادتهم والباقون يؤمنون على كلامهم بلا فهم من أضعف المجالس .

حاول أحد النواب وضع اقتراح في المجلس يفيد العدالة ، وذلك بامناع القضاة بالحصانة القضائية ، ووافقه على رأيه خطأ أكثر من أربعين نائباً فلما نظر وزير العدل الى المتأمرين ساعة المناقشة في الموضوع نظرة فهموا منها التهديد امتنعوا عن اعطاء الرأي ونسوا تعهدهم لزميلهم ، ذلك لان لهم قضايا في المحاكم اذا أغضبوا الوزير يخسرونها ، وهم ممن لاتهمهم غير مصالحهم الخاصة ، ولو كان ما يقررونه قميناً بان يعيد العدل العمري الى الارض .

فاي نفع يأتي على مثل هذه الايدي ؟ وهل يطيب لحكومة تحترم نفسها ان تصل الى الحكم بواسطة امثال هؤلاء الجبناء ومن اختاروهم من العامة في المدن والقرى ؟ واقسم بالله أن جزءاً من النواب لا يدركون مغزى المناقشات التي تدور في المجلس ، ومنهم من ينام او يتناوم ويرفع يده متى طلب منه اعطاء الرأي - وأحب التآلف الى رئيس حزبه أو زعيم جماعته ، ومنهم من لا ينتبه عند التصويت ويغلط فيعطي رأيه للحزب المخالف له . ومن الغريب أيضاً ان مثل هذه الطائفة من النواب لاتحضر الجلسات النيابية بصورة مطردة تفر من واجبها كما يفر الاطفال الكسالى من المدرسة .

ولكم رأينا الأخرق يفوز بالنيابة بتعجيز الناجين او ابتياع اصواتهم او بسلطان الحزب الذي ينتمي اليه والزعيم الذي ادخله في جملة وتبناه وآخاه وهناك الرجل التام الادوات لا ينال سوى أصوات ضئيلة تلعن قوماً ضاع الحق فيهم ، وما دام معدل من يقرأون ويكتبون في مجموع الشعوب العربية لا يزيد على عشرين في المئة لا يجيء النواب الا من هذا الطراز .

والنواب يخرجهم الحزب بمختلف الطرق بالتزلف والمداجاة والتهديد والوعود والرشوة وكسر صناديق الانتخاب والاستعاضة عنها بصناديق فيياكل من يحاول اشباعهم امتاعهم بالنيابة ، وبالقضاء أوراق مزورة في الصناديق التي تصل الايدي الى العتب بها ، وشأن المجالس النيابية في مصر والشام والعراق ، شأن كل مجلس على الاغلب ، يتولى اقليته الحركة فيه والغالب ان يكونوا اقل من عشر اعضائه ، يدير المتمازون المنافسات وقصارى الباقيين تكثير سواد المجلسيين .

وشيء آخر لاحظته في بعض المجالس النيابية وهو انه قد يكون من اعضائها الاكفاء حقيقة في السياسة والقانون والاقتصاديات وتمضي الشهور ولا يفتحون افواههم بأمر يعود على الامة بالخير ولا يتقدمون اليه باقتراح مفيد . ومثل هذه الحال اذا تجلت في الاميين لا يرضي صدورها من رجال مثقفين مدركين ، وكأن الكفو الذي يختار السكوت في مجلس هو مصنع الكلام ، ليس الا صاحب غرض وصل اليه او يحاول الوصول اليه فلا يريد ان يعدل ولا يجرح لئلا يتأذى به احد بيده نفعه وضرره .

اجمع عقلاء الغرب على ان الحكم النيابي افلس وما جئيت منه الثمرات التي كانت تنتظر ، والفوا في ذلك الكتب ونشروا الرسائل والمقالات ، ونحن ماذا نقول في هذا النوع من الحكم الذي نقلناه عن الافرنج مقلدين ، ولا ننظر الى ما يوافقنا منه وما لا يوافقنا نظر تدبر وبصيرة ، قال احد سفراء فرنسا ان جميع شعوب البحر المتوسط وفي مقدمتهم نحن الفرنسيين

ليسوا من اللاتقين للحكم النبائي ، ونحن نقول ان العيب لم ينشأ من النظام النبائي فهو صالح للامم الراقية التي خفت فيها الامية ولكن العيب في منفذيه فاذا كانت لهم القوة اساءوا استعمالها واعادوا الاستبداد تحت طلاء الحرية يخدمون مصالحهم ويدوسون مصالح وطنهم وابناء وطنهم .

النصح الخالص

كان صديقي الاستاذ جرجي زيدان صاحب الهلال كثيراً ما ينصح لي منذ انشأت مجلة المقتبس في القاهرة سنة ١٩٠٦ ان انقطع إلى اصدار المجلة واترك الجرائد السياسية لأن استعدادي للعلم اقوى والتحصن له أولى ، فكنت اعتذر بأن المجلات لا يعيش بها اصحابها لقلة ارباحها فلا بد من المؤازرة في الصحف اليومية ليتوازى الدخل والخرج .

ولما ازمعت العودة من القاهرة إلى دمشق سنة ١٩٠٨ لانشيء جريدة المقتبس السياسية كان أول ماتفضل ونصح لي به العلامة الدكتور يعقوب صروف منشيء المقتطف - وكان يعطف علي عطف استاذ على تلميذه وأب على ابنه - الا ادخل في السياسة واقتصر على انشاء مجلة المقتبس العلمية قال اني كنت امس أفكر في أمرك وأنت على أهبة السفر لتعود إلى بلادنا فرأيت خدمة العلم أجدر بك وأهناً لك ، فيا أخي تأمل كيف تضيع غداً اوقاتك في الجريدة السياسية ، تنام على فكر وتنتبه على فكر ، وعليك كل يوم ان تنشيء مقالة افتتاحية تلذ القارئین مطالعتها فتضيع بذلك مواهبك وتضل في تيه لا تعرف متى وكيف تخرج منه . فقلت له اني كنت أخذت على نفسي عهداً إذا تمتعت الصحافة في الشام بحريتها ان اخدمها واخدم الأقطار العربية بانشاء جريدة يومية فأنا اقوم الآن بما تعهدت به . وفارقت ولم البث اشبراً قليلة ان عدت إلى القاهرة اعتصم بها ، وقد اغلقت الحكومة التركية جريدتي ، واقامت علي دعوى تضعف بها قوتي ، فالتقيت بالدكتور صروف وشريكه الدكتور فارس

نمر في بعض شوارع القاهرة فأخذني استاذي صروف على عدم استماعي
 لنصيحته . فقال الدكتور نمر : لا تحمل عليه هذه السياسة يأخذ تيارها
 من يعانها إلى حيث لا يريد ، والمقتبس اليومي لازم لنهضة سورية لزوم
 المقتبس العلمي لتنوير الأفكار ، والحير غير مضمون في الأعمال كلها .
 لم انتبه للنصيحتين الصادرتين عن عالمين كبيرين من علمائنا زيدان
 وصروف ، ولم أدرك انهما رحمهما الله ، نظرا الى استعدادي فعز عليها
 ان ألقى بنفسي في مخاطر السياسة ومتاعها ، اما انا فجربت طالعي
 ودخلت المععان بنية سليمة واجتهاد كلي ، فخرست وربحت في آن
 واحد : خسرت وقتي وراحتي ، وربحت تجارب ما كنت احصل عليها
 لو اقتصررت على النشرات العلمية ، وليس في الأرض شر محض ولا خير
 محض ، والحياة تتقاضى المرء ان يذوق شاء ام ابى من خيرها وشرها .
 وبعد سنين رجعت إلى العمل برأيي الصاحبين الحبيين في ترجيح الاشتغال
 بالعلم على السياسة ، وما كنت اشك شهد الله الا ان نصيحتها ثمينة املاها
 الاخلاص في الصداقة وحب العلم ، وهما لا يبغيان منها إلا راحتي ومصالحتي
 اولاً وتكثير سواد خدام المعارف ، وكان عددهم قليلاً يومئذ . رمتني
 السياسة بكل عظيمة وتلقيت ضرباتها بالصبر ، ولو كتب لي ان اتابع
 السير فيها لمتعت بأرقى المناصب واوفر المكاسب وارادة المولى فوق
 كل ارادة .

اللغات الغربية في الشرق

دام الناس في الشام على العهد العثماني يتكلمون التركية لتولي الوظائف فلما جلا الترك عن القطر جلت معهم لغتهم ، وبطل التكلم بها لعدم الحاجة اليها ، وبقيت بقاياها تَرَدَّد في السنن من تزوجوا من تركيات ، ومن يستخدمونها احياناً من طبقة الموظفين ، حنيناً لأربابها وتذكراً لسلطانها ، ولما رحل الفرنسيين عن سورية ولبنان كانت الفرنسية قد رسخت قليلاً في الأولى وكثيراً في الثاني ، ومع هذا رُميت في كلا البلدين بالكساد ، وكانت من ادوات الزينة والسياسة والعلم ، فأصبحت كما كانت قبل الاحتلال لغة علم وتجارة ، وعز على من كانوا يعيشون بها ان يروها تنحط عن مرتبتها ، وتفق تلك السوق الراجحة التي اقامها لها المتغلب ، على عادة كل فاتح يتطال الى نشر لغته بمختلف الطرق ، وللفرنسيين شغف كبير في هذا الباب .

اللغة الفرنسية وان رحل اربابها عن ديارنا قد بقيت لها المكانة التي كانت لها قبل نزول جيش المنتدبين على الساحل والداخل . وستظل الرغبة في تعلمها كما كانت لا تنازعها إلا اللغة الانكليزية ، وهذه تتفوق على الفرنسية في اصقاع الغرب والشرق ، وانتشار اللغة تابع للسياسة ، وسياسة الانكليز السكسونيين مقدمة على سياسة غيرهم من الأمم اللاتينية . يتكلم الفرنسية في الأرض نحو خمسين مليوناً والمتكلمون بالانكليزية لا يقلون عن مائتين وخمسين مليوناً اي خمسة اضعاف الناطقين بالفرنسية . ثم ان العلم البريطاني كان إلى عهد قريب يخفق على خمس سكان العالم وهذا بما اعان على انتشار الانكليزية . هزمت الانكليزية الفرنسية في الميادين السياسي والتجاري ، وكانت المعاهدات السياسية تكتب في القرون الماضية بالاطالية ثم نازعتها الفرنسية وبقيت قروناً لغة السياسة المرجحة ولغة للتجارة ، ولما انتشرت الانكليزية قبلت في كتابة العهود واستعملت كالفرنسية

في المؤتمرات الدولية واخذت الفرنسية تفقد من قوة انتشارها اليوم بعد اليوم . ونقول لمن اغتموا لتراجع الفرنسية في الشام انكم على ما انتم عليه من الانتفاع بهذه اللغة اذا عاجلتم امركم باتقان العربية فان منكم من يكتب الفرنسية كاهلها ولا يعرف من العربية إلا لهجة بلده العامية ، وعليكم إذا صحت نيتكم أن تبقوا في الطليعة من حيث الظهور أن تعاوروا لغتكم الأصلية بالدرس ، وما تعلمتموه من الفرنسية في السنين الطويلة تتعلمون مايوازيه من العربية في اشهر قليلة ، والمهم في الأمر أن تشعروا بحاجتكم الجديدة إلى هذه اللغة وتحلوها من انفسكم ، وانتم جد عارفين بمصلحتكم الآن ، كما احلتم اللغة الأجنبية وانتم صغار لا تعقلون ، وبذلك أيضاً تقومون بما توجبه وطنيتكم عليكم .

سيكون مصير اللغة الفرنسية في عهد الاستقلال عندنا كما كان مصيرها في مصر بالاحتلال الانكليزي ، احتفظت بمنزلتها وجاءت الانكليزية بعد حين تطلب مكاناً يليق بها في وادي النيل ، وساءت الانكليزية الفرنسية في ستين سنة وكانت الفرنسية مستأثرة بهذا التفوق نحو مئة سنة ، والانكليزية اليوم شأن لا تنازعها فيه الفرنسية ولا الالمانية ولا الروسية ولا الاسبانية ولا البرتغالية . وإذا كنت تسمع في بعض مواني البحر المتوسط اللغة الفرنسية فانك في البحر الهندي وما وراء المحيطات لا تفاهم بغير الانكليزية وإذا كانت الفرنسية منتشرة قبل ثلاثين سنة في جمهوريات جنوبي اميركا اللاتينية بعض الانتشار فالانكليزية اليوم أصبحت هناك تنازعها تفوقها . تحتاج الامم ضعيفة كانت أو قوية إلى استعمال لغتين على الأقل من اللغات المساعدة ، ونحن لن يضيرنا الجمع بين الفرنسية والانكليزية أو الاكتفاء باحدهما ، والمهم الا نقصر في لغتنا ونسد نقصاً يجب ملاقاته . فاللغة اول مظهر من مظاهر القومية ومن ضعفت ملكتها فيه وفي وسعه احكامها كان والهمج الهامج سواء .

ضباع الفرس

عرفني في إحدى رحلاتي إلى باريز الاستاذ برون استاذ الجغرافيا الانسانية في (كولييج دوفرانس) الى صديقة له اسمها السيدة ريفير صاحبة مجلة أزياء تصدر بالانكليزية في الولايات المتحدة دعاية لفرنسا . وقد تلطفت ورافقتني في باريز الى عدة اماكن ماكنت اعرفها من قبل ومنها غابة فونتنبلو الشهيرة . ولما أزمعت الرحيل الى الاندلس اقترحت علي ان تبرق لأهلها في بوردو لأنزل عليهم ضيفاً اصرف اياماً في دارهم فأشهد فيها كيف تعيش الاسرة الفرنسية ، وهيات لي انواع التسهيلات للقيام بهذه الرحلة فاعتذرت بضيق الوقت ، وارجأت هذه السياحة الى فرصة اخرى . وفي طريقي من باريز إلى مدريد تعرفت الى مهندس برتغالي عائد الى بلاده فسر بلقاء رجل عربي واقترح علي ان اعرج على لشبونة لأزور ما فيها من آثار العرب فاعتذرت أيضاً بكثرة الأشغال وضيق الوقت ، ومن الناس من إذا كان قاصداً مكاناً بعينه يعتقد انه يجب عليه الا يقصد مكاناً آخر قبل اتمام مقصده الأول وأنا من أهل هذا الخلق على ما يظهر . وكان السيد بيير لوتي ابن اخي المارشال ليوتي مصلح مراکش العظيم اقترح علي في باريز ان يبرق الى عمه ليبرسل لي سيارة الى جبل طارق تحمليني الى رباط الفتح فأزور الغرب الأقصى ، وكان يتوقع ان يكرم عمه وفادتي لأنه يعرفني ، وكان اهدى المجمع العلمي العربي بواسطتي جميع ما صدر عن مراکش من المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وتفضل واثني علي كثيراً واغبط ان كنت السبب في ربط الصلات العلمية بين قطرين اسلاميين سورية ومراكش ، فاعتذرت ايضاً عن القيام بهذه الزيارة (٢٤ تشرين الأول ١٩٢١) .

ولكم اضع الفرس في امتناعي عن مثل هذه الرحلات المفيدة التي كان يقترحها علي من كنت ألقاهم في اوربا من اصدقاء السفر ثم أندم

على تخلفي عن اجابة طلبهم بما فيه متعة للنفس وفائدة ظاهرة استيفيها وافيد بها من اكتب لهم من ابناء الشرق .

اطالة التفكير في أمر قد يضيع الفرص السانحة ، وما كل يوم يتاح مثلاً اذا ذهبت لا تعود أو يعود القارطان . ومن اعظم الفرص التي اضعتها ما وقع لي في زيارة العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي مع والدي رحمهما الله في المدرسة البطريركية في بيروت وكنت في السادسة عشرة . ذلك اني كنت أسمع بشهرة الشيخ في العلم والأدب وپروفني ما يكتبه من الانتقادات ، فحملت والدي على زيارته فلبى طلبي مسروراً فلما مثلت بين يدي الاستاذ العظيم وتكلمت كلمات قليلة مال الشيخ الى والدي وقال له اترك لي ابنك أخرجه لك في الأدب فاني ألفتبه نبياً فأجابه أبي : اني أحب ذلك من صميم قلبي لاني اود تعليمه لولا اني لا اقدر على مفارقتة . ولو كنت الحجت قليلا على والدي وبينت له ما اتوقعه من تخريج الاستاذ لرضي باقتراح الشيخ وكان في ذلك كل الفائدة لي .

هذه فرصة معنوية ثمينة ضاعت وضاعت علي فرصة مادية أيضاً . ذلك اني عرضت عليّ بضعة افدنة في قريتي وكان ثمنها جاهزاً عندي فأبيت ابتياعها ولو اضيفتها الى مزرعتي وشجرتها لتضاعف ما أملك . ولكنني كنت يومئذ كارهاً سكني الشام وغاييتي ان أهاجر الى مصر والنجو من استبداد العثمانيين وما عاد يطيب لي المقام في وطني بعد ان انذرني الوالي بمغادرة الأرض العثمانية او التزام جانب السكوت والامتناع حتى عن الكتابة العلمية .

تعادي الأسر

من قصيدة في لبنان لصديقي شاعر العراق معروف الرصافي عليه الرحمة
وهي تصدق على أهل كل قطر ومصر من أقطارنا وأمصارنا قال :
تلك الربي أما الجمال فواحد فيها ، وأما أهلها فاثنتان
رجل يسير الى النجاح وآخر يسعى وغايته إلى الحسران
متخاذلين بها وهم أعوانها ومن البلاء تحاذل الأعوان
ضعفت مباني كل أمر عندهم ما بين هادئها وبين الباني
وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم في الناثبات تفرق الأديان
وسعوا فرادى للنجاح وفاتهم أن التضامن رائد العمران
الحصام في الأديان أقل شدة من الحصام بين أبناء البيوت ، فقد
يؤدي التعادي بينهم الى اختلاف يدوم بدوام عمر المتخاصمين . رأيت
قضايا حدثت بين ورثة أبناء أب واحد وأم واحدة طالت العشرين
والثلاثين سنة . وشهدت أقارب يتباغضون ، فكنت أسألهم عن سبب
هذه العداوة ، فكانوا لا يستطيعون أن يوردوا سبباً معقولاً لعداوتهم .
قل أن رأيت أبناء أب واحد يتحابان ، وقل أن شهدت أبناء عم
وبنات عم يريد الخير بعضهم لبعض ، الحسد يأكل الأكباد ونظير آثاره
على الوجوه ، وليس أشد من كيد أخ وقريب أو نسيب رأى تفوق
أخيه عليه في الغنى والسؤدد ، ولو كشف الستار عما تكنى القلوب
من ضروب العداوة والبغضاء ما سلم بضعة في المئة من الناس ، ويندر
من يرجو الخير لأهله ولقومه وللبشر ، وندر من صفت نفسه من الكيد
لكل من افلح ، وهذه العداوات مشاهدة على أتمها في الأقارب ثم في أبناء
الحرفة الواحدة وأبناء الحي الواحد المتجاورين والمتشاكسين ولا تزال تضعف
حتى لا يكاد يرى لها اثر فيمن نأت ديارهم وقلت روابطهم .
وأقول لمن تنقبض صدورهم من هذا التعادي الذي لا سبب له أكثر

الاحايين : على كل من شاء ان يعيش بعيداً عما يكدره في الحياة ان يعمل على الدوام بالحكمة التي قالها هانوتو لرصيفه موروا واسار اليه ان يكررها كلما اراد ان يفرج عن نفسه ، وقال إنه استعملها ونفعته وهي : كل عارض يزول ، وكل حديث يُنسى ، وكل خلل ينظم ، وما من انسان يفهم شيئاً بلا شيء ، ولو كان كل العالم يعرفون ما يقوله كل العالم عن كل العالم ما كان انسان يكلم انساناً . قال وإياك يا اخي ان تجعل للخوف سبيلاً الى قلبك فإن العدو الذي انت خائفه يخافك في الوقت الذي انت تفرع فيه منه .

صراحة العلماء

من دواعي التوفيق ان من اخذت عنهم العلم العربي كانوا من طبقة ما عرفت الغش والحديعة ، وكانوا من الأحرار المجددين وإن كان ظاهريهم لا ينبغي عن ذلك . ومنهم استاذي السيد محمد المبارك ، وكان متصوفاً ، ومزيدوه اخلاط الزمر ، وتعرفت بالضرورة الى بعضهم ، فاغتنم احدهم فرصة هذا التعارف وتقدم الى الأستاذ وقال له : ولماذا يا مولاي لا توغر الى تلميذك ان ينضم الى جماعتنا ويدخل في طريقتنا ، وتكرر هذا الطلب منه ، وفي آخر مرة كثر الالحاح فعبس الشيخ وقال بوجه منقبض : هذا طالب علم ويكفيه ما هو فيه مشغلة . ولو لم يقطع الأستاذ على هذا الفضولي سلسلة هديانه لانقطعت عن درسه ، ولكان من ذلك الضرر العظيم على مستقبلي . ومن الغريب ان هذا الملاحح لادخالي في الطريق على قلة استعدادي له ظهر بعد مدة خلل في عقله وقتل امرأته .

وحدثني ابن شبحي هذا ، الأستاذ عبد القادر المبارك ان بعض جماعة والده امروا اليه ان ابنك يعاشر (كرد علي) فيخشى ان تسري افكاره اليه وتفسد عقيدته ، فالأولى منعه عن مخالطته . فما كان من الشيخ

إلا ان قال لنجمله : رجائي ألا يؤثر فيك ما يشيعه بعضهم من اني غير راض عن صحبتك (كرد علي) أنا راض عن هذه العشرة ، وانت حر يا بني ان تصحب من تحب . وكناندرس مع ابن شيخنا بعض كتب الأدب التي ما اعتاد المشايخ قراءتها . رأى استاذي عدم ميلي للتصوف وما احب إدخالني فيما لا يعني ، ذلك لأنه لا يعيش ولا يدلس . ولو كتب لي ان « اصفوف » لاختلف الحطة التي خططتها لنفسي في الدرس والبحث . وكان بما زهدني في تصوفهم أني طالعت بعض كتبهم فمنها ما فهمته واكبرته ، ومنها ما لم احل رموزه كالفتوحات المكية ، فإن في هذا الكتاب الذي لم يفتح الله صدري لفهمه قطعاً تعد من الأدب العالي ونبذاً جميلة في الأخلاق ، والى جانبها قطع لا يمكن حلها إلا بإلهام إلهي وبعض ما جاء فيها من المعاني مناف لما ورد في الشرع ووافق عليه العقل وربما كان منها ما هو مدسوس على ابن عربي او كتبها في حال غيبوبته او تعمد إيهام عبارتها كما يعتمد بعض الفقهاء إدخال الغموض على كتاباتهم حتى لا يتلقف الطالب علم الفقه بطريقة هينة لينة .

مجموعه

الحنبلية

سأل سائل عما اقصده من قولي فلان حكمت عليه حنبلية ألا يفعل كذا وكذا ، وفلان مأخوذ بحنبلية . فأجبت اني اقصد بحنبلية تشدده وتعصبه وتكلفه التزم والرزانة . والأرجح ان هذه اللفظة كانت تطلق في بعض الأدوار الاسلامية على الحنابلة الذين كانوا ينكرون المنكرات بعنف وكثيراً ما كان انكارهم يؤدي إلى اهراق الدماء وخراب المدن والقرى وتعادي الناس ، حتى أن صاحبهم قال للخليفة العباسي (مه.ياصي) فعوقب على هذا الكلام الفج الذي لا يقابل بمثله خليفة المسلمين ، وربما كان للحنابلة يد في تجسيم مسألة خلق القرآن وكان منها اشتعال نار حرب أشبه بحرب دينية في بعض أرجاء المملكة العباسية أوائل القرن الثالث .

مثال من الحنبلية البغيضة : شيخ من كبار شيوخ عصره كانت تحرم في نظره رؤية الصور المعلقة على الحيطان وكانت اذا زار بعض المسيحيين أرسل أحد تلاميذه الى صاحب الدار يقول إن الشيخ لا يدخل غرفة فيها صور فيضطر المزور أن يأمر برفعها في الحال ، أو أن يغطيها بستار يحجب ما وراءها لئلا ينقص ايمان الشيخ بالنظر اليها ؛ وهذا الشيخ كان يختص غير المسلمين بزياراته ولا يزور المسلمين وان كانوا من رحمه . ومن الحنبلات التي يصعب تعليلها انه أراد مستأجر حانوته وكان رومياً ظريفاً ، على أن يرفع الصور من الجدران فقال له المستأجر ولماذا تطلب مني يا سيدي أن يكون ايجار محلك ليرات انكليزية وهذه الليرات نقش عليها صور ملوك انكلترا ، فلم تحمل الصور في النقود وتحرم اذا كانت على الحائط .

ومن الحنبلات أن يحظر أحد المشايخ على فلاحيه زرع الاينسون لانه يدخل في العرق والعرق محرم ، فاذا اطلق الشيخ زراعة الاينسون فكأنه أباح نشر المسكرات ، وفاته نفعا الله بعلمه وتقواه أن الاينسون

يدخل في كثير من العقاقير والادوية ولو استمع الفلاحون لفتواه لفائهم موسم من المواسم الزراعية الراجعة . وربما تدرج الشيخ بشاقب رأيه الى تحريم العنب والتمر ومنها تستخرج الحُور ايضاً .

ومن أعجب ما تصرف به الاقدار ان نسل هذين الشيخين التقيين النقيين طلقوا كل حنبلية وخرجوا عن ترمت جديهم العظميين ، وراحوا يتعاطون كل الحُور والحدرات ، ويستحاون انواع الأموال يا كالون الاوقاف سراً وعلناً ويقولون ما وقفها الواقفون الا لنا ويستبيحون اخلاص أموال الدولة بمقادير واسعة .

ومن الحنبليات ماروي لي من أن أحد النظار على وقف أهلي كان اذا جاء مزرعة الوقف لا يبيع أن تشرب دابته من بئرهِ أو تقضم شيئاً من القصيل أو التبن لان ذلك ينافي الذمة وهو مال موقوف ، أما أن يقتطع هو من مغل الوقف كل ما طالت يده اليه وخصوصاً اذا أيقن أن سرقته لا تنكشف للمستحقين فهذا من الحلال الذلال ، ومن أصعب ما يثقل على الطبع أن يصدر هذا الرأي السخيف من عامي وأجهل من عامي ولا تخلو من سخفاء يستجيبون اليه في هذا العصر .

وحنبلية بمزوجة بنفاق عمل من يبدل راتبه من الصراف اليهودي كلما قبضه على رأس كل شهر بدعوى أن مال الدولة تدخل فيه مكس لا يحلها الشرع فهي نجسة أما مال اليهودي فظاهر لا شبهة في طهارته ، ومنها امتناع ذاك النائب الاخرق عن اقرار موازنة الدولة بدعوى ان فيها أموالاً لا يحل فرضها على المكلفين . وكان من جهة اخرى يأخذ راتبه من هذه الأموال المحرمة .

ويطول شرح الحنبليات التي تصدع سمعي بها منذ القديم . اما زهد بعضهم بأموال الحكومات والدول فهذا مزاج خاص نشأ من تدين واخلق حسنة فهو دين واصحاب الحنبليات لا يرجون من حنبلياتهم الا الدنيا .



اختلاف الشرقيين

من حكم السيد جمال الدين الافغاني : شرأدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف قد اتفقوا على الا يتفقوا . وقال : الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها تنقلب غالباً الى شر داء . يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة مطالب وغايات شريفة فيناصرونه ويكون له اصدقاء في البداية ثم تظهر الأثرة وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل اعداء في النهاية اهـ .

وبالسير على نظام الغرب تجلّى فشلنا في تأليف احزابنا السياسية لاعتقادنا ان الغاية من تأليف الحزب السياسي الوصول الى الحكم وخدمة المصلحة الخاصة . ولما كان افراد الحزب مختلفة تربيتهم فتسرب الاغراض اليه وتتلوث بما قد يخفى على قادته او يعرف هؤلاء اشياء ويكتُمونها ويكون للوسط بعقله من رجال الحزب الشأن الاول ويهمل رأي العبقري منهم ويضطر الى ان يسير مع ضعاف النظر الحاليين من كل تجربة . ولا يستغفرون ان تنحل كلمة الجماعة بظهور حقيقة تركيب الحزب للمأى ويعين على هذا اخفاق بعضهم في الوصول الى ما أملوا من حزبهم وحسد من اقتسموا الغنائم وحدهم مع انهم كانوا يزعمهم اشد بلاء في الخدمة واخلاصاً في القصد . فيتخلل الخلل ذاك العمل وتنداعى أركان الوحدة وتذهب الغاية المرجوة منه لحير الجماعة .

رأى بعض الأبائسة ان الدين من أشد العوامل في استتباع العامة ، فازمعو ان يبدأوا بعمل ينفعهم فساروا نازعين الصبغة التي طالما فاخروا بالاصطباغ بها فلما شاهد أرباب الشأن ان باطل ادعياء الدين لا يقا تل إلا بسلاح مثله أخذوا يميلون كرهاً كفة جماعة آخرين فظهروا مستظهرين بأرباب القوة وان كانت النفوس كارهة للضرورة التي اوصلتهم إلى مقاعدهم ، وقد تقا تل السياسة الباطل بالباطل لتحقيق أمنية يخيل انها نافعة . نقول نافعة

ولو ظفر اولئك الذين نفخوا في نفوس العامة ما نفخوا باسم الدين لتبدلت الأوضاع غير الأوضاع ولرجعت الأمة القهقري لا محالة .
ان من تطالت نفوسهم إلى هذه الثورة لا يعرفون الاضطلاع بما اليه يدعون وهم اذا كانوا لم يفلحوا فيما تمحضوا له فلن يفلحوا في أمر ادعوه وهم منه عارون ، بيتوا ثورة للقبض على زمام الحكم وكان لصديقي السيد سعد الله الجابري رحمه الله شرف القضاء عليهم . صادفته بعد سنة من وقوع هذا الحادث الحظر في فندق فقلت له : دعني أقبل عارضيك فانت والله ابن حلال حقاً ، ولولا اقدمك على ما اقدمت عليه فقضيت على من جعلوا من الدين ستارة يلعبون خلفها لوقعنا في شر اعمالنا .



الدعاية للفضائل

سبقنا الغرب إلى كل نوع من انواع الدعايات فنجح كثيراً ، وما انتشرت النصرانية في أوروبا إلا بفضل ماتم لها من الدعاية المنظمة . وعندهم دعاة للخير ودعاة للشر ، ودعاة لطلب المال ودعاة لانفاق المال ، ولكن ما يخطر وما لا يخطر في البال من الأعمال .

لما أرادت بعض الولايات المتحدة الاميركية منذ سنين ان تبطل الأشربة الروحية وشددت على شاربها وأنشأت دعاية واسعة النطاق تنفر بها الفريق الآخر القائل باطلاق الحرية في تعاطي المشروبات ، قام فريق عدم الحظر او الاباحة بدعايات عجيبة حتى بطل المشروع وعاد الاميركيون لما كانوا عليه واعتبط المبيحون للخمر واخفق خصومهم .

ولكن دولة صغرى في شمالي أوروبا وهي السويد قام بها دعاة منع الأشربة فنجحوا وبعد ان كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ - ٤٠ لپتراً

من المسكرات أصبح لا يصيبه اكثر من ٦ ليترات سنة ١٩٠٥ ونزلت مقطوعة كل فرد إلى سدس ما كانت عليه والمعتول انها نزلت بعد ذلك كثيراً حتى لم تعد تذكر وذلك بالدعاية المحمودة للتنفير منها .

هذا ما كان في بلاد قد يحتاج ساكنها الى شيء من الأشربة يدفعه ويقويه على انقاء زمهريرها ويردها . اما في مصر والعراق ثم في الشام فان انتشار الفول اي الالكحول سائر بخطى سريعة ولا سيما (الويسكي) تعلم الشاربون الادمان عليه من الانكليز وجيوشهم في الحرب . وأخذنا غيره من اصناف المشروبات حتى أصبحت رسومها في الجمارك تؤلف رقماً عظيماً . تركت اكثر حكوماتنا العربية الجبل على الغارب في مسائل المشروبات ولسنا علم الله في حاجة اليها للدفع ولا لغيره وشريعتنا تحرم قليلها وكثيرها وما رأينا جمعية رائدها الحد منها قامت بنية حسنة تبعد الناس عن هذا العدو اللدود الذي طالما شكت من غوائله اوربا واميركا على اختلاف اقطارها ومذاهبها اللهم الا جمعية واحدة في مصر ينظر اليها القوم بنظر السخرية وهي دائبة على عملها .

وما قلناه في الأشربة الروحية يقال في الخدرات التي خصت بالبلاء بها ارض العرب كالقات في اليمن والحشيش في مصر والأفيون وغيره من المهلكات يستعمل في غفلة ضابطة الأخلاق وحكوماتهم ساكنة لانها تتقاضى الرسوم عنها وتدخل خزائنها بلا نكير وتقول عن نفسها انها حكومات اسلامية .



المعلمة المصرية

طلب بعض ارباب الشأن في الحكومة المصرية ان توضع تقارير بشأن مشروع انشاء معلمة أو موسوعات أو دائرة معارف (انسيكلوبيديا) وطلب اليّ مثل ذلك فكتبت الى السيد عبد الحالى ثروت باشا رئيس الوزارة المصرية تقريراً ذهبت فيه الى ان هذه المعلمة يجب ان تكون ترجمة وتأليفاً وذهب آخرون الى انه يجب ان يقتصر فيها على الترجمة فقط وهاك التقرير :

نشر معلمة عربية تضم شتات ما انتجه العقل البشري في كتاب واحد اعظم عمل علمي قام حتى الآن لخدمة الجامعة العربية ، واكبر مفخرة لمصر ولرجال مصر في هذا العصر . ولذا كان من الواجب بذل اقصى الجهود لاجراج هذا السفر للناس تام الأدوات ، جميل النظام والرواء ، ينم عن بحث ودرس وتخصيص ، يجمع ما تفرق من علم الاسلاف الى جملة علوم الأخلاق ، ويكون ينبوعاً صافياً يستقى من موارده العذبة القربية التناول كل عالم ومتعلم ، ويغدو به العلم من يد الطالب على طرف الشّمام ، فتدخل الامة العربية في طور الامم المتقدمة العالمة .

يعهد بادبيء بدء إلى بضعة علماء مدرّبين يؤلفون لجنة تدعى اللجنة العليا ، وهذه تندب جماعة لوضع اساس مالية هذا العمل وادارته ثم تشرع اللجنة بالنظر في الموضوعات التي يتحم البحث فيها فتقسم العلوم الى خمس سلاسل على مثال المجامع العلمية الخمسة في باريز ، فيضم كل فرع الى ما يماثله في الجملة ويضع رئيس كل قسم وهو احد اعضاء اللجنة العليا المواد التي يجب ان يكتب فيها من اول المعلمة الى آخرها كما فعل رئيس انشاء معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam في هولاندة (ومع هذا نسخة من المقالة التي كتبتها فيها في الجزء السادس من مجلة الجمع في سنتها السادسة الصادر في يونيو ١٩٢٦ فان بين عملنا هذا وعمل علماء المشرقيات تشابهاً كثيراً في بعض الاقسام) .

أو تكتفي اللجنة لأول مرة بالشروع بحرفي الألف والباء وتوزع المقالات على زمرة الاختصاصيين وهؤلاء يتوزعونها بينهم ويختارون لها من شأوا من المؤازرين . والاولى ان يختار الاختصاصيون ما يريدون ان يختصوا به من أبحاث المعلمة على ان تعتقد اللجنة العليا انهم يجيدون فيما يختارونه لأنفسهم من الموضوعات . ويحدد ميعاد معين لانجاز المقالات لا يتعداه المؤلفون بحال . وكلما انتهى العمل بحرفين أو ثلاثة يشرع بالحروف التي تليها . وأهم ما توجه اليه العناية عند الشروع بالمعلمة الموضوعات التي تعالج فيها ومقدار الصفحات أو الأسطر التي تخص بها كل مقالة من مقالاتها فان ما يكتفي فيه بأسطر لا تكتب فيه صفحة وما يجتزأ منه بصفحة لا يسمح له بصفحات .

لا جرم ان من يوسد اليهم البحث في العلوم المادية سيلقون عنتاً في اعداد الأسماء التي تجب الكتابة فيها ، لقلة المصطلحات العلمية التي وضعت حتى اليوم . ولان ما وضع منها لم يجمع العارفون على استعماله في مختلف الاقطار ، ولكن اللجنة العليا ومؤازريها يتغلبون على هذه المصاعب باطالة البحث واجادة النظر . ثم يقررون ما لا مناص من ذكره من الاسماء العلمية والاورضاع الفنية بما لا يخرجون فيه عن روح اللغة . ويختار له مؤازرة في هذه العلوم خاصة من درسوها زمناً وعرفوا شيئاً من مصطلحاتها وعانوها بالعمل والنظر . ويرجع من سبق لهم ان ألفوا فيها . وأثبتوا كفاءتهم بنحوضهم غمارها طائفة من اعمارهم . واذا عمد بعضهم الى الترجمة عن اللغات الحية فيجب ان يجلبوا موضوعاتهم في حلة عربية وبأسلوب لا تظهر عليه آثار النقل والاحتذاء فتكتب كأنها مؤلفة مباشرة بسلاسة تجب مطالعتها حتى الى من لم يحظه الحظ بتعلمها .

اما ما يتعلق بالبلاد والرجال والتاريخ والشعوب فهذا يقسم الى قسمين . قسم يتوخى فيه الاجياز ما أمكن ، وهو ما كان خاصاً بأمة بعيدة . وقسم خاص ببلاد العرب والاسلام ورجاله ، وهذا يتوسع فيه وان كان بعضه لم يدون ولم يجرر . وتجزأ البلاد العربية والاسلامية الى مناطق يتولى رئيس كل منطقة النظر في عامة ماله علاقة بمنطقته ويعاونه اثناست يختارهم . فمصر والسودان والشام والعراق والهند وتونسي والجزائر يعبد بالكلام علي

بلدانها ورجالها الى رجالات معروفين من ابنائها . والخطب سهل في الأقطار التي كثر التدوين والتأليف فيها اكثر من غيرها لا يحتاج الا الى نظر سديد ومعرفة ما هو احق بالتدوين لانتفاع القاري به .

أما سائر الأقطار كالحجاز واليمن ونجد والجزيرة وامارات سواحل شبه جزيرة العرب كهمان ومسقط ولحج وحضرموت والبحرين والكويت بل ومراكش وطرابلس وبرقة واواسط افريقية وزنجبار والحبشة والصومال وجاوى وصومطرا والاندلس وصقلية الخ فهذه يندب للبحث في كل قطر او اقطار منها عالم يبحث فيما تشتد الحاجة الى معرفته من احوالها ، كتناسلها وتكوينها وزراعتها وصنائعها وتجارتها وآثارها وسكانها وحيوانها ونباتها وجيولوجيتها ومعادنها واقتصادياتها واخلاقها واديانها وغير ذلك . فان ما كتبه الافرنج والعرب الاقدمون فيها قد لا ينفع غلة ، ولكن يستأنس به بعض الشيء ولا يؤخذ من كل ما دون الا ما وافق ما ترمي اليه المعلمة .

وللكلام على تركيا وفارس ينتخب اناس لهم نوع وقوف عليها : يستعينون بالباحثين من اهل العلم فيها ، اما سائر البلاد كأفغانستان وبخارى والقفقاس وبلوچستان والصين والتبت فيعتمد على ترجمة ما كتب فيها باللغات المختلفة مع الاستعانة بنبهاء مفكرها ، وكذلك يقال عن جميع الشرق فإن الأخذ عن معلمات الغربيين قد يكفينا المؤونة بقليل من التعديل حسب حاجتنا . وحاجتنا ماسة الى التفصيل عن العرب وبلاد الاسلام والاختصار ما امكن في وصف بلدان الغرب ووجاله على ما تجري عليه كل امة في معلماتها . تعنى بالناهين والحاملين من بنينا تتوهم لهم وتفويض وتستقصي اكثر من عنايتها بالتوسع في الكلام على اعظم عطاء الشرق بمن اثروا اثرأ مذكوراً في العلم والاجتماع . فنحن نطيل اذاً فيما له صلة بالامة العربية ونوجز فيما هو قصي عنها .

لا يباشر بالطبع الا متى الف ونقح كل ماله مساس بالحرفين الأولين من حروف المعجم ، وذلك بعد ان تعرض عامة المقالات والابحاث على اللجنة العليا . تقر ما تقره منها وتنتقد ما فيه وجوه للنقد . ولها الحق ان تحذف

ما شئت . واذا رأيت نقصاً في البحث ترجع في تقويمه الى رئيس ذلك الفرع . وتنشر المقالات بتواقيع كتابها ليمسوا مسؤولين عما حوت . وبديهي انها لا تحوي الا ما يشرف اسماءهم ، ويخلد في الناس ذكركم . ولا بأس بإصدار مجلة شهرية تدعى (مجلة المعلمة العربية) تنشر نموذجات من مقالات المعلمة قبل صدورها . وبذلك تعرض ابحاث هذا الكتاب على انظار العارفين والناقدين . وتكون تلك النشرة بمثابة اعلان عن المعلمة وما يلزمها ويرد عليها من النقد والأخذ والرد . وتغدو اداة صالحة لنشر المعارف والآداب الصادرة من اقلام باحثين ناضجين . وترى بصور من صور المعلمة على غاية من الاتقان تجلب النظر وترسم اشكلاً قد لا يتأتى للبيان ان يوفيه حقها . حتى اذا انتهت المعلمة بحول الله يطرد اصدار هذه المعلمة كما كانت . ولكن تنقلب ابحاثها الى موضوعات حديثة تسير العلم في ترقيه شهراً فشهراً اي تنشر ما حدث في فروع العلم والآداب على مثال مجلة لاروس المصورة الشهرية Larousse Mensuel illustré التي تصدر في باريز وتستدرك ما عساه فات المعلمة في طبعها الأولى من الابحاث ويتألف من اعداد كل سنتين او ثلاث سنين مجلد ملحق بالمعلمة .

ارجع أن تكون المعلمة في بناية خاصة خالية ، تستوعب ادارتها ومستودعاتها ومكاتبها وخزانة كتبها وهذه تجهز بأهم كتب المراجعة وأحدث أسفار العلم بالعربية والانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية والاسبانية والبرتغالية واليونانية واللاتينية والفارسية والتركية وغيرها والأولى ان يشاد معهد المعلمة بالقرب من دار الكتب المصرية لتكون على مقربة من مخطوطاتها النادرة واعمال أسفارها ومصادرهما . ويمكن طبع المجلة والمعلمة في مطبعة دار الكتب المذكورة على أن تخصصها ببقعة معينة بحروفها وأدواتها .

أرى ان يكون الموظفون في المعلمة من أمناء السر والكتاب والمصححين والمحاسبين قليلاً عددهم ما أمكن ، أما المؤازرون ورؤساء الاقسام ومنهم اعضاء اللجنة العليا فتدفع لهم مكافآت تعينها اللجنة او

يوظف بعضهم على مثال موظفي الدولة ، والأولى ان يربط رؤساء الفروع
اعضاء اللجنة العليا بمقود رسمية لمدة ثلاث او اربع سنين .

ينظر في الابحاث الى جلاله موضوعها فالتأليف البسيط الذي يكتفى
فيه بالرجوع الى المدونات لا يكافأ صاحبه كالتأليف الصعب الذي قد
يضطر الباحث فيه الى الرحلة للبحث بنفسه . والترجمة والتعريب اقل
اجراً من الوضع والتأليف ولا يعتبر في اختيار المؤازرين الا الأثر الذي
اثروه في خدمة الادب وانتجته قرائهم من الثمرات ، وكانوا ممن عانوا
التأليف والوضع زمناً . لا جرم ان المشتغلين بالعلم على اختلاف ضروبه
يعرف بعضهم بعضاً حق المعرفة فليس من مصلحة الكفاة الممتازين الا ان
يحشروا في زميرتهم اقربائهم لخدمة هذا العمل الشريف .

وما اخال انه يقل حجم هذه المعلمة عن خمسين مجلداً يكسر كل واحد
منها على الف صفحة بالقطع الكامل لان تاريخ هذه الامة طويل واعمالها
كثيرة وبلادها او الاقطار التي خفقت عليها علمها تحسب مساحتها بمئات الالوف
من الاميال ويعد رجالها بالالوف ، وما يخيل اليّ ايضاً ان عدد المؤازرين
فيها ينقص عن مائتي عالم واديب .

هذا ما يراه خادموكم العاجز يا مولاي وهناك تفصيلات لا تعرف أو لا يتأق
البت فيها الا بعد الدخول في الموضوع والصعوبة تبدو اولاً في ترتيب العمل
ومتى جرى توزيعه على الاصول يسير سيراً متساوفاً لا يدخله الخلل ،
واذا فرض تعذر نشر المجلد الاول من المعلمة قبل سنة او سنتين فان
مجلداتها بعد ذلك تتابع بحيث ينشر كل سنة مجلداً على الاقل ، واني
على مثل اليقين ان مصر لا تتحمل سوى ثلاثة ارباع هذا العبء في نشر
هذه المعلمة والرابع الباقي تعاون في تأليفه وماديته سائر الاقطار العربية
وربما جاز ان يطبع منها عشرون الف نسخة . هذا والمسؤول تعالى ان يوفقكم
الى ما فيه خير مصر والامة العربية سيدي المعظم .

دمشق في ١٤ نوفمبر ١٩٢٧

وقد كتب الاستاذ احمد فريد الرفاعي يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ امين

سر الوزير عبد الخالق ثروت باشا يشكرني باسم الوزير ويبلغني ان وزارة حكومته تستقبل مع عظيم التقدير اشتراكى في هذا العمل المتطلب جهوداً الخ . وعاد الوزير رحمه الله فكتب الى مباشرة يوم ١٩٢٨/٢/٤ وقال في جملة ما تفضل به ولا اشك في ان تلك المقترحات القيمة سيكون لها شأن كبير فيما سيتقرر في هذا المشروع . ومضت على ذلك سنين وذهبت وزارة عبد الخالق ثروت باشا وجاء غيرها وغيرها ولم ينفذ شي في هذا الموضوع المهم . الا ان فريقاً من رجال العلم والأدب والقانون في مصر عادوا سنة ١٩٤٣ (١٣٦٢) وألفوا عدة لجان لهذا الغرض وقالوا انهم يؤلفون دائرة معارف مصرية فقط ولم نفهم سر قولهم مصرية ولفظ العربية اولى واعم . فيرأس لجنة نظم الحكم والاقتصاد عبد الحميد بدوي باشا ولجنة الدين الاسلامي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ولجنة الدين المسيحي الدكتور جورج بك صبحي ولجنة الدين اليهودي الحاخام الاكبر حاييم ناحوم افندي ولجنة الهندسة عبد العزيز احمد بك ولجنة الآداب والفنون اعضاؤها هيكل باشا وطه حسين بك والاستاذ العقاد والعلوم ويرأسها الدكتور مصطفى مشرفة والقانون الدكتور عبد الرزاق السنهوري والزراعة الدكتور توفيق الحفناوي والتاريخ شفيق بك غربال وللجنة الاستشارية العليا لطفي السيد باشا . وقد مضى على البداءة بهذا المشروع خمس سنين ولم يأتنا عنه خبر واطن تمر خمس وخمس وخمس ولا ينتج شيئاً لأن المقصد من هذا الاعلان الظهور ومن هؤلاء الاعضاء اكفأ علماء العصر ومنهم من لم يعرفوا الا من طريق وظائفهم ليس لهم كتاب ولا رسالة ولا اثر علمي يدل على اضطلاعهم بهذا الأمر ، وإذا كان مجمع فؤاد الأول للغة العربية لم ينشر إلى اليوم كراسة واحدة من معجم بسيط (الوسيط) ولا المعجم التاريخي واكثر اعضائه من العلماء الكفاة حقيقة فكيف يرجى ان يقوم اصحاب المعلة بهذا العمل الخطير . لا يؤخذ على المصري قلة علمه بل يؤخذ عليه فتور همته وقلة عمله .

الأرمن وأرضهم

سألنا السيد اييا من ادياء الارمن في دمشق ومن العارفين بتاريخ هذا الشعب لماذا لم يتعرب الأرمن على عهد الحكم العربي وتركوا على عهد الحكم التركي فأجابنا : إن فتح العرب إرمينية لم يشبه فتحهم الشام والعراق فقد كان مقامهم فيها أشبه باحتلال عسكري احتوموا فيه دين المغلوبين من الأرمن ومنحوا امراءهم امتيازات تمتعوا بها وما نزل بين الأرمن جمهور كبير من العرب ، وربما كان ذلك فراراً من برودة جو ارمينية ولاختلافهم عن اهلها في عقليتهم . ذلك لأن الأرمن من عنصر آري ولغتهم من فروع اللغات الهندية الاوربية ، والعرب ساميون . وربما كان هذا السبب الذي أهاب بالفرس والأكراد أن يدينوا بالاسلام دون أن يصبحوا عرباً بلسانهم . ثم إن الأرمن في الفتح الاسلامي كانوا في دور ارتقاءهم في التهذيب والوطنية وكان في رجال دينهم علماء متشعبون بروح القومية فقاوموا الفاتحين وما اراد هؤلاء أن يُسلموهم بالقوة وكثيراً ما كان الأرمن حلفاء خلفاء بغداد ولطالما عاونوا العباسيين معاونة عسكرية فاستطاع الأرمن بذلك أن يؤسسوا مملكة زاهرة بأدائها ولم يخرج أحد عن مشخصاته خلا من هاجروا من إرمينية الى العراق والشام ومصر ، وتعلموا التركية ايام الحكم العثماني وكان قاسياً عليهم . ومع هذا لم يصل الاتراك الى روح الأرمن لانهطاطهم عنهم من حيث العنصر والرقى الادبي وما امتزج الارمن بالترك كما امتزج الروم إلا بقوة السيف ولكن السواد الأعظم منهم لم تسر التركية إليه . وما نسي الأرمن من لسانهم جملة واحدة فان في ثلاثة ملايين من مجموعهم في العالم ثلاثمائة ألف فقط يتكلمون التركية في بيوتهم وهم سكان سهول قيلقية واواسط آسيا الصغرى أما سكان نجد إرمينية فلم يتتركوا كما تترك الروم في تلك السهول ونسوا لغتهم . واذا كان جميع الارمن في تركيا يتكلمون التركية فليس معنى

ذلك انهم لا يتكلمون لغتهم بينهم . وليس هذا شأن الأرمن فقط بل شأن غيرهم من العناصر فان الاتراك والاكراد والآشوريين النازلين في جبال ارمينية يتكلمون بالارمنية ، واولاد الأرمن الذين يتكلمون بالتركية يمارسون اليوم لسانهم الأصلي ممارسة حسنة بحيث لا يجري الحديث بغير الأرمنية في الاجتماعات العامة اما قول من يقول ان الأرمن اختاروا اللاتينية على عهد الصليبيين فهو من الأغلاط التاريخية ذلك لأن الصليبيين لما وصاوا الى الشرق كان للأرمن حكومة مستقلة في قبايقية اسمها ارمينية الصغرى عاونت الصليبيين على مقاصدهم حتى إذا رأى الأرمن ان نفوذ اللاتين اخذ ينبسط عليهم قاوموهم فما استطاع الصليبيون ان يدخلوا الارمن الكنيسة الكاثوليكية على نحو ما فعلوا مع الموارنة فمن ثم كان الارمن حلفاء الصليبيين لارعاياهم . وعلى كل فاللغة الارمنية لم يحتفظ بها اهلهم إلا في ارضهم اه . ويزاد عليه ان السلجوقيين الاتراك قضوا في النصف من القرن الخامس على ارمينية ونشروا فيها لغتهم قبل الاتراك العثمانيين ، والعهد التركي والحالة هذه في ارمينية اطول من العهد العربي .

اشرت الى هذا بمناسبة رحيل بعض الأرمن الذين كانوا اعتصموا بالشام بعد الحرب العالمية الاولى واقوا من حكومتها ومن اهلها كل عطف ورعاية وبمناسبة معاملتهم لنا يوم رحيلهم ينادون من قلوبهم مناداة المقر بالجميل آسفين على مغادرة ديارنا وان كانوا ذاهبين الى مملكتهم الجديدة « وعاصمتها تفليس » نعم لقي الأرمن من الكثرة الغامرة ما عرف به العربي من كرم النفس ورعاية الغريب فعادوا الشام وطنهم الثاني ومنهم من اغتنى في ارضنا بكده وجدده فما حسدناهم ولا مننا عليهم ، وشعب ذكي من مثل الشعب الارمني لا يسعه ان ينكر الجميل والأرمني مهما كان من التباين بين حضارتنا وحضارته هو شرقي ويفاخر مثلنا بشرقيته .

مساجلة صديقيين

كُتبت في مجلة الرسالة نقداً خفيفاً لكتاب قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لصديقا الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي عليه الرحمة فشق على بعض تلاميذه ومريديه كلامي واكبروا الأمر حتى استكتبوا صديقي العلامة الامير شكيب ارسلان نبذة في الرد على نقدي . وأراد بعض الشبان ان يحمي وطيس المناقشة بين الصديقين المتناظرين ليشهدا صراع شيخين طاعنين في السن ، ولكن الامير كان رحمه الله من اعرف الناس بحقوق الاخاء فكتب جملة على جوابي وانا اكتب جملة على جوابه اوردهما بنصهما هنا نموذجاً من مساجلات كنت ابدأ ابتعد عنها لثلا اضيع وقتي ووقت الناس في مناقشات قد تؤدي الى مهارتات تسبج ولا تستلمح . وهاك كلامي الذي بنى عليه الامير عفا الله عنه نقده :

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهي : إما شيء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شيء ناقص يتممه ، أو شيء مغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره ، دون ان يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء اخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق اليه الا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلاً ، او جمعه إن كان مفرقاً ، او شرحه إن كان غامضاً ، او حسن نظم وتأليف ، او اسقاط حشو وتطويل اه .

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه في التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات في علوم الحديث ونسقه وجود النقل ، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً . فقد نقل في اول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب في اربعمائة صفحة) من اقوال القدماء ، ثم اثبت له رأياً واحداً سبق اليه (ص ١٠١) رجح فيه رأي

الجلال الدواني على رأي الشهاب الخفاجي في عدم التسامح بالاحاديث الضعيفة ولو كانت في شيء من الترغيب والفضائل .

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأسانذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتسجيد ، قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما اخذ عن بعض المتصوفة ومجدهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ، ونقل عن مجالات غاضاً النظر عن ذكر اسمائها ترفعاً على ما يظهر . وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً في هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات في صورة مؤلف .

وكانت طريقة التأليف في عهود الارتقاء العلمي أن يأتي كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السبوطي أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمي رحمه الله ، وهو من العلماء المنورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى في أكثر تأليفه ببسط آراء غيره .

أما طريقة التأليف اليوم فالإيجاز من دون إخلال بالمعاني ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار إليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملاً صفحات بلا داع ، وعلى هذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا في موضوعات إسلامية أو عربية ، مثلوا ما وضعوه من المباحث أولاً ثم كتبوه في صحف للنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا في موضوعهم ، عازين ما لا بد من عزوه لاصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطايبات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لا خلل في تضاعفها ولا شقوق ؛ وهم إذا اقتبسوا اقتصروا على

نخل الشاهد ، واعرضوا عن باقي ما قال اقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة اوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب للسلف وفترقاتها المعدودة بأكثر مما تقي المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت اكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته . فكتب الأمير شكيب ارسلان الجواب التالي :

اطلعت في مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الاستاذ العلامة محمد بك كرد علي ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الاستاذ الشيخ جمال القاسمي بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برواي واحد وهو ترجيح قول الجلال الدواني على قول الشهاب الحفاجي في عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت في مقام الترغيب في الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف في عهد الارتقاء العلمي هي أن يأتي كلام المؤلف اكثر من شواهد ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف اصبحت الكتب عبارة عن نسخ اقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمي آخر من جرى على هذه الطريقة وهي بسط آراء غيره ؟ وانه قد حدثت في التأليف طريقة جديدة اليوم وهي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ويدعم اقواله بشواهد من كتب القدماء او المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطايات والسجع . فالاستاذ كرد علي ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة انه ليس على طريقة التأليف العصرية التي هي بزعمه الاكتفاء بالإشارة الى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء في سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وما خرج الكلام في بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد علي يريد انتقاد أخيه هذا في المقدمة التي من قلمي والتي أذكر فيها ما اعرفه عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله .

وبعبارة أخرى قد ثقل على اخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد علي جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن ان أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمي فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، ومن سار ذكر فضائلهم في الآفاق ، وليس محمد بك كرد علي بالذي يحجل ذلك أو يقدر ان يماري فيه ، وإني لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائي على رجل لا يتارى اثنان في دمشق الشام في كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمنلهم دمشق في كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمي إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان اخونا كرد علي يسمي ذلك « تمجيداً » فان التمجيد في محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمي في علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ، وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذي يستحق النقد . ما كنت أحب أن يغمز الأخ كرد علي بي في مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه في إحدى المقدمات الأربع التي أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله في موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن ان السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إنني أنا والأخ كرد علي لا نقدر أن نتكلم في علم الحديث اذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه فكرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمي جمع جمعاً ، وان الجمع في التأليف هو خطية عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع في كل من عهدي التقدم والتأخر . وفي أوربا اليوم كتب كثيرة لا يزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان في ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيع

والتجريح لاختلاف اذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قاري قادراً ان يستقي من هذا الجمع ما يستعذبه ، فالشيخ جمال القاسمي كان يعلم ما في عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدي النبوي ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً الى كلام الشعراي والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقين السلفية والصوفية واجدين في هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسي أخونا الأستاذ كرد علي محنة الشيخ جمال القاسمي عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنبيائها يتجنب الخوض فيما يؤدي به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهي الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل في كونها على حق إلى يوم القيامة . ففي بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عندما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هي في جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدي النبوي لايتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا في المسائل التي لاختلاف فيها بين العلماء والتي إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو في علم الحديث الجبل الذي لا يبطأ ول والبحر الذي لا يساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة كرد علي . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأنح كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الاصحاب اطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لبحث فيه كلاماً يشبه أن يكون استصفاً للسجع او استكباراً لأتباعه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا

الآن ان ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول إن السجع وُجد في الجاهلية وجاءت منه امثلة لأفصح فصحاءها ، ثم جاء في القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو ابلغ الكلام العربي وغير العربي ، وجاء في كلام الصحابة والمُحَضَّرِينَ ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ثم في التي تليهم الى يومنا هذا .

ولم نعلم احداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة الى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب ، أي إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييداً بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسنًا في المواطن التي يجب ان ينطلق فيها عقال القلم لِكَمال تأدية المعاني على وجهها ، واما في المواطن التي هي اقرب الى الشعر منها الى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذي يُعدُّ سُبَّةً على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل انه عبارة عن زينة كلامية فإن هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر ايضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي ايضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج اليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد ايضاً بقيود لها مواقع في النفوس ، وهي في محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر احد ان يقول إنني انا مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل اكثر مما لي ، ولكني لا ازال ارى السجع حليلة الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير ، وإن العرب قد اصطَلَحُوا على السجع في اسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك لأن الكلام المسجّع اعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولاً عند اخي الأستاذ كرد علي ،

ولا تتأثر به آصرة الاخاء القديم الذي بيننا والذي لا يمكن ان يطرأ عليه ما يوهنه مهما كانت السبب ثقيلاً . فكيف اذا كان خفيفاً ، وإن ادري فقد يكون اراد ان يداعبني ، ولا تكون هذه اول مداعبة بيننا .

جنيف : شكيب ارسلان

فكتبت جواباً عليه ما نصه :

إلى صديقي العلامة الأمير شكيب ارسلان
نعم شق عليّ يا أخخي أن تلقي دلوك في الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذي ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت اطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، في فن لست منه ولا أنا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من جديد ولا اسلوبه اسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده .

أنا أجلك عن الدخول في هذه المآزق ، لأنك في غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجاً إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ، وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك في غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجري إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ، وحملة الأفلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاوروهم بالنقد الصحيح ، والافراط في التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبي في العرب ، والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج في زماننا ومن الأمانة للعلم والأدب أن يدلل كل كاتب على مواضع الخطل من

كلامه ، لا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه في العيان ، ولا يشول منها نفخناه في الميزان .

واكتفي الآن بجملته من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام في العربي (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : « ان الله جميل ويحب الجمال » وعلى هذا يمكنني أن أقول إنه لم يعط أحد شرط الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشغوف حسه ، وذكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشرائع الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الخبر الفاضل ، والجهذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشرائع السرية ، والعلوم العبقريّة ، لكان ذلك كافياً في اظهار مزيّتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد ... الخ) .

بأي أنت وامي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا احتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الكلام من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أنني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتماسات اللطاف » ، في خاطر الحاج إلى أسمي مطاف »

وقلت لك يؤمئذ إن القاريء مهما بلغ من ثقب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من اجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تحليده وتأييده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقرز منه كصاحبك أبي إسحاق الصابي الذي افسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع واطنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن استاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هذا اكبر حسة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنثيين والمؤلفين ، ونرجو ان تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما اظنك تنكر علي* ان رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، ارفع وامتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وابي بكر الحوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . واطنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة . ومن أجل انه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » - إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله ان النثر غير الشعر ، والكرهية آتية من التزيد والتكلف . لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي

نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « ... الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشقت في تحليلته اصناف الأساجيع ، وكاث هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ، كما اني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حبل ولا سوار ، ولا يتلأأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه درأً نظيماً ، وأمرأً عظيماً ، وديواناً تتأرجح ارجاؤه ندأً ولطياً ، لما خفى امره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه احد ممن له عينان .. » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « ... الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلاً ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه درأً نظيماً ، لما خفى امره .. » أليس هذا اليجاز أوقع في النفس ، وأجمل في اداء المعنى ، وادعى إلى الأفهام من اسجاع تنقل على الطباع ونحن إنما نكتب لفهم ، لا لمعجم ونبهم . وبعد فمالنا وللتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في اقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من انواع البديع .

فلم يجب الأمير شكيب بأكثر من الصفحة التالية وخاف لفرط أدبه أن يدون في هذا الحوار ما يفرح به احباب المطاعن اعداء السلام والوئام جوابي لأخي محمد سيكون قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطيء ، علي حين أت أخني

محمد كرد علي دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني انا واياه لسان هذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان احراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد اطنب في وصفه مثل الأستاذ الاكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حذام .

انا كان اكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمد الله برحمته ، فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الاستاذ كرد علي عظيماً في عيني ، وقد اختارته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة . اما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه اكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به اكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف ان كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة . وان نهج البلاغة وكثيراً من كلام افصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والحوارزمي والصاحب والصائي والقاضي الفاضل وامثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب .

شكيب ارسلان

جنيف ١٠ جمادى الآخرة

الزواج بالاجنبيات

ما قلت بزواج العربي من امرأة غربية الجنس قط ، ولطالما نصحت لمن يرحلون إلى أوربا وأميركا في طلب العلم أو المال الا يعقدوا على الغربيات ، وأن يختاروا أمهات أولادهم من بنات جنسهم أو من الأجناس الشرقية الأخرى . وفي زواج الغربيات من الشعوب اللاتينية او الانكلوسكسونية اخطار كثيرة لأن الزوجة الغربية تعد ذاتها أرقى من زوجها ، وتضمر في قرارة نفسها أن تحمله أبداً على ان يتبعها فيما تأمر به وينزل لها عن أكثر مشغلاته وقد ينشأ الخلاف ويزيد التجافي عندما تنفسي؛ سورة الحب التي تكون على أشدها في العروسين اول اقترانهما ، وتظهر المباينات في الأخلاق والعادات كلما عتق الزواج ، فيعود كل من الزوجين إلى أخلاقه الموروثة ، ولا سيما عندما يرتفع التكلف بين الزوجين ، ويتجلى قانون الرجعة وعامل الوراثة ، فيصبح الزواج مريراً ويتعذر استمراره . والمرأة الغربية لا تطلب من زوجها الا ان يخضع لها خضوعاً أعمى ويتجرد من خصائصه ، فاذا مارزق الزوجان ولداً كانت النوبة نوبة الأم ، لا تطمع الا في ان تطبعه بطابعها ، والولد يأخذ بالطبع من أمه أكثر من أبيه ، لأن مقامه معها أطول من مكثه مع أبيه ، فتنشئه على حبها وحب قومها ، وتزهده من طرف خفي بقومية أبيه ، وتضحك من دينه وعاداته ، فالتفاوت بين الشرقي والغربية كبير ، وبين الجنسين عندنا وعندهم من التباين ما بين الشرق والغرب .

قد تكبيرُ الغربي اذا نظرت اليه من بعيد حتى اذا اقتربت منه يتجلى لك على الأكثر أقل شأنًا مما توهمته ، ويشد هذا التفاوت إذا كان الزوج او الزوجة من اصل وضيع ، واختلاف الطبقة عامل كبير يؤدي الى التباين والتباين ، واغلب من يرضين من الغربيات بالزواج من الشرقيين يكن من طبقات متواضعة . ولقد شوهد من النساء الغربيات

من ظلمهن أزواجهن ، وشوهد العكس ، والفريق الأول أكثر عدداً .
ويقل التوفيق على كل حال في هذا النوع من الزواج كما يقل في الزواج
التجاري والسياسي .

وناقصة التربية من الغربيات يندر ان تروقها حالة اهل زوجها ، تضحك
من كل مصطلح لهم ، وتحتقرهم وما اعتادوه من عادات ، وتربأ بنفسها
عن مساكنتهم ومعاشرتهم ، وان رضوا ان يكونوا لها شبه خادmates
حرصاً منهم على خاطر ابنهم . وقد يكونون في مجتمعهم أرقى طبقة
منها في مجتمعها ، ويكونون بمن نعموا بالرفاهة وسعة العيش ، وعلى
جانب من التهذيب والرفقة . قد يتظاهر من يتزوج هذا الزواج بانهم
سعداء في زواجهم ويكتمون أمرهم ويعتصون بالصبر على ما جنوه على
انفسهم وعلى بيتهم حتى لا يشمت بهم اهلهم وجيرانهم .

اما مشكلة الأولاد وهي اعظم مشكلة في هذا الباب فالغالب أن
هذا الزواج ينقلهم الى أهل امهم فيزيد عددهم ويكثر سوادهم ، ويفقد
اهل الزوج ذريتهم او يفسدونها ، ويكون الشأن في ذلك شأن من يتقن
لغة اجنبية وينسى لغته ، فيزيد اهل اللغة التي التحق بهم متكلماً آخر
بلغتهم . وقد تحن المرأة بعد سنين إلى بلادها فتكره زوجها على اللحاق
بها او تطلب اليه ان يطلقها ويأخذ اولاده ، واذا كان تاجراً ممولاً تصبح
امواله من حظ اهل زوجه . وهناك خسارتان عظيمتان خسارة الأولاد
بنقلهم الى أمة أخرى ، وخسارة المال الذي يكون قد جناه الزوج من
ارض أمتة . هذه مسائل من البدييات لم آت بها بجديد ، وأريد من
اثباتها هنا ان يدرك شباننا فقط أنهم يجنون على أمتهم اذا هم ادخلوا
البنات الغربيات الى بيوتهم وخلطوهن بأسرتهن .

قد يستغرب تنفييري من الزواج بالاجنبيات في زمن خف فيه التعصب
وتحلل الناس او كادوا من العصبية ، والشرع قد اباح الزواج بغير المسلمات
وتساهل في هذه السبيل بما لم يعهد مثله قبل الاسلام في ملة من الملل .

روي عن رسول الله قوله اغتربوا لاتضوا اي تزوجوا في الأبعاد لئلا يأتي اولادكم ضعافاً اذا تزوجتم بالاقارب .

قد يأتي النسل من أبوين مختلفين في الجنس اقوى من نسل من عنصر واحد ، ومع هذا كانت امير المؤمنين عمر بن الخطاب يستنكر الزواج بغير العربيات ودعا الله الا يريه ابناء الفارسيات . وكان يرى ابعاد العرب عن الزواج من الروميات لأن في بنات الروم خلافة . وفي كل هذا اشارة الى مبلغ حرص العرب على قوميتهم وتوجسهم خيفة من تبلبل بيوتهم بدخول غير العربيات فيها .

كانت العرب في القرون الأولى تجاهر بانها تفضل من كانت أمه عربية ، حتى ان بني العباس لما اخذوا الملك من بني أمية لم يبايعوا للمنصور على جلالة قدره في السياسة والعلم وتقدمه في الميلاد وبايعوا لأخيه السفاح لأنه من أم عربية وأخوه ابن أمة ، هذا والعباسيون في صدد تأسيس ملكهم وهم في أشد الحاجة الى ان يتولى امرهم اعظم رجالهم . وما منع مسلمة بن عبد الملك الأموي من الوصول الى الخلافة الا كونه ابن أمة ، وكان فيه من الصفات الغر ما عز نظيره في الأمويين ، على كثرة النباء في رجالهم ، وكان من المجمع عليه انه يمتاز عن اولاد أبيه كثيراً وهم ما هم بسياستهم وادارتهم وعلمهم .

ان دعونا اليوم الى التزهيد بزواج ابنائنا من الغربيات فذلك لأننا نعيش في عصر القوميات الذي بدا في القرن الماضي وقوي في هذا القرن قوة هان معها على الغربيين ان يقتلوا ابناء دينهم في سبيل قوميتهم . والغربيون اليوم ينظرون بعين الريبة الى كل مواطن لهم اخثار امرأته من غير جنسهم ، ويحظر ذلك على عمال الحكومة وخصوصاً رجال السلك السياسي فمن تزوج من غير جنسه تنبذه الدولة . وقد كان بسمارك السياسي المشهور سن قانوناً يحظر فيه على ضباط الألمان الزواج من النساء البولونيات لان البولونية تصبغ اولادها بصبغتها وفي ذلك الحيف على دولة جديدة تاشد القوة من كل وجه .

استنصح بعض نبهاء اليابان في القرن الماضي الفيلسوف الانكليزي سبنسر وسألوه ان يضع لهم قواعد يحرون عليها في غرضهم فمن جملة ما نصح لهم به نصيحة اشترط عليهم الا ينشروها إلا بعد موته . أتدرون ماذا كانت نصيحته ؟ كانت ان يمتنع أبناء اليابان عن الزواج من الاجنبيات لانهم بتساحهم بادخال دم الغريبات في دمهم يفسدون جنسهم ، وهذه النصيحة يقل في اليابان عدد المتزوجين بالغريبات وعلى طريقتهم يجب ان تسير كل أمة تريد لابنائها المجد والعظمة .

المرأة المصرية

في مصر والشام يكثر المتعلمات كل سنة بفضل المدارس الابتدائية والثانوية والعالية حتى كاد ما يصل اليه البنات من ضروب التعليم يوازي ما يعطى منه للبنين ، ولم يبق فرع من فروع العلم لم يشارك فيه النساء الا الفرع الديني لأن الديانين يتشددون في قبول المرأة الى مجالسهم ومدارسهم وجوامعهم ، ولأن تعلم الدين لا يعود على منتحلته من النساء بفائدة دينوية . ذلك لأن جميع من يدرسون شباناً كانوا ام شابات لا يتعبون انفسهم بالدرس إلا توقعاً للمغانم والأرباح التي تنتظرهم بعد اتمام الدراسة ، وليس فيهم من يخرج الآن عن فنون ثلاثة الطب والحقوق والأدب على الغالب . وندر في النساء من يُعَين بالفروع التي خلقن لها وبرزن فيها كأمرأض النساء والكيميائ والصناعات الزراعية والطبخ والحياطة وتدبير المنزل وتعليم الأطفال وتريض المرضى ، فعلى وزارات المعارف أن تنظر في توجيه البنات نظراً جديداً ، فالحالة العقلية تتطور في كل عقد من عقود السنين .

من كان يظن ان النساء يُقبلن على العلم بهذا الشوق وهذه العناية ، بعد ان غفلن عن تلقفه قروناً ، ومنهن من يُبرزن أكثر من الشبان

لأنهن ينصرفن كل الانصراف في بيوتهن الى الدرس والشبان يلعبون ويلهون ويضربون في الأحيان ، ويتظاهرون في الشوارع ، ويستغلون بالسياسة ، ويندمجون في الأحزاب ، الى أشياء يأتونها في سن مبكرة فيضيعون جانباً من اوقاتهم مدة الدراسة .

ولقد شاهدت البيوت التي تعلم بناتها غير البيوت التي حرمت نعمة العلم والتهديب . وهذا ما حدا بعض الشبان على اختيار رفيقات حياتهم من هذا الطراز المصقول بالعلم الحديث والتربية العصرية . حتى ظهرت بضعهن امارات الحضارة على البيوت ، وشتان بين الجاهلة والعالمة . ومتى خفّت مراجعات طالبات التوظف في مدارس المعارف ، وتمت صفوف الموظفين منهن في مدارسها ودواوينها ، ينقلب القسم الزائد الى الاخضاء في فنون اخرى كالجارة العالية والصناعات الدقيقة فيدرك القسم الآخر ان مستقبلهن مناط تجويد الفروع التي لا يستغنين عنها لادخال الكمال والجمال الى بيوتهن ، وتربية أولادهن تربية راقية لا يدخل فيها الكذب ولا الغش ولا السرقة ولا غير ذلك من مفسدات العقول وهادمات الممالك .

وكيف لا نغضب أن رأينا منهن الى هذا جمهوراً من بنات الثلاثين والأربعين ممن لم يسعدهن الطالع بأخذ العلم الأولي ان يتوفرن على تلافي نقصهن فيتعلمن على الكبر القراءة والكتابة ، حتى يجاربن العصر ولا ينجلن جهلن أمام بنات جنسهن من المتعلمات . وكل هذا لم يكن له أثر في القرن الماضي ، فالمعارف اليوم تسير على أسرع ما يكون بالمقياس الى ما عهدناه سابقاً من جهل البنات والبنين وان كان معدل المتعلمات اقل من معدل المتعلمين بكثير والأيام كفيّة بتعديل هذا المقياس .

أما ما يلغظ به بعضهم من منح المرأة حقوقها السياسية فهو من لغو القول ، لا يجدي عليها خيراً ، ويعد سابقاً لأوانه ما دام عدد المتعلمات منهن قليلاً ، اذا قيس بما يجب ان يكون ، ثم أي حقوق المرأة في الشرق العربي والمرأة الغربية ، على تفوقها المشهور في كل فروع الحياة ، لم تحصل على الثمرة التي كانت تتوقعها من الاستمتاع بحقوقها السياسية .

ومن يتذرعون بمنح المرأة الحقوق التي يحيل إليها تنفعها وتخرجها من سلطان الرجل الجائرهم ممن يصانونها ويعبثون بمصلحتها الحقيقية ، ذلك لأنهم يذهبون مذاهب لا يدركون مغبتها على البيوت ، فالمرأة لم تخلق لهذا ، وقد جرب الغربيون قبلنا ، وهم في ابواب العلم أرقى منا بقرت واحد على الأقل ، فما اسفرت تجاربهم الا عن اضطراب وفوضى ، وكان من أثر هذا العمل الطائش اخراج المرأة عندهم عما خصتها الفطرة به ويتعذر تعدي حدوده مهما طالبت المرأة وشاغت .

وبعد ان ثبت ان في فطرة النساء نقصاً طبيعياً كيف يرضى لها انصارها أن تغادر البيت لتغدو نائبة في مجلس النواب ووزيرة في مجلس الوزراء او قاضية في المحاكم أو مديرة في الدواوين . تولى بعض النساء هذه الأعمال في شمالي اوربا وفي الولايات المتحدة ومعظم سكان هذه الدول من العنصر الانكليزي السكسوني ارقى عناصر الأرض ، فأني نفـع تم لمجتمعهم على ايديهن ، اللهم الا اذا كانت الرواتب التي يتقاضينها والألقاب التي يُلقب بها . كل قانون غير قانون الطبيعة تنسخه الأيام ولا تبقى على غير المعقول والأنسب . شارك النساء الرجال في الحرب الحاضرة ، فهل سعدن وسعدت اوطانهم بهذه الخدمة ؟ وهل كانت الفضيلة يا ترى اكثر فشواً من الرذيلة في هذا الاختلاط القسري بين الجنسين ؟ لو كنتم تستمعون الى ما يقوله علماء الأخلاق وغيرهم عند الغربيين لنفرتم اي نفرة من كل من يريد الظهور على حساب المرأة المسكينة يغشها فيما يزين لها من مظاهر جديدة ، وهي ما خلقت لها بحال من الأحوال .



الشيوعية في الشرق

لما انتشر المذهب الشيوعي في روسيا حدثني حب الاطلاع على قراءة بضعة كتب عنه باللغة الفرنسية فترأى لي ان بعض المؤلفين كانوا يزيفونه بلباقة ، وبعضهم يزينونه باعتدال ، وفيهم من حجم ولم يصرح ، ومنهم من نقل ما ظهر من آثار القوة في ارض الشيوعية بعد دولة القياصرة امثال هريو من ساسة فرنسا فانه اكفى في كتابه (المشرق Orient) بوصف ما قامت به روسيا في عهد الشيوعية من الجهود ، وشرح مواطن القوة ليستخرج من ذلك ما يقفه على تلك النهضة الصناعية والحربية .

وتلخص معي مما كتبه الشيوعيون وأنصارهم بعد ان دخل التعديل في قانون لينين على عهد ستالين ان الشيوعية نظام يتعذر تطبيقه على جميع الشعوب ، فيه ما تشترك عامة الامم في الانتفاع به ، وفيه ما هو ظاهر الخطر قليل الجدوى ، مثل استئثار الحكومة بتربية ابناء الامة واخذ كل مال في الايدي لخزانة الدولة . وهذه تعول الناس تعطيهم غذاءهم بمقدار وتترك لهم حرياتهم في انتحال ما يريدون من دين ومذهب .

وسواء صح حكمي هذا ام لم يصح فان روسيا الشيوعية تحرص كل الحرص على اخفاء أسرار بلادها ، لا تبيح لرعاياها ان يغادروا ديارهم ولا للاجانب ان ينزلوها احراراً مطلقين ، وهذا مما يشعر بأن هنالك اشياء لا يستحسن القاءون بالأمر في روسيا ان يعرفها أحد ، ولا ان يطلع عليها شعبهم ، منها ان في ارضهم اربعة عشر مليوناً من المعتقلين والمنعقلات - كما قال روسي مطلع - تسخرهم في أعمالها افطع سخرة .

تهمني الشيوعية او البلشفية من حيث تأثيرها في وطني خاصة والأقطار الاسلامية عامة ، ويبدو خلل الشيوعية في تطبيقها على من ليس لهم الاستعداد لقبولها ، ولا تلائم مزاجهم واخلاقهم ودينهم وبيئتهم عندما

تعود الأمور إلى طبيعتها ، وتبطل الدعاية الواسعة المنتظمة للمذهب الشيوعي يعرف النافع منه والضار على حقيقته .

أنا لا أخاف على الشام من الشيوعية لأن من ملكوا عدة قرى ليسوا كثيرين فيها ، وإذا جرى توزيع أملاك كبار المزارعين وحددت الملكية وعني بالاستكثار من الملكية الصغيرة ، يعود أبناءهم وذرايعهم إلى حالة متوسطة مقبولة من الغنى . وقد أحس الممولون من التجار بالخطر من تضخم الثروات فنزل بعضهم من تلقاء أنفسهم عن جزء من ثرواتهم شاركوا فيه الفقير والبائس ، وإن ما أخشى الشيوعية عليه مصر والعراق خاصة لأن توزيع الثروة غير عادل فيها ، ذلك لأن كبار المالكين يزيد ما يملكون عاماً فعاماً ، وحصص الفلاحين من الأرض في تناقص مستمر ، ومصر على ما بلغت من مكانة في الأنظمة والتنظيم إذا دخل فيها القانون الشيوعي بدلها رأساً على عقب . ومتى انحلت مسألة الزراعات الكبرى وجرى امتلاك الأرض على قانون معقول يندفع العامل الأول الذي يرغب بعضهم في المذهب الشيوعي ، فلا يتراعى في احضانه الجهلاء نكابة بالأغنياء .

أنا أومن بالقوانين الطبيعية في تدبير هذا الكون وأرقد أنا معها غير ناظماً واخترعنا شرائع لنسعد العالم بأجمعهم لا مناص من أن يكون في الخلق الغني والفقير والمتوسط ، وذلك لتباين القوى ، واختلاف العقول ، ودرجات السعي ، ومن المتحتم إجراء تعديل عظيم لرفع مستوى المعيشة في الطبقات الفقيرة ، ولا غنية أيضاً عن تحديد ثروات الأغنياء بطريقة من الطرق التي تستخدمها الحكومات ، وأخذ الفضل من أموال من ضخمت ثرواتهم لتصرفه في مرافقها العامة .

قويت الدعوة إلى الشيوعية في الشرق والغرب على العهد الأخير وآخر ما قرأته في مجلة لاروس (حزيران ١٩٤٨) انه يمكن الحكومة السوفيتية ان تدعو كل وطني إلى أي عمل تراه يناسبه حتى ولو ساقته إلى التغريب في أقصى حدود بلاده وبذلك قامت مشاريع كثيرة في تلك الديار مثل ترعة الباطيق والبحر الأبيض على أيدي كتائب من المجرمين السياسيين

وقدماء أغنياء الفلاحين ممن صودروا واعتبروا وهم يعدون بمئات الالوف ، أو بملايين ، عملوا مع المجرمين العاديين جنباً لجنب . وقامت أعمال أخرى بايدي فلاحين أو عملة سُخِّروا في أشغال شاقة على نحو ما كان الفلاح المسكين يُسَخَّرُ في روسيا على عهد بطرس الأكبر ، وتحدثت المجلة عن الظلم الذي يلحق كل روسي .

وفي روسيا يحرم الاضراب والاعتصاب على العمال ويؤكد المستر مالوني الذي كان وزيراً مفوضاً لاوستراليا في موسكو أن لمديري المصانع ورؤساء العمال الحق في أن يقتلوا في بعض الأحوال رميةً بالرصاص العامل الذي يصل متأخراً والعامل الذي يتكرر تغيبه عن العمل بدون عذر مقبول وإذا مست الرحمة قلب مدير المصنع أو رئيس العمال فله أن يخفف عقاب العامل بسجنه أو بنفيه الى سيبيريا ، وفي جريدة أخبار اليوم بقلم الاستاذ محمد التابعى (عدد ٢٢٧) انه يبلغ عدد أعضاء الحزب البلشفي نحو مليونين من مجموع سكان روسيا البالغ عددهم نحو مائتي مليون أي أن نسبة واحد بالمئة يحكم ٩٩ من السكان والناخبون ملازمون باعطاء أصواتهم للمرشح الواحد ومن لا ينتخب يسجن أو يحرم بطاقة التموين . وينع عن الروسي السفر الى الخارج وقراءة الصحف الاجنبية والاستماع الى محطات الاذاعات الاجنبية .

وبعد فإذا نظرنا الى المذهب الشيوعي وما عاد على روسيا من فوائده نشهد أنه أصبح عقيدة لاهلها كان منها أن وقفوا في الحرب الاخيرة موقفهم المحمود في وجوه أعدائهم فأحسنوا لأمتهم اكثر من آباؤهم في الحرب العالمية الأولى وكانوا فيها يستسلمون في ساحات الوغى بعشرات الألوف .

فوضى المجتمع

في اليوم الذي يعرف هذا الشرق قدر الوقت ينتقل خطوة أخرى في معارج التقدم ، وفي اليوم الذي يرغب عن الفوضى ويولع بالنظام يعد ذا قيمة في مجموعة الشعوب ، وما زال الشرق دون الممالك الانكلاوسكونية بنظامه لأن كل أولئك دخل على أهل تلك الممالك وأصبح عادة مستحكمة فيهم ، حدث ان اراد المجمع العالمي العربي اقامة حفلة تأبين لأمير الشعراء أحمد شوقي تحت رعاية أول رئيس للجمهورية السورية السيد محمد علي الماعبد صديق الشاعر أيام الطلب ، فلما حانت ساعة افتتاح الحفلة وتأخر الرئيس أوعزت الى القاريء ان يقرأ ، وللخطباء ان يتقدموا ويلقوا خطبهم حسب البرنامج المقرر . وجاء الرئيس بعد ربع ساعة من الوقت المعين وفهمت ان امين السراى ادعى للرئيس أن الكبراء في العادة يشخصون الى الدعوات عندما يتكامل الحشد ، فقلت للرئيس أنا أرى أن تكون فخامتكم المثل المقتدى به في المحافظة على الاوقات ، وقاعدة تخلف الكبراء عن الوقت المحدود تزيدنا فوضى الى فوضانا ، ونحن نبغى أن نقضي على هذه الفوضى . لشدة ما امتعضت من تسامح قومي في المواعيد ، وكنت كثيراً ما أسمعهم أشد النقيع . (راجع الفصل الذي عقدته للكلام على نظامنا في كتاب اقوالنا وأفعالنا)



براهـ:

من البيوت من لا ترى الشرف إلا في خدمة الدولة القائمة لا يهنا لبنها العيش إلا إذا تخطوا رقاب ارباب الكفاءات فقبضوا على عمل سبان عندهم أكانوا احرياء بتقلده أم كانوا وسطاً فيه أو دون الوسط . ويزيد في جراتهم على أخذ ما ليس لهم دعواهم أنهم من اهل بيت جاء منه فلان الفقيه وفلان العامل وفلان الجندي كأن هؤلاء كانوا طرازاً عجيباً من النوابغ والحكماء ، وهم أشبال أولئك الأسود ، وما هم إلا كأجدادهم ولو كان اجدادهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

عاصرت من هذا القبيل جماعات « تخطي إذا جئت في استفهامها بمن » كما قال المتنبي : كانوا من الجهالة بمكان نخجل ، ومن فساد الذمة المثل المضروب ، لا يهتمون بغير مظاهرهم ، وليس لهم ما يؤهلهم للحكم إلا دعوى شرف السابقة ، ولا من ادوات الاقدام على ما يقدمون عليه إلا التفاق لصاحب الأمر ، ومن تعلم منهم بعض التافه من العلم خرج نصف جاهل ، وأنت إذا خاطبت أحدهم ، فكأنك تخاطب مخبولاً لا يفهم ما يقول ولا ما يقال له ، ولو كنت ممن يحسنون الظن وذهبت بادىء الرأي إلى أن عقل صاحبك هذا صحيح لا تلبث اذا احدثت النظر في عينيه وتدبرت ما يبدر على لسانه أنه من فئة يجب تسجيل اسمها في سجل مستشفى المجاذيب ، وتستغرب كيف وصل المرتبة التي بلغها وقد تكون كبيرة جداً ، وكان من حقه أن يكون خادماً أو اجيراً ، ورب خادم فاق سيده بذكائه وعقله .

ومثل هؤلاء الناقصين يعرضون ما ينقصهم من عقل بالمظهر الذي كتب لهم أن يقفروا إليه ، والعمل الذي يقبضون على زمامه . ولكل منصب في الحكم روعة تزيد وتنقص بقدر ما يدهن أرباب المصالح للقائم عليه .

وما جرت العادة أن يحاسب الناس كل انسان على ما يبدو من حركاته وسكناته ، ولا أن يؤاخذوه عن بلاهته . والأبله مع هذا حرب على ارباب العقل ويتأذى بهم ، لأنه يجب أن يمي ارادته العوجاء لا أن تُملى عليه إرادة .

وكم أصدر من تسلوا إلى الوظائف الكبرى أحكامهم على ما لا يعرفون وباهوا بما صدر عنهم ، ولو كانت اقوالهم مما يخالف الحق والعدل ، وبعض اصحاب هذه الآراء السخيفة لا يعدمون أناساً من الجبهة بوافقونهم على آرائهم ، ويكثر مثل هؤلاء المبشرين بالتدني ، المنكرين فضل العلم ، في جماعة يتوقعون بما يندفعون إلى التصريح به إرضاء شخص او حزب ولو كانت بمثل هذه السخافات تدار الحكومات ما قام عمل نافع في بلد من البلدان . وياليت ما ينوه به بعض هؤلاء النوكي من الآراء يسجل في آلة كآلة الحايكي إذاً لكان منها قصص تضحك وتسلي طلاب الدعابة .

عاش الشرق المنكوب الى اليوم وبعض من يقدمون ويؤخرون في مقدراته من هذا الصنف الغريب في العقل ، يتمجد ابناؤه بأجدادهم الجاهلاء ومنهم من استثمروا أسماءهم الكبيرة ، وشرفهم المزعوم ، في معاونة بعض الدول على مقاصدها فجعلت منهم الامراء والزعماء يأتمرون بكل ما تأمرهم به ، كأنهم بعض عمالها لا يخجلون من انفسهم ولا من الناس ، وليس لهم من الصفات إلا انهم يرددون ما يُلقى اليهم بما فيه مصلحة سيدهم قبل كل شيء ، وهم يعيشون بما يفضل عليهم من أجر يدفع اليهم ثمن ميوعتهم وعبوديتهم .

قال لي رجل اختلط كثيراً بأحد ملوك الشرق انه رآه لما أضاع ملكه أصبح كالطفل وضعف تفكيره ، فقلت له انه كان كذلك يوم كان له السلطان المطلق في أمته ، ولكن عيوبه كانت مستورة بالمنصب العظيم والقوة القاهرة . وقال لي آخر انا اذا أحسنا نقد رجالنا لا يبقى لنا من جميع من ملكوا رقاب المسلمين في القرون الكثيرة أكثر من عشرة ملوك خدموا باخلاص ، وخلد

التاريخ ذكرهم بحق . والأخبار أقل عدداً من الأشرار في كل الأمصار والأعصار .

لما نشبت الفتنة العراقية بمصر كان قائم مقام الحديوي في القاهرة محمد سلطان باشا رئيس المجلس فاستأذن عليه بعض رجال الثورة ومنهم عرابي باشا ومحمود سامي باشا البارودي وغيرهما وطلبوا اليه ان يجمع المجلس ويقرر تنحيه الحديوي توفيق فقال لهم أنا معكم ولكن ألا يجب علينا اذا قرر المجلس تنحية الحديوي ان يعين شخصاً آخر مكانه قالوا لك ذلك ، واعتزلوا في ناحية وأخذوا يتفاوضون ساعات فلم يجمعوا على أمر ، ذلك لأن كل واحد منهم كان يحاول أن يوجه هذا المنصب اليه ، وكان جوابهم بعد مناقشات حادة : انا لم نتفق على شخص . فبعض من طبعوا في هذا المنصب الجليل في ذاك اليوم العصيب ماسلموا من بلاهة خصوصاً لما أخذوا يتفاخرون ويدي كل واحد بحججه التي تكسبه الأرجحية لتولي الأمر .

ومثل هذا حدث في الشام أيام ولاية الصدر الاعظم مدحت باشا عليها : جاءه بعض أعيان دمشق يشكون من رئيس بلديتها ويطعنون عليه ، فسأل الوالي أحد أصحابه رأيه قائلاً إن رؤساء القوم أتوني يتظلمون من أعمال رئيس البلدية فما ترى ان أقول لهم؟ قال قل لهم اذهبوا وتذاكروا بينكم حتى اذا اجتمعتم على واحد أمضي المرسوم بتعيينه في الحال ، فعادوا الى الوالي من الغد يقولون انهم لم يتفقوا على أحد فالأحسن بقاء الرئيس في منصبه ، ذلك لان كل واحد كان يحاول ان يستأثر بهذه الوظيفة وما قاموا لمقصد شريف ، وكانت البلاهة متجلية في حركاتهم ، والغرض بادياً في أقوالهم .

الحزب السوري

هذا بعض خطاب لنا يوم الاحتفال بتأسيس هذا الحزب على عهد الامير فيصل يوم ٤ تموز سنة ١٩٢٠ :

كان الناس في القديم محكومين لمن كثر اتباعه وجنده هكذا كانت صورة الاحزاب في الدول العربية السالفة وهكذا كانت في رومية وآثينة وكان الناس في القرون الوسطى في اوربا بين ظالم ومظلوم وهذا ما حدا الى تأليف شبه احزاب تدفع عن نفسها ظلم المعتدي عليها وتتضامن فيما بينها فلم يكن يومئذ ما يسمى اليوم بالوطنية ولا بالحق ولا بالحرية ، بل كان هنالك احلاف واسباع وطبقات اخرى متضاربة .

قالوا وللوصول الى قيام احزاب سياسية يجب ان تطلق الامة الحرية في بلوغ الغرض بدون استعمال الشدة ولا بد في كل اجتماع بشري من قيام حلف من الشعب يذهب الى الاحتفاظ بالحالة الحاضرة وآخر يرى تغييرها رأساً على عقب وغيره يقف موقف من لا يبالي بما يحدث . والحزب الحقيقي هو الذي ينشر دعوته بالطرق العادلة ويعيش في ظل الحرية مدفوعاً بعوامل المصلحة الأدبية اكثر من المصلحة المالية فالحزب لا ينبعث من مبدأ ولا من نظرية بل من مصلحة وكثيراً ما تكون هذه المصلحة معنوية أكثر منها مادية .

قال علماء السياسة لاجل ان يتيسر لجماعة من الناس تجمع بينهم المصلحة الواحدة والرأي المشترك ان يؤلفوا حزباً يكون عاملاً حقيقياً يجب أن يكون لهم رئيس او عدة رؤساء ويسود فيه النظام وتكون له صحف تردد افكاره . للحزب غاية ولاجل الوصول اليها يجب له دليل وكثيراً ما يكافح وحتى يقهر خصومه ينبغي ان يكون على شيء من القوة فربئس الحزب هو دله وصلة الحزب ، ولا يتولى الرئاسة إلا لانه اثبت مدافع

وافصح مقول فيهم وعلى الرئيس ان لا يسيء استعمال الزعامة فان الخاضعين لقوله لم يخضعوا كالجندي خضوعاً اعمى بل كان رائدهم في خضوعهم ارادتهم المفكرة وعقولهم المقررة المدبرة ، الرئيس الذي يهمل امر مرؤوسيه يتركه هؤلاء كالجند يتخلون عن قائدهم في معيعة الحرب ، وقالوا ان الجرائد ضرورية لقيام الاحزاب ليكون اتصال بين رأس الحزب واعضائه وليبشوا دعوته وافكاره ويجب على الحزب ان يرفع علمه على الرؤوس فاذا اخفاه من تلقاء نفسه كان كالمتنازل عن عرشه فاذا اكره على ذلك يزيد قوة فتشور العواطف وإذا ثارت اثرت وفعلت .

وذكروا ان الاغراض منها مزقت الاحزاب فان لهم جامعة واحدة وهي « الوطنية » فاذا دعا داعي الوطنية تنسى جميع الخاصات ، ويالبؤس امة لا يكون هذا الشعور العالي متأسلاً في بنيتها فانها تكون اذ ذاك مريضة مرضاً شديداً . اما اذا كانت الاحزاب المعتدلة داخل البلاد تصدر عن الرأي العام وتتنافس كل المنافسة جفاً بالخير العام فهي أشبه بمد البحر وجزره الذي لا يفيض فلا يخرب شيئاً ولكنه يعطي الاوقيانوس حياة وحرارة .

هذا ما قلته وقد تبين لي بالعمل ضعف استعدادنا للقيام بما تظلم به الاحزاب وايقنت أن معظم من دخلوا في هذا الحزب كان لمقاصد شخصية لهم ، ولذلك اعتزلت ألا ادخل بعد ذلك في حزب منها كانت الغاية منه .



اصلاح الاخلاق

راينا عقلاء المصريين مستاءين من الحرية المفرطة التي نالها الناس في الدور الأخير من أيامها حتى لم يعد يوقر صغير كبيراً ولا يحترم كبير صغيراً وحتى كسر بعض الفتيان والفتيات القيود وأصبحوا بلا وزاع .

ساعد على ذلك اختلال نظام الاسر حتى ان الطفل ليتعلم ما يشوه وجه الأدب (قبل ان يبلغ الخامسة من سنه) من والديه واتزابه وجيرانه واخوته واخوانه وساعد ان انحلت الرابطة بين الحاكم والمحكوم عليهم فميراه الاول موافقاً بحسب ذوقه أو نيته يجربه ولا يتوقف فيه وللبلاد عادات ولكل قطر آداب والمغلوب كما يقول ابن خلدون مولع ابدأً بالتشبه بالغالب لاعتقاده الكمال فيمن غلبه في الاغلب

وبديهي ان لكبار القوم اليد الطولى في اصلاح العادات وبالعكس ولكن بعض الكبراء الذين يرجى الخير على ايديهم مترفعون وبالألسف عن مخالطة غير طبقتهم لأشتمزأزهم من سخييف العادات وبعض أهل الطبقة العالية - وهم الحاكمون المتحكمون في العوائد وقدوة الطبقات السائرة - اخذوا القشور من عادات الافرنج وولعوا بها على اختلاف ضروبها . واتوا قومهم يعلمونهم اياها استطاعوا تلقيا أم لم يستطيعوا .

وبهذه الأسباب اصبحت عادات المصريين واهل المدن منهم خاصة مزيجاً من عادات الروم والأرمن والسوريين والترك والأرناؤط والطلبيات والنمساويين والانكليز والفرنساويين . وتصور امة يدخل التغيير الى هذا المقدار في عاداتها كيف تصبح لاتعرف ولا توصف .

وبحق ما قال أحد الكتاب في تأليف له نشره منذ أشهر ان اختلاطنا بالأجانب أضر بنا أكثر مما نفع . على ان هذا الفكر لو قيل لرجل في الغرب لضحك منه واستبد صاحبها ولكن متى شرحته له وعرفته اننا لم نلق معاصر

الشرقيين من الغربيين ما كان ينبغي لنا ان نلقاه عذر وصدق

ذلك بان اختلاط امة باخرى يفيدها كثيراً ويوقف كلا منها على ما عند جارتها من اسباب ارتقاء فتتأسى بها وتحاول الجري على مثالها ولكن اختلاط الشرقيين والمصريين منهم خاصة بالغربيين لم يقدم الا السرف والولوع بالزخرف والبهرج وهناك جيوش من مفاسدهم وردت على ديارنا فصادفت فيها كرم المثوى وتلقاها اهل الخلاعة بصدور رجة ونشروها مغتبطين بها بين جيلهم وقيلهم .

ولو كنا بمكان من حسن التربية لم نضع الفرصة باحتكاكنا بالأجانب وكنا نأخذ عنهم الصبر والثبات والجد نأخذ عنهم غنايتهم بالامور المادية والاقتصادية وتندارس واياهم دروساً عمرانية ليكون بعدها كل فرد منا مستقلاً بنفسه متكللاً على جده وجدارته لاعلى أجداده وأملاكه . هذا ما كان ينبغي لنا اخذه عنهم ويمكن اليوم ان نتعلمه منهم ، ونطرح لهم ما وراء ذلك من أخلاقهم فانها لاتوافقنا وخصوصاً أخلاق غالب الجالية فليسوا في بلادهم من الطبقة العالية أخلاقاً وآداباً ولو كان كلهم . كذلك ما فارقوها وأتوا يطلبون المال عندنا بكل وسيلة .

تعال معنا ننظر اين يصرف بعض الشبان ليااليهم . يصرفونها في محال القصف والعزف فيما ينهك الصحة ويضر العقل ، فيما يضر بالنفس والمال والشرف فيما يغضب الديان والانسان .

يقول من يشاهد معاهد العاصمة ومجالس أنسها خاصة بالشبان وأهل الخلاعة ما أسهل ضياع الوقت والمال على هؤلاء الناس فكأنهم ما خلقوا ليعرفوا له قيمة او كأن اوقاتهم ليست عزيزة لديهم وأموالهم مبذولة من ايديهم يتلقفها من بعث لنا الافرنج بهم نواباً عنهم في استنزاف خزائن بلادنا . وحقاً ان فريقاً من الشبان لا يألوفون المكث في أماكن اللهو والطرب ولكنهم لا يقضون اوقاتهم الا في السفاسف والهراء والبذاء وهكذا يمضي الليل والنهار بل الاسبوع بل الشهر بل العام بل العمر وشبابنا لانستفيد

منهم الا انصرفهم الى ما يبعث الالة الى حواسهم والطرب في نفوسهم كأن الشرقي ما خلق الا للخفة والطيش وتضييع الوقت والغربي ما خلق الا للثبات والانكماش والاقتصاد في الوقت والمال .

ولعمري لو جئنا نحاسب السواد الاعظم من شبابنا كيف يأتيهم دخلهم وكيف يخرجونه هل ترى فيهم من يقدر ان يحسب ميزانية اسبوعه او شهره على الوجه المناسب في عرف الاقتصاد .

شبابنا ينقصهم كل شيء ان أردنا ايراد الحقيقة تنقصهم الاخلاق الفاضلة من مثل المروءة والوفاء ولين الجانب والصدق والثبات ومضاء العزيمة ومعرفة قيمة الوقت والمال والصحة والنظر في العواقب وان لا يرضوا بحالهم الحاضرة ويدرسوا ما عند الشعوب الاخرى المتقدمة من الصفات التي تميزها عنهم يعوزهم ان يعلموا ويعملوا وان يكون كل فرد أمة بذاته ويطالب نفسه بنفسه وهناك يحسن حال المجموع .

لو استعاض شبابنا عن مطالعة الروايات الغرامية والقصص والمجون بدراسة الكتب العلمية والاجتماعية ولو استصعبوها بداءة بدء اذن لرأيتهم ملين بكثير من حقائق العلم ونواميس الارتقاء .

لأنكر أن منهم من تنبه فيه هذا الشعور ولكنهم أفراد قلائل حتى ليصح أن يقال اننا لم نزل في دور الحضارة فمتى نبلغ أشدنا وفي كم قرن نبلغ مبلغ الاغيار والوقت عزيز ومناذي الرحيل يستحثنا على العجل .

نحن لانطلب الكمال ولا أن يكون كل شبابنا في الدرجة التي وصفناها وانما نعي تكثير سواد المتعلمين المهذبين وتعلم المبادئ التي يعرفها شبان اقل امة مرتقية وهناك تنال مصر استقلالها رغم انف كل مكابر .

هذا ما كتبت في مصر سنة ١٩٠١ فهل تبدلت اخلاق معظم الشباب في هذا القطر بعد هذه الحقبة الطويلة ؟ الجواب انها زادت انحطاطاً مع الأسف ويمكن ان يقال ان الافطار العربية ايضاً بقدر ما ترقى في العلوم والمعارف تنحط في آدابها واخلاقها . ظواهر لا تبعث على غير القلق لمستقبل الامة ، فعلي المسؤولين ان يجددوا همة في سد هذا النقص الكبير .

جمعية المقاصد الخيرية

لو كل بلد اسلامي قام بواجبه قيام المسلمين في مدينة بيروت ثغر الشام ، لاضمحلت الأمية علة العلل في هذا المجتمع ، ولزاد في بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، وبرئوا بما يتهمهم به اعداؤهم من ان دينهم لا يفسح لهم مجالاً للنور والثقافة .

أسس المسلمون في بيروت في سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وعينت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارئ شلت حركتها ، ومن أهمها ان الحكومة العثمانية ماكانت تحب استرسال المسلمين في سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون في مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ماشاءوا وشاءت دول الاستعمار .

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون إعادة جمعية المقاصد الخيرية المملوغة ، خصوصاً وقد رأوا كلمة التبشير تقوى ، فهبوا إلى التذرع لاحياء جمعيتهم في سنة ١٣٣٨ هـ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا ارضاً عظيمة من الأوقاف اقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهي ، فكان لهم منها بأخرة ربع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً في السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم .

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التي تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين اقوياء في عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا في مناهج البنات على مناهج البنين - والعلوم النظرية واحدة في

جميع مدارسهم - دروساً عملية في تدبير المنزل ، تناول الطبخ والحياطة على اختلاف انواعها ، والاشغال اليدوية والرسم والموسيقى وتربية الاطفال .
اصبح لهذه الجمعية في مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والانات ، منها مدرستان ثانويتان ، احدهما للصبيان والثانية للفتيات ، اطلق على كل واحد منها اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها في السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا في الجمهورية اللبنانية في احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يرد عهد تأسيسه الى ستين او سبعين سنة . وبلغ مجموع ما في مدارس البنين والبنات في بيروت في سنة ١٩٣٤ - ٣١٣٠ طالباً وطالبة ، وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الاطفال (هذا الكلام قبل سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك زاد عدد المدارس وقويت الجمعية قوة يفاخر بها كل مسلم) .

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم في الثروة في قيام هذه المدارس يمدونها بما تصل اليه ايديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم في هذه الازمة الحانقة اقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لان مدارس الجمعية تدار بأيدي رشيدة ، لا يسرف في مالها ايام الرخاء ، ويراعى في الانفاق العام الحاضر كما تراعى الاعوام المقبلة .

ولما رأت الجمعية ان التبشير يسري بسرعة في القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من اعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكونت لها رأس مال وبدأت بانشاء المدارس في القرى في سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن اثنان واربعون مدرسة فيها ما يربو على الالفى طالب وطالبة ينلقون التعليم الابتدائي الصحيح على منهج التعليم في الجمعية .

ولم تكتف جمعية المقاصد بما اتت ، بل عمرت لها في بيروت مستشفى ذا طبقتين وبلغ ما أنفق على بنائه ١٥٩،١١٠،٣٢٠ غرساً سورياً او نحو اربعة آلاف ومائتي جنيه عثماني ذهباً ، ونشطت المدارس الاهلية الاخرى وعاونتها ، وتولت برجالها مراقبتها وإرشادها ، ورمت بعض المساجد في

الحاضرة والضاحية ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص في مدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظه القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معاونتها للمولعين بالفنون الجليلة إلى غير ذلك . هذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والحير جمعها الغيّر على أبناء دينهم ، قتألف منها رأس مال لا يستهان به ؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشك أن ينسلخوا منه ، وكل ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذي كانت طريقته وطريقة أعوانه ان يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمتنون ولا يتبجحون .

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذي كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضي ، في محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ، وقل في الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره في هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ، وقل ان كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حدثت حذو الناهيين من أبناء بيروت لقضي مع الزمن على الأمية في المسلمين . وجوهر كل نهضة في عقول الرجال ، ولا نجاح في الاعمال لغير المخلصين المثابرين .

هذا ما كتبه في هذه الجمعية العظيمة وما زالت والله الحمد مطرداً سيرها تخرج بها رجال هم اليوم قرة عين المسلمين في هذه الديار .

من آراء شيخ المصلحين

كثيراً ما سمعت الشيخ طاهر الجزائري يقول ان افضل الطرق في انهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر وثقافة الدين وهذه طريق طويلة ولكنها امينة الغائلة لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي أما القول بالثورات وطرق العنف فقد تنجح ونجاحها قليل وليست مضمونة .

كان يقول لخاصته اذا اردتم النجاح فلا تلقوا آذانكم لما يقال فيكم من مدح وقبح وسيروا الى الهدف بقدم ثابتة ثقافوا . وتوقوا اضاعه الوقت بالقال والقليل وما لا ينتج فائدة من قول وعمل .

كثيراً ما نصح لبعض من يجب إياكم أن تخطوا في رسائلكم إلى اخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهره فكل ما يكتب لا يؤمن نشره ويفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه .

سأله أحد شيوخ الحشوية رأيه في كتبه وكانت كلها كتب خرافات وشعوذات بعيدة عن روح الدين الصحيح فقال له : يا فلان اشتغلوا ونحن نشغل وسنرى لمن تكون النتيجة .

كان يقول لبعض تلاميذه : تعلم كل يوم مسألة واخرج للنزهة ولا تتعب نفسك كثيراً فلا خير للمرء باكرهه على معاطاة امر تضيق به نفسه . وكان يقول لهم تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة فقد يجيء زمن تحتاجون إليها وإياكم أن تقولوا انها لا ندخل في نطاق اختصاصنا فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة .

كان يقول لحواصه من سوء بخت المسلمين أن استولت الدولة العثمانية على اجل اقطارهم وحكمتها قروناً بالجهل والجبرية فأفسدت الدين وما نشرت إلا الجهل .

قال فروا من المتورين والسوداويين فراركم من الوحش ، فهذا أحسن

علاج لهم ولا تضيعوا اوقاتكم باستصلاح من لم يرزق الاستعداد الكافي لقبوله ، فمن الناس من خلقوا للسكة والفدان ومنهم من تهيأت نفوسهم للجالس العلم والأدب وللجلوس في مقاعد دور الندوة ودواوين السياسة . إذا حرصتم على ادخال الاصلاح في البيوت فلا تتوانوا عن تعليم ابناء جميع الطبقات ولتكن معظم عنايتكم مصروفة الى تعليم ابناء الأغنياء فان عندهم المال والجاه إذا تحلوا بجملة العلم والمعارف جاء منهم رجال جدد نافعين وعم الاصلاح الذي تحاولون .

وكان هذه الحكمة مأخوذة من قانون الرهينة اليسوعية التي جعلت من شروطها بذل العناية خاصة باولاد الأغنياء حتى يكونوا في مستقبل ايامهم اعواناً لجمعتهم .

قال جماعة كانوا يتألمون لما يقع من ظلم قائم مقام البقاع العزيز وكان من ابناء بدرخان الاكراد : هل عندكم مسدسات تستعملونها للخلاص من هذا الجور ! قالوا : لا . قال : إذا وطدوا انفسكم على احتمال الاستبداد واورد كلمة من حكم سيدي احمد زروق : « المؤذي طبعاً يقتل شرعاً » . وكان يقول تعلموا العلم لله ولفائدته ولذته ولتكن بكل واحد منكم صناعة او تجارة او زراعة تمشون منها احراراً حتى لا تحتاجوا الى قرع ابواب الملوك والحكومات فاذا احتاجوكم نادوكم والا فانتم بما لكم من اسباب المعاش لا تحتاجونهم .

كثيراً ما رأيت يغضب على من يستنبطون من الحوادث ما يخطر لهم بادي الرأي وكان يشير اليهم أن يذكروا الحادث كما جرى وسموه ويتركوا الاستنباط والتعليل لغيرهم .

ما كان الشيخ يجوز الكذب حتى على المخالف ويبحث كل من يجتمع اليه على الصدق ولا يتقي الا من كان يخشى بأسهم ويعمل بما قيل في المعارض مندوحة عن الكذب .

كان الظاهر من حال الشيخ انه جبان وعديد وهو يقوي قلوب من

حواله وينشط كل من يراه اهلاً للتنشيط وأبغض الأحاديث اليه أن يقال في حضرته مايفت في عضد المسلمين كقائد يسوق الجيش بحكمته ولا يخاطر بنفسه في المعركة لئلا يذهب الجيش بفقد قائده .

كثيراً ما كان يقول لو بلغني أن اهل هذا البلد كلهم راضون عني ليس لي منهم عدو لعددت نفسي ساقطاً لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعاً منافقاً يظهر لكل احد بما يرضيه والمصلح لا يخلو من اعداء واصحاب . قال واحب الى قلبي أن ارى عشرة من العقلاء من مئات الالوف يرتاحون الى عملي ويقرونه .

كان يقول لو ارادني اليهود على ان اعلمهم لبادرت الى اجابة طلبهم لأن في تعليمهم تقرييهم منا واتقاء شرهم . وكان غرامه في تأليف القلوب بين ابناء الأمة على اختلاف اديانهم وازالة الفوارق من بين الفرق الاسلامية خاصة ولذلك كان يعرف من اسرار جميع الطوائف ما لا يعرفه ابناء الطوائف نفسها أو مايستر عن عامتهم على الأقل . ويقول الحمد لله لقد سالمنا جميع الفرق . اما سخفاء اهل السنة وهم دونه علماً وعقلاً فيبادرون الى تكفيره كأن بأيديهم مفاتيح الجنة .



موضع عجب

(في أكثر القصص التي يقرأها أبناء هذه الحضارة وفي أكثر المجالات والصحف ، وفي أكثر ما تشهده في المسارح وعلى الشاشة البيضاء في الشرق والغرب = حب وهيام ، حب ودماء ، حب ودموع ، حب هازل ، حب جاد ، ولكن أكثره محصور في نداء الغريزة ، وفي أرضائها أو محاولة أرضائها بالفسيل وسبيل ، ولواضاف سكان الارض سكان المريح ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب ، ولظنوا حين يرون مانرى من الاتجار بغريزة الجنس في أكثر ما نقرأ وما نشهد - ان أبناء حواء وآدم لم يرثوا من ابويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائي الذي لا فضل فيه لانسان على حيوان . نعم هو جزء حيوي من طبيعتنا ، لكنه ليس كل طبيعتنا وهو نوع من الحب العابر الموقوت لكنه ليس كل الحب ، ولا هو ابقى انواعه واصفاها .

(حب الابوة والأمومة والبنوة - اين هو في هذا الحضم المصطخب ، من النزعات البدنية الدنيا ، انه مغرق أو يكاد يكون مغرقاً في بحر لحي من الشهوات ، في القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء او السوداء .)

(حب الانسان للانسان من حيث انسانيته واخاؤه ، لا من حيث ذكورته او انوثته - وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغني للفقير والقوي للضعيف - حب الجمال في النور إذا محا الظلام ، وفي الطبيعة إذا زانها الربيع ، وفي المبدع الأعلى لبدائعه ، وفي البدائع لمبدعها الأعلى .

اين الجداول والانهار والحب الشامل ذو القنوات يجري بالعذب الفرات من الرحمة والعطف الى كل قلب يتوجع وروح تظسأ ، طفت غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور وليس لهم الا خصائص الذكور واناث ليس لهن سوى خصائص الاناث - اما صفات الانسان المشتركة بينها ،

المتسامية عن التفريق والتخصيص ، فيكاد الناس يجعلونها فضولاً لا غناء فيه ولا حاجة اليه .)

هذا مقالته صديقي الاستاذ محمد توفيق دياب في كتابه اللوحات وله الفضل ان سبق الى تدوين هذا المعنى الذي يتناول الشرقيين والغربيين على السواء ، وكان الغربيون هم السابقين الى هذه المعاني وبهم اقتدى الشرقيون . دارت القصة في الغرب على المرأة وعلى الهيام والغرام يختلق القصصيون موضوعاتهم ويدعون انها مما وقع وبلاغتهم تغطي العيوب في كلامهم الذي يحاولون به تسلية الناس واثارة شهواتهم ، ويزيد الاقبال على ما يكتبون كلما كان الكلام ظاهراً الفجور . لاجرم ان البشر كان في كل زمن يرتكب انواع العيب واللغو وما كان منذ بلغتنا اخباره اقل غراماً بالنساء منه اليوم ولكن كانوا يكتفون ويستترون واليوم يظهرون ويعلنون ، كان من يأتون العهر جبهة فرادى فأصبحوا اليوم جماعات . قلّ الحياء في الناس وما ندري ما تكون الحال عليه بعد بضعة عقود من الأعوام ، والبشر متسارع في كل شيء ، وكل يوم تزيد تأثيرات القصص والسينما أكثر من تأثيرات المدارس والمواظ .

محمد توفيق دياب

المرنية الحديثة

خطب برناردشو أعظم كتاب الانكليز مرة قال : كشفت خرائب في جزيرة كريت يرد عهدها الى كذا الف من السنين فظهر انه كان للقوم مدنية لا تختلف عن مدينتنا الحاضرة بمرافقها وترتيباتها ، فتساءلت ماذا زدنا نحن أصحاب هذه المدنية الحديثة اذاً على ما كان للاقدمين من حضارة ، فلم أر أحسن في الجواب من ان ما أتينا به كان عبارة عن اختراع اسلحة وقذائف يقتل بها بعضنا بعضاً ، وبذلك فقط امتزنا على اجدادنا . هذه زبدة ما روي لي من كلام هذا العظيم وقوله في الواقع حقيقة لمسناها في الحربين الاخيرتين ، وكانت أمم الغرب من اوربا والاميركيين يخترعون للتدمير والقتل ادوات من افطع ما عرف الانسان . وبهذا الصراع الدامي اثبت البشر ان الشفقة نزع من القلوب ، والانسانية خرجت على كل قانون كانت ترعاه ولو بعض الرعاية ، وان الاديان وجوهرها العطف على الفقراء والضعفاء أصبحت لا تذكر الا على شفاه من يعيشون بالاتسام بها .

كلما انقضى عقدان او ثلاثة عقود من السنين خطت الحضارة الحديثة في باب القتل خطى هائلة ، ولا يأتي جيل آخر ان دامت هذه الاختراعات سائرة سيرها حتى يقال ان البشر أصبحوا أحط من الحيوانات ، وقد يتراحم الحيوان أكثر من الانسان . ونحن مهما كددنا قرائننا لنجد لهذه الحرب الاخيرة مبرراً وندون ما انجلت عنه من فوائد لا نرى الا انها زادت في بؤس الانسان على ما لم يعهد له مثل ، وكان من ذلك ان العلم وغايته سعادة البشر قد انقلب شر أداة تستعمل في شقائه .

كان يقال كل مشروع تريد القضاء عليه حوِّله الى لجنة فينسى ويهمل وقد احتال بعض رجال السياسة في هذا العصر على أهمهم لدوام الحرب

بان ألفوا لجناً ومجالس لاتقاء عادية الحروب في الظاهر فما أفادت الانسانية شيئاً . أنشاؤا عصبة الامم عقبى الحرب العالمية الأولى ، واخترعوا مجلس الأمن في الحرب العالمية الثانية فماذا كان من العصبة وما اسفر عنه هذا المجلس ؟ هل بطلت الحروب من العالم في الزمن الذي انتقضي بين الحرب الاولى والحرب الثانية او بين الهدنة الأخيرة حتى الساعة ؟ ام هل استطاعوا تخفيف الويلات والناس يعيشون الى اليوم في خوف الحرب الكبرى ؟ « وتوقع المصيبة أعظم من المصيبة » وهكذا ينشأ من هذه المدنية الشر اثر الشر لا يحول دون وقوعه مجلس واللجنة ولا مؤتمر ولا عصبة .

قام مالتوس الاقتصادي الانكليزي في القرن الماضي بفكرة الجباله دون نمو البشر وعدم الاستكثار من النسل الى أكثر مما لا تتسع له الأرض فأثبتت الأيام خطل رأيه وظهر ان الكرة الأرضية تتسع لأكثر مما يمشي على سطحها من الخلق ، فقد كان سكانها في أول القرن التاسع عشر ثمانمائة الف مليون وأصبح في اواسط القرن الحالي عشرين الف مليون اي زاد اثني عشر الف مليون في نحو (١٥٠) سنة على كثرة ما نشب فيها من الحروب العظيمة والثورات والأوبئة ، وظل يأكل ويعيش كما كان في القرن الماضي . ولوبلغ عدده خمسين الف مليون لعاش من خيرات الأرض إذا قدر له ان يتجنب الحروب وكفي مؤونة جلب بؤسه بيده .

فعلى من تقع اللائمة ونحن نرى من يقدمون ويؤخرون في اقدار بني الانسان ظاهرهم الحرص على السلام وهم يضمرون الحرب في قرارة انفسهم ، واساليب اهراق اندماء تريد شهراً فشراً ؟ على ساسة الدول الكبرى من الملوك والرؤساء ام على المجالس النيابية التي توافق على اعلان الحروب مرغمة احياناً ويتغلب قليل من نوابها على افكار السواد الأعظم ، وفي الامور العظام قد لا يقررون ما يقررون الا اذا صدر إليهم ايعاز من مصدر عال تضطرم الحال الى مراعاته وإظهار الطاعة له . وخضوع الضعيف للقوي ظاهر لكل من يحلل عمل الحكومات .

طبقات الناس

في درس الطبقات تحليل روح الجماعة . ومن المتعذر الجمع بينها أو القضاء على الفوارق بين اجزائها ، وهي مهما تعددت درجاتها نرجع الى طبقات ثلاث أمهات : عليا ووسطى ودنيا . وقد تقسم كل طبقة إلى طبقات يكون الفاصل بينها على الأكثر الغنى والثقافة ، وليس لك أن تعد الفقير بالمال الغني بالعلم من الطبقة الدنيا ، ولا من الانصاف أن تحسب الغني بماله الفقير بثقافته في الطبقة العليا ، والمال وحده لا يكفي لرفع المرء فوق الرؤوس ، كان هذا راجحاً أيام كانت الأمية متحركة في الامم جمعاء وعلى الملوك والأمراء والزعماء والحكام بل على القضاة والوعاظ والتجار والصناع . كان المفكرون في كل عصر يصنفون الخلق بحسب ما يتراءى لهم ، والغالب انهم كانوا ينظرون إلى درجات الغنى اولاً ، وما يحترفه المحترفون من الحرف ويمسنون من عمل ثانياً ، ويعتبرون قرب المرء وبعده من الحكم والسلطان قبل كل اعتبار .

قسم المقرئزي أصناف الناس لعده في مصر إلى سبعة اقسام (١) اهل الدولة (٢) اهل اليسار من التجار واولو النعم من ذوي الرفاهية (٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم اصحاب المعاش (٤) اهل الزراعات سكان القرى والريف (٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من اجناد الحلقة (٦) ارباب الصنائع والأجراء واصحاب المهن (٧) ذوو الحاجة والمسكنة . وهذا التقسيم لا يكاد يختلف عن تقسيم العصور الخالفة إلا قليلا .

ولما احتفل احد عمال الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر بدمشق (١١٥٦) بزواج ابنته خص كل يوم بجماعة فكأنه قسمهم الى طبقات فكان اليوم الأول للوالي والثاني للعلماء والمشايخ والثالث للأغوات والرابع للتجار والباعة

والخامس للنصارى واليهود والسادس للفلاحين والسابع للقيينات والمومسات . قال احد المؤرخين أن صاحب العرس اكرم هذه الطبقة إكراماً زائداً وفرق فيهن الذهب والفضة . وكانت قبل يوم العرس عمل تهليلة لجميع مشايخ الطرق حضرها الخاص والعام .

وبعد فان الطبقات بحكم العادة منعزل بعضها عن بعض لا يمتزج الحكم بالتجار ولا الفقهاء بالأجناد ولا الزراع بأرباب الصنائع الحرة من الاطباء والمحامين والمهندسين . ولذلك كان من العادات الراسخة إلى عهد قريب ألا يتزوج التاجر إلا من ابنة تاجر ، ولا تقترن الفلاحنة إلا بفلاح أو ماشاءت طبقة أهلها . وابنة الموظف لا يبنى بها إلا موظف ، والشريفة لا ينكحها إلا شريف . وهكذا حتى يكون الزوجان متقاربين بالثروة والعادات .

ولما كثر المتعلمون والمتعلات ظهرت الفروق محسوسة بين الطبقات ، ولا تصفو الا في الندر عشرة المتعلم مع غير متعلمة او المتعلمة مع غير المتعلم وهذا ما يستنتج منه أن الطبيعة ميزت بين الطبقات . ويكفي اختلاف حرفة الواحد عن الثاني في مجلس أن يتباعد كل واحد عن صاحبه . واذا خرج الحديث عن الأحاديث العامة وتحدث أحد الحاضرين بما لا يتذوقه الحضور يتأفف بعض السامعين حتى ليلظن أن المتكلم من عالم آخر يخاطب عالماً آخر غير عالمه ، وهذا من تحالف الطبقات . بل لقد تجد أهل بلد واحد اختلفت طبقتهم يتباينون في لهجاتهم وفي افكارهم ومنازعاتهم على قريهم في الجوار كأنهم من بلدة اخرى . وكلما تنامت المنازل زاد التخالف في العادات واللهجات ، ولا يجمع شملهم إلا توحيد اللغة والتربية الوطنية المشتركة والتباين يبقى اثره زمناً طويلاً ويضعف ولا يكاد يرى على ماهو حاصل بين ابن القرى وابن المدن في اوربا واميركا لاشتراك سكانها في المسائل العامة أكثر من سكان المدن والقرى في الشرق . والتعليم الاجباري هناك يضعف تأثير الطبقات في الجملة . ولقد رأينا طبقات الفلاحات هنا اذا وافين الحواضر للخدمة في البيوت يصعب عليهن بادیء بدء بممارسة

بعض مصطلحات الحضارة التي دخلوا فيها ولا يزال الفرق ظاهراً بين القروية وابنة المدينة وبين الجبلية والسهلية لأن لكل واحدة بيئة خاصة نشأت فيها .
لم يوفق عالم من علماء الملة منذ كانت الاسلام كتوفيق الجاحظ في تحليل روح الطبقات ولم يحسن أحد الانتفاع بهم والاطلاع على ماخصوا به من ميزات . اختلط بعامة الطبقات وغربلهم ونخلهم وادرك مواطن الضعف والقوة فيهم . هذا وقد ثبت أن التشابه بين اهل الحرفة الواحدة من امم مختلفة أكثر مما هو بين جماع اهل بلد واحد . وقالوا ايضاً ان اهل كل حرفة وان اختلفت شعوبهم أدنى إلى التقارب في التفكير والعادات مما لا يشهد في تقارب الطبقات في امة بعينها . وكثرة التخالف في الطبقات في الهند أدت الى شطرها شطرين . فسبحان من طبق الطبقات ورفع الدرجات .

السبغ طاهر والسياسة

طال تفكيري في حال المشايخ الفقهاء فما رأيت أكثر من عاصرتهم الا شبه العامة بحرصهم على شهواتهم وتحيلهم لاقتناص الدرهم والدينار واستحلال كل ما يوصلهم الى رغائبهم وزادوا العامة بان تلفقوا اشياء من العلم يستخدمونها لمنافعهم وللإبقاء على مظاهرهم فهم لا يعدون العامة في كل ذلك مهما احسن الظن بهم ، ومن لا يعمل بعلمه موته وحياته سواء .
وبعد ان كانت من المشايخ الى أواخر القرن الماضي من ينكر المنكر ويدعو الى المعروف قل جداً عدد من كان على هذه السيرة وغدوا لا يهتمون لغير راحتهم ورفاهيتهم وهذا لا يتبأ لهم الا بمصانعة الملوك والحكومات ليفيضوا عليهم من احساناتهم ويرقوهم الى اعلى مراتبهم ودرجاتهم كأن العلم لاثرة له الا نفع من تعلمه فقط لانفع من تستدعي الحال هدايتهم ورفع اصواتهم عند الاقتضاء بما يدفع بالامة الى الأمام خطوة او خطوات .

قال لي صديقي الاستاذ سعيد العرفي - وهو من القائمين بما اخذ الله على العلماء من العهد الا يكتموا العلم - ما كنت اظن الشيخ طاهر الجزائري أكثر من عالم مصلح واسع العقل بعيد النظر حتى سمعت من اذاعة القدس كتابه الى معاونة حاكم العراق الانكليزية في التوفيق بين مصلحة العرب ومصلحة الانكليز وعندئذ ايقنت ان الشيخ جمع الى علوم الدين علوم الدنيا ومنها السياسة على ما كان عليه بعض كبار علماء السلف . وهذا ما دعاني الى نشر هذا الكتاب النادر في هذه المذكرات وهو عندى محفوظ بخطه دفعه إليّ في أواخر أيام حياته قال :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المصونة مس « بل » دام اقبالها
احبيك بخير التحايا واثني على تلك السجايا وأذكرك بالأيام المسعودة التي جمعتنا في دمشق الشام ثم اذكرك الداعي الى المكاتبه وهو امران احدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا المحب المخلص فقد ذكر لي بعض اصدقائي ترجمة ما كتبته في حقي في رحلتك الى سورية بما يدل على حسن الطوية ، والأمر الثاني اقتضاء الوقت لذلك فإن هذا الزمان الذي هو اغرب الأزمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمر مر السحاب . هذا ولما كنت اعتقد ان احسن من يخلص له العرب الود هو دولة بريطانيا العظمى لما خبرته من الأحوال ومقتضيات الأمزجة ونحو ذلك - والمودة لما كانت واجبة ان تكون من الطرفين اقتضى الأمر ان يقع التفاهم بينها ليستمر هذا الأمر فرأيت انه ينبغي لانكلاهما العظمى ان تعتني بأمور ، الأمر الأول ان تؤسس في كل بلدة كبيرة ديواناً شبيهاً بالرسمي لتأخذ الأخبار المتعلقة بما يجب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان والذين يعينون ينبغي ان يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب بمن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

الامر الثاني ان تعتني بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

الأمر الثالث الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

الأمر الرابع مراعاة عوائدهم وعدم الخط من كرامتهم لاختلاف العادات فإنه قد بلغني انه كان يقع في البصرة والعراق وغيرها من بعض المأمورين تساهل في ذلك وهذا مضر جداً لا يشعر بمضرته الا بعد ان يشتد الحال ويعسر زوال ما في النفس . نعم ان هذا الأمر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي الا ان الاعتناء لأسبابه كثير ممكن . والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان .

الأمر الخامس تسهيل أمر تجارتهم وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك وتدريبهم في ذلك على كل ما ينفعهم ولا يضرهم .
الأمر السادس الاعتناء بعدم مسّ الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة ، وبما يؤيد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .
الأمر السابع تدريبهم على ما يحتاجون اليه من امور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى ان هذه الامور إذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشد التلاؤم بين الفريقين ، فإن العرب أقرب الناس الى شكر النعمة فان وجد من لا يشكر فان في ظهور النعمة ما يقمعه عن ابراز ما ينويه من مغالطة الناس وما قلت ما قلت إلا بعد تجربة أو اختبار تام ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلاً قياماً بمثل هذا الأمر الجلل الا ان في هذا الامر كفاية والله الموفق

المخلص للامة العربية والدولة البريطانية العظمى

طاهر الجزائري

ملاحظة

الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الامة العربية مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا انهم لا يقدرّون على اظهار فكرهم الا

بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لثلا ينسب اليهم انهم خائنون للامة ، فإن هذه الجملة راعت الناس كثيراً وهي جملة اتخذها الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة وذلك قبل دخول الأتوريين في الحرب بنحو شهرين فإن بعضهم اشاع عني اني حضرت لتسديد الأمر لدولتكم العظمى وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الأول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً ولم يكن له مانع ولكن اوصوهم في حقي بان يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور باني لا اختار شيئاً فيه خيانة للامة

واذا وقع ما ذكرناه يقل الشعب ويضعف أمر المموهين الذين لا يهمهم إلا امر انفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا اوانه ونسأل من بيده الامر كله التوفيق لما هو الاولى .

واذا كتبت لنا جواباً فاكتبه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة ، وهي جريدة الكوكب التي يدير امرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا اين كنا .

• • •

هائية

واني أوصيكم ببعض البلاد التي لا أسميها خيراً ، فان فيها كثيراً من الرجال المهمين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا على أمرهم لانهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الأوان لمعرفتهم ، وهذا لا يكون الا تدريجاً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة هذا الامر والله الموفق .

الصغار والكبار

كثيراً ما حاولت ان أجمع بين من لم يسبق لهم أن تعارفوا وبينهم تشابه في الخلق والتربية لعلمي أنهم إذا تعارفوا كان من اجتماعهم فوائد عظيمة ، أحب الشاب أن يسمع كلام الكهل والشيخ ، وأحب هذين أن يعرفا الشاب ومراميه ، وقد نجحت هذه التجربة بعض الشيء وثبت عندي أن من تعارفوا غيروا آراءهم فبين تعرفوا اليهم والبعد جفاء . ورب عدو أزرق أصبح بالتعارف الى آخر صديقاً باراً ولا يعرف أحدنا ما عند صاحبه من مزايإ إلا إذا وقف عليها بنفسه .

كانت المذاهب والطرق تفرق بين الناس في القرن الماضي . وأصبحت في هذا القرن البلية بلية الأحزاب ، ولذلك كنت أقول لبعض من أدعواهم من الشبان الى الاجتماع في داري مع من لا يعرفون من أرباب المسكنة وغيرهم أرجو أن لا تتأثروا إذا صادفتم عندي من يخالفونكم في مذهبكم السياسي فبيني لكل الأحزاب ولكل المذاهب .

وبما كان يعنيني كثيراً التنويه بأرباب النزاهة والاقتدار لعلمي بان اجتماعهم يؤلف كتلة صالحة تعمل للخير بدون ان تقيد بقيود الأحزاب والجمعيات أي تكون صحبتهم صحة وطنية خالصة ليس وراءها غرض مادي .

قال لي صديقي الاستاذ حسن الحكيم قبل أن يتولى رئاسة الوزارة - وأنا أرجوه أن يحضر احدى الاجتماعات في داري - وهل حضوري ضروري في كل مرة ؟ فأجبتة لعمرى انه ضروري لان أمثالك قلائل في البلد وأريد أن أعرض على الناس بضاعتنا الجيدة . وما كان في حاجة الى من يدل على فضله فقد شهرته أعماله المالية واثبت كفاءته في تأسيس مصارف في دمشق وفلسطين . وعلى ما خص به من اقتدار ونزاهة حاول خصومه السياسيون الغض منه ، ولما دخل معركة الانتخابات النيابية الاخيرة

نصره الاهدون وخذلته السياسة ، فانتخبوا في حيه أحد ذوي قرباه وهو
دونه علماً وتجربة ، وحجة أهله في رفضهم انتخابه أنهم قصدوه وهو في
رئاسة الوزارة لقضاء بعض مصالحهم فلم يعاونهم على النحر الذي كانوا
يرجونه منه !

ولا أعرف في النواب من يداني الاستاذ الحكيم في اختصاصه المالي
والجلس في حاجة ماسة الى سديد تجاربه وبعد نظره . وكان طلب حالته
على التقاعد فوافقه الحكومة على طلبه . وما أكثر اقدام الحكومات
على تنحية الاكفاء النزهاء يوم ينهي القانون خدمتهم ، . وفي سن التقاعد
تنضج معلومات العامل ، والمناصب الكبرى لا تتطلب ممن يشغلها قوة
في العضلات بل قوة في التفكير واحكاماً في التدبير .

فساد الطرق

كان المظنون أن يعد مشايخ الطرق الى ابطال ما لم يعد للزمن
طاقة بتحملة من جهالة بادية ورعونة غير خافية . وذلك بعد أن طرأ
على عقول العالم من التبدل ما أصبح معه رأي الجمهور في المتجرين بهذه
الايوضاع أسوأ رأي .

استجاز بعضهم العبث بملكات مريدتهم ما طاب لهم العبث ، ولما جاء
هذا العهد بعلمه وتفكيره حاولوا أن يحتفظوا بمكانتهم على جهل فيهم ،
وما أدركوا أن ما كان يطلق عليه اسم « عِلْم » في الماضي اصبح
لا يساوي خردلة اليوم .

ورأى بعضهم أن يعلموا أبناءهم ليعدّوهم لضرب آخر من ضروب
المعاش ، او ليكون لهم من سلاح العلم ما يبقون به على بيوتهم من
الدثور فلم تجن الامة من المتعلمين ولا من الأميين إلا الصاب والحنظل .
ذلك ان العلم لم يبدل من أرواحهم ، وما سلموا من جرائم منشأهم

الموبوء ، كما وقع لأحدهم فتلقى العلم في أرقى الجامعات الغربية وسولت له نفسه أن يتطوع في خدمة اغراض الغريب . ومن السخف ان كان بعض ارباب المظاهر يعرفون مافيه من خيانة ثم يمدون اليه ايديهم يضافحونه ويتوددون إليه ، ولما سقط كان في مواطنيه أيضاً من يقيم له الاعذار ، ولا يستحي من مصانعه .

عرضت بأخرة على احدى محاكم عاصمة من عواصمنا قضية اتهم فيها شيخ إحدى الطرق بالعبث بعفاف الأبنكار اللائي مختلفن الى زاويته ، وكان اهلن من مريديه وأشياعه ، وثبت انه كان يقول لهن انه يقصد بعمله الشائ تنويرهن وانهن سيعدن ببركته ابنكاراً على نحو ما كن قبل أن يبلغ فيهن . هذا الدجال الأمي نفذ الى ارواح من انضموا الى جملته ، وبالطبع كان من جازت عليهم دعوته مثله أميين جهلاء .

ومن المفاسد التي تسجل على بعض هؤلاء المشايخ ما لا يصدر مثله عن أدنى الأديباء ، ولا يجوز ارتكابه الا ارباب المواخير من السفهاء ، وقد سمعنا على الدهر أن بعض الطرق ما كانت تتقيد بالآداب الدينية والمدنية فيبيع الداخلون فيها نساءهم بينهم حتى ليسين مشتركات بين الاخوان من غير نكير ، وكانت مثل هذه المنكرات يفتضح امرها في بعض الحكومات الاسلامية فتهب الى معاقبة الرؤساء وتفرق شمل من ينتهكون حرمة الشرائع .

سألت احد مشايخ الطرق وكان يمت الى الادب بصلة هل أجدت عليه رحلته في الريف ، وكانت طاف بعض أرجائه ليجمع من اهل طريقته جُعْله السنوي فقال : ريات ضئيلة العدد ، واكياساً من الخنطة خفيفة الوزن ، فقلت له : وما السرّ في ذلك ياترى ؟ قال ان القوم قلّ اعتقادهم فينا ، ونحن قادمون على المستقبل المجهول . فقلت في نفسي حقق الله ظنك ، فاذا كان البشر سائراً بخطى واسعة الى الاحاد كيف يرضى عن يدعكم وكديتكم ؟ .

نعم لم يبق من سلطان هذه الطرق على العوام غير اثر ضعيف بالقياس

الى ماكان لها قبل خمسين سنة ، انهزمت والله الحمد امام قوات الحضارة .
ومع هذا ما زال بعض الدول يوقد جذوتها في رؤوس السذج ، تدمم بالمال
وتحميهم من غضب السواد الاعظم وتعطف على من يعمل لها بدافع من
نفسه ويكفيها مؤونة تضليل العقول كما كان شأنها في الشام بايام احد
الأغبياء بانه إله معبود بيده القبض والبسط ، وكما زينت لهذا المستهتر
بالابكار بانه امام يبتدى به ، واوهمت ذاك المتعلم ان من تمام معرفة
الجميل خدمة مآرب تلك الدولة بما تريد لا بما تقتضيه مصلحة وطنه .

وعلى سبيل الفكاهة نسجل هنا ان احد ظرفاء الأميين اخترع مؤخراً
طريقة جديدة فانضم اليه حتى بعض من يلاحظ انهم على شيء من المعرفة
والذكاء وراحوا يزعمون انه يشرح لهم الفتوحات المكية لابن عربي
وما اكثر ما يدعي هؤلاء المتصوفون فك المعنى من كلام متصوفهم . اشتهر
منذ نحو خمس واربعين سنة رجل فران كان يعتم بعمامة بيضاء شارة العلماء
فسألت عنه احد مشايخي وكانت له مشاركة عظيمة في التصوف هل حقيق
ما يقولون من ان هذا الفران يفهم الفتوحات المكية فاجابني ضاحكاً :
نعم هكذا قالوا وهو أمي ايضاً . والعجيب الا يضطلع بسر الطرق
إلا الأميون ولا يفهم كتب القوم إلا الجبلية المشعبدون على نحو ما نرى في
الطريقتين اللتين جاءت احدهما وهي « القاديانية » من الشرق وكانت
اختراعاً انكليزياً صرفاً ، وجاءت الأخرى وهي « التيجانية » من الغرب
وهي بضاعة افرنسية محضة .

ونحن كلما ملنا الى الاعتقاد بانقراض هذه الحملات الطفيلية ينشأ لنا
جيل آخر يحكي الدجل بطريقة له يبتدعها فيستهو ي قلوب ضعفاء المدارك
ولذا حق لنا ان ننادي ان الشعوذة ما انقطعت من الدنيا ولن تنقطع ،
وكل رجائنا ان يبقى العلم على جهاده في مكافحة الجهل ، بغزوه في
بؤرته ، ويحتته من اصله ، ويدفنه الى غير رجعة .

فرنسا في شمال افريقية

من أفزع انواع الاستعمار استعمار فرنسا ، قام في كل قطر احتلته على نزع الثروة من أيدي الوطنيين ، وعلى نشر الجهل والفساد بينهم ، وعلى تربيتهم تربية خنوع وذلة ، ليكون لها منهم الى الابد عبيد وخوكل يؤمرون فيطيعون بدون أخذ ورد . قرأت منذ نشأت كثيراً من كتب الثقات من الفرنسيين في نقد سياسة فرنسا في مستعمراتها الاسلامية وتدبرت تلاعب ساستهم في تلك الأفطار فما شهدت شهد الله إلا الظلم المجسم وإرهاق الخلق باسم المدنية . وآخر ماقرأته في مجلة الثقافة المصرية (العدد ٤٣٨) مقالة للاستاذ عبد الجبار جومرد ذكر فيها تاريخ استعمار فرنسا للجزائر وأتى نقلاً عن المضبطة الرسمية على نتائج فتنة الجزائر (١١ تموز ١٩٤٥) ونقل ما دار في المجلس الاستشاري وما قاله أحد أعضائه من الفرنسيين من ان الانتقام كان فظيماً ، ذلك ان قتل بعض الأوربيين أدى الى اعدام تسعة واربعين مسجوناً ، ولما رأوا أن العدد لا يكفي ويلزم لاتمامه احد عشر شخصاً أيضاً أخذوا من صفوف المسجونين من أتموا به العدد وقتلوهم كلهم رمياً بالرصاص . قال ان الوالي العام على الجزائر أجاب على سؤال وجه اليه فقال إن احدى واربعين قرية دكت بالطائرات والوحدات البحرية فلم ينج منها ديار ولا حيوان ، وبما ان معدل سكان القرية الواحدة على الاقل الف نسمة إن لم تقل الف وخمسمائة فلا مغالاة إذآ أن نقرر ان عدد من قتلوا من المسلمين يختلف بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً ، هذا اذا فرضنا أن نصف السكان قد فرّوا واعتصموا بالجبال .

تلك شهادة افرنسي مسؤول في مجلس رسمي ، وهذه عقلية الفرنسيين في كل بلد نزله وطعموا في استعماره . هكذا كانوا في افريقية وآسيا

وأمركا ، وهكذا كانوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين .
ذكر في هذا بما نقله اليّ احد اصحابي على لسان أحد أجباب فرنسا
من اللبنانيين قال ان في الفرنسيين الصالح وغيره وانه رأى برفقة
بالارقام حلت بحضرته أرسلها الجنرال ديغول المسيطر على فرنسا يومئذ
الى ممثليها في سورية ولبنان عندما توترت العلاقات بين حكومة الجمهورية
السورية وحكومة فرنسا قال يأمر المفوض الفرنسي أن يدمر ثلثي
سورية لتوطيد سلطان فرنسا عليها . وقال ان هذا المفوض الفرنسي
اكتفى باهلاك بضع مئات من الأبرياء في مدن سورية فأثبت صاحب
فرنسا أن رجالها كانوا بين ظالم وأظلم ، أما المسلمون فكانوا من هذه
السياسة الحرقاء في بلاء ليس بعده بلاء ، وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أن
بلاد الاسلام ستخرج من حكم فرنسا ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ، ذلك
لان ظلمها بلغ أقصى حد لاتطبيقه النفوس البشرية ، ومهما استجلت
فرنسا خنق الحرية في الافطار التي استولت عليها لابد أن ينفذ أهلها
عنهم غبار الذل يوماً فيتمتعون باستقلالهم الذي يحبه لهم كل انسان
فيه روح الانسانية .



أقوال ممسولة

تناولت من فرنسا نشرة اسمها ايزوب (Esopo) على اسم القصاص اليوناني الذي جاء قبل المسيح بستة قرون وقرأت فيها ما اعتدت أن أقرأه في كلام من يخدمون الأغراض السياسية تحت ستار العلم ، وخلاصة مايدعو إليه هذا البيان الذي تدرأ ناشروه وراء أسماء مشهورة عندهم ان نشرتهم هذه لسان حال الاتحاد الدولي للفنون والآداب والعلوم وزعموا أنه انضم اليهم ٤٧ عضواً عن سبع وأربعين دولة . وغايتهم أن يكون الحق لكل إنسان في مراسلة المعاهد العلمية عامة ومفاوضة أبناء كل أمة ، وأن تطلق له الحرية في تناول الكتب والمطبوعات والروايز وأدوات الصناعة ، وأن يسمح لكل فرد بدخول خزائن الكتب ودور الآثار والأماكن التاريخية ومعامل الابحاث التي تهتم الطالب وتُعنى بها أمته والدول الأخرى دون اداء رسم ، وأن يمنح كل انسان حق الترجمة والنسخ وتحليل النماذج وغيرها مما فيه فائدة للثقافة العامة ، وأن يحول الرحلة الى الممالك بلا تشديد كبير ، ويسمح له بالاقامة في كل مملكة المدة التي يراها ضرورية ، وأن يستمتع بحريته في الارض التي يحلها يكتب ويخطب ويلقي من المحاضرات ما طاب له ، ويقوم كذلك الحفلات الموسيقية والروايات التمثيلية والاعمال الرياضية ، وينشئ المعارض ويأخذ ما يشاء من أفلام السينما ، ويقوم بما يروقه من الحفريات والابحاث . قال كاتب النشرة ان الغاية المقصودة من ذلك بلوغ الكمال وكل أولئك لادخل للماديات فيه .

وكنت وأنا أترجم هذا أقول في باطني ترى هل يقتصر أحرار فرنسا وغيرها من الامم اذا تحققت لهم هذه الاماني على الامم المستعمرة أم يعم خيرها الشعوب المستعمرة فقط ، وفرنسا الغالية في دعوى الحرية وخدمتها منذ وضعت أقدامها في شمالي افريقية تحرم على اهلها ان يكونوا على

اتصال مع اخوانهم في الاقطار الاخرى ، لم تسمح لابن الجزائر ولا لابن تونس ولا لابن مراکش بان يتراسلوا احراراً ويتكلموا احراراً ويعلموا اولادهم احراراً ويجتمعوا احراراً . ولم تسمح لاحد من ابناء هذه الاقطار الاسلامية الثلاثة ان يكتب احداً من اهل الاسلام في كل بلد نزله تحت اي داع كان . واطرف ما في هذه النشرة دعوة مؤسسها الى اصلاح كتب التاريخ في كثير من الممالك لان ذلك هو المرحلة الاولى في كل حملة سلمية . ومعلوم ان فرنسا اول دولة اوربية اخذت عن العرب وغمطتهم حقهم في كتبها واول دولة بدأ تعصبها على المسلمين فكانت أرضها أتون التعصب الديني انبعثت منه الحروب الصليبية المعروفة وعم بلاؤها اوربا وهذا الشرق القريب مائتي سنة فقط ، واول دولة أصلت من دانوا بالبرتستانتية ناراً حامية وقتلت منهم في يوم واحد مئة الف انسان وشردت الباقي وهم عشرات الالوف في هولندة والمانيا وغيرها ،



أهل السنة والشيعة

لي في جبل عامل صديقان جمعتهما رابطة العلم والأدب منذ ريعان الشباب ولم يفرق بيننا المذهب واختلاف المنشأ والعادة وكنا ، يصدقاني رأيها فيما اكتب في الشيعة احياناً في بعض كتبي ويوردان لي اشياء ليس لها ما يؤيدها في دولة ايران الشيعة اليوم ولا في أكثر كتب الشيعة المعتمدة عندهم . يورثان الشيعة الامامية من وصحات اتسم بها بعض فرقههم . عنيت بهذين الصديقين العالمين الأديبين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

وهاكم رأيها المخالف لرأيي في أمهات المسائل التي يشتمز منها أهل السنة كمسائل الشيخين ومسائل علي ومعاوية وقذف امهات المؤمنين وغيرها بما خالفت فيه الامامية أهل السنة ، قال الشيخ احمد : قد نحوت في كتبك منعى الاسادة بفضائل الأمويين ولم تتعرض لمساوئهم بل نحوت إلى تبرئة معاوية من سن لعن علي على المنابر فقلت « ويقول من امعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن علي عقبى كل خطبة لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه وما من اثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة » تميل الى تبرئته بهذا الخبر المفرد تاركاً الأخبار التي ملأت كتب التاريخ وبلغت حد التواتر من أنه هو أول من سن اللعن وفرضه فرضاً على أهل مملكته .

« ربما كنت تريد بهذا تأييد مجدٍ لملك عربي من أعظم رجال السياسة في الاسلام لتؤيد به مجد العروبة ضد الشعوبية ولكن ما بالك تكثر من الخط في شيعة علي وهم ومن يستندون اليه في مذهبهم عرب اقحاح ، تبريء معاوية من لعن علي وتلصق بهم لعن الشيخين بل تجعله من أركان مذهب استناداً على كتاب وقع في يدك مجهول المؤلف لا يعرفه أكثر أبناء الشيعة بل

هو من غلاة العجم الذين اغرقوا في تشيعهم كما كانوا قبل في تسننهم لانهم لا يعرفون الاعتدال .

« وإذا كان في غلاة الشيعة من يقول مثل هذا القول فكيف تقذفهم كلهم بهذه التهمة وما بالك تفرهم بقذف امهات المؤمنين ولم يقل بذلك قائل منهم حتى من غلاتهم لانهم بتطهيرهم امهات المؤمنين انما يطهرون حرمة رسول الله الذي يقدسونه ويعصونه عن كل ما يشينه حتى من كل ما ينافي المروءة وعن المعاصي كيوها وصفيرها قبل النبوة وبعدها بل هم ينزهون زوجات الانبياء كامرأة لوط وامرأة نوح عن مثل هذه الوصيات وان كن مشركات ومع ذلك يتهمون بغياً وافكاً بقذف ام المؤمنين التي طهرها النص الصريح في القرآن الكريم من الافك وها أنت تذكره ياسيدي في كتبك دون ان تشك فيه ثم تنشره على المأ العربي كحقيقة مسلمة !! »
« وانه تعلم ان في الفرق الاسلامية من يحب الشيخين ويسب الصهرين ولم تتعرض لتشييرهم كما تعرضت للشيعة فلم ولماذا ؟ لأنك تأثرت باقوال من يرمي الشيعة بكل شنيعة تبعاً لسياسة وقتهم أو لاهوائهم عن حسن ظن بهم ولم تلفت الى تمحيص ما قالوا بسماعك دفاع المتهم عن نفسه إذا نظرت في كتبه المبعثرة .

« ان التنازع السياسي القديم الذي أدى الى هذا التناحر الطائفي الذي جرت به سياسة القرون الوسطى هو الذي اسس في نفوس كثير من علماء الطائفتين كره احدهما الاخرى وكثر الاقتتات والافتراء من احدهما على الاخرى ودارت رحى الجدل دوراناً كان ثقلها مجد الأمة وعزها فوهنت قوتها واستباح حماها الأعداء من كل جانب وانتقصت بلاد المسلمين من اطرافها وضاع استقلالها » .

وقال الشيخ سليمان معلقاً على قولي : قلت ولشيعة المسعودي مدخل كبير في آرائه لان من جوزوا الكذب على مخالفينهم وغلوا في حب الطالبيين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق وان المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم لا يؤمنون على التاريخ ... الخ

« ولا أراك وقد نفذ السهم^١ واندفعت بهذا التعبير بعامل العاطفة وجرى قلمك بما جرى الا وانت راجع الى وازع لبك نادم على ما فرط عالم وما طرق العلم عليك ببعية بما يعتقد الامامية من الشيعة والشيعة فرق كثيرة ومنهم كثير من الغلاة ، مالا يخالف روح الاسلام .

« حاش الامامية ان يجوزوا الكذب على مخالفهم والكذب حرام باجماع المسلمين وحاش أن تعتقد فيهم الخروج منه وهم من احرصهم على تمحيص الحديث والاخبار وكتبهم في الرجال وفي علم الدراية وما انطوى عليه من تنويع الاخبار وتخصيص اسماء المطعون فيهم بالذكر في كتب الرجال كل ذلك من متناول الباحث .

« والامامية لا يعتقدون الكمال المطلق لائمتهم ولا لأحد من النبيين والمرسلين وهو الله وحده ولا يرونهم فوق البشر وهم معتقدون ان النبي وهو أفضل الخلق ما كان الا بشراً رسولاً ولا كانوا من الغلاة وهم يبرؤن منهم ومثل ذلك براءتهم من أن المعاصي حلال لهم حرام على غيرهم وهم يعتقدون كاخوانهم اهل السنة والجماعة ان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرام محمد حرام الى يوم القيامة وان اعتقاد مثل ذلك خروج عن الاسلام ومعتقد كافر بالاجماع .

« وهل للاستاذ حرسه الله ان يدلنا على مصدر من مصادر الامامية يؤيد دعواه هذه التي نبرأ الى الله منها وهل من يعتقد عصمة الامام عن ارتكاب صفات الذنوب وكبائرها لتسكن النفوس الى أدائه رسالة الاسلام حق أدائها يعتقد ان له ان يغير ويبدل احكام الله ، فيصير الحرام حلالاً والحلال حراماً .

« ان المسلمين سنيهم وشيعيهم عنوا اكمل عناية بضبط الحديث وتنويعه وبتراجم رجاله وبتعديل العدل وتوثيق الثقة وتجريح المجروح وما الى ذلك مما يتعلق بالاحكام ولكنهم تساهلوا فيما يرجع الى المناقب والمثالب والاخبار وكان من أثر هذا التساهل ما لم يسلم من الوضع والوضاؤون كثر سواء أكانوا من بعض فرقهم والغلاة منهم خاصة ام من الداسين من

الاعداء لالقاء بذور الفتنة والفرقة بين صفوف المسلمين وهو ماندعو الى ملافاة خطره محدثي الفريقين لتحيصه . وفي اعتقادي ان التوفر على اداء هذه المهمة هو من اوصل الطرق الى التقارب بين ابناء المذاهب الاسلامية الذي يعمل له رهط صالح من خيار المسلمين السنة والشيعه الامامية والزيدية في دار الاسلام (مصر العزيزة) .

« واني لاناشدك الله والاسلام وهو على مفترق الطرق وفي زمن احوج فيه من كل زمان الى الالفه والروثام ان تكون في الصف الاول ممن يدعو اليها ويمهد السبيل لازاحة كل مايعترض سيرهما القويم » .

هذه نبذ من كتابين للصديقين العزيزين وانا اقول حبذا لو كانت الشيعة كلهم على هذا الاعتدال .

وقال صديقنا السيد محسن الأمين من أكبر مجتهديه في هذا العصر : وعمدة ماينقمة غير الشيعة عليهم دعوى القدح في السلف أو أحد من يطلق عليه اسم الصحابي ، والشيعة يقولون ان احترام اصحاب نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من احترام نبينا فنحن نحترمهم جميعنا لاحترامه وذلك لايمنعنا من القول بتفاوت درجاتهم وان علواً عليه السلام احق بالخلافة من جميعهم . وقال ان ما يخالف فيه الشيعة غيرهم هو من الامور الاجتهادية التي يجوز فيها الخطأ وليست من ضروريات الدين ولا من اركان الاسلام مثل مسألة الامامة ورؤية الباري تعالى يوم القيامة وان العباد مجبورون على افعالهم وانكار الحسن والقيسح العقليين وخلق القرآن وان صفات الله غير ذاته ودذه هي عمدة المسائل المختلف فيها بين الاشاعرة والشيعة والمعتزلة ويجوز ان يكون الحق فيها مع الشيعة أو المعتزلة إذ للنظر والرأي والاجتهاد فيها مجال ولا يجوز فيها التقليد .

وقال مخاطباً الشيعة : وأنتم أيها الاخوان الشيعيون عليكم ان تعملوا بما أمركم به امامكم امام أهل البيت جعفر بن محمد الصادق من التجب الى اخوانكم أهل السنة من زيارتهم والصلاة في جماعاتهم وتشيع جنازتهم وعبادة مرضاهم وتجنب كل ما يوغر صدورهم .

يقول ابن حزم في الاحكام ان الروافض ضلت بتركها الظاهر والقول بالهوى بغير علم ولا هدى من الله عز وجل ولا سلطان ولا برهان فقالت : ان الله يأمركم ان تذبحوا البقرة ان هذا ليس على ظاهره ولم يرد الله تعالى بقرة قط انما هي عائشة وقالوا الجبت والطاغوت ليسا على ظاهرهما انما هما أبو بكر وعمر . قالوا واوحى ربك إلى النحل ليس هذا على ظاهره انما النحل بنو هاشم والذي يخرج من بطونها هو العلم .

قال العلامة موسى جار الله كبير علماء روسيا وشيخ الاسلام فيها : « وفي الكافي والتهذيب والوافي من كتب الشيعة لعنات على أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعلى العامة (أهل السنة والجماعة) وهم كل الامة ، وللشيعة ادعية مأثورة في لعن الصحابة . ونقل عن الوافي ان الامام لم يدع احداً ممن يجب ان يلعن الا لعنه وسماه وأول ما بدأ بأبي بكر وعمر وعثمان (؟) ثم مر على الجماعة ولعن الكل وللباقر والصادق دبر كل صلاة مكتوبة اوراد لعنات على أربعة من الرجال منهم أبو بكر وعمر وأربع نساء منهن عائشة وحفصة . »

« وتقول الشيعة ان الناصب حرب لنا وماله غنيمة لنا والناصب عندهم من يعتقد بامامة الصديق والفاروق . يقول الصادق : خذ مال الناصب حيث وجدته وادفع اليها خمسة . والشيعة على ما في كتبهم يكفرون جميع الفرق الاسلامية ويقول الامام في ائمة المذاهب الاربعة : لا تأثم ولا تسمع منهم لعنهم الله ولعن ملهم المشركة ! وكل آية نزلت في الكفار ارجعتها الشيعة إلى الصديق والفاروق ومن اتبعهما . »

قال جار الله : وأول شيء سمعته وأكرهه شيء انكرته في بلاد الشيعة هو لعن الصديق والفاروق وأمهاة المؤمنين السيدة عائشة والسيدة حفصة ولعن العصر الأول كافة في كل خطبة وفي كل حفلة ومجلس في البدء والنهاية وفي ديباج الكتب والرسائل وفي ادعية الزيارات كلها حتى في الأسقية ما كان يسقى ساق إلا ويلعن وما كان يشرب شارب إلا ويلعن وأول كل حركة وكل عمل هو الصلاة على محمد وآل محمد ولعن الصديق والفاروق وعثمان الذين غصبوا حق أهل البيت وظلهم .

قال قلما تقام جمعة أو جماعة في بلاد الشيعة وليس فيها قاريء للقرآن ولا حافظ له وإن من الشيعة من يعتقدون أن القرآن سقطت منه أشياء أهقلنا ومن الأسف أن يصير التشيع إلى ما صار إليه عند المتأخرين وقد أتى أكثره من سخافات الدول الفاطمية والبويهية والصفوية ومن دول الهند العادلشاهية والنظامشاهية والقطبشاهية .

وكان في دمشق على عهد الدولة الفاطمية يطاف على الرجل وهو على الحمار وينادي عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ومنعت الدولة من التكني بأبي بكر . سمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبي القاسم العلوي في مرضه الذي توفي فيه فإذا هو قد حوّل وجهه إلى فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعديلا واسترحما فرحما .

ودخل عليه بعض أكابر الدولة من الديلم فسارده الديلمي بشيء ، فقال له متضرعاً : نعم وأخذ معه في كلام كأنه مدافعة فنهض الديلمي فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، وأقبل على من في مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمي فقالوا لا ياسيدي فقال : قال بيتن لي هل صحّ إسلام أبي بكر وعمر قلت : رضي الله عنهما . هذا رأي عظيم من أكبر عظماء الشيعة في أبي بكر وعمر ، وقال العلامة آل كاشف الغطاء من المتأخرين في كتابه أصل الشيعة وأصولها إن علياً رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين (أي أبا بكر) قد نصح للإسلام وصار يبذل جهده في قوته وأعزازه وبسط رأيه على البسيطة وقال إن علياً حين رأى أن المتخلفين - أعني الخليفة الأول والثاني - بذلا أقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح ولم يستأثروا ولم يستبدوا ، بايع وسالم .

وكان المصلح الإمام جمال الدين الأفغاني ينفر من قول سني وشيعي ويقول : لا موجب لهذه التفرقة التي أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة فقد أخرج الذين أهوا علي بن أبي طالب من الإسلام لأنهم ضلوا ، أما المفضلة والغلاة في محبة أهل البيت فقد دخل الاثنان تحت حكم من قال يهلك فينا أهل البيت اثنان محب غال وعدو قال . وتوسع في ذلك وما آل إليه من الضرر واقنع السنيين والمتشيعين بالبرهان ، وهذا رأينا .

بيبي وبين الاستاذ الخوري

كنت منذ أيام أنبش جميعتي فظفرت بعدة رسائل ارسلتها الى صديقي فارس الخوري منذ خمس واربعين سنة . وكنا اذا اجتمعنا بعض الايام نقضي ست عشرة ساعة معاً نطالع خلالها ونكتب ونتحدث ونتنزه ونأكل . فرأيت أن آخذ هنا بعض صورها لاستدل منها على تصوراتنا في تلك الحقبة من العمر .

أراك تعجب كثيراً^(١) ببسالة أهل اليابان وشدة تفانيهم في الذود عن حياض وطنهم وما هم على التحقيق إلا مثال لحال أمة نشأت على العلم النافع وريبت التربية الفاضلة واني وان اعتقدت اعتقاد مكاتب التيمس أن لمذهب اليوشية دخلاً كبيراً في غلبة سكان المملكة المشرقة فاننا لا أفتأ أقول ان كل أمة اذا لم يكن في تعاليمها ما يدعو الى الوفاء وضعف النفوس والزهد في العلوم يكون شأنها شأن اليابانيين .

لا جرم أنك توافقي على أن أسلافنا العرب كانوا كسكان اليابان في جلاذتهم ونجادتهم فكان الفرد منهم يقاوم عشرة على نحو ما ورد في الكتاب العزيز « يا ايها النبي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَانْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . » هذه الآية قام العرب بمضمونها بالفعل فقصوا على مملكتي فارس والروم على قلة عددهم وعددهم .

ولا بدع فالامة الحجة لاتشبه الميتة ، وذلك البدوي القح - الذي عاش بعيداً عن السفساف ونما مع الطبع نحو الاجسام الحية القوية متخلياً عن رفاهة العيش وقد علمه دينه أن وراء هذه الحياة حياة ثانية طيبة

(١) لصديقي فارس الخوري ملحمة كبرى مطبوعة في وصف الحرب اليابانية الروسية كتبها بحرية فرساً أناساً وأساء آخرين .

فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الأعين إن عاش بعد الزحف عاش سعيداً وإن مات مات شهيداً - ذاك البدوي لا يشبه ذاك الفارسي والرومي الذي أسرف على نفسه وأمات الاستبداد عواطفه واسترسل الى الجبال . شتان بين جيش يقاتل جنده الجاهل مدفوعاً بعوامل الشهوات مسوقاً بقوة السياط والعصي مسخراً لامر زعمائه لا يدري ولا يحق له أن يدري الى أين يسير وجيش يكاد رؤساؤه ومرؤسوه يعرفون ماهية الحياة وضرورتها معرفة محكمة حكيمة يمشون عن رضى ليدافعوا عن بلاد لهم حصة من خيرها ويلحقهم قسط من شرها تالله لا يستوي الاعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور .

كانت ايام العرب في عدائهم بما تبيض له الوجوه ويحق لهم ان يرفعوا بذكره رؤوسهم . وكانوا كيابان الآن اذا زحفوا الى العدو يخاطبهم اميرهم خطاب من لا يرجع ويوصيهم ان يسلسوا القيادة فيهم الى عشرة او اكثر اذا قتل قائدهم واميرهم . وما اظن طوغو وكوروكي وكاميسورا اعظم بشجاعتهم ودربتهم من خالد بن الوليد وقتيبة بن مسلم وطارق بن زياد . واذا قابلت بين هؤلاء الرجال فلا يغرب عنك إن للبقاع تأثيراً في الطباع ، فمن عاش في ديار العرب بعيداً عن العلوم الحربية يتعذر أن يضاهي من خلق وسط العلم في قرن كهذا ومن ابن لابن القرن الاول للهجرة ان يكون كابن القرن العشرين للمسيح .

* * *

كان لحشد الجنود في رومية قوانين مقررة ولما زحف القائدان بروتوس وانيبال على المملكة الرومانية دعت جمهورية رومية للدفاع عن حوزتها جيشاً من رعاع القوم ومن الزعانف واهل الدعارة وكانت تعاقب الأتباع من الزحف بعقوبات شديدة وكثيراً ما كانت تقتلهم في ميادينها . ومن ملوك أوربا في عهد النصرانية من كانوا يعفون من الجندية وصفاءهم وخدامهم ورجال الدين ، ولما اخترعوا القرعة لتجنيد شعوبهم كان الناس يحتالون للخلاص منها بالدخول في سلك الرهبنة والأخويات فراراً

من لبس صدر الجندي وسراويلاتها ومعاطفها ، يستعوضون عنها بثوب اسود وقلنسوة وجبة وغيار فكان من يقرون من الجندي يؤثرون حمل الصليب على نقل البندقية فتكون ثياب الاحتيال بمثابة ألبسة لهم رسمية . حال تشبه حال بني قومنا اليوم الذين يسجلون على انفسهم الكذب ويدعون فراراً من لبس طربوش الجندي انهم ممن انقطعوا للعلم الشريف او ان والدانهم مطلقات وهم قائمون على اعالتهم ويعتذرون اعذاراً باردة يعرفها من تقال لهم .

خطب وزير الحرب على عهد لويز السادس عشر خطبة القاها بأمر ملكه على رجال الجيش خلال حرب السبع السنين وهي الخطبة التي انتقدها الفيلسوف فولتر قال الخطيب : إن في الديار التي تساقون اليها اليوم ما تشتهي انفسكم من ذهب ولؤلؤ وماس فالطرقات بها مبلطة مرصوة والاحجار الكريمة مبدولة بحيث لا تحتاجون إلا الى ان تمدوا ايديكم اليها وتتناولوها . دعوا عنكم ما هناك من قهوة وليمون وبرتقال وقشدة وألوف من الفاكة اللذيذة النضيجة ومنها مالم يغرس كأنها في جنة ارضية . الى ان يقول : فايكم ان تسمعوا ان يصدونكم عن سبيل الحرب من آباءكم وأمهاتكم وخصوصاً أمهاتهم فان البرابرة لا يأكلون الاوربيين ليجعلوا اجسامهم اداماً لحزهم القفار فمثل هذه الحشونة كانت تجري على عهد خريستوف كولمبس مكتشف اميركا وروبنصون كروزي الذي قذفت به الانواء إلى جزيرة مقفرة واحسن استخدام الطرق ليعيش ما امكن وينال حظاً من السعادة في وحدته فان البرابرة اليوم هم غيرهم امس وهم على الجملة اصدق خدمة للاوربيين واخضع العالمين في الارضين .

وانا اعلق وأقول إن الجندي ايأ كان جنسه ونخلته لا بد له من طعام يقات منه ولباس يقيه لافح الحر ونافخ القر ونفقة تدفع عنه عوادي الحاجة . وسواء وجد الجندي في القاصية او الدانية في الشرق الاقصى او الادنى في جنوبي اوربا او في جنوبي بلاد العرب في رأس الرجاء الصالح أو في الاسكندرية لا غنية له عما يحتاج اليه البشر . فاللهم اصلح قوماً يأخذون

الضرائب والمكوس باسم جنودهم ولا يفيضون عليهم منها إلا ما يكاد يحفظ عليهم رمقهم الاخير .

سقام بلا براء ضلال بلا هدى اوام بلا ريّ دم لا بقيمة
هذا والجندي الياباني قليل النفقات بعيد عن الكماليات والجندي
الروسي متوف مرفه وستان بين المتخوشن والمتنعم .

جسرين في ٢١ شعبان ١٣٢٢

و ٣٠ تشرين اول ١٩٠٤

ومن كتاب : انتشر وباء البقر في مصر هذه السنة فنقق به نحو مائة وخمسين الف بقرة وثور وتسامح من وكل اليهم الحجر على واردات مصر فانتشر في سورية كما انتشر الوباء البشري منذ سنتين آتياً من مصر ، تنبأت بحلول هذا الضيف الثقيل عندما قرأت اول الاخبار ، كما تنبأت بان الوباء تسري عدواه الى سورية عندما أصيب به ناس في موشا من بلاد الصعيد في صيف سنة ١٣٢١ . وفي كلتا الحالتين صدق ظني وصحت كهاتي .

وعجيب لعمرى حال مصر والشام فانها أبدأً مشتركتان في البأساء والنعماء إن لحق بالاولى شر شاطرتها اياه الثانية وان اصابها خير تستفيد منه وما زلت أفكر في حال الفلاح وما أصابه هذا العام من نقص في الغلات والثمرات للجفاف وقلة الري ، وأطرق ملياً عندما لا أجد في هذه المزرعة واهلها يتجاوزون ستمائة نسمة (اهل جسرين اليوم ١٣٠٠) من بلغته أخبار الوباء وفتكاته في القرى التي هي من هذه المزرعة على نصف ساعة ، ولا أرى حولي من يحاذر بما احاذره من تهديد الوباء لما ربه من ثيرائه فكانت عنده او كادت اعزّ عليه من ولده ، ولا بدع اذا استراح جسم من كان هذا مبلغ عقله فالعقل عقال لصاحبه .

نعم ان الفلاح وأنا منهم ليحب بهائمه حباً جمّاً ويكاد يؤثر لو قطع عنه طعامه وشرابه ولم ينقطع عن ماشيته العلف والمرعى ، ولطالما رأيت بعض الأكثارين والحراثين ينامون في المعالف ليكونوا على مقربة من حيواناتهم يتعهدونها في الليل بالسقي والعلوفة تعهد الامهات أولادهن .

شعور تلبست به ولا خجل من الحق منذ شغلت نفسي بالفلاحة فتراني
ابداً انقبض اذا شهدت ثيراني جائعة وملوثة قدرة وعلى العكس أطرب
وأسر واني لأوثر دخول الزريبة لارى بهائي على دخول قصر فخم
اسمع فيه ما لا يروفتني وأرى فيه ما ينغص عيشي ، واختار نشق رائحة
السرقين على ما هناك من المشومات والرياحين ، واوصي اجراء الدواب
اكثروا من عهدت اليهم بتربية اخوتي من المعلمين ، ذوق غريب مضحك لا تجادلني
فيه بالله عليك ، ولقد كان نصيبك مثله لو بقيت في مسقط رأسك ولم تخرج
من طور السياسة البقرية الى دور السياسة البشرية .

جسرين : ١٤ رمضان ٣٢٢

٢١ تشرين الثاني ٩٠٤

من كتاب : ان هذه العوائد أليق بربات الحجال منها بالرجال وبصغار
الأطفال امثل من ارباب اللهى والسبال ولقد قضيت مع استاذنا الامام الحكيم
الطاهر فرصة من الدهر احاطت بعمر خمسة نهر بلباليها كانت عالمنا في
إصباحها وإمسائها يتلو على مسامعنا ما يقذف به واسع صدره من علم نافع
نصوغه قلائد لاعناقنا شكراً لفضله مدى الزمن وكانت احاديثه علي وعلى
من تكرم بزيارتي من اخوان الصفاء مغنية عن سلافة النديم مسلية عن
نعمة العود والصوت الرخيم وكنت منها في مقام كريم بين روح وريحان
وجنة نعيم . دمشق ٦ شوال ٣٢٢ و ٣ كانون الأول ٩٠٤

من رسالة :

أيها الجيب

كتابي اليك عن سلامة وشوق عظيم وعتب طويل عريض . والغالب
ان رواج سوق « المعايدات » وارتفاع كلمة « التشريفات » والظهور في
مظاهر الابهات وتضييع الأوقات في التحيات والدعوات وكل ماتصرف
على هذه القاعدة من الترهات قد حالت هذه الأيام بينك وبين كتابة سطور
تبعث على الطمأنينة من ناحيتك . وعجيب من حال هذا الدهر في ابناؤه

يريد لقاءنا من نكره لقاءه ومن نحلم بطيب لقائه تقتر نفسه اختياراً أو اضطراراً عن لقاءنا وما أنت وأنا على كل حال الا كما قال الشريف الرضي لأبي اسحق الصابي .

لقد تمازج قلبانا كأنهما تراضعا بدم الاحشاء لا اللبن
انت الكرى مؤنساً عيني وبعضهم مثل القذى مانعاً عيني من الونس
واني كلما فتشت قلبي فرأيت لك فيه الحب والوئام اضحك من عقول
الرؤساء السخفاء ممن همهم تقريق ما بين اجزاء القلوب ومباعدة مدى التحام
النفوس كأن بني آدم خلقوا ليتخالفوا لا ليتآلفوا . شنشنة قديمة اشتدت
وطأتها بحكم الجهل وما أزال اغباشها غير نور العلم فأخذ الناس والمتعلمون
منهم خاصة يرجعون إلى العصور الأولى في الاسلام ويقرأون في تاريخها
دروساً نافعة من ائتلاف البشر على اختلاف الأديان والأجناس ،
ألا حيا الله زمناً كان خلفاء بني العباس يعاملون الرومي والسرياني
واليهودي معاملة المسلم السني ، وهكذا الأمراء ومن تلامهم من سائر
طبقات الناس كانوا يتعاملون معاملة الاكفاء مهما تباينوا في المعتقدات .
اثبات المثبت كالكلام المفروغ منه أو كالحديث المعاد

وبعد فاني ما رأيتك وخطر ببالي انك تخالف لي في المذهب ، ومن
غذي بماء واحد ونشق هواء واحداً وعلم علماً مشتركاً كان أقرب الى الاتصال
ممن تخالفت بيئاتهم وتناوت أقطارهم وافكارهم وان الياباني العالم على وثنيته
لأقرب الى قلبي من ذاك الذي لا تجمعني واياه غير كلمة الشهادة وبخالفني
في مذهبي ومشربي وعقلي .

وقلت من كتاب له : فإن اقل ما فينا من عيب اننا نعمل فيما لم نخلق
له ونحاول النفع فيما فيه التلف .

كدود القز ينسج ثم يفنى بمرکز نسجه في الانعكاس
انت وانا نعد من القوالين لا الفعالين ومن المضيعين لا الجامعين ومن
الهادمين لا البانين . أنت وانا كمعظم ابناء المشرق نضيع بدراناً من اجل
دريهمات بل بيدراً من اجل حبات ونحترق نهرأ في سبيل قطرات ولا نحسب

حساب العمر حباً براحة ساعات ويعز علينا التخلي عما نحن فيه من الامور
التافهات ولو ازلنا من الباقيات الصالحات ، انت وانا في غفلة عما يراد
بنا وعما اليه سائر ونحاول النفع من الضر والسعادة من الشقاء والغنى
من الفقر والحياة من ميت والنهوض من مقعد والبصر من اعمى والسمع
من اصم . انت وانا اليوم في الثلاثين من عمرنا قضينا اربعة اخماسه
في الدرس وتربية النفس فأين ما قمنا به من عمل رافع . اضعنا انضر ايام
الشباب في الاستعداد واستجماع القوى فاين ذاك الاستعداد وهاتيك القوى .
لو كنا نقول بالتناسخ وان لنا عودة الى هذا العالم السفلي لكأن لنا
تعزية عما ضاع من فقد الاعمار ولا يرد الفائت الحزن . نعم ان ما نحن فيه باطل
اذ العلم اس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل . قال رجل لرجل يستكثر
من العلم ولا يعمل : يا هذا أفنت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل .

فعلام ان لم أشف نفساً حرة يا صاحبي اجيد حمل سلاحي
انت وانا اعتدنا ان ننقد ما لا ينطبق مع العقل ونؤاخذ على كل
عمل لم تتخذ اسباب إجادته فهلا عدلنا عن هذه الحطة واشغلنا بعيوب
انفسنا عن النظر في حال غيرنا . انت وانا ليس من حقنا ان نعتب
على الفلك او نسيء الظن بالقدر بعد ان ايقنا بان عزائمنا خارت وارادتنا
ضعفت حتى اصبحنا نعد في غلاة القدرية او الجامدين الحشوية الجبرية ، فأين
ما يورثنا المحمدة من الأعمال الصالحة ؟ هل نشرنا بين الملائكة كتاباً او
رسالة ينتفع به اهل جيلنا وقبيلنا ؟ هل أعدنا ناشئة تخرجوا بنا ونشربوا دعوتنا ؟
هل خطبنا القوم خطبة قوم عوباً وفتحت منهجاً . نبغ من مشاهير الساسة
والعلماء في العالم من لم يبلغوا السن التي بلغناها فهلا كان لنا من سيرهم مما زيستحقنا
ودافع واعظ يزجرنا . فان كانت غايتنا من الحياة ان نستمتع بما يستمتع
به سائر اصناف الحيوان فان معظم سكان الارض يفضلوننا من هذا الوجه
وان كانت بغيتنا ان نوثر اثرًا ونحني معلاً ونشيد مجدًا فالطريق التي نحن
آخذون فيها لا تؤدي الى المقصد ولا تنتج إلا الندامة والحسرة . كل يوم
من ايامنا اليوم يوازي شهراً من ايامنا زمن الشيخوخة ، واعمارنا نهب أيدي

الدهر صائرة الى ذبول لا الى نمو فهنئاً لنا إذا سعيناً منذ اليوم الى اختيار
الاحسن لنا في المغبة واغتنمنا الصحة قبل السقم والشباب قبل الهرم .
هذا واذا توكأت على ما يتوكأ عليه الجبناء والضعفاء من الحجاج الواهية
كدعوى فساد البيئة وقلة الاسباب فأقول لك كلمة اجعلها واجعلها
انا نصب العين ودرس عبرة كل حين وهي اننا اذا عملنا والظروف كلها
خادمة موالية فاي فضل لنا ، بلى يتجلى عمل العامل اذا احسن التخلص
وهو وسط المعمة والحظر محقق به من كل جانب والاسباب تخونه
وتسلمه . وعلى امـل أن القاك اكتفي الآن بهذا القدر من خطابك
والسلام عليك . جسرین في ١٣ ربيع الاول سنة ٣٢٣

و أيار سنة ٩٠٥

مدرسة الجمال

سمعت في مصر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مجلس من مجالسه
الغاصة بالفوائد سنة احدى وتسعمائة والـف ، وقد جرى ذكر رأس المصلحين
في الاسلام السيد جمال الدين الافغاني أن الاستاذ الامام لاحظ يوم أن
كانا في باريز أن صديقه وأستاذه يتغيب عنه كل يوم ساعتين في وقت
معين ، وكانا من قبل يتصاحبان لا يفترقان ، فبحث عن سبب تغيبه فثبت
عنده ان السيد يختلف الى بائعة زهور عليها مسحة من الجمال . قال فلم
اجراً لمكان السيد من نفسي أن أسأله عن سر هذه الزيارة المريبة ، فقلت
لعل الشيخ أخذ يتصابي ، وهو الذي لم تعهد عليه صوة وما حفظ عنه
الا الجدل في كل أموره . قال وما لبث هذا الشك في سيرة الشيخ ان
انقشع وأصبح بعد ثلاثة اشهر يتكلم الفرنسية بطلاقة . وتبين ان ذوق

الافغاني العالي هو الذي الهه ان يتخذ معلمته سيدة بارعة الجمال يحمل عنها لغتها بالعمل امام اصص الزهر وطاقات الورد والجو العطر ، وآثر جمال الدين ان يتصل بجمال الدنيا في اروح مدرسة للنفس .

طريقة جديدة في تلقف اللغات تنسي الدارس صعوبتها وتحفزه الى جمع قواه بامتاع حواسه . فعسى ان يجرب رجال التعليم في مصر والشام والعراق هذه الطريقة المبتكرة في تلقين اللغات فيكون المصلح الافغاني الفضل على الشرق في حياته وبعد بماته .

اصباغ النساء

أولع النساء منذ أزمان طويلة بصنع وجوههن بأصباغ يعتقدن أنها توثرهن جمالاً . وكان الرجال في دولة الرومان كثيراً ما يجذون حذو النساء ينتفون شعورهم ويحفون لحاهم وشواربهم ويصبغون وجوههم بالأبيض والأحمر والأصفر ويكحلون عيونهم ، يستعملون لذلك المواد المعروفة في تلك العصور ، ويصرف النساء والرجال وقتاً غير قليل في اعدادها وساعات في الطلي والتزين .

وبالغ الغربيات في العهد الاخير بصنع وجوههن بالأبيض والأحمر ثم عدن يبالغن بصنع شفاهن بالحمرة ، وما لبث النساء الشرقيات ان نسجن على منوالهن وافرطن في اقتباس هذه العادة ، لما وقّر في النفوس من أن الغربيات ارقى حضارة من الشرقيات ، والمنحط خليق بالأخذ من الراقي .

وما اكتفى الشرقيات بتحبير خدودهن وشفاهن بل اقتبسن من الغربيات عادة اطلاق اظافر أيديهن وطلبيها بالحمرة . وترقى فن التجميل عند النساء والرجال على ماهو المشهود في مسارح التمثيل ومشاهد الصور المتحركة . ونسي النساء ان تغيير الألوان الطبيعية قد يورث الجنس

اللطيف بشاعة ، والاصباغ على الجملة تضر البشرة وتغضن الجلد قبل الاوان والجمال في السذاجة لافي التكلف .

وهذه الاصباغ وما يتبعها تؤذي الصحة وتؤذي الجيوب ايضاً لما ينفق فيها من اموال قد لاتبالي الدول الكبرى كبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بانفاقها ، وهي اكثر الدول اسرافاً في الأزياء والاصباغ ، ذلك لان اكثر ما يصرف عندهم يصنع في أرضهم ويعود ربحه على معاملهم أما الأمم الضعيفة فانها تتأذى من مثل هذه النفقة لانها لاتحسن صنع الاصباغ ، ولا شيئاً من الازياء الحديثة ، وكأها أو اكثرها مما تجلبه من غير أرضها وتخرج اثمائه من ثروتها .

كان الناس في الدهر الغابر اذا اراد سادتهم ان يغيضوا اليهم أمراً يسوقون رجال الدين لارشاد العامة الى خيرهم ، أما الآن فمن يتصدى للوعظ ، والفقهاء المشايخ في مقدمة من قبل نساؤهم هذه العادات الضارة لايختلفن عن أكثر الموغلات بالحضاب والتفنن بالأزياء ، يقدمن على ذلك راضيات حتى لا يوصمن بأنهن عدوات المدنية .

حدثني أكبر أعيان دمشق في جيله أن نساء احد الفقهاء زارت أوسرته في بعض الأيام التي كانت فيها الدعوة مشتدة في وجوب مقاطعة النساء الاثتزار بالجبر والاستعاضة عنه بازر بيضاء ، فرأينهن يلبسن أحدث الازياء وكان صاحب بيتهن هو الداعية للبس الازار الابيض ، وجعل الاكتساء به من الدين ، حمله على الجهر بهذه الدعوة أنه كان في حانوته من هذه الازار مقدار عظيم أصيب بالكساد فرأى تزوين لبسه للنساء من طريق الدين ، وحث ازواجهن للعدول عن الجبر الاسود وغيره ، ولما أباع ما عنده خفت بل ضعفت الدعاية للبس الازار .

قلت لمن استغرب تشدد أهل نجد في استعمال التدخين ، وحظر مشايخهم عليهم من طريق المذهب استعمال الدخان على اختلاف أصنافه : لاتستغربوا ضيعهم هذا فإن القوم هناك يدققون في تقدير دخلهم وخروجهم

ويدرّكون انهم اذا سمحوا بدخول الدخان أرضهم وهي فقيرة يخسرون كل سنة مبلغاً عظيماً من دخلهم ويجلبون الى ابنائهم ما يفسد صحتهم وتفرغ به جيوبهم .

من المتعذر في الاقطار التي يغلب عليها اقتباس كل ماتراه جديداً (كمصر والشام والعراق) ان يرد النساء قانون مادام القائمون على التنفيذ اسبق الطبقات الى نقضه ، وما بلغ النساء عندنا درجة من العقل تؤهلن الى ان ينبذن من تلقاء انفسهن مثل هذه البهرجات الضارة .
وما يسر ما شهدناه في العهد الاخير من اخذ بعض العقائل والاوانس بالرجوع بعض الشيء عن الافراط في الزينة . وعدن بوازع من انفسهن يأخذن بعادة السذاجة في اللباس ومنهن من يبدين أسفهن على قص ضفائهن تشبهاً بالغربيات في جعل الضفيرة شبراً وكانت من قبل ذراعاً ، ابطلن الشعور المسترسلة على نحو ما بطل صبغ باطن الكف والقدمين بالحناء ، تنقش النقاشة النساء والصبيان والبنات كما يقص النساء اليوم شعورهن عند القصاصة ويفعلن ذلك أحياناً في حوانيت الحلّاقين والمزينين .



سخافة مؤرخ

شارل سنيوبوس من عظماء مؤرخي هذا القرن في فرنسا تعلم التاريخ وعلمه ستين سنة كما قال عن نفسه وما تحرر من لوثات التعصب الديني فقال ان رسول الله كان جباناً سوداوياً تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية ، كلام أقل ما يقال فيه انه ضرب من الهذيان لايقول به من له ادنى مسكة من العقل .

اخذ سنيوبوس عن تقدمه هذا الحكم السخيف على أعظم رجل قضية مسلمة ، ولم تحدثه نفسه ان ينظر فيما وصمه به اعداؤه نظر المؤرخ النقاد ، على حين كان في كتبه يميز بين الطيب والحديث في أقل المسائل التاريخية ، وترجمة النبي الكريم مااستحقت ان ينظر فيها النظر المجرد عن الهوى ساعة . لاجرم ان رأيه في صاحب الرسالة من الآراء التي لقتها في صباه عن رهبان من الصعب ان ينصفوا خصمهم ، ومنهم اليسوعيون وغيرهم ، والناس كلهم ماخلقوا فلاسفة يستميتون في قول الحق .

الشعوب اللاتينية من أشد الشعوب الغربية تحاملاً على الاسلام ، واذا شهدتم من يحكم العقل من أنبائهم في آرائه فأيقنوا أنه من الشواذ ، وانه درس في غير مدرستهم ، وتثقف بغير ثقافتهم ، وفتح الله عليه باباً من الفهم فصان قلبه عن الكذب ، وبرهانه من الخلط . وقد فطن حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام كبار علماء الانكليز السكسونيين خاصة ، وألقوا أصحاب رومية حجراً وكذبوهم وسفهوهم .

معلومات

لما استقبل صديقي الاستاذ علي عبدالرازق باشا في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة عضواً عاملاً خلفاً للدكتور علي ابراهيم باشا كان المعروف به أحد أعضاء المجمع وصيفي الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقام يعدد نواحي ثقافته وذكر ماله من أباد بيضاء على الأدب واللغة واغفل ذكر ما كان آية نبوغه الا وهو تأليفه كتاب (الاسلام واصول الحكم) وهو الكتاب البديع الذي احدث ضجة في مصر وقرر العلماء من اجله اخراج الاستاذ عبدالرازق من سلكهم ، اغفل السيد الخلاف ما يفخر به وصيفه وذكر له ما يشاركه في معرفته كثيرون في مصر وما أتى المرّحّب بما أتى الانزولاً على حكم السياسة ومراعاة لها . وعجيب ما حدث في الأول وما حدث في الآخر . فإذا كان حكم العلماء الرسبيين على ابن عبدالرازق صحيحاً يوم صدر كتابه في الخلافة كيف ساغ اليوم أن ينتخب عضواً في أعظم مجمع مصري . تناقض مالنا الا السكوت عنه



تميز الفقير

قلت ذات مرة للاستاذ المازني تعال معي الى وزارة الصحة أعرفك الى صديقي الدكتور علي فؤاد (رحمه الله) فقد يقصدك من ترى من المروءة معالجة اسقامهم فيكون لك من الدكتور النطاسي خير معوان . فلما دخلنا على الطبيب الجيب أوردت على مسامعه ما قلته للاستاذ المازني فقال : حقاً اني أحب الفقراء وقد جمعت من أموالهم مالاً قليلاً بارك الله لي به . وكان من عادتي اذا دعاني الأغنياء لأطببهم أنمّل وأتلكأ حتى يكرروا طلبي مرتين وثلاثاً . وهذه المناسبة أقص عليكم قصة وقعت لي لتعذروني في عطفي على الفقراء فقال : جاءني امرأة تصحبها ابنتها وكانت هذه ذات مسحة من الجمال الريفي فقالت لي : ان ابنتها خلفت ولدآ ، فأتسع على أثر الولادة مكان خروج الطفل بحيث لم تعد صالحة للرجال^(١) وان زوجها عزم ان يتزوج من غيرها . قال فأخذت بمعالجة الجزء المنفثق بالطرق الطبية المعروفة ومنها التخييط ، حتى تاكدت الفتاة من نفسها ان ذاك الجزء من جسمها رجع الى سالف عهده ، وتقدمت أمها وقالت لي هاك ثلاثة جنيهات ، وهي كل ما قدرت ان أجمعه لك ، فرددت عليها دراهمها ، وقلت لها اصرفيها على ابنتك . والتفت الى الفتاة مازحاً لها بقولي : نحن ياست مستعدون كلما انخرق ان نخيطه (وللتخييط معنيان المعنى المعروف والمعنى الآخر يعرفه العوام في مصر) فضحكت الام وابنتها وانصرفتا شاكرتين معبطين

(١) وقعت لنا خلال هذه المذكرات بعض معان أو الفاظ لا يقرنا على استعمالها بعض المتزمعين وما زلنا نستغرب انكارهم تدوين مثل هذه الامور ولا ينكرون ما ينشر كل يوم من القصص الغرامية الساظلة والصور المفرية الفاتنة في الصحف والمجلات والكتب كان هذا الأدب الذي يسمونه الأدب المكشوف يفتقر اذا كان للفن وما هو بفن بل هو الفتنة بعينها

ونشبت الحرب العامة الاولى بعد حين ، وعز وجود الحُبز ، لاتصل
الايدي اليه الا ببطاقات وفي ذات صباح قيل لي ان بالباب رجلاً يسوق
جمالاً يريد مقابلي ، وتقدم وعرفني بنفسه قائلاً انه زوج الفتاة التي اجريت
لها العملية المعهودة ، فحاولت أن أظهر اني لا أعرفها فقال الريفى ان معروفك
عظيم : وقيت الطفل الذي وضعته امرأتى من التشتت ، وصنت بيتي من
الحراب ، ووفرت عليّ مالاً كان لا مَعْدَى من صرفه في زواج ثان ،
فارجوك أن تقبل هذه الهدية التي لا تقبي ببعض أباديك عليّ . فسألت
الدكتور عن نوع الهدية فقال : كبسان من الخنطة وأوزة وخاروف
وصفيحة سمن وصفيحة عسل ، واستخبرته عما كانت تساوي يومئذ ،
وقدرت ثمنها ظناً بعشرين جنيهًا قال : كانت تساوي أكثر من ثلاثين .
وعندها أقسمت له أن هذا المعروف الذي أسداه للريفة لو كان زوجها
غنياً ما فكر فيه فضلاً عن أن يقابله عليه بمثله ، قال : لذلك أنا أحب الفقراء
وأعطف عليهم ، وأعتقد فيهم الخير ، ثم سأله وهل كان صاحب الهدية
موسراً ؟ قال أنا سألت هذا السؤال كان يملك بضعة فدادين فقط .

والله اعلم

اليهود في فلسطين

كتب إليّ هذا العام أحد المستعربين من علماء المشرقيات يقول :
والعجب العجيب في كل هذا أن وراء كل هذا التحاسد في الباطن (بين الدول الكبرى) اليد الطولى لليهود الذين انتشروا منذ الفتي سنة في العالم الحضري مثل القمل في البدن الصحيح وتعلمون كيف ثاروا في القرون الاولى على الروم في فلسطين في الحرب التي حصلت في الحراب الثاني للقدس وكذا في القرون التالية والآن هم في ايامنا يملكون في اميركا الذهب والاعمال المالية وفي روسية هم رؤساء كثير من الاشغال العمومية وكذلك حالهم عندنا - وانتم تعرفون ما يقع في فلسطين - لا يجسر وزير ولا مدير جريدة أن يلوم يهودياً في أي عمل عمله وكذلك وراء البحر المحيط . ومن المعلوم ان اخلاق اليهود في الأكثر فاسدة وهذا الفساد يحمل عداوة لا رحمة فيها وهم يملكون الجرائد والسينما والمواخير وما يشبهها حتى في الصين والبرازيل يجلبون الآنسات من الاقطار كما كانوا يتجرون بالخصيات والجواري في القرون المتوسطة . ولو نظرنا فيما يكتب هذه الايام في جرائد بلادنا بشأن المساعدات للبلاد التي افتقرت في الحرب ، لرأينا أن وراء كل هذا الحرص على الربح الفاحش اذ ليس في قلوب الذين يقدمون هذه المساعدات حبة من كرم الاخلاق وما غايتهم إلا الربح الزائد ، وكل هذا يملأ قلبي بالأس من مستقبل الامم وأنا أحمد الله على أني رأيت في شببتي العصر الذهبي الذي لا رجاء لعوده الى ان أرجع الى حياة أصليح من هذه .

اللهي والشوارب

في سنة ١٨٩٨ زار الشام الامبراطور غليوم الثاني الالماني فأعجب شبابنا بهندامه وتبرجه وهالهم حفه شاريه بحيث لم يبق من طرفيهما الا قليلاً غمرهما بعد فتلها بدهن مطيب وما هي الا أيام حتى اقتدوا به في شواربهم وعدلوا عن السبلات المسترسلة وكانوا يمشطونها ويرطلونها كما يمشط اهل اللهى لحاهم ، وبطل زى الشوارب على ما قدر الله وقضاه .

كان الناس يقولون على اللهى في العادة وتعلموا على الأيام حلقها ، اقتبسوه من الأتراك والافرنج والى القرن الماضي كانوا يستفظعون حلقها . ولما جاء السلطان سليم الى مصر ليضمها الى ملكه كما ضم الشام عجب المصريون منه ومن جنده وضباطهم ، لانهم كانوا يخلقون لحاهم ، واللهى عندهم تمثل الحكمة والتعقل وعلى ذلك كان ينظر اليها عند الكلدان والاشوريين والعبرانيين وقدماء فلاسفة الهند ، ومشى على آثارهم فلاسفة اليونان والعرب في الاسلام . في الحديث أنهمكوا الشوارب واعفوا عن اللهى ، وفيه : خالفوا المشركين : وفروا اللهى واحفوا الشوارب . ولما بعث باذان عامل كسرى على اليمن الى النبي عليه السلام رجلين من قبله نظر اليهما وقد حلقا لحاهما وشواربهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا قالوا : ربنا ، يعنينا كسرى فقال لكن ربي امرني ان اعف عن لحيتي وأقص شاري .

وما فتئ الحال في الشعوب الاسلامية والنصرانية والوثنية يختلف بين حف اللهى واطلاقها حتى عصرنا هذا ، وقد متع فيه كل انسان بحرية التصرف بلحيته يبقيا او يزيلها ، ومنهم من كان يقتصر على قبضة ومنهم من يبلغ الى قبضتين . ورأيت شيخاً من مشايخ الطرق أطلق لحيته حتى تجاوزت حد الحالين وكان موضع استغراب النساء والاولاد يلغظون فيه ويسخرون كلما رأوه . وكنت اذا وقع نظري عليها اذكر

لحبة ضياء الدين القزويني (المتوفى سنة ٧٨٠) وكانت طويلة جداً بحيث
تصل الى قدميه وما ينال الا وهي في كيس ، وكان اذا ركب يفرقها
فرقتين . وكان عوام مصر اذا رأوه قالوا : سبحان الخالق . فكان يقول :
عوام مصر مؤمنون حقاً انهم يستدلون بالصنعة على الصانع .
وبعد فالخطب سهل في لحي الرجال فما قولك اذا كانت للنساء لحي
ولحي طويلة . كنت قرأت في صحيفة افرنسية ان النساء في بعض
مقاطعات فرنسا - أنسيت اسم المقاطعة - تلبس لهن لحي كالرجال ، ورسمت
صورهن وكانت اقصر قليلاً من لحي شيخ الطريقة ذاك . فتأمل امرأة
بلحية تتجاوز القبضتين .

واللهي على الدهر عزيزة على من يطلقونها ، ومن شتم بلحيته فكأنما
شتم بأعز عزيز عليه . فقد أراد بطرس الاكبر قيصر روسيا ان يكره
شعبه على قص لحاهم فكاد يفقد عرشه ، ولما أمر أمان الله خان
ملك الافغان بجلق لحي رعيته فقد عرشه ، وعدوا عمله تعدياً على شرفهم . وفي
أدبنا أشياء في اللهجي ومن أجل ما قال ابن الرومي في هجو صاحب لحيه
ان تطل لحيه عليك وتعرض فالخالي معروضة للحمير
علق الله في عذاريك مخللة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها الي لطارت في مهب الرياح كل مطير



الجمع بين الثقافات

قالوا ان كل لسان بانسان أي أن لكل لسان ثقافة تخالف من بعض وجوها الثقافة الأخرى ، فاذا انضمت الثقافتان كان الكمال الذي يصعب الحصول عليه بلغة واحدة ، وانا اذا أمعنا النظر في تفكير من لم يتعلم غير لغته تجده مها بلغ من أحكام الثقافة متى جثته بأمر يتوقف على معرفة شيء جديد موسّع النطاق حائراً يشعر هو بنقصه كما يشعر به مخاطبه كأن هناك عالماً ما دخل فيه وأرضاً غير أرضه ذات حواجز يتعذر عليه تخطيها .

جرت عادة أكثر شعوب اليوم أن تدرس من اللغات ما يعوزها وعلى هذا كان العالم منذ أقدم العصور ، وكان في الدراسة الماضية كثير من الفوضى وفي دراسات اليوم نظام وتنسيق ، فالهولاندي يدرس لعدنا منذ الطفولة مع لغته الالمانية والانكليزية والفرنسية ، والروسي يدرس الالمانية والفرنسية ، والايطالي الالمانية والفرنسية ، والبولوني الروسية والالمانية والانكليزي الالمانية والفرنسية ، والفرنسي الانكليزية والالمانية وهكذا يأخذ كل شعب ما يعينه من اللغات على كسب رزقه وعلى مطالب أخرى ، وانتشار كل لغة على مقدار قوة سياستها واتساع تجارتها ورواج صناعاتها .

والأمة كيف كانت الحال لا تضرها قلة المتكلمين بلغتها بقدر ما يضرها جهلهم وتأخرهم ، فمن يتكلمون البرتغالية والاسبانية او فر عدداً ممن يتكلمون الفرنسية، والفرنسي ارقى ممن يتكلمون لغتي جيوانهم في أوروبا وجنوبي أميركا، والسويديون والنرويجيون والبلجيكيون والهولانديون والدانركيون والسويسريون والفنلانديون ارقى من أمم يعد سكانها بمئات الملايين كالهنود والصينيين والاندونسيين .

وعُني العرب منذ القديم بتلقف بعض لغات جيرانهم فمنهم من كان يتكلم الفارسية والسندية ، ومنهم من أختص بالرومية والتركية والنبطية والبربرية ، ومنهم من تكلم القشتالية واللاتينية وغيرهما من اللسان الرائجة ولما اقتطعت من جسم الهند العظيم في القديم أمارات اسلامية راجت فيها الفارسية والعربية ، ولما توطدت أركان مملكة فارس في العهد الحديث راجت الفارسية بين الشعوب التي خضعت لها من العرب والاكراد ، وكذلك شأنت التركية مع العناصر التي اندججت في الدولة العثمانية ، ولما انفصلت رومانيا واليونان وصربيا وبلغاريا والبايانشم بلاد العرب عن دولة آل عثمان نُسيبت في تلك الممالك لغة الترك في مدة قصيرة ، لان التركية ليست لغة علم ولا سياسة ولا تجارة ، واكثر من كانوا يتكلمونها من العناصر الاخرى غير التركية كانوا يقصدون من تعلمها الدخول في الوظائف ، والموظفون فئة ضئيلة بالقياس الى مجموع كل عنصر . ولما تحضرت اليابان والهند بالحضارة الانكليزية راج في بلادها اللسان الانكليزي ولما عهد الانتداب في العراق وفلسطين وشرقي الاردن الى انكلترا راجت فيها اللغة الانكليزية ، ولما كان الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان زادت فيها العناية باللغة الفرنسية حتى اذا انقضت أيامه أخذت الانكليزية تحل محلها لانها أنفع للشاميين في تجارتهم وعلائقهم مع اميركا وانكلترا والشرق الاقصى واوستراليا وكندا وجنوبي افريقية ، وبقيت الفارسية والتركية في العراق والشام مقصوراً استعمالهما على أفراد وعدد من تعلموها ينزل سنة عن سنة في القطرين العربيين .

ولا مناص لكل امة صغيرة كانت أو كبيرة من تعلم لغتين على الاقل ، ومن الأمم الصغرى في الغرب من يتكلم بنوها ثلاث لغات فاكثروا ويسهل عليهم تلقف لغات غير لغاتهم لما اهتموا اليه من الاساليب السهلة في التعليم فيخرج الطالب في أشهر قليلة بما يلزمه للتفاهم باللغة التي تعلمها وقد يصرف سنتين أو ثلاثاً فينتقنها بما يقرب من اتقان أهلها ويحكمها كل الاحكام اذا كتب له ان يختلط بأهلها زمناً .

ومن المجمع عليه في الغرب ان البولونيين كالشاميين من الشعوب التي تتقن لغات شتى لان لسانهم مجهز بالنبرات اللازمة ، ومخارج الصوت تامة عندهم ومن السهل اتقان لغة اصولها واحدة مع لغة اخرى كالهولندية مع الالمانية والفرنسية مع الايطالية والاسبانية مع البرتغالية والسويدية مع النرويجية والبلغارية مع الصربية . والانكليز والفرنسيين أقل الامم تعلماً للغات ويتعذر عليهم النطق الصحيح بلغة اجنبية خلافاً للامان والاطليان . يتساهل العرب لهدنا باتقان لغة الفرس كما تساهل الفرس باتقان لغة العرب منذ القرن الثامن من الهجرة وتاريخ الفرس والعرب متلازمان ، وعسى ان تزيد العناية بتلقين هاتين اللغتين في الجامعات العربية : (الاسكندرية ، القاهرة ، دمشق ، بيروت ، بغداد) كما يعنى بتدريس الاسبانية والبرتغالية حرصاً على الروابط القديمة والحديثة بين الشعوب العربية والفارسية ، والعرب والشعوب البرتغالية والاسبانية .

يقول مهاتما غاندي ، ليست دراسة منظمة للثقافات الآسيوية باقل وجوباً في اكتساب التربية الكاملة من دراسة علوم الغرب ، فينبغي أن نبهت عما في السنسكريتية والعربية والفارسية والبالية والماجادية من كنوز ثمينة لنظفر بأسرار السؤدد الوطني ، يجب ان نبني ثقافة جديدة على ثقافات الماضي التي نمت واثرت باختبارات العصور وتكونت هذه الثقافة مركباً من مختلف الحضارات التي فعلت بالهند وانفعلت بروح الاقليم ولا يصنع هذا المزيج على النمط الاميركي والثقافة المسيطرة في اميركا استغرقت كل ما عداها وقضت عليه ولكل ثقافة حقها ومكانتها والقصد هو التآلف والوفاق لا اصطناع وحدة عنوة وجبراً اه .

المبار العالي

يحكم على عظمة امة بوفرة من نبغ فيها من العيار العالي في العلوم والآداب والسياسة . وقبل هذه النهضة العربية لم يكن في اقطارنا من هذا العيار إلا افراد قلائل في كل قطر وزاد العدد على قدر امعان العرب في الاخذ من علوم الغرب . فمنأ أبناء مصر من العيار العالي لسبقها غيرها الى تلقف العلم الحديث ، وقبل النهضة المصرية الأخيرة كان يندر ظهور العيار العالي في المصريين كما يندر في غيرهم .

العيار العالي في القطر المصري يظهر القرن بعد القرن وعبارهم عال بالقياس الى زمنهم لا بالقياس الى هذا الزمن . كان الحال في مصر على ذلك منذ عهد الفراعنة فالرومان فالليونان فالعرب وما عرف منهم الا من خلفوا آثاراً عملية في الهندسة والتشريع .

وعدوا من رجال العيار العالي في الاسلام من اتقنوا علوم الشريعة وما اليها . وما عهد ان زاد عدد رجال الفكر والعلوم المادية في قطر من الاقطار العربية بقدر ما كان يزيد عدد رجال الدين ، وكان من يتعلم علماً غير ديني فبدافع شخصي وبعامل من العوامل التي تخرج الرجال رغم ارادتهم احياناً . وما كل من اشتهروا هم اهل للشهرة وما كل من خملت اسمائهم لا يستحقون من المكانة اكثر مما وصلوا اليه .

قد ينبغ في بعض الأعصار والاقطار رجال احرياء ان تقرن اسمائهم الى اسماء العظماء وامتاز من سميناهم النبغاء في مصر من كانوا رجال عمل على الأكثر يظهرون بالمظهر الذي يجب ان يظهروا فيه وفي الزمن الذي تحتاج مصر الى ظهورهم وقد اشتهر في وادي النيل زمرة تعد مفخرة في الفلك والطب والجراحة والقضاء والهندسة وكان اشتهار بعضهم باتقانهم معرفة السلوك الى طريق الشهرة ، ومنهم من شهرتهم احوال خاصة ،

ومنهم من دانوا بشهرتهم للسياسة ، ومنهم من انقص اشتغالهم بالسياسة من مكانتهم العلمية .

وكان معظم من ذهبوا بفضل الشهرة في مصر لعهدنا من رجال المحاماة ربحوا من مهنتهم هذه ارباحاً عظيمة واغتتوا ، ومن اغتنى كان على جانب من ثقوب الذهن وسعة الحيلة جاء منه العيار العالي ، ومن اعتاد حل المعضلات قوي عقله ، وفي المران على الخطابة مايساعد صاحبها على التأثير في نفوس العامة ، وكان من هذه الطريق يصل رجال المحاماة الى دكات النيابة ومقاعد الحكم بما لا يكتب مثله لمهندس ولا لطبيب ولا لزراعي وصناعة هؤلاء عملية وتستلزم صمتاً وتلك تقوم بالבלغة والتحليل لاسقاط حجة الخصم . ومن الاعلام من كانوا على صفات عظيمة تؤهلهم للتأليف والبحث في فنههم فحالت مناصبهم دون نشر ماجمعوه في عملهم من تجارب . ومنهم من اذا اجتمعت اليهم سمعت من احاديثهم مالا تقرأ مثله في اعظم التأليف امتاعاً ، يملون عليك في ساعة مالا تقع على مثله في المؤلفات المنقحة . وليس اصحاب هذه الطبقة التي يبهرك استحضارهم وبديهيتهم اذا تكلموا أقل عدداً من الفئة التي دعتها الحاجة الى التأليف والتصنيف وتمحضت له بحكم عملها

خطر في بالي وأنا اكتب هذا عشرات من الرجال في مصر خاصة لو انهمكوا في ابراز تجاربهم لاغنوا الخزانة العربية بينات افكارهم واغنونا عن الرجوع الى كتب الغربيين في معظم مايمينا الجولان فيه . ولا اقول ان المال والجاه شغلا هؤلاء الجماعة عن كل أمر آخر شطراً كبيراً من حياتهم فنلكوا في وضع مايجب عليهم اصداره بل اقول ان الاقدار تصرفت بقرائحهم هذا التصرف فجاء منهم ماشاء القدر لا ماشاؤا هم وشاءت أمتهم منهم ، فضاعت بعض الفائدة المرجوة من نبوغهم ، ولو تعلقت القدرة بانفاق جانب من عنايتهم بكتب مااهتدوا اليه من اسرار لكان منهم النفع للعلم وللمجتمع العربي .

لايتسع عمر المرء حتى يأتي منه الكمال المطلق في رعيال الرجال

النايفين مادامت الطبيعة تقوي في الانسان بعض الملكات وتضعف فيه اخرى على ما لا يتعلق به اختياره . وقد تعد في قرن من القرون في مملكة كبرى مئة من النوايع في الفنون المختلفة لا يشتهرون كلهم شهرة يسلم لهم بها معاصروهم ، فهل هم كذلك يآرى ، ام العناية لاحظت عيوبها بعضهم فقدمتهم وغفلت عن بعضهم فأخترتهم ولا يتفوق الاول عن الثاني الا بسبب من اسباب الاشتهار ، ويمتاز المشهور عن المغمور بأمر لا تدركه الأبصار ولا يضبطه حساب ولا يدخل في قياس .

كلما اردنا التنظير بين رجال العيار العالي من العرب وامثالهم من امم الافرنج تتضح لنا صعوبة التشبيه كما يصعب الجمع بين تقيضين فما نعهده مزية نادرة في نابغتهم قد لا يكون ما يماثله في نابغتنا . وما ندري هل يعود قسم من هذا التمييز الى ان العلم تسلسل في الافرنج على ما لم يتسلسل في العرب . والعلوم التي عانتها الأمم الحديثة غير التي مارسها العرب . وقد لا يتشابه علم وعلم كما لا يتشابه أدب وأدب ، وعلى كل منها يطلق اسم العلم واسم الأدب . واذا رجحت كفة علوم الدنيا في الأمم الغربية وكان للعلوم الدينية في العرب الشأن الاول ابدأ أخذت الأولى باسباب الرقي وتدنت الثانية بما اكتفت به من اساليب لم ترفع من عقول بنينا ، ثم أصابها التدني ايضاً في الذي ما حرصت على حفظ غيره وكان انحطاطها في الشق الآخر داعياً الى انحطاطها الانحطاط الشامل .

وفي العصور التي تمزق فيها ملكتنا وانقسم الى امارات ودويلات لم يبق لنا مركز مهم يفزع اليه أرباب العقل بل ان المراكز التي نفاخر الآن بنهوضها كالقاهرة ودمشق وبغداد كادت تصبح كالقرى ، وفي القرى لا يرجى ان يبيت العلماء دعوتهم ولا يجذون فيها من يحميمهم ولا من يقدر عملهم قدره . ليت لنا طرف زرقاء اليامة لنبصر ماستكون عليه ديار العرب بعد جيلين أو ثلاثة ، ايكثر النوايع منا على مثال مانرى من العيار العالي عند الافرنج يخلدون باعمالهم العظيمة لالابقياس الى ثروة امتهم وكثرة سكانها ، ام ينقلب العلم كله عملياً لاشأن فيه لغيره من المطالب .

(١)

رحلة الى المدينة المنورة

اللقاء

على نحو مائتين وأربعين كيلومتراً من جنوبي دمشق بين نهر الاردن غرباً وزملة العليا في طريق الحج مُرقاً ونهر الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوباً اقليم واسع خصيب سهلي جبلي اسمه اللقاء طوله من الشمال إلى الجنوب ١٨ ساعة للفارس المجد وعرضه من الغرب إلى الشرق ١٦ ساعة أو نحو مئة كيلومتر في مئة كيلومتر ، وقد حد القدماء اقليم اللقاء بانه بين الشام ووادي القرى وقالوا أن فيه مدناً عظيماً كثيرة وأن قاعدته عثمان وقيل إن السلط او الصلت هي راموت جلعاد احدى مدن الممبأ ومدن اللاويين المذكورة في الكتاب المقدس وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت من لفظة لاتينية « سالتوس » ومعناها الجبال المشجرة وكانت فيما مضى مدينة أسقفية في العهد المسيحي وقد دك المغول قلبتها ثم أعاد بناءها الظاهر ببيرس البندقداري .

والصلت على منحدر بين جبلين متناولين أشبه بمدينة زحلة في لبنان وكانت خالية من الحداثق والبساتين فتوفرت هممة أهلها على استئجار الأشجار والبقول فجاء أكثرها بما عندهم من العيون التي تروي زروع الوادي اما ما كان وراء المدينة من التلعات والآكام فقد كان حراجاً إلى عهد قريب وآثار بعض سنديانه وملوله ما بوحث ماثلة للعيان ولكن القوم قطعوها واستعاضوا عنها بزراعة الكروم التي يعد عنها وزيبها اجل ماتحمله هذه الشجرة المباركة في سورية وقد يكون العنقود الواحد رطلاً شامياً وأكثره بلا زور . يصدر من زيبه ما تقدر قيمته كل سنة بنحو خمسة عشر ألف ليوة

وفي جوار الصلت قليل من شجر الزيتون سألنا احد شيوخهم عن السبب الذي دعا الى عدم استكثار القوم من غرسه فقال لا تذكرنا بغبائونا فقد حملنا سعيد باشا شمدن احد متصرفي نابلس ايام كان قضاؤنا تابعاً لنا بلس على ان نغرس في هذه الاودية التي تراها مائة الف زيتونة فوق في انفسنا ان في الامر دسيسة من الحكومة تريد بها وضع الضرائب الفاحشة على أملاكنا وتسجيل اراضيها على صورة لانعود معها ملاكها الحقيقيين فصدعنا بالامر في الظاهر وغرسنا الوفاً من شجر الزيتون ، ولكن أتدري كيف نتخلصنا منه بعد ؟ كان احدنا يجيء ليلاً الى غرسة الزيتون فيحرقها حتى لا ينمو جذعها وهكذا لم يبق من كل ما غرسه الصلتيون الا ما تشاهده اليوم في جوار القصبة وقليل ما هو . قلنا وعجيب تبدل تصورات الناس فرجال الحكومة بالامس كانوا يحملون الناس على زرع الأشجار ويزينون لهم اقتناء الأراضي للزراعة واليوم يطلب الاهلون في هذا القضاء وفي غيره الأراضي الموات ليجيوها ولا يعطون طلبتهم وكذلك الحال في كل مكان نزلناه في طريق يثرب فان الاهلين احسوا بفوائد الأرض هكذا رأينا اهل الشراة من أعمال الطفيلة ومعان وهكذا سمعنا شكوى اهل الكرك وتبوك ومدائن صالح ، اجمع على طلب ذلك الحاضر والبادي وفي قانون الأراضي ان كل من يجي أرضاً مواتاً تبعد عن القرى والدساكر مقدار ما يسمع الصوت فهي له .

قرأنا سطور الهمة والنشاط في وجوه الصلتين مسلميههم ومسيحييههم وان كانت القاعدة في سورية على الاغلب ان يكون المسيحيون أكثر نشاطاً وتعلماً من اخوانهم في الوطنية . وبلدهم هذا ساعدته الطبيعة فساعدوا اهله أيضاً ودخل في طور العمران ويوشك أن يعد في جملة العظيمات من المدائن والبلدان .

وسكان مدينة الصلت اليوم (يوم زرتها) نحو ١٦ الف نسمة يبلغ المسيحيون منهم على اختلاف الطوائف نحو اربعة آلاف ومعظمهم الى

اليوم يلبسون زيا كزري أهل حوران وهو كوفية وعقال وعباءة وجزمة حمراء وعادات القوم هنا أشبه بعادات البادية مع أنهم حضر . وفي الصلت قليل من الصناعة وتجارتها واسعة مع القبائل النازلة في البلقاء والرحالة في تلك الارزاء . وبين عمان على الخط الحجازي والصلت نحو خمسة وعشرين كيلومتراً جعل بعضه من جهة الصلت طريقاً معبداً ومتى اكمل تسافر العربات والسيارات بين الصلت والخط الحديدي في ساعتين وهي الآن أربع ساعات على الدواب واذا تم اتصال الصلت بالقدس بطريق معبدة تسير عليها المركبات أيضا تعبر الصلت عمراناً مهماً وهي على بعد ٤٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من بيت المقدس و ٤٠ ميلاً الى الجنوب الشرقي من نابلس ونحو ١٨ ميلاً شرقي الاردن

ومن سوء حظ هذا القضاء ان معدن الفوسفات الذي نال امتيازاً بتعدينه من جبل السرو في منتصف الطريق بين عمان والصلت المهندس نظيف الحالدي المقدسي على ان ينشيء فرعاً بالخط الحديدي من الصلت الى عمان يتصل بالسكة الحجازية ومرفأ حيفا - من سوء الحظ ان قد حسبوا نفقاته فوجدوها لا تقى بها وارداته ولعل الحكومة تتساهل بعض الشيء في شروطها لتقوى عزيمة تلك الشركة على استثمار هذا المعدن من قضاء الصلت فيتمنى لها أو لشركة أخرى تعدين سائر المعادن التي حبتها بها الفطرة .

على نحو ساعة من قصبة الصلت منظر من أجمل مناظر سورية ونعني به جبل يوشع الواقع على علو ١٠٩٦ متراً عن سطح البحر وهو مشرف على جزء عظيم من فلسطين يمتد أمامك وادي الاردن كأنه بساط ذو ألوان كثيرة ومن خلال ذلك نهر الأردن تراه كالحية بتلويه حتى يصل الى البحر الميت أو بحيرة لوط . ومن النبي يوشع تشاهد جبل الزيتون في الشمال الغربي ويقابلك جبل عيبال وجرزيم ثم جبل الطور وما يناوحه من الجبال المحيطة ببجيرة طبرية ومن بعيد جبل الشيخ وبه تنتهي هذه المنظره من الشمال

ويقول العارفون من الافرنج ان الاعتقاد بالنبي يوشع الذي يذبح له البدو ويتقربون اليه هو من التقاليد الاسرائيلية القديمة وان بناء قبره يرد الى زهاء ثلثائة سنة . وليوشع مقام أيضاً في جبل نابلس قرب قرية حارث . وجبل يوشع في البلقاء أشبه « بيوشع تبهسى » أي ذروة يوشع في قرية بكوز المطلّة على بحر مرمرة وخليج القسطنطينية . هذا منظره بحري وذاك منظره بري . ومن غريب التقاليد ان البدوي يحلف بالله ولكنه لا يحلف بشعيب . ومقام شعيب على ساعتين من الصلت أيضاً .

كانت عمان قصبة البلقاء فانحطت في أواخر القرن الماضي بما تواتر عليها من الزلازل وغارات البادية حتى جلا عنها بقايا سكانها الاصليين فانزلت فيها الحكومة ستمائة أسرة من الجركس من عشائر مختلفة هاجروا الى البلاد العثمانية من ولاية كوبان الروسية وأخذوا يردون غارات البادية واعتمدوا في عمرانها على مضائهم وشجاعتهم وبنوا على انقاض مدينة ضخمة قرية لهم وساعدتهم مياه نهر الزرقاء فغرسوا الاشجار وأنشأوا الحدائق وأتوا بطريقهم المألوفة لهم في الزراعة ببلادهم وقد هلك منهم أناس كثيرون بالفتن والامراض حتى توطدت اقدامهم واغتنوا واصبحت الحكومة بعد أن كانت تأخذ من عمان مئة ريال في السنة تتقاضى نحو ثلاثة آلاف ليرة ولا تلبث أن تزيد بزيادة عمران عمان واتساع تجارتها على أيدي النشيطين من النابلسيين والدمشقيين ومعظم تجارة البلقاء في أيديهم اليوم .

نقول انها كانت مدينة عظيمة والدليل ان انقاض دار تمثيلها كبيرة جداً تكفي لجلوس ثلاثة آلاف نسمة وفي مسرحها ٤٥ صفّاً على شكل نصف دائرة وفيها آثار قلعة مهمة ومعظم بيوتها بنيت باحجار المدينة القديمة وكذلك قرية رأس عمان الحديثة الواقعة على قيد غلوة من عمان الحديثة وسكانها جراكسة ايضاً .

لا جرم أن الجركس ادخلوا روحاً جديداً الى هذا القضاء من التوفر على الزراعة والنشاط المستمر وان الاهلين تعلموا منهم بعض الشيء الآن عمال الحكومة أساءوا الاستعمال فسلبوا ما كان للاهليين من الاراضي

والمزارع العامرة ليعطوها المهاجرين الجركس والششن والتركان كما فعلوا بعين صويلح وعيون الحر وكانتا مسجلتين باسم أصحابهما فاعطتهما الحكومة للمهاجرين وأخذ المهاجرون الناعور ووادي السير والزرقاء والرصيفة وغيرها. صبر الناس على هذا الجور زمناً حتى صحت عزيمة بعض عشيرتي الحرشان والجبور على أن يزرعوا الموقر والعليا والنقيرة وهي على نحو ثلاث ساعات من شرقي معان يسير في أراضيها الراكب عشر ساعات كما ان بعض الصلتين يزرعون اليوم في سهل الكبد في الغور وهذا السهل جيد التربة جداً لا حجر فيه ولا مدر ولو احبت الحكومة احياء الموات حقيقة لأوعزت للاهلين ان يحبوا اراضي الموقر والعليا كلها فان فيها زهاء الف بئر معطلة تحيا بعناية قليلة .

وأعظم عثار هذا القضاء بنو صخر وهم ينتقلون بين الغور في الشتاء وأراضي البلقاء العالية في الربيع وفي الصيف يتوفرون على حصاد الارضين التي لهم في جهات الزيزاء ومادبا وهما مديرتان تابعتان للصلت ، كما أن عمان مديرية تابعة لها أيضاً ، ونفوس قضاء الصلت المحورة ٤٢ ألفاً ولو أحصي بنو حسن وبنو صخر والبادية لبلغ سكانه مئة ألف أو يزيدون ولو ارتفع فيه علم الامن كما يجب وأعطيت الارض الموات للاهلين وسجلت عليهم بحيث لا ينازعهم فيها منازع لأن أكثر المنازعات تثور على الاراضي - لبلغ سكان هذا القضاء نصف مليون نسمة بعد عشرينين. وأهم العاديات التاريخية في هذا القضاء قصبة مادبا فقد كانت كاحدى الحرب منذ نحو ستين سنة فهاجر اليها جماعة من مسيحي الكرك أعطتهم الحكومة اياها خربة فعمروها فما هو الا أن وجدوا فيها آثاراً مهمة مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين وبيننا كانوا يحفرون في انقاض الكنيسة ليقموا كنيسة جديدة عثروا سنة ١٨٩٧ على قطعة من الفسيفساء في الصحن فرفعوا عنها المعاول وأزالوا ما كان علق عليها بتوالي

الايام من التراب والاحجار فاذا هو أثر عظيم من آثار القدماء ، هو مصوّر فلسطين وما فيها من المعاهد المقدسة والكنائس ولوسلمت كلها من معاول الذين حفروها لبلغ ثمنها المليونين والثلاثة من الليرات ولكن القطعة الصالحة الباقية منها تدل على تلك المدينة القديمة التي تمتعت بها مادبا قديماً منذ عهد الاسرائيليين الى الموابيين الى العرب النبطيين الى المكابيين وكانت في عهد هؤلاء قلعة مهمة واستولى عليها هيركان ملك اليهود قبل المسيح وأصبحت على عهد الرومانيين جزءاً من بترا أو العربية الصخرية ، وآثار الفسيفساء كثيرة في هذه القرية رأينا بعضها في الدور الخاصة تلمع فتأخذ بالابصار ، أما أنقاض دورها ومعابدها وأحواض مياهها فحدث عنها ولا حرج وقد دخل اهلها في المدينة اليوم وليس بين سكانها أناس من المسلمين الا بعض باعة وحراثين .

قال ابن خرداذبة ان ظاهر البلقاء كان كورة من كور دمشق كما ان جبل الغور وكورة مآب وكورة جبال وكورة الشراة وكورة عمان كانت كل منها اقلياً برأسه قال الشاعر :

سلم على دمن أقوت بعمان واستنطق الربع هل يرجع بتبيان
قال ياقوت ان مدينة جرش هي شرقي جبل السواد من ارض البلقاء وعرف السواد بانها نواح قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارها وفي أرض البلقاء عدة بلاد ورد لها ذكر في التاريخ العربي ، مثل قرية جادية التي ينسب اليها الجادي وهو الزعفران ، وقرية مؤتة من المشارف التي كانت بها تطبع السيوف المشرقية ، والموقر الذي كان ينزله يزيد بن عبد الملك قال كثير :

سقى الله حياً بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات الحارب
والقسطل نزله الوليد بن يزيد وهو قرب البلقاء وخلفه فيه عمه العباس وكان الوليد يستوطن الزيزاء ، وفي البلقاء قصر الأزرق ، والفدّين قريب من حصن الأزرق والفدين قيل انه من عمل حوران ومعظم الروايات على أنه من عمل البلقاء .

العمران والسكة الحجازية

ان كان لدور الاستبداد حسنة فاعظم حسناته سكة حديد الحجاز التي مدت في عهد الخواص وبتزيين قرينه أحمد عزت باشا العابد وانتهى منها حتى الآن القسم الأعظم من دمشق الى المدينة المنورة وطوله ١٣٠.٣ كيلو مترات ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلومتراً فانفق عليها فيها بلغنا ثلاثة ملايين ليرة ونصف مليون صرف قسم مهم منها في مدينة دمشق فانتفع منه الملتزمون والتجار والزراع والعملة وبعض أبواب الصناعات والفنون وانفق القسم الأعظم في ثمن أدوات وقاطرات ومركبات وحديد من معامل اوربا

وما كاد ينتهي الخط الى المدينة حتى نهضت البلاد بعض الشيء ولا سيما دمشق والمدينة وحيفا نهضة اقتصادية لا يستهان بها وحسن حال التاجر والمزارع وسارت الامور الاقتصادية على نسق مرتب معقول فلم يعد في التجارة ذاك الكساد الذي نعهده في دمشق ولا التقهر الذي كان في حيفا ولا الغلاء الفاحش في أسعار المدينة وهكذا انتفعت المحطات على طول الخط من دمشق الى المدينة وعددها ٧٥ محطة ومحطات حيفا ودرعا وعددها ١٥ فأخذت كل محطة بقدر حظها من العمران وانتفع منها في الأكثر ما كان له أثر قديم في الارتقاء

نعم ان من المحطات ما لا يثبت فيه شيء بحسب الظاهر ولا قطره السماء الاساعات غير معلومة في السنة ولا سيما بعد أرض البلقاء وهواؤها جاف حار مجرق وعمرانها متوقف على عمل كثير طويل ومال غزير فامثال هذه المحطات تترك الآن وينشط كل من يود اعتار الأرض الموات قرب المحطات وانشاء دور وحوانيت فيها ولو فعلت الحكومة لاستغنت مع الزمن عن حراسة هذا الخط بكتائب من الجنود ترابط على طول السكة واقامة ائنتى عشرة قلعة من الهدية الى المدينة وهي اليوم تجعل في كل قطار يسافر من بعدلواء حوران الى المدينة جملة من الجند النظامي المسلح لحماية الركاب من عيث البادية اذا حدث حادث

نقول عيث البادية ولو أعملت الحكومة الفكر منذ اليوم الذي نوت فيه تمديد هذا الخط الحربي الديني التجاري لأوسعت لهم من تلك السهول الحصيبة في لواء الكرك ما كانوا استغنوا بزراعته عن شن الغارات وايداء السابلة طمعاً في اقتناص ما يتبلغون به ولتوفروا على تربية مواشيهم وزروعهم كما يتوفر اليوم بنوحسن في قضاء عجلون وبنوصخر في قضاء الصلت والحويطات في معان والمجالي والضمور والطراونة في الكرك وغيرهم في غيرها وكل هؤلاء من العرب الرحل يتأنسون بقدر ما يدخل النور على أولادهم ويستمرؤن ارباح الزراعة والماشية ولاشك انهم يعدلون بثة عن الغارة كلما أسكنت الاصقاع التي في جوارهم وخف الاعتداء عليهم .

بعض اعمال الكرك

قال الظاهري واما المملكة الكركية فليست هي من الشام وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب وهي مدينة حصينة معقل من معاقل الاسلام بها قلعة ليس لها نظير في الاسلام ولا في الكفر تسمى حصن الغراب لم تكن فتحت عنوة قط وانما فتحها المرحوم صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد فتح القدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكانت بيد البرنس ارنلط وكان يتعرض الى حجاج بيت الله الحرام . وقال ان الشوبك كانت مدة بيد الافرنج وهي مضافة الى الكرك وحصينة أيضاً ومسيرة معاملة الكرك من العلى الى الزيزاء مقدار عشرين يوماً بسير الابل وهي بلاد عدية بها قرى كثيرة ومعاملات والمسلك اليها صعب في منقطعات قليلة الماء حتى انه اذا وقف أحد على درب من دروبها يمنع مائة فارس اه .

بلدان في لواء الكرك طالما سمعنا بهما وهما قصبة الكرك وقصبة الصلت فالأولى كنا نتوهمها أهم بما رأيناها والثانية رأيناها أهم بما سمعنا به من وصفها . وأذرح خربة لاساكن فيها وكانت من المدن العامرة قبل الاسلام وبعده . وذكر المقدسي انها مدينة متطرفة حجازية شامية وعندهم بردة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعهده وهو مكتوب في أديم وبذلك

يستدل انها كانت عامرة في القرن الخامس للهجرة بل عامرة الى عهد قريب وكانت هي ومآب مدينتي الشراة وأرض الشراة من الشوبك الى رأس النقب كما يحددها الاهلون اليوم أي مسيرة يوم طولاً وعرضاً ساعتان وهي الأرض المفلوحة مؤلفة من تلعات وأودية وفيها عيون غزيرة لاتقل عن أربعين عيناً لاينتفع باكثرها وقسم منها الآن في عمل قضاء الطفيلة والآخر في قضاء معان وعلى جنوب الشراة بلاد طيء أو جبال طيء وهي الحد الجنوبي لسورية كما عرفها العرب قال حاتم الطائي وقد اغارت طيء على ابل للحارث بن عمرو وقتلوا ابناً له :

الا انني قد هاجني الليلة الذكر وما ذاك من حب النساء ولا الاشر
ولكنني مما أصاب عشيرتي وقومي باقران حواليهن الصير
ليالي نمسي بين جوز ومسطح نشاوى لنا من كل سائمة جزر
فياليت خير الناس حياً وميتاً يقول لنا خيراً ويمضي الذي اثمر
فان كان شر فالعزاء فاننا على وقعات الدهر من قبلها صبر
سقى الله رب الناس سجا وديمة جنوب الشراة من مآب الى زغر
بلاد امريء لايعرف الذم بيته له المشرب الصافي وليس له الكدر
وفي أذرح عين ماء غزيرة فوق أراض واسعة يمكن تشجيرها كلها
ولها قلعة لاتحتاج الا الى ترميم خفيف وهي على أربع ساعات الى الغرب
الشمالي من معان وعلى ثلاث ساعات من وادي موسى . وانقاض دورها
وعقودها وعمدها موجودة لاتحتاج الا الى بنائين فتكون مدينه تامة
الادوات في بضعة أسابيع وفيها اليوم انقاض ثلاثة طواحين
تنقبض النفس من الكرك على جمال طبيعتها وهي تطل من جهاتها
الاربعة على مناظر لطيفة ومنها البحر الميت ووادي الاردن الى أعالي
جبال أريحا وذلك لأنها كانت في معظم أدوارها التاريخية ظالمة مظلومة
واشتهر أهلها بحب الغارة على عهد الاسرائيليين والموآبيين وحاربها شاول
وداود وقاومت قلعتها حوارم وملك اليهودية فرجعا عنها مدحورين واضمحلت

الموآبيون في القرن الثاني قبل المسيح واصبحت الكرك مفتاح تلك البلاد على عهد الصليبيين واستولى عليها رنودي شاتليون الذي يسميه مؤرخو العرب البرنس ارنلظ وذلك لانها حاكمة على طرق قوافل مصر وبلاد العرب القادمة الى الشام ولذلك حاربها صلاح الدين يوسف بن أيوب حرباً عواناً وأقام الايوبيون فيها وحصنها وما زال ملوك مصر والشام يحاصرونها ويقتلون واهلها عليها وآخر أعمال الكركيين ذبحهم عسكر ابراهيم باشا المصري ثم فنتهم الاخير الموشمة . ويبلغ المسيحيون في الكرك نحو أربعة آلاف نسمة أكثرهم روم وفيهم لاتين وقليل من البرتستانات وفيها مدارس حقيرة لذكورهم وأناتهم ولئن كان المسيحيون اليوم على مستوى جيرانهم المسلمين وكانوا نحو ١٥ ألفاً قبل الحوادث الأخيرة أو ارقى بقليل في المدنية فيسكون مستقبل هذه البلاد لهم .

ولم تبق الفتن من العاديات القديمة ما يذكر في هذه المدينة اللهم الا انقراض دائرة وجميع هذه الديار كانت عامرة وهي اليوم مأوى الغراب وناهيك بأن اللجون الواقعة على ساعتين من الكرك كانت بحسب ما رأينا من انقراض ارتجتها الضخمة من المدن المهمة فاصبحت اليوم والحكومة تسكن فيها طائفة من المهاجرين وتعمر لهم دوراً فلا يلبثون ان يرحلوا عنها اذ رأوا تناقص نفوسهم فيها بسبب الماء والهواء وتركوا منازلهم خاوية .

العربة الصغيرة

طريق الكرك من القطرانة وطريق وادي موسى من معان يبتدئان بتراب كلسي ممزوج بصلصال لا استعداد فيه للزراعة ولذلك تظنك اذا توسطت تلك السهول وعرضها نحو ثلاث ساعات من الحط الحديدي تظنك في قفر بلقع حتى اذا انتصف الطريق تتراءى لك بعض عيون وزروع والمسافة بين معان ووادي موسى سبع ساعات للراكب كما هي بين القطرانة والكرك . ووادي موسى هو قرية الجي وعلى نحو ساعة منه بترا أو

العربية الصخرية كما يسميها الافرنج وسماها العرب سلماً ، والسلع الشقوق في الجبال ، والغالب ان سلماً قسم من العربية الصخرية وهي عبارة عن جبال إذا (رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فاذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها) وحدثنا من زار خرائب الحجر أو مدائن صالح انها دون خرائب بئرا بمكانتها .

وكان لبئرا هذه أيام عز طويل على عهد الادوميين والنبطيين العرب وقدماء الرومان والمكابيين وامتد حكمها الى دمشق وكان بيدها زمام التجارة مدة قرون في هذا الشرق الاقرب ولم تنحط الا بارتقاء مملكة فارس وانبساط ظل سلطان تدمر ولما جاء الاسلام كانت خرائب كما هي اليوم والغالب أن بقايا مجدها أتت عليها الزلازل فدكتها كما دكت غيرها من المصانع والآثار .

إذا أشرف الراكب على قرية وادي موسى يرى روح النعيم فيها خصوصاً ويكون قد قطع ساعات في صقع أجرد أمرد ليس فيه من الاشجار. الا الزعرور ولا من الغلات الا قليل من الخنطة والشعير لكن في وادي موسى حدائق بديعة تسقى من العيون الدافقة عليها من الهضاب المجاورة حتى تحال نفسك لما تراه من بهجة الحضرة انك في صقع عامر زاهر فاذا قصدت الى عاصمة بئرا وتجبلت في السيك أي دخلت بين الجبلين المتناوحين العالين وكل قطعة منها تبلغ ألفاً من الامتار المربعة علوها من ٣٠ الى ٥٠ متراً وانت تسير في طريق لا يقل عرضه عن خمسة أذرع ولا يزيد عن عشرة ليس فيه الا الأحجار والحصى أو مسایل ماء لا ينبت فيها الا الرتم والطرفاء تشاهد في الاعالي النواويس والقصور والمسلات محفورة في الصخر وينفرج الطريق مسيرة نحو ثلث ساعة وينقسم قسمين قسم ذات اليمين وفيه تنمة المدينة والقسم الآخر جبال طبيعية تمتد الى بعيد وتصل بجبل هارون من أجل المناظر المشرفة على تلك الالودية والجبال .

وهنا يتمثل أمامك قصر فخم يسميه الناس خزنة فرعون والغالب انه كان معبداً لآيزيس أنثيء على عهد الامبراطور اديانوس الذي زار هذه المدينة سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة اصغر منها ونقوش وتيجان وربما كان يصعد الى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع احجارها وتنموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدهشة وكل هذه العمدان والسواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاؤون والذي يزيد في الدهشة ان الحجر احمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم ثم ترى عليه ذاك اللعان فمن موجة حمراء الى اخرى زرقاء الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ورزق بانيه يدأ صناعاً تتفنن في تقطيعه ونقره بما فاق به البناء في سائر عايدات الشام فان كانت قلعة بعلبك تم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجرا الاثقال فان هذه العايدات الخالدة الازلية تنادي بلسان حالها هذه عظمة الديان الى جانب عظمة الانسان .

وترى الى جانب الآثار قساطل الفخار في جانب السيك الذي يشبه من بعض جهاته الفج الواقع في شمالي مدخل قرية معلولا في جبل سنير (قلمون) وذلك على علو القامة استحجرت مع الصخر حتى كأنها بعضه وهناك على بضع دقائق من خزنة فرعون كان في الغالب مخزن ماء هذه العاصمة برمتها وعلى مقربة من مخزن الماء وهو منقور في الجبل ايضاً ملعب التمثيل نقر في الصخر وله ٣٣ مشى جلوس المتفرجين ويسع ٣٠٠٠ نسمة وفي هذا الجوار اقدم النواويس واهمها وبعد ذلك يجيء

قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارتها كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وابراج وأسوار ونحوها والغالب انه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الاسلام وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها على أنها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان وعلى مقربة من تلك الجبال الشامخ والمنفرجات والادوية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار بترا في المكانة وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتالا بين سفن حربية .

ويقول علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت على مثال قبور الحجر يرد عهدها الى الملك الحارث الرابع أحد ملوك بترا أي ٣٠٩ سنة قبل المسيح وبعده وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها ، وأن ما يشاهد من صور أبي الهول وإيزيس ورؤوس الحملان يدل على أن هذه البلاد تأثرت بالمدينة المصرية والمسلتان الموجودتان في النجر تمثلان ربي التبطين اللات ودوزارس وأنها كانت مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل ، وأن المدينة اليونانية دخلت وادي موسى على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي وظل القول الفصل فيها للمدينة اليونانية الى عهد الحارث الرابع وفي بترا ٨٥١ مصنعا من القبور والمعابد والمذابح .

ومن أراد أن يتوسع في درس هذه المدينة الأزلية وجب عليه أن يصرف أياماً في خرائبها كما يفعل بعض سياح الافرنج وعلماء الآثار منهم فيقصدونها بضربون فيها خيامهم ويصرفون في امتاع النظر بها الاسبوع والاسبوعين وعلى من يحب التوسع في البحث أن يستعين بما كتبه علماء الآثار من المصنفات في وصف هذه المصانع .

في جوار هذه العاديات المنبئة بمدينة راقية جداً ينزل نحو الف نسمة من العرب يأتون أياماً قلائل الى الجي او وادي موسى لتعهد زروعهم

السقي ثم ينتقلون في الصيف والشتاء في جبال الشراة على ساعتين أو ثلاث أو أربع من بلدكم في خيام الشعر وهم فرقتان تؤلف الأولى من عرب الشرور وبني عطا والثانية من الهلالات والعبدية والعلايا ويغلب عليهم الفقر ومنهم من يزرع في أراضي الحويطات والنعيات على مقربة من بلدكم بالحنس وليس فيهم من يقرأ أو يكتب ويلبس أهل وادي موسى الكوفية والعقال ويسمونه المرير أي المفتول والعباءة وقفظاناً مسدولاً بدون سراويل وفي أرجلهم نعل يعملونه من جلد البعير وينوطون به حبة يدخل منها باهم الرجل لتعلق وفي ألفاظهم بعض فصح مثل قولهم سرى لسير الليل وقولهم الهدوم للثياب العتيقة وقولهم الريف للاراضي الخصة . ويعنون كثيراً بتربية البقر والغنم والماعز ، ولا ابل عندهم مثل بني صخر . وهم على فقر ظاهر .

سألنا أحد كبار شيوخ وادي موسى هل زرت ياعماه مدينة دمشق في حياتك فأجاب انني لم ازرها أنا ولا أحد من أهل بلدي وأنى لي بزيارتها والطريق عشرة أيام لراكب المطايا وفي السكة الحديدية احتاج الى اجرة لم أملكها حياتي فتأمل .

من اجل المناظر اذا خرجت من السيك أو من الصدفين أي جانبي الجبلين وفارقت تلك الفن والقلل تقصد الى عين موسى صعداً في هضاب عالية شماء واطلت على تلك المدينة التي يستحيل على أي جيش من جيوش العالم ان يفتحها ويستبيح حمى من فيها اذا أرادت الدفاع . تشرف من ورائها على أراض واسعة جداً تظنها بجزراً من أشعة الشمس وهي وادي العربة طوله ثلاثة أيام الى الغرب وعرضه الى الشمال أربعة من العبة الى الغور وفي تربته حصا وأحجار ورمال واملاح وينابيع قليلة وبالقرب منها بعض الحضرة كما تجد هنا وهناك بعض الاشجار البرية ويقصد البدو هذا الوادي في الشتاء لانه غور يرعون فيه مواشيهم كما يقصد أهالي الطفيلة والكرك والصلت ماجاورهم من الاغوار الى الغرب من ديارهم ويقصدون جهات الشرق في الربيع ويتوسطون في الشتاء والصيف .

في مدينة الرسول

ماذا يرجى لراكب القطار الحديدي ان يراه ليصفه والقطار يسرع في سيره مواصلاً الليل بالنهار وكل بقعة من البقاع بين دمشق عاصمة الاسلام الثانية ويثرب عاصمة الاسلام الاولى تحتاج الى عدة علماء يتوفرون على دراسة ما فيها من الآثار العادية والتاريخية والطبقات الارضية والاحداث الجوية والمواليد الثلاثة الطبيعية او المملكة النباتية والحيوانية والمجادية وعابر سبيل يمر كالسهم منطلقاً لا يطلب بمثل ما يطلب به الباحث محققاً مدققاً فمعدرة الى من يتوقعون ان يروا في رحلتنا هذه فائدة تخرج عن حد ما وقع عليه النظر في أيام معدودة .

ركبنا من محطة القطرانة في الكيلومتر ٣٢٦ الى المدينة فوقف بنا القطار ساعات في المحطات الكبرى وهي معان في الكيلومتر ٤٨٩ وتبوك في الكيلومتر ٦٩٢ ومدائن صالح في الكيلومتر ٩٥٥ ثم المدينة في الكيلومتر ١٣٠٣ وكانت المناظر تختلف علينا اختلاف الاهوية وكلما تقدمنا نحو الحجاز نشعر بالحرارة . وكان الوقت شهر آذار والطريق التي سلكها الخط الحجازي غريبة تدل على حذق في الهندسة وتقن . وهي لاتبعد كثيراً عن الطريق التي كان يسلكها الركب الشامي مدة ثلاثة عشر قرناً فيما نعلم اللهم الا ما اقتضته الهندسة من التعاريج كما شاهدنا ذلك في المحل المسمى ببطن الغول وغيره

والجبال غريبة التكوين في الطريق من بعد تبوك . فبعضها هرمي الشكل والآخر اسطواني وبعض متساوي الاضلاع ، وآخر زاوية منفرجة او حادة او قائمة جعلت في بسائط منظمة منفرجة ، تسير ساعات بل اياماً بسير الجبال ، ولا ترى الا رمالاً وصخوراً وليس من الغابات الا الهشيم (الهيش) في بعض الاصقاع أو السلم والسر وهما أكثر شجر الحجاز . والجبال مصهورة حمراء او كما قال البكري في وصف الجبال بين مكة

والمدينة انها كلها تضرب الى الحمرة تنبت الغرب والغضور والثام .
وان المرء لتحديثه نفسه وهو يطوي البيد طي السجل للكتاب من دمشق
الى المدينة كيف كان الحجاج قبل السكة الحديدية يقطعون هذه الأودية
والتلول والجبال والحرث والبرقات في ثلاثين يوماً على الجبال والبغال
والخيل ، ومن يتعب وهو راكب في القطار الحديدي ثلاثة أيام كان حرياً
بأن يهلك وهو على ظهور المطايا أو في المحفات والموادج والمحارات ثلاثين
يوماً يضاف اليها عشرة أخرى من المدينة الى مكة ولكن هي العادة تسهل
الاشياء والتعب ينال الراكب في الايام الاولى ثم يدمن ويمرن .

أعلى نقطة في هذا الطريق العقبة تعلو ١١٥٣ متراً عن سطح البحر
والمطالع تعلو ١١٤٢ متراً وفي بعض هذه الرمال يمكن انبساط المياه وفي
بعضها مياه يستقي منها العرب الرحالة هناك وابناء السبيل فأت عشيرة
الفقراء ومنازلها من تبوك الى مدائن صالح لا تقل عن ثمانمائة بيت وقبيلة
بني عطية تنزل من المدور الى المعظم وهي تزيد عن ألفي بيت فلو صرفت
عناية الحكومة الى اسكان هاتين العشيرتين واعطائهما الاراضي مجاناً والصالح
منها للزراعة كثير لما أتت بضع سنين إلا ودخلت هذه الموامي والمغازات
في دور عمران تغني ساكنيها عن شن الغارات أو مد الأكف لأبناء السبيل
في استوكاف الصدقات .

ومن آسف ما رأيناه في الخط الحديدي ولاسيما بعد بلاد الشام ان الاولاد
والبنات والرجال والنساء يأتون يلتقطون ما تجود به أكف الراكبين من
الحبز والادام يلتهمونهم التهاماً وقد كاد يقتلهم الجوع كما صهرت شمس
الحجاز ابدانهم ، وانك اذا اعطيتهم نقوداً لا ترضيهم بمثل ما يرضون
بكسرات من الحبز القفار ، فكان القفار لا ينفع فيها إلا الحبز القفار .
وعندنا أن أعظم صدقة يتصدق بها قاصدو البقاع الطاهرة في السكة الحجازية
أن يحملوا معهم ما تسمح به نفوسهم من الحبز والادام يوزعون في المحطات
على هؤلاء المحاريج المدقعين وذلك ريثما تصح عزمة ولادة الأمر على نهضة
أسباب المعاش لهم .

ليس من الرأي السديد أن يعلم شعب أو أكثره على الشحاذة بل أن يعود العمل والاعتماد على النفس ولكن أرضاً لم تشفق عليها سماؤها حرية بان يكون لابنائها عناية من حكومتها فان معظم ما نسمع به من الغزوات والغارات منبعث عن جوع مذهب والجوع كافر ، يساق الغازون الى الموت أو ينالون ما يتبلغون به لسدر مقهم ، وكل من قطع الطريق من مكة فالمدينة فدمشق يحدثك من فقر عرب تلك الانحاء ما هو العجب العجائب .

ولا يستهان بعدد السكان فان جهينة وبلي والحويطات لا تقل عن سبعين الف رجل واكبر قبائل المدينة حرب وهي خمسون الفاً في الوجه وينبع والعلا والعقبة من اعمال المدينة مائتا الف محارب كما قدر بعض العارفين وفي قضاء السوارقية عرب مطير وهتم . وهتم بقدر مطير في المدد والعدد وحدود المدينة تمتد الى الفرع من جهة مكة وسكانها بادية كلهم وفيها قرى واسعة وقرى جوار المدينة اثنتا عشرة قرية . والفرع لاحتكمها مكة ولا المدينة وقد أنشأت الدولة العثمانية من العلا الى المدينة اثنتي عشرة ثكنة انفتت عليها ١٨٤ الف دينار عثماني ليستتب بها الأمن وقوت العرب كلهم الارز الهندي والدقيق والتمر واللبن والاقط وأقل العرب وأشهرهم في اطراف هتم ومطير . ومع كل ما في هذا القطر من الفقر تصدر منه بعض الحاصلات كالجلد والصمغ والتمر والاغنام والجمال والحبل والصوف والسمن . ولو مد الخط الحجازي الى مكة فالبحر الاحمر ومن مكة الى صنعاء اليمن لتضاعفت صادرات الحجاز واليمن والشام و وارداتها وأمن الناس ولا سيما الحجاج من تعدي البدو بين الحرمين .

يعيش كثير من سكان المدينة ومكة من الصدقات والاقواف ورواتب الحكومة وربما غالى بعضهم في هذا الاتكال ولكن كيف السبيل وتجارة بلادهم ضعيفة لاتزوج الا أياماً مخصوصة من السنة في موسم الحج وتكاد زراعتهم تنحصر في بعض البساتين الضليل ريعها التي تروى من مياه الآبار بالدلاء ثم ان العلوم التي تبعث المهتم على الأعمال الاقتصادية مفقودة من بلادهم لندرة من يعرفها منهم وبلادهم لا يدخلها إلا المسلمون وربما كان

فيسن يزورونها طبقات راقية ولا سيما المنود والمصريون ولكنهم لا يطيلون مقامهم إلا بقدر ما يزورون أو يجيء الراقون منهم ولا عمل لهم إلا التجرد عن الدنيا لا يخالطون ولا يعاشرهم .

لا جرم أن السكة الحجازية قد نفعت سكان يثرب كما نفعت سكان دمشق لان الزوار كثر عدهم على طول السنة والتجارة دب فيها روح جديد في الجملة والاختلاط بالامم نبه أفكار سكان طيبة الاصليين الى قصورهم في ميدان العلم والتعلم . نقول السكان الأصليون وعددهم لا يكاد يبلغ ثمن السكان والباقون شاميون ومصريون ونجديون وعراقيون وتركويون وجاويون ويمنيون وزنجباريون وسودانيون وجزائريون وتونسيون ومراكشيون وسنغاليون وصينيون وهنديون وقفقاسيون وطاغستانيون وجراكسة وأكراد وكرجيون وإيرانيون وأفغانيون وبخاريون وبلوچستانيون وغيرهم من شعوب الاسلام يأتون هذه البلدة الطيبة ينقطعون فيها للعبادة في مسجد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

للمسلمين معرضان دينيان مهمان احدهما وهو الاكبر في جبل عرفات كل سنة مرة والآخر في مسجدي مكة ويثرب طول السنة ولذلك تسمع فيهما معظم اللغات في آسيا وافريقية وترى فيهما كل السحنات من أبيض وأحمر وأصفر وأسود ممن تفرع من الجنسين الآري والسامي ولذلك تجد المدينة المنورة اقرب الى أن تكون بروج بابل لاختلاط اللغات والسحنات والعادات منها الى أن تكون عربية وهي بلد النبي العربي وفي صميم ديار العرب . والمدينة بطبيعتها تشبه احدى مدن الأرياف في مصر لان نحو ربع سكانها مصريون صعيدة ونصف الربع مغاربة والباقون مجنسون على ما يجهن المحنمون لاعلى ما يحصي العادون . لان البلاد العثمانية كلها ليس فيها احصاء يعتمد عليه بل كثير من اصقاعها ليس له احصاء بالمرّة كالخجاز مثلاً .

كنت نازلاً في الفندق الوحيد الكبير الذي بناه أحد الوطنيين خارج السور بالحجر الأسود طبقات وكلف نحو عشرين الف ليرة ، وهو على قيد غلوة من سور البلد ، أسهر عند بعض الأحباب الى أول المزيع الثاني من الليل ، ومع أن الحكومة الاتحادية كانت أصحبتني بلاطلب مني بشرطين يراقبان أعمالي ارباباً لي ،

فإن أصحابي كانوا يتكلفون ايضالي الى النزول كل ليلة خوفاً من اللصوص ، أما أنا فكنت أعد الخطب سهلاً مع قطاع السابلة أكثر من الخطب باولئك اللصوص الطعام في صور حكام ومن يكتفي بالمال والمتاع ويعفون عن قطع الأغناق لايسوءك بقدر من يسرق ويقتل ، والقتل أنواع ومنه القتل المعنوي الذي ارتكبه عصابات الهول والارهاب وبلغت القحمة في استعماله حتى في البلد الطاهر في حين أن من دخله كان آمناً .

تأملت كثيراً في مسجد الرسول أثناء الصلوات وغيرها فما رأيت الاخشوعاً من جميع من يختلفون الى الحضرة النبوية الشريفة ولا سيما من غير الناطقين بالعربية فقلت في نفسي - وقد سمعت خطبة الجمعة وهي لاتخرج عن حد التهديد في العمل والاعراض عن الدنيا كساو خطب الجوامع في بلاد الاسلام خلافاً لما كانت عليه سنة السلف الصالح ولكن « لبس الاسلام لبس الفرو مقلوباً » كما قال علي كرم الله وجهه فوارحمته لغربة الاسلام .

لو أدار هذه القوة المعنوية رجال دين سليم وعقل راجح لكانت فوائد هذا الاجتماع من حيث الدين والمدنية أضعاف أضعاف فوائده اليوم فكما أرسل عليه الصلاة والسلام شعاعاً من نور حكمته قلب به العالم وغير بشريعته الطاهرة الارجاء هكذا يحمل دعاة دينه والمؤمنون على ترائه وسياسة المهتدين بهديه ما تستنير به العقول في هذا المجمع ويعم ضياء سكان الخافقين وهذا من القوى المهمة التي أضعناها وكم أضعنا مواهب وقوى .

وأهم خزائن الكتب في المدينة خزانتي خزانة السلطان محمود العثماني ومخطوطاتها ومطبوعاتها نافذة لا شأن لها وأكثرها من المشهور ونظامها وسط . وأحسنها وربما كانت خير خزانة في البلاد العثمانية كلها بنظامها وانتقاء امهاتها هي مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت أفندي ففيها نحو عشرة آلاف مجلد كتبت بمخطوط المشهورين من الخطاطين كأن تجد الكتاب ذا العشرين جلدًا مكتوبًا بخط مشرق بديع في مجلد أو مجلدين وفي هذه الخزانة من التسهيل من المطالعين والعناية براحتهم ما لا تكاد تجد مثله في دار الكتب بمصر وما ذلك الا لكثرة ريعها وانفاقه في سبيله واختيار القيمين عليها وادرار المشاهرات الكافية عليهم .

وبعد فان مسجد الرسول على كثرة عناية ملوك الاسلام بأمره في كل دولة وحكومة ليس من السعة وجودة البنيان باكثر من جامع السلطان احمد أو أياصوفية من جوامع الاستانة وان يشبههما في طرز بنائهما فهو أقل سعة من جامع الازهر بالقاهرة والجامع الأموي بدمشق . كان هذا المسجد الشريف والمسلمون قليل عددهم لا يتجاوزون عشرات الالوف ثم كبره بعض الملوك بحسب ما اقتضت الحال ، ولو نظرنا اليوم الى عدد المسلمين وهم لا يقلون عن ٣٠٠ مليوناً وعدد من يحج ويزور منهم كل سنة لاقتضى لنا أن نجعل سعة الحرم المدني اربعة أضعاف ما هو الآن على الأقل ونزينه بجميع أسباب المدنية الحديثة التي لا يحرمها الشرع ولا تنم عن اسراف .

قال ابن قتيبة ان مسجد المدينة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً بلبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبوبكر شيئاً وزاد فيه عمر ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبني جداره بالحجارة المنقوشة وبالفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ووسعه المهدي سنة ستين ومائة وزاد فيه المؤمنون زيادة كثيرة ووسعه .

وتمت

بطء الإدارة

قلت من تقرير قدمته لرئاسة حكومة دمشق (سنة ١٩١٩-١٩٢٠)
أفليس من الغرابة بمكان أن إدارة المعارف منذ انشئت لم يتيسر لها أن تشيد
أبنية جديدة لمدارسها اللهم الا بناء مدرسة الحقوق في دمشق وبعض أبنية
ضئيلة لا يؤبه لها في بعض المدن والقصبات . والمدارس حتى في العاصمة مانتقيم
في أماكن غير صحية في الجملة ومن مدارس القرى ما يشبه سجون القرون السالفة
لأنوافذ ولا طيقان ولا شمس ولا هواء ولا ساحة للعب ولا شيء من أمور الصحة
والمروضات للذهن والعيون والداعيات إلى التعلم . وما زالت إدارة المعارف مع هذا
تصرف كل سنة مبلغاً لا يستهان به لقاء أجور منازل تقيم فيها مدارسها لو صرفت
على إقامة أبنية للمدارس وحمل الأهليون على المعاونة في بنائها بحسب قانون
التعليم الابتدائي لأصبحت اليوم معظم مدارسنا تأوي إلى دور صحية خاصة بها
تربيتها وتحسنها وتنقشها وترصفها كما تشاء وتشاء المدينة الحديثة .

ان نقل المدرسة كل سنة من مكان إلى آخر يضطر إدارتها إلى صرف مبلغ
ليس بقليل تنفقه على النقل وتشتغل إدارتها بتعبير ما خرب وترميم ما لديها من
أثاث فضلاً عن تشتت الطلبة هذا إذا وجد محل مناسب من بعض الوجوه لاتخاذ
مدرسة فان إدارة المعارف تبحث منذ ثلاثة أشهر عن دار تجعل فيها المدرسة
النموذجية النازلة في المدرسة الظاهرية بدمشق التي جعلت دار الكتب العربية
ولما نجد حتى الساعة في ذاك الحي العامر مكاناً يناسبها مع ما أغلت من الأجور
لأن من الناس من لا يرضون أن يكروا دورهم لتجعل مدارس منها أعطوا من
الأجر الفاحش مخافة تخريبها خصوصاً ومعظم البيوت من طين وخشب يسرع
إليها البلى أكثر من دور الحجر القديمة .

فالواجب قبل كل شيء ان تفتح الحكومة اعتماداً كبيراً من المال كل سنة
تخصه لإقامة أبنية جديدة صحية للمدارس وإصلاح الموجود منها وبذلك تخطو

المعارف خطوة كبرى الى الامام فتجهز هذه الديار بالجهاز الذي يلزمها من المعاهد في بضع سنين .

قلت وبعد مرور نحو تسع وعشرين سنة لم تختلف الحال عما كانت وما بني من المدارس حتى الآن مع ضخامة الموازنة لم يبلغ واحداً من عشرين من المطلوب لبلاد الجمهورية وهكذا كسل الشرقيين .

انقاط المجمع العلمي

هذه صورة ما كتبتة إلى وزير من وزرائنا في ١٠ شوال ١٣٣٨

— ٢٥ حزيران ١٩٢٠ ١١ قاوم المجمع العلمي العربي

كأن من امارات الوطنية الكذابة ، ان يموه دعائها المتجرون بها في كل ما يعرض لهم مما لا ينطبق مع هوى نفوسهم . عرفت من اخلافك منذ عرفتك ايام كنت تغشى مجلسي مستفيداً انك مفطور على الحسد ، حريص على الشهرة ، تتوخاها من كل طريق ، وتعد من الوسائل إلى ذلك الغض ممن ذهبوا بفضلها . ولقد كنت كلما أمني النفس باستصلاحك في هذا الشأن بالتجربة والقدوة أرى تلك الصفات تريد فيك على الايام تأصلاً . وبعد فما كان يخيل لي انك تقوم في مجلس الوزراء وتناقش في مسألة ارجاع المجمع العلمي العربي تحاول بشقاشك المعهودة ان تسلبه ما تم على يده من الفوائد المادية والمعنوية وتنكر ما قام به على الأقل من انشاء داري الكتب والآثار مدعياً ان المصلحة مراعاة الاقتصاد في مثل هذه الأحوال وكان الأولى بهذه العناية لو انصفت وزارتك التي لا تحتاج لكل هذا الاسراف المضحك المبكي .

وكيف لعربي تزعم ان المجمع العلمي غير مفيد وقد كنت قبل بضعه اشهر تتمنى لو تعد عضواً فيه . لو كنت ممن تحب بلادك حقاً وصدقاً لوقفت غير موقفك هذا ورأيت العدل فطلبت بقاء مجتمعنا على أن يتولى

رئاسته غيري اذا كنت تراني غير كفوء لها وإيجاد رجل له لا يصعب على من استتبع الغاغة وعدم جماع القوى وادعى أن الفضل مقصور عليهم . لست آسفاً للآثر الناتج عن سعيك في اقصائي عن رئاسة المجمع فان لي كل حين في داري وحقلي من صفوة الأصدقاء مجعاً مستقلاً ينفذ عن فوائد جمعة دع من أفادهم الحين بعد الآخر من علماء المشرقيات في الشرق والغرب ، وما كنت لأجرح الى الاتكال وأقيد النفس بقيود الموظفين الثقيل لقاء عرض قليل .

ولقد أكد حتى خصومي ان المجمع يطلبني أكثر بما أطلبه وهم على مثل اليقين في غناؤه للامة ، أما أنت فتقصد الى اقناع من حولك كما قلت لي ذلك مرة انني خدعت اوربا بهذا المجمع وهذا جل ما أسمى اليه . أنا لم أخدع أوربا بل جهدت لفهامها اننا أمة ذات مجد قديم تريد أحياءه فخدمت بذلك الحكومة العربية لانني حسنت سمعتها مع اخواني رجال المجمع وخدمنا العلم المجرد عن الغايات البريء من وصمة التعصب ومؤثرات المعتقدات .

فحة دعت صاحبها الى التمويه في البدييات ، وأنانية مجسمة شأنها التبرجح وانكار المحسوسات ، كان من أثرها إثارة الجهل لهذه البلاد التعمسة التي هي في أشد الحاجة لمن يدفعها ولو خطوة ضئيلة الى الأمام حتى يثار ذو ضغينة لنفسه من أقدم من عرفوه ، وما قط أثرت عنهم اساءة اليه بيد أن الحقد أكل قلبه فراح يعبث بشخصياتهم ويرمي بضاعتهم بالكساد .

بهرك المنصب فأسأت حتى الى أقرب الناس اليك بمن صبروا على سوء العشرة استنبقاء للصدافة ، وما أنس لا أنس ما كنت تمثله من الأدوار المحزنة فتحاول اقناعي بمضار أمر ولا تستحي من الغد أن تزينه للابصار وتأتي مثله من دون حرج اذا كان فيه حظ نفسك فتدعوني الى ما كنت عنه بالأمس تنهاني .

نعم اننا بمن لم نخف عليهم قصة ذاك الكرسي الذي أجلسوك عليه الآن فاذهلك عن كل شيء ورأيت من أسباب بقاءه لك أن تتظاهر بالفناء في محبة عظيمنا الذي كنت تلغنه أمس علناً حتى أخرجت الصدور وقال لك في النادي العربي منذ أشهر أن الامة لا ترقى ، حتى يشتغل من كان مثلك بما يعلم ، يقصد بهذا أن السياسة لم تخلق لها ولا استعددت للغرض في مضارها . ضعيف المدارك لعمر الحق من

يخذه بريق المظاهر الموقّعة الحلافة ومن يؤخذ بسلطان العواطف ولا يجعل للعقل عليه سلطاناً وستريك الأيام نتائج أعمالك محسوسة ومن يعيش ير .

لوماس اللغة العربية

أخذ تقرير لجنة تفسير قواعد النحو والصرف والبلاغة بحظ وافر من الاجادة ، وإذا جرى العمل به يسهل تَلَقُّفُ العربية ، ويتم لها بعض الاصلاح الذي طالما تمناه لها عشاقها وخذامها .

إن حذف بعض ما لا يتعلق على حفظه كبيرُ أمر من النحو والصرف والبلاغة خطوة كبرى في تبسيط اللغة ، وقد رأينا الكتب المدرسية في العهد الأخير ، على كثرة العناية بتحريرها لا تزال تحمل تعليقات وتطويلات قد يستغنى عن بعضها جمهرة الطلاب ، بيد أن كثرة القواعد لم تعق اللغة عن الانبعاث اللازم بقدر ماعاقها عدم العناية بالجزء العملي منها ، وهذا لا يتم إلا بان يسمع الناشئ هذه اللغة منذ أول عهده بالمدارس خالصة من العجمة ريثما يعم التعليم فيسمعها من أبيه وأمه فصيحة لا شوب فيها ، وأول درجات الوصول الى هذا التطور في تعليم اللغة يجب ألا يتكلم المدرسون والمدربات جماعات المتعلمين ، من حدائق الأطفال الى آخر مراحل التعليم ، بغير اللغة الفصحى . وهذا يسود منذ الآن إذا حُظر على أصحاب التعليم التكلم باللغة الدارجة ، وأريد الضعيف منهم في العربية على حضور محاضرات في بعض فصول السنة ليسد بما يتعلمه بعض عجزه ، ولا يرقى من المدرسين في درجته إلا من أبان عن كفاءة في اتقان التخاطب والتكاتب بهذه اللغة ، ولو كان معلم تصوير ورياضة بدنية . ويكتفى بتعليم اللغة الاجنبية من أول سني الدراسة الثانوية ، ولا يضير الأطفال تأخرهم في تحصيلها وهم في أشد الحاجة إلى احكام لغتهم أولاً .

ثم إن الواجب على الحكومة أن تُعنى بإصلاح لغة دواوينها تُنقيها من كل غريب ودخيل ما أمكن ، وتشدّد في كل ما ينشر ويعلن الا باللغة الفصحى ، ولا تسمح بصدور صحف وكتب باللغة العامية ، وتمنع دور التمثيل والسينما والراديو من نقل كلام لا تكون الفصحى سداً ولحمة ، هذا على أن تتوخى السهولة في التعبير الى الحد الاقصى .

والحق ما قالته اللجنة من أن أدبنا محتاج الى كتب تلائم طور الشباب وما أصابت شاكلة الصواب في قولها أن الواجب ان نترجم هذه الكتب عن اللغات الاجنبية ، والترجمة لا تقيد في هذا الباب كثيراً لأنها تنقل لنا أوضاع أمة تخالف أمتنا بروحها وثقافتها واجتماعها وحياتها وتاريخها وأديها فالأولى إذاً أن نأخذ بأساليب الأجانب ونطبقها على لغتنا ونستمد من أدبنا ما يهذب ويعلّم وما اخال أنه يصعب على أرباب الاقلام منا ، متى أخذت وزارة المعارف بأيديهم ، أن يضعوا لنا شيئاً ما يلائم طباعهم من الكتب والرسائل ، ويجري مع مستواهم العلمي والأدبي ويحبب اليهم أدب قومهم المملوء بكل طريف ممتع .

إذا تحقق هذا الإصلاح لا تنقضي ثلاثون سنة حتى تكون الفصحى في كل لسان ، وتوسخ ملكتها في قلوب العامة والخاصة ، ويسمعا الناس في البيوت تكلم بها السيدة خادمتها ، وفي الشارع يتخاطب بها الرجل المثقف مع معاملة . وفي الحقل يتفصح بها المزارع وفلاحه . وما دام امتزاج الشعوب العربية بعضها ببعض يزيد يوماً فيوماً ، وهذا الراديو تصل موجاته الى الوف من الكيلومترات يحمل ضروب النبرات والأصوات وينشر كل المعاني فان هذا الإصلاح يتم على أيسر حال وفي زمن قريب ، كما تم للعربية أن نهضت في الخمسين السنة الاخيرة نهضة ما كان يرجى بعضها فاصبحت على الألسن والأقلام عذبة سائغة ، ولو راعى الخواص اليوم الاعراب في كلامهم بعض المراعاة لرجعوا بها الى قرون المجد العربي ، ولانهزمت العامية أمامها بصنعهم آخر الدهر .

اني ما زلت اسمع من رُمن طويل من الغرباء ويتابعهم المقلدون من

ابناء العرب ان اللغة العربية صعبة جداً وأن لغات الأجانب اسهل وأقل
كلفة ، ومعظم من يقول بهذا القول هم ممن قضوا سنين طويلة في تلقف احدى
اللغات الأجنبية ، وصرفوا وكدهم في أخذها عن أهلها بأساليبهم المستحدثة
السهلة ، وما أعطوا العربية بعض عنايتهم ، وما منحوها كلهم لت منحهم بعضها ،
وهم لو صرفوا بعض ما صرفوه من الوقت في تعلم لغتهم لكانت درجتهم أرقى
بكثير من درجتهم في تلك اللغة التي هيأ مدرسوها لها جميع ضروب الرغبات .
اللغة العربية ، ولا نكران للحق ، واسعة بمفرداتها ، لكن الجمهور
الذي يحاول ان يكتب ويخطب فيها ، وان يستظهر من الفاظها مقداراً
لاغنية عنه لكل من يدرس لغة من اللغات ، وهو لا يزيد على خمسة
آلاف لفظة ، هذه اللغة لا تكلف ، من تصح عزيمته على تعلمها من المشقة ،
ما تكلفه اللغات الأجنبية لكل راغب في تعلمها ، حتى ولو كان من صميم
ابنائها . هذا على شرط الاستغناء بعض الشيء عن القواعد والالتجاء إلى
الطرق العملية في تدارسها ، والسير على طريقة اهل العصر الحاضر في تعلم
لغات العلم الحديثة ، وحذف ما يقال له علم البيان والبدیع ، فإن الناس
كانوا يبرزون في منظوم هذه اللغة ومنورها وهم خالو من معرفة المعاني
والبيان وهذا البديع المريع .

وبعد فقد ثبت بالاختبار في كل الاعصار والأمصار ، ان العمل هو
الطريقة المثلى في اتقان اللغات ، ورأينا الجاحظ سيد البلغاء يعلننا في
كتابه البيان والتبيين بالشواهد لا بالقواعد ويقول لطالب النحو في كتابه
رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه الا بقدر ما يؤديه
الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جبل العوام في كتاب
كتبه ، وشعر ان أنشده ، وشيء إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو
مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردّ عليه من رواية المثل
والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » وأستدلنا بذلك أن الشكوى
من تطويل النحو قديمة يردّ عهدها الى القرن الثاني وان مثل الجاحظ
يعلمه وعقله يُرذّلها ويدعو الى الاكتفاء باليسير من هذا العلم اه .

هذا ما كتبته عملاً بإشارة أحد جهابذة وزراء المعارف المصرية بهي الدين باشا بركات ، وإلى الآن لم ينفذ سوى أشياء قليلة منه لاتوازي بعض رغبات اللجان وأرباب الاختصاص ، وما أكثرها وأكثرهم في مصر ، والزبدة أبداً قليلة لاتوازي بعض ما ينتق من المال ، وما شغلت به اذهان الرجال ، كأن الشرق كتب عليه ان يقول ولا يفعل .

الطبيب مهيب الله

قيل ان ربح سورية كل سنة من الحشيش ثمانون مليون ليرة سورية (ثمانية ملايين جنيه مصري) هذا والقانون يحظر زراعته والاتجار به وظهر أن من أعيان الزراع من يزرعونه ويجعلونه تجارتهم يساعدهم على ذلك ما لهم من النفوذ في البر والمدن ، ومنهم من جمعوا منه ثروات وما تعففوا عن تجارة ضارة بالعقول . وكانت مصر وسدت مكافحة الحشيش والمخدرات عامة إلى رسل باشا مدير الأمن العام فحاربها حرباً عواناً وأبان عن غيره على مصلحة المصريين وهو يعرف أن من رجال امته من يهربون الحشيش الى مصر مغتصبين فرصة وجودهم في الخدمات العسكرية والمدنية . ولقد خطب رسل باشا في مؤتمر الافيون في سويسرا مرة أن وزيراً سورياً يزرع الحشيش ويتجر به وقد كتبنا الى المفوض السامي في سورية ولبنان نلفت نظره الى مايجني فاعل ذلك على الانسانية فلم نأخذ جواباً ، والغريب أن الجاني مازال في منصبه . وأغرب الغريب أن يجيء رسل باشا الى مقر خصمه ويضطر أن يمد يده اليه يصافحه . وفي السياسة قد يصافح المرء قاتل أبيه ويسم لمن يبيت له المكاييد . والانكاييد جد حراس على حرية التجارة وقد عهد أن سلحوا بالسلاح اللازم جماعة هم حلفاؤهم في الظاهر بواسطة تجارهم وما وجدوا في ذلك حرجاً كما حاربوا الصين لأنها حرمت تجارة الأفيون فاستحلوا بقتل مئات الألوف من الخلق في سبيل رواج تجارتهم .

السكوت من ذهب

ظلمت أودي إيجار مزرعتنا كل سنة الى ان ايقنت ان المطالب بالوقف لايحق له اخذ شيء منا مادامت أرضنا اميرية تدفع خراجاً وعشراً . وما دام ماسمي وقفاً هو اقطاع ليس الا . ولما امتنعت عن الاداء امتنع اهل القرية عن تسديد ماكانوا يغرمونه إيجاراً سنوياً اذا قطعوا حطباً من أرضهم . وعلمني أحد اصحابي وكان مارس القضاء الشرعي كثيراً أن أقول كلما دعت الى المحكمة الجلمة الآتية : أرضنا أميرية ندفع عنها الأموال والعشور ، ابتاعها أبي بماله ، وبأيدينا سندات تمليك ، وما أبيعه من حطبها هو مما غرسه أبي وغرسه أنا . فكان صاحب الوقف اذا قرؤاله ما كتبت تغيب طلعه عنا عشر سنين ثم يعود فيطالب بوقفه في صورة أخرى ، ونرده بكتابة تلك الجلمة الذهبية في سجل المحكمة .

وقدر الله ودخلت في السياسة فطبقت فيها بعض ما استفدته في مدرسة الحياة من التجارب . واتفق ان بدا لرئيس وزارتنا أن ينحني وينحني رصيفاً لي فلم ير أنجع من أن يضع علينا من الوزراء من ينبش بمهارته ماتكنه صدورنا نحوه ، فما رأيت احسن من أن أنسج على منوال تلك الجلمة التي تعلمتها من المحامي الشرعي وانقذتني على إيجازها من تعجيز المطالب بالوقف ، فكان جوابي كلما سئلت عن الرئيس جملة سهلة لطيفة وهي ان الرئيس تفضل واستدعانا الى معاونته في وزارته فله الشكر على ثقته بنا ، فاذا رأى أن يستعيز عنا باناس اكفاً منا فانا مستعد للاستقالة لافرج كرسي الوزارة لغيري لأنني أريد نجاح الرئيس وبتجاحه نجاح بلادنا ، وارجع الى بيتي وانصرف الى شؤوني الخاصة .

وأما زميلي فكان يطلق لسانه في الرئيس وأبيه ويذكر افضاله عليه في معاونته بالمال ليصل الى الحكم ، ويتبع ذلك بسباب وقذف ليس من شأن

من يشتغل بالعموميات ان يعود لسانه التفوه بمثلاً، ويذكر أموراً تسقط من قالها قبل ان تسقط من قيلت فيه . كنت ألقى هذا الدرس الوجيه ست مرات في الأسبوع ، والازمة الوزارية دامت مدة ، وما غيرت فيه ولا بدلت ، وكذلك كان من صاحبي ماغير شيئاً ولا بدل . وانتهت الأزمة باخراجه من الوزارة متهماً بأمور ربما كان منها بريئاً ، نسبت اليه ليرضى أهل الحل والعقد بتدجيله ، وأنابيت في الوزارة ، وكان المظنون اني اقرب الى الاقالة .

وبهذه الألعبوبة عرفت حكمة ماحفظته في الكتاب (سلامة الانسان في حفظ اللسان) وكررت درساً في اخلاقنا أحجبت نقله الى أبنائنا ، وثبت لي ان من الأمور مايجل بعضه بعضاً لتشابه الأشياء ومنها مايقاس على غيره وان الاعتماد على الایجاز في معظم المواقف ادعى الى السلامة ، والمكثار عرضة للعثار ، وربما كان في الثثرة خرم يدخل منه الحضم فيربح ، والمرء مأخوذ باقراره .

اللقاب والرتب والادوسمة

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبواباً
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كانت يرضى به للحش بواباً
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا هذا فأنتق في الأقوام القباب
(أبو بكر الخوارزمي)

الحش (لامؤاخذه) مثلثة ، المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين .
القاموس المحيط

كان بما اخترعه بنو العباس (١) أيام ضعفهم اطلاق القاب على من كان مقبولاً في دولتهم ، وجرت أكثر الدول بعدهم على طريقتهم حتي إذا

(١) راجع ماكتبته في الالاقاب والرتب في الجزء الثاني من كتابنا (الاسلام والحضارة

كانت الدولة العثمانية غلّكت في اعطاء الرتب والاوزمة والألقاب غلوّاً لم يسبق له نظير ، فدخلت مسألة التشريف في طور من الهزل غريب ، والأمور تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وربما كانت نافعة اذا جرى الاقتصاد فيها ، ولا تلبث أن تتوسع في النهاية وتكون منها مضرة ، وعلى الألقاب والاوزمة تصدق هذه القاعدة . وظل العثمانيون على هذه الطريقة في رفع الناس وخفضهم ، يعدّلون في مصطلحاتهم ويزيدون وينقصون ، حتى إذا كان عهد عبد الحميد الثاني بلغ أمر الرتب والألقاب حد السخف فزادت الاخلاق فساداً وشغل الناس بالعبث وأُلقيت بينهم المنافسة في أمور لا نفع فيها .

وورث مصر هذه العادة الضارة من دولة العثمانيين وراجت في أيام الحديوي عباس حلمي الثاني رواجاً مضحكاً حتى كان لها سمسرة يجتمعون جعلالات كبيرة ممن يحرص على التشرف بها ، ولا تزال نرى في قلوب المغرمين بهذه الأمور في مصر بقايا يرثي حال من أصيبوا بها . أما مملكة شرقي الأردن الصغيرة فأوغلت في منح لقب الباشا حتى حازه عشرات من أهل الطبقات الثلاث وعدّ من حسنات العراق والشام (سورية ولبنان وفلسطين) الفاؤها الألقاب وقضاؤها على الرتب وقد اخترع بعض حكوماتها اوسمة تجود بها على الاجانب وعلى من ترضى عنه خدمة أسداها لوطنه . ويجنح بعض العقلاء في الدولة المصرية اليوم الى الغاء الرتب والألقاب على أن لا يبقى فيها إلا رتب الجندي لتنجو مصر من مصطلح يفسد التربية ويعلم الناس التحيل والزهدي في الكرامة بما لا ينطبق مع جلال مدينة هذا القرن وترقي عقول أهله .

ولقد دخل التفاخر بالألقاب والرتب والاوزمة في بعض ممالك الغرب أيضاً في دور سخافة عجيب حتى صرنا نرى الممالك التي لا تعرف الألقاب كسويسرا مثلاً أرقى بأخلافها من فرنسا واسبانيا وقد أوغلنا أي اغفال في هذا الشأن . وهكذا الحال في جميع الدول الجارية على قوانين قديمة

بالبية يعبث ولاية أمرها بمعقول رعاياهم ويشغلونهم بامور تليق بالاطفال
لا بالرجال .

بعد كتابة هذا اطلعت على بلاغ عام نشرته حكومة الجمهورية السورية
على دواوينها واليكه بنصه :

جرت العادة ان تضاف الى الأسماء ألقاب أعجمية ولما كان من
المستحسن صرف النظر عن هذه العادة نزجو الرجوع الى استعمال كلمة
السيد بدلاً من كل مايقابلها من الألفاظ الأخرى ودمتم .

رئيس مجلس الوزراء

سعد الله الجابري

وكان الاكتفاء بلفظ السيد قرره مجلس الشورى السوري بعد خروج
الأتراك من ديار الشام بأشهر قليلة فاستراح أهل البصيرة من هذه العادة
وبقيت الحجاز ونجد واليمن الى اليوم على عادة العرب في اغفال هذا
الضرب من التشريف .

ذكرت وأنا أكتب هذا كتاباً خاصاً اطلعتني عليه أحد وزراء العدل
في عهد الانتداب جاء من قاض جركسي الجنس في حمص أطلق فيه انواع الألقاب
على وزيره فكان يقول له تارة فخامتكم ودولتكم ومعاليكم وسعادتكم
وعزتكم ورفعتمكم ، وطوراً يحليه بالألقاب المصطلح عليها في تلقيب
رجال الدين فيقول له سماحتكم فضيلتكم غبطتكم نيافتكم سيادتكم بحيث
لم يبق لقباً من الألقاب الا منحه لمخاطبه . فان كان هذا القاضي لايعرف
الفرق بين هذه الألقاب فهو أبله لايصح أن يقضي بين المتخاصمين وان كان
يريد الهزء بصاحبه فهي جرأة منه يستحق عليها الترقية في نظري لأن هذا
شيء جدير بالهزء ولا اقول انه غير مؤدب بل أصفه بأنه فكه مداعب .



شاعر المهجر

أقامت وزارة معارف سورية برعاية رئيس جمهوريتها حفلة تكريم في الجامعة السورية يوم ٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ودعيتني الى الاشتراك فيها فقلت ما يأتي :

الى ضيف سورية العزيز .

الى الشاعر الاجتماعي الكبير ايليا أبو ماضي .

اذا شهدت الحكومة والشعب هنا بحرصان كل الحرص على الاحتفال بك فذلك لأنك أهل لكل تعظيم وتكريم . وكل من قرأ شيئاً من شعرك العذب أو اطلع على أفكارك العالية منشورة يعجب بك ويعدّ ما يقام لك في كل مكان من بلادك هو بعض ما يجب لك عليها فأهلاً وسهلاً بالعربي المخلص أهلاً بالرجل الذي بيّض الوجوه ورفع الرؤوس . وانا لنرجو أن تطيل مقامك بين أظهرنا ليتسنى لك الاختلاط بكل الطبقات فتحقق بنفسك مبلغ اعجاب السوريين بك وما أنت في الحق مفخرة السوريين فقط بما بذلت من جهد للنهوض بهم بل أنت مفخرة من مفاخر العرب في عصرنا ولذلك كان من الانصاف أن يكتب الى جانب جوازك الذي تحمله لتجتاز الحدود (جنسيته : عربي) فقط .

أحييك وأحيي بشخصك الكريم مئات الألوف من اخواننا المهاجرين الأغزة ممن تركتهم ورائك وهم يتلفون شوقاً لوطنهم الاول وقد اثبتوا في مواطن كثيرة حرصهم على قوميتهم وتباعيتهم بوطنيتهم وعربيتهم . ولطالما استحلّيت بمن أسعدني الحظ بالاجتماع اليهم ألهم من ان من أولادهم من حرموا معرفة اللغة العربية لقلة المدارس ورأيهم كيف يعنون في شمالي اميركا وفي جنوبها بتأسيس معاهد لتلقين لغتهم ومنهم من كان يرسل ولده

الى الديار الشامية ليحكم فيها لغة ابيه وامه . كل ذلك حتى لا يقطعوا صلاتهم بأهلهم ووطنهم وهم قادرون على ان يبقوها مطردة دائمة . ايها الأستاذ العظيم .

متى عدت بالسلامة الى اهلك وراء البحار قل لهم ان سورية ولبنان اليوم غيرهما بالأمس وان النظام الجمهوري قائم فيها على مايجب انصار الديمقراطية وان حركة الأعمال الزراعية والصناعية سائرة سيراً لم يعهد لها مثله في الماضي ، قل لهم ان عشرات من المعامل أنشئت في عهد الحرية على مثال ما في الغرب منها وان الناس يعملون ويكسبون ويغنون وينعمون بما اتت به الحضارة الحديثة ، فأقاموا الدور المنجدة والقصور المشيدة والمصانع الجميلة والمرافق العظيمة بما لا يقل بعظمته عما عند الغربيين منها ، قل لهم ان قبس المدنية سرى الى البوادي سرايته الى الحواضر ، وان السكان يتمززون ماحلت من مباحج ويتذوقونها لايخافون الا انفسهم ويعيشون بسلام كلهم . قل لهم ان الوطنية اتت على ما كان في بعض الأزمان من عصبية جاهلية وان كل وطني اخذ يدرك ان اجتماع القوى المتفرقة اجدى من عمل فردي ضعيف ، قل لهم وانت خير رسول ان بلادنا هذه تتسع لابواء عشرة ملايين من الأنفس على الأقل وان الربح من استثمارها واستثمارها لا يقل عما يربحه المجدد في خير الأقاليم . حدثهم أن عندنا أراضي كأراضي الرحبة شرقي الصفا مثلاً تعطي حبتها مئة حبة من غير ما حثت ولا كرت وان مناخ أرضنا يصلح لمعظم حاصلات الأرض وشجرها وان هناك أنهاراً عظيمة يمكن استخدامها للري على أيسر سبيل . وكل ذلك يحتاج الى رؤوس اموال اذا اجتمع بعض مالدينا منها هنا ببعض ما لدى اخواننا في المهجر كانت منها ما يأتي بالعجائب . ورابطة المال من أقوى روابط البشر .

يا أخي إيليا :

أكثر الناس لا يعرفون من بلادهم الا ما نظروه في الخريطة وتأملوه في كتب الجغرافيا ، معالومات لا تشبع من يريد كنه الأشياء وان يتعرف

الى حقيقة الواقع فهل لك أن تقترح تأليف لجنة من مهاجري الشمال والجنوب على أن يكون فيهم الزارع والصانع والتاجر والمهندس والكيميائي والطبيب ليرحلوا الى سورية ولبنان في الربيع القادم ويبحثوا بأنفسهم عما في أرضنا من خيرات مدفونة تعوزها العناية حتى تغني من يستثمرها . وأنا على ثقة أن مثل هذه الرحلة يأتي منها خير كثير ولا يقوّم حب أوطان في النفوس أكثر من رؤيتها ودرس خصائصها وميزاتها .

قالت العرب : أرسل حكيماً ولا نوصه . وقالت أيضاً : أرسل حكيماً وأوصه ونحن نقول بالمثل الثاني نرسلك الى العرب في الأميركتين معتمدين على وطنيتك الباهرة ونفسك الحساسة الشاعرة ونوصيك وان كنت في غير حاجة إلى توصية أن تصدق اخوانك الخبر وقل لهم طالت غربتكم ووطنكم في أشد شوق اليكم حيّاهم الله وبيّاهم وجعل التوفيق حليفك في حلك ومرتحلك .

مؤون

حدث ان اجتمعت الى احد رجال الدولة العثمانية انحدث اليه في أمر يهمني فراح يتكلم ويحاول اشغالي بمحدث تافه من مثل البحث عن صفاء الجو وجودة الموسم ، فرأيت أن أسأله في موضوع قريب من موضوعي كأن أسأله عن شخص في قصته شبه من القصة التي أحاول الوصول الى معرفتها وذلك على سبيل الهزل ، فتبدّر على لسانه كلمات تنفعني في تلسمي ما أبغني الوقوف عليه ، واضفت الى قوله أشياء من عندي وتم الخبر المطلوب ونشرته في الجريدة فقامت قيامة محدثي واستغرب كيف وصلت الى معرفة ما يعده من الأسرار التي لم يطلع عليها انسان . وربما عاد على كاتم أسرارهِ فقرعه على كشف ماستره بزعمه عن الشمس والقمر .

الصحافيون من أقدر الناس على استقصاء الأخبار اذا نواوا كشفها ، وأنا لم استعمل هذا الاسلوب مع الوالي الغبيّ الا مرة واحدة غفر الله لي .

بعض الناس لا يجب أن يسمع مدحيه ويعد مادحه متزيذاً مهما اعتدل في مدحه ، وربما فاته بعض نواح ترفع قدر صاحبه الى اكثر مما قال فيه وانا خلقت من الكارهين للمدح لعلمي بعدم فائدته للمدوح ولا للسامعين والقائلين . وما فتىء بعض من يحسنون الظن بي يريدونني منذ اعوام على الرضا باقامة حفلة لي يذكرون فيها ما كان حظي من المشاركة في خدمة الآداب وأنا أجيبهم ان هذا لا يليق وانا حي ومن بعدي انتم احرار لتقولوا ما يرضيكم .

* * * *

كان لي صديق من الأعيان على جانب من الوفاء والرزانة متوسط الذكاء ، وكان كتوماً جداً يؤمن بقاعدة (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) عقد عقده على ثيب حسناء وهو في سن الشيخوخة دون أن يستشير أحداً من أصحابه وفيهم من لا يخفي عنه ما يعرف من سيرتها اذا استشاره . فرأى صاحبي من المهارة أن يكتم كل ما يحاول انمايه حتى عن أصدق أصدقائه ، ولسان حاله : اذا أنا لم ابادر الى الاقتراح بمن ظفرت بها افلنت مني واستمتع بها غيري . وكانت زواجه العامل الأكبر في خراب بيته في ماديته ومعنوياته .

* * * *

قد يغفل المرء أو يتغافل عن شيء إذا حوسب عليه يخرج بعد الحساب خاسراً ويكون من ذلك عبث بالحق البين وقصور بما يوجب العدل والانصاف . حدث أن ألقى صديقي الأمير شكيب ارسلان محاضرة في دار الجمع العلمي العربي في نهضة الأدب في الشام على العهد الأخير عرض فيها بذكر من قاموا بكبر هذا الأمر من الصغار والكبار وكنت حاضراً فلاحظ بعضهم أن الأمير لم يذكر الجمع وهو من أعضائه ، ولم يقدر ما كان له من يد في نهضة العلم العربي . وقالوا انه كان من باب اللياقة ان يذكر صديقه رئيس الجمع ولو بكلمة .

ولعل سياسة ذاك العهد والكتلة الوطنية مسيطرة ومن أعضائها من يكرهني وهي تبغي ان تأتي بالأمير لرياسة المجمع دعتة الى هذا التغاي ، وقلت لمن أبدى تلك الملاحظة : دع هذا ورجح حسن الظن ، وما ضرك لو قلت ان الامير نسي فقط ، وانا لا أعتقد انه ممن يغمطني حقى ، وقد صدقته الود طول عمري . وما أعجب بأحد من ارباب الاقلام اعجابي به وربما لم يخدمه احد من معاصريه كما خدمته (راجع فصل وطنية الامير شكيب في الجزء الثاني من المذكرات) واذا جنحت الى التوسع في التحليل فقل ان شكيباً بُلي بصحة بعض الزعائف ، بسائق من سلامة صدره ، يوسع لهم في مجلسه كما كان منه مع رجل لازمه ملازمة الكلب لاصحاب الرقيم مدة مقامه الاخير في دمشق فكبر له أناساً وصغر له آخرون ، وعادت وشاياته على الامير بالضرر اما هو فلم يخسر اكثر من بيع ضميره ولطالما باعه لمن يساومه ومن لا يساومه .

كثيراً ما قلت لشكيب اني أحبه اكثر مما يحبني فكان يتسم لقولي ويستحي ان يجيبني .



الدواء الناجم

تلوث ارباب السلطة التنفيذية في الشام ومصر بالرشوة فذهب وقار الحكومات واحترق المحكوم عليهم من عينوهم واهملوا النظر في أمرهم ، ويستحيل ان تكون عقلية شرطي كعقلية قاض مثلاً والقاضي تعلم في الجملة والشرطي او الدركي اقرب الى الأمية والعامية . ومن دهاء بعض الشرطة والدرك انهم جد أمناء لكل حكومة تتسلم زمام الحكم ، ولكل حزب يسيطر وتنتشر دعوته . والداهية الباقعة منهم قد يخدم عدة احزاب من باب لا ترسل الساق الا بمسكاً ساقاً . اما في مسائل الرعية فيعملون على الهوى ويسلبونها كأنما يأخذون من مالهم ، ويحكمون في أهل بيتهم . ومنهم من يسأل ارباب المصالح جبهة ان يمنوا عليهم بشيء لأن رواتبهم لا تقوم بأودهم واود عيالهم ، ومنهم من يرتقون الى اعلى من ذلك فيساومون على الجعالة ، يسلبون ماوسعهم السلب . ولطالما ضاعت الجرائم بدريهمات يدفعها المجرم لمن بيده التحقيقات الأولية التي عليها يبني الحكم ولذلك لم ينقطع دابر الأشقياء لأن ارباب الشحنة يعضون الطرف عنهم أحياناً ، ومن المتهمين من يحمل للدركي والشرطي حصنه من الغنيمة ، وبهذه الشركة السرية بين الشقي ومن يقبض راتبه من الدولة لمطاردته ومطاردة امثاله ضاعت الحقوق وزالت الهيبة ومن رجال الامن من اذا قرت الاحوال وكسد عندهم سوق الانتفاع من الناس يخترعون مسائل لأحل لها او يحسمون مالدتهم من الوقائع ليملاؤوا جيوبهم من جيوب الأبرياء .

ولا دواء فيما نعلم لهذا الداء الا تفتيش كل ديوان وكل شعبة من شعب الادارة وتنفيذ تقارير المفتشين الأمناء من دون اهمال ولا امهال وبذلك ينزل معدل الفساد ويستريح الناس باخراج كل من يسرق من الخدمة على ان لا يعين أحد مكانه وهذا يقتصد مبلغ عظيم يضم الوفير منه على مشاهرات

ارباب الرواتب الصغيرة فلا تتضخم الموازنة ولا تبقى معذرة لمن يسبثون الاستعمال من العمال بدعوى قلة رواتبهم .

ربما يقول بعض من يحبون السلامة ان هذا الرأي خيالي لا يتأتى تطبيقه
لا يحدث منه للحكومة من الاتعاب وربما كان منه ما يخل بالامن ونحن نعتقد
ان افراداً فاسدين ويعرفون انفسهم أنهم فاسدون تستغني عنهم كل حكومة
تحب الاحتفاظ بكرامتها واذا تم هذا الاصلاح تصفق الرعية وتغتبط لانها
متهومة بالفاسدين وتلعن أبداً من يخرجون عن جادة الحق ولا يمنعها من
اهلاكهم الاتكريم ما يلبسون من بزة والخوف مما يحملون من سلاح .

ونلخص بعد هذا - (وقد سبقت لنا هذه المعاني في هذه المذكرات)
دعوتنا في كلمات : صرف المأمورين المستغني عنهم ، تفتيش دقيق على الحائنين
وطردهم من الخدمة بلا هوادة ، التوسعة على ارباب النزاهة من الموظفين
واعطاؤهم مشاهرات جيدة .

وهذا الاصلاح يحتاج الى بضع سنين حتى يتم على ما يجب وتظهر منافعه
من السنة الاولى وهو النجع دواء .



خزانة عظمى

أرادني صديقي العلامة ابو عبد الله محمد الزنجاني من علماء ايران عليه
رحمة الله ان اكتب الى العالم الكبير الميرزة محمد علي خان فروغي رئيس
وزارة ايران والى العالم الميرزة علي اصغر خان حكمت وزير معارفها أطلب
اليها عمل فهرست لمكتبة قصر كلستان في طهران وقال لي ان كتابتي
اليها تؤثر اثرأ محموداً لانها يعرفانك حق المعرفة ويستمعان لاقتراحك .
فتجاسرت وكتبت اليها فجاء جواب العلامة فروغي رحمه الله بالعربية وهذائمه:
حضرة العلامة الاستاذ الأكبر دامت معاليه

تناوات كتابكم الكريم الحاوي حسن ظنكم بي وعواطفكم الجميلة نحوي
ونحو بلادي فأرجوكم أن تقبلوا فائق شكري وامتناني على ذلك وبحسن
بي أن أحيط علمكم الشريف أنه قد سبقت أيضاً الى السمع ذكرى فضائلكم
وما تبدلونه من الخدمات الصادقة للعلم والاسلام فأرجو الله أن يؤيدكم لذلك
ويبقيكم ذخراً للعلم وأهله .

أما ما اقترحتموه من وضع فهرس للخزانة الملكية بقصر « كلستان »
فقد بوشر بالعمل منذ زمن ونرجو أن يتم أمر التنظيم قريباً والشروع في طبع
فهرس يتضمن ما احتوت عليه الخزانة من المؤلفات واذا طبع فانكم ستشرفون
عليه ان شاء الله . هذا مالزم وقبضوا في الختام بقبول جزيل سلامي .
والغالب أن حوادث الحرب الماضية وما لقيته ايران المحبوبة من ارهاق
الدول المحاربة آخر انفاذ هذا المشروع النافع وعسى أن يكون الأخلاف علي
ما كان الأسلاف عند حسن الظن بهم ،

الوطنية العربية

ما عهدنا طائفة الروم الارثوذكس الا متضامنة مع السواد الاعظم من سكان البلاد الشامية في كل نازلة وهاهي تقدم برهاناً آخر على عروبتها ووطنيتها في المسألة الصهيونية بلسان بطريركها العلامة الكسندروس طحان فقد تشر بياناً في قضية فلسطين دل على شعوره وشعور طائفته . وبما قال مخاطباً رجال الدين والدنيا من ابنائه :

لم يفت علمكم ما من به المولى سبحانه على جميع البلاد التابعة روحياً لكرسينا البطريركي الانطاكي من نعمة الاستقلال بعد الاستعباد والهناء بعد العناء فأضحت بلادنا تلك امر نفسها يسوسها ابناؤها البررة الاخيار . غير ان هذه الحالة الطيبة التي متع الله بها امتنا العربية وكنا نأمل دوامها قد تنغصت بالقرار الجائر الذي صدر في الآونة الاخيرة بتجزئة فلسطين الارض المقدسة الى منطقتين يهودية وعربية - التجزئة التي يقصد منها خلق دولة يهودية مستقلة في بلاد عربية عريقة في القدم - والذي يحمل في طياته خطراً مبيئاً على مقدسات الشعوب العربية المسيحية والاسلامية في فلسطين العزيزة ويكوّن جوّاً دائماً الاضطراب ربما ادى الى تكثير السلام العالمي لما لتلك المقدسات من الاحترام العميق عند اصحاب الاديان مسيحيها ومسلميها وقد كنا نرجو قبل صدور هذا القرار الجائر ان يتورع مصدره من العبث بحقوق اولئك الشعوب الذين لم يأتوا امراً يستوجب التهجم على بلادهم التي مرّ على سكانهم فيها عدة قرون وهم فيها آمنون متضامنون . ولكن خاب الامل ووقعت الواقعة فدامتنا ايام عصيبة هي اعظم ما حل بالبلاد العربية من محنة سوداء لم نجد معها مناصاً من ان نهب الى الدفاع عن حقوقنا وصيانة حرمة مقدساتنا . واي شعب من شعوب الارض كلها تتوقد في صدره جذوة الدين لا يبذل النفس والنفس في سبيل الذود عن معابده

ومساكنه وحرماته التي هي اثنان ما يملكه في دنياه ؟ وما كاد القرار الجائر ينتشر خبره المؤلم في الاصقاع العربية حتى قامت التعديات الصهيونية على حياة السكان وعلى معابدهم وبيوتهم ومتاجرهم بصورة فظيعة تنبئ عن مهالك مبيتة للرجال والنساء والاطفال ليخلو الجو لثيورها في امتلاك الديار كما يشاؤون .

ولم تقاعد الشعوب العربية الذين أخذوا على حين غرة ورأوا الخطر المداهم عن الذود عن نفوسهم وعن كل ماله شئت في حياتهم الدينية والاجتماعية اندفعوا يحمون ذمارهم ويدافعون عن حرمتهم غير ضائنين بكل ما لديهم من عزيز في سبيل تحرير فلسطين العزيزة .

واذ كنا أبناء الكروسي البطريكي الانطاكي تؤلف جزءاً من البلاد العربية فمن واجبنا أن لا نتقاعد عن المبادرة الى المساهمة الفعلية في الجهاد القائم أمامنا للدفاع عن فلسطين المقدسة والى التضامن مع اخواننا العرب بكل ما نملك من قوة وعزيمة ماضية لنصرة الحق وخذلان الباطل .

سرقه الآثار

زارني في داري الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدل في وزارة السيد جميل مردم بك الكتلوية (نسبة للكتلة الوطنية) وقال لي انه اتصل به من مصدر وثيق ان الأمير جعفر الحسني مدير دار الآثار يتجر بالعاديات بصورة غير محللة اي يسرقها فتأثرت لهذا الكذب الصراح وقلت : ان الأمير يقل من يضارعه في نزاهته من عمال الجمهورية ولو كان يستحل أن يسيء استعمال وظيفته لعد اليوم من كبار الاغنياء ، واذا أنا سرق فيكون جعفر قد سرق . وسراق الآثار والمتجرون بها هم يتهمون الاستاذ الحسني بهذه التهمة الشنعاء لانه سلم بعضهم الى القضاء لمحاولتهم اخراج آثار سورية الى خارج الحدود .

ولعل الكيالي حاول المصاق هذه التهمة بالامير يوم حاول مع رئيس حكومته ان يهديا أيضاً أحد المهريين من الارمن المتأمرين الاسدين الرخامين الرابضين الى اليوم في المحل المنسوب اليها (ارسلان طاش) من الجزيرة ومنع المفوض السامي يومئذ اخراجهما من ارضنا بعد ان نشر خبر هذه الهبة العظيمة في الجريدة الرسمية . فبدا للكيالي ان ينتقم من الامير جعفر باتهامه بهذه التهمة الدنيئة ووقع في نفس الكيالي بعد المنع ان يقنع مدير دار الآثار بالتوسط لدى الحكومة المنتدبة حتى تغض الطرف عن الاسدين وتأذن باخراجهما من سورية فأبى .

ولما لم يستطع الوزير الكيالي ان ينال من الامير جعفر اضمر له الحقد هو ورئيس الوزراء وانضم اليهما مؤخراً رئيس الجمهورية فما شفى صدورهم من الامير جعفر الا اقصاؤه عن دار الآثار فاحيل الى لجنة تأديبية جزاء أهليته واستقامته . ومن طبيعة الكتلوين انهم يشق عليهم مشاهدة أرباب النزاهة في الحكومة لانهم يحاولون أن يكون الناس كلهم كاسنان المشط في الاستواء هذا مثال من ذمة من طالما زعموا ان الوطنية وقف عليهم وعلى من يرضون عنه احتكروها لانفسهم وباعوا واشتروا باسمها ، وكان أهم موادها التزييف والظلم .



المعلم يفني

كان الأدب العربي الى أواخر القرن الماضي لا يدر على صاحبه ما يسد به الرمتق لأن الولايات العربية كانت تحت الأحكام التركية غارقة في الجهل ، والآتراك ليسوا من العربية في ورد ولا صدر ، ومصر ماكانت في درجة من الحضارة تعرف قدر لغتها . فكان بعض المتأدبين يجعلون من الأدب حلية يظهرون بها اذا كفوا مؤنة العيش ، ومنهم من اذا برّح بهم العوز ينظمون القصائد في مدح الأكابر والحكام فيجيزونهم اجازات ضئيلة . وكان في مدرسة اللعازارية بدمشق استاذ للعربية اسمه أمين الحلبي تعرفت اليه عندما كنت أختلف الى ذاك المعهد أتلقى الآداب الفرنسية فكان لفرط غيrote على أدب العرب كثيراً ما يعذلني على ولوعي بادب الفرنج واهمالي الأدب العربي ويذكر لي مافي هذا من البدائع التي خلت منها آداب الفرنسيين .

ثم انتقل صاحبي الى بيروت وحرر جريدة الأحوال مدة والغالب أنه سئم المراقبة على الصحف يومئذ وما كان صاحب الجريدة عليه من التعصب الذميم وملّ أيضاً العيش من شق القصة على غرامه بالعرب والعربية وهاجر الى جنوبي افريقية فاشتغل بالتجارة واغتني في سنين قليلة .

ومن حال صديقي الاستاذ أمين الحلبي تستخرج مسألة روحية نماذجها حالة اقتصادية ذلك أنه لو لم تشتد منافسة البوتستانت والكاثوليك في ساحل الشام في القرن الماضي لما ظهر الرعيل الأول من علماء العربية . أنشأوا المدارس لنشر مذهبهم وعنوا بتدريس العربية فظهر الأعلام من خدامها أمثال بني البازجي وبني البستاني والخوراني والأسير والأحدب وغيرهم .

الصحف والكتب

يقول غستاف لبون ان الصحف والكتب تؤثر في نشوء الآراء وفي سرايتها تأثيراً عظيماً ولكن دون تأثير الخطب . وتأثير الكتب أقل من تأثير الصحف لان الجمهور قلما يقرأها ومن الكتب ما استهوى العقول فأدى الى اهلاك ألوف من البشر كما وقع من كتب روسو فانها كانت ترواة تشبع بها زعماء الارهاب ومثل ذلك كتاب « بيت العم توم » الذي ساعد كثيراً على نشوب حرب الانفصال الدامية في اميركا ، وقد أثرت رواية روبنسن كروزي وقصص جول فرن تأثيراً عظيماً في عقول الشبان وفتحت لكثيرين طرق الكسب . وقوة الكتب كانت شديدة عندما كان الناس يقرأون قليلاً فان تلاوة التوراة في زمن كروم مثل أنشأت في انكلترا عدداً كبيراً من المتعصبين . وفي العهد الذي كتبت فيه رواية « دون كيشوت » كانت قصص البطولة ذات تأثير سيء في العقول كلها حتى لقد اضطر ملوك اسبانيا أن يحظروا بيعها أما اليوم فان تأثير الصحافة أشد من تأثير الكتب . وقد ظهر في الصحف اليومية في كثير من الحوادث الخطيرة لهدنا شيء من الاستهواء والاغواء ، وتبين الآن أن حرب الولايات المتحدة مع اسبانيا كان النافع في ضرامها بعض الصحف ولو فرض وهذا الفرض غير عسير التحقيق ، ان صاحب مصرف متوسط الثروة ابتاع جميع صحف مملكته يصبح سيدها الحقيقي يعلن الحرب ويعقد الصلح على هواه . وقد رأينا المالين يتناعون القسم الخاص بالبورصة في جميع الجرائد آملين أن يعلنوا عن مشاريع من شأنها أن تأتي على الثروات التي جمعت من التوفير لتربحها . وما من حكومة تجهل هذه القوة القاهرة للصحف وغاية ما يحلم به السياسي المحترف أن يتخذ لنفسه جريدة منتشرة تنطق بلسانه وقد كان من وزارات الامبراطورية الالمانية أن حببوا للرأي العام معظم اعمالهم

بواسطة صحف غذوها بأموالهم فاستألت لهم الرأي العام . ان سرعة تصديق القراء لما يقرؤنه في جرائدهم عجيبة من العجائب .

هذا رأي الحكيم غستاف لبون في الكتب والصحف وهو كلام لا يصدق على الاقطار العربية المتمدنة وقراء الصحف ما يروحوا قلائل وقراء الكتب أقل بكثير من قراء الصحف . ثم ان القراء عندنا يسيئون ظنهم بارباب الصحف ويزعمون أن الصحافة تضلل العقول وتكذب وتخلق ونسير مع أغراضها وأحزابها ، ساءت سمعة الصحف فرميت بما رميت به وكانت الحكومات هي التي جنت عليها ، تنفق عليها وتفسدها بالمال لتقوم لها بدعايات ملفقة ، ومن أحسن ما تم في عهد الثورة الاخيرة في سورية الغاء نحو ثمانين صحيفة والاكتفاء بعدد قليل فقط . وبما أبقوا عليه من الصحف المحترمة يرجى أن تتحسن منازع الصحف وأن تصدق ولا تتحامل ولا تحتلق وأن تحمل للقراء كل ما يفيدهم .

أما الكتب فهي في بلاء لا يشبهه بلاء لاعراض القوم عن تناولها الا مكرهين ، فالكتب المدرسية تؤلف للدارسين ولجليل خاص من الناس ، ومهما سمت درجتها لا يتناولها الجمهور ، وعلى الجمهور وما يتغذى به من الافكار المعول الأول . والجمهور عندنا يتغذى كثيراً بالقصص والروايات ومنها ما لا يفيد في دين ولا دنيا وكتب الدين مقصورة على طبقة بعينها لا تتعداها الى غيرها وأكثر رجال الدين يستعيرون الكتب اذا حفزتهم الحاجة الى مطالعتها وقل فيهم من يطيل النظر فيها .

بقيت طائفة من الناس تحب كتب الثقافة وهي ضئيلة لا يعول عليها في نشر الكتب لأن عددها الى اليوم لا يتجاوز المئات واذا وصلت بعض الاسفار الى أن يطبع منها ألوف فهذه من الكتب التي ألفها أرباب النفوذ أو من يحسنون عرض بضائعهم على القوم بأساليب لهم تفردوا بها . والمؤلفون في هذا الصنف من الكتب الشريفة لا يستطيعون أن يكونوا مؤلفين وتجاراً . وما يرح الوراقون يربحون من الكتب أكثر من المؤلفين .

ومن أجل هذا نقول ان الكتب والصحف لم تبلغ المبلغ الذي كان

يجب لها في الشرق العربي ولعلها تصل الى ما يرجى منها من التأثير بعد جيل أو جيلين لأننا أخذنا نكثر من نشر المعارف ولا سبيل الى رواج الصحف والكتب بغيرها ولا بد من قضاء الوقت اللازم لنضج الأعمال واثارة العقول . قال أحد سفراء اميركا وهو من هواة الكتب ان لأرباب الملايين في أميركا خزائن كتب جميلة والبلد لا يعد مثقفاً ثقافة حقيقية الا اذا كان فقرأؤه يقتنون الكتب .

الصدقة والسياسة

اعجبني كلمة قالها الدكتور عبد الجبار جومرد من نواب المعارضة في مجلس نواب العراق : اذا كانت السياسة هي الاشتغال للصالح العام فالسياسة شيء والصدقة شيء آخر ، اذا تكلمت بالسياسة لا ارى امامي صديقاً واذا قابلت صديقاً نسيت السياسة . وانا أحس بان هذه القاعة - قاعة المجلس العراقي - محراب سياسي للامة فالكلام فيها بأدب والمعاملة بالرفق ، ومن احترام هذه الندوة احترام امته فاذا تطرقت الى النقد في السياسة والنقد مرّ ، فارجو الا يغضب علي احد واذا غضب فلا أبالي .

وصاحب هذه المذكرات جرى على هذه الحطة ففرق بين الصدقة والسياسة وقد لايجيد عن قانون الصدقة لخدمة السياسة ولا يتخلى عن واجبه في النقد مراعاة للصدقة . قال لي بالامس احد خلاني الاعزة لقد بالغت في المذكرات في الثناء على صاحبك محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية الاول ، فقلت له هذا ما عرفته فيه بعد طول العشرة ، وما ذكرته شهد الله الا بما فيه واشرت الى ما حمد منه والى ما انتقد عليه . وصاحبك اللذان جاءآ بعده هل قاما بحق هذا المنصب الجليل اكثر من صاحبي هذا ؟ ماذا كان من صاحبك الثاني وهو بالاجماع لم يضر ولم ينفع على ما انطوى عليه من اخلاق حسنة وعفة عن المال . وهل في مقدورك ان تنكر ان الثالث ساقنا بسوء سياسته

وفساد طريقته الى الخراب حتى آل امره الى ذلك المصير المحزن .
هذه هي عينات رجالنا لم تتعلق الأقدار بان يتولى هذا المنصب العظيم
ارقي كعباً منهم او ان الحظ حظهم فبلغوا درجة من الظهور كان غيرهم
احق بها واهلها . انا يا صاح أصف المترجم لهم بما يترامى لي منهم في مرآتي
وبما يحكم عليهم به عقلي وروبي فأخطيء وأصيب ، وقد يكون صوابي عند
نفسي اكثر من خطائي . وليس لي من المقدرة ان اخلع على من اذكرهم
حلاً من الشناء فضفاضة براءة ولا ان أعريهم بمائبث لهم من الصفات
فأسوئها وأسودها ، والحب لا يؤثر في تصويري لهم فالرئيس الثالث احترمه
منذ اول نشأته واقم له بعض العذر فيما كان يأتي على يده فلما تولى زمام
الامة واصابه الغرور فارتكب ما ارتكب من خرق القوانين والسير بسيرة
الظالمين نفضت يدي منه . ومن طبعي ان انفر من يباب الحق ويظلم الخلق
وكنت ازهد في صداقة من يدوسون المصلحة العامة من اجل مصلحتهم الخاصة
ولو كانوا اقرب الناس الي .

كنت اود لو صحت عزيمة صاحبي الناقد ورماني بالتشيع للرئيس الاول
أن يكتب سيرة صاحبه الأخير او سيرة الرؤساء الثلاثة وهو من اقرب الناس
اليهم يعرفهم كما يعرف نفسه وكان عشيرهم ورصيفهم . نعم انا مبتلى بالصراحة
وقد امتدح عدوي واذكر مساوي صاحبي لاتعيني السياسة فأسلب هذا
او اعطي ذلك على هواي وقد اجامل بعضهم الى حد محدود وانا موقن انه
لو كانت له القوة لغزني غمزة مسمومة وتعدر عليه ان يذكركني الابالجمجة .
حاولت منذ اخذت أولف وانشر ان اجعل للتاريخ المسكنة التي له عند
الغربيين وان أتوخى في كتابته الحق والارشاد لا الارضاء والعبث فغضب عليّ
من غضب ورضي عني من رضي فما تضررت بالغضب ولا انتفعت بالرضا ، واغتبطت
كل الاغبتا ط ان ارضيت ضميري وما باليت . وهذا فيما اظن الفرق بين
ما اكتبه ويكتبه غيري من ينظرون قبل كل شيء لمصلحتهم ويهزأون بما
اتوفر عليه ويعدونّه نقصاً حمائم الله منه !

الرجل المديني

منذ عهد بعيد جاء قريتنا الشيخ محمد الدندراوي الصعيدي ينشر طريقته « الرشيدية » وسارع بعض سراع التصديق من الفلاحين الى تلقيها عنه . وبعد سنين جاءهم ابنه أبو العباس يتولى من القرية ما كان أبوه يتولاه ، وربما كان على شيء من العلم أكثر من أبيه ، قيل انه دخل الأزهر ، فكثّر مريدوه وكان على ما يظهر يوصيهم وكلهم أميون بعدم الاختلاط بغير جماعتهم واخترع لهم عمامة جديدة يمتازون بها عن غيرهم وهي عبارة عن طربوش ابيض ثلاث عليه عمامة بيضاء ذات عذبة طويلة واوصاهم ألاّ يخلقوا لحاهم فطالت حتى ليوتبك بها صاحبها عندما يباشر اعماله الزراعية . ولم يعلمهم ولم يفقههم واكثرهم لا يحسنون تلاوة الفاتحة . وفتن مريدوه بكل حركة تصدر منه ، وسحروهم بسكوته أكثر من كلامه ، وكانوا لفرط اعتقادهم فيه يجوزون أخذ ماء وضوئه وغسله يشربونه ويتبركون به ويرون انه شفاء من الامراض وكانوا اذا ارادوا الاقتراب منه ركعوا وسجدوا وقبلوا الارض ورجعوا الى الورا ومن سعد بتقيل يده حاز الاجر العظيم . وسمعتهم في ذكرهم وانا في حديقة مجاورة بصرخون ياأبا العباس اغفر لنا ويستغيثون به كما يستغيث المؤمنون بالمولي تعالى .

وما راعنا الا والجرائد المصرية ترمي صاحبنا بانه نبي كذاب ووصفت مقرر دعوته في قرية من قرى قنا فكان ما يأتيه جماعته هناك عين ما يأتيه هنا من مخالفة الشرع . وأصدر العلامة مفتي مصر فتوى في تكفير كل من يقول بما اشتهر عن أبي العباس وجماعته . وعلى الاثر وافى أبو العباس دمشق واجتمع الى قاضيه ومفتيها فأقراه على طريقته وقال انها لا تخرج عن سائر الطرق الصوفية ليس فيها ما يكفر به . والواقع ان دعوى النبوة بعيدة عن الشيخ

القناوي ولكن طريقته دنيوية يكلف بها الداخل لنفقات أكله ورفاهيته ما لا تتسع له جيوب الفلاحين الفقراء . وقد بنوا له بيتاً في دمشق سموه الزاوية وآخر في عين الحفزة لاصطيافه وكل ذلك من أموالهم وبأيديهم . ولو فقهم وعلمهم لنجا من الملامة لكنه احب ان يسلمهم كما استلمهم .

لما شطر الشيخ القرية شطرين تعذر عليّ وعلى أصحابي من نبهاء أهلها ان أقوم بما كنت أنويه من تعليم أهلها وتغديتهم وجلب المرافق لهم فغلب الجهل العلم وكثيراً ما كان منه ذلك .

الجامعة العربية

انشت الجامعة العربية منذ بضع سنين وكان بعض المفكرين يتشاءمون منها لأنها بما أوحى به السياسة الانكليزية ، والانكليز خدام منافعهم لو أمكنهم أن يسخروا البشر كله لمصالحهم ما تلكؤوا عن امضاء ذلك ساعة ، وكل محذور مباح في سياستهم .

وكان مما شغل الجامعة عن اتمام ما ألفت له مسألة فلسطين المشؤومة وسعيها مع الحكومات العربية السبع لحفظ حقوق العرب في القطر المنكوب . ومع أن الجامعة وعلى رأسها صديقي الاستاذ عبد الرحمن عزام باشا لا ينقصها شيء من أدوات النجاح لم توفق الى تحقيق ما كانت ترمي اليه من الدفاع عن حقوق الفلسطينيين على ما يجب ، لأن نجاحها ليس بما تملكه الجامعة الجديدة ، فكيف بالنجاح وامام الجامعة دول كبرى اعتادت أن تملي ارادتها في سياسة العالم والعرب منهم وهؤلاء ما وسعهم الى اليوم أن يملوا ارادتهم على أحد .

فاذا لم يكتب للجامعة التوفيق في سياستها على ما كانت يرجى فما أحرارها أن تجدد همة لاتمام الباقي من برامجها ومنه الغاء التجاركة بين الأقطار العربية الداخلة في الجامعة ومنه توحيد الثقافة والنقد والبريد وغير ذلك

ليشعر العربي أنه واخوانه في القاصية والدانية متحد في بعض ما يجمع الدول
من الروابط ويؤلف منها كتلة تمكنها من رفع صوتها وحماية ذمارها .
والرجاء ألا تصاب الجامعة بما ابتليت به أعمال الشرقيين من اظهار
النشاط في بدء كل مشروع ثم الضعف فيه رويداً رويداً حتى لا تنكاه تجدد
له أثراً يذكر في الآخر ، خلافاً لأعمال الغربيين تبدأ بنشاط قليل ثم يزيد
على مر السنين .

ولا مندوحة من التصريح هنا ان على الجامعة ان تشغل نفسها
بما يدخل في الصميم من برنامجها تأخذ اللباب وتطرح القشور وتبدأ بالفروض
قبل النوافل . واذ قد انقضت مهمة الجامعة في فلسطين او كادت نرى ان
نلفت نظرها الى انفاذ سائر ما دون في جدول اعمالها لتثبت للأمة أنها
تخدم جهدها وأن ما وقع من قصور كان غير مقصود وفي وسعها تلافيه .
جرت عادتي اذا رأيت الحلل في عمل ان ابادر الى اصلاحه بكل
ما عندي من حيلة اما ان اهدمه على أمل ان اجد من البناء الجديد
خيراً اكثر فلا اقول به لأنه من شأن العاجزين والهدامين . وبما اثبتته الأيام
ان من الأوضاع ما اذا زهدت نفسك فيه فغضبت عليه والغية لا يتسنى
لك ولا لمن بعدك ارجاعه .



الكتب المقررة

يظهر ان الامم مولعة بالقصص الغريبة ، وما تتراح اليه كثيراً كتب النقد والرحلات ، ولذلك راج هذا النوع من الاسفار في كل العصور ، ومثل هنا بكتابين كانا ولا يزال لهما شأن عظيم في الغرب . الاول كتاب الاخلاق للابرويوس ، وصف فيه اخلاق من كانوا يختلفون الى قصر لويز السادس عشر فأجاد من وراء الغاية ، وصار كلامه دستوراً يسترشده . والكتاب الثاني كتاب دون كيشوت لسرفانتس صور فيه المجتمع الاسباني في القرن السادس عشر ، صوره بنبلائه وفرسانه وشعرائه وظرفائه وقساوسته وسوقته وباعته وغانياته وعاشقانه وطاهياته بما لم يبق بعده غاية لمبدع . وسخر في جملة ماسخر بالخاصة من فرسان ذاك العهد كما سخر ربليه من رجال القرون الوسطى وكلا المؤلفين ترجمت رواياتهما الى اللغات الاوربية وصادت من الرواج ما لم تصادفه قصة الف ليلة وليلة في الشرق والغرب .

راج كتاب الكاتب الافرنسي وكتاب الكاتب الاسباني لوقوع الجمهور فيهما على وصف من اتصفوا بهذه الاوصاف والقوم متبرمون منهم حائقون على كبارهم فنطق المؤلفان بلسانه ورددا نغمته وضربا على سندانه . والكتب من البضائع التي يروجها ذوق من يقتنيها والشعوب يتناولونها مقلداً بعضهم بعضاً بالعادة والعدوى .

وانا لنرى اليوم كتب الساسة المشهورين تصيب رواجاً عظيماً يوم ظهورها ويطلع الطابعون من مذكراتهم مئات الالوف فيفتني اصحابها لكثرة رواجها كما نجد رواجاً عظيماً لروايات المشاهير من المعاصرين فتنتقل الى اللغات الحية الكبرى ، وتمثل رواياتهم التمثيلية بعدة لغات ، وكلما مثلت كان للمؤلف الأول حظ من ارباحها . وما برحت تأليف بعض ادباء فرنسا وانكلترا واميركا والمانيا وغيرها مثلاً باهراً من هذا الرواج . وان الغربيين ليتنافسون اليوم

في تلاوة قصص برناردشو أكثر مما يتنافسوت في تصفح أي كتاب في الموضوعات السامية . ومن الكتب من يشترك الخاصة والعامة في تلاوته ومنها ما يكون وفقاً على الخاصة فقط أو على العامة فقط .

قال كليمان فويتل في جريدة جرنجوار مرة : اجمع النقاد والادباء على ان الكتب الصالحة لاتبقى مجهولة أبداً وان لها من عدل الاجيال القادمة من يظهرها ولا يخفيها ، على حين تتراكم الآثار ذات القيمة التي خانها الحظ في ظلام الدياميس الادبية . وقل جداً في الكتب التي احزنت اعجاب القوم وتمجدهم ماكان نصيبه النسيان والاهمال . لنقل قولاً حراً من يقرأ الى اليوم كتب فولتير (ماعدا قصصه) ومن يتلو جان جاك روسو (ماعدا اعترافاته) ومن يتصفح شاتوبريان (ماعدا مذكراته عما وراء القبر) ومن ينظر في جورج صاند وتيرس وجيزر وميشله وبالزاك وفلوير . فاذا كان الحال هكذا مع هؤلاء الصدور فما مبلغ كتب غيرهم من المؤلفين في باب الرواج . ألا يصيب كتبهم غبار النسيان حتى تستحيل تلك الكتب غباراً . وعناية الخلف باسفار السلف من الامور الشاذة الموقنة وما ارى مئة كتاب افرنسي من كل مانتج الماضي تعيش الى اليوم عيشة حقيقية اه .

ولابد ان يتساءل القاريء ويقول ان هذا ماعرفناه عن امة مولعة بالقراءة اشتهرت بتفانيها في الادب وولوعها بالجديد فما هي ياترى الكتب التي خلدت عندنا على مر الدهور ؟ . وارى ان ما خلد من كتب الشريعة خلد على رفوف الخرائث اكثر مما خلد في الصدور ، وندر ان يرجع الخاصة منا اليها وهي بكتب الخواص أشبه . اما كتب الجمهور فمنها ماعتق فسئت النفوس النظر فيه ومنها ما اصبحت حاجة الناس اليه غير حاجتهم في القرن الماضي الى مايشبهه فافتضى ان تؤلف له كتب تروقه وتنفعه في آن واحد . واظن اكثر من وهبهم الله ملكة التأليف لايفكرون كثيراً في هذا الأمر المهم . ولو وضعوا مايدعو القراء الى الغرام بالمطالعة لاتي الجيل الجديد على غير هذه الحطة من التفكير . قالوا قل لي من تعاشر لأقل لك من انت ، ونحن نقول قل لي ماتطالع لاقل لك من انت .

يقلُ جداً المؤلفون الذين نبغوا بين اظهرنا حتى اليوم في الموضوعات اللذيذة المفيدة لان نهضتنا في الآداب حديثة العهد ومن اخذوا انفسهم بنشرها قلائل جداً ليس لهم ولا خجل من الحق مكانة المؤلفين الغربيين سواء كان بجودة الانتاج وكثرته وتنوعه او التحيل لاستمالة عقول القراء للاقبال على ما أخرج لهم . ولندرة القراء ندرت الكتب الصالحة ولا تكاد تجد للقلماء الا تآليف معدودة لها طلاب يتداولونها على توالي الاحقاب والمحدثون من المؤلفين يقلدون الغربيين في تأليفهم وهم لم يصلوا الى أولى مراتبهم ايام كانوا في مبدء نهضتهم . وقانا غير مرة ان من رأى مؤلفاتنا في القرن الماضي ورآها الآن ادرك مابلغناه من درجات الرقي الذي نرجو ان يطرد حتى لانتخلف في ميدان الافكار الحرة والعلم الصحيح .

ذكريات الغربيين

اذكرني احتفال مدينة لشبونة في العهد الأخير بمرور ثمانية قرون على خروج العرب من البرتغال بما للغربيين من الذكريات التاريخية الكثيرة عندهم . يذكر البرتغالي مغادرة العرب دياره بعد أن حكموها نحو ثلاثمائة سنة وما جاروا عليها ولا ظلموها وأتوها كما أتوا اسبانيا بحضارة فيها عدل وفيها رحمة لم تشهد جزيرة ايبريا مثلها من قبل . وكان سكت أهل البرتغال عن احتلال العرب أرضهم زمناً طويلاً فلما كتب لأجدادهم التغلب على أعدائهم قام احفاد احفادهم اليوم يرددون صدى تلك الغلبة التي ثلجت لها صدور أجدادهم . وما نسي البرتغاليون وطأة الغريب وعادوا يعبدون ذكرى أنت من تسلسل الفكر فيهم وسعيهم الى كل ما يورثهم المجد والعظمة .

بعد خروج الشام من أيدي العثمانيين كنت أضع ورصفاي في الحكم جريدة بأسماء الأعياد الرسمية التي يجب أن تحتفل بها الأمة كل سنة ولفت نظرهم الى الهجرة النبوية فما وافقني زملائي علي وضعها في قائمة الإعياد

حتى نبهت افكارهم الى عظمة ذاك اليوم الذي كان مبدأ كل مجد سجله العرب في الاسلام . فانظر الى الفرق بين الغربيين والشرقيين : البرتقالي يحتفل بدفعه صائل المحتل عن بلاده وهو لا يخاف عودة العرب ثانية والمسلم يتناسى ذكر المحطة العظمى في تاريخه وكان الخروج منها سعادة عظمى له . من عظماء رجالنا من يجب علينا ان نحتفل بذكرهم العظيم لما أسدروا الينا من خير كنور الدين وصلاح الدين ونحن نتناسى جميلهم لاننا بلينا بعدم تقدير رجالنا قدرهم .

ضمير المسائر

رأت الحكومة الجديدة في سورية ان تعزل نواب العشائر في مجلس النواب عن نواب المدن والقصبات لان للعشائر مطالب اذا جرت مناقشتها بينهم تكون اقرب الى التفاهم . وكان نواب العشائر مغبونين في الماضي مع رصفائهم من اهل الحضر لأن لهجة هؤلاء غير لهجاتهم واكثر ما يعرض في مجلس النواب مما لا يدركون الغاية منه وليس لهم الرفع ايديهم مع جماعة حزبهم فقط وفي الغالب انهم لا يدرون على ما وافقوا وعلى ما خالفوا . وقد يصعب تمدين العشائر على قرب منازلهم من الحضر الا بعد ان يتعلم ابناؤهم وتكون نسبة من خرجوا من الأمية فيهم اكثر ممن انغمسوا فيها ، وذلك في مدارس سيارة تنتقل بتنقلهم . وهناك مطالب لهم لو تحققت لاصبحت بادية الشام قرى عامرة وذلك باعطائهم الاراضي الموات يستثمرونها على الطرق الحديثة ، وتحفر لهم آبار ارتوازية يستقون منها وتنشأ مستودعات في الأماكن اللازمة من البوادي يدخر فيها العشب اليابس والعلف لأيام الشتاء وتشاد لهم بيوت من الحشب يأوون اليها في الأيام الباردة الى غير ذلك من ضروب الاصلاحات وعندئذ يقتربون من الحضارة ويتفاهم اهل الوبر مع جيرانهم من اهل المدر .

كثرة الكلام

قال احد ساسة الاجانب في حفلة حضرها في الشام وقد رأى بدوياً يعرض نفسه ليخطب القوم والظاهر من حاله انه من العامة : ان اهل هذه الديار مولعون بالخطابة كأهل كندا فقد رأيتهم اذا اجتمعوا الأمر يحاول كل من في الحفل ان يخطب قومه سواء كانوا في حاجة الى سماع قوله أم لم يكونوا . خلق الانسان ملولاً ولا علاج لالله الا تنويع الاساليب والابداع فيها والجديد محبوب والقديم مما يزهد فيه على الأكثر . ومن لم يرزق طبيعة مؤاتية للخطابة أو الكتابة او الشعر كيف له ان يدعيها ويطمح الى التأثير في الجماعة والخطابة صعبة المنال لانها ابنة البديهة والعلم الغزير ، ويتعذر على من اعتاد صف الكلام فقط أن يؤثر في العوام فضلاً عن الحواص . ومن ثرثر وما عرف ما يجب أن يقول كان كلامه كهذيان المحوم ومن قال كلاماً لا يحصل له كان الحرس أولى به وأجدر .

كان المتشاعرون الى عهد قريب يزجون بأنفسهم في غمار كل نادٍ ومجتمع ويفرضون على الناس التصفيق لشعرهم البارد فلما ظهرت الحاجة الى الخطابة وأصبح لنا مجالس نيابية ومواقف لا بد من التكلم فيها قام من قام في انفسهم انهم خطباء أبناء وادعوا ما ادعاه المتشاعرون في الماضي من التفرد بجمال الكلام وانهم اذا لم يقوموا هم بهذا الواجب لا يرجى نجاح الامور . أما رجال الدين فبعد أن خانتهم قرائنهم في خطب الجمهور على البديهة عادوا الى تلاوة من وضعوا لهم الخطب في دواوين بحسب عصورهم واغراضهم . يقرؤونها في المناسبات فلا تحدث تأثيراً في النفوس لانهم لم تكتب لمن تلقى على مسامعهم .

غلظة كير

لما اصدر الاستاذ محمد علي علوبة باشا كتابه مبادئ في السياسة المصرية انتقدت عليه في مجلة المجمع العلمي العربي قوله لا ارى الحاجة ماسة الى مايقول به البعض من التفكير في موسوعة عربية تجمع بين دفتيها جميع المعلومات الانسانية مدنية وعلمية وفقهية ورياضية وكيميائية ذلك لان الموسوعة بهذا الوضع تتطلب نفقات طائلة ووقتاً طويلاً والعلوم متجددة متقدمة اه .

فقلت في نقده وعلى مصر من الآن القيام بمثل هذا المشروع المفيد للامة العربية جمعاء فاذا كان النقص يبدو فيه بما يتوالى من تقدم العلم السريع فان الطباعات الثانية ستجيء امتع بالطبيعة . أما النفقات اللازمة فلا تعد شيئاً بالقياس الى ثروة مصر واسرافها في انفاق المال ، ثم ان جميع الدول العربية تساهم في انشاء هذه الموسوعة ونشرها والامر متوقف على الشروع والشروع ملزم . وكتاب كهذا افيد لمصر من كثير من المطبوعات النافهة والاموال الطائلة التي تصرفها في الدعاية . والاختصاصيون الذين سيضعون اساس هذا العمل الخطير غير قلائل في مصر وغير مصر .

هذا ما قلته وأضيف عليه هنا أن صدور هذا الرأي الضعيف يستغرب من عظيم من علماء مصر وساستها وفي تضاعيف هذا الكلام من ضعف الثقة بالنفس ما لا يلائم همة صديقي الباشا وهو المجلي المعروف بنشاطه الممتاز وكان مثال العالم المصري الحازم الموفق الى أبعد حدود التوفيق .

وإذا كان الأمر كما يقول ان العلوم تتجدد وتتقدم كل يوم فمعنى ذلك أننا يجب أن نقف حتى نقف حركة العلم وعندها نأخذ ما نشاء ونطرح ما نشاء من العلوم والآداب وسواء عمدنا الى الترجمة أو الى التأليف وهو الأولى في معاملتنا العربية فان ما سينشر من ذلك للناس يفيدهم جداً وإذا أحسننا بنقص أو عدم اجادة في وضع هذا التأليف فان ذلك يصحح في

الطبقات التالية ، وأي كتاب صدر تماماً من أول نسخة أو طبعة . ويعلم الباشا ان الأمم الصغرى التي أصدرت الانسكلوبيدات كانت أخط من العرب اليوم لما أصدرتها فما زالت تتاورها بالتصحيح والتنقيح حتى تمت على ما تريد .

ثم قوله ان المعلمة يستلزم وضعها وقتاً طويلاً وهذا لا يهمنا كثيراً فان التجويد في الاعمال كان أبداً يستدعي زمناً لينضج على ما يجب وهذا عمل جماع لا عمل فرد يخشى أن يموت قبل أن يتمه ، أما القول بان وضع المعلمة يحتاج الى نفقات طائلة فالوزير العظيم ادرى مني بما تحتمله خزانة مصر للانفاق في هذه السبيل وأمة تنفق على البذخ وتسرف في التوافه اسرافاً عجيباً لا يعز عليها أن تبذل في طريق يشرفها كثيراً .

أستاذن حبيي الباشا ، وأنا المعجب به وبجياته الحافلة بجلال الاعمال أن يسمح لي ان افاتحه بان ما قاله بشأن تأليف المعلمة العربية لا يستشف منه الاضعف همنا عن معاناة الأمور العظيمة ، اننا نطلب المجد رخيصةً ولا نتخذ له أسبابه .

ذكرني هذا الرأي المنتقض من كل جانب بما قاله لي مرة أحد رصفائي في الوزارة وهو يريد أن نعدل عن ارسال شاب موسيقار موهوب الى الكونسرفتوار في باريز ليتقن فنه على الاصول الجديدة ويعود فنوسد اليه النظر في دروس الموسيقى في مدارس الحكومة : أراك تحرص على ارسال هذا الموسيقار ونحن في غنية عنه وعن درسه لان عندنا فلاناً العواد — المحترف الشيخ الهرم — اذا احتجنا الى من يطربنا نستدعيه فيضرب لنا بعوده مقابل ريال واحد ولا نتحمل باهظ النفقات على هذا التلميذ ، وأنا بالطبع سكت لأن هذا الكلام لا يستحق ان يتعنى المخاطب الاجابة عليه .

اما كلام الباشا فله وزنه والمبالغ التي ستصرف على هذا الكتاب العظيم ويعدها هو خسارة ستصرف في مصر على أبناء مصر وفي اعطاء رزق لهم ومن فوائده ايضاً لقاء الرغبة في نفوس طلاب العلم بان ما يشتغلون به في شبابهم سيكون لهم منه ربح ان أحبوا الانصراف الى العلم ولا اريد ان ازيد على ذلك فالوزير المصري اعرف مني بما هنالك واعرف مني بما يبذله للغرب من الأموال في خدمة العقل والعلم ونحن نعد ما يبذلونه اسرافاً .

احسان واحسان

شاهدت صديقي العلامة فيليب طرّازي في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤- ١٩١٨) يطوف طول النهار ازقة بيروت ويقدم بنفسه خبزاً ولبناً وطعاماً لمنكوبي المجاعة ، وكانوا بحالة تنفطر لها الأكباد عراة جباعاً لم يبق على اجسامهم الا الجلد والعظم .

وكان بعضهم يستغرب كيف يحصل صاحبي الكرم على هذا القدر العظيم من الحبوب يطحنه ويخبزه ويوزعه وهو متوسط الثروة لا يعد من كبار الاغنياء ويضيف الى ذلك التبوع سراويلات واقصة يعطيها من لاثياب له تستر عورته . وكان يتناولها من ثياب بيته وفرشه حتى لم يبق في داره شيئاً اسمه قماش ويضم اليه ما يمكنه ابتياعه من الخازن .

تلك حسنة من حسنات طرّازي شاهدها بأمر عيني في أثناء الحرب المذكورة . وكثيراً ما كان يبذل المساعي وينفق المال لاجل معالجة المرضى ودفن الموتى المساكين وينقل صغار الفقراء الى المأوى ويعتني بنظافتهم وطعامهم حرصاً على حياتهم . زد عليه ان فريقاً من الادباء تعودوا الاختلاف الى بيته فكان يرحب بهم كأنهم هم اصحاب البيت وهو ضيفهم .

وبعد الحرب عُني الاستاذ الحبيب بانشاء دار الكتب اللبنانية عام ١٩٢١ وصرف عليها من ماله ووقته وصحته . وهو اليوم يصنف التأليف المفيدة وينشرها خدمة للآداب والعلم . ولم يجب ان تخلو شيخوخته المباركة من نفع أمتة فأجرى الله الخير على يده في الحرب والسلام وفي شبابه وكهولته وشيوخته .

وشاهدت شاباً من اكبر أعيان الروم في بيروت اشترك فيما قيل مع احمد جمال باشا قائد الجيش في الحرب العامة بالجوب يأخذ مقادير عظيمة بالاسعار التي يعينها لنفسه . ولعله اشاع انه شريك جمال باشا ليلقي الرهبة في نفوس

المعتزين على هذه التجارة المحرمة زمن الحرب . وقد عرض عليّ مرة ان يعطيني مايلزمني من الحنطة ، لانه رآني من جماعة الباشاولي جريدة منتشرة فقلت له : ان عندي في الدار من الجبوب مايفيض عن حاجتي وعندي في انبار مزرعتي مقدار لابأس به يزيد عن بذاري ومؤونة عملي .

وما هي الا اشهر حتى هلك شريك الباشا بالتيفوس بعد أن طعن في مروءته ونزق ماجمعه وما اسف عليه انسان .

وكانت في بيروت خلال هذه الحرب أسرة مسلمة من قدماء التجار اتفق ان كان في مستودعاتها بضائع عظيمة ارتفعت أسعارها ارتفاعاً فاحشاً ، وأضافت الى مستودعاتها ماتسوقته من مدن الشام من البضائع . ثم بدا لها ان توظف الاموال التي جنتها في احتكار القوت لان الربح منه مضمون ووافر ، فاحتكرت كل مايجتر بالبال من اصنافه حتى الترمس نقل الفقير وغذاؤه ، وهو من أدنى المأكولات .

ومن جملة ماتذرعت به لاكتساب المال ان ملأت مركباً من الاحجار وضمنته عند احدى شركات الضمان على ان فيه بضائع ، واوعزت الى النوتي أن يفرقه في ظهر البحر فأغرقه ، وعادت على الشركة تطلب منها ثمن المركب المغرق فأرسلت الشركة غواصين اكتشفوا الحيلة التي دبرها المطالبون بضمان السفينة .

وما ان عقدت الهدنة حتى هبطت أسعار البضائع التي جمعها اولئك المخسرون هبوطاً ربما فاق ذاك الصعود ، وافلست الأسرة عن مليوني جنيه عثماني ذهباً . وبلغت بها الحاجة أن أصبح أفرادها لا يصلون الى القوت الضروري الا بالاستخدام في اعمال حقيرة ، واستد الدائنون من هذه الاسرة اجهزة نسائها وحليهن ، ومنهم من مات قهراً لم تبك عليه عين لانه طالما ابكى العيون باجاعة القوم بل باهلاكهم .

وهذا ايضاً اراد ان يرشني ولكن لابلجوب كما كان من شريك القائد العام بل بدعوتي الى داره مع احمد جمال باشا والي عليّ بالحضور

بواسطة عزيز عليّ (مختار بك بيهم) فأبيت قبول الدعوة ، وقلت للوسيط اني مازلت اهبط بيروت منذ ثلاثين سنة ، وانا اعرف صاحبك من زمن بعيد فلماذا لم يدعني على الاقل الى تناول أكلة حمص بطحينة في قهوة الحاج داود على البحر (وهي قهوة متواضعة والأسعار فيها متهاودة) والآن يحاول ان أجيب دعوته وهو مادعاني الا ليظهر أمام الباشا اني صديقه ومن حمة عرشه ، وقلت: في جيبى دراهم من فضل الله وطعامي في الفندق ينتظري .

* * *

قصّ عليّ اصحابي ما كان من هؤلاء الأغنياء من الشراة في جمع الثروة وما تأذى به الفقير من تحكمهم في قوته فكنت سلسلة مقالات في جريدة الشرق نعت فيها على المحتكرين سيئاتهم فوقع ما كتبت الموقع الحسن عند الحكومة وعند الأهلين وشكرني عليها والي بيروت عزمي بك وبعث همتي على متابعة الكتابة في هذا الموضوع لأعوانه على حل رابطة المحتكرين ، وكان يفهم من مقالاتي اني انتقد الوالي واثبت عجزه عن حل الاحتكار ، ولما رأني جاهرت باعلان حملة على المحتكرين لم يسعه الا استحسان ما كتبت واستزادني من الكتابة .

مكتبة

آغا خان ونظام حيدر آباد

الأول زعيم الطائفة الاسماعيلية في الهند ومن أعظم أغنياء الارض لا يتقدم عليه في غناه إلا نظام حيدر آباد الدكن فهذا أغنى رجل في العالم قيل انه يملك اربعمائة مليون جنيه استرليني .

ولا يزال زعيم الاسماعيليين يأخذ الزكاة من طائفته ، أما النظام فقد ضرب منذ زمن طويل ضريبة على كل من يدخل عليه ولو دخل عشرين مرة في اليوم ، والضريبة عبارة عن جنيه ذهبي واحد وريال فضة ملفوفين في منديل . ويعيش الزعيم الشيعي كأنه ملك من ملوك الف ليلة وليلة ليس في الملوك اليوم من يدانيه في بعض بذخه وسرفه . أما الأمير السني فيظهر التنسك والتقشف وقيم الصلوات ويزور المرضى ويمشي خلف الجنائز كأنه أمير من أمراء الاسلام في الصدر الأول .

مرض آغا خان بأخرة فلما أبل لم تحدثه نفسه أن يتصدق على الفقراء كما جرت عادة الكبراء في مثل هذه الحال بل أعد رحلة الى مكان سحيق دعا اليها من واسوه في مرضه من خلان الصفا ، ولم يلبث أن جاء الريفيرا على طائرة مائية وكان من أهم ما شغنته صناديق الويسكي ثم استقل طائرة جوية الى افريقية قاصداً الى الادغال المعروفة بجنة الحيوان من المناطق الجبلية في مستعمرة كينا البريطانية وهناك كانت تنتظره ائقالة في أربع عشرة سيارة ضخمة تنقل الحيام والأسرة والأغطية والثلاجات والفرش وادوات الاستصباح بالكهرباء والماعون وأواني المائدة والشاي والشراب ويحمل في جملة ما يحمل صناديق النبيذ المعتق واسبانيا والويسكي وفي هذه القافلة ٨٠ خادماً منهم ٦٠ من أهل افريقية و٧ طهاة من الأوروبيين وبينهم زوجته الفرنسية وما شطتها واحد ابنائها ، وقدر لرحلته العتيدة خمسة وعشرين مليون فرنك قابلة للزيادة لا للنقصان .

زعيم ديني يسرف هذا الاسراف ولا يتخرج من أن يقبض الزكاة بافكار
شيعة ويتنعم هذا النعيم على حساب أتعس خلق الله ومنهم نموذجات تؤلم
القلوب في سلمية وجبال العلويين من الديار الشامية . آغا خان اليوم في
الثامنة والسبعين من عمره لم يترك باباً من أبواب المرح الا ولجه ولسان حاله
الدنيا زائلة ومن لم يغنم فرص الحياة فاته نصيبه من الدنيا . أما نظام
حيدرآباد فما أثر عنه كصاحبه أن نددت يده بشيء للمسلمين وهو المسلم
الحنيف القانت !

الجهل في القريم والهربت

سبحان الله كيف تتبدل العقليات وتجهل جماعات وتتعلم جماعات ، كان
العلم منحصراً في خدمة الدين عند المصريين والاشوريين ومحتكراً في أبناء
الأشراف عند الغرناطيين والرومانيين وخاصة باعداد من الشبان المنتخبين
عند الهنديين واليونانيين حتى جاء العرب بعد الاسلام وأطلقوا حرية التعليم
وأباحوا تناول العلم لكل متعلم فانتقل الى اوربا حراً ، ومع هذا أنت
عليها بضعة قرون وهي ترسف في جهالتها ، والعرب ينفحون العالم بعلمهم
وعلمائهم ومكتشفاتهم وليالي الجهالة الجلاء نعم الغرب بظلماتها .

ذكر روبرتسون الانكليزي في مقدمة تاريخ شارلكان أنه وجدت عدة
قوانين ووثائق صادرة عن أعيان من أصحاب الدرجات الرفيعة يستبان منها
انهم كانوا لا يعرفون كتابة اسمائهم ولا توقيع ما يوقعون ، ولذلك كانوا
يصنعون صورة صليب على الوثائق التي يكتبونها تكون بمثابة توقيع لهم .
وكان الكونت هربو رئيس المحكمة وأعظم القضاة في القرن التاسع لا يعرف
كتابة اسمه وكذلك دوغسلين رئيس الجيوش الفرنسية وأعظم رجال الدولة
واكبرها في القرن الرابع عشر أمياً ايضاً . قال روبرتسون ولم يكن
هذا الجهل مقصوراً على العوام بل كان اغلب القسيسين ارباب الرتب العالية

لا يستطيعون كتابة اسمائهم على القوانين التي كانوا يقررونها في مجالسهم ، ويسأل كل من يطلب ان يتقلد منصباً او وظيفة هل يعرف ان يقرأ الانجيل والرسائل ويفسر معناها ولو كلمة كلمة من غير نظر الى تفسير الجملة ٥١ .

وانقلبت الحال بعد قرون ففرق الشرقي المسلم في الجهل وتقدم الغربي المسيحي الى ساحات العلم ، وعاد المسلم العربي بعد ذلك السبات العميق يذكر ماضيه ويحاول استرجاع بعض ما كان له فيه ويعتمد على الحكومات في تعليم أبنائه وبناته على الأكثر ، وما برح المسلمون مقصرين عن جيرانهم المسيحيين في البلاد الاسلامية في انشاء المدارس الابتدائية الأهلية (راجع تقرير معارف الجمهورية السورية عن سنة ١٩٤٦ لوضعه صديقنا الدكتور جميل صليبا) ، وكان في تلك السنة عدد المدارس الاسلامية (٦٥) وعدد المدارس الكاثوليكية (١٠٠) وعدد الارثوذكسية (١٠٧) وعدد البروتستانتية (٢٢) وعدد الاسرائيلية (٤) فليس توزيع المدارس الأهلية على المذاهب المختلفة موازياً لعدد افرادها ، فعدد الطوائف المسيحية مثلاً اقل من عدد المسلمين بخمس مرات ولكن عدد مدارسهم يزيد على عدد مدارس المسلمين الأهلية بثلاث مرات ونصف من مجموع سكان يبلغون في الاحصاء الرسمي ٢٠٩٤٩٨١٥ ونعتقد انه ينقصه بضع مئات من الألوف خصوصاً والمشهور ان عدد اعراب البادية في هذه الجمهورية لا يقل عن مئات الألوف ، وفي هذا التقرير ان نسبة مجموع التلاميذ في سورية كلها الى مجموع السكان ٥ بالمائة اي انه يقابل كل الف من السكان (٥٠) طالباً فقط ، وهذه النسبة معادلة لنصف النسبة الطبيعية لأننا نقدر عدد الطلاب الذين هم في سن التعليم الابتدائي في سورية بـ ٩٠ في المائة من مجموع السكان اي ان عددهم يبلغ ٢٠٠٠٠٠ تقريباً فاذا كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية الرسمية والاهلية والاجنية معاً ١٥٠٠٢٥٠ كان عدد الاطفال الذين لا يتعلمون في المدارس ١٤٩٠٧٥٠ تقريباً ، فنصف الأطفال اذاً يتعلم في المدارس فقط . .

أما تعليم البنات فما زال يحتاج كثيراً من العناية ، فقد جاء في هذا

التقرير أن عدد مدارس البنين في عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ (٦٠٧) وعدد مدارس البنات (١٣٠) وعدد المعلمين (١٨٠٢) وعدد المعلمات (٦٩١) وعدد التلاميذ (٧٣,١٣٧) وعدد التلميذات (٢٦,٤٦٦) .

أما في لبنان فنسبة المتعلمين فيه أرقى من سورية فقد سألنا أيضاً صديقنا الدكتور صليبا عن معارف لبنان فاجابنا بما يأتي :

كان عدد المدارس في لبنان خلال العام الدراسي ١٩٤٦ - ١٩٤٧ كما يلي :
المدارس الرسمية في جميع الدرجات ٦٣١ ، المدارس الأهلية ٨٧١ ،
المدارس الأجنبية ٣٠٦ . المجموع ١٨٠٨

وكان عدد تلاميذ هذه المدارس (١٨٠٣٥٨) طالباً وطالبة منهم :
٥٣١٩٠ طالباً وطالبة في المدارس الرسمية و ٧٧٠٥٧ في المدارس الأهلية ،
٥٠١١١ في المدارس الأجنبية .

والمدارس الرسمية تنقسم الى قسمين : ابتدائية تكميلية ومسلكية ،
وليس في لبنان مدارس ثانوية رسمية . والبيان الآتي يوضح عدد المدارس
وعدد التلاميذ في التعليم الرسمي .

٦٢٣ في المدارس الابتدائية التكميلية تلامذتها ٥٢٤٢٢ ، و ٨ في
المدارس المسلكية تلامذتها ٧٦٨ .

والمدارس الأهلية تنقسم كذلك الى قسمين : ابتدائية وثانوية وأعدادها كما يلي :
٨١٥ المدارس الابتدائية الأهلية وتلامذتها ٦٤٧٦٩ ، و ٥٦ المدارس
الثانوية الأهلية وتلامذتها ١٢٢٨٨ .

ان تلاميذ المدارس الرسمية موزعون على مختلف الطوائف وفقاً
للبجدول الآتي :

المسلمون	٣٥٣٨٩	طالباً وطالبة
المسيحيون	٢٣٥٥٣	" "
الدروز	٤٠٧٩	" "
الاسرائيليون	٢٩	" "
طوائف أخرى	١٤٠	" "
المجموع	٥٣١٩٠	

والبيان الآتي يوضح لنا ايضاً توزيع المدارس الأهلية على الطوائف المختلفة :

عدد المدارس			
المجموع	الابتدائية	الثانوية	
١٢٩	١٢٢	٧	المسلمون
٧٠٧	٦٥٩	٤٨	المسيحيون
٢٢	٢٢	٠	الدروز
١٣	١٢	١	طوائف أخرى
٨٧١	٨١٥	٥٦	المجموع

اما عدد البنات في المدارس الرسمية المختلفة فهو (١٢٦٩٩) وعددهن في المدارس الأجنبية (٢٦٦١٩) .

وليس عندي احصاء لمن في المدارس الاهلية
عدد سكان الجمهورية اللبنانية بلغ في عام ١٩٤٦ (١١٦٥٢٠٨) منهم
(٥٩١٦٦٩) رجلاً و (٥٧٣٥٣٩) امرأة ،

ان نسبة عدد الطلاب في جميع المدارس الى مجموع السكان هي ١٥٪
تقريباً وهذا يدل على ان الأمية تكاد تكون غير موجودة في الشبان .
ذلك لأن النسبة الطبيعية للتلاميذ في سن التعليم الابتدائي لا يزيد على
١٢٪ وهي توجب ان يكون عددهم بالنسبة الى مجموع السكان (١٤٠٠٠٠)
على الاكثر في حين ان عددهم في المدارس الاهلية والرسمية وحدها
(١١٧١٩١) . واذا كان في لبنان اميون فهم من الذين تجاوزوا سن
التحصيل الابتدائي او من ابناء القرى الفقيرة النائية .



كلام مرید

نشر حزب البعث العربی منشوراً اماط اللثام عن تعلیل ثورة الشعب
الأخيرة بقوله :

تزوير الانتخابات ، وافساد الحياة النيابية بشراء ضمائر بعض النواب
واستعمال الضغط والارهاب مع البعض الآخر لمنعهم من حق المناقشة ،
ومناوأة الاحزاب المعارضة وتسخير الدولة لخدمة انصار الحكم واحزابهم
المصطنعة والتعطيل المتكرر للصحف المعارضة بقصد الجأئها الى التوقف واغداق
الاموال على الصحف الاخرى وقتل ضمائرها حتى تصبح ادوات مسخرة
للسلطة ، وجعل الاذاعة التي هي ملك الأمة بجميع هيأتها بوقاً محتكراً للسلطة
القائمة وأداة لتضليل الشعب ، وجعل وظائف الدولة وفقاً على الأنصار
بصرف النظر عن الكفاءة والأخلاق ، وتحويل الميرة من مؤسسة تضمن
الحبز للشعب بأيسر ثمن ، الى مؤسسة تضمن لكبار المزارعين أوفر المزايا
وللموظفين من انصار الحكم اضعف الرواتب ، والاستهتار بقضية رئيسة
كقضية النقد ومعالجتها بالكذب والمغالطة والمماطلة ، وتحميل الطبقة المتوسطة
والطبقة الفقيرة اكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي
تسبب الغلاء الفاحش في أسعار المواد الغذائية والضرورية للحياة ، وحصر
القطع النادر ورخص التصدير والاستيراد بفتة محدودة من التجار المتحالفين
مع رجال الحكم ممن اصبحوا يستأثرون وحدهم بعظم الثروة ، وفتح باب
الرشوة والسرقة والحيانة لكبار الموظفين في الادارة والجيش دون مسؤولية
او محاسبة ، والاستئثار بالسياسة العربية والخارجية ودفعها في طريق الانفصال
والانانية الشخصية والتآمر مع الاستعمار ، وأخيراً سد الطريق سداً تاماً
في وجه اي امل في الخروج من دائرة هذا الحكم الفاسد وفي امكان
تبديله او اصلاحه ، وذلك بطغيان السلطة العليا على السلطات جميعاً وتعطيل

الحكم الدستوري بالفعل رغم قيامه في الشكل ، تلك هي المفاصد التي تثار الشعب عليها وناضل من اجل القضاء عليها هـ .
وليت هذا الحزب وهو مؤلف من رجال علم وأدب وقانون يتولى الامر بضع سنين لنرى ما يحقق من منهاجه لخير هذه الجمهورية الفتية .

الاونيسكو

الاونيسكو او منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . جمعية جرى التفكير في تأسيسها سنة ١٩٤٥ في لندن وسرى الى الولايات المتحدة الاميركية ودخل فيها ثلاث واربعون دولة ، تولت بريطانيا العظمى دعوة المؤتمر التحضيري الاول في لندن ، وفي باريز سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر العام الاول وعقد الثاني في المكسيك سنة ١٩٤٧ والثالث في لبنان سنة ١٩٤٨ وقد اجتمع المؤتمر في بيروت في السنة الماضية واختار الاونيسكو محل اجتماعه كل دورة في بلد من بلاد الدول المشتركة فتارة يجتمع في بلدة شرقية وأخرى في بلدة غربية .

وبرنامجه الاونيسكو مطول يتناول معظم مايدخل في موضوع العلم والثقافة ومن اعماله ترميم البلدان التي دمرت في الحرب وتبادل الاساتذة والخبراء والطلبة بين الدول والاتصال بالجهاهير عن طريق الصحافة والمذيع والسنيما ودور الكتب وتعليم الأميين وترقية الجامعات واصلاح الكتب المدرسية وبسط العلوم الى غير ذلك .

كل هذا يقصد به ان تتفاهم الشعوب وتتعارف من طريق العلم والثقافة حتى ترتفع الحرب بشروطها عن رؤوس العالم . وفي دستور الاونيسكو « ان الحرب تولد في العقول والواجب ان يقوم اساس الدفاع عن السلام في العقول أيضاً » . قال مندوب الولايات المتحدة : « اني على ثقة ان منظمة الأمم لن تنجح اذا فشلت الاونيسكو واعتقد انه ليس في وسع مؤسسة

سياسية او عسكرية ،هما بلغ من قوتها ان تفرض السلم الا اذا قام الى جانبها ما ينشر المحبة والتفاهم بين شعوب الارض ، وهذه هي مهمة الاونيسكو» وقال مندوب ايطاليا : « والكفاح من أجل السلم من طريق الفن والعلم والثقافة باعتبار ان هذه السبيل هي الاداة الناجعة لتعليل اسباب الاختلاف بين البشر انما يعني اعطاء هذه القيم معناها الحقيقي بنقلها من عالم المجردات الى عالم المحسوسات بغية انشاء عالم نرغب في ان يكون اكثر انسجاماً وتفاهماً وتعاوناً . » وطلب مندوب البرازيل في المؤتمر الى جميع الامم ان تجدد العزم في تطبيق مبادئ الاونيسكو الذي انشيء على انقاض حروب وآلام متصلة رافقت الانسانية منذ الحروب الصليبية في الشرق الى الحروب العالمية الاخيرة في الغرب . »

فكرة الاونيسكو فكرة كل عاقل في البشر ولكن التنفيذ يصعب على ما يظهر .

رجال الوزارات

ما اهتم رجال الانتداب على سورية ولبنان بانتقاء الكفاءة للمناصب بقدر اهتمامهم بتقريب من كان قلبه مربوطاً بهم وكانوا ممن يحسنون مصانعتهم ، كان فيمن اصطفوهم الأكفيا وكان فيهم دون ذلك . جعلوا من سمسار صعلوك وزيراً للمعارف واتخذوا من مستخدم صغير في الاستخبارات ومن مطرود من شركة ماكنات وزيرين . وأكثرهم لم يتخرجوا في مدرسة وكان منهم رؤساء وزارات لا يحسنون فناً من الفنون ولا يتكلمون لغة من اللغات . كان هذا أيام الانتداب فما عذرنا اليوم في تولية الجبهة الفاسدين أرقى المناصب ، ونعتذر عن خطائنا بان الحق على الحزب الذي اختار الوزير فولى بلا خجل (الحاج حمدو) وزارتين وهو عاجز عن ادارة ديوان صغير ولا تمرن في أقل وظيفة ادارية أو سياسية خالي الذهن من معرفة القوانين والفنون ويزيد الى ذلك فساد ذمته .

نكتة ذكرتها وأنا أكتب هذا الفصل : كان على عهد الانتداب في دمشق مدير داخلية ماهر في القوانين والادارة أخذ مرة يناقش مستشار البلدية وهو افرنسي في فتح شارع فكانت براهين المستشار براهين الجاهل الذي يتكلم سقياً ورعياً وبراهين المدير براهين العالم العارف بصناعته . وما قاله المستشار للمدير ان هذا الرأي الذي تبديه سعادتك لا يمكن تطبيقه فناً ، فأجابه المدير ومتى كنت يا صاحبي تعرف الفن ؟ أما كنت أنا على عهد الترك قائم مقام في يافا وكنت أنت بها صاحب حانة وكنت ارسل خادمي الى حانتك فابتاع منها ما يلزمني من الأشربة ؟ فمثلك وصنعتك هذه ماذا يحق له أن يدعي من معرفة الفن .

ويصدق هذا الشاهد على بعض من تولوا الوزارات في عهد الانتداب وبعده . ومنهم من يضيفون الى غباوتهم قلة امانتهم وقلة الامانة على ما يظهر من مستلزمات الجهول . ومثل ذلك يقال في (ابو كعود) وهو وزير ابتليت به هذه الامة منذ نحو خمس وعشرين سنة وليست له مزية من المزايا الا الاحابيل التي تعلمها ، هذا ان كانت الاحابيل تعد مزية يوم وزن الرجال . ومن أعظم العار أن ينقل هؤلاء الوزراء المنحطون من وزارة الى وزارة كما يقولون هم أنفسهم من حزب الى حزب كأنهم اعلاق نفيسة لا يستغني عنها قصر ولا ندوة ، يرتكبون التزوير ليوسدوا اليهم أشرف الأعمال وهي النيابة ، وكأنهم من الدعائم في كل بناء اذا نسل حجر من الاساس تداعى وانهار . كان من جملة النعمة على احدى الوزارات المنحلة أن من أفرادها من كان يتناول رواتب ومخصصات من عدة وزارات ورياسات خلافاً للقانون حتى بلغ راتبه فيما قيل ثلاثة أضعاف راتب أعظم رئيس ، ولسان حال من ابتدع هذه البدعة « من أحييناه أغنيناه ورفعناه ومن أبغضناه حرمناه ونكبناه » وبدون العدل ينقض كل بناء وتضمحل أعظم أمة .

لا يحسن انتقاء الوزراء الا بالبحث عن ماضيهم وحاضرهم فمن ثبت لنا ولغيرنا ذكاؤه وأمانته وكفاءته نصبناه والا فقتلنا في الطبقات الأخرى فهي ما خلعت قط من الصالح الذكي ، وملايين من الخلق مها الخطوا لا تخلو من عشرين

وثلاثين رجلاً يصلحون أن يديروا بالعدل أمور دولتهم ، ولا نعود الى تجربة من جرّب ففي أمثال العامة « من جرّب المجرّب كان عقله مخرباً » ونحن لا غضاضة علينا اذا بدلنا من لا يصلح بمن يصلح ، نعتبر الصفات التي تتطلب من الوزراء ولا نعتبر كثيراً بحزبية الوزير ، فالحزبية ما كانت يوماً من الأيام عنوان الكفاءة ومقياس الاخلاق ، ولكم شهدنا وزراء لا يحسنون حل أقل مسألة من مسائل وزارتهم ، وكان جلّ اعتمادهم على الضعاف من رجال دواوينهم يصرفون لهم أمورهم لأنهم من جماعة (حاج حمدو) و(أبو كعود) ولو فحصتهم ما وجدت مداركهم تعلو عن « أجير شيخ حارة » أو « فراش قديم في ديوان » .

وأقول في الختام لمن بأيديهم البت في الامور : لا تعتمدوا بعد الآن على أجهل الوزراء وأعظمهم ولا تغتروا بكلامهم وهم على الكراسي فانتم الذين كبوتهم في الانظار ولولا الكراسي لكانوا سالة كلية ، أما هم فسيان عندهم رضي الناس عنهم أم غضبوا ماداموا آمنين على ما في جيوبهم ورئسهم واضحاً عنهم .
(كتبت في خريف سنة ١٩٤٩)



عشرة المنماطين

قال لي والدي في معرض تفضيل جيله الأول على جيله الثاني متلهفاً على مافات من سالف ايامه وهكذا اعتاد معظم الشيوخ : كنا خمسين رجلاً جمعت بيننا الصداقة وألفت بين قلوبنا العشرة وتقارب الجوار ، وكان اكثرنا من طبقة التجار فخرجنا من المدينة للاصطياف في قرية الهامة من جبل سنير. نزلناها أول يوم عيد الفطر وغادرناها خامس يوم عيد الاضحى اي صرفنا فيها شهرين ونصفاً . وكان نظامنا تاماً في كل أمر من أمورنا ، لم يلبس أحدنا نعل غيره ولا تحالفنا في شيء وكان أحدنا ينزل الى المدينة مرة في كل اسبوعين ينظر في أمور مخزنه ويجيب على ماورد عليه من رسائل في البريد . فقلت له : وكيف كنتم تصرفون هذا الوقت الطويل ؟ قال : كنا نقضيه في العزف على ماكان لدينا من أدوات الطرب ، وكانت الموسيقى والغناء والانشاد ورقص السماح من أهم ماكننا نلهو به ، ثم نلعب الالعب الرياضية المألوفة وفيها قفز ونط وحركة ، ونناقش في ايراد القصص والحكايات وحل الالغاز والمعميات وفي ضروب من الهزل والدعابات . وكنا اذا صاينا نطيل الصلاة واذا جلسنا الى المائدة نطيل الاكل ، وهكذا يمر الوقت بدون أن نشعر . فقلت له وهو يفاخر بفرط أدب معاصريه : ان كسلكم وعدم حسابكم للمستقبل وقناعتكم بالقليل كانت مما جلب علينا الويلات ، فعدونا نسرع لنلحق العاملين المتقدمين ، ولا نزال بعيدين عن الغاية . وما قلت له ولو كتب لي أن أكون شريككم في هذه النزوة لدخل الملل على قلبي من اليوم الاول وعددتني اقضي العمر الثمين في تافه الملهيات لالذة تتوقع منها ولا فيها للنفس سلى .

ولو كان يجوز التوسع في الحديث مع والدي لقلت له : وماذا لم يصحب كل منكم عياله بكتري لمن داراً فبأنسي الرجال بالرجال والنساء بالنساء

ساعات معاومة من الليل والنهار ، اذا لم يبح قانون تلك الايام اختلاط الرجال بالنساء ، ولو فعلتم لكانت الأسرة تصطاف كلها وتستفيد بال عشرة ، ومعظم جماعتنا الى اليوم لا يفكرون في بنات حواء ، قتلتهن الأثرة وحب الذات . وفاتني أن أسأل أبي يومئذ وهل كان في جماعتكم واحد يستطيع أن يقرأ لكم في كتاب ويشرح لكم ما غمض عنكم حله وفهمه ، وبذلك كنتم تمضون ساعتين مفيدتين من كل وجه . والغالب أن هذا الطلب كان في غير محله لان كل هذا الجمع هو بمن تغلب عليهم الأمية فكانوا بذلك متماثلين ، ولهذا تمت ألفتهم ولم يشذ عنهم عقل عن عقل ولم تحدث أحدهم نفسه أن يميزها عن اخوانه بشيء على ما جرت عادة المتصاحبين ، وأعتقد الى هذا ان هؤلاء المصطفين لو كانوا ممن يقرأ ويفهم ما يقرأ ما أضاعوا شهرين ونصف شهر من حياتهم في مهازل لا تعود عليهم بغير تقطيع الوقت سدى .

وزنت أحاديث المجالس بميزان النقد ، وقارنت بين أمس واليوم ، فاستبان لي أن البون شاسع بين الآباء والأبناء وأكثر منه بين الأحفاد والأجداد ، فما كان يرضي الأسلاف من الأحاديث لا يرضي أبناءهم وما كان يُعد من مباحج الحياة يحسبه أهل العصر مضية للوقت بل سرفاً وسفهاً . ومن أجل هذا نرى بعض البيوت الى اليوم خالية من الكتب على غنى أصحابها لأن صاحب البيت الأول ما كان يقرأ ولا يكتب فخرج ابنه على غراره الا قليلاً هذا والكتاب مهما كان نوع تأليفه أعظم محدث ومسلي وليس الكتاب بالعزيز المنال بعد انتشار الطبع هذا الانتشار ، وكانت الكتب بالامس مخطوطة يعز وجودها وهي في موضوعات مملّة لا تستفيد منها كل الاذواق والكتاب اليوم منوع الابحاث جم الفوائد ، يروح عن النفس ولا يدخل الملل عليها مهما طالت عشرة المرء له .

معلمة الاسلام

او دائرة المعارف الاسلامية او الموسوعات الاسلامية او الانسيكلوبيديا الاسلامية من أجل التآليف والاعمال التي قام بوضعها علماء المشرقيات في الغرب وأصدرتها مطبعة بريل في لندن من بلاد القاع في ثلاث طبعات ألمانية وانكليزية وفرنسية وانفقت على تأليفها وطبعها ونشرها جمعيات علمية ودول غربية واشترك نحو خمسين عالماً غريباً في هذا التأليف النفيس ولم يشترك فيه غير عربي واحد وتurكي واحد وهندي واحد واميركي واحد وما آزر فيه اسباني ولا برتغالي مع كثرة الموضوعات التي كان يفرض أن الاسبان والبرتغاليين يعرفونها عن بلادهم معرفة احاطة ، وقد وقع الكتاب في أربعة مجلدات ضخمة مع ملحق صغير ضم ما ظفر به الباحثون من المعارف عن ديار الاسلام ورجاله وما الى ذلك .

وتعلقت همة بعض الشبان في مصر بنقل هذه المعلمة الى العربية فاجادوا في ترجمة بعض مقالاتها وكبوا في ترجمة الآخر . وتتوقف الاجادة في النقل على ان يكون المترجم ممن احاط بالموضوع احاطة تامة . وكان الواجب أن تشرف على الطبعة العربية لجنة من كبار الاساتذة فتعجّلوا العمل واستسهلوه فسطوا ، على مساعدة وزارة معارف مصر لهم . ثم بدا لهم ان يعلقوا على بعض مقالات المعلمة بأفلام فئة من الأدباء والعلماء ما ارادوا به اصلاح بعض النقص الذي جاء في الاصل فأحسنوا في اكثرها . وقد وهم بعض المعلقين أن تطلبوا من مؤلفي المعلمة ان يكتبوا معلمتهم من حيث النظر الاسلامي لامن حيث نظرهم هم .

وكنت لاحظت على ادارة هذه المعلمة اشياء كتبت بها الى صديقي العلامة هوتسا الهولاندي رئيس تحريرها منها أنه فات المعلمة ذكر كثير من رجال الاسلام المتقدمين والمتأخرين ومن هؤلاء من هم احرياء ان يترجموا لهم بأطول مما ترجموا وان في بعض المقالات نزعة من التعصب لا يليق ظهورها في صفحات

مثل هذا الكتاب كمقالات البلجيكي لامنس والروسي غرانشكوفسكي ومقالات هوار الفرنسي الموجزة ايجازاً مخللاً اليتق بها ان تكون فهرساً من ان تنشر في معلمة يقصد بها التقصي - فاعتذر عما وقع وارادني على ان اتولى كتابة بعض المقالات في المعلمة فلم أجب طلبه ذلك لان معظم مقالاتها سبقني اليها بعض علماء المشرقيات وقد صدرت في جيل غير جيلي .

فات هذه المعلمة ترجمة كثير من القدماء والمحدثين من رجال الاسلام ومنهم عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب واحمد بن يوسف المعروف بابن الداية وعمرو بن مسعدة وعبد القاهر الجرجاني وعلي بن عبد العزيز وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو هلال العسكري وأبو أحمد العسكري وصالح بن جناح وابن الحناط الكفيف وابن خاتمة الاندلسي وابن عنين وابن الصيرفي والوهراني وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمار بن حمزة وابن طولون الصالحى وابن عبد الهادي وغيرهم من المتقدمين .

وترجمت المعلمة لمحمد بن عبد الملك الزيات وابن العبيد ترجمة مختصرة من قلم كليمان هوار سابق الحلبة في اقتضاب التراجم التي لم يظهر عليها ادنى بحث وتعب ، يكتب مثلها اقل الطلبة بتصفح اي كتاب من كتب التراجم القديمة . وفات المعلمة من المعاصرين ترجمة الشيخ طاهر الجزائري واحمد تيمور باشا واحمد زكي باشا والسيد محمود شكري الآلوسي واحمد القباني (أبو خليل) والسيد محمد عابدين والسيد محمود حمزة والسيد عبد الرحمن الكواكبي واحمد شوقي بك وحافظ ابراهيم بك ومحمود سامي باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وامثالهم من العظماء والمأمول ان تنظر ادارة نشر المعلمة الاسلامية نظر تمحيص اكثر مما نظر فيها ومحض ، وان يعاد طبعها طبعة جديدة مضافاً اليها النقص الذي ظهر في بعض فصولها وان تضم اليها التراجم التي اغفلت . واذا عرضت هذه المعلمة على كبار العلماء منذ الآن سدوا بعلمهم نقصها وحذفوا ما كان فيها نابياً عن الحق مغموساً بالتعصب والرعونة ، و اضافوا الى صفحاتها ما اكتشف من آثار العرب ومخطوطاتهم منذ صدر الجزء الاول اي منذ أربعين سنة .

اضر الله على علمهم

ادرسته شاباً مكباً على النسخ والجمع في دار الكتب ، وزهو الشباب وزهو المعرفة مائلان فيه ، اصابه العجب لتقدمه ابناء طائفته بمعرفة اللغة العربية وكان تخرج بأعظم علماء النهضة . واشتهر منذ بدأ بنشر اجاث ومقالات في بعض المجلات الادبية حشاها بغامز في الاسلام والعرب لانقل بسفاهتها عن مطاعن لامنس اليسوعي . اما مزيته فكانت في انه لم يقصد من الادب التكسب به وجعله حلية له وزينة ، ثم واسطة للتشفي من فطر على بغضهم من المسلمين ، كسب عطف المتعصبين من اهل نحلته وفقد عطف السواد الاعظم من قراء العربية .

وحاول في عهد الانتداب الافرنسي ان يظهر التوبة مما اجترح ويتقرب من رؤساء العلماء والادباء في بلده ليجعل منهم سائماً للوصول الى مظهر علمي كان يطمع فيه ، فما اعاروه انتباهاً وكانوا اذا نسي احدهم او تناسى ماضيه الاسود ذكره به اخوانه وذكروا له قلة انصافه فيما خاض عبابه من الابحاث العربية . وما زال وهو اليوم في عتبة التسعين على كثرة اجتهاده بعيداً عن النور الذي يسير بين ايدي العلماء محروماً الذوق الادبي لانه عاشر الكتب واصطحب الرهبان وهؤلاء لا يدركون من امور المجتمع والبيوت شيئاً يعتد به . قام والفحة سلاحه بمحملات غير رشيدة على الاسلام وعبث بتاريخه وآخرة المعتدي الفشل . وأي اعتداء افطع من ان يحمل كاتب على دين يعد اشياعه بمئات الملايين واي سلاطة ان يحاول بعد الهرم تلافى مافات ولكن الصيف ضيعت اللبن .

المؤيد والمقطم

حوالى سنة ١٩٠٧ قصدت في القاهرة صديقي الدكتور يعقوب صروف
احد صاحبي المقتطف والمقطم لأزوره في مكتبه فلم اسعد بلبياه ولقيت
شريكة الدكتور فارس نمر فسلمت وسلم ثم قال كلمتهنكم : انا استغرب ان
يجوز مثلك في جريدة المؤيد . وقلت ولم لأؤازر فيها وهي اوسع
الجرائد المصرية انتشاراً واهم الصحف الاسلامية في العالم . والغالب انه
بدرت مني كلمة في الثناء على المصريين واشرت الى مطالبتهم بالاستقلال
فاغتاض وقال انهم لا يلبقون للاستقلال وان أقل جاويز انكليزي ارقى من
اعظم رجل مصري . فتأملت لجرحي هذا الجرح وقلت له على البداية :
لا يمدح السوق الا من ربح ، تقول ذلك لانك تبيع من الانكليز هذه البضاعة ،
وتشتم أبدأ أبناء مصر . وكدنا نتماسك ونتضارب لولا ان دخل علينا
داخل فقطعنا الحديث وانتهى المجلس على هذا القدر من التشاحن .
واذكر اني دخلت ذات اليوم على الدكتور صروف في وقت الظهيرة
فشاهدته يقرأ التجربة الاخيرة من المقطم ويحذف مقاطع منها وكلمات .
فلما انتهى من النظر فيها التفت اليّ بكليته وقال : مادري كيف نجوز
شتم المصريين في جريدتنا ونحن نعيش بين اظههم ؟ . وصروف يجور
المقتطف ونمر يجور المقطم ، وكان صروف رحمه الله الى الاعتدال يغلب
عليه جلال العلم وتؤدة المحققين والمفكرين ،

اكرام الغريب

قال لي أحد شركائي في الزراعة انه كان في ضيافة أحد معارفه في قرية من قرى الغوطة وسهر عنده جمهور من اهل القرية كان بينهم رجل من وجوها . فلما كاد المجلس يتقوض في الهزيع الثاني من الليل قال هذا الصدر : أوصيكم يا اخواني بالغريب ، اكرموا ما استطعتم ، وابذلوا جهدكم لادخال السرور على قلبه ففي ذلك فوائد لكم ولقريتكم . فقلت للراوي : وأنا سألت ذات يوم معلمي عن رجل من ابناء البيوتات في بلدنا وكانت له نسبة الى العلم : اراكم ترفعون من شأن فلان وهو على ما بلغني قليل العلم لا يستحق هذا الاكرام . فاجاب ان للرجل مزية جميلة يجب لاجلها احترامه . ذلك انه دأب من سنين طويلة على اكرام الغرباء القادمين علينا يكرمهم ويدعو اصحابه لآكرامهم يزورهم الجوامع والمدارس والمزارات المقدسة والمصانع الاثرية ويعرفهم الى صفوة الفقهاء والوجهاء فيعود الغريب الى بلده شاكراً مغبوطاً بما رأى ووعى . قال : اليست هذه مزية تستوجب اكرامه ؟ فقلت لو كان لي يد في وضع موازنة الدولة خصصت لبضعة اشخاص من ارباب المكانة مبلغاً عظيماً ينفقونه بمعرفتهم على اكرام الغريب وتحسين سمعة البلد فيعود ذلك على الحكومة والشعب بمنافع سياسية واقتصادية .

عقول مخربة

سمعت دعيّاً من ادعياء الفهم يطعن على أحد كبار العلماء لعدم عنايته
بديابه وهندامه ويعد ذلك منقصة فيه ، والمطعون فيه ملاً الدنيا خيراً والطاعن
لامزية له الا مصانعة كل صاحب قوة ، هو يتذرع بمسألة لاتقدم ولا تؤخر
في عظمة الرجال . وفي الامثال الافرنجية الناس كالمداخن فالمدخنة التي يكثر
دخانها ليست ذات هندام حسن في العادة . وكأن القادح يحاول ان يتدرج
من حكمه على أعظم عظيم في قومه لبشير من طرف خفي الى ان برؤة اهله
هو كانت جميلة وهم جهلة ساقطون ليس لهم الا المظاهر البراقة وابنهم
السخيف لا يؤثر الا الجمل الثياب ولا يحفل بما تحتها من خزي وخبت . في العالم
من يحلو لهم ان يحركوا السننهم بمعنى وبلا معنى يبدون الكراهة بما لا يدركون
سره ولا يلتئم مع أذواقهم كأن اذواقهم المعيار الاكبر في الحكم على كل شيء .
وسمعت من يخرق ويقول أي فائدة لنا من العلم ونحن كنا أسعد حالاً
قبل عهد علمكم هذا أيام كان آباؤنا أميين وكانت أشغالنا موفقة وكنا نكسب
وننعم من دون أن نتعب في تحصيل العلم ويتبجحون بان من الجهلاء من
وصلوا الى مناصب في الدولة وهم أجهل من قاضي جبّل ويقولون ان أناساً
جمعوا ثروات طائلة وهم لا يقرأون ولا يكتبون ويزيدون على قولهم ، أنتعلم
حتى نصير كفلان اشتغل بالعلم الذي تدعون اليه طول عمره وما اغتنى كما اغتنى
جاره الأمي ، وبماذا تجيب مثل هذا الغبي وعقله بهذا الضيق الذي ترى .
انكم مهما بلغت في تحاملكم على من لاتساوون قلامه ظفرهم لا تعودون
بغير الخزي في محاولتكم اسقاطهم ومن تتطلبون اثبات فضائلهم بالطعن
في أفضل الفضلاء هم أجهل الجهلاء .

المسلمون يتعلمون

كان أبناء الاغنياء على عهد ازدهار الاسلام يأخذون العلم في بيوتهم على أيدي المؤيدين ، وكان الفقراء يهرعون الى المساجد يتلقون فيها ما نطمح اليه نفوسهم من الآداب عن علماء ما قيدوا انفسهم الا بواجبهم الديني ، وما قصدوا الا نفع قومهم . وكان للمدارس في فارس والعراقين والشام شأن عظيم في نشر العلم الاسلامي والمدارس الكبرى في نيسابور والري والازهر والزيتونة والقرويين مكانة ليست للمدارس التي أنشأها الافراد . وعادت مدارس العجم عامة بأعظم الخيرات على الاسلام والعربية سواء منها الصغرى أو الكبرى وظل نور المدارس الجامعة التي ثبتت على محن الدهر يسطع العصر بعد العصر ، حتى اذا كان القرن الماضي وبدأت نهضة مصر أخذت العلوم الاسلامية التي كانت تنبثق من الجوامع ينضم اليها ما تنتجه المدارس الحديثة فيتساند القديم والحديث ، واصر ميزة خاصة بأزهرها كان العامل الاكبر فيه كونها بقيت دولة أو شبه دولة وساعدها أيضاً غناها وتوسطها بين الاقاليم الاسلامية وكونها ابنة مدينت عظمى تسلسلت فيها قرونًا . واثبتت مصر بعد زوال دولة الترك عنها أنها ذات كفاءة للعلم وفيها كان على الدهر بقايا منه في كل زمن وما لبث العراق والشام في العهد الحديث أن طلبا الى مصر انجادهما بمدرسين مصريين يلقنون ابناءهما على الطريقة التي تقدم المصريون فاقتبسوها من الغرب ومزجوها بما كان عندهم من بقايا العلوم القديمة ، وقد بلغ عدد المدرسين المصريين في الاقطار العربية خمسمائة استاذ يدرسون في الثانوي والعالى ، وانتهى عدد الطلاب الوافدين على وادي النيل لدرس الشريعة والعربية والعلوم الحديثة الى ثلاثة آلاف فيهم الصيني والجاوي (الاندونيسي) والهندي والافغاني والقافاسي والتركستاني والعراقي والشامي والمغربي وغيرهم من العناصر الاسلامية . ومذ بدء النهضة تتجلى العناية بنشر العلوم على الطريقة الحديثة في

المدارس المدنية أكثر من المدارس الدينية حتى لقد ضعفت في بعض الأرجاء العلوم الشرعية ، وعلى نسبة الرغبة في الجديد كانت الزهد المحسوس في القديم ، وكان للحكومات يد في هذا التبدل عاون فيه الطلاب وآباء الطلاب لان السواد الاعظم منهم يطلبون علماً يكسبون به معاشهم وعلوم الدين لا يعيش بها طالبها إلا في ضنك خصوصاً بعد أن جعل القول الفصل للقوانين الغربية في معظم الاصقاع الاسلامية ، وما نجت من هذا التجدد الا اليمن والحجاز ونجد والامارات العربية في الجزيرة .

في خمسين سنة تطور العالم الاسلامي تطوراً ملموساً وكان أحباب الاسلام يتوقعون أن يتقدم خطوات أوسع من التي خطاها وتعذر ذلك لتوقف الاضطلاع به على بواعث ، منها ما هو مفقود ومنها ما يحتاج الى الزمن فيصقل ما يصقل ويرذل ما يرذل . (وسيتلو القاريء الفصل الذي كتبناه في النهضة الشامية الاخيرة في مكان آخر) ويسرنا ان كانت العراق والشام أسرع الاقطار الى الاخذ بمذاهب الترقى لما كان متأصلاً فيها من الصفات الصالحة لتلقف العلم . وكان هذان القطران أكثر الأقطار انتفاعاً بنهضة مصر ، وامتازت العراق عن الشام بأنها ما ابتليت ببلية التقسيم كما ابتليت الشام فسلخ عنها لبنان ثم شرقي الاردن ثم فلسطين ثم لواء الاسكندرونة ، وكانت وحدة العراق السياسية عوناً لها على الوحدة العلمية .

وعلى شدة العناية بنشر التعليم في مصر ما زال من يقرأون ويكتبون أقل بكثير من كوفعت أمتهم وأنشأتهم المدارس وقد أخرجت مصر هذه السنة من الأمية البغيضة اربعمائة الف ، وأعدت العدة لمكافحة خمسمائة وخمسين ألفاً من قابل ، ولا بد من قضاء جيلين حتى ترفع غشاوة الجهل المطبق عن عيون البنين والبنات في مصر وغير مصر .

عرش غريب

صاحب هذا العرش « انطوان دي طونين » من پريكو (فرنسا) ذهب سنة ١٨٦٠ الى باتاغونيا في اميركا الجنوبية وكان فيها قبائل من الزوج صعب على حكومة الشيلي اخضاعهم لسلطانها فتقدم وداخلهم وجمع شملهم وعاهدتهم على ان يدافع عن استقلالهم ونادى بنفسه ملكاً على باتاغونيا واروكانيا ومنح مملكته دستوراً مأخوذاً من الدستور الفرنسي . وفي السنة التالية قضى الجيش الشيلي على هذه المملكة المستحدثة ولم يرض الملك اوريلي انطوان الاول ان يتنازل عن الملك ولا ان يعترف بهزيمته ، فسجنه الشيليون اشهراً ثم رحلوه الى فرنسا فمات تاركاً وصية ذكر فيها من يخلفه في الملك فكان لوالده ان يتقلده اولاً ثم لاختوته وفي الدرجة الثالثة ييجي . ابن عمه واذ أبي الاب واولاده تقلد هذا الملك قبل ابن العم الا أنه لم يرحل للقبض على زمام مملكته واكتفى بتأسيس مفوضية لباتاغونيا واروكانيا كان يبيع فيها القاب الشرف وطوابع بريد المملكة ونقوداً رسم عليها شعارها فنجحت هذه التجارة ونصب الملك قناصل لمملكته ونال بعضهم براءات بمناصبهم ولا سيما في ايطاليا وغدا قناصله يدعون الى المقابلات الدبلوماسية .

قال راوي هذا الخبر « اندريه موروا » : وهكذا كان الزهو البشري لمن يحسن اللعب به منبعاً لا ينضب لريع يدور على ثاني ملك لباتاغونيا واروكانيا يعيش منه في باريز وما يعيش الا من غلة مملكة موهومة . وقد انقرضت هذه السلالة الملكية بوفاة هذا الملك ولكن براءات الشرف ونقود المملكة مازال عشاق المجاميع يتطلبونها . قلنا وبعض عروش الشرق الحديث لم تخل من غرابة في تأسيسها وسياستها وهي سخيقة بالثقافتها وبزئانها ومصطلحاتها .

باسم الدين

شهد العصر الذي نحن فيه مالم يكذبشهده العصر الذي سبقه من تبدل واختلاف وكان دور الانتقال ذا الروان واشكال يشبه ذنب الطاووس بجباله وسخام القدر في اسوداده . كان أهله متباينين في صفاتهم متباينهم في سخائهم وغلب الشر الخير فيه واصبح الرياء والكذب من معتاد الازياء . والقانون الطبيعي يجري على رقاب الناس كافة لايفلت منه أحد حتى من باعوا واشتروا باسم الدين .

قال لي صديق عاقل ان المطران فلان جمع حتى الآن مئة وخمسين الف دينار جناها من ابناء طائفته في اميركا وطائفته هنا كما تعلم كثير فقراؤها وهو لايجود عليهم ببعض مايجب عليه لهم فقلت : أيقن يا صاحبي ان ماله سيذهب ويبقى عليه ائمه وعاره . فقد عرفت المطران ... - وكان يتعبد الله بيفض المسلمين في الغيبة ويدهن لهم في الحضرة - جمع باساليب رجال الدين عندكم اربعين الف ليرة عثمانية ذهباً وهاجاً ثم بدا له في آخر أيامه ان يعطيها لاحد ذوي قرباه ليشرها له في مصرفه فما هي الا اشهر قليلة حتى افلس المصرف وتبخرت ثروة المطران في جملة ماتبخر فيه ، ولم يعيش المسكين بعدها إلا قليلاً وراح أسفاً على مالقى من نصب في بيع الغفرانات ومنح البركات . واعرف شيخاً داس على الامة ستين سنة وجاز على العامة وبعض الخاصة تدليسه وجمع مالاً كثيراً من طرق شتى ومن دول رأت استمالته فما ان دلي في جفرتة حتى استولى أولاده على ارثهم وبددوا ما ورثوه في الطرق التي يبذر فيها المستهترون اموالهم وفي أقل من أربع سنين اضمحل الارث ونفذ القانون الذي يعاقب على الشر وبه يعاقب الشيخ والمطران لمخالفتهم روح دينها .

بتمزيق اموال الاشرار تغتبط نفوس الاخيار .

الاخوان المسلمون تأثرون

« تألفت منذ سنوات جماعة اتخذت لنفسها اسم « الإخوان المسلمون » وأعلنت على الملأ أن لها أهدافاً دينية واجتماعية دون ان تحدد لها هدفاً سياسياً معيناً ترمي اليه ، وعلى هذا الأساس نشطت الجماعة وبثت دعايتها ولكن ما كادت تجد لها أنصاراً وتشعر بأنها اكتسبت شيئاً من رضا بعض الناس عنها حتى أسفر القائمون على أمرها عن أغراضهم الحقيقية وهي أغراض سياسية ترمي الى وصولهم الى الحكم وقلب النظم المقررة في البلاد .. وقد اتخذت هذه الجماعة في سبيل الوصول الى أغراضها طرقاً شتى يسودها طابع العنف فدربت أفراداً من الشباب أطلقت عليهم اسم الجواله ، وأنشأت مراكز رياضية تقوم بتدريبات عسكرية مستترة وراء الرياضة ، كما أخذت تجمع الاسلحة والقنابل والمفرقات وتخزنها لتستعملها في الوقت الذي تتخيره ، وساعدها على ذلك ما كانت تقوم به بعض الهيئات من جمع الاسلحة والعتاد بمناسبة قضية فلسطين وأنشأت مجلات اسبوعية وجريدة سياسية تنطق باسمها ، وسرعان ما انغمست في تيار النضال السياسي متغافلة عن الاغراض الدينية والاجتماعية التي أعلنت الجماعة انها قامت لتحقيقها ... »

« الجمعية ليست جمعية دينية بالمعنى الذي يفهمه الجمهور وانما هي جمعية سياسية دينية اجتماعية تنادي بتغيير القوانين وأساليب الحكم الحالية وان الخطب الدينية لا تفيد في توجيه الجمهور الى تفهم غرضها الحقيقي وأن الوسيلة لبلوغ هذا هو اثاره الجمهور بطريقة طرّق مشاعره وحساسيته لاعتقه وتقديره . »

هذا ماورد في بيان الحكومة المصرية بعد ان قيل ان هذه الجمعية ارتكبت اجراماً كثيراً من قتل ونسف واحراق وآخر كل ذلك اغتيالها لرئيس حكومة مصر محمود فهمي النقراشي باشا الذي أمر بحل جمعيتهم ثم اغتيال أحد الاخوان رئيس جمعيتهم لان اخوانه شعروا بانه سيدل الحكومة

على ما لدى الجمعية من سلاح وعتاد وقذائف فيما قيل وقد ظهرت أوكار للجمعية كثيرة في القاهرة وغيرها من الاقاليم فيها من العتاد والسلاح ما لا يوجد عند دولة عظيمة . لاجرم ان جمعية الاخوان المسلمين من اعظم ماقام من الجمعيات السرية في مصر وغيرها من بلدان الشرق العربي وحق للناس أن يبألفوا في تقدير مكانتها . هذا وقد سرت دعوة هذه الجمعية الى من يحبون التقليد على العبياء فدخل فيها كثيرون ممن يتحمسون للدين في الشام وغيرها ولما كشف أمر جماعتهم في مصر تواروا وعمدوا الى التقية والبراءة من عمل اخوانهم في وادي النيل .

الاشتراكية في مصر

الاستاذ عبد الرحمن الببلي بك من وزراء مصر ومن رجال المحاماة فيها رزقه الله الغنى فأحسن التصرف به ، واخرجت منه التجارب والدرس اشتراكياً معتدلاً ، لامن الصنف الذي يدعو الى الاشتراكية باللسان وهو في ذاته من أقصى ارباب الأموال . هو يشارك فلاحيه في نعمته مشاركة لاتنقص من ماله ، وتريد في ربيع مزرعته . هو من طبقة تنظر الى المستقبل بعين البصيرة وتدرك ان الغني اذا لم يعطف على الفقير فالعاقبة عليه وخيمة . وآخر ما ذكرت الصحف من اعمال هذا الدراكة ان اتخذ من يوم النصف من شعبان من كل سنة يوم برّ وجعل من برّه توزيع خمسة شبان من ابناء قريته على نفقته الخاصة يقدم لهم هدية العرس من ماله وهي مسكن صحي لطيف مع جهازه وادواته وفرشه وبقرة حلب . يعمل هذا ويقول نحن في عصر جديد يجب ان تكون فيه محبة الزارع للمالك هي الراية الشرعية التي تنضوي تحتها القلوب .

لاجرم ان الاستاذ الببلي هو المالك الحقيقي للارض بما يصنع من خير لمزارعيه ينفعهم وينتفع بهم وسيقطف هو واولاده ثمرة ماتجود يده

على الفقراء يتمتعهم بما يتمتع هو به وينقلهم بمجمل صنعه الى حالة من العيش لو حصل عليها جهرة ارباب الزرع ما كان الفرق كثيراً بين فقير وغني ولما خشي الاغنياء غدرات النظم الجديدة وويلاتها .

وبعد فقد دعا النائب المشار اليه الى المذهب الاشتراكي وقال ان الدول الكبرى ومنها بريطانيا العظمى أم الديمقراطية وحضنها الحصين تدعو الآن اليها وان بريطانيا انتدبت مائة وخمسين عالماً من اكبر علماء الاقتصاد والاجتماع لدرس ما يمكن ان تنتهي اليه المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها العالم من سنين فقالوا لا بد ان تؤدي يوماً الى انقلاب عنيف لاسبيل الى تفاديه الا اذا عدلت الانظمة الاقتصادية في العالم بحيث تضمن للناس جميعاً مستوى من الحياة يتفق مع القواعد الانسانية وتمحى هذه الفوارق الهائلة بين مستوى المعيشة عند الاقلية الموسرة والاغلبية التي لا تكاد تظفر بعيش الكفاف .

قال ان ثلاثة ارباع المصريين اي اثنا عشر مليون من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع يفتك بهم الجوع والمرض اي ان اثني عشر مليوناً من المصريين لا يجدون حتى عيش الكفاف بل لا يجدون جرعة من الماء الصالح للشرب وان اجور العمال في الزراعة قد بلغت من التفاهة حداً يهبط بهم الى مستوى الحيوان او ما هو دونه بكثير ، وان الثروة الزراعية في مصر موزعة توزيعاً عجيباً فيينا نجد ملاك الأراضي يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون تجد أن من هذا العدد نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد منهم على عشرة قراريط في حين أن أصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثني عشر ألفاً يبلغ متوسط ما يملكه كل منهم مائة وسبعين فداناً أو يزيد اه .

وما زلت أقول للمصريين ان في مصر تسعة عشر مليوناً يشقون ابدأ لينعم بتعبهم مليون من السكان وانه من السخف أن يصرف مليون جنيه على فتح شارع في القاهرة أو الاسكندرية للتباهي ولا يصلح ماء شرب الفلاح ومسكنه ولا تعنى الحكومة بتعليمه لتخرجه من البهيمة الى الانسانية .

هذا وقد ذكرت الصحف المصرية أن صاحب الدولة ابراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزارة سيتقدم الى البرلمان ببرنامج اشتراكي ، فاثبتت مصر بذلك أنها سائرة في نظام حكمها مع الزمن وكل ذلك بفضل بعض رجالها الاعاظم ووحيمهم أمثال عبد الرحمن البيلي بك .

وآخر ما قرأته للاستاذ البيلي بك في جريدة المصري اثناء كلامه على ضريبة الاطيان الجملة الآتية : وفي سبيل هذا الهدف رأيت ان أتناول موضوع الضريبة على الأطيان من وجه آخر يربط بينها وبين ما تقتضيه حياة الغالبية العظمى من أبناء البلاد وهم سكان الريف - من نهضة ترتفع بهم الى المستوى اللائق بكرامة الانسانية والذي يجعل منهم مجتمعاً سليماً وكياناً وطنياً منيعاً واذا قلت سكان الريف فانما أعني مصر باجمعها اذ هم يمثلون ٨٠٪ من مجموع السكان وتقوم على اكتنافهم وسواعدهم النهضة الزراعية والصناعية والثقافية والعمرانية ، ومن بينهم ينبت القادة وجنود الوطن وعدته في الدفاع وفي النشاط التنفيذي والمهني وفي كل ميادين العمل ومدارج الكفابة البشرية ، وبناء مصر الحديثة الناهضة يقوم على دعامة أولى هي النهضة بالريف وتهيته وسائل الحياة الكريمة لساكنيه وفي هذا الميدان ينبغي أن تتجه جهودنا جميعاً وفي كل بقعة من بقاع الريف وكل قرية من قراه يجب أن تتوافر المرافق العامة الانتاجية والاجتماعية والصحية والثقافية والعمرانية الخ .



حريت النعمة

قال لي مدير التملك : منذ خروج هذا الفطر عن الحكم العثماني لم يسجل احد من الاعيان ملكاً جديداً على اسمه الا ما كان من التناقل في الملك الواحد بين الاسرة ، ومن يسجلون الاملاك على اسمائهم من جديدهم من الباعة والطبقة الوضيعة ممن يلبسون الثياب الزرق ويتبلغون في يومهم بليرة سورية أو ليرتين .

ساءني هذا النبأ لان في اغتناء هذه الطبقة وخروج الاملاك من ايدي من كانت تنتقل بين طبقتهم اجيالا اي فقر الاغنياء واغتناء الفقراء ، ثورة لاتحمد كثيراً لان فيه قطع ارزاق ألوف من الخلق كانوا يعيشون من الطبقة العالية التي افترقت وهي على الاكثر من الطبقات التي تنفق دخلها واحياناً اكثر من دخلها لتعيش عيشاً رغيداً وتظهر بمظهر لائق بين أهل حبيها ومن تعاصروهم ، أما الأغنياء الجدد فانهم اشحاء ، وبالشح جمعوا ما جمعوا على الاغلب لاينفقون الا جزءاً ضئيلاً من ريع املاكهم ، والمدنية لايقسمها الا الاغنياء والطبقة الجديدة منهم توخرها بجمودها وبخلها .

والسر في انتقال الثروة هذا الانتقال الفجائي كون الجدد عملوا وما جمدوا وغامروا واقدموا والاغنياء الذين ورثوا غناهم تناسلوا كثيراً وتفرقت املاكهم ثم اسرفوا وما حملوا الى بيوتهم مالا جديداً وجمدوا وما تلمسوا الطرق الموصلة الى الغنى مكثفين بالتوظف ، والتوظف قلما أغنى صاحبه ، ومعظم الموظفين يعيشون ويموتون فقراء مهملين سرقوا وارتشوا .

من عادة الثروات التنقل وفي هذه الحرب اغتنى بعض التجار واشباههم غنى فاحشاً ومنهم من حدثتهم انفسهم بالتوسع في معائشهم وبادروا الى تعليم اولادهم يحاولون أن يظهروا للاعين على ما كان يظهر اهل السعة سابقاً واخذنا نسمع باسماء اغنياء ماسعنا بهم من قبل ، وكانت من الطبقة الدنيا قبل عقد واحد من السنين . ومنها من حاز الغنى بطرق غير شريفة وظل بعد غناه يزور ويفش لا يرد جماعه شيء .

طبقات الوزراء

عمل الوزير عظيم لا يظطلع به الا من جمع الى العلم تمريناً والى السياسة خلقاً . ويتخرج الوزراء عندنا في مدرسة الاحزاب والمحافل والاندية وأروقة المجالس النيابية ومن كانت لهم دراسة خاصة وتجربة سابقة هم الصدور المقدمون . والاحزاب قد تختار نوابها وتجيد الاختيار وبالعكس . والنائب قد يصل الى كرسي النيابة بكفاءته وفي الاكثر بجزئته وواسع حيلته ، ومعظمهم يطلب رضا المحافل الماسونية ، وما زال مغروساً في العقول ان الماسونية قوة لا يستهان بها يصل منتحلها الى المناصب وبها يحمي نفسه من القوانين وسيطرة الرؤساء . المستوزرون الا من كان على شيء من عزة النفس يتحسون المرجع الفعال في تنصيبهم فيتقربون اليه بما يقنعه بحسن بلائهم ويحمله على استدعائهم في حالة شغور المنصب وعندنا ان من تقلد الوزارة مرة حق له ان تكون له الأولوية أبداً ، والعامل الاكبر في تكرار مجيء الوزير الى الحكم أن يرضى عنه من بيده تعيينه والامة تختلف درجة حظوته عندها وفي الاغلب انها لاترضى كل الرضى عن الرجل مادام قابضاً على السلطة فاذا اعتزل أو أفل برد حقداء عليه ، وربما عادت فاختلفت له المحامد . وما برح الرأي العام في ديارنا يتحرك بحركة الاغراض لا يعرف الثبات والاستقرار ، والمرضي عنه اليوم مغضوب عليه غداً ، والناس أبداً اقرب الى الطعن المبرح فيمن كان لهم نصيب من الحكم منهم الى المدح المعقول .

ورأينا بعض من اختارهم السلطة المنتدبة للوزارات في سورية ولبنان من الاكفاء لمناصبهم وكذلك من جاؤا بعدهم على عهد الجمهورية ، وتولى الوزارات من تنقصهم أشياء كثيرة واهم ما كانت تعوزهم الاخلاق ومنهم العجزة الذين لا يستطيعون ان يحلوا مسألة واحدة بأنفسهم وقد اعتادوا الاسبىروا الاتحت يد من سيرهم ، وغرامهم ابداً بقضاء مصالحهم الخاصة وقلما

تهمهم المصلحة التي جاؤا لمعالجتها ومعظمهم يصلون الى هذه المرتبة بقوة الاحزاب وقل فيهم من نالوا الوزارة بقوتهم الشخصية وقل فيهم جداً من كانت لهم ثقافة لا بأس بها ومعظمهم اذا عدلوا مع انفسهم لا يكون منهم اكثر من موظفين من الدرجة الرابعة او الخامسة .

تختار الحكومات للوزارات من يوافق سياستها من بعض الوجوه وتحمل الوزير على علاته وهي تعرف مواطن الضعف فيه وتدرك جهله وعدم نزاهته . وليست الأحزاب والمحافل أقل تساهلاً ممن يعينهم مكتفية منهم بيزة خاصة تراها فيهم . وعندنا ان من اهم ما تظهر به كفاءة الوزراء دوام مهمتهم ثلاثاً او أربعاً من السنين اما الاشهر القليلة فلا تكفي لاعظم ذكي ان يدرس منشعبات وزارته وتكشف له حركة الحيث والطيب ممن سقط عليهم من الثابتين من موظفي دواوينه وعماله . والغالب ان صاحب الشأن لايهمه نقص كبير يشهده في اخلاق الوزير بقدر ما يهمله خدمة غرضه وتطبيق سياسته .



مسنات الأزهر

مها قيل في خلل طريقة التعليم في الأزهر وهو خلل دام الى الثلث الأول من القرن الرابع عشر من الهجرة فانه خرج رجالاً خدموا الشريعة ونشروا اللغة العربية . نشأ في اواخر القرن الماضي عالمان جليلان شامي وعراقي درسا في الأزهر واحكما ما درسا ثم صار كل منهما شيخ رواق الشوام وشيخ رواق البغداديين فلما ارتويا من العلم رجعا الى وطنها يجددان فيه ما عفا من رسوم الشريعة . عنيت العلامة الشيخ عبد القادر القصاب من جبل قلمون في الشام والعلامة الشيخ حسين العزى من عرب سقي الفرات ، وكلاهما فعد لاقراء الناس في عودته الى بلده ، فخرج الأول وعاظاً وفقهاء وتخرج بالثاني في العلوم الدينية كثيرون في ارجاء الفرات ومن انبغهم اليوم الشيخ سعيد العرفي واتم هذا التلميذ ما بدأ به استاذه من بث روح العلم في أبناء تلك الديار وكانت بلده دير الزور في جهلها كالبادية او اجهل من بادية قبل ان يقوم فيها ذاك الأزهري العظيم . ولولا عمل هذين العالمين لاضمحل الاسلام في هذه الاصقاع العظيمة ، فانظر الى فضل جامع الأزهر واعجب بما بثه ويثته من الأنوار في القاصية والدانية .



عذر اقبع من ذنب

لما بدأت الجيوش الالمانية في الحرب الأخيرة تتوغل في الاراضي المصرية أيقن الانكليز بالخطر الداهم اذا استولى الالمان على مصر ، فلم يروا لتلافي الفاجعة احسن من اكراه ملك مصر على القبول بتوسيد الوزارة المصرية الى مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصري أكبر الاحزاب المصرية سواذآ . دعا الانكليز الى المطالبة بمثل هذه الوزارة لانه سمع في بعض المظاهرات من ينادون (الى الامام يارومل) ورومل قائد الجيش الالمانى في افريقية ، ويستشمن من هذا النداء ان مصر تحب استيلاء الالمان على مصر وربما عاونتها للوصول الى غرضها لتنفض يدها من يد بريطانيا العظمى وتتمتع باستقلالها تاماً .

فجاء القائد الانكليزي الى سراي عابدين بدباباته يفرض النحاس باشا على صاحب التاج فرضاً فأثر جلالتة ان يرضى بالوزارة المقترحة لئلا يكون من رفضه سبب لحدوث فتنة تهرق فيها دماء المصريين . وهكذا انفض الأمر بسلام وما عاد يسمع في الشوارع « الى الامام يارومل »

الانكليز على تهذيبهم قديسيئون الى من يرون في اساءته فائدة لهم ثم يعودون فيعتذرون ، وكذلك كان حالهم مع صاحب مصر عاملوه هذه المعاملة الخشنة لا كراهه على ما لايجب وتقدموا ليعتذروا .

لون من الوان السياسة لاتقدر دولة مهما بلغ من سلطانها ان تقلد فيه بريطانيا العظمى .

الكل مسؤولون

اعتاد بعض أرباب الزراعات العظيمة في غوطة دمشق ان يأدبوا كل سنة مادة كبيرة في مزارعهم يوم ضمان الشمس او القنب أو الكرم او الزيتون وغيرها من الامار والغلات فيجتمع لديهم مئات من فلاحى القرى ومن ينضم اليهم من الصعاليك وهم في ظاهرهم من الضمانة وفي الحقيقة انهم يحضرون السوق ليطعموا من طعام صاحب المزرعة ويتسلوا برؤية من حضر وسماع اقوالهم . وجاءت هذه الطائفة هذا العام الى سوق عقد في مزرعة كبير لبيع مشمشه فما ان رأى الحضور الطعام يقدم على السباط في القدور والواني والصواني حتى أخذوا يلتهمون الطعام بشراهة ومنهم من كانوا يمدون ايديهم اليه قبل نوبتهم ويحملون منه في عبايهم واكمامهم بل في سطول يحملونها ومنهم من يتعدون اذى من ينتظر نوبته في الأكل او من تقدم فأكل . وافسد بعضهم ماوضع من الطعام بالقاء التراب فيه ثم أخذوا يتضاربون ويتشائمون ويكسرون الصحف والاطباق والزبادي والكؤوس فأبانوا بما اجتروا عن دناءة وهمجية فطردهم المتولون تنظيم الضيافة قبل أن يتم الآكلون أكلهم . وقد انكر أعيان الفلاحين هذه السلاطة وخبجوا من وقوع هذه القحة في بيت يجب على الأمة ان تحترمه . فقلت لهم لانتعجبوا وتصدروا حكمكم بهمجيتهم واجثوا قليلاً في اصل هذه العلة وما كان الداعي الى تأصلها ، ولم لم يفكر المفكرون في استئصالها ، فان أرباب الاملاك لم تحدثهم انفسهم يوماً في حل النور الى الفلاحين يرون مايرون من خرق وسفه ساعة مايقع ثم يغلقون باب التفكير فيه . فلو قد بدأوا بتعليم أهل الزرع والضرع منذ أوائل هذا القرن لجاء منهم جيل مهذب يستحيل ان يرتكب مثل هذه الرعونات ، ولو بحثنا في درجة تهذيب المجتمعين ذاك اليوم لرأينا من ارتكبوا هذه الفظاظة غارقين في الأمية من فرقهم الى قدمهم

ومن ظهروا والأدب باد عليهم كانوا ممن درسوا في الكتاب شيئاً هذب
أخلاقهم . نحن نريد شعباً راقياً يخلقه الله لاجل خاطرنا خلقاً دون أن نسعى
أدنى سعي لتهديبه وتعليه . ولو كانت أهمتنا مصلحة غيرنا كما أهمتنا مصلحتنا
لأقنينا من الشعب المذهب الذي نرجوه .

الأعيان مقصرون ، والمشايع مقصرون ، والمدنيون مقصرون ، والقرويون
مقصرون ، وكل مستنير العقل مقصر ، والجرم في الآخريقع على الجاهل
المسكين الذي لا يدرك عقله أكثر مما تدرك دابته ، نحاول ان نتمتع دون
أن نتعب وان يعامل الجاهل بالقوانين الدستورية مع اعتقادنا أن مئة سنة
لا تكفي لأن تخرج من متوحشي هذه الأمة شعباً يفهم ماله وما عليه .
كثيراً ما كانت قرينتي رحماً الله تقول لي : إلام تهتم بأمر الفلاحين
هذا الاهتمام ، تشفق عليهم وتحاول رفع الظلم عنهم ، وتعمل على فتح
طرق وكتائب لهم ، وما هم الا غاردة لو أعفت الدولة ظهورهم من ضرب
العصى والسياط لما استطعت أنت على مكائتك أن تذهب الى مزرعتك
آمناً على روحك ، فكل ظلم ينالهم يستحقونه ويستحقون أكثر منه ،
ولولا الاستبداد بهم ما استقام لكم أمر معهم .

فكنت أجيبها اني أتحمل كل هذا العناء ليستنير عقل الفلاح وينشأ
منه جيل أصلح من الجيل الحالي للحياة ، يدرك أن مصلحته مناط تربيته
وان لا سعادة له الا بتعليم الذكور والاناث من أولاده التعليم الأولي ،
وانه لا تحسن حاله بدون الصدق في عمله والبعد عن الرذائل .



هلال رمضان والميرين

كل سنة تحدث بلبلة في بلاد الاسلام من أجل اثبات هلال رمضان وشوال وذى الحجة ، والمحاكم الشرعية حتى بعد ارتقاء علم الفلك واتقان المراصد الفلكية ، لا تزال مصرة على اثبات الهلال بالعين المجردة لا تعتمد على الارصاد لأن الماضين ما عرفوا اثبات الالهة بهذه الطرق الجديدة فلا بد من شهادة شاهدين ، وقد يكونان من العُمَصَ العُمَصَ ، يشهدان أنها رأيا القمر ساعة ولد فيتناولان ما جرت العادة باعطائه من جعل لمن يشهد هذه الشهادة وعندها يصوم المسلمون أو يفطرون .

وتناقش أصحاب الفتنيا في هذه المعضلة ففريق يقول برؤية العين في الاثبات وآخر يوافق على رصد القمر في المراصد ويؤكد أنها أقرب الى الثقة ، وألفوا في هذه المعضلة الخطيرة كتباً ورسائل ، وظل كل فريق مصراً على رأيه . وقد قبلت مصر سيدة العالم الاسلامي في الشرع نظرية المراصد وانقذت بلادها من الفوضى ، ولا تزال الشام متعنتة لايعنيها ان جعلت من مسألة الرؤية مهزلة يضحك منها الأجانب .

حقيقة نحن جامدون الى حد السخف لا ننزع القديم البالي بالسرعة الواجبة ، ولا ننزع الى الجديد النافع بدون جدال لا طائل تحته .



دمشق

قال احد ارباب المدارك ان لدمشق طابعاً خاصاً في طبيعتها وروحها ومرافقها لاتشبه المدن الداخلية ولا المدن الساحلية . وهذا الكلام يصدق على هذه العاصمة منذ فتحها العرب المسلمون . وانتقلت دمشق في أيام بني أمية من حاضرة صغيرة الى عاصمة كبيرة يمتد حكمها مسافة تسعة اشهر في اوربا وافريقية وآسيا . عاصمة تهوي اليها افئدة ملايين من الشعوب لابد ان يكون خلفاؤها قد هياؤا فيها اسباب الراحة والنعم لمن ينزلونها واصبحت في مئة سنة سيدة المدن والعواصم في الارض كلها .

وما اقامه الامويون في دمشق من اعمال العمران تعذر على السفاح والمنصور من خلفاء العباسيين ان يقضوا عليه كله يوم فتح العباسيين . وكان الرشيد والمأمون يختلفان اليها في الاحايين ويعجبان بأثار بني أمية فيها . ذلك لانه كان في فطرة الدمشقيين الاحتفاظ بمصانعهم وعادياتهم على ما تبين من تاريخهم في القرون التالية فان جامعهم أو جامع بني أمية وهو أعظم جامع في الاسلام خرب بالحريق والزلازل مرات وأهل دمشق يعيدونه كل مرة الى سابق حاله وكذلك المدارس التي أنشئت من القرن الخامس الى القرن التاسع وهى لاتقل عن مائة وخمسين مدرسة لتعليم القرآن وفقه الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي عدا الرباطات والخوانق والزوايا والتكايا والمستشفيات ودور الزمنى والمجذمين وكانت كلها تدار ادارة حسنة ويدرس فيها اعظم العلماء ولها اوقاف دارة ، فلما جاء العثمانيون في القرن العاشر اخذ الخراب يدب فيها ولم يغادروا دمشق الا وفيها ثلاث مدارس خربة لاغير .

وبقدر ما احب الدمشقيون اهل الدول الذين رتعوا آمنين في ظلهم كبعض العباسيين والسلجوقيين وفي مقدمتهم الرشيد والمأمون وطفتكين ونورالدين وصلاح الدين ابغضوا الفاطميين الذين اعماهم التعصب الديني وعاملوا الدمشقيين

بالقسوة والجبروت ، وفي أيامهم خربت دمشق وضاحتها . وكان عهد المماليك خيراً وشرّاً ، خيراً في أيام عقلاء ملوكهم مثل المنصور قلاوون وشرّاً في عهد بعض من خلفوه وتقدموه حتى اذا جاء الاتراك العثمانيون اصبحت دمشق من اول عهدهم ثن من سوء ادارتهم حتى اضمحلت اضمحلالاً كادت تشبه به قرية كبيرة فيها جرامع عظيمة وبقايا هندسة نشأت بفضلها قصور ومصانع في الماضي .

وما كانت معاملة الفاتح سليم الأول العثاني دمشق اقل قسوة من معاملة تيمورلنك التتري لها قبل قرن ، والاتراك كنيهور وجنكيز وغازان اميل الى تخريب ما يستولون عليه منهم الى عماره . فقد اخذ تيمورلنك من دمشق جميع ارباب الصنائع وحملهم معه الى سمرقند . ولما استولى العجم على دمشق قبل الاسلام كان اول مافكروا فيه ان ساقوا امامهم ارباب الصنائع نقلوهم الى فارس كما حملوا وحمل الفاتحون ومنهم سليم الاول ماكان في هذه المدينة العظيمة من النفائس والعاديات وجميع مايجمل من انواع الثروة المنقولة .

ومن دواعي خراب دمشق تسلط الاعيان على سياستها في معظم القرون ولحوف الدولة من ولاتها تسارع ابدآ الى عزلهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالاستقلال . هكذا كان شأن المماليك وهكذا شأن العثمانيين بعدهم ، فالوالي الذي لايقم في ولايته اكثر من سنة واحياناً شهراً او شهرين يستحيل عليه ان يعرف البلد الذي تقلد حكمه اشهرأ قليلة منها بلغ من ذكائه وتجربته فضلاً عن ان يفكر في اصلاح يدفع به الظلم ويقيم العدل . والوالي العاقل يشارك الاعيان ومعاول التخريب تشتغل من كل جانب .

ولولا ان في طبيعة الدمشقيين حيوية عجيبة في الصنائع والتجارة لاصبح اهلها بادية لكثرة مالقوا من الشدائد . ولقد اثبتوا في جميع الادوار انهم في صنائعهم آية وان الاتقان دأبهم ، وصنائعهم متنوعة تبدأ من هندسة المباني

وتنهي بالفرش والآنية ، وتجارتهم كانت منذ القديم تمتد من الشرق الى الغرب واذا ساعدتهم الاحوال السياسية ووقفت الحروب حقبة من الزمن ارتاشوا واغتنوا واذا اختلف الحال ضنوا باموالهم وخزنوها في صناديقهم . وكانوا الى اواخر القرن الماضي اذا أمن التاجر شريكه وقد يكون بدوياً نجدياً يسلمه ألوفاً من الدنانير بدون سند وينظره اعواماً حتى يتم تجارته على مايجب ، فالثقة كانت على اتمها بين التجار بعضهم مع بعض وبين التجار والمستهلكين . وفي كل بلد نزله الدمشقي للتجارة اغنى في سنين قليلة هذا اذا كان على استعداد لمعاطة التجارة ولاثم جو الارض التي حل فيها صحته وفي الامثال العامة (اعرج الشام وصل الصين)

في قارة افريقية مستعمرة بريطانية غنية اهتدى اليها الدمشقيون ووافوها متجرين وكان سبقهم الى الاتجار فيها جماعة من تجار الانكليز فرأى الدماشقة ان البريطانيين كان من عادتهم اذا خرجت البضائع من البحر ضموا عليها خمسين في المائة ربحاً وخمسة في المئة قسيمة مانقرضه الفيوان منها في السفن، فارتأى الدمشقيون الاكتفاء اولاً بربح خمسة في المئة فما عثم التجار الانكليز ان عادوا الى بلادهم وتركوا الدمشقيين يتجرون في المستعمرة وحدهم . ولهم من ذلك حكايات تدل على صبرهم وحسنتهم وكذلك يقال في نساءهم فان المرأة الدمشقية لاتبالي بالمهجرة ، هاجرت في عصرنا الى الهند واليابان والعراق وسائر الدول العربية وهاجرت الى أوروبا والى أميركا وحيث حلت تظهر شخصيتها ، وهي مقصدتة تعني غناية فائقة بزوجها واولادها وتصرف من وقتها ساعة في عمل الخير وتتصدق على الفقراء ولا تخرج عن قواعدها في الاقتصاد وتتجمل أبداً . واذا ساعدها الحال تتكرم على الضيفان واذا تأخرت حال زوجها ، وهي تشاركه في كل شيء ، قبضت يدها حتى عن شراء ثوب تترين به امام جاراتها وأهلها . وللدمشقيين والدمشقيات في المهجر روابط متينة ليست لهم اذا كانوا في البلد الذي خرجوا منه ، ولذلك تحوهم الاجانب ويمتازون على كثير من الشعوب المهاجرة ومن هؤلاء من يعتمدون عليهم في حل مشاكلهم وتعبيد الطرق أمامهم للاتجار والاعتناء .

وفي الحرب الاخيرة ظهر اقتدار تجار دمشق وكانوا استعدوا لدخول ميدان المضاربات منذ أكثر من سنة ولهم أموال أودعوها مصارف الدول الكبرى كالمند وانكلترا والولايات المتحدة وغيرها فسيطروا على التجارة في قسم عظيم من بلاد الشرق القريب واغتنوا اغتناءً ماشهدوا ولا شاهد أجدادهم بعض بعضه ، فلما وضعت الحرب أوزارها هبوا بدافع من وطنيتهم ودينهم يعطون بما كسبوا حق الوطن وحق الله فأعطوا الدولة أموالاً استعانت بها على الظهور بمظهر دولة عظيمة وأعطوا حق الله بأن أنشأوا مستشفيات ودور احسان وعبادة وتعليم . وأنشأوا الى ذلك معامل على النمط الغربي من كل صنف حتى كادت بعض أراضي غوطة دمشق تشغل بالمعامل والدور التي أنشأوها لنزول العاملين فيها وأنشأوا من أربابهم القصور الفخمة وأدخلوا مدينتهم في طور عاصمة غربية كبرى ومن زار دمشق اليوم وكان زارها منذ عشرين سنة لا يكاد يعرفها .

ولدمشق في باب العلم أيام غرر كانت محجاً لطلابها منذ عهد الصحابة الى يوم الناس هذا ، وعلمهم كان الكتاب والسنة أو علوم القرآن والفقه والأصول والكلام والحديث ثم اللغة والأدب والطب والتاريخ والفلك والرياضيات والهندسة وغيرها ، وكان المشتغلون بعلوم الشرع والأدب أكثر عدداً من المنصرفين الى علوم القدماء أو مانسيه العلوم العصرية ، ومن كان يظن ان دمشق كان فيها الى أواخر القرن التاسع أربع مدارس طبية ومدرسة هندسة ، واشتهر من أبنائها رجال في جميع الفنون ومنهم من اشتهروا شهرة عالمية كابن تيمية ، وهو في الاسلام كلوثيروس في النصرانية ، وامتازت دمشق بكثرة محدثيها كما امتازت بكبار مؤرخيها ، والعلاقة بين الحديث والتاريخ معروفة ، خرج منها مؤرخون ومحدثون من العيار العالي لم تخرج مثلهم مصر ولا غيرها ، خرج منها ابن عساكر وابن خلكان والذهبي وابن كثير وابن أبي أصيبعة والصفدي وابن فضل الله العمري وابن القلانسي وغيرهم . وهذان الأخيران كانا من رجال السياسة ولهما مكانة عظيمة في دولتي الفاطميين والمماليك . وخرج منها شعراء عظماء

كفتيان الشاغوري وابن حيوس وابن 'عنّين واضراهم ، وما خلا عصر من عصورها من شعراء مجيدين ومؤرخين محققين وأطباء ماهرين ومهندسين بارعين ، وقلّ فيهم الفلاسفة كما قالوا في مصر . وما خلت دمشق في كل عصر من رجال قوالين بالحق من علمائها يجرؤون على الملوك ويردونهم الى صراط الشرع ويضيقون عليهم الخناق في التحديد من الجباية حتى لا يرهق الناس بأسرافهم ، ومنهم العز بن عبد السلام والنووي ، وكان السلاطين والولاة ترتجف أعصابهم منها يخشونها كخشية الله ، ولما مات العز بن عبد السلام قال الملك الظاهر بيبوس : الآن ملكت وفي حياته ما كنت آمن على نفسي لأنه في مكنته ان يخلعني كل ساعة لما له من منزلة في قلوب الناس . وكثير من العلماء من كانوا يقفون موقف المرشد الناصح مع الملوك لا يلتون في الحق ومنهم من رضوا أن يكونوا تحت جناح أرباب السلطان لتسلم لهم مظاهرهم ودنياهم .

وفي العهد الحديث أنشأت دمشق مجمعا علميا وجامعة وأصلحت التعليم بكل فروعه وأخذت روحها تسري الى الديار الشامية كما كانت منذ القديم . وقد أصدر مجمعها وجامعتها ورجال التعليم تأليف عظيمة في الفنون المختلفة ووضعوا الفاظاً لمصطلحات العلوم وادخلوا كتب التدريس في الابتدائي والثانوي في طور جديد لا يقل بكمائته عن كتب مصر . ومن تلاميذ هذه المدارس من تخصص في العلوم اخذوها من فرنسا وسويسرا وبلجيكا والمانيا وانكالترا والولايات المتحدة وغيرها وانبغت دمشق مئات من الاختصاصيين ما كان لهم فيها اثر قبل ثلاثين سنة ، وحضانة العلم ثلاثون سنة كما قال نابقتنا عبدالرحمن الكواكبي .

ومن اخلاق الدمشقيين انهم يستسلمون لرؤسائهم على الاكثر ويعطفون على الفقير ويكرمون الغريب ، واحقادهم ضعيفة بالقياس الى غيرهم من الشعوب ، وسرعان ما يقلدون في اقتباس ما يقرّبهم من الحضارة ، ويتأدّبون مع الكبير وقد يصدرون عن رأيه ، ويحبون الطرب ويفهمون النكتة ولهم في باب الهزل يد طويل ويوم الجدم بمن يفاخر بهم ، ولهم استعداد

خاص لتلقف اللغات الغربية وهم شعب اقرب الى الدين منه الى الاحاد ، ويعيش اهل الطبقة الوسطى عيشاً قريباً من عيشة اهل الطبقة العليا . والطبقات عندهم ثلاث لا يكاد احد ابناء طبقة تحدثه نفسه بالتسلق الى مساواة واحد من طبقة اكبر منه . والمواطنون على اختلاف اديانهم يتحابون كما يتحاب اهل الدين الواحد ، وفي الوطنية كلهم سواء لانخرج الاقلية عن رأي الأكتريية . ويعجبني من دمشق انها تتخيل الى اليوم انها في حكم بني أمية مسؤولة عن كل ما يحدث في العالم العربي اذا نزلت كارثة بمسلي الصين كانت في مقدمة من يؤاسيهم وان حُلّ بلاء ابن مراكش ولم يمد اليه يد المعونة خجلت من قصورها ، وهي في الثورة اول من يرفع علمها وفي السلم الكل في الكل ، فاذا كانت الحال تدعو الى الوحدة السورية ترفع صوتها اول الصارخين وفي الدعوة الى الوحدة العربية تنادي اول المنادين وفي الدعوة الى الاتحاد الاسلامي هي أمها وابوها وفي كل دعوة جديدة تتقدم لاتأخر وتحمل من الاعباء ما يفوق طاقتها وتقوم بواجبها وباكثر من واجبها كما كان منها في الحرب الفلسطينية فاحتضنت اللاجئين اليها من الفلسطينيين كما تحضن ابناءها وبناتها . هذه دمشق وانا عندنفي اني ماوصفت الا ما شاهدت وما حدثت الا بما علمت وقلت فيها ماقلت برئياً من التعصب والعصية .



اعمال الاداريين

على رجال الادارة تتوقف سعادة كل بلدة ، وهذا في نظر من ينظرون في الأمور الى أبعد من أنوفهم ويعتقدون أن العناية يجب أن تصرف في الريف كما تصرف في المدن ، والريف مادة المدن وبتحسينه كمال النهضة . وما يكتب له أن هذه الطائفة من الاداريين لا يعرف أكثرها وظيفته ، ولا تحدته نفسه أن يجود عملاً يعود بالخير على من يديرون شؤونهم ، ويعذر بعضهم على فتورهم ذلك لانهم لا يقيمون طويلاً في منصبهم فاذا بدأ الواحد بعمل لا يتمه ويحيى من بعده يخبره على ما جرت به العادة ، والعلماء من رجال الادارة يتموت أبداً ما بدأوه مثل صديقي مصطفى الشهابي وعارف النكدي فقد بنى الأول دار كتب حلب ودار كتب اللاذقية مدة ولايته عليها وأقام الثاني مبتمين للذكور والاناث في السويداء في جبل حوران ووقف عليهما أملاكاً بناها مجدداً هذا الى ما أحياه من وقف الأمير السيد في عبيه من عمل لبنان وما بنى من المدارس والخوانيت والمصانع المال لايعوزنا وانما الذي يعوزنا حسن التصرف به ، وتدييره التدبير المثمر وانفاقه في المنافع والمصالح .



رأي عادل

جاءني وأنا في الوزارة استاذ من جامعة شيكاغو تصحبه قرينته وترجمان مؤتمن من أصحابنا فاستقبلته في داري ، وعرفت أنه يقصد من زيارته ارشاده الى مصادر يأخذ منها مادة لكتاب موضوعه (الانتداب) فقلت له هل اجتمعت الى الامير شكيب أرسلان ؟ قال : حاولت ذلك فلم أوفق ، وقيل لي انه شخص لا قيمة له ، فقلت له لقد غشك من قال لك ذلك فان في يد الرجل الذي أسقطوه من نظرك توكيلاً موقعاً عليه من سبعة وثلاثين الف رجل من أبناء سورية على ما بلغني ، وأنت اذا لم تجتمع اليه ولم تأخذ من أفكاره يصدر كتابك تافهاً ، فشكيب أقدر منا كلنا على معاناة هذه المسائل . ثم التفت اليه وقلت له : أذكر لك على سبيل النكتة ، ان عالماً كبيراً من علماء الدين عندنا (البطريك الكسندروس طحان) جاءه جماعة من الشبان المعنيين بالسياسة - قبل أن توافي اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين أرض سورية ولبنان تسأل اهلها عن الدولة التي تودان ان تنتدب عليهما - وطلبوا اليه ان يرشدهم الى الدولة التي يختارها لذلك ففكر قليلاً ثم قال : من الطبيعي ان نقول فرنسا ، ولكن لي رأياً خاصاً أرجو ان لا تنشروه عني وهو انه اذا كان الانتداب لاميركا تعلق هي البقرة ونحن نأكل لبنها ، واذا كان لانكلترا نعلق البقرة ونتقاسم درّها معاً ، واذا وسد الانتداب لفرنسا نحن نعلق وهي تتناول خيرها .

فلما سمعت العقيلة قرينة الاستاذ الاميركي كلامي هلت وشفقت كأنها في دار تمثيل وقد أعجبتها القطعة التي مثلت ، وزوجها بالطبع اهترطرباً ، والتفت اليه وقلت له : اكتب هذه النكتة في كتابك الجديد ولو كلفني خروجي من الوزارة .

بقايا الطرق

في مصر والشام بقايا من عادات الطرق هي مجموعة بدع بمقوثة تراكت بفعل قرون الجهالة وعدّها الجاهلون من الدين ، وكانت الاناضول مهد الطريقة المولوية انتشرت قرونًا في أرجائها على العهد العثماني فلما أبطلها الكماليون مع ما أبطلوا من الطرق عدّ العقلاء ذلك من حسناتهم . بيد ان هذه الطريقة مازالت قائمة خارج الجمهورية التركية وطريقتها عبارة عن رقص وتواجد وغناء وناي ونقارات الى أمور ينكرها الشرع يأتونها في مجالسهم بل في مراقصهم .

ومن الظريف اني ما سألت فقيهاً عن حكم هذه البدع الا انكرها وطلب الهداية لمن يمارسونها فاذا قلت له فلماذا لا تجبر بانكارها زاغ مني وولى ، كأن انفاذ أحكام الشرع بما لا يدخل في برنامج المشايخ ، ودأب هؤلاء فقط أن ينافقوا من يخافون ومن لا يخافون .

مسكين شرع محمد بن عبدالله يعذب به علناً في أرقى بلاد المسلمين أمام من وكل اليهم بحسب الظاهر القيام على خدمته لا يتكلمون ولا ينصحون ، والبدع تنخر العقول وتنحر الارواح ولا تجد لها ولياً مرشداً .



الفقهاء وكسوتهم

من اجل ما قام به الكهاليون خلفاء العثمانيين الاتراك من ضروب
الاصلاح سوق كل من يدعي العلم من ارباب العمام الى دخول الامتحان
ليتميز الجاهل من العالم . وقد وسدوا للعالمين المناصب الدينية وساقوا
الجاهلين الى الأعمال الصناعية والزراعية ، وحظروا عليهم طلب العيش من
طريق لم يخلقوا للسير فيها . وقام البهليون بمثل ذلك في فارس وعزلوا
من ارتضوا علمهم في ناحية لا يتعدونها لينقضوا مع الزمن . وكان
لهذه الطغمة في ايران وتركيا مواسم في الدجل والشعوذة تذكر فلا تشكر .
والظاهر أن الشام تعذر عليها سوق دجاجة الدين الى الفحص فرأت
أن تخص العلماء الحقيقيين بزي خاص فصعب عليها أيضاً انفاذ ما ارتأت ،
ذلك لأن حكومتنا تحاول ارضاء كل الناس وبهذا الاسلوب يستجبل
قيام الاصلاح .

وما برحت فوضى كسوة الرؤوس ماثلة في أرضنا وكلها لا تناسب اجواءنا
في صيفها وشتائها ، فمن طربوش الى بيويه الى القالبق الى سدارة الى كوفية بعقال
وكوفية لاعقال لها الى قبعة الى عمامة بيضاء أو خضراء أو سوداء الى عمامة
مزر كشة (أغباني) الى غير ذلك من الكساوي المضحكة .

اصلاح كسوة الرأس واجبة والواجب قبلها اصلاح الرؤوس ، وذلك
يكون بعزل الجاهل عن العلماء ، والتوسعة على طلاب العلم وتوسيد المناصب
الى ارباب الكفاءة والنزاهة ، وحرمان الجاهل من أوقاف الجوامع والمدارس ،
وتوفيه ارباب الوظائف الذين يقيمون الشعائر بالفعل ، وحبس أموال الاوقاف
عن الجبهة الذين لاصفة لهم الا ان يأكلوا ويشربوا على حساب قدماء المسلمين
بلا عمل يقومون به ولا مزية ظاهرة يمتازون بها . ولو فتشت اوقاف المسلمين
في كل صقع اسلامي لشوهد الاسراف في امتناع الجبهة بأموالها ولتوفر من
ذلك اموال كان الأجدر بها ان تنفق على التعليم لا على من كان وجودهم
ضرباً كله على أهل الاسلام .

السواد الأعظم

ذرت بعض السنين مع اصدقائي امير الشعراء احمد شوقي والاستاذين احمد فهمي العمروسي وعارف التكدي ضريح أمير الغرب الامير جمال الدين عبد الله التنوخى في عبيه من قرى لبنان فأثرت هذه الزيارة في نفسي واذكرني هذا القبر والرافد فيه أموراً ذهب الحيال في تأويلها كل مذهب . ذكرت كيف يخرج العصر بعد العصر من كل بيئة ومن كل نخلة نوابغ ما كان يتوقع ظهور أمثالهم في بقعة ضيقة وفي قرن مظلم . وذكرت كيف ينشأ الاتقياء الصالحون في قوم يستغرب قيام رجل منهم يصفى النفوس من كفافاتها ويحبب الى من يستمعون اليه الخير ويبغض اليهم الشر .

نشأ الامير السيد (٨٨٤) - وهذا لقبه الذي كان يلقب به - في بيت مجد وامارة ، وأبت نفسه العظيمة الا ان يجمع الى الامارة علماً ، فجاء مرشداً دينياً وأميراً سياسياً معاً . كان أجداده قبلوا الدعوة الفاطمية التي حل القائلون بها لما جكوا عن مصر الى الشام ، في لبنان الغربي ولبنان الشرقي ، وظل أهل بيته على طول عهد الدعوة الاولى يتطلعون الى الاصل الذي صدروا عنه تطلع صدق ولهفة (ج ٢ ص ٥٩٤ من المذكرات) . ولم يقف السيد عند حد الاخذ بمن يسهل التخرج بهم من اهل وجيرانه ، ورحل الى دمشق يتخرج بعلمائها في علوم الادب واللغة والتفسير والحديث والاصول ، وحفظ القرآن وكتب فيه تفسيراً ، ودرس في الجامع الأموي مدة . وكانت له مواقف غضبت عليه دمشق في بعضها فعاد الى مسقط رأسه ولما لم يصل الى بث تعاليمه في بلده على ما تحدثه نفسه عاد الى البلد الذي فقهه وأدبه . وكان الامير السيد يحرص على ارجاع قومه الى السنة ويحضهم على تلاوة القرآن وحفظه ووقف لذلك وقفاً عظيماً يصرف ريعه في تحقيق هذه الأمنية . وقال من ترجوا له انه كان محباً لابناء وطنه محسناً اليهم من غير تفرق

بين الاديان والمذاهب وقد اختص لنفسه جماعة من النصارى في بلدته عبيه وأوصى لأحدهم وصية الرجل لذويه بما لا يفعله رجل دين من أي ملة كان في عصرنا فضلاً عن عصر الامير .

كان يقيم العدل بين الاهلين وينصر المظلوم ، ويعمر المساجد وينهى عن تعاطي المسكرات . ودأب على وعظ الناس في المجالس الخاصة وكثيراً ما كان يطوف قرى الجبل ينشيء المدارس والجوامع ويوسد أمور الهداية الى نهاء تلاميذه ، وكان لا يتناول من طعام ذوي قرباه ولا يستصبح بزيتهم ، مخافة أن يكون دخل في ثمنه شيء من مال السلطان وفي مال السلطان شبهة حرام ، وكان يميل الى السذاجة في طعامه ولباسه وينفخ في قومه روح التجدد ويبعدهم عن التعصب وبجثهم على التمسك بالدين الصحيح ويدعو الى محاربة البدع والخرافات التي نشأت من الجهل وفساد السياسة ، وما كان يتقيد الا بالنص الصريح مما ورد في كلام الله الى غير ذلك من صفات العلماء العاملين .



الاستعمار البريطاني

منذ صدور وعد بلفور (١٩١٧) بمنح الصهيونيين حق تأسيس الوطن القومي في فلسطين واليهود يتعاون فيها الأراضي وقيمون الحصون وبنشئون المستعمرات . وانكلترا وهي المشهورة بدقة استخباراتها تتجاهل مايجده الصهيونيون . وتخلت انكلترا عن انتدابها عن فلسطين وتركت العرب يتخبطون مع الصهيونيين وكانت تخلت عن الهند في السنة الماضية وخرجت من اكثر مستعمراتها مثل بورما وسيلان وكندا وجنوبي افريقية اي ان بريطانيا تنازلت طوعاً او كرهاً عن معظم مستعمراتها ، وكان عليها قبل سنة يرفرف على خمس سكان العالم . ولولا تعاهدها مع الولايات المتحدة وعطف هذه عليها للروابط الكثيرة التي بينها لاضحت دولة بريطانيا العظمى من الدول الصغرى .

أذكرني حال انكلترا اليوم وانحلال امبراطوريتها على اهون سبب بما كنت قرأته لاحد عظماء مؤرخيها من ان بريطانيا كانت تحسن لنفسها لو لم ترج شعبها في الاستعمار ، وكانت تحقن ما أهرقته من دماء ابنائها في هذه الغاية لو انها عمدت الى ابتياع ما تحتاجه من المواد الاولية بملها . ولما كانت اكتسبت حب الامم كلها . ولكن هذا الرأي السديد كان يوم صرح به مؤرخهم من الآراء التي يستهزأ بها وكان كل انكليزي يحرص يومئذ على بقاء العلم البريطاني خفاقاً على ارجاء الهند ليغتني منها ابناء الجزر البريطانية وقد حققت انكلترا ماطمحت اليه من ذلك .

ولا يسع المنصف الا ان يقول ان انكلترا في حرصها على استعمار الاقطار كانت عاقلة وكذلك كانت يوم تخلت عنها وربطتها بنظام الدومنيون ، ولكل وقت حكمه ولكل جيل سياسته . وانكلترا التي حازت الشرف الاعظم بابطال الرقيق من العالم وكانت اول من نادى من الدول بتقييده

وانفقت باديء بدء عشرات الملايين من الجنبيات لهذا الغرض الشريف لايليق بها استعباد قسم عظيم من البشر الى الأبد . واذا حدقنا النظر في الاقطار التي حكمتها مدة نجدها ولا نكران للحق قد نهضت بها وما أضرتها ووضعت لها أسس حضارتها وعلمتها حتى الدرة لقوميتها والولوع بلغتها خلافا لساثر الدول ماعدا الولايات المتحدة .

ذكرى العظماء

الامة الاسلامية من اكثر الامم قصوراً في الاشادة بالمجد العظيم الذي خلفه لها عظماء رجالها في السياسة والعلم . وما كان ذلك الا للجهل الطارىء بعد القرن الخامس وتسلسله في آباءنا قرونًا لم نسلم من عقابله الى اليوم . امة خدمها بروحه وجسمه مثل ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمر بن العاص ومعاوية ومروان وعبد الملك وسليمان والوليد وعمر بن عبد العزيز وهشام ومسلمة وعشرات من رجال بني أمية وقوادهم خليق بها ان تردد ذكراهم في كل مسمى ومصبح .

وامة قام فيها ملكان عقت الأيام ان تلد «لها» وهما نور الدين وصالح الدين ، ولولاها لقضى الصليبيون على الاسلام وحلوا محلنا في الحرمين الشريفين ، من فروض العين على كل مسلم ان يعلم اولاده تقديسها كما يعلمهم سور الصلاة .

وامة أنشأت من الخلفاء المنصور والرشد والمأمون وطائفة من الملوك والامراء ما اشتهروا بغير السعي لسعادتها حري بابنائها ان تذكرهم ولا تنساهم على الدهر .

مثلنا هؤلاء الافراد ويلحق بهم عشرات ليسوا دونهم بغيرتهم على امتهم ، واذا جئنا ننظر في طبقات علمائنا نظفر بمئات يجب علينا اعظامهم وترديد أفضالهم علينا وعلى العلم في كل شارقة وبارقة ، ولم تخل ارض حل فيها

العرب من عالم واديب ، فتحوالنا بأيديهم الكريمة مغالقات الحضارة فاصح اهل الاسلام سادتها وسدنتها في الارض .

وبعد فان من الواجب قلب تاريخنا رأساً على عقب وان يعد بكتبه الى عقول ثاقبة نقادة . فالتاريخ القديم دونه اصحابه بقدر ما كان لعصورهم من معرفة والتاريخ الحديث كتب جزء منه وهو المهم مستمداً من آراء الغرباء وقد يكونون من اعدائنا الذين يتعبدون الله ببغضة العرب ونبيهم وشرعه

يسرقون ولا يدرون

كم في الناس وهم في ظاهرم من اهل الكمال يسرقون ولا يدرون ان ماياتون هو السرقة بعينها . وكم فيهم من يسرقون ويفتون أنفسهم بلا علم بان مايرتكبونه لاينا في الكرامة ولا ينا بذ التقوى . كان لي صديق في احدى دور الكتب العامة وكل اليه أمر اقتناء المخطوطات فكان اذا جاءه من يريد بيع مخطوطة يستأذن صاحب الكتاب ليبقيه عنده ليلة ينظر فيه ثم يسارع فيدفعه الى المصور يصوره له بالاسود على الابيض ومن الغد يبدأ الشاري يساوم البائع على الكتاب فيدفع فيه الثمن الذي عينه له فاذا أبى البائع ان ينزل عن المخطوط بالثمن المدفوع ادعى الشاري ان لهذا الكتاب نسخة في احدى الخزائن وانه يعرف أخرى مصورة بالتصوير الشمسي ، وبهذه الحيلة يأخذ المخطوط بالثمن الذي يروقه ، يسرق عامداً معتمداً خدمة للخزانة ، والخزانة ملك الدولة والدولة لاتعطيه مكافأة اذا هو اقتصد من موازنتها على هذا الوجه . ومعنى كل هذا ان صاحبنا يتحيل لاخذ كل كتاب بالقيمة الهينة وليس له في ذلك أقل حق .

ومنهم من يسرق ويفتي نفسه بجل سرقته كأن يأخذ من القوة الكهربائية في بلده مثلاً وذلك بان يضع سلكاً في الجدار الموصل الى منبعث القوة ويحاول الاستصباح منها فاذا قلت له انك يا هذا تسرق الشركة بما لا يجوز لك اجابك ليست الشركة تسرق ماء نهرنا ، فأنا آخذ من حقنا ؟ فاذا قلت

له لايحوز سرقة السارق قال لك : اتركها لله ، وهكذا اكثر السارقون من سرقة شركة الكهرباء بلا نكير ، اما سرقة التجار من الجمارك وتهريب بضائعهم بلا رسم ، مقابل جعل يجتعلونه للعامل الصغير فهي مما عمت به البلوى ويشترك فيه أهل المتاجر الاتقياء الا من حماه الله من طعمة الحرام ، وكلهم متواطئون على استحلال مال الدولة بما يحوزون لانفسهم ، يفتاتون على العقل والشرع ويتجاهلون سوء أثر عملهم الاخرق .

حكمة حكيم

حدثني ثقة عليم قال : كان في بعض بلاد الشام رجل يعد في الطبقة الأولى من الأغنياء ، وكان بخيلاً جداً حتى ليضرب المثل ببخله ، مرض مرة مرضاً أعجز نطس الأطباء شفاؤه ، وكان ذلك أيام الحرب العالمية الأولى ، فوصف له طبيب الماني كان ينزل حلب زعموا أنه يشفي من جميع الأمراض ، فوقع في نفسه أن يرحل اليه يستطبه .

وكان الطبيب عندما استأذنه في نزول الثري عليه سأل العارفين عن ثروته فعدوها له بأعيانها فوعاها بذاكرته فلما اجتمع الى الغني المريض سأله عن أملاكه وذكرها هو له واحداً واحداً ، قائلاً له أأنت تملك القرية الفلانية والسوق الفلانية والحمام الفلاني والحي الفلاني ودخلك عظيم جداً وتعد أغني غني في بلدك ، ثم قال : أما وأنت تملك كل هذا فما هي صدقاتك على الفقراء فاجابه : انا كل سبت نوزع عليهم من مائتين الى ثلاثمائة قرش ، فقال له الطبيب : وهل هذا كل ما تسمح به نفسك ؟ ألم تعمر جامعاً ألم تشي مدرسة ألم تعلم أطفالاً على نفقتك ؟ فكان جوابه سلباً بالطبع . فقال الألماني ما دمت على هذا الشح لا ينتفع أحد من حياتك فالموت أولى بك وأنا لا أطبك ، فرجع الباشا الثري خجلان الى بلده .

وهذا من أبلغ ما سمعت من حكمة ، لو صارح عقلاء الناس الأغنياء هذه المصارحة لاستلوا منهم أموالاً ينفقونها في اغاثة البائسين ، وتعليم الجاهلين ومداداة المعلولين .

وقفة سوداء

في العادة أن تقدس المجالس النيابية لان في احترامها احترام من تمثلهم من أبناء الأمة ، حدث أن غلبت الحدة على حزبين حزب الأقلية وحزب الأكثرية في مجلس نواب سورية فتلاسن المتخالفون أولاً ولم يشف ما بهم الا الشتائم المذذعة ثم التضارب بالأكف والكراسي . دعا الى الحصام تخالف في مسألة دستورية اجتهد فيها الأكثرية فما أعجب الاقلية اجتهدهم . تجرى في بعض مجالس النواب ببلاد الغرب ملاكيات وقد يتشائم المتخاصمون ، ولكن لا بهذه البذاءات . نحن مبتدئون بالحياة النيابية واذا أعوزنا العلم بما يرجى منه النهوض بالوطن فيجب ألا تقوتنا معرفة الأصول من الأخلاق .

أخلاق المربي

حمل من أرض العرب الى بلاد الترك طفلاً فنشأ نشأة تركية واقتبس اخلاق من عاش بينهم وسرى على طرائقهم ، ودعا الى قوميتهم ولغتهم ، وعاد الى مسقط رأسه وهو في الكهولة أعجم طبطم لايعرف العربية ولا تثقف بثقافة الاسلام ، وقصاره ان ينقل عن احدى لغات الافرنج في الموضوع الذي تمحض له نقلاً لا تعرف مبلغه من الصحة .

ولقد حاول أن يتعلم في سن متأخرة ماكان عليه ان يتعلمه في الصبا فما افلح ، وكان لسان حاله انا شخص ولا كالأشخاص ، والعارفون كلهم دوني ، ولما أيس من الظهور من طريق العلم لم ير أحسن من أن ينتقص أهل الفضل ويبعدهم جهده عن الحظيرة التي لايريد ان يشركه احد فيها ، وساعده الحظ لأول أمره ان كان له انصار اكثرهم من الذين ماكان من مطمع لهم في الالتفاف حوله الا معاونته على دنياهم ، فهبأوا له دعاية واسعة النطاق خدع بها من خدع ، واقتنع بصحتها من اقتنع ، وبها وصل الى رياسات كان

جماع رأس مالها دعايات ، فظهر بعد حين عواره واخذ حيث حلّ يعثر ثم تقال عثرته ، ثم يعثر ثم يُقال ، ثم عثر عثره كان فيها سقوطه على ابشع صور السقوط ، وما كان السبب فيها الا تدخله فيما لا يعنيه وادعاؤه معرفة ما يجبل ، فخلط فيما لا تؤمن مغبة التجربة فيه ، مزهواً بتصفيق بعض ضعاف العقول له ، وخرج عن منطق الاشياء فضل ، وما كان بمن توهم انهم اعوانه الا ان ثاروا عليه لثورته على النظام .

شهرة تقوم على الدعاية المصطنعة ويغذيها النيل من مكانة اصحاب المكانات ، ودعوى عريضة لا يتجاهر بتصديقها الا من اضطرهم الزمن الى ان يكونوا مرؤوسيه لا يصارحونه بما يجب ويفشونه كما غشهم . هذا نموذج من أخلاق بعض المربين وما هي الا أخلاق ضابط أخذ من صفوف الجند لم يدرس في مدرسة ما يلزمه في صناعته فجاء أقرب الى الجبل منه الى العلم .

حظ الكتاب العربي

الكتاب العربي اتعس كتاب في العالم حظاً اذا اعتبرنا ماضي الامة العربية فهو كاسد في بلده وكاسد في ارجاء العالم ينظر اليه بانه شيء عادي كما ينظر الى الادوات التي يستغنى عنها في البيوت .

الكتاب العربي مقصور النفع على فئة قليلة من الامة ما كتب له رواج ذات يوم ، واصابه قليل من الانتشار مؤخراً وظهوره بالقياس الى ظهوره في أمة غربية لا يعد شيئاً اي ان ما ينفق في كل من سويسرا والبلجيكا وهولاندا والدانيمرك والسويد والنرويج لا يوازي ما تنفقه أمة لا يقل سكانها عن ثمانين مليوناً ومنعهم أهل الاسلام والفئة المستنيرة منهم يقرؤن العربية ايضاً والسبب في هذا التأخر ان امر الكتب عندنا متروك للطبيعة لا تروّج له الحكومات ولا الجامعات ولا الشركات على خلاف ما يفعله أهل الغرب

ولا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ومن جملة ترويجهم للكتب ان يحملوا خزائن من الاسفار تطوف القرى وتعيير كل طالب ما يستفيد من أسفارها ، ومن ذولهم من يطبع مقادير عظيمة من الكتب يحفظها في المستودعات ليوزعها على من يطلبها من الأمم الضعيفة ولا سيما على الممالك التي تهدمت بفعل الحربين الماضيتين وبذلك اعادوا لبعض خزائن تلك الاقطار رونقها السالف ، ومن منا ، والمال لا يعوزنا ، ابتاع مقداراً كبيراً من الكتب وجعلها في الخزائن الكبرى او اسس لها خزائن جديدة في الامصار التي هي في اشد العطش للقراءة . واي حكومة من حكوماتنا وزعت على الطلاب المدنيين والريفيين كتباً يتقفون بها .

وما برح الكتاب بضاعة مهمة لا تتناولها الا ايد قليلة جداً ، ولا يصل صوتها الى غير الخاصة او من هم في غنية عنها . كثر المثقفون بثقافة العصر في بعض الاقطار العربية ولكن كم يبلغ عددهم يا ترى بالقياس الى السواد الاعظم وكم عدد من يتناول الكتب منهم ويدفع ثمنها طيبة نفسه (١) ، وكم جمع منهم مجموعة حسنة ينزع اليها آونة الفراغ .

ولذلك كان الكتاب العربي سيء الطالع جداً وعلى نسبة رواجه تشهد حال المؤلفين الذين يتوخون بما يكتبون نشر العلوم والآداب لانشر الروايات والقصص الساقطة والآداب المكشوفة والادب الرخيص في المجلات التي كادت تقضي على الكتاب بما تحمل للعامة من مغريات تهيج بها الشهوات وما يعبث أحياناً بالآدب .

(١) لما تولينا طبع كتبنا في العهد الاخير على حسابنا ، أقلنا من الهدايا ورأينا بعضهم وهم من أرباب السعة والثقافة وقد يدعون صحتنا يتطلعون أن نهدي اليهم وقال بعضهم لمن قيل له ائتمن لك نسخة من المذكرات ، اني لا مال لدي ، أعيروني نسخة وأعيدها اليكم ! ومن الغريب أن وراقاً دينياً استلف بضع نسخ دون أن يدفع ثمنها وأطلقها للاعارة بأجر كأن الكتب العلمية بعض قصص الظاهر وعثرة . وطلب بعض من كان مظهرهم علمياً ولهم مال أن يحسم له شيء من نسخة يفتنيها والا فهو يستعيرها من دار الكتب ويستغني عن الشراء . بهذه العقلية المنحطة نريد أن نكون أمة رشيدة .

ألفى فى مصر

ذكرت بعض الصحف المصرية ان بدر اوي باشا من اعيان الغربية ابتاع مؤخراً (١١٠٠) فدان بنصف مليون جنيه دفع ثمنها دفعة واحدة فأصبح ما يملك نحو عشرين الف فدان . وقالوا فيه انه متدين لا يجب ان يأكل الربا ويضع امواله في المصارف بالامانة مع انه يجوز في بعض المذاهب أخذ فائدة الاموال لتصرف في الفقراء . ولا عرف مبلغ ما يعطي هذا الموسر للفقراء وغاية ما عرفت ان عبود باشا وهو قريبه في الثروة اذا طلب منه ألف أعطى ألفين وذلك لانه من اصله مثقف ، هو مهندس وعقول المهندسين متسعة اكثر من عقول الفلاحين .

يجاد عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحداً
قلت غير مرة ان مسألة تضخم ثروة الاغنياء في مصر ليس لها الاسن قوانين تخفف الشر ، فلو سن مثلاً قانون لا يجوز لاحد ان يملك اكثر من الف فدان وينزل عن الباقي للدولة توزعه على الفلاحين والا يملك بعد ذلك مالك اكثر من مائة فدان لجرى التعديل في الثروات ودخلت في طور معقول ولا علاج للحالة الاقتصادية الحاضرة الا بابطال الملكيات الكبيرة وتكثير الملكيات الصغيرة

عمارات البيوت

اراد الجمع اللغوي المصري ان ينتخب عضواً في مجلسه عن فلسطين وكانت الانظار متجهة الى اختيار افضل ادائها الاستاذ محمد اسعاف النشاشيبي وجرى الانتخاب ففاز بالاغلبية خمس مرات ولكن الدسائس التي حاكها اعداء العضو الفائز انتهت باختيار عضو آخر . فكان من ذلك ان تأثر المرشح الاصلي عاداً ما وقع ثلماً لشرفه ، واقتنائاً على مكانته ، ففضى بالسكتة القلبية شهيد من دأبوا على حرب من يسوهم تفوق احد بالعلم عليهم وهم لاعلم لهم ، اما العبرة بماجرى فهو الاسف ان تتسرب الاهواء الى العلماء في جمع فؤاد الأول

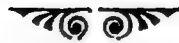
الرشوة والتفسيق

قال عمر رضي الله عنه : لا تولوا البيوت
والنصارى فانهم يقلون الرشا ولا تحل في دين الله
الرشا ، قال الشهيدي : فاصحابنا اليوم أقبل للرشا منها

رأت الحكومة المصرية ان تنسق موظفيها اي ترقى درجاتهم فألفت في كل وزارة لجنة تنظر في امرهم وماهي الا ايام حتى ظهر ان بعض اللجان اتفقت مع من يُراد ترفيتهم على مال معين تقتضيه منهم يوم يصلون الى ما يطعمون فيه من الدرجات . وقد قال أناس ممن يدركون ما يؤدي اليه هذا العبث من الفساد في جسم الدولة ان لصغار الموظفين بعض العذر في ارتكاب ما يرتكبون لان رواتبهم ضئيلة لاتكفيهم في هذا الغلاء المرهق . وعندي ان الدواء الناجع في هذه السبيل هو تنفيذ القوانين على الكبير

والصغير واجراء حكم الترغيب والترهيب على ما يجب فان تضخم الموازنة المصرية بالرواتب وانفاق الجانب الاعظم منها على المستخدمين كان يمكن تلافيه لو لم يفتح الباب على مصراعيه في التوظيف والارضاء كما حصل في سورية ولبنان

والعقلاء اليوم على ان نصف هؤلاء الموظفين يكفون لادارة مصر . وقد اشرنا في هذه المذكرات غير مرة الى هذا الاصلاح الواجب والى انقضاء الاسراف فيما لايفيد وما ذات اقول ان عشرة موظفين موسع عليهم اتصفوا بالمؤهلات اللازمة يجزؤون عن خمسين موظفاً لا كفاءة لهم . ومن اعظم الفضائح في مصر وغير مصر ان كل حزب يستلم الحكم يأتي بالقدر الاعظم من جماعته ولو كانوا من عيار ردىء لامزية لهم الا انهم صفقوا له وسعوا الى انجاحه سواء كانوا من الكفاءة بحيث يحسنون عملهم ام ضعافاً فيه ، ومن اسباب ذلك ايضاً ان السياسة والادارة شيء واحد في نظر الحكومات وكان الاولى فصلها فيتولى الادارة من ليس للسياسة سلطان عليه وبذلك تسير البلدان نحو الاصلاح . وآية كل ذلك ان تجرى العقوبات والمكافآت في نطاق العقل والقانون ابداً



خف الهادات

لأعلم ان كانت اوربا كلها تجري على مثال فرنسا في التنويه برجالها في كل فرصة ، وتحفل باعيادهم وولاداتهم ووفياتهم ومواسمهم ، وتغلو في ايراد مناقبهم بل في اختلاق مناقب ما كانت يوماً لهم . فأهل الأدب يحتفلون بجماعتهم وأهل العلم بعلمائهم وأهل الحرب بقوادهم وأهل الدين بدعاة دينهم وقديسيهم وأرباب السياسة بساستهم . ولا تخلو فرنسا يوماً من تذكر الموتى ، والاشادة بهم ورفع اقدارهم ، وهذا بالضرورة يستلزم الاكتساء بكسوات تناسب المقام وبزات جديدة تلتئم مع الحفل وتستدعي ايضاً صرف وقت في الكتابة والخطابة . ويريدون من ذلك الا ينسوا رجالهم وان يرددوا على الدوام ذكراهم ، وهم ابدأً ينتقلون من عيد الى عيد ومن حفلة الى اخرى ، كأن القوم خلقوا للتشريفات واجراء المراسم لايهمهم غيرها يبالغون في ذلك ويحاولون ان يعدوا لكل جلسة عدتها ، ولكل حفل تقاليده ، وما اظن عاقلاً يغبطهم على ما ابتلوا به من هذه العادات الثقيلة الوطأة وانتقلت هذه المصطلحات الى بعض نصارى الشرق ولاسيما من ربوا في مدارس المبشرين فأخذوا يغالون في كل من امتاز عن اهله وجيرانه بشيء من المعرفة الضئيلة وكل من يموتون عندهم من هذا القبيل هم في الذروة من الفضل والنبيل وهم من اعظم المعاصرين وافضل العارفين حتى دخلت المسائل عندهم في طور من الدجل عجيب . وكل من يموت عندهم يجب تأبينه وايراد صفات له ما كان يعرفها او يعرفها له عاقل ، ولطالما رأيتهم يرثون الامي والجاهل ويصفونها بالعلم والعمل كما شهدتهم يشهدون للصعلوك بالعظمة وللسارق بالتزاهة يكبرون من يرومون تكبيرهم كأنهم يعتقدون ان بالغلو في وصفهم يرضونهم ، وان من السهل الكذب على التاريخ والتسويه في كل شيء والتدجيل في كل موضوع يوجعون الرؤوس بما يكتبون في الصحف والنشرات

وأحياناً بما يضعون من الكتب المطولة فيمن يعتقدون أنهم آية في تقدمهم في صناعتهم وكم نشروا من هذا السخف ماهو عار وسبة على قائله وكاتبه وناشره . وقد رأيت بعض مجلاتهم ولاسيا « المشرق » وهو بوق تبشير وصحيفة دعائية دأب على الخط من كل دين غير دين المسيح وقد دأبت هذه الصحيفة على هذه الحطة تدون من هذه البضاعة الرخيصة كل سخيف من اعمال رجالهم حتى ليخيل للمغرور ان رجال طائفتهم كلهم فضلاء ونبلاء ، وليس بعد هذا ضعف عقل .

أما المسلمون على الاكثر فانتبهوا نهجاً آخر يصمون رجالهم بكل نقیصة ويخترعون لهم مساوئ ليست فيهم فاذا ماتوا سكتوا بعض السكوت عنهم ولا يتناولون بالنقمة واللعنة الا عظماءهم في حياتهم فما اكبر الفرق بين المغالين واخذادهم . المسلمون يتوخون ان يكون من يجوزون رضاهم بدون عيوب وما عهد ان اجمع قوم على تقريظ رجل خصوصاً من تولوا الامور العامة . ورأينا بعض من قصدوا الى ترجمة الناس من المتأخرين يدهنون لكل واحد ولكن على من جازت أقوالهم الملفقة ؟ وهل سلمت شهادتهم المزورة امام قضاة العدل ونقاد الرجال ؟ وهل اشتهر من الصقوا بهم صفات ليست فيهم كما اشتهر من عدوا بحسب الظاهر في عصرهم من الخاملين ولم يرزقوا ما يستحقون من شهرة ؟ لا يثبت الا الصحيح والكذب والزور اذا انطليا على ضعف العقول مرة يَنْصِلان بعد حين فيبدو صاحبها بما فيه من عيوب فاضحة .

المؤلفون السارقون

ويتساءل القارئ اللبيب عما عَنَّتْ له هنا قائلاً وهل في المؤلفين من يسرق ، والمؤلفون صفوة الخلق ومقام التأليف فوق كل مقام . نعم في المؤلفين سارقون ويسرقون بقحة وسلاطة كما كان على الدهر العالمون والجاهلون والصالحون والطالحون .

امتحن بطائفة من ادعياء التأليف يتهمون على ما لا يعلمون ويسلكون الى ترويج بضاعتهم مسالك لا يستجيزها لنفسه شريف ، لا يقصدون بها الا ان يتربحوا بما ينشرون ، ويتمجدوا امام الجبهة . ومن هؤلاء المؤلفين من بسحقون العتاب لانهم على شيء من الفضل وذبنيهم اعظم من ذنب الجاهل بمن يغفون مراعاة المصطلح عليه في النقل والاحتذاء . ومنهم من نشر في الادب كتابين استصفا بعض ما قلته واستشهدت به في (رسائل البلغاء) و (امراء البيان) فاخذوا من النصوص ومن اقوال اشياء وقال لي احدهما انه اخذ مني اشياء ولم يذكر اسمي فقلت له : عجب ! وهل اسمي مما يتقزز منه ، والامانة تقضي بعزو القول لقائله . وكأن هذين الاديبن خشيا اذا اشارا الى مصادرها ان يزيدا في شهرتي وشهرة كتيبي او ان مثلها في ادبها لا يجوز ان ينقل كلام معاصر الا اذا مات .

ولما كان معظم المؤلفين عندنا قد خرجوا من صفوف المعلمين ، ومعلمو الصبيان متهمون منذ القديم بضيق العطن ، عفوت عن هذين السارقين وتجاوزت فالحقتها بمن سرقوا بعض الموضوعات التي عاجلها او استشهدت فيها بأمثلة انفتت في جلبها وقتاً ومالاً .

ان تهالك المتهاكين على الشهرة وهم متصفون بهذه الصفات في غمط حق الغير لن يوصلهم الى ما يشتهون ، وما داموا لا يقصدون من تأليفهم الا نفع انفسهم فانا أبشرهم بأنه لا يبقى لهم من مجد الا ما رجوه من تصفيق تلاميذهم ان كان هذا بعد مجداً .

وهناك فئة حشرت نفسها حشراً في المؤلفين تستطيع ان تقبض عليها في حالة الجرم المشهود كل ساعة على نحو ما كان من مؤلف لبناني عاش زمناً في انتحال صفحات طويلة من كتيبي وما اكتفى بذلك حتى سألت ذات يوم عن رأيي في تأليفه بلاحياء فادعيت له اني ماقرأتها . ومنهم من ينقل الشواهد التي آتت بها وهم في الواقع ماطلعوا على الكتب التي نقلت عنها وقد تكون من المخطوطات النادرة لا تصل اليها كل يد . ومنهم من يسرق الفكر ويصوغه في القالب الذي يقدره ويدعي انه من بنات أفكاره كبعض المصريين . وهذا من الصعب مقاضاة صاحبه لانه يزعم ان ذلك كان من باب توارد الحواطر . ومنهم من يذكر ثبت الكتب التي رجع اليها وهو ما رأى الا بعضها . ومنهم من يأخذ عباراتي بلفظها ومعناها يشير الى أنه أخذ عني وعن غيري ، وعرف المؤلفين المذكورين كما عرفتهم الى غير ذلك . وهذا من اخلاق بعض المربين ايضاً فتأمل كيف تكون اخلاق من يربونهم

عمى الماديات

لأحد الأغنياء مزرعة تتاخم بعض حقولها مقبرة الفلاحين حدثته نفسه ان يستصفيها ليضمها الى أرضه فاوعز الى حرائثه ان يقلبوا القبور فخرجت جماجم الموتى فصار يدحرجها برجله بقسوة قلب ويقول : يا طالما سرقتم لما كنتم في عالم الاحياء . وهم ماسرقوا الا ما يسد جوعهم وغيرهم سرقوا وزوروا وهم في غير حاجة الى ذلك . فاطلع اهل القرية على الامر وجاؤه وشتموه واهانوه فاحب ان ينتقم منهم ويقدم عليهم شكوى الا ان مختار القرية سبق واطلع ارباب الشأن على ما اتاه ذلك الملاك فصدر الامر الى الجهات المختصة ان لا تسمع له شكوى فلم يسمعه الا ان صالح المختار واهل القرية ونجا . هذا الرجل على ذكائه تقدم في انتخابات مجلس النواب مرة فاختفى اخفاً مريباً لانه دخلها وهو يدل بما عنده من ورق نقدي وما يكنز من

دنانيو ذهبية وما يملك من ارض واسعة ، وما ادرك ان من لم ينفع الناس لايتعارفون اليه يوم يهزم لنجدته ، ومن لا يحب قومه لا يحبونه ، ومن ظن ان المال يوصله الى كل شيء مخطيء كثيرآ .

نهضة الشام الاخيرة

في الربع الاخير من القرن الماضي كانت المعارف في الديار الشامية منقسمة الى معسكرين ، يقود الاول دعاة الكتلكة والبرتستانتية ، حملة علوم المدنية الحديثة ، ويقود الثاني دعاة تترك العناصر اصحاب القومية التركية ومن ورائهم الدولة العثمانية . وكان معظم جماعة المعسكر الاول من المسيحيين في الساحل ، وعامة جماعة المعسكر الثاني من المسلمين في الداخل .

وظهرت شعلة العلوم الجديدة من مدينة بيروت بعد مذابح سنة ١٨٦٠ بفضل الجامعتين الاميركية واليسوعية وما أنشئ قبلهما وبعدهما من المدارس الطائفية والتبشيرية . وغدت اللغة العربية تدرس بعناية في تلك المدارس ، وشاعت اللغتان الانكليزية والفرنسية ، والعلوم تدرس باحدهما ، وكانت درست زمناً باللغة العربية في الجامعة الاميركية ، ثم جعلت اللغة الانكليزية لغة التدريس فيها الى الآن . اما مدارس الترك الرسمية فكانت لغتها التركية في الثانوي والعالي وتدرس العربية في الثانوي والابتدائي تدريساً ضعيفاً ومثل ذلك كان حظ اللغة الفرنسية من العناية .

وبينا كانت اللغة العربية تنهض في الساحل نهضة محمودة ، كانت في مدارس الحكومة وفي المدارس الدينية القديمة ظاهرة الضعف ، سقيمة الاسلوب وبينا كان طلبة المدارس التبشيرية والطائفية يتقنون من العلوم واللغات ما ينفعهم في معاونة الصناعات الحرة وممارسة التجارة ، كان طلبة المدارس الحكومية يتناغون بتعلم اللغة التركية ، لينشأ منهم في الدولة موظفون في الجندية والادارة ، ولا اثر بين اظهرهم للتعليم الذي يؤهلهم للحياة الحرة .

نعم كانت اللغة العربية في حالة نزاع في البلاد الداخلية ، اذا درست قواعدها في المدارس الاميرية (ولا يحسن التركية من لا يعرف العربية والفارسية) فتدرس بالتركية وتشرح بالتركية ، على صورة اشبه بالهزل منها بالجد . وربما كانت وزارة المعارف تعتمد يومئذ نصب الاتراك لتعليم العربية ، كما كانت تعهد الى بعض ابناء العرب بتدريس اللسان التركي . ووقع لها غير مرة ان عينت في المدارس الثانوية أناساً من الأرمن والروم لتدريس العلوم الاسلامية .

وبينا كانت الجامعة الاميركية وغيرها من المدارس الطائفية الكبرى في لبنان تخرج شعراء وكتاباً ومتوجين ومتأدين مثقفين بثقافة العصر ، كانت علوم الدين واللسان تدرس في مدارس حلب ودمشق على الطريقة القديمة العقيمة ، والقوم لا يعرفون شيئاً يعتد به عن الغرب وعلوم الغرب ، وبلغ بهم الجهل ان نسوا ان أمتهم كانت ذات عز علمي عظيم في سالف الاحقاب . كانوا في العصور الاخيرة يحفظون القرآن ولا يقرأون تفسيره ، ويتعلمون الفقه ولا يبحثون عن اصوله وفروعه ، ويتبركون بتلاوة الحديث ويخلطون صحيحه بسقيمه ، ويتدارسون قواعد النحو ولا تستقيم لهم جملة صحيحة ، ويستظهرون دساتير التصريف ولا يصححون الرسم والاملاء ، ويدرسون العروض وما يطلقون عليه علم المعاني والبيان والبديع ولا يحسنون نظم ابيات ذات معنى طريف بلفظ جزل ، ولا انشاء خطبة مؤثرة أو صفحة بليغة . وليس في شيوخهم من يرتجل جملتين او يكتب سطرين :

وكانوا الى هذا يجرمون درس التاريخ ، ويقولون ولا يبحثون انه من لغو الحديث ، على حين كان هذا العلم في العصور الوسطى يدرس درساً عاماً في الجامع الاموي بدمشق كما يدرس الحديث النبوي . وكانوا يعدون علوم الطبيعيات والرياضيات والفلك مدرجة الى الزندقة . أما الفلسفة فان مجرد ذكر العارف بها كان كافياً للحكم عليه بالاحاد ، وأبيع دم المتفلسف وماله في بعض الادوار . بل لقد حرّموا قراءة المنطق لما يلاحظ فيه من توسع

العقل ، وهم لا يطلبون من العقل الا ان يكون ضيقاً . انقضت بقية من طالما لفظوا بهذه الآراء السقيمة ، واستعانوا بالقوة الزمنية على اضطهاد من يتدارسون العلوم المادية ، وخلف من بعدهم خلف لا ذوا بالتقية فما وسعهم الا السكوت لما رأوا ابناءهم يدرسون ما كانوا هم يحظرون على الناس تعلمه .

ولا عجب ان اصبحت العقول بداء عقام اشبه بداء الفلج ، بحيث لا تقوى على الحركة ولا على الانتاج واصبح الاهلون يرون العافية فيما هم فيه ، راضين بجهلهم اذا سلم لهم دينهم على الصورة التي يتخيلونها ديناً . وما كانت انفسهم تحذتهم بالخروج عما ألفوا عليه آباءهم ، ولا ان يجبدوا قيد اثلة عما خطه لهم ساداتهم وكبرائهم وحكام كان الظاهر من مصلحة حكومتهم ترك العرب ، وهم نصف سكان السلطنة في جاهلية جهلاء ، ويصرحون بان الملك لا يسلم للترك الا بنزع سلاح العلم من العرب ، ولذلك كانت وزارة المعارف تحارب سرّاً انتشار التعليم بين المسلمين العرب ، زاعمة انه تقدم تقدماً كافياً ، فالرأى تأخيره الى الوراء لا يدفع به الى الامام ، ولما آضت الحالة الى هذه الدركة من الجهل خلا الجو للدجالين والخرفين وعم الفقر والحوّل .

وفي الحقبة التي كان فيها العلم العربي في احط مراحل ، والمشايع يحاولون الاحتفاظ بسلطانهم الذي كان لهم على الملوك والسوقة ولا يتخرجون من ان يزينوا الجهل للامة ارضاء لاولى الامر منهم ، قام في الشام استاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، وهو في هذه الديار كالاستاذ الامام محمد عبده في مصر فسمى بانشاء المدارس الابتدائية الاميرية (لانكور والاناث) في ولاية سورية العظيمة ، واخذ يؤلف لها الكتب في الفنون اللازمة ، ويلقن المعلمين اصول التدريس والتربية ، واشترك في تأسيس ثانوية دمشق وفي هذه المدينة انشأ دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية في القدس . وكان طول حياته الحركة الدائمة في نشر العلم ، لا يجد منفذاً لبث الافكار الا نفذ اليه ، ولا طريقاً الى نشر الثقافة الجديدة الا سلكه وعبدّه امام السالكين . وكان ينشر كتب الاقدمين كما ينشر كتب المحدثين ، ويجي

علوم الدنيا كما يحبي علوم الدين ، ويحبب الى النفوس الحضارة العربية كما بحث على اقتباس الحضارة الغربية ، وبارشاده انتفت طائفة صالحة من الشبان ، وتخرج به من كان على استعداد لقبول دعوته ، ومنهم من تلقى تعاليمه مباشرة ومنهم من اكتفى بالاخذ عنه بالواسطة . وظهر هذا المصلح العظيم دليل على ان البلاد كانت ذات ثقافة محلية لانتحاج الا الى يد صالحة تتعهدا وتوجهها .

ولما نفس خناق الشاميين بانتشار القانون الاساسي (سنة ١٩٠٨) هبت القوى الكامنة في بعض النفوس الى احياء كل ما كان فيه احياء مجد الامة العربية ، وغدت دمشق عاصمة الامويين مبعث تلك الحركة الرشيدة فصدرت فيها الصحف السياسية والمجلات العلمية ، وبدى بارسال بعثات علمية الى مدارس فرنسا ، وانشئت في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية اميرية تعلم العلوم بالعربية ، الى جانب المدارس الثانوية التي ظلت سائرة على ما كانت عليه تعلم بالتركية .

وما ان وضعت الحرب العامة اوزارها وخرجت البلاد عن الحكم العثماني (١٩١٨) حتى نهض القوم لتلقف العلوم بهمة عظيمة ، فأسس المجمع العلمي العربي في دمشق على عهد الحكومة العربية ، كما انشئت كلية الطب وكلية الحقوق ثم كلية الآداب ودور المعلمين والمعلمات ، واصلح نظام المدارس الثانوية والابتدائية وانتشر التعليم بالاستكثار من المدارس الابتدائية في المدن والقرى . واستعادت اللغة العربية بعض بهاها القديم ، واصبح لها المقام الاول في منهاج الدروس ، وجعلت لغة التعليم في درجاته الثلاث ، واصبحت اللغة الفرنسية تدرس تدريجاً جدياً راقياً . بمعنى أن اهل هذه الديار اخذوا يتعلمون على الطريقة التي يختارونها كما نص على ذلك صك جمعية الأمم التي انتدبت فرنسا لتنفيذه .

وماهي الا اعوام قليلة حتى نشأ في الداخل شبان دارسون على النحو الذي كان ينشأ عليه شبان الساحل ، واصبحت دمشق اوسورية الداخلية تدرس

من صنوف العلوم ما كان قد انقطع سنده اعصاراً طويلة ، وبقي على حالة جامدة ما تعدى الحد الذي عرف به عند القدماء ، وما بلغ المشتغلين به وهم افراد قلائل جداً انه طرأ على تلك العلوم ماغيرها رأساً على عقب بفضل الغرب وجامعاته .

وبعد حين ظهر الاطباء والحقوقيون والمهندسون والزراعيون ورجال التربية والتعليم ، ونبغ كتاب وشعراء وأدباء وخطباء ، وشارك النساء الرجال في هذه النهضة المباركة ، فأصبح منهن المؤلفات والمربية على مثال الرجال بمقياس صغير . واخذت الحكومة ترسل الى جامعات فرنسا بعثات من نبيهاء الطلاب للتخصص في العلم والأدب ليتولوا التدريس في التعليم العالي والثانوي . وتعاطى بعضهم الاعمال الحرة وخدم بعضهم الحكومة ، ومنهم من تعلموا على نفقتهم الخاصة في فرنسا وفي مصر وغيرها ، ولا يقل عدد من تعلموا العلم العالي في جامعات الغرب عن بضع مئات ، وهم الذين وضعوا كما وضع بعض اساتذتهم تآليف مدرسية ومصنفات راقية يظهر عليها الاتقان والبحث ، وذلك في الحقوق والطب والتاريخ والفلسفة والرياضيات والطبيعات والتربية والزراعة والمالية والاقتصاد والكيمياء والأدب والقصة . ونازعت دمشق بيروت في هذا الشأن ، وكانت هذه مستأثرة بطبع الكتب ونشر الجرائد والمجلات ، فبدأت عاصمة سورية تنافس عاصمة لبنان منافسة ظاهرة وانفسح لها المجال لذلك خصوصاً بعد ان اتجه التعليم في مدارس لبنان وجهة افرنجية في العهد الأخير ، وضعف الغرام بالعربية وآدابها .

وما صدر من التآليف العلمية في سورية الداخلية منذ عشرين سنة ، وما تلى على منبر المجمع العلمي العربي من محاضرات الاختصاصيين ، وما حملته مجلة المجمع في ثلاثة وعشرين مجلداً من الابحاث باقلام علماء وأدباء شاميين ، وما نشر في مجلات الطب والحقوق والزراعة والتربية والادب من مقالات وتحقيقات عدا ما نشره للشاميين الصحف المصرية وغيرها ، برهان جلي على

ما نقول . وكان للجمعيات الخيرية والمدنية اثر مهم في التربية ونشر الثقافة ومنها ما علم اليتامى واليتيمات ، ومنها ما علم الكبار ، ولا سيما في المدن الاربع (دمشق وحلب وحمص وحماة) وذلك في مدارس ليلية تعلم فيها عشرات الالوف من الشبان ما خرجوا به عن حد الأمية .

وانا اذا نظرنا الى النهضة في سورية والنهضة في لبنان ، نجد اثر الغريب في النهضة الاولى اقل من القريب ونجد العكس في الثانية اي انا اذا حللنا النهضةين ، اذا صحت تسميتها بهذا الاسم ، يثبت لنا ان حظ الوطني من نهضة لبنان كان اقل من حظ الاجنبي ، وحظ الوطني في سورية ظاهر كل الظهور ، ويد الغربي ضئيلة الاثر فيما تم . ومن الظواهر الغريبة ايضاً ان اكثر من تعلموا العلم العالي في فرنسا وغيرها عادوا الى وطنهم يدعون للمدينة العربية ، اي انهم تلقفوا من المدينة الغربية ما استعانوا به فقط على بث مدينة أمتهم .

استفادت سورية لاول أمرها من نهضة لبنان ، كما تستفيد الآن من نهضة مصر ، ونهضة سورية اليوم تشبه النهضة المصرية من وجوه كثيرة ، ولسورية من الاوضاع مثل ما لمصر . والجامعة السورية هي الوحيدة من بين جامعات الشرق التي تدرس العلوم العالية بالعربية ، وقد وضع لها الاساتذة ألوفاً من الالفاظ العلمية في الكتب التي القوها مباشرة او نقلوها من احدى اللغات . وسورية تتناول بكثرة كتب مصر ومجلاتها وربما عرف الشامي عن مصر اكثر مما يعرف المصري عن بلده .

ومن الظواهر في اخلاق المتعلمين على المناحي الغربية انهم يُعنون في سورية بان تكون أرضهم ميدان عملهم ومجالهم الحيوي في حين كان اكثر من تعلموا في مدارس لبنان يؤثرون الهجرة الى الامريكتين أو مصر أو السودان ، وبمغادرتهم مساقط رؤوسهم ، وصرف جهودهم في الاصقاع التي ينزلونها ضعفت قواهم . بالطبع عن خدمة بلادهم الاصلية ، وقد تطول هجرتهم او تصبح قطعية في ارض غير عربية ، فينشأ ابناؤهم بعيدين عن العروبة .

وفي الحق انه كان من منافسة الطوائف وجمعيات المبشرين نشر التعليم في لبنان ، فقل فيه عدد الاميين ، ولا تصل سورية الى مستوى لبنان في ذلك قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الاعوام . والمأمول ان يزيد العلم في الفة المتخالفين في مذاهبهم ، وان تضمحل الفوارق من بين أهل الوطن الواحد ، ويدرك الخاصة والعامة معاني القومية التي لا تعيش الامم بغيرها ، خصوصاً في قطر كهذا تكثر فيه المذاهب والنحل ، وفيه منها عشرون أو اكثر ، فهو فسيفساء اديان بعقيدته ومجموعة بدائع في طبيعته .

لاجرم ان اصلاح التعليم على اختلاف درجاته قد سهل اخذ العلم على معظم الطبقات ، ونظام البكالوريا الجديد ادخل الدراسة في طور عملي نافع ، وبالتعليم ارتقت لغة التخاطب والتكاتب ، واصبح ماكان يحمله الدارسون من الشيوخ يتقنه بل يتسله صغار الطلبة الذين لم يبلغوا الحلم . وفعلت الثقافة في تحسين الملكات والعادات ، واصبح المتعلمون حتى من اقتصروا على التعليم الابتدائي ، يميلون الى التجميل والنظافة وحسن الهندام ، ويألفون النظام والترتيب في معظم مرافق حياتهم . وكانت المدن والقرى الى عهد قريب على حالة ابتدائية من مظاهر المدنية ، وبانتشار العلم في بيئات ماكان يظن انه يسرى اليها ، حسنت حالة البلاد الادبية والاقتصادية . وبما اعان في هذا الشأن كثرة التنقل في طلب الرزق في الممالك الاجنبية ، وسهولة تناول الكتب والصحف والمجلات ، ويسر الاستماع الى اذاعات المذياع ومحاضرات المحاضرين وخطب الخطباء ، والفضل الاول في هذا التبدل للمدرسة . ولواستطاعت الحكومات ان تبذل في نشر المعارف اكثر مما بذلت ، وعاون الاهلون في هذه السبيل معاونة صحيحة ، لعم التعليم القرى كما عم المدن ، ولاصاب من نعمته البدو كما اصاب الحضر ولظهرت الارحاء بالمظهر الذي يليق بعظمتها الطبيعية والتاريخية ، فجمعت الى قديمها حديثاً تغتبط به من كل وجه امام الغريب والقريب .

الثورة المباركة

في الساعة الثانية من صباح الأربعاء (٣٠ آذار سنة ١٩٤٩ وغرة جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧) قام الجيش السوري بقيادة قائده الزعيم السيد حسني الزعيم بالاستيلاء على زمام الأمر واعتقال رجال الحكم الماضي وبينهم رئيس الجمهورية السورية ورئيس وزارتها ونشر البلاغ الآتي :

« مدفوعين بغيرتنا الوطنية ومتألمين مما آل اليه وضع البلاد من جراء افتراءات وتعسف من يدعون حكامنا المخلصين لجأنا مضطرين الى استلام زمام الحكم مؤقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص ، وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز غير طامحين باستلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديموقراطي صحيح يحل محل الحكم الحالي المزيف . واننا لنترجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة مقدماً لنا كل المعونة والمساعدة للسماح لنا باقام مهمتنا التحريرية وان كل محاولة لتحل بالامن والتي قد يمكن ان تظهر عن بعض العناصر الهدامة الاستثنائية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة .

القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة

وقال الزعيم في بلاغ آخر « انه رأى ما آلت اليه حالة البلاد من الفوضى واستئثار وخذلان ووجد العهد الحاضر مليئاً بالمساوي والتخاзи من خيانات وسرقات ومن قضاء على الحريات الديمقراطية الى مخالفة الدستور والقوانين . ولقد رأى الجيش كل ذلك وابقن ان الامة تسير بخطى متسارعة نحو الموت والفناء فأبت عليه وطنيته وكرامته ان يقف مكتوف الايدي وابت على ابنائه نفوسهم النبيلة ان يرضوا بالذل والعبودية والفناء مصيراً لأمة عظيمة كتب لها المجد والخلود فصمم على ان يقف هذا الموقف الشريف ويتدخل ليعيد الامور الى

نصاها . يعيد الى هذه الامة شرفها وكرامتها وحريتها » وقال قائد الجيش ايضاً : « ان السبب في الحركة التي قام الجيش بها هو الهجوم المتكرر على الجيش في المجلس النيابي وخارجه للتشهير به واطهاره بمظهر غير لائق . وقد نبهنا المسؤولين الى الحالة اكثر من مرة ، ولكن دون جدوى قال : « وقد لمسنا استياء الشعب من الوضع السابق وعدم رضاه عن الفوضى وشعرنا بان سمعة الجيش اصبحت مضغة في الافواه على اثر اعتقال بعض الضباط بتهمة السرقة والاختلاس وعدم اطلاق سراحهم رغم ثبوت براءتهم » قال : « والحركة داخلية بحتة لا علاقة لها بدولة خارجية سواء كانت اجنبية أم عربية ونحن عرب قوميون وكل سلطة خارجية مهما كان نوعها تحاول الاعتداء على سلامة استقلالنا وسيادتنا سنقابلها بالقوة ، ونحن سنتخلى عن السلطات الى الحكومة الشرعية التي سيتم تأليفها في اقرب وقت ممكن فتعود الحالة الى مجراها الطبيعي » وقال : « ان قيادة الجيش قامت لانقاذ البلاد من الفوضى التي غرفت فيها والتي باتت تهدد استقلالنا تهديداً خطيراً ورغبتها صيانة الدولة من الانهيار وانقاذ الجيش السوري الباسل من محاولة العبث والتهديم التي تعرض لها في المدة الأخيرة فالجيش السوري الباسل الذي ضحى بزهرة شبابه وسفك دماء المخلصين من ابنائه في سبيل حماية حدود البلاد ورد اعدائها عنها واستطاع ان يسجل انتصارات رائعة لا يمكن ان يقبل بأي شكل من الاشكال ان يتعرض للمعاملة السيئة التي كان يلقاها »

وفض الزعيم المجلس النيابي وبين في كتاب ارسله الى رئيس المجلس اسباب الحل وقال : « ان المجلس لا يمثل في اكثريته الساحقة رغبة الناخبين وارادتهم وانما جرى في انتخابه تحت ضغط الفئة الحاكمة وبضروب التزوير والعنف والاكراه . وكان قد ثبت بعشرات الادلة الدامغة تزوير انتخاب النواب والطعن في نيابتهم وكان الاساس الاول في اقامة حكم ديمقراطي هو القيام بانتخابات صحيحة حرة وقد يعبر فيها الشعب عن ارادته في جو حر تام لا زيف فيه ولا ضغط ولا اكراه . زورت انتخابات اكثر اعضاء المجلس

وكان البعض الآخر اقرب الى التعيين منه الى الانتخابات فماشى طغيان الفئة الحاكمة في اكثر من موقف وكان في اكثريته اداة طيعة في ايدي هذه الفئة تسيرها كيفما تشاء »

هذا ما صرح به الزعيم العظيم من الدواعي الى هذه الثورة التي عبرت عن اماني الأمة المظلومة اصدق تعبير واعتبطت ان كانت الثورة سلباً كلها لم يقتل فيها انسان ولم تجرح فيها اصبع واستلم الجيش زمام الحكم وشرع بتطهير جهاز الحكومة من ادرانه وبتنحية من ليس للجمهورية حاجة اليه وطرده المرتشين والمتلاعبين والجاهلين من اعوان الدولة البائدة وبات الرجاء معقوداً على تخفيف الآلام ورد المظالم وانقاذ الاوضاع الدستورية لتسير الامور على نظام وعدل

عدت الأمة في عهدها الأخير ثلاثة اعياد تتهلل وجوه ابنائها سروراً كلما ذكروها العبد الأول كان بخروج الاتراك من سورية والثاني بجلاء الفرنسيين عنها والثالث هذه الثورة المباركة التي قضى بها على سلطان الطغيان ابد الدهر ان شاء الله



الدواعي الى الثورة

كُتبت الى احد اصدقائي في مصر كتاباً في الدواعي الى الثورة السورية الاخيرة اقتطف منه مايلي : تدارك الزعيم بحكمته وحنكته الجمهورية السورية من الانحلال ولم تخدش اصبع وطني واحد في العاصمة والأقاليم ومنت الثورة على احكم ما يكون من السرعة والشعب يصفق ويهلل .

وتسألني وهل من داع لهذه الثورة ، نعم ان لها عدة دواع لان حكومة الجمهورية اصبحت بأخرة حكومة تخريب ولصوصية فيما ارتكبتها من المساويء تردت الأخلاق وعمت الفوضى فكان من اتجروا بالوطنية زمناً وبها باعوا واشتروا وجعلوها وقفاً ، مؤبداً عليهم يسرقون الدولة باسلوب مفضوح مخجل ، كانوا من قبل يسرقون الالوف فاصبحوا يسرقون بمئات الالوف ولا يشبعون ولا يكفون ، وكيف لا يسرقون ورئيس الجمهورية يستهدي النواب على ما قيل ويهدي هولمن يريد استباعتهم من مال الامة ، ويفرض بعض الوزراء على كل رئيس حكومة يعهد اليه بتأليف وزارة . ومن الغريب أن من كان يقدسهم ظهرت سيئاتهم في الدور الجديد لما جرى حسابهم فكانوا من أكبر الخونة واللصوص ، وزور في انتخاب النواب من حزبه وزور في انتخابه ثانية للرياسة وبذلك خان الدستور الذي لا يجيز انتخاب الرئيس مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر ، وكان عليه تفادي كل هذا لانه مريض ولا يكاد يمضي شهر واحد الا ويقضي أياماً في السرير منقطعاً عن كل حركة ومن تداعت صحته لا يرجي منه أن يدبر صحة أمة .

وبما يؤخذ عليه اصطناع السفلة والالوغاء يصدق عليهم الاموال والعطايا ويختصهم بالامتيازات والاعفاءات الراجحة ويوزع عليهم قسماً عظيماً من الخطة والارز والسكر وغير ذلك من الحاجيات وفقراء الاهلين بل المتوسطون منهم لا يصلون الى حاجتهم منها الا بالبذل الكثير ، وقد جعل الرئيس

من اولئك الرعا عشاءه وجلاسه وقد شوهه قبل يوم اعتقاله في قريتنا في طريقه الى مزرعته والى جانبه اثنان من هذه الطبقة فما استغرب القرويون ذلك منه لانهم طالما شاهدوا امثالهم معه يرفع مقامهم ويأنس اليهم ويتقرز من مجلس فضلاء القوم ولا يقبل لهم نصحاً .

واستكثر الرئيس من الموظفين الفاسدين ومنهم اهلهم وابناء حزبه يجود على بعضهم بعدة رواتب من دون أن يكون لهم عمل ظاهر وفيهم الاميون الذين ما دخلوا كتاباً حياتهم ، فضخمت الموازنة حتى بلغت ضعفها ما كانت والمجلس يقرر له الاعتمادات بالملايين دون أن يعرف وجوه صرفها ، وكان بعض من ولوا الوزارة بمن لم تسبق لهم خدمة في الحكومة من الطبقة المحدودة عقولها ومعارفها فتسلط اهلهم وأنصارهم على الناس وهتكوا الاعراض واستصفوا الارض من مالكيها ، وكان أبداً متمسكاً بهم حتى أن أحد رؤساء وزارته الذي ضجت البلد من سوء ادارته وعلت الاصوات بالشكوى من اضاعته الحقوق لم يتخل عنه رئيس الجمهورية حتى اندلع لسان الثورة واهرقت دماء الابرياء .

ولقد عطل رئيس الجمهورية الحدود عملاً بنصيحة أمه لانها أرادته على أن يتجنب القتل لانها تخاف على ابنها أن يصيبه شر من ذلك فأدخل بهذا النساء في مصالح الدولة . وكان الموظف الذي له امرأة حسناء يملئ ارادته على القضاة ورجال الادارة فيفسق ويسرق وهو في حل بما يأتي لانه من حاشية الرئيس معدود في اتباعه والرجل « الموصى عليه من القصر » كان كأهل بدر ، وفي الرئيس في سياسة الارضاء والمصانعة كأن البلاد اقطاع له ولآله ومن والا . وكان يتدخل حتى في تعيين الفراشين والآذنين لان امرأة أحدهم أو والدته سبقت فشكت ظلامتها لامرأة الرئيس أو لأمه فصار لزاماً عليه أن يعينه وان كانت المصلحة تقتضي استخدام منافسه ، وكان بعض الوزراء يتبرمون بهذه السياسة الحرقاء ويعدون لها اعتداء على حقوقهم ومنهم من استقال من رئاسة الوزراء بمثل هذه التحكيمات فيه على ما بلغني الخ .

حزب الكتلة

لما تألف حزب الكتلة الوطنية في هذه الديار وجد له أنصاراً مخلصين يعاونونه على الوصول الى تحقيق غايته السياسية فاستطاع أن يصمد أمام فرنسا مدة انتدابها على سورية ويثابر على مطالبته بالاستقلال . وقيل ان الكتلة كانت تصدع بامر بريطانيا العظمى وأن الثورة السورية (١٩٢٥ - ١٩٢٦) كانت بضع الكتلة ومعاضدة بريطانيا العظمى . وكان البريطانيون يطمعون منذ وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها أن يشمل انتدابهم جميع الولايات العربية المنسلخة عن أملاك السلطنة العثمانية ، وما كان انتداب فرنسا على سورية ولبنان بما يحلو لهم ويطيب .

وضع السوريون ثقتهم بالكتلة فكانت اذا قالت لهم أضربوا أجابوا نداءها دون أن يسألوا عن السبب ، واذا أرادتهم على الثورة ثاروا سامعين مطيعين ، وإذا فرضت عليهم مالا أعطوها ماسألت . والناس في العادة اذا اعتقدوا شرف دعوة لا يرضون عليها بما يحقق الآمال على شرط أن تكون الرؤوس والأعضاء سليمة . ومن أحق باجابة دعوة من يقول لك اني منقذك من استبداد عشت فيه قروناً لاجعل منك دولة مستقلة نيابية .

وأدركت فرنسا ما يراد بها وبانتدابها وان من مصلحة انكسرت أن يشغب السوريون عليها فما قصر رجال الانتداب في اضطهاد زعماء الكتلة اعتقاؤهم وشردهم وفرضوا عليهم الإقامة القسرية وقسوا عليهم قسوة شديدة غضب لها الشعب السوري ، وبقيت الكتلة مع كل ما لقيت ثابتة على دعوتها وقد كبست عطف الامة عليها . ومضت أعوام في هذه المشادة ما وسع فرنسا بعدها الا ان ترضى عن تقليد الكتلة زمام الحكم وبدأ الضعف في إدارة الكتلة يتجلى شيئاً فشيئاً لما ظهر بعض أفرادها بمظهر ما كان يتوقع منهم . والناس لم يستغربوا هذا التبدل في رجال الكتلة لان الشرق مُمي بالتحول والتلون .

ولما عاونت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة سورية على نيل استقلالها خاطبت هاتان الدولتان بالطبع من كان في منحة الحكم من حزب الكتلة فرائها هذه فرصة سانحة لتوهم الاهلين ان الكتلة كانت سبب هذا الاستقلال فانطلقت أيدي رجالها في الحكم ، وراحوا يخالفون بين أقوالهم وأفعالهم كأنهم يحاولون ان يتقاضوا ثمن سعيهم المشكور في الوصول الى الاستقلال . وظهر ان أكثر زعمائهم ما كانوا يهتمون الا لأشخاصهم ثم الهزوء بالأمة وبمطالبها ، وكان من ينصح لهم باتباع خطة رشيدة يرمونه بالخيانة ، ومن أبدى عدم رضاه عن « الوضع الحاضر » عدّ في جملة من يفضاون حكم الغريب على الحكم الوطني . ولقد اتهموا بعض الوطنيين بضروب من التهم كانوا منها أبوا من الذئب من دم ابن يعقوب .

ما قبلت الكتلة يوماً أن يقوم في سورية حزب معارض ، هذا وهي تعرف ان المعارضة واجبة في المجالس النيابية لذلك اضطهدت كل من جسروا ، على المعارضة بل كل من كانوا على الحياء ، واتخذوا من المعارضين والمحايدين اعداء لانهم لم يدخلوا في زميرتهم ويكثرنا سوادهم . واضطهدت الكتلة المعارضين وكان فيهم صفوة ابناء الوطن اضطهاداً ليس فيه شيء من الاعتدال . ولطالما اوغزت الى القضاة بالتشديد عليهم في الاحكام فاعتقلت من اعتقلت واقصت من خدمة الحكومة من اقصت وحرصت كل الحرص على ان تخص اهل حزبها بالمغانم فاسترسل بعض رؤسائها واتباعهم في ارتكاب ما كان يجب ان يتصنوا عنه فسهلت بذلك على اللصوص سرقاتهم . واذا سرق الزعماء فلا ملام على من بعدهم في الدرجات ان يسرقوا ، ويحتجون لتبرير مساوئهم بما يأتيه كبارؤهم

بسوء السياسة تأصلت العداوة الشديدة بين الاحزاب وبين جمهور الأمة وبعد ان كان اسم الكتلة عطراً اضحى وفيه تَنَنٌ مستكره ، والكتلة من وراء ذلك لا تقفأ تعمد الى الدعايات الواسعة لتخفت اصوات الناقمين والناقدن وقد تلجأ الى القوة فتضرب وتشرذ وتعتقل وتغلق صحف

المعارضة لتلقي الرهبة في قلوب المحاصرين الذين يعدون الانكار على اغلاط الكتلة فرضاً وطنياً

ولا ينكر على الكتلة تماسكها امام اعدائها حتى تسنى لها ان تحكم هذه الحقبة الطويلة وكان منهجها في حكمها اشبه بمنهج حزب الاتحاد والترقي في المملكة العثمانية ، وكان على ايدي رجاله انحلال الدولة . قامت الكتلة بالعنف وحكمت بالجبروت شأن حزب الاتحاد ، وكان لسان حالها كل من ليس معنا فهو علينا . وكان الاختلاف أبداً على اشده بينهم ، وخصامهم في الاكثر على الاستئثار بالمنافع ، ورؤسائهم يداون هذه الحصومات بالمال يعطون كل ملح في تقلد وزارة راتباً يوازي راتب الوزير العامل

كان المخالفون للكتلة ضعافاً بالقياس اليها والسبب في ذلك ان الكتلة سبقت وحدها الى العمل السياسي واحكمت امرها بالحزم فكان ان مرن رجالها على معاناة السياسة أكثر من غيرهم ومن توفيقها ان ضمت اليها اناساً ، من ارباب البيوتات المتعلمين . اما جمهرة القوم فكانوا اذا رأوها قوية ماشوها لاتمام مقاصدها واذا آنسوا منها ضعفاً أعرضوا عنها . ولو كان للمعارضين قوة يعتد بها توازي نصف قوة الكتلة ل طرحوها جانباً واستأثروا دونها بالحكم ، ينقلون الامة من حال فيها بعض الشقاء الى حالة قد يكون فيها شيء من السعادة

وكأنني ببعض رجال الكتلة غداً ينزعون ثوبهم القديم الذي اكتسوا به زمناً ويكتسبون ثوباً جديداً يرون من مصلحتهم الخاصة الظهور فيه ويقدحون بسلطة فيمن رفعوهم ونفعوهم ويعودون يمتدحون من خلفهم يصانعوهم كما صانعوا من تقدمهم لا لشيء غير دوام المنعم وهكذا دواليك .

ان حرص الكتلة الوطنية — وقد دعت نفسها مؤخراً بالحزب الوطني — على تولي زمام الحكم كان من اكبر الاسباب الداعية الى انصراف النفوس عنها ولا سيما عندما نظرت الامة الى ما ارتكبت في الانتخابات النيابية الأخيرة بمخالفتها احكام الدستور وهي تدعي انها جابته والمدافعة عنه

بطل دمشق

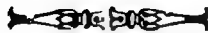
هو الزعيم السيد حسني الزعيم قائد الجيش السوري الذي ثار على الظلم وغضب للحق ، وقضى على من أفسدوا عمود الحكم وما استعان بالاجنبي على تحقيق غرضه الشريف فعده المتقذ الأعظم حقاً وصدقاً .

أزال الزعيم حكومة كانت تحاول أن تعيش الجمهورية بجيش مضيق على ضباطه وجنده ، مدّنتق عليه في النفقة والسلاح ، وما عهد لأمة تحرص على كرامتها أن تعيش بلا قوة تحميها ، والجيش من أول مظاهر الدولة .

كان شأن الحكومة البائدة اغناء أفراد وافقار الجماعة توهم الشعب أنها تخدمه وهي تضحك منه ، فجاء الزعيم يقطع عليها طريق العسف والاسراف ويفادي بجمياته ليحييها ، ويستهن براحته لتنعيم وتسلم .

عقمت الايام أن تلد مثل ثورته الحكيمة ولا عجب أن سجل اسمه الكريم في ثبث بناء الممالك وقادة الشعوب .

كانت دمشق مهد المصلحين والمجددين اذا نبغ فيها نابغة في الجندية والادارة انضم الى لواء الدولة القائمة يعاونها على حفظ سلطانها أما الزعيم ابن دمشق الذي أدهش العالم بثورته فقد وثب وثبة جبارة للنهوض بسورية فحق لوالده صديقي الشهيد السعيد العلامة الشيخ رضا الزعيم أن يغتبط في قبره بان أنجب للعرب مثل هذا النقيب .



سياسة رئيس

بقى أمر رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي مكتوماً إلا عن بعض الحواص مدة رئاسته الأولى ، ولما بدا له أن يجدد رئاسته ليستمتع بالحكم خمس سنين أخرى ، مع ان الدستور حدد الرئاسة بخمس سنين فقط لا يجوز لرئيس ان يتولاها مرتين الا اذا تخللها رئيس آخر - لما تذرع بذلك كان منه ان حث بيمينه الذي أقسمه يوم رئاسته الأولى وهو المحافظة على الدستور .

وراح الرئيس يعمد الى انتخاب بعض النواب من حزبه بالضغط والتزوير واذ تعذر عليه أن ينال أكثرية الأصوات ابتاع فيما قيل اصوات بعض النواب ومع هذا لم يتبها له الاجماع لاستنكاف حزب المعارضة من انتخابه . وعاد الى ما كان جرى عليه من العطف على زعانف الأحياء ، ومزيتهم عنده انهم يتسلطون على الأهلين يوم الانتخابات ويخدمونه بما يشاء ، ولذلك فتح لهم الأبواب الرسمية يدخلونها بلا استئذان وهو يبالغ في اغداق العطايا عليهم ويخصهم بالامتيازات والاعفاءات ، ويجعل منهم عشراء وأولياءه ، ووقع له أن سعى لانتخاب أحد أصحابه نائباً مشهوراً بطول اللسان ، وقال انا ما اخترناه لهذه المهمة الا ليسب غداً من يخالفون رأينا في المجلس ! وافرط في توظيف أهله وأنصاره ومنهم الأمي العامي ومنهم من كان يقبض عدة رواتب من بضعة دواوين وليس له عمل ، أفرط في ذلك حتى خيل للأهلين ان سورية اقطاع له ولبن يجب .

واذ اعتاد الرئيس التدخل في الصغير والكبير من شؤون الحكومة بما لا تتطلبه رئاسته كان من لهم شيء من عزة النفس من وزرائه يتأفقون من تحكمه ومقترحاته ، أما المنافقون منهم وهو يفرضهم على كل وزارة فكان يسكت عن مساوئهم كأنه شريكهم ، حتى عمت الرشوة وسادت الفوضى .

كان الرئيس يعبت بالقضاء فمن يحكم له من القضاة بما يروقه يرقه ويرفع مقامه ومن يجري مع القانون يوجه وقد ينجه او يحول دون ترقته . فقد حكم على احد ارباب الصحف باهانة الرئيس ولما لم يحكم القاضي النزيه بالقانون العثماني اي لم يقس القذف في الرئيس على القذف بالملك ، ولم يعتبر رئيس الجمهورية ملكاً اقصاد ونبذه ، اما الذي تفوه بما يسقط من قدر الرئيس وحكم القاضي عليه حكماً جائراً فأعلى الرئيس مرتبته وارضاه . وله أشياء من هذا القبيل لا يليق صدورها من المهيمن الأول على القانون فقد اختلف مع بعض جيرانه على حدود ارض فاضطر الموظف المختص ان يرضيه بالباطل ومستندات خصومه شاهدة ان لهم الحق دونه ، واكره وزارة الاشغال ان تفتح طريقاً ليتصل من مزرعته بأرض له بعيدة وهي سبخة ويزة لاتصلح للزراع فاستأزم قطع اشجار مشرة من جانبي الطريق ، وكذلك الزمها بفتح طريق بيت امه فأنفقت في ذلك نفقات باهظة كانت طرق اخرى أحق بهذه العناية . ومنها انه كان يستعمل بضع سيارات على حساب الحكومة يخص بعضها بركوبه وأخرى بجرمه وبعضها لأولاده وبعضها لبناته وسيارتين لصهره . ومنها اعطاؤه لأحد شعراء المهجر خمسة عشر الف ليرة سورية وانفق عليه مايقرب منها مدة اقامته في عاصمة الجمهورية ، وأعطى عشرات الألوف من الليرات لمن مدحوه او كتبوا رسالة او كتاباً باسمه ومن تغنوا بمحامده فيما كتبوا من كتب اغناهم . وكان يعطي بعض الصحفيين بلا حساب لأنهم رضوا ان يكونوا ابواقاً لتمجيد سياسته ، ومن غلط غلطة واحدة من ارباب الصحافة اوغز الى المحاكم ان تشدد عقوبته وتغرمه الغرامات الثقيلة . وكان يصرف جانباً من اوقاته في مثل هذه المسائل .

ولما كان من طبعه حماية اهل الطبقات النازلة لم يجوز ازعاج من كان يشلمهم بلطفه وعطفه ولو كانوا من الجناة الأشقياء ومنهم احد المفاتي في قضاء ثبت انه لص كبير وجان تعددت جنائياته بتحقيق قاضيين نزيهين فلم يرض ان ينجه لأنه كان ينادي يوم الجمعة من أعلى المنبر : اللهم انصر

أمير المؤمنين شكري القوتلي وكان هذا الخطيب يدعو بمثل هذا الدعاء البارد على عهد الانتداب الافرنسي فيقول : اللهم انصرف فرنسا وجيوشها . ولعل هذا المفتي السخيف كان ممن يمهّد للسيد القوتلي دعوى امارة المؤمنين . ويتلخص ما اتاه الرئيس من الاعمال النابية عن القوانين في المواد التالية :

(١) العتب بالدستور وقد اقسم ان يحافظ عليه

(٢) انتخاب نواب حزبه بالتزيف والضغط

(٣) افساد بعض النواب ليمّ الاجماع على انتخابه

(٤) اعتماده على ارباب الدعارة واعطاؤهم الأموال والسكر والارز

والخطة والبتروول والمازوت من مال الدولة بمقادير عظيمة جداً حتى اغتنى أكثرهم

(٥) افساد طلبة المدارس باعطائهم رواتب من الدواوين وهم لم يتموا

دروسهم ولم يوظفوا على الاصول

(٦) استهزاؤه بنصح العقلاء من الوطنيين وثقته العمياء بالجهلاء

(٧) اسرافه البالغ باموال الجمهورية وحمله البرلمان على اعتماد أموال

عظيمة لم يعلم محل صرفها

(٨) ادخاله في خدمة الحكومة الافاقين والاميين من أسرته وانصاره

ومنهم من كان يعطيهم عدة رواتب وكذلك يعطي بعض الوزراء الراضي عنهم تعويضات باهظة

(٩) اخذه بيد شاب من النواب حتى ألف حزباً خطراً من برنامج

القيام بثورة وقد اعد لها عدتها بالفعل

(١٠) لم يحقق مدة حكمه شيئاً يعتد به من اعمال الاصلاح على كثرة

مادخل خزانة الامة من الاموال الجسيمة

وكان على الرئيس وهو يعرف انه مصاب بمرض عضال ، ان ينتحى

عن الرئاسة من تلقاء نفسه فالمرضى يحتاج الى من يدبره ولا يرجى منه ان يدبر مملكة .

كان الرئيس قبل رئاسة الجمهورية يتكرم من ماله فيحمد اويذم فلما

تولى الرئاسة غرف في الجود من مال الامة فتبومت باسراقه
كان الرئيس ثورياً يحب الثورات ويمتدح الثائرين ويبالغ في اكرامهم
وشاء القدر ان يصرف بثورة ، وماظله احد بل هو الذي ظلم نفسه باهماله
ماعهد الى امانته

كان خروجه على القوانين بادياً لكل ذي بصيرة حتى خيل لنا انا عدنا
الى العصر التركي ايام كان الوالي يحكم بلا محاسب ولا مراقب . وأصبح الحكم
الجمهوري الذي يراد به رفع تسلط الافراد حكم الهوى لاحكم القانون .
الشكل دستوري مدني والفعل استبدادي عامي

ولطالما نصح له العقلاء ومنهم من كتب له التقارير في بيان طرق الاصلاح
وجاءته عدة وفود تصارحه في سوء مغبة السياسة المتبعة في الادارة فكان
يؤله ان يسمع ما يخالف اغراضه ويقلب الحديث من جد الى هزل ، وقد
يتسم ويسكت ويتأفف من مخاطبه ويتجهم له ويود لو عجل الانصراف
من حضرته .

كان رئيس الجمهورية الثالث ضعيفاً في ارادته ، قوياً في حزبيته ، مسرفاً
بماله ومال غيره ، حريصاً على تحقيق رغائبه الخاصة ، اخطأ طريق المجد
وما عرف اختيار الأسباب التي تعين عليه . ومن الانصاف ان يقال ان له
فضلاً على القضية الوطنية ، وقد ثبت انه في الامور السلبية اقدر منه في الامور
الانشائية الايجابية



فاجعة فلسطين

من نحو جيلين واليهود المنشورون في اوربا واميركا يحملون بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين (راجع الفصل الذي كتبه في الصهيونية الاستاذ عمر الصالح البرغوثي في الجزء السادس من كتابنا خطط الشام) ، وقد اتخذوا لذلك عامة الذرائع ، وهان على كل يهودي في الأرض أن يبذل النفس والنفس في تحقيق هذه الأمنية ، وتوفر اليهود على احياء اللغة العبرية وكانت نسبت الا من كتب صلاتهم ومن ألسن رجال الدين عندهم ومالبثوا أن أصبحوا يتكلمون بها في بيوتهم وكانوا من قبل يتكلمون معظم لغات العالم الا لغة دينهم هذه ، أحيوا لغتهم بعد موتها وكانت كالسريانية والقبطية تعد من اللغات الميتة . والى هذا جدوا في تلقين الآداب على ما يضمن تكوين دولتهم الجديدة .

وفي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) خدم اليهود دولة بريطانيا العظمى خدماً عظيمة فوعدهم ان هي خرجت ظافرة من حربها ان تعاونهم على تحقيق آمالهم في تأسيس دولة لهم في فلسطين وبعد ذلك أقبلوا يهاجرون اليها من انحاء العالم وزادت هجرتهم منذ تم الانتداب لانكثروا على فلسطين وكانوا شرعوا قبل الحرب الأولى بابتياح الارض بالثمن الفاحش من ابناءها العرب يستعمرونها احسن استعمار وأغدقت جمعياتهم واغنياؤهم في الغرب الاموال العظيمة على فلسطين حتى عمر اليهود كل ما وضعوا أيديهم عليه من مزارع وأنشأوا المعامل والمدارس وأقاموا المصانع وشادوا القصور والحصون . وكانت حماية انكثروا للصهيونيين ظاهرة ومع هذا ما رضيت عنها بعض أحزابهم ومنهم من كانوا يتربصون بحماية الانكليز الدوائر ، وما ذلت بريطانيا في الشرق كما ذلت في فلسطين ، فكان رجالها يقتلون وتضطر الى مصانعة اليهود والتغاضي طوعاً أو كرهاً عن جناباتهم حتى

لا يفسدوا عليها جهود الولايات المتحدة وهي في الحرب والسلام محتاجة الى صداقة اميركا ، وما ان اعلنت انكلترا انتهاء انتدابها على فلسطين حتى زادت الحال شدة على العرب ، وكانت انكلترا تجور عليهم في جميع الثورات التي قامت وتراعي اليهود مراعاة لا تقبل الانكار . ولما تمت معدات الصهيونيين الحربية وحان وقت رفع العلم الصهيوني على ارض الميعاد بصورة رسمية أبدى اليهود للعرب نواجز الشر اكثر من ذي قبل فكانت حرب العصابات ثم الحرب النظامية كالتي تنشب بين دولة ودولة ، وكان العرب الى العهد الأخير يعرفون ما هم قادمون عليه ولا يستطيعون ان يتذرعوا بما ينقذهم خوفاً من الانكليز ، وهم كانوا في كل فتنة اشتعلت بين العرب واليهود الى جانب هؤلاء كأن بريطانيا العظمى دولة يهودية لحماً ودماً ودينياً ومدنية .

وبعد الحرب العالمية الاخيرة او عزت انكلترا الى بعض رجال السياسة من العرب في العراق ومصر ان يتقدموا الى الحكومات العربية السبع (مصر والعراق والمملكة السعودية واليمن وشرقي الاردن وسورية ولبنان) بتأليف جامعة عربية ففرح العرب وظنوا ان باطن ساسة القوم كظاهرهم . وكان العرب لسلامة صدورهم او لأنهم مبتدئون بالسياسة يظنون ان الحرب الأخيرة علمت البريطانيين ان يعدلوا سياستهم في الشرق وقد عزموا ان ينظروا في خير العرب ، وما غايتهم في الواقع الا ان يجعلوا منهم في غربي آسيا قوة تعضدهم امام قوى اعدائهم ويستندون اليها في حال وقوع حرب مع روسيا أو غيرها . ولما نشبت الحرب الفلسطينية واشتركت فيها بالفعل خمس دول عربية مصر وسورية والعراق ولبنان وشرقي الاردن ، بقيت المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية بمعزل ، وكانت مصر وسورية من أهم الحكومات تأذياً بالحرب وخصوصاً سورية فانها هبت لجهاد الصهيونيين اول الدول العربية وقبل ان تتم استعداداتها تحذوها حماسة المتحمسين من اهلها . اما سائر الدول فمنها من اخذ يساوم ليضيف جزءاً من فلسطين العربية الى مملكته كالملك عبد الله ابن الحسين صاحب شرقي الاردن وشغلت اليمن بنفسها وثورتها وابن سعود

صرح بانه لايسير على مايريد ملوك العرب لانه اعرف بما يصلح مملكته ، والحقيقة انه خاف غضب الولايات المتحدة وهي صاحبة شركة البترول في مملكته التي تدر عليه ملايين من الليرات الذهبية كل سنة . وكان العراقيون جداً أوفياء للوطن العربي الاكبر وما ابدوه من معاونة القضية العربية منذ كان لهم جيش وسلطان مما ترتفع به الرؤوس

وقدر الله ونزلت الكوارث بالجيش المصري والسوري وثبت انه كان في صفوف الصهيونيين قواد من الروس وكانت تشيكوسلوفاكيا الشيوعية تمد الصهيونيين بالسلاح مدفوعة بأيدٍ روسية وعاونت الولايات المتحدة الصهيونيين جهرة وكان الانكليز على عادتهم يراوغون وضلعمهم مع الاميركان وما كان لهذه الحفنة من الجيوش العربية ان تغلب جيشاً مستتباً في سبيل دعوته تعاضده دول كبرى ، فمصر والشام والعراق لم يحاربها الجيش الصهيوني فقط بل حاربتها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وروسيا اكبر دول الأرض الحربية اليوم ، ولكل من هذه الدول مآرب تحاول تحقيقها على حساب فلسطين ، فالانكليز السكسونيون يدعون انهم يحرصون على حماية بلادهم من الشيوعية عدوة الديمقراطية ، وروسيا اذا كتب لها التدخل في فلسطين كما تشتهي تخرج الى البحر المتوسط بأساطيلها وهذه أميتها منذ القديم ، وجعلت الدول الكبرى من العرب آلة لقضاء غاياتها لما خست به بلادهم من مركز ممتاز بين آسيا وافريقية واوروبا .

وصل الصهيونيون لما سعوا اليه سنين وهو تقسيم فلسطين استأثروا بالساحل العامر وقذفوا بالعرب الى الداخل واكثره غامر وذلك على صورة مضحكة لم تعهد في أرض متوحدة الأجزاء متشابكة السكان ان قسمت على هذا الوجه الخزي ، هكذا اراد احباب اليهود ان ينيلوهم رغبانهم وضحكوا من العرب ودول العرب ، وختمت هذه المأساة التي بكى لها كل عربي وكل مسلم في الارض بما اورث الحضارة الحديثة العار الأبدي ، نزعوا من المالك ملكه واعطوه ظملاً لمن أحبوا استمالتة ، ومن اشق ما عدع

قلوب العرب ان أصبحت الدولة الجديدة فاصلة بين الأقطار العربية في افريقية واقطارهم في آسيا .

قلنا ان بريطانيا العظمى ذلت امام الصهيونيين لأن سياستها اقتضتها مصانعتهم حتى تبقى الولايات المتحدة حليفها ولا يدس اليهود دسائس تحل رابطة الدولتين البريطانية والأميركية ، واي ذل لبريطانيا افطع من ان يقتل رجالها ولا تستطيع ان تضرب على ايدي الارهابيين من اليهود ، وكانت الدول حامية الصهيونية خلال الحرب الفلسطينية الأخيرة اذا ايقنت ان بعض دول العرب في ساحات الوغى كادت تنظر يشيرون الى جيوشها بالارتداد الى الواء مهددين ، وما ذكر التاريخ حرباً مضحكة كهذه الحرب . وزاد في هذه المهزلة تفاشل العرب في الآخر لأن صاحب شرقي الاردن يحلم بتوسيع ملكه من ارض فلسطين وسورية ، ورئيس جمهورية سورية يحاذر ان تنحل جمهوريته وتتألف سورية الكبرى ، وصاحب الحجاز ونجد يخاف على توتر العلاقات بينه وبين انكلترا وأمريكا ، ويخشى اذا صمد مع الحكومات العربية ان تفوته فوائد مالية كبيرة .

نكتب هذا وفلسطين البائسة لاتزال بين خفض ورفع وحرب وهدة وسكان فلسطين من العرب الذين سموهم باللاجئين وهم يزيدون على ثمانائة الف يقيمون على وجوههم في فلسطين وسورية وشرقي الاردن والعراق ومصر غادروا ديارهم بعيالهم لما نالهم من ظلم اليهود .

فرح بعض ضعاف العقول من أهل فلسطين لما اخذ الصهيونيون يبتاعون من الوطنيين الأرض بالأثمان الفاحشة وظنوا ذلك مغناً لهم لم يفز بمثله آباؤهم ولا اجدادهم وقال بعض المتشدقين ان الحالة الاقتصادية تحسنت جداً في فلسطين بما دخلها من اموال الصهيونيين وقدروها بمئة مليون جنيه بيد ان كثيرين ممن باعوا تراث اجدادهم وموهوا على انفسهم بأنهم غنموا مغناً لم يكتب لهم مثله وكان من نساء اليهود أن استعدن منهم ما كانوا قبضوه قيمة اراضيهم بطرق دنيئة كتبت كثيراً عن خطر الصهيونية في جريدة المقتبس ثم في كتابي خطط

الشام منذ نحو أربعين سنة وعاونني أربعة اصدقاء من أرباب التفكير السليم نلفت الأنظار الى مايتوقع من خطرهما . اثنان من فلسطين وهما الاستاذان عبدالله مخلص وعمر الصالح البرغوثي وواحد من لبنان وهو الاستاذ نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا والرابع دمشقي وهو الاستاذ شكري العسلي وكان قائم مقام الناصرة ثم نائب دمشق في مجلس النواب العثماني وكلهم لم يدخروا جهداً في بيان ماسينال فلسطين من الغبن العظيم اذا امتدت الدعوة الصهيونية
اما اليهود فقد تحققت احلامهم القديمة بذكائهم وماهم ومفاداتهم ثم بمعاونة دول الغرب لهم « سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء »

عدم التوفيق

ثبت أن الرئيس السيد شكري القوتلي لم ينفع مدة رئاسته الا نفسه ومن اصطفاهم ، وكان السواد الاعظم من الشعب غاضباً على طريقته في الحكم ، وعلى صم أذنه عن سماع الحق ، وعلى سخريته ممن أجلسوه في مقام كان عليه أن يقوم حق القيام بما يجب عليه له .
كان هذا الرئيس كثيراً ما يعتب عليّ لقلة اخلافي الى مجلسه وعدم المبادرة لاجابة دعواته الى مادبه الرسمية فكنت أعتذر بصحتي وضيق وقتي وان اجتماعي بمن لا أحبه ولا يحبني قد يضر بصفاي وينقص المدعوين ، وقلبي يحدثني ، لكثرة ما تواتر عنه من الهزوء بما لا يوافق اغراضه من النصائح ، ان كل من لم يمدحه هو في نظره عدو حكمه ، وكل من ينصحه يكرهه ويحقد عليه .

وغالطت نفسي مرتين وعرضت عليه اقتراحين نافعين أحدهما خرق الطريق الضيق الموصل بين باب البريد الى المدرسة العادلةية مقر الجمع العلمي العربي والى المدرسة الظاهرية وفيها دار الكتب الكبرى ، والى

ضريح صلاح الدين وأخيه العادل والملك الظاهر . والاقتراح الثاني تفريغ
ما حول العادلية والظاهرية من الاكواخ والمساكن لأن الخطر محقق بها
ولاسيما بدار الكتب مجاورة الحمام والقمين والفرن فاعتذر عن الاول
بالحرب وضيق البيوت على السكان . وكان الاعتماد اللازم لفتح هذا الطريق
مثبتاً في موازنة البلدية لذلك العام - ووعد بانفاذ المشروع بعد الحرب
وما عاود الكلام فيه ، وكان الوعد بالاقتراح الثاني أن يباشر به في أقرب
فرصة فما صدق بوعده ولا بر . وظلت هذه المصانع العظيمة وسط أزقة
ضيقة حقيرة قدرة لا تنفذ اليها الشمس ولا الهواء ولا تتسع للمارة فضلاً عن
السيارات والمركبات . وقديماً كانت تلك المحلة أشرف حي في دمشق لجوارها
الجامع الأموي وكانت في القرون الأولى للإسلام منازل الصحابة والتابعين
ورجال بني أمية ومن جاء بعدهم من العظماء والعلماء .

ما اهتم الرئيس لكل هذا والحريق يهدد مدرستين هما من أجل ما شاد
الفاتحون من ملوكنا ، وأهمه فتح شارع باسمه في غربي المدينة ونسي أن
المنافقين من اتباع السلاطين كثيراً ما فتحوا الملوكةم شوارع وبنوا باسمهم المصانع
فما ان مات اولئك الملوك او تنازلوا عن الحكم حتى كان الاعفاء نصيب
ما بنوا . وكان على الرئيس ان يعتبر بسلفه المتأخر السيد تاج الدين الحسيني وما كان
من حرصه على تخليد اسمه . حفرة على ما شيد ايام ولايته من جوامع ومدارس
ومخافر ودور حكومة فلما جاءت الكتلة الوطنية وعلى رأسها عميدها السيد القوتلي
نفسه ازال كل ما زبر على الحجر وكتب في الجدران فذهب تعب الحسيني عبثاً
كان يتعذر عليك ان ترين لهذا الرئيس عملاً لا يكون له منه منفعة
ولو كانت عنايته بالعموميات اكثر من الخصوصيات لخذ اسمه بما تم على
يده للخير العام اكثر من شارع يزال اسمه عنه بقرار من المجلس البلدي .
ولكان من هذين المقترحين فوائد عامة منها دخول ذاك الحي ،
وهو سرّة المدينة ، في طور العمران الحديث . ولاتصل هذا الحي من الشمال
بجادة الترام التي تربط شرق دمشق بغربها ولاستعادت تلك المصانع

الفريدة بهجتها الأولى ولربحت مدينة دمشق وبلديتها ربحاً عظيماً ولاستفادت
اليد العاملة فائدة تخفف وطأة الأزمة . ولكن من حرم التوفيق لاسبيل
لك ان تحمله على سلوك سبل الخير ولو أوتيت بلاغة سبحانه

ادبـة دؤوبـة

ولدت السيدة وداد السكاكيني في بيروت وتثقت فيها الثقافة الاولى ثم انتقلت
الى دمشق بحكم اقترانها بالكتور زكي المحاسني الشاعر الأديب وانصرفت
الى التأليف والكتابة فاشتهرت في مصر والشام بما انتجت من كتب ادبية
وقصص ومقالات واحاديث فيها روح الجديد يمازجه شيء من القديم ، وكان
اعتمادها في ثقافتها على نفسها في الأكثر فجاء منها ما قلما يجيء من كثير
من حاملات الشهادات العالية وذلك بفضل دؤوبها وبما انتجت اثبتت ان
الشهادات شيء ولكنها ليست كل شيء وان المرأة الشامية اذا تساوت وسائطها
والمرأة المصرية ، فاقت الاولى بثباتها وصبرها وهذا سر اشتهار « مي » من
السوريات المتصرات . ولولا غضب المصريات عليّ لصرحت باكثر من
هذا . وقد قلت غير مرة ان ما صرف في مصر على التعليم كانت ثمراته
اقل من نفقاته بكثير ولو وُحّد التعليم في الديار الشامية لكان فيها للعلم
اروج سوق ولأخصبت العقول أكثر ما اخصبت في مصر .



ملوك العرب

دخل التجدد في دول العالم وتبدلت على الزمن أوضاعها وادارتها وانظمتها يأخذ التالي عن الأول . اما دول العرب وفي الجزيرة خاصة فلم تتأثر بشيء مما سمعت عن الغرب وظنت المحافظة على القديم هو القوة وفي جهل رعاياها كل السلامة لها ، ولا ينجيها وينجي ملوكها الا الضغط على الرعية واستعبادهم وقد يفيدها بؤسهم أكثر من سعادتهم ، وباطالة أمد جهالتهم يضلون طريق نجاة يخرجون منها الى اكراه الملوك على التخفيف من استبدادهم وانا لنشهد ان قد آن لملوك الجزيرة - وكل عربي يحب لهم ولبلادهم السعادة - ان يدركوا حاجة شعوبهم الى التجدد ويبدلوا اساليب الحكم القديم بالنظم الجديدة المستمدة من روح القوانين الاوربية ابنة الدرس العميق والتجارب الحكيمة ، والدواعي والبواعث تدعو الى الأخذ منها . نحن على يقين ان ملوك العرب منذ مئات من السنين لم يدخلوا على شعوبهم ما يصلح ان يطلق عليه اسم التجدد وكل ما عندهم من العتيق البالي ، هم لم يجددوا في لباسهم ولا فرشهم ولا مساكنهم ولا هجاتهم ولا عاداتهم وهم الى الآن صورة مما كان عليه اجدادهم واجداد اجدادهم الى ابعد حدود التاريخ ، العالم يتحرك ويتحرر والعرب وقوف مستعدون . وقصارى ملوكهم ان تجبي الجبايات من الرعايا فينفق اكثرها في البذخ والابهة ولا يحسب للمستقبل حسابه ، ولا ينال ملوكهم غير قسط ضئيل من هذه الأموال ولا يصرف شيء على انشاء مدارس ومستشفيات ولا على تعبيد طرق واصلاح ري ولا على غير ذلك من اوليات المسائل في قيام الممالك ، فالبلاد ينقصها كل شيء ، حتى لقد قال احد الاميركان انه ليس في كل ارض نجد على طولها وعرضها سوى صيدلية واحدة وليس فيها كل العقاقير . ان الحسنات التي تحققنا وجودها في نجد والحجاز بفضل ملكها ، ولطالما

ذكرناها لارباب الرحلات من الغربيين مفاخرين - لا تكفي وحدها في انهاض تلك الديار من كبوتها . ان تطبيق مفاصل الشريعة الاسلامية ولا سيما في العقوبات انتج انتشار الأمن والسلام في المملكة العربية السعودية بما لم تطمع باكثر منه ممالك الحضارة الحديثة . ان انشاء المهجرات وانقطاع سكان البوادي الى زراعتهم وابطال الغزو والغارات وانشاء ادارة صحية منظمة في البلدين الطاهرين ، كل ذلك حسن ونافع وهناك امور تنقص وفيها سعادة الشعب وفتح باب لارتقاه واخراجه من انتظار الصدقات او آخر الشهر لقبض رواتب الدولة

ويبلغنا اليوم من حالة الحجاز ما يرمض النفوس يتراعى اليها ان الشعب جائع عريان ولا من يفكر في فتح ابواب الكسب له وهذه الحالة مطردة منذ سنين . نعم ان الدولة لاتستطيع على الدوام ان ترزق رعاياها كما ان الملك لا يهدأ له بال اذا كان من وكل اليه أمر دنياهم في شقاء وهو وحده ينعم بخيرات البلاد ، ويوم تصح النية على البداءة بمشاريع جديدة ويرزق منها العملة والمرتبة وغيرهم تتحسن حالة السكان كما حسنت حال الحكومة باستثمار الذهب والبتول ، ان انتظام الحالة الاقتصادية بتساوي الراعي والرعية في المنافع ، فالاسراف ما حمد يوماً من الأيام ومن يعمد اليه ملكاً كان أو سوقه فصيره الخراب . المال اليوم موجود في ارض ملك العرب والضرورة حافزة والبدء بالأعمال المثمرة متحتم وصاحب هذا الملك يعرف وجوه الصرف والاقتصاد . وقد رأى في مصر يوم ان وافاها زائراً من ضروب الرقي الذي خلت منه مملكته ما يدعو الى العجب . ولا يفوت الملك العاقل ان في اليوم الذي قام محمد علي الكبير باصلاحاته في مصر كانت الحجاز ونجد على ما يقرب من نسبتها في الارتقاء ، وفعل الزمان فعله وانتقلت مصر من حسن الى أحسن حتى بلغت ما بلغت من العظمة ، والفضل للبادئ بالخير ابداً .

لو كنت ملكاً لا قدر الله لعددت من الخونة لي ولأمتي كل من لا يصدقوني عما يجب القيام به من الاصلاح ، ولطردت من خدمتي كل من

يحسن لي القبيح ويقبح لي الحسن ، ولأبعدت عن بلدي كل مدهن يعيش بأكل مالي ومال رعيتي ويجمع ثروة عظيمة في غفلة الدهر ، ولرددت كل ما في وسعي ان ارده من المال على اعمال ترفع مستوى العيش في رعيتي . فقد قال احد كتاب فرنسا ان صناعة الملوك فقدت كل لذة وسلبت من الملك الحديث جميع امتيازاته الملكية القديمة فليس له ان يأخذ من مال الخزينة ما يشاء ولا ان يفضل على وصفاته على حساب الدولة ولا ان يسرف في اهوائه وشهواته ويبنى القصور وعليه ان يظهر في مظهر وطني مقتصد وان يكون اباً صالحاً وزوجاً صالحاً وان يتحلى بالفضائل الطيبة كأنه احد افراد الطبقة الوسطي والا عرض نفسه للهلاك ا هـ .

نحن لا نخطط هنا خطة لصاحب نجد والحجاز يصل بها الى سبل الاصلاح ولا نقول بالوثبة المعجلة بل نعرض ما نراه في نظرنا صالحاً للملوك العرب وجزيرة العرب .

العلامة كرينكو

كرينكو عالم مستعرب اصله من شمالي جرمانيا اسمى نفسه في الشرق « سالم الكرينكوي » هاجر الى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية واتقن من اللغات الاوربية ازيد من اربع عشرة لغة يتكلم بها ، وتعلم العربية والفارسية والاردية بنفسه من دون معلم وهذه اللغات الثلاث يكتبها ولا يتكلمها ، ويكتب بالعربية كتابة المؤلفين من العرب وهو شاعر بالالمانية لغته الأصلية . وقد نشر بالعربية عشرات من كتب علماء العرب وعلق عليها وخدمها بما يخدم اعظم علماء المشرقيات كتب اسلافنا .

أعجبت بدؤوبه منذ عرفته ونوهت به بالمناسبات وكان آخرها في محاضرة القيتها في جامعة فاروق الأول بالاسكندرية في فضل المستعربين من الغربيين على لغتنا وتوسعت فيها بذكر ما نشر العلامة كرينكو من

الكتب وعرضت لآرائه ومذهبه فبعث يقول انه لا يستحق هذا التنويه وأنا اعتقد انه اهل لاكثر منه وما قلت الا أقل ما يقال شهد الله . قال اشكرك من صميم قلبي على حسن ظنك بي وان كنت غير مستحق لكل ما قلت في . اني من نحو ثلاثين سنة اعمل خادماً للعلوم الاسلامية والشكر اولاً لاصدقائي في حيدر آباد الدكن لمعاونتي على القيام بهذا العمل فطبعوا لي في مطبعة « دائرة المعارف » الكتب التي كنت اعتقدها مهمة للنشر الخ . ان عناية السيد كرينكو بتأليف اجدادنا قد زاد في خزانتنا العربية عدد الامهات المطبوعة من تراثهم الثمين ، فبفضله حيي بعض ما كان ينسى أو يضيع من ثروتنا العلمية . وكان على علماء العرب ومنهم شيوخ الازهر ان يتولوا من علومنا ما تولاه السيد الاعجمي منها ، وهم لو ساروا على طريقته ما بقي كتاب مهم للقدماء مطروحاً في زوايا الخرائن معرضاً للحريق والتمزيق ، كانوا هم اولى ان يتقدموا فيجبوا تفسير ابن خالويه لثلاثين سورة من الكتاب العزيز ، ولكن شيوخ المسلمين في مصر والشام والعراق وتونس ومراكش يتدافعون على المظاهر والمناصب والحياة عندهم مشاهرات ورتب وأوسجة الا من رحم ربك .

الاستاذ كرينكو بحسب العرف غريب عنا ولكنه في الواقع قريب من قلوبنا لعطفه على ادبنا وتاريخنا وديننا بلا غرض الا خدمة العلم المجرد ، والعجيب في امره انه لم يتقيد بأحد فلا ينتمي الى جماعة ولا الى جمعية ولا الى جماعة وما عرف الا الاعتماد على نفسه والولوع بخدمة غرضه الشريف . ومن أراد برهاناً آخر على غيرته على مدنيتنا فليرجع الى ما حل به جيد مجلة المجمع العلمي العربي من المقالات والابحاث والانتقادات خدمة للاسلام والعرب .

فرجل هذا شأنه اما هو حري بأن نشكره على بيض اياديه علينا وعلى ادبنا ومدنيتنا وخصوصاً اذا نظرنا يميناً وشمالاً ولم نجد من يعشره من المعاصرين اصحاب هذا اللسان وهذا الدين ونحن لم نر من اكثرهم غير

الدعوى العريضة ، واذا وقع التنظير بين علماء الغرب وعلماء الشرق تظهر الفروق بين العقول .

ذكرت بعض صحف الغرب ان اندريه موروا من أعظم كتاب فرنسا وعلمائها القى بأخرة في اميركا اربعاً وثلاثين محاضرة خلال اربعين يوماً . ومحاضرة يلقيها مثل هذا النابغة لا بد ان يكون فيها شيء جديد وكثير من التحقيق الذي لا يصل اليه المحاضر العادي ، اليس من العار ان يموت العالم عندنا ولم تؤثر له محاضرة واحدة خلال عمره الطويل ؟ وهذا هو الفرق الطفيف بيننا وبين أهل الغرب !

غلو الشرقيين

يفحش الشرقي في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه النبوية والأخروية فقد بالغ في تصوير الامور الروحية حتى صار كثير من الغوغاء يؤهون المخلوقات ويسجدون للجمادات ويثبتون لمن يحترمون من الآدميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول .

الشرقي يببالغ اذا وصف أحداً بالعفة والسخاء والشجاعة والمروءة وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات أمثلة كثيرة من ذلك . وأمة تقول « أعذب شعر أكذبه وأشعر الناس من استجبد كذبه » لا تتحرج من الغلو والمبالغة ، هي اذا عدت وقاست نسيت الحساب والمساحة واذا قدرت أوغلت في الخيال وخرجت عن طور المحسوسات وتناست التدقيق فكالتك أو وزنتك بالألوف وربما كانت الحقيقة في العشرات .

يبالغون في قوة الدول وأموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وثروة الاغنياء الموسرين يتوغلون في العدد ويتجاوزون حدود العوائد ويطاوعون وسائس الاغراب كما قال ابن خلدون فاذا استكشفت أصحاب

الدواوين عن عساكرهم ، واستنبطت أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدونه ، وما ذلك الا لولوع النفس بالفرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش ، فيرسل عنانه ، ويسيم في مراتع الكذب لسانه ، ويتخذ آيات الله هزواً ، ويشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة خاسرة .

ترى كثيرين حتى من خاصتنا اذا سألتهم عن الثروة لا يسعك الا أن تقف شاخصاً تستعيز بالله من غلو المشاركة وتجويزهم الكذب وضعف استقراءهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس والمقارنة . قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من أصحاب الألوف وصاحب الألوف من أصحاب مئات الألوف .

وقد كان بعض الظرفاء يقول اذا ذكرت أموال صاحب الثروة في الشرق وقدر ما تملك يمينه فاحذف صفرين من بين الأرقام ، فاذا قالوا لك ان فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف أنه يملك مئة واذا قيل لك يملك مئة الف فاعرف أنه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض أقل تعديل لعلك تسقط على الحقيقة . وكان يقول اذا لم تصدق فاسأل العادين ممن يقدرون ثروات الافراد الى آخر درهم مما عندهم ، على حين أنك لو سألت أصحابها عما يملكون ما عرفوا أن يقدروا لك الا بالتخمين والتقريب .

هذه زبدة ما كتبت في مجلة المقتبس (جمادى الأولى ١٣٢٥) ومثلت يومئذ مجادنين جرى أحدهما في مصر والآخر في دمشق وفي الأول قدرت احدى الصحف المصرية ما حشدته الدولة العثمانية يوم اختلافها مع بريطانيا العظمى على الحدود المصرية الشامية بمائة الف جندي ولما قيل لها من الغدان هذا العدد مبالغ فيه جداً قالت انه زاد صفر في العدد بالغلط فكان العدد الحقيقي ثمانين الفا . وبعد التحقيق تبين أن ما كان جمع هناك من الجند

لم يتجاوز الألفين . والحادث الثاني مات أحد المعمرين فقال الناعي انه مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة وأنه خلف خمسمائة نفس ذكوراً وإناثاً وبعد التحقيق تبين أن عمره لم يتجاوز المئة وأن أبناءه وأبناء أبناءه هم دون الخمسين .

وفي هذه الأيام غلا الناس في تقدير الثروات على العادة لأن التجار رحبوا في الحرب الأخيرة أرباحاً عظيمة فانتسعت ثرواتهم وكثرت معاملاتهم ومنهم من بنوا القصور والمصانع ، وبما سمعته واستغربته أن أحد خونة وزراء سورية سرق من مال الجمهورية مئة مليون ليرة سورية (نحو عشرة ملايين جنيه مصري) والتحقيقات في حساباته لم تتم ، فذكرت ذلك لأحد أصحابي المعتدلين في السرد والتقدير فقال هذا مبالغة وإنما الصحيح ان هذا الوزير كان قبل بضع سنين يعيش في بيت والده لا يملك نقيراً ولا قطيراً فقال والده منذ مدة لاحد خاصته : ان ابني صار يملك ثمانية ملايين ليرة فقلت له هذا صحيح أو أقرب الى الصحة .

هذه المبالغة متصلة بحكم العادة والبيئة كالكذب يروي أهله ومن يعاشرهم يكذبون فيكذب مثلهم ، ولا أحسن من الرجوع الى الاعتدال عند ذكر الأرقام من أن يفكر المتكلم قليلاً ويقدر عظمة المليون الواحد حتى لا يضحك الناس من تقديره أو يروي المبالغة ويتبعها حالاً بما يسقط من الرواية ويقلل من الغلو فيها .



جمود العرب

كثيراً ما كان احد اساتذتي يقول : لا تطيب السكنى في بلد لا تنزله طائفة من ارباب القبعات فاذا كثروا كانوا مصيبة عليه . يقصد بقوله هذا - بقدر ما استنبط منه الفكر يومئذ - ان الدولة العثمانية لا تراعي اهل بلد الا بقدر مافيه من الأجانب يراقبون اعمالها فاذا اخلت بلدة من هؤلاء الرقباء عملت الدولة فيها على هواها وكثرتهم ضارة . ويمكن تأويل هذا على معنى آخر وهو ان البلد لا يتحضر الا بالاحتكاك بالغريب الراقي ولوقدر لسكان الجزيرة ان يختلطوا بالأجانب لما انحطوا هذا الانحطاط

لاجدال ان جزيرة العرب اليوم اكثر الاقطار العربية تأخراً في مضمار الحضارة وكانت حضارتها في اكثر عصور الاسلام والجاهلية ارقى من حضارة الغرب وما علة هذا التأخر الاقليم والهواء بل هجرة اهل الجزيرة في القرون الاولى للاسلام الى ما فتحوه من البلاد النائية وبقي الإعراب اي سكان البوادي وحدهم وتخلف في القرى اي المدن من العرب العاجز والشيخ والمتوسط الذكاء . ثم اتت عصور رأى امراؤها ضرب الحواجز بين ارضهم وسائر اقطار العالم فنشأت اجيال كلها جهل واتكال وعاد السكان يعيشون من صدقات الامراء وأهل الحجاز ينتظرون موسم الحج يسدون بما يرجحون منهم بعض حاجتهم . وقل ان فكرت الامارات التي توالى حكمها على تلك الاقطار العظيمة ان تعمر بلادها وظل اهلها على حالة ابتدائية . واذا صح ما يرمينا به الغربيون من الجمود فيصح اولاً على سكان الجزيرة وجود سائر الشعوب العربية نسي . وكانت فرنسا وايطاليا واسبانيا في شمالي افريقية السبب في جمود المراكشيين والجزائريين والتونسيين والطرابلسيين

ولا ينكر انه كان للفقهاء يد طولى في هذا الجمود الذي دام قروناً ، وبعض الاقطار التي نجت من استبداد الطغاة وتعصب الفقهاء وظهرت في

سنين قليلة بظهور لباس به من الارتقاء قد اكذبت بنهضتها ما كان يصمها به المتعصبون من اعدائها . وبعد ان امتعنا العقل بحريته يسير بما يتراءى له وابحنا تعلم العلم على اختلاف ضروبه تبدل الحال وبات يرجى الانقل حضارة مصر والشام والعراق عن حضارات ارقى الدول الغربية .

انشأ العرب في الجاهلية مدنات عظيمة في جزيرتهم وانشأوا في الاسلام مدينة كانت الوحيدة في العالم خلال اربعة قرون ثم اصيب العرب بالضعف حتى اهتمنا بالجود وبدأنا نشعر بنقصنا منذ القرن الماضي . وسيدع كل قطر من اقطارنا الناهضة مدينة خاصة به ولا عار في اخذنا عن الغرب فقد سبق له ان اخذ عنا كثيراً (راجع في كتابنا الاسلام والحضارة العربية ما أخذه الغرب عن العرب)

روى احد علماء الانكليز (هارولد نيكلسون) قول المؤرخين من انه منذ وجدت في الأرض جماعات منظمة رأت الانسانية ثلاثاً وعشرين حضارة مختلفة سارت كل واحدة منها في ادوار معينة حتى انتشرت فنمت في اول نشأتها ثم استقرت وتوطدت ثم ثارت ثورة الفقراء فكان من ثورتهم الانحلال . ومن هذه الحضارات من تركت عادات ابانت عن قوتها وثقافتها ومنها ما لم يبق منها غير ذكرها

قال ولدت مدينة اوربا في اليونان قبل القرن الخامس من الميلاد فوضعت قواعد انسانية جوهرية وعرفنا اليونان فضل الذكاء الحر ومبلغ تأثير العقل ، واخذنا من الرومان حرمة المذاهب وعظمة الشرائع . وعدلت النصرانية من قسوة المعتقدات الرومانية وقالت باغناء الفرد ورفعت مقام الفضائل واتت بالرخة والرفق ، ونادت فرنسا في القرن الثامن عشر بتغلب العقل والعلم الصحيح . وجئنا نحن الانكليز بمثال من النظام لم نأخذه عن مقام سام بل ولد من ذاته وتألف من عادات انبعثت من الشعب كان رائدها التسامح والاعتدال والتنظيم اه .

يحدّ العرب اليوم لاسترجاع حضارتهم للقديمه يمزجونها بما يقتبسونه من

الحضارات الحديثة فيرتفع عنهم لذلك عار الجلود وخلق الاتكال ويستعدون حياة طيبة فيها جماع القوى المادية والمعنوية ، وستكون حضارتهم على اختلاف اقطارهم متنوعة الاشكال كالفلسفساء لانتشه حضارة العرب ايام عزهم ولاحضارة الغرب لعهودنا بل تكون شيئاً جديداً فيه عبقريتهم وروحهم .

المطالبة المحقوقة

وفقت الحكومة الجديدة في سورية خلال الشهرين الاولين من حكمها الى تحقيق اصلاحات لم توفق الى مثلها الحكومة البائدة في أعوام . منذ القديم كنت انزع الى الامتناع عن نقد كل حكومة جديدة وأترك لها وقتاً تجمع فيه شملها وتوجه دفة سفينتها حيث تريد على ماترى فاذا وفقت الى الخير فيها ونعمت والا فان اعمالها تسقطها على نحو ما حدث لرئيس الجمهورية الثالث ومن ورائه رجال الغيب أصحاب الكتلة الوطنية فان سيئاتهم في الحكم قضت عليهم ، ولو لم يبادر الجيش الى اسقاط حكومتهم لسقطت بنفسها بما جنته أيديها .

ليست الجرأة على نقد كل شيء بانفع من التأني فيه والاقتصاد منه ، ولا يعد التوقف في النقد قصوراً ولا اسقاط كل شيء معقولاً . وأي عمل وهو في مبدء تأسيسه خلا من هنات تؤخذ عليه . ولو أنصفوا ما كان مجموع ما عدوه من المنتقديوازي مسألة واحدة ارتكبتها الحكومة السالفة وما وجدت من بحاسبتها حتى الحساب اليسير . ولا حظ بعض العارفين بالادارة أن حكومة الزعيم أنجزت في أسابيع قليلة عشر مسائل كبرى لا تستطيع الحكومة القوالة الصخابة أن تنجز مثلها في سنين ، ولذلك وجب الثناء عليها . والعاقل اذا أصابته نعمة حمد عليها وشكر وأعرض الطرف عما عدا ذلك ، ويخطيء من يتطلبون الكمال واجاده من أصعب الصعوبات .

منذ قرن وضع كردينال اسبانيا القواعد التي تستطيع بلاده - وكانت

يومئذ تفرقها الاختلافات الداخلية - أن تنشئ حكومة ثابتة مستقرة فيها ، قال هوفار من ساسة الانكليز : ولو كنت اسبانياً من أحزاب اليمين أو من أحزاب الشمال لكنت أردت كلمات الحكيمه وهي : يجب تأسيس حكومة لا تحتقر الماضي ولا تهمل الحاضر ولا تغفل عن المستقبل . يجب أن تكون حكومة لا تنكر ضرورات الساعة ولا تنسى الارث الثمين في الدين والاجتماع والسياسة من مخلفات الأجيال السالفة ، حكومة قوية لا تعرف العناد ، عادلة بلا قسوة ، شريفة بلا عظمة ، حكومة تكون مفتاح قبة بناء ضخمة تحسن تلقي كل رأي معقول ، وتنجز كل مصلحة مشروعة . وهذا ما نرجو أن يتم على أيدي رجال الحكم الحاضر في سورية العزيزة لتكون قدوة الحكومات العربية . والواجب أن لا نتطلب المحال وأن نصف غيرنا من أنفسنا ، فالادوات التي تستخدمها الحكومات هي هي ، والمهارة في اختيار الاصلح فالاصح ، وعلينا أن نبتسم للمستقبل نتفاءل ولا نتشاءم ، وألا نجسم الضئيل ولا نصغر الكبير ، وأن نتجرد عن الهوى ونتماضد على الحق .

الحكم ملع الارض

عجب كل وطني شاهد عمال الحكومة بعد الثورة الجديدة وقد بدأوا دوامهم اليومي على صورة من التدقيق لم يعهد مثلها في الحكومات السالفة . يدققون في ضبط المواعيد في الذهاب والانصراف ويبتون في امور ارباب المراجعة بالمرعة الممكنة ، ذلك ان صاحب الشأن الأول قضى عليهم بهذا النظام رعاية لمصلحة من يدفعون اجور اولئك الموظفين فالامة تطالب هؤلاء بحقها عليهم ومن لا يروقه التقيد بارادتها فما عليه الا ان يعزل نفسه قبل ان يعزله غيره .

نعم ان العامل يتناول أجرته من انتدبه لخدمته وهذا يطالبه بالانقطاع الى خدمته ساعات معلومة في اليوم وعليه ان يخلص فيما تولى وان يبادر الى انجازه من دون ان يُدفع اليه . وكل من اعتاد أن يأخذ الحق ويعطي الحق تحصل له نشأة يستريح اليها وجدانه في الآخر . والواجب ونحن نسير في أصول الحكم على مثال الغرب أن نتقيل أساليبه النافعة في مختلف المظاهر .

عمال الحكومة من أرقى الطبقات في الأمة لاستعدادهم الاستعداد الكافي قبل دخولهم في الخدمة وهم يتعلمون بالعمل في الدواوين أموراً مفيدة هذا اذا أرادوا تنمية عقولهم ومعلوماتهم . وواجب المستخدم أن يتعود التدقيق في محاسبة نفسه باحسان عمله قبل أن يحاسبه غيره والبطال الذي يحاول قتل الوقت يحس بوحشة اذا انقطع عما ألف . البطالة داء ما كان يوماً بما يرغب فيه عاقل ومن أجل ذلك نرى الشيوخ يخترعون لأنفسهم عملاً يسليهم وقد يكون أكثرهم ممن لا يطلب اليهم أن يجدوا فما بالك بواجب الشباب والكهول . ونحن كثيراً ما شهدنا من شوهوا سيرتهم بما كان يجب تنزيها عنه ان عاشوا يوم تنحيهم عيشة ضيق ووحشة وما قدروا بترك ما تنهأوا له أن يأتوا في انتقلهم مما ألفوه الى ما لم يألفوه الا الفشل وخيبة الأمل .



عن والامم

تغلب على الامم عادات وأخلاق لاسبيل الى نزعها بالهين لأنها ابنة قرون طويلة . فأمة تغلب عليها الرعونة والثروة وأخرى تملكها الرزانة والتزمت وغيرها تفرق في التبجح والتبجح ، ومنها ماخلق للنظام أو الفوضى ، وقد يشابه شعب شعباً في كثير من الخصائص خصوصاً اذا كانا متجاورين فالانكليزي يشبه الألماني من بعض الوجوه ، والصيني لا يشبه الفرنسي ، والطياني ليس كالهندي ، وقد تشبه الشعوب اللاتينية في بعض المظاهر الشعوب العربية . وسكان جمهوريات جنوبي أميركا وأهل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ورومانيا ينزعون الى التوسع في كلامهم وتآليفهم وخطبهم ومناقشاتهم بخلاف الأمم الإنكلسكسونية فانها تحب اليجاد في أحاديثها وإجاثها وخطبها ومحاكمها ومجالسها وتتوخى الابتعاد عن القلقة والتزيد في الجملة .

ثبت ان أبناء فرنسا أكثر طلاقة في السنتهم من أبناء انكلترا ، والانكليزي اقرب الى الصمت وإطالة التفكير من الفرنسي وغرام هذا ببلاغته وبلاغته تقتضيه تقلب تراكيب الكلام وتلون الجمل بالوان مغرية . والزبدة في كلام الانكليزي وكنايته أكثر حجماً وأثقل وزناً . الفرنسي خفيف الوزن مأخوذ لعواطفه والانكليزي رصين يسير مع عقله على الاغلب . والفرنسي يتكلم كثيراً ويفعل قليلاً ، والانكليزي يتكلم قليلاً ويفعل كثيراً وهذه الأحكام تكاد تكون من المجمع عليه بلغت حد التواتر ويعرفها من خبر أخلاق الأمتين .

يقول هايزارت البلجيكي في كتابه (باكورة في علم الاجتماع) الأخلاق امر نفسي طبيعي تولد مع الانسان . ويمكن تقسيم البشر الى طبقتين عظيمتين ظاهرة وقابعة فمساكن الشمال يملون الى الحياة اليتيمة يقعون في

بيوتهم وسكان الجنوب يرتاحون الى الخروج والظهور . وفي الفرنسيين جفاء ولا ثبات عندهم وهم على جانب من الذكاء وطبايعهم جافة وصدورهم ضيقة وفيهم فصاحة وزهو ويؤكدون ان قلوبهم عن شمائلهم وحافضة نقودهم على أيامهم . والالمان اقوياء واصحاب امانة مولعون بالعمل ويجرون على قواعد لهم ، يحبون النظام وفيهم غطرسة تتجلى في معاملتهم الضعاف وفي مبالغتهم بمرعاة الأقوياء ، ويعرف افراطهم باكرامهم صاحب القوة ، يحبون الاحتكار وهم مفنون يميلون الى الحُصام ويروغون اذا لم تكن لهم قوة ، ويبدون للأعين كأنهم قساة ونفوسهم عارية من الرحمة وهم يدققون في هندستهم وفيهم عاطفة وعندهم شعور وحساسية . وامزجة الانكليز بلغمية ويقل الذكاء فيهم وهم رجال عمل يحسنون الارتجال والابتداء وهم حذرون وبعيدو النظر وهم يميلون الى المذهب الانكليكاني وهوام بالفردية . والروسي كسول محتال خبيث وفيه ما تقرأه في سحنات الصقالبه من الرقة .

قال واذا تطفنا في الوصف نعت الفرنسي بالبراعة في فن الطبخ والانكليزي بحذق الميكانيكيات والايطالي الغناء والضرب على الماندولين . وقد ذهب شعوب بالزعامة وآخرون بالحرية ومال بعضهم الى العبودية . ومن هذه الاحكام ما يؤخذ منه وي طرح ، وما يطرح منه كثير لأنه بني على تأثيرات غير ثابتة صدرت عن سياح ما كانوا يترشون كثيراً في احكامهم يحكون ما يحكون مأخوذين بأوهامهم .

وقال تشرشل اعظم ساسة الانكليز في كتابه الأخير (جريدة سياسية) : « كثير من الامم ومنهم امتنا (الانكليز) تميل الى اعتبار فرنسا أمة متعاطية متحمسة خفيفة تابعة لهواها ، وما الفرنسيين في الواقع الا امة صلبة معتدلة لا تأخذها العاطفة تجمع الى النباهة شدة من بين امم العالم » وبين قول العالم البلجيكي والعالم السياسي في وصف الفرنسيين وبين ما تعارفه الناس عنها تبين ظاهر مستغرب . ونظر السياسي على كل حال غير نظر العالم . وانا اذا حكمنا بما حكم به العالم البلجيكي على من ذكرهم من الشعوب

نظلمهم ولو قال ان بعض افرادهم على هذه الاخلاق لكان قولاً عادلاً ،
 اما من يزعم انها اخلاق الامة كلها او الاخلاق الغالبة على سوادها الاعظم
 فتعنت وتعمف . واي غمط لحقهم اعظم من ان يدعي المؤلف ان الفرنسيين
 يحسنون الطبخ متناسياً ما لهم من الايدي البيضاء في الآداب والفنون ، واي
 ظلم اعظم من ان يدعي ان الابطالي لا يعرف الا الغناء والموسيقى ونسي
 النهضة التي قامت في القرون الوسطى في بلاده وكانت الداعي الاكبر
 في ادخال الحضارة على الشعوب الاوربية كافة ، اصف الى هذا ان الطليان
 هم الذين نشروا النصرانية في اوربا وانقذوها من الوثنية وهذا من مزاياهم .
 وهكذا يقال في حكمه على الانكليز والروس واسكل قوم ميزاته وخصائصه .
 ولكل شعب عيوبه ونقائصه .

وضع السيد جمال الدين الافغاني الانكليز والعرب موضع التنظير فقال :
 الانكليزي قليل الذكاء عظيم الثبات كثير الطمع والجشع ، صبور متكبر ،
 والعربي او الشرقي كثير الذكاء عديم الثبات قنوع جزوع قليل الصبر
 متواضع . يثبت الانكليزي حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله او باشره ،
 والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلب حقه فيصل الاول الى خير
 النتائج بفضيلة الثبات ويخسر الثاني كل حق برذيلة التلون وعدم الصبر .
 وهذا القول حق في مجموعه ولعله ما خلا من شيء من الغلو في الحكم
 على الامتين العظيمتين .

ونرى ان الحكم على العرب في القرن الماضي والحكم عليهم في هذا
 القرن يختلف كثيراً لأن العرب تبدلت عقليتهم باقبالهم على التعلم والأخذ
 من المدنية الحديثة .

تمويه الحقائق

قرأت في مجلة لاروس فصلاً عتّن له كاتبه (العالم العربي) جاء فيه حقائق تخللتها تمويهات . تخيل الكاتب أن العالم العربي عبارة عن مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته السطحية ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه أربعون مليوناً . وبذلك أخرج من المجموعة العربية سكان الامارات العربية المنبثة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي ، ويسكنها بضعة ملايين من الأنفس كما أخرج خمسة أقطار عربية في شمالي افريقية (بركة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ولا ينقص سكانها عن خمسة وعشرين مليوناً . دع بضعة ملايين من السودانيين في افريقية ثبت أن أصولهم عربية ويتكلمون العربية أي أن السياسة أوحّت الى كاتب المقالة ألا يعترف بعربية أكثر من أربعين مليوناً ، فانظر كيف يكتبون أهم كتبهم ، واندب حظ العربي فيها اذا دعت مناسبة الى الكلام عنه وعن ماضيه وحاضره .

ومن تمويه هذا الكاتب أن نصارى لبنان وسورية هم الذين بعثوا النهضة العربية من مرقدتها ثم تولت مصر كبرها ، وهي نعمة طالما رددتها بعض جهة اللبنانيين منذ زعموا أن لبنان سبق الى التمدن وأنه هو الذي مدن مصر وعلمها مع ان مصر تقدمت لبنان الى العلم بنحو جيلين . والدليل ان مدارس الطب واللغات والترجمة والادارة والصنائع والهندسة في مصر أنشئت قبل تأسيس الجامعتين الاميركية واليسوعية في بيروت باكثر من خمسين سنة . وما كان في لبنان ولا في سورية وفلسطين قبل ان تنهض مصر من يقيم للعلوم المادية وزناً . وبينما كانت كتب الطب والزراعة والحيوان والنبات والكيمياء والفنون الحربية والتاريخ والجغرافيا تتناقلها ايدي العالم العربي وهي من تعريب المصريين الذين تعلموا في اوربا على عهد حكومة

محمد علي الكبير كان ابن لبنان لم يصل الى اكثر من السواعة كتاب صلواته .
ومن اشبع السخافات دعوى احد اساتذة السوربون مؤخراً في جريدة
(لنوفيل لبتير) الفرنسية ان البوبر هم اصحاب المدينة في شمالي افريقية
والاندلس ، وما العرب الفاتحون الا شراذم من السلبة والمشردين تعلموا في
طريقهم الى فتح المغرب بعض ما عند اهلهم كما تعلم ابناء جنسهم في فتح فارس
اشياء من الفرس اعانتهم على تأسيس مملكتهم الجديدة . فقامت المدينة
الاندلسية والافريقية بفضل البوبر فقط . ومن العجيب ان من يزعمون لهم هذا
الفضل في التمدن لم تعهد لهم مدينة قبل الاسلام في شمالي افريقية ولا شيء
من بقايا حضارة بعد سقوط دولة العرب في الاندلس وسقوط دول المغرب
الاقصى والادنى .

كذب مفضوح لا يليق صدور مثله ممن يحمل اسم استاذ من اعظم
جامعات العالم . ولذلك نرى من واجبتنا ان ندعو كل عربي الى الشك في
اكثر ما يصدر عن كتاب فرنسا من الاحكام على الاسلام ذلك لانه تحقق ان
اكثر الفرنسيين لا ينظرون الى الاسلام والمسلمين الا بمنظار الاستعمار .



الدرر الكريمة

ولا اعنى بها الدرر المتعارفة التي تتخذ للزينة وهي من قنّيات اهل السعة خاصة ، بل اقصد الدرر الثمينة التي لا يظهر امثالها من الرجال في الحقب الطويلة . ومن عرفت في دولة الترك من هذا الطراز البارع رجلا ن عظيمان (وقد اشرت في مكان آخر الى بعض عظمائهم) احدهما فاق اقرانه في الأدب والسياسة والثاني في المالية والاقتصاد ، عنيت العالمين الكاتبين الخطيبين المبدعين علي كمال بك وجاويد بك .

كان الاول صديقاً لي تعاشرنا في القاهرة وباريز والاساتنة اشهرآ وتعرفت الى الثاني في استانبول على عهد الاتحاديين وكان يعدّ من كبارهم ، ولكل منهما مزايا عظيمة لبس لاحد مطمع في مثلها الا اذا كان ممن خلق للعظمة وخص بالعبقريّة .

قرأت كثيراً مما كتبه علي كمال في جريدة بياض بياض وغيرها من الجرائد والمجلات ، وكان يحسن العربية اخذها عن احد أئمة اللغة في حلب (راجع ما كتبناه من اخباره في ص ١٤٦ من الجزء الاول من المذكرات) . وحدثني بعض تلاميذه في جامعة الاساتنة انه كان في درسه التاريخ العثماني يورد على مسامعهم من اخبار ادوار الانحطاط ما يبكي منه ويبكيهم ، وممراته تربية ملكاتهم وتقوية روح الوطنية فيهم .

اما الثاني فقد قرأت اكثر كتبه في المالية وبعض ما كان ينشره من اجاباته وتحقيقاته الاقتصادية في المجلات التركية وسمعت في مجلس النواب ، وكان وزير المالية العثمانية ، يخطب في الموازنة فما سمعت بالتركية نغمة ارق من نعمته ولا بياناً امتع من بيانه - اللهم الا صديقي الاستاذ لطفي فكري بك شيخ المعارضين في المجلس يومئذ - ما تلعم ولا توقف وكان امامه وثائق وكتب ربما كان ينوي الرجوع اليها اثناء كلامه ، فيلا والله ما لقي عليها

نظرة وانكفاً يحطّب من عفو القريحة اكثر من ساعتين خلتها دقائق لكثرة ما اخذ من قلبي ببلاغته وسعة علمه ، وكان خلال الكلام يلعب بسلسلة في يده على نحو ما يقطب لسانه بالعذب السائغ من الكلام .

هاتان الدورتان النادورتان قضى عليهما الكاليون بلا رحمة مزقوا الاول تمزيقاً يوم دخلوا الاستانة فاتحين ، وصلبوا الثاني صلباً ففجعت بها الامة التركية واسفت الامم المتمدنة عليها حتى ان احد كبار الانكليز قال لبعض ولاة الامر من الترك عند الحكم على جاويد بالقتل نحن مستعدون لان نستعير منكم هذا العظيم او نبتاعه ونؤدي فيه الثمن الغالي لما نتوقع من الاستفادة من علمه وتجاربه . وفي رواية أخرى انه قال ان صفقتنا ستكون رابحة اذا اخذناه منكم وليس في وجالنا من يدانية .

ذهب علي كمال وجاويد رحمهما الله فدية السياسة وكم قتل مثلها في كل امة بغياً وعدواناً دون فرق في نظر الطاغى المستبد ان يكون القتل مجرمات او بريئاً ، والمهم القضاء على النوابع ليذهبوا من طريق المتوسطين فلا يجدون اذا فقدوهم معارضاً فيما يبرمون وينقضون . وكان الكاليون كالاتحاديين في معاملة نبغائهم . وفي كل ثورة وعقبى كل حرب يقتل الغالب ماشاء الله ان يقتل بمن كانوا يعارضونه وينقدونه . رأينا من ذلك ما يشيب له الولدان في عصر الحضارة هذه وفي كل امة سلفت وخلفت .



نبؤة عاقل

قال لي صديقي البطريك العلامة الكسندروس طحان قبيل الحرب الاخيرة اني لآخشي اذا نشبت الحرب ان يكون الظفر للجنس الانكلوسكسوفي وهو ما أرجحه وتساءل ماذا يكون حال العالم مع اليهود وسلطانهم في الولايات المتحدة سلطانهم ، اذا تم هذا فتكون عقوبة الهبة يرسلها الله على البشر تأديباً لهم .

وها قد تمت هذه النبؤة بعد عشر سنين واليهود الصهيونيون لا يتحامون ايذاء العرب المسلمين منهم والمسيحيين ، وكان المشهور ان اميركا اقرب الدول الى العدل والاعتدال كما ظهر ذلك من استثمارها وسياستها العالمية فتبين انها عند تعارض مصلحتها مع مصلحة الغير تدوس كل حق حتى تصل الى مايربها .

آكل الهرام

حاز ارقى الدرجات في الماسونية واحرز القدرح المعلى في الرشوة والمصوصية ، يكتب ويخطب خادماً لافكار غيره وتابعاً لمن يعطيه ، وهو قليل التدبير في كل ماتولاه من الاعمال الخاصة والعامة ، وكان كل ماجناه كالماء يجري الى قنطرة يدخل من جهة ويخرج من أخرى . رأى مرة ان المصريين لا يجسنون المقامرة وادعى انهم وان كانوا اغنياء فهم اغبياء ، فشد الرحال الى مصر يلعب ابناء حرقته فغلبوه شر غلبة وما خلص منهم الا بان دفع لهم المدّخر والمنتظر على أصول المقامرين . وبدا له ان يشتغل بالزراعة ، وقد انهكه المرض وذرف على الثمانين ، وماسبتي له ان تعاطها . فابتاع

ارضاً واسعة قليلة الماء خيثة التربة واراد ان يعمرها بمعرفته لاي معرفة العارفين
فماهي الاسنة او ستان حتى غدا ما ابتاعه بمئة قرش يساوي خمسة قروش .
يعمل ارباب الاعمال ان السبب في اخفاق هذا العجوز جهله صناعة
لايحسنها والزراعة يستلزم تعلمها زمناً فكيف له وهو في أخريات ايامه غير
صحيح الحواس . ويقول ارباب الدين لما كان جميع ماله حراماً قضى الله
عليه الا يخرج من الدنيا حتى يخرج عن جميع ما جناه ، شأن كل من جوزوا
لانفسهم كل مال وما فرقوا بين الحرام والحلال .

طرب المدارس

دخل في العهد الاخير طلاب المدارس الثانوية والعالية في مصر والشام
والعراق في طور ما كان لهم ان يدخلوه لو انتظمت السياسة وعقلت الحكومات
فسارت على بصيرة كل حين . اخذوا يتدخلون في الامور السياسية ومنهم
من كان يخدم سياسة بعض الاحزاب وينتقدون الحكم بحسب ما توجه
اليهم عقولهم النضرة ، وهم على صواب اكثر الاحيان في انكارهم ما ينكرون ،
ومنهم من تهيجهم دواعي الوطنية فيتقدمون لقتل من يعتقدون فيهم العبث
بمصلحة امتهم او التساهل بوضع ايديهم في يد عدو وطنهم ، ينظمون لذلك
جمعيات سرية وجهرية ، ومنها ما ظهر الخير على يده ومنها ما كان المقصد
منه الظهور او غايات شخصية ألبست قالب العموميات .

وكان هؤلاء الأبناء البررة اقاموا أنفسهم رقباء على الحكومات يردونها
الى السداد بما يرون فيه الخير لوطنهم ، ويفادون ضروب المفاداة فلا يتأخرون
عن اهراق دمائهم عند الاقتضاء في سبيل مصلحة الجماعة ، وهو مما لم يعهد
قبل ان ينبعث نور العلم الحديث من المدارس ولا يزال في ازدياد كلما
كثر عدد هؤلاء الطلاب .

وكان التلاميذ قسموا اوقاتهم شطرين خصوا الشطر الاول بتحصيل

ما تيسر لهم من العلم والآخر وقفوه على عمليات قرؤا نظرياتها في الكتب .
ظاهرة جديدة اهم مانشأ منها ان الحكومات غدت تحسب للناشئة حساباً
في المسائل السياسية ، والناطقة اخذت تغذي المجالس النيابية وتسوقها الى
القيام بواجبها كلما شاهدوها الى جانب القصور وتحمسوا لدعوتهم وعدوا
عقيدتهم السياسية هي المعول عليها دون غيرها .

وما كان للحكومات ان تصم آذانها عن نقد من ليسوا من عيار
الطلبة في الغيرة والادراك ، ولا عار على حكومة ان تماشى ابناءها فيما
يحفظ عليها ساطعها ولا يخل بانسجام النظام اذا نزلت على رغائبهم في الامور
المعقولة وعلى ما يؤمون به احياناً من قلة التجربة ، فهم ابناءؤها من اصلاها ،
وزينة ارضها ومعقد رجائها وخلفاؤها من بعدها ، وقد يستفيد الاب من
ابنه احياناً اذا تعلم وتهذب اكثر منه .

قيض الله بعض نجباء الابناء يدعون للخير ويمهدون الطريق لمن عانوا
سياسة الأمة ، ولو قد ترك النواب وشأنهم مع الحكومات التي تتألف من
احزاب ، الله اعلم كيف اجتمعت ، لضعف امر الأمة . كل هذا من البدييات
ولكنه من الخطورة على جانب . فدخول التلاميذ في مسائل سياسية كبيرة
وصرف شطر من اوقاتهم الثمينة وهم في سن الدراسة يضع به قسط
عظيم من ثروة الأمة وثروة الأمة قائمة بالاكثار من تخريج اكبر عدد
مكن من ابناءها في العلوم .

وكننت اتنى ان يكون جميع النواب ، وبأيديهم اقدار الشعوب ،
على كفاءة تامة لا يحتاجون معها الى من يدلمهم على طرق الخير وما توجهه
عليهم وظائفهم لينقطع الطلاب الى ما يجب عليهم العناية به قبل كل شيء
لا ينظرون في غير دروسهم حتى الزمن الذي يغادرون فيه مقاعد مدارسهم ،
فاقتطاع وقت خص بعمل واشراك عمل آخر معه يورث الضعف في العملين ،
والمرء لم يخلق بقرينين ولا بقلبين . فمن الصعب الانصراف الى الدرس
والدخول قبل الأوان في ميدان السياسة ، ولا يتأتى التدرع بأمرين مهمين
دون ادخال الضيم على احدهما .

وقت الدراسة لا يشبه غيره من ادوار الحياة فهو لا يتكرر واذا فات لا يعود ، بل هو كثر مرصود اذا لم يكشف في سن مخصوصة يضع ، وشيء يلزم به المرء لا يقوم به له غيره ، فاذا استهان الشاب بهذه الشروط خسر وطنه وخسر اهله وخسر هو نفسه وكان حرياً ان يعد في جماعة انصاف المتعلمين وهؤلاء لا يصلحون للمواطن التي أعدوا لها .

الحسد على المنصب

يقول المؤرخ البرتقالي هر كولانوم ان في عقلية الشرقي نوعاً من الغرابة يصعب تحليلها ، أنه مع ما أوتيته من الذكاء والافدام والمقدرة ينقصه شيء من التعاون والالفة وعدم التحاسد على الوظيفة والمنصب اهـ . ولعل التحاسد على الوظيفة والمنصب من أقوى انواع الحسد ، لأن المنصب مدرجة الى كل شيء ، فيه ما تنبغيه الانفس من منافع ومظاهر ، وقديماً كان الامر والنهي من الذ الاعمال البشرية .

قامت ضجة في جوارنا ذات صباح بين اخوات وشقيق لهم فيما سمع من احدها من قولها لاختها ان اباك صلبه الاتراك وانت باق بلا وظيفة و (كرد علي) جارنا وصل الى الوزارة . هذا ما نقلته الي من سمعته ، وهو كلام السيدة لأختها بمعناه ، ومن روته ليست ممن يحسن تصنيع هذا الكلام . السيدة عيرت اخاها بان اباها صلب (في الحرب العالمية الاولى) . ألقصد شريف كان يرمي اليه ياترى ، ام اتى ماعده الترك خيانة وطنية فاوردوه حتفه ؟ وعند السيدة ان والدها لما صلب وجب على الحكومة الخالفة ان تكافيه اولاده بتوظيفهم ، ولا عليه اذا استدعى الاجنبي ليخلف التركي في حكم بلاده ، والعقل يقول ان الحياة واحدة سواء كانت للغريب او للقريب ، فالمصلوب خان الترك ولم يدع للعرب .

هذه اعمال اب يريد اولاده ان يستثمروا اسمه بعد هلاكه ، ولولا ان

اعتاد الناس السكوت عن مساويء موتاهم للملأوا بتعداد هذه المقابح الصحف والاندية . وكان المصلوب نال ممن خانهم ما لم يكذب يناله أحد من مواطنيه . كفر بكل هذا وحاول ان يحول وجهه وجهة أخرى ليعوض ما خسر من مال وجاه فكانت العاقبة مآراًئيم .

نعم يتحاسد الشرقيون على الوظيفة والمنصب تحاسداً يخرجون به على كل قانون . وقد يحاول أحدهم قتل أخيه آملاً ان يخلفه في مقعده ويضع يده على ثروته . اما الكذب على المحسود والتجسس عليه فهو من ايسر ما يرتكبه الحاسد الموتور ولا يبالي ، لان فيه تحقيق امانيه واشتفاء صدره بقتل اعاديه .

ضيق العقل يرتكب افظع ضروب الحيانة ويظن ان ما يجنيه اذا كان في سر لن يفضح ويعد من علائم سعادته انه احتال وتمت حيلته على من احتال عليه والله في خلقه شؤون .

التعايشية

التعايشي من امراء السودان اطلق احد ارباب الدعابة من الفقهاء اسمه على كل شيخ غايته من دنياه ان يأكل ويعيش ، وهو في سبيل الوصول الى مبتغاه يسجد لكل صاحب قوة يضمن له معاشه ، لا ينجل من ان يكون عبد من دامت سعادته ولا يعبأ بما يتطلبه منه قومه ووطنه من خير .

فالتعايشي اذاً هو طالب العيش لا يعنيه من العالم غيره ، ونقيض التعايشي قلائل في كل زمن وفي كل امة وفي كل نخلة ، وكلما كثر عددهم في قوم عزّ وبزّ ، ولنا ان نسمي نقيض التعايشي «الفريق المختار» من كان مناهم من دنياهم ان يؤثروا أثراً نافعاً وقد تلذهم المغامرات واقتحام المصاعب ان كان فيها ما يعود بفائدة علي المصلحة العامة .

يود كل العالم ان يعيشوا بهناء وتضمن لهم اسباب العيش السعيد ، وليس في حياة السواد الاعظم ما يقتخر به والفخر كل الفخر للاقلية النافعة . الاولى لا تذكر بامر ذى بال وعيشها الى البهيمية اقرب والثانية تذكر بحسب غناؤها ودرجتها في المحامد .

ومن الفريق الثاني كل من يتوخى نفع غيره ولو قليلاً . فمن يرفع صوته بانكار المظالم والانحاء على المضرين فهو نافع . ومن يبشر بفكرة خير منها بلغ من ضؤولته فهو نافع . ومن يدعو الى تهذيب الاخلاق وتعليم البنين والبنات فهو نافع ، ومن يجنب الى قومه تزيين كل فضيلة وتقييح كل رذيلة فهو نافع . ومن يكره البطالة للمتبطلين ، ويصفق للعاملين والمجتهدين ، وينوه بالمحسنين والمتصدقين فهو نافع . ومن يعلم مواطنيه حب النظام والبعد عن الفوضى ويحملهم على احترام القوانين فهو نافع . ومن يدل على كل ما في الحضارة من حسنات ويحذر بما حملت من سيئات فهو نافع الخ .

وارقى من هذه الطوائف في باب النفع من يحققون ما يعم الوطن أثره ، فمن يعمر طريقاً ويبني جسراً ويقم مستشفى وينشئ مدرسة ويؤلف كتاباً ويعلم جاهلاً ويرشد ضالاً ويأتي بجديد يستفيد منه المستفيدون فهو نافع . واعلى كعباً من اخترع آلة لتذرية الحبوب ، وآلة كاتبة سهلة الاستعمال ، ومن ابدع آلة حياكة وآلة نسج وآلة خياطة وآلة طباعة وكل ما يفيد في الصحة واللباس والمسكن والصناعات المختلفة ويقتصد من الوقت ويجلب الثروة .



اذا جهر الجهر

قامت مرة مظاهرات في عاصمة الجمهورية السورية وحواضرها حلب وحماة وحمص ودير الزور وغيرها اختلفت الآراء في الاسباب الداعية اليها . فمن قائل ان منشأها تطاحن الاحزاب ومن مدع ان لليد الغربية اصبعاً فيها والارجح ان الفوضى التي عمت اعمال الادارة لضعف تركيب الوزارة وعدم الالتفات الى شكاوى الجمهور والاسراف بامواله كانا العامل الاول في ذلك . فان معظم الوزراء لم يسبق لهم تولي مثل هذه المناصب ولا اقل منها ، وجاءت بهم الى الوزارات احزابهم وتساهل من ضمهم الى مالا يحسنون القيام به كانت المظاهرات تدار بأيدي طلاب المدارس العالية والثانوية فوق قتل وجرحى من الاهلين ومن الشرطة وما استقر الامن في نصابه الا باعلان الاحكام العرفية ، وقد اشترط الطلاب الا يعود للحكم احد ممن كانوا في الوزارة السابقة لانهم اثبتوا جهلهم وضعفهم وقلة أمانتهم وأنه ما كان لهم مأرب في غير الحرص على مصالحهم الشخصية .

ولما جاءوا يؤلفون الوزارة الجديدة قيل ان رجالنا قلائل وما هم في الواقع الا بنسبة من تعلموا منا فخطر بالبال وضع قائمة يرجع اليها في تأليف الوزارات وبعض من انتقيناهم يصلحون للرياسات وبعضهم للوزارات وهام الاساتذة والدكاترة .

ادمون حمصي . اسعد هارون . اسعد الكوراني . اكرم الحوراني . امين رويحة . حسن الحكيم . حسني سبح . حكمة الحكيم . حكمة الحراكي . حيدر مردم بك . خالد العظم . خليل مردم بك . رشدي الكيخية . سامي العظم . سعيد الزعيم . شفيق جبوري . عادل ارسلان . عارف النكدي . عبد الرحمن العظم . فاتر النصين . فتح الله اسيون . عزة الصقال . مصطفى برمدا . مصطفى الشهابي . مصطفى الكيلاني . ميخائيل لسان . ناظم القدسي . نعم انطاكي . وغيرهم من ليسوا الآن على خاطري ومعظمهم في الكهولة .

العداوات الموروثة

تتأصل في الشعوب عداوات يتوارثونها كما تتأصل في الأفراد ، وقد تتعادي الشعوب لأسباب جوهرية أو لأسباب يحكم العقل بتفاهتها ، فعداوة الاسبان للعرب من العداوات الجوهرية بالنسبة للاسبان ، وذلك لاستيلاء العرب عليهم نحو ثمانمائة سنة ، عادى المغلوبون الغالبين ، وان حمل هؤلاء اليهم المدنية ، وأدخلوهم في حجر الحضارة ، وأذاقوهم طعم العدل والرحمة ، ولكن من طبع المغلوب انكار حسنات غالبه .

وعداوة ذوي القربى من النوع الذي لا تزيله السنين مثل العداوة التي حدثت بين الاسبانين في حربهم المدنية الأخيرة من أجل نظام جمهوري أو نظام ملكي ، فهلك فيها من الفريقين مليون انسان واعتقل مائتا الف مجرم سياسي ، وخرب جزء عظيم من اسبانيا ، واختلت كل الاختلال صناعتها وزراعتها ، وحرم أهلها ضروريات الحياة . وأبان الاسبان عن وحشية عرفت عنهم مع أعدائهم ، واستغرب العارفون صدورها مع أهلهم وابنائهم ، وحشية قلما ظهر مثلها حتى في حروب البرتغاليات في فرنسا ، وكان الكاثوليكي ينقض على البرتغالي كالوحش الضاري يقتله فيقتل فيه شخصاً يخالفه في دينه ، أما الاسبان في حربهم الاهلية الأخيرة فاقتنلوا بلاميز فقد يكون اخوان احدهما يقاتل في صف والآخر يقاتل في الصف الذي يقابله من صفوف يعدها من أعدائه ، وافظع من هذا ، وهو بما دل على رقة قلوب الاسبانيات ، ان النساء كن اذا انتهت المعركة يتقدمن للرقص على جثث القتلى وقد يكون تحت ارجلهن اخوتهن او ابناء عمهن (راجع ما كتبناه في حروب العرب والاسبان في كتابنا الاسلام والحضارة العربية).

وكل من نظر نظرة خفيفة في معاملة الاسبان للعرب يوم أخرجهم من ديارهم يدرك أن ما بدا من عداوة الاسبان للعرب في تلك الكارثة

العظمى لا ينسأه العرب على الأيام . وحاول أحفاد اولئك السفاكين الظالمين من الاسبانيين أن يمحوا من تاريخهم لطفة هذه الوحشية فلم يفلحوا ، ومها نلطفوا حتى ينسى جيرانهم في المغرب ما لقوه من القسوة والجبروت يستحيل أن يوفقوا الى ذلك . وكانت حرب مراكش في الريف بين الاسبانيين والريفين من أعظم الخطوب التي حلت بالشعب الاسباني ، تلك الحروب التي أبانت عن ضعف اسبانيا في كل مقوماتها ، ولم ينقذها بما صارت اليه من الصغار الافرنسا ، أنجذتها باسطولها وجيشها وطياراتها فأنت لها الحرب وأعطتها جزءاً من الغرب الاقصى أي القسم المشهور بالريف ونصبت لها سلطاناً وعادت تبدل فيما قيل سياسة العنف بسياسة فيها قليل من اللين ، ولكن ما غرس في قلوب المراكشين من البغض لا تزيله الابتسامات المصنعة ولا الرقة المخادعة ، وما برحت حكومة اسبانيا تتقرب من العرب للتخفيف من تلك العداوة الموروثة وأقل ما يحدع به السياسيون الاسبانيون العرب أن يزعم بعض افرادهم أن جدهم كان مسلماً تنصر كرهاً وان عواطفه مع المسلمين الى آخر ما يتفهون به من هذيان .

وبعد فاذا قلنا ان عداوة الاسبان الكاثوليك العرب المسلمين طبيعة الحدوث فما القول في تعادي الكاثوليك والبرتستانات في كل مكان وداوة الروم مع الكاثوليك وداوة الهندوس مع المسلمين ، وكلها عداوات قديمة موروثة يبرأ الدين منها ولا تتعارف اليها الانسانية ، وما هي الاتعاد على امور الدنيا ، فما اسخف البشر حتى في عهد تحضره .

قلنا في غير موطن ان المسلمين لقوا الاياقي في كل زمن من الشعوب اللاتينية سواء في ذلك البرتقاليون والاسبانيون والطيان والفرنسيس . واذا اتفق ان نفس خناق المسلمين مع الشعوب الغربية بعض الشيء فذلك على عهد الانكليز السكسونيين ومنهم النورميون الذين خلفوا العرب في حكم جزيرة صقلية وكانت حكومتهم مثال الرفق بالمسلمين والتسامح مع احيائهم . غرس الغرب في قلوب الشرقيين عداوات يرمض النفوس ذكرها ،

ويدعو المسلمين الى عدم الاغترار بالابتسامات والمجاملات . والغربي اذا كان لايتراحم وابن جنسه وابن دينه فهو اولى الايتراحم وواحداً من بني الانسان . والشاعر العربي يقول :

لا اتقى حرك الضغائن بالرقي فعل الذليل ولو بقيت وحيداً
لكن اعد لها ضغائن مثلها حتى أداري بالحقود حقودا
كالخمر خير دوائها منها بها تشفي السقيم وتبوي المنجودا

داهية السياسة

لعل القاريء لاحظ من بعض فصول المذكرات ان علاقتي بالصديق السيد فارس الخوري دامت منذ اواخر العقد الثاني من العمر والى الآن صافية يغتبط كل منا بها ، وتمت تربيتنا على الايام ، يسير كل واحد منا في طريقه ، ويعمل على شاكلته . والذي كان يعجبني فيه انه كان يفسح المجال في صدره لكل ما يصل اليه من صنوف المعارف يأخذ منها ماوسعه أخذه ويتركه جانباً الى ان يبدو له استعماله وعندئذ ينصرف اليه مدة فيتبرز فيه فهو لم يتلق الفقه الاسلامي والقوانين المدنية عن اساتذة معتمدين واشتغل فيهما لنفسه مدة فعده بعد زمن قليل عمدة في هذا الباب . واحكم اللغة الانكليزية في صباه ثم شغل عنها بعض الشيء ولما ناب عن سورية في المؤتمرات الدولية تجسست فيه ملكة الخطابة بالانكليزية كما كانت تجتاز فيه ملكة الخطابة بالعربية قبل ان يتم دراسته الاولى .

ويعجبني في هذا الاخ انه كان عملياً في حياته هكذا كان في التدريس والنيابة والرياسات وفي الوزارات والمؤتمرات حتى عدت بحق رجل السياسة السورية ، وكانت حياته كحياة النوابع لا تتخلو من مرارة وحلاوة ، ولا اعرف سورياً خدم السياسة زمناً اطول من الزمن الذي خدمها به صاحبنا ماخلا الامير شكيب ارسلان ولا رجلاً اجمع اولياؤه واعدائه على الاعتراف بفضلهم ، واشترك في ذلك كل عربي .

درس الاستاذ لأول أمره في بعض المدارس الطائفية ثم عين ترجماناً في قنصلية انكلترا بدمشق وبدأ شوطه السياسي يوم انتخب مبعوثاً عن دمشق سنة ١٩١٤ وكان له في مجلس النواب العثماني مواقف محمودة الى ان انهزمه بالاشتراك في تنظيم ثورة المغفور له الملك حسين وأودع سجيناً منفرداً سبعة اشهر وخرج منه بريئاً ، واشترك في اعلان استقلال العرب وتنظيم المملكة الفيصلية السورية وكان فيها وزيراً للمالية مدة وجودها . وبعد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ تنحى العمل الحكومي وعاد الى مهنته في المحاماة والتدريس في معهد الحقوق بالجامعة السورية ووضع لدروسه مؤلفات قيمة . وناب عن دمشق في مجلس الاتحاد الذي أنشأه الفرنسيون سنة ١٩٢٢ ودخل وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٦ وانهم بمالأة الثورة السورية فاعتقل مع رفاقه الوطنيين وأرسل الى حسكة وأميون حيث بقي نحو سنتين في المعتقل بالاقامة الجبرية . وكان عميد الكتلة الوطنية منذ نشأتها سنة ١٩٢٨ (١) واختير عضواً في الوفد السوري للمفاوضة لعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٩٣٦ وانتخب نائباً عن دمشق ورئيساً لمجلس النواب طول مدة قيام هذا المجلس الى سنة ١٩٣٩ ومن سنة ١٩٤٣ الى هذا اليوم ما عدا سنة كان فيها رئيساً للوزارة السورية سنة ١٩٤٤ و ١٩٤٥ . وكان رئيساً للوفد السوري في مؤتمر القاهرة لاقرار تأسيس جامعة الدول العربية وفي مؤتمر سان فرانسيسكو ومؤتمر لندن وسائر دورات منظمة الامم المتحدة منذ نشأتها وعضواً في مجلس الأمن في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورئيساً لهذا المجلس مرتين ورئيساً في احدى لجان الهيئة العامة في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ وانتخب عضواً في ندوة وضع الشرع الدولي .

(١) كان الاستاذ مع الكتلة حتى سقوط بقاياها سنة ١٩٤٩ ولطالما أكد أن بعض المتطرفين من رجال الكتلة ما كانوا يستمعون له وقال ان تعديل الدستور ما كان عن رأيه وان كان في الدستور الاول بعض النقص لانه وضع على عهد الانتداب والقلاء على كل حال يلومونه لماشاة جماعته سنين طويلة وكان يمكنه بما خسر به من علم وبيان أن يدهم على طريق الخير ويصح لهم أغلاطهم الفاحشة وربما ادعى أن الأكثرية كانت تتغلب عليه والله أعلم .

هو عضو في المجمع العلمي العربي منذ تأسيسه وعضو في أكاديمية العلوم السياسية في جامعة كولومبيا ودكتور في السياسة الخارجية من جامعة كاليفورنيا الجنوبية . وتخرج على يده عدد كبير في الحقوق وهم اليوم يشغلون أهم المناصب من محامين وقضاة وقوام مقام ومحافظين ووزراء ونواب . وله في العمل الاقتصادي مشروعان عظيمان هما مشروع ماء الفيحة الذي أنقذه من المستثمرين الأجانب ووضع له نظامه الحالي بأسلوب مبتكر اقتبس عنه كثيرون في أقطار الشرق . ومشروع الاسمنت الذي هو أول نجاح أحرزه الاسلوب التعاوني وأصبح النظام الذي وضعه مرجعاً للشركات التي نشأت بعد ذلك .

وفي الميدان السياسي أحرز نجاحاً عظيماً في سان فرانسيسكو بنيل صك استقلال سورية ثم نفذ الى لندن امام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ باحراز قرار جلاء القوى الاجنبية عن البلاد ، وله في منظمة الامم المتحدة وفي مجلس الامن مواقف في الاشتراك بالمناقشات في الموضوعات المعروضة على هذه المنظمة العظيمة خصوصاً قضايا البلاد العربية والاسلامية ومنها قضية مصر وقضية فلسطين وقد أبلى في ذلك بلاء حسناً .

القوى الضائعة

كنت منذ وعيت اذا نظرت الى انسان او حيوان او جماد لا ينتفع به حق الانتفاع أعدده قوة ضائعة فاذا رأيت شاباً ذكياً او فتاة نبيلة لم يعلمها اهلها أعددها قوة ضائعة . واذا أحسست بوجود عشرة رجال متاثلين في التربية والمنزلة لا يفكرون بما يعود على الناس من مثل تأليف جمعية لتعليم اليتامى والفقراء وابواء العاجزين والعاجزات وتأسيس شركة صناعية او تجارية او زراعية يجمعون بها القوى المشتتة أعدهم قوة ضائعة .

واتحسر اذا نظرت عيني ارضاً بوراً في وسع صاحبها او اصحابها تجويد حرثها وكرثها وزرعها وغرسها . واعضب اذا وقعت على بضعة افدنة بذل صاحبها جهده في تعيدها فأتته بأطيب الثمرات والى جوارها مئة فدان معطلة لاتغل ماتغله العشرة الافدنة العامرة . واغناظ اذا نظرت الى نهر يجري في طريق غير صالحه فيؤلف في مجراه مستنقعات تضر بصحة النازلين حفافيه ، ويحرمهم الانتفاع بمياهه في سقيا حقولهم ، وأنألم عندما ارى بناءً متداعياً لونقض وجدد لأتى بخمسة اضعاف ريعه . واقهر اذا مررت بغابة جارت عليها اسنان الماعز وفؤوس الخطابين وما حرسست حراسة دقيقة ولا خدمت خدمة فنية لتصبح مورداً للسكان وزينة الآكام والقيعان .

والحال كذلك اذا رأيت عالماً او أديباً لا يفيد قوميه بعلمه وادبه ، لا يدرس ولا يؤلف ولا يخطب ولا يحاضر ، واذا عهدت صاحب صنعة لا يستثمر مواهبه اقول قوة مهملة وجودها وعدمها سواء . واذا عرفت موظفاً أميناً أحيل على التقاعد (المعاش) لبلوغه السن القانونية وفي مقدوره الدوام على الخدمة ، والدولة تظهر الاستغناء عنه آسف لهذه القوة الضائعة . وهكذا كلما نظرت العين قوة من قوى الأرض ومن عليها لاتستثمر الاستثمار الواجب اندب حظ العالم وأقول في نفسي لو استغلت كل القوى حق

الاستغلال لعمّ الاتقان كل شُعَب الحياة ولما جاع احد من بني الانسان يبيع القانون الانكليزي تأجير الأرض تسعاً وتسعين سنة ولا يورث قانونها الا بكر الأولاد . وذلك لتعمر الأرض ولا تبدد الثروة . فماضنا لو أخذنا من هذين القانونين ما وسعنا أخذه وضررنا عن بعض قوانيننا صفحاً كقانون الوقف الذي لا يبيع ايجار الأرض الا ثلاث سنين ، أو يعمل المؤجر والمستأجر حيلة شرعية حتى يزيدا مدة الايجار شيئاً قليلاً وهناك مذهب من مذاهب اهل السنة يبيع ايجار الملك تسعين سنة ولكنهم لا يعملون به . علينا ان نعمل على الرجاء وطول الأمل لا على اليأس وإهمال العمل .

المسألة الاجتماعية

يقول صاحب سر تقدم الانكليز السكسونيين : (ليست المسألة الاجتماعية عبارة عن مساعدة الافراد كما ان الحياة لا تقوم بكثرة تناول العقاقير والادوية ، اذ ليس الاسعاف او العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية ، والحكمة فيما يؤدي الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية الا جعل الافراد بحيث لا يستغني كل فرد منهم عن ان يقوم بأمر نفسه وان يرتقي بجده وعمله ، لان سلامة الاجتماع كالسلامة الاخرية تقوم بكل واحد على حدته وعلى كل فرد ان يسعى اليها ، وقولي هذا لا يروق الذين اتخذوا السياسة حرفة وهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الأمة وضعف مدارك الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائماً على حالة يشبهون فيها القاصرين حتى يتيسر لهم ان يكونوا عليهم أوصياء) .

نعم يتيسر حل المسألة الاجتماعية بتنشئة ابناء الامة على حب الاستقلال في الحياة لا على الاتكال على الحكومات وجمعيات البر او اسخياء القوم . دب داء الكسل في نفوس العرب الا قليلاً فكان قسارى كل متعلم ومتعلمة ان يترك ابواب الحكومات للاستخدام . ولو قد هيء لهم ان ينزعوا الى

الاستقلال في تحصيل عيشهم لكان وبجهم أضمن وحياتهم أرغد ولتمتعوا بحريتهم ،
والحرية لا توازيها لذة من الاذائد ولا نعمة من النعم . في اليوم الذي
يتعلم فيه ابن الزارع وابن التاجر وابن الصانع ما ترقى به صناعة أبيه
ويظل الزارع على زراعته والتاجر مشغولاً بتجارته والصانع مأخوذاً بصناعته
لا يتعدونها الى غيرها نعد من الراقين في مجموعة الشعوب . ومن أخرجه
على الاغلب من صناعة أهله فكأنك نقلته من القطب الجنوبي الى القطب
الشمالي فجأة .

رأيت كثيرين في مصر والشام عزفت انفسهم عن الاستخدام وراحوا
يعتمدون في عيشهم على قطعة من الأرض تقننوا في تعدها ، فأنتهم بما
عاشوا به في هناء ، وخلصوا من عبودية الاستخدام ، وضيق الرزق المحدود
الجامد . وتحدثت الى عشرات منهم فشهدتهم جددوا طرق استثمار ما يملكون
فكثروا ريعه كثرة فاقت المأمول . سقياً ورعياً ليوم تضطر فيه الحكومات
العربية الى عرض الوظائف ولا تجد راعياً فيها كما وقع في فرنسا في
بعض الادوار ، انصرف الاذكاء الى الاعمال الحرة في الشركات وغيرها
وابتعدوا عما فيه رائحة الرق في دواوين الدولة فاغتنى المستقلون وافقر
الاتكاليون . قد يعذر الاتكالي في بلد ضيق الرقعة محل التربة اذا زج
بنفسه في الحدم المقيدة اما اذا كانت الثروة ماثلة للعيان امامه لا تحتاج
الا ان يتعب نفسه قليلاً ليعيش ويحصب فلا عذر له .

قال لي احد اعيان المصريين من رجال المال والاعمال ان والدي
خلف لي في قرينتنا افدنة قليلة فما زلت اعمل مدة اربعين سنة في زراعتها
حتى اتى علي زمن أصبحت أملك ألوفاً من الافدنة . وتعجبون اذا قلت
لكم اني ما طلعت علي الشمس خلال تلك الأيام الا وانا في (الغيط) على
رأس عملي وفيه افطر واتعدى وقد اتعشى . وكان ابي يمنحني كل سنة
اجازة شهر ويدفع اليّ قائمة بما يجب ان نبتاعه من البنادر والحواضر
فكنت اصرف اجازتي في تسوق ما يلزمنا من متاع وادوات واعود الى
عزيتي لم استفد من اجازتي الا اقتناء ما كان لازماً لزراعتنا وبيتنا .

وباطل ان اقول ان هذا الصدر العظيم لو نشأ مستخدماً حكومياً وغفل عن تعهد زراعته بنفسه لكان اليوم افلس من المزلق .

رأيت في القطرين اناساً من أرباب المداير يتخلون عن ادارة مزارعهم بأنفسهم ليأتوا الحواضر للاستمتاع والاستجمام ، ينفقون ضعف دخلهم ويضيعون جانباً من غلاتهم يتركونها للوكيل والحوالي ، وغاية امانهم ان تسجل اسمائهم في سجلات الحكومة ، وفي مصر في جريدة الرتب والنياشين والتشريفات ، وأكثر المصريين جنوناً في الظهور من ينفقون العشرة والعشرين الف جنيه ليصلوا الى النواب او الشيوخ او يحجزوا لقب باشا اوبك .

أقل نظرة من صاحب الرزق يلقيها على أرضه وشغله تأتبه باضعاف ما يأتبه العمل الحكومي . لي صديق من أعيان الشرقية غادرته وهو لا يملك أكثر من خمسين فداناً وهي مرهونة في المصارف ورجعت عليه بعد سبع وثلاثين سنة وهو يملك خمسمائة فدان قطعة واحدة من أجود الأطيان ، فسألته عن سر غناه فقال مسألتان الاولى اني كنت اذا استدنت من بعض المصارف مالاً لا بابتاع أرض او تحسين زراعة أدفع التقاسيط المستحقة في مواعيدها ، الثانية اني كنت كل يوم اطوف على زراعتي ثلاث مرات ولا أتكمل على عامل ولا أجير ، وهذا سر نجاحي .

ليست جميع الثروات الضخمة التي نشاهدها في مصر والشام وتعجبنا كثرتها هي كلها ابنة المصادفات بل هي وليدة الجد والكد على الأغلب ترا كمت في السنين الطويلة ونسج فيها الابن على منوال ابيه بتسلسل واطراد وكانت صاحبها على جانب من الدمائه والثقافة ، تعرفت الى عشرات من الاغنياء الاستقلاليين فلم أستغرب ما وصلوا اليه ورأيت من فريق الاتكاليين عشرات جعلوا اجل اعتمادهم على غيرهم فأصيبوا بالفقر والحرمان وخلفوا لأولادهم الفاقة والبؤس . وان قليلاً من التفكير يصرفه الرجل في تنمية حقله ومعهل يعود عليه بارباح قد لا يقدر مقدارها الا بعد ظهور نتائجها ، وكل حركة في طلب العيش لا بد أن تعقب ببركة .

سويسرا المحبوبة

ليس في الممالك الكبرى والصغرى في الغرب بلد محبب الى القلوب كسويسرا (هلفسيا) اتفقت كلمة من زاروها من الشرقيين والغربيين على انها من خير بقاع الارض ، مانزلها غريب الا ودّ لو صرف فيها بقية حياته اورجا ان تطول مدة مقامه فيها وكثيراً ماوصى بعضهم ان يدفن فيها .
ماهو سر هذه المحبة وفي الارض اصقاع جميلة فيها مالسويسرا من ذلك ؟
فيها مصايف ومشات ، وفيها رفاهية ونعيم ، وفيها هدوء وسكون ، وفيها غابات وبحيرات ، فيها كل هذا واكثر من هذا ولكن ليس لها طيب اخلاق السويسريين . ومن اجل ذلك تعشق أرضهم أجيال الناس (راجع فصلاً لنا في سويسرا نشرت في كتابنا غرائب الغرب)

هناك جمهورية ولا كالجهوريات جمهورية كالسيفساء في الرقعة البديعة ، وهناك ديمقراطية ولا كالديمقراطيات ، نشأ ابناءؤها منذ قرون على حبها وفداؤها بأرواحهم وما حادوا عن قوانينها قيد شعرة . هناك شعب شريف ايسر ما يوصف به انه زبدة صفات ممتازة ، لا يعرف الفش ، ولا يدخل في الفضول ، ولا يرتكب جريمة الكذب ، وهناك مجموع بيوت نبيلة تمقت الحرب لاتجيز قتل احد ، ولا ترى المجد والعظمة الا في اجراء العدل والاعتراف بالحق ، والظهور بظهور المروءة والكرامة .

السويسري سعيد في بلده يشعر بهذه السعادة ، ويحمد المولى عليها ويطلب اليه دوامها ، سعيد لانه يعمل ولا يكسل ، وماحدثه نفسه ان يعتدي حتى لا يعتدى عليه ولا ان يستعمر ارضاً ليست له ، ولا أن يطيل يده بالاعتداء على ملك غيره ، يسير على الفطرة ويألف السداجة وحضارته سهلة لاتعقيد فيها ، اذا حاولت ايجاد مثلها أعينك الحيل لانها من جنس الحضارات التي رقيت مع الزمن لم تتجمل ارنجالاً ولم تنقل عن الغير نقلاً . والعلم فيها موفور مبدول تفيض منه

على جيرانها وعلى كل طالب يقصدها لياخذ عنها ، وفيها سبع جامعات لاربعة ملايين من الانفس ينزلون في ارض مساحتها (٤١٣٤٦) كيلو متراً ومعظمها جبال وبحيرات ، وهذا لم يعهد في ارض غير ارضها . ولما كانت تربية السويسرى المثل الاعلى اعتمدت بعض الشعوب في تنشئة ابنائها على مدارس سويسرا كما اتخذت بعض ملوك اوربا منذ اقدم العصور من هؤلاء السويسريين حراساً لهم وجنداً مأجوراً لان السويسري صادق العهد لايخون .

تخبط بسويسرا اربع دول كبرى (النمسا والمانيا وفرنسا وايطاليا) وكلها دول حربية لاتكاد تنظفء جذوة حروبها ، ومع هذا تحسن سويسرا جوارهن احسانها لقاصديها ونازليها ذلك لأنها تنظر الى الحلقى نظراً واحداً فيه حرمة وفيه عطف ولا زهو فيه ولا عتو .

ألسنا على حق اذا ادعينا أن ما وزع من الفضائل على أهل دولة كبرى كفرنسا او المانيا او انكلترا او الولايات المتحدة قد استأثرت سويسرا وحدها بما يوازيه او يزيد عليه مع مراعاة النسبة هذا على ضيق رقعتها وقلة اهلها . فسويسرا مثال أمة تحب الحق وتدعو اليه وفيها من مظاهر الرحمة قسط كبير على ما يتجلى ذلك في تاريخها المجيد . مثالان من رحمة أهلها . حدث في القرون الوسطى ان هجم قائد نمساوي على الأرض السويسرية في جيش ضخم ، وكان هناك جسر على احدى البحيرات لا مناص من اجتياز الجند النمساوي عليه واتفق أن وقع ضغط شديد على الجسر فسقط بمن عليه من عسكر فما كان من السويسريين الا أن تركوا القتال وأخذوا ينقذون أعداءهم من الفرق والسهام تصوب الى صدورهم فدهش القائد النمساوي لهذه الشفقة التي بدت من عدوه ورجع عنهم وقد اعطاهم كل ما سألوه . ووقعة اخرى جرت في الحرب العالمية الأولى وقد اصبحت سويسرا معتصماً لأمم كثيرة حتى غدا عدد اللاجئين اليها والنازليين فيها مليون غريب وانتطعت المواصلات مع كل بلد فغز جلب المال وجلب الذخيرة ، وكانت السويسريون في الحرب يستجدون الخنطة من الممالك المجاورة استجداء وهي تطعم منه هذه

المليون من الأنفس وتعطيهم رواتب تكفيهم ، وتؤويهم كأنهم في بيوتهم وبين أهلهم ، وأرجأت حنائاً منها تسديد هذه المبالغ الضخمة التي تنفقها على الأجانب الى ما بعد الحرب .

حرية سويسرا مستفيضة على كل من يعتصم بها لا عبث فيها ولا لغو لذلك وجدت البروتستانتية الأولى معتصماً فيها وكانت للمذاهب السياسية المختلفة حى منيعاً . يكثر الضجيج في انتخاب مجلس كل أمة ويسفر عن انتشار روح العداوة بين الأهل والعشير ، وسويسرا المتزنة في اقوالها وافعالها لا عهد لها بهذا ، لا تعرف الا السلام حتى صبح ان تدعى جمهوريتها جمهورية السلام .

صناعة الفنادق

أويت الى فنادق وأنزال في الشرق والغرب منها ما كان من الدرجة الأولى ومنها ما يعد من الدرجة الثانية او الثالثة فرأيتها كلها تسير على نظام بديع فيها من اسباب الراحة كل ما فيه متاع للجسم والروح . ومن كث يظن ان أرقى ما عندنا من الفنادق اذا قيس بما عند الاميركيين منها يعد عادياً . تعرفت في دمشق الى مدير شركة كوك للسياسة فسألته عما اذا كان يصحب سياحاً فقال : نعم سبعة اميركي . فقلت له : وأين هم الآن ؟ فقال خرجوا الى البر من باخترهم وزاروا بيروت فلم تعجبهم فنادقها وعادوا الى سفينتهم ليبيتوا بها ، وسكت واكملت حديثه في نفسي وقلت : اذا لم تعجبهم فنادق بيروت فمن باب أولى ألا تعجبهم فنادق دمشق وغيرها من فنادق الديار الشامية . ثم فكرت وقلت : ترى كم خسر بلدنا بامتناع هؤلاء السائحين من نزول فنادقه .

يظن بعضهم أن القيام بإدارة فندق على ما يجب من الأمور السهلة وما ادارته الإدارة حكومة مصغرة أو شركة كبيرة متشعبة بل أن الفنادق اصعب

ادارة لان فيها من صنوف الحاجيات والكليات ما لا يكاد ينحصر ، ومن الصناعات ما يتناول معظم المختبرات الحديثة .

ومدير الفندق يتعهد كل ما فيه من دقيق وجليل وهو وحده المسؤول أمام نزلائه وأمام حكومة بلده ولذلك اقتضى ان يكون على علم بفروع ما يتطلبه السائح من ضروب الرفاهية وما يحتاجه من الاستعلامات ويتطلب صاحب الفندق الادلاء به على البدية وهذا ما يستلزم ذاكرة وحافظة ومعارف كثيرة عن الشعوب والدول والقوانين والاقتصاد والمالية واللغات والجغرافيا والطوبوغرافيا والتاريخ والاجتماع والسياسة وطرق المواصلات البرية والبحرية والجوية .

برزت سويسرا في هذه الصناعة على سائر الشعوب الغربية حتى ان بعض الفنادق الكبرى في انكلترا والمانيا وايطاليا وغيرها توسد ادارتها للسويسريين كما تدار في حوض البحر المتوسط معظم المقاهي بأيدي اليونان لاشتهارهم بالنظافة ورقة الجانب واستجلاب رضا الزبون .

فصناعة الفنادق صناعة جليلة في ذاتها 'يعنى بها من وراء الغاية في ديار الغرب لما تدره من الارباح الطائلة على القائمين بأمرها ، ولا يضمن ذلك للشركات والأفراد ان لم تتخذ لها عامة أسباب النجاح ويجري التجدد في طرائقها كل مدة يراعى فيها الذوق والطرافة والهاء . وهذا لا يتأتى الحصول عليه الا بعناية فائقة ومعارف متنوعة ونظام دقيق اذا اختل طرف منه يكاد يسري الخلل الى سائر الأطراف ويكون الافلاس مصير الفندق المختل .

يدير الشاميون فنادقهم بأنفسهم ، والأجانب يديرون الفنادق الكبرى بمصر لعجز الوطنيين عن ادارتها . وما كان الشاميون عريقين في صناعة الفنادق وأتقنوها بعض الشيء في العهد الأخير . اما المصريون فلم تنزل الطبقة الراقية منهم لادارة الفنادق تأخذها عن الغرب باتقانه المعروف حتى يديروا بأيديهم فنادقهم وتدر على الوطن الارباح العظيمة التي يجنيها الغريب .

اذا تعلم العرب هذه الصناعة وبرعوا في فتح الانزال والفنادق تقرب روابط

الشعوب ويتعارف النزلاء وتتوطد العلاقات التجارية وتوفر لأرباب الرحلات راحتهم وتحديثهم أنفسهم بالعودة الى ذلك الفندق كلما عنّ لهم ، وتنقل من حسنات المدينة مافيه منافع كثيرة للناس .

ارواحنا والاشياء

ضاق عيش بحرية طرابلس الشام زمن الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) لانقطاع الصلات مع البحر فقام تاجر خشب من صالحى أهل تلك الفرضة اسمه الحاج مصطفى حوّلًا وأخذ على نفسه اطعام مائتي شخص كل يوم من سكان بلده خلال أربع سنين . نوهت بهذه المكرمة في جريدة الشرق ثم نقلت ماقلته فيه في كتابي القديم والحديث .

ذكرت هذا الاحسان لأديبين من المشايخ فكان مما انتقده الاول من سيرة هذا المحسن انه كان قبل ان يتجر بالاخشاب يصنع القباقيب وانه كان في شبابه يتعاطى المسكرات . وكان من الثاني الا ان قال ان عدد من يطعمهم مبالغ فيه ولعلمهم لا يتجاوزن العشرة انفس . اراد الطاعن الاول الحط من صاحب هذه الحسنة فمدحه وما كان من وصلت به حرفته مها كان نوعها الى الغنى ومن كات مستهتراً بالشراب في صباه ثم تاب وانااب الا أهلاً لكل ثناء واعجاب . اما الذي ألقى الشك في عدد الآكلين ليقول من شأن هذا الاحسان فانه على ما يظهر قاس هذا الكرم على نفسه فاستعظمه وحسد فاعله وهو الذي ما أثر عنه ان تصدق بقرش على محتاج ، وربما كان ممن يعتقد ان من يخرج من مثل هذا القدر من المال برضاه يجب ان يعد في المجانين لا في العقلاء . والظاهر انه شق على الرجلين ان يفهم العامي من تعاليم دينه أكثر مما فيها وهما من طبقة اعتادت ان تأخذ ولا أعطي شأن معظم الموظفين يعتقدون أن الامة ملازمة باكرامهم واهدائهم وهم غير مضطرين ان يحسنوا الى فقراءهم حتى في أشد الازمات (لكل امرئ من دهره مانعودا)

عمل : افع

قلت لمستشار الزراعة السيد آشار (وكان يؤكد لي انه يفار على مصلحة الفلاح) ان الهمة التي بذلها السيد جميل الدهان متصرف حمص في تشجير اللواء من أعظم ما عهد لرجل من رجال ادارتنا فاجاب لاتصدق ما يروى هذا : عمل مسطور على الورق فقط . فقلت له اني رأيت بعيني الشجر نامياً ونضراً ودخلت الغابات الجديدة وفحصتها فحصاً دقيقاً . ولعل حكم المستشار نشأ من ان المتصرف احسن التصرف باتكاله على نفسه اكثر من انكاله على الحكومة المنتدبة ، انتفع منها ما استطاع ان ينتفع وراح يحث قومه على اتباع الفراس يجلبها لهم من الاصقاع التي تجود فيها ، وما استعان بحكومته الوطنية الا في بعض الاحوال التي لا بد من مراعاتها .

كانت عمالة حمص قبل ان يقوم هذا العامل بشروعه تعمى عيون اهلها من الغبار طوال ايام الربيع والصيف والحريف ولا يجدون حطباً يحتطبونه لطبخهم وخبزهم ودفنهم فيعمدون الى روث البهائم يجمعونه بأيديهم ويحفظونه ويسمونه « الجلة » وبه يوقدون وبه يستدفئون فلما جاءت هذه الغابات الغيباء كان لهم منها وقاية لصحتهم وغذاء لاجسامهم وانتفعوا بثمرها وحطبها ثم انهم اقتصدوا من روث الحيوانات فجعلوا منه سماداً زاد في خصب اراضيهم وقد بلغ عدد الاشجار المغروسة في مأتين وخمسين قرية ملايين . خصت الاراضي البعلية بالزيتون والفسق واللوذ والتين والرمان والكرم واقتصرت اراضي السقي على الجوز والمشمش والتفاح والحوخ والسفرجل والدراق . هذا ماتم على ايدي المتصرف المجتهد في ثلاث عشرة سنة وكنت اذا اثنت عليه امام بعض رجال الادارة يتمتعون من تصريحى ويحاولون تقليل قيمة عمله ، شأن الحامل عند ذكر العامل والجاهل اذا نوى كبد العالم . وما كنت اقصد - وكلامي يومئذ مسجوع لان عليه مسحة رسمية - الا ان

أبعث همهم على حث الاهلين على التشجير حتى نبني ثروتنا على اساس متين وندخل الى الغنى من ابوابه . وكنت اجهر بقولي ان وظيفة صاحب الادارة تنحصر في عدة مواد اهمها تهيد الطرق وبناء الجسور والمعاير وانشاء المدارس ودور الحكومة والمحافر واسالة المياه وتجنيف المستنقعات والتشجير ، لاصرف الوقت في حوالة الاوراق وكتابة التقارير الملفقة وارضاء المرجع بالحق والباطل .

وأخبرني احد الاخصائيين بالزراعة ان هذه الاشجار الكثيرة في لواء حصص لم تسلم كلها سطت عليها الاهوية فقلعت بعضها وكان الاهلون يقلعون البعض الآخر للانتفاع بارضها . ومن العادة الا تسلم كل شجرة تفرس ولو كانت في مأمن من اعتداء البشر والطبيعة عليها

دار الكتب المصرية

عُيِّنَتْ هذه الدار بطبع أمهات من المخطوطات العربية على طريقة علمية عَورِض منها الذي يراد نشره على النسخ المختلفة التي أمكن الحصول عليها ، وشرح المبهم من عباراتها ، ووضعت الفهارس المتنوعة لكل كتاب حتى يسهل الرجوع الى مواده . وأصبحت المجموعة التي نشرت من أهم مصادر المؤلفين والباحثين في الأدب والتاريخ والشعر والرجال ، وكانت بعض الكتب تقع تحت نظر بضعة من العلماء بعد تصحيح المصححين في المطبعة فيظهر فيها قليل من الاغلاط ولا سيما في اسماء البلدان .

أما البطء في العمل فقد تعذر على الادارة تلافيه ، وجاوز الحد فارتفعت شكوى عشاق الكتب منه وهم يشاققون لتناول ما بقي من الكتب التي بديء بها منذ سنين . والسبب في ذلك أن المسؤوليات تضيع في الأماكن الرسمية وقلَّ أن يكون فيها الاتقان تاماً ، والتسامح ان صح في ذلك فلا يجوز أن يكون في اسفار يراد من طبعها الاتقان الذي لا يقدر الافراد علي

تحقيق مثله ، ولو كانت مثل هذه التسهيلات التي تتمتع بها دائرة حكومية
لجماعة او شركة لأنتجوا اكثر مما انتجت دار الكتب ، وباتقان قد يكون أيضاً
اعظم من اتقانها .

وبعد فلو كانت وظيفة مدير دار الكتب المصرية تطول عشرين سنة مثلاً
لسدّ النص المشاهد في معظم فروع ادارة هذه الدار ، ولكن وزارة المعارف
المصرية لا توسد ادارتها الا لرجل كادت تنتهي خدمته الرسمية ، ومنصب المدير
هنا يقتضي له تجارب كثيرة وعلم بهذه الصناعة الصعبة ولا تكفي فيها المشاركة
الطفيفة ، والنتفة غير المحقق .

من أغنى العربية

أغنى اللغة العربية افراد وضعوا لمفردات العلوم الفاظاً عربية ما كان
المدرسون يعرفونها واحيوها بوضع ما يقابلها من اللغات الغربية امثال رفاة
الطهطاوي ومحمود الفلكي وسالم سالم وشفيق مقصور ومحمد مختار وعلي رياض
ودريّ وقدرى واحمد فارس وسليمان الحريري وفانديك وبوست ويعقوب
صروف وابراهيم اليازجي وابراهيم المصوّر واحمد عيسى وامين المعلوف ومحمد
شرف وانستاس الكرملى وداود چلبى وشكيب ارسلان ومصطفى الشهابي
ومصطفى نظيف ومرشد خاطر واحمد حمدي الحياط وحسنى سنج ونجيب شاهين
وجميل صليبا وصلاح الدين الكواكبي وجميل الحافى وعبدالوهاب القنواقي الى
ضربائهم اصحاب الفضل العظيم على العربية والنهضة العلمية . ولا ينكر فضل
الجامع العلمية في توسيع دائرة العلوم واذا نشر ما وضع بمختلف طرق النشر
سرى ما وضعوه في التأليف والصحف وعلى الالسن فتزيد اللغة اتساعاً وتغنى
بالعليات كما هي غنية بالادبيات .

كثرة الاصدقاء

نصح لي استاذي العلامة محمد المبارك يوم وفاة والدي الا أستكثر من الأصدقاء وأن اجتهد ان كان لي خمسة ان اقتصر على اربعة لا ان اجعلهم ستة لان للاصحاب حقوقاً لابد للصاحب من مراعاتها اذا اخل بشروطها كان من الخائفين على الصداقة ، وان حرص على القيام بما تستلزمه أضع وقته وعمره . نصيحة صعب على كل الخلق العمل بها تنفع بالأكثر من اراد العزلة والاشتغال بخويصة نفسه ، وهى نصيحة صوفي لصوفي والمجتمع يتطلب غير هذا ، ولو عملت بها لظلت العمر أجول في دائرة خيقة ولفاتني امور لا أصل الى معرفتها الا بالاختلاط وصرف زمن في ممارسة ما ينفع الوقوف عليه . حقاً ان الاسترسال في الاكثار من الاصحاب مضية للوقت ، وفي العزوف عنهم بعض الراحة . والاختلاط او العزلة تبع للصناعة التي يعانها المرء . فقد نشأت صحافياً والصحافي اكثر الناس حاجة الى التعارف .

و كنت الى اواخر العقد الرابع من عمري أفرح اذا زاد عدد أوصالي ، وبعده هذه السن أصبحت نفسي تعزف عن الاستزادة من الحلان والمعارف ، وتشتئز من كل من يرى في مصادقتي فائدة له خاصة . ومعظم من تصحب يحرص على صداقتك مادام من ورائها مغنم له فاذا انقطع كانوا أزهد ناس في مجلسك .

المرء في حاجة الى اصحاب في فرحه وترحه وفي حله ومُرتَحله . يحتاج أبداً الى من يأنس اليهم ويأنسون اليه ، ويبادلهم الأفكار ويحيل معهم الرأي ، ولا تضره كثرتهم بقدر ما يضره سوء اختيارهم ، وليس أشق على المتصادقين من عدم المشاكلة في التربية والعقل ، والصداقة تقوم على تسامح الصديقين حتى قال بعضهم ما رأيت صديقين دامت صداقتهما الا كان احدهما متنازلاً عن بعض ما يجب له على صاحبه .

الباب المفتوح

لي صديق قديم عجم عود الناس وأصبح على الزمن من يرجع الى آرائهم في معرفة نفسية الطبقات ، عَنَيْت ابادرويش السيد مصطفى سويد رجل الخير والظرف ، أخذ منذ مدة يلومني ، والاخلاص رائده على ابتعادي عن المدينة واتخاذ القرية سكناً ، ويقول انه لا يرى معنى لاعتزالي هذا بعد أن تمت بعض ادواتي من التجارب والمعرفة ، وصار لي شهرة في الافطار ، ورأي مسموع بين جمهرة من الشبان والكهول ، فمن واجبي أن أجلس في بيتي في الحاضرة وافتح بابه لاستقبال الضيوف ولقاء الواردين . فكان جوابي كل مرة ان لبدنك عليك حقاً ، وانا عند نفسي قد قمت بما فرض عليّ في هذا الشأن ، وواجبي بعد الآن ان استريح والا أدخل في مسائل لأحب أن أدخل فيها ، والا أرى وجوهاً لاثمّل نفسي لمواجهتها ، وغرامي ان أصرف الأيام الباقية من عمري فيما يلزني ، وليس اجل مشغلة من الانقطاع الى النظر في تألّفي والعناية بطبعها .

ووقع لي مؤخراً ما يصح ان يكون منه حجة اخرى او تنمة لجوابي على كلام صديقي هذا . ذلك أنه زارني في القرية وقت الظهيرة في الصيف شابان من طلبة العلم الديني في عشر الثلاثين من العمر على تغير معرفة سابقة ولا توسط متوسط للوقوف على ما اذا كنت ارتاح لهذا التعارف او لأرتاح ، وأخذوا يوردان عليّ أسئلة ليس من السهل الاجابة عليها في الحال ، ولا من الحكمة أن يباح بها المرء لمن لا يعرف ، ويطلبان رأيي الصريح فيها يحاولون مثلاً الاطلاع على تراجم من عنّ لهم الوقوف على تراجمهم من الرجال البارزين في السياسة والدين ومن طبقات المحدثين والاقدمين . ولما ضاق صدري من اصطياذ ما يبغيان اصطياذه قلت لهما : ان هذه الاسئلة يقتضي لها عشرون جلسة على الاقل وما يدبرني اذا أنا صرحت بما تريدان أن

تُشرأ أقوالى فى الصءف فأخرج عن التوفى الذى ىطلب من الشيوخ . ساقى الى هذا القول أن رأيتها ىطعنان فى بعض كبار الرجال المعاصرين ولا ىدركان من ماضىهم وحاضرهم شيئاً صحيحاً مما ىدل على خبرة قليلة بالرجال ، وظهر الانقباض علىّ وذكرت لهما انى فى دور النقاها والواجب أن أقىل واستريح فصرفتهما عنى صرفاً ليس فىه شىء من النعومة التى اعتاد الدمشقون الظهور بها حتى مع اعدائهم .

أهكذا ىرى صديقى البار أن أهدر وقى فى رد مسائل كهذه ، وكلام فارغ كهذا ، وأنقطع فى دارى لأستقبل امثال هذين الشابين اللذين اثبتا انها لم ىتعلمأ أبسط قواعد الاجتماع . ولو قدر الله أن اسير على هذا المنهج لما اثبت بعمل نافع ، وبعد فأنا اذا اعتقدت أن ماجرى عليه بما ىنطبق على العقل لأأجىد عنه لأقوم بما لأارى من نفسى استعداداً للقيام به .

وعلى ذكر الباب المفتوح أرى أن أشىر الى من اعتادوا الاجتماع الى أصحابهم فى أندىة مفتوحة أو فى حدىقة عامة أو ثوىّ أو ندىّ اجتماعاً علنياً ، أن مثل هذه المجالس لابد أن ىدخلها طفلىلون ىنفصون صفاء المجتمعىن وىنقلون أخبارهم وىتجسسون عليهم . وأمثال هذه المجالس كثرأ ماكنت أعمل على تقليل شرورها ولاسىما فى الاوقات التى ماكنت استغنى فيها عن الاستئناس الى أصحابى . وجرى عادى فى الأزماى السىاسية أن انجسب الناس ، وحدث فى احدى الثورات الاخيرة أن جاءنى من قدماء جىوانى شخص اعرف درجته ودرجة اسرته من الأخلاق وكان من عادته أن ىنقطع عنى اعواماً ثم ىوافىنى مستعلماً عن صحىتى متشوّفاً الى طلعىتى ، وىسأل عما ىهمه من الاخبار وهو بمن لا ىعنون بأكثر من طعامهم وشرابهم ولذائذهم ، وسألنى علناً : ونحن ماذا ىكون مصىرنا ؟ وكان ذلك ايام خروج الفىشىىن من سورىة واستلام البريطانىىن زمام الحكم فقلنا له جمىعنا : الله اعلم ، وغمرت بعضهم أن ىمسكوا ولا ىفوضوا مع الداغر علنا . ومن الغد عاد ىزورنا ووضع سؤاله بالأمس - ونحن ماذا ىكون مصىرنا ؟ - وأجبناه بما كنا أجبناه فى ثانى يوم وفى الثالث جاءنا بالنغمة ذاتها فتجهم له بعض جلسائى وفى اليوم

الرابع افقلت الباب وحرمت اخواني ثلاثة اشهر كواامل . وكان اصحابي يستغربون بعدي عن الاصحاب وانا اعدم بأن أبوح لهم بالسرمى حان الوقت وعدنا بعد ذلك الى ماكننا عليه من الاجتماع نخوض فى احاديثنا ولا نقطعها الا اذا دخل علينا انسان لانعرف ترجمة حياته ومن هذه الطبقة من توقيناه واستعملنا لسان التمويه فى خطابه فظهر بعد حين انه من الجواسيس كما تفرسنا فيه ، من اول الأمر ، وربما كانت احاديثنا وهي مغموسة بشيء من الحرية تضر بعض الحضور فى اعمالهم وعلاقاتهم مع الحكومة اذا نقلت الى من يبنى عليها احكامه وحكومته .

فى عالم الاُمرام

فى ليلة من ليالى كانون الثانى حلت حلاً لذيداً وددت لو طال أكثر مما طال . رأيت كأن الجمهورية تبدلت سياستها ، وصلت ترانبيها وادارتها ، بأسباب تعد من الخوارق وما هي بها . قام الاصلاح من دون مظاهرات ولا مشاغبات ودون ان تمس الأوضاع وتبدل الأنظمة ، فدهشت لما رأيت وتجاسرت وسألت اول من وقعت عيني عليه ، وكان رجلاً ذا سمع حسن ووقار ورزاقه ، توسمت فيه العقل والحكمة فقلت له : انى لأعجب بما ارى من هذا التبدل الفجائى فكيف تم يا اخي هذا من دون ما ثورة ولا تغيير وزارة ، ولا حل مجلس وانتخاب آخر ، فقال لك الحق ان تعجب مما ترى ، كل ذلك لم يحدث شيء منه ، ولا ازعج وطنى ، ولا خرب شيء ولا تلف مال ، ولا صرف وقت ، وتحقق ما كان العقلاء يرجونه ويستبعدون الوصول اليه حتى كادوا ان يقنطوا .

قلت : والله يا اخي لقد دخل الملل على قلبي لكثرة ما طالبت الحكومات باجراء الاصلاح ، ولم تحقق لي الأيام بعض ما كنت ارجو ، مع اننا وصلنا

الى آخر المراحل بالنظام الجمهوري الذي قام بيننا ونحن ما طلبنا غيره
لعلنا بانه اصلح انواع الحكم .

قال : وانا مثلك يا صاحبي جد متعجب مما جرى ، وفرحت بتوفيقنا
فرحاً لا مزيد عليه ، فرحت لما تقدمنا به من خطوات خطوناها وما ظننت
انها تم على ايدي هذه الطبقة من الرجال لأنهم الا القليل جداً لا يفكرون
إلا في اشخاصهم فقط ، وقل ان ترى فرداً فيهم يفكر في الأمة ومستقبلها ،
ورجال هذا شأنهم لا نرجو منهم ان يقوموا بما ينفع ، وفاقد الشيء لا يعطيه .
قلت : عجبت من نزاهة محسوسة شاهدها في القضاء على اختلاف
درجاته ، وكان بعض القضاة بالأمس ملوثين بالرّسا ، يقضون على هوام
بلا مراقب من ذمتهم ولا من وزارتهم ، وكان القضاة اوسوادهم الأعظم
يسارعون الى التهام الرشوة قبل غيرهم ، واليوم يقضي القاضي وهو يحسب
لقضائه الف حساب ، يقضي وهو يخاف ربه ، ويخاف ان يمحى به هواه
فيخالف العدل ، يقضي بدافع من نفسه لا يخشى المفتش ولا امين الوزارة
ولا الوزير ولا الرئيس . قال : وهل عندك علم بما وقع فقد انحلت بعض
الحل تلك الشركة التي تعاهد الشركاء فيها على الحق والباطل ، وكان من
اثر ذلك ان وصل القضاء الى هذه الدرجة من النظام ، وشاهدنا العدل عياناً
على ما شهدناه في محاكم مصر فانقلبت هيئته في العهد الانكليزي وكان
من قبل مهزلة من المهازل ، فما هي الطرق التي اتبعها رجال الجمهورية حتى
انقذوا القضاء من ذلك الحلل المبكي ؟ قلت : لا يعلم الغيب الا الله .
اما ما جرى فليس من علم الغيب في شيء وما هو الا من المحسوسات
الملموسات ، ما فيه ما يعد من المعجزات ، بل هو طبيعي الحدوث ليس فيه
ما يستغرب هو اشبه بالقضايا المنطقية تخرج النتيجة اذا صحت المقدمة قوية
صحيحة . ان القوم على ما تبين لي عرفوا الخطر من هذا الاهال فتخلوا
قليلاً عن حظوظ انفسهم ونظروا الى المصلحة العامة يجد فأخرجوا من
الخدمة بعض الحائنين فارعوى الآخرون ممن كانت ذنوبهم خفيفة يمكن
اصلاحها وأنوا بمن ينفعون لتولي المناصب الكبرى وهؤلاء ساقوا من تحت

ايديهم الى السداد ونصبوا اطيب طبقة من العمال ، وكان الصغار من قبل يفسدون الكبار والكبار يسكتون عنهم اذا رأوهم حادوا عن الطريق المستقيم ، يملون لهم ما شاؤوا أن يملوا ، يتركونهم يسرقون ويضيعون الحقوق ويشاركونهم في سرقاتهم وهم يؤدّون اليهم قسطهم من الغنيمة ويعاونونهم على مآربهم من باب أضيء لي أقدم لك ، وتنحصر فلسفة كل هذا في جملة مختصرة وهو أن ولادة الأمر عزموا على ترك المصانع وأخذوا باطراف الحزم فنفذوا العقوبات على كل صغير وكبير ، فسلمت ادارة الحكم من لوثاتها بعد قليل ، وكان بعض الوزراء من رجال القانون في سبيل النفع الشخصي يلتمسون المخارج لاستصدار العفو عن القتل كما كانوا يفضون الطرف عن لصوص العمال ، أطلقوا لهم العنان حتى كسروا عظم الرعية وعرفوا لحما ، ولما رجعوا الى العقل وحذفوا من موازنة سنة واحدة ثلثها ولم يعتور الاحوال تبدل وقضوا على الحكومة السابقة وعلى غلوها في فرض الضرائب ينعم بها القائمون بالدولة جرت الامور في نصابها . وكان شكاً بعض أرباب معامل السلاح في الغرب أن بعض رؤساء حكومات العرب ، وطعنوا في أمانتهم ، طلبوا اضافة مبالغ على قوائم ما يتتاعونه من معاملهم فردوهم لأن ذلك يضر بسمعتها ويؤذي تجارتها .

العالم من دون عقوبة يعمهم الفساد وتنتشر الفوضى بينهم ، ويختل عمود العدل ، وتضطرب أحوال الملك ، ومتى انقطعت آمال الامة من احقاق الحق وازهاق الباطل لا تدري ما هي فاعلة . قال : اني الى الاعتقاد بأنك تبالغ في وصفك هذا واني أحب أن أصارحك وقد رأيتك على شيء من التجربة فأقول : وماذا يترتب على انتفاع العامل بشيء من المال ينفقه على عياله وانت تعلم ان راتبه قليل وكذلك المدير والوزير اذا عقد أحدهما صفقة وتناول منها مبلغاً من المال يغنيه أو يستعين به يوم الانتخابات لابتياح الاصوات أو يجعل منه مجوهرات يهديها لمن يتوقع الخير على يده أو يجمع مقادير عظيمة من الجبوب أو الارز أو السمن يهديها لاصحاب المطابخ الكبيرة يعاونهم على

الظهور بمظهر يطعمون فيه وهذا يقابله على هديته بكلام فيعود القرش عشرة على الهادي وهكذا الناس ينفع بعضهم بعضاً .

قلت : ان ظاهر كلامك لا بأس به الا انه لا يقنع عاقلاً ، وهذه الاعمال كلها محرمة في الشرائع والمدينون والمدينون يحدّون من ارتكابها . ومن يهدى اليه اليوم ويقبل الهدية لا ينجيه من تبعها الا هدى سيد المرسلين في قوله لمن رآه يتناول مالاً من الرعية لنفسه وقال انه أهدي له : هلا قعدت في بيت أبيك وأمك وقلت انه أهدي اليّ ، وتقول ان الرسول قبل الهدية لكن كان يقابل عليها وهؤلاء المستهدون هل قابلوها مهدياً على هديته الا أن يقابلوه بكلام كأن يشهدوا بحسن حال من أهدي اليهم ويؤيدونه بالباطل في المآزق ليبقى في الحكم اكثر مدة ممكنة .

وقاطعني فقال : انت تريد ان تعيدنا الى عصر الصحابة في الحكم هذا عصر لا يعود ولا يتكرر والناس كلهم اليوم فسدوا الا من رحم ربك ، ومراد الله من الخلق ما هم عليه ، العالم يا حبيبي لا يعرفون الا المادة ومن اختار لنفسه الذلة والقلة وعفّ وترفع عن الدنيا فهو وشأنه ، ومن اراد ان يتمتع بمباهج هذه الدنيا فليس له غير هذه الطرق التي يسلكها الكافة ، ولا حرج عليه ولا اثم ، وازيد على ذلك ان معظم الخلق لا يعتقدون بغير الدنيا ، والآخرة عندهم شيء مجهول بعيد الوقوع فلا يتركوث المعالوم للمجهول ولا الحيايى للمحسوس .

قلت : دعنا من امور الآخرة وتعال نبحث في الدنيا ، هل تستقيم بحياتك الامور ان لم تقم على نظام وعدل ، هل يكون ذلك بغير تطبيق الأنظمة كما يفعل الغربيون لهدنا في تنفيذها ، ولا ينظرون الا الى الحياة الأولى ، ولذا افلحوا اكثر منا في كل امر ، فهم اكثر غنى ، واكثر صدقاً ، واقرّب الى العدل ، ونحن اذا ضاع الغش والكذب والنميمة وكل ما نهى عنه شرعنا نجده في بلادنا على حصة موفورة ، ونأتيه كل ساعة غير خائفين ، ويفتوى من مفاتينا ، وباقرار من اهل الحل والعقد فينا ، قوانیننا كلها جيدة لو نفذت ، لكنها مدفونة في القماطر ننفذ منها ما يروقنا فقط . قال : الا تعلم

ان الكبراء اذا اعطوا فهم يعطون من مال تقرره لهم الحكومة وكل مايقام من المآدب والسياحات المرفهة ونفقات الأبهة والبذخ واستالة القلوب والافلام داخل الوطن وخارجه ، قد اخذ من بيت المال بقرار فالآثم هو المقرر ، ومن انفق ماقرره له بريء من التبعة ، والمسؤول عن المال المبدد هو القانون الدستوري ، والامة في الواقع انحلت اخلاقها فوجدت لها من هذا القانون اعظم معوان . وبلغني ان احد رؤساء الوزارات لا يقيم مأدبة خاصة او عامة ولا ينفق شيئاً في سبيل مصلحة الدولة حتى في شراء السلاح والقذائف والطيارات والسيارات الا ويضيف الى قائمة ماصرف مبلغاً من المال يأخذه لنفسه وبذلك اغتنى كثيراً واقتنى املاكاً وكذلك اغتنى اقاربه واشياعه في المفوضيات والمحافظات من صعايلهم من بنوا التصور ونجدوا المقاصير والدور يسرفون في الانفاق على رفاهيتهم ما لا ينفقه رئيس كبير في ديار الغرب . ومن غريب ما أتى هذا السياسي ان احال الى مزارعه ما وقع في ايدي الدولة من المغام كالمواشي والآلة كأن مغام الحكومة مغام له ولا من يحاسبه .

وأتبع ذلك بقولي الناس يا حبيبي مع القائم وكيف يحاسبون او يعرضون قليلاً بما تجنيه يد الجاني وهم يوقنون انه اذا غضب الله على احدهم وانتقد هذه الحطة عاقبه الوزير عقاباً مادياً وآذاه في ماله واحياناً ببذنه فان كان تاجراً عمل على خسارته ، وان كان مزارعاً سلط عليه اذنياء الفلاحين ، وان كان موظفاً اوقعوه في مشاكل يحاولون بها اقصاءه وخراب بيته ، والوزراء كلهم متضامنون وهم ابدآ طوع امر رئيسهم والحكام كلهم عبيده مادام في منصبه الا من رزق نفساً قوية وما اهمته خدمة الاغراض . ومن الناس من يتحاشون ذكر المظالم بكلمة مخافة ان يعود الى الحكم مرة اخرى وينتقم منهم ومن أبنائهم وذوي قرباهم واصحابهم ، وهكذا يبقى الجرح نغاراً والفساد مستحكماً متسلسلاً . ويذكر العارفون ان احد الوزراء في الانتخابات حرص على احراز اصوات تسهل عليه الوصول الى النيابة ، مع علمه بان النفوس ماثلة عنه ، فلم ير أحسن من ان يعهد الى جميع موظفيه بمعاونته فالبسهم كسوة غير كسوتهم ، وأصحب كل واحد مسدساً خبأه في جيبه ،

وكان بهم يهدد الناصحين حتى احرز بعض النصاب واقمه له حزب الحكومة بما وضعته في الصناديق من اوراق مزورة ففاز بالنيابة بهذه الطرق المزيفة وفاز بعض زملائه وانتشر سر هذه المكيدة، والسياسيون قد يزعمون ان افعالهم السرية تخفى على القوم وليس كل السياسيين فلاسفة حتى تردهم ضماؤهم الى الصراط السوي . وهكذا يقال في بعض الرؤساء وبعض الوزراء اخترع كل واحد احبولة يلقيها فيصطاد فمنهم من يجوز ابتياع الضمائر بالمال ويدعي ان المجد لا يبنى الا بهذه الاحاويل . ومنهم من لو اعطيته عشر خزانة الامة لم يد يد له الى التسعة الاعشار الاخرى ، ذلك لان اكثرهم لم يربوا تربية دينية ولا مدنية صحيحة وجاءوا الى ممارسة السياسة من طرق فيها الخديعة والكذب والنفاق وغير ذلك .

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرت الا بالطلاق
ساءتني النماذج التي ادركتها من أولئك الكبراء ، رأيتهم يتنزلون لأقل الصعاليك ويخاطبونهم بما لا يخاطبون به عظماء الامة ورأيت بعض عامة سكان الاحياء تنهال عليهم مقادير كبيرة من الخنطة والارز والسكر وغير ذلك من انواع المأكول ، وكان هذا في وقت عزّ وجودها وكان يكفي ما يهدونهم من انواعها لان يكون منه رأس مال كبير او ليطعم الف انسان ، بينما كان الفقراء لانصل أيديهم الى القوت الضروري الا بشق الانفس ويطعمونهم الخبز المغشوش اما الارز والسكر فهذا ما كانوا يسمعون به ولا يرونه . قال صاحبي : ان اكثر مارويته اوافق عليه ، وهذا كله جرى على مارسمت ، ولكن حنبليتك قوية وتشددك عظيم في اقتضاء الناس ما لا يملكون فأرح نفسك من هذا العناء فأنت لاتقوم المعوج ولو كان معك اليوم فريق يعاضدونك ، ولن تنجح مادام الفاسدون اكثر سواداً من الصالحين ، والفاسدون اعرف بالدسائس وبما يبقى عليهم نعمتهم وهم عند حاجتهم احط الخلق لا يستنكفون عن ارتكاب كل كبيرة .

ولما بلغ الحديث الى هذا الحد ومنه ما أنسيته تقلبت في سريري متأماً من أواخره ، فانتبعت على صوت المؤذن يقول : يا ارحم الراحمين ارحمنا .

ابراهيم باشا في الشام

من غرائب التاريخ في العصر الماضي قيام محمد علي الكبير بانشاء دولة عظيمة في مصر واسترجاع عبد العزيز آل سعود في هذا العصر ملك آبائه في نجد وما اليها وليس معه من الرجال أكثر من بضعة أشخاص ، وكلاهما أمي . ولولا مقاومة الدول لمحمد علي لاستولى على معظم العاقر من بمالك افريقية وعلى أرض العرب في آسيا وعلى آسيا الصغرى من أرض الترك وعلى الروم ايلى وما وراه من البلقان ولكان له الكلمة المسموعة على شواطئ البحر المتوسط وغيرها من الاوقيانوسات .

كان محمد علي بما خص به من نظر بعيد يعرف ان فتح الولايات العثمانية في آسيا ، ليس من الصعوبة على ما يتصور المأخوذون بالظواهر لأنه كان يقدر مبلغ قوتها الحقيقية اذا تصادمت القوى ، وقد حققت الايام حسابه فانه لما صحت نيته على فتح الشام أرسل اليها قوة من البحر وأخرى من البر بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتحت على أهون سبب ولولم تقف دول اوربا في وجهه وتصدده عن التقدم لفتح القسطنطينية وجعل دولة آل عثمان أثراً بعد عين . وتجلى في هذا الفتوح التي وصل فيها ابراهيم باشا الى كوتاهية أن الجيش القليل المجهز بالجهاز اللازم خير من الجيش الكبير العدد وفيه نقص في المعدات وفوضى في القيادة ، ولذلك كان الجيش المصري المنظم يومئذ أفضل من العثماني المحتل .

والمزية الباهرة في هذا الفتوح أن ابراهيم باشا ما اكتفى بالغلبة بالسلاح بل طمع فيما وراء ذلك بالنهوض بالديار الشامية المائلة الى الانقراض وسارع وأدخل فيها في بضع سنين جميع ما ينهض بها من أسباب المدنية الحديثة على أجل ما تنظم دولة كبرى تأصلت فيها المدنية في دولة بكر ما شهدت الاصلاح منذ قرون .

ما كان من مصلحة البريطانيين يومئذ توسع محمد علي في الملك ولذلك لم تغمد السيوف في الشام مدة حكم ابراهيم باشا تحاول اجلاء جيشه وارجاعها الى الدولة الضعيفة صاحبها القديمة فدأبت على تحريك من كانوا بالامس من انصاره مثل الدروز والنصيرية والموارنة . فقتل الدروز في اللجاء ووادي التيممات من جيشه . وكان ابراهيم لا يهدأ له بال يراقب العثمانيين في الشمال ويضطر الى مراقبة العدو الداخلي من الجنوب ، والانكليز والأتراك يتعاونون بالمال من يرون ابتياعه واستتباعه من الاكراد والتركمان والمهارة والنصيرية والدروز والموارنة . وما حالت هذه الموم السياسية دون ابراهيم باشا وما يرمي اليه من انشاء القلاع والجسور والمستشفيات والشكنات والحانات والفنادق وتجهيف المستنقعات وانشاء القنى لتصريف المياه القذرة في المدن وغيرها وترتيب المجالس الملكية والعسكرية وتأليف مجلس الشورى والمساواة بين الرعية في الحقوق والواجبات يتمتع كل طائفة بحريتها وينظم الجباية والحراج ويبطل المصادرات ويقرر حق التملك ويوطد الامن وينشط الزراعة والصناعة ويعلم تربية دود الحرير ، فاستعادت اكثر القرى التي كانت على سيف البادية واقليم حوران وعجلون وحمص وحماة وغيرها عمرانها القديم . وما كان ابراهيم باشا ضئيلاً بالمال ينفقه في الاصلاح ويدخر مافاض منه في الخزان للطوارئ اي ينفق مال الشام في الشام .

قام ابراهيم باشا بكل هذا وحالة القطر السياسية غير مستقرة ، وامتد نشاطه الى جميع فروع الادارة يبني ويكثر البناء كأنه في ملكه الثابت الذي لا ينازع فيه منازع . وكان العثمانيون من قبل قضوا في القطر ثلاثمائة سنة لم يأتوا خلاها بعمل يذكر في باب التمدين ، وفي ايامهم لم يعمر طريق ولا ثكنة ولا مدرسة مهمة ، والمدارس والجوامع التي تنسب الى بعض ولانهم في الحواضر عمرت باخواب المدارس والجوامع الاثرية القديمة وكان معظم ما بنوه من الحصون من انتقاض مصانع القدماء ، وسياستهم لم تبدل منذ احتلوا هذا القطر . تتقاضى الدولة الجبايات الكثيرة الانواع بطرق غير مشروعة

وتأخذ الشبان للجندية لتقتلهم في حروبها الكثيرة ، والامن ابدأ الى الاختلال والارواح تباع بيع السلاح والشرع لاتنفذ احكامه الا على الضعفاء لان الاقوياء ومنهم الاقطاعيون لايطبقون من مواده الا ما يروقهم ، والاقطاعيون اعوان الظلمة من الحكام الرسميين وكلهم على المظالم متفقون ولذلك شق عليهم حكم ابراهيم باشا لانه ساوى بين السكان وقطع على الاعيان طرق سرفاتهم ، فهم عضد للدولة العثمانية حتى تعود الى حكم القطر يحكمونه مع عمال العثمانيين الفاسدين ويتعاونون يداً واحدة على سرقة اموال الدولة واموال الرعية .

وكيف السبيل الى عودة العثمانيين الى هذه الديار وجيش ابراهيم باشا مانقص عن اربعين الف جندي منظم بنظام اوربا وبقيادة قائد حازم يعرف من اين تؤكل الكتف يسترشد برأي والده العظيم في المسائل المهمة . فكان كالمستقل في ادارته على ماتبين من الرسائل التي صدرت من محمد علي لابنه ابراهيم وبالعكس وفيها مثال من تلك الادارة الرشيدة . فاستخدمت انكلترا للوصول الى غرضها من اجلاء المصريين عن الشام جميع مالديها من قوة على يد القائم بكبر ذلك المسترود السياسي الخنك الذي جاء سورية باسم مستشرق يرغب في درس اللغة العربية وارسلوه الى بطريك الموارنة فاسلمه الى احد رهبانه يعلمه ، فما هي الا ايام حتى رجع الراهب الى بطريركه يقول له ان الذي فوضت اليّ تعليمه ليس طالب علم ، بل هو يرمي الى مقصد سياسي على ما يظهر فقال له البطريك : ثم بالواجب الذي عهدت اليك ولا تدخل في الفضول .

ورب قائل يقول وهل كانت اعمال ابراهيم باشا في الشام كلها سديدة فالجواب انها بالقياس الى اعمال العثمانيين عظيمة جداً وقد يغلط ابراهيم كما يغلط اعظم الرجال والغلط غير مأمون على من كان في مثل حاله . فمن اخطائه انه رخص لضباطه ان يتجروا وما ادري ان كانوا هم الذين جعلوه امام امر واقع فاضطر لانغماض الطرف عنهم وكان في ذلك الضرر على الرعية . ومن خطيئاته السياسية تنفيذ ارادة والده بتجنيد الشبان وكان عليه ان يقول له ان القوم غير مستعدين للتجنيد وانه تشق الجندية عليهم والواجب اخذ البديل

النقدي من لايحب الدخول فيها . وقد اتخذ اعداء ابراهيم باشا من قضية الخدمة العسكرية مادة لحمل بعض العناصر على العصيان عليه والاشتهزاز من حكمه . وكان في مقدمة من رفضوا الخضوع لارادته الموارنة والنصيرية والدروز وعربان جبل نابلس اما سائر الاقاليم فقد خضعت للنظام الجديد مرغمة .

كان حكم ابراهيم باشا في الديار الشامية سعيداً في الجملة ادركت الرعية الفرق بين حكم المصريين وحكم العثمانيين خصوصاً والمصريون اقرب الى الشاميين بطبائعهم ولغتهم . نعم كان حكم المصريين شديداً وبغير الشدة لايحكم شعب فسد كيانه . والنحل في معظم مشخصاته واضعفت قرون استبداد مضت عليه قواه العقلية وحيويته الاقتصادية والعلمية . وكيف لقطران يسعد سعادة كاملة وقد اندمج في سكانه عشائر وقبائل ليس بينهم وبين الحضارة ادنى صلة وفيه اديان كثيرة وطرق صوفية غريبة . ولذلك رأينا من قاتلوا مع المصريين لاول الامر مغتبطين عادوا فانقلبوا عليهم بتأثير الدرهم والدينار . والوطنية لم تكن تعهد يومئذ في الشام ولا في مصر ، وكانت الوطنية ما يريده صاحب القوة او الفاتح المتغلب .

وأكثر من ارتاحوا الى حكم ابراهيم السواد الاعظم من الشاميين سكان المدن والقرى وجمهورتهم من المسلمين (اهل السنة والشيعة الامامية) والمسيحيين ماعدا الموارنة . ولما صدر امر محمد علي الى ابنه ابراهيم بالجلاء عن الشام ودعه اهل دمشق بدموعهم آسفين على الأيام التي اراهم فيها من عدله ما هلولوا له وكبروا . وذكروا ان المظالم بعد جلاء الجيش المصري ستعود الى سابق حالتها ، وان العثمانيين وان شاركهم الانكليز في حكم القطر بالمستر وود ومن استصفوهم على صورة غير ظاهرة لغير العارفين ليس في وسعهم ان يسيروا في ادارتهم على غير طريقتهم في الاهمال والاستخفاف بمطالب الشاميين وفاقد الشيء لا يعطيه .

وننتقل الآن الى صفحة اخرى ذات معنى يفهم منه طرز ادارة ابراهيم باشا وهي حكايات تدل ايضاً على بعد نظره .

(١) ترامى اليه أن السيد أسعد البكري اتفق مع شريف باشا والي دمشق على بيعه مزروعه في قرية جرمانا فاستدعاه وسأله عن قصده من بيع ارضه فقال انه مضيق فاذا باعها تقضض بشئها وتبجح في معاشه . فقال الباشا : تعرف أن شريف باشا صهري فانتقال ملكك اليه انتقاله الى اختي فأنصحك أن تعدل عن هذا البيع حتى لا تتكشف حالك بعد مدة عندما تسرف في الصرف ، واذا عصيت أمري وبعثت ملكك أنفك الى السودان .

(٢) شكت اليه امرأة فلاحه أن أحد جنوده اختطف من يدها علبة لبن وشرها ، فسألها هل تعرفينه قالت نعم ، فأمر بجمع الكتيبة كلها فحدثت المرأة عسكره ببصرها ، وقالت ها هو فقال لها : (يا ولية) أنا الآن سأبقر بطن الجندي فاذا تبين انه هو شارب لبنك كان قد نال جزاءه والا فاني قاتلك به . فتناول الباشا النمشة - من سلاح تلك الايام - وقطع الجندي نصفين فسال اللبن .

(٣) اراد ابراهيم باشا أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده في نزع القطر من العثمانيين فاعترض كبير علمائها الشيخ سعيد الحلبي على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات فاختفى القائد في الوصول الى غرضه وغضب وزاد في غضبه انه ما سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ كما هي العادة . فسأل ابن يجلس الشيخ فقالوا له في الجامع الأموي وله غرفة فيه يقرئ فيها تلاميذه فتحين الباشا وقت وجود الشيخ في حجرته ودخل عليه وجلس فما التفت الشيخ اليه ولا قام اجلالاً له حتى أتم الدرس وهو يمد رجله ثم حول وجهه الى الباشا وسلم عليه سلاماً عادياً ولم يغير جلسته فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد ، ومن الغدارسل الى الشيخ صرة جنيتها فردها وقال للرسول : اني أشكر الباشا على عنايته وأرجو ان تقول له اني غني ومن يمد رجله لا يمد يده . قال الباشا لحواصه لو قبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته لاني اعرف عندئذ انه منافق ظاهره غير باطنه .

(٤) وشى واش بالسيد نسيب حمزة من الاعيان فنفاه الى عكا مطلق السراح على أمل ان يأتيه من يشفع به فيعيده الى بلده خصوصاً والوساية ضعيفة فما تعرض انسان لهذه الشفاعة فاراد الباشا ان يجبر خطاه فاغتم زيارته ثغر عكا وسأل عن السيد الشريف وعنده انه لا بد ان يخف للسلام عليه فيبلغه العفو عنه ولما لم يجيء الشريف للزيارة سأل ابن مجلس السيد نسيب فقيل له في جامع الجزار وله فيه غرفة فقصد الى الجامع فلم يخرج الشريف للسلام عليه فسأل الباشا ابن حجرته فقيل له هذه فقرع عليه الباب وخرج ابن حمزة فلم عليه القائد سلام حب وعطف وقال له : أما اشتقت الى دمشق انا احب ان اراك هناك ، واصلح غلظه الناشيء عن التسرع باصدار امر النفي .

وله من ذلك قصص كثيرة لايزال اهل المدن والقرى يتناقشونها .
سألني الامير عمر طوسون (رحمه الله) اذا كان ما كتبت في (خطط الشام) من تأليفي في دور ابراهيم باشا بالشام هو صحيح كله فقلت له كله صحيح ما خرجت فيه عن تدوين التاريخ الحق فقد ادركت رجالاً ادرکوا عهد ابراهيم وكانوا من المدركين فقصّوا عليّ ما سمعوه ورأوه ، ثم اني قرأت كل ما وصل الى يدي مما كتب عنه المعاصرون بالعربية والفرنسية ومحصت الروايات ، وهل أنا مصري حتى أجامل بما كتبت رجالاً من رجال بيتكم الملكي الكريم وأكنتم الحق مراعاة للمصلحة ، فقال الأمير الحمد لله الحمد لله .
بقي ان يقال هل كان من الخير ضم الشام الى مصر أم كانت الشام بعد استقرارها بيد المصريين تعود سيرتها الاولى من الاستبداد ، فأنا أرى أنها كانت تسعد بحكم محمد علي الكبير وحكم ابراهيم فقد شهدنا هذا بدأ باصلاح الديار الشامية من أول يوم رفع كابوس العثمانيين عنها ، ولو اطرده الاصلاح لأصبحت الشام أرقى من مصر لاستعدادها الطبيعي لكل ضروب المدنية ، وربما كانت تكفي غائلة سلخ لبنان وشرقي الاردن من جسمها وتنجو من غائلة الفوائل واعني تقسيم فلسطين وانشاء دولة يهودية تفصل بين جزيرة العرب والعراق والشام وبين مصر وبرة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

لهمة في اذن العلمالى

ألححت حتى انتخبك المجمع العلمي العربي عضواً مراسلاً له في حلب واشترطت عليك بصفتي رئيسه ان تجمع اعضاء الشبهاء وتشغلهم بما ينفع العلم وينشر الثقافة ، فاعتذرت بان المال يعوزك فنزلت لك من موازنة المجمع العلمي عن عشرة آلاف ليرة سورية تنفقها في الوجوه التي يراها اعضاء حلب واجبة الصرف من طبع ونشر واقتناء كتب ، فماذا كان منك حتى الآن ؟ لم اسمع انك ألفت أو أحد مواطنيك محاضرة ، ولا ان نشرتم كتاباً ولا أن عاونتم دار الكتب بما ينميها ، ويجب الى شباب الحلبيين الاختلاف الى قاعاتها . اخذت لقب عضو المجمع واكتفيت به ، وقانونه يقصيك من عضويته اذا لم تقم بما اوجب عليك اما قانون الوجدان فأفعل من ذلك لمن ينصف . فان كنت مزمعةً ان تظل على حالتك التي درجت عليها منذ بضع سنين فما احراك ان تستقبل من هذه العضوية حتى لا ينجبل من كانوا وسطاءك وزعموا انك خدمت الوطن فكنت جديراً بهذا التشريف .

ثم اني أرجوك ان تنظر ملياً فيما تبعث به الى مجلة المجمع العلمي من مقالاتك وأن تقرأها على ارباب هذه الصناعة حتى اذا أقروك على ما كتبه تبعث به للنشر ومقالاتك في الحقيقة من النوع الذي لا يمكن ان ينشر في مجلة كمجلة المجمع العلمي العربي لغموض في تراكيبيها فهي أشبه بمقالات الزهراوي المحصي والشربتلي المصري ، وأرجو ان تعرف بعد هذا ان العلم غير السياسة .

آراء وأبناء

من أشد ما كان يؤلني منذ أدركت مبلغ جهد الامم الغربية في القضاء على الأمية أن اشهد في اقليم من أقاليمنا جهلاً مطبقاً لا تصعب مداواته اذا قامت الحكومات والمحكوم عليهم يدأ واحدة لتعليم الناشئة . ورأيت بعض النابهين أسسوا في حواضرهم جمعيات قصدوا منها تعليم من تجاوزت اعمارهم سن التعليم يدرسونهم في اوقات فراغهم من الليل ما يخرجهم من الأمية فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب وهذا الجهد الحسن انقذت عشرات الألوف من الجهل المطبق ، فلو قد كثر عدد هذه الجمعيات في كل بلد وأنشئت مدارس ليلية ونهارية في الأحياء والقرى لحققوا عن الحكومات بعض ما يقع عليها من عبء وتعاونوا كلهم على ما ينبغي السكان من التواكل وذلك بان تأخذ الجمعيات على نفسها مراقبة مدارس الحكومة على نحو ما تراقب مدارسها نفسها فتكون الجمعيات الأهلية والحكومات النظامية كالشيء الواحد . والدول مها بذلت من مال لنشر المعارف تبقى الى جانب القصور ان لم تشاركها الرعية وتدفع قسطها من هذه الخدمة الوطنية . واذا تم تعاون الحكومات والبلديات والجمعيات وساهمت كل منها بما يخصها من هذا الواجب لا تمضي سنون قليلة حتى يصبح الاهلوت على جانب من التمدن الصحيح يفهم رجالهم ونساؤهم بعض ما لهم وعليهم .

والواجب حق الواجب أن تحجب المطالعة الى كل من يفك الحروف وذلك بوضع رسائل صغيرة توزع مجاناً على من يقرؤون ، وتكون موضوعاتها الاخلاق والزراعة والصنائع الزراعية واليدوية والصحة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع ، وحكايات تربي المملكات وتلقن الشجاعة والمروءة والوطنية . وتكون كتب الاطفال غير كتب البالغين تناسب مداركهم وتوفي بما تتطلبه الحياة منهم من المعارف وتكتب بعبارات سهلة معربة لا تعقيد فيها ولا ابهام

وفيهما من الصور والرسوم ما يجيب النظر في صفحاتها لكل انسان ، تقدمها الجمعيات لكل من يستفيد منها بالجان أو بمقابل قليل .

وقد رأينا من تعلموا التعليم الأولى والابتدائي ينسون ما تعلموه بعد سنين ويعودون أميين لاغفالهم تعهد ما تعلموا بالذاكرة والمطالعة . وأهم ما تدعو اليه الجمعيات أن تعلم الفلاحين صناعات بسيطة يمكنهم معاناتها في بعض أيام العطلة ولا سيما في موسم الشتاء وفيه يزيد التبطل أكثر من المواسم الأخرى في جميع البلدان الزراعية فتصبح الصناعات بهذا مادة ربح في أيدي الفلاح ، وأداة جميلة لقضاء الوقت فيما ينتج لهم فائدة ، ويدفع عنهم بعض العوز ، ويحفظ للمجموع الأمة جانباً من ثروتها .

الأمية علة العلل في مجتمعنا رأينا تأثيراتها السيئة في مصر لما انتشر الوباء الأخير فيها ، ولو كان القوم أكثر تعلماً لما أنفقت الدولة ما أنفقت من الأموال ، ولا أضاعت الأمة ما أضاعت بالجهل من النساء والرجال والأطفال

المؤلفون والملوك

حدثني صديقي الاستاذ حسن توفيق العدل رحمه الله قال : يوم كنت في برلين موفداً من وزارة معارف مصر لدرس علم التربية والتعليم سمعت أنه ظهر في ألمانيا مؤلف جديد ما كان من المشهورين قبل أن يؤلف تاريخ حرب الثلاثين سنة ، وما علم أحد بما شغل به سنين إلا لما أنجز كتابه وطبعه . وأجمع الألمان على أنه كتاب ما ألفت في بابيه مثله . قال وبعد أيام رأينا الامبراطور غليوم الثاني في مركبته والى جانبه ذلك المؤلف الذي بهر المانيا بتأليفه ، وهكذا أكرم العاهل العظيم المؤلف العظيم . وما يؤثر عن تيمورلنك من ملوك القرون الوسطى أن السعد التفتازاني

لما ألف كتاب المطول في علم البيان وعرضه عليه اعجب به وأمر أن تصنع منه نسخة نفيسة مذهبة وتعلق على باب شيراز، دليلاً على أن تيمورلنك ومملكته يفاخران بعالم كالسعد . قام تيمور بهذا وهو على الأغلب لا يحسن العربية ولا البيان العربي ، وعلى الرغم مما كان عليه من ظلم وقسوة أكرم السعد هذا الاكرام ليقال انه يحمي العلماء ويقدر اعمالهم قدرها . وجرت عادة الخلفاء والأمراء والوزراء في الاسلام أن يكرموا المؤلفين بالعطايا يُدرونها عليهم ليستردوا فيض قرائحهم فتنبعث الى خدمة العلم والأدب . ومن أرباب التواليف من جعل من هبات العظماء علة معاشه ، ومن عظماء الوزراء من كان لهم طبقات من المؤلفين يجرون عليهم الرواتب والجرأيات . وكان أصحاب السلطان يعدون هذه المكرمات من واجبههم ، ويتنافسون في الاستئثار بكبار المؤلفين ، وبايواء أكبر عدد منهم في قصورهم . والملك الذي يكثر بياحه العلماء والشعراء يعد نفسه ويعده قومه من السعداء .

يقول جيون المؤرخ الانكليزي عند كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاية الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه ، وكان من ذلك أن انتشر ذوق العلم ووجد ان اللذة في تحصيله في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فارس وقرطبة ومن عادة ملوك العرب في عصرنا أن يبادروا الى شكر المؤلف باللسان ان كان ممن يرخص له بمقابلة الملك ، واذا كان المؤلف بعيداً من الملك يشكره كاتبه بالنيابة ان كان المؤلف صاحب مكانة . والمؤلف الذي يفوز بشكر الملك يعد ذلك من دواعي الفخر له ولابنائه وأحفاده . أما رؤساء الجمهوريات فلا يعبأون بهذه الاعتبار ولا يشكرون المؤلفين باللسان ولا بالقلم كأن الجمهوريات تقوم بغير الشعر والأدب كما قال أحد طواغيت السياسة .

أمية المشايخ

قوي الجهل في الولايات العربية على العهد العثماني والدولة ترغب في امتداد ايامه وتقوية أواصره لأنها تعتقد أنها تبقى حاكمة على العرب ما داموا جبلاء ، وإذا تعلموا واستنارت عقولهم خرجوا عن حكمها ، وساعد على نشر سياسة الجبالة من لا يخافون الله من ارباب المناصب الدينية الكبرى ، وما كان هؤلاء الا أرباب الوجوه الصفيقة من ورثة المناصب أو من ابتاعوها بالدرهم .

وتولى رئاسة العلماء في مدينة دمشق استاذنا العلامة سليم البخاري فشق عليه ان يشهد شرع الاسلام بأيدي الأميين الجبهة فبدأ باخراج السقيم من بينهم والابقاء على السليم منهم . وبدأ للشيخ أسعد صاحب وكان نشر كتباً ورسائل استكتبها بالأجرة ان يقنع شيخ العلماء بأنه عالم ومؤلف فتأبط نسخاً من تأليفه وشخص الى مقام الرئاسة ، فصادفه أحد اقرانه وهو على مستواه من العلم فسأله عن وجهته وعن الكتب التي يحملها فأجاب انه ذاهب الى رئيس العلماء ليطلعه على بعض مصنفاته . فقال له : أنا انصح لك ان ترجع من حيث اتيت انت وما تحمله من كتبك . فاني اخشى ان يفتح لك الرئيس ، وهو يعرفك معرفة جيدة ، صفحة من تأليفك هذه ويطلب اليك ان تقرأ له ، وانت لا تستطيع ان تتلو مقطعاً واحداً دون ان ترتكب عدة غلطات . فقبل المؤلف نصيحة زميله وعاد ادراجه . ذكرت هذه القصة لما استعرضت تأليف بعض المحدثين من المؤلفين وكيف يحاول بعضهم ان يتفقا على الامة ببضاعة مزجاة ، وينشروا سخافات وترهات ، ويساعدهم رخص الطبع والورق واعفاء الكتب من المراقبة . وما بلغ من فطنة الكثرة الكاثرة أن تفرق بين الجيد وغير الجيد مما تخرجه المطابع . وكان بعض شيوخ الأزهر في القرن الماضي لا يحسنون من التأليف

شيئا وَيَسْتَجِدُّونَ زملاءهم تقاريط لكتبهم قبل أن يشرعوا في تأليفها .
فنتهاه عليهم أماديح أقل ما يقال فيها انها شهادات مزورة (راجع فصل
القول في تأليفنا من كتابنا اقوالنا وأفعالنا) .

وما يسر ان التأليف التي صدرت منذ اول الحرب الأخيرة الى الآن أجود
في الجملة من التي صدرت في العشر السنين التي تقدمت هذه الحرب . وما زالت
تأليف الأذكياء تزيد على الأيام اجادة . اما التأليف السخيفة فهي كما جرت
العادة أن تكون ولا يصدر عن السخيف الا السخيف والأسخف . والتأليف مع
هذا رائج والجيد كاسد ، ومن يميز بين الصنفين من التأليف مادام ذوق الجمهور
منحطاً غير سليم وما يغتبط به ايضاً ان بعض مانشر بعد الحرب من الكتب
كان يقصده الوصول الى غرض علمي أو ادبي أو اقتصادي أو سياسي وخفت
الموضوعات الدينية ، وفيما ورثناه عن السلف الصالح غنى عن كتابة كتب
جديده في الشرع ، وأين اليوم من يكتب بمثل تحقيقها وتدقيقها .

ورأينا صدور بعض المؤلفين أخذت تتسع اليوم لسماح النقد على كتبهم ،
وكانوا قبل ثلاثين أو أربعين سنة يتألمون من النقد والناقدين ، ويعدون
قبولهم تصحيح أخطائهم اقراراً بجبلهم ، فكانوا يطعنون بالنقاد ويؤيفون
علمهم . ولك بذلك ان تحكم ان الذوق اخذ يرتقى بظهور هذه الطبقة المحودة
من المؤلفين وعددها يزيد سنة عن سنة والسواد الأعظم منهم يؤثر اخراج
مؤلفات قليلة مجودة ولا يسف الى معالجة الأبحاث التي سبق للاعلام ان
تعاورتها ، والفرق ظاهر بين الكتب المؤلفة اليوم والمؤلفة قبل خمسين سنة



علمهم الحال

يقول علماء النفس ثلاثة تحدو المرء على العمل : الجُز والحُب والطمع .
فليدُمع بعضهم الرغبة في المال طمعاً ، وليسهم آخرون الطموح الى المجد
فهذا مما لا يؤبه له . فليس من السعداء الحكيم ولا التقي ولا البطل ولا العالم
ولا الشريف ، وما السعيد الا من له مال وله امرأة يحبها ويتمتع بصحة جيدة .
وعندنا ان السعيد من يجدد مطامعه ، ويرضى بما وصل اليه من المظاهر ،
وما حصل عليه من مال ، وأن يكون آمناً في سره مفتبطاً بقرينته
قريب العين بأولاده .

لا تفرح لوقوع الشر حتى في بيت عدوك فانك لانا من سرايته الى بيتك .
تجنب التقية في بعض المواطن ، وعليك تضليل عقل من يحاول كشف
خبيثتك ، واستدراجك الى الخوض فيما ينفعه ويضرك .
اتق مجالسة الأشرار واعمل على الا تسمعهم الا مبهات لا يبنى عليها
حكم ، وتوهمات تضلل بها عقولهم .
قد تنحل العضلات بتناول الزمن ، وتسكن الحزازات والنارات ،
وتضعف حدة الاحقاد والسخائم .

كلما تقدم الزمن يكثر الجنس الذي لا يبالي بما يحدث للولى والعدو ، فتنحل
روابط البيوت ، وتتراخي علائق حسن الجوار ، وينضب معين الرحمة من
القلوب . ويوم كان الجار يهتم بجاره ، والصديق بصديقه ، والرجل بذوي
قرباه كان الناس بخير أكثر من عهدنا هذا ، ما في ذلك شك . ولما كثر
قول أنا ومن بعدي الطوفان دب التخاذل وشمل الضعف . ويقل ذلك ويزيد
على قدر الاعتقاد بجوهر الأديان ، واسترسال الخلق في الكفر والاحاد .
تجبرت قلوب الناس اليوم وان دخلهم التمدن وكانوا بالامس مفطورين
على الرحمة على قلبه حضارتهم .

إذا رأيت فرداً يصاب بمصيبة وليس حواليه من يواسيه فأيقن انه مامرٌ في خياله يوماً ان يؤاسي انساناً . ومن لايهمه احد لايهتم له احد . واذا شهدت رجلاً لايعطف عليه أحد فاعرف انه هو لم يعطف على انسان . واذا تجلى لك أن الاجماع كاد ينعقد على حب شخص فأيقن أنه هو تقدم ودفع ثمن هذه المحبة ، وعاد قومه يقابلونه عليها .

للمال زكاة وللجاء زكاة وللذكاء زكاة فاذا لم يؤد صاحب هذه الصفات زكاة مارزق من تلقاء نفسه يدب الحق فيما أنعم به عليه .
مادام جارك لايجد كفايته من القوت لاتعدنّ ماأنت فيه سعادة .
لاتأمل الخير ممن قدمت اليهم الشر ولا تغرنك ابتسامتهم فالبعضاء لاتنمحي من قلوبهم .

الابتعاد عن الاشرارخير دواء لينسوك .
إذا وقرت الكبير والصغير وقرك طوائف الناس .
لاتسمع الى حديث لايفيدك واقلل من نقد الخلق الا اذا كانوا من يمينون على المصالح العامة .

إذا طلبت رضا أبيك وأمك وأستاذك فقد حزت الكمال .
من قبيح العادات عادة استعارة الآنية والفرش والثوب ، ومن أقبحها استعارة الكتب المطبوعة فانها تؤخر نشر العلم وتضر بطابعيها ومؤلفيها .
لو كشفنا أخلاق طواغيت الملوك لكان لعنهم أقل مايجازون به .
كيف لاينجل ابن اليمن ونجد والحجاز اذا شاهد اقطاراً عربية كالعراق والشام ومصر أرقى من بلاده في معظم شؤون العلم والمدنية .
ناصح الملك الغشوم يحلب لنفسه الكراهة والمقت .

قلّ في طبقة العمال من ينصح لسلطانة لانه وطن نفسه على العبودية امامه ، وليس في طبقة العبيد من يجرؤ على سيده .
من يكثر من تبديل الحرف ينتهي بالافلاس ، ومن يصاحب كل يوم

صاحباً جديداً لا يبقى له صاحب حق يفزع اليه عند الشدائد .
 من الاثر العجيبة ان يطالبك بعضهم بان تكون له بوق دعاية ابدأ
 واذا قصرت يوماً اكثر من لومك وعتب عليك كأنما يتقاضاك ديناً اسلفك
 اياه وهو لو حاسب نفسه حساباً يسيراً لتبين له ان ليس له عليك اقل منة .
 اضحك من شح من يطالبونك ابدأ بان تهدي اليهم وهم ما خطر لهم
 مرة واحدة في العمر ان يهدوك شيئاً ، يريدون ان تجود عليهم وهم مسكون
 الامساك القتال .

روى بعضهم على لسان رئيس نزلت به محنة : ان من اطعمناهم لو كانوا
 كلاباً لعوموا ولو كانوا قطعاً لمووا لم نسع لاحدم صوتاً ارتفع في الاحتجاج على
 ما حل بنا . وفاته انه لا يرجى منهم ان يأتوا غير ذلك لانهم سفلة ومن يصطنع
 السافل ويعدده خليلاً مخلصاً يرثي لضعف عقله ووضعه المعروف في غير اهله .
 شهدت جيلين متناقضين من الناس احدهما يعتقد كل شيء والثاني ينكر
 كل شيء . الواحد الى الافراط والآخر الى التفريط . الأول مؤمن بكل الفروض
 والواجبات والنوافل يثبت ماصح وما لم يصح والثاني ملحد الالحاد كله ،
 وكفة الدين راجحة عند الاول ابدأ وكفة الدنيا سائلة عند الثاني ، لا ينأ
 بال الاول والثاني الا اذا اقبل الناس على القول بقولها دون بحث ولا نظر
 بالامس كان الدجالون في الدين اوفر عدداً من الدجالين في السياسة
 واليوم زاد عدد الدجالين في السياسة على عدد الدجالين في الدين لان السياسة
 مما يهون الحوض فيه لا تحتاج الى رأس مال من درس وتعب وليس
 كذلك الدين .

إذا رأيت لفيفاً من العامة مجتمعين على أمر لا تدري ما هو أسرع خطاك
 لا تدخل في غمارهم ، فقد تدعى الى الشهادة في المحكمة فتضيق وقتك بين
 اهمال القاضي وتخلف الشهود والمدعين .

لا تحرك عش الزنايير فانها توشك أن تقرصك وتؤلك جزاء تهورك وفصولك .
 لا تقدم على أمر تعتقد اعتقاداً جازماً أن الخطر فيه أكثر من السلامة
 فقد قالوا : « ليس المخاطر محموداً وان سلماً » .

عجب بعضهم من أن من كانوا من أنصار الدولة الماضية عادوا فتنقصوا أنصاراً للدولة الخالفة وما دروا ان السابقين ما كانوا مع الدولة القائمة إلا أدوات تدبرها على ما تشاء وسيكونون كذلك في الدولة اللاحقة فهم طلاب عيش يتعبدون من يضمن لهم عيشهم لا يحفلون الأخلاق ولا الوفاء ولا معرفة الجليل هم عبيد من أطعمهم والمتنعون عن الدخول في أمر لم يسبق لهم أن دخلوا فيه هم من الشواذ والشواذ قلة .

قالوا ان الدولة الجديدة رضيت عن بعض رجال العهد البائد وكانت الأجدر بها ان تعول على غيرهم من الفريق الذي لم ينصبغ بتلك الصبغة القبيحة فالجواب : كل دولة جديدة مضطرة الى استخدام بعض انقاض الدولة المنقرضة لأن الماضين على ما فيهم من عوج وأمت يصلحون ان أخلصوا للأعمال أكثر ممن سيؤتي بهم وهم لاخبرة لهم ، والمجتمع يحتاج الى خبرة وتجربة وببدا صاحب الشأن أن ينحي كل ساعة من لم يسر على طريقته وينفذ رغائبه .

من تطل الى ارضاء الناس بحق وبلا حق يحتقره حتى من نالوا منه خيراً أكثر مما طمعت فيه نفوسهم ، والشديد في الحق يكبر عمله حتى خصومه .

لا تألف من اشتهر بالكذب ولا تقبل حديثه ولو متفكهاً به ، وخير لك ألف مرة أن تخلو من أصحاب على أن تمازج الكذابين ، فالكذاب نار موقدة اذا تركت وشأنها تحرق المسكن والساكن .

أياك ان تغتر بتوبة من درج على أكل ما لا يحل له في شرع ولا عقل هو كالمرأة السوء يزيد فسادها كلما تقدمت في العمر .

في سير العظماء من أهل الشرق والغرب فوائد تتحلل بها النفوس ، آدم قراءتها تستفد علماً وخلقاً وتجارب وعبرة .

كثيراً ما أَلِمْتُ بمن يقصد دور الامراض العقلية ليتفكه باحاديث المجانين كما انالم من عشرة من تلذه عشرة المهوسين وارباب السذاجة والبلاهة .

لا تكثر من اصطحاب الخواص ولا تنقطع عن سماع احاديث العوام ،
فعند الفريقين ما تتعلم منه وتستريح الى سماعه كالجد لا تحتمله النفوس ابداً
فلا بد معه في الاحايين من دعاة وهزل .

بنيت المعتقدات الأخروية على التسليم فايك ان تسلم بالجهولات في هذه
الدنيا كما عليك التسليم بجهولات الآخرة فاذا كان في الاولى نجاتك فالتسليم
بالثانية هلاكك . والسلامة ابداً في الاعتدال والتوسط .

رأينا من يكثررون من الصلاة اقرب الى النش والحديعة ممن اقتصدوا
في صلواتهم وليس الاسلام بالصلاة والصيام بل بالتجلي بالاخلاق الطاهرة والترفع
عن الدنيا .

أقبح بكذبة يختلقها كذاب على من عرف بين الناس بالصدق .
من يعد الغضب للكرامة من التوافه هو آتفه التوافه ووضع النفس
يرضى بالذل .

من يختلق من الأكاذيب على خصمه ما ليس له أصل في غير مخيلته
هو من السخفاء وإن تولى المناصب العلمية ودرّس وألف .
من ظن انه يسقط خصمه بالنقول عليه يسقط من الأنظار من حيث
لا يدري .

من لا يفرق بين موقف الجد والهزل عدّه في المغفلين .
ما أسفت لشيء أسفي على عالم احرز مئة في العلم وكانت درجته في
الأخلاق خمسة .

العلم صناعة يتقنها من جدّ والأخلاق فطرة لا تكتب الا لمن حسنت
أصوله وفروعه .

قد تورثك الصراحة غضب بعض الخلق والصراحة خير من التمويه على أي حال .
ما أخطأت فراستي في المتعلمين من أبناء الطبقات الدنيا أخرجوا من
الجهل وما عروا من خشونتهم وخستهم .

في كتب المناقب من التخريف ما لا يصدقه صبيان اليوم فقاطعها كما

تقاطع كتب الكيمياء القديمة وكتب السحر والنجوم والطلاسم والجفر والتصوف .
 ما لا يصدق عقلك فانبذه وانبذ أهله لا تشغل قلبك بالترهات ولا بما
 وضعه ارباب الأهواء وما اختلقه أبالسة السياسة لاستتباع ارباب الغفلة والبلادة .
 ما كل ما كتب في الكتب ودون في الصحف بما وضع لنفع الناس ،
 فكثير منه كانت الغاية من تدوينه تضليل العقول .

اطرح من خزانة كتبك كل ما تعتقد فيه الضرر على عقلك وعقل
 أولادك فالحشرة السامة تؤذي البدن السليم .
 ما اكثر الكتب التي كتبها دعاة المذاهب الدينية والسياسية ولو صح
 ما قالوه لبدلت الأرض غير الأرض .

لولا ما في بعض ما روي عن لسان بعض المتصوفة من بحث الأخلاق
 قلنا ان التصوف ما كان منه الا الاشتغال بالفضول .

لا تتصفح ما لا ينفعك من الكلام ولا تحفظ الا الجيد البليغ واختر
 من أسفار القدماء والمحدثين ما أجمع أرباب المدارك على استحسانه .

عجباً لمن بسط الله لهم في الرزق كيف يقترون على أنفسهم ولا يدركون
 أن الموت ملاقيهم وانهم لا يأتون الى العالم الا مرة .

ان أمكنك ألا تعامل صاحبك بما لا فاعل فالاشتراك معه قد يفقدك
 صحبته والصحبة يجب أن ترفع عما يفسدها .

لو أعطى الغني حق الله وحق السلطان وحق عياله وحق نفسه ما رأيت
 من يشكو الفاقة وما وجدت الشيوعية لها مستجيباً .

بما تطول له الحسرة ان الخاصة يعجزون عن ابلاغ دعوتهم الى العامة ،
 والعامة يسمعون اصواتهم للخاصة كل ساعة .

بما امتازت به هذه المدينة الحديثة ان كل فرد يحاول أن يستثمر
 صاحبه انواع الاستثمار : يستثمر عقله ويستثمر ماله ويستثمر جاهه فاذا
 ما وصل الى بغيته ينسى أو يتناسى ما أسدي اليه .

لولا الخوف من القضاء على المروءات والعمل على احياء غريزة اللؤم
 لدعوت جبهة الى الامتناع عن اسداء المعروف .

من احسنت اليهم واساءوا اليك اكثر من اساءوا اليك وانت لم تسوءهم .
لو ظفر الفقير بالغني ما ابقى له قوت ليلة ، ولو كتب للمتخالفين في
الاديان ان ينال فريق من فريق ما ابقى القوي على ضعيف .

من كان الخير في دمه زاده الدين كالأل والفاسد في فطرته قلما يفيد من
تعاليم الدين ولا بما كتبه علماء الاخلاق في كتبهم .

كان احد ساسة الغرب يقول ليست الصعوبة في حكم الطبقة الاولى ولا
في حكم الطبقة الدنيا ، الصعوبة في حكم الطبقة الوسطى . وتعليل ذلك ان اهل
الطبقة الوسطى يعرفون كيف يطالبون ويشاغبون وكيف يدخلون ويخرجون
لو فكر علماء الغرب في طرق ابطال الحرب كما فكروا في اسباب
دوامها ما وصلت الانسانية الى هذا الحال المزعج .

اذا حلت السبب في فقر الفقراء تبين لك ان اكثرهم هم علة فقرهم .

لا يقف عمل الا من ضعف صاحبه واهماله اتخاذ الاسباب .

اذا اصاب الغرور انساناً كبير عليه فقد مات ، واذا اصاب دولة فقل

انها دالت .

متى اكثرت من التواضع ظنك ارباب الرقاعة وضِعاً فكن مع من

تلقى في حالة بين بين لاتعظم ولا تتصاغر .

قد يغتفر جنون العظمة فيمن كان اجداده على شيء منها ولا يغتفر في

الوضع الاصل الحديث النعمة .

ربات الشرف اكثر سواداً من الفاجرات والشريفة مها حدثتها نفسها

بالخنا تدرك ان شرفها مثوم من أول خطيئة ترتكبها .

لاخير في مجتمع لا يكافح فيه الكذب كما تكافح الامراض السارية .

بأي وجه يقابل الكذاب من كذب عليه ؟

من العادة ان يمسك الناس عن نقد صاحب الشأن وهو في معظم سلطانه

فاذا ماسقط اخرجوا له من مساويه الخير والقطير . كأنهم كانوا يجمعونها

ايام عزته ليحملوها اليه صبره واحدة في محنته .
لو كان للخونة ضمير لانتجروا يوم ينكشف امرهم للملأ .
رجل الدولة الذي يسرق الالوف والوف الالوف موهماً انه في حل
ما يأخذ هو اخس من قطاع الطريق .
لو كان من دأبوا على الاضرار بالناس على شيء من العقل لأقسموا
ألا يضرروا شراً لاحد ولو في قلوبهم .
النظام صحة وهناء والفوضى مرض وتهلكة .
إذا أردت اختبار صداقة من تصادق اقصد في اقراضك مالاً ينجيك
من ضائقة .

من خان سيده الاول كان حرباً أن يخون سيده الثاني .
السبب في أن العاقل في الوزراء وكبار رجال الدولة اكثر من الصالح
ذلك الغرض الأعمى في اختيارهم .

من قضوا أيام شبابهم وشطراً من كهولتهم وهم يتجرون ويسمسون
ويبيعون ويدلسون لا يصلحون لشيء من ادارة الشؤون العامة فكيف بهم اذا
تقلدوا الوزارة .

من أبشع العادات أن يتقدم أحد الاصحاب في المطعم أو المقهى أو المركبة
أو الترام ليستأثر باداء ثمن ما أكلوا وشربوا واجرة ماركبوا فتراهم يتسابقون
ويندافعون ويحلفون الايمان المغلظة ، كل منهم يريد أن يكون صاحب هذه
المكرمة دون رفاقه ، تشهد ذلك في المدن والقرى كل يوم . ولو كان المبلغ
الواجب ادائه كبيراً لأحجم أكثرهم عن الدفع .

لو كان لسان الصاحب في غيبة صاحبه مثل لسانه في حضرته لتداعت دولة الرباء .
لو تفاهمت الشعوب حق التفاهم ما تيسر لقادة سياسة العالم أن يعلنوا
الحرب ويعقدوا الصلح على هواهم .

لا تغتر بصحبة الاغنياء فالغني لا صاحب له الا ماله ، ينسأك أو يتناسأك ،
ساعة مفارقتك أباه .

ثبت أن دني الأصل يبقى وأولاده أدنياء الى اجيال طويلة .
الفقراء اذا اغتنوا وحاولوا تقليد النبلاء في لباسهم وفرشهم ومسكنهم
وحديثهم كالزنجي يكتسي ازياء الموصوفات بالاناقة من النساء .
لو اخذ الانتخاب الطبيعي حكمه في قومي فهلك ثلاثة ارباعهم وبقي
الصالح للبقاء لما شكونا من جهل ولا أتينا من قلة تدبير ، وكان مجموعنا
اذ ذاك افضل من مجموعنا الآن .

الكذب في العلماء اقبح اثرأ منه في كل الطبقات فليستدبر العالم عاقبة
كذبة يكذبها .

اقرارك بالحسن من صفات عدوك دليل على انصافك فاياك اذا غضبت
عليه ان تعريه من كل ما خص به .

اذا اثبتت على أهل الفضل بما فيهم كنت قميناً الا يغمطوك حقل من ثنائهم .
لا يخلو المرء من صفة تستجاد فيه فاعرف كيف تستخرج فوائده
وتفيد من صفاته .

دامت دولة بني العباس بضعة قرون مع ظهور الضعف في كيانها منذ القرن
الاول وذهبت دولة بني أمية بسرعة عجيبة على ما كان لها من اسباب القوة .
من بدأ حياته باعتقاد الخرافات لا يبلغ الشيخوخة حتى يكون مجموعة
خرافات فاسأل الله السلامة من مدانة صاحبها .

لو أنكر كل عالم خرافة أو خرافتين ما بقي في العامة شيء يصح ان
يطلق عليه اسم تخريف .

لو عريت معظم كتبنا القديمة من بعض ما شجنت به لظننتها مما كتبه
أرقى علماء الغرب في هذا العصر .

ليس من شيمة الشريف أن يشمت بمصائب من لا يحبهم فالشئمة خلق الادنياء .
لو قام كل بواجهه في هذه الجمهورية الصغرى لعدت في ستين سنة في عداد
الدول الكبرى .

بما جلب الولايات على الشرقي احتقاره كل شيء .

لو كان عمل العربي اكثر من ذكائه لما اضاع ملكه وانحطت حضارته .
 من لم يتعارف اليك يوم عزه فان من حقك ان تبتعد عنه ايام ذله .
 من خفة العقل ان يتكبر من صار له مال او جاه فالعاقل في هذه
 الحالات يزيد تواضعاً لاحتياجه الى الاستكثار من الانصار .
 من اراد ان يعد في الخير فليتكبر ما شاء .
 بما اخرنا عن اللحاق باهل الحضارة الحديثة ان كل انسان يعني نفسه من
 الواجب عليه ويلقي على غيره كل التبعات .
 لو امكن البشر حذف وجبة واحدة من طعام كل يوم لسقط معدل عمله
 الى نحو الثلث .

السمة في الاصطلاح

من يعد نقد الاخلاق بما لا يروق المنتقدين غيبة وتغيبياً هو ولاشك من
 الجاهلين بما تصلح عليه المجتمعات وتفسد . ومن حكمت عليه حنبلته بالسكوت
 عن النقائص لا يجوز ان يقدح بمن يجب القدح فيه فهو ارتجاعي معطل يسره
 ان يرى قومه في عماية وغواية . وضالّ مضلّ لا يدرك حكمة الأديان
 والشرائع من يجنب الفوضى الى الخلق ويحاول ارجاعهم الى الجاهلية الاولى ،
 وترك كل واحد وما يختار يكذب ويسرق ويعتدي ويرتكب الموبقات عامة .
 وبعد فماذا كانت حال الانسانية ياترى لولا خوف الضعيف من القوي ،
 وخشية الشقي من سلطانه ، وحذر المتلاعبين من كشف مساوئهم . لاجرم
 ان من يذهب الى اقرار كل أحد على هواه يعد مشعبداً مخرقاً .
 دوننا في هذه المذكرات بعض آراء في الاصلاح استدعاها المقام ،
 معتقدين انا لانصل الى ترين الحسنات الا اذا حللنا السيئات بكل ما فيها
 من قبح وشناعة ، وانحينا على من يعبث بحقوق الجماعة اعتقاداً منا بان ذلك
 اللص الذي دللنا عليه لو كان عمله لا يتعدى الانفسه لطوينا على غره ،

أما وسيئاته تتناول الأمة فتحن لانبالي بمن يجادلنا فيما لاسبيل الى الجدل فيه ، وشأننا معه شأن الجراح يقبض بيده على المبضع يشق الجرح النقي لا تأخذه شفقة بصاحبه أو يخرج من جسمه المادة القتالة .

وأي سخف أعظم من سخف من يريدنا على ان نعد الحق والباطل سواء ، ونلزّ الصالح والفساد في قرن واحد ، ونحن نعتقد انه لن يستوي الاصلاح على ساقيه ان لم يضرب المخربون على رؤوسهم بالمعاول الثقيلة .

تأذى بعض من وجعنا اليهم كلامنا بتلاوة ما كتبنا ، وما استطاعوا ان يردوا على ما غاظمهم من فضح سيئاتهم ، وتاملوا وتهامسوا بينهم لهذه الحرية التي كشفت بها اسرار من كانوا يطعمون في ان يسكت عنهم . وحاول بعضهم ان يرد علينا فيما كتبناه في بعض الصحف الرصينة فقال له صاحبها ان مؤلف المذكرات نشر كتابه باسمه فهل انت مستعد ان تزيل باسمك النقد عليه ؟ فقال : لا

ولم يرض بعض السياسيين خاصة عن بعض ما كتب لانهم في العادة يؤثرون التميويه ويتعلقون بالكتمان ولا سيا فيما فيه تجريحهم ، وقد عري بعضهم من صفات الخير . ولقد ودّ بعض الاذكياء لو صرحنا باسماء من عرضنا لهم ، وهذه الطريقة غير مفيدة لانا نقصد بما كتبنا العبرة والتعليم لا التشفي والتشهير . وفي طي الاسماء شيء من الحكمة رحما به من سددنا الى عيوبهم سهامنا ، وحملنا اليهم ما يرجى منه لهم بعض الصلاح .

وترامى الينا وهذا ما كنا نرجوه أن أبناء التربية الحديثة من الشباب المتعلمين هلّوا لما وقفوا عليه هنا من أفكار قلما عهدوا احداً يحسر على تدوين مثلها ، وترغوا ان رأوا حملتنا صادقة على الظالمين والمخربين . والمقصود على كل حال فائدة الناشئة ، اما من دب الهرم في أجسامهم وعقولهم فاكثروهم لا يرتاحون الا الى من يزين لهم ما أتوه ، وان كان من القبح بمكان لا ينكره عاقل .

ربما وقعت لنا هنات كان الأجدر ان يسلم منها كتابنا ، وما السبب فيها الا بعض من ادلوا الينا بمعلومات وهموا فيها ، ومن ذا الذي عصم

من الخطأ ، والاجتهاد يختلف في الحكم على من اشتروا في معاناة المصالح العامة اختلافه في انصافهم على ما يوجب الحق ، ويكفي المؤلف وهو يفيض ، في مسائل متشعبة ، ان يحمل الى قرائه ما خبره بنفسه .

مضت اجيال ما كان ارباب المدارك يحسرون فيها ان يقولوا شيئاً في انكار الظلم ولا ان يذكروا الفاسدين باللسان ولا بالقلم لا بالتصريح ولا بالتلميح ولو قيضت للامة طائفة تحسن السلوك الى طريق الاصلاح ما ظهر اليوم من يستحل الاغضاء عن السيئات ، ومن اجل هذا لا نكاد نجد مؤلفاً اجري قلمه بهذه القسوة ، ومنهم من فضل التقية على مضمض مخافة الا يظفر بناصر يحميه ، والقانون قد لا يرد عنه اعداء الحرية .

ربما قال من دأبهم الاعتراض على كل شيء ، والاستهانة بكل وهل يستحق انكار ما تنكرون كل هذه الولولة ، والعارفون في كل قرن ما قصرُوا في تقويم المعوج وما انجلت حملاتهم الا عن نتائج ضئيلة . الامر كما قلتم ايها السادة ومن ادعى ان كل حق يظهر اثره حين الدعوة اليه ، وقد لا تجني النتائج بقدر ما قدر لها ، واذا نفذ بعض هذا الكلام عُدَّت الدعوة ناجحة . اما نحن فواجبنا ان نبهر بما نوقن نفعه وليس علينا ضمان النجاح ، كالطبيب لا ينقطع عن مداواة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في المئة .



فهرس الجزء الثالث

من المذكرات

صفحة	صفحة
الحزب السوري ٧١١	الملكية ام الجمهورية ٦٥٩
اصلاح الاخلاق ٧١٣	مجالسنا النيابية ٦٦٢
جمعية المقاصد الخيرية ٧١٦	النصح الخالص ٦٦٥
من آراء شيخ المصلحين ٧١٩	اللغات الغربية في الشرق ٦٦٧
موضع عجب ٧٢٢	ضباع الفرص ٦٦٩
المدنية الحديثة ٧٢٤	تعادي الأسر ٦٧١
طبقات الناس ٧٢٦	صراحة العلماء ٦٧٢
الشيخ طاهر والسياسة ٧٢٨	الحنبلية ٦٧٤
الصفار والكبار ٧٣٢	اختلاف الشرقيين ٦٧٦
فساد الطرق ٧٣٣	الدعاية للفضائل ٦٧٧
فرنسا في شمالي افريقية ٧٣٦	المعلمة العربية ٦٧٩
اقوال معسولة ٧٣٨	الارمن وارتحالمهم ٦٨٥
أهل السنة والشيعة ٧٤٠	مساجلة صديقين ٦٨٧
بيني وبين الاستاذ الحوري ٧٤٦	الزواج بالاجنبيات ٦٩٨
مدرسة الجمال ٧٥٣	المرأة العربية ٧٠٤
اصباغ النساء ٧٥٤	الشيوعية في الشرق ٧٠٤
سخافة مؤرخ ٧٥٧	فوضى المجتمع ٧٠٧
حوليات مصر ٧٥٨	بلاهة ٧٠٨

صفحة		صفحة
٧٥٩	تميز الفقير	٨٢٣
٧٦١	اليهود في فلسطين	٨٢٤
٧٦٢	اللعن والشوارب	٨٢٥
٧٦٤	الجمع بين الثقافات	٨٢٧
٧٦٧	العبارة العالي	٨٣٠
٧٧٠	رحلة الى المدينة المنورة	الدكن
٧٩٠	بطء الادارة	٨٣١
٧٩١	اسقاط المجمع العلمي	٨٣٥
٧٩٣	لانعاش اللغة العربية	٨٣٦
٧٩٦	الكاسب حبيب الله	٨٣٧
٧٩٧	السكوت من ذهب	٨٤٠
٧٩٨	الالقاء والرتب والارسية	٨٤٢
٨٠١	شاعر المهجر	٨٤٤
٨٠٣	شؤون	٨٤٥
٨٠٦	الدواء الناجع	٨٤٦
٨٠٨	خزانة عظيمة	٨٤٧
٨٠٩	الوطنية العربية	٨٤٨
٨١٠	سرقة الآثار	٨٥٠
٨١٢	العلم يغني	٨٥١
٨١٣	الصحف والكتب	٨٥٢
٨١٥	الصداقة والسياسة	٨٥٣
٨١٧	الدجل الديني	٨٥٦
٨١٨	الجامعة العربية	٨٥٧
٨٢٠	الكتب المقررة	٨٥٩
٨٢٢	ذكريات الغربيين	٨٦٠
		٨٢٣
		٨٢٤
		٨٢٥
		٨٢٧
		٨٣٠
		الدكن
		٨٣١
		٨٣٥
		٨٣٦
		٨٣٧
		٨٤٠
		٨٤٢
		٨٤٤
		٨٤٥
		٨٤٦
		٨٤٧
		٨٤٨
		٨٥٠
		٨٥١
		٨٥٢
		٨٥٣
		٨٥٦
		٨٥٧
		٨٥٩
		٨٦٠

صفحة		صفحة
٩٠٢	حزب الكتلة	٨٦١ الكل مسؤولون
٩٠٥	بطل دمشق	٨٦٣ هلال رمضان والعبدین
٩٠٦	سیاسة رئیس	٨٦٤ دمشق
٩١٠	فاجعة فلسطين	٨٧٠ اعمال الاداريين
٩١٤	عدم التوفيق	٨٧١ رأي عادل
٩١٦	ادبية دؤوبة	٨٧٢ بقايا الطرق
٩١٧	ملوك العرب	٨٧٣ الفقهاء وكسوتهم
٩١٩	العلامة كرينكو	٨٧٤ السواد الاعظم
٩٢١	غار الشرقيين	٨٧٦ الاستعمار البريطاني
٩٢٤	جمود العرب	٨٧٧ ذكرى العظماء
٩٢٦	المطالبة المعقولة	٨٧٨ يسرقون ولا يدرون
٩٢٧	الحكم ملح الارض	٨٧٩ حكمة حكيم
٩٢٩	نحن والامم	٨٨٠ وقعة سوداء
٩٣٢	تمويه الحقائق	٨٨٠ اخلاق المربين
٩٣٤	الدرر الكريمة	٨٨١ حظ الكتاب العربي
٩٣٦	نبوة عاقل	٨٨٣ الغنى في مصر
٩٣٦	آكل الحرام	٨٨٤ عداوات البيوت
٩٣٧	طلاب المدارس	٨٨٤ الرشوة والتنسب
٩٣٩	الحمد على المنصب	٨٨٦ سجن العادات
٩٤٠	التعايشية	٨٨٨ المؤلفون السارقون
٩٤٢	اذا جد الجد	٨٨٩ عمى الماديات
٩٤٣	العداوات الموروثة	٨٩٠ نهضة الشام الاخيرة
٩٤٥	داهية السياسة	٨٩٧ الثورة المباركة
٩٤٨	القوى الضائعة	٩٠٠ الدواعي الى الثورة

صفحة		صفحة
٩٦٣	في عالم الاحلام	٩٤٩ المسألة الاجتماعية
٩٦٩	ابراهيم باشا في الشام	٩٥٢ سويسرا المحبوبة
٩٧٥	همسة في اذن الكيالي	٩٥٤ صناعة القنادق
٩٧٦	آراء وانباء	٩٥٦ الاسخياء والاشحاء
٩٧٧	المؤلفون والملوك	٩٥٧ عمل نافع
٩٧٩	امنية المشايخ	٩٥٨ دار الكتب المصرية
٩٨١	علم الحال	٩٥٩ من اغنى العربية
٩٩٠	الشدة في الاصلاح	٩٦٠ كثرة الاصحاب
		٩٦١ الباب المفتوح



المنكرات



الجزء الرابع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
«المنبي»



السياسة في مصر

قال لي أحد أصدقائي من أعيان المصريين وعلمائهم يوم نالت مصر استقلالها ببعض القيود : ليت من منحونا هذا الاستقلال تريثوا عشر سنين أخرى ربنا تنضج تربيتنا السياسية ونستعد الاستعداد المطلوب .

رأي قد يستثم منه بعضهم رائحة الغرام بحكم الأجنبي ، وليس قائله بمن يرمى بالخلال الوطنية وقلة العلم والمعرفة ، وغاية ما يوجه اليه أنه لم يمارس السياسة العملية ، وإن علمه كان أقرب الى الكتب والدفاتر منه الى درس التقارير والأضابير ، ولعل حكمه هذا منبعث من معرفة النقص في اخلاق بعض مواطنيه وضعف تركيبهم السياسي يوم اعلان الاستقلال . كان صاحبي يعرف أن الاستقلال يتقاضى مصر جهداً حتى تعناد الحياة النيابية ، وتذوق طعم الحكم الدستوري ، ذلك لأن الامية كانت غالبية على القطر ، وبعده اليوم الذي تزول منه ، ومع الامية يتعذر تطبيق الأساليب الحرة في الحكم . وكان يعرف الى هذا أن بعض من كانوا يتولون الأمور من المصريين قد أفسدهم حب الانتفاع من الغريب ومصانفته حتى أصبحوا فئة لا تؤمن على شيء . أما الفريق المتفائل فيدرك أن النقص لا تسلم منه حتى الامم العريقة في الحكم النيابي ، ولا بد من مرور زمن حتى تنشأ طبقة راقية تعرف ما لها وما عليها .

بعد أربعين سنة قضتها مصر في نزاع شديد مع المحتل لم يسعه الا أن يحلّ وثاق المصريين ، فأصدرت بريطانيا العظمى التصريح المعروف بتصريح ٢٨ فبراير (١٩٢٣) واشترطت فيه أن تبقى مسيطرة على طرق مواصلاتها ، وهي تدفع عن مصر كل اعتداء أو تدخل أجنبي ، وتحمي مصالح الاجانب وتحفظ لنفسها بالسودان ، وبذلك رفعت الحماية عن مصر فأصبحت دولة مستقلة ذات سيادة .

وظهرت مصر في عهدھا الجديد بظھر من التعقل ، وسنت لها دستوراً اقتبسته من أحدث الدساتير ، وأخذت ترتب أمورها وتلم شعھا ، وبدأ صوتھا يسمع في الاندية السياسية ، وأثبتت في مواطن كثيرة استعدادھا للممارسة الحكم بدون مراقبة أجنبية ، ونبغ فيها رجال يدركون كساسة الغرب ، كيف يطالبون بحقوق أمتهم ، وأنقذوا في حقبة قصيرة ما تعلمه رجال الغرب في الزمن الطويل .

وما كان هذا الاستقلال محض منحة تفضلت بها انكثرا على مصر ، بل كان فيه شيء من معنى الرجوع الى الحق ، واعطاء وادي النيل بعض مطالبه . وما فتىء المصريون منذ سنة ١٨٨٢/ ، وهي سنة الاحتلال ، يطالبون بحرية ديارهم ويفلون الثمن في الوصول اليھا ، يلحف أعاضهم رجالهم في تلمسها بالطرق القانونية فيسجنون ويشردون ويغربون ويعاملون معاملة اللصوص والقتلة لا معاملة وطنيين شرفاء يطالبون بفك أسر بلادهم من يد المعتدي عليها . وعلى كثرة ما لقي رجال مصر من عذاب السلطة المحتلة ما يئسوا ولا أحجموا واستسهلوا كل صعب في سبيل تحقيق امانهم . وكان الشباب يؤلفون الجمعيات السرية وينوعون أساليب الدعاية لانقاذ وطنهم ، وكثير منهم تركوا مدارسهم وما عادوا اليھا فساء مستقبلهم ومستقبل بيوتهم في سبيل مصلحة بلدهم . وقام معظم الطبقات بدعاية واسعة في الصحف والمجتمعات والاندية في مصر وخارج مصر ليقتنعوا العالم بعدالة مطالبهم . ومن لم يخدم مصر بقلمه وجرائته وخطبه خدمها بماله . فأنفقت في هذه السبيل ملايين من الجنيهات ، والقوم يعتقدون أن كل ما بذلوه هو بعض ما يجب عليهم . واشتركت في هذا الجهاد الاء كبير جميع طبقات المصريين ومنها النساء المثقات وبنات السراة .

وكانت مصر تثور من حين الى آخر ، وتجهر بالذي تثور من أجله ، وتقدم أعز الضحايا من زهرة أبنائها ، ويظهر الشباب المثقف ، وبعضهم من أبناء النعم أهل الرفاهية والغنى ، بظھر من الوطنية يفاخر به . وكان من أبناء تلك التربية الناعمة من يفتالون كل مصري . وقع في

نفوسهم أنه يخون قضية مصر ، كما يغتالون بعض رجال الاحتلال بمن يعتقدون أن في اهلاكهم عبوة لغيرهم ، حتى ترجع دولتهم عن تشدها في اعطاء مصر حقها .

واستعمل الانكليز أقصى الشدة لصد المصريين عن المضي في مطالبهم ، وبينما كان الوطنيون عزلاً من السلاح كانت الحامية تطلق النار على الشعب فينلقاها بصدرة صابراً محتسباً . وما حدث في ثورة سنة ١٩١٩ وفي غيرها من الثورات كان برهاناً جلياً على أن الانكليز يجمعون ثورة من يناصبهم العداء بشدة بالغة لا هوادة فيها . وقد استعمل الثائرون المصريون العنف في أكثر مظاهراتهم . وتحملت الحكومة المصرية الغرامات الباهظة لمن قتلوا من الانكليز ، فخمرت مصر من مادياتها وربحت بمعنوياتها ربحاً أظهرها أمام الأمم الراقية في مظهر أمة متمدنة لا تنام عن حقها ، وتقادي بكل عزيز للبقاء على وطنيتها وقوميتها .

لا تنجح الثورات على الاكثر ، فتورة عرابي أخفقت لأنها أسفرت عن احتلال الانكليز مصر ، وثورة سنة ١٩١٩ نجحت لأنها أدت الى تصريح ٢٨ فبراير . وكان في مطالبة مصر باستقلالها اعتدال وكياسة ، يراوح المفاوضة مع المحتلين أناس ان اختلفوا في أحزابهم فما اختلفوا في تحقيق غرضهم الشريف وهو خلاص وطنهم من يد الغاصب . دأبوا على المطالبة وما فترت لهم هممة ، وكانوا أحياناً يعلقون على الزمن تحقيق رجائهم في حل مشكلتهم المعقدة . وكان منهم من يتلطف في الطلب ، ومنهم المتشدد في شروطه ، ومنهم من كان في حالة بين بين . وكلهم يطالب بالجلاء ، وهو مدرك أن خصمه ضخم لا سبيل الى استخلاص شيء منه بالقوة ، وكان المفاوض المصري اذا لم يصل الى ما يريد من المفاوضات البريطاني يحوقل ويسترجع ولا يقطع أمله من بلوغ بغيته بمعاهدة المفاوضة . كانت حجة البريطانيين في مشروعية الاحتلال اعادة الأمن الى نصابه ، وتوطيد عرش الحديوي ، والاشراف على ديوت الدول ، وكانت بلغت سبعة وتسعين مليون جنيه ، منها ما هو لانكارترا . وكان الانكليز من أول

يوم يدعون أن احتلالهم موقت ؛ ولكن طال أمد هذا الموقت حتى صدق فيه المثل الافرنجي « لاشيء يدوم كما يدوم الموقت » .
وفي الحق أن هذا الاستقلال الناقص أسفر عن فوائد عظيمة لمصر ولغيرها فأصبحت تقدم وتؤخر في سياسة الشرق الأدنى ، وكان لها الشأن الاول في جامعة الدول العربية السبع (مصر وسورية ولبنان وشرقي الاردن والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن) .
ومن الطبيعي ان تكون الصدارة لمصر بين الدول في هذه الجامعة ، لألفها النظام منذ عهد محمد علي الكبير ، ولأن لها من أرضها ما يضمن لها القوة ويمتعها بالحياة على ما تتمتع بها الممالك الكبرى ، ولأن أهلها كانوا من أسبق الأمم العربية الى معاناة السياسة والأخذ بالمدينة الحديثة ، ولأن لها مركزاً ممتازاً بين الممالك العربية ، وتعد لاعتبارات كثيرة برزخاً بين المشرق والمغرب ، وهي بمجموعها أرقى الممالك العربية وأكثرها سكاناً واذا لم توفق مصر حتى الآن الى تحقيق رغائبها في الاستقلال الكامل فما ذاك لقصور منها في اتخاذ الاسباب ، ولا لضعف في سياستها ، وما السبب فيه الا أن الانكليز يخافون ان رفعوا القوة العسكرية من التربة ورددوا السودان للسودانيين والمصريين ، أن يكون من ذلك اختلال مواصلاتهم . وأصحاب السلطان في مصر يؤكدون أن جيش مصر قادر على حماية التربة من كل اعتداء أجنبي .

ان ما خافه صاحبي الحضيف على مصر في طورها الجديد لثلا تسقط فيها لا تحمد عقباه هو اجتهد منه ساقه اليه اعتقاده بأن ما سيجري قد يحمل خيراً وشرأ . وهو يتفادى الشر ولا يجب مناجزة دولة لا يصطلي بنارها . أما مصر فما أغمضت عينها عن هدفها الاسمي منذ ثمانين وستين سنة الى يوم الناس هذا ، وتتحين الفرص لمطالبة انكاثوا بوعدها الذي قطعته على نفسها بالجللاء التام ، وامتناع مصر باستقلالها الحالي من كل قيد .

عتاب أحباب

عتب علي الاستاذ ماسنيون لطعني في المذكرات باستعمار فرنسا ،
ونعني على ظلمها المسلمين في شمالي افريقية ، وعجب أن ختمت صداقتي
مع دولته بهذه الحلة المنكرة التي ما كانت تتوقع مني . وأنا أيضاً آسف
أن يضطرني ظلم الظلمة الى استعمال هذا اللسان مع فرنسا ، خصوصاً
وأنا أحبها ، وأحب شعبها ولغتها وأدبها وعلماءها ، ولي منهم أصدقاء
أباهي بحبهم ، ولا أنسى لطفهم ووفاءهم ، وفي مقدمتهم العلامة ماسنيون .
وأنى لي أن اختار السكوت عن أعمال الفرنسيين في بلاد الاسلام ،
والعالم المتشدن ، ومنهم بعض أهل فرنسا ، تألموا يوم ضرب جندهم
دمشق ، وخربوا دار ندوتها ، وكانوا تحبونها وقت انعقاد مجلس النواب
فقدفوه بحمهم ليقضوا على المجلس ومن فيه ، دع ما أنوه من الفظائع
في سائر مدن هذه الديار ، وكل ذلك ليكرهها سورية على قبول معاهدة
تفاني مصلحتها . ولا أعرض هنا لما ارتكبه جيشهم في الثورة السورية ،
فقتلوا الابرياء في بيوتهم وحقولهم وفي الشوارع والساحات ، وخربوا
بقنابلهم وقذائفهم جزءاً مهماً من مدينة دمشق ، ودكوا كثيراً من
معالمها التاريخية ودمروا قراها وأريافها ، فكانت الخسارة عظيمة لا تعوض .
سار الفرنسييس في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم ،
لم يغيروها منذ هبوا يعتدون على الشعوب الضعيفة ، يزهقون أرواح
السكان بلا رحمة ، ويستصفون أرضهم بغير الحق ، ويمنعون التعليم عنهم
ليبقوهم بهائم في صور آدمية . ومن هنا أتت كراهية المسلمين للاستعمار
الفرنسي ، ولعنهم زبائنته في السر والجهر . ومتى أحب المظلوم ظالماً ؟
ومتى صفا قلب المستعبد لمستعبده ؟

خالفت فرنسا في الجزائر أبسط قواعد الانسانية ، منذ وضعت قدمها فيها ، وكانت سياستها من أول الفتح الى أن خضع لها القطر خضوعاً كاملاً تدور على نزع الأملاك من أصحابها ، واعطائها من لا يحسن استثمارها من الفرنسيين ، ارتكبوا لتحقيق هذا الغرض من انواع الظلم ما ترتجف الأقاليم من كثره .

وما أتاه الجنرال بليسيه من اهلاك قبيلة بنسائها وأطفالها حرقاً بالنار داخل الغار الذي التجأوا اليه ، يشبه ما أتاه الجنرال اوليفاروجه في دمشق يوم ارتحلهم عنها في العهد الاخير . حقائق لا يجهلها السيد ماسنيون فيما أحسب ، وليس هو بحمد الله من المكابرين .

وما قول صديقي أيضاً في آخر وقعة لمستعمري أمته في الجزائر وهي الفتنة التي دكوا فيها احدى وأربعين قرية (تموز ١٩٤٥) لاثام أهلها بقتل بعض الأوربيين ، فاهلكت السلطة في الحال ستين رجلاً من سكانها رمياً بالرصاص ، انتخبتهم على ما اتفق بلا تحقيق ولا محاكمة ، ودمرت قراهم بالطائرات من الجو والوحدات البحرية من البحر ، وقدر عدد من قضاوا بهذا الطيش الاستعماري من ١٢ الى ١٥ ألف (وفي رواية ٢٥ ألفاً) هذا اذا فرض أن نصف السكان اعتصموا بالجبال (ص ٧٣٧ ج ٣ من المذكرات) .

ورأى المستعمرون في هذه العقوبة الجائرة فرصة لآبادة جانب من الجزائريين ، ولو كان مقصدهم التأديب واحقاق الحق لسلّموا المتهمين الى القضاء وأخرجوا الفاعلين من بين هؤلاء الألوف من الأبرياء ، ولكن الاستعمار الفرنسي قام في كل عصوره على الظلم ، وليس مستعمرة القرن العشرين في بغيرهم أقل من مستعمرة القرون قبله .

وآخر ما نقله اليّنا البرق من أخبار استعمارهم المفقوت ما كان يوم ٣٠ حزيران ١٩٥٠ في تونس وقد أدى سمو بابها صلاة الجمعة في المسجد الكبير فاجتمع المسلمون يحيونه وبطالبون باستقلالهم ، فما كان من السلطة

الا أن أمرت الحامية بمهاجمة المسلمين داخل المسجد وخارجه ، وأخذوا
يقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ، ثم انقضوا عليهم بمدافعهم الرشاشة فسقط
مئة وعشرون قتيلا ، عدا الجرحى ، في باحة المسجد وأمام بابه وفي الساحة
الواقعة أمامه ، وصرع عدد من النساء والاطفال برصاص مسدسات الجند .
ومن غريب ما أفته حكومة تونس المستعمرة في تطاويس ابلاغها
مؤخراً قبيلتي الطرافة والمخالبة وجوب قلع اشجارهم واخلاء أراضيهم
المجاورة لليبيا ، واعتقلت أئمة المساجد واكتظ معتقل تطاويس بالوطنيين
الابرياء ويجري الآن تعذيبهم والتنكيل بهم ، واجبارهم على الاعمال الشاقة
وحمل القذارات وبتروكونهم بدون طعام .

أدون هذا والجيش الفرنسي المحتل في مراکش يضرب بمدفعه وقنابله
أبرياء المراكشيين ، وسلطانهم شبه معتقل ، وقد سلب حريته وحبل بينه
وبين رعيته ، لان امته طالبت باستقلالها . ويكفي ان يجري اسم الاستقلال
في الألسن حتى تزحف أرواح المئات والالوف من الوطنيين . والى ساعة
نشر هذا الفصل لم تعلم حقيقة ما ارتكبه المستعمرون من ضروب الممجية
والقتل الذريع . وقد سبق لهم في شهر نيسان من سنة ١٩٤٧ أثناء زيارة
السلطان محمد الخامس مدينة طنجة أن أطلقوا مدافعهم الرشاشة فحصدت
٥٦٣٠ من أهالي البلاد . نعم ٥٦٣٠ قتيلاً . ولو أحصي من قتلوا في
هذه الاقطار الثلاثة المنكوبة بالاستعمار الافرنسي لبلغوا ألوف الالوف .
فما قول السيد ماسنيون بهذه الفضائح التي لا تزال تتكرر في مستعمرات
جمهورية . وكثيراً ما شاهدت عقلاء فرنسا أنفسهم ينتقدون هذه السياسة
فكيف بي ان امتنع عن الحملة على رجال الاستعمار وقتلهم أبناء جنسي .
واني لأعتقد أن ما كتبه في هذه « المذكرات » ، وفي « الاسلام والحضارة
العربية » ، وفي « القديم والحديث » ، في موضوع استعمار القوم ، يوافقي عليه
ثلاثة أرباع سكان فرنسا ، ولا يتخرج النصف منهم من القول ان
معاملة المستعمرين جماعة المسلمين هو العدوان المستديم والظلم الذي فلما

شهدت البشرية أفظع منه . وان استبداد فرنسا في الجزائر ثم في تونس ثم في مراکش كان من أشد ما عهد من ضروب الاستبداد ، وما كان لأمة أفحش جيش اعدائها القتل فيها أن تقتلها سيئاته ، لأن فيه بعض قواد فطرت قلوبهم على الرحمة ، وما وقع على المغلوبين من حيف لم يصدر عن رأي الرحاء منهم .

أحسن علماء فرنسا للانسانية ، ورجال الاستعمار من أبناءها أساءوا لأهل الاسلام خاصة ، ولكل بلد شرقي دخلوه عامة . حقيقة لا ينزع فيها منصف . وأنا اذا لم أغض الطرف عما ارتكبه أهل ديننا الأتراك من ظلم العرب مدة استثمارهم أرضنا وكتبنا في «خطط الشام» وغيره من تأليفي ما يجب على المؤرخ تدوينه ، فمن باب أولى أن أنكر ظلم دولة لاتربطني بها رابطة جنس ولا دين ولا لغة . على أنني لم أتركها في هذه المذكرات أيضاً عن الافرار بجميل الدولة المنتدبة في امراض سورية ، ذكرت حصانها يوم أحسنت ، وعدت عليها باللائمة عندما أساءت ، وما باليت بحق أبواب المدارك من السوريين ، نوهت بالجيد من أعمال فرنسا أيام انتدابها على ديارنا ، وفي سبيل القيام بالواجب لم أعبا بغضب من غضب ، وجادلت من جاداني فيما اعتقدت صحته ، لعلمي بأن في السكوت عن حسنات المحسنين غمط حق وانكار جميل ومدرجة الى امتناع المحسنين عن العمل الصالح .

وما أخال عزيزي ماسنيون وسائر أجباني من بني قومه الا عاذرين لي على النهج الذي انتهجته في تقرير الحقائق التي لا يروق أحباب الاستعمار التصريح بها . ولو كان أحدهم في مكاني لجري على طريقي ، ولو أغضب عشرات الألوف من الناس . وعلى النافمين علي في مجاهرة المستعمرين بما جنت أيديهم ألا ينسوا أنني عربي وتهي مصالحة العرب قبل كل شيء .

قر- هيداء

ذكرت جريدة « اخبار اليوم » أن وزارة الخارجية المصرية طلبت الى وزارة خارجية فرنسا السماح لها بانشاء قنصليات في طنجة والدار البيضاء وغيرهما من بلاد المغرب الأقصى وتأسيس مدارس مصرية هناك ، وأن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الطلب ، وأنه عرضت على المؤتمر الدبلوماسي بالقاهرة مذكرة تضمنت اقتراحاً يرمي الى التهديد باغلاق المدارس والقنصليات الفرنسية بمصر في حالة عدم تحقيق طاب الحكومة المصرية في مراكش . وذكرت هذه الجريدة أن القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة ، وهو أحد مجالس البرلمان المراكشي ، دعي للاجتماع لاستماع بيان الحكومة عن التعليم ، فوجه أحد الاعضاء الوطنيين سؤالاً الى الجنرال جوان المندوب السامي الفرنسي في مراكش عن سياسة الحكومة في التعليم وموقفها من العون الثقافي الذي تستعد مصر لتقديمه الى المغاربة لانشاء مدارس مصرية ومراكز للثقافة العربية ، فرد المندوب السامي الفرنسي على ذلك بقوله : يسوءني أن تظل فئة من المغاربة تنظر الى مصر والدول العربية مثل هذه النظرة ، ويسوءني أيضاً أن تلتظر مراكش عوناً ثقافياً من هذه الدول في حين أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون . فالمغاربة اذ يلتمسون العون من الشرق يتجاهلون أن المغرب أكثر رقياً وثقافة من مصر ، وان الاتجاه الى الشرق هو أكبر خطأ ترتكبه المغرب ، ويجب أن تتجه الى أوروبا بدلاً من أن تتجه الى افريقية والقاهرة .

وقد ردّ العضو المراكشي على ذلك بقوله : ليست هذه أول مرة تحاول فيها فرنسا المقارنة بين مراكش ومصر والتعريض بالعرب ، فقد سمعنا شبيهاً لهذا الكلام من مندوب فرنسا في مجلس الوصاية . ومضى

يقول ومصر التي يحاول المندوب السامي الفرنسي أن يوهننا بأنها دوننا ثقافة قد أنشأت خلال عشرين عاماً أتت عليها في الحرية أربع جامعات وأعلنت مجانية التعليم الثانوي والابتدائي بينما لا تزال أمنيته الغالبة ان نستطيع اقناع الحكومة بإنشاء لا أقول جامعة او كلية ، بل مدرسة ثانوية نوفد اليها أبناءنا . وختم العضو كلمته بقوله : أما الى اين نتجه الى الشرق أو الى الغرب فأمر قد درسناه واذعنناه . لقد قلنا اننا من الشرق والى الشرق سنتجه ، ونحن عرب والى العروبة ننتسب . وهدفنا الذي يعلمه المندوب السامي هو الاستقلال والانضمام الى الجامعة العربية .

هذا منطق يمثل فرنسا الاكبر في المغرب الأقصى وجواب احد ابنائه عليه . وهذه السياسة في تعليم المراكشيين هي عين السياسة التي اتبعتها فرنسا في كل بلد اسلامي احتلته . وكلام مندوب فرنسا في جلسة مجلس الشورى المراكشي كلام من يحاول انكار الحقائق الظاهرة ، ومن لا يخجل من التصريح بالكذب على رؤوس الاشهاد ، والى برهان بكذبه . مراكش ارقى من مصر ؟ هذه دعوى من اسخف ما سمع ، لا يقول بها عاقل . وكيف تدعي بلاد ليس فيها ، بعد احتلالها اكثر من اربعين سنة ، مدرسة ثانوية واحدة ، انها ارقى من مصر ؟ وبعد فانا كلما اردنا نجنب الكلام عن سياسة فرنسا مع المسلمين في هذه المذكرات ترانا مدفوعين بعامل انساني وقومي الى تزييف خططها ونقد مناهج سياستها ، ونعتقد اعتقاداً جازماً ان الكذب الذي يجري على السنة رجال الاستعمار وفي صحفهم كل يوم لا يأول بغير احتقار العالم والعبث بالحق جهاراً . ان مصر على ما رأينا مصر على فتح مدارس لها وقنصليات في أرض مراكش فاذا لم تجب الدولة المحتلة على هذا الطلب المعقول تعلق مصر المدارس الفرنسية في وادي النيل . وما دامت فرنسا تحتفظ بطريقتها السقيمة في استعمارها على حين نخلت أكبر دولة استعمارية وهي بريطانيا العظمى عن الاستعمار ، ما دامت على ذلك وهي عاجزة عن المحافظة على السلام في مملكتها الأصلية أنى لها أن تدبر بمالك عظمية كالجزائر وتونس ومراكش تحالفها في جنسها

ودينها ومدنيتها ، وهي لم تر من ساستها منذ احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ سوى الشر والضر .

هذا وقد وافقت حكومة اسبانيا على انشاء معهد للدراسات الاسلامية في مدريد عاصمتها كما وافقت فرنسا على انشاء معهد اسلامي في طنجة وهي منطقة دولية حرة من ارض مراكش وليست منها في العرف الدولي وبقي طلب مصر عند هذا الحد .

لا تأليف ولا نشر

تحدثت الى صديق صرفت معظم حياتي معه في نفاذ المطبوع من أكثر كتبي ووجوب اعادة طبعها ، وضعف الوسائل الآن الى تحقيق هذه الأمنية . فكان رأيه أن من كتبي ما حفظت نسخ منه في الخزائن العامة والخاصة ومنى مست الحاجة الى تكثير أعدادها في الأيدي يتقدم من بطبعها . والأولى فيما أولفه من جديد ألا أتكلف طبعه ، وأبقيه في مسوداته ليطبع بعدي . هذا ما ارتآه الصديق العالم ، وهو يقصد بما يقول راحتي من عناء النشر ، بعد أن تعبت في التأليف . قال : اني قمت بما يجب عليّ من هذا القبيل ، فالأجدر بي الاكتفاء بما ألفت وطبعت وهو كثير . وقال لي صديق قديم عرف الأيام والناس أنني وفقت بما وضعته من الكتب واستحسنها من وقعت اليهم وقرواها وانها انتشرت ماقدر لها الانتشار ، فمن الخير الآن ألا أفكر في غير صحي ، والاحب أن أمتنع عن التأليف بعد يومي هذا .

رأيان لجبيين عاقلين يعلمان أنني لا أقصد من وضع الكتب الا ما أعتقد النفع المعنوي منه . وأنا أرى أن واجبي لا يكمل الا يوم تكمل انفاسي . وثمت عامل طبيعي يحفزني الى المضي في التأليف ،

مادمت أتمكن من مسك القلم ، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها ، لأكتب ما أرى فيه بعض الفائدة من تجاربي في الحياة رجاء أن يكون بما أنشر القيام ببعض الواجب ، ولا أكتب لأنسلي أو أنال شهرة أو مظهراً ، وربما كنت امتنع من التأليف ، وبحسب عني التكليف فيه ؛ لو سمعت أن في المؤلفين اليوم من يعانون ذا الضرب من الكلام الحر .

ولا أمثل لما يدعوني الى معاناة ما أعاني الا بمسألتي صرفت فيها جانباً من اهتمامي منذ وعيت على نفسي ، وهما الاستنار التركي ببلاد العرب والاستعمار الافرنسي في بلاد الاسلام ، فقد عرضت لتريف الاول فاستاء بعض رجال العهد البائد من العثمانيين لطعني بما أتوه هم واجدادهم خلال اربعة قرون في الولايات العربية ، ثم انتهت أيامهم فأصبح ما ارتكبه في ديارنا من حق التاريخ أن يحكم فيه ، والتاريخ يقضي بالعدل بين الترك والعرب وبين العرب وغيرهم من الأمم . والمسألة الثانية غضب رجال الاستعمار الفرنسي بما أوردته في الأحايين من عسفهم ، ومن مصلحة المستعمرين أن يكتموا عن العالم ما يبيتون للمسلمين ولغير المسلمين . أنا الآن لا كلام لي مع الترك فهم اليوم وراء حدودهم ، والعرب يرجون لهم كل خير على ألا يقاوموهم في تأليف وحدتهم السياسية . ولكن الفرنسيين ما برحت أحكامهم نافذة في شمالي افريقية وأوسطها في نحو خمسة وعشرين مليوناً من أهل الاسلام ، فمن الواجب أن أثبت أخبارهم بقدر الامكان . ويدعوني الى ذلك في الاكثر أن العالم العربي في غفلة ، وأهل كل قطر منصرفون الى ما يهمهم فقط . ولم يبلغنا أن أحداً من المفكرين المعاصرين اهتم لما يقع من العظائم في الجزائر وتونس ومراكش ، اللهم الا ما يكتب الحين بعد الآخر في بعض الصحف السيارة من أخبارها المؤله ، ويلقى من الغد في سلة المهملات . فأصبح من المتعين علي والحالة هذه أن أعني بمسائل أحفيتها درساً ، وألا أتواني في ذكر مصائب اخواني الافريقيين .

قد يكون الخوف من بطش الطغام دافعاً يدفع من يروجى منهم انكار ظلم فرنسا في مستعمراتها الى اهمال هذا الأمر الانساني والقومي . وفي الناس من يدهن الدولة ما دامت قائمة ولا يحسرون على نقد سياستها الا يوم تصبح من الدول المنقطعة او تكاد .

فؤلف هذه المذكرات اذ يقيم النكير على الفرنسيين في قسوتهم على المسلمين يقوم بواجب ، وبعد نفسه جد سعيد اذا وفق الى اسماع صوته بعض عقلاء الجمهورية الفرنسية ، وهو يقوم بهذه الخدمة حتى الممات لا يبالي بما يعترض سبيلها من العقبات .

رئى لي بعضهم لانتعاب نفسي في معالجة مسائل شائكة كانت علي أن أختار السلامة ولا أخوض فيها ، حتى لا استهدف لغضب الدول والافراد ، وأنا ما جوزت لنفسي هذه الحطة الا بعد أن رأيت ما رأيت من تحاذل الامة العربية ، وبعد في تحاذلها سكوت القادرين على الكلام من أهلها في انكار ظلم المسلمين في شمالي افريقية ، ومن آثار تفاشل العرب ضعفهم البادية اعراضه بما كان منه سقوطهم من أنظار أعدائهم ، والسكوت موت أو ما يشبه الموت ، وأعداء العرب لا يطلبون منهم أكثر من هذا .

التمويه البارد

اتضح للسوريين أن رجال الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني ، وفي خواتيم امرهم خاصة ، ما اتوا الا ما فيه نفهم على الاكثر ، وانهم نادوا في الانتقام من خصومهم بما لا تكاد ترتكب مثله حكومة مع معارضيه . ولا ادري بعد ان ظهرت سيئاتهم للعيان كيف يقنعون الامة بأنهم نفخوا الوطن ثم يحاولون الرجوع الى الحكم بالامرات والثورات والمظاهرات ، على حين ظهر للعدو والصديق انهم قلما شرعوا بأمر نافع وأثموا ، وانهم ما أهمهم تخفيف كربة الرعية وتحسين حالتها الاقتصادية والاجتماعية ، وكانوا الى الغبطة ما غرقت بيوتهم في النعيم ، ويعدون من القوة أنهم يهبجون الشعب كلما بدا لهم ، ويفلقون الحوانيت ، ويعطلون المتاجر ، ويلقون المملكة في هرج ومرج فتسوء سمعتها في الخارج وتتناثر اقتصادياتها أتت الكتلة الى الحكم وفي خزانة الدولة نحو مئة مليون ليرة سورية من الوفرة فانفقناها بامراف في أعمال غير مشرة ، وكانت واردات الدولة عظيمة في ايامهم فصرفوا قسماً جسيماً منها فيما لا يجدي على الرعية ، وتركوا على الجمهورية مائة وخمسة ملايين ليرة ديناً . وكانوا مدة حكمهم يتلمسون طرق التبذير ، وذلك بأن يعتمدوا المبالغة في تقدير الايرادات عند تنظيم الموازنة ليسوغ لهم التوسع في الصرف من اول السنة ، والموازنة في الحقيقة الى عجز ظاهر .

سخيف لعمر الحق من يذهب الى أن معنى سكوت الرعية عن مساويء حكومة انها راضية عن حكمها . وسخيف من لا يدرك ان من عادة الدهر التحول والتبدل وان كل ما خالف العقل ونابذ الشرع والعدل مقضي عليه بالانبيار في النهاية .

انحلت الكتلة الوطنية لاعتمادها على السفهاء ، واغفال نصائح ارباب التجارب ، وظنت ان كل ما تخالف فيه المنطق ينطلي على الامة ، وان

فوتها تبقى لها لا ينافيها أحد ، مادامت السلطة بيدها ، وهي في كل أولئك
تظن نفسها مخلدة في الحكم . وكان من رجالها من لا ترضى حكومة
بتوسيد المناصب العالية . اليهم لقلّة أمانتهم وضعف ثقافتهم .

ولو حللنا حياة البارزين من رجال الكتلة تحليلاً دقيقاً لتجلت للأعين
قيمة حزبهم . ويحكم على الأفراد والجماعات بما تمّ على أيديهم من خير وشر .
بلغ أكثر رجالهم من الشيخوخة ، ومن لم يأت الخير على يده وهو شاب
وكهل يستحيل أن يُنفع به وهو شيخ ، ولذلك رأيناهم لما خرج الحكم
من أيديهم طاش سهمهم وراحوا يحاولون أن يعودوا إليه ، وليس معهم
من الحق ما يوصلهم الى ما يشتهون ، ولا قوة لهم يتأتى الركون اليها
الاّ قوة من كانوا يتناولون منهم المشاهرات والانعامات والاعفاءات ،
وهؤلاء تخلوا عنهم يوم الشدة وتناسوهم تناسياً ما كان يؤمل منهم غيره .



البدع الضارة

تعاون الحكومة المصرية شعبها جهرة على الاحتفاظ بخرافات . ومن ذلك اطلاق الحرية لعاصمتها حتى تحتفل كل سنة بمولد السيد البدوي وغيره من أوليائهم . ويجري في هذا المولد من ضروب الفسق والفجور ومعاطاة الحدود والجور ما لا يكاد يقع أكثر منه في المواخير والحانات .

وانه ليسوء أرباب العقول من المصريين وغيرهم أن تظل مصر الى اليوم على ما كانت عليه منذ قرون محافظة على هذه البدع . ومصر من عاداتها أن تجمع كل غريب وفيها الاضداد ماثلة ، فهي في آن واحد كهف الشريعة وبيت الدين وموطن البدع والخرافات .

لو كان لي رأي يسمع هناك لاقترح على الحكومة المصرية ابطال هذه الاجتماعات لما فيها من العار على القطر المصري وعلى المسلمين كافة . وقد يخطر في الذهن أن الحكومة مقيدة بخاطر بعض رجال الدين ممن ربوا في الخرافات ونشأوا وسط البدع فلا تجرؤ على مخالفتهم ، وهم لا يفتونها اذا استفتيتهم الا بما يعتقدون وان اعتقدوا في باطنهم أنهم يخالفون بذلك روح الشرع مخالفة ظاهرة ، يضاف الى ذلك أن من يأيدهم البت في مثل هذه الامور لم يدرسوا من الدين ما يعرفون به ما يصح وما لا يصح ، ومعظمهم من الصنف الذي لا يهتم لغير راتبه ومرتبته .

الخريف وزير

كان رئيس مجلس الوزراء السيد جميل مردم بك يود لو اهتدى الى حيلة توصله الى اقصى عن رئاسة المجمع العلمي العربي مدى العمر كما وفق بمعاذة حزبه ، فأبعدوني مرة عن هذه الرئاسة بضع سنين ، ومابالوا بتعطيل أعمال معهد يخدم العلم والادب ويدعو للعربية والعرب . ولا شأن عند السيد جميل للاضرار بالجماعة اذا كان فيه شفاء النفس من رجل يبغضه من غير ماسبب ، وهو يرى كل نفعه في معاذة الرعاع لتأثيرهم في أهل الاحياء يوم الانتخابات ولا يأبه لما يقال له علم أو أدب .

والاصل في هذه العداوة فيما أحسب أنني لم أقبل اقتراح أصحابه في عدم الاشتراك في وزارة السيد تاج الدين الحني ، وكانوا وعدوني ان أنا صدعت بأمرهم أن يوسدوا الي يوم يستلمون الحكم رئاسة المجمع براتب ضخم . نعم كان السيد جميل مردم يريدني أن لا أشارك بوزارة السيد تاج الدين ، أما هو فجوز لنفسه وجوز له حزبه الاشتراك في وزارة السيد حقي العظم ، وهذا مثل الحسني انتدائي ومن صميم الانتدابيين . أي أن هذا السياسي المحنك اجاز لنفسه وهو غارق في حزبيته ما حرمه على غيره وهو حيادي مستقل لا حزب له .

وأخذ ابن مردم يتسقط لي العثرات مدة ولايته من غير ان يتظاهر انه مناوي لي ، على عادته في عدم مجاهرة أرباب المكانة الاقوياء بالعداء ، والاكتفاء بالدس عليهم من وراءهم .

ومن ذلك أنه بعث كتاباً رسمياً الى وزير المعارف يقول فيه أن أعضاء المجمع العلمي العربي يتخلفون عن حضور الحفلات الرسمية وأنهم ماشهدوا الحفلة الاخيرة التي شرفها الرئيس الاول بحضوره ، وأنه يؤخذ على المجمع أنه لم يبادر الى اقامة حفلة تأبين للامير شكيب ارسلاف

فثمان جوابي أن ليس في قانون المجمع العلمي مادة تكره الاعضاء على حضور كل حفلة تقام في المدينة ، أما تأبين الامير شكيب فقد تقرر أن يستعاض عنه بكتاب يؤلفه احد الاعضاء في سيرته السياسية والادبية ، وهذا الجواب لم يرض بالطبع رئيس الوزارة .

ما كان هذا الوزير يهتم في الحقيقة لغير مصلحته الخاصة لذلك كانت الفوضى سائدة على عهده في معظم الدواوين . وهو في الظاهر على اتفاق مع الرئيس الاول ، وقيل ان هذا كان يرمي الوزير بالانتفاع من منصبه انتفاعاً فيه ما يقال ، الا أنه لايجرؤ أن يفتاحه بشيء ، وكل واحد منها مضطر الى الاعضاء عن صاحبه في مسائل حتى يغضي هوله عن أخرى . ودام رئيس الجمهورية محتفظاً برئيس وزارته والناس غاضبون حتى ثار الشعب وطالب علناً باقالته ، فقتل أناس في المظاهرات وتعطلت أعمال العاصمة أياماً .

ويقول العارفون ان السيد جميل مردم بك بعد أن كان أضاق قبل الوزارة ، وصدرت عليه عدة أحكام بالحبس أو أداء ما عليه لارباب الديون استفاد من منصبه ووفى ما عليه في برهة قصيرة ، وعاد يقول في مجلس النواب وقد عرضوا له بما يرتكب في حكومته من التلاعب : « ماذا أعمل وقد خلقتني الله غنياً » وفي الحق انه اثبت غناه بما اقتناه في مصر بعد خروجه من الوزارة من اطيان وأسهم شركات وعقارات .



علوهم

قرأت في مجلة « المعلم العربي » ما بذله صديقي الاستاذ عوض العامري من الهمة في انشاء مدارس جديدة في سورية وما لجأ اليه من الطرق حتى بلغ غرضه من دون ان يزعج الاهلين في جمع الاعانات لبناء المدارس ، وبهذه الطريقة الحازمة أنشأ مئتين وخمساً وثلاثين مدرسة في محافظات حوران ودمشق والفرات .

واقدر كنت تفرمت فيه هذه الهمة واكبرتها منذ عيفته مديراً لمعارف حوران ، ولعهدي به كلما قامت العقبات امامه يذلها ببعده نظره وحسن ادارته ، ولو وفق العمال الى ماوفق اليه الاستاذ العامري لدخلنا فيما دخل فيه المتمدنون .

ولو كان جميع الموظفين يفكرون في التبعة الملقاة على عواتقهم لما جوزوا لأنفسهم أكل خبز الامة ثم هم لا يقابلونها على احسانها اليهم ، ولكن من المأمورين من يرون النجاح في أن يأكلوا ويشربوا وينعموا ويجمعوا ، ولا أرب لهم في غير ذلك .



صاحب غريب

جرى تعارف بالمراسلة بيني وبين المسيو لشاتليه مدير مجلة العالم الاسلامي الفرنسية في باريز . وكنت آذرت في صحيفته قليلاً فغداً بعدني من أحبابه في الشرق .

ولما وافيت بلاده زائراً أكرم مشواي وتفضل وأصحبني بأديب من أصحابه يطوف في العالم التي يصعب عليّ وحدي الوصول اليها في عاصمة الفرنسيين . وجئت أودعه في العودة الى وطني فذكرت له أن من نيتي أن أزور ألمانيا أن تيسر لي ذلك ، فغضب غضباً شديداً لما سمع اسم ألمانيا . فطمنته أنني لن أشخص اليها وإنما هي فكرة عرضت لي ثم عدلت عنها . فرضي بعد ذلك عني ، وبقي على لطفه معي .

وشأن هذا الرجل غريب ، ووصوله الى مقامات العلماء أشد غرابة . فقد أكد لي بعض المحيطين به من المؤازرين في مجلته أن علمه قليل ، وهو يستكتب العارفين مايقوم في ذهنه أن يؤلف فيه من الموضوعات . وكان في أوليته ضابطاً في الجزائر ، ولم ينشأ نشأة علمية ، ثم تزوج من امرأة غنية ، كان يستعين بما لها على الظهور ، وما زالت به حتى نصب أستاذاً في « كوليج دي فرانس » يحاضر في علم الاجتماع الاسلامي الى جانب محاضرين من أعلام العلماء بالعلوم البشرية .

وأذكر أنني أخذت منه كتاباً في القاهرة لم أهند الى حل طلاسه ، ولا قدر صاحب لي افرنسي وأديب كاتب أن يحل أكثر مما حلت . وبقي الكتاب بلا جواب . ولقد حضرت باصراره عدة دروس له في « كوليج دي فرانس » فما كان لي الا أن أهز رأسي أمام بضعة مستمعين مثلي ، ما اخالهم كانوا يفهمون من درسه أكثر مما أفهم ، وكان صاحبي يحتفل بدروسه ويدعو من يتصلون به الى حضورها ، واستبان لي وهو يتلو علينا درسه من فوق المنبر ان الابهام كان في قلبه ولسانه ، وأن الرجل صنيعة النساء وربيب أموالهن ، وأعظم بذلك قوة في فرنسا وفي غير فرنسا .

الرئيس المهروس

لم أستغرب ماقصه عليّ صديق صادق من أخبار وزير اعتصم بمصر بعد انحلال رئاسته ، وظهوره بمظهر عظيم من البذخ والاسراف ليقم الدليل على مافشا له من نعمة ، وبصدق فيه المثل «أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » .

لم أستغرب أن يأدب المآدب الانيقة لمن يعتقد أنهم يعاونونه على الرجوع الى الحكم لعلمي بوفرة ماجناه من مال ، يوم كان السلطات سلطانه . وكان بعض الرؤساء يجتالون على الانتفاع من كل مالا يحل لهم . وكان أحد الرئيسين يشكو الفقر أبداً والثاني يتبجح بدعوى الغنى وكلاهما غير صادق في دعواه .

حقيقة ان المناصب الكبرى تستر بعض عيوب أصحابها ماداموا في الدست ، فاذا مازحزحوا عنه يبدو عوارهم جلياً بلا طلاء ولا غشاء . وتحركت في الرئيسين شهوة الحكم فأصابها ما يصيب المحموم من هذيان ، وهيهات أن تعود الثقة لمن كبر في غفلة الدهر ، وأدرك قومه أنه لا يصلح الا للتهريب .

ليس الحكم تجارة تقوم على العرض والطلب ، وما الحكم الا ثقة وحظوة من فقدهما كان من العبث تذرعه برجوعه اليه .



موجزات

من اقتصد ساعة من وقته كل يوم ، بصرفها فيما يعود عليه بفائدة ،
يتم له في بضع سنين ما يسمو به على الأقران . وقتك حياتك فلا
تصرفه الا فيما يفيدك .

مدينة مع فساد قليل أفضل من مدينة ضعيفة فسادها يقل ويكثر .

ليس من الحكمة القضاء على الأوضاع القديمة ، والمعقول ادخال
الاصلاح عليها فلا جديد بلا قديم يسبقه .

لوعادت عادة مصادرة العمال الى ما كانت في معظم الدول الاسلامية
لصلحت حال الحكومات العربية بعض الصلاح .

لا يرجى من الحكم الملكي المقيد ولا من الحكم الجمهوري خير لمن
تجري عليهم أحكامها ان لم تكن فيهم شروط الحياة موفورة .

الملوك يشكون رعاياهم ، والرعايا يشكون ملوكهم ، فعلى من يقع
القسط الأكبر من الملامة ياترى ؟

متى أصبحت كلمة الفقهاء نافذة في سياسة أمة يخشى عليها الانحلال .

من كان الاستبداد في فطرتهم لايفعل فيهم نصح ناصح ، فقد انتقم
المستبدون ممن نصحوا لهم بتغريبهم ومصادرة أموالهم وأحياناً بقتلهم .

عجبت لعامل يظلم عملاءه أيام توليته ، ولا يذكر كيف يدفع اليهم
حسابهم يوم تنهيته .

ماذا تكون حالة العالم اذا استولت اليابان على الصين والهند وطبعتها
بطايعها ولقنتها مدنيتهما ؟

رئيس يدعو مرؤوسيه الى الفوضى وخرق النظام أشبه برجل يشترك
في نقض أساس بيته .

في قضايا الزوجية التي تعرض بالعشرات على المحاكم الشرعية في مصر
والشام صور صادقة من ظلم الرجال النساء ، ومن ظلم النساء الرجال ،
ومن تدني الأخلاق في الجنسين .

اشتغل المسلمون بالحديث بما لم يشتغلوا بعلم مثله من علوم الدين
والدنيا ، فلما انصرفت الهمم عنه ، وانصرفوا الى علوم القرآن ، اقتصدوا
من أوقاتهم واقتصروا الطريق الى الهداية .

انصرفت النفوس عن دراسة علوم الدين ، وكانت تدرس قديماً
بعناية فائقة ، وكانت الفقه أمس كالحقوق اليوم يرفع صاحبه ويوصله
الى السلاطين .

كنت أذهب الى أن العرب لم يبق لهم من المفاسد الا الوفاء
والكرم ، وأيقنت بأخيرة بأن كلا الخلقين صار الى قلة حتى أصبح
كهلال الشك لا يكاد يرى .

لو بذلت العرب في ممالكها الشرقية ماكانت بذلته في عمار الاندلس
من الهمة لكان عمران الافطار الاسلامية اليوم أضعاف ما هو عليه .

تعوّد الغزالي من نصف فقيه ونصف متكلم ونصف طبيب ، فعلمنا
أن نتعوّد من نصف سياسي ، ذلك لأنه يفقد أكثر مما يصلح ، وقد
تهلك على يديه أمته وهو يحسب أنه يخدمها .

يوم كان الجاهل غالباً على الناس كان العملة يتبلغون بما يفضل به

عليهم صاحب المعمل ، فلا يرون لهم حقاً يطالبون به ، ولا مطمع لهم في زيادة أجور تنزع اليها نفوسهم .

قل " أن عهد عبقرى جدّ أعداء فضله ليحولوا دون ظهوره ، الا أعانوه على انتشار صيته ، وباؤوا بالخزي والحجبة .

بقي الاسلام على بعض نضرته ما كانت النزاع شديداً بين الفرق الاسلامية ، فلما ضعفت المناظرات بردت حرارة الايمان .

قد تبدو الكتابة على وجوه بعض الشيوخ لكثرة ماشاهدوا في دنياهم من اقبال وادبار ، وما عانوا من محن وشدائد ، وما قاسوا من علل وأوجاع .

ليت شعري هل استحق المشاهير شهرتهم ، أم كان للزمن والبواعت دخل في استفاضتها ، وما زلت أعتقد أن في الحاملين المغمورين من يوازن المشهورين النابيين ان لم يفوقوهم .

اجتمعت الى علماء وأدباء كانوا بعلمهم وأدبهم دون شهرتهم ، واجتمعت الى جماعة منهم كانوا أعظم بما يقدرهم الناس . تتوقف الشهرة على أمور لا على العلم والأدب فقط .

يطراً الفساد على البيوت المالكة بعد انقضاء دور الترقى ، وهذا يكون عادة في أيام ملوكها الأول . حكم محمد علي الكبير في مصر بما يباهى به أكثر من حكم عباس وسعيد .

من توفيق الانكليز أن بعض رجالهم في الشرق اذا غمزوا بعض ملوكه وأمرائه غمزة ، لاتلبث أن ترى من الغد وزارات تسقط وسياسات تبدل ، وزعماء تنهى أو تقتل ، وحرباً تشهر وصلاحاً يعقد .

نحريز ايرلندا من حكم الانكليز مثال من نزع ربقة الضعيف من

أيدي القوي . يأس الشعوب من أخذ حقها من غاصبها خَوَر في العزائم ،
ولا يعيشُ شعب الا اذا اشتد أبدأ في المطالبة بحقه ، وبسم لمستقبله
وتوقع الخير فيه .

لو توالى ظهور الصالحين في الملوك ماقضت معظم الأمم على ملوكها ،
ولما اعتاضت الحكم الجمهوري عن الحكم الملكي ، على ما في الأول من
تلمة وبلمة .

غلب الانكليز في الحربين العالميتين الأخيرتين بثباتهم أكثر مما
غلبوا بسلاحهم .

اذا اعتقدنا كما يعتقد الانكليزي أن كل ما في أرضه ملكه الخاص ،
وأن أقل ضرر يصيب أقصى مملكته بعد اصابة له في بيته ومملكه ،
كنا كالانكليز بوطنيتنا وتربيتنا .

مها بلغ من حرص حكومة على اصلاح ما تشعث من أحوال من
تحكم عليهم ، لا تعدم أروياه يثامونها ويحملون عليها . ويتألف جمهرة
الناقمين ممن حرموا المغانم وطرردوا من الخدمة .

اذا رأيت دبواناً يعج بغير المسلمين في هذه الديار ، فأيقن أن رئيسه
لا يراعي قواعد الاكثرية والأقلية .

يخطر ببالنا عندما نقوم بشيء من الاصلاح عظم الجهود التي بذلها
الغرب حتى بلغ ما بلغ من مقومات الحياة .

اضراب العملة عن عملهم للتنهيد ، زيّ جديد حدث بتقدم الصناعات
ووسعته نهمة أرباب المعامل ، وما نشأت الاشتراكية الا من تجمع العملة
في صعيد واحد يعدي بعضهم بعضاً بأفكارهم .

لو كان في بطانة بعض الملوك رجال ينظرون الى ما يصلح عليه

ملك سيدهم أكثر من نظرهم في منافعهم الخاصة ، ما كانت حال ممالكهم من التدني على ماتدمع له العيون .

عجبت لمن رفعت المصادفات الى مقام ما كان يحلم به ، فظن الأيام تسالمة أبداً ولا تسير الا على ارادته . ما أشد غرور الزعماء والمتزعمين .

يوم كان للدولة العثمانية أعظم جيش في العالم بمشائه وفرسانه ومدفعيته كانت الامهات في أوروبا تخوف أولادها بسلطان القانوني مليك بني عثمان العظيم .

كانت القرون الأخيرة عند مؤلفي العرب قرون الجماعين والمقتبسين ، وان شئت قل السارقين والمنتحلين ، وعصرنا هذا عصر المترجمين والناقلين ، وما كنا في الأول والآخر الا عالة على غيرنا .

ربما لم يصدر في مئة سنة أزيد من مئة تأليف عربي للمحدثين يحمل جدة وطرافة ، ولا يدخل في هذا العدد ما طبع من كتب الأسلاف .

كلما تقدمت أمة في طريق المدنية زادت تطلعاً الى الكمال ، وآية ترقيا عدّها نفسها أبداً مقصرة .

عاشرت ثلاثة أجيال من الأصحاب ، ونظرت ملياً في حياتهم ، فما عهدت أحداً شذء عن صاحبه في شيء ، جاءوا الى الدنيا فكدوا وكدهوا ، وحزنوا وفرحوا ، وجمعوا وضيعوا ، ثم انصرفوا على غير ارادتهم ، فعجز أهلهم وأصحابهم عليهم أياماً ثم نسوهم .

في الزمن الذي يكتب فيه لثاينجنا أن يدرس تدريساً صحيحاً في المدارس الاولى والوسطى والعليا تقوى الوطنية العربية أضعاف ماضي اليوم .

قال بعضهم هنيئاً لأمة ليس لها تاريخ ، والأولى أن يقال هنيئاً لأمة كان تاريخها مطولاً ومشرفاً كتاريخ العرب .

مادخلت العرب بلداً وخرجت منه الا الأندلس وصقلية ، ذلك لأن
الاستيلاء عليها كان غير معقول لبعدهما عن دار الملك .

لو تزع التعصب من القلوب ما عبس وجه في وجه .

لا تشفق على من كان هو السبب الأول في زوال نعمته .

استسهال المضاربات والمغامرات يؤدي على الأغلب الى ضياع رأس المال .

احرص على أن يكون جلّ شرائك أكبر منك سنّاً وأوسع علماً
واختباراً ، فالمرء يتعلم من الكبير ما لا يتعلمه من الصغير .

قلائل ممن يصدعون بالحق ولا يبالون ، فاذا ظفرت بطائفة منهم
اجعل منهم عشراءك ونصحاءك ، فعشرتهم تطيب ، ونصحهم ينفع .

تخف وطأة الأحزان بمرور الزمان ، ولولا ذلك لقضى الانسان عمره
في سلسلة من الكآبة لا يدري أين طرفاها .

من حاول استصلاح كل فاسد كان كمن يحاول ارجاع الشجرة العفنة
الى حالتها أول نضجها .

العمى أشكال وضروب ، ومنه عمى المال وعمى الظفر وعمى المنصب ،
وأضرّها عمى المنصب لشمول ضرره المصالح العامة .

لا تحتقر القرش الذي تقتصده ، قد تجمع من القروش مبلغاً يعينك
على ضعفك في شيخوختك .

لا يحتاج الناس الى حكام ولا الى محاكم اذا قام كل عالم بما يجب
عليه لتهديب العامة .

لا تحاول التوفيق بين شيخ وفتاة ، الاختلاف بينهما طبيعي .

من ينشط ولا يثبط بعده من المفضلين على الجماعة .

إذا سئل كل انسان عن ماله من أين اكتسبه يجري توزيع الثروات على نسبة عادلة .

يوم تظهر أسرار الرجال والنساء على جلبيتها يسوء ظن العقلاء بالصالحين والصالحات .

لولا حب البنين لكفّ نصف العالم عن التكالب على الدنيا .

هنا الخلق عندما تتحقق بعض أمانيتهم ويخف ما يقال له التشاؤم .

إذا أتى رزق الانسان بلا تعب يعرفه الملل ويصبح في شره أقطع .
هم العيش عامل قوي من العوامل التي تسوق الخلق الى الحضارة .

لو لم يكن للعقول هذا التفاوت المحسوس ما كان للحضارة هذه الروعة الآخذة بمجامع القلوب .

لولا أخذ التالي عن الحالي لاستمرت المدنية على حالة ابتدائية .

من تساوت المدارك في معرفة الحقائق بطل معظم المعتقدات .

الجامدون عن عمل الخير والمستعملون ارتكاب الشر أشبه بالأصنام ،
من يحطمها يحسن لقومه احساناً ليس بعده احسان .

قابل الجميل بمثله ، فالمِنَّة صعب على الحر تحملها .

لا تحسد امرءاً الا على علمه وعمله ، واجتهد أن تسير على الطريقة التي سار عليها العالم والعامل .

مالك لا يتسع للتصدق على فريق عظيم من الفقراء ، فاسع لتهيء لهم أسباب الرزق الدائم ، وبهذا تبطل الكدية ويخف البؤس .

عود نفسك العناية بالبائسين ، أخذك بأيديهم من أفضل القربات .

لا تجعل للباس سبيلاً الى نفسك ، فالباس أخو الموت ، والعاقلة لا يتعجل الموت .

قلْ أن اقتصد رجل فندم ، وقلمأ أمرف انسان بماله وصحته الا حزن وأسف .

سماجة السمج تخرج الحليم عن طوره .

ما أكثر من لا يعرف معنى الكلام الذي ينطق به ومن لا يفهم كلام غيره اذا ألقى اليه .

قالوا خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، واليوم يجب أن يخاطبوا على قدر علمهم وعقلهم .

ما أعظم المدى بين قرية أهلها جهلاء وأخرى أهلها متعلمون .

إذا خرج المرء من الدنيا ولم يعمل صالحاً كان حكمه حكم البهيمة .

تدارك بعض الأمر القديمة بيوتهم من الانقراض بالمسارعة الى تعليم أولادهم ، كأنهم أدركوا أن حكم الجاهل حكم الميت ، والأمره لاندوم بميت لا ينسل .

قد يظن خادمك اذا عاملته بما تقتضي به مكارم الأخلاق أنه أصبح شريكك ، فيملي ارادته عليك ، ويعترض على ما تعطي وتذر .

من الناس من يستخفهم التبسط معهم ، فعليك بالتوسط في محادثة أمثالهم .

الرحمة في غير مواطن الرحمة خُرق في الرأي .

أعجب بمن يذكر الشرف كل حين وهو عار منه .

لا تخط خطوة واحدة مع من عرف بقبح السيرة ، فانت لا تفيد منه الا الضرر .

بانقان كل صانع صناعته تقلُّ العيوب في الاشياء حتى لا تكاد ترى .
وفي الاثر ان الله يحب من العبد اذا عمل عملاً أن يتقنه .

مادمت حياً فانت في حاجة الى معاملة الناس ، فأحسن جهدك معاملةهم ، وعاملهم بأقصى ما تتطلبه الأخلاق الطاهرة وان كانوا منحطين في أخلاقهم .

رغيف الفقير أماً من رغيف الغني ، ونوم المعدم أهناً من نوم الثري .

المتوسطون في علمهم وقراءتهم أكثر من تخرج المدارس في أيماننا ،
المتوسط يسد بعض الحاجة ، والمتفوق يسد كل حاجة .

بما تثلج له النفوس ويتجلى فيه عدل المجتمع ، تبوءة البريء وتجريم المجرم .

رزق بعض المحامين حرام لاستغلالهم استعمال كل حيلة حتى تحكم
لهم المحاكم بما يوافق مصلحة موكلهم .

اقتصد في كل شيء الاقتصاد المعقول ، وليكن اقتصادك من وقتك
بالغاً حد التقدير .

كم في أكواخ الفقراء من النساء والرجال من هم أليق بسكنى قصور
الأغنياء ، لو أنصف الدهر .

اجتهد ألا تقع عينك الا على جميل ومنسّق فان القبيح أو المشوش
يفسد الذوق ويقبض الصدر .

إذا صحت عزيمتك على أن تتعلم كل يوم مسألة واحدة وتمضجها ،
تعذر بعد حين على أعدى أعدائك أن يبعدك في الجاهلين .

انفع قومك ما استطعت الى نفعهم سبيلاً ، فمن لا ينفع الناس لا يعد
منهم ، ومن لا يرجي خيره موته وحياته سواء .

لا تنفق زيادة على ما تحتمل انفاقه ، متى جاوزت في الصرف طاقتك
أشرفت على الإفلاس وأنت لا تدري .

من المتعذر أن يعد في أهل الاسلام من أغرقوا في اهراق دماء
المسلمين ، ولو أفتى بصحة اسلامهم ألف مفت منافق .

يزيد اليوم بعد اليوم عدد الحانات في مصر والشام والعراق . اغلاق
حانة أفضل من بناء جامع وكنيسة .

اطعام يتيم خير لك من أن تهب ديناراً لشخص يستجدي الأوكف
في الشوارع .

من جميل الذوق ألا تطلب من صاحبك أن يسدي اليك من المعروف
ما أنت غير مستعد لأن تقدم له بعضه .

قلّ في صحف العالم من لا يجوز أخذ معونة من دولة أو حزب أو
شركة ، لأنه ندر في الجماعات والافراد من لا يستعمل كل مال يُعطاه .

الرجل غير المرأة ، والفنّانة غير العجوز ، والدينار غير الدرهم ،
والذهب غير الفضة .

إذا أردت أن تعرف دين الوزير العامل عندنا الق نظرة على من
بابه تعرف هل هو بابوي أو أرثوذكسي أم شيعي أم سني .

من طبع الغربي أن يهتم لكل صغير وكبير ، ومن طبع الشرقي
إهمال الأمر الصغير ، مع أن الصغير أصل في الكبير .

لما كانت الفردية من طبع الشرقي سبقه الغربي في باب الاجتماع والتعاون .

إذا أخذت الصين بمدينة الغرب دخل العالم في طور جديد .

إذا ضعفت الدعوة الشيوعية وتضاءلت الدعوة الديموقراطية استراح
البشر من الحروب مئة سنة .

ليس في شعوب الأرض من يبغض لذاته ، وفي حكوماتهم ما يكره
لأصرارها على الاستبداد ، والمستبد ما حمد يوماً من الأيام .

من أفضل حسنات المدنية الحديثة جعلها من علماء الأرض على اختلاف
الجنس واللغة والدين والوطن أبناء أمية واحدة .

إذا فرضنا أن الفساد في شعوب الغرب عشرون بالمئة فليس هو
أقل من ذلك في الشرق .

استبداد فرنسا في الافطار الاسلامية سيؤدي بها الى الانحلال كما
يؤدي بالشعوب اللاتينية الاخرى .

بشر المستبد بزوال سلطانه كما قالوا بشر القاتل بالقتل .

تفاخر فرنسا باعلانها قانون حقوق الانسان ، وقد استنثت من الانتفاع
منه على ما يظهر جماع سكان مستعمراتها الاسلامية .

بقدر ما يبهرك مافي المدنية الحديثة من لطف وذوق تقع فيها على

مالا يطاق من عسف وعنف ، والمظلومون فيها أوفر من المرحومين ،
والمتعون أقل من المحرومين .

لو كان للعنصر الشأن الاول في الاسلام ما استولى الديلمي والفارسي
والنثري والتركي والكردى والشرکسي والبربري على أقطار كان معظم
سكانها من العرب . غاية ما يتطلبه المغلوب من الغالب ألا يظلمه ولا يذله ،
وألا يظهر الاسلام وهو من ألد أعدائه .

لكثرة ما شاهدت من تلون بعض ساستنا كدت أعتقد أن هذه الطائفة
أقل الطوائف مراعاة لقواعد الأخلاق وأكثرها نفاقاً ونسياناً للمعروف .

إذا أدارت أيد طاهرة ما يجي من الصدقات كان منها ما يسد عوز
العجزة والعميان وأرباب العاهات .

يقول الانكليز اننا لا نخلق الفرص ولا نضعها اذا صنعت ، وتاريخهم
السياسي العجيب ناطق بحرصهم على الأخذ بهذه القاعدة .

كان الانكليز خلال الحرب الماضية يصرفون كل يوم سبعة عشر مليوناً
من الجنيهات ، فآل أمرهم على سعة حيلتهم ودقة نظامهم المالي الى حالة
أشبه بالافلاس بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

بالبؤس أمة يقودها جهلاء . الأمة حكمت العالم منذ الدهر الأطول ،
وكان العلم بمعزل ، واغتبطت الانسانية أن أصبح الحكم في العهد الأخير
للعلم وحده والأمية متراجعة .

رأيت وزراء يجوزون لأنفسهم قتل بضعة أطفال حتى تسلم لهم وزارتهم
مدة ، هؤلاء يدعون وزراء آخر الزمان .

تغنى الطالبان بما تم على يد مليكهم موسوليني من ضروب الاصلاح ،

ولما خرجت القوة من قبضته نسوا كل ما قدم اليهم من خير فقتلوه شر قتلة . وتغنى الطليان بمدح هتار حليف موسوليني أيام انتصاراته ولعنوه في هزائمه .

الشعوب التي تعمل أفضل من الشعوب التي تقول ، والعلم العملي أنفع من العلم النظري .

قل في الملوكة من لا يسىء استعمال القوة ، وإذا قام في ذهن أحدهم أمر اعتقد به خدمة نفسه ، استحل في تحقيقه كل ما حظرتة الشرائع والقوانين .

يندر تجرد دولة من فطبيع الاستبداد ، ولانجاة من عاره تعتمد الى أساليب تصبغها بصبغة قانونية ليشتري عنها أنها على حق فيما تضي وترسم .

لا تفلح أمة في عامة شؤونها الا اذا أفلحت سياستها أولاً .

كلما قال قائل ان الأمم يستغني بعضها عن بعض زادت صلاتها بفعل الحضارة ، ولا يسوغ لأمة اليوم أن تدعي انها مستقلة بسياساتها بل ولا بأسباب معيشتها .

من لا يحسن تدبير ماله لا يحسن تدبير مال غيره ، وقديماً قال الحكماء من عجز عن سياسة نفسه فهو عن سياسة غيره أعجز .

عادت الماسونية على بعض من انضموا اليها بنفع طفيف ولم تستفد منها المصلحة العامة شيئاً .

قضى فن التمثيل ألفي سنة حتى وصل الى ما وصل اليه من الاتقان واروتقت السينما في نحو خمسين سنة بسرعة تضاهي سرعة هذا العصر في كل شيء .

كان الناس قبل سهولة المواصلات ينقطعون وراء حدودهم ، ويكتفون بما تعطيه أرضهم من رزق قليل ، وما تنتجه أيديهم من الصناعات الأولية ، والآن يرتكبون في طلب العيش أميالاً وفراسخ ، وبهذا يكثر سكان العواصم والخواضر ويقل أهل القرى والمزارع .

لو كان من خانوا قومهم من الملوك على شيء من الحياء ما ارتكبوا جنائياتهم الظاهرة لكل ذي عينين .

من نعم هذه المدنية على العالم أن تذاع أعمال الملوك في زماننا شاءوا أم أبوا ، وكانوا قديماً يرتكبون كل كبيرة ولا ينكشف أمرهم الا لفئة صغيرة من المقربين منهم ، وهؤلاء من مصلحتهم الستر عليهم .

من لم تنفذ روح الوطنية الى قلبه يستعجل عليه أن يخدم وطنه خدمة صادقة .

شهرة تقوم على الدعايات الكاذبة محكوم عليها بالزوال ، ونجاعة رأس مالها ديون وسكف تؤدي الى الافلاس حتماً .

لا تشكو الانسانية ضيقاً يوم يكون ولع الانسان بأعمال الخير على قدر ولعه باستماع الغرائب .

من الجهل دعوانا أننا نبغنا في العلوم ، ونحن لم ننبغ في فرع واحد منها حتى الآن .

تسود الدنيا في عيني كلما رأيت الامانة تحف اليوم بعد اليوم ، كأن ارتقاء فن السرقة من لوازم هذا العصر الراقي في كل فن .

من يكتب التأريخ يخاف تأثيراته ، كالطبيب يدرك ما لا يدركه غيره من الخطر في مرض يداويه .

تفاهل لا تنشام ، فليس في التشاؤم الا ازعاج صاحبه على غير فائدة .

لا تسمى ظنك بسكل الناس فالحير مانضب معينه في العالم ، اذا
استحكمت فيك ملكة سوء الظن تبليت أعمالك فلا تدري من ترك
ومن تعامل من الخلق .

مهما انتفخ المرء لا يشغل أكبر من حجمه ، ولا يقدر بغير قيمته .

عندما يستعدي الصاحب صاحبه يقرب محاسنه مساوئ ، ويتناسى كل
يدلر له عليه ، ليقنع من حوله أنه على حق في هذه العداوة .

قلما رأيت رجلاً نولى الحكم ولم يبدل المنصب من معاملته أصحابه ،
ذلك لان الحكم يورث المشارك فيه بأوأ وزهواً .

قالوا فلان لا يعجبه أحد فقلت لهم : وهو على التحقيق لا يعجب أحداً .

ان قلت لا أدري واحتقرك بعض الناس ، أفضل من أن تقول جزافاً
فتحتقر نفسك ويحتقرك جميع الناس .

لا أعتقد فيمن اعتاد أكل الحقوق أن يعف عنها يوماً ، ويستحيل على
المثوث بالرشوة أن يطهر منها الا طهارة موقنة ، ثم يغلبه طبعه فيعود
الى ما ألف .

قال أحدهم ان فلاناً أفلس فأجبته : كان يتوقع له الهلاك لا الافلاس
لانه قطع كل صلة له بالشرف والذمة .

متى أشاحت الامة بوجهها عن كل من خانها لا يجد الخائن من يرد
عليه السلام . نعموة الوجوه فتحت السبل للمدلسين فتاهوا في تدليسهم بلا وازع

متى خرج المرء عن الرضا بالحالة التي هو فيها أنشأ يفكر في المستقبل،
والتفكر فيه دليل على أنه خرج من الحمجية الى المدنية .

لا تعتز على أحد في طعام تمل اليه نفسه دون غيره ، ولا على
من ينظر في علم أنت تنكره ولا تؤثره ، فالجدال قديم في الاذواق والالوان .

من لا يشبعه ما كسب من المال الدثر لا تشبعه الدنيا وما فيها .

لو تحاسب المتعديات حساباً دقيقاً ما تحقق لهم في أسباب عداوتهم
ما تتألف منه مادة للتباعد والقطيعة .

من رضي عنه أصحاب الشأن عاش في هناة ، ومن غضبوا عليه بات
في هم وغم .

بشر المنافقين بافتضاح أمرهم ولو في آخر عمرهم .

قالوا ان بشرة الانسان تتغير في كل سبع سنين ، أما هو خليق
إذا أن يغير في مثل هذه الحقبة رأيه واجتهاده .

لا تقاطع صاحبك اذا بدا منه ما ينافي شروط المحبة ، واعرض عنه
اعراضاً مؤقتاً عسى أن يرعوي من نفسه ، ويعترف بخطائه فلا يعود
الى مسااتك .

من العقوبات الطبيعية اضمحلال ثروة جمعها صاحبها من رزق العباد ،
عاش من تجردت نفسه من المطامع الخسيسة .

يأبى الخائن الا أن يظهر بثوبه الحقيقي حتى يعتبر الحونة .

عوبك مستورة عن عينك لا يراها الا اخوان الصديق .

بعد سقوط الاخلاق هذا السقوط المريع لا تتوقع خيراً من أكثر الناس ، فأنت أنت مصدر خيرك وشرك .

ما أبهج مشهد ظالم يكف شره ، ومجرم يجازى على جريمته ، وكذاب يفتضح بكذبه ، وآكل حرام يهلك وما جمع .

فضائل الامهات تمرى في أرواح أولادهن مريان الرائحة الطيبة في الثوب النظيف .

حبة من يحبك بلا عوض ولا غرض أصفى من حبة الامل والافارب .

لا شيء أثقل على القلوب ممن كان سلاحه الوقاحة ، وسبيله الحب والاحتيال .

ان لم يظن الاشرار فيك قوة ، داسوك بأقدامهم وما حسبوا لك حساباً .

يكثر الجفاء في سكان الجبال ، وتكثر الميوعة في سكان السهول ، ولا يعدل هذين الخلقين الا التربية والتهديب .

المناصب في العادة تولي صاحبها نصف روعته ، والنصف الآخر ينبعث من شخصه .

عندما يؤثر المرء السلامة ويمتزل الاشتراك في أمور المجتمع يكون كمن ينادي الموت ليروج فيستل روحه .

إذا أنت لم نفرح لنفرح قومك وتحزن لحزنهم عد نفسك دخيلاً فيهم .

تأتي على المرء أيام لا يسليه فيها الا تربه الذي نشأ معه ، اخوان الصبا هم اخوان الصفا .

· المكثرون من الثروة لا يأتون بعمل ، وقديماً كان القوالون أكثر من الفعّالين .

يكثُر المتبطلون في العواصم والخواضر ، ويكثر فيها الناقدون والناقمون ،

رأي سكان الريف في سكان المدن أسوأ رأي ، ولا يقل عنه سوء رأي أهل المدينة في الفلاحين .

ما أجمع الناس على استحسان شيء قط ، اذا وافقك فريق من العقلاء على بعض رأيك في الإصلاح فأنت جد موفق ، واذا حصلت على جانب من آمالك فأنت الرابع كل الربح .

غبطت من ساروا على وتيرة واحدة في معاناة ما اختاروا من صنعة لهم أول أمرهم ، واستمروا على تحسينها مدة حياتهم حتى كتب لهم النجاح فيها .

السير البطيء الدائم خير من السير السريع الموقت ، والساقية الجارية أعود على الحقل والحديقة من النهر المقطوع .

عود نفسك الانتان فيما كان لك وما كان لغيرك . الانتان تنبسط له النفس ، وهو أصل النجاح في الأمور .

لا تهمل إصلاح خلل مها تراءى لك أنه صغير . ثقب صغير في بارجة يفرقها في ثوان معدودة .

من دواعي تقهرنا ادعاؤنا معرفة ما لا نحسن ، الدعوى العريضة يخفق صاحبها آجلاً أو عاجلاً .

لا تتطلب المستحيل ، ولا تتذرع بغير المعقول ، طلاب الحال كعشاق الحبال عاشوا تساورهم أنواع الآلام .

قد تُرثي لحال امريء وهو في ذاته مجبور مغتبط ، والرضا أهم
أجزاء السعادة .

أنفق المنافقين من يُظهر لك الحب ويبطن العداوة .

من يمسك بيد الضعيف حتى يقوى ، ويلقن الجاهل حتى يتعلم هو
من أعظم خدام الانسانية ، ومن يعاون على ذكاء الذكي حتى يظهر ،
وعلى علم العالم حتى ينشر ، كان فضله على العالم لا ينكر .

إذا ضعف استعداد المرء لقبول الافكار السديدة كانت من الصعب
أن يفعل فيه الوعظ والارشاد .

العامة كالعجائز دينهم دين امامهم ، فليعرف هذا كيف يلقنهم دينهم .

من طبع الانسان المائل من عمله ، انك لن تدفع المثل الا اذا
عمدت الى المسليات المباحة .

متى عزت عزة النفس في رئيس شعب زاد الطعام في دياره .

أعظم ما كانت تثلج له النفس شهود مصرع أرباب القوة بمن لم يتقنوا
الا حوك الدسائس .

مهما صفت نفوس الرجال والنساء وعرفوا بالنقوى والتدين تبقى فيهم
فرجة من البهيمية لا يفعل فيها الدين والتربية ، والخوف من الفضيحة
يجنب بعض الجنسيتين ركوب مراكب الفحش .

عجبت من وصول بعض الرؤساء الى مقامات لا يليق بهم عمرها ،
ولما خبرتهم ثبت لي أن العلة في تأخرنا رفع الوضع الى درجات الرفيع .

من عمال الحكومات من يجوز لنفسه ارتكاب كل عار لتبقى له

مشاهرتة وقد بصرح بذلك ، والأشراف منهم يتشوقون ليوم خروجهم
من الخدمة ليتحرروا من رقبها ويفرغوا لأنفسهم .

طالبت بلادي باستقلالها حيناً من الدهر فنزعت يدها من غاصبيها
الأشداء ، والمثابر على نشدان حقه واصل إليه لالحالة .

إذا انفق ملوك المسلمين على تعليم رعاياهم عشرة بالمائة مما يسرفون
فيه من أموال دولهم يصبح المسلمون في مستوى الغربيين من الرقي بعد أعوام .

ما أسخف من يتوسل اليك لتشهد له بحسن حاله حتى يصل الى كرسي
النيابة عن الأمة . لو كان هناك ما يسمونه بالوعي القومي لكانت الأمة
هي التي تكره الصالحين من أبنائها على قبول هذه المهمة الشريفة من دون
أن يلعبوا هم في طلبها ، فطالب الولاية لا يولى .

إذا أمكن ان تبيض بشرة الزنجي اعتقد أن طبع اللثيم يتبدل .

يكثر في النابتة من يصطنعون الغيرة على العلم ويجاهدون في سبيل
الأشتهار به ومنهم من لا يجودون أقرب الى الظهور من الطعن فيمن
تقدموهم مراحل .

قلما اجتمعت بلاغة القلم وبلاغة اللسان ، اذا قويت ملكتها في رجل
كان النابغة الذي يردد ذكره في حياته وبعد مماته .

أضحكني رجل خامل حاول أن يبني شهرته على النيل بمن يتعذر
عليه أن يلحق بهم . من يتنامى أن شهرته لا ينسجها له غيره فهو غر أحمق .

في الرجال من لهم عقول أطفال وأجسامهم أجسام رجال ، ومن
الأطفال على ضالة أجسامهم من أوتوا عقول الرجال .

بعض اللبنانيين - كـ بعض المصريين مولعون بالالفاظ . طلب أحدهم الى أمير من امراء لبنان المعوزين أن يكذبه الى ثوره ليحرق له أرضه ، فرضي بشرطه على أن يخاطب بلقبه أثناء الحرق ، فلا ينادي الا بلقب الامير ، كأن يقال له : فـلـك يا أمير ، بـلـغ يا أمير ، يمينك يا أمير ، شمالك يا أمير .

مقو ط السراجيين

اشهر محمود زكي باشا بانه من أقدر كتاب الهجو في مصر يحفظ من معاجم اللغة جميع ألفاظ الشتم والقذف . وقد دأب زمناً على الطعن في الأغنياء ليأخذ من أموالهم ما يطعم فيه ، شأن معظم أرباب الصحف الاسبوعية في ذلك العهد ، وكانت المحاكم تحكم عليه كلما أجرم حتى اضطر آخر الامر لكثرة ماصدر عليه من الاحكام الى مغادرة القطر ونزل الاستانة . وبعد حين عطف عليه الحزب المنقلب على الدولة حزب الاتحاد والترقي فأتى به الى الشام وعهد اليه بتحرير جريدة « المشكاة » ، وزين له الطعن علي وعلى اصحابي ، فأثرت عليهم ألا يطالعوا ما يكتبه فينا ولا يردوا عليه ، فانطلق لايقف امامه شيء ، ولا من يجيبه او يتعرض له ، ثم ضاق ذرعه من عدم الالتفات اليه ، فتوسط لنا حتى نرد عليه في جريدتنا او في جريدته او في جريدة حيادية فما أعرفناه التفاناً . وانتهت مهمة الهجاء في دمشق ، ورحل منها مع من استخدموه في أغراضهم ، فلقبته في بعض شوارع الاستانة وكانت سورية خرجت من حكم العثمانيين — فاقترب مني يهش ويبدش ويمتذر متذلاً عما فرط منه معي ، فقلت له : او كتبت في ماتمتر عنه الآن ، وكن على ثقة اني لم أقرأ ما كتبت ، فكاد يصعق لقولي كأنه عدو كلامي احتقاراً له وكانت نظرتي اليه في تلك الساعة نظرة احتقار من دون تعبد .

الاتحاديون مدة ولايتهم على الدولة العثمانية في آخر ايامها يعدون الشتم قوة لحزبهم ، وسلاحاً ماضياً يقاثلون به من ليس على رأيهم ، كأكثر ارباب الاحزاب في الشرق يعدون الى المهارات والسفاهات في مناقشة خصومهم السياسيين .

قصص مؤخراً ما جرى لي مع هذا الهجاء على بعض اصحابي الالباء فقال : هذا مما يستغرب ، ومن يحاول الجري على طريقتك في الاعراض عن السفهاء يجب ان يكون ذا اعصاب قوية جداً . فقلت له : هذه الطريقة في معاملة الشتامين من افضل ما يعاملون به حتى لا يبلغوا مأربهم من اذاعة اوقات من سخروا للطعن فيهم . والطعن على الاغلب لا ينتج الا سقوط الطاعن ، وقد يعلو قدر المطعون عليه اذا وقف الناس على مرامي الطاعنين من طعنهم .



المغتربون الشاميون

جاء لبنان وسورية في صيف سنة ١٩٥٠ مئة وخمسون رجلا وامرأة من المغتربين السوريين واللبنانيين في الاميركتين الشمالية والجنوبية ، ومنهم المولود هناك والمتقف بثقافة المملكة التي نشأ فيها ولا يتكلم بالعربية ، ومنهم من هاجر في صباه ولا يزال يتكلم بلغة بلده الاول ، وبينهم أناس من رجال المال والاعمال وهم قلة . وليس جميع أبناء يعرب في أميركا أغنياء كما يتوهم المتوهمون ، فالأغنياء كما قال العارفون ، خمسة بالمئة والمتوسطون ٢٠ والمكفيون ٥٠ والفقراء ٢٥ .

واحتفلت الجمهورية السورية بمقدم أبنائها الأعزة ، وطافت بهم أرجاء القطر تطلعهم على ما فيه من عاديات ومصانع ومعامل ومناظر وخيرات طبيعية ، وأقامت لهم من المآدب أفخرها ومن الملاهي أطفها وأطربها . ورحبت بهم الأمة على اختلاف طبقاتها ومذاهبها . وعادوا الى موطنهم الثاني شاكرين معجبين . وقيل انهم على عزم أن يشاركوا مواطنيهم في المشاريع التي تعدها حكومتهم للنهضة بسورية .

كانوا يقولون ان ثلث المهاجرين من الشاميين يهلك في مهاجره ، وثلثهم يعود إلى بلاده بعد أن يرثى ، والثلث الآخر تستهويه الأرض التي نزلها فينأمرك . وتبدلت هذه القاعدة فيما أحسب وما اخال الآن أنه يبلغ عدد العائدين من النازحين عشرة بالمئة ، فان الأقطار التي نزلوها صبغتهم بصفتها وصعب عليهم أن يعودوا ويتركوا ما هم فيه من سعة والمثل العامي يقول (مطر ح ما تروق الزق) وهكذا كان حال المتمدنين وغير المتمدنين في هجرتهم على توالي الأحقاب . ويقدرّون اليوم عدد المغتربين من لبنان وسورية وفلسطين وشرقي الاردن الى أميركا وغيرها من بلاد المهجر بأكثر من مليون مغترب جلهم من جبال لبنان .

داء الانتكال

كان المسلمون يجودون من أنفسهم على الخيرات ، يبنون بدافع ديني الجوامع والمدارس والرباطات والقناطر والحصون والسبلان وغير ذلك من المصانع والمرافق وروح الاستقلال يتجلى فيها أكثر من الانتكال . ولما بدأ الانحطاط أصبحت الاعمال النافعة لا تقوم الا بضغط الحكومات وتديروها على الاغلب .

قد تقوم الاعمال عندنا بأيدي أفراد ، فاذا أصبحوا جماعة تضاءلت قوتهم واختلفت كرامتهم ، والمشاريع في ديارنا تبدأ بقوة ولا تلبث أن يبدو عليها الضعف ، تدرك ذلك اذا اعتبرت همه الجماعة في البداية بأمر ومهمهم في آخره ، وهي هنا همه شخص أو بضعة أشخاص يعرفونها الفتور ، وفي الغرب همه جماعة نجمهم غاية متحدة يتحمسون للوصول اليها . ومشاريع الغربيين تطرد في رقيها ومشاريع العرب تدوم مدة قليلة ثم تميل الى التلاشي . فالجامعات في بلاد السكسونيين مثلاً هي من عمل الرعية قامت بأيدي أفراد أذكىاء ، أخذتهم الغيرة على دينهم وآدابهم ولغتهم فتوفروا على نشرها ، ولا تزال العصر بعد العصر تنمو النمو الذي قد در لها ، ومصر على توفر أسباب النجاح فيها ، لم تستطع الى النهاية أن تقوم بالجامعة التي أنشأتها أوائل هذا القرن ، فتنازلت عنها الى الحكومة بكل ما لها من أملاك لتثبت أننا قوم انتكاليون في كل شيء .

كتب الخيالوت

في العهد الاخير انصرفت همم بعض من يشغلون بالفلسفة والالهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة ، وكانت بعض النفوس تتشوف لوقوف عليها يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ماتهتقدم به الانسانية وتصفى الأرواح من كثافتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة في حلتها الجديدة من العناية بتجلى للأنظار أنها نافذة الا من العبث الذي أحب بشبه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام ، فضاعت فيها أعمارهم واضاعوا اعمار من اشتغلوا بها .

نحن والقومية

اذاع السيد (آصف علي اصفر فيضي) وزير الهند في الشرق الأدنى (٨ حزيران ١٩٥٠) رسالة باللغة العربية وجهها الى الشعب اللبناني قال فيها : ان الهند قاومت تقسيم فلسطين لاعتقادها انه ضار بمصالح العرب كما قاومت مشروع سفورزا - السيامي الابيطالي - في تقسيم ليبيا حرصاً على بقاء وحدتها ، ولما في ذلك من مصلحة لوحدة العرب . وقارن بين لبنان والهند مشيراً الى الفارق الكبير بينهما من حيث الضيق والانتساع . ثم ذكر اختلاف الطوائف وتعددتها في الهند كما هي عليه الحال في لبنان .

وقال ان المهاتما غاندي دعا الى الأخذ بالقومية وجعلها في المرتبة الأولى ونبذ الطائفية وجعلها في المرتبة الثانية .. ونصح للبنانيين ان ينهجوا هذه السبيل للحفاظ على وحدتهم القومية .

نصيحة ثمينة تقدم بها سياسي شرقي الى لبنان وقد شاهد فيه مضرّة الطائفية وسوء مغبتها عليه . ولطالما اقترح صاحب هذه المذكرات على اخوانه اللبنانيين تعديل دعوتهم الطائفية لتعذر قيامها في هذا العصر على ما يرجو لها أنصارها . وكثيراً ما توسل اليهم أن يؤلفوا من لبنان وسورية دولة واحدة فما أظهروا ارتياحاً لمقتوحه قط ، لأن بعض الأدمغة في الجبل مصابة بحمى التعصب الديني على صورة مضحكة ومبكية . ولعل اللبالي تهدي الى هذا الأمر الحيوي فقد شاهد أهل لبنان ما أصابهم من نقص ثروتهم يوم تمت القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان ، وتبين لمن يعرف ولمن لا يعرف أن حياة لبنان بالوحدة ويستحيل أن تعيش حفنة صغيرة من السكان بانعزالها عن جاراتها وهي مثلها في كل شيء وكل مواطن في حاجة الى مواطنه ، لا يحيان الا اذا نزعا من بينها الاختلاف واتحدا قلباً وقالباً .

القصة

كاد فن القصة او الروايات بمظهره الحديث يعد اختراعاً غريباً . اقتبس الاوائل من كتاب الغرب عن اليونان والرومان والعرب ما هباً لهم الاسباب الى ظهور عبقرياتهم في هذا النوع من الأدب ، فعدت القصة من الأدوات التي جمعت بين التسلية والتعليم عند الافرنج ، وازداد مع الزمن مطالعوها من جميع الطبقات زيادة عظيمة جداً .

أردت غير مرة على أن أشارك في القصة أكتب فيها او أنتقد بعض ما يظهر من أضافها بأفلام كتاب العرب المحدثين في الشام ومصر ، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها ، وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لانها مترجمة . وأكبر داع الى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلفة ، والاختلاق بما تأباه طباع من اعناد التدقيق في النصوص وتشرب روحه بالنقد الأدبي والاجتماعي . فمن العبث أن يعنى من ألف هذا بغير ما ألف وما يكون الاختلاق هو المحور الاعظم الذي يدور عليه الكلام .

انم كانت الروايات آخر ما استساغه ذوقي من فروع الأدب الحديث ، وقبلها طالعت رواية بشوق الا روايات الاستاذ محمود نيمور لانها عربية فيها طابع الشرق ثم روايات مولير الشاعر الفرنسي ورواية دون كيشوت لسيرفانتس الكاتب الاسباني لما حوت من هزل ونقد .

وقرأت مرتين جميع روايات اناتول فرانس كاتب فرنسا في القرن العشرين وأخذت بسحر بيانه وسعة علمه .

الافهام ص لادين

سمعت الشيخ محمد نجيت من كبار علماء مصر يقرأ بعد صلاة العصر في شهر رمضان بمسجد سيدنا الحسين بالقاهرة درساً دينياً لم أفهم ان كان موضوعه وعظاً ورفائقاً أو فقهاً أو تفسيراً أو حديثاً . وكان الشيخ تجاوز التسعين فيما أحسب وصوته ضعيف وهو يحرص على تعليم قومه ، وقد بلغت منه الشيخوخة أن يحمل من سيارته حتى يجلس على مقعده في الجامع ، وقومه لا يتكأون عن الحضور عليه والتبرك بما يقول . وكان سيرة الاستاذ كانت تنمي على معظم العلماء من بني وطنه انهم جد مقصرين في تثقيف العامة ومن عاداتهم انهم متى أحيوا على المعاش وتقاعدوا عن خدمة الحكومة يقبعون في بيوتهم ذاهبين الى انهم قاموا بواجبهم وانتهت مهمتهم في خدمة العلم والدين . اما الشيخ نجيت عليه الرحمة فظل يكتب ويؤلف ويدرس الى آخر أيامه .

قلت ذات يوم لصديقي الاستاذ الشيخ عبد الله المنجد شيخ القراء بدمشق : أراك ملثاً المزاج فلماذا لا تصطاف وتريح نفسك من عناء الدرس أياماً ؟ فكان جوابه : انه ما تقوله سديد ، والامور ميسورة ، لكنني أرى أن أثري الآن لأن تلميذي الشيخ عبد القادر قويدر العربي بقي له من القرآن اشياء يسيرة يجب أن ألقنه اياها وأخاف اذا تغيبت مدة عن المدينة ان تقوت الفرصة وأموت قبل ان يختم ما أرى تخنيمه اياه . ومات شيخ القراء خلال الاشهر القليلة التي مضت على هذا الحديث بعد ان اتم لتلميذه كل ما يجب ان يلقنه اياه .

فهل بعد هذا اخلاص أعظم من اخلاص هذين الشيخين العظمين للدين والعلم ؟

الحجاب والسفور

بحث وأحد أحابي من أعيان الموارنة في حجاب المسلمات ، فشهدته
يعجب من تأخر النساء المسلمات في كشف حجابهن الى اليوم على حين
سفر معظم نساء الامم . فقلت له : نحن نحاذر اذا عمدنا الى القوة في ازالة
الحجاب قيام فتنة يستغلها الرجعيون ، وأرى أن مسألة الحجاب آخذة
بالانحلال من نفسها فهو ضئيل في الريف ، وفي المدن أخذ يتقلص سنة
عن سنة ، وجميع الانس اللاتي يدرسن في المدارس يخرجن اليوم
سافرات ، ولا يرغبن في العودة الى الحجاب بعد التخلص منه ، هذا
اذا لم يحملن أمهاتهن وأهلن على الاقتداء بهن في كشف وجوههن .

نعم يسير هذا التجدد من نفسه ، ومن دون تعمل ولا أمر حاكم
ولا تشريع مشرع ، ويزيد السافرات شئنا أم أبينا . وانا نشهد التبرج
أيضاً ينقص قليلاً ويرجع المخدرات فيه الى السذاجة وعدم التكلف ، وكل
ذلك بدافع طبيعي لا دخل فيه للحكومات ولا للجمعيات . ويقل الآن عدد
المنكرين على السافرات كما كانوا ينكرون عليهن منذ ثلاثين أو أربعين
سنة ، بل لقد رأينا نساء من كانوا الى أمس يتمسكون بالحجاب من
أول من تقدمن لكشفه وتظاهرن بأنهن سفرن في غفلة أزواجهن وما
سفرن الا برضاهم .

لم يشترط الاسلام الحجاب على النساء على ما كانت حالهن الى عهد
قريب وما نزلت آية الحجاب الا في نساء الرسول وفي حالة خاصة . والاسلام
يحظر الخلوة ، التبذل ويتطلب الحشمة ، حرمة للمرأة ومبالغة في تكريمها .
هذه مسألة معقدة بدأ يحل عقدها في مصر محرر المرأة قاسم امين المصلح
الاجتماعي عليه الرحمة ، ثم زاد التوسع في حلها انتشار التعليم وشيوع المدنية
والاختلاط بنساء الغرب ، وكانت مصر وتركيا من أول الدول التي

بادرت الى غزيق الحجاب ، ولا ينكر ان السفور باديء بدء أسفر عن قليل من المفاسد وقد أسفر أيضاً عن كثير من المحاسن . وكانت النفع منه أوفر من الضرر على أي حال . ولا بدء في نهضة كهذه من وقوع ضحايا في أول الأمر ثم تصفو المشارب وتأنف النفوس هذا الضرب من التجدد ويصبح كأنه من الأمور المعتادة .

الماضي والحاضر

ما دخل حب الربيع في أمر من أمور العقل الا أفسده . ولع قدماء الوراقين بالملكاسب أفسد الكتب ، منذ وهموا ، ومنهم الأميون ، أنهم لا يربحون من النسخة الا اذا فقتروا في الانفاق عليها ، فصار أمر الاستنساخ الى العامة ومن في حكمهم من الجلاء ، وبذلك انتشر الغلط والسقط حتى كان عامة الناسخين المتأخرين لا يدركون معنى لما ينقلون ، وبذلك كانت جنابة الوراقين على العلم أعظم جنابة .

في التقارير التي كان لورد كرومر حميد الاحتلال الانكليزي في مصر يصدرها كل سنة عن حالة الادارة والسياسة في القطر المصري مثال من العقل الانكليزي ومن مهارة المستعمرين الانكليز . وفي تاريخ مصر الحديث لصديقي العلامة عبد الرحمن الرافعي صور من صفاء العقل العربي وكشف حيل المستعمرين .

لما جرد العثمانيون مع حلفائهم الألمان في الحرب العالمية الأولى حملة على التبعة عازمين على فتح مصر ، سألتني أحد أغنياء التجار ، وكان عامياً كمعظم أبناء حرفته في ذلك العهد ، أن أذكر له رأيي في مصير هذه الحملة . فقلت له : أقول لك ان كنت تكتم . فقال : لك ذلك وأعاهدك على الكتمان . فقلت : انهم لا يرون جدران مصر ، ولا يستولي العثمانيون

على التبعة حتى يموت عليها آخر انكليزي ، أي ملك انكلترا . فاستغرب
التاجر بعد حين كيف صح تقديره ، فردّ المهاجرون عن مصر خامرين .

اجتاز غلادستون من عظماء الساسة الانكليزي في القرن الماضي بأولاد
يلعبون في زقاق من أزقة لندن ، فوقف منهم موقف الاحترام ورفع
قبعته مسلماً ، فقال له صاحبه : ولمّ تسلم عليهم وهم أطفال لا يستحقون
هذه العناية منك ؟ فأجابه اني أقوم بهذا الواجب رجاء رعايتهم لنا غداً
متى استلموا زمام الحكم .
الانكليز من أكثر البشر حساباً للمستقبل .

التعقيد لا تسنيغه جميع الأذواق ، تبدلت أساليب الكتابة العربية
مرات في الاسلام ، وما بقي من أساليبها في الآخر الا الاسلوب الذي
لا تكلف فيه وهو حري أن يقبله ذوق كل قاري .

الى الثرون الأخيرة ما كان لطلاب العلم رغبة في غير الفقه ، ذلك
لأن معرفته كانت توصلهم الى الملوك ، ويكون منه لصاحبه مجد وثناء .
واليوم تشتد الرغبة في درس الحقوق لأن صاحبها يصل الى النيابة ،
والنيابة مفتاح باب الوزارة ، وفي الوزارة كل الخيرات .

يقل الراغبون في درس الطب والعلوم الزراعية والميكانيك على ما فيها
من المكاسب لمن يتقنها . ومن الطلبة من يحاول مع درس الحقوق درس
الادب لاعتقادهم أن في الجمع بينها تفتح لهم مغالقات الغنى .

من الصواب ألا يزهد في القديم وأن يُتعارف أبداً بالتحسين فالجديد
تتمة القديم . وقد قال غسٹاف لبون : « ان الاحتفاظ بأوضاع الماضي
مع تبديلها بما لا يشعر به قوة كبرى للشعوب . عرف الرومان في الدهر
الغابر ، والانكليز لهدنا كيف يحققون هذا المطلب » .

أخرج هذا العصر ثلة من النقاد أصلحوا ما عثروا عليه من الاغلاط الشائنة في بعض ما طبع من أسفارنا القديمة ، فغدونا بفصلهم نقرأ الجيد والمعتمد ، وكنا الى أمس نقرأ السليم مخلوطاً بالسقيم . انتقل العلم من جهلة الفساح والطابعين الى أيدي العلماء المحققين فأدخلوه في نظام من التدقيق يفاخر به ، وأعظم بها من مرحلة قطعناها .

كان معظم من اشتهروا من العمال على عهد الانتداب الفرنسي والانكليزي في الديار الشامية والعراقية من صنائع الدولتين يسيرهم المستشارون على ما يبدو لهم . فعلينا اذا أحيينا أن نأتي برجال يخدموننا باخلاص أن نختار من غير هذه الطبقة التي نشأت على العبودية لصاحب القوة .

« تنغير الاحكام بتغير الازمان » من القواعد التي سارت عليها انكثرتا في سياستها خلال القرون الثلاثة الاخيرة . كانت تحارب من تنوهم أنهم عثرة في طريق سياستها حتى تضعفهم ولا يبقى أمامها من تحشاه . فعل الانكليز ذلك بالهولانديين والاسبانيين والفرنسيين والالمان ولما توترت حالة السياسة العالمية في العهد الاخير ، وبدا شبح الحرب في الافق بدلت انكثرتا سياستها ، وقد رأيت الدعوة الشيوعية تسري في الارض سريان النار في الهشيم ، واذ لم يكن لها مأرب في قتال أحد الآث اعترفت بالعين الشيوعية ، ولو شاع هذا المذهب في بلاد الرأسماليين « بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا » لجعل ثروتهم وتقاليدهم ومفاخرهم أثراً بعد عين .

تجود الصحة ونشاط النفس بتغير المناظر وبالتنقل من أرض الى أرض ، وبترك العمل اليومي الرتيب الى آخر يخالفه . من عظماء ساسة الغرب في أيامنا من يترك السياسة وينصرف ساعات الى التصوير كل يوم ، ومن الاطباء من يصرف بعض وقته في الموسيقى ومنهم من يعاني الادب . وكم من ملوك وعظماء خصصوا جانباً من أوقات فراغهم بالصناعات اليدوية

أو بتربية الازهار والورد والدواجن والجوارح وركوب الجبل وسوق السيارات والقوارب ومعانة الصيد والقنص والرياضات البدنية العنيفة ، والتسلق على الجبال والتزحلق على الثلج . وكان العطاء في الدهر السالف يكثر من لعب الشطرنج والصوالة .

الطب من أصعب العلوم ، وصاحبه قد يصل الى المجد من غير طريقه . كان كلياندو من أعظم الساسة المعاصرين طبيباً ومثله الحكيم غستاف لبون . وفي الاقدمين كان ابن سينا والرازي طبيين قبل أن يكونا فيلسوفين ، ومثلهم كثير في الافرنج اليوم وفي العرب أمس .

معظم ما في الولايات المتحدة الاميركية من مرافق ومصانع وخيرات بالغ حد الغرابة ، فهي غريبة بتكوينها الطبيعي يحدها بجران عظيم ، وغريبة في تكوين شعبها ونوعه ، كان سكانها سنة ١٧٩٠ ، ٣٩٢٠٠٠٠٠ فأصبح في سنة ١٩٥٠ نحو ١٦٠ مليوناً . أما غر ثروتها واقتصادياتها ومناجمها وزراعتها ومناجرها وعلمها واختراعاتها فأمر يفوق الوصف . زادت نفوس العالم زيادة عظيمة في القرنين الاخيرين أما غر أميركا فلا يشبه غيره ، تألف سكانها من عناصر أوربية راقية « وأمركتهم » أي جعلتهم أميركاناً بلغتهم ومنازعهم ، ولم يكتب للغة من لغات الارض أن تقدمت تقدم الانكليزية فيما نعلم . كان تقدمها غريباً في بابها ، ثم على وجه لا يشبه انتشار الاسبانية والبرتغالية والالمانية والروسية الا قليلاً . كان غر الانكليز يجمع الى اللغة ثقافة والمتكلمون بها اليوم لا يقلون عن ٢٣٠ مليوناً وما كانوا يزيدون منذ قرنين على عشرين مليوناً فيما نظن . ولهذا كان تاريخ الشعوب الانكلوسكسونية من أدهش تواريخ البشر .

يقول مؤرخ معاصر من الافرنج : لم تستطيع الامارات التركية (من السلجوقيين) في ايران والشام أن تترك سكانها من الفرس والعرب ،

وعلى العكس رأينا الفرس « فرسوا » من نزلوا عليهم من الاتراك ،
وعرّب العرب الشاميون من احتلوا أرضهم من الترك . وهذا دليل القوة
العظيمة السكّانة في العنصرين الفارسي والعربي ، وبرهان على أن العنصر
العريق في الحضارة لا سبيل لعنصر آخر أن يتحمّله . القوي يهضم الضعيف
والضعيف لا يهضم القوي ، ولا عبدة بكثرة جيوش أمة بل العبدة بما
انطوت عليه نفوس من تتألف منهم من حيوبة وأخلاق .

ذكرت بعض الصحف التركية أن الدستور السوري الجديد من أرقى
دساتير العالم وأن السوريين أثبتوا أنهم من الشعوب الخليفة بالاستقلال ،
وهم يعرفون الى ذلك طريق المحافظة عليه . هذا ما قالته وليس في ذلك
غربة فإن السوريين لما ارتفع عنهم الضغط انبعثت عبقريتهم ، وكانت
جرائم الرقي كامة في نفوسهم فلما أزيل عنها ما يعوقها قامت بأحسن
ما تقوم به أمة راقية .

كانوا يعيبون على العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي - أشهر كتاب عصره
وخادم اللغة العربية العظيم عليه الرحمة - تبليغه كتاباته مرة أو مرتين
مبالغة في التنقيح ، وبفضل هذا التدقيق كتب البقاء لما كتبه الشيخ وانتفع
قراء العربية به . أما الذين نشروا ما جادت به قرائهم بأديء الرأي
وقدموا للطبع المسودة الاولى فما قدر لكلامهم أن يفني الغناء المطلوب ،
وذهب ما كتبوا من الوجود كما تذهب صحف الاخبار غداة نشرها .

كثيراً ما كنت أسأل أتايي من الشاميين تلاميذ المدرسة الملكية في
الاستانة أرقى مدارس السلطنة في عهدها عن صورة التدريس في صفوفها ،
وعن أساليب أساتذتها عند الخوض في الموضوعات التي لا بد فيها من
استعمال الحرية كدرس التاريخ ، وكان السلطان يحاذر انتشار الأفكار
الحرّة في المدارس ويراقب أساتذتها أشد مراقبة . فما رواه لي أحدهم
أن أستاذ التاريخ عبد الرحمن شرف كان يلقي درسه بانطلاق تام ، وقد

قال في بعض دروسه : هذا هو الكلام الرسمي الذي يجب أن يلقى عليكم ، واذ كنتم من الرجال الذين سيتقلدون زمام الحكم والسياسة أرى أن أزيدكم في هذا الموضوع مالا يستعجب كتمانكم ، وأفاض في هذا الباب افاضة حسنة وباح بأمرار لم تتعرض لها الكتب المتداولة ، ولا يكاد يعرفها الا بعض الخاصة ممن يرجعون في بحثهم الى الوثائق المدفونة في مستودعات الدولة ، أو تنقل من صدر الى صدر ولا تقيد في الورق . وكان أسانذة هذه المدرسة من أعلم رجال الدولة في ذلك الزمن . فيهم أمثال حقي (الصدر الأعظم) وعلي شهباز وعلي حيدر وإسماعيل حقي وأوخانس وعاطف وعبد الرحمن شرف وغيرهم من العلماء رحمهم الله .

فتح العثمانيون الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ومصر والشام والجزيرة والعراق وجزيرة العرب ، وطال حكمهم فيها ، ولو قبض الله لهذه الافطار أن تتمتع بحكومات عربية تعدل وتعقل ، وتجمع الشمل ولا تفرق الكلمة ، ما أصيبت بداء الانحطاط الذي يروح بها هذا التبريح .

تطلب شعوب الشرق كل شيء من حكوماتها ، وما شأن الحكومات الا حفظ الامن واقامة العدل والتسديد للعاملين . اما التوفر على الزراعة والصناعة ، وتعليم البنين والبنات ، ونشر العلم والدين ، وانشاء القصور والمصانع ، وما ينشأ عن الحضارة من نعم وسعادة فهو من عمل الرعية تبرز فيه ما انبعثت هممتها الى أقصى حدودها ، وما أحسن النبهاء من بنها بعظم ما عليهم من تبعه .

يوم تجمع حكومة كل السلطات يصبح الرعايا كالعبيد تسيرهم أيدي مواليتهم ، ويعدون بالطبيعة من الامم الاتكالية المنحطة ، واذا كانت الامة مصدر كل سلطة حقاً وصدقاً تعد حكومتها أرقى حكومة وشعبها أسعد شعب .

من أسخف ما صدر عن سياسي مسؤول حمله بعض ضائعه على شتم مخالفيه شتماً قبيحاً ، وما أدرك ان من يوالونه اليوم يعادونه عندما يحول الدهر وجهه عنه وتنقطع صلاته بهم فيقولونه ما لم يقل ويوسعونه شتماً واهانة.

رأيت بعض من تولوا أعمالاً سياسية كانت فوق اقتدارهم يطعنون اليوم علناً فيما كانوا أمس يُعلنون في مدحه جهره ، كأنهم يظنون أن من سمعهم بالامس كانوا من الصم البكم .

كنت أستبعد نشوب حرب أوربية عامة لا وقر في النفوس من بعد نظر الغربيين في السياسة ، فخاب ظني لا شهدت الحرب العالمية الاولى وقد جررت على الغالب والمغلوب من الولايات ما جررت . ثم زعمت أن حرباً ثانية لن توقد نارها قبل جيلين فكذب ظني أيضاً ، واشهرت الحرب الثانية في آخر العقدين الأولين من الحرب الاولى .

إذا فرض ان دب الضعف في الدول الحربية العظمى ، أفتأمن الانسانية ياترى من غوائل الحروب ، أم تتقدم الدول الصغرى لتمثل في مجال السياسة ما كانت تمثله الدول الكبرى ؟

كانت الاولى في سياسة الغرب لاسبانيا والبرتغال فانقلبت الى فرنسا وبريطانيا العظمى والنمسا وروسيا واميركا ، والظاهر ان السياسة العامة لا تقام لها سوق في الدول الصغرى لقلة سكانها وضيق نطاق بلدانها . فالسويد والنرويج او الدانيمرك وسويسرا لا يتأتى ان تكون كفرنسا وروسيا واميركا.

قال لي احد اصقباي من كبار رجال القضاء ان الحكومة الحالية ترى أن تختار الرعية نوابها في المجلس النيابي العتيد من الشباب فقط ، وكان الاولى أن تقول ان الواجب انتخاب من يصلح لهذه المهمة بعلمه وتجاربه ، ولا فرق في أن يكون النائب شاباً أو كهلاً أو شيخاً .

كان بعض من حظيت بلقياهم في حياتي من ملوك الشرق وأمرائه وزعمائه من الفئة التي تغلب عليها السذاجة القريبة من البلاءه ، ومعظمهم مملوكون لرعونتهم وشهواتهم . ففجبت كيف تدار بمالك كبيرة بهذه العقول الصغيرة .

كلما رجونا ان يصفو الزمن وننعم بالاستقرار لنعوض ما فاتنا أيام الخمول يعرض لنا ما يؤخرنا الى الوراء ، كأن الفطرة لا تختار لنا الهدوء ، ولا نحب أن نُعِدنا للسعادة .

لو لم أكره تدخل الأجانب في شؤوننا الداخلية لطلبت لكل وزارة مستشاراً غريباً أمتعته بالسلطة المطلقة حتى لا تكون فوق يده يد ، فيدربنا على العمل الصالح ويعلمنا القيام بواجبنا .

قال لي أحد رؤساء الوزارات في عهد الانتداب : اني لأعجب من حال عمالنا وحال المستشارين ، اذا استدعيت عاملاً لمفاوضته في مسألة يهني الوقوف على ما تعاقب عليها يأتيني لا يحمل شيئاً من المعلومات ، واذا طلبت المستشار يجيء حاملاً جميع ما تعاور على القضية من أول يوم الى آخر يوم . فقلت له : هذا سر من أسرار تقهقرنا ، ولو كنا مثلهم في العناية بأشغالنا ما احتجنا الى مستشارين يقودوننا كما يقاد الانعمى في طريقه الى داره .

حدثني أحد أبناء السودان من خريجي كلية غوردون أن الانكليز هناك كانوا يقولون انا لا نحب أن نقع في الخطأ الذي ارتكبناه في مصر باطلاقنا حرية التعليم المصريين ، فحصلوا العلوم العالية وجاءوا بعد يطالبوننا بالتوظيف ، وليس للحكومة وظائف تكفيهم ، فكادوا لنا بأن انضموا الى جماعة المتبطلين ، وساروا على طريق المشايخين . وانتبهنا بعد ذلك فكنا اذا احتجنا الى عشرة أطباء مثلاً نقترح على كلية غوردون ان تخرجهم لنا

ليكونوا على استعداد للخدمة في سنة كذا ، واذا مست حاجتنا الى غيرهم من دارسي العلوم الجامعية نطلب كذلك من الكلية تخريجهم ، ونضرب لتعيينهم موعداً يرون بعده مقاعدهم مستعدة لقبولهم من أول يوم يحرزون فيه شهادتهم . وهكذا أقلنا من المشاغبين بأخذنا من أرباب التعليم العالي كفايتنا فقط .

سألت سائحاً حضرياً من ساكني جاوة عن سياسة حكومة هولاندة مع الجاويين يوم كانت تستبد بحكمهم أبشع استبداد فقال : ان هولاندة كانت الى قبيل الحرب العالمية الاخيرة اذا تعلم بعض شبان اندونيسيا العلوم العالية في هولاندة او في غيرها تقرض عليهم الاقامة القسرية في احدى جزائر اندونيسيا ولا تترك لهم مجالاً للاختلاط بأبناء وطنهم حتى لا ينشأ من اجتماعهم أمور لا ترغب فيها الحكومة المستعمرة . قال وقد أصبح عدد المحكوم عليهم بهذا التغريب العجيب ألوفاً (وأظنه قال عشرون ألفاً) من الشبان المثقفين . وهذا من أفظع ما عرف من تحكم الانسان بحرية الانسان ، ومن ظلم الانسان للانسان .

بقي رجل انكليزي اسمه لنجان يتعبد في مسجد من مساجد دير الزور زهاء سبع عشرة سنة ويعتاش من العاب يعملها من الورق ويبيدها من الصبيان بقطع من الخبز وعندما احتل الجيش الانكليزي دير الزور عين حاكماً سياسياً على المدينة برتبة كولونيل . ما أصبر الانكليز في خدمة امبراطوريتهم .

من أول واجبات الحكومة توحيد كلمة شعبها . الطرق الصوفية من فروض العين اعلان حرب عليها لادخالها الحلل على بنيان الجماعة . وما كان من المذاهب الحديثة الا اختراق الصفوف وكانت من قبل متراصة .

يوم فصلت الامم النصرانية الدين عن الدنيا سارت أمورها على سداد .

وما وسع الدول الإسلامية في القرون الأولى إلا سلوك طريق الدنيا كما سلكت إلى الدين طريقه . وكانت تباعد عن الخلط بين الطريقتين ما ساعدتها الحال .

قالوا ان فلاناً وفلاناً اغتنيا غنى فاحشاً بخدمة مليكهما فقلت : ليس في ذلك عجب فقد اغتنى في مملكته كل من هان عليه أن يبيع ذمته بعرض قليل . وما دام القول الفصل الأفاقين في مثل هذه الدول فلا سبيل إلى اقتراب أهل الخير من ملوكها ، ولا رجاء الآن أن تخطو ديارهم خطوة تذكر في سبيل الحضارة .

يكفي في عقوبة من صرف من خدمة عامة ظهرت فيها خيائته أن تنزع السلطة من يده الاتيئة ، وهو على التأكيد لن يئناً بما جمع من الدناءآت .

مهما أحسنت الظن لا أذهب إلى ما يذهب إليه بعضهم من أن رئيساً كان بيده القبض والبسط ، يغني من يرضى عنهم من مال السلطان ، وينسى نفسه فيعمرها حقها من الغنائم ، ليخلف الفقر لأولاده ويعيش حياته في قلة وضنك .

رئى بعضهم لاحد الرؤساء لما وقع في محنة وادعى أنه أباع دكاناً له وأشجاراً عليها ثمرها ولما ينضج ، ليسد بعض عوزه ، فقلت : لا تصدقوه انه اعتاد الكذب وبرع فيه ، وهذا احتمال منه لاقتناع الرأي العام بنزاهته .

أكد أحد العارفين أن المدافعين عن الديمقراطية بدأوا ينفقون في الشرق الأدنى أموالاً عظيمة على الدعاية . فقلت له : كن على ثقة أن الحرب العالمية الثالثة سيندلع لهيبتها عندما تبدأ الدول العظمى بالبذل الكثير . فقد علمتنا الحوادث أن الغربيين لا يجودون إلا إذا أهدق الخطر بأبهم ، بصرفون قرشاً ليكسبوا ألفاً . أجازنا الله .

من مذهب المعتزلة أن يتولى الخلافة صاحب الكفاية إياً كان أصله وجنسه وشرقه ، وهذا مما جلب عليهم تقية بعض الخلفاء . ولما ضعف أمر بني العباس وأصبح يتفقد الخلافة الجاهل والبلید تعاون علماء السوء وجهلة الملوك على المعتزلة وحاربوهم حتى قرضوهم ، فلم يبق أمام خلفاء العباسيين بعدها عائق يحول دون تمتعهم بخلافتهم التي أصبح راعيا أشبه بشيخ طريقة أو ناظر على وقف .

من التجارات التي كانت تدر أرباحاً على أحد الرؤساء أنه كان اذا أرسل سفيراً عنه في مهمة الى بعض الملوك يحمله هدية ثمينة يدفع قيمتها من خزانة الامة ، فاذا قابله الملك على هديته بهدية مثلها أو أعظم منها أخذ الهدية لنفسه . ومعظم ائديا معمول بالذهب الابريز والاحجار الكريمة .

لما عظمت جيوش الترك العثمانيين وصلوا الى مدينة فينا وسط أوروبا ، ولما ضعفوا طردتهم دول الغرب الى موطنهم الاصيلي في آسيا الصغرى . كتب النصر لاعلام الترك فاستولوا على زهاء عشرين مملكة مختلفة العناصر ومنها بلاد العرب ، ولما تراجع أمرهم كان ساسة الغرب في القرن الماضي يتآمرون على تقسيم تركة الرجل المريض ، يمتنون به الدولة العثمانية ، ولو تم اتفاقهم يومئذ لكانت تركيا اليوم في عداد الدول المنقطعة .

لفت نظري من لائمه بالاختلاق الى أن المسيحيين في فلسطين وسورية في الفتنة الصهيونية الاخيرة ، لم يدنسوا شرفهم بالتجسس لليهود ولا بتسوينهم من البلاد المجاورة كما فعل بعض الساقطين من الوطنيين ، اغواهم الصهونيون بالمال فأقدموا على ارتكاب ما ينفع الاعداء . المسلمون والمسيحيون شركاء في هذه النكبة نكبة فلسطين ، ومن عاون العدو أبان عن جهل وانحلال وطنية .

صبأ أحمد أجداد طاغور شاعر الهند عن الاسلام دين آباءه وانتحل

الوثنية ليسوغ له تولى الحكم . وعزم نابليون على انتحال الاسلام لما تخيل أنه بدينه الجديد تفتح له أبواب الهند . وانتقل الشاه الصفوي من مذهب أهل السنة الى مذهب التشيع لينشيء دولة العجم .

قال احد رجال الانكليز في الهند : المسلمون يجرمون أكل الخنزير والهنود يجرمون البقر ، ونحن الانكليز نحل الخنزير والبقر فكأن من الطبيعي أن نحكم الهند ، ولما آذنت ساعة رحيل الانكليز عنها لم يقدم جمعهم بين لحم الخنزير ولحم البقر .

لعبت في مصر زمان الشباب مفتي المسلمين في بكين عاصمة الصين في طريقه الى الحج فرأيت فيه عالماً جليلاً سالماً من التخريف فيما يظهر . وكان يتعذر عليه التكلم بالعربية فيكتب في ورقة ما يريد أن يقوله بلغة عربية فصيحة ويخط نسخي مقروء ، ويأخذ الجواب على هذه الصورة ، فكنا نتفاهم في أصعب الاحاديث ، واستفدت منه فوائد عظيمة عن المسلمين هناك . وتمنيت لو يرحل الى الصين بعض أرباب النباهة من المصريين والشاميين لدرس أحوالها درساً علمياً لما في ذلك من الفائدة العامة .

لم يثبت للمسلمين في الهند ملك عظيم تطول أيامه مع أنه كان في جملة فاتحها محمود بن سبكتكين وأكبر خان من أعظم الملوك . وذلك لان المسلمين فيها قلة ، والكثرة الكاثرة وثنية .

مارضيت هولاندة أن تمكن الجاويين من اطلاق اسم اندونيسيا على جزائرهم أيام احتلالها لها مخافة ان يكون من احيائهم اسمها تذكيرهم بذكرىات وطنية من مصلحتها أن تنسيهم اياها .

قل في الشرق من وسد اليه شيء من أمور السلطان الا واغتتم الفرصة المتاحة فأتى الى الوظائف بطائفة من أصحابه وجيرانه وحزبه وذوي قرباه

وأهل دينه ، ولو كان في استخدامهم الضرر على خزائنة الأمة وعلى سير نظام الحكم ، لأن من يؤتى بهم في مثل هذه الحال هم على الأغلب من البضائع الرديئة الكسادة . أما ذاك المتفضل على صنائعه من مال الأمة فهو مثال السارق المنافق .

ليس من الوطنية التفريق بين أهل الوطن الواحد . فمن قال هذا مصري وهذا شامي وهذا عراقي وهذا حجازي ، وهم أبناء نبتة واحدة كان عدو وطنه الأكبر يسعى الى تمزيق شمله ولا يدري ما هو صانع .

يختلف أهل بلدين على مسائل قد تعد تافهة وهم يعدونها جوهرية . من ذلك ان مدينتين من مدن الشام تكاد تكون العداوة بينهما ظاهرة لأن الأولى فقدت فريقاً من شبانها تزوجوا من بنات جارتها ، ورحل تجار من الثانية وتوطنوا في الأولى ، واستولوا على جانب من تجارتها ، فتكونت من ذلك عداوة سببها المال والجمال .

بعض رجال السياسة من أقدر الخلق على تضليل قومهم والخط من كرامة خصوصهم ، وهؤلاء يكيلونهم الصاع صاعين يوم يتصدرون ويحكمون .

يزعم بعض المفكرين أن الحكومات الإسلامية اذا أباحت الزواج بين المتخالفين في المذهب تمقذت نفسها من وصمة التعصب ويقوى أمرها عند دول العالم . ومن عاداك لتخالف في الدين والجنس لا يرضيه منك شيء ولو تمذهبت بمذهبه وتجنست بجنسيته .

أول ما يفكر فيه بعض الوزراء اذا صاروا الى الحكم أن يفتنوا بطرق لهم يأبأها العقل والشرف ، والمتوسط الذكاء منهم يدخل ويخرج من الحكم لا يعمل عملاً يذكر لنفسه ولا لوطنه .

عُرفت خمسة وزراء في سورية ولبنان على عهد الانتداب كانوا على جانبا من الذكاء ، وعلى حصة موفورة من قبح السيرة ، لو قسمت مساويهم على ثلاثين وزيراً لاستحق كل منهم أن يحكم عليه بالسجن المؤبد مع التشغيل . وكانت الحكومة المنتدبة على معرفتها بهم تدعوهم الى الاشتراك بالوزارات . قد يجد المربوهون أيضاً من لا يبالون الاقتراب منهم .

عملت الولايات المتحدة الاميركية سنين طويلة بمبدأ مونرو القاضي بان تكون أميركا للاميركيين ، لا يتدخل الاميركيون في شؤون دولة ولا يرضون أن تتدخل في أمورهم دولة . وفي الحرب العالمية الأولى أقنعت بريطانيا العظمى جمهورية أميركا بالخروج عن عزلتها ، وأشركتها في الحرب حتى ظفرت بريطانيا وحلفاؤها ، وسقط قانون مونرو . دليل آخر على أن مصير كل شيء الى الزوال في هذا العالم .

كلما تأملت حال بعض الممالك العربية التي أنشئت لأغراض استعمارية وما خلقوا لها ، على ضيق مساحتها وقلة رجالها ، من ملوك ووزارات ومجالس وألقاب وتمثيل خارجي ، أضحك وأشد قول الشاعر الاندلسي : ألقاب بملكة في غير موضعها .

ينحصر رأس مال بعض رجال السياسة في الاثافة المتكلفة والبزة الجديدة والتعاطف والتفاح وتكاف الرزاقه وإيهام من يجتمعون اليهم أن في صدورهم امراً لو أفشوها لبدلت الأرض غير الأرض .

لا بد لكل سياسي من أذئاب ينوهون به في الصحف والمجتمعات ، ومن هؤلاء المطبلين من لا يأخذ درهماً على هذه الدعايات المصنعة ما دام من يقرظونه متبطلاً ، وهو يكافئهم يوم يجيء الى الحكم على تبرعهم بالدعوة له ، ولكن من مال الدولة لا من ماله .

ما خجل رجل من رجال السياسة من الدخول في بضعة أحزاب يناقض بعضها بعضاً ، رجاء أن يكون له الظهور أبداً . وحاول مرة أن يخدم دولتين متنافستين فنبذته الأولى وتغافلت عنه الثانية .

رفعت الدولة العثمانية رجلاً من أبناء العرب الى أرقى المناصب فلما تراهى له أنها ستعجلي عن دياره انضم الى عدوتها وأخلص في خدمتها . وكان هو في حجر الدولة التي ربه وعاش بخيرها حتى بلغ الشيخوخة يشتغل سرّاً بقلبها ، ويتقرب من الدولة الخالفة بما يخالف شروط الأمانة ، يزعم بعض الأغبياء أن هذا التذبذب في الأخلاق يجوز في السياسة ، أفصح بهذا الخلق وهذه السياسة .

ما زاد عدد من درسوا العلوم العالية في مصر والشام عن حاجة البلدين الى الآن ، وانما فضل الدارسون عن حاجة حكوماتها ، ذلك لأن غاية معظم الدارسين من دروسهم الدخول في خدمة الدولة وهذه لا تستوعب دواوينها كل طالب يعشق التوظيف فيها ، ولا تنسع موازنة هاتين الدولتين لاعطاء كل واحد منها .

لو بذل ما صرف على التعليم العالي منذ نصف قرن في القضاء على الأتمية في مصر والشام لزال منها أثرها ولكن كان يعوز القطرين رجال الاعمال التي لا يحسن القيام بها الا أرباب الدراسات العالية .

كان مجلس صديقي سليمان نظيف بك من علماء الترك أمتع مجلس اختلفت اليه في الاستانة أيام مقامي فيها في آخر سنة من سني الحرب العامة الأولى . كان يتألف من صفوة رجال القضاء والادارة والسياسة ، اهديت بأحاديثهم الى أمور كنت أجهل وجودها عند الاتراك وأنا أعاشرهم في الولايات معاشرة رسمية . وكان أهل هذا المجلس يتوجسون خيفة من عاقبة الحرب على العثمانيين ويذكرون أمراض دولتهم بتفصيل ويصرحون

بما لا يجوز التصريح به أمام الناس . وكان رب المجلس رحمه الله يعرفني الى من لم يعرفني من قبل تعريفاً جميلاً حتى لا يكتنموا شيئاً من الافكار المدخورة في صدورهم أمام غريب عنهم .

كانت القرون الوسطى عند المسلمين من حيث الرقي كالقرن التاسع عشر عند الغربيين ، ومن كان يظن أن من الرجال عندنا يومئذ من كانوا يتلقون الحديث ويأخذون الفقه عن النساء ، وان بعض مدارس دمشق أسسه النساء ووقفن عليه ورتبته ترتيباً جميلاً لخدمة الدين والعلم .

فتشت مدارس احدى العمالات وجئت الى القصة وسألت قائم مقامها عن مدرستها — وكان تولى ادارة تلك العمالة منذ أشهر — فبدأ الخجل على وجهه وقال : الحق اني لم أتفرغ لزيارة المدرسة حتى اليوم . ونظرت الى جانب دار الحكومة واذا بالمدرسة على بضع خطوات منها . وبعد أشهر جاءني هذا العامل وشكا اليّ أنهم نحوه من عمله وأنه ظلم وأنه مستقيم ويحمل شهادة أرقى مدارس السلطنة فقلت له : احمد الله على أن اكفى وزيرك بتجهيتك ولو كنت وزيراً للداخلية لاحتلك الى القضاء وعزلتك على ألا تستخدم بعدها ، وذكرته باهماله وعدم عنايته بالنظر فيما وسد اليه . وطلبت منه أن يعفني من التدخل في ارجاعه . وكان هذا العامل على نزاهته بمن غطى اهماله على كل حسنة فيه . قد يبدع في الادارة الرجل الامي اذا كان ذا نشاط وغيره وذكاء بما لا يصدر من حامل الشهادات العليا فان هذا لا تنفعه شهادته اذا كان مهملًا كسولاً .

باغت أحد قوام المقام ذات صباح في مركز عمله فجاءني في الساعة التاسعة صباحاً والتجار بادٍ عليه ، والنوم آخذ بعينيه ، فانقبضت نفسي من مشهده ، وظهر ذلك في سحنتي . وسألته عن الأوساخ المتراكمة في سوق البلد فقال : نعم انهم كفسوا أمس فقلت له : ان السوق لم يكنس منذ أيام والواجب أن ترفع قماماتها كل يوم مرتين على الأقل .

ومن لا يرجي منه أن يأمر الكناس بكفى ساحة داره كيف يتوقع منه - وهو كسول ومدمن ويسهر الى ما بعد نصف الليل بساعتين أو ثلاث ساعات يتعاطى الكناس - أن يفتش المدارس ويراقب الدواوين وسير الحكم وينظر في شكاوى الأهلى وما يصلحهم نظرة سيديدة . مسائل صغيرة في ذاتها تتولد منها مسائل خطيرة .

كتب الى صاحب من نبهاء المسيحيين يقول ان الاسلام دخل في قلبه ويريد أن يعلنه لولا ما يحول دون ذلك من العوائق . فأجبت ان الايمان في القلب فان كنت مؤمناً حقاً فلا يتوقف اسلامك على المراسيم المعتادة والوقوف أمام المحكمة وتلقينك كلمة الشهادة والاشارة في السجلات الى انك مسلم . وربما كان من بقائك بين قومك وأنت على الاسلام أنفع لك وللمسلمين من خروجك من دينك ، خصوصاً واشهار اسلامك قد يضرك بما دياتك الآن فيحرمك أبوك ارضك منه ، وأبوك شيخ كبير قد يسوءه ما تأتي فيعجل عليه . ومتى تمهدت الصعوبات فالاعلان ميسور لك كل ساعة . فقبل نصحي وعدل عن اعلان اسلامه . وقال لي بعد سنين انه كتب بمثل كتابي الى صديق لي فكان جوابه يشبه جوابي على غير تواطؤ بيني وبينه . وما عرفت ان كان صاحبي بقي بعد ذلك على دينه الأول أو انتحل الدين الذي أحبه .

بقليل من المعارف بثتها المدارس في عقول الناشئة أصبح الصبي يدرك أن المهندس غير النحات والمزين غير طبيب الانسان والتجار غير الحداد وكان الشخص الواحد في الأيام الحالية يتعاطى عدة صنائع .

فرحت أربع فرحات في حياتي ، الأولى يوم ضبط الأتراك في ولايات الشام أوراق القناصل وأوائل الحرب العالمية الأولى ، وقد ظهر فيها أني

بريء بما كانوا يتهمونني به من خيانة الدولة العثمانية . والثانية يوم قبل ملك مصر فؤاد الاول عذري في عدم اجابة طلبه بالانضمام الى عمال قصره . والثالثة عندما نجوت من تقلد رئاسة الوزارة السورية على عهد الانتداب ، وكانت عرضت عليّ مرتين . والرابعة لما ظهرت أخلاق رئيس جمهورية سورية للغريب والقريب على حقيقتها .

يوم كان أهل دمشق على شيء من الرقي الديني مات خطيب الجامع عندهم ولما لم يظفروا في بلدهم بمن يمثله أتوا بخطيب عظيم من قرية داريا بخلفه .

شهدت الفلاحين وعامة المدن أمس يفرون من مراجعة المتطبيين ويكتفون بوصفات العجائز وعقاقير الدجالين ، وشهدتهم اليوم "يهرعون في حالة مرضهم الى الطبيب الاختصاصي يقصدونه من أول الأمر . ظاهرة غريبة تدل على ارتقاء الافكار .

شاهد بعضهم معظم ركاب السيارات العظيمة التي تروح وتغدو بين دمشق ومرج غوطتها عند عودتهم مساء الى قراهم وفي يد كل واحد منهم جريدة أو مجلة يقرؤها بشوق . وقص عليّ أحدهم أنه شاهد في السيارة العمامة التي تختلف الى بعض قرى الغرطة الوسطى امرأتين تتنازع كل منهما جريدة . فسأل الواحدة عن سبب شرائها جريدة فقالت له والغبطة بادية عليها ، ان ابنها يقرأ وهو يقرأها لها ويشرح لأمه ما يفهم من معناها . وهاتان الفلاتان من قرية اشتهر أهلها بالجهل والبخل . وهذا أيضاً مما يعد في باب الارتقاء الحديث .

قالوا ان أحد الوزراء السابقين لا يستنكف عن بيع الفاكهة التي غرس أشجارها بيده في مزروعه على طريقة بعض صغار الفلاحين والباعة .

فقلت لهم : ما في ذلك غضاضة ، ولا عار الا على من أساء لأمته يوم كان في الحكم ولم تؤثر له مآثرة .

لو لم يفتح العرب بمملكة الاندلس وينشروا فيها مدنياتهم اظل الغربيون يتهمون العرب بالتوحش ، وكان عمل العرب في الاندلس يومئذ عمل دولة عاقلة عادلة . ومع هذا بقي البغض الجنسي والديني كامنين في نفوس الاسبان قروناً حتى تيسر لهم اخراج أعدائهم من جزيرتهم .

لما فتح الترك القسطنطينية انتشر الاسلام في الروم ايلي وما وراءها من الممالك ، وكان الاتراك يومئذ مخلصين الاخلاص كله لدينهم .

قال رئيس البعثة العسكرية الأميركية بعد أن شهد مناورات الجيش التركي الأخيرة ان روسيا ستستغرق يوماً واحداً في القضاء على هذا الجيش وسبعة أيام في احتلال تركيا بأكملها ، هذا وما كانت الدولة منذ خلقت الا عبارة عن جيش لا تملك من مقومات الدول غيره . فان كان الجيش الروسي يغلب الجيش التركي في يوم واحد فياطول حصرة تركيا ، على ما بذلت في بث روح الجندية في أمتها . كنت أعتقد أن الروح العسكري تأسل في الترك تأسل الروح الاستعماري في الفرنسيين ، فظهر أني كنت على خطأ ، غرتني الدعايات وكان أكثر ما زعموا انه تم من الإصلاح في ديار الترك بعد القضاء على آل عثمان هو من الدعايات التي افتضحت ونجلى الحال في ثوبه الحقيقي .

لما وافى دعاة البروتستانتية الى الديار الشامية في القرن الماضي لنشر مذهبهم بين الطوائف شاعت في لبنان وما اليه من الأقاليم قصص وحكايات عن الرهبان والراهبات لا يكاد العقل يصدقها وتناقضها الناس وتفككها بها على ما كانت تحمل من صدق وكذب .

قل أن شهدت حكومة طلبت اعانة من الاهلين فأدوها عن رضا مثل الأعانة التي فرضت عليهم في الثورة الاولى . كان كل سوري يدفع ما يدفع عن طيب خاطر وما ذاك الا لأن القوم اعتقدوا في قرارة أنفسهم أن ما يؤدونه يصرف فيما يرفع من شأن الجمهورية .

سرفي ما روى لي أحد أصدقائي قال : كنت حاضراً في مجلس عربي كبير من رجال السلطان عبد الحميد في الاستانة فالتمس منه أحد ذوي قرباه أن يتوسط له بتقليده وظيفة ادارية فقال له : انني أعرف سيرتك العاطلة فيما توليته من العائلات وأنا لن أعينك على الوصول الى ما نطمح اليه بعد الذي بلوت من أخلاقك . وحرام علي أن أزيد بك هذه الامة نكبة فوق نكبتها . وكان هذا العامل يعلق صورة قريبه العظيم هذا فوق رأسه بدار الحكم في كل قضاء تولاه . فاذا أتى بمن يريد التضيق عليه حتى يأخذ ماله يقسم برأس صاحب هذا الرسم قريبه الابد خلاصه من دفع مئة ريال وكلما كان يتوسل اليه المظلوم لتخفيفها يعود فيغالب الأيمان على زيادة المبلغ مئة أخرى ، وهكذا حتى يدفع التعس ما غرّم ظلاماً .

عرفت الدولة العثمانية كيف تحرك العرق الديني الحساس في رعاياها العرب حتى حكمتهم أربعة قرون .

أخذ المسلمون لاول أمرهم من العلوم المادية ما كان لهم منه عون على القيام بدعوتهم حتى اذا تم لهم ما طمعوا اليه من التوسع في الملك فترت الهمة في العلوم ، ودامت العناية بالدين ساورة سيرها العادي ، تم قوي السواد الاعظم وهم أصحاب الدين على الاقلية وهم رجال العلم فكان من ذلك رجوع الامة القهقرى .

إذا وضعت جامعة الدول العربية منذ اليوم أساس التعليم بما يلائم كل قطر ثم سيرته في طريق الوحدة تتشاكل الافطار العربية بعد جيلين في تفكيرها وحضارتها .

بدأ الخليفة الثاني في مصادرة العمال وما زالت المصادرات تزيد مع الزمن ، وكانت قليلة في عهد الامويين كثيرة جداً في أيام العباسيين وزادت في عهد الفاطميين والمماليك والعثمانيين ، ثم بطلت في أواخر أيام الامتراك ، وقد أصبح الكبير والصغير في دولتهم يسرق من غير تكبر . قرأت في الصحف ان لجنة تألفت في مصر للنظر في محاسبة الوزراء والعمال الذين اغتنوا فجأة من أموال الامة لتسترد الحكومة منهم ما سلبوه ومثل ذلك فعات حكومة سورية وأعلنت عن لجنة ألقتها . فكر جميل ، وما أكثر الافكار الجميلة ، ما أظنه يتحقق في أرض هذا الشرق لانه لا عهد له بمثل هذا التأديب . وأكبر دليل على أن اللجنة المصرية والشامية لم تنتج شيئاً بعد مرور أكثر من سنتين على تأليفها .



قسط^(١) العرب من حضارة أوروبا

وقسط أوروبا من حضارتهم القديمة

منذ مقتل مسلم بن قريش آخر أمراء العرب في الشام بأيدي الاتراك السلجوقيين لم ينبغ أمير من أصل عربي صرف ، من عيار الامير فخر الدين المعني الثاني الذي استولى على لبنان والساحل الشامي الى أنطاكية في الشمال وارجاء فلسطين في الجنوب . فان هذا الرجل أدرك في القرن السادس عشر بيعد نظره أن الغربيين أخذوا يتفوقون على العرب في مدنيّتهم ، وان عندهم أشياء نافعة في قيام الامم من علوم وصناعات ليس للعرب مثلها . ففتح موالي بلاده للفرننج ، يغشون الديار الشامية ويستريدون من متاجرهم مع أهل الساحل ، ورخص لهم بإنشاء قنصليات وأنشأخانا ككبوا لتجار الافرننج في صيدا ، وعمر مدينة بيروت وأقام فيها حديقة حيوانات . وأجاز المبشرين والبعثات الدينية أن يدخلوا الديار أحراراً ، يحمي بذلك سنة أهل دينه وجنسه من العرب الذين كانوا في عهد عزتهم ومجدهم مثلاً غريباً من التسامح مع المخالفين .

غضبت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين فسافر الى ايطاليا فاستقبله كوسموس الثاني كبير دوقات طسقانة في ليفورنا باحتفال عظيم ، وأقام في تلك الديار زهاء خمس سنين متمسكاً بهادانه ومعتقدانه . وقد أنشأ في البلدة التي أقام فيها جامعاً صغيراً ومأذنة ، فكان يقيم الصلوات ويأتم بإمامه . وقد عرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية ويعلمه على مملكة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف . وعقد الامير مع فرديناند الاول كبير دوقات طسقانة محالفة دفاعية هجومية في سنة ١٦٠٨ . واطلع على مدينة آل ميديسيس وأراد تقليدهم فيها . ووصف مؤرخه الصفدي ، وكان رفيقه

(١) ألّفت هذه المسامرة باللغة الفرنسية في المدرسة العمانية بدمشق .

على الغالب في هذه الرحلة الطويلة ، عادات الطليان و عمران بلادهم و تراتيب حكوماتهم ، مُعجِباً بها اعجاب أميره . وكان هذا استعان ببعض المهندسين والبنائين من الايطاليين في بلاده ، وانصرفت همته الى تنظيمها بالنظام الغربي ، وأن يقتبس ما ينفعها من أسباب النهوض .

ولا يفوتنا النظر أن الايطاليين كانوا بعد أن استولى النورمبيوت على جزيرة صقلية وأزالوا سلطان العرب منها هم الحاكمون على البحر المتوسط ، فاستأثر الطسقانيون والجنوبيون والبيزيون والبندقيون من الشعوب الايطالية زمناً طويلاً بالتجارة . وهم من أكثر الامم الغربية اختلاطاً بالشرق العربي لقرب بلادهم منه . حتى ان سفن الايطاليين في الحروب الصليبية كانت المعول عليها في نقل جيوش حملة الصليب الى الشام ومصر . ولا فعد مجازفين اذا قلنا ان الامم الاوربية التي اشتركت في الحملات الصليبية قد افترقت وأفقرت بلادها من الرجال وكان من أثر تلك الحروب المشؤمة اغتناء بحارة الطليان وتجار الطليان . وعاون البنادقة الماليك في مصر على إنشاء سفن فخر عباب البحر الاحمر لتصل الى المحيط الهندي للاشتراك في حرب البرتغاليين الذين هبوا يومئذ لاستعمار الشرق والاستئثار بتجارة الهند دون أهل الشرق والغرب .

وبقضاء الدولة العثمانية على الامير فخر الدين المعني قضت على برامج أعماله في التمددين وترك الاخذ عن الغربيين نحو قرنين آخرين كانت النهضة في خلالها قد اتسع مداها في الديار الغربية . وكانت الشام ومصر والعراق وغيرها من الولايات العربية بأيدي الترك العثمانيين لا يهمهم الا أن يتقاضوا من أهلها الضرائب بعيدين عن كل ما يشفق العقل ، والعرب بعيدون عن النور الذي فقدوه منذ قضى البربر في الغرب والتتر في الشرق على مدينتهم . وكان العرب خلال اربعة قرون في تاريخ البشر هم الامة الوحيدة بين الامم التي كانت تحمل مشعل العلوم والآداب والصناعات ، وظل الغرب تحت احتكارهم وسلطانهم في هذا الباب ،

يلون عليه ولا يملئ عليهم ويعلمونه ولا يتعلمون منه ، على ما كان من اليونان قبلهم حكموا العالم حكماً علمياً ، أي حكموه بعلمهم وأدبهم ألف سنة ثم ذهبوا بقيام دولة العرب .

وتداولت الايام وفعلت الليالي فعلها في العرب فسلبتهم عزتهم بخروج الحكم من أيديهم الى عناصر أخرى ، فأصبحوا في القرنين السابقين على قرن النهضة العربية لاخيرة ، وليس عندهم رجل يذكر في الهندسة والتصوير والنقش والشعر والانشاء والحطابة والفلك والكيمياء والطب . وأصبح التأليف عبارة عن نقل المتأخر عن المتقدم ، والعلوم المادية والفلسفية محرمة أو مهملة ، بعد أن كان أعظم خلفاء الاسلام في قرونه الاولى يغالي في نقلها عن الاقدمين ليحملها الى أمته ويضيفوا ما فيها من الفوائد الى صدر المدنية العربية . وعرا الضعف لغتهم أيضاً ففسدت بالجمع في منشورها وخطبها وبالمعاني المكررة والصيغ الضعيفة في شعرها وفقدان الخيال اللطيف والابداع المعنوي الفائق .

وبينا كانت البلاد متدهورة في أعماق هذا الانحطاط الحزن جاء نابليون بونابرت في سنة ١٧٩٨ يفتح مصر ويحمل في جملة ما يحمله من العدد والعدد طائفة من العلماء والنوابغ في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيكا وكان معه زمرة صالحة من المصورين والرسمين والموسيقين والنقاشين والمثالين وعددهم مائة وستة واربعون عالماً وفناناً . وأنشأ في مدينة القاهرة جمعاً علمياً يبحث في الفنون والعلوم ويدرس الابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وأنشأ خزانة ضمت أنفس الكتب الفرنسية والعربية ومعملاً للطبيعة والكيمياء وأخذ يشتغل كل واحد بما اختص به ، فمنهم من يحب الديار ويرسم مصوراتها ، ومنهم من يبحث في النيل وما يتعلق به ليعحسن الانتفاع به ، ومنهم من يبحث في طبائع الحيوان والنباتات والمعادن . وكتبوا كتاباً

ضخماً في مصر وما يتعلق بمصر ما زال الى اليوم مثلاً جميلاً من هم أولئك العلماء وواسع علمهم . وحل شامبوليوت حجر رشيد فحل الخط الهيروغليفى فأولى العلم يداً لا تنسى له على الدهر كما كان لنابليون الفضل الاول في جلب الحروف العربية الى مصر وبها طبع أول جريدة عربية وكان الناس يطبعون على الحجر في الشام ومصر .

ومن غريب ما دون في هذا الباب أنه كان في طبيعة من اختلطوا بعلماء حملة نابليون جماعة من علماء المسلمين في مصر اذ ذلك كانوا يعلمونهم العربية والشريعة الاسلامية يأخذون عنهم العلوم المادية . ومن أجلهم في هذا الشأن مؤرخ مصر الشهير عبد الرحمن الجبرتي واحد علماء الازهر الشيخ حسن العطار الذي تولى مشيخة الازهر بعد حين وألف في الفلك والطبيعات والرياضيات . وكتبه ورسائله مطبوعة مشهورة في هذه الفنون . واختلط رجال الادارة والحياة من أهل مصر برجال الحملة وضباطها فنشأ بين الفريقين تعارف كان انقطع منذ عهد سان لوي احد ملوك فرنسا في القرون الوسطى الذي جاء مصر فأخذ اسيراً في دمياط وافتدى نفسه من الايوبيين بثمانمائة الف دينار .

وهكذا عرفت المدنية الفرنسية في هذا الشرق القريب وظلت وارفة الظلال على بلاد الفراغة . حتى لقد مضى على الاحتلال الانجليزي ثنتان وخمسون سنة والاولية فيها للغة الفرنسية . وفي حواضر مصر تصدر الى اليوم بضع جرائد يومية باللغة الفرنسية ، وليس فيها غير نصف جريدة انجليزية والنصف الآخر عهدي به وهو يطبع بالفرنسية . ولقد قال احد الوطنيين العارفين من المصريين : « لئن فشلت حملة نابليون فان العمل العلمي الذي قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير ابقى الى اليوم اثرأ علمياً فآخرأ باهرأ تطأطأ امامه الرؤوس اجلاً واكباراً » .

كتبت الاقدار لمحمد علي الكبير ان يستولي على مصر في سنة ١٨٠٥ فأوحى اليه ذكاؤه النادر ان يتعرب وينشئ مملكة عربية وان يقتبس

النظم الادارية الحديثة ويمدّت مصر العربية تمديناً عربياً فاعتمد على علماء فرنسا في الاكثر وعلى مدارسها لتعليم أبناء مصر فيها . والى رجاله وصنائه من المصريين يعزى الفضل في ايجاد مصر الحديثة .

اعتمد محمد علي وأبناؤه على علماء افرنسيين في تنظيم الحرب وتنظيم الجيش والادارة ، وفتح معامل لصنع السلاح والجوخ والطرايش ودور صناعة لعمل السفن وأنشأ مدرسة للطب واخرى للهندسة وأنشأ دار الآثار وأسس المستشفيات والى اليوم لا يزال يرن في وادي النيل اسم سيف وماريت وشامبوليون وكاوت ودى لىبس وبيسون وهوسار الخ وان ما كتبه الاعلام من علماء فرنسا في الفنون المختلفة في مصر ليتألف منه خزانة كتب كبرى ما برحت الى اليوم والى ما بعد اليوم مرجع الباحثين والدارسين وتذكر بالاعجاب من الحوصم والاحباب .

فلوالى مصر محمد علي ولاسرتة الكريمة من بعده الاثر الطيب في تدين مصر ونقل غمّات الحضارة الغربية اليها طيبة جنية . فانهم ما قصروا في السير حسب مساعدة الاحوال لهم بسيرة جدم الاكبر الذي يحق لنا أن ندعوه بحبي العرب والعربية وواضع أساس النهضة الجديدة في مصر وفي غير مصر .

وما فتئت مصر منذ قيام الدولة العلوية وقبلها تبيع من العالم العربي بضائع علمها وترسل على بلاد العرب أشعه من نبوغ أفرادها . ولولا مصر وما جدّ فيها من التجدد لقضي حتى على اللغة العربية . واثن لم نستطع مصر أن تضم اليها ما كانت تطمح اليه من الافطار المجاورة فإنها غزتها ولا تزال تغزوها بعلمها ، ومصر منذ القديم وارثة مجد الامويين والعباسيين ككتب لها بما حفت به من الصحارى المحرقة أن تكون بأمن من غزوات الفاتحين ولا سيما التتو الذين لقي منهم المسلمون في القرن السابع والثامن والتاسع والعاشر من الهجرة ما دك معالم عمرانهم في الشام والعراق والجزيرة وفارس وأواسط آسيا ، فساغ ان نقول ان العرب الذين أوجدوا مدنيتهم الباهرة في أربعة عصور صرف أعداؤهم التتو أربعة قرون أخرى في دك معالمها .

نعود الى اشباع الكلام قليلاً على مصر فقد قلت في كُناني الحديث « الاسلام والحضارة العربية » انه كان من محمد علي وطريقته المبتكرة في التمدين الذي اقتبس نهاء أولاد مصر كل ما قرب الامة المصرية من المدنية الغربية . وكان وادي النيل يجميل صنعه المثل الحي الذي دل به العربي بصورة محسوسة على أنه ليس في دينه ما يحول بينه وبين الحضارة وأنه حفيد أولئك الفاتحين ان نامت فيه زمناً جراثيم النهوض فانما تدب فيها الحياة عند أقل محرك لها . وفي مصر أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ على عهد اسماعيل الذي أخذ من مدينة الغرب بالكبير والصغير وفاخر بأث بلاده أصبحت قطعة من أوروبا بتمدين كما كان ابنه الملك فؤاد الاول واضع أساس الجامعة المصرية واليه يعزى الفضل في احرازها مقاماً عالياً بين جامعات العالم . وكان الحديو اسماعيل يشبه محمد علي كثيراً ويعنى بالتعليم عناية خاصة وقد أنشأ في أيامه مدارس ثانوية وغيرها . ومنها دار العلوم التي خدمت اللغة العربية اجل خدمة .

كانت الحركة الادبية المصرية مبدأ كل نور في الشرق العربي استفادت منه البلاد المجاورة بحكم الطبيعة ولا سيما أبناء الشام ، فان منهم من درسوا في مدارس مصر وتصوروا فخدموا البلاد التي هذبته ومنهم من نقلوا قليلاً من النور الى مواطنهم . ولما استولى محمد علي على الشام ودام حكمه فيها تسع سنين أثر بابنه ابراهيم ورجاله في ادارتها وتعليمها . فمصر اذن هي التي بدأت تقتبس من نور العلم الصحيح ، ومصر ادخلها من تخرجوا بعلم الغرب في دور ارتقاء لم يسبق له مثيل في الديار العربية ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل أمها الدولة العثمانية . ومصر أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء ، وانما كل ساعة مستعدة لقبول الخير لا تسأل عن مصدره ومصدره . وكان للغرب في هذه الديار منذ أمد بعيد رهبان ومبشرون ولا سيما في الارض المقدسة من فلسطين وفي جبل لبنان من الساحل يعلمون مبادئ العلوم واللغة العربية واحدى اللغتين الفرنسية او الانجليزية وكثر توافدهم منذ جاء البرتستانانت سنة ١٨٣٨ يدعون لمذهبهم ، وأسسوا مطبعة كانت منذ سنين في ماطة تطبع الاسفار المقدسة بلغات مختلفة لنشرها في الشرق، ثم تبعهم اليسوعيون

من الطوائف الكاثوليكية فأنشأوا لهم مطبعة طبعوا فيها كثيراً من الكتب العربية القديمة وكثرت بعد ذلك مدارس التبشير تغذيها أمم مختلفة من أمم الغرب وأصبحت بيروت مدينة علم بعد حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤمة وأنشئت فيها جامعتان أحدهما تعلم بالانجليزية والاخرى بالفرنسية . ورقيت تجارة بيروت بارتقاء المواصلات البحرية وكانت أصبحت قرية سكانها بضعة آلاف منذ خربتها الزلازل وكانت فيها مدرسة الفقه في عهد الرومان تخرج قضاة المملكة ولها شأن لا يقل عن شأن مدرسة البطالسة في الاسكندرية .

وتأخرت دمشق عاصمة الامويين القديمة ومبعث النهضة العربية الاولى في باب التمددين ، لان الترك العثمانيين لم يكونوا أمة علم وفن كما كانوا أمة حرب وسياسة فأغضوا عمداً أو عن غير عمد عن المدارس القديمة التي أنشئت في اربعة قرون ، وكان في هذه المدينة لما افتتحوها أكثر من مائة وخمسين مدرسة للقرآن والجديد والفقه على المذاهب الاربعة واربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة وما كانت جامع ولا مدرسة ولا رباط تخلو من مدرسة قائمة امامها ، يتعلم فيها الفقراء واليتامى الدروس الاولى ، بحسب عرف تلك العصور ، دع ما كان من عشرات مثلها في حلب والقدس وحماة وحمص وطرابلس وغيرها من المدن الشامية . وكانت كلها تخرج الناس من الامية بحيث كان عدد المتعلمين من اهل البلاد في ظلمة القرون الوسطى اكثر منهم في القرن العشرين لما غادرها الاتراك وهكذا القول في مدارس العراق والحجاز واليمن ومصر وما اليها من شمالي افريقية .

وكان في معظم هذه المدارس خزائن كتب وتكثر فيها عامة المرافق واسباب الراحة والتشويق للطلبة . كل ذلك اتى عليه الخراب ، واكل من فسدت ضمائرهم اوقافها واحباسها ، ودكوا معالمها فجعلوها دوراً او حوانيت او اصطبلات او خرائب محزنة ينقع اليوم في ربوعها ، وتشاهدون منها امثلة كثيرة في جميع احياء دمشق وصالحيتها وسائر المدن الواقعة بين صحراء التيه والفرات .

ولكن دمشق ، والدكاء مغروس في فطرة أهلها وهم من عناصر راقية تمثلهم البوثة العربية ، تداركت امرها بعد الحرب العالمية فانشأت لها تجمع العلمي العربي والجامعة الحرة ودور المعلمين والمعلمات والمدارس النجيبية - حكومية وخصوصية - واستكثرت من المدارس الابتدائية في المدن والقرى فاهتقت في سنين قليلة ماتقدم غيرها للاستعداد له أعواماً طويلة .

بدأ سكان جبال الشام بالهجرة الى الاميركتين منذ سنة ١٨٧٦ يطلبون الرزق ، فاختلفوا بالغربيين في ذهابهم وإيابهم وفي حلمهم وتوكلهم ، فكان من لا يعود منهم الى وطنه بمال يذكر يرجع الى أهله بما اقتبس من بساطت المدنية . وكثر بعد ذلك في تونس والجزائر ومصر والشام وغيرها من الامصار التي يتكلم أهلها بالعربية عدد السائحين والمتجربين والباحثين في الآثار وطبائع الامصار من أمم الغرب يزورون ما أبقته المدينيات القديمة من العاديات الدينية والمدنية ، ومنها ما تقده أمم الغرب لأنها موطن المسيح ومظهر عجايبه ومنها ما يدهش له الغربيون كآثار الفراعنة في مصر وكصانع تدمر وبعلمك وجرش ووادي موسى في الشام وآثار قرطاجنة وغيرها في افريقية .

وكان من أثر اختلاط الجزائريين والتونسيين والمصريين والشاميين بالغرب ومن أثر أخذ بعض أبناء هذه الأقطار بأساليب المدنية الجديدة أن دخل الإصلاح أيضاً على المدارس الدينية القديمة . فالأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس ليسا اليوم على حالة من الجمود الذي كانا عليه من قبل ، لأن التنظيم الجديد دخل اليها ما أمكن ، فتمسكت حال المتخرجين فيها أكثر من المدرستين العظيمتين اللتين غائلتها في انشاء رجال الدين ، عنتت بها مدرسة النجف الأشرف في العراق ، وجامع القرويين في فاس فانها ما برحتا على قديم حالهما الذي لاتعبطان عليه كثيراً . وعلى أثر هذا التمازج بين المدينتين تم استبطان أدباء العرب أسرار ماتم للغرب من النهوض بأدابه . ومعظم السبب فيه تعلم النابيين بعض

اللغات الغربية ولا سيما الفرنسية والانجليزية ، فخلعت الآداب العربية ثوبها القديم البالي في عصور الانحطاط وتحلت بثوب جديد ، فنبغ فيها بعض شعراء أعادوا الى اللغة رونقها الذي كان في العصور الخمسة الأولى للإسلام . واتخذوا للكتابة والحطابة غطاءً جمع بين متانة القديم ورشاقة الحديث ، ودخل التأليف بالعربية اليوم في طور يأخذ بمجامع الآداب ، فصح أن نقول : ان العربية في الحسنة سنة الأخيرة ارتقت ارتقاء عظيماً لم تبلغه في عصر من عصورها ولا نظن أنه كتب للغة من لغات الارض مثله في هذه المدة القصيرة . فكأن العرب أعادوا بذلك تقاليدهم القديمة أيام فتحوا في مائة سنة لأول أمرهم معظم العالم القديم ، ونشروا في ربوعها لسانهم ودينهم وأوضاعهم على ما لم يسبق له مثيل في التاريخ .

وبقدر ما كان العرب سراعاً الى الخير في أيام قوتهم أصبحوا الى تباطؤ في أيام ضعفهم . مثال ذلك أن الغربيين بدأوا بطبع الكتب العربية في أول مطبعة أنشئت في مدينة فانو على بحر الادرياتيک سنة ١٥١٤ ومنذ ذاك العهد هم يحبون من أمهات كتبنا كل مفيد . ونحن مع هذا لانبالي بما يصنع الغرب لنا ولا نصنعه لأنفسنا . ومضى أكثر من قرنين والغربيون يطبعون من كتبنا في ايطاليا ثم في هولاندة وغيرها حتى انتبهنا في القرن الماضي لصنع الحروف والطبع بها ، هذا بعد أن أنشأت معظم الدول الأوروبية مطابع لها عربية وكانت بدأت منذ القرن الرابع عشر تنشيء مدارس في بلادها لتعليم اللغة العربية وتحرص على جمع مخطوطاتها حرصاً على أهم ذخرتيها ، ولذلك كانت خزائن العواصم في الديار الأوروبية لا تخلو الواحدة منها من ألوف من المخطوطات العربية التي أخذوا أكثرها بالشراء الشرعي من خزائن الشرق بعد أن زهدت فيها وما عرفت لها قيمة أدبية ولا مادية . أما الغربيون وعلماء المشرقيات منهم خاصة ، فما فتوا الى الآن يطبعون النفائس النادرة من كتبنا بأمانة وتدقيق يخدمون بذلك العلم عامة والعرب والعربية خاصة .

لو لم يكن من نتائج هذا الاحتكاك بين المدينتين الغربية والعربية الا أن الناس أدركوا بعد زمن أن لاهياة لهم بغير العلم والصناعات على مثال الغربيين لكفى في عظيم شرفه وجزيل فائدته . فقد كانت الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم الى الكتاتيب في البلاد الشامية بقوة الجند والدرك ، وكان التعليم على عهد محمد علي في الديار المصرية مكروهاً عند المصريين كرهاً شديداً حتى اضطرت الحكومة المصرية في بعض أدوارها الاولى أن تتخطف تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى كما يتخطفون عساكر الجيش ، فزاد اليوم اقبال المتعلمين على المدارس زيادة مستغربة وغدا أهل كل قرية بل أهل كل قبيل في البوادي يمتالون الى تعليم أبنائهم بكل حيلة . دع سكان المدن فانهم من ذلك على حصة موفورة .

هذا ما كان من أمر التنعيم أما سائر مرافق الحياة فكانت أحط من ذلك أيضاً . فالطب وأمور الصحة وتنظيم المدن واختيار المياه الصالحة للشرب كان بما لا يؤبه له كثيراً ، ولذلك كانت الطواعين والابوئة والأمراض الوافدة تحصد الناس حصداً كاملاً انتشرت ، والناس لا يعرفون دواها ولا من يفكر في تخفيف ويلاتها . ومنهم من يعزو ذلك الى أسباب سماوية ، يغضب الديان على الانسان فيرسل عليه هذه المهلكات ، أو يقوى سلطان الجن على الانس فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أو يحل بهم تكبد الطالع فتساورهم النقم وتتخطاهم النعم . ولذلك كان من الناس من يفزعون في مداواة أمراضهم وجنونهم وآلامهم العصبية الى المشايخ والرهبان ، وكان لمزارات الأولياء وأديار القديسين نصيب وافر من الاقبال ، لا يجد بعض الناس ملجأ غيرها لمداواة علالهم وأسقامهم ورقية شياطينهم وأبالستهم التي تلبستهم ولا بستهم ، فان كان في فرنسا « لورد » ففي بلاد العرب منها عشرات . أما اليوم فأهل المدن الا قليلاً عرفوا مسائل الصحة والوقاية وأصبحوا يتظاهرون على الأصول ويتبعهم من أهل القرى الاقرب فالاقرب

من المدن ، وصار البدوي والحضري على السواء يعرفان قدر التطب في الجملة .

ويطول بنا مجال القول اذا أردنا تفصيل ما أخذته العرب عن الافرنج فقد تعلموا من أهل الغرب معنى الوطن والوطنية وحب الجنس والقومية ونقلوا أوضاعه الاجتماعية والمدنية والسياسية كالمجالس النيابية والحكومات الدستورية وأخذوا منهم أصول الصحافة فأنشأوا صحفاً ومجلات تعنى بالأمور السياسية والمالية والاقتصادية ، ومنها المزي والجدى ، ومنها ما يكون في موضوعات اختصاصية ، ومنها ما يصدر لتسلية الشعب وتعليمه البسائط على مثال ما عند الغربيين منها ، فاثرت مطالعة الصحف في عقول من أكثروا تلاوتها ، ودخلت الافكار الجديدة أوساطاً ما كان يظن أنها تهم بها وتستفيد منها ، وبدلت من طرق التفكير وأصول المعاش ونظام المجتمعات ، وعلمت الناس شيئاً من التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة وحالة الأمم ومما حككت رجال السياسة وغيرهم في العالم وأصبحت الصحافة حاجة من حاجات المجتمع لا يستغنى عنها مجال .

وبفضل الصحف السيارة والدورية والكتب المؤلفة على الطراز الغربي ودروس بيوت العلم ومواعظ المعابد ودور الغناء والتمثيل واسطوانات الحاكي واذاعات الراديو أصبحت الفصح من الالفاظ العربية في ألسن الناس وعلى أسلات أفلامهم ومكتوباتهم كأنها من المتعارف . وظهر في العرب رجال ناهيون في القانون والادارة والجندي والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والشعر والكتابة والادب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش والطب والعلوم ، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم في الغرب . وعرف العرب أن أعظم سبب لارتقاء العلوم والصناعات في الغرب هو الاختصاص فأخذوا يخصصون في العلوم ويتقنونها اتقاناً محكماً على مثال من سبقوهم فيها .

ولا نبالغ اليوم اذا ادعينا أن جمهرة كبرى من شبابنا بما اختصر لهم من مراحل التعلم وبما حدث من طرق التدريس العملية الجميلة قد

تعلموا أشياء كثيرة من ضروب العلم أصبحوا بها مفخرة بمعارفهم ، وما كنا نسمع بثلثها يجتمع لفتى في الخامسة عشرة من عمره ، ولا بالأطفال من البنين والبنات يربون في رياض الاطفال هذه التربية العملية الصحيحة ولا بربات الحجال ينافسن في التعليم العالي الرجال .

كل هذا ألقا من حسنات المدنية الغربية وتقبلناه بقبول حسن ، والغرب في معاناته ليس قديماً كثيراً على ما يظهر ، ذلك لأن العلم كما قال شارل ريشه في كتاب العالم (من مجموعة أخلاق هذا الزمان) يسير الى الامام بسرعة تحير العقول ، ومع هذا لم يبرح فتياً غص الاهاب وعلى ما كتب لطاليس وأرخميدس من النبوغ لم يعرفا شيئاً مما يعلم اليوم في المدرسة الابتدائية ، وأجمل شاب حاز الشهادة الثانوية يحسن اموراً كثيرة كان جاليله يجيها بالمرة ، ولم يمض من عهد فرنسكان الى آشتين مائة وخمسون سنة كاملة ، ولم يكن يعرف علم مطبوعات الارض من النباتات وغيره ولا علم الجرائيم ولا الحايكي ولا الطيران ولا السكك الحديدية ولا الحل الطيفي . فعمر الانسانية العلمي لا يقدر له أكثر من مائة وخمسين سنة ، وهي أربعة أجيال نرى وأنت ترى أن هذا العمر غير طويل اه .

أخذنا من الغرب طب الحيوان والدواجن ومكافحة الحشرات ، وكان الجراد وحده اذا انتشر في قطر يفقره ويقفقه ، واستعملنا الأسمدة الكيماوية والطرق الحديثة في الري وحرث الأرض وزرعها وحصد الغلات من الحقول وحملها ودرسها وتذريتها بأدوات ما كنا نعرفها . وهكذا استعملنا المكابس والمعاصر والمخالج والمغازل والمناسج وتعلمنا تمديد الخطوط الحديدية وفتح الانفاق وبناء الجسور والطرق والمرافئ والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية واقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة وتوليد الكهرباء ومد أسلاكها وانارة المدن والقرى بها وتسيير عجلاتها في الحواضر والضواحي واتخذنا أصول البريد الجديدة والبرق والهاتف واللاسلكي والسلك البحري والراديو . واقبضنا منهم تنظيم المدن والبلديات وفتح الشوارع

والساحات ورصف الطرق وجبر المياه في قساطل ومشاهل وتجهيف المستنقعات . واقتبسنا أصول الجندية والبحرية وتدوين الدواوين وأنساب الجباية وإدارة المصارف والمجاريك وأصول الشركات وتأليف الجمعيات والمؤتمرات ووضع الاحصاءات والمفكرات والجزازات والاعلانات وجميع الأصول الحديثة ، وقتلنا أكثر صناعات الغرب القريبة المأخذ فأنشأنا معامل الأنسجة والأصواف والأجواخ والجلود والاسمنت وحفظ الثمار والبقول وغير ذلك . كما أنشأنا مدارس على مثال مدارسهم ومستشفيات على صورة مستشفياتهم وقلدناهم في الحسن والقيبح . وأثروا فينا بمدارسهم وجامعاتهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم ، وشاركناهم في الانتفاع بأكثر ما اخترعوه وكشفوه الا أننا وبالأسف حتى اليوم لم نر امماً لعربي واحد معاصر اخترع اختراعاً مفيداً وكشف كشفاً جديداً ، يضاف الى مثات من الخترعات والمكشوفات التي كشفها علماء الغرب وبقينا عن عملهم بمعزل وكان أجدادنا على مثالهم اليوم يفكرون ويبحثون .

وجاء فيهم أمثال الكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن زهر والرازي وابن جابر والبيروني وابن الهيثم وابن باجة وابن خلدون وابن الرومية والبتاني وبنو موسى بن شاكر وأبناء بختيشوع وأبناء ماسويه وابن جزلة وابن يونس والفرغاني وابن البيطار والحوازمي والهمداني الى أمثالهم ممن نبغوا في العلوم المادية . ولا نذكر الا بعض من اشتهروا عند الغربيين منهم . أما علماء الشرع والآداب فأكثر من أن يحصوا أو أن يشار اليهم وفيهم من هو كأفضل الممتازين من علماء الغرب منذ انبعث نهضته الاخيرة . وعلماء العرب هم الذين نقلوا علوم اليونان والفرس والهند وزادوا عليها وبرزوا في أكثر مظاهرها وهم الذين عرفوا أوروبا اللاتينية والانكلوسكسونية بالآداب اليونانية والفلسفة اليونانية ، ونشروا آثار معارفهم في الغرب من أرض الاندلس وصقلية ، فشبّه جزيرة الاندلس تولت نقل الحضارة الى غربي أوروبا ، وجزيرة صقلية تولت نقلها الى أواسط أوروبا . وفي بلرم عاصمة صقلية أنشأ العرب أول

مدرسة طبية في العالم ، ولم ينشأ مثلها في الامم الاخرى الا بعد سنين وكانت كتب العرب في الطب وفيرة تقرأ في جامعات الغرب بل عليها المعول مدة ستائة سنة .

نعم كان أجدادنا العرب كذلك في العلم والعمل على ما بسط ذلك جملة من العلماء أمثال دوزي ودروي وسيديليو ولبون وغوتيه وسنيوبوس ورنان وهوار وريسون ودي كاستري وميجون ولافيس ورامبو . قالوا ان العرب برزوا في علم الفلك لانهم امتازوا بالرياضيات واخترعوا أساس حساب المثلثات . وقد كتبوا أول كتاب في الجبر وكشفوا الافطار فدبروا كل ما يفيد علم الجغرافيا وقالوا بكروية الارض ، واخترعوا البارود وعمل ابرة السفينة ، وعلموا أوربا صنع الكتاب والورق ، وعرفوا طريقة عمل الحديد الصناعي ، ولم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات . وذلك ما هبأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الانتقال ودعاهم الى استعمال الربع والاضطراب في علم الهيئة ، واستخدام الموازنة في الكيمياء وصنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة . ورسموا خرائط النجوم المنظورة في فلكهم وعرفوا حجم الارض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين واستعملوا أول الناس الساعات المتنوعة ولا سيما الساعة الرقاقة وكشفوا أجزاء مهمة في الكيمياء كالحامض الكبريتيك وحامض النتريك والكحول فاستخدموا الكيمياء في المعالجات الطبية ، وكانوا أول من نشر تركيب الادوية والمستحضرات المعدنية ، وقرروا نواميس سقوط الاجسام وكان لهم رأي جلي في طبيعة الجاذبية ورأي سديد في القوات الميكانيكية واصطنعوا في نقل الموائع وموازنتها الجداول الاولى للجاذبية النوعية ، وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويحس المرئي فيظهره ، فقالوا

ان الشماع يمر من المرئي للعين ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور ككرة الارض المحيطة بالبر والبحر وحققوا طول البحر المتوسط الذي قدره بطليموس باثنتي عشرة درجة فأرجعوه الى أربع وخمسين أولاً ، ثم الى اثنتين وأربعين درجة أي الى الصحيح من مقداره تقريباً .

وعرفوا النشوء والارتقاء فكانوا يدرسونه في مدارسهم ، واكتشفوا مرض النوم وكادوا يهتدون في الاندلس الى معرفة الجراثيم على ما يفهم ذلك من كتاب ابن خاتمة الاندلسي في الوباء ، واكتشفوا منابع النيل قبل أن يتصدى لها الافرنج ، ووصلوا الى أماكن من مجاهل افريقية ونشروا فيها دينهم ، قبل أن يبلغها الغريبيون بقرون . وأدركوا أن في الارض أقطاراً لم تكشف قبل أن كشف كولبس وفاسكو دي جاما ما كشفاه من الارض بمعاونة بحارة من العرب . وبلاستفادة بما كتبه علماءهم في الجغرافيا والفلك والرياضيات .

وسبق العرب الى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البسارزة وبدأوا في الاندلس بالطيران ، حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال لمعرفة الاوقات ، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلاً بخيل الناظر أنه حقيقة .

وعرف العرب الطبع بغير الحروف قبيل مخترعه جوتنبرج بأربعمائة سنة ، وهم الذين عرفوا صنع الشمع والجوخ وعلموها أهل أوروبا ، وما علموه في الزراعة والرى واستخراج المعادن المختلفة وكل ما ينفع التجارة من دور صناعة ومرافيء بحرية في كل أرض حلوها مثال من مدنيتهم الباهرة . واذا أردنا أن نحكم عليهم بآثارهم تكفي نظرة قليلة على ما تركته الايام منها في الاندلس ومراكش وتونس ومصر والشام وغيرها وبها نتبين جمال ذوقهم في الفنون الجميلة وانهم أمة شعر وخيال كما أنهم أمة علم وعمل .

كان يقرأ الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية في أوروبا في كتب

العرب ، وظل قانون ابن سينا في الطب يقرأ في جامعات الغرب حتى القرن الثامن عشر ، ولذلك نرى مئات من الالفاظ الطبية والفلكية والبحرية وغيرها دخلت في لغات أوروبا ولا تزال يرهانا على مدينة أعطى فيها القوي الضعيف بعض مايلك . وأفضال العرب على جامعة مونبليه وجامعة بادو لانتكر ، وكثير من كنائس فرنسا هندسها مهندسون من العرب ولاسيما كنيسة نوتردام دي باري في باريز ، فانه ثبت انه عمل فيها مهندسون من العرب . وربما كان ربع اللغة الاسبانية من اصل عربي وكذلك دخل مئات من الالفاظ العربية في البرتغالية والفرنسية والايطالية حتى ان لغات شمالي اوروبا نفسها قد دخلها كثير من الالفاظ العربية ، وأهم ما نشره العرب بين الامم وما كانت لهم به عهد على ما يقول غوستاف لبون هو « التسامح » و « حسن الاخلاق » فدلوا بذلك على ان المحافظة على الدين في الانسان لا تنمعه من ان يتقبل كل فكر جديد نافع .

أرانا نكاد نخرج عن موضوعنا الذي رسمناه في أول المحاضرة ، وهو حظ العرب اليوم من اقتباس مدينة الغرب ، وما كان تعرضنا لما أخذه العرب عن العرب الا للتذكير ، والتفصيل في ذلك قد كتبت فيه كتب مطولة في لغات العلم الحديث وكل من درسوا الحضارة العربية من الغربيين يجمعون على الاعجاب بما آتته العرب بتجارهم في الصناعات والطب والكيمياء والاقرباذين وفي تبليد الاشجار والازهار وغير ذلك .

كان من أهم الدواعي في تراجع الحضارة العربية أن أعظم عظيم في العرب كان يرى من الطبيعي أن يعمل بيده في صناعة من الصناعات وأن يعنى بزراعته ويعمل فيها بنفسه ، فلما ضعفت الاخلاق وانغرس روح الاتكال في أهل الامم الجيال التالية وأخذوا يعتقدون أن الصناعات اليدوية ومذاهب المعاش الطبيعية لا تورث صاحبها شرفاً كما يورثه التمجيد الذي يناله المرء في أعمال الحكم والقضاء والجندي سقطت حضارتهم وزاد فقر أهلها وأصابهم في هذا المعنى ما أصاب الاسبان لما قضوا على العرب في بلادهم ، ثم فتحت أمامهم أميركا ، فكان المال يأتيهم بدون تعب ،

واستنكفوا بما أصابهم من الغرور عن تعاطي الصناعات فأمسوا أفقر أمة في الغرب ، وربما عدم بعض الباحثين كالفيلسوفين الفريد فوله وغوستاف لبون من أحط الأمم الغربية ، وأنا أجسر وأقول ان مصر العربية اليوم أرقى من اسبانيا في كثير من مظاهرها .

استندت سيطرة رجال الدين المتعصبين في الاسلام بعد القرن الخامس من الهجرة بما كان لهم من النفوذ في قصور الملوك المستبدين الجاهلين فضيقت منافذ العقل على الباحثين ، فبدأ الانحطاط يتسرب الى أوضاع الشعوب العربية . والامة التي لا ترتقي تتراجع . وكان نسبة الترقى في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر عند أمم الغرب كانت على مقدار التدلي في كل شأ من البلاد العربية . ومن أهم ما قذف بالأمة العربية من حائق كون من استولوا عليها كانوا من عناصر غير عربية ، اهتموا بدوام سلطانهم أكثر من اهتمهم بالحفاظة على تراث العرب العظيم ، فأكلوا من ثرائه وانتفعوا ببقاياه ، فلما نضبت هلكوا واهلكوا من حكمهم .

علل بعض الباحثين في ان العلة في انحطاط العرب كانت دينية ، والحقيقة أن الدين في سذاجته الأولى لم يحل دون العرب والامخذ بكل جديد في الفلسفة والفكر ، وما تسرب هذا الضعف الا بما دخل على الدين من الاوهام فأخذ بعضهم بعده ديناً وما هو به . مثل الطرق الصوفية التي اخملت النفوس وأضلت العقول . وهذه الارضاع هجمت عليهم من الاعاجم والآريين من الهنود ، فصاروا في بعض الاصقاع يفكرون في الآخرة على الصورة التي صورتها لهم طرقيهم اكثر من تفكيرهم في أمور الدنيا التي لا تستقيم الا للعامل والباحث والمفكر ، وبالاتماس في هذه المعتقدات — التي يقضي عليها العلم والتربية الحديثة اليوم — زهدوا فيما عندهم . وعند غيرهم من طرق النجاح وأحالوا مسائلهم على الاقدار وكان الاعتقاد بالقضاء والقدر على وجهه المعقول ، من موجبات ارتقاؤهم لاؤل عهدهم ، وأصبح أيام ضعفهم من دواعي تجاذلهم وفشلهم .

مها قيل في سيطرة الكنيسة في الغرب قرونًا طويلة حتى تحورت الشعوب من سلطانها فانه كان منها أمر واحد لا مجال للشك في فائدته وأعني النظام المشدد على رجالها حتى لقد حرمت الكنيسة عليهم الزواج وما كان في اصل الدين محرماً على رجال الدين حتى لا يدخل خلل في تطبيق الانظمة المرعية ، وبهذا وجهت الهمم الى مقصد واحد معين مها كان في سبيل تحقيقه من المتاعب فهو من حيث النتائج نافع لانه يعلم التسلسل في الاعمال والدؤوب عليها ويلقن الناس حب النظام والتدقيق ، وهذا ما حرمه العرب لان لارهبانية في دينهم وليس لاحد على احد سلطان الا ما قضى به الشرع العام .

اما ما قيل من ان المدنية هي ابنة الارض الباردة ، فلا يصدق الا الى حد معين ، ولو كان الامر كذلك ما قامت مدينة العرب قيامها الباهر ، وهي من صنع عرب الجزيرة اولاً ، ثم من صنع من انضم الى لوائهم من الفرس وغيرهم من العناصر التي انضوت اليهم ، واقبلت بالرضى معقداتهم وأوضاعهم . بل لو صح ذلك لما قامت مدينة الفراغة ام المدنيات القديمة كلها في قطر نصف سنته حرارة ورياح سموم . لاجرم اننا نشاهد اليوم في الغرب اهل الشمال من كل امة أرقى وأنشط من أهل الجنوب في عدة اعتبارات ما خلا الجزائر البريطانية التي لا يكاد يختلف شماليها عن جنوبيها بهوائه وسنانه . ولكن هذا النظر أيضاً يختلف ، ويتخلف اذا درسنا حالة رقي اليابان وعارضناها بالانحطاط الطاريء على الصين ، ولو صحت نظرية البرودة والحرارة في ارتقاء الامم لكانت سيبريا أرقى من فرنسا وألمانيا وانكلترا ، ولو جاز أن يقال ان للمعتقدات اثرًا ظاهرًا في تدلي الشعوب لناقضنا ما في اديان البراهمة والبوذيين من اشياء ، وقد رأينا في تاريخ من يدينون بها أدوارًا مهمة من الارتقاء لا يسع منصفًا انكارها .

المدنية العربية في مجموعها وليدة البحث والدرس والنظام وحسن الادارة وهذا ما تطمح اليه الشعوب العربية واخذت تقتبسه وتمثله ، ونأتي على ذلك

ببرهان قريب اذا نظرنا الى الشعوب العربية التي خلت ولم تتمثل الحضارة كأهل اليمن والحجاز ونجد اذا قيسوا بأهل مصر والشام وتونس الذين عملوا وتعلموا . وفي اليوم الذي يدخل العلم حراً طليقاً على عامة الشعوب العربية والمستعربة ترقى كلها الى الدرجة التي تتناول اليها من الاخذ بقط وافر من المدنية ، ولا يكون حظها على الاقل في هذه السبيل اقل من حظ الشعوب البلقانية ان لم نقل اكثر من حيث الاخلاق والتربية وصحة التفكير والتقدير .

(١) في خزمة العربية

هل وفّت العربية بفرضها

اذا تدبرنا ألفاظ الكتاب والسنة وألفاظ الشعراء والخطباء ، وأمعنا النظر في بنية الكلام العربي منظومه ومنشوره ، منذ كانت اللغة العربية لغة شعر وخطب الى أن غدت لغة شريعة وأدب الى أن درجت لسان علم وسياسة ، ثم نظرنا فيما أبانت عنه هذه الالفاظ ، وما تركب منها من أغراض ساذجة أو مركبة — اذا تدبرنا كل هذا يعرض لنا سؤال يستلزم جواباً ، وهو هل وفّت العربية بما بقي به لغة عظيمة خلال هذه القرون الطويلة ، أم عصت على القيام بالغرض المطلوب لما تم لها عهد الجاهلية ، ويقدر بمئة وخمسين سنة وقد خرجت من جزيرة العرب الى الاقطار التي رحبت بالاسلام .

وعرفنا من سير هذه اللغة وسيرتها أنها كانت في جاهليتها وعالميتها سواء ، تؤدي المقاصد وتوفي على الغاية ، كانت كذلك وهي بمعزل عن العالم ، وكذلك صارت لما عرفت لها معان اقتضتها وضع ألفاظ ومدلولات

(١) فيما يلي نموذج من الخطب التي ألقاها في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة

واصطدمت يوم امتزجت بالاجانب ، وصرت اليها لوثات اغلاطهم وأساليبهم
ولهجاتهم ، كما سرت اليها طرق تفكيرهم واللهج بأساليبهم بالجدل والمناقشة
العربية ما خارت قواها يوم أويدت على نقل علوم اليونان والفرس
وغيرهم ، بل زادت قوة عندما ضمت الى متنها كلمات وكلاماً ماعرفها
أبدأ ابن الجاهلية ولا ابن الصدر الاول ، تبنت كل ما دخل عليها
وما أنكرته فعاد كأنه أصيل فيها غير دخيل عليها . وطريقتها أن تشتق
من أصلها ما استطاعت اشتقاقه فتضع له لفظاً يقارب ما تقصد اليه من
معنى ، وما لم تجده له في بحرها الطامي مقابلاً من اللفاظ تنحته أو
تشذبه حتى تقرّبه من ذوقها فاذا أعجزها كل أولئك اقتبست اللفظ كله
وان خالفت بعض حروفه حروفها ، وبعد بأسلوبه قليلاً من أسلوبها .
وهذا من بعض الأدلة على أنها مستعدة للتجدد غير جامدة ولا راكدة .
لمضت اللغة على هذا النحو تقوى بانتشار العلم وتضعف بضعف أهلها
والضعف ينالها من زهد أبنائها في العلوم والتجفاف : من دراسة الآداب
دراسة تبعر . ولقد كاد يذهب من يشخص أعراض أمراضها زمان التراجع
الى أنها من اللغات الميتة المحكوم عليها بالانقراض ، فلا تلبث ان تكذب
ظنون اعدائها وتعود فتنبه هبة جديدة ملؤها صحة ونشاط . ويرجع
الفضل في ابلالها من اعتلالها ابدأ لاحتفاظها بكتابتها الكريم ثم لاستمساكها
بآثار المجودين من بلغاء السلف .

قضت هذه اللغة في الاسلام نحو نصف حياتها في استعمال الاسجاع
والجناسات فأوشكت ان تضع رساقتها بهذه البدعة في نسج كلامها ،
وما زالت تهوي ففسد ملكتها وتخرج عن طبيعتها حتى قبض لها آخر
القرن الماضي من نشائها من سقطتها وعادها سيرتها الأولى من ترك التكلف
والرجوع الى الطبع . ورحنا نشهد كتابتها أشبه بكتابه القرن الرابع ،
ونرى شعراها ينحون مناحي شعراء الحضارة في العصر العباسي الأول
والثاني ، ومن قرأ مقالة مما تنشره الصحف والمجلات أو فصلا من تأليف
حديث صدر من قلم رجل درس العربية دراسة نظامية أو قصيدة من

فصائد المعاصرين ، يدرك بأدنى تأمل كيف أخذ الكتاب والشعراء يحسنون رصف الكلام البليغ ويقدمون الالفاظ بقدر المعاني ، وكانوا الى عهد قريب يَصِفُون الالفاظ صفاً لا ينم عن ذوق ، ويكثر من المترادفات ليتألف معهم السجع والازدواج وتستقيم القافية والوزن . أي أن اللغة آخضت في النصف الثاني من القرن الاخير ورأس مالها الفاظ لا يعرف مالكوها كيف يتصرفون فيها . والالفاظ مهما تنوّق في اختيارها لا تبرز في قالب مقبول الا بجودة التركيب ، فالبلغة في التركيب والفصاحة في تخير الالفاظ . وهما حاول السكائب احسان القوالب لا يكون الا الى التماهة اذا كان المعنى في ذاته مبتذلاً . وطروقاً . والمعاني كما قال العارفون صوغ العقل واللفظ صوغ اللسان .

وحاول في هذا العصر بعض المتعذلقين الذين لم يُعْنُوا بدرس أدب هذه اللغة أن (يفرنجوا) ألفاظها وتراكيبها ، فعمدوا الى استعمال كل ساقط من اللفظ والتراكيب يعبرون عن أفكار لا تستسيغها أذواقنا ، يريدون بهذه البدعة أن يستروا نقصهم بدعواهم أن كتابتهم عصرية ، وشعرهم عصري ، وأنهم يجيبون اللغة الى أهلها بهذا الاسلوب الذي ادعوا له الرشاقة وما هو الا السماجة بعينها ، وكيف لعمري تصيح دعواهم وهم مادرسوا الأدب العربي ولا الادب الافرنجي يلون مالا محصل له ، ويضعون جملاً لو سألتهم تفسيرها لعجزوا وجمجموا .

حاولت غير مرة أن أنفذ الى روح هذا الادب العصري الذي حمله النسا المفسدون فلا وربك ما فقهتمه ولا تذوقته ، ورجعت بعد الغناء ويدي شعر غث بارد تجرد عن الشاعرية وخرج أحياناً عن الاوزان العربية لاموضوع له ولا مغزى ، وانقلبت بنثر لا ماء له ولا رواء ، خال من كل جزالة ، معقد غامض لا يصدر مثله الا عن هذي . هذا ادب هؤلاء القوم الذي صدّعوا به الرؤوس ، وعتبوا على دهرم ان كان المقبلون عليه اقل من القليل . ولقد قرأنا ادب الافرنج فأعجبنا به واستفدنا منه ، وقرأنا طائفة من ادب الامم الاخرى منقولاً الى لغة

الافرنج فهدينا به الى اشياء كثيرة ، اما هذا الادب العصري فعصرناه
عصراً متيناً فما رأينا له بلة ولا طلاوة ، وحرنا وقد أزعجتنا دعوى
أدعيائه واصلهم في أي رف ندحه وفي أي كوة ندسه .

انهم يحاولون ان يأتونا بلغة يبتدعونها على هواهم ، ويرغموننا على
ان نشايعهم بأنها لغة عربية ، والفصحى يخالف روحها ذلك ويأباه ، العربية
ترذل من يعقها ويزعم أنه بار بها ، العربية خلقت كما قال العلامة رنان
كاملة من أول نشأتها خلافاً لاكثر اللغات التي كان الأبيام يد في تكملها ،
تكيفها حاجة الناطقين بها ويعمل الزمن في تنميتها . وقد جرت لغتنا
منذ عرفت على نظام واحد وجاءت تامة بصيغها ومبانيها تتجدد بالمعاني
التي تدخل عليها والالفاظ التي تستدعيها تلك المعاني .

واقده رأينا أدب العرب في الاندلس والغرب كأدبهم في فارس والشرق
لاتفاوت بينهما في القواعد والروابط والالفاظ والتراكيب اللهم الا ان
كانت هناك مسحة أتت من بعض صور المعاني المنبثقة من علم المؤلف
أو الكاتب أو الشاعر ومصطلحات اقلية وعادات أهله . وهذا لان
المصادر التي يستقي منها أهل الخافقين واحدة وما حدثت نفس احد ابناء
اللغة ان يخرج عنها قيد أنملة ، وأن يخرج اجماع العارفين الذي تسلسل
اكثر من خمسة عشر قرناً . ولو لم تصب العربية بمصيبة التكلف والاسجاع
لكانت صور الاداء في القرون التي سبقت الاسلام كصورها في القرون
التالية الى يوم الناس هذا . كانت الالفاظ اذا لوحظ فيها الابتذال في
بعض العصور بضعف ملكة الادب يقوم أناس يرجعونها الى محبتها المرسومة ،
ويجيئون من معاملها ما تعود به اشد رصانة ، وبيعثون من شواردها
وفصحها ما امامته الجهل وقلة العناية .

نعم كانت اللغة اذا مرضت حيناً من الزمن لاتلبث ان تبوأ بظهور
أساة من البلغاء يكشفون اسرار فقها ، ويقومون مناد اللسن والاقلام
ويتوقرون على « التوسع في علم اللغة خاصة » لتكثر الالفاظ عند « من
يطالب التوسل وقرض الشعر وعمل الخطب » ، « وليعرف العلوي من
الكلام فيستعمله والعامي فينتقيه ويحتنبه » .

وجاء عصر منع الفقهاء في بعض الاقطار العربية قراءة التفسير زاعين ان بقراءة تفسير القرآن يموت السلطان وما يموت في الواقع الا الجهل ، وما حاول العابثون بذلك الا ابقاء الناس في عمية والتزلف من السلاطين ويستحيل على من لم يحفظ القرآن ويتدبر معانيه وينظر في احكامه ان يبرز منزلة في البلاغة وعلوم الشرع ، وهذه العلوم لا يتقنها من ليس له حظ من الكلام العربي ، وهل القرآن الا كتاب ادب العرب كما هو كتاب شريعتهم ؟ وفرق بين فقه يدونه فقيه يكون على شيء من تذوق البيان وفقه يكتبه فقيه ليس من البلاغة على عرق ، وهكذا الحال في سائر العلوم . ولو كتبت جميع علوم الاسلام بلغة بليغة ما استلزم تحصيلها الاعوام الطويلة .

وما خلد ما كتبه نصارى العرب وغيرهم من ارباب النحسل الذين ظهروا في عصر الاسلام الذهبي اي في القرآن الثالث والرابع من الهجرة الا لانهم كانوا يدرسون القرآن على انه المصدر الاول في احكام اللغة العربية ، ولا تغفل الا بأبي اسحق الصابي وحنين بن اسحق ويحيى بن عدي ممن كتبوا تأليفهم مؤمنين ببلاغة القرآن وان لم يؤمنوا به ايمان المؤمنين من اهله .

وبعد أن دخل الفساد على اللغة أواخر القرن الأول للاختلاط بالأعاجم غدا أهل اللسان يتعلمون لسانهم في الكتب ، ويتخرجون بجهاذة اساتذته تخرجاً لمناظرة العامة والابقاء على الفصحى . ومن قعدت به المهمة عن اختيار الجيد من المفردات والجيد من المركبات فهو العي " كل العي " ، وإن قضى أعواماً في درس الصرف والنحو والبيان والبديع .

ما اللغة الا مفردات وقوالب لادساثير وتعليلات ، وكم من حافظ للقواعد عاجز عن البيان العجز كله ، وما نخال الجاحظ وابن المقفع حفظا من مطولات النحو ما حفظه بعض علماء النحو وما كان الأحمدان أحمد ابن يوسف الكاتب وأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية كابن المعتز والعسكري في معرفة الجنس وزخارف البديع ، وثقوا أن ابا تمام

والبحثوي والمتنبّي ما عرفوا علم العروض كما عرفه اقل العروضيين ، وان القاضي علي بن عبد العزيز وتلميذه عبد القاهر الجرجاني ابدعا ببيانها ما لم يبدع بعضه من وضعوا قواعد هذا الفن . ولو حصر اهل البلاغة قرايحهم في الحدود الضيقة التي حددها البيانون لما ارضوا انفسهم ولا ارضوا الادب ، ولرجع هذا اللسان القهقري فأجذب بعد الحُصْب ، وشعب بعد النضرة . لا جرم ان اللغة كانت تضعف اذا ظن الأمناء عليها ان حفظ القواعد وحدها بما يقيها عوارض الانحلال .

كانت اللغة وافية بحاجة اهلها اذا كان المنتدبون لتغذية عقول بنيتها على جانب من المحافظة على الرسم الذي وضعه البلغاء يجهدون جهدهم في تنمية ثروتها من الألفاظ والمعاني ، مراعين حالة جسمها وروحها ، وجسمها ألفاظها وروحها معانيها . واذا كان معظم اللغات الأوربية يشتق من اللاتينية واليونانية ما يعوزها من الالفاظ الجديدة فان العربية تستقي من مادتها الثروة التي لا يكاد ينضب معينها على الدهر .

والى هذا ما كانت العربية لغة بدارة حتى يوم كانت لا تعرف غير الجزيرة موطناً ، بل خصت على اختلاف الأزمان بدقة التصوير ووجازة التعبير فبرزت لغة حضارة تقبل أصناف المعاني ، بقدر ما يتسع له صدرها وتشتد اليه حاجتها . ولو كانت العربية لغة بادية جافية جاسية ما وقفنا في المعلقات السبع وغيرها من الشعر الجاهلي على أخيلة عجيبة ، وحكم بارعة ، ومعان لا تصدر الا عن مجتمع يتسامى ببلاغته ، ويُرْزَى بأدبه ، وفي معلقة زهير بن أبي سلمى مثال ظاهر يؤيد هذه الدعوى . وهل يتأتى أن يقول مثل هذا الشعر الا رجل شاهد ما شاهد فوصف ما وقعت عينه عليه وهذا ما يجدونا على أن نؤكد أنه لا عيب في اللغة بل العيب في الدارسين لتخلفهم عن اعطائها استحقاقها من النعم ، كما يبذل طلاب اللغات الأجنبية جهداً فائقاً لاتقانها . ورأينا في القديم أهل فارس وخوارزم يبرزون في تمثل آداب العرب حتى كادوا يبدون أصحاب هذا اللسان

أنفسهم ، وجاء منهم بلغاء عزّ نظيرهم في العرب الافجاح . وأتى الترك بعد الفرس فكلوا عنهم جده مقصرين ، يصرف مشايخهم أعمارهم في دراسة العربية ولا يفصحون بها . وما عرفنا منهم على طول أيامهم وهي ستائة سنة كاتباً جزلاً ولا شاعراً فحلاً بلغة العرب ، على حين يعد بلغاء الأعاجم بالمشات ، والسبب في هذا النقص فساد طريقة التعليم عندهم على ما نظن .

وأكثر ما خلفه الترك من آثارهم بالعربية يدور على التفسير والفقهاء والكلام والتاريخ والنحو والصرف والبيان وبعضه لا يخلو من العجمة ، ويوشك ألا يفهمه الناظر فيه إلا بعناء وجهد . وكل من طالت عشرته لكنهم يدخل الضم على بيانه العربي ولو كان عربياً محتماً . نعم كانت معظم من تعلموا العربية من قدماء الاقتراك لا يحسنون النطق بها ، ولا يقوون على سبك جملة مقبولة خلافاً للأعاجم من علماء المشرقيات اليوم ، فإن في وسع المتوسط من المستعربين منهم أن يكتب جملة مفهومة وينطق بها على وجه الصحة ، وربما كان في فهم النصوص بمكان لا يقل عن أبناء عدنان وقحطان .

ولقد رأينا الهنود والافغانيين يتقنون العربية ويكتبونها برشاقة تكاد توازي رشاقة البلغاء من أبناء الخالص ويعترفون ضمناً أن اللغة الاوردية والافغانية ولغة الملايو لا تتسع لما يتسع له صدر العربية ، ولذلك كانوا يعتمدون على اللسان العربي في التأليف ، وندر في الفرس من كتبوا تأليفهم بالفارسية وكانوا يفاخرون بوضع تأليفهم بالعربية ، ولولا أن رثت في العالم نغمة القوميات في القرن الماضي فحاول أهل كل جنس أن ينشروا لسان بلدهم عادين ذلك من الوطنية ، لرأيت الفرس والهنود والافغان والاقتراك والجارين والصينيين وغيرهم يكتبون الى اليوم تأليفهم بالعربية خصوصاً وبعض لغات الأعاجم ليست من اللسان المكتوبة كالطاغانية والجركية والسودانية والكردية والبربرية . ويجارل دعاة

فوميتها مع هذا أن يضعوا لها الآن معاجم وقواعد لتصبح لغة مكتوبة كما هي لغة محكية (٢).

ومنذ القرن الرابع قال أبو هلال العسكري : ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي . وقال ابو الريحان البيروني : والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به اذ لاتصاح هذه اللغة (أي الفارسية) الا للأخبار الكسروية والاسمار الليلية . وقال في مناسبة أخرى : والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم فازدادت وحلت في الأفتدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة .

روى حمزة الاصفهاني عن علماء الآزادمردية أي الاحرار انهم الفوا جميع لغات الامم في الكمية على ما كانوا ناطقين بها ، وعلى الجبلية في بدء التكوين لاتتولد فيها الزيادات ، وانهم وجدوا العربية على الضد من سائر لغات الامم لما يتولد فيها مرة بعد أخرى ، وان المولد لها قرائح الشعراء الذين هم امراء الكلام بالضرورات التي تمر بهم في المضايق التي يدفعون اليها عند حصر المعاني الكبيرة في بيوت ضيقة المساحة . فان كان هؤلاء الاحرار يقصدون بقولهم هذا غمز اللغة العربية من طرف خفي وبعدون من ضعفها ان يضع لها الشعراء الفاظاً جديدة فهو عند العارفين كمال لها ، ذلك لأن التوليد والاستقاق والتعريب في اللغة دليل حيائها لا موتها وقوتها لا ضعفها .

والغالب أن احرار فارس نسوا يوم رموا العربية بهذه السبة أن لغتهم في القرون الأولى للاسلام كانت جافة خلوها من الالفاظ العربية فاضطروهم نقصها الى أن فتحوا بابها على مصراعيه لقبول الالفاظ العربية

(١) راجع في كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الفصل الذي عقدهته لذكر مواطن العربية واثرها في اللغات الشرقية والغربية .

فأصبح القدر الذي دخل الفارسية من العربية أكثر من الألفاظ الفارسية الأصلية فيها . وهكذا الحال في لغة الترك ولغة الاوردو والملايو وغيرها من لغات الشرق . فلا قبول هذه اللغات ألوماً من الألفاظ العربية بما بعد نقصاً فيها ولا سراًية الدخيل والمولد الى لغتنا بما يحسب عليها . وقد قال أبو حبان التوحيدي ان اللغة جارية على التوسع كما هي جارية على التضيق ومن ناحية التضيق فزغ الى التمجيد والتشديد ومن ناحية التوسع جري على الاقتدار والاختيار .

لا جرم أن العربية من أوسع اللغات وفيها من الخصائص التي يقل أن تشاركها فيها لغة شرقية ، وفي تعلمها تنافس المسلمون على تبان عناصرهم وعصورهم مأخوذين بسحر القرآن على ما أخذ به بلغاء العرب العرباء .

الاستعمال محكم

لو حلفنا للعامة بكل محرجة من الايمان أن كلمة سيارة ودراجة وقاطرة وشاحنة وسفينة أرق وألطف وأدخل في موازين اللغة من أوتومبيل وبيسكليت ولوكوموتيف وفاغون ووابور ما استجابوا ولا صدقوا . ولو قلنا لهم أن لفظ برق ويريد وهاتف أرسق من بوسطة وتلغراف وتلفون ، وجسر خير من كوبري ، ومستشفى من اسبتاليه أو خستخانه ومعمل ألطف من فاوريقة أو فابويكة ، والتبوي أحسن من السلامك والمثوى أنفع من بانسيون ، والحساء من شوربة ، والشطيرة من سندويتش والذرور من بودرة ، والجمعة من بيرو ، وعقود من كتراتات ، وبانصيب من لوتريا ، ووقاد أحسن من عطشجي ، ومصرف من بنك ، ودار الندوة ودار الآثار ودار الكتب أحسن من بارلمان وانتكخانه وكتبخانه ما سمعوا ولا أروعوا .

وحينما انقلبت في مصر وأنتم الى المتكلمين في مدنها وأريافها يتراعى الى أسماعكم فمؤذجات غير جميلة من الأسماء التركية ، حتى لتسمع في بعض البيوت القديمة الى اليوم لفظة ابلة ، انشته ، دادة ، تيزه ، نانا ،

بابا ، فرشه ، طقم ، طربه ، بقجه ، شنطه ، شلته ، يشمق ، طلببه ،
 سادة ، بوبا ، يغما ، ماشه ، قولتق ، كلیم ، تخته ، خوجه ، جزمه ،
 شادر ، شاكوش ، أرمان ، بشاوره ، بشكیر ، خرده الى عشرات غيرها .
 وفي الشارع تسمع كلمات طليانية ورومية وافرنية وتركية فترام
 يقولون في المطاعم مستاردا ، كومبوستو ، روستو ، فينو ، فلتو ،
 كوتليت ، اوليت ، سبكيتي ، ترشي ، بلاو ، ضولة ، يخني ، كفته ،
 اوزي ، صلاطة ، صلصة ، جاتو ، فروتو وعشرات مثلها مما له مقابل
 في لغتنا وهو أسهل وألس على النطق من اللفظ الأعجمي .
 نسمع من أفواه المتمدنين والمتمدنات في الصباح والمساء كلمة فانورة ،
 مانيفاتورة ، فورمة ، مزورا ، موضة ، بروتستو ، اسقنطو ، كارو ،
 مناورة ، بلاج ، كابین ، كابینه ، كاباريه ، بوفيه ، اوبرج ، كورنیش ،
 فرنیش ، مايو ، كلسون ، كومبينزون ، شورت ، سبور ، لوكاندة ،
 اوتيل ، اوسته ، فانتيزي ، يافة ، باترون ، مارمتون ، جارسون ،
 ميتروپول ، روب ، روب دي شبر ، بيجاما ، جاكيتة ، بالطو ،
 بنطلون ، ساتين ، موساين ، اشارب ، مائنه ، سواريه ، كريم ، بودرا ،
 روج ، مانوكور ، تواليت ، فيترين ، بانيو ، صالة ، صالون . ولهذا
 الألفاظ كلها ما يقابلها من العربية وقد يعرفها العامة دغ الخاصة ، ولا تحدثهم
 أنفسهم باستعمالها نكايه بهذه اللغة وكيداً لأهلها ، أو حتى يقال عنهم على
 الأقل أنهم متمدنون ، والألفاظ الافرنجية أقرب الى أذواقهم من الألفاظ
 العربية وما شاء الله كان .

وليت شعري متى يبطل في مصر ما تأصل فيها من الألفاظ التركية
 في الجيش والحياة العامة ورسخت في اللسان والافلام وليس هناك من
 ينكرها مثل صول ، قول ، صاغ ، بيكبائي ، يوزباشي ، باشكاتب ،
 باشمهندس ، سوارى ، يياده ، طوبجي ، الى كثير غيرها ، وقد قبل
 أن ألفاظ الجيش وحدها تبلغ ألفي كلمة ، وكان جمعنا عهد الى رصيفنا

العلامة الشيخ احمد الاسكندري رحمه الله النظر مع خبير عسكري في وضع أسماء عربية تقابل تلك الاسماء التركية فوضاً ما وضعها لها من الالفاظ ، ولما هلكا لم نعد نسمع خبراً عما تبعا في وضعه من المفردات . ولا تزال مصر الى الآن مقصرة عن العراق والشام في تعريب ألفاظ الجيش وكان المأمول ان تتوحد هذه المصطلحات في هذه الافطار الثلاثة .

مساكين علماء اللغة يكدون أذهانهم ويتعبون عيونهم في البحث لايجاد كلمات لا يقبلها الجمهور الا اذا وافقت هواه واستسهل النطق بها وعرضت له عوارض تذكر بها في كل شارقة وبارقة . والعامة على ما يظهر تختار من الالفاظ ما يطرق سمعها بادي الرأي وتحفظه لا تحفظ غيره . وصعب اكرامها على استعمال ألفاظ بعينها اذا رأت في مألوفها ما يجزيه عنه ويمبر عن حاجات النفس . وثقوا أن كلمتي الجريدة والمجلة اللتين وضعها العلامة احمد فارس اثابه الله لو لم يكن أرباب الصحف انفسهم هم اللذين دللوا عليها لظللنا الى اليوم نطلق اسم بولتين اورفو او مكازين على المجلة وجورنال او غازيته على الصحيفة او الجريدة ، ومع هذا لا تزال نسمع كثيراً من خاصتنا الى اليوم يقولون الجورنال ومن العامة من يقول جورنال بالنون .

وضع هذا المجمع وجمع الشام ألفاظاً لمسميات أجنبية ولم تنتشر كلها الانتشار المطلوب لقلة العناية بطرق نشرها ، ولا أكنتمكم أني يائس من شيوع بعض ما وضعناه لناطحات السحاب مذ قلنا (الصرخ) ومذ اطلقنا (الطزر) على البيت الصيفي و (المنعب) على السيوفون و (الارديبة) على البالوعة الواسعة و (المشن) على الدوش و (الرشعة) على حظيرة الشجر حول الكرم والبستان ، و (الوفيعة) على تلك الحرقفة التي يمسح بها الكاتب قلمه من المداد و (الدريئة) على بارفان و (المشوش) على السرفيت و (الدُل) على خدم القهوة أو الكارسونات و (الابريج) على الممخضة و (العنايات) على المكشطة .

وليت شعري كم يقتضي من الزمن حتى تنتشر كلمة (المجسدة) التي وضعناها لنوت على نحو ما انتشرت الجزاة والاضبارة للاعراب عن فيش ودوسيه ومثل ذلك قولوا في (الاراض) التي وضعت للبساط العظيم الذي يفرش في الأتباء والردهات و (التحذيف) لتصفيف شعر المرأة وقص أطرافه و (المنوار) (لفريير) أي المصباح الكبير الذي يعلق في الشوارع والحدائق العامة و (المرصدة) التي وضعت لتلسكوب (والمصوات) لميكروفون و (الاجمية) وحي الاجمية للملايا .

ومها يكن فلا ينبغي لنا أن نبأس من نشر ما يعيننا من الألفاظ ، فقد حاولت أن أنشر بعض الفصح المنسي منذ بدأت أكتب في الصحف فكنت أستعمل لفظة أو لفظتين في المقالة الواحدة أو الفصل الواحد فأصبح ما استعملته مألوفاً بعض الشيء في البيئة التي عملت فيها ، وحصلت بها أنسة للقراء فلم تنفر منها الأسماع . فلو كانت وسائط النشر أوسع لدي لصادفت تلك الألفاظ من الرواج بالضرورة أكثر مما صادفت ، وبخاصة اذا تبناها بعض رجال الصحافة فان منهم من عاونوا على اشاعة بعض الألفاظ حتى كدنا نعاफी لكثرة مارددوها في كل موطن مثل لفظ (أجل) و (فحسب) و (الهبل والهلمان) .

نعم يجب أن يكون أحدنا كالطبيب المداوي لا ينقطع عن معالجة مريضه ولو كان الأمل في شفائه واحداً في الألف ، قص علي* أحد زملائي في الجمع العلمي العربي أنه كان في بعض العشايا ماراً في زقاق وكانت تلك الليلة من ليالي المرافع (الكارنافال) فسمع ولدين في نحو العاشرة من عمرهما يسأل أحدهما صاحبه أين كنت الآن قال كنت في المقنع Bal masque فدهش صاحبي من مريان هذه اللفظة الفصيحة الى لسان الفتيين .

ومن الحزم أن يعول على الفتيان والفتيات في تقبل الفصح يلقنهم إياه أساتذتهم منذ عهد الكتاتيب الى آخر مراحل التعليم في الجامعات

حتى اذا تمكنت من ألسنتهم انتشرت بحكم الطبيعة في العامة ومن قرب من طبقاتهم وعندئذ يتعذر على العامة أن تقتل الفصحى .

ولا بد أن يأتي يوم يكثر فيه استعمال ما نضعه أو يضعه غيرنا من الفصحى ، ويقضي على الاسماء الاعجمية ، ويجب على كل حال أن نذكر الخطوات الناجحة التي خطوناها منذ خمسين سنة لاحتلال الفصحى محل العامة المتلونة كل عهد بلون .

لا جرم أننا مقصرون في الدعاية لما نضع من الالفاظ ، ومن هذا النقائص ما يمكن تلافيه ، ومنه ما دعت اليه أسباب القاهرة . فقد حالت الحرب دون نشر مجلتنا وهي آداة الوحيدة في الاعلان عن بضاعتنا ، فما طبقت قاعدتنا في نشر الالفاظ التي نحاول احياها أو اشتقاقها من أصولها ، وقاعدتنا هذه ألا تصبح اللفظة الجديدة معمولاً بها إلا اذا أنى على نشرها في المجلة حول كامل ولم يرد اعتراض عليها . ولذلك يكون يوم عودة مجلة الجمع الى الصدور من الاعياد السعيدة ، وعساه يطرد ارسالها هذه المرة الى القاصية والدانية تتناولها ايدي عشاق العربية في الآفاق . نحن في حاجة لدعاية واسعة النطاق لما نحياه من المفردات ونقرره من القواعد لتسهيل اللغة . نحتاج الى نشر مانضع في الصحف والمجلات وفي نشرات وسائل نوزعها على من ينتفع بها بالمجان في أوقات معينة لا نخل بها واذا استطعنا ان نقنع الحكومات بمعاونتنا في هذا الشأن يزيد ما نريد نشره في النامى انتشاراً كبيراً ، وبقليل من العناية يمكن الاستغناء عن مئات من الاسماء الاعجمية وذلك بأن تصح عزيمة الحكومات على حمل الفنادق والمقاهي والحانات مثلاً على استعمال الفاظ عربية فتحظر على أربابها استعمال الالفاظ الافرنجية بتاتا . وما أظن ما نسمعه في كل يوم في المقاهي مثل (اوناسكريتو) و (اونافاريليكي) و (اوناامترو) الى غير ذلك من الاسماء يرضى الناطقون به ان ينادي به مناد بالعربية في مقاهي بلادهم وحاناتها وفنادقها . هذا ونحن نرى القهاوي

البلدية تنادي على هذه المشروبات بألفاظ عربية منتقاة جميلة تسمع غودجات منها في مقاهي سيدنا الحسين وغيرها من مقاصف الاحياء .

ولو ان حكومة مصر عاوت هذا المجمع على بث الصحيح لما انقضت سنة الا واكثر الالفاظ الاعجمية تنجلي من الميدان ويطويها النسيان فلا يعثر عليها الا في معاجم لغاتنا وتحل محلها الالفاظ العربية في قطر هو عربي خالص منذ ثلاثة عشر قرناً .

أما أن نترك ما تعيّننا في وضعه للطبيعة تنشره أو نغمره فنقطع من مجلّتنا بضعة ألوف ونوزع منها مئات ونخزن الباقي في المستودعات يأكلها الفأر ويسودها الغبار فهذا تقصير أخشى أن يكون داخلًا في نقص القادرين على التمام .

أما ولم يبق أمامنا الآن عائق يعوقنا عن اتمام عملنا فواجبنا أن نشط وندخل بعض التعديل في أساليبنا والزمن يدعونا الى ذلك ، فقد كان ابن القرن الماضي يكفي بحفظ الفين أو ثلاثة آلاف كلمة يقلبها في وجوه استعماله ، وابن هذا العصر يحتاج الى استظهار ألوف من الالفاظ ما كانت تخطر ببال أبناء الاجيال السالفة ، فالمصلحة اذاً في نشر أكبر عدد ممكن من ألفاظنا المعربة والموضوعة واخراجها في معجم صغير يكبر مع الزمن ثم يجعل منه ما يفي بحاجة المبتدي والمتوسط والمتنهي .

يشهد عوز الامة العربية الى نشر معجم صغير قبل كل شيء . وهنا أبريء نفسي من تهمة أدبية همس بعضهم بها وهي أنني كنت من جملة الرافضين نشر معجم رصيفنا العلامة فيشر . أنا لم أرتكب هذا الجرم وإنما قلت يومئذ انه كتاب ينفع خاصة المشتغلين باللغة فهو (اللوكس) ونحن نتطال أولاً الى البسيط العادي واني أفضل الاعم على المهم ، والاعم نشر معجم المجمع الذي طال الوعد باصداره ، واني لا قصد لي الا قصدكم ولن أحميد عن خطتكم ، والمصلحة في الامراع بعرض أعمالنا على العالم ، والزمن لا يحتمل التسويف وعصرنا عصر السرعة والمفاجآت ، وعملنا لا يكلفه النجاح الا بالدعاية بكل أساليبها على ما تجري عليه كل دعاية سياسية ودينية ، والله الهادي الى ما فيه خير اللغة العربية .

من عمل المجسمين

رأيت ألا ينقرط عقد هذا الحفل الكريم قبل أن أحدثكم حديثاً
يتم له من يحرص على سلامة العربية ويسر لانتشارها ووفائها بأغراض
أمة متحضرة .

أتيتكم بمثال بما يعمل أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية لا أقصد
به الذود عن قصور قد ارتكبهنا ، ولا أن أباهي بما تم على أيدينا . وما
أشار اليه الاستاذ الرئيس والاستاذ أمين السر بجزء في هذا الباب .
وأريد أن أقرر فقط أن عمل المجمع لا ينتهي في عقود قليلة من السنين
لأنه عمل شاق طويل . وكما يحتاج تحصيل العلم الى أعوام يقتضي للانتاج
فيه أعواماً وأعواماً . وتجويد كل عمل موقوف على أمور كثيرة وقد
يعرف صاحب العمل نواقصه أكثر من غيره .

المجالس في العادة تتناقش في المعاني ونحن معاشر المجسمين أو اللغويين
قضت علينا صناعتنا أن نقصر مناقشاتنا في الالفاظ ، والسعيد منا من
يأتي بكلمات تستيفها الأذواق جميعاً ، وتدخل في الكتب المدرسية من
أسر سبيل تصل الى عقول الناشئة ، وكل لفظ تسارع الصحف الى تبنيه
يكتب له الرواج ، وعمل المجمع محدود المهمة في تحت الالفاظ ، وعليه
ترك البناء المهندسين والبنائين ، ولسان حال كل واحد منا (عليّ تحت
القوافي في معادنها) فنحن اذاً نحاول لبناء ونستخرج من الانقاض
أو المفاعيل ما يحسن استخدامه في البنية الجديدة ، أعاننا الله على ما نلقى
من عنف وتعب .

لاترون رصيفاً من رصفي يداخله اليأس من الظفر بطلمبه مهما شقت
الشقة لبلوغ المقصود ، بل تشهدونه مغتبطاً مسروراً بما يروجو أن يقع
عليه في مناجم اللغة وركازها . ونحن بعد ذلك اذا وقفنا الى تحقيق
جزء صغير من أمانتنا في بث الفصح وبذ العامي والأعجمي عددنا أنفسنا
مخترعين ولكن لا من عيار مخترع الراديو والراديو مثلاً .

فالأحد منا اذا تعلقت همته بإيجاد كلمة تقابل الكلمة الافرنجية الشائعة في لغات العلم على عهدنا ولم يوفق الى ايجادها يندب سوء حظه ويقف حيران (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه) واذا عثر على لفظ ظنه موافقاً لغرضه في أداء المعنى الذي يريد أن يقابله بمثله يفرح ولا فرحة المحب بقاء حبيبته وقد طال افتراقها . وأجل ساعات المجمع ساعة يتناقش فيها أعضاؤه في وضع كلمة ، ويعج بأصوات الموالين والمعارضين وكل واحد يتصدى للدلاء برأيه بما يستخرج من محفوظه من الألفاظ . ومع ما يلاقي المجمعون من العناية في تحقيق غرضهم الشريف يعترض عليهم من يعرف ومن لا يعرف ويهزأ بعملهم كل من يبدو له أن يتسلى ، والكل يطالبونه بالكمال المطلق ، كأن أعمال المجمع كلها كملت ولم يبق منها ناقص الجهاز الا هذا المجمع الحديث .

وبح المجمع كم لقي من سخرية بعض الصحف التي مانعت عن أن تغمزه الفينة بعد الفينة لتضحك قراءها ، وقد بدأ كانت المجمع العلمية موضوع دعاية لابعذرها على بطشها في اخراج أعمالها الا الراسخون في العلم بمن صفت نفوسهم عن الأغراض وحجب الأنصاف اليهم .

وغفر الله لي بقدر مادافعت عن المجمع في مصر والشام لتبوءته من التهمة التي الصقوها به ظلاماً ونسبوا اليه وضع لفظ (الشاطر والمشطور والكامخ بينها) لكلمة سندويتش . وأعترف أنني ما تمكنت من اقناع منعت لان هذه الكلمة الملتصقة بالمجمع هي عندهم من الادلة على عدم معرفته او على الأقل على قلة ذوقه . وما زالت التهمة بجالها حتى شهدتها تنسلل من الصحف الى الكتب ، لتثببت دعواهم على عدم اضطلاع المجمع بما وسد اليه . وكل من أحب أن يتندر البنا يغمزنا غمزة خفيفة لذكرنا حفظه الله بما ارتكبناه من اثم بوضع هذه اللفظة (الوحشة) والله يتوب على العاصي اذا تاب ، أما بعض الآدميين فقل أن يتساحوا بهوة يهفوها انسان وهم يتفاخسون عن جماع حسناته .

وغير نكير أن بعض اللغويين قد لا يراعون المقام في استعمال الفاظ

استظهروها يفرضونها على الناس فرضاً لا يراعون اعتبارات العصر . وأذكر أن أحد علماء اللغة في لبنان (رحمه الله) أصدر في القرن الماضي جريدة زراعية أسبوعية حشاها بكل ما في معاجم اللغة من عوبص الألفاظ . وكنت يومئذ آخذ الأدب عن المشايخ فدفعت العدد الأول منها لأستاذي وكان اماماً في اللغة فقال لي : هذه الجريدة لاتفهم بغير شرح فاشرحها لنا فصدت بالأمر . واتفق أن كانت هوامش الجريدة متسعة فاستعنت بها على شرح الكلمات اللغوية حتى أصبحت صفحات تلك الصحيفة بمنها وشرحها مثلاً من كتب الأزهريين الصفراء اختلط رأسها بذنبها وامتزجت حواشيها الأربع بنصها وفصها . حقيقة أن محرر الجريدة الزراعية أثبت براعة فائقة في اللغة ولكن كم كان ياترى عدد من فهموا من أهل اقليمه ماخطئه بينه وأملته قريحته .

وأذكر أن أحد المشتغلين باللغة نقل عن الافرنجية كتاباً من كتب الأطفال أتى فيه بألفاظ الزمخشري وابن منظور والفيروزبادي . ولفت نظره الى عقم طريقته في وضع ألفاظ أمام أطفال لا يفهمها أكثر أساتذتهم فغضب . والغالب أن معظم اللغويين يحاولون لا حول أمرهم أن يسيروا على طريقة العلامة الشنقيطي أجزل الله ثوابه في رصف شعره بما وعى من المفردات ، ثقبلة كانت أم خفيفة ، ساءت في ذوق سامعها وقارئها أم لم تسخ .

وأغرب من كل أوائلك أن يرمى علماء اللغة بضعف العقل حتى لقد قال رنان : كان البحث في أصول اللغة ولا يزال عندنا سبباً من أسباب ضعف العقل حقيقة ، وأرى أن من الحق بمكان عظيم ما قاله أحد مشاهير علماء الامراض العقلية لعهدنا ، ان الأسباب الثلاثة التي دعت الى جنون كثير من الناس وكانوا من قبل من أرباب المدارك ، البحث في أصول اللغة والعشق والتعق في اللاهوت (التيولوجيا) أجارتنا الله وإياكم من كل ضعف ولا سيما ضعف العقل .

والآن ننقل بكم الى الحديث اللغوي . في علمكم أيديكم الله أن الفساد عرض لاسنة العرب بعد الفتح بقليل لمجاورة العجم ومدخلتهم . وكان هذا الفساد يزيد وينقص بقدر بعد العرب وقربهم من الجزيرة ، وقد سلمت اللغة الفصحى في بعض الأرجاء الى ما بعد القرن السادس من الهجرة كما كان من شأن بعض قبائل اليمن لأنها كانت تعيش في أوديتها وجبالها بعيدة عن الاعاجم . واحتفظ أهل الشام بكثير من الفصحى لانعزال بعض سكانها في أقاليم يكاد يكون الاتصال بينها معدوماً . وما كان الناس في القديم يرحلون كما نرحل ويسبحون كما نسبح بهذه الكثرة ، ولا يتأججون بجيرانهم وغير جيرانهم هذا التمازج ، ورأينا الشام تكثر فيها الالفاظ السريانية كما تكثر الالفاظ النبطية والفارسية في العراق والقبطية في مصر . وبقيت في الشام ومصر والعراق والحجاز ألفاظ ليست بقليلة أصلها رومي وتوكمي . وكانت الفاظ الزراعة والفلاحة في الشام سريانية والفاظ المدنية فارسية صقلتها اللسان فعاد أكثرها كأنه عربي الاصل ودخلت في معاجنا وأصبحنا لانعرف غيرها .

فمن الالفاظ النبطية أو السريانية أي الآرامية الباقية في لهجة غوطة دمشق (شتل الغراس) أي غرسها ومنها (المشتلة) أي المغرسة أو المستنبت و (دلل الغراس) غرسها بعيداً بعضها عن بعض و (الدليل) من الزروع ما كان بعضه بعيداً عن بعض ومنه (الشرش) الجذر ويقولون شرش أزال الشرش من الارض (قلم الشجرة وقلعها) قطعها و (شفاها) قطع شفاها أي أطرافها (جم الكرم) قطع بعض أغصانه (شور) الشجرة ركم التراب حولها وفي الفصحى شور لوح بشيء وهي مستعملة عندهم أيضاً (عرم التراب) كومه وكدمه (الطربون) رأس الفصن أو القضيبة المورق (كوش الزرع) أو الحنطة جمعها (شكاراة القمح) مقدار ما يزرع في قطعة ارض (نخ الحشب) أو الحطب أو تخنخ يابس وجف وتقرأ (الساروط) الاخدود الذي تحدثه المياه في

الارض لشدة جريانها ولهم منه فعل فيقولون (سورطت) الارض اي حدث فيها أخاديد (جهجه الضوء) لاح (الشوب) الحر و (طرش الشوب) وسخه .

وأخذوا من الفارسية الجادة والدهليز والدولاب والزنبيل او الزبيل والسختيان والابريق والدورق والكاس والكشكول والقمقم والجام والفنجان والزنبوك والهاوون والبركار والصنج والدف والناي والكمنجة والبرواز والحرج والكمز (منطقة من الشمر) والهميان . والتخت في الاصل وعاء تصان فيه الثياب وفي الاصطلاح مقعد كبير من الخشب . والبشختاية من بشختة خزانة تجعل امام القاعد لحفظ الاوراق والحاتون والحقاق والدروبش والاستاذ والبلور والياسمين والنسرين والنجرس والآدريون والشوندر والجلنار والحضراوات والريباس واللوياء والكعك والطاجن والتازج يقولون تازة بحسب اصلها و (الجلاب) ماء الورد ومنه كل آب لصف من المشمش حرفوه فقالوا الكلابي والسبيذ والحشكار الطعين الحشن ، والجوسق والميزاب والخنجر والصابون والاشنان والحلخال والحار والزركش والسرداب والسراي = السرايا ، والدابة القابلة والديدبان الحرس والفوغاء الجلبة وكثرة الاصوات والسنجاب والمزاز والسنديان والهدار والغار والهلين والفهرست والدستور والفرمان والخان معناها الدكان والحاتوت والابوان والمبدات والانبار والاخور والكورخ والمسطاح والحردة والدسته .

وأخذوا من الرومية السميت والصراط والفرطاس والبطاقة والحارطة والاطلس والترمس والطرخون والابوشية والابريز والاريكة وأساطير والاسطرلاب والاسطول والاسقف والماس والانتيق والاقيانوس والايقونة والبرج والافانوس والبطريوك والبلغم والترباق والجغرافية والدرهم والازميل والسفطة والطقس والفندق والاقليم والكورة والقصدير والقيراط . وفي اللغة الدارجة في مصر والشام كثير من الالفاظ اللاتينية والايطالية مثل اسكلة وانقلوتزا وبابور وبارجة وبالة وبالو وبتيه وبتقول

ويرذون وبرطاش وبرميل وبرنيطة وبسبور وبطارية وبنادورة وبيرا
وتباترو وليسوناذة وجرنال وجندمة ومالاريا وجنرال ودوطة ودينار ولو كندة
ورصيد وسطل وصابوت وطاولة وطلمية وفاتورة ومسطرة وفاصوليا
وورنيش وفسقية وقنطار وقرصان وقوماندات وكولونيل وكبسول
وكربون وكرتون وكراكتينا وكروسة وكيميالة وكيميو ومن التركية اسماء
البقول والمآكل مثل البقدونس ودراهوتي (حبشة الوادي) واسباناخ
حرفوها بسبانخ ، والقاورمة اللحم المجفف والشاورمة اللحم المشوي بالنار
والبادرمه اللحم المجفف بالشمس والندرمة او الجلاس وبابراق الورق
وبودوك ويخني وترلي واكك قطايفي وامام بابلدي ولحنة وجركس طاوغي
(الديك الرومي) وشوال كيس وبازار السوق والقشلاق من قشلق
اي المشتى وكل اسم انتهى بخانه او جي مثل جبخانه او كرخانة وخسته
ودوه جي وبازجي وخانجي الخ .

هذا مثال من الالفاظ الدخيلة اما الفصحح الباقي في اللسان على
ما كان العرب يستعملونه فهو كثير وقد عرض لبعضه قليل من التعريف .
فمن فصيحهم قولهم في زجر الغنم وغيرها من البهائم اذا أبعدت وطردت
حايّ حايّ وحاي حاي وحان حان ويقال هذا اذا دعيت وأريد قربها
ودنوها . وهكذا ينادون على غنهم ومعيزم وابقارهم وحبرهم ويقولون
ايضاً هس لزجر الغنم وهقط زجر للفرس وتخ تخ زجر للدجاج وسق
سق زجر للثور وعاي لزجر الخروف والغنم والنخ قولك للبعير اخ اخ
ليبرك نخنخه فنحنخ . والفرمشة صوت الحبز المقمر وفي الاصل صوت
الجوز وقرقرت الدجاجة صوت ودن الذباب صوت وطن ونقت الضفدع
والدندنة ان يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغته ولا تقهه يقولون سمعته
يدندن أي ينغم بحيث لا يفهم معناه . فلان ينود ويرفع صوته بالشكوى
من ناد ينود تحرك ومنه نودان اليهود في مدراسهم أي تحريك رؤوسهم
وأكتافهم في بيت عبادتهم . وعندهم الزباط واللفظ والحشخشة والحمة
(صوت الفرس دون الصهيل) والنششة صوت المظلي والزفزة والوقوفة

والقرقرة (الضحك العالي حرفوها فقالوا كركرة) والبقبة والغرة والولة والرجرة والحخرة والشوشة والترثرة والفأفة والتأناة .

ومن فصيحهم (البحيرات) جمع بحيرة وهي ما انخفض من الارض وعندهم أرض تسمى البحرات (الحسي) سهل من الارض يستنقع به الماء وعندهم مستنقع يسمى الحسى (بالتصغير) ومنهم من يلفظه بالصاد . (الحير) البستان أو مجتمع الماء والمكان المظمن وكلها تصدق على أرض في الغوطة تجمع هذه الصفات (الزور) الارض البعيدة من الارض الزراعية والاجمة ذات الحلفاء والقصب والماء وهم يطلقونها على حرم نهر بردى ويضمون زايها كما يطلقها الحمويون على حرم نهر العاصي .

ومن فصيحهم (الضبعة) (القرية) (الفيضة) (الروضة) (المرج) (الجنية) (الحاكورة) (الحرجة) بالتحريك مجتمع الشجر المتن ج حرج وحراج يقولون حرش وأحراش . ومنه حرث الارض وعمرها وخربشها وخرمشها وقلبها وكربها وحفرها وسعاها وعزقها ونبشها ومهداها . ويقولون انا محاذة اى ارضي او دارى في حدود ارضه وداره . وفلان (زليقي ولزقي وبلزقي اى يجني) ومنه (القلاع) المدر يقلع من الارض يرمي بها (الكدرة) القلعة الضخمة (الكذان) (البلاط) (الرخام) ومنه (العدان) بالكسر والتشديد وهم يفتحون عينه ومعناه الزمان يطلقونه على اعطاء كل صاحب حق قسطه من الماء وعدنه تعديناً . (أطعم الغصن) وصل به غصناً من غير شجره كقطعه (هاف الزرع) ذبل وذوى (أسبل الزرع) (أفرك الحب) (أقمح السنبل) (الباحور) شدة الحر في الصيف (الشالة) الحزمة من الخنطة وهي طرية (أطعمت الشجرة) أدرك ثمرها (أصمفت) صار لها صمغ . (نطف الحور) طلع من مكان آخر (النصبة) بفتح النون ما ينصب في الحقل من الغراس (السطمة) ما يغرس من عيدان الحور والصفصاف والخلاف . وفي المراجع السطم (بضم السين والطاء) الاصول . (المروشة) غرسة شجر الزيتون ولعلمها من الامتواش أي الانتراع والاختلاس لانها تنزع من الشجرة الكبرى .

ومن أمثالهم الفصيحة (نأنا في الأكل) أكل أكلاً ضعيفاً (دهبل)
كبر اللقمة ليسابق في الأكل يحرفون هذا الفعل فيقولون دعبل ، البرطمة
غضب مع عبوس فلان مبرطم مغيط (لطيم بالارض) لزق (خب
في الارض) خاض (لزه على العمل) حشه عليه (دحس الثوب)
في الوعاء أدخله يلفظونه بالشين كما يقولون الفرشخة وهو أن يقعد الانسان
ويفتح ما بين رجله يلفظونها بالشين وفصيحتها بالسين . ويقولون (قلتعنا)
يافلان من هنا من قلعه حوله من موضعه أي هيا بنا ننزل مكاناً آخر
(شاشت النفس) اضطربت كما يقال شاش البلد اضطرب (قب الجرح)
إذا يابس وذهب ماؤه (قبيح الجرح) صار فيه القبيح وهو الصديد .
(بط القرحة) سقها (خنخن في كلامه) إذا تكلم من خياشيمه فهو
أخن ويقولون له خن (زنا البول) احتقن (أح الرجل) سعل (قرقف)
رعد من البرد (فف الشعر) قام من الفزع (ققف من البرد) إذا
انضم وارتعد (أصن) سكت فهو مصن (ودّر) الرجل أوقعه في
تهلكة يقولون ودّر هذه القطة أي ألها في محل لا تعود منه (حبق)
مئاعه جمعه وحبق المال أيضاً جمعه (هبش) لعباله اكتسب (دغر عليه)
هجم (طمس على مال فلان) استحلّه من اطمس على أموالهم أهلكتها ،
وفلان مطموس القلب مئته ، وعندهم يطلق على الجاهل الذي لا يتعلم ،
(الفضضة) سعة الثوب والعيش ويقولون خذ هذه الدراهم تنفضض بها
أي تنسع بها وتقضي حوائجك ، (رحرحة) الثوب اتساعه وثوب مرحرح .
(خشت فيه) دخلت فقولهم خشت يافلان عربية الاصل . (غغل في الحقول)
دخل وفي الفصيحة تغلغل أيضاً (فلان يت على فلان) يهيمه أو يمزق
عرضه (فلان متعنقص) متصلف مزهو . (الصقلب) شرك ينصبه فاصبه
ليصرع من يريد صرعه من صقلبه صرعه . ويقولون أعطني قماشاً من
(بابة) كذا أي من سعر كذا وهذا بابته أي يصلح له أو شرطه
(قرط عليه الدراهم) إذا أعطاه منها قليلاً قليلاً أو حرمه (التجليط)
الكذب من جلط . (نوس) المصباح قلل اضاءته . (امرأة هطلى) كسلانته

أخذوها من ناقة هطلى تشي رويداً . يقولون وقف الماء في (زرايمه)
والزردمة الغلصة أو موضع الابتلاع . (ثوب بايخ) متغير وحديث بايخ
لا يحصل له (الرتوت) الرؤساء واحدها رت (مافي البيت تومري) أي
أحد يقولون دومري . (السرب) الجماعة من النساء والحيوان . الفوج ،
الجوقة ، الجف ، الفوغاء ، الزمرة ، اللمة ، الاوباش ، الشرذمة : كل
هذه أسماء معناها واحد وهو الجمع من الناس وهي دارجة في اللغة الدارجة
(العزوة) (العصة العصابة) واعتصبوا صاروا عصابة . هو (شرواك)
مثلك . هو يمشي مع (سبره) أي اقرانه والسبر الشبه والهيئة (العكرة)
الفتنة والهوشة . أعطني (شوية) أي قليلاً وفي الفصيح مابقي من الشاة
الا شواية بقية يسيرة ، والشواية بالضم الشيء الصغير من الكبير . يقولون
سقاني (نتفة) من اللبن أي شيئاً وهي ندفة في الفصيح . يقولون اللبن
والحب طيس أي كثير من طاس يطيس كثير . (الصوبة) ما تجمع من
الخنطة والتمر يقولون له الصبة (الشلية) بقية الماشية وعندهم الشلعة قطعة
من الماشية (العزيز) الذي لا يروح الى أهله من الماشية . يقولون هذه
الارض عدية أي خالية من الوحش والوبالة وأصلها عذبة من عذا البلد
طاب هواؤه (الطابونة) من طبن النار دفنها لثلاث تطفأ وذلك الموضع طابون
والطابون فرن في الارض وكانوا يستعملون الطوابنية للخبازة وقد أهملت
اليوم كما أهملت (الشرائحية) باعة شرائح اللحم واستعاضوا عنها بالشوائين
أو الشواية وأهملوا (المقاصف) واستعملوا بدلها القهاري والمقاهي . وأهملوا
(النخيرة) واستعاضوا عنها بالسلخ وأهملوا (البلس) واستعملوا بدلاً عنها
القلي ، ثم استعملوا البوتاس وكانت لفظة (النفاقين) شائعة يطلقونها على
باعة النفاق أو المقائق وهي المصير المحشر باللحم وكذلك (الخلاويون)
باعة الحلواء يقولون اليوم الخلاويون واحدها حلواني ومن أمثالهم ما كل
من صف الصواني قال أنا حلواني .

ورأينا بعض ألفاظ المآكل وباعتها قد أهملت مثل الهرائسي بائع
الهريسة ، والرأس بائع الرؤوس ويقال له الرواس وهو الحن ، الفقاعي

بائع شراب من الحبوب والثمار وغيرها سمي به لما يرتفع في رأسه من الزبد وكان يطلق في الشام على باعة تقيع الزبيب . الاقساميون من الاقسام وهو شراب قد يجعل من الدبس ويثلج كالسويق قال الشهابي المنصوري

أيا سيداً قد أشهد الله أنه أناب فلم يحسُ الشراب المحرماً

هلم فاني لا أخالك مقسماً وان كنت لم تشرب مداماً فأقسماً

وأهموا لفظة الشرابين باعة الأثرية ، ولفظ الثالث عصير العنب يطبخ قبل أن يغلى ويشد حتى يذهب الماء وكانت مستعملة في مصر في القرن الثالث واعناضوا عن الطاهي بالطباخ أو العشي . وأهمت ألفاظ كانت تطلق على أمور بطلت مثل سوق العطارين وكان أصحابها يبيعون فيها العطور فأطلقت على باعة البزور والسكر والارز والأفاوية ، ومثل الأبارين والمسلاتين صناع الابر والمسلات والمراديين صناع المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السام أو السنط الأحمر ، والفاخرانيين صناع الزبادي والسلطانيات من الحصى المطحون ، والغضاريين باعة الكيزبات والقزازين صناع القزاز وباعته ، والبزازين صناع البز أو القماش ، والبزوريين باعة البزور ، والسكرين باعة السكر ، والامشاطيين باعة الامشاط والسدارين والبوارديين يطلقونها على من يصنعون الامشاط ويطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون والدلوكة والاشنان والبوارد طعام البقول المطبوخة ، وكان فيها سوق الدباغين والصباعين والدقاقين والقماحين والناطافيين (الناطف نوع من الحلواء) وسوق الحريزانية الذين يحرزون الاواني وتناسوا لفظ الاقباعيين صناع الاقباع جمع قبع وهي الطاقية أو العرقية وكان في دمشق لكل من هذه الصناعات سوق خاص ومنها سوق الحرير وسوق القطن وسوق القشر (قشر القنب) وسوق القوافين من كاف الاديم يكوفه كوفاً كف جانبه وهو اعداد الجلد لعمل النعال ، قلبت كافها قافاً . ومنه سوق المناخلين باعة المناخل وصناعها ، وسوق الزرابلين صناع الزرابيل جمع زربول ، وسوق السروجيين صناع السروج ، وسوق

النحاسين ، وسوق الحدادين ، وسوق القصاعين باعة القصاع ، ومنها سوق الزنوطيين وفي معجم دوزي أن زنوط لغة مصرية معناها الطاقية وان كانت من زنط جمع زنط فمعناها السيور والسياط ، وسوق القلباقية والقلباق من أكسية الرأس التركية ، والدماجية صناعة الدنيا وهي أثواب تعمل من الغزل . ولا يزال سوق الحبل وسوق الجمال وسوق الغنم وسوق البقر وسوق الحمير بالطبع ويقال تخزن الحطب الشونة وهي مصرية ويضمون شينها . وكانت لهم أسواق بحسب أيام الاسبروع فسوق الجمعة وسوق الاحد وسوق الثلاثاء تباع فيها أصناف المأكول والملبوس ، فمن هذه الالفاظ ما بطل استعماله بإبطال ما كان يطلق عليه وباختراع ما أغنى عنه وعن اسمه ولكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر أدبه . فبعض الالفاظ التي راجت في القرن الثالث والرابع نسيت في القرن السابع والثامن وما راج في هذين القرنين نسي في العاشر وما بعده . فالفاظ عهد المماليك في مصر غير الفاظ التتوك بعدم فقد كانوا مثلاً يستعملون كلمة التقليد والتصرف فأبدلوهما بالتولية ثم بالتعيين والنصب والاستخدام وكانوا يستعملون لفظ القماحين والدقاقين ويقولون اليوم تجار الجبوب والطحانة . وألفاظ مصر زمن المماليك وحدها تحتاج الى مبحث خاص برأسه . ومن نظر نظراً خفياً في كل قطر عربي لا يلبث أن يرى أن ما كان شائعاً في العراق لم يشع في الشام ومصر وما كان في مصر لا يعرفه الغرب الأقصى ولا الأندلس من قبل .

وفي كتب الحسبة وبعضها الى الآن لم يطبع ، كثير من الالفاظ دونت المعاجم بعضها ولا نستعملها اليوم نسقط على غرض منها في كتاب نشوار المحاضرة المحسن التتوخي وفي كتاب سيرة أحمد بن طولوت للبلوي . منها (البزبون) ضرب من نسيج البز ومن رقيق الديباج (المطبق) كمحسن السجين تحت الارض (الغامي) بائع القوم أي الخنطة والحص وسائر أنواع الحبوب التي تخبز . (الزرباج) أكلة بلحم وحمص

وخل وسكر ولوز (البزماورد) طعام من اللحم والبيض (العصيدة)
 دقيق يلت بالسن وبطبخ . ومنها (المطالب) الكنوز (البذرة)
 الخفارة (الفميج) رسول السلطان . الخ وهذه الالفاظ تتطلب درساً
 خاصاً كما تتطلب مآكل العرب في الجاهلية وماكلهم في الاسلام دراسات
 أخرى . وأطعمة العرب ماتعدت الالبان والتمور واللحوم وتقل فيها
 الخضراوات والبقول وكأها بين مطبوخ وملتوت وملبون ومتمور
 ومسمون ومعسول .

سادني :

أوردت مثلاً ضئيلاً من أشغال هذا-المجمع الفني وذلك بقدر مايتسع
 له الوقت وأرجو ألا أكون أدخلت الملل على نفوسكم . أعاننا المولى على
 القيام بواجبنا في خدمة لغتنا المحبوبة وحباكم وأحياكم .

عجائب اللهجات

كان اختلاط العرب في الجاهلية بالامم المجاورة لجزيرتهم قليلاً اذا
 قيس باختلاطهم بهم في الاسلام وفيه فتحت عليهم الافطار ، وشاهدوا
 فيها ما لم يعرفوه من أسباب الغنى والترف ، وهذا يستلزم للتعبير عنه
 ألفاظاً جديدة ماكان لهم ولا لأجدادهم عهد بمثلها . واذ كانوا في هذا
 الدور مأخوذون بدهشة الفتح لم ينظروا ان كانت تلك الألفاظ عربية
 صرفاً أو جاءت من إحدى اللغات السريانية والنبطية والقبطية والحبشية
 والسندية والبربرية والفارسية . وربما ظننها بعضهم من لهجة عربية غير
 لغة قريش وليس لهم مانع من قبولها مادام الاسلام وحد اللهجات العربية ،
 وبلغة قريش أفصح اللهجات نزل القرآن .

وما لبث الداخلون في الاسلام أن أدخلوا ما كان متأسلاً في ألسنتهم من الكلمات فأصبح لكل صقع لهجة اتسعت مع الزمن أي كان لكل قطر بل لكل اقليم لهجة على حياها ، ومعظم الموائد لايت الى الفصحى بسبب ، والغالب أن الالفاظ الاعجمية التي صاغوها على أسلوبيهم تكاد تزيد عن الالفاظ التي أبقوها بحالها . وبديهي أن يكون لكل صقع نغمته واصطلاحه وألفاظه ، واللهجات ابنة السموت والميول على الأغلب ، وما تحسه من النغمة العذبة في اللهجة المصرية اليوم لا تذوقه في لهجات جبال الشام . نعم ماتشدد العرب أو خاصتهم في قبول بعض الالفاظ الاعجمية باديء بدء تشددهم في اللعن والزراية على من يرتكبه ، لأن الجمهور لاينتظر في شؤونه اليومية الحافزة صدور ارادة الخاصة في اختيار اللفظ الفلاني دون غيره ، بل يسارع الى تلقن ما يعرض له باديء الرأي مؤثراً الطريقة العملية السهلة ، ويتشرب الالفاظ التي تكاد تكون مرتجلة ترسخ فيه بكثرة التكرار ، ويغدو من المتعذر نزعها والاستعاضة عنها بمصطلح آخر أتى على أصول الوضع الصحيح .

تساهل أرباب اللغة بادخال بعض المفردات طوعاً أو كرهاً كأنهم وأوا أن لا مندوحة لهم عنها وان خرجت أحياناً عن صيغة لغتهم ، ثم تطورت اللهجات بتطور الزمن ، والزمان سلطانه يثبت وينفي على مايشاء والتحول يجري على مقياس واسع في الشارع ، وعلى مقياس ضيق في أندية الخاصة وقصور الملوك والامراء ومعسكرات الجيوش .

أخذت العرب من الاعاجم مئات الالفاظ بما له علاقة بالحياة اليومية أو المصطلحات العلمية وكان لكل دولة تولت أمر هذه الامة أن أورثتها ألقاظاً منها ما دخل في المعاجم ، ومنها ما مات بموت الدولة التي وضع في عصرها . وسعت الى بثه في الناس ، أو سقط من الاستعمال لعدم الحاجة اليه .

فكانت الالفاظ الاعجمية من عهد الامويين أقل مما جاء مع العباسيين

لقرب عهد بني أمية بالعربية الفصحى ، وأخذ بنو العباس من الدخيل بالكبير والصغير ، أعدهم الفرس للجوار والاختلاط بالشعوب غير العربية حتى خيف على اللغة أن يصبح جزء عظيم منها من غير الاصول العربية . ثم قامت دول الطوائف فكانت الالفاظ الحديثة في مصطلحات الدولة على الاكثر تركيبة وفارسية ومغولية ، وهكذا كان شأن دولتي نور الدين وصلاح الدين ودولتي المماليك البرجية والبحرية ثم دولة العثمانيين . وما يقال في هذه الدول ، والالفاظ الطارئة عليها ، يقال في دول صقلية والاندلس والغرب الأقصى والوسط والادنى . ولعل الدخيل كان نادراً في أرض الاندلس ، وقد توخى الامويون واضعو أساس دولتها التوحيد في كل شيء حتى أن الرحالة ابن جبير لما رأى كثرة الفِرَق والمذاهب في هذا الشرق القريب في القرن السادس قال لا اسلام الا ببلاد الغرب ، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها ، وما سوى ذلك بما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق خالة وشيع الا من عصم الله من أهلها .

وكان في تفنن الاندلسيين بتعريب أسماء بلاد الاندلس مثال ظاهر من العناية بصيانة اللغة بما يعبت بها ، وكانت اللهجة الاندلسية من أجل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء الى البلاد التي نزلوها : مراکش والجزائر وتونس ومصر والشام ، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلمجات اليمن والحجاز . والاندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام فكان الاندلسيون مثلاً يقولون القابض لمن نطلق عليه الجاني او المحصل ويطلقون المتقبل لما نقول له الملتزم او الضامن ويقولون اهل الاموال لأرباب الاملاك او الملاك ويطلقون الطومار على البطاقة . وهكذا أبقي كل قرن في تضايف هذا اللسان قدرآ من الألفاظ الدخيلة ، ولو أن كل لهجة بلون بعض اللهجات المجاورة وغيرها . ولكل جبل ولكل اقليم لهجة تختلف واحدها عن الاخرى ، وكان العارفون باللغة في كل عصر يردون ما دخل على الفصحى من المولد ، واذا غلبتهم

قوة الدخيل يتساهلون بقبوله ومن جهة أخرى يكتبون الرسائل والكتب في تزييفه ، حاول الغُيُور على اللغة في كل قرن من قرون الاسلام ان يجنوا الفصحى ويبقوا عليها في الخطاب كما حفظت في الكتاب فكانت الجهلة يمزأون بهم ويتغامزون منكرين صنيعهم ، وأقل مايقولون في المتكلم بالفصحى أن يبهزوه بأنه يتكلم بالنحوي .

وبعد أن كان مثل الحجاج بن يوسف يحال على بعض من خرج عليه فيفسد لغته أصبح الخاصة والعامة في القرون التالية يتفاهمون بلغة العوام ولهجتهم بدون نكير ، وسواد العامة أكثر من سواد الخاصة في كل عصر ومصر . وبعد أن كان ينظر إلى من فسدت لغته كما ينظر الى من أصيب بمرضه وشرفه أصبح هذا بما لا يؤبه له كثيراً ، وبعد أن كان الحجاج نفسه ينفي من بلده أحد الفصحاء لأنه صارحه بأنه ألحن ونفاه اثلاً يسري في الثأ رأيه فيه .

ولما سمع رسول الله رجلاً يلعن في كلامه قال « أرشدوا أخاكم فانه ضل » ولما كتب أحد عمال عمر كتاباً ألحن فيه كتب اليه « قتب كاتبك سوطاً » . وكان عبد الملك يقول : اللعن في الكلام أقبح من الجدرى .

عربوا أسماء العلوم في القرن الماضي فكانوا على الاغلب يحرصون على التعبير عن المعنى بأي لفظ عرض لهم ، يهمهم التعبير عن المسمى لا الفصاحة ، ولعل أجدادهم كانوا في مثل هذه الحال يوم نقلوا عن الفرس أسماء الاطعمة فلم يكن لهم متسع من الوقت ليضعوا لها أسماء عربية واغبطوا أن اهتموا الى تحضير تلك المآكل اللذيذة فقالوا الفالودج واللوزينج والجوزنيق واللوزنيق وما بالوا بنقلها وعجمتها . وكانت في مكنتهم أن يقولوا اللوزية والجوزية النخ . ولكن كان همهم أن يصيبوا أولاً من هذه الحلواء الشبهة . ولو كان واضعوا الالفاظ العلمية في بدء النهضة العربية الاخيرة على جانب من معرفة اللغة الفصحى لأطلقوا باديء

بدء ألفاظاً فصيحة على المستبثات ، وحالوا دون عناء المجامع اللغوية الحديثة بعض الشيء .

ولعل من اضطروا الى وضع ألفاظ غريبة مولدة عمدوا الى استعمالها في الاحايين يؤثرون الكلام في العربي الفصح والعربي الدخيل على السواء مادام المقصود من الكلام افهام الخواص والعوام ، ولا نقول ان اللغة كانت تنحون الفصحاء فلم يوفقوا الى ايجاد ألفاظ عربية خالصة تقوم مقام الالفاظ الاعجمية بل نقول انهم غلبهم حب السرعة على جميع الاعتبارات ، وأثوا بما حضرهم واكتفوا بما كان في متناولهم ، وهم الى ذلك كانوا يعلمون أن ماث من الالفاظ المولدة لانقر بلغة تحوي ماث الالوف من المفردات الفصيحة ، ويزيد التسامح في قبول الغريب المولد اذا صيغت الالفة ، صياغة عربية لا ينبو عنها ذوق أبناء هذه اللغة .

كتب معاوية رضي الله عنه أيام فتنة صفين الى قيصر الروم لما بلغه أنه ينوي غزو الشام : « لئن أقدمت على ما بلغني من عزمك لا أصالحن » صاحبي ولا كوني مقدمته اليك ، ولا تجعل القسطنطينية البخراء حمة سوداء ولا تنزعك من الملك انتزع الاصطفلية ولا ردنك أربساً من الارارسة ترعى الدوبل . وفي هذا الكتاب الموجز على ما نفهم نحن اليوم ثلاثة ألفاظ لا نسمعها وهي الدوبل ومعناه الخنزير ، والأريس وهو الفلاح والاكار من أرس فلح ، والاصطفلية وهي لغة شامية قديمة لا تستعمل اليوم ومعناها الجزيرة التي تؤكل ، آثر الخليفة استعمالها على الخروج عن مألوف الارض التي صدر منها الكتاب .

وكذلك كان من الحجاج بن يوسف لما استنحت احد عماله على المسارعة بإداء الخراج فقال له من كتاب : فأيم الله لتبعثن اليّ بخراج اصفهان كلها او لأجعلنك طوابيق على باب مدينتها والطابق بكسر الباء وفتحها الآجر الكبير فارسي معرب وكذلك الآجر . خاطبه بما شاع ولو قال له لأجعلنك لبنة لما كان لها تلك الرنة ، ولو كان الكاتب في مصر لاستعاض عن آجر وطابق بلبنة وطوبة .

ومن الجهات مارج في قرن وكسد في آخر . كانوا يقولون في القديم فندق خان ، فأنشأوا يقولون في الزمن الحديث لو كنده هوتيل او اوتيل . وقالوا بيارستان او مارستان او دار المرضى فشاعت على اللسن اليوم هوسبتاليا او استاليا . وقالوا صيدنائي وصيدلاني وصيدي وفرمشاني واجزاجي لبائع هذه العقاقير والمركبات والمعاجن كما اصطلموا في كل قطر على اطلاق اسم يفسر ما اصطلم عليه للقطر الآخر فللابانة عن لفظة المشاهرة قالوا الجامكية والمعاش والمعلوم والمقرر والراتب والمرب وقديماً كانوا يقولون الادارات والاعطيات . ويقولون في مصر اليوم الجوارب للجوربين وفي لبنان الككسات وفي مصر كوانتي وفي الشام كفوف اما من يقولون قفاز ويجهونه على قفايز فهؤلاء ، من الذين انعم الله عليهم وحفظوا من متن الفصحى عشرة آلاف كلمة على الاقل حتى وصلوا الى قفاز . وفي الشام يقولون شاح اواعيه ، وفي لبنان خلع ثيابه ، وفي مصر قلع هدمه وتقول الام لابنتها روجي ابدلي اي غيري ثيابك .

وقد يعمدون لاستعمال ما كان له أصل في اللغة كالحناشير والطراير والحنشور الذي لا يعجبك يقابله بالشامية الشرشوح والطرطور الضعيف الذي لا عمل له ، وهكذا في المصرية متعنتاز متعنتشخص متعرفز الى كلمات غيرها ، ومنها ما له أصل عربي مثل اطلاقهم لفظ نفغوغه على السيدة ذات الدل والحقر وهي السيدة السينة جاءت من نفغغ الطعام والفطير زاد في سمته . وفي مصر يقولون بص أي انظر وفي لبنان اقشع وفي الشام شوف .

وقد يختلف كل قطر عن جاره في مدلول اللفظ الواحد وفي صيغة الجموع وغيرها ففي مصر يقولون طقطوقة لذلك الوعاء الصغير الذي يطرحون فيه رماد اللفائف وأعقابها ، ويطلقون الطقطوقة على الاغنية البلدية ، والقرينة هي التي تفرق بينهما ، كما هو الحال في كثير من الالفاظ ولو قلت الطقطوقة لذلك الاناء لضحك الشامي ونظر باهتاً فلا يعرفها تطلق

إلا على الاغنية ، وفي الشام يجمعون سيكارة على سيكارات وفي لبنان على سواكير وفي مصر على سكاير ويقولون في الشام طنش بالشين غص الطرف وما بالي وفي مصر طنس بالسين لهذا المعنى ، وفي مصر لبش تحير وارتبك وفي الشام لبش جمع متاعه وارتحل ، وفي مصر عنتف متزين لطيف ، ومعناها في الشام بخيل مقتصد .

وكما اختلف مدلول بعض الالفاظ في الافطار المجاورة تنوسي كثير من الفصح جملة ، فكانوا يطلقون على الارض الكثيرة الحفرة (اليخضور) وعلى الرجل الكثير الكلام (اليهمور) وعلى الرجل الاحق (البانوف) وعلى المثقل بالدين (المفرح) وعلى كثير الطرب (المطرابة) وعلى من يتكلف الانحان من غير صواب (العاعة) ، وعلى الحبيث الشرير (العارم) وكانوا يقولون أخذ ماله كملأ واليوم يقولون كاملا وفلان لا يؤاكل رغيباً ولا زهيداً ، والرغيب الكثير الاكل والزهيد القليل الاكل ، الى مئات غيرها بما لو عادت اليه الحياة وجرت به الاسن لحي جانب عظيم من الفصح ومات جانب من المولد مع الزمن ، وضعت اللهجات وقويت الفصحى ، او جانب عظيم منها .

من الصعب تعيين زمان دخول كل لفظة بعينها لان اللهجات لا ضابط لها ولا هي مدونة بأسرها فمن الواجب وضع معجمات لها كما نراهم في الغرب وضعوا معاجم للالفاظ العامية وأخرى للالفاظ المحرفة ومعاجم للغة أرباب الدعارة واللصوص يعبرون عنها بالفرنسية بكلمات :

Argot, Jargon, Baragouin, Patois

وفي كتب الجاحظ ألفاظ كثيرة من هذا القبيل لانعترف بها الفصحى وكان تدوين أبي عثمان لها من مزاي لغتنا واتساع صدرها لكل جديد ماسبت لها معرفته ، والحمد لله على أن الجمعيين لم يعترضوا على بعض ماوضع ، مثل ثلاثة ألفاظ أفريقية وهي فيلم وترام وسينما فأقروها راضين ومثل نخيم ومصح ومعزل وهي مشتقة من أصل عربي وزجما تفننوا وأطلقوا

أكثر من اسم على مسمى واحد كما وقع للمقدمي البشاري صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم من أمتع كتب الجغرافية عند العرب فقد أسماه الناس خلال رحلته بستة وثلاثين اسماً دعي بها المسكين وخوطب ، فأطلقوا عليه المقدمي والفلسطيني والبصري والمغربي والحراساني والسلمي والمصري والفقيه والصوفي والمولى والعايد والزاهد والسياح والوراق والمجلد والتاجر والمذكر والامام والمؤذن والخطيب والغريب والعراقي والبغدادي والشامي والحنفي والمؤدب والبكري والمنفقه والمعلم والفرائضي والاستاذ والدانشمند والشيخ والنشاسته والراكب والرسول .

لما ورد مصر ابن جرير الطبري صاحب التاريخ في سنة ٢٥٦ قادماً من العراق نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال : وجاءني أصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة فقلت أما القصرية فأنا لا ولد لي وما حلت سراويلي على حرام ولا على حلال قط (ياخسارة) ، وأما الزير فمن الملاحي وليس هذا من شأني ، وأما الحماران فان أبي وهب لي بضاعة أنا أستعين بها في طلب العلم فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب . قال : فتبسّموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا : يحتاج الى درهمين وثلاثين . فأخذوا ذلك مني وعلمت أنها أشياء متففة . وجاءوني باجانة وجب الماء وأربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا الزير الماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث فنفعني ذلك وكثرت البراغيث فكنت اذا جئت نزع ثيابي وعلقتها على جبل قد شدته واترت وصعدت الى السدة اه . يقول أناطول فرانس الالفاظ هي الافكار وأعتقد أن الشعب الاول في العالم هو الذي كان كتاب قواعده أجود من كتاب غيره وقد يهلك الناس بعضهم بعضاً بالالفاظ لا يفهمونها فاذا تفاهروا يتعاقبون ويتعاطفون .

تطور الالفاظ والتراكيب

ألقى علينا الثعالبي من أهل القرن الخامس في المضاف والمنسوب درساً مستوفى من التراكيب والاضافات التي كان بعضها شائعاً في الجاهلية ، والآخرة حدث في الاسلام ، وقد خرجها في احدى وستين باباً فمنها ما أضيف الى اسم الله تعالى : أهل الله ، بيت الله ، رسول الله ، كتاب الله ، أرض الله ، ستر الله ، ناقة الله ، رحمة الله ، أمر الله ، لعنة الله ، صبغة الله الخ . وكل شيء كما قال الجاحظ أضافه الله تعالى الى نفسه ، فقد عظم شأنه وشدد أمره ، وقد فعل ذلك بالنار فقال نار الله الموقدة ، ومنها ما يضاف الى الانبياء مثل سفينة نوح ، عمر نوح ، مقام ابراهيم ، نار ابراهيم ، صحف ابراهيم ، ناقة صالح ، قميص يوسف ، عصا موسى ، صبر أيوب ، مزامير داود ، خاتم سليمان ، ومنها ما ينسب الى الملائكة والجن والشياطين مثل سحر هاروت ، ديك الجن ، جند ابليس ، قبح الشيطان ، حبال الشيطان ، رؤوس الشياطين . ومنها ما يضاف الى القرون الاولى : ربيع عاد ، صرح هامان ، كنوز قارون ، سد الاسكندر ، نوم أصحاب الكهف ، ومنها ما يضاف الى الصعابة والتابعين مثل سيرة العمرين ، درة عمر ، دهاء معاوية ، فقه العبادة ، حلم الاخنف . ومنها ما يضاف الى رجال العرب في الجاهلية والاسلام : حاتم طي ، زيد الحيل ، سحبان وائل ، عروة الصعاليك ، سعد العشيرة ، وضاح اليمن ، مجنون بني عامر ، أشج بني أمية ، جبار بني العباس ، ومنها ما ينسب الى القبائل ايلاف قريش ، تيه بني مخزوم ، جود طي ، أو الى رجال مختلفين : حكمة لقمان ، بلاغة قص ، عي بأقل ، حديث خراقة ، مواعيد عرقوب ، وفاء السموأل ، كذب مسيلة ، طمع أشعب ، ومنها ما ينسب الى العرب : تيجان العرب ، نخوة العرب ، كسرى العرب ، ومنها

ما أضيف الى الاسلام . قبة الاسلام ، بيضة الاسلام . ومنها الى القراء
والعلماء . فقه أبي حنيفة ، حاجة أبي الهذيل ، أو الى ملوك الجاهلية والاسلام .
سيرة ازدشير ، عدل انوشروان ، ايوان كسرى ، شقائق النعمان ، خلافة
ابن المعتز . أو الى الكتاب والوزراء في الدولة الاموية والعباسية : بلاغة عبد الحميد ،
بلاغة جعفر ، يتيمة ابن المقفع ، تبه عمارة أو الى البلدان عزيز مصر ،
أو الى أهل الصناعات ، كلب القصاب ، تبه المغني ، رغفان المعلم ، كذب
الدلال . ومنها الى الآباء والامهات والبنين والبنات مثل ابو قلهون ،
أبو مشوى ، أم الكتاب ، أم القرى ، أم المؤمنين ، أم حبين ، أم
قشعم ، ابن الليالي ، ابن جلا ، ابن آوى ، ابن السبيل ، بنو الايام ،
بنو الدنيا ، بنت الفكر ، بنات الصدور . أو الى الاذواء والذوات :
كاذواء اليمن ، وذو الاوتاد ، وذو القرنين ، وذو النورين ، وذو الرياستين ،
وذو الكفائتين ، وذات النطاقين ، وحالة الخطب ، خضراء الدمن ،
ضرائر الحسناء . ومنها ما ينسب الى النساء مثل كيد النساء ، مرآة الغريبة ،
بكاء الشكلى ، ومنها الى الاعضاء . سويداء القلب ، جبل الوريد . ومنها الى
الابل حمر النعم ، صولة الجمل ، ناقة صالح ، خبط عشواء . ومنها الى
الحيل والبغال . نواصي الحيل ، فرسا رهان . ومنها الى الحمار : حمار
العزيز ، صبر الحمار . ومنها الى البقر والغنم : بقرة بني اسرائيل ، أذئاب
البقر ، لحية التيس . ومنها ما يضاف الى الاسد : ليث عفرين ،
ليث الغاب ، جراءة الاسد ، وثبة الاسد . ومنها الى الذئب والسماع
والوحوش والسنور والفأر والضب والظربان والقنفذ والسرطان والحية
والعقرب والحشرات والهوام والطيور والغراب والذباب والبعوض ، ومنها
الى الارض والدور والامكنة والابنية والبلدان والاماكن ومنها الى الجبال
والحجارة والمياه والنيوان والشجر والنبات واللباس والسياب والطعام
والشراب وما يتصل بها والى السلاح والحلي والازمان والاوقات والآثار
العلوية وغير ذلك .

هذا ما عني الثعالي بتدوينه وفيه صورة من صور المجتمع الجاهلي والاسلامي ومنه ما جاء كالمثل ومنه ما كان فيه اشارة الى وقعة تاريخية وتصوير لحالة نفسية مثل عرق القربة وعرق الموت ومعنى الأولى الشدة والمشقة ويضرب الثاني مثلاً لأشد الشدة وكان الحسين الخادم خادماً المعتضد والمكنف يبتلى البريد بمصر ويلقب بعرق الموت قيل أن المكنف لقبه بذلك . وكل مانسب وأضيف وأتانا به الثعالي ما خرج عن تركيب عربي ولفظ عربي . ولقد حدثت بعد تراكيب واضافات وألفاظ كان الواجب تدوينها ولعله كان ينتظم منها مجلد آخر ، أما في العصور الحديثة عصر الطباعة والصحف والمجلات وانتشار الكتب وعهد إنباع العلوم المادية فقد يسقط الباحث على اضافات ونسب منها ما نقل عن اللغات الغربية ونحس فيه أثر الترجمة وهجنة العبجة .

وتطورت الألفاظ والتراكيب في عصر العلوم هذا ، وقضت الحال على النقلة أن يختاروا ألفاظاً لتراكيب جديدة فمنها ما جودوا فيه ومنها ما قصروا ، وكله دخل على اللغة وحفظه الناس وتناقلوه . وتكثر هذه التراكيب والألفاظ في مصطلحات العلوم والسياسة والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والمالية والتربية ، كثرت لأن سنده هذه العلوم انقطع عند العرب أو كانت علوماً جديدة لا يعرفها أجدادنا ، وكانت المادة من التعابير قليلة ، وكان المترجمون لأول النهضة ضعافاً في اللغة ، ولعل بعضهم لم يدرك ما نحويه الألفاظ الفرنجية من معان ، فترجموا كيفما اتفق لا كما يجب أن يكون ، وأكثر التراكيب التي جاءت بها العصر الجديد إذا ألقينه على مسامع العربي الاصيل اضطر الى أن يفكر ساعة ، وربما ما خرج بعدها بشيء يصور له المعنى تصويراً حقيقياً لأنه لا يعرف جهة العلم الذي كانت هذه الألفاظ والتراكيب من ألفاظه وتراكيبه . وقد شاهد هذا الجميع من تلك الألفاظ مثات .

ولا أكتسبكم بإساذني أن سمعي لم يتألم قط أكثر من تألمه من لفظ أو

إضافة جاءنا بها المشتغلون بعلم التربية فنسبوا الى التربية (التربية)
 وأتونا بعد ذلك بأنفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق
 والعناق أنها عربية ماصدقوا ولا آمنوا ، وجاءنا المتفascون من المترجمين
 بتركيب النزعة الواقعية ، القوة الوجدانية ، الذاتي ، الموضوعي ، الافليمي ،
 الفكرة الاساسية ، الفكرة الرئيسية ، الطريقة الاعتبارية ، السبب المباشر
 وهكذا سرت الى الأقلام عشرات من التراكيب على اعتبار أنها وردت
 في كلام بعض العارفين فاحتذاها من قضت عليهم صناعتهم بالمجلة وعدم
 التريث ككتاب الصحف ، وقد يعبرون عن المعاني التي يحتاجون
 الى أداها من حاضر الوقت لا يطيّلون التفكير فيها والمراجعة ، نعم
 جاؤونا بطائفة من التراكيب ما أنزل الله بها من سلطان ، ومنها قولهم
 تغلبت العناصر التقدمية الرجعية . وطن معنوي مثالي ، الوطن المرقوب
 المرغوب ، من حيث الاساس . تعرض نفسها على اتجاهات السياسة
 القبتاريخية أي قبل التاريخ ، الاحلام الطوبائية ولو قال أبو عذرة هذا
 التركيب السياسة قبل عصر التاريخ بدل القبتاريخية والخيالات والأوهام بدل
 الاحلام الطوبائية لأدى المراد ونجا من هذه السحابة . جاؤونا بضرب
 الرقم القياسي في الشيء الفلاني ، النزعات السياسية السائدة ، عمله على
 ضوء كذا ، رفع رأس أمته عالياً ، يحيطونها بهالة من الرهبة ، استغل
 الموقف ، جرى على خطته التقليدية ، خلقت جواً من الشبهات ،
 المفاوضات تجري في جو يسوده الود ، الوضع الحاضر الوعي القومي سر
 المهنة فقيدها الواجب . التربية المثالية ، المجال الحيوي ، المثل العليا ، الشخصيات
 البارزة ، السوق السوداء ، الجهود الجبارة ، الحل الحاسم ، حقل الادب والعلم
 الروح الوثابة ، موضوع أخاذ أتون الحرب ، الرغبة الملحة جملة داوية صارخة
 صخابة . وأخيراً تم الشيء الفلاني ، بحسب الحطة المرسومة ، وجل الساعة
 الاهداف القومية ، حركة خاطفة ، الروح المعنوية المتوثبة ، في ظل النظام ، ظهر
 على مسرح السياسة ، يضحي على مذبح أغراضه ، طلب يدهما ، ذر
 الرماد في العيون ، يشق طريقه الى الحياة ، فشلت المناورة ، انفرجت شفتاه

عن عدة ابتسامات كان لها أثر طيب في تلطيف جو الاحتفال . ومنها ما يكررونه في اليوم والليلة مرات حتى يجتهد الأذواق وهرمت به الآذان وهي ليست في شيء مما قاله علماء البيان في التكرار أو عمد إليه الجاحظ في ترديده بعض ألفاظه الخلوكة كفعل كان أو تركيب أما بعد . وتكرار الجاحظ على كل حال لا يشبه ما أحصيته لأحد البلغاء في حديث له في المذيع كرر فيه لفظ (اللهم) مراراً وأذكر أنني عدت له منها عشر مكررات ثم مللت ووجهت وجهي عن الاستماع ، والغالب أن صاحبي - وكان شيخاً والمشيخة فيه أعلق به من شعرات قصه - انقطع عن الصلاة أياماً وأحب أن يعوض عن لفظ اللهم التي فاتته فجمعها كلها في محاضرة واحدة ، ولعله ظن أن المحاضرة صلاة ودعاء فتوصل إلى الباري تعالى ما وسعه التوصل في حديثه مع أنه كان من سعة المادة اللغوية على جانب عظيم ولا يحتاج بيانه إلى مثل هذه التكاثر .

ومن التراكمات والاضافات الجديدة ماتفتى منه النفس وهذا تجده في كثير من الكتب المترجمة ممن يكون مترجماً وسطاً في اللغة التي نقل منها واللغة التي نقل اليها . ترجمنا وبذلنا الجهد فكان في ترجمتنا الرديء والجيد ولم يكن لنا بد من الدخول في هذا الدور ، أما الآن وقد كثرت عدد الفريق الذي تخرج بأدب لغته واللغات الغربية ، فالواجب ألا ننشر إلا ما سلم كل السلامة من العيوج ولم يسبق لسان العربي أن جرى به . فبالله ألا تصابون بالبرداء ، وقاكم الله شرها ، إذا سمعتم مترجماً يقول هذا الشعور ليس سليماً بل إيجابياً ، تربية فلان الإيجابية العملية ، المركز الاستثنائي ، المبدأ الانقلابي ، دلل بها على جوهر قومي مركّز ، التركيز في التقسيمات ، حركة تحريرية تجديدية ، نصوص متينة شريفة ، الوطنية تستمد وحيتها من نواميس كذا .

ومن التراكمات أو الألفاظ ما استلزمته طبيعة العصر لأنه ينم عن معان لا سبيل إلى التفتي منها لأنها تدل على أمور ذات أثر في سياسة الدنيا اليوم ومنها الإرهابيون الوصوليون النفعيون الانتهازيون المداورون

العدميون الفوضويون الاشتراكيون الشيوعيون النازيون الفاشستانيون الجمهوريون الملكيون الديموقراطيون الارستقراطيون الديكتاتوريون الراسماليون المحافظون الحاديون الحزبيون . ولا أطيل عليكم في ايراد الاضافات والصفات والأسماء الجديدة ، وعلى من يحب التوسع في تلقفها أن يتبعها في الصحف والكتب الحديثة ولا سيما في المعربات . وتكثر التراكيب والألفاظ النابية عن مناحي البلغاء في كلام أهل القرن الماضي ولا ترى الوسط في نقله وتصنيفه الا معذراً عن جهله بأنه يكتب الكتابة التي تروق جمهور الناس وهزأ في باطنه ، وأحياناً يبدو هزؤه على سحنه بمن يكتب كتابة عربية في الجملة ويسمها بأنها كتابة جامعية أو مشايخية نسبة للجامعة أو لدار العلوم .

قلت في بيان ألقبه في السنة الماضية في مثل هذا الحفل الكريم أن من الألفاظ ما يمر قليلاً ثم يموت ويحيا غيره فينسي الآخر الأول ، وان لكل عصر ألفاظه كما أن لكل عصر بيانه ، وقد أتبع لي أن نشرت خمسة كتب للقدماء حوت من هذه المعاني أشياء كثيرة ، فكان في الأول طائفة كبيرة من ألفاظ القرنين الأولين للإسلام ، وفي الثاني ألفاظ لم يعرفها هذان القرنان ونسبت في الرابع والخامس وفي الكتاب الثالث ألفاظ وتراكيب عرفت كثيراً في الرابع والخامس وفي الكتاب الرابع ألفاظ علمية اشتهرت في الخامس والسادس ، وكان ابن القرون السابقة بمعزل عنها ، وفي الكتاب الخامس ألفاظ وتراكيب عرفت في فارس وخراسان . وأعني بالكتاب الاول رسائل البلغاء وفيه نصوص نادرة لعبد الله ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وغيرهما من أئمة البيان وبالكتاب الثاني سيرة أحمد بن طولون للبلوي من أهل القرن الثالث ، وبالكتاب الثالث المستجاد من فعلات الأجواد للمحسن التنوخي من أهل القرن الرابع ، وبالكتاب الرابع كتاب البيزرة لبازيار العزيز بالله الفاطمي من أهل القرن الخامس ، وبالكتاب الخامس تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي وفيه من ألفاظ الفلسفة والحكمة التي كانت معروفة عند أهل القرن السادس . كان الكتاب الأول من محصول العراق وفارس في الجملة ، وكان

الكتاب الثاني بما أخرجه مصر ، والكتاب الثالث بما صدر عن الدور
العباسي الأول والثاني ، والكتاب الرابع بما ألف في مصر أيضاً وفيه
ألفاظ مصر ، والكتاب الخامس بما صنف في فارس وفيه ذرو من مصطلحها .
والألفاظ التي حملها الكتاب الاول من أسهل الألفاظ استعملت
قروناً ثم بدأ الناس يبدسونها فهجرت وصار ابن هذا العصر اذا سمع
بعضها فكأنه يسمع اللفاظ أعجمية واذا حاول الكشف عنها في المظان
مل " وكل " ولا عجب فقد بلغ بنا الضعف في لغتنا أحياناً أن صرنا الى
حالة اذا حاولنا قراءة شعر جاهلي فكأننا نقرأ لغة غير لغتنا ، ونقع
فيه على ألفاظ نجد في بعض الألفاظ الفرنجية . أنسة أكثر مما نجد في هذه
الألفاظ العربية ، ولا أحيلكم للتدليل على دعواي الا أن تلقوا نظرة على
بعض ما طبع من دواوين الجاهليين وبعض الاسلاميين أمثال زهير بن
أبي سلمى وجبرير والفرزدق ، وعوض الله شراح هذه الدواوين المعقدة
خيراً عما بذلوه من أوقاتهم في سبيل حلها ، فمن ألفاظ هذا الكتاب
الاعمال الاضطراب في العمل والحركة وفيه زمين كسميح ، زميت وقور
قذه منه وكفه آنق أحسن وأعجب ، استعجب طلب الاعتبار واستقال
من الذنب ، مدخول في أموره غش وعيب وفساد ، أرض تهمة مصوبة
الى البحر ومنه تهامة ، أرض جلس غليظة ، الواهن الضعيف في العمل
الذارك له ، الفالج الفائز ، المناقلة المحادثة ، الاستطراد نوع من المكيدة ،
الحبار ما لان من الأرض واسترخى والجدد الأرض المستوية الغليظة
وما استرق من الرمل وفي المثل من تجنب الحبار أمن العثار ، ومن
سلك الجدد أمن العثار ، العقدة العقار ونحوه يقال اعتقد فلان عقدة اذا
اشتوى ضبعة أو اتخذ مالاً من عقار وغيره وهي مستعملة عند عوام
الشام ، الكفاه الخدم الذين يقومون بالخدمة ، الحانة جمع خائن والغدرة
جمع غادر ولا نستعمل هذين الجمعين اليوم وكثير من الجموع أغفلناها
مع الزمن كالجورة والحزمة والحونة والكذبة . الاعتبار مصدر قولك
أعنتني فلان اذا عاد الى مسرتك واجعاً عن الاساءة ، الاستئثار المشاورة
أعذر الرجل بالغ في اظهار عذره ، الطرق ضعف العقل وفلان به طريقة

أي هوج ، أجم الطعام كرهه ومله ، استجمام القلوب اراحتها ، السوقه
 خلاف الملك نطقه على أهل الاسواق وليس بصحيح ، الاحتلاط (بالحاء)
 المبالغة في الحلف واليمين ، البأو الفخر بالنفس ورفعها ، اتلاد المال
 تميمته ، فاش الرجل اذا افتخر ومنه التفيش وهو الكبر والادلال ،
 اتزر ركب الوزر أي الاثم ، حقيرة الذلة ، خبال الامر اضطرابه
 واختلاطه ، الشرح المثل والنوع ، يتبيغ يبيع ، الاستجراح الفساد
 والعيب ، استحسر أعيا وتعب ، القعدة الكرسي أو الطنفسة ، الظهري
 ما يجعله المرء عدة له عند مسيس المفاجأة اليه ، الشكيمة قوة القلب وشكمه
 أثبته ، أعجز في فلان اذا عابه واستضعفه وصغر من شأنه ، استأكل
 الضعفاء اذا أخذ أموالهم ، أوتغ دينه بالاثم أفسده ، الحجة بعرض
 فلان أمته منه بشته ، الانفهاق في الشيء التوسع فيه ، اكتهف
 وتكتهف لزم الكهف والكهف المغارة والملاجأ ، أخطر جعله في خطر ،
 رضخ له من ماله اذا أعطاه ، ضن الشيء يضمنه فهو موضون وموضين ثنى
 بعضه على بعض ونضده ، العقوة ماحول الدار والمحلة ، الكسى (بالضم)
 مؤخر العجز في كل شيء والجمع اكساء وركب اكساء ، سقط على قفاه ،
 اجتاهم بالشد حولهم عن طريق قصدهم الخ ...

ومن ألفاظ الكتاب الثاني (١) العقابان خشبتان يشبح الرجل بينهما ليجلد
 (٢) الفيح الحارس أو رسول السلطان أو حامل البريد (٣) ، العطعة حكاية
 صوت الجبان اذا قالوا عيط عيط. وذلك اذا غلبوا قوماً (٤) ، الابليز وطن
 الابليز طين مصر وهو ما يعقبه النيل بعد ذهابه عن وجه الارض لغة
 مصرية (٥) ، تقبل العامل العمل تقيلاً التزمه بعقد ومنه المتقبلون أي الملتزمون
 باصطلاحنا اليوم (٦) ، هذا عول الدولة أي المستعان به أو أحدخدامها (٧) ،
 يعرتب عليه يرد عليه بالانكار (٨) المَجْمَل المستعمل على جملة أشياء كثيرة
 غير ملخصة جاءت هكذا : عرض الغلام عليه بجملاً بما يجري يوماً يوماً
 وليلة ليلة (٩) المطرح المفروش وزناً ومعنى (١٠) المسورة بكسر الميم
 نخدة مدورة (١١) الحردادي ابريق من البلور الجبري ذو عنق ضيق

وجسم يزداد اتساعاً من أعلى الى أسفل . والحردادي الحمر ، والغالب أن هذا الاناء كان خاصاً بوضع الحمر كالباطية . وقال العلامة كرنكو إنها خرداذية بالذال في الثانية وهي كلمة فارسية لنوع من أنواع الشراب كانوا يشربون فيه أيام الأعياد (١٢) القصرية كالاجانة افاء لوضع الزهور أو الطيب (١٣) الرقاص اجير البناء وهاتان اللفظتان مصريتان (١٤) بقص الشيء جزأه وتبعص له أي ناوله بعض ما على المائدة من الطعام تحبباً (١٥) يزل معه مايقدر على حمله من زل الطعام أخذه وتناوله والزلة امم لما تحمله من مائدة صديقك أو قريبك . (١٦) البذرقة الحفارة . (١٧) في الكلام على هندسة جامع ابن طولون (فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت) فسرته بأنهم كانوا يرسمون مخطط البناء على الجلد ، ثم اطلعت على كلام اللجاحظ يقول فيه : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكك والعهود وفي الشروط وصور العقارات وفيها تكون غوذجات النقوش ومنها تكون خرائط البرد وهن أصلح للجرب ولعفاص الجرة وسداد القارورة (١٨) ورد فيه فتخرج الينا الكف الناعمة الخضوبة نقشاً أو تطاريف ، وفي كتب اللغة اختضبت المرأة تطاريف أي أطراف أصابعها وطرقت المرأة بناتها اذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء (١٩) الزيرباج : قطع لحم صغيرة تجعل في القدر عليه غمرة ماء وقطع دارصيني وخص مقشور وبسير ملح فاذا أغلي تؤخذ رغوته ثم يطرح عليه رطل خل خمر وربيع رطل سكر واوقية لوز حلو مقشراً أو مدقوقاً ناعماً يداف بماء الورد وخل ثم يطرح على اللحم (٢٠) البوارد البقول المطبوخة الموضوعة في الحل وماء الحصرم والسماق وماء التفاح والريباس (٢١) السفتجة كقرطفة أن تعطي مالاً لآخر ، وللآخر مال في بلد المعطي فيوفيه اياه ثم فتستفيد أمن الطريق وفعله السفتجة بالفتح والمال المسفتج المرسل الى بلد آخر سفاتج (٢٢) الذرب : فساد المعدة . ومن ألقاظ الكتاب الثالث : أبود القوم دخلوا في آخر النهار ، حبا الرجل مشي على يديه وبطنه فنظر اليه عن عرض وعرض من جانب

أربد وجهه وتربد اجر حرة فيها سواد عند الغضب ، يقال هو حدث
ملوك بالكسر صاحب حديثهم ، وكثير الحديث حين السياقة له ، المتلدد
الحائر المتلفت يميناً وشمالاً ، تذهب استنكف يقال لو لم أترك الكذب
تائماً لتركته تذباً ، أتنا بعد هذه من الليل وهذه وهدي وهدي ، أي
بعد هزيع من الليل أي حين سكن الناس ، يقال ما يريم يفعل ذلك
أي ما يبرح وما رمت أفعله وما رمت المكاث وما رمت منه وريم
بالمكان أقام فيه ، احتشم منه وعنه وحشه واحتشمه أخجله ، فلان
موطاً العقب صاحب سلطان يتبع ، رجل أنير مكين مكرم ، أوجره
الرمح طعنه به في فيه ، نكد زيد حاجة عمرو منعه إياها ، غزده بيده
نخسه ، الطائف العسس العسّ القدح العظيم ج عساس ، القصب القدح
الضخم ، تطفيل الشمس غروبها ووجبت الشمس غربت ، شق الدار والحجبة
ناحية منها ، فلان ما يليق درهماً من جوده مايمسك ، الصرم البيوت
المنجعة ، يوم صائف حار ، تغز نفسه تنقبض ، الخريطة وعاء من ادم
(جلد) وغيره يشرح على مافيه أي يشد ، عاقمه خاصمه ، فلان ملازم
لازمه غرماؤه ، البهلول كصرصور السيد الجامع لكل خير ، حادث
السنة اذا قل ماؤها ومطرها ، الاشراف بالشين الحرص ومنه الحديث
من أخذ الدنيا بأشراف لم يبارك له فيها ، غبّر الشيء بقيته ، زهر
السراج نلألاً ، العوراء الكلمة أو الفعلة القبيحة ، الشاكري الاجير أو
المستخدم ، ابن نفى كفني نفاه أبوه ، رجل ألحن وأمة لحناء لم يحننا ،
يقال افعل ذلك وكرامة لك وكرمي وكرمة لك وكرماً لك وكرمة عين
ونعيم عين ونعمة عين ونعامي عين ، ويقال نم وحباً وكرامة ،
انقطع به ان كان ابن سبيل فانقطع به السفر دون طيته وهو
منقطع به ، يقال للرجل عند التوديع معاناً مصاحباً ومن قال
معان مصاحب فمعناه أنت معان مصاحب ، صهرته الشمس أي صهرته
آلت دماغه ، أفاد القاتل بالقتيل قتله به ، ليه جمع ثيابه عند نحره
في الحصومة ثم جره ، استشرف الشيء رفع رأسه لينظر اليه ، تطول

عليهم ، اتن كطال عليهم ، وتطول تفضل ، الباطية انا عظيم والرطية وعاء
يجعل فيه الحمر وغيره ، رب الأمر أصلحه ، الرافعة الجماعة تذيع الى
الناس ما يقال ، تقول أوطأني عشوة أي جعلتني أطأ ما لا أراه أي
أوقعتني في أمر متلبس وغردتني حتى اغتررت ، احتسب عليه أنكر
ومنه المحتسب ، نواعدوا اتعدوا أو الاولى في الخير والثانية في الشر ،
وثب به هجم عليه وتوثب في ضيعتي استولى عليها ظمأ ، الربع الدار
بعضها حيث كانت ج رباع وربوع وأربع وأربع . الفعل الرجل
الكامل الرجولة ، القرم السيد .

ومن ألفاظ الكتاب الرابع (١) الطيهوج ذكر السلطان واحدها سلمك
كصرد والسلك فرخ القطا أو الحجل (٢) السبك قبح رائحة اللحم ، الحنز
(المتن) وريح السمك (٣) غضف الاذنين استرخاؤهما (٤) البشمازك
هو الذي يكون في آخر الاضلاع من داخل الحبل ويسمى الكازك ،
وهذا تعريف المؤلف له ولم نجد له ذكراً في كتب اللغة (٥) أسطارم
الغالب أنه من أمراض الجوارح ولم نجده في المعاجم : ومعلوم أن المعاجم
لم تستوف جميع ألفاظ اللغة وقد وجد دوزي الهولندي مئات من هذه
الالفاظ ، لا بها كتاباً له في مجلدين أسماء ملحق المعاجم العربية (٦) الحوجلة
القادورة (٧) القدير اللحم المطبوخ في القدر (٨) قمر فلان الرجل غلبه
في القمار (٩) الكندرة بجثم البازي يهياً له من خشب أو مدر (١٠) الحن
وعاء الطيب (١١) تفرش الشيء أخذه أولاً فأولاً (١٢) خربع الشارع
جعل فيها الخربع والخربع نبت كالسم يغشى على آكله ولا يقتله والشارع
جمع مشرع معناها طريق الحوض (١٣) التبان كرماني سراويل صغير
يستمر العورة المغلظة (١٤) قرنص فلان البازي اقتناه للصيد (١٥) اركب
الطائر نهياً للطيران أو ضرب بجناحيه (١٦) عبر الطير زجرها (١٧) رمح
الطائر ألقى ذرقه (زبله) (١٨) سبق الطائر ألقى السباقين في رجليه
والسباق القيد (١٩) الشهدانج ويقال له شهدانج حب القنب وفي اللغة
الشامية القنبس (٢٠) قبض الطائر وغيره امرع في الطيران وهو قابض

وقبيض بين القباضة والقبض منكمش سريع ومنه والطير صافات ويقبضن
(٢١) الغانيد نوع من الحلواء يصنع من السكر ودقيق الشعير والزنجبين .
ومن ألفاظ الكتاب الخامس : الاسطقات أو العناصر والاكسير
دواء اذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً أو فضة أو غيره الى البياض
أو الى الصفرة ، الطين ويعرف بالطين الارمني وفي الشام يسمونه الترابية
وهو الطين الذي يؤكل ، وسئل عما كان يأكل ويشرب كل يوم فقال
المدققة والمرققة والملبة والمروقة (الملبق الملبن بالسمن) . البربط العود
وأصلها بالفارسية بربت أي صدر البط لأن صورته تشبه صدر البط وعنقه
وأهل هذا الفن وغيرهم اعتمدوا على لفظة العود ، السكبينج نوع من
العقاقير ، الاحلنجين عقار من ورد وعسل ، متريديطوس ويقال مترا
اختصاراً ومعناه المنقذ من ضرر السم (والاصل في هذا الاسم اسم
الطبيب مخترعه ومركبه) ، النفسرة بول يستدل به على حال المريض وعلته ،
القيفال بالكسر عرق في اليد يقصد ، الدستور الوزير الكبير الذي يرجع
في أحوال الناس الى ما يرضيه ، القولنج مرض معدي يعسر معه خروج
الثفل والريح . وقد وقعت له عدة تعابير وتراكيب نسيناها او تناسيناها
ومنها تشور شجل ، اجعلاني من أدمه اهلك وارض عني ويقال جعلت
فلاناً أدمه اهلي اي اسرتهم وأدمه بأهله خلطه بهم وجعله كواحد منهم
ومنها الحافد اي المعوان ورجل محفود يخدمه اصحابه ويعظمونه ويسرعون
في طاعته .

هذا ما امكن اقتباسه من ألفاظ الأسفار الخمسة التي نشرتها ، فكم
في الكتب المطبوعة والمخطوطة من امثالها ما أنسيناه ونحن له محتاجون
كما انسينا من الحلويات العصيدة والحبيصة لما جاءنا من الفرس الفالوذج
واللوزينج ثم انسيناها لما جاء الترك برواني وكلاج ثم انسيناها جمعاً لما
اثنانا الافرنج بعبروش ويبرونج والله اعلم ما يدخر الغيب لنا من الالفاظ في
المستقبل ، وفي هذا دليل آخر على حيوية هذه اللغة وقابليتها للتطور بحسب الزمن
مع الاحتفاظ بأصولها وقواعدها وبالفصح من مفرداتها وشواردها .

الثورة الثانية

في يوم ١٢ آب ١٩٤٩ قام الجيش السوري بثورة ثانية بقيادة الزعيم سامي الحناوي والعقيد بهيج الكلاس وزمرة من الضباط ، فطوقت مدينة دمشق في الساعة الثالثة صباحاً وقبض على المشير حسني الزعيم صاحب الثورة الاولى ورئيس الجمهورية الرابع ، وعلى رئيس حكومته السيد محسن البرازي ، وانعقد مجلس حربي فحكم عليها بالاعدام بالرصاص . وفي ثكنة المزة تولت فئتان من الجنود تتألف كل منها من اثني عشر جندياً بقيادة نائب لتنفيذ حكم الاعدام على كل من حسني الزعيم ومحسن البرازي بعد أن عصبت أعينها وشد كل منها الى عمود ثبت في الارض ، فخر الاثنان مضرجين بدمائهما ، وتقدم منها رئيسا الفئتين وأطلقا عليهما طلقتين من مسدسهما للاجهاز عليهما .

والى القاريء الاسباب الداعية الى هذا القتل في بلاغين رسميين صدرا عن قائد الجيش والقوى المسلحة الزعيم سامي الحناوي .

بلاغ رقم (١)

أيها السوريون :

لقد قام جيشكم الباسل بانقلاب يوم الثلاثين من شهر آذار الماضي لينقذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت اليها من قبل ، وقد استبقايم ذلك العمل بالفرح والتقدير لما وعد به زعيم ذلك الانقلاب من انقاذ البلاد من فوضاها ، واعادتها الى عزتها وكرامتها في بياناته الاولى ، ولكنه مالبت حين استتببت له الامور ان اخذ يتطاول هو وحاشيته الى أموال الامة ، فيبذرونها بالاثم والباطل ، والى كرامة البلاد ومقدساتها فيدوسونها ويلوثونها ، ويعيثون بقوانين الامة وحریات الافراد .

هذا عدا ما صعب ذلك من سوء الادارة والفوضى والتدهور ،

بحيث أخذ الناس يسخرون من الجيش ورجاله لما صارت اليه البلاد من حالة أفظع بكثير مما كانت عليه من قبل ، وإذا أضفنا الى هذه الفوضى الداخلية تلك الفوضى التي صارت اليها سياستنا الخارجية رأينا أي مصير سيء قد بلغته البلاد .

لهذا ، وبعد الاعتماد على الله القوي العزيز ، عزم جيشكم الباسل الذي لا يريد الا الخير للبلاد أن يخلصها من الطاغية الذي استبد وعنا هو ورجال حكومته المسخرة ، وقد آتم الله للجيش ما أراد فأنقذ شرف البلاد من ظلمهم وعتوهم ، وقد آلى على نفسه أن يسلم زمام الامر الى الاحرار المحلصين . هذا وان الجيش وقواده ليعاهدوكم أمام الله والتاريخ أنهم لا يبيعون من حركتهم الاخيرة للبلاد الا أن تعيش عزيزة الجانب حرة مستقلة ، وسيترك الجيش لزعماء البلاد أنفسهم قيادة البلاد .

فعلى كل سوري أن ينصرف الى عمله هادئاً مطمئناً ، واثقاً من أن قادة الجيش سيعودون الى ثكناتهم لتنظيم الجيش وترك أمور السياسة الى رجالها والسلام .

دمشق في ١٤/٨/١٩٤٩ القائد العام للجيش والقوى المسلحة
الزعيم سامي الحناوي

بلاغ رقم (٥)

أيها السوريون الأحرار :

بحمد الله العلي العظيم تم الانقلاب الحقيقي ونجت البلاد من طاغيتها المجرم الباغي ، الذي حاد عن الجادة المستقيمة وعتا عتواً كبيراً بعد أن وعد المواعيد الخلابية ، وخدع الخاصة والعامة ، وتظاهر بحب الخير والغيرة على الوطن الى أن استتب له الامور فكشف عن حقيقة نفسه وأخذ يسير البلاد حسب أهوائه ، وقد زاد الطين بلة اعتماده على رئيس وزراء عرفه الناس جميعاً بسوء الاخلاق والحيانة والاساءة الى كل وطني شريف والقضاء على الروح الوطنية والنزعة القومية والمبادئ العربية ، وقد كان احرار البلاد من مدنيين وعسكريين يرون كل أولئك فيحاولون

تقويم الاعوجاج ولكن هيات للعالي ان يصحو ، وللمجرم ان يفيق .
لقد قال الطاغية لتبرير انقلابه أنه قام بحركته انقاذاً للبلاد من حالة
البؤس والفوضى اللذين صارت اليهما في العهد الماضي ، ولكنه سار بالبلاد
سيرة جعلت الناس تذكر بالخير العهد الماضي ، وتمنى لو عاد على ما فيه
من عيوب ومساوي .

واتهم الطاغية رجال العهد الماضي بتزوير الانتخابات ، فاذا هو يزور
استفتاء شعبياً كاملاً ويسخر من الناس أجمعين ، ويجعل سورية مضفة
في أفواه العالمين ليتسمن أريكة الجمهورية التي حلف الايمان يوم حركته أنه
لا يبغي من وراء حركته منصباً ولا زعامة فاذا هو كاذب خداع .

اتهم الطاغية الحكومة الماضية بتناؤة الاحزاب المعارضة والقضاء عليهم
وتسليط زبانية الحكومة عليهم فاذا هو يفعل شراً من تلك الحكومة ،
فيقضي على كل حركة انتقاد ويسخر الدولة لخدمة أنصار الحكم وجماعته .
زعم الطاغية انه قام بانقلابه خدمة للأمة وانقاذاً لصحافتها من التضيق
على حريتها ولأحزابها من العمل والنشاط ولشبابها من التحرر فاذا هو
وحكومته يفتكون بالامحارار ويضيقون على الحريات وبيعيدون أنصار
الانتداب الى منصة الحكم ، حتى اخذنا نرى وجه الانتداب من خلف
ستار صفيق .

لقد حمل ذلك الطاغية على رجال العهد الماضي بكثرة الحفلات والولائم
وانفاق مال الامة بالباطل وجعل وظائفها وقفاً على الانصار بصرف النظر
عن الكفايات والأخلاق ، والاستهتار بقضية رئيسة كقضية النقد والمصالح
المشتركة ومعالجتها بالكذب والمأطلة ، فاذا هو يفعل شراً منهم ويجعل
الناس يترحون على النباش الاول .

لقد زعم -ني الزعيم وأبواقه المألجورة أن رجال العهد الماضي أفسدوا
ضمان الشعب واستعملوا الضغط والارهاب ، وملؤوا السجون بالامحارار
والوطنيين فما قولكم فيمن أخذ يفعل فعلاً شراً من فعلهم معتمداً على
كل خائن وحنسيل مجهول الاصل ، يفتك بأصحاب البيوتات ويضغط

على أهل الكرامات مائتاً سبعون المزة وحلب وحمص وحماة واللاذقية بالاعهرار من الوطنيين والشباب المحاصرين .

لقد ادعى ذلك الطاغية أنه إنما ثار على العهد الماضي لأنه حمل الطبقتين المتوسطة والفقيرة أكبر قسم من الضرائب وخاصة الضرائب غير المباشرة التي تسبب الغلاء في المواد الضرورية ، وحصر القطع النادر ورخص التصدير بفترة محدودة من التجار ، ولكنه كان في عمله أقسى وأمر ، فقد استمر ظلم الطبقتين الفقيرة والمتوسطة وأخذ رجال الطبقة الغنية يقتربون منه بما يهدونه من هدايا وما يصدقونه على أقربائه وأنصاره من رشوة وسحت ، فسكت عنهم وقربهم من مجلسه وأخذ يستمع إلى أقوالهم حتى صاروا هم الساسة الحقيقيين للبلاد .

قال حسني الزعيم أنه جاء ليفلق باب الرشوة والسرقة وخيانة كبار الموظفين وتقليل النفقات وتطهير الدوائر من العناصر الضارة وتنسيق كافة الجبهة والخدمة فإذا هو يفعل العكس فيقرب الجبهة والخدمة وينسق صفار الموظفين الشرفاء الفقراء ولا يعتمد في كل دائرة أو إدارة إلا على أنصار الأجني والمريشين والسارقين وأعداء البلاد ويقضي على كل حر شريف مخلص لبلاده ، معروف بأصالته وشرف نفسه .

قال الزعيم ورجال حكومته السابقة أنهم يريدون توجيه السياسة الداخلية والخارجية توجيهاً صحيحاً فإذا هم يدفعونها في طريق ملتوية ، ويستأثرون بالسياسة العربية والخارجية ويدفعونها في طريق الانفصال والانانية والتآمر مع الاستعمار ، ويعملون كل الأسباب لقطع أوصال الأمة العربية وتأييد الجزبيات .

زعم الزعيم أنه جاء ليصون دستور البلاد وكرامتها ولينتقم من عطلوا دستورها وحكمها الشوري ، فإذا هو يخرق الدستور ويعطل القوانين ، وكلما قيل له إن البلاد لا بد لها من دستور خدر الناس والضخافة بتأليف اللجان وعقد الاجتماعات حتى إذا تمت اللجنة صياغة بعض مواد الدستور على غير هواه وعقله الملتوي الآخرق ثار على اللجنة وأفصاها ، وشرذ رجالها بعد أن كانوا بالامس من اقرب المقربين .

وبعد فهذا طرف بما تقم الناس على حسني الزعيم في اعماله العامة وإدارة دفعة الحكم . أما اعماله الخاصة وأخلاقه الشخصية هو وحاشيته فحدث عنها بما تشاء من سوء والانحطاط وكأنه نسي ان ديار الشام بلاد محافظة لها تقليدها وأخلاقها وانها تكره الميوعة والتخلف كما تكره الطفرة والأعمال المبتسرة ، ولكنه كان يظن انه قد أصبح الدكتاتور المطلق يفعل ما يشاء وما على الشعب الا ان يقلده ويتبع خطواته فان اعماله دستور مقدس ، وحركاته غاذج صالحة .

أيها السوريون

لقد قام جيشكم من جديد بانقلاب وان قائده الاعلى ليحلف لكم انه ما قام بمحركته الا انقاذاً لسمعة البلاد وكرامتها بما صارت اليه ، وانه سيدعو في اليوم التالي احرار البلاد على اختلاف النزعات والاحزاب لتسلم دفعة الحكم على الشكل الذي يريدونه وانه هو ورجال الجيش سينزفون في مراكزهم لحماية الحدود وحفظ عزة البلاد بعيدين عن التدخل في السياسة فان لها ارباباً غيرهم ، وان قائد الجيش العام يرجو من كافة المواطنين ان ينصرفوا الى اعمالهم كالعادة بكل سكينة وهدوء تاركين لارباب السياسة تسيير دفتهم معتمدين على اخلاص رجالهم المعروفين بشرف النفس وطهارة اليد ونقاوة الماضي والفكرة القومية والاخلاص .

دمشق في ١٤/٨/١٩٤٩

القائد العام للجيش والقوى المسلحة

الزعيم سامي الحناري

هذا ما نشره اللواء الحناري على الناس ، ومعظم ما قاله في المشير حسني الزعيم غير صحيح .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع في دار الحكومة بدمشق بعض النواب والوزراء من رجالات سورية وعهدوا الى فخامة السيد هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية الثاني تأليف وزارة من الاحزاب المعارضة وباشرت من الغد اعمالها برئاسته ، وقد منح سلطة رئيس جمهورية وسلطة رئيس وزارة وبنما تجري الانتخابات للجلسة التأسيسية وينتخب رئيس جديد للجمهورية .

المجلس التأسيسي

جئت صديقي الرئيس الجليل السيد هاشم الأتاسي شاكراً له قبوله رئاسة الدولة ، عقي مقتل صاحب الثورة الاولى السيد حسني الزعيم ، وقلت له : ان رضاه باستلام زمام الامر على علو سنه ، رفع من قدر سورية في أنظار العالم ووقاها شر فتنه لا يُعلم عما تنجلي ، لأن الشبان والكهول قد لا يتفقون على من يوسد اليه الحكم ، فتحدث مشادات لا تحمد ، وهو بالنظر لما خص به من مكانة سامية يرتضي رئاسته كل عاقل . فقال : (وصدق في قوله) ان غاية ما أرجو أن يكون لسورية مجلس مؤلف من نواب يعرفون قدر مهمتهم . وقد تحقق قوله فكأت النواب على الجملة من الفئات الصالحة بعلمها وأخلاقها ، ذلك لأنه ما جرى انتخاب حر في هذه البلاد مثل هذه الانتخابات (١٩٥٠) .

قضى النظام الجديد على الامة والاقطاعية ، وكان مجلس النواب السابق غاصاً بالأميين والاقطاعيين ، وأعطى الحق للنساء المتعاملات التعليم الابتدائي أن ينتخبن نوابهن ، وهذه ظاهرة تقدمت بها مدينة دمشق سائر بلاد الاسلام بفضل حكومة المشير الزعيم . فأصبح للنساء في سورية كيان سياسي معترف به ، ودل هذا الانتخاب ان الأمة اذا تركت لها حريتها تحسن القيام بواجبها ، وتعرف ما يصلح لها وما لا يصلح .

وبهذا ذهب من طريق النيابة جمهور غير قليل من اذعياء الوطنية ، والأميين والاقطاعيين ، والمثوين بالرشا وسمامرة منافعهم والذين امتنوا الجاسوسية لحساب الاجني .

وأحيا هذا الانتخاب في الامة ما كانت ضعفت فيها مظاهره كالاعتزاز بالقومية ، وأشعر قلوب أبناءها معاني الوطنية ، وتحررت الأغصاق من الاستعباد لأرباب القوة ، وكانوا يلون على الشعب ارادتهم ، وليس عليه

الا الخضوع والطاعة ، وأدرك حتى العوام معنى الحكم النيابي ، وأنشأوا يستشفون ما انطوى عليه من الخيرات ، اذا تولته أيد طاهرة وعقول مفكرة ، معتقدة في سرها وجهرها أن حياة كل وطني مناط حياة أخيه وأن شركتها لا يضر بها الا الاختلاف الذي يحل الروابط ويمزق القوة .
وبما أثبت حياد الحكومة في هذه الانتخابات أنها حرصت على دخول الكتلة الوطنية - حزب الحكومة السالفة - ليتولى المعارضة في المجلس ، وبذلك فائدة للحكم النيابي ، فأبى رجالها أن يشتركوا مع معارضهم بالامس ، لتخوفهم على ما يظهر من ألا تصدق الحكومة في حيادها ، وأن تستعمل معهم الطريقة التي كانوا يلجأون اليها من التزوير والضغط ، وهم الذين اعتادوا أن تكون الحكومة عوناً لهم في فوزهم وتمكينهم من النيابة .

تمثلت في هذا المجلس معظم الاحزاب ولا سيما حزب الشعب الذي أصبح حزب الاكثرية فصدق على المجلس الجديد الى حد بعيد ما قاله غستاف لبون من أنه مضمون أعظم رقي من مجالس البلاد الديموقراطية عندما ينتخب الناخبون أناساً يعرفون حقائق الحياة ، من أرباب الصناعات والتجارة والزراعة ، بدلاً من انتخابهم من صفوف رجال المحاماة ، ومن صرفوا أوقاتهم في دفاترهم وكتبهم .

وبعد أن وضع المجلس التأسيسي القانون الاساسي انقلب الى مجلس نيابي وانتخب رئيساً للجمهورية فخامة السيد هاشم الأتاسي .



سياسة سياسيين

لقي الغربيون العظماء من استبداد الملوك ، فهدتهم تجاربهم الى ان الحكم الجمهوري اقرب الى السلامة من الحكم الملائكي ، ورأوا أن يضعوا لرئيس الجمهورية قيوداً حتى لا يتحدث نفسه بتعدي السلطة التي خوله اياها مجلس الأمة ، ومنها ألا يجوز له أن يتولى الرئاسة الا دورة واحدة ، وبعد أن يخلفه رئيس آخر لا مانع من توليته ثانية . اشتروا هذا وهم العارفون بما في الطباع البشرية من الأثرة والطمع ، وما نسوا أنهم ما كان ينبغيهم من ظلم الطغاة من الملوك غير موتهم ، أو اعلان ثورة عليهم ، أو تنازلهم عن عروشهم اذا ضعفوا عن مقاومة خصومهم .

واغتبطت سورية ان أصبح حكمها جمهورياً في عهدها الاخير بعد قرون مظلمة أتت عليها في الاستبداد ، وكان ان وقعت في الغلطة التي حاول الغربيون تفاديها بتحديد مدة معينة لرئاسة الجمهورية ، فأنتى حزب الحكومة القائمة مدة الرئاسة قبل حلول أجلها مع الرئيسين الاولين السيد محمد علي العابد والسيد هاشم الأتاسي ، ولما خلفها الرئيس الثالث وهو من المسيطرين على ذلك الحزب لهذه الحكم فلم يكثف بقضاء مدته القانونية في الرئاسة ، وحاول أن يتولى الرئاسة دورة ثانية ، والدستور يحظر ذلك ، فهون عليه أعوانه الوصول الى غايته بنقض ما كان أقسم اليمين على المحافظة عليه ، وشايه أكثر النواب وبعضهم من صنائه « ومن سعى في نقض ماتم من جهته فسيه مردد عليه » « والحكومة التي لا تنطبق المبادئ التي انبعثت منها ليست حكومة شرعية » وما كان قصد من زينوا للرئيس خرق القانون في الحقيقة الا خدمة أنفسهم ، لما وقر في نفوسهم من سهولة العمل معه لضعف ارادته ، أما اذا كان الرئيس قانونياً وحازماً فتفتوهم المغام وتقطع أرواقهم .

وسلك الرئيس الثالث للاستمتاع بالرئاسة ثانية طريقته الشاذة التي وافقه عليها بعض النفعيين والوصوليين ، وما استمع لنصح العقلاء ممن كانوا يدركون عاقبة ما يحمل عمله الثاني من البلاء على البلاد . وقد نصح له أكبر شخصية سياسية في الدولة رئيس الجمهورية الثانية السيد هاشم الأتاسي وهو المشهود له بمواقفه المشرفة ، وماضيه النقي ، ومعرفته الواسعة بسياسة الامة ، ويعرف الى ذلك أخلاق الملتفين حول الرئيس الذي لم يبال بنقض نظام مقدس في سبيل جر المنفعة الى نفسه ، نصح له ألا ينقض القانون الأساسي . لأنه خاف اذا عبت السيد القوتلي بالدستور أن يسنّ سنّة سيئة فيطمع بعدها في نقضه كل أفاق تحدّثه نفسه بالرئاسة . وما كان الرئيس الأتاسي ممن يتهم في نصحه لصديقه الرئيس القوتلي ، وكانت المعروف أنه يعطف عليه ويرعى صداقته ، ويؤثره على أكثر أصحابه ، ولكن القوتلي عصى على النصح اذ لم يكن يجول في فكره الا تجديد الرئاسة له ، بأي صورة من صور الاعتداء على القانون ، وبعد كلام من ينصحون له بما لا ينطبق على هواه كلام خياليين لا عمليين .

ولم يكف يتم للسيد القوتلي ما أراد من تجديد رئاسته حتى بدت الأنظار صعبة آراء من نصّحوها له وفساد رأيه فيما ارتآه ، فأخذ ، وفي ظنه أنه نجح في مسعاه ، يستوغل في استبداده ، ولا يورع غير مصلحته الخاصة وبدأت عيوب ادارته تتجلى عياناً وأغلاطه السياسية توالى ، ومنها اقدامه على الحرب في فلسطين ، وليس للجمهورية الاستعداد اللازم لحوض معركتها . وكان من نتائج عبثه الثورة عليه وعلى حكومته ، حمله على ترك الحكم على الرغم منه ، ولما تمض أشهر على رئاسته الثانية ، في حالة من الذل والاهانة لأمحمد . وكان الى آخر ساعة وهو في معتقله حريصاً على الاحتفاظ بالكرسي ، وما وقع كتاب استقالته الا بعد الاحاح الشديد عليه ، ومن ألحوا عليه بعض أصحابه . ولو قد اكتفى السيد القوتلي بقضاء مدته الأولى في الرئاسة على نحو ما قضى به نظام الجمهورية لذهب من ميدان السياسة بما كان في أيامه الأولى من خير وشر ، وبأضراره على انتخابه ثانية

بلت للناس عيوب ادارته ، واءوجاج سياسته (على مافصلنا ذلك في الجزء الثالث من المذكرات) أما الرئيس الثاني الذي خلفه في الحكم يوم الثورة الاولى فان الرئاسة أتت اليه تجرر أذيالها ، وما قبلها الا برجاء الساسة والنواب وأهل الرأي وكلهم مجمعون على أنه خير من توسد اليه الزعامة في هذا الزمن العصيب .

وفي كل ما جرى ظهرت حكمة المشرع الغربي في تحديد مدة رئاسة الجمهورية ، وتقييد من يتولاها بقيود حتى لا يظن أنه أصبح ذا سلطان قاهر ، لا يئمنه مانع من مخالفة ماتواطأت عليه الأمة . أين رئيس من رئيس وعقل من عقل . سبغانه أوضى الناس بعقولهم ولم يرضهم بأرزاقهم .

نجح الرئيس الأتامي فتولى رئاسة الجمهورية مرتين بمدوح السيرة موفق المساعي ولم ينبجج الرئيس القوتلي في رئاسته الاولى ولا في الثانية على مايجب . والسبب أن الرئيس الأتامي مارس الادارة والسياسة بالعمل منذ نال شهادة المدرسة الملكية الى أن تولى رئاسة الوزارة ثم رئاسة الجمهورية في المرة الاولى وما زال طول حياته متوفراً على زيادة معلوماته ، فزادت مع الزمن زيادة كبيرة ، وطبق النظريات على العمليات . أما الرئيس القوتلي فلم يعمل فكره منذ خرج من المدرسة في غير اثاره الثورات على ما فيها من المضار في أغلب الحالات ، ولم يدخل في شيء اسمه ادارة أو سياسة من أعمال السلطان ، ولا تقلد عملاً يترن فيه ولم يعرف الاصول والانظمة ، ولم يدرس أخلاق الرعية وما يصلحها ، وكانت أول وظيفة تولها وزارة المالية ، لم يصرف فيها أكثر من بضعة أشهر ، ومنها انتقل الى رئاسة الجمهورية . والادارة والسياسة تمرن وتوجيه ودؤوب ، ومن الصعب على من اعتاد التخريب بسياسة سلبية لا يحسن غيرها ، أن يضطلع بسياسة ايجابية لم يتعودها .

الرئيس القوتلي

ما جوزت أن أخط حرفاً قط في نقد من يعملون لأنفسهم بمزول عن المصالح العامة . الا اذا كان من سيرتهم عبرة يراد منها رفع مستوى الاخلاق . أما من كان لهم مدخل في العموميات يرفعون ويخفضون ، ويفنون ويفقرون ، ويسعدون ويشقون ، بكلمة تخرج من أفواههم ، فهو لا من حق كل وطني أن ينتقدهم لتناول ما تكسبه أيديهم بمجموع الامة . وأنا على هذا مع رئيس جمهورية سورية الثالث .

سألت صديقاً لي أن يذكر ملاحظاته على الجزء الثالث من المذكرات فقال لي : في المحاسن أم في غيرها ، فقلت له في غير المحاسن . قال : أليس ما كتبه عن الرئيس المنحى شديد اللهجة ؟ فقلت أما هو ضعيف الارادة قوي الحزبية ، أما بدد أموال الامة في غير فائدة ، واصطنع السفلة وأغناهم من مال الجمهورية ؟ أما حنت بيمينه وخان الدستور ؟ أما باشر انتخاب المجلس النيابي بالحزب والتزوير ، واشترى ضمائر بعض النواب حتى ينتخبوه ثانية ؟ قال : هذا صحيح ولكن ما كتبت فيه سيكون تاريخاً ولا يترجم الا بما وصفته به . فكان جوابي : ولماذا ما حسب هو هذا الحساب ؟ كان عليه يا صاحبي أن يدرك أن بيده تحيين تاريخه فشوهه بنفسه ، ولو أنصفها لعلم أن أقل ما ارتكب يكفي في الحكم عليه . استكتب السيد شكري القوتلي أيام رئاسته رسائل وقصائد في مدحه دفع ثمنها من بيت المال . فاخترع له بعض الافاقيين صورة لا تشبه في أقواله وأفعاله ، وألبسوه الحلة التي تمفر اليها نفسه . ومن أحب الوقوف على مبلغ حبه للمديح فليلق نظرة على الجرائد التي اصطنعها وعلى مبالغاتها الفاحشة في مدحه . وعند نفسه انه بذلك يخدع الامة ويتم له كل ما يريد . قلت لأحد أصحاب الرئيس وأصحابي : أنا أعرف ما بينكما من صداقة

وثرابة ، وأنكأ بمن جمعهم المحبة وألفت بينهم الحزبية ، فماذا حدث حتى تنافرت القلوب وانحلت تلك الرابطة التي جمعت بينكما حقبة من الدهر ؟ فأجاب : ياسيدي انه لا يرضيه الا من يصانعه ، ولا يحب أن يقاتحه انسان بما يكره ، وبما يكره أن تصدقه حال الموظفين . وأنا أربأ بنفسي عن أن أدهن له ، وأرى من الخيانة أن أكتمه ما يجب اطلاعه عليه من حالة الدائرة العظيمة التي وُكِّل اليها أمرها ، ومن طبع صاحبي أن يرى لزماً على كل انسان في الدولة أن يطأطأ رأسه أمامه ، ومن لم يفعل عده من المستهزئين به شأن المستبد المسلط .

يقولون انه كان طاهر اليد ، وأنه لم يظهر في صندوقه يوم فُتَش بعد سقوطه الا أربعون ليرة ذهب فقط . وسواء صح هذا أو لم يصح فالرئيس استحل على ما يظهر أخذ هدايا بعض التجار والنواب والوزراء وهذا الصنف من الناس لا يديه شيئاً لو لم يكن في الرئاسة . وقال بعض المدافعين عنه في معنى قبول هذه الهدايا ، إنه كان يطلب مالاً من التجار وغيرهم لينفقه في مسائل وطنية مستعجلة تعجز موازنته الخاصة عن الوفاء بها . وكان يجوز لنفسه اتيان كل ماحظرة القانون والعقل لاعتقاده أنه فوق القانون لايحه الا رضا جماعته ، ومن يعتقد أنه بتألفه لهم فائدة لشخصه ، فيجود عليهم بما يشتهون ويصانعونهم الى أقصى ما تقتضيه سياسة المصانعة ، ولا يهجم الا بقاؤه مدة حياته رئيساً للجمهورية بالاسم ، وملكاً مستبداً غير متوج بالفعل .

ولا نجب هنا أن نورد له عشرات من المسائل خالف فيها القوانين وتعدى اختصاصه ، وليس أغرب من غصه الطرف عن المختلسين ، وفي أيامه شاعت الاختلاسات شيوعاً كبيراً ، وكان المختلس يهتدي الى من يعطف عليه فيبرأ ويعاد الى عمله ، وكان بعض المفتشين اذا طالبوا باحالة السراق الى القضاء يعدون من أعداء « الوضع الحاضر » ، ومعنى الوضع الحاضر الرضا بالحكومة الحالية على عجزها وتبجحها ، وعلى رأسهم من يرتضيه الرئيس . مثال صغير من عقليته في الحكم وتساهله بأموال الجمهورية . اختلس مدير المؤسسة التعاونية نحو ثلاثة وعشرين ألف ليرة وثبتت مرقته

بمعرفة مفئش نزيه فلم يرض الرئيس بمعاقبته على سرقة وقال : انه ليس في حكومته عشرة شبان من عياره ، وأمر أن يتركوه له ليولييه منصباً في السلك السياسي أي أنه أزمع أن يرسل الى الخارج لاصاً يمثل سورية . ومنها أنه وهب أحد الرعاع فضلات الطرق في بعض أطراف العاصمة ومعها أحجار أثرية عظيمة ، فكان من مجموعها مزرعة حنة بلغت مساحتها نحو خمسين فداناً . وكان هذا يتولى اعطاء أهل حيه حصتهم من السكر والأرز . وقد يأخذها لنفسه في بعض الشهور ويقبض ثمنها لجيبه ، ويحرم ألوفاً من الخلق مادة مهمة في طعامهم . والرئيس يعرف ذلك فيما قبل ويسكت عنه . وله من هذا القبيل أشياء ما كانت تجري لولا تناهيه في الحلم ، ومنها أن أحد موظفيه استهدى باسمه أشياء ثمينة من بعض الاعيان وعرف الرئيس بالأمر بعد مدة وسكت عن المحتال ، ولم يؤاخذ به على فعلته القبيحة ، ورقاه وأحسن اليه .

كان الرئيس مغرمًا بالدخول في كل أمر من أمور الحكومة والرعية حتى ولو كان مما لا يدخل في خصائصه ، ولا يليق أن يتدرب به . وكان بعض معتمديه يتلاعبون ما طاب لهم التلاعب ، ويشاركون في أمور لم تجر عن رأي سيدهم ، أو كانت في نظرهم من المسائل التي لا ينكرها اذا اطلع عليها ، بما فطر عليه من سعة الصدر مع بطانته . حدث أن أرسل أحد صنائعه الى اوربا في مهمة سياسية ، فسروقت منه مومس مفتاح المفازة بالارقام وغير ذلك من الأسرار فعفا عنه وأعادته الى الخدمة بعد هذه الحياة الخزية .

وبما خالف به الروح الدستوري جهاراً طلبه اعتماد أربعة ملايين ليرة سورية فقررها النواب وهم لا يعرفون وجه صرفها ثم تبين أنه كات ينوي السفر الى العراق ولما لم يذهب بقي المبلغ معلقاً في الفضاء ولم يعرف أين صرف بعد ذلك .

وكانت توصيات الرئيس الى الوزارات والدواوين لاتنقطع ، وقلت أن يكون للمحق نصيب من عنايته كما كان للمبطل ، ذلك أن صاحب

الحق موقن على الاغلب أنه يصل الى حقه بمراجعة الطرق القانونية .
وكلمة واحدة يرسلها أحد مستخدمي قصر الرئاسة في الهاتف أو في بطاقة
تقدم وتؤخر في مستقبل شخص ، أو تقضى على حق ظاهر وتقر غيباً
وتستر عسفاً ، والسابق الى الشكوى هو الفائز أبداً . والويل لمن لا يرق
له قلب الرئيس أو أحد حاشيته أو بعض أفراد أسرته وأتباعه .

أراد الرئيس مرة أن يدخل فتاة جميلة من بنات الأعيان الى القصر
الجمهوري يعهد اليها أمر التشريفات مع الامجانب ، بحجة أنها تحسن لغة
أجنبية ، على أن تتناول راتبها من وزارة المعارف . ولما كان القانون
يمنع من انتداب السيدة على هذا الشكل غضب الرئيس على مدير المعارف
وما وقاه الله شر غضبه الا سقوط الرئيس . وأتاني مرة كتاب من
أحد المستخدمين في القصر الجمهوري يقترح انتخاب أحد المتشردين من
لبنان عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي ، قائلاً انا اذا انتخبناه عضواً
يكون رئيس المجمع اللبناني العتيد - والمجمع اللبناني لم يؤسس ولم يجتمع
الى اليوم - وكان الرئيس يكتفي لو أنصف بما يعرض عليه من جواب
أن يعرف أن صاحب الادارة أعرف بما يصلح ادارته وما لا يصلحها ،
ولو كان في ديوانه من يعرف قانون المجمع في اختيار الاعضاء ما كتب
على لسان سيده هذه الوصاة المحجلة .

قلنا ان الرئيس كان يعطف على أناس يرى في اصطناعهم قوة له ،
ومن الأسف انهم خذلوه يوم عزله ، وتناسوا أياديه عليهم ، وراحوا
يعرضون خدمتهم على خلفه متخاضعين منذلين ، واطالما اتحدع هو بظواهرهم
وجاز عليه هذيان من كانوا يختلفون الى مجلسه ويفرونه بعسلطاتهم ،
ومنها أن الامة كلها لا تتخذ عنه بديلاً . فنام مغتبطاً بأكاذيب الكذابين .
وما كان يرضيه من عماله الا من ينافقه على النحو الذي يبتغيه ، ومن
يجرؤ عليه فيصدق له الحقيقة ينبذه ويقصيه ، لذا كان من سياسة جماعته أن
يدهنوا له الى أقصى ما يسعهم من ضروب الدعان ، وأن يكتموا الحق عنه
لا من نفسه لا تحتل وقعه فيها . واذا فاتحوه بما لا تهوى نفسه نصب لهم

عداوة تنمو أبداً ولا تنقص . ومن البلية أنه كان محاطاً بموظفين يخلصون فقط في قبض الرواتب وما وراءها من هدايا وعطايا ، ولذلك يتفانون في الابقاء على حسن العلائق معه ، ليبقوا في مناصبهم أكبر مدة ، ومنهم السيد محسن البرازي من وزرائه . سمعته في حفلة أقيمت في مدرج الجامعة السورية برئاسة الرئيس يخطف فيستدعه مدحاً لم يبق بينه وبين الالوهية الا خطوة واحدة ، حتى خجل الحضور من سماع هذا النفاق البايخ ، وكاد بعضهم يصفر استهجاناً وما خجل الوزير من قوله لاث الرئيس لا يرضيه منه غير هذا . والله أعلم بما كان يقول له في الحلوة حتى يستديم عطفه . ويقال انه خانه بعد أن متعه بثقته زمناً وأعطاه من مال الدولة كثيراً ، وكان يفرضه على كل وزارة تؤلف وينتدبه في المهيات ، ويرى فيه له الاخلاص الكامل . وقيل ان الرئيس كان يقترح كلما تألفت وزارة أن يدخل فيها السيد أحمد الرفاعي ، لكثرة ما كان يقدم له من الهدايا على ماشاع وذاع ، مع أن هذا الرفاعي ليس بمن اخترع البارود ، ولا عنده من المؤهلات لمنصبه ما يمكنه من حسن القيام به .

كان عقلاء الأمة والرئيس في منصبه يصونونه عن النقد بعض الشيء مخافة أن يؤدي ذلك الى التشهير به ، والرئيس رمز الأمة . وكان الى ذلك في مقام يسهل عليه الانتقام ممن يغضب عليه ، أما وقد ذهبت الحشية من بطشه ، فالعقل يقضي أن يصارح بما أتى ، ويذكر شذوفه في الحكم من دون تزيد ولا غلو . وليس بدعاً أن يسأل الآن عما اقترف فقد جرت العادة أن يحاسب صاحب المهمة عند انتهاء مهمته ، ومهمة الرجل تمت يوم اعتقل في قلعة المزة .

فكرت ملياً في عمل السيد تاج الدين الحسيني وهو انتدائي عريق في انتدابيته ، وعمل السيد شكري القوتلي وهو وطني ، وقد طال عهد كليهما في الحكم ، فرأيت حكومة الاول على ضعف مواردها قامت بكثير من الاصلاحات النافعة ، فقد شادت مدارس وجوامع ودور كتب

ومستوصفات ومستشفيات ومتاحف وقصور حكومة في العاصمة والأقاليم وجسوراً ومعاير وغافر وفنادق وشوارع ، وعبدت ألوف الكيلومترات من الطرق العامة . وحكومة الثاني اقتصر عملها على إنشاء بعض مدارس تجهيزية في الشمال ، بنيت بإلحاح نواب تلك الأصقاع وكانت تصميات بعضها موزوعة قبل تأليف حكومة الكتلة . وأنشأ بعض المستشفيات أيضاً بعوامل تشبه هذه العوامل وإلحاح المحافظات ونوابها . أما الهائف الآلى الذي أنشأه في العاصمة وحرف فيه نحو ثلاثين مليون ليرة سورية ، ارضاء لرجل له سلطان نافذ على الانتخابات في الشمال ، ليكون منه رزق داراً لشقيقه ، فقد كان غيره من المشاريع أحق بالتقديم بإجماع العقلاء ، ومشروع الهائف كان يمكن إرجاؤه بضع سنين ليصرف هذا المال الكبير في إحياء مليون دونم من أرض الجزيرة يعيش بها عشرات الألوف من الخلق . ويقول بعض المعتدلين في حكمهم على ماتم في حكومة الحسني وحكومة القوتلي ان ماجرى في حكومة الأول كان بمعرفة رجال الدولة المنتدبة وتوجيههم ، فلما جاء الوطنيون وتركوا لأنفسهم ، عسر عليهم أن يسيروا بسيرة الحكومة الناجية . وعندنا أن هذا دليل آخر على عجز حكومة القوتلي ، ولا يقوم من هذا القول اعتذار عن تقصيره .

أعود فأكرر ماقلته في هذه المذاكرات اني لا أخترع لمن أعرض لذكرهم مزايًا ليست لهم ، ولا اسلبهم ماخصوا به من المزايا (١) . واني

(١) كتب اليّ صديقي الأمير مصطفى الشهابي في معرض الاعتذار عن الرئيس القوتلي فيما اتاه في رثائته يقول : ان الاعمال العمرانية التي تمت ايام رثائته ليست قليلة « وذكر عددًا منها » وأما غلطاته في الحكم فقد بالغ خصومه فيها ولعل مرءً مظلمها الى كون رجال السياسة عندنا قد قضاوا خطراً كبيراً من حياتهم يكافحون الانتداب ، فليس يعجب أن تبدو مقاتل بعضهم في الحكم ، والحكم بمدّ يحتاج الى مران طويل ورجل الكفاح لا يستطيع أن يتسلخ رجل دولة بين عشية وضحاها . ثم من المعروف ان بعض الذين احسن فحامة الرئيس القوتلي اليهم ، وخصهم بالنائب الرئيمة كانوا مصدرًا مهمًا لمناخية في الحكومة بسبب حرصهم على الوزارات والمناصب السائرة . قال ومن المعلوم أن الاستقلال التام اقضى استلام الجيش الوطني ، وتأسيس التمثيل الخارجي ، ودوائر المكوس ، ودوائر الأمن العام ، ومراقبة الشركات والمدارس الأجنبية ، وكلها أمور صعبة في بلاد حديثة العهد بالاستقلال وبثؤون الحكم . ولهذا يقتفر لرجال الدولة عندنا مالا يقتفر لاشباههم في البلاد العربية في استقلالها هـ .

أعتمد الى تصوير الحوادث والاشخاص بحسب ماتعطيني الأدوات التي لدي*
والمعلومات التي حصلت عليها . وقد يعثر القلم وسلامة القصد شافعة لما
يقع من الخطأ . واني الى ذلك أتحدى من يتهمني بالتعامل على هذا الرئيس
أن ينقض كلامي بمحادثة واحدة اختلقتها ، او خالفت شروط الأمانة في
الحكم عليه ، او بالغت في النقل والرواية . ولا أقصد شهد الله الاتوفية
واجب المؤرخ وأن أصون قومي بعد الآن عن الوقوع في حبال المتلاعبين
حتى يروعى كل من يتولى شيئاً من أمر الامة ويعرف أن ميزان التاريخ
دقيق بحاسب على الخير والشر .

الثورة الثالثة

لا ينطبق اسم الثورة على هذه الحركة العسكرية لانها كانت عبارة
عن تجريد فصائل من الجيش قطعت بعض الطرق في دمشق مصحوبة
بالدبابات بقيادة العقيد أديب الشيشكلي وذلك يوم ١٨ كانون الاول ١٩٤٩
ونشر بلاغاً على الشعب السوري جاء فيه أنه ثبت لدى الجيش ان
رئيس الاركان العامة اللواء سامي الحناوي (وهو صاحب الثورة الثانية
التي قضى فيها على المشير حسني الزعيم والبرازي رئيس حكومته) كان
وبعض ، تنهني السياسة يتآمرون على سلامة الجيش وكيان البلاد ونظام
الجمهورية مع بعض الجهات الاجنبية ، وان ضباط الجيش كانوا يعلمون
هذا الامر من بدايته ، وحاولوا بشتى الطرق بالاقناع تارة والتهديد الضمني
تارة اخرى أن يحولوا دون قيام المؤامرة وأن يقنعوا المتآمرين بالرجوع
عن غيهم فلم يفلحوا فاضطر رجال الجيش حرصاً على سلامته وسلامة
البلاد وللمحافظة على النظام الجمهوري أن يقبضوا على المتآمرين وعلى رأسهم
اللواء سامي الحناوي وبعض الضباط . وبعد اعتقالهم بضعة أشهر اطلق
سراحهم فخرجوا من أرض الجمهورية واعتصموا ببلبنان ثم اغتيل اللواء
سامي الحناوي في مدينة بيروت بيد ابن عم محسن البرازي الذي كان
قتله مع رئيس الجمهورية حسني الزعيم .

هكومة شرقى الاردن

وفت برىطانىا العظمى للملك عبد الله بن الحسين ملك شرقى الاردن فعاونته على ضم قسم من الجزء العربى من فلسطين الى مملكته بعد أن استولى الصهوبونىون على ما أهمهم الاستيلاء عليه من أرض فلسطين لقيام دولة اسرائيل . وقد ساء جامعة الدول العربية أمر هذا الضم واحتجت على الملك الهاشمى فلم يعبأ باعتراضها . ولو لم يضم هذا الاقليم الى مملكته لضمته اسرائيل اليها ، ومن المتعذر انشاء مملكة على حياها من جبال نابلس والخليل وما اليهما لضعف مواردها ، وقد عرف ان الحكومة البريطانية تعاون حكومة شرقى الاردن كل سنة بنحو أربعة ملايين جنيه لتنفق على جيش صغير وعلى حكومة نظامية .

ولقد نشرت بعض الصحف المصرية صوراً من المفاوضات التى دارت بين الملك عبد الله وحكومة اسرائيل خلال الحرب الفلسطينية الاخيرة وألقت عليه تبعة الكوارث التى أصابت فلسطين واستنكرت عمله فى الوقت الذى كانت مصر تحارب اسرائيل وتعتقل الصهوبونيين وتحجز أموالهم وتنفق الملايين من الجنيهات فى حربهم ويموت المصريون برصاص اليهود . قالت وبينما كانت مصر تعمل كل ما فى طاقتها لدفع العداء الصهوبونى عن فلسطين كان الملك الهاشمى يحرص على تحسين علاقته مع اسرائيل . أما الاقليم الذى ضم الى دولة شرقى الاردن فقد اخرج فى الانتخابات النيابية عشرين نائباً كما اخرج الاردن نفسه عشرين منهم . وما أظن سكان ضفى الاردن يصلون الى ثمانائة الف ساكن الآن .

حكم الانكليز

قال غروسه في كتابه ميزان التاريخ Grosset : Bilan de l'histoire
حكم الانكليز العالم في القرن التاسع عشر فكانت انكلترا كألمانيا أو
أكثر كتلة من الفحم الحجري والحديد مهيأة للثورة الصناعية . الانكليز
أمة بحرية واخوان الهولانديين والسكنديناويين بالدم ويفوقونهم في باب
الاستقلال وبما يتمتع به سكان جزائرهم من الخصائص .

تقدم الانكليز خلال القرن الثامن عشر فرنسا وهولاندة في الاستيلاء
على البحار ، ولم ينشئوا المستعمرات البريطانية على سطح الارض فقط
بل أقاموا من المستعمرات ما يوافق سكانها صحة الاوربيين ، وكانوا
يجهزونها بمثل ما جهزت به انكلترا من أسباب الرقي فيؤسسون انكلترا
جديده في كل مستعمرة . وتمتخ الارض الهولاندية في افريقية ما يتمتع
اوستراليا قانوناً يتمتع بحريتها - وهي من جملة أملاكها - ولما أخضعت
لسلطانها ما استعمره المستعمرون من الاوربيين قبلها كالفرنسيين في كندا
والهولانديين في الترنسفال . واستطاعت بما خضت به من سياسة حرة أن
ترد على المغلوبين استقلالهم الداخلي المطلق وتمتعهم بلسانهم وثقافتهم وادارتهم ،
وكانت سياستها رشيدة توازي في نبيلها نبيل الغرض الصادرة عنه . ومعنى
هذا انها تزور في نفوس أعداء الامس جرائم الاخلاص التي تتجلى في ساعة
الخطر . واذا تيسر التوسع في الملك على مثل هذه الصورة يسمح المغلوب
غالبه ، وتفتح له القلوب بعد فتح الأرض . وهنا فوارق عظيمة بين
الأساليب الألمانية والأساليب الانكليزية ، وقد ذهبت انكلترا بالفضل في
ذلك فتلطفت ومنحت الهند وهي ملكها الحكم الذاتي مراعية قواعده
كل المراعاة .

ما قام منذ عهد تراجان في رومية تسامح أكثر من هذا التسامح ، ولا شهدت حرمة جماع العناصر والأديان والثقافات أكثر من هذه الحرمة وما نتت عظمة قط بأكبر من هذه العظمة . وما كانت الامبراطورية البريطانية كقمرطاجنة ضيقة الرقعة ، بل كانت واسعة الأطراف بمسدة الآفاق على نحو ما اتسعت امبراطورية الرومان أيام الصالحين من امبراطرتها . وقامت انكلترا وهي مؤلفة من ٤٥٥ مليوناً بأول تجربة جربها البشر بأسرم للجمع بين دول متخالفة بأصول شعوبها ، فحاولت ان تجعل منهم وحدة حرة أو في طريق التحرير على أن تنقلب هذه الوحدة الى عصابة أمم بلا حدود ترسم لها ، عصابة ترعاها وتشرف عليها ، ثم يقودها خير القواد .

هذا رأي غروسه في استعمار الانكليز وقوله صادر عن حرية بمزوجة بالغرام بقول الحق شأن المؤرخين في العادة . وليته أدلى الينا برأيه في استعمار أمته دون أن يعرض بألمانيا خصيمة فرنسا . ولو فعل لكان رأيه صديداً من كل وجه ، وهذا الاستعمار الانكليزي على عظم شأنه ما خلا من عيوب يعرفها من عاش زمناً في مستعمرة انكليزية أو بلد يحتله الجيش الانكليزي . فقد نصب الانكليز مثلاً مستشاراً للمعارف في مصر اسمه دنلوب كان مثال التعصب الذميمة فأغضب المصريين لأنه ما أحب انتشار المعارف على الطريقة التي تنفعهم بل على المثال الذي رسمه له سادته الموحون اليه لبقية المصريون تحت سلطة دولته عبيداً خائعين . فحدث ما لم يدخل في تقدير البريطانيين ، وتعلم المصريون التعليم العالي بأموالهم وارشاد أرباب البصيرة منهم ، وأنشأوا الجامعة المصرية الاولى وطمعوا في أن يعلموا أولادهم تعليماً حراً وما استمعوا للنصح عميد الانكليز لورد كرومر يوم صرح في حفلة افتتاح الجامعة المصرية الاولى بأن التعليم الابتدائي أجدى على المصريين من التعليم العالي . والتعليم الابتدائي يصوغ من المصريين فلاحين متمدينين بعض الشيء ولا يعدهم للطالبية باستقلالهم وإنشاء حكومة راقية ، والتعليم العالي ينشأ افراد يحسنون المجاهرة بحقوق بلادهم وهذا ما حصل .

هذه الغلطة في سياسة التعليم في مصر على عهد الاحتلال الانكليزي وهي غلطة متعمدة لم تجيء عرضاً ، وهناك اغلاط تنتقد واي حل خلا بما ينتقد عليه مها بالغ صانعه باتقانه ، ولكن اذا أربى الجميل على القبيح فهناك الاستثمار المقبول في الجملة . والظاهر ان الانكليز وهم عمليون في ادارتهم وسياساتهم يكتفون من المستعمرات بالاحتفاظ بمصالح امبراطوريتهم العليا ولا يتدخلون في الكبير والصغير بأحوال المستعمرة .

عزة نفس

قلت ان الموظفين طبقة مهذبة ومنهم العف النفس ومنهم من لا يرى بأساً من املاء جيبه من ايدي من يراجعونه في قضاء مصالحهم . وليس لدي احصاء اعرف به السليم من السقيم ، لأن سليمهم أو ما عرف انه كذلك ، اعتاد السر على سقيمهم فيختلط في جمهورهم المرعي بالمثل . لكنني اقدر بالعقل ان ارباب الاستقامة قلائل يضيعون في غمار الفاسدين . ولقد لاحظت طبقاتهم في عهود مختلفة فما كان الا طرازاً واحداً في الاحتيال على الرعية يسلبونهم ما يقدرون على سلبه منهم بسيف الارهاب احياناً وبسيف الحياء تارة ، وتقل هذه الاخلاق وتكثر حتى فيمن يتعففون بحسب الظاهر عن الرشوة ، والعادة فيمن لا يرثي ان يقبل دعوة صاحب العلاقة ، ومن انواع الرشوة هدية الثياب والطرائف والحلي وتقديم القينات ، ورب رشوة حملت نفعا مادياً غير ظاهر كأن تهدي شركة صناعية رئيس جمهورية جانباً من اسهمها عادة له من المؤسسين ، وما كانت تجود عليه بنصف سهم لو كان بعيداً عن منصة الحكم .

اعتاد بعض الموظفين هذه العادات القبيحة فأصبحت فيهم غير مستكرة ولا مستكرهة ، وتكون على أشد حالاتها فيهم اذا كان في أهلهم من

عرف باضاعة الحقوق . هذا وقد أُلِفَ الآخذ والمعطي فعلته بالتكرار وعدم الانكار . وأحسن أصناف الموظفين من ورثوا من أهلهم أو من عملهم السابق ثروة قليلة تكفيهم للظهور بالمظهر الذي يجب أن يظهروا فيه من دون أن يسفوا الى أخذ البراطيل ، فهؤلاء في الغالب مثال محترم من المحسنين بين المنصوبين وخدمتهم خالصة على الأكثر .

قصة ثبات

كتب صديقي الاستاذ سليم النجار جملة في مجلة الورد اللبنانية ترجم فيها لصديقه وصديقي الشيخ يوسف الحازن رحمه الله فقال انه من أسرة لبنانية كبيرة لم يَألف رجالها العمل الجدي المتتابع كمعظم رجال الجبل في عهده . فقد عاش مثلهم كبيراً في مطالبه كبيراً في تفكيره ، يفكر في العمل فيثبت عليه بنشاط ثم لا يلبث أن ينصرف عنه بمثل السرعة التي أقدم عليه بها كائناً ما تكون النتيجة التي تعود عليه ، ولذلك لم تعد عليه جهوده الجمة بالفائدة التي كانت ينتظرها منها ، فتعددت الجهود وتشابهت النتائج اه .

وكان الاستاذ النجار في وصفه مكان الضعف من أخلاق صاحبه وصف نفسه في هذه الكلمة . فهو كالاستاذ الحازن صحافي قليل النظير في افتنانه . صرفت معها في مصر زمناً فكنت أُمِر بما يكتبان وينشران ولا أعم أن أراهما يسكتان فجأة وينصرفان الى وجهة أخرى . وقد آذرا عشرات من الصحف العربية والافرنجية وأصدرا جرائد ومجلات وما ثبتا في تحرير واحدة منها . ولطالما صارحتها بذلك لما كان بيننا من صداقة فكنا يناقشاني أحياناً وبسكتان تارة ، معترفين آسفين للأحوال التي قضت عليهما بالتقليل وقلة الثبات .

لو رزق صاحباي من الثبات ما رُزقه العالمان يعقوب صروف وفارس
نمر والاديبان سليمان البستاني وجرجي زيدان لجاء منهما في السياسة والأدب
أكثر مما جاء منهما . فالعمل المتقطع لا تأتي منه مجموعة نافعة ، والمرء
غالباً لا يشتر إلا ما تمنى به الفطرة عليه .

واذ كنت جد حريص على استفادة الجيل الحاضر والقادم بما خطته
أنامل الخازن والنجار وأمثالها من اخواني اللبنانيين تمنيت لو جمعوا أو جمع
لهم بعض ما أبدعته أفكارهم في رسائل وكتب حرصاً على تخليد آرائهم
فيكون ما يدون كتاب تفتنهم وسجل نبوغهم .

وكان هذا الرعيل في أهل الجيل الماضي غير قليل ومعظمهم من أصدقائي
أمثال شكيب أرسلان ، خليل مطران ، رشيد رضا ، داود بركات ،
اسماعيل حافظ ، حسن بيهم ، عبد الباسط فتح الله ، نجيب شاهين ،
خليل سعادة ، خليل زينية ، ابراهيم مصور ، أنطون جبيل ، أمين تقي الدين ،
عمر الفاخوري الخ . ومنهم من هاجر الى مصر وظهر فيها نبوغه بفضل
الحرية التي تمتعت بها منذ كان الاحتلال الانكليزي فيها .

السينما

بما أعان على انتشار الغرام بالسينما أن أكثر الناس مولعون بسماع
الغرائب والاكاذيب . وكان من الولوع بالقصص والروايات أعظم عون
في هذه السبيل . واذا كانت سدى القصة ولحمتها الاختلاق وهي الملهة
الوحيدة في الاكثر جاءت السينما تشاطرها هذا اللهو وهذا العبث .

والسينما تفوق التمثيل بأشياء ، وتجمع بين الطيب والحديث . ومن
طبيها استعمالها في المدارس والثكنات لالقاء الدروس وتربية الملكات
تشرح غوامض العلوم وتقرب منها للمستفيدين .

يقول العارفون في وصف هوليوود مدينة السينما في الولايات المتحدة (وهذه أعظم الممالك اصداراً للأفلام في العالم) ان مدينة هوليوود تضع سلاسل من الظرف والشهوات والمزلة والسرور واللصوية والقتل والفضائل البشرية عامة وتمثلها على الشاشة البيضاء . وكل ما ينبعث من هوليوود يقتبسه الرجال والنساء والاطفال والبنات ، ويشهده في العالم ٢٥٠ مليوناً من الخلق كل اسبوع . والسينما من أعظم الصناعات الحديثة يقال انه بلغ ما يستثمر فيها من الاموال في العالم نحو خمسمائة مليون جنيه .

اصدح الصحف

ورد في الدستور السوري الجديد (سنة ١٩٥٠) أن القانون ينظم أسلوب مراقبة موارد الصحف ولا يجوز تقديم معونه مادية لها من خزانة الدولة أو الادارات العامة أو البلديات مهما كان شكلها . وقد بدأت هذه المادة في النص الاخير من الدستور الذي نشر على الامة . وما وضع أعضاء المجلس التأسيسي هذه المادة الا بعد أن نظروا النظر البليغ في أمر الصحف وثبت لهم ما جر التساهل مع بعضها في الماضي من اضاءة حقوق وتضليل عقول . وكان للشركات وما بذلته صناديق استخبارات الدول من معاونات وما تعطيه الحكومات القائمة من المشاهرات مدخل كبير للعبث بالامانة على حساب الرعية . وأنت أيام ، على عهد الترك والفرنسيس والعرب ، عز فيها الصدق في الصحف . ولو قدر الله وطبق القانون الجديد على الصحافة لبطل في الجملة نمويه الحقائق ولجرت الامور في نصابها ، وانقل الكذب والتغريب ، ولكانت تظهر حسنات هذا القانون كلما تشددت الحكومات في انفاذه . وبقطع التخصصات عن الصحف لا يثبت منها الا السليم ذو الموارد القانونية ، ولا يتلو القاريء فيما بعد

ذلك الا ما صح من الأخبار والأفكار . وبذلك تسلم الصحافة ويفتن أربابها في اتقانها فتعوز رضا الجمهور ورضا الحق ويزيد انتشارها وتتوفر اعلاقتها ، وتخلو من الغش الا ما لا سبيل الى توقيه .

نعم كانت بعض الصحف فيما مضى تصدع بأمر من يعاونها وتنزل على ارادته تذيع عنه ما يشاء وتكتم عن الناس ما يشاء . ولولا المراقبة وخوف الصحف من الاغلاق ومن الحكم على مديريها ومحريها لرأى الناس عجباً من تلاعب يحمل خراب أمة ، مثال ذلك أن بعض الصحف كانت تعرف من أخلاق أحد الرساء ما يعرفه كل وطني فلم تكتب فيه يوم سقوطه كلمة واحدة تخدم بها التاريخ والحق لأنه كان أشعبها بل أنحما من مال الامة فرأت من باب الاعتراف بالجليل أن تكافئه على بيض أياديه عليها بالسكوت عن سوء ادارته ، وبعض الصحف تأمل رجوعه الى منصبه واستعادة حظوته فيسلفونه مدحهم وثناءهم ، ويوهمون القراء ان الرجل يعود الى الحكم لا بحالة بيروقيات يضعونها تنشر بتواقيع ما عرف أحد بمن وشعت بأسمائهم المجهولة .

قال لي صاحب أديب : أعترف لك وللحقيقة والتاريخ أني لما اشتدت الأزيمة بين وزارة المعارف في عهدك وبين رئيس الجامعة السورية استدعاني هذا وأنا تلميذ في الحقوق وطلب مني أن أخطب فيك لأنك تنوي اغلاق الجامعة ودفع اليّ مكافأة على مهنتي خمسمائة ليرة فتلقفتها مسروراً لأنني كنت محتاجاً الى مال ، وكان والدي يقتر علي في النفقة حتى لا أسرف على نفسي . وذكر لي أسماء بعض من أعطاهم الرئيس من تلاميذ الحقوق وغيرهم لهذا الغرض . أما الصحف التي أكرمها حتى سكنت عما ظهر من تفتيش الجامعة من السرقات وسوء الاستعمال فانها بفضل ما قبضت التزمت السكوت المطلق وأنغضت الطرف عما كانت الوزارة ترمي اليه من اصلاح الجامعة لا اغلاقها كما أشاع رئيسها وأنصاره .

مؤامرة دنيئة

نشرت جريدة المساء الدمشقية مايلي :

اكتشفت في حلب مؤامرة خطيرة حاكها موظفو شركة « الآي . بي . سي » البتروولية الانكليزية بايعاز من رؤسائهم ، وكانت غاية هؤلاء اثارة الفتنة الطائفية في حلب ، الا أن مؤامرتهم هذه احبطت بفضل العقلاء من المسلمين والأرمن معاً ، وتناخض هذه المؤامرة فيمايلي : استيقظ سكان حي الميدان وهو من أحياء حلب النائية التي يشكل الأرمن أغلبية سكانه ، استيقظ السكان في صبيحة أحد الأيام ليشاهدوا باب مسجد الحلي قد لوث بالأقذار . وانتشر هذا الخبر في كافة أحياء المدينة انتشار البرق وما لبث الاستياء الشديد أن شمل المدينة بأجمعها وأخذ الغليان ينتشر بين صفوف الناس لاهانة مسجد اسلامي على هذا الشكل الاجرامي . وكاد الحادث يتمخض عن أشياء لا تحمد عقباها لولا أن سارع العقلاء من المسلمين والأرمن الى عقد اجتماع فيما بينهم للبحث في أمر هذه الجريمة ، وخلال هذا الاجتماع أعلن زعماء حي الميدان من أرمن ومسيحيين لاخوانهم المسلمين أنهم على تمام الثقة واليقين بأن أحداً من رجال الطائفتين لا يمكن أن يقدم على مثل هذا العمل القبيح المنكر وتم الاتفاق بين المجتمعين على مراقبة مسجد الحلي مراقبة دقيقة وكذلك مراقبة الاشخاص الغرباء الذين يدخلون هذا الحي ، وبالفعل فقد رتب أمر المراقبة من قبل مندوبين عن العناصر الثلاثة بشكل محكم .

وبعد يومين من وقوع هذا الحادث شاهد المراقبون سيارة جيب تدخل الحي في الظلام وتقف أمام باب المسجد ليتوجّل منها اثنان من ركبها ويقوما باعادة العمل المنكر « تلويث باب المسجد » وخلال قيامهما بهذا العمل وجدا نفسيهما قد طوقا مع سيارة الجيب من قبل عدد من سكان الحي ، وهكذا تم القبض على المجرمين متلبسين بالجريمة . وبعد التحقيق الدقيق تبين أن هؤلاء الشباب يعملون كموظفين في شركة « الآي بي سي » الانكليزية في حلب ، وأنهم قاموا بهذا العمل مرتين بناء على توجيه رؤسائهم .

خلل في الإدارة

كثيراً ما يعهد الى بعض العمال ، أو هم يعهدون لانفسهم ، بتولي بضع وظائف ينقاضون عليها ما ينص عليه القانون من اجر اذا أديرت بالوكالة . وقد يزيد مجموع رواتب العامل من هذا الصنف على ضعفي راتب الوزير .

ان جمع رواتب كثيرة في يد واحدة لا يضر أكثر من ضم عدة أعمال لعامل واحد . ذلك أن الرجل مهما بلغ من الذكاء والمقدرة في صناعته لا يجود الا عملاً واحداً ، ومن المستبعد أن يحسن الفرد عدة أمور فيترتب على هذا ضعف في معاناة ما وكل اليه من خدمة ولو كانت لا يصرف في العمل الاضافي الا ساعات قليلة . فالضرر يشمل الوظيفة اذاً ، وكان الاولى أن يتولاها من استعد لها ويتناول راتب الوظيفة كاملاً . ان الحكومة التي تتساهل في مثل هذا الشأن لترضي من ترضيهم ، أو ترجو تحقيق أغراض لها ، قد يقضيها الوكيل على ما تشاء ، ولا يقضيها الاصيل ، هي حكومة تشهد على نفسها بالضعف . وبما يزيد في تفاقم هذا الخلل كون معظم حكوماتنا الدستورية لا يدوم حكمها مدة طويلة . فاذا كان الوزير على شيء من الحزم يبت في مثل هذه المسائل حالاً ويخلص دواوينه من التقلقل ، واذا كان يعتقد أنه يعمل لاجل مسمى ، لايحه الا ارضاء حزبه ، ولا يجب أن يتأذى بعمله أحد ، ولا يعتمد اصلاح ما يجب له ضجة . واذا قيل ان الوزارة لم تجد الكفوء لهذه المناصب فرأت من الصواب أن توكل بها شخصاً نعتقد أنه يديرها ، فليس هذا من حسن الادارة في شيء . وكل حكومة صحت عزيمتها على توظيف الاليتي للعمل لا تعدم حيلة للظفر به . واذا كانت على ريبة من اقتداره فما أحرأها أن تعينه بالوكالة حتى تثبت لها كفايته .

تقوم مصلحة الدولة بتوزيع خدماتها على أرباب الكفايات وتكثير سواد الاختصاصيين في دوائرها . وهي اذا رزقت مئة عامل ترجو منهم تجويد عملهم ، أفضل من أن تغني ثمانين عاملاً ، ذكاؤهم محدود ، ومعرفتهم قليلة ، وشغلهم بادي الحلال .

وكما لا يتوقع غير الضعف في أمور الحكومة اذا أدارت بعض فروعها بالوكالة ، وجمعت بضع وكالات في يد شخص واحد ، يشاهد الحلال أيضاً في تنقل العمال بين مختلف الوزارات . ومن ربي في الهندسة لا تصوغ منه ادارياً ، ومن كان في الجندية لا يندشأ أستاذاً في المعارف . وندر نجاح من ينتقل في فروع كثيرة من الوزارات ، كما ندر نجاح من يغير عدة حرف وصناعات ، يقفز من واحدة الى أخرى ، والنجاح متوقف أبداً على الثبات والمران وحصر الوكد في عمل واحد .

المرعايات الحديثة

سلطان الدعاية في أيامنا فوق كل سلطان . بها تستطيع الدول أن تغلب الباطل حقاً والحق باطلاً ، فهي تقوم على الأكثر بالاختلاق المغيّب ، اذا كان فيه تعظيم أمتها ، وقد تنسب لرجالها من المجد ما ليست لهم فيه الا مشاركة خفيفة . واذا قرأت في بعض كتبهم مثلاً أسماء المخترعين صوروا لك دولتهم على رأس الدول كلها في باب الاختراعات ، وأوهموا أنه ماتم اختراع على يد مخترع من أبناء أمة أخرى الا كانت رجالهم سابقين الى التفكير فيه قبل أن يخترعه مخترعه . هكذا الانكليز والامريكان وهكذا الفرنسيين والالمان وهكذا الروس والطيّان .

والتاريخ أكثر ما يحدث فيه التخليط فان كل أمة تكتب التاريخ بما تقتضيه سياستها ومصلة وطنها . نجسم الصغير اذا كان لأمتها حظ منه ، وتصرّ الكبير اذا جرى على يد دولة أخرى . وقد لانعرض للخطيئات

التي ارتكبها قادتها الا بشيء من التلميح أو التلميح . فاسبانيا مثلاً لا يذكر مؤرخوها ما أنته دولتهم من السيئات في استعمارها أميركا الجنوبية وغيرها من الجزائر كما وقع ، ولا ما اجتاحت من الفظائع في اجلاء العرب عن الأندلس ، ولانشير انكثروا الى هول المجزرة التي توات كبرها في الهند يوم ثورتها في نحو منتصف القرن التاسع عشر . وفرنسا تغض الطرف عما ارتكبت ولا تقفأ ترتكب من الفظائع في الأفطار الاسلامية والشرقية . وروسيا تناسى ماعاملت به شعوب قافقاسيا وتركستان من الاستبداد المريع .

انغمست معظم الأمم في غمرة هذا ، لافرق بين الشعوب الكبيرة والشعوب الصغيرة في استعمال الكذب على التاريخ ، يزعمون أنهم يحاولون بذلك تربية الوطنية في أبنائهم ، ولا يهمهم ان كانت يحدث من ذلك عداوة بين الشعوب . ولكثرة تكرار الباطل بدعائياتهم ظنت كل أمة أن الحق ما هي فيه وما عداها باطل . ولو قد سألت بعض النبهاء عن أمر أبرته حكومتهم وهو ينافي العدل والعقل لوافقوا على نقدك ولأشاروا اليك أنهم لا يسعهم إلا أن يصدقوا رجالهم .

فالحقائق على الجملة أصبحت في العصور الحديثة في بلاء لا يعدله بلاء ، ومن أنحس البلايا عبث من وكل اليهم أمر الدعاية والنشر ، وهم يتعاملون الكذب تعالماً حتى كدنا نظن أن الكذب أكثر مانسمع ونرى .

وضعت العرب قواعد لكشف الكذب بوضعها علم الجرح والتعديل وكانت لهم طرق غريبة في الوصول الى الحقائق ، وغدا للكذب في هذا العصر وسائط شيطانية تؤثر في البعيد والقريب ، ومنها الصحافة والمذيع ، فانها زادا في مادة الكذب وسهل بها سرياته في الأفكار فاستشرى بذلك فساد العالم . وكانت الكذبة الواحدة في الزمن السالف تحتاج الى وقت حتى تنتشر في الآلاف والألفين من الناس ، واليوم تنتشر في ساعات قليلة من طريق الصحافة والمذيع في ملايين من الخلق في الغرب والشرق . ذكرني بكل هذا ما طالعت في صحيفة غربية مؤخراً من غلو الصحافة

ومحطات الاذاعات في روسيا بما كان لهذه الدولة من أثر عظيم في باب
المخترعات والمكتشفات ، حتى بلغت المدنية الحديثة هذا الحد ، ولا أحسن
في رد هذه الدوى بما قاله القصصي الروسي توركانيف سنة ١٨٦٦ في
احدى قصصه قال : زرت قصر البلور في لندن فرأيت فيه غاذج من
جميع الاختراعات حتى ليصح ان يقال انها دائرة معارف الانسانية ، فقلت
في سري لو كتب لأمة أن تنقرض من سطح الأرض ويفنى من هذا القصر
كل ما اخترعته هذه الأمة أما كانت أمنا روسيا الأرثوذكسية تفرق في
التثوية من دون أن تحمل مساهراً ، أو ترزع دبوساً من مكانه ،
فالسماور (آلة طبخ الشاي) وسياط الكنوت Knout وهي مانتجيه
ملاكتنا لسنا نحن مخترعيها أيضاً .

كتائب الفمراء العربى

هو اسم جمعية ارهايية أسست في دمشق ، ولو تبسر لهم تطبيق
خطتهم لحرب جانب عظيم من هذه العاصمة وهلك مئات من أهلها لكثرة
ما ادخرت في مستودعاتها من القذائف والمدمرات والسلاح الجديد ، ما
لا تجمع مثله الا الحكومات المنظمة ، وهو عمل تجرد من الانسانية وليس
من الوطنية في شيء . وثبت أن بعض الحكومات المجاورة كانت تغذي
هذه الجمعية بالمال لتستفيد من ذلك فوائد سياسية تتوقعها .

القسوة على العلماء

حدثني الاستاذ محمد علي الطاهر أنه أرسل من القاهرة الى السيد شكري القوتلي يوم كان رئيساً للجمهورية يخبره بما آل اليه حال الامير شكيب أرسلان أيام الحرب الاخيرة من الضيق وطلب اليه اسعافه فما أجابه الرئيس بشيء مع تكرار الطلب ثم توفي الامير وساءت حال زوجته في سويسرا حتى أن السلطات هناك حجزت أثاث دارها فأرسل الاستاذ الطاهر يخبر الرئيس القوتلي بما صارت اليه حالها ويرجوه أن يمدّها بالمال فما أجابه أيضاً . ان الرئيس القوتلي ضن على الامير شكيب الذي خدم العرب والاسلام ، خدمة لم يخدمها الا أفراد قلائل جداً في حين كان ينفق الاموال جزافاً على من كان بسبيهم « زعماء الأحياء » ، لاكتساب تأييدهم في الانتخابات ، ولو كان الامير شكيب نظم قصيدة أو كتب مقالة في مدح الرئيس لحفّ الى نجدته أيام عسرته ولكن الرئيس اعتاد ألا يعاون الا من يعاونونه في سياسته ، وبهذا العمل أثبت ما للعلماء من قيمة في نفسه .



(١) مصر والنهضة العلمية

عقدتم مؤتمركم الثامن في هذه المدينة ففتحت لكم أحياءها الثمانية أو جميع أثنائها ، ولجنة فيما زعموا ثمانية أبواب فكان اليمن حليف هذا العدد ، حقاً لقد اغتبطت عاصمة الشام الطبيعية الغنية بتاريخها أن رأّت مؤتمركم يتقيأ - ظلال غوطتها وأن تشهد هذه الشخصيات العلمية تأمّر في صعيدها لخدمة الانسانية والمدينة وتخفيف آلام اشراف مخلوق درج على هذه الارض والعناية بصحته لتطول حياته .

طب الابدان من اشراف علوم الانسان وصناعة الطبيب أشق الصناعات واشدها خطراً على صاحبها ، والاطباء أبدأ عرضة للعدوى بالامراض التي يعالجونها في هذه البنية البشرية أفليسوا هم الأمناء على الأرواح والأشباح أحرىاء بكل رعاية وكرامة .

سعدت جمهورية سورية الفتية أن شهدتمكم بإسادي تصرفون أياماً في أرضها تنصرفون الى أعمالكم العظيمة تقصدون فيها خدمة العلم عامة وأرض العرب خاصة ، واغتبط أبناء الجمهورية أن شاهدوكم تنزلون بلادهم على الرحب والسعة في سبيل أشرف المقاصد العلمية .

في الاسلام فتحت العرب الشام والعراق قبل فتح مصر . وغدت دمشق ثم بغداد عاصمتي العلم ، ولكن مصر مع بعدها عن دار الملك ما عنت أن أخذت بحظها من نعمة البحث والنظر تحت ذاك اللواء وأخذت تسير السير الطبيعي في خدمة العلوم والآداب حتى اذا دالت دول العرب ورثت مصر بطبيعة الحال ذاك التراث العظيم وكانت المأمونة عليه غذته وتعمده وحنت عليه حنو الممرضات على الفطيم .

وبعد انحلال دولة بني العباس لم يجد العلم المادي والديني ملجأ

يعتصم به غير مصر ، وبعد استيلاء المغول على الأرض العربية فزع العلم العربي الى حى مصر ، وظلت مصر في معظم أدوار تاريخ هذه الأمة مبعث العلم ومثابته . ولما كتب لها أن تنهض نهضتها الأخيرة كانت أول من هبت لتتلقف الحضارة الغربية من أهل الأفطار العربية ثم أخذت هذه تنسج على منوالها ، بيد أن مصر وهي السابقة في هذه الحلبة غدت كالأم الرؤوم توضع بنيتها وبني جيرانها راضية مرضية .

ابتدعت مصر لها في عهد الفراعنة مدنية رائعة كانت أجمل المدنات القديمة وعنها أخذت الأمم أصولها وفروعها وفي جملتها علم الطب ، وكان كهنة مصر أول من وضع أساسه على ما حقق ذلك شيخ أطباء مصر الدكتور علي باشا ابراهيم وأصبحت لمصر في الاسلام شخصية معروفة في العلم . وما شعت في زمن من الأزمان بأشراك الأفطار الأخرى فيما ثقفته وتلقفته . ولولا مصر ما بقي أثر يذكر في هذه الأفطار لشيء يقال له علم عربي وعلم عقلي . ذلك لأن الغفوة أيام الانحطاط كانت وباللأسف طويلة في عامة بلاد العرب أكثر بما كانت في وادي النيل المبارك . وكان أهل مصر خُصوا بالانتفاع من كل قوة تأنيهم من الداخل والخارج ، وطبعوا بطابع خاص في واحتمهم البديعة منعزلين عن الشعوب الأخرى وقريبين منهم ، يتناغون أبدأ بالحرس على حريتهم ، ولذلك كانت أيام مصر المعدودة في الاستقلال أطول عدداً وأجل أثراً من أيام غيرها . وإذا عددنا أفراداً طالبوا بحرياتهم في غير مصر ففي مصر من تفانوا في هذه الامنية ، شهدنا جماعات يتولى الخلف منهم ما بدأ به السلف ، وهكذا في مسائل العلم والمدنية .

يوم قامت مصر تؤسس مدرستها الطبية منذ زهاء قرن كانت الأفطار الأخرى قد نسبت معظم ما كان لها في سالف الزمن من مجد علمي وصناعي ، فتقدمت مصر غيرها جيلين وثلاثة من أجيال الناس حتى اهتدى العالم العربي الى الاقتباس من نورها والجري في الطريق التي نهجتها ، وفي مقدمة الامصار التي باكرت أخذ منهاج العلم والحضارة عن مصر هذه الدبار الشامية ، ولذلك ترى الشام أن كل اكرام يقل للمصريين

في ربوعها . واذا حاولت أن تقوم بواجب اكرامكم فهي تحاول أن تكرم في أشخاصكم مصر المحبوبة صاحبة النهضة العربية ، تكرم فيكم الذكاء الذي أحسن محمد علي الكبير استنثاره فأحيا دولة العرب بعد دنورها ولولا هذا الذكاء ما تم لمصلح مصر ما أراد . ولولا ذكاء المصري ما اجتمع هذا المؤتمر في هذا البلد الطيب ولا خطر ببال مصري أن يؤسس جمعية طبية ثم يعقد المؤتمرات ثم يشرك أطباء البلاد العربية بأعماله .

والواقع يا سيداتي وسادتي أن الأسرة العلوية لم تقتصر في كل زمن في اتخاذ أسباب النهوض بمصر لترفعها من طور ولاية مقطورة الى غيرها الى مستوى دولة عظمى مستقلة بأمورها . وقد ازدهرت النهضة المصرية في عهد وارث ذاك المجد المؤنث جلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر المعظم وهو الذي أسس الجامعة المصرية وأحيا الأزهر بتأسيس كليات التخصص فيه وعطف على كل مشروع علمي وجغرافي وصحي واقتصادي وصناعي ولم ترض نفسه الاية أن يكون هذا الخير وفقاً على مصر فقط ، بل تعلقت همته السامية أن يشارك المسلمون في هذه النعمة التي أصابته مصر فأمر أدام الله دولته بفتح أبواب مدارس بلاده العالية والثانوية لكل من يحب أن يتعلم من أبناء الشعوب الاسلامية . وهو عمل جليل لم يعهد له مثيل في غير الدول الاسلامية الكبرى في الدهر الغابر .

ورجاؤنا وأنتم اليوم على أوفاز أن تحملوا من شاطئ بردى الصغير الى اخواننا سكان النيل الكبير سلام أهل هذه الديار ، وأن تتفضلوا وتسبوا ذبول المعذرة اذا لحظتم قصوراً بواجبات الضيافة على ما تستوجبه مكانتكم ، فان قصرنا في الواجب فما قصرنا قلوبنا في أن نحقق لطلعتكم حباً واحتراماً . واذا كان لي ما أقوله باسم جمع اللغة العربية الملكي فليس الا شكركم على ما أوليتم موضوع المصطلحات الطبية من العناية في مؤتمركم فسهلتم بذلك على جمع مصر الغفوي عمله وأثبتتم بتضامنكم معه أن العلم سلسلة واحدة كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها وان العلماء في الارض أسرة واحدة رغم الحواجز والتخوم واللغات والاديان ورغم الاعتبارات السياسية والعنصرية ، وهذه قد تزول ولا يزول من الافئدة عطف العربي على العربي والمصري على الشامي ، والله يسدد خطاكم ويجعل التوفيق رائدكم وقائكم وينفع بكم أمتمك سادتي الاعزة .

نظرات

لو كان من حرموا التاريخ يتدبرون القرآن لأدركوا أن ما جاء فيه من أخبار الماضين هو التاريخ بعينه مقروناً الى فلسفته والتعليق عليه .

إذا درس العربي القرآن حق دراسته لا يحتاج الا الى قليل من كلام العرب ليعد في البلغاء الفصحاء .

من ادعوا أن القرآن يحمل في دفتيه جميع العلوم لا يدركون أنهم جعلوا منه بهذا الوصف مختصراً في دروس الأشياء ، وما القرأت الا كتاب حكمة خلقت أمة تصلح للعاش والمعاد وكفى بذلك اعظاءً لشأنه .

إذا لم يحفظ الفقيه القرآن من أين له أن يعرف الاسلام ، وبأي أداة يقضي ويفتي .

كتبت فصلاً في أصل الوهابية سنة ١٩٠٠ في مجلة المنقطف أثبت فيه أن الوهابية حنابلة ، ولما كان من عادة القوم أن يسبوا من يخالفهم في مذهبهم ، ويعبدون من لا يشتم كما يشتمون أنه من أهل المذهب الذي بحث فيه ، كان نصبي منهم التظليل والتكفير ، وهو من أيسر ما تلوكه ألسن الغيراء على الدين .

يزيد عدد من فقدتهم من العلماء والأدباء في نحو ستين سنة من الشاميين (ويدخل فيهم اللبنانيون والفلسطينيون) والمصريين والعراقيين على مثني رجل ، ويدخل فيهم اخواني من علماء الترك والمستعربون من علماء المشرقيات وأترابي في مجلس الشيخ محمد عبده وحلقة الشيخ طاهر الجزائري وغيرهم من عاصرتهم وعاشرتهم وأخذت من علمهم وأدبهم ،

واسترشدت بآراءهم ، وأعجبت بصفاء أذهانهم وجميل مذهبهم ، ناديت وقد تمتلئ لي أشباحهم : يارب كيف تطيب لي الحياة بعد رحيل ذاك الرعيل الجميل .

كان أحد الوزراء يصرف جانباً من وقته في سماع مراجعات أهل دينه من القسيسين والمطارنة ، وكان الظاهر من حركته أنه لا يهتم لغير مصالح أبناء طائفته ، هكذا علمته مدارس الافرنج التي تخرج بعملها ، ولكم كان أهله يحسنون اليه والى بلده لو ادخلوه في الرهبنة كما ترهب أخواته الثلاث ، وكان مخاطبه لا يتبين من وجهه الا أنه راهب في ثوب مدني ، خرف الدهر فأجلسه على كرسي الوزارة ، وهو لا يليق لأكثر من وكيل نيابة أو معاون لرئيس دير .

بذل أعداء بني العباس كل ما لهم من حيلة حتى يسقطوا كبار خلفائهم فوضعوا فيهم الحكايات ، ورموهم من الخازي بما هم منه أبرياء يقصدون من الغض منهم نقض بناء الدولة ، والخط من أبناء الدعوة ، وما كان بعض خلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون بمن تكثر لهم الامثال في الدول ، ولذلك وجب على محب التحقيق أن يحذف بعض ما حملته كتب المحاضرات من أخبار الخلفاء ، ويأخذ كل ما قاله أهل الأهواء في خلفاء الأمويين والعباسيين بتمحفظ واحتراز .

السُرُّ في ان الشرقي يبالغ بحضارة الغربي ، والغربي يغالي بانحطاط الشرقي ، كون كل فريق لا يعرف ما عند الفريق الآخر على حقيقته ، ولو استبطن الاول ما عند الثاني لأنصف كل منهما صاحبه في حكمه عليه .

قال احد حكماء الغرب لو لم يقف شارل مارتيل امام العرب في بوانيه لسبق الغرب الى التمدن ثمانية قرون . ونحن نقول لو لم يشغل معاوية بحرب علي لانتشر الاسلام في اوربا منذ القرن الاول من الهجرة .

كجعل اختراع الطباعة بالحروف انتشار الحضارة ، فهي أفيد اختراع
نشرت فوائده بين البشر .

كان من انحطاط جزيرة العرب حجة لمن يزعمون أن في تعاليم
الاسلام ما يحول دون نهوض اهله ، لقد أخطأوا فالامر على غير ماتوهموا .
السبب سياسي اجتماعي ، والدين بريء من هذه التهمة .

حاول المسيطرون على سياسة مصر بعد أن حلتوا جيشها القديم ان
يصدوها عن التقدم وينسوها الاستقلال ، فما رأوا افعل من جعل مدة
دراسة الضباط قليلة جداً ، يأخذونهم على الأغلب من الساقطين في
الشهادة الابتدائية ، فكان جماع ما يتعلم حماة مصر لبس بزة جديدة ،
وحمل عصي في ايديهم فقط .

لا ينجى المسلمين مما يُرمون به من الانحطاط الا ان يرجعوا في دراسة
دينهم الى اصوله على ما كان يُعلم في القرون الأولى ، وان يتعلموا
علوم الحضارة كما تعلم في جامعات الغرب لعمدنا .

ليس من الغلو أن يقال ان بعض المستعربين من علماء المشرقيات
عرفوا الاسلام وأكبروه أكثر مما عرفه بعض أدعياء العلم المشار اليهم
بالبنان بين أظهرنا . ذلك لأن معرفة الاسلام متوقفة على الدرس والبحث
والمستعربون يدرسون ويبحثون على الأصول أكثر مما يهتموا للعلم عندنا .

صعب على طبع الفرنسي الاعتراف بما أخذوه عن العرب من
أسباب غندهم كأنهم باعترافهم بالأمر الواقع يصغرون من شأن مدنيّتهم .
دعوى الوطنية لا تكسب بانكار الحقوق الثابتة .

يظهر أن الشرقي يعترف بفضل الغربي عليه بما فتح له من أبواب
التوسع في العلوم أكثر مما به توف الغربي بما أخذه أجداده من الشرق
وما انتفعوا به من علوم العرب وحضارتهم .

اضحك من رجل يحاول أن يسير الزمان على هواه ، ولا يسير هو بما يتطلب الزمان منه .

قد ينبغ في أمة رجل عظيم وهي غير مستعدة لقبول ما يدعوها اليه من أسباب النهوض فتعصي على اصلاحه ، وتحتقر حكمته . ومتى كان في أمة استعداد للنهوض يخلق الرجل الذي يضطلع بهذا الأمر ، وهذا من النواذر وقوعه .

أبشع ما أنت به النظم الغربية ما يدعى بالطريقة القرطاسية ، أي تطويل المعاملات ونقلها من ديوان الى آخر حتى يستوثق صاحب الشأن أن القضية المعروضة لم يدخلها زغل . بالطريقة القرطاسية لا تنحل مسألة في أقل من بضعة أسابيع أو بضعة أشهر ، وبالطريقة العادية يت بها في ساعة . والحكومة المبلاة بطريقة القرطاسية تضطر الى الاستكثار من العمال . حتى قال أحد كبار ساسة الانكليز لعهدنا لصاحب له ايطالي : لقد أصبحنا معاشر البريطانيين واثنين منا من الموظفين والثالث فقط يشتغل . والى أمس كان الانكليز من أشد الأمم زهداً في الطريقة القرطاسية .

من الصعب على المسلم أن يحب فرنسا ، وقد رأى ظلمها أبناء دينه في كل أرض استعمرتها من الافطار الاسلامية . وصعب على المسلم أيضاً أن يميل الى اسبانيا والبرتغال وايطاليا وهي ما كانت أقل ظملاً لاهل الاسلام من الفرنسيين .

لو فرض استيلاء دولة اسلامية على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وكان أهلها ينتحلون النصرانية ، لقامت أوربا وأميركا قومة واحدة حتى تحذف اسم الدولة المتغلبة على هذه الافطار من قائمة الدول

كان يكتب لنا التوفيق لو اقتبسنا من حسنات المدنية الغربية ما يربو على ما أخذنا من سيئاتها . والسبب في تأخرنا عن الغربيين إهمالنا التفكير

زمناً في كل ما يدفعنا الى الامم . أبطأنا في الاقتداء بن كان الواجب الاقتداء بهم وما حدثتنا أنفسنا من أول جيل بالأخذ من المدنية التي ظهرت أعلامها في الغرب بعد عصر النهضة .

شهدنا بعض الغربيين يربأون بأولادهم عن الاجتماع الى من يوافقون ديارهم من المشاركة مخافة أن تسرق طباعهم من طباعهم .

جرى تبادل السكان بين دولة الترك ودولة اليونان فأخذت تركيا من اليونان من عندها من المسلمين الاتراك وأعطت تركيا لليونان رعاياها من الروم . وكان عدد المقايض عليهم من الطرفين عظيماً ، فدب الفناء في المغتربين تركيهم وروميهم ، لاختلاف الهواء وصعوبة النقلة ، فاستدلنا بذلك على أن الهجرة لا تنجح الا اذا كانت بمقياس مصغر ، وكانت للهاجرين رغبة شخصية في تركهم مساقت رؤوسهم ، فاذا أكرهوا على النزوح منها ، يصبح شر الهجرة أكثر من خيرها .

لو تأصل الغرام بالتمثيل عند العرب تأصله عند الغربيين لقربت مدينتنا من المدنية الغربية ولكان مجتمعنا أرقى مما هو الآن .

طبق العرب قواعدهم في الحكم على الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم فعمدها هؤلاء نعمة بالقياس الى ما كانوا فيه من الظلم ، وبخاصة لانهم رأوا روحها لا ينافي روح أديانهم الأصلية في باب الرحمة . ولما ضعف أمر الدين وضعف العرب في انفاذ مقاصده السامية كانت نفرة المحكوم عليهم من الحاكمين وهذا بدأ الانحلال .

عُدَّ من الخياليين المخدوعين بالظواهر من يذهبون الى أن سكان تركيا بتقليدهم الغربي في بعض أوضاعه قد أصبحوا أوروبيين . الاتراك يظنون أتراكاً مها تجردوا من مشخصاتهم القديمة . ان كنت تستبعد أن يمثل العربي في الجزيرة هذه الحضارة الحديثة فأنا مثلك استبعد أن

يصبح ابن الاناضول بعد أجيال غريباً بمدنيته . وأرجو أن يغلب رأي المتفائلين ظن المتشائمين في هذا الحكم .

اشتبك أهل الولايات المتحدة الاميركية في القرن الماضي بحرب أهليه طاحنة دامت اربع سنين وكان السبب في نشوبها دعوة رئيس جمهوريتها ابراهام لنكولن الى تحرير العبيد لأن الخلق كلهم متساوون ، فانتصر حزب التحرير ولم ير انتصار الاستعباد تشقياً لنفوسهم الا قتل الرئيس الحر وكان عمله اعظم عمل انساني ، وعمل قاتليه اعظم عمل وحشي .

سألت هولاندياً في هولاندة أصبح أن أبناء وطنك في جاوة يكرهون الجاويين في الطرق ليمسوا ظهورهم فيركبهم كما تركب البهائم ؟ قال صحيح واذا نحن امتنعنا من هذا لا يستقيم أمرنا هناك ، لأننا قلة تضيع في الكثرة . ووجهت مثل هذا السؤال لقاض هولاندي من قضاة جاوة فسكت وما جسر أن يكذب والسكوت اقرار . ظلم الهولانديون الجاويين ثلاثاً وخمسين سنة ثم ساعد هؤلاء الزمن فتحرروا من سلطة الهولانديين الفاشية .

ما برح المستعمرون يقللون من عدد المسلمين في الصين ينزلونهم الى الخمس أو الى العشر من حقيقتهم ، وظلوا زمناً على هذا الرأي يدونونه في أسفارهم ويتناقضونه في مجلاتهم وصحفهم ، وقد ألف أستاذ من جامعة باريز كتاباً في الصين عني فيه بحفنة من الكاثوليك هناك ، ذكرهم وذكر أوضاعهم بكل خير ، وربما بالغ بعددهم ، وأغفل الكلام عن خمسين مليوناً من المسلمين الصينيين كانت لهم مدنية جميلة وربما كانوا ارقى من جيرانهم في الجملة .

أنسف بمن ينسى من دفعوه حتى عزّ وساد ، وكان الى يوم صرف

من الخدمة ليستमित في حب من عاد يسبهم ، ويفار عليهم كما يفار
الكريم على الحرم .

شاهدت رجلاً من عظماء رجال الدولة عندنا يذلّ ذلاً لم أكد أشهد
صدور مثله من كبير ، وذلك ليدخل مع جماعة يؤلفون حزباً يتوقع
له الاستيلاء على الحكم . دعاه الى هذا الاستخذاء الخوف من أن يحرم
المناصب ان لم يكن عضواً في الحزب الجديد . ما أصغر نفوس بعض
من يصفونهم بأنهم من الكبراء ، وما كبروا الا بكبر المناصب التي
تولوها فقط .

عهدي برجل صرف من الحكم يلزمي في جريدة المقتبس بضع ساعات
من النهار . دام على ذلك مدة . وكان نفي من منصبه ويحاول الرجوع
الى خدمة الدولة . واقد كنت علم الله أنجبل من تكرر مجيئه الى مكتبي
ومكثته أمامي طويلا وهو لا يخجل ولا يخطر بباليه أن ادارة تحرير الجريدة
دار أسرار تقضي المصلحة كتمها عن كل انسان . ولما تولى هذا المعجز
منصباً كبيراً في الدولة الخالفة صغر خده وكاد ينكر معرفتي . بهذا
وأمثاله بمن عرفت نفسيته كنت أقول دائماً ان حاجتنا الى الأخلاق
أشد من حاجتنا الى العلم ، وأن الدين الأهل لا تسوده المناصب .

يظن بعض قصار النظر أن الشعوب التي أعماها جهلها تسهل مغالطتها
وأن سكوتها عن ماضي من استهان بحقوقها هو من جملة غباوتها . أما
الشعب فيدرك سر كل مؤامرة دنيئة على حياته ، ويجاسب متى أراد
الجاني على جنائياته السابقة واللاحقة .

قال لي أحد أعيان داريا : سألني أحدهم في موسم الحج بمكة عن
بلدي فقلت له : اني من قرية من قرى دمشق . فقال : ما اسمها فقلت
له داريا . قال : هي القرية التي لحق أهلها الدبور الى سهل كوكب .

إشارة الى أنهم بخلاء جداً . قال له : نعم ياسيدي ، لاحول ولا قوة الا بالله . وتضاحك الحاجان . ما أكثر شيوخ الأخبار في الأرض العربية لولا ما يناقض ذلك النبأ الذي رواه لي صديق مدرك من أت إحدى الامارات العربية على شاطئه المحيط الهندي ما زالت الى اليوم تدعو على المنابر في كل جمعة للخليفة الأموي بدمشق . وخلافة بني أمية زالت من الشرق منذ أكثر من اثني عشر قرناً !

جربت زراعة القطن في بعض أرجاء سورية فأنت من الغلات بما فاق المأمول ، فعزمت الحكومة على تنشيط هذه الزراعة حتى قيل ان ماسيزرع من الأرض البور وغيرها هنا تزيد مساحته على مساحة الأرض المزروعة قطناً في مصر . ومن التدابير الحكيمة التي عمدوا اليها استدعاء الشاميين المهاجرين الى القارات الأخرى للعودة الى بلادهم ، لأنه أصبح فيها مرتق لكل من يوطن نفسه على أن يعمل بعد الآن ، ولا يبعد أن يصبح السوريون بعد عشر سنين نحو عشرة ملايين من الانفس . زيادة السكان تابعة لوفرة الحطب في الأرض التي يدرجون عليها .

مضمون النجاح في كل عمل يمارسه صاحبه ، وبأخذ من نفسه ، والتأليف من أظهر المظاهر في هذا الباب . ولا أمثل الا بما وقع لي . فاني لم أصرف من عمري نحو خمس وعشرين سنة في تأليف « خطط الشام » الا لاثني ولعت بماضي بلادي وحاضرها ومستقبلها . ولم أكتب كتابي « الاسلام والحضارة العربية » الا لأن الموضوع أخذ من قلبي . ولم أكتب « غرائب الغرب » الا بعد أن تذوقت مدنيته بعض الشيء وشاهدتها في أرضها . ولم أعن بجمع « رسائل البلغاء » الا لتدريتها وتعذر الوصول اليها . ولم أؤلف « أمراء البيان » و « كنوز الأجداد » الا لأطلاع قراء العربية بأخبار العلماء والأدباء الذين انتفعت بكلامهم وعلمهم ، ولم أضع كتاب « أقوالنا وأفعالنا » و « المذكرات » الا لأجمع ما وقع لي من تجارب ومحن حرية بالاعتبار .

مها بلغ من صلاح حكومة لا تخلو من ناقين عليها طامعين في
تبديلها . هذا والرعية تدرك أنه لا يتوقع أن يجيء الخالف على غرار
السالف في المقدرة وسعة التجربة . الا أن النفوس مولعة بالتجديد
ولها بتبدل المناظر وسماع الغرائب .

حكومة ثابتة ترتكب بعض الاغلاط أفضل من حكومة منقلبة
تنقض وتبرم من دون روية ولا تجربة ، الأولى أقرب الى اصلاح
هفواتها والثانية تخبط وتخلط .

ليس من الحزم أن يدعى الى الحكم رجل 'جرب' في المصالح العامة
أعواماً فما أفلح . النقص من خلق الانسان ويستجبل تقويم أخلاق من
جاوز الستين من عمره ، ومن ضعف استعداده لشيء من العبث أن
تطلب منه اقامه على ما ينبغي .

أخذ بعضهم رجلاً سياسياً لغضه الطرف عن جماعة أكرموا مثواه
يوم كانت الحكومة تطارده ، وأقدموا على حمايته وما بالوا بالخطر الذي
يحققهم من اخفائه في بيوتهم ، حتى اذا فوضت اليه الوزارة فجههم لمن
أكرموا مثواه كأنه ماعرفهم وما أكل طعامهم . فقلت لهم : لاتعجبوا
هو ديني الطبع ما في حياته لغير مصلحته ، وما توفر الا على توفير ماله
بسرقه الدولة وسرقه معامليه وسرقه أسرته ، وذلك بأسلوب فيه كل
الندالة والقعقة ، وهو في البخل وأكل الحقوق المثل السائر .

مها صفا الجو السيامي في دولة وانقطعت بما تملك من موارد الى عمارة
أرضها ، تظل تشكو نقصاً في بعض مصانعها ، ذلك لأن الجماعات كالأفراد
يُعنون بأمور ويُنفلون أخرى على غير قصد .

قلت لرجل يُظهر الغيرة على بعض ملوك العرب ويحرص على ستر
عيوبهم لئلا يكون في اشهارها فضيحتهم : يا هذا ان كنت تمت الى هؤلاء

الملوك بصلة من الصلات فلا كلام لنا معك وان كنت ممن يفصدون الى الاصلاح فتق أن بعض رجال الغرب يعرفون من عيوب ملوكنا وزعمائنا ما لم يطلع عليه ألقى الناس بهم ، وعلى هذا فلا معنى للتوبيه في أمرهم .

أكد لي صاحب أفام في إحدى المستعمرات الانكليزية من الحرب الأخيرة أن الانكليز كانوا يضيّقون على كل من يشكّون في إخلاصه لهم من نزلاء المستعمرة ، ويوهّمونه أن القتل مصيره إذا عصى لهم أمراً ، وسواء كان هذا القول مبالغاً فيه أو هو الحقيقة لا غبار عليها ، فأت كل انكليزي يرى من واجبه الوطني ان يتسقط الاخبار التي يقدر أنها تنفع دولته .

أمر الانكليز في الحرب العالمية الأولى ضابطاً عربياً فألحقوه بأحد ضباطهم فعهد اليه تعليم ابنه . قال : فكنا نطوف بعض أحياء مدينة لندن للرياضة ساعات كل يوم ، وفي جملة ما زرنا دار إحدى الوزارات وكانت ذات ساحة عظيمة ، فرأيتها مملأة بضاديق صغيرة لم أعرف أكانت قنابل أم خراطيش فقال تلميذي : لا هذا ولا ذاك ، هي صناديق ذهب برسم اميركا الشمالية . وبعد انقضاء اسابيع قليلة على وصول الصناديق الى الولايات المتحدة - وتوزيعها على الشيوخ والنواب والعمال والقواد ورجال الصحافة ودور التمثيل والسينما واللهو وعلى كل من له تأثير في عقول العامة والخاصة - شرفت اميركا الحرب على دول المحور . ما أعجب الانكليز باستمالة قلوب الشعوب يوم يحتاجون الى استمالتها .

تنمّع بعض الحكومات العربية المطبوعات الحرة من دخول بلادها وتُعدّ ما فيها من الافكار والاخبار بما يشوش عقول رعاياها ويفسدهم عليها . أما كان الأجدر بها ان تنفع بما تقرؤه وتطبق منه ما تقدر

على تطبيقه ، فاخفاء الحقائق لا ينتج خيراً للراعي والرعية كما يتوهم بعض رجال السياسة .

عرفت رجلا كان من العمال المقدمين في عمال اليمن على العهد العثماني نهب وسلب هناك ماشاءت قلة ذمته وسقوط مروءته فلما كشف أمره وحاول الفرار بما سرق من الاموال انقذه من ايدي العدالة احد مواطنيه من كبار رجال السلطنة العثمانية يومئذ ، واسطفاه لنفسه ، وأدخله في خواصه وجعله سميره وعشيرته ، فما عم ذلك اللص أن كافأ من أحسن اليه بأن قدم فيه تقريراً الى السلطان يسقطه من نظره ويرميه بالجبانة ، ولما قص عليّ صديق ما اجترحه المحسن اليه مع البار به قلت : صدق من قالوا : من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه .

العاقل يلزم السكوت عند تبدل الدول وكذلك يوم تشن الحرب في دياره ، والا جعل منه صاحب القوة ذريعة لالقاء الرهبة في القلوب .

بذات انكساراً جهدها لاشراك مصر في الحرب العالمية الثانية فلم تجبها الى رغبتها وصانت مصر نفسها من الحراب الذي كان ينتظرها ، ذاكرة ان الدولة البريطانية كانت وعدتها وعوداً خلافة في الحرب الاولى اذا هي حاربت معها . ولم تحقق شيئاً مما وعدت به ، وكان من ذلك عبرة لمصر .

انتشرت الشيوعية انتشاراً سريعاً في العالم فخاف الانكليز تسربها الى اوربا الغربية من طريق الهند ، وكانت هذه حائقة على البريطانيين ويخشى ان تنتحل الشيوعية اذا أخرجت ولم تنل استقلالها ، فما كان من الانكليز الا ان تحلوا عن الهند وتركوها لاهلها طوعاً او كرهاً ، وأخذوا يقتربون بأنظمتهم من الانظمة الشعبية بأخذون من ثروات

الاغنياء حتى لا يبقوا لهم الا ما يرفعهم قليلا من درجات المتوسطين في عيبتهم . وهذا بما يشهد للانكليز ببعده النظر في ادارة الملك .

اطلعت على ما كتبه أديب ذو مكانة كبرى في العالم العربي الى أحد أديباء الشعر بمن كان الفموض والركاكة من خصائص شعره ، يقرظه ويطلق عليه من الألقاب ما كان يجب أن يكون خاصاً بأهل الطبقة العليا من أرباب هذه الصناعة . فقلت في نفسي : لو لم يجد دجاجة الأدب من يصانهم ما أظهروا من القحة ما أظهروا في طلب الشهرة بشعرهم الركيك وبيانهم السقيم . وهؤلاء المداح يصانعون الكبراء أيضاً وهم في باطنهم يلعنونهم . والظاهر ان عند هؤلاء المداحين الفاظاً يطلقونها في مخاطبة العالم والجاهل سواء ، وماذا عليهم اذا وصفوا بالتبوغ وجمال الأدب كل من يلقونه ، ووصفوا بالعدل والاحسان كل من يخشونهم بأسهم ويرجون نوالهم ، لا يفرقون بين الفاضل والمفضول والمشهور والمغمور . اذا عرفت هذا فلا تستغربن اذا رأيت هاتيك الشهادات المكذوبة ساقطة من ذاتها فان اصحابها ما أحسنوا تطبيقها على مستحقيها يرضون بها من يخاطبهم ويكتبهم ومن يعرفون ومن لا يعرفون ، على طريقة مشايخ الأزهر في القرن الماضي لا يتوقفون في تقييد كل زميل لهم ألف كتاباً ولو كان بما لم يعهد عالم التأليف أسخف منه ولا أوداً .

عرفت اثنين من كبار أدبائنا اشتهر الأول بالسياسة والخطب واشتهر الثاني بالشعر والأدب عاشا ما عاشا بلاطفة الصغار والكبار وبجاملة الموافقين والمخالفين . ولو قد حالت ما صدر عنها لارضاء كل واحد بما يجب لما حكمت الا أنها أماديج مستهجنة تذهب في الهواء وهيئات أن تتخذ ولو طبعت في كتب ورسائل وجلدت وذبحت .

أشرت الى سمي بريطانيا العظمى بتأليف الجامعة العربية وقلت ان بعض المفكرين كانوا يشكون في نجاحها وقد حققت الاعوام التي مضت

على تأسيسها رأي المتشائمين بعض الشيء ، وثبت أن دولاً مختلفة النزعات والحضارات يتعذر أن يتألف منها كيان واحد ، فكيف اذا كانت وراءها دولة أو دول في مقدورها كل ساعة أن تنقض الالفه وتقوض البناء . واهماً للشعوب الضعيفة ، هي أبدأً العوبة بأيدي الأقوياء .

لما رضي بعض رجال الانكليز عن سورية ولبنان كانوا يصفونها بأنها مهد المدنيات وأنها يتمتعان بمدينة راقية ، فلما اقتضت الحال أن يقلب لهما ظهر المجن كتبت احدى الصحف الانكليزية تقول أن هاتين الجمهوريتين بلاد رسم على علمها المثلث الاثوان : الحشيش ، البخيش ، ما عليهمش . أي أن البلدين حرما عزة النفس تتجران بالمحظورات وتستعلان الحرام وتستجديان وتشعذان ولا تباليان بما تفعلان . وتتأول هذه الكلمات الثلاث في هذا الكلام بتأويلات أخرى ، فياسبحان الله .

بضعة أشخاص مماثلين في التربية والعقل يجتمعون على تحقيق غاية معقولة يفاجون غالباً .

في المدنية الحديثة ظاهرة عجيبة ما كان أجدادنا يعتمدون الى استعمالها على ما انتهى اليها من أخبارهم . وذلك أن كل انسان يحاول أن يستهدي جاره ومواطنه وصديقه كل ما يقدر على أخذه منه وألا يقابله بشيء على ما أعطيه . وبمعنى آخر ان مدنية الماديات تبيح للناس أن يسلب بعضهم بعضاً علناً .

تتجلى الرعونة في بعض الشعوب اللاتينية حتى لتكون حكوماتها مهددة بالثورات على الدوام ، خلافاً للشعوب الانكلوسكسونية فان هذه اعتادت أن تفكر قبل الاقدام . الثورات في الجمهوريات اللاتينية

من الأمور المألوفة (١) والثورات في أميركا الشمالية تحدث مرة في كل قرن وفي بريطانيا العظمى لا تحدث الا مرة في الزمن الطويل .

كانت الدساتير الاجنبية العامل الأكبر في اخفاق الجامعة العربية ، وأنعان على ذلك أن كان تركيب الدول الداخلة فيها تركيباً غير مزجي . ابن صنعاء وصعدة والقصيم والرياض ومكة والمدينة وعمان لا يرجى أن يشابه ابن القاهرة والاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب والموصل وبغداد والبصرة .

في الأمثال العامية « الولد الذي ليس من ظهرك كلما جن افرح له » وقد مضى ساسة الغرب مع ساسة العرب على ذلك . فانهم قلما يعيرون اهتماماً لما يضر بالشرق ويؤذيه . وقد يفرحون لمؤكنا ورؤسائنا كلما أسرفوا وأجحفوا لاعتقادهم بأن ما يأتونه يجعل الحراب الى دولهم وفي ذلك مصلحتهم . كانوا يقولون : « اذا كان جارك بخير فأنت بخير » وانقلبت هذه الحكمة العامية اليوم فصارت « انك لن تكون بخير الا اذا كان الشر عند جارك » .

مئات الالوف من الالبرات يصرفها رئيس على الاوباش ، ومنهم من يعطيه الف ليرة في الشهر ، أي ما يوازي أكبر راتب في الدولة بعد الوزراء ، هي طريقة له ابتدعها وما سلكتها حكومة تحترم نفسها وتقدر دخلها وخرجها .

جار الحلفاء على ألمانيا بعد انهزامها أمامهم في الحرب العالمية الثانية

(١) ذكرت احدى المجلات القرية ان رئيس جمهورية غراتيالا انتهى مدة رئاسته في شهر آذار بعد ان قفى فيها ست سنين شهد خلالها تسعاً وعشرين ثورة وربما لانهى مدته حتى ينتمى الى الثلاثين ثورة . قالت أن صبره على هذه الثورات خلال رئاسته داليل ظاهر على انه فيلسوف عنك وبالفعل هو يحمل شهادة دكتور في الفلسفة !

ففضوا جيشها ، وقضوا على صناعاتها ، وقسموها قسمين قسم أخذ الروس بخناقها فأدخلوا فيه النظام الشيوعي ، وقسم للانكليز السكسونيين ومن تبعهم بثوا فيه الأنظمة الديمقراطية ، وكل ذلك رجاء ألا تقوم الألمان قائمة . وكأني بهم بعد حقبة غير طويلة من الزمن وقد عادت اليهم وحدتهم وعظمتهم ، ذلك لأن من المتعذر جداً القضاء على مئة مليون انسان بلغوا من المدنية غاياتها .

لما نظمت أمور مصر ونجت حكومتها من أن تعيش بالقروض اغتنى المصريون ، وانقلب القطر في أعوام قليلة من مملكة غامرة الى مملكة عامرة ، وجمعت بريطانيا بنهوضها بمصر عدة مطالب كان من أهمها انشاء أرقى مملكة في الشرق الادنى تنادي على الدوام أن بريطانيا العظمى أرحم دولة في استعمارها .

الفرق بين استعمار فرنسا في الجزائر وتونس ومراكش وعمل انكلترا في مصر أن فرنسا ما توخت من احتلال هذه الاقطار الثلاثة الا منفعتها الخاصة ، وما عبات بمصلحة السكان ، وجمعت انكلترا بين منفعتها ومنفعة المصريين فأبدعت في مصر مثلاً منقطع النظير في احياء الممالك قامت به طائفة صالحة من نبهاء ساستها ونبغاء مهندسيها . ولا يسع المتشدد في أحكامه اذا تأمل صنع البريطانيين في وادي النيل الا أن يقرّ لهم باحسانهم .

طال أمد الاستعمار الانكليزي والاستعمار الهولندي في الهند وأندونيسيا وختمت أيامه لما عزم سكان تينك المستعمرتين العظيمتين على طرد المستعمر طرداً أبدياً . استعمر الرومان واليونان معظم العالم القديم قروناً ، وما خرجوا من أرض احتلوها الا بالخلال دولتيهما ، وتنازلت انكلترا وهولندا عن استعمارهما وهما في معظم قوتها .

أعظم العيوب عيوب يتعدى أذاها الى المصالح العامة ، وصاحبها فاسد في نفسه ومفسد للجماعة . وما أعجب الا من يحاول الستر عليه ويخترع له الخارج .

قال أحد رجالنا في معرض وصف أحد المشتغلين بالسياسة : « ما هو إلا خولي بينطلون ، أي قِيم مزروعة يلبس سراويل المدينين وعقله محدود ، فحققت الايام هذا الحكم عليه لما تولى منصباً جليلاً اضطر فيه أن يصدر عن قريحته .

لا قوة تحول دون انتشار الفساد في معظم الاشياء يوم يصير الحكم الى العامة . العوام على الاكثر لا يحسنون الا التخريب ، وقد ينفق الخواص أعواماً في تنظيم أمر فاذا آل النظر فيه الى العامة دمروه في ساعة .

لما شكوت مستشار المعارف الى المفوض السامي على عهد الانتداب في سورية ولبنان حقق معه ، فثبت لديه صحة ما عزوت اليه فأهني خدمته . ولما نقيت على مدير الاستخبارات كلاماً أهان به المسلمين تجاه المفوض السامي لما تبين له صدقي . ولو كان من شكوت اليهم من جماعتنا لكان غاية ما يأتونه أن يصلحونا ، ويكرهونا على أن يقبل أحدنا شارب صاحبه ، وتذهب المصلحة العامة في الريح .

الحق أولى أن يقال أن الفرنسيين في انتدابهم على الشام خمساً وعشرين سنة أصلحوا أشياء كثيرة في أدوات الحكم ومنها توطيد الأمن وإصلاح القضاء والمعارف والأشغال ، لكنهم بثوا روح التعصب بين المواطنين ، وأحدثوا التفرقة بين الطوائف ، وعاونوا الجمعيات والطرق التي تفت في عضد الاسلام ، فتمت لهم قسمة الأمة أقساماً متعادية ، وما وازى النفع الضرر .

كان من طبع أحد الرؤساء اذا حقد على انسان أن يبالغ في مساءته ويطعنه طعنة لا يبرأ منها . واذا بداله استرضاء أحد يرتكب كل وضاعة في سبيل استمالته . فطر على نخاشنة فريق نخاشنة جائزة ، وعلى الخروج عن المألوف في محاسبة آخر . وما من عاقل يقول ان هذه الأخلاق من أخلاق الرؤساء .

حكمت احدى المحاكم لرجل على أولاده الأطباء الثلاثة بالانفاق على أبيهم . العاجز عن الكسب . عقوب هؤلاء الابناء والدم بعمد أن وباهم بماله حتى أصبحوا أطباء يدل على بلوغهم في القسوة غايتها . ومن قسا قلبه على أبيه لا يرجى منه أن يشفق على أحد . ليت ولي الأمر يسترجع من هؤلاء العاقين شهادة الطب ويتركهم يتسكعون كالحیوانات التي لا تنفع للنقل ولا للنسل .

ما أوقع من لم يدرس الطب أن يشارك الأطباء في طبهم ، فعلى من لم يدرس السياسة أيضاً ألا يشارك فيها الا مشاركة يقف بها على الحقائق ايضاً على مستقبل وطنه وأمته . السياسة أصعب العلوم وأدعياؤها ما زالوا متوافرين .

في سيرة من سقط وما أسف عليه الا من أنخدعهم بأموال الدولة عبوة لمن يتظاهرون بالدين وهم منه أعزى من مغزل ، ويتناغون بالوطنية ووطنيتهم تقوم باملاء جيوبهم وجيوب أنصارهم من المال المشبوه ، وتقوم حياتهم على الكذب في كل أمر .

كان الناس في أمر أحد الرؤساء بين مصدق ومكذب ولما صرف من منصبه وكفّ المطبلون والمزمرون تبين أنه ما كان الا لعبة ألبسها الأبالسة ثياب السيم والقصب .

مها عظمت يده يسديها انسان لصاحب قوة ، فان هذا بوشك أن ينسى بلاهه لحاطر يعرض له ، وهم يتوهمه . الخليفة العباسي كافاً بالقتل أبا مسلم الحراساني مؤسس دولته .

انهزمت فرنسا أمام ألمانيا في الحرب الأخيرة ولم تحارب الا أياماً قليلة ، وبفضل حليفها بريطانيا - التي جعلتها منذ القرن الماضي وقاية لها من صدمات اعدائها - عاملوها معاملة الظافر .

يتناغى شرشل أعظم ساسة الانكليز المعاصرين بحب فرنسا ويعشق كل ماخص به أهلها من طباع وما تفردت به حكومتها من حكمة . يكتب هذا في كتبه ويردده في خطبه . ولو كشفت عن قلبه لتبينت أنه لا يهمه أن يسجل في عداد العابثين بالحقائق اذا كان في ذلك خدمة دولته .

قد يهمل بعض السياسيين أمراً عاماً يطلب منهم ويشغلون بمسائل فيها حظ أنفسهم فقط ، وفي ذلك البلاء العظيم .

أنارت الصحف عقول من أطلالوا مطالعتها وأنتهم بمعلومات كان يعزّ الظفر بها على الحاصة في الدهر السالف . عرفت أناساً أصبحوا من الساسة المحترفين بما تلقفوه بقراءة الصحف . وعرفت أناساً شاركوا في بعض العلوم الحديثة مشاركة لا بأس بها لتوفرهم على تصفح المجلات العلمية ودرسها بامعان .

ربما كانت صناعة السينما أعظم اختراع احتاج الى عدة علوم وأدخل على سكان القارات الخمس متعة ما مائلتها متعة .

لو قيل لأجدادنا ان الانسان اليوم يقطع في طيارة الالف من الكيلومترات في ساعة وأن الطيارة تحمل الاثقال العظيمة مع أكثر

من ثلاثمائة راكب لقالوا لنا أن من يهذي هذا الهذيان مجنون وجنونه مطبق .

هزأت سرعة الطيارات والسيارات في العهد الأخير بما كان يقال له بالأُمس بعد ومسافة . في ساعتين تقطع المسافة في الطيارة من دمشق الى بغداد ، وفي أقل من ساعتين تصل من دمشق الى القاهرة ، وتجتاز المسافة من دمشق الى الأرجنتين في ثلاثة أيام تتخللها محطات تقف فيها والمسافة بين سورية والأرجنتين لا تقل عن نحو ثمانية عشر ألف كيلومتر . وكان من اختصار المسافات أن هان على الرجال والنساء التغرب عن اوطانهم ، وسكنى بلد يجدون فيه رزقهم وهناءهم . وهذا من العوامل في اختلاط الشعوب العربية ، سهل به على ابنة الشام أن تتزوج في مصر ، وعلى ابنة العراق أن تؤسس أسرة في الشام ، وعلى المصرية أن تنزل الحجاز ، الشعوب العربية سائرة في طريق الوحدة الشاملة الا أن سيرها من جنس السير الذي يختلف بين السريع والبطيء .

ضجة الطيارات في الجو ، وضجة السيارات والمحركات فوق سطح الأرض ، وضجة السفن في البحار ، وضجة المناجم في بطون الأرض فهل بقي مكان على سطح الأرض وفي بطنها لم يلبه الانسان بضجيجه وعجيجه .

قال أحد حكماء الافرنج « السياسة علم الربيع من دون رأس مال ، ويذهب بعضهم الى أن الفرق بين السياسي الموهوب والسياسي المحترف أن الموهوب تقزع اليه أمته في الشدة والرخاء ، والمحترف لا أرب له في غير نفعه . ولم تستقر الامور في هذا الشرق حتى يصح الحكم على المشتغلين بالسياسة حكما عادلا لأن معظم من يحترفون السياسة عندنا دون الوسط في ذكائهم وعلمهم وأخلاقهم ، ومن كان كذلك لا يستحق أن يترجم له

استعرض أسماء من كانوا يعدونهم من أكابر الرجال ، وانظر النظر
النقاد في سيرتهم ، وأنا الضمين أنك لا تراهم يصلحون لغير المكث
في بيوتهم حتى توافيهم آجالهم .

قطع صاحب الحجاز ونجد بضعة أيدي على السرقة ، فسقط في أيدي
الصوص وانتشر الأمن في بلاده ، وتساهل رئيس في الشام بالحدود
الشرعية فضاعت الحقوق وسادت الفوضى .

قالوا ان فلاناً حسن الأخلاق طيب القلب ، أوعز الحزب المتغلب
الى عامل بلده أن يعاونه على الوصول الى النيابة فتاب سنين عن مقاطعته
وما سمع له صوت في المجلس لأنه لا يحسن شيئاً مما يتطلب من النائب
فقلت لهم : نعم ان خصمه أيضاً من حزب الحكومة وذنبيه أنه متحل بالصفات
التي يجب أن يتحل بها من ينوب عن أمته : أدب ، وجرأة ، وعناية
بالمصالح العامة . وعدت فراجعت نفسي وقلت الغالب أن من الاحزاب
ولاصياً في الشرق من لا ترى أن ترفع من شأن الناهيين المنورين ،
وتحاول ان أمكنها تناسيهم ، ولا تتطلب من يخدمها الا أن يتابعها على
رغائبها على العيباء ، ولذلك يسرها ان تنصب في المجلس نائباً أشبه
بلوح من الخشب ، ولا تضع فيه رجلاً تتمثل فيه الحياة والغيرة على
النهضة بالامة .

من أكبر العوامل في الانحطاط الظاهر بين القرية والمدينة في الديار
الشامية ، ان الفلاحين وهم نحو ثلثي السكان تركوا للطبيعة ، فلم تتعدهم
الحكومات ولا الجمعيات بتربية دينية ولا مدنية ، حتى يشبهوا العجاوات
في بعض الأصقاع الحالية من المدارس ، الا أنهم ينطقون كالانسان .

في تاريخ ايرلندا السيامي مفاخر للايرلنديين يُعجب بها ، وفيه درس
نافع لكل شعب يحرص على نزع يده من غاصبه ليتمتع باستقلاله . في
ماضي هذه الأمة النبيلة ما يتعلمه كل من يحب وطنه .

قل في رئيس رأى من السياسية اقضاء الفضلاء وادناء السفهاء أنه لايجسن من كتاب السياسة حروف الف باء .

الفرق عظيم بين من أقصى أمرته مدة رئاسته عن الوظائف وهي عريقة في خدمة الحكومات ، خشية أن يستطيلاوا على الخلق ويظلموهم ، وبين رئيس حمل أقرباه على رقاب الامة ، وكان بعضهم من المتشردين ، ومن باعة الفجل والطرخون والبصل .

غلطة واحدة يرتكبها زعيم تقلب شعباً كبيراً رأساً على عقب .

رجال السياسة كالممثلين على المسرح ، اذا أحسوا بالتعب فالواجب عليهم أن ينصرفوا الى بيوتهم ، ابقاءً على صحتهم ، ورعاية لأذواق النظارة . وهؤلاء يتوقعون ممن يخلفونهم موضوعات طريفة تختوعها قرائحهم ونفحات عذبة ترددها افواههم .

لا يعقل أن يشترك الانسان في كل امر نافع من امور وطنه . فالعمر قصير لا يتسع للدوازة في الامور كلها ، واذا اتقن المرء ما يدخل في خصائصه قام بما يفرض عليه . رأيت في الغرب علماء لا تسمح لهم اوقاتهم بتلاوة الصحف ، فلا يدرون بما يجرى في القرب والبعد ، ذلك لانهم منصرفون الى اتقان ما يشغلهم فقط ، وهذا لا يقدر فيهم بل يرفع مقامهم « ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه » .

ما عهد نظام حكم ارقمى من نظام بريطانيا العظمى تتعاور الحكم فيها ثلاثة احزاب « المحافظون ، والاحرار ، والعمال » وفي بعض الدول كفرنسا نحو عشرين حزباً وفي اليونان مثلها وحدث ما شئت ان تحدث عن الفوضى في هاتين الدولتين . ويندر فيها قيام حكومة سنة كاملة وفي بريطانيا تثبت سنين .

قتل في الحروب الدامية بين فرق الاسلام في فارس والعراق عشرات الألوف من المسلمين ، وخربت مدنها برمتها ، ولم يحدث من ذلك شيء في مصر والشام في وقت من الاوقات ، وهذا مما يمتاز به هذان القطران .

من بعض منافع الجرائد انها لم تبق سرّاً مكتوماً ، وكانت تبقى اسرار الدول طي الحفاء أعوماً لاتذاع ، وقلماً يطلع احد على مايجرى داخل قصور الملوك ، الا اذا احب اربابها اطلاع الناس عليها ، وذلك بعد افراغه في قالب بموه . من طبيعة هذا العصر على ما يظهر اذاعة كل شيء ، ومن طبيعة العصور الغابرة كتمان كل شيء .

لكبار ناشري الكتب في الغرب يد طولى على التاريخ الحديث ، لاغرائهم بالمال اعظم رجال السياسة المعاصرين ليتولوا لهم نشر مذكراتهم ، تحمل صوراً غريبة من طباع هؤلاء الكبراء ، وما خصوا به من حسن حيلة لبلوغ غرضهم في الجمع بين خدمة انفسهم وخدمة امتهم .

ارى همه اهل ليبيا اليوم مصروقة الى وضع نظام حكومتهم ، بعد أن فازوا باستقلالهم ، ويقال ان السواد الأعظم من أهل طرابلس وبرقة يميلون الى الحكم الملكي ، وأن يبايع السيد ادريس السنوسي ملكاً عليهم . انا لا اعرف الملك الجديد وربما كان من اصلح الملوك ، ولكنني افضل الحكم الجمهوري لأهل ليبيا فقد علمتنا الوقائع انه ندر تسلسل الملوك الصالحين في مملكة شرقية او غربية . وعندي انه كان يسع اهل ليبيا ماوسع اهل اندونيسيا والباكستان والهندستان التي استقلت في العهد الأخير ، ونادت بالحكم الجمهوري كما نادت به المانيا بعد الحرب العالمية الاولى ، واعلنته ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية ونادت به من قبل روسيا والبرتغال واسبانيا ، وارتضته تركيا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا

والبأيا وبورما وسيام واوستاليا وكندا الخ . اي ان الشرقيين والغربيين على اختلاف في درجات تقدمهم لايتخذون لعهدا عن الحكم الجمهوري بديلا .

لو كان الحكم جمهورياً في ايران والافغان ماكانتا من الانحطاط على مايقص علينا من رحلوا الى تينك المملكتين . الشعوب تشتهر من حكم الفرد وترتاح الى الحكم النيابي وليست الدول بعد الآن مزارع خاصة للملوك يتصرفون فيها تصرف المالك بمزرعته وزراعه .

كانت الولايات المتحدة بأمن من فظائع الحروب الى يوم دخلت في الحرب العالمية الاولى ، وجابت بيدها الغوائل على رعاياها . كأنها ما أحببت بعد أن تمّت جميع أدوات الحياة فيها الا الجري على خطط الدول الاخرى تربح وتخسر وتقوى وتضعف ، وقتل مئات الألوف من بنبها ، وضباع ألوف المليارات من الدولارات لاشان له في جانب قول العالم : ان اعلام أميركا تكلمت بأكاليل النصر .

قضت انكلترا على الاسطول الاسباني فأصبحت سيده البهار وتحكمت في مقدرات العالم ثلاثة قرون ، وقضت انكلترا في العهد الحديث على الاسطول الالماني فما ربحت من ذلك الا تأخر اقتصادياتها ، ثم اضطرارها الى الخروج من معظم مستعمراتها .

اعتادت صحف الأحزاب في الشرق والغرب أن تتراشق بالنقد والمطاعن ، وأن تقلب حسنات القابضين على الحكم سيئات . وما كل مايقوله حزب في منافسه أو معارضيه يصح في الواقع . وكذلك كلام المخالف قد لاينجو من حقيقة ، والحكومة القائمة في المادة تؤثر أبناء حزبها في التعيين والترقية والمكافأة على غيرهم ، ولا تخرج عن نطاق القانون ولو بالصورة الظاهرة . وما كنا نظن أن حكومة الوفد المصري وهي حكومة تتمتع بالأكثرية المطلقة ، ورؤساؤها وأعضاء الوزارة فيها

ومن يتبعهم ويعمل لهم من خير رجال مصر ، ما كنا نظن أنها تغلوا في خرق القوانين خرقاً ظاهراً ، وتبالغ في سياسة الارضاء ، تكافيه فتجزل المكافأة ، وتعطي عطاء من لا يدرك قدر المال ، وتسرف على صورة قد تغتفر من حكومة بدوية ، لامن حكومة فيها صناديد السياسة وأرباب الثقافات العالية ، وهم ولا شك يدركون قبل غيرهم عاقبة المسرف بمال الدولة والمسرف بماله الخاص .

روت جريدة « الجمهور المصري » أن محاكم القاهرة نظرت خلال سنة ١٩٥٠ ثلاثة آلاف قضية من قضايا الغش : غش الدقيق والمواد الدهنية والخبز والحلوى واللبن والالكحول الخ .. قالت ان سوس الانحلال والانهار ينخر في جسد الدولة ، وعلت السبب في أن الوزراء هم من ذري الاطيان ، ومعظم أعضاء البرلمان من أصحاب العقارات ومن المولدين والمستوردين والمصدرين ومن أصحاب النفوذ ، وأصحاب رؤوس الاموال يسيطرون على الحكومة . وكبار الموظفين هم ذوو نفوذ في مختلف الدوائر الرسمية ، ومن هؤلاء جميعاً تتألف القوة الحاكمة التي تسيطر على مفاصل الدولة اه . ومن العادة أن أمثال هؤلاء المتغلبين من أرباب السلطان لا يهتمون لغير مصالحهم الخاصة ويقدر ما في مصر شقاء من حيث المجموع تجدد فيها سعادة عند الافراد ، فحسب مصر مصيبة كل بلد عربي .

يقال لمن يحملون أخطاء الحكومات السالفة على حكومة لاحقة ان اصلاح الأخطاء يحتاج الى وقت . وليس في وسع حكومة مها بلغ من افتدار القائمين بها أن تصلح في أشهر قليلة . وما زال الانتقاد أسهل من العمل . ثم ان حكومات قام أساسها على فساد من المتعذر اصلاحها دفعة واحدة ، ولا بد من تجزئة اصلاح المشروع الى أجزاء حتى لا ينهار الاساس اذا أريد تغييره .

ظهرت في الأيام الاخيرة خيانة عظمى في الجيش المصري اتهم بها عشرات من القواد والضباط واتهم بالاشتراك فيها أحمد النبلاء وذلك بأنهم ابتاعوا أسلحة عاطلة استخدمت في حرب فلسطين فكان منها انهزام الجيش المصري أمام جيش اسرائيل . فاكثفت حكومة مصر بأن جردت الجناة من رتبهم وأنعت خدمتهم ولم تقض بالقتل على من كان السبب الاكبر في هذه الخيانة التي سودت صحيفة مصر خاصة وصحيفة العرب والمسلمين عامة .

ربحت سورية أرباحاً عظيمة بالانفصال الجركي بين سورية ولبنان ، وكان لبنان يستأثر بها فانتعشت الزراعة والصناعة وفت بذلك الثروة العامة . ويجبّل الينا أنه لا تغني بضع سنين حتى تصبح سورية بلداً غنياً لا يقاس غناها الماضي على غناها المستقبل . لاجرم أن الامم تغني كما قال أحد علماء الاقتصاد اذا زادت ريعها ولا تغني اذا اختلس بعض طبقاتها ريع طبقة أخرى . تغني اذا باعت كمية أكبر من حاصلاتها بسعر واحد لأنها تكون عذود قد أنتجت انتاجاً أكبر وينمو وارد الفقير كما ينمو وارد الغني ولا يربح الغني ما يضيعه الفقير .

أنصبت وأحد أصحابي من تخرجوا في الادارة والسياسة من أبناء سورية في المدرسة الملكية في استانبول أواخر العهد العثماني ، فكان عدد من سلم من نوابغهم من وصمة الرشوة نحو عشرة في المئة وهم مدينون باستقامتهم لأهلهم . وتلوث بعض مقنديهم ومتوسطيهم بالرشا تلويثاً شائناً . ونظرت نظرة اجمالية فيمن درسوا في المدرسة الحربية العالية في الاستانة ايضاً فرأيتهم لم يفلحوا في الاعمال المدنية وهم معذرون لأنهم لم يألّفوها ولم يتعلموها ، وما أدري ان كانوا أفلحوا في الجندية لأنني شاهدت الدولة في أيامهم تخرج من هزيمة الى هزيمة وما شهدت لهم نصراً الا على الرعايا اذا ثاروا وهم عزل من السلاح .

يقول العارفون ان كل ثورة تبدأ بها طائفة من الحيايين ثم تتولاها طائفة من المحريين ثم تنتهي بحكم طاغية . والظاهر أن بعضهم رأوا نجاح الثورة السورية الاولى على الطغيان فحاولوا القيام بثورة ثانية وما أدركوا أن مثل هذه الثورات اذا لم تكن الامة في حاجة اليها محكوم عليها بالفشل ، والنفوس في العادة تميل الى الاستقرار ولا تميل دائماً الى الضرب والقتل .

ملكة الاسماء

كان من دأب أحد الوزراء المتأدين كلما جمعتني به المصادفة أن يسألني عن الطريقة التي سلكتها حتى كان لي هذا الأسلوب في الانشاء ولا يتالك من التصريح بالاعجاب به ، على ما عرف عنه من الهزوء بالعلماء والأدباء والزراية بما يؤلفون وينشرون . فكنت أقول له : ربما كان للدوام على المطالعة ومعالجة الموضوعات المختلفة بالكتابة مدخل في تكوين الأسلوب يضاف اليها ثلاث ثقافات عربية وفرنسية وتركية ، والتمرين الطويل من أهم العوامل في هذا الباب . فكان سألني لا يرضيه جوابي ويعتقد أن هناك سرّاً لا يوافقني أن أبوح به ، فكنت أضحك وأقول : لو كانت لي طريقة خاصة ما اهتدى اليها أحد لبادرت الى نشرها على الناس حتى يعم استعمالها ويأخذ بها من يود أن يأخذ . أما هو فكان يتمتع امتعاض من يحاول استخراج سر فيمتنع عليه ، ولطالما ورى بآني ضنين لانهب أن أشرك أحداً بأسلوبي . وكان هذا الوزير الحريص على تقوية ملكته كان يعتقد أن الآداب كالسياسة منها ما يكتم ومنها لا بأس به أن يعلم . كنت في محاولة الوزير انتزاع ما يزعم أنني أخفيه عنه أفيض تارة واقتضب أخرى ، والجواب واحد لا يتغير وهذا ما كان يسوءه ويزيد

في سوء ظنه . وذكرت له مرة كيف تعلمت ، وما كانت المجملات بما
 ترضيه بل كان هواه في التفصيل وأخذ الفائدة في دققة . فقلت
 له اني أنلو القرآن بتدبر ، قرأته على أساليب مختلفة لتفهيمه ومثل بلاغته
 واني طالعت طرفاً صالحاً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من
 كتب السنة وحفظت المعلقات السبع وطرفاً صالحاً من دواوين العرب
 وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي ، وعدة قصائد لعمر بن أبي ربيعة والبحتري
 وأبي تمام والرضي وابن الرومي والطبراني والأرجاني والمري وعلي بن
 عبد العزيز وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين . وتدارست السكامل
 للبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والتاريخ اليعقوبي والمثل السائر
 لابن الأثير . واستظهرت أشياء كادت تفسد علي ملكتي مثل بعض مقامات
 الحريري ورسائل الهذلي ومقاماته ورسائل الخوارزمي وبديعة النابلسي .
 وما أخرجني من تكلف النسيج على منوال المتأخرين ، كالقاضي الفاضل
 والصايي وابن الأثير الا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب
 وابن المقفع والجاحظ والنوحدي . اما ما وصل الي مما كتبوه وكتبه
 أمثالهم من السهل المحتنع فقد قرأته مرات ولا أزال أقرؤه . ولا يتيسر
 هنا سرد أسماء ما طالعت من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة ،
 وما نظرت فيه من أسفار العلماء الذين كانت لهم يد باسطة في الكتابة
 الرشيقة أمثال ابن حزم والغزالي وابن قتيبة والطبري والمسعودي والدينوري
 والباقلاني والماوردي والزحشمري والراغب الاصفهاني والميداني وأبي الفرج
 الاصفهاني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن خلدون .

هذا اجمال ما يقال في المادة التي تخرجت بها لتقوية ملكة البيان .
 ولطالما سمعت بعض أساتذتي يقول ان أسلوب المرء يخترعه صاحبه لا يقتبسه
 عن غيره ولا ينقله من كتاب فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه
 وفنه . وهذه المادة التي درستها يصل اليها كل مجتهد ويتمثلها الذكي
 الأديب بيد أنها لا تعدو الا لفاظ غالباً ، والعبرة بالتراكيب ، والتراكيب
 ابنة من يصوغها ويزيدها جمالاً علم الكاتب ووفرة اطلاعه . ولا تجود

الكتابة بما تحمل من الالفاظ بل بما تنطوي عليه من المعاني والتلطف في أدائها واطراح التكاف ، وأهم ما تتوقف عليه الاجادة في الانشاء عدم الخوض في موضوع لم يدرسه الكاتب ولم يأخذ من نفسه . والمعاني اذا تجمعت في الذهن لا تهدم قالبا مقبولا تظهر به ، وهذا من السهل على من كان له نصيب وافر من اللغة .

ويجانب من يحاول سرقة الأفكار بأهون سبب ان من المستحيل على من درس العربية سنين محدودة في المدارس الرسمية ولم يمس له الوقت السكافي حتى يتخرج في الانشاء بأستاذ من كبار أساتذة هذا الفن أن يلحق بمن صرف عمراً طويلاً وهو يطالع ويكتب ويتمرن .

الرجوع الى الصواب

بقدر ما أحسن أتاتورك (مصطفى كمال) الى تركيا بجمع شملها والنهوض بها أساء اليها عندما حاول القضاء على لسانها وخطها ومدنيتهما القديمة ، وتترك كل شيء فيها حتى الاذان والخطبة والصلاة والقرآن . وكان يرجى من خلفه عصمت اينونو أن يعيد النظر فيما ابتدعه الرئيس السابق من الأوضاع المعوجة ، ويرجع الأتراك الى ما كانوا عليه من الاعتماد على اللغة العربية في شؤونهم الدينية ، ولكنه ما لبث السكاليين فأبقى كل شيء كما كان وضعه الرئيس الأول .

ولقد أشرنا في هذه المذكرات الى ما ارتكبه السكاليون من محاربة العربية والعطف على كل لغة من لغات العالم ما عداها ، وقلنا ان الزمن سيفصل في هذه القضية ، وها قد حققت الايام ظننا بعض الشيء وعاد الأتراك الى اقامة صلواتهم وأذانهم باللغة العربية .

وما يؤثر أن المجلس الوطني في أنقرة عاصمة تركيا الجديدة ، وبعض أعضائه على دين رئيسهم أتاتورك ، لما عرضت عليه مسألة الرجوع الى

العربية في العبادات وخاف أنصار القديم أن يغلبهم المحدثون قام أحد أعضاء المجلس يؤذن بالعربية فأسكتوه وتبعه ثان فتابع ما بدأ به الأول فأسكتوه ، ثم نهض ثالث فأتم الأذان الى آخره . . فتكهرب المجلس وقرر في الحال اعادة اللغة العربية الى تركيا على النحو الذي كانت عليه منذ ستائة سنة وعلى الطريقة التي جرى عليها المسلمون بأسرهم منذ قام الاسلام . وأصبحت جرائد تركيا تجاهر بتعلم العربية قائلة انها أحق بالعناية من اللغة اللاتينية وهي الأصل المهم من أصول اللغة التركية وبها كتب الكتاب العزيز . سبحان محول الأحوال لا يبقى الا الاصلح والانسب ، ويتوقع كل ساعة القضاء على ما يخالف العقل منها أتى عليه من الزمن .

حرية الكلام

كتب الجاحظ الى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير يقول سمعت بأن شعراً قد رفع اليك فيه عيب لك ، ونقد لبعض عمالك ، فغضبت له وضقت به ، وأمرت بالبحث عن قائله ، لتذيقه غضبك ، وتصب عليه عذابك ، وتعلمه عاقبة طيشه ، ومغبة استخفافه بالسلطان ، واجترائه على الحكم . ثم لم يكفك ذلك ولم يقنعك ، فأمرت أعوانك من الكتاب والعمال أن يتقدموا الى أصحاب الشعر المنظوم والكلام المنشور ، والى ذوي الافلام المشرعة ، والالسنه المنطلقة ، ألا يذكروك فيما ينظمون من شعر أو يكتبون من نثر ، أو يديرون من حديث ، الا بالخير ، وان جنح منهم عن ذلك جانح ، وانحرف منهم منحرف ، فان السجن له مهياً ، والعقاب له مرصد ، والعذاب عليهم محتوم . قال : وأنت بعد ذلك لاتستطيع أن تعقل الالسنه المنطلقة ، ولا أن تحطم الافلام المشرعة ، ولا أن تمنع القلوب من الشعور ، والعقول من التفكير ، فدع الناس وما يشاءون أن يقولوا فيك من الخير والشر ، ومن الحمد

والذم ، وانفع من ذلك كله في اصلاح نفسك ، وفي تجنب ما يشينك الى ما يزينك اه .

وهذا ألقى الجاحظ على أعظم وزراء عصره واعلمهم درساً في اطلاق الحرية للناس يقولون ما يشاءون ، وليس له هو الا الانتفاع من ذلك في اصلاح نفسه . ودعاه الى امتاع الناس بحرية الكلام مبدئاً له مغبة منهم منها وأنه ليس له أن يكلم ألسنتهم لحظ نفسه ومجاراة هواه .

وتنطوي هذه النصيحة الثمينة على معنى جليل وهو أن ابن الزيات على جلالة قدره وسمو منزلته في الدولة ليس في وسعه أن يحول دون الناس وألسنتهم ، وواجبه اذا كان ما يقال فيه حقاً أن ينزله منزلته من الاستفادة ، وان كان غير صواب أن يرمى به عرض الحائط . والسفيه الذي يتقول على عظيم اذا رأى منه اعراضاً وأنه لا يهتم للأقوال الصادرة عن هوى يضطر بعامل الملل الى أن يكف عن هجائه وأذاه .

ولقد رأينا من غرام الملوك والكبراء بالمديح ما أدى الى أن جلب لهم القدح والذم أيضاً ، ولو لم يحرصوا كثيراً على المدح لما كان شأن لما هجوا به ، واذا لاحظ الهجاؤون أن هجاءهم بما تنخلع له قلوب المهجوين زادوا وأفرطوا ، واذا أيقنوا أن صاحب النفس العظيمة لا يابه كثيراً لما يقال فيه يحاذرون صرف أوقاتهم فيما لا يجدي عليهم . وقد رأينا العلي المنزلة التزيه في ذاته لا يعبأ بثرثرة الثرثارين مدحاً كان أم قدحاً . ورأينا هذا الضرب من الاقوال خف الإهتمام به في عهدنا ، لأن الناس تعلموا والمتعلم ينجل أن يصفق للباطل وأن يهرب من الحق .



الحكومة الناجية

أرادت حكومة السيد تاج الدين الحسيني أن تنشر كتاباً في المشاريع التي تمت في أيامها وعهدت اليه بتأليفه ، فتوخيت أن أدعم الأقوال بالأرقام الصحيحة وأبتعد عن الخيال والدعوى التي لا تثبت . وصدر الكتاب باسم « الحكومة السورية في ثلاث سنين » : (من ١٥ شباط ١٩٢٨ الى ١٥ شباط ١٩٣١) فتألم رجال الكتلة الوطنية وحاولوا بكل قوتهم أن يضعفوا من عمل الحكومة .

وقد قدمت للكتاب تمهيداً هذا نصه : لما استلمت الحكومة السورية الحاضرة زمام الأمر قدرت عظم التبعة الملقاة عليها ، فرأت من واجبها معالجة مشاكلها بالنوذة والحزم لاعداد أسباب الراحة للسوريين وانقاذ البلاد من وطأة الأزمة الاقتصادية التي كانت الدولة تنقاذ في غمرتها ، فبدأت بتوطيد الأمن وعمدت الى الضرائب والتكاليف فخفضتها ونظمت طرق الجباية وضاعفت الهمة في ذلك خصوصاً عندما شاهدت رداءة المومسين الاخيرين ، وكان الحصول في الاول قليلاً والأسعار في الثاني متدنية . وكافحت الحشرات الزراعية التي كانت تعبت بالغلات منذ سنين . ثم كان انتشار الجراد في ربيع سنة ١٩٣٠ فكافحته مكافحة عز نظيرها وأنت عليه بكل ما لديها من قوة حتى أنقذت المواسم وحفظت الاشجار من التلف . ولما تحقق لها بؤس حال الفلاح أعطته مبالغ كبيرة يستعين بها على تقويم شأنه وأمهله في أداء الديون والضرائب المستحقة ، ومنها ما أسقطت عن المكلفين بعضه ، ومنها ما ساحت به كله ، واحتفظت بحقوق الدولة بالنسبة لسائر البلاد المشمولة بالانتداب ليحصل التوازن المعقول بين الغنم والغرم في باب المصالح المشتركة ، ولئلا تضطر الى الافتراض لتعد موازنة يتلام خرجها مع دخلها .

ونشأت الحكومة الصناعات الوطنية ورخصت بتأسيس مصرف صناعى واعفت المواد الاولية من الضرائب والرسوم . حتى نشأت في المدن صناعات قلت من الواردات الاجنبية ما امكن . وساعدت على بعث الصناعات الوطنية من مرقدها . وكان المعرض الذي اقامته بدمشق في صيف ١٩٢٩ نموذجاً ناطقاً بتقدم البلاد من هذه الناحية . وبذلك هيات أسباب الرزق للسكان بحيث لا تكاد تجد عاطلاً عن العمل ، في هذه الازمة العالمية الشديدة التي اضطرت بتأثيراتها أرقى بلاد المدنية ، ونال من في جوارنا من الاقطار والاصقاع . نصيب وافر منها أمست معه بلادنا بالقياس الى جيرانها في رخاء ودعة . ويرجع معظم السبب أيضاً في تخفيف ويلات الضائقة المالية الى ما صرفته دولة سورية من الاموال الطائلة على أعمال العمران . كانشاء الطرق المعبدة لتكثير أسباب المواصلات بين البلاد ، وهي تنفق على هذا الفرع مبالغ لا يستهان بها تصرفها من موازنتها السنوية راضية مختارة ، لأنها بعملها هذا تعمر البلاد وتحث مرتفعاً للطبقات التي تتوقف حياتها على عملها اليومي . وبهذا اتصلت المدن بشبكات من السكك المعبدة . ولا تزال الهمة مصروفة الى انجاز طرق القرى لربط امهاتها بالجواضر ومراكز الأفضية والنواحي ليستطيع المزارع أن يحمل حاصلاته الى الاسواق الكبيرة على أيسر وجه .

وسعت في افعاش البلديات وأفرضتها اموالاً جلب المياه النقية ، وتنظيم المدن والداكر على أحدث طراز بضمن راحة السكان والمختلفين اليها فلبست أكثر المدن بل القرى الكبيرة جلاً جديدة . ولا تضي سنون قليلة حتى تنزع عنها ثيابها البالية الرثة ، ويصيب من هذا المعنى قسط من العناية امهات القرى التي أخذت تنشيء بمجالس بلدية .

وعنيت الحكومة عناية خاصة بالصحة العامة فأنشأت عدة مستشفيات ومستوصفات وأقامت الأطباء في الأصقاع التي كان الناس فيها محرومين عناية من يطبهم ويوعى صحتهم . وأخذت تشر بين الطبقات النازلة فائدة الاستشفاء

على أيدي الطبيب بعد أن مضى عليها قرون وهي لا تلجأ في تقويم أبدانها الى غير الدجاجة ، واهتمت بمياه الشرب فأسالت الى بعض المدن والقرى الصالح من الماء للاستعمال فزادت المواليد وقلت الوفيات ، ولا تقدر الزيادة في عدد السكان كل سنة عن ستين الف نسمة . وجنفت بعض المستنقعات المضرة وغرست عليها الأشجار لتحسين الهواء والزينة ، وأنشأت دوراً للحكومة وتخاف لرجال الأمن ومدارس لتلقين العلم ، وجسوراً للتنسير على أبناء السبيل ، واستكثرت من الاسلاك البرقية والهاتفية لتربط أجزاء البلاد بعضها ببعض .

ولقد نشطت الزراعة الى الحد الذي ساعدتها عليه أسبابها المادية والفنية فأدخلت أصنافاً جديدة من الزروع والأشجار . واهتمت بالصناعات الزراعية ونشر الادوات الحديثة والاسمدة الكيماوية . وعملت على زيادة رأس مال المصرف الزراعي وتسهيل اقتراض الفلاح منه بفائدة معتدلة مما يستجني البلاد فائدته عاجلاً أو آجلاً ، ومن جملة الدواعي التي حملتها على الغاء نظام حصر الدخان ووضع نظام الاطلاق أي حرية زراعته وصنعه والاتجار به ، انشاء زراعة رابحة في أرض الدولة كانت في حكم العدم من قبل ، ونعني بها زراعة الدخان على أنواعه ، وإيجاد موارد جديدة من الارتزاق تأتي من صنع اللقائف ، وبما تفتح هذه التجارة للناس من أبواب الربح ، فألفت لذلك الشركات وبدأت المنافسة بينها مما يُنتج تحسین هذا الصنف لما فيه فائدة المستهلك والمستحصل . وقد زادت واردات الدولة بهذا النظام الجديد الى أكثر من ضعفين ، استطاعت الحكومة معه تخفيف العشور والخراج وغيرها وهي تفكر في الغاء الاعشار والاستعاضة عنها بخراج مقبول ، يقلل مشاكل الفلاح ويضمن له عيشاً فيه بعض الرخاء . وكانت الحكومة أبداً في سياستها الاقتصادية ترمي الى تنويع الانتاج والاكتثار منه الى أقصى حد ممكن ، والى القصد في طرح الضرائب وانفاقها في وجوه تأتي بفائدة مثمرة في الجملة .

ولهذا الغرض انشأت لأول عهدها ادارة الري وأمدتها بالمال اللازم لها وقد ظهرت تباشير أعمالها في بعض الاصقاع . والمأمول أن نجبا بالري مئات الالوف من الافدنة تروى من الانهر العظيمة التي تجري بقرها كالفرات ودجلة والخابور والبليخ وجفجف وعفرين والعاصي والاعوج ويودي أو من الافنية المخزونة مياها في جوف الارض ، وكانت مهمة لا ينتفع بها ، أو بواسطة السدود القريبة المأخذ أو من رد المياه الطاغية على أرض للاستفادة منها في أخرى محرومة ، كما هو الحال في بحيرتي العتبية والميجانة . وسيزيد في المستقبل القريب ربح الاهلين من ذلك فلا يضطر بعضهم الى الهجرة ، والذهب مكفول للعامل على سطح أرضه . وبعض هذه الاعمال في السقيا بما يساعد على تحضير البدو ، لاسيما بعد ان شرع بانشاء آبار لهم في الفلوات البعيدة وظهرت آثار الارتفاق بها واضحة جليلة ، وهذه الآبار تساعد ولا شك على تعهد المواشي والاستكثار من انواعها الصالحة في سهول تنبت اجود الاعشاب ومناخها في الغاية من الملائمة لتربية الماشية ولا ينقصها الا ماء طاهر لشرب القائمين على استئدار خيراتنا .

وبما تذرعت به الدولة النزول عن املاكها بالتدريج فباعت في المدن ما لا حاجة لها به وتبييع كل سنة عشرات من القرى من النازلين فيها أهل الزرع والضرع بأسعار متهاودة . تنقضى اثمانها على نجوم وتقاسيط وذلك لتنشيط الزراعات الصغيرة وتوفر موارد العيش لمن كانوا فيما سلف أشبه بالمتشردين وستعطي جانباً من الارض القريبة من البوادي بما تراه صالحاً لنزول العشائر الرحالة وانصاف الرحالة .

ولقد أيقنت الحكومة أن نشر التعليم الابتدائي في المدن والقرى وبين القبائل هو العامل الأكبر في النهوض بالدولة فوجته وجهة عملية على اسلوب يختلف بعض الاختلاف في القرى عن المدن وفي تعليم الذكور عن الاناث ، ولم تغفل التعليم الثانوي والعالي والصناعي والتجاري والزراعي

وعينت كثيراً بدار المعلمين والمعلمات وخرجت عشرات في مدارس فرنسا العليا ليجيء منهم أخصائيون في العلوم والقنون . فجبرت بذلك بعض النقص الذي كان محسوساً في صفوف الأطباء والصيادلة والمحقوقين والمهندسين والماليين والزراعيين والأساتذة على اختلاف فروعهم ، ولا تزال عاملة على املاء الفراغ الماضي برجال يأخذون العلم على أحدث الطرق العصرية ، ولم تضن في هذه السبيل بالمال فضاعفت في عهدها موازنة وزارة المعارف فكانت سياستها في التعليم محاربة الجهل والامية وتثقيف فئة صالحة من أرباب الكفاية لممارسة الأعمال الحرة وتولي الادارة والحكم والتعليم والتنظيم .

وكان من عمل الحكومة في تصنيف الموظفين أن أخرجت من الخدمة عدداً غير قليل واستعاضت عنه بعناصر صالحة من أبناء البلاد المتعلمين . فانتقلت الأعمال الحكومية أو أكثرها الى أيدي تبحر العمل بنشاط ومعرفة ونزاهة ، مع ما هناك من مراقبة ونفتيش . فأمن الصالحون من العاملين على حاضرهم ومستقبلهم ، وأعجبوا ونظامهم الخاص بحميمهم لا يخافون الا من أنفسهم أو يوم يخالفون القوانين المرعية ، ويعبثون بمصلحة الأمة . فقد حظرت عليهم مثلاً الاشتغال بالسياسة ليصرفوا أوقاتهم في تجويد عملهم الخاص ، وتركزت الاحزاب يستمتع القائلون بها بحرياتهم كاملة . على أن لا تخرج عن مضامين القوانين ولا تخل بشيء من أسباب السلام العام .

وقد وسعت الحكومة سلطة رجال الادارة في الأولوية والأفضية وسنت نظام التقاعد فحفظت به حقوق المتقاعدين وضمنت لهم مستقبلهم ومستقبل عيالهم . وساعدت ادارات الأوقاف على استبدال الوقوف لتغدو ملكاً صرفاً لأربابها لا ينازعها فيها منارع . فالتفتت الاوقاف الى توفير ريعها من أملاكها ، وبذلك قامت في دمشق وحلب مبات عظيمة للأوقاف كانت مثلاً جليلاً في باب الهندسة والاستغلال . ونظرة عجي

على الحاكم والدرك والشرطة ودور الحكومة والقضاء في العاصمة وأعمالها يدرك بها الفرق الواقع بين الامس واليوم في التنظيم والتقنين وفصل القضايا وطرق التعليم والتمدين .

وقصارى القول ان البلاد دخلت في طور تجدد محسوس واخذت بالاساليب الحديثة في نشوئها وارتقاءها ، وانشأ الاهلون يحسون بان السكينة مستقرة وان الحكومة عاملة على احقاق الحق بينهم وانها توفر لهم ماوسعتها قوتها اسباب الاعتمال والاتجار . ومن ذلك ما اتخذته من الاسباب الكثيرة لراحة السائحين والمصطافين للاستمتاع بهواء البلاد ومشاهدة مصانعها وعادياتها ، ومنها دوس مشاريع الكهرباء في بعض المدن الصغرى بعد ان جعلت الحظ الاوفر من ذلك للمدن الكبرى ، ومنها مشروع الترامواي والكهرباء في حلب وحماة وحمص وانطاكية ومعاونة الحكومة شركة الجر والتنوير في دمشق لتمدد خطوطها من غرب المدينة الى شمالها الشرقي وتوسع به نحو ثلاثة عشر كيلومتراً حتى يبلغ قصبة دوما فيبعد بعد ذلك قسم من الغوطة الشمالية في جملة احياء مدينة دمشق .

والحكومة تدرس الآن شروط شركات اخرى لانشاء خطوط حديدية تصل بين الساحل واقصى حدود الدولة من الشمال الشرقي الى غير ذلك من المشاريع التي قد لا يظهر اثرها الآن والقصد منها استخراج خيرات الارض وتقريب الابعاد وتيسير المواصلات وفتح منافذ العيش لمن يحبون ان يعيشوا بكدم ، وتعليم الناس اصول التألف والاجتماع ومن ذلك انها هيأت طرق العمل لنقابات الحرف وغرف التجارة والزراعة في المدن ، وكثيراً ما نرات على رغائب القائمين بها حتى احسن القوم بما ضمن لهم من حرية العمل ان كل صوت يرتفع بالحق للحصول على ماينفع يسمع لصاحبه ، وان كل انسان في صعيد هذا الوطن هو شريك متضامن مع جاره . ونهوضه مناط النهوض ببلاده وسعادته تنبعث من سعادتها . ومن اجل هذا لم تدخر الحكومة وسعاً في معاونة الجمعيات الخيرية على

اختلاف مقاصدها ومدت يد المعونة للدارس الوطنية والظائفية والاجنبية
ناظرة الى مصلحة البلاد قبل كل مصلحة .

وفي الصفحات التالية صورة اكبر من هذه الصورة المصغرة تمثل
ماقامت به الحكومة من الاعمال التي تعد نفسها سعيده بتحقيقها . وترى
من واجب الانصاف ان تذكر بالخير عمل حضرات المستشارين الفنيين
الذين آزروا الحكومة الوطنية احسن مؤازرة بفضل مايستمدونه من
روح صاحب الفخامة المسيو بونسو المفوض السامي في سورية ولبنان
ومايصدرون عن آرائه الصائبة في المسائل الجوهرية . والله المسؤول
ان يوفقنا الى خدمة الوطن العزيز لتقوم دعائمه مجده الحاضر كما كانت دعائمه
بجده الغابر على الاوضاع الرشيدة التي يرضى عنها كل صادق الوطني اه .



عزة العلماء

كان العلامة سعيد الاسطواني قاضي دمشق من كبار علماء عصره مشهوراً بالتقوى والصدع بالحق ، وهو صاحب الحزاة العظيمة التي أحرق في حريق سوق الحميدية وكان فيها من الامهات المعتبرة الشيء الكثير . وشعر في بعض أيامه منصب افتاء دمشق وكان السيد الاسطواني في رحلة له الى حمام أبي رباح في جبل قلمون يصحبه قريبه الاستاذ عبد المحسن الاسطواني فقال له هذا : اني مستغرب تركك دمشق في هذه الآونة ووظيفة الافتاء شاغرة وأنت بها أحق المطالبين بتقلدها . فأجابه ان فلاناً وفلاناً من المقدمين في الحكومة كانا يقفان على الاقدام أمام الوالي ساعة وأنا أوقع الاوراق الرسمية كبعض المستخدمين العاديين وأصبحت الآن يقدمان ويؤخران في أمور الولاية ورجالها فأنا غير مستعد لأن أرفعهما على كتفي حتى يرضيا عني ويساعداني على أخذ الافتاء . وكان لمنصب افتاء دمشق مكانة معنوية يجيء المفتي بعد الوالي في المرتبة . وهذا مثال من عزة نفوس العلماء .



لباس الرأس والبدن

من أضحك ما في الشرق العربي تخالف أهله في لباس الرؤوس وكسوة الأبدان ، لا يكاد يشبه قطر قطراً ولا مدينة مدينة ولا قرية قرية . وعلى كثرة المتفلسفين في الدول العربية لم يفز العرب الى الآن بتوحيد لباسهم اللهم الا في جزيرة العرب وما اليها من الأقاليم ، فان معظمها اعتمد من القديم على الكوفية والعقال والعباءة كما اعتمد عليها سكان الريف في الشام والعراق ومصر . احتفظت هذه الأقطار بهذه الكسوة ماثت من الأعوام وما أدخلت عليها تعديلا لملاءمتها هواء أرضها في صيفها وشتائها . أما لباس الرأس في المدن فانواع وأشكال . واتجهت النفوس في الأيام الأخيرة الى استعمال القبعة الافرنجية فحاذر ولاية الأمر في مصر اثاره تآثرة المتعصبين اذا أجازوا لبسها فاضطروا الى العدول عن هذا الرأي . مع أن اللباس من العادات ، وما كان له يوماً اتصال بالدين ، والعرب حتى في عصر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام كانوا يكتسبون الكسوة التي يجدونها وتكون بما يقيمهم الحر والقر . وثبت أن الرسول نفسه لبس ألبسة كانت بما يلبسه الروم .

أما أكسية البدن في المدن العربية فأشكال وألوان أيضاً ، منها ما يقرب من لباس الغربيين كالسراويل والمعاطف ومنها ما يشبه ألبسة المنامة وثياب التبذل وكلها مما يمكن توحيد ، وفي توحيد الراحة للباسين واقتصاد محسوس .

الشعر الرمزي

نموس أحد المتصرين منذ سنين ، وهو دكتور في الآداب على ما يدعي ، فنظم شعراً مجرداً من الأوزان والقوافي ومن المعاني والجمال سماه الشعر الرمزي . وما عتبي عليه للمناداة على شعره في سوق الكساد فالمرء مفتون بشعره ، ولكن العتب على بعض رجال الصحافة الذين يتولون نشر هذا الهذيان المؤذي للأذن المفسد للذوق . قرأ له الناس عدة قصائد فخرجوا منها بلا محصل وأظنه هو لا يستطيع أن يفسر ما كتب . ما أغرب حال طلاب الشهرة وبخاصة إذا حرّمهم الفاطر معظم الأسباب للوصول إليها .

جريمة لا تغفر

ارتكبت جريمة لا تغفر في نظر صاحب الجمهورية فقلت في كتابي « دمشق مدينة السحر والشعر » ما فحواه ان الثورة السورية أضرت بنا فتوقفت الاعمال وخربت البيوت وهلك الناس وأن الثورات تضر أكثر مما تنفع ، فغاض الرئيس قولي لأنني ما لاحظت أنه تأثر ومن أنصار الثورة ، فأخذني على ما صرحت به بواسطة رئيس ديوانه . فقلت له : أمامكم أمران تعتمدون الى أحدهما فاما أن تردوا على ما كتبت في الصحف ، تنقضون رأيي في الثورة والثورات ، واما أن تعرضوا الأمر على القضاء فيحكم علي بما جنيت . ثم ان ما صرحت به من هذا الرأي في مضار الثورات قال به بعض علماء الغرب ومنهم الحكيم غسثاف لبون . وما كان من الرئيس على عادته مع من يغضب عليه الا أن سلط

عليّ بعض الصحف الدمشقية الناطقة بلسانه والمتغذية بمعوناته وانعاماته ،
تتهكم بي وبآرائي . واسترسل أتباعه في هذيانهم أياماً ، وما ذكرني من
قبل جريدة عربية يمثل هذه السلاطة . وهكذا كان الرئيس يتشقى من
لا تروقه أفكاره ، يؤدب بلسان أتباعه كل من لا يقول بقوله ليحلمهم
على مشاركته رأيه بالقوة . يسلط السفهاء على الشرفاء وهذا من
باهر سياسته .

عاطل ومطل

في العادة أن من لا يحب العمل يثبط العاملين حوله . نبغ في القرن
الماضي في دمشق رجل من أولاد التجار ، طلب العلم وظهر نبوغه فيه
ومالت نفسه الى التأليف ، أواخر العقد الثاني من عمره ، فبلغ شيخه
ما يحاوله فقرّعه على جرأته فلم يعبأ بتقريعه ، ودام على ما أخذ من
نفسه ، فجاء منه فقيه عدو من أعظم فقهاء الملة وهو لم يبلغ سن الكهولة ،
عنيت العلامة السيد محمد عابدين صاحب الحاشية ، وعليها المعول في الفتيا
في بعض بلاد الاسلام اليوم .

ونشأ في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وفي دمشق أيضاً رجل
درس العلوم الاسلامية وزاد عليها شيئاً من العلوم العصرية ، وبدأ له
أن يؤلف فألف رسالة وهو في الثامنة عشرة وعرض ما ألف على شيخه
فغضب وقال هازئاً به : لم يبق الا أنت حتى تؤلف . فانقطع الطالب
وقطّع ما ألفه ، وبقي ممتنعاً عن التأليف الى آخر حياته ، لم يكتب
فيه الا ما لا بال له . وهذا هو الاستاذ سليم البخاري . وكان رفيقه الاستاذ
الشيخ طاهر الجزائري يقول : ان انقطاع الاستاذ البخاري عن التأليف
خسارة ولو اطرده عمله لكان مؤلفاً ينتفع به .

وكان الشيخ طاهر ينشط المؤافين الناشئين على التأليف والنشر وإطالما أخذ بأيديهم في مصر والشام . وهذا هو الفرق بين عقلية وعقلية معاصريه ومن سبقوهم من المشايخ . وهؤلاء كان همهم مصروفاً الى معرفة القواعد وحل عبارات الكتب التي يتدارسونها ، وما كتب لهم أن فكروا في العمل بها على ما يجب . ويزيدون الى ذلك سبئة أخرى وهي قطع الناس عن الخروج على مألوفهم .

الطيب والخبث

كثيراً ما رجوت بعض المتسرعين في أحكامهم ألا يجروا نقدهم بصورة عامة ، وأن يخصصوا بانتقادهم الفرد لا يؤاخذون المجموع بما ارتكبه واحد أو آحاد ، وأقول ليس المعيار في الرجل مذهبه ولا بلده ولا جنسيته وما المعيار الا أخلاقه ، والأخلاق تختلف في رجل رجل كما تختلف صور الآدميين . وأضرب مثلاً لذلك بشاعرين معاصرين أحدهما نجفي عراقي والثاني عاملي شامي . هاجر الأول الى الشام فأكبر الشاميون أدبه وأخلاقه وكثر أصحابه ومريدوه في كل بلد ، نزل ، وكانت اذا وافى مجلساً ودّ جلّاسه لو أطلّ جلوسه ليمتعمهم بحديثه ويطربهم بنفثات شعره وكان الثاني اذا دخل مجلساً تنقبض النفوس منه لأنه جاسوس لدولة أجنبية والجاسوس مكروه بالفطرة فكيف اذا كان يجادل فيما لا يعلم ويطعن برجال الاسلام ، ولا يخجل من التدخل فيما لا يعنيه ، وكان ثقيل الظل اذا اختلف الى مجلس يضيع أوقات أهله بما حكاه ، ومن عادته أن يسأل كل من تقع عينه عليه عن الأخبار ، ويحاول كشف خبيثات النفوس . الأول أجمع على حبه كل الطوائف والثاني تكرهه حتى طائفته .

اجتماعيات

من يطلب اماناً من الدهر كان كالذي يطلب ان تطلع الشمس
ويغيب القمر بأمره .

لا تخطب فتاة الا بعد تقصيك أخبار أمها وجدتها ، حياة الفتاة
تكملة حياة أهلها .

عدو من يكذب عليك أنه يحتقرك ، والأمثل بك مع من كانت
هذه حاله ألا تسمعه كلامك ولا توبه وجهك .

ما أضيّق عقل من يكذب عليك كذباً ظاهراً ، وهو عند نفسه
أنه يخدعك .

الحلوة بغير المحارم فتنه ، ان دعت الدواعي الى الاجتماع بالنساء
في معزل ، فليكن ذلك بحضور أهلن وأزواجهن .

خلاصة ما نوصف به التربية الانكليزية والتربية الفرنسية أن الشاب
الانكليزي يتعلم مسائل قليلة ويتمثلها فتعده للحياة خير اعداد من أول
يوم يدخل في معتركها ، والفرنسي يتعلم أشياء كثيرة ويحفظ ما لا يلزمه ،
ولكنه ما يحشو رأسه من المعلومات تضعف فيه ملكة الابداع . ومنى
جنح الفرنسي للعمل بعد الدراسة الطويلة لا يدري من أي يبدأ ، وما يبدأ
الا من حيث ينتهي الانكليزي . وهذا امر تفوق التربية الانكلوسكسونية
على التربية اللاتينية .

خلو مجالس الرجال من النساء نقص في شروط الاجتماع ، والمجلس المؤلف من احد الجنسين فقط مصاب بالجمود .

من بعض الخطاط المسلمين خروجهم في الحجاب عن هدي الشرع وسنة قدماء العرب ، وأخذهم بمصطلح الأعاجم المشاركة .

راقتني كلمة لشيخ شيوخ الأزهر عند كلامه على الصيام في رمضان . قال : ان من يفطر ويقول فطرت لعذر مشروع يقدره هو نفسه أفضل عند الله ممن يكذب ويدعي انه صائم .

لا نحرّم نفسك اللذات المحلّة . اذا ابتليت بما يحرمه الشرع وينكره العقل فأقلل منه جهداً .

متى عودنا أولادنا كراهة الكلام البذيء يخف ما نسمعه من بداهات ، ومتى دربناهم على النفرة من الكذب لا يجد الباحث بعد جيلين أو ثلاثة كذاباً ولا بذيء اللسان .

ما قيمة الحكومات الدستورية اذا عهد بتطبيق قوانينها الى أناس لا ترتقي عقولهم عن عقول العوام : الاوضاع أوضاع الخاصة ، والعامة هي الحاكمة المتحركة .

مأتم الى عرس ، بكاء الى ضحك ، بؤس الى نعيم ، فقر الى غنى . هذا تعريف الحياة الدنيا .

كانوا يقولون لا تخف الا من صاحب الكتاب الواحد ، لاحكامه غالباً كل ما فيه . ولا يكفي طالب العلم في عصرنا من الكتب بعشرات المجلدات على حين لا يستحضر في ذهنه جزءاً صغيراً مما حوته ، ولهذا عمد الغربيون الى الاستكثار من الجزرات والفهارس المرجوع اليها عند البحث ، حتى كاد العلم ينقلب الى جزرات وفهارس .

اتفق أن. رأس أحد المجالس النيابية أعلم الأعضاء ، فلما غاب نائب عنه أجهلهم ، وفي قانونهم أن يرأس في غياب الرئيس الأصل أكبر الأعضاء سناً ولو كان أجهل من قاضي جبّيل . ما أغربه من قانون .

السياسة غير الادارة ، والطب غير الصيدلة ، والخطابة غير الكتابة ، وقلّ أن تفوق من يحاول الجمع بين فرعين .

يؤكد بعضهم أن من يعانون الحماسة والطب اليوم من لا يكتبون من مهنتهم ما يسد الرمق ، وكان الأليق بمن لا استعداد لهم للدرس والبحث أن ينصرفوا الى الاشتغال اليدوية والتجارات العادية . تتوقف الحماسة والطب على ثقب ذهن ، والشهادة وحدها لا تنفع للنبوغ في هاتين الصناعتين .

كان بعض من سمعهم يخطبون في ابدأ أقرب الى الركافة والفهافة ، ولطالما استأزت نفسي من سماع كلام المرتجلين منهم ، وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم في الواقع غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يرزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاستغفال .

إذا خافك صاحب لك بدد خوفه ، وإذا استضعفك انسان أبرز قوتك ، وحاذر ان استطعت ألا يعرف من يحيط بك كل ما لك من أسباب القوة والضعف .

أنكر أحد أرباب المجلات المصرية وجود المجمع العلمي العربي لما غضب على رئيسه فكان شأنه في ذلك شأن من حنق على شخص من بلدة فأنكر المدينة ومن فيها .

تظهر الثورات حالات من الناس كانت قبلاً خاملة مغمورة ، كالغدير متى عكر ماؤه يظهر فيه الوحل والطين .

ما برحت الدولة اليونانية منذ نزعَت يدها من حكم الأتراك في القرن الماضي تضم إليها كل من تيسر لها ضمهم من أبناء جنسها ، الوطنية اليونانية قوية في معظم مظاهرها على قلة عدد أبنائها وصغر مساحة أرضها .

كانت الدولة العثمانية كلها انسلخ عنها قطر أو أقطار تحمل ما كانت تأخذه منه من المغارم على ما بقي لها من ولاياتها . فلما خرج عن تركيا في الحرب العالمية الأولى نصف أملاكها جزأت ما بقي منها وصاغت منه ولايات متعددة ليقال إنها مملكة كبرى على نحو ما كانت أيام الامبراطورية العثمانية .

قال الحجاج لابن الكلبي : أخبرني عن خمسة أشياء أضيعت في الدنيا . قال نعم أصلح الله الأمير : مرآج بوقد في شمس ، ومطر جود في أرض سبخة ، وامرأة حسناء زُفت الى عنيب . وطعام اجتهد صاحبه في صنعه فقدمه الى سكران أو شبعان ، ومعروف تصنعه الى رجل لا يشكره عليه . وأزيد على قوله : وعلم يئسه صاحبه في جهلاء لاستعداد لهم لتلقيه .

الكسل عامل قوي في خراب البيوت القديمة ، يتكل كل فرد من أبنائها على أخيه وعمه حتى ليصبحوا كلهم كسالى اتكاليين ، وما كان آباؤهم كذلك على ما يظهر .

أثقل ما كان يشغل على نفسي علم الرسوم (البرونوكول والاتيكييت) . من الناس من خلقوا لها ولذتهم في معاناتها ، ومنهم من يستنقلون القيام بما تفرضه عليهم . يُضيع الملوك وكبار الدولة بعض أوقاتهم في الرسوم والرسميات ، وقد يجردون فيها غبطة وبهجة ، ولو جنحت الحكومات الى السذاجة في رسومها لتوفر لها وقت ما كان أجدره أن يصرف بما يفيدها ويفيد رعاياها .

عهدت رجالاً برعوا في علوم ينافي بعضها بعضاً . شاهدت كبارياً
يبرز في الادب ، وطيبياً شاعراً ، ورياضياً فائزاً .

رأيت بعضهم يدهشون بجمال احدى العقائل وشاهدت غيرهم يستقبحون
ما فيها من القسَمات . وهذا من العوامل التي تيسر زواج بعض القبيحات ،
فان عين المستحسن ترى ما لا تراه باصرة المستقبح .

اذا اجتمع بضعة أشخاص ترأسهم واحد بالطبيعة ، ومضى حادوا عن
هذا النظام يسري اليهم الاختلاف وسوء التدبير .

لو أزمع المغتربون من الديار الشامية العودة الى أوطانهم يحملون
ما اكتسبوه في مهاجرهم من ثروات لأصبحت الشام من أغنى أقطار العالم .

قالوا ان حب فلان على مقدار منفعته من حبيبه ، أصلحهم الله وهل
الحياة الا منافع ونحن أبناءها ؟

ليت المجتمع يستبقي ما لا سبيل الى البقاء بغيره من أسباب المدنية
وذلك بصقل مدنيته الحاضرة صقلاً خفيفاً ويرفع معظم ما فيها من قيود وتقييد .

عجبوا من رجل كان معدوداً في أغنياء التجار فلما مات لم يخلف
الا ما لا بال له من عروض ونحف . فقلت لانعجبوا ان من عادة الخلق
التعوز في تقدير الثروات ليثبتوا قلة تقديرهم ومن شأن التجار أن يكتسبوا
حقيقة ما تملكه أيديهم .

كثيراً ما كنت أنفى لو تيسر جمع من أحب من أصحابي في صعيد
واحد ، وأن يبعد عن عيني من ييغضهم قلبي لردائهم ونذالتهم .

لو جاوز المسلمون لانفسهم أن يعاملوا غير من يدينون دينهم كما

اعتاد بعض هؤلاء أن يعاملوا من يخالفونهم أي لا يتعاملون الا وابناء
مذهبهم - مامت مدة الا اضطر المقاطعون انفسهم الى الهجرة .

اعتاد معظم من تقلدوا كبريات الاعمال من غير المسلمين أن يحشروا
في خدمة الحكومة أكبر عدد ممكن من أبناء نحلهم ، والا يعاونوا
غيرهم من أرباب المذاهب الاخرى ان امكن . عادة دنيئة تدل على ضعف
وطنية وقلة عقل .

الصحف المعتدلة للهجرة أقرب الى الانتفاع بما تكتب من صحف
الاحزاب والمهوسين بالوطنية ، وضرر الصحف التي لا تعرف غير الهدم
ولا تحسن البناء أشد من نفعها .

كلما ضعف عدد الاميين زاد قراء الصحف وعقد الرجاء على صدور
آخذة بنواصي السكال من حيث مظهرها وصدق لهجتها وسرعة أخبارها
وتنوع مقالاتها ، حتى لتغدو اشبه بمدرسة يتعلم بها القاري كل يوم ما ينير
أمامه سبيل الحياة . مطالعة جريدة راقية مدة من الزمن تقرب العوام
من مرتبة الخواص في التفكير الصحيح فتعذر بعدها مغالطتهم في
الحقائق الراهنة .

قال لي والدي : كنت مشتركاً بجريدة « الجوائب » التي كان يصورها
احمد فارس الشدياق في الاسنانة ، وكان كاتبي يقرأها علي ويشرح لي
المبهم من عباراتها . فقرأت مرة بين السطور كما يقولون : ان مصير السلطان
عبد العزيز الخلع ، وذلك قبل خلعها بالفعل بأربعة أشهر ، فلما خلع لم
استغرب خلعها . من يفكر ويطيل التفكير فيما يتلو أو يتلى عليه خير
من يكثر من القراءة ويفعل التفكير .

يفلح على الاغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه ولا يغتر بما يقول

فيه أصفياؤه . نقد العدو أجدى من تقرّظ الولي .

لما بلغ رئيس انقضت أيام حكمه انتخاب رئيس جديد خلفاً له أنعمي عليه فأشار عليه الأطباء أن يتبعد عن المزعجات ابقاء على صحته . ولو أدرك أن ماحدث لم يخرج عن الامور الطبيعية لاكتفى بأن يقول كل منصوب معزول .

النقد حياة المجتمعات ، به ارتقى الشعر والنثر ، وبه ارتقت الخطب والتأليف ، ولا يخاف النقد الا رب العلم الضعيف .

لا يكتب التوفيق لكل من يتحدث الى الناس الا على الندرة . المحدث كالخطيب لا يصفق له تصفيق استحسان الا اذا ابقى في نفوس السامعين أثراً نهمز نغمته أوتار قلوبهم .

كلما خطت المجتمعات خطوة تألفت النقابات واشتد العملة في المطالبة بحقوقهم وعمدوا الى اضراباتهم لاقل شيء ، والاضراب أول ما يباعجون به مسائلهم مع الحكومات وأصحاب المعامل .

قال لي أحد الأذكياء ممن برعوا باللغة الفرنسية من الشاميين وصرفوا جانباً من وقتهم بعد الدراسة الجامعية في كتابه اطروحات الكسالى من الطلبة الشرقيين مقابل أجر يوفق به : كان هذا شأن معظم طلابنا في اطروحاتهم ، فقلت له : لذلك نراهم أحجموا عن نقلها الى العربية لأنهم لا يحسنون فهم ما ظهر بأسمائهم باللغة الانجليزية ، وما أهمهم بما نشره الا احراز لقب « دكتور » وقد لاحظت أن بعض الاطروحات حملت أفكاراً تخالف معتقدات أصحابها ، لأن من كتبها ما كان يعرف مذهب من ظهرت الاطروحة باسمه .

تحرص المدارس على تكثير سواد الطلبة في صفوفها ، وعلى تخريج أكبر عدد من حملة شهادتها ، ولو عقل بعض التلاميذ الذين أدوا فحوصهم بمشقة كبيرة حتى انتقلوا من فرقة الى فرقة الى أن انتهوا بمدرسة الحياة ، لانصرفوا لاتخاذ أسباب للعيش أقرب الى نجاحهم من خدمة تحتاج الى علم غزير ، وقريحة وقادة ، ودؤوب مطرد .

شهدت في ستين سنة من تبدل في هذا العالم ما لم تشهد الانسانية مثله في قرون . وقد مرر بي أكثر ما عاينت كما تمر الصور المتحركة على الشاشة البيضاء . رأيت كل مدهش وغريب وما غيرت رأيي في ذكاء البشر وبلاغته ، وفي صلاحه وخبئه ، وكان الحديث أوفر من الصالح والمتوحش لا يزال الكثرة الكثيرة .

قلبت سرعة المواصلات نظام الكائنات ، فتحت علينا ان نحفظ أشياء متنوعة حفظاً سريعاً بدون تدبر ، وألا نمتنع كما كان يتمنع أجدادنا بالسكون والهدوء ، ولا نعصم بالصبر لنهضم ما نتعلم ونتذوق اللذائذ الروحية

كان يرجى لبعضهم أن يكون منهم رجال يستحقون اسم الرجولية لما بدا عليهم من علائم النجابة لأول نشأتهم . فدارت الأيام وعلت بهم السن فشاهدوا على غير ما كانوا عليه في أول المحطة ، وما أثر عنهم الا خدمة أنفسهم بالحق والباطل ، وما أفدموا على أمر يكون منه نفع جيранهم .

اعتاد بعض شعوب الغرب أن يرتحلوا كل مدة الى ديار بعيدة وان كانت أرباً هواء من بلدهم . ذلك لأن في التنقل صحة للأبدان وترويضاً للأذهان . لا تتوقف عن الاستجمام أياماً معدودة من السنة فالمثل يدخل من اتصال العمل ، والمستجم يصبح بعد العطلة أوفر نشاطاً وأشد شوقاً لما ينصرف اليه ، والوقت الذي يقضى في النزعة والتنقل معوض باضعافه .

قل أن رأيت صوفياً أفلح في علم من العلوم الدنيوية والأخروية
وكنّت اذا تأملت ملامح بعض أصحاب الطرق أتصفح فيها المكر الى
جانب الذكاء .

دعاني بعض ملوك العرب الى النزول عليه واتخاذ بلده موطناً ، ومنهم
من عين لي نوع الخدمة التي يتطلبها مني فاعتذرت وشكرت ، ومنهم من
قبل عذري وتفضل ورفع الطلب عني ، ومنهم من لم يقم لي عذراً ،
وأصرّ أعواماً على تنفيذ رغبته . ولو كنّت أجد من نفسي استعداداً
لخدمة الملوك ما ترددت في انفاذ أمرهم ، وأنا الى هذا ما أحبيت الانتفاع
منهم من دون أن أنفعهم .

غالب الزعماء اذا ابتسموا لاحد توقعوا جزاء ابتسامتهم ، وجزاؤها
عندهم أن تقف شخصية المبتسم له في شخصيتهم .

رأينا أحرار العلماء على الدهر يفرون من الملوك احتفاظاً باستقلالهم
الشخصي ولأموار نفسية لا يسعهم التحلل منها . والملوك امس واليوم
يحرصون على استنباع أصحاب المكانة على النحو الذي يروقهم هم .

من عجيب الظواهر الاجتماعية حوالة الاسواق وتحديد اسعار الاشياء
بعامل خفي . ومن أغربها قسمة الارزاق بين الخلق كأن الفطرة ترى
نفسها ملزمة بتقديمهم لهم .

الى القرن الخامس من الميلاد كان رجال الدين في النصرانية يتزوجون
ويُنسلون كرؤساء الاديان الاخرى . فلما فرضت الرهبانية على طوائف
منهم حتى لا يشتغل رجل الدين بعياله مما يفرض عليه القيام به من الواجبات
أصبحت العزوبة غير مستنكرة عندهم يقبلها من ينذر التبتل ولا يرى
شيئاً من الجور فيما قضت .

رأيت راهبة كانت على جمال فتان فعجبت كيف رضية أن تقطم نفسها برضاها عن لذائذ الدنيا ابتغاء ثواب الآخرة . سلطان الدين على بعض النفوس أعظم من كل سلطان .

كان في فلسطين دير للراهبات مسور أحكم تسوير ، لا ترى الراهبة فيه رجلا ولا تخرج من قلايتها حتى تموت . شأنها شأن بعض نساء نابلس فانهم ما كن فيما مضى يغادرون بيوت أزواجهم الا يوم يحملن الى مقرهن الاخير .

قال لي أحد أصدقائي الأعزة ، وهو ممن يحسن التصرف بدخله وخرجه وقد اشتهر بحميل الحيلة في تدبير ما يقتصد من رواتبه وأعماله المالية ، وهو لا يقاتر ولا يغامر ، اني نظرت فيما جمعت طول عمرى من مال فلم تبلغ ثروتي عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً ، هذا مع تجوزي في تقدير قيمة ما أملك . وصمت بعضهم بقدر ثروته بمئة ألف ليرة عثمانية ذهبية . وماذا تقول بعد هذا في غلونا بتخمين الثروات والتوسع في غموض أرقامها .

لو عقل المقامرون يوم يخسرون الحسارات العظيمة لافدوموا على الانتحار من تلقاء أنفسهم . وبذلك كان ينزل عدد اللاعبين والمتلاعبين .

راقبت ثروة ثلاثة من بيت يدعي أهله الشرف ، جمعوا ثرواتهم من الربا والرشا وأخذ الصدقات باسم ولاية جدم . وقد أضاع أبناؤهم ما ورثوه في وقت قصير . كنت أذهب الى أن المال الحلال يبقى لأصحابه مدة أطول من المال الحرام فظهر أن كل ثروة مهما كان أصلها اذا انتقلت الى سفهاء تضمحل في وقت قليل .

اعتاد القوم اذا أضاع ابن أحد الاغنياء ثروته بقله ادارته وكثرة سفاهته أن يسعى بعض من تأخذهم الشفقة عليه الى توظيفه في الحكومة

كأن دواوين الدولة تكتايا للمنكوبين والمفلوكين ، أو رباطات لا بد فيها من اطعام المساكين والجانحين .

تخرج المدارس الى جانب النباه من طلابها طائفة كبيرة من الاغنياء ربما كان حظهم من الظهور حظ الفئة الذكية وزيادة ، ولو حسن انتقاء الطلبة لجاء المتخرجون كلهم من الطراز الجيد في الجملة ، وعندئذ تضطر بعض المدارس العالية الى اغلاق أبوابها لقلة من تنطبق عليهم شروط القبول أولاً وشروط الحصول على الشهادات ثانياً .

قال لي موظف مقدم في احدى المفوضيات العربية : كنا اذا عزمنا في مصر ان نأديب مأدبة رسمية نرسل الى الحكومة المحلية رجلاً نبيهاً من جماعتنا ليحقق لنا توافيق رتب بعض المدعوين من المصريين . فان تقديم واحد على آخر في المائدة أو تأخير من حقه التقدم على جاره مما يشتد فيه الاعتراض على صاحب الدعوة . ما أسخف الحكومات التي تشغل وقتها ووقت الناس بالفضول .

من الاسباب التي تزيد عيوب المجتمع أن الناس لا يصدق بعضهم بعضاً فيما يرون في أنفسهم من نقص ونقصير . ولو أن كل امرئ يرسل نقده على ما يرى في صاحبه من شذوذ لكان يرجى أن تسير المجتمعات نحو الكمال .

لا تغرنك ابتسامه امرأة ليست لك معها علاقة شرعية ، انها تحاول أن تنزع منك ثوباً طريفاً أو حلياً جميلاً أو مبلغاً من المال .

من يزعم ان النساء لا يختلفن عن الرجال بعقولهن واستعدادهن لكل ما استعداد الرجل لا يرمي بقوله الا الى خداعهن خداعاً ظاهراً وبجاملتهن بجاملة باردة . ومن الغريب ان مداواة المداحين تجوز على اللائي يفرض فيهن الذكاء من بنات حواء .

النساء اقرب الى العفة من الرجال ، والنساء اشد مكرراً من الرجال .

المال الذي يدره من النفط على صاحب نجد والحجاز عامل قوي لاخراج بلده من البداوة . قالوا انه انشأ له في الرياض قصرأ عظيماً ذا عدة طبقات يصعد الى الطابق العلوي منه بالسيارة ، وما كان يجري في خيال ابن نجد أن تبلغ دياره من البذخ هذا المبلغ لولا وفرة المال في خزانة دولته .

لا تطرح أفكارك على من لا يرجي انتفاعهم منها ويحتفرونها في باطنهم ، الافكار كالجواهر صنها عن القائم في معالف الخنازير .

ليست السعادة بكثرة المال يجمعه جامع في صندوق أو بوظفه في شركة أو في مصرف أو يتناع به أرضاً أو عقاراً . قد يكون عامل يعيش بالمياومة أسعد من غني يملك عشرات الألوف من الدنانير أو مئات من الأفدنة وعشرات من العمارات ، وما الاغنياء — الذين حرصوا الحرص كله على تنمية ثرواتهم وما انتفعوا منها في حياتهم بأكثر من انتفاع المقل المعدم — سوى وكلاء أمناء لورثتهم . واني لأفضل والدأ يخلف بضعة أولاد متعلمين على والد بورث كل ولد من اولاده ثروة تكفيه ليعيش مرفهاً ، ويتركهم جهلاء لا يحسنون شيئاً من امور الدنيا .

علم لا ينفع

ذكرت احدى المجلات الغربية خلال كلامها على تنقل ملايين من السكان في ديار الغرب مدة الحرب الأخيرة أن ثقافة المثقفين كانت مصيبة عظيمة عليهم فان معظم الممالك التي أهملت بالفاديين عليها كانت تقدر أن عندها حاجتها من الاطباء والامسائذ ورجال القانون والمفنين والمهندسين ، فاضطر بعض رجال المحاماة والطب من أبناء بولونيا وغيرها يوم قصدوا للهجرة الى كندا أن ينزعوا ثوب ثقافتهم العلمية يكتسوا ثياب حطابين حتى يدخلوا كندا لأن حكومتها تؤثر شخوص الحطابين الى بلادها لاستثمار ما عندها من غابات على أن يقصدها العلماء . الشرق الأدنى يشكو قلة هذا الصنف من الناهيين وكندا شبت من هذه الطبقة وترغب في مساكنة الحطابين !

واجب المؤرخ

سألت كاتبة افرنسية السيد كوتزاك دي رينولد أستاذ التاريخ في جامعة فريبورغ السويسرية رأيها في الصفات التي يجب أن يتعل بها المؤرخ فأجابها أرى أنه يصعب تحديد هذه الصفات واني لموقن أن التعليم الجامعي وحده لا يكفي فالتاريخ مثل كثير من العلوم يدخل عليه بالوثائق والاختصاصيين ، بالامس كانت الاشجار تحول دون رؤية الغابة واليوم يحول دونها العوسج والبلان . وكان المؤرخون من عهد شيشرون الى ميشله وسان توما داكين يعتقدون أن للتاريخ غاية وهي تعليم الناس ليعيشوا في المجتمع . وقال سان توما داكين : تتألف الحكمة السياسية من تجارب الماضي

ومعرفة الحاضر حتى يبا المستقبل أحسن تهيئة . وأرانا اليوم ونحن نتم بجم وإلم
وسط الحرائب والانقراض التي نطمح الى الوصول الى أن نجد لها البناء
وكل دور تعمیر يجب أن يسايره دور تركيب . ومن ينكرون التاريخ
هم في حاجة اليه . واني لأسف أن يرجع يوم وضع المعاهدات وتصحيح
الحدود الى الاختصاصيين في الاقتصاد والى علماء القانون وننسى استشارة
المؤرخين . يعظم عدد من يجهلون الماضي من السياسيين المحترفين ، وفي
وسعنا الآن أن ننظم قائمة جميلة بالأغلاط التي ارتكبت بين الحربين
الاخيرتين ، فالسياسيون لا يحبون التاريخ ويضيقون به ذرعاً وهو يؤلمهم .
قالت السكاتبة فقلت له : ولعل هذا الجهل آت من أن معرفة التاريخ
تتطلب جهداً كثيراً . قال : نعم وقد لاحظت في رحلة لي الى أميركا
الجنوبية أن ممالك فنية فيها تشكو من أنها لا تعرف الى أين تسير وذلك
لأنها تجهل من أين أتت .

هذا رأي كبير من المؤرخين في أرقى أمة غربية ، وما نزال أن
من يدعون خدمة التاريخ في أرضنا قد أعدوا العدد اللازمة لتبزيهم في
صناعتهم . ونقل كلام من سبق المؤلف دون العناية بتسلسل الحوادث
وربطها برباط محكم واستخراج الدرس النافع منها ليس من التاريخ
الصحيح في شيء .



المصطلحات الجرمية

اصطلحوا في الغرب منذ أمد غير بعيد أن يكتفوا في بعض الأسماء المطولة بأوائل الحروف حباً بالاختصار . وكانت هذه الأسماء قليلة باديء بدء بمكن القاريء العادي حفظها فزادت زيادة عظيمة حتى مست الحاجة الى وضع معجم مطول لها يرجع اليه القاريء فيما يشكل عليه . ومن المبهات التي تعوق سير المطالع في اللغات الافرنجية أنك تجد في بعض العبارات ألفاظاً وأحياناً مقاطع وسطوراً من لغة غير اللغة التي يكتب فيها الكاتب وذلك من دون أن يضع الى جانبها ترجمتها كأن الكاتب يذهب الى أن كل مطالع يفرض فيه أنه يفهم هذه المفردات كما يفهم مفردات لغته . وأن مطالع صحيفة افرنسية لابد أن يعرف اللاتينية واليونانية بل الانكليزية والالمانية وغيرها من لغات الغرب .

وسرت هذه البدعة الى اللغة العربية فان التراجمة المحدثين في الصحف اليومية وغيرها اذا لم يمتدوا الى لفظ عربي يؤدي معنى اللفظ الافرنجي يقتصرون على وضع اللفظة الافرنجية بمرمتها اعتقاداً منهم أن القاريء لا تفوته وهو اذا لم يفهمها حق فهمها تديه القرينة الى فهمها .



تقايم

قال لي صديق : كان في بلدتنا معمر صمّت أذنه في صباه فلا يتكلم الا باللهجة التي سمعها في أيامه الأولى ، فكنا اذا أردنا استماع لهجتنا القديمة قبل سبعين أو ثمانين سنة نزوره ونتحدث اليه فنسمع غرائب . وتصدق حال هذا الاطروش على من يحكمون اليوم بعقلية القرون الماضية ولا يخرجون عما اعتقدوه وهم اطفال ويصمون آذانهم عن سماع الجديد . ومن الامثلة الظاهرة في هذا الباب رؤساء بعض الفرق الاسلامية الذين خالفوا أهل السنة والجماعة .

كان من عادة بعض من يُعنون بالآداب في الدهر السالف أن يدعوا قول الشعر وهم لا يحسنون إلا أوزانه وقوافيه ، ليقال عنهم انهم شعراء ، وكان لبعض الفقهاء والمحدثين ولع في وضع تفاسير للكتاب العزيز ليقال عنهم انهم من المفسرين أيضاً . وبعض السخفاء في مصر اليوم يدعون الفلسفة وهم ليسوا منها في العير ولا في النفير .

امتنع جهدي عن مقابلة مراسلي الصحف في كل بلدٍ أنزله ، وابتعد عن فتح أحاديث معهم مها كان لونها ، وذلك لأن منهم من اعتاد أن يسع شيئاً ويضيف اليه أشياء . وما عمدت الى هذه السياسة التي قد تكلفني غضبهم الا بعد أن تكرر رجائي اليهم أن يطلعوني على ماينقلون عني قبل طبعه ، وقلما أجابوا لي طلباً . وآخر ماحدث أن أرادني أحدهم على أن أصرح له برأيي في كتاب المعاصرين ، فقلت له ماعرفت عن بعضهم من حاضر البديهة ، وكان الحديث من أحاديث المباشطة لايقصد منه النشر ، فما راعني الا والحديث يصدر في الجريدة مضافاً اليه ما لم أقله ، وعزا الي كاتب الحديث كلاماً عن كتاب آخرين ،

لم أعرفهم ولم أقرأ لهم شيئاً ، ووضع من شخصيات عرفتهم فأكبرتهم
وكانوا من أصدقائي المخلصين ، وكنت ومازلت من أول المعجبين بما
ألفوا ونشروا .

تغلب المعارضون في الانتخابات الأخيرة في تركيا وتناولوا زمام
الحكم بعد أن تمتع به الكاليون أزيد من عشرين عاماً . وكان حكمهم
حكماً نيابياً بالاسم واستبدادياً طاغياً بالفعل . قالوا وكان السبب في
سقوط الحكومة الماضية تفشي الرشوة تفشياً عظيماً ، واتجار رجال الحكم
بما لايجل لهم الاتجار به من أصناف المأكولات والملبوسات وغيرها .
أما الرشوة في تركيا فلم تبطل منذ أقدم عصورها ، وزادت في عهد
الجمهورية بسبب الاقتصاد من رواتب المستخدمين وصرف معظم الموازنة
في التسليح .

أخذت المحاكم الشرعية تشدد في زواج الشيوخ والكهول من الفتيات ،
كما تحظر الجمع بين زوجتين الا لضرورة ماسة ، وبهذا التضييق بات
يرجى دخول النظام في البيوت الاسلامية .

كان المسلمون في معظم الحروب بين دول الشرق الاسلامي ودول
الغرب النصراني يبدؤون أعداءهم بالحرب ، وفي الحروب الصليبية كانت
الدول النصرانية هي البادئة وكذلك في حروب الاستعمار .

نشأت الدعوة الى الاسلام دينية محضة ثم ظهر مع الأيام ان من
الصعب انتشاره ان لم تدعم الدعوة الدينية بالدعوة السياسية ، والدين أبداً
يحتاج الى الدنيا .

قد يكون لموقع البلد مدخل كبير في سعادة أهله وشفائه . تجاذبت
روسيا وألمانيا كلاً من رومانيا وإيراث للاستثمار بآبار النفط فشقت

رومانيا وايران . آبار النفط أغنت دولتي العراق والمملكة السعودية وآبار النفط حملت الشقاء لرومانيا وايران فصاحب النفط في هذا العصر يسعد ويشقى .

نصح أحد كبار الأميركان لصاحب الحجاز ونجد أن لا يمنح امتيازاً لأجنبي في ملكته ، حتى لا يكون ذلك سبباً في دخول الاستعمار اليها . وأنا أذيل على هذه النصيحة : اذا كنا لانحسن استثمار خيرات أرضنا بأبدينا ونمتنع من اعطاء الأجانب الحق في اعانتنا على استخراج ما لدينا من ثروة طبيعية ، فمى يقدر لنا أن ننهض وأكثر ملوك العرب يصون آذانهم عن سماع دعوة الاصلاح ويحولون دون وصول النور الى العقول حتى لا يطالب رعاياهم بحقوقهم اذا تعلموا واستنارت عقولهم .

دخل فقيه تقي على أحد الرؤساء فاستخف به وتجهم له ، وبعد دقائق وافاه أحد الرعاع فوقف الرئيس له وقفه اجلال وتقدم خطوات الى الامام لتلقيه ، وبش في وجهه وصافحه وسأله عن حاله وحال عياله ، فما وسع ذاك العالم المسكين الا أن تسلل من المجلس مكسور القلب . دليل ناصع على حسن سياسة الرئيس ومثانة دينه !

كان من عادة أحد كبار الرؤساء ان يعامل أرقى طبقة من الأمة معاملة كبرياء وترفع ، كأن يقوم لهم بشكاف ، ويعبس في وجوههم عند دخولهم وخروجهم ، ولا يتزحزح خطوة عن مقعده ، أو يستقبلهم واقفاً على قدميه حتى لا يجلسوا بحضرتة ، حاسباً نفسه هامان على عرشه ، أو ملكاً جباراً من ملوك الأزمان الماضية ، وهو الى ذلك لا يدخر وسعاً في رفع شأن الطبقات الوضيعة ، يحسن لقاءها ولو آتته مرات في الليل والنهار حتى لاتشعر في حضرتة بشيء من الوحشة ، ويقع في نفوسها أن شأنها عظيم اذ كان صاحب الأمر يعاملها هذه المعاملة .

واحد من يظهر هذا الأخرق احتقاره أنفع للدولة من ألف سافل بصطنعه .

ابتهج المسلمون في السنين الأخيرة بنزع اندونيسيا يدها من حكم هولاندة وامتناع سبعين مليون مسلم من أهلها بحريتهم . وباستقلال الباكستان والهندستان وفيهما مئة وأربعين مليون مسلم ، وحرار طرابلس وبرقة استقلالهما وفيهما مليون وربع مليون مسلم .

اعترفت بريطانيا العظمى بحكومة الصين الشيوعية مع كراهتها هذا المذهب كراهة عظيمة ، والسياسة تتبدل تبعاً للقوة والضعف ، والغربيون عامة لا يعترفون بغير القوي .

تنتشر الدعوة الشيوعية في العالم اليوم بعد اليوم وتنتسب الى الشعوب الشرقية والغربية حتى هددت كيان الديمقراطيات ، وقد قبلت الدعوة الشيوعية حتى كتابة هذا ثمانمائة وثلاثون مليوناً ، أي نحو ثلث سكان الارض ولا يمضي زمن طويل حتى ينتهي هذا الصراع بين الدعوتين الشيوعية والديمقراطية . ومن المتعذر التنبؤ لمن تكون الغلبة والقطع بما تصير اليه حالة الممالك يومئذ .

العلم الحر أعدى أعداء المستعمرين ، يحظرون وورود مناهله على من يستعمرونهم بكل حيلة ، وإذا رضي هؤلاء أن يتعلموا على الطريقة التي يعينها لهم صاحب المستعمرة وبلغته وأسلوبه يجدون منه كل تسهيل ومعاونة .

من يماشون كل صاحب سلطة على هواه هم أضر على أمتهم من كل مستبد طاغ ولأن تصمم بأعداء الداخل والعدو الداخلي أشد ضرراً من أكثر الاعداد .

رئيس يحمي الرعاع ويسرف بالمال حتى يدخل المعجز العظيم على موازنة الدولة أضر على أمته من بعض أعدائها الذين يستعدون للهجوم عليها في عقر دارها .

من كان على جانب من الذكاء بمتعاً بصحته وقوته لا بدله من الدخول في الجهاد الوطني والاشتراك في أمور هو في غنى عنها بحسب الظاهر .

معظم من سمعهم يخطبون في الملأ كانوا أقرب الى الركافة والفهافة ولطالما اشتهزت نفسي من كلام المرتجلين منهم وعتبت على أرباب المدارك لتقصيرهم في ارشاد من يندسون في جماعة هم غرباء عنهم . الخطابة كالشعر والموسيقى والتصوير لا تفعل في النفوس ان لم يوزق صاحبها استعداداً فطرياً يكمله الدرس والاشتغال .

يفلح على الأغلب من يستمع لما يقوله فيه أعداؤه أكثر ممن يفتر بما يقوله له أصدقاؤه . نقد التحالفين أنفع من ثناء الموافقين .

كان نصارى الغرب منذ الحروب الصليبية أمهر في أخذ أخبار المسلمين من المسلمين أنفسهم في أرضهم . ثبت ذلك في مواطن ألمع اليها ثقات مؤرخينا ، وتسلسلت هذه الميزة في الغربيين الى يومنا ، وهم أحقق الأمم بالنقاط الأخبار على وجه سريع محكم .

مجالس الندوة

سأل ضابط كبير من ضباط الاستخبارات الانكليزية خلال الحرب الاخيرة صاحباً لي عما يدور في مجلسي كل ثلاثة من الاحاديث ومن يتكوّن الجماعة ، فأجابه : يختلف الى هذا المجلس أناس من معظم طبقات أهل دمشق والطارئين عليها . فترى فيه العلماء المدنيين والدينيين والأدباء والفنّين ورجال السياسة والادارة وفيه شبان وكهول وشيوخ وتجار وزراع وأرباب صناعات ومن جميع الأحزاب والمذاهب ، وقد يلتقي فيه أهل المدن بأهل الريف ، وسكان البر بأمرء البادية . وأحاديث المجلس متنوعة تنوع منازع المتخلفين اليه . وفي المجلس جد كثير وهزل ليس بقليل . وقد يناقش الشاب الناشئ وزيراً أو عالماً ، وذلك بأدب ولباقة ، وفائدة كل واحد في هذا الاجتماع بقدر قريحته وعلمه ، وإذا جرّ الحديث الى السياسة الحاضرة قد يحوّل صاحب البيت الحديث الى المباشطة والتندر ويبيعه عن الحوض فيما لا يجب أن ينقل عن مجلسه . وسأله هل يحب صاحبك فارس الحوري قال نعم هو صديقه القديم وعضو معه في المجمع العلمي العربي . قال : فلماذا لا يجتمعان كثيراً ؟ قال : لأن لكل منهما جماعة لا يفارقه . قال ولماذا لا يعود الاستاذ الى الاشتغال بالسياسة ؟ فقال : انه سئل هذا السؤال عدة مرات فكان يقول اني عند نفسي قد قمت بواجبي ووفيت ماعليّ من دين فأحب أن يعمل غيري واجبه ويوفي دينه . ثم قال له انه يشغل بالتأليف ووقته يصرفه في هذا . فقال له الضابط : أعرف ذلك . ثم ختم السائل هذه الاسئلة بقوله : وهل يجبنا الاستاذ ؟ أي يحب الانكليز فأجابه : سمعته مرة يقول الاستعمار بلاء فان كان لابد من الوقوع فيه فالأفضل أن تكون انكساراً لأن استعمارها أقل ضرراً من استعمار غيرها .

هذا ما رواه لي صاحب الأديب ، وكانت أجوبته مسددة كأنني أنا أمليتها عليه وليست ابنة البديهة . وفي الحق ان مجالس الثلاثاء في داري كانت تجمع أرباب المنازع المتباينة ، وما كان المجتمعون يتهمون منها ولو طاللت الجلسة ، وكانت تبثديء في الساعة الثالثة بعد الظهر وتنتهي في الثامنة وقد تمتد الى التاسعة . ومن أدب الحضور أنه ما كان واحد منهم يستأثر وحده بالحديث ، بل كان لكل جليس حصته من الكلام وحصته من الاستماع لأصحابه ، يتمتع كل واحد بحرينه ولا يعتدي على حرية صاحبه ، وربما ذهب بعض من لا عهد لهم بالاجتماع في هذا المجلس الى أن الأمر مبدى على هذا النظام ، وما كان هناك الا القانون الطبيعي في المجالس ، والأدب الذي يعرف في العادة عن المثقفين .

وكننت أصون الندى عن حضور الجواسيس فيه فاذا جراً أحدهم وجاء يكثر سواد الجماعة أفهمه بلطف أن أصحابي يشتمزون من الاجتماع الى من لم يسبق لهم أن يعرفوه ، وأنا كما قلت مرة أعرف الجواسيس من أسئلتهم وكلامهم والنظر اليهم . وأشم رائحة الجاسوس الكريهة من بعيد فألقيه في حباله تقطعه عن غشيان مجلسي ، واذا عاد الى ما نبي عنه وهذا مما يندر وحضر جلسة من الجلسات وهذا في الازمات السياسية خاصة ، أبادر لاقفال الباب أياماً وأحياناً أسابيع خوفاً على بعض أصحابي من لا يوقفهم شيء عن ابداء آرائهم بصراحة حتى لا تجلب عليهم صراحتهم ضرراً ، ومتى انجلت الغمرة نعود الى ما كنا فيه . والسياسة أحلى حديث الى القوم وخصوصاً أيام تبدل الدول والحكومات ، وما أكثر ما شهدناه منها . وكنا اذا أفضنا في السياسة نغزجها بأقاويه من الطرائف الادبية والافاصيص المسلية القيا أنا أو أرجو أحد شباننا وكهولنا أن يتحفونا بما عندهم يروّحون بها عن نفوس الاخوان المجتمعين .

وبعد سنين عزمت على سكنى القرية فتقطعت مواعيد الاجتماع بالاخوان وتشتت عمار النادي الا اذا اجتمعنا على ميعاد وهذا ما أفضله ، لأن الوقت لا يتسع لكل اجتماع ، وحرام على العمر أن يضعف فيما لا طائل ورائه وأنا أرى الاقتصاد فيه .

وزارة تسلية

ألفت في قريتي وزارة رباعية للتسلية ، دامت حوالي جلساتها الليلية نحو خمس عشرة مرة في كل شهر على الأغلّب ومدة تقرب من عشر سنين . وقلت مرة لبعض أحبابي من رؤساء الوزارات في دمشق ان وزارتي في جسرين ثابتة بما لا يرجى لوزارتكم وهاهي لم يطرأ عليها طاريء منذ تألفت ، ووزارتكم لا تعمر طويلا ، وقد لا تدوم زيادة على بضعة أشهر ، فكانوا يضحكون ويقولون الغالب أن ليس عندكم مجلس نواب حتى يسقطها كلها بدا له ، فأجيب : اللهم نعم .

وزارة جسرين متواضعة ليس فيها مرتبات للوزراء ولا سيارات لركوبهم يجتمعون من بعد العشاء في سكون الليل يبحثون فيما يهمهم ويسليهم وينفعهم وقد يقرأون في كتاب أو صحيفة هنية ويعلقون على الاخبار التي يقرأونها . ثم عرض لهؤلاء المتألفين ما فاض جمعهم . فأقبل اثنان واستقال ثالث فانحلت الوزارة بطبيعتها ، ولم أر أن أعيد تأليفها لقلة من يصلح للوزارة التي أريدها .

زارني في القرية الرئيس الجليل السيد هاشم الاتامي ومعه نجله الاستاذ عدنان الاتامي وكان وزيراً للأشغال العامة والعدل فقال ابني طريف لأحد الفلاحين : أين وزير المالية (الاستاذ طاهر زكريا) فالتفت السيد عدنان ليرى زميله ، ولما علم أن الوزارة وزارة القرية ضحك وضحك كل من كان هناك من المدينين والقرويين .

سخافة دولة

ارتكبت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني ضروباً من السخافات لاتصدر الا عن مجنون او ابله فمنها أنه كان يحظر على الصحف والكتب والمنشورات وكل ما يكتب ويقال ان تذكر الفاظاً بعينها ، ومن جرأ وحدته نفسه أن يستعملها كان جزاؤه عظيماً . ذلك لأن هذه الالفاظ تشوش أذهان الرعية وتذكرهم أموراً مفسدة لاينبغي سماعها ! مثل كلمة « الدستور » ، « الثورة » ، « القانون الاساسي » ، « الاستبداد » ، « مجلس النواب » ، « مجلس الشيوخ » ، « الاستقلال » ، « اللامركزية او الحكم الذاتي » ، « الخلع » ، « التخلي عن العرش » ، « الحرية » ، الخ .

وما كان الرعايا في ذاك العهد احراراً حتى في تسمية أولادهم ، فيحظر عليهم اطلاق اسم « عبد الحميد » و « مراد » و « سلطان » على أبنائهم ومن سماه أهله حتى قبل ذاك العهد باسم من هذه الأسماء تحتم عليهم قابله الى « حميد او حمدي او حامد والى مرآة . ذلك لأن السلطان عبد الحميد واحد ليس له شريك بملكه ولا باسمه . ومراد اخو السلطان عبد الحميد هذا لايجب أن يسمع اسمه لأنه إنهم بالجنون وخلع ، والسلطان هو السلطان العثماني فقط . وليس بعد ذلك قلة عقل .

المرمرة جاز الله

تشرفت في القاهرة منذ سنين بالتعارف الى العالم القازاني العظيم شيخ اسلام روسيا موسى جاز الله . وكنت أعجب بالقليل الذي طالعه من تآليفه ورسائله ومقالاته ، ولما أخرج كتابه الوشعبة في الشيعة رأيت فيه الامام الذي انعقد الاجماع على جلالة علمه وشدة غيrote على النهوض بالمسلمين في المشرق والمغرب . طوف الامام جاز الله في الأقطار وجاء اليابان والهند وروسيا الاسلامية وافغان ويران وتركيا ومصر والحجاز والشام وغيرها ، وأخذ العلم عن الشيوخ الذين تفردوا بعلوم كان يشتهي التعمق فيها والتلقي عن أئمتها . وقد اضهدته روسيا وانكاثرا واعتقلناه زمان الحرب العالمية الثانية ، سجنته روسيا لأنه لم يقل فيما قيل بالتعالم الشيوعية ، ولم يقر حكومتها على اغلاق مساجد المسلمين ومدارسهم وتشيت علماءهم . ولم نعرف وجهاً لاعتقال انكاثرا له في الهند . صورة من أجمل صور العلماء العاملين الذين خلقوا لبصرفوا حياتهم في خدمة الدين والأخلاق وهو من الأفراد الذين لا يحسن بهم الدهر على العالم الا في العصر بعد العصر وحياتهم من اولها الى آخرها حافلة بالخير والنفع .

وافاء اجله في مصر في ملجأ ام المحسنين وفي رعاية الأميرة خديجة عباس حليم فاشهد نفيه على المسلمين . اجزل الله ثوابه وهدى بعض علمائنا الى اقتفاء خطاه .

الغالب والمغلوب

قال كيزو وما زال سكان فرنسا منذ زهاء ثلاثة عشر قرناً بين غالب ومغلوب وما فتىء الشعب المغلوب يجاهد ليخلع طاعة الشعب الغالب وما تاريخنا الا تاريخ هذا الجهاد . وقول هذا المؤرخ يصدق علينا معشر العرب الى حد عظيم ، فانا ما برحنا كذلك بين غالب ومغلوب ، والمغلوب يحاول نزع ربة غالبة . وما ظلم الغالب ان أنصفنا بأفظع من ظلم المغلوب وان كان كلاهما حقيقاً باللامه يتقاسمها مناصفة . ذلك أن الغالب لا يقول للمغلوب : أقتل أخاك في أصغر الاشياء ، ولا يأمره أن يكذب ويسرق ويفجر . ولو كان المغلوب صالحاً في الجملة ما نشت فيه مخالب الغالب حتى لتوجهه وتدميه . ثم ان ظلم الغالب ظاهر للعيان لأنه يعمل جهرة ، وأعمال المغلوب يخفيها الامرار . الاول اذا اشتد استبداده ينادى عليه بالويل والثبور والثاني قلما ينعي عليه ظلمه الشنيع ويرثي له وترق القلوب عليه وقد تقام له الأعذار اذا خالف القوانين والانظمة والمغلوب في معظم الاحوال اعظم جناية وهو اكثر سواداً وأوفر مالاً ولن ينحل الخلاف بين الغالب والمغلوب الا بنزول كلا الفريقين عن بعض سلطانه ، ولو حسنت أخلاق المغلوب ما وجد غالبة سبيلا الى ظلمه ، ولسارت الامور على نظام من العدل أحسن مما هي الآن .

ومعنى هذا ان الغالب هو الحاكم والمغلوب هو المحكوم عليه وان الحاكم يستمد قوته من المحكوم عليه وهو سيده وعبد في آن واحد ، لا غنية للأول عن الاستمداد من الثاني ولا للثاني عن الاعتصام بالأول . وكل أمة تعادلت فيها قوى الغالب والمغلوب تغزر سعادتها ويقل شقاؤها واذا اتسعت شقة التباين بينهما يفيض الثاني الأول بسبب وبلا سبب ولا يستفيد كل من صاحبه الفائدة المطلوبة .

أعظم اللغات انتشاراً

في نشرة الأنباء الإسبانية أن اللغة الصينية أعظم اللغات انتشاراً ويتكلم بها ٤٥٠ مليوناً ويتكلم بالانكليزية ٢٢٥ مليوناً وبالإسبانية ١٣٣ مليوناً وبالروسية ١٠٠ مليون وبالألمانية ١٠٠ مليون وبالبنگالية ٩٠ مليوناً وباليابانية ٨٠ مليوناً وبالفرنسية ٦٥ وبالإرتغالية ٦٠ .

ولم يذكر في هذا الإحصاء عدد من يتكلمون بالعربية وهم لا يقلون عن ٧٠ مليوناً عدا من يعرفها من أهل الإسلام في آسيا وأفريقية وهم لا يقلون عن مئتين وخمسين مليوناً ، يعرف خاصتها العربية وبها يتفاهمون مع أهل اللغات المختلفة ، وبها يلقتون قومهم علوم الإسلام ، وبها يقيمون شعائره . وبالعربية نزل القرآن وهو الكتاب السماوي الوحيد الذي يقرأ بلغته الأصلية ولم يكتب ذلك اللغة من لغات الأرض وهي ألف وخمسة لغة

سلطان الأرض

ألقى السير جون رسل رئيس اتحاد تقدم العلم البريطاني محاضرة قال فيها : انه يدخل العالم في كل ثلاث ثوان مولودان جديدان وهذه النسبة ستزداد حتماً كلما تقدم العلم الذي ساعد في المئة السنة الأخيرة على زيادة أعمار الناس . فأخذ عدد سكان العالم يزداد عشرين مليوناً كل عام ، وهذه نسبة لم تعرف من قبل . ثم ذكر صلة السكان بتنظيم مواد الغذاء على نطاق دولي ، فأشار الى أن المساحة التي تمكن زراعتها في العالم لإنتاج مواد الغذاء تقدر بـ ١١ ألف مليون فدان وأن الأرض المستعملة منها تختلف بين ثلاثة وأربعة آلاف مليون فدان ، ينال

كل انسان في العالم حوالي القدان ونصف . ولو وزعت كل المساحة الصالحة من الارض للزراعة لنال كل فرد خمسة افدنه . ولذلك رأى المحاضر الاستكثار من مواد الغذاء عن طريق زيادة العمل . ثم تساءل عما اذا كان في الامكان الاستفادة من الارضين التي لم تزور بعد فقال : يتوقف هذا على تقدم العلم في وسائل تسميد الارض ويتأني الحصول على الاسمدة بمقادير غير محدودة ، وان ادخال الآلة على الزراعة يزداد زيادة عظيمة وفي وسع المزارع الحديث بالاساليب العلمية تموين حوالي ٢٠ شخصاً على حين لم يكن يموت بالطرق القديمة أكثر من أربعة أو خمسة أشخاص ، فان احتجنا الى مواد للغذاء أكثر مما نتج فالواجب أن نتوسع في العمل . وعلى هذا نقض هذا العالم المعاصر ما ادعاه في القرن الماضي وطنيه العالم مالتوس يوم قال ان العالم بعد مدة لا ينتج ما يعيش به سكان الارض فالاولى تخفيف النسل . وقد زيفنا رأيه فيما تقدم من هذه المذكرات (ص ٧٢٥ الجزء الثالث) .

صناع المدنية

رب رجل أفاد المدنية وأخلص في خدمتها وما اشتهر الشهرة التي تليق بما تم على يديه ومنهم صديقان لي من أرباب المطابع في دمشق الاستاذان السيد سعدي العمري والسيد صالح الجيلاني فقد طبعا منذ نحو خمسين سنة مئات من الكتب والمجلات والجرائد وتوليا طباع جريديني ومجلتي وكنبي ثم مطبوعات المجمع العلمي العربي ومجلته . وشهدتهما خلال هذه السنين الطويلة ولم يأخذ من قلبهما الا حب الطباعة والتفنن في اخراج مطبوعات متقنة ملتزمين السمكوت لا يعلنان عن بضاعتها ولا يتبجحان بما يجودان .

عرف هذان العاملان بالنباهة في خدمة الآداب واتقان ما اختصا به من الامانة والصدق والانتقاء ، وما هدتها اليه الفطرة من التفنن وما خصتها به من ذوق غير قليل .

تقسيم سورية

أثرت الى مبلغ ألبى من تقسيم الديار الشامية الى سبع دول بعد الحرب العالمية الأولى وكان في تقسيمها خسارة وأي خسارة ، واغتنبت لما عادت دولة العلويين ودولة جبل الدروز الى سورية الأم ، وأسفت أن ظل لواء الاسكندرونة منفصلاً عنها مضموماً الى تركيا أهدتها اياه انتكاثا وفرنسا دون أن تسألنا رأينا في ذلك . وأي رأي كان لنا يومئذ ونحن تحت كابوس الانتداب . ثم أصبح العاصم من فلسطين دولة امراييل اليهودية وضم قسم ضئيل من الداخل أي من داخل فلسطين الى شرقي الأردن .

وما زلنا نشهد الاختلاف بين المتجاورين حتى لنظنّ احدهم أن أرض جارتها هي أرض عدوتها ، ويكون الاختلاف في الاكثر على أمور يمكن تسويتها بالافئاع ، واذا وقع خلاف بين بعض الدول العربية فتكون احدى الدول الغربية هي النافخة في ضرامه على الاكثر . ويؤلمني ما يحدث الحين بعد الآخر وأنعي على تلك الدول افدامها على تقسيمنا تقسيماً لا يدخل في منطق سديد ثم تجويزها لقاء الشعب بين حكومات هي في جوهرها من أصل واحد .

وبقيت سورية مع هذا التقسيم الجائر أوسع الاجزاء المقسمة رفعة ، فيها الساحل والداخل وفيها مرافق ومناجم ، وفيها موارد عظيمة من زراعتها وصناعتها وهي ما برحت تشكو نزع بعض أعضائها منها كأفضية حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك وغيرها ، ولا يبعد أن يأتي زمن تتحد فيه سورية بأجمعها وتصبح كتلة واحدة مع جاراتها وهذا يتحقق يوم يدرك الساسة في لبنان مصالحتهم الحقيقية . إذ من المضحك أن تعيش الدول الصغرى برأسها بعد الآن .

أما الكتلة اليهودية الجديدة ونفوسها تزيد سنة عن سنة زيادة مطردة
من هاجر إليها من متشردي اليهود ومن ينزح إليها من الشرق والغرب
فإنها الجرح النفاار الذي لا يندمل ، والله نسال أن يقي شرها سورية
خاصة وأرض العرب عامة .

المرعوة الصهيونية

روى الثقات أن مملكة اسرائيل وضعت في موازنتها عن السنة الجديدة
ستين مليون جنيه استرليني تنفقها في الدعاية وانما كلا صدر كتاب يعطف
على العرب ويقول الحق في مسألة فلسطين ويظهر حقائق الصهيونيين
يدناهمون نسخه ويجرقونها على نحو ما فعلوا بكتاب « فلسطين اليوم »
لأحد علماء المشرقيات البريطانيين ، وكلما كان منهم بكتاب أصدرته الجمعية
المسيحية الانكليزية فاشترى المطبوع منه كله بستة ملايين دولار وجعلوه
طعاماً للنار . ولا بد أن يسأل من يقرأ هذا كم تنفق دول الجامعة
العربية على مثل هذا الشأن يا ترى وسياسة العصر تقوم على الدعاية ؟ .
ولعل دول العرب تعتقد أن مجرد كتابة مقالة في الصهيونية تنشر في
صحيفة عربية كافٍ في اثناء غارات الدعايات وصد تيار الصهيونية الجارف .
يعمل الصهونيون بعقلية غربية ودول الجامعة العربية لم تبحر تعمل
بعقلية شرقية قديمة .

دعايتنا ودعاية غيرنا

كانت النصرانية منذ ظهورها ابنة الدعاية المنظمة ، وانتشر الاسلام بالمصادفة وامت كلته في أواسط افريقية وجزائر اندونيسيا والصين وذلك على أيدي جماعات من التجار اتخذوا لهداية المشركون والوثنيين طرقاً لا تعقيد فيها ، وساروا في دعايتهم لدينهم على ما يقبله العقل فانتحله عشرات الملايين من هذه الشعوب الشرقية .

وكان من تساهل المسلمين مع دعاة النصرانية أن تسلل هؤلاء الى صميم بلاد الاسلام ، والاسلام في معظم قوته يناقشون المسلمين ويدعونهم الى دينهم . وكانت تصل دعايتهم الى أرقى الطبقات المسلمة والدعاة في حل من بث دعايتهم بينهم على ما كانت منهم في الاندلس وفي بغداد عاصمة اعظم خلافة اسلامية . ولقد ألقى المسلمون الحبل على الغارب في معظم عصورهم لا يقانهم ان دينهم لا يحتاج الى من يروج له ، وليس لهم ان يتعبوا انفسهم بدفع قوة المخالفين عنه .

تقوم دعاية الغربي في العادة على المفاداة والبذل والتعليم ، وطريقة المسلم استسلام وتسليم وتوكل وتواكل . بنى الغربي دعايته الدينية والدنيوية على قواعد فيها صبر وحكمة ، وبذلك انتشرت النصرانية في زنوج افريقية وفي الصين واليابان والهند . وبقوة الدعاية وصل الغرب الى ما لم يصل اليه المسلم الشرقي . ومعظم الامور في الغرب من اثر الدعاية يدعمها العلم والمعرفة لا تقف قوة في وجهها ، توفروا قروناً على اتخاذ اسباب نجاحها بتسلسل في الفكر واطراد في العمل . وتاريخ الرهبنة اللاتينية وتاريخ الكنيسة البوتستانتية مثال عجيب من هذا الاقدام وهذا الاخلاص .

لو أحسننا الدعاية وواظبنا عليها كما واظبت أمم الغرب ورجال دينه لكان أهل الاسلام اليوم ثلاثة أضعاف ما هم عليه ولما كان صوتهم في سياسة العالم مسموعاً وبأسهم في صراع الحياة مخشياً .

المعذبون في الأرض

قال الاستاذ مصطفى مرعي بك وقد سئل في جملة من سئل رأيه في خطبة العرش (١٩٥٠) : كان الظن أن يُعنى بالمزارعين غير الملاك أو الذين لا يملكون الا القليل من الارض وهؤلاء هم كثرة سكان مصر وهم المعذبون في الارض على حد قول من قال .

كان الظن أن تعنى خطبة العرش هؤلاء فتتضمن ما يفيد ان الحكومة معنية بهم ، عاملة على تخفيف أعباء الحياة عنهم ، لكن الخطبة خلت حتى من مجرد الاشارة اليهم . وهذا نقص كنت أود ألا يشوب الخطبة لاسيما وان من الحكومات السالفة حكومات عُنت بهذا الشأن وجعلته مدار بحثها وخلصت من ذلك الى تشريعات عدة منها تشريع توزيع اراضي الدولة على المعدمين من المزارعين ، وتشريع تثبيت الاجارات الزراعية ، وتشريع الحد من الملكية الريفية ، وتشريع منع الاجانب من تملك أرض الزراعة ، وما الى ذلك من التشريعات التي لا مَعْدَى عنها لرفع مستوى الحياة في الريف وتخفيف الضائقة التي تحيط بسكانه وهم عصب الدولة ودعامتها ومصدر الخير فيها اه .

هذا ما قاله العظيم المصري واثبت ان حكومته سارت هذه المرة أيضاً على ما ألفتة من الغفلة عن مصلحة الفلاح كأنهم يحاولون الرجوع به الى ما قبل حكم سعيد باشا والي مصر وكان الفلاح قبل عهده يعمل في الارض ولا يملكها .

وفي سبيل نشل الفلاح المصري من بؤسه واتقاء عادية الشيوعية كنت عرضت على المراجع العليا في مصر رأبي في توزيع اراضي الدولة على الفلاحين حتى لا يفتح المجال للشيوعية ، فسمعت وعوداً ولم أشهد تحقيقها كلها . وما برحت أعتقد أن توزيع كل ما يصلح للزرع من الارض

في وادي النيل وتطبيق هذه التشريعات المفيدة التي سنّها الحكومات المتعاقبة في الزمن الأخير من أهم ما يدرأ الخطر عنها أو يقلل من شرته وأرى الى ذلك وجوب سن قانون يحظر على الفرد أن يملك أكثر من مئة فدان وأقل من خمسة أفدنة مثلاً . وكل ذلك يجب على مصر أن تبادر الى تنفيذه قبل فوات الوقت ، فقد أصبح أنباع الشيوعية ثلث سكان الأرض وثبت أن دعوتها تنتشر في مصر انتشاراً مطرداً أكثر من البلاد العربية الأخرى . وفي كل حين يكشف رجال الأمن في مصر خلية من خلايا الشيوعية . وإذا تم تقسيم الأرض فواجب ولاية الأمر منذ الآن إيجاد موارد أخرى للمصريين لتخفيف البؤس والفقر عن السواد الأعظم

عناية المستعربين

أقيمت في دار المعلمين العليا بالقاهرة (يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة في « أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية » عدت فيها مانشره المستعربون من علماء المشرقيات من الكتب العربية القديمة وأثنت على همهم في أحيائنا وانقائهم تصحيحها والتعليق عليها ووضع فهارس لها ، وتمنيت لو ساهم علماءنا وأدباؤنا في هذه الخدمة الجليلة لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدينتنا ، وصاحب البيت أحق بالعطف عليه وعلى من فيه .

فنهض صديقي العلامة الشيخ عبد العزيز جاويز رحمه الله عند انقائهم كلامي يقول ان علماء المشرقيات لا يتوخون من خدمة علومنا الا خدمة أهمهم في سياستها ودينها ، ويطعنون في الاسلام والعرب بلا حق ، والتعصب الديني يعميهم . فتبرم بعض الأساتذة الحاضرين بكلام الاستاذ جاويز وعدوه خروجاً على الموضوع ، لأنني أثنت على المستعربين من الغربيين

من حيث أفادوا حضارتنا ، ونحن استفدنا منهم بالعرض . وكان بمن
شهد المحاضرة الأستاذ علي الشامي باشا وزير المعارف يومئذ فقال لصديقي
الأستاذ سيد كامل : سامح الله الشيخ جاويز على ملاحظاته على هذه
المحاضرة التي تجلّي فيها البحث ومبلغ تمكن صاحبها من موضوعه ، وهو لم
يتعرض لمذموم المستشرقين في السياسة والدين وإنما ذكر أفضالهم على لغتنا
وحضارتنا بنشر كتب أسلافنا ، أو ما هذا فعواه .

أعجبت وما برحت أعجب بما تم على أيدي علماء المشرقيات في خدمة
أدبنا ، مع علمي أن جلّهم يعمل لسياسة لا لتفغنا ، وأن منهم قسيسين
ودعاة دين ، وجواسيس يتخذون من الاستشراق آلة للوصول الى مآرب
أخرى لهم . وأحب مع هذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نطلب
من لم يتأدبوا أدبنا ، ولم تفعل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن
يعتقدوا ما نعتقد ويكتبوا فينا ما نحب . فلكل جنس تفكيره ، ولكل
قبيل نزعتة ، ولكل جيل غرضه . على ان ذلك لا ينعنا من الحذر من
هؤلاء المستشرقين وخاصة من كان لبلادهم غايات سياسية في بلادنا .

الباكستان والهندستان

زارني أوائل الحرب الأخيرة مع صديقي خليل مردم بك مسلم هندي
عجوز يحمل وصاة من بعض معارفي في مصر ، وهو يتكلم العربية
ويظهر الصلاح والتقوى ، وبعد محاورة قليلة ظهر لي أنه صاحب أفكار
متضاربة غير متناسقة ، وشككت فيه وفي مهمته ، خصوصاً لما سأله
عن عمله فقال مرة انه يشتغل بالفلسفة ، وأخرى أنه صحافي ، وما ظننته
إلا أنه يشتغل لحساب الانكليز . ثم وضع لي ولصاحبي سؤالاً وهو قوله
ألا يسركم أن يستقل المسلمون في الهند ؟ فأجبناه بلسان واحد نخب أن
تستقل الهند كلها وألا تتجزأ حتى لا يكون المسلمون مطية للمستعمرين ،

فما راقه رأينا وقال انه من المتعذر اجتماع الوثنيين مع المسلمين . ولما قلنا له انه ليست للمسلمين في الهند بقعة خاصة حتى يؤسسوا مملكة على حياها قال ان استقلالهم غير متعذر ، وستكون المملكة الاسلامية شطرين تفصل بينهما بلاد الهندوكيين . (المسافة بينها الف ميل فقط)

استقلت الهند منذ أربع سنين وكنت أرجو لو خفف الهنود من تعصبهم حتى يتأق الجمع بينهم وبين مواطنيهم المسلمين في أرض واحدة وتحت علم واحد . ولو تبسر استقلال الهند من غير تقسيمها لاغتنبط كل عاقل ينظر في العواقب بتور البصيرة . وأنا ما جوزت حياتي قسمة أرض ذات مساحة محدودة الى شطرين أو ثلاثة مخافة أن يقل الانتفاع بها كما لو كانت قطعة واحدة ، فكيف أوافق على تقسيم الهند الى حصتين يستحيل أن ترتفع الفتن من بينهما على الدهر ، وما حدث من اختلاف في السنين الأخيرة بين الشعبين العظيمين سبب اهراق دماء كثيرة . ثم ان الهندستان بقي في حكمها أربعون مليوناً من المسلمين فكان يسع مسلمي الباكستان ما وسع اخوانهم في دولة الهند .

الجمهورية عندنا

زرت رئيس الجمهورية الثالث لدى عودتي الى دمشق في بعض السنين أحمل اليه سلام ملك مصر ، وكان قبل سفري عهد اليّ بتقديم تحياته الى جلالته . فقال لي رئيس ديوانه انني في مصر لا أتعارف الى الجمهورية فقلت له : أو كتب اليكم مفوضكم بذلك ؟ فأنكر أن يكون كتب . وقالت للرئيس : نعم اني لا أتعارف الى الجمهورية في شخص مفوضكم السيد جميل مردم بك ، فقد دعاني مرتين في سنتين الى بعض حفلاته في المفوضية فلم أجبه الى دعوته ، ولم أعتذر اليه ، لعلمي بأنه يدس

عليّ ويتعمد ايذائي ، ويُظهر لي الود ويبطن خلافه ، فرأيت من الصواب
ألا أكثر سواد أصحابه بحضور حفلاته ولا أَلطف من يضرر لي السوء .
وفي السنة التالية هبطت مصر فلقيت صديقي الاستاذ عثمان محرم
باشا من عظماء وزراء القطر وأكبر مهندسيه الاعلام ، فقال لي : انه
بلغه أن أكثر من نصف أهل سورية لا يقولون بالحكم الجمهوري ، وان
هوام في الحكم الملكي . فقلت له ما معناه : أنت تعرف يا باشا منزلة
السوريين من العلم والصنائع والتجارة واننا بلغنا درجة عالية في الحضارة
والثقافة حتى كدنا نسامي الراقيين من الغربيين ، وتعرف أيضاً أننا
ناهضنا أكبر دولة عربية من أجل حريتنا ، فكيف نرضى لأنفسنا
- وقد نلنا استقلالنا تماماً غير منقوص - أن نعود فنطلب الانتداب
علينا مرة أخرى ونستبدل الانتداب الفرنسي بالانتداب الانكليزي بزعامة
ملك قد لا يرضينا حكمه . واني اذا قلت لك أن واحداً في المئة منا
يفضل الملكية أكون الى المبالغة ، ويدخل في هذا الواحد من طردوا
من خدمة الدولة لسوء أخلاقهم ، أو لأسباب سياسية وحزبية . واذا
كان هناك نقص في أدوات الحكم الآن ، فالتنص يكمل بطول الزمن
وما مرد ذلك الا أمور اقتصادية وفنية ، والمال يعوزنا ، والفنيون فينا
ليسوا من الكثرة بحيث يسدون الحاجة ، ونحن مع هذا آخذون بالتروقي
السريع وسنبلغ ما نمتنى . ثم ان بعض الرؤساء هم من أبناء الاعيان
ربوا في عهد العثمانيين في مدارس تركية عالية ، وطالبوا بالحرية واضطهدوا
وغربوا وسجنوا ، وأتى زمن استولوا فيه على أزمة الحكم . الى آخر
ماقلت . وعدت الى دمشق وزرت رئيس الجمهورية وقصصت عليه ما دار
بيني وبين العظيم المصري من حديث ، وما تنازل أن يشكرني على
تعارفي هذه المرة الى الجمهورية .

الاعظم المرفية

ود كثير من يقدرون المسائل بقيمتها ، لا بأسمائها وظواهرها ، لو دام الحكم العرفي في سورية بضع سنين (أيام البلبلة السياسية) لوضع الامور في نصابها ، ولثلا يفتح مجال لمن يعكرون صفاء الخلق باهم الحرية ، ويخلون بالأنظمة ثم يدعون المحافظة عليها .

لا يعرف معنى الحرية من لم يتغف ثقافة حرة ، ومن كان هو وآبؤه وأجداده عبيداً لكل دولة تقوم ولكل قوة تظهر ، لا يرجى أن يفيد قلامة ظفر في انشاء أوضاع حرة . ولن يصبح الامر على غير هذا مادما نتمتع بحسنات الحرية دون أن ندفع ثمنها الغالي كما دفعه أهل الغرب ، وجدوا أجيالاً حتى رسخت في عقولهم وفكرهم ، ونحن ماذا علينا من الحرية على حين لم نفهم روحها ولا ما نتوقع من نعمتها أن نسعي الفوضى حرية ونستريح الى حكم الافاقين .

الحرية عندنا هي استئثار الكبراء بالغانم ، وطرح المغارم على عاتق الطبقات النازلة من السواد الاعظم ، وارضاء بعض الأسر بتفضيلهم على غيرهم في الاستخدام ، وترك جمهرة القوم لا يعطونهم حقوقاً تعترف لهم بها العادة والعرف . وهيات أن ننظم حال مملكة لا ينظر لهذه الفئة أنهم أهم جزء فيها .

كانت القوانين في الادوار السالفة تنقسم الى قسمين ، قسم يطبق على النقراء وعلى من يتيسر تطبيقه عليهم من جمهور الشعب ، وقسم يعفى منه أقرباء الحكام وحواشيهم وحواشي حواشيهم ، ومن يقوم في أذهان القائمين بالامر رعايته ، ويرون من الواجب اعفائه من أحكامه ، ونقص القانون تابع لذمة المشرف على تنفيذه ، والذمة قليلة وبالأأسف في هذه الطبقة من رجال الدولة .

أما في عهد الحكم العرفي ، فالقوانين نافذة على الرعية كافة ، ولذلك يذهب بعضهم الى أن نشر الاحكام العرفية نافع بعد الثورات ليأمن القوم غائلة من يتخذون القوانين سلاحاً يقاتلون به الاحرار .

القانون الصالح هو النافذ على الكبير والصغير ، ولو كانت فيه بعض النقص في الظاهر ، وما دام لا ينجو أحد من سلطانه ففيه مقنع لجميع طبقات الشعب ، ولا يحق لأحد أن يفتح فاه بالشكوى وأن يدعي أن هذا عدل وهذا ظلم . علينا أبداً أن نعود أنفسنا طاعة القوانين ، نطيعها برضانا واختيارنا لا نتبرم منها ولا نتملل .

(كتب هذا الفصل عقب الثورة السورية الاولى)

مؤلات

ما كانت الحروب الصليبية الا لطخة عار سودت تاريخ أوروبا . ولا تقل عنها عاراً جميع حروب الاستعمار في القرون الحديثة .

على نسبة انفاس الناس في الماديات يبعدون عن تعاليم الدين ويتناسون فروضه وواجباته ، ولا يكاد يعهد متدين استجمع مقومات الحياة ، ولا صاحب ماديات قام حق القيام بما يأمره به الدين .

كان البشر في الازمان الغابرة يتقاتلون في ساحات الوغى ، ورعايا المتقاتلين بأمن من الغارات في مدتهم ودورهم وحقولهم ، وفي هذا العصر أصبح يباح لكل محارب أن يقتل ويدمر ما هان عليه القتل والتدمير في أرض عدوه لافرق بين المسالم والمحارب .

كيف لا يغتبط العقائل اذا رأى حوله عدد من لا يكذبون ولا

يسرقون أكثر من عدد من يخالفونهم . يوم كانت الناس أقرب الى الاعتقاد بالآخرة كان الخير موفوراً في عامة الطبقات .

على كل وطني أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن من المسائل الوطنية ما لا ينحل ان لم يشترك كل وطني بحصته من العناية بها ، ويجود من ماله ووقته ما وسعه الجود ، والا بقي النقص ملازماً كل ناحية من النواحي التي يعوزها الجهد . الثروة بدعوى الوطنية من دون القيام بما تفرضه لا يصلح بها حال ولا تقوم مدينة .

ما تفرد رجل عن قومه بفضيلة الا حمده لثامهم وأبغضوه ، ولن يسالموه الا اذا جاراهم في انحطاطهم وخمولهم ، ولا يزالون فيه كل ماينهم عن رداءة أو يخلع الثوب الجديد الذي يحاول ارتداه ويساويهم في مساوئهم .

جارت الشعوب اللاتينية على العرب وعاملوهم في كل قرن بأقصى ضروب الشدة ، وكان الباباوات السبب الأول في هذا الجور الفظيع فانهم ما غفلوا يوماً عن ابغار صدور أبناء كنيستهم على العرب ليضعفهم ويردوهم على أعقابهم . لولا رومية ما نشبت الحروب الصليبية ، ولولا رومية ما طرد العرب من الأندلس وصقلية .

يشبه فتح العرب الأندلس صاحب رسالة في الاحسان أبلغها لمن يجب على أكمل وجه ، ولما انتهت مهمته جازاه عبيد احسانه على ما قدم لهم من خير بأفطع ما يعامل به انسان .

حروب الكاثوليك والبرتستانت في اوربا مثال من فسوة قلوب الغربيين وتعصب رجال الدين .

أعجب أهل الشرق والغرب بدعاية المهاتما غاندي الحكيم الهندي
ليخرج أمته من رق العبودية الى ساحة الحرية ، وكان يحزنومه حتى
أعداؤه الذين ناصبهم العداء ليجالوم عن وطنه ، فكافأته أمته على جهاده
العظيم بأن قتله بيد أحد أبنائها .

عندما يجري تنصيب صغار العمال وكبارهم بالنظر الى كفايتهم
لا بالشفاعة ولا الحماية ينتظم جانب عظيم من الخلل المشاهد في أدوات
الادارة في الشرق العربي .

لما جرى تصنيف درجات المعلمين والمعلمات في احدى وزارات المعارف
بعث أحد الرؤساء الموكول اليهم أمر التصنيف - وكان سفيهاً مستهتراً -
الى ثلاث معلمات يقول : انه لا يصنفهن الا اذا خلاهن الحلوة التي
يريدها ، فأجبنه : صنفنا ولك ما سألت . بهذه الاخلاق الساقطة لا يربي
نشاء صالح .

أظهر ما أقبلنا عليه من مظاهر المدنية شهود قاعات السينما ومطالعة
الروايات الغرامية والبوليسية ، ولما كان هزل هذا النوع من المسليات
يزيد على جده بات يخشى على الاخلاق أن تتردى اكثر بما هي متردية .

من سوء بخت أمتي استيلاء دولتين عليها تخالفانها في مدينتها .
خرجت الاولى من أرضها بعد أن قضت على المدنية القديمة ، وغادرتها
الثانية تاركة وراءها شيئاً من المدنية الحديثة .

عنيت زمناً بالنظر في حال الجزائريين والنونسيين والمراكشيين مع
الاستعمار الفرنسي ، وأنفقت قسماً كبيراً من وقتي أندبر ادارة الترك
العثمانيين في ديار العرب ، فثبت لي ان الدولة الراقية كالدولة المنحطة
سواء في الظلم والجبروت .

نسمع جميع شعوب الأرض تكره الحرب ، ثم هي تدخل فيها
لتنال بالحق والباطل من أعدائها ، أو بمن صورتهم أنهم أعداؤها ، وليت
شعري ألا يوجد في عقلاء الدنيا من يصف دواء ناجعاً لدواة هذا الداء
الوبيل ، داء الحرب وقنبل الأنفس وتدمير المدن والقرى على نحو
ما اخترعوا القنبلة الذرية لاهلاك الحرث والنسل .

مات غني كبير ولم يوص بدرهم للفقراء حاذياً بذلك حدو معظم
جماعته من الاغنياء في هذه الديار ، وقال من عرفوه وعرفوا ما جمع
من ثروة انه لو كان في حياته يخرج زكاة أمواله لاستحق عليه للفقراء
كل سنة مبلغ عظيم يعول مئات منهم . نعم لو أخرج أغنياء المسلمين
زكوات أموالهم بدقة ما بقي من يمد يده الى الصدقة .

جرت العادة ألا تقاثل الدول الكبرى أعداءها الا باشتراك الدول
الصغرى معها ، وهذه الدويلات مقطورة على الدوام في ذنب الدول
العظمى ، ومنى بذل المال عن سعة يصبح ساسة الدول الصغرى من
بعض عمال من استتبعوهم ، وتغدو الشعوب الصغيرة كأنها بعض رعايا
الشعوب الكبيرة .

من أعظم البلاء أن يبلي جاهل على عالم ارادته ، ويطمع في متابعته
على هواه دون اعتراض .

ليس ما يجري من دموع الفقراء أقل مما يشربه الاغنياء من الخمر ،
الفريق الاول يشقى ويعذب ، والثاني يتنعم ويطرب .

في أواخر عهد العثمانيين كان بعض العمال في الولايات العربية لا يرون
مانعاً من سلب من يبدو لهم سلبهم من الرعايا ، وما كانت الرشوة
بما ينكر ، وقد يخجل الراشي ولا يخجل الراش والمترشي . وعادت

هذه الحال فتجددت في العصر الحديث ، فكان الحكم الديموقراطي كالحكم الاستبدادي حذر القذة بالقذة والتعل بالنعل .

قال أحد رؤساء الجمهورية لصاحب شرطته ذات يوم : اكفني شره فلان يعني أحد أرباب الجرائد وهو لم ينفء الى أخذ رشوته ، وكان يكلمه بحرية . فاذا كان صاحب الامر يدعو الى قتل من لم يخاله على أهوائه ، فمن يلجأ اليه في حماية الارواح والاعراض .

ظن بعض الرؤساء أنهم يبتزون أموال الرعية بطرقهم السافلة ويعمي أمرهم على أرباب المدارك ، لقد كذب ظنهم ان من الامور ما يحمل شواهد معه . ان لم تكن هدايا الحلي النادرة ، والحلل الفاخرة ، وعشيرات الاكياس من الارز والحنطة وصفائح السمن والعسل وغيرها ضرباً من الرشوة ، فما هي الرشوة ياترى في عرف هؤلاء المتنطعين ؟ ان رئيساً يدعي النزاهة ويقبل الهدايا على أنواعها ، ويسكت عن سرقات من يرأسهم هو شريكهم وان قال بعفته شركاؤه .

اختلفت الآراء في مصدر ثروة عظيمة جمعها عاملان من عمال احدى الدول العربية ، فمن قائل انها جنيهاها من رواتب سيدهما وانعاماته ، وبما في أرضه من طرق الانتفاع . ومن مدع أن الاجانب من أرباب المصالح في تلك المملكة هم الذين غدوها بهذا المال . وسواء صح الرأي الاول أو الثاني فما لا نزاع فيه ، أن هذا المال غير شريف كعظم ثروات العمال في هذا الشرق .

الدول الغربية تغدق المال اغداقاً على من تصطنعهم لنقل أخبار ملوكنا ورؤسائنا ، وربما فرضتهم عليهم فرضاً اذا وقع في نفسها أنهم ينفعونها في سياستها .

يدعي بعض العمال النزاهة ويقبلون دعوات أرباب المصالح بشاركونهم في قصفهم ولهم وبشربون من شرابهم ، وبأكلون طعامهم ، ويخلعون معهم ثوب الوقار . مسكينة هذه النزاهة يتوقف تحقيقها على شروط كثيرة ، ونصف العمال أبعد الناس عن مراعاة ذلك .

جاء تيمورلنك التتوي أوائل القرن التاسع الى الشام في ستمائة الف مقاتل فيما ذكر أرباب الأخبار فلم يقبل الدمشقيون أن ينزلوا على حكمه مغرورين بخمسة آلاف جندي كانوا يرايطون في القلعة ، فضرب تيمورلنك دمشق وحلب ضربة هلك فيها عشرات الألوف من الخلق وذُهِبَت الثروة وعم الخراب . مثال من التقاء أعظم مهاجم بأضعف مدافع ، وقد جمع هذا الى قلة تدبيره عناداً وغروراً .

لو لم يشتغل العرب لأول أمرهم بمسألة الخلافة لفتحوا دولة الروم وانتشر الاسلام في أوروبا وعمت العالم دعونه .

ما أشد اغترار الناس بالجمعيات الحديثة وبخاصة اذا توهم الداخلون فيها مغنماً ، فقد ظن من دخلوا في الماسونية أنها جمعية تفيد الانسانية وتفيدهم في دنياهم ، ولو عرفوا أنها جمعية صهيونية لا يقصد منها الا مصالح اليهود ما انحطت فيها هذا العدد الدثئر من المسلمين والمسيحيين .

لاستيلاء النصرانية على فلسطين في القرون الوسطى حارب أهل الغرب المسلمين قرنين ورجعوا بالفشل ، ولاستيلاء اليهود على فلسطين في العهد الحديث حارب الصهيونيون المسلمين أشهراً فبلغوا ماطمحوا اليه بمعاونة بعض دول النصرانية لهم .

ألقت أميركا القنبلة الذرية أواخر الحرب العالمية الأخيرة على مدينتين من مدن اليابان فهلك مائتا الف انسان وانتهت الحرب ، وما زالت هذه القنبلة مشار البحث بين الدول الحاكمة على أقدار الانسانية لعهدنا

وهي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى حامية الديمقراطيات ، وروسيا رافعة علم الشيوعية . وقد أجمع العلماء أن بضع قنابل تكفي لحراب الأرض وابادة المدنية ، وليس بعد ذلك همجية .

لما انقرض مذهب المعتزلة تراجع أمر المسلمين عامة ، ذلك لأن قوة أهل الاسلام كانت معلقة على الخلافة ، والخلافة مسخ جلالها يومئذ بما عراها من ضعف في جسمها وروحها .

تذرت فرنسا بكل مالديها من قوة حتى تبقى لها مستعمراتها الاسلامية ملكاً أبدياً فسدت منافذ الحرية عن رعاياها وعبثت بمقدساتهم وضمتهم الى جنسيتها بالقوة ، وأبقتهم في جهالة وفقر ، فغرست بذلك في نفوسهم من بغضها مالا تزيله الايام .

أنت الاحزاب السياسية الى الوزارات في هذا الشرق الغريب بأناس لا يعرفون من أمرها الا ما يعرف الحداد من صنعة الساعاتي .

بما يتعسر له قلب كل عربي أن ملوك جزيرة العرب وأمرائها لم يبدأوا حتى الآن بالسير على آثار الشعوب العربية الناهضة ، ولا تذرعوها بذرائع النهضة على ما يجب ، وما ندري حتام يسوفون والزمان حافز ومن لا يجاريه يهلك .

ما يبكي أن ما أبدعه الغرب من الاختراعات العظيمة لخدمة الانسانية اتخذها أرباب السياسة منهم ذريعة لقتل الانسان حتى يستولي القوي على ملك الضعيف ، ويستأثر بموارده ورزقه .

نشأت مع الانتداب في سورية ولبنان طبقة من الوزراء لا يمتازون عن الاصوص الا بتأنقهم بلباسهم ، وركوبهم أفخم السيارات ، فعجبت لمن كان بأيديهم نصبهم وتنحيتهم كيف كانوا يسكنون عنهم ، على معرفتهم

بما تكسبه أيديهم ، وكانوا يأتون بهم الى الحكم على حين لا يجملون
ما يجلبون بسوء سيرتهم من الضرر العظيم على سمعة الانتداب نفسه .
وكان هؤلاء اللصوص يرضون بعض المنتدبين بموالات الهدايا العظيمة اليهم
ويشاطرونهم المغام ، وهم الى ذلك يتظاهرون بشتم أمتهم ويتبرأون من
هجميتها ويستمتعون في الاخلاص لدولة الانتداب .

غازني لص يعيش بأكل أموال الخلق وهو يظهر بمظهر الصلاح فكان
شأنه شأن أهل قرية كان أهلها يعتمدون بعائهم خضر ويقال لهم السادة
في النهار فاذا جن الليل ينزعون عنهم ويلبسون لباس اللصوص ليسرقوا
كل ما طالت اليه أيديهم .

كلما ضعفت في الرؤساء الغيرة على الحرم فسدت الانساب وتداغت البيوت

ما ينقضي عجبى من انسان يرتكب كل ما يعيث بالمرورة وهو عند
نفسه أنه يجتدع من حوله بظهوره بلباس التقوى .

من غرائب مصر أن رجلاً من أعظم البارزين من رجال سياستها
رفع الى أرقى منصب ديني رجلاً من أصحابه بحجة انه كانت له عليه يد
أيام الدراسة . وسد اليه المنصب العظيم وهو مريض مرضاً يمنعه من
القيام بأعبائه . لبث ولاية الامر يكافئون بالمال من يريدون العطف عليهم
وهذا أفضل من أن ينصبهم في مقامات يتناولون فيها المشاهرات العظيمة
ولا يوفون ببعض ما يجب عليهم من الواجبات .

قلت لأحد العارفين ان فلاناً من عظماء رؤسائنا قد أثبت نزاهته في
عدة مواطن فقال : لقد قلت الحق الا انه يتسامح مع المرتشين في
حكومته كأنه لا يريد أن يثير عليه مسائل هو في غنية عنها أو انه
يرتقب الزمن حتى يتمكن من صرف الفاسدين والاستعاضة عنهم بمث

يخرجهم ليخلفوهم . وهذا لا يقوم عذراً له على سكوته عن المرتكبين على أي حال ، وما أظن أحداً من رجالنا خلا من هذا العيب ، ومن أجل هذا كان الفساد أبداً متسللاً في هذه الدول .

كم أتنى أن يلهم المولى من وسدت اليهم مقاليد الحكم في ديار العرب أن يفكروا في المصلحة العامة زيادة على تفكيرهم في مصلحتهم الخاصة . عشرات من الوزارات تعاورت الحكم في العراق والشام ومصر في العهد الاخير وما كان اهتمامها بواجبها على الاكثر عشر اهتمامها بدفع حائل الاحزاب المعادية لها . وبما ينجل ان كل وزارة تتألف لا تستكشف من بذل الوعود المغرية الأمة واعلانها عما تنوي وزارتها القيام به من الاصلاح فيتحقق بعد تخليها عن الحكم أن كل ما وعدت به كذب في كذب .

جارت الطبيعة على بعض الفتيات فبقين عوانس في بيوت أهلن العمر كله ، وهن ما خلقن الا ليكن أمهات .

كلما زاد عدد رجال المحاماة طال حل القضايا وزادت النفقات على الدعاوي . أتعاب المحاماة سبب هذا التطويل والتضليل .

بعض عمال الدولة يستهدون الناس ، والهدية رشوة مقنعة بقناع جميل .

ما أظن أمم الارض أنشأت أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان ولا أعظم بلاء منهم في خدمة الحق والعدل ومع هذا يكثر بعض فرق الشيعة

من لعنهم على ما لم يقل به الدين ولا العقل . ويحتلقون لهم من المساوي .
ما لا أثر له الا في قلوبهم النفلة (١) .

لو جمع كل ما أتاه الشيعة في دولهم من الاحسان ما وازى عشر
ما تم على أيدي السلاجقة في فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى من
الחסنات . والسلاجقة أتراك جماعيون .

سألت بعض من يركن الى أقوالهم من الداخلين في الماسونية عما
أفادوه منها ، فكانوا يأسفون لوقت أضاعوه في أمور ما أنتجت الا أن
كانوا مطية لأغراض الرؤساء والمقدمين في الدرجات .

غلة النفط في العراق تنفق بتقدير ، وغلته في نجد تصرف بتبذير ،
وفي ذلك اشارة الى عقلية الحكومتين .

أخذ رجال الدولة السعودية يستغلون ثرواتهم في مصر ، يبتاعون
المزارع ، ويقتنون العقارات ، ويبنون القصور في القاهرة وضواحيها ،
عدا ما لهم في البلاد الاخرى من الاموال والاملاك ، هذا وقد عمّ
الفقر سكان الحجاز ونجد ، ولا من يسأل هؤلاء الرتوت من أين لكم هذا ؟ .

(١) في كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الاسلامية صورة المناظرة التي جرت سنة ١١٥٦ هـ
بين هيدالله السويدي البغدادي من علماء السنة وبين الشيعة وقد جاء ملك المعجم طهاسب قلى الى العراق
واراد ان يعترف بصحة مذهب الشيعة وانه مذهب جعفر الصادق قال طهاسب انه شرط حين المباينة
في صحراء مغان عام ١١٤٨ رفع سب الشيخين والآن رفعت السب فن سب قتله وامرت اولاده
وعياله واخذت امواله . وحدث السب ايام الشاه اسماعيل الصفوي ولم تزل اولاده بعده تلفوا اثره
حتى كثر السب وذلك عام ٨٥٧ ودام السب ثلاثمائة سنة واجمع علماء السنة والشيعة في تلك المناظرة
على ذكر الصحابة بخير نصار ذكرهم ومناقبتهم ومفاخرهم في كل خيمة وعلى لان الأعاجم كلهم يذكرون
لأنه بكر وعمر وعثمان متابع وقضائل يستبطلونها من الآيات والأحاديث ما يهين عنه فعول اهل
السنة ويسفهون رأي المعجم والشاه اسماعيل في سبهم .

سمعت بعضهم يقول ان الصفات الشخصية لا تأثير لها في حالة الموظف أي انه لا يضر المقامر قماره ولا الفاسق فسقه ما دام يقوم بعمله اليومي المفروض عليه . ومن الالاف أن من يجب عليهم تحري حقائق المستخدمين هم أوغل في الفساد ممن هم تحت أيديهم ، لذلك نراهم يرحمون من لا يستحق الرحمة .

سألت في الحرب العالمية الاولى أحد المستعربين من علماء الالمان ، وكان قضى في الهند دهرآ يدرس العربية في جامعة اليفرة في شمالي الهند ، هل صح أن الشيعة يبلغون ثلاثين مليوناً في الهند ؟ فانتفض وقال : هذا الاحصاء مبالغ فيه جداً اذ الشيعة هناك ما زادوا على نصف مليون ، أي أن جماعتهم وهم المتهمون بالمبالغة في تقدير كل ما يرفع من شأنهم أوصلوا الشيعة يومئذ في الهند الى ستين ضعفاً بما هم في الحقيقة . وافقد رأيت جميع الشيع التي انشقت من الاسلام نبالغ بعدها مبالغة مضحكة . سأل أحدهم أمامي رجلاً دخل في مذهب القاديانية كم بلغ عدد جماعتكم فقال : أربعة ملايين . والقاديانية ما تجاوزوا الى اليوم ثلاثمائة شخص على ما حققه الثقات من القاديانيين أنفسهم .

زعم بعض المنشقين عن جبهة المسلمين أن التاريخ لا يؤخذ من كذب أهل السنة لانهم يكذبون ، والواجب أخذه عن مؤرخي الشيعة لانهم صادقون . ما أضيق عقول هؤلاء الدعاة أضافوا الى نعصبهم الذميم مكابرة في المحسوس وقلة أدب .

يحاذر بعض المصريين الانتقاد وهم من أشد المشاركة حباً للمديح والتقريظ . واذا انتقد منتقد بعض الظاهرين منهم يفقد اتزانه ، واذا قرظهم مقررظ يغتبطون ويعدون ذلك منة له عليهم .

كان من أعظم أماني الشيعة في الاسلام أن يؤسسوا لهم دولة تجمع
سلمهم ونبت في العالمين دعوتهم ، فوفقوا الى تأسيس الدولة البويهية في
الشرق ، والدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الصفوية في العجم ، وكانت
كلها أحط بإدارتها وسياستها من جميع الدول الاسلامية ، وفيها من
العيوب ما يزيد على ما في الدول الجماعية .

يحارل بعض الامامية انكار ما صدر من جماعتهم ، ويتمحلون لهم
الاعذار ، ويبرؤونهم مما نابذوا فيه الحق ، واذا حاجبتهم بكتبتهم
أنكروها وقالوا ان الشيعة فرق كثيرة ، والامامية براء من هذه
التقولات ، ويدعون أنهم يفضلون علياً فقط ولا يشتمون الصحابة .
والتفضيل بأدب لا يؤلم بقدر ما يؤلم الطعن في عشرات الالوف من الصحابة
قام الاسلام على أيديهم .



ساسة الشرف

من أبلغ ماقرأت في الصحف المصرية كتاب استقالة الاستاذ مصطفى مرعي بك من وزارة الاستاذ حسين مري باشا . أنشره هنا نموذجاً يفهم منه روح كبار الساسة ، قال :

« حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء .

تحية وبعد فانك تعلم كما يعلم غيرك أنني انما اشتريت في حكومتك على أمل في أن لك غاية هي جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، وان لك هدفاً ، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطير من مشاكلنا الداخلية والخارجية .

وقد تبين أنك لا تنفيا (؟) هذه الغاية ولا تتوصل بوسائلها ، بل أنك تبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزين ومن كل فرقة فرقتين .

وقد رأيتك بنفسك ترى الرأي للحق وتنقضه للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها . ولم يقع ذلك مرة واحدة ، بل وقع مراراً في الخطير من شؤون الدولة .

أما أفضلك وأما عباراتك ، وأما أسلوبك في إدارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد أصبح هذا كله مضرب الأمثال وموضع التندر في كل مكان .

لهذا ، أحبطك علماً باعتزالي العمل في الوزارة ، والله المسؤول أن يدفع عن بلادنا سوء ، وأن يقيها غوائل الفساد .

مصطفى مرعي

١٦ أكتوبر ١٩٤٩

الجنبليات الضارة

قال لي أحد أبناء وطني من مهاجري الشاميين في الأرجنتين انه يحمل من مواطنيه فيها الى بلدته دير عطية في جبل قلمون مئتي ألف ليرة سورية لبناء جامع ومدرسة اثاث ومدرسة ذكور ، وان بعض الثوارين قال له : ان في هذا المال الذي تأتونا به نظراً ، لأن منكم من يملك كروماً واسعة يعصر عنها لبيعه خمراً وهذا محرم فأجبت رسول المحسنين ، وقد عجزت عن الرد على ذلك القول من طريق الدين : بارك الله بآلـكم ومال المتبرعين ، انكم تتوخون النهوض بمن خلفكم وراكم من الـاهل والعشير وليس بعد ذلك احسان ووطنية .

وسألت صديقي العلامة عبد الحسن الاسطواني أكبر علماء الحنفية في الديار الشامية عن حكم هذه الاموال فأتاني بالنص من كتب الفقه ، وقرأ عليّ مايلي : « وجاز بيع عصير العنب بمن يعلم أنه يتخذ خمراً لان المعصية لا تقوم بعينه » وأبأفت هذه الفتوى مواطني الكريم فاغتنبط بها وجماعته المغتربين أي اغتباط .

ومن هذا النوع من رمي الشريعة بالجهود ما يأتيه بعض أغنياء القطر المصري من ايداع أموالهم في المصارف وأكثرها للاجانب دون أن يتقاضوا عنها شيئاً من الفائدة تدنياً . وتقدر هذه الودائع بعشرات الملايين من الجنيهات يتعفف أصحابها من أخذ أرباحها وهي بما له وجه حل إذا صرف في اطعام الفقراء وكسوتهم وتعليمهم . والعمل على ذلك جارٍ أكثر من جيلين . فكم رجحت مصارف الحريين من أموال المصريين بهذا التحريم الموهوم ، وكم حرم أرباب البؤس من الانتفاع بفائدة هذه الاموال . ألا بعد ذلك من باب الجنبليات الضارة ومن الجهود الغريب ؟

أغراض السياسيين

قص عليّ صديقي خليل مطران الشاعر عليه الرحمة ما وقع له مع أحد أصدقائه من الأمراء قال : طلب اليّ ذات يوم أن أنظر فيما يصدر عن مكتبه من الرسائل أقوم عبارتها وأنقح أسلوبها ، فأخذت أخلف الى قصره مرتين في الاسبوع . وأرادني بعد مدة أن أتوسط له مع صاحب الأمر الأكبر في فض مشكلة تهمة . فقلت له : يامولاي أنا لا أصلح لهذه السفارة لعدة اعتبارات ذكرها ، والأولى أن يكون الوسيط بينكما من عيار أكبر من عياري كأن يكون أميراً أو سفيراً . فكان جوابه وعلى هذا فأنت تلتفع من صاحبك فلا تحب التوسط بيننا في مشكل يعني قضاؤه على يدك . فأخذ الغضب من الانخ الحليل وقال : اني أخلف الى القصر منذ سنة كذا لا أنظر في الرسائل الصادرة عن ديوانك فالتمس منك أن تتفضل وتسأل دائرتك هل قبضت درهماً مقابل هملي أو اجرة العربة التي تنتظري حتى أعود فان كنت لم تعطني شيئاً حتى الآن وأنت أكرم من السحاب كيف ينفعني خصمك بشيء وهو من أبخل الخلق ؟ قال وتفارقنا والانقباض ظاهر على وجهي ، وحاول بعدها استرضائي فأبيت .

قال : ومضت برهة من الزمن وارتقى صاحبي الى منصب يستطيع فيه أن يضر وينفع ، فما هي الا أيام حتى داهم داري جماعة من رجال الامن العام يفتشون أوراقى ويطلبون مني القصيدة التي مدحت بها خصم الامير . فلم يعثروا على غير ما طبعته في الديوان . وكان المقصد منه خدمة مصر فقط . ثم ترامى اليّ أن ذاك الصدر العظيم تدرع بنفسي من مصر بدعوى أني شخص غير مرغوب فيه الا أن الانكليز لم يقبلوا بذلك . وكان السبب في وقائتي من التغريب وجل منهم ألف كتاباً بالفرنسية في العنصر

الصقلي (السلافي) أهدانيه فقرأته وكتبت فيه مقالة نشرتها في احدى الصحف الكبرى ، وذلك على غير معرفة بالمؤلف . ثم اجتمعنا وشكرني وهنأته على ابداءه في تأليفه ، ورجوته أن يكتب كتاباً على غرارهِ في العنصر العربي ، وأنا أقدم له ما عندي من المواد عله يجد فيها بغيته . هذا الرجل هو الذي قال في "خيراً ونجوت بفضلهِ من التفرغ والتشريد قصة لا يندر وقوع مثلها من أمراء الشرق ولذلك كان أكثر الناهبين يبتعدون ما أمكن عنهم وينشدون مع ابن الورددي :

جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند من اذا قال فعل

مجمع مصر

لما اقترب موعد افتتاح مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية لاحظ أحد أصدقائي في المفوضية المصرية في دمشق أنني غير مستعد للسفر الى مصر حتى أحضر جلساته كالعادة في كل عام لأنني لم أطلب جوازاً والحكومة المصرية طلبتني . فألح عليّ صاحبي بالذهاب . وزاد هذه السنة (١٩٥٠) الحاح بعض اخواني وتفضلوا وأوردوا لي حججهم لاجابة الطلب فاعتذرت بقلّة نشاطي للسفر الى المؤتمر كما اعتذرت في العام الماضي بصحتي . وكان الحق في جانب من حاولوا اقناعي بالرحيل في السنتين الماضيتين ، لو كانت النقلة من قطر الى قطر سهلة عليّ ، وهما قد اعتذرت هذه السنة الثالثة عن الاشتراك في المؤتمر المغربي .

اني أفضل أن يشغل هذا المقعد في مجمع مصر من هو أصبر مني على معاناة مسائل اشتغلت بها زمناً طويلاً ، وعندي الآن ما يشغلني عنها . ولا تطيب نفسي بعد اليوم للتقيد بارادة غيري ، واجتهاد المرء يتغير ، وفي هذه الحقة من العمر يحتاج الانسان الى الهدوء ، وألا تقع عينه على ما يكره ويزعج .

الصحافة العربية

كلما زاد عدد من تخرجهم المدارس من الطلاب والطالبات يزيد قراء الصحف زيادة محدودة ، وتنتشر الثقافة بين الشعوب العربية على تباين الطبقات واللهجات ، وعلى نسبة ذلك يكثر ما تطبعه الصحف من الاعداد ويمتاز كتابها ببراعتهم ، ويرزقون على قدر شهرتهم .

عمدت أعظم جرائد مصر انتشاراً تطبع في اليوم من ألفين الى ثلاثة آلاف . ومن الصحف اليومية والاسبوعية اليوم ما يطبع مئة وخمسة وعشرين ألفاً .

وعهدي بكتاب مصر بالامس يعيشون في ضحك وضيق ، ومنهم في أيامنا من اغتنى . وقد غدوا بما تدر عليهم أقلامهم من الربح كبعض كتاب الممالك الغربية . ومنهم الاستاذ عباس محمود العقاد وفكري أباطة ومحمد التابعي ومصطفى أمين ومحمود أبو الفتح في الاحياء . مثلنا هؤلاء . وهناك كثيرون لا يقلون عنهم تفناً ودخلا .

وأهم ما دخل من التعديل على الصحافة العربية الراقية أن كان كاتب الجريدة أواخر القرن الماضي يضطر الى أن يتناول بقلمه موضوعات جمة وقد تعينت في أيامنا أبواب التخصص فلا يخوض السياسي الذي يعاني الخارجيات في الابحاث الداخلية ، ومن كتب في الهزل لا يقرب الجد ، ومن نظر في الاقتصاديات لا يخط قلماً في الادبيات . وهكذا تفرد كل منشيء بما غاب عليه وتمحض له . وأمسى الملوك والرؤساء يخطبون وديارباب الجرائد لهمم بتأثيرهم في الافكار ، وانتظمت أمور الصحف انتظاماً يشبه انتظام وزارة في دولة عظمى ، لا تجد في ادارتها خلا ، ولا في تحريرها ما ينتقد . واذا كان في صحفنا اليوم ما يطبع اهمدنا المئة ألف وأكثر ، لا يبعد أن تطبع غداً بضع مئات الالوف .

دخلت صحافة مصر في دور الانتفاة ، وفقدت الغرب في معظم مظاهرها ، فكان من ذلك انتشارها في الشام والعراق ، وأصبح لها في هذين القطرين مكانة أربت على مكانة صحفها المحلية ، ذلك لان هذه ما زالت صحف أفراد أو أحزاب ضعيفة . وصحف مصر صحف شركات وأحزاب غنية . وفي أرض العرب تقرأ حتى جرائد الاحزاب المصرية كما تقرأ الصحف الاخبارية ، وتتلّى مجلات المزل كما تتصفح مجلات الجد وبشترك الرجال والنساء والاطفال في تناول الصحف .

وربما عرف ابن بغداد والموصل والبصرة ودمشق وبيروت وحلب رجال القطر المصري كما يعرفهم ابن مصر لكثرة ما يبالغونه في صحفها من اخبارهم وأدوكوا سر السياسة المصرية كنبهاء المصريين وزيادة .

أرباب الاستبداد

يوم أعلن القانون الاساسي في الدولة العثمانية (١٩٠٨) وأطلقت حرية الصحافة كانت جريدة المقتبس أول جريدة في الشام طلعت على الولايات العربية بأفكار حرة لا عهد لها بمثلا . وحاول ولاية تلك الايام من العثمانيين أن يسكتوها ناسين أن روح حكومتهم تبدل ، وأن دولة الاستبداد دالت ، وكانت المحاكم والحق يقال أعدل من أن تتأثر بأهواء الحاكمين ، ولطالما أنقذتنا من ظلمهم حتى في معظم قوة الاستبداد العثماني . أما في عهد الحكم العربي فكانت الحرية في بعض السنين تلمث وتحضر ، وودّ بعض الرؤساء لو يعاقب كاتب هذه الفصول على مادون في تأليفه الاخيرة التي حملت آراء لا توافقه ويرى من مصلحته اغلاق الباب دون انتشارها ، ولو كانت المحاكم تفصل في مثل تلك القضايا على مايشتهي الرؤساء ما ادخر هؤلاء وسعاً للقضاء على رجال الحرية بما انطوت

عليه جوارحهم من حب الانتقام وشدة الحقد وفرط الاستبداد ، فلم يبق
إذاً أمام الرؤساء للتشفي الا حمل زعانفهم على التهكم بالمولفين وتزييف
أفكارهم ، وكان أولئك الرؤساء يعاملون بعض الصحافيين الناشزين اذا
غضبوا عليهم بإرسال زبانتهم يضربونهم حتى يدموم وحدث أن مات
بعضهم من شدة الضرب . هذه هي حرية الجمهورية في بعض أيامها لم
تدرك عقول من يمثلونها غير الاعتداء على حرية الخلق ان لم يستطيعوا
أن يثاروا لأنفسهم على ما يحبون من معارضهم لامتناع الحاكم عن الحكم
لهم بما يريدون ، ذلك لأن للحكمة قانونها ولها قاض يدرك مغبة العبث
به . أما رجال السياسة والادارة فقانونهم على الاغلب من اختراع قرائحهم
ولا يطبقون من الانظمة المعمول بها الا مالا هم أهواهم .

الفروع أخرى

كان احد وزراء مصر من جملة المدعوين في قصر الملك ذات ليلة ،
ولما جيء بطبق اللحم اخذ قطعة منه ووضعها في صحنه وحاول تقطيعها
بشوكتة وسكينه ، فطاحت بعيداً . فضحك المدعوون وما ادري ان كان
حاول ارجاعها الى طبقه ليأكلها حباً بالاقتصاد . فقلت لمن روى لي هذا
ان أصل هذا الرجل من الريف وما مرن على مصطلحات المدنية في بيت
ابيه . ولما وصل الى المقامات العالية بقي على عادته الراسخة وما قدر
ان يتمثل العادات الجديدة على كثرة مخالطته الكبراء بحكم منصبه .
ورأيت وزيراً منهم لما مدَّ يده يضافني كانت أطافره الطويلة مملوءة
وسخاً أسود تأنف النفس منها ، فاستدلت بهذا المنظر ان الوزير لا يعرف
النظافة وما اهتدى الى ان يسير على طرق المتدنين ، ولا على طراز
المتدنين في هذا المعنى .

ولقد ظلت عادات الفلاحين واخلاقهم ماثلة في كثير من الوزراء الذين يرجعون في اصولهم الى الفلاحين ، والمنحط يبقى على انحطاطه محتفظاً باخلاق اهلـه ولو كانت ظواهره انه متمدن ، والمال لا يورثه ما فقده ولا المظهر الحديث ينقله من قبيح الى احسن في برهة وجيزة . نحن حراس على تقليد الغربيين في عادات لهم حسنة وفائنا ان هذه العادات رسخت فيهم في الاحقاب الطويلة وهي تلقين من الآباء والامهات ونتيجة اختلاط وتمرين وتدريب . والغالب ان العادات الحميدة تبقى اثر بعضها في المتعلمين من ابناء الطبقات النازلة مستحكما الى جيل أو جيلين . رأيت طوائف من الناس في المآدب والمجتمعات ومنهم الغني قد احتفظوا بأخلاق بيوتهم وعاداتها في مظهرهم الجديد ، يتجلى ذلك في سكان جبال الشام الذين هاجروا الى أميركا وغيرها ، فانهم لا يحسنون على الاكثر الجلوس ولا الخطاب ولا الطعام ولا السير على طرائق أهل العصر ، ترى ذلك ماثلا في النساء والرجال ، ومتى رأيت من رأيت من الجنسين تعرف أنها بقيا بعد الغنى والغربة الطويلة فلاحين وأبناء فلاحين .

ليت المدارس تدرب بالعمل تلامذتها على سلوك سبل المتمدنين وتلقنهم فن الحياة ومصطلحات العصر ، كما يعلمونهم منذ الصغر الصلاة وما يتبعها من أمور الدين . تعلم الصبيان ولا تغفل عن الفتيات .



تأليف الممالك

يقول غروست المؤرخ : قد يتجاوز عمل مؤسسي الممالك الحد الذي ما كانوا يتوقعونه . أخضعت حكومة الاشراف الرومانية لسلطانها في القرن الثاني قبل المسيح الامارات الهيلينية ، وما كان يدور في خلدّها انه سيكون من ذلك توحيد جامعة الهيلينيين ، ونشر كلمتهم في العالم ، وأن هذه الحفنة الضئيلة من اليونان سيقوم منها رجال بزنطية الذين اشتهروا بعجرفتهم في القرون الوسطى . وفي العهد الحديث ادخلت الثورة الفرنسية و نابوليون النظام على الشعوب الالمانية واخرجتها من بليلتها ، وما كان يشكّ لهم يعملون على ما يخالف مصلحة بلادهم ، فنشأت الوطنية الالمانية والوحدة الالمانية . وهكذا كان من الانكايّر لما شرعوا بضم اجزاء الهند في وحدة شاملة وما رأوا انهم بما اتوا يوحّدون اجزاء مملكة متّحدة جغرافياً وذهبوا الى ان لهم فائدة من ضمها في سلك واحد ، بيد ان نتائج سياستهم تعدت الحدود المنتظرة فجمعوا بتأليفهم هذه الوحدة الادارية التي خلقتها الطبيعة من جبال هملايا الى رأس كامرون بين سكان الهند وما حسبوا حساباً للعاقبة ، وباجحامهم مملكة الهند خلقوا امة هندية . اه واصلح الغرب الخطأ الذي ارتكبه في اليونان قديماً والمانيا والهند حديثاً على رأي المؤرخ ، وقام يفرق كتلة الشعوب ولا يجمعها ، وسار على ما ينفق مع اطماعه من التقسيم ، فجعل من مراكش مملكتين لكل واحدة منهما ملك . وسبق للدول المتّحدة أن قسمت الديار الشامية بعد الحرب العالمية الاولى الى سبع دول ثم أوجعتها الى أربع ، وفصلت بريطانيا العظمى السودان عن مصر ، وجعلت الهند شطرين ، شطر مسلم و شطر وثني ، واقتطعوا من جسم اليمن عدة امارات على المحيط الهندي ، وجعلوا من سواحل الخليج الفارسي امارات مستقلة ، وأنشأوا من كل امارة دولة على حياها وألقوا من ولاية مملكة ، وصاغوا من عمالة امارة .

وهكذا قسموا بحسب أغراضهم مالا تجوز قسمته ، وما راعوا مصلحة السكان ولا طبيعة البلدان . ولا قصد للدول الكبرى من هذا الشرق المسكين الا منافعهم الخاصة . ورأينا انكاثرتا تنشيء بعد الحرب العالمية الاولى من الارض التي كانت معروفة بلواء الكرك على العهد العثماني بمملكة دعنتها بمملكة شرقي الاردن ونصبت عليها اميراً ثم جعلته ملكاً . وانكاثرتا تسمى اليوم الى تأسيس مملكة عربية ثانية على الخليج الفارسي سكانها مليون نسمة ، وبالطبع تقيم لها ملكاً ومجلس نواب ووزارة مسؤولة وغير ذلك من التوابيع والملاحق .

وهكذا شأن الدول في التقسيمات الجغرافية ، وحرصهم على تفريق أجزاء القلوب في الشرق أشبه بحرصهم على تجزئة أرضه ، يفسح المجال للمذاهب الجديدة ويرحب بكل صاحب بدعة وطريقة ، ويغتبطن يوم يرين البيت الواحد منقسماً على نفسه ، ويهيئن لكل ملك من ينازعه على الدوام ، حتى لا يصدع بغير أمرهن ولا يسبح الا بحمدهن . وبسياسة فرق تسد نشر الغريبيوت كلنهم على اقطار العرب من اقصى شمالي افريقية الى آخر حدود اليمن ونجد والفرات .

قال لافيس المؤرخ : كل قوة تنضب ، ولا يتأقن أبداً أن تكون قدوة التصرف بالتاريخ ملكاً أبدياً لدولة . ورثت اوربا من آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة اصول الحكم ولن تحتفظ بما ورثته أبداً الدهر . ونحن نقول حقق الله ذلك .



أُمالى

صرفت عمراً في مطالعة ما أبقاء العرب من تأليف ، فبقدر ما كنت أرتاح الى أسفار الأقدمين كنت أنقبض من بعض كتب المحدثين ، ومن أكثر ما عذوت النظر فيه مضبعة لاوقت كتب المناقب والمثالب ، فانما حيكت في كل عصر بضروب من المذيان والبهتان . ومن أبشع ما سجل في النثر مناقب الاولياء والصالحين وفي الشعر أماديع الأمراء والكبراء .

قد لاظهر عيوب الادارة في الدول الكبرى ظهورها في الدول الصغرى .
خسارة الغني الألوف لا تورثه عجزاً بقدر خسارة الفقير المئات .

لو كانت القصور التي يشيدها آل سعود في مملكتهم تبنى بأيدي أبناء الحجاز ونجد لكان الأمر لأنه يكون منها رزق لسكان تلك الديار ولكن معظم مواردها وبناتها وفرشها وفرشائها من اميركا شريكة المملكة العربية السعودية في النفط الذي تستثمره اميركا ، فيكأن هذه تعطي باليمين وتأخذ بالشمال .

ما فتع الانكليز مدارس خاصة بأبناء الاعيان الا ليصوغوا منهم طبقة مختارة . معول الانكليز في الحكم على الاشراف المثقفين .

يوم يقدر العلماء مقدار التبعات التي تقع على عواتقهم يصبح الناس بألف خير .

من كان اكبرهم العطف على ابناء الشوارع فهو منهم او شبيه بهم .

حاولت منذ بدء حياتي أن آلف الموسيقى الغربية وإن أفهم ما فيها من ميزات فلم تقبلها نفسي وعند ذلك أدركت أن الموسيقى تربية ، والتربية إبدأً تختلف في أمة عن أخرى .

استحسننت من عامي كان له بعض الظهور في قومه عندما سألتني أين تقع اليمن من بلادنا ؟ فأجبتة بسذاجة تشبه سذاجته في سؤاله : وجه وجهك الى القبلة ، وبعد ارض الشام تبدأ ارض الحجاز وبعدها تقع اليمن . ليت كل جاهل ينزل للسؤال عما لا يعرف ، فقد أدركت اناساً تعلموا الجغرافيا بمطالعة الجرائد وبالقائه مثل هذا السؤال على العارفين والانتفاع بالأجوبة عليها .

عرفت ثلاثة قضاة وشيخ مدرسة وتاجراً متصولحاً جمع كل واحد من الثلاثة الأول من مال اليتامى والارامل بضعة ألوف من الدنانير مرفت منهم فمات منهم اثنان على الأثروجن الثالث جنونا مطبقاً ثم هلك . وجمع شيخ المدرسة بضعة ألوف من مغلّ الوقف فسطا الاصوص عليها ومات بعد قليل ، وكذلك هلك التاجر المتصولح الذي انجر بالورق النقدي فخسر ثروته كلها وما استطاع مثل الاربعة الذين تقدموا أن يبرح لأحد بما حلّ به من النكبة لأن هذه التجارة محرمة وهو مشهور بتدينه .

شاهدت بعض الدارسين يتوقفون الى الشهرة على حساب من سبقوهم الى خدمة العلم ، ويحاولون اسقاطهم والهزوء بأعمالهم ، وهم مانجحوا ولن ينجحوا ، وماتوا بغيظهم وما استفادوا الا أن أثبتوا قلة أديهم وعظيم سلاطنتهم . أما الذين سلكوا الطريق المستقيم ، وجودوا أعمالهم وأحسوا بنقصهم بعد الدراسة ، وداووه بالاستزادة من العلم فقد وصلوا من الشهرة الى درجة تجاوزت ما كانوا يرجون .

سألني تاجر انكليزي يقطن الاسكندرية عن مجرى امور الانتداب في الشام وذلك قبيل انتهاء أيامه ، فقلت له انه يتخبط على غير هدى . فقال : هل ترى الفرنسيين انتظمت أحوالهم في بلادهم ؟ فقلت : اللهم لا . قال : اذا كان الامر كذلك فكيف تريد من لا يحسن تنظيم بيته ان ينظم بيت غيره .

ما تبدلت أخلاق العمال في أدوار ثلاثة ، دور الترك ودور الفرنسيين ودور العرب . كان الموظف في هذه العهود مها علت منزلته بصانع رئيسه ولا يراجعه في أمر يخافه أن يعد صاحبه ذلك تطاولاً عليه فيغضب ، وكنت اذا قلت لا أحدهم : هذا أمر تقرر على ما يظهر بلا بحث ولا نظر قال : الحق معك وأنا على رأيك ثم يهمس في أذني : هكذا أمر الرئيس وهو لا يوافق على غير ذلك . وهذا الخلق مائل في الوزراء وضرره منهم أشد . أنعم وأكرم هؤلاء الأوفياء لمصلحتهم الخاصة فقط .

من صفار الموظفين من دأبوا على مصانعة الرؤساء أيا كانت أحزابهم ومشاربهم ، يودعون الراحل بالأسف والاكتئاب ويستقبلون خلفه بالفرح والسرور ، ذلك لانهم يعتقدون انهم لا تسلم لهم مراكرهم الا بهذا النوع من النفاق .

بما تشمئز النفس منه مصانعة الوزراء من نزلوا علينا من الافرنج حاكمين ومعلمين ، كانوا اذا خرجوا من حضرتهم اطلقوا السنتهم بالقدح فيهم ، زاعمين ان الوطنية تقتضي منهم التظاهر بهذا الخلق السافل . لو كانوا على شيء من حب وطنهم ويتأففون من احتلال الغرباء ارضهم لنصحوا لهم وارشدوهم الى طرق الخير .

كنت اذهب الى ان خيار الفرنج اذا ساووا خيارنا في صفاتهم الحسنة فهم من حيث الكثرة والقلة اكثر عدواً من جماعتنا ، ورأيت من

خيارهم من يمتازون عن خيارنا بتجويدهم صانعهم ، ونظيرهم فينا اندر من
الكبريت الاحمر ، اما الاشرار منا ومنهم أولئك عليهم لعنة الله
والناس اجمعين .

قال لي مدير شرطة افرنسي : من اعجب ما شاهدته في بلادكم أنا
كما اذا قبضنا على احدهم في بيروت يأتينا من يقول لنا احسنتم باعتقالكم
هذا الحبث ، وكان المتوقع منكم ان تعتقلوه قبل الآن ، وما نرى الا
انه يستحق القتل بما نُسب اليه . وكنا اذا اعتقلنا شخصاً في دمشق
يحيئنا الوفد بعد الوفد يرققون قلوبنا عليه ويصفرون من شأنه ، وقد
بدعي بعضهم انه معتوه لا يؤبه لما صدر عنه . تناقض في الاخلاق : نقمة
شديدة ورحمة مفرطة .

قيل لاحد العقلاء : أترضى ان تكون رئيساً كبيراً وانشارك من
الرعا والسفلة فقال : ملك بلادي ملكاً ابدياً لا يفي بما يلحقني من الصغار
باستبعا هؤلاء الانصار .

قالوا ان فلاناً كان جده وابوه على صفات طيبة فكيف نشأ ابنهم
نشأة تخالف نشأة اهل بيته ؟ فكان الجواب : ان فلاناً عشق الظهور
فارتكب في سبيله كل ما يربأ الشريف بنفسه عن ارتكابه ، ثم رأى
معاشرة الاوباش لمنفعة له توهم الحصول عليها منهم ، فسرق طبعه من طباعهم

ربما كان في النساء من يفضلن الحجاب على السفور حتى تستر صورهن
القيحة عن يسارقوهن النظر متخيلين ان هناك جمالاً ما وقعت على مثله عين

ان لم تظهر أخلاق المنظور اليهم على جلالتها يظل الفش سارياً في
الحكم وفي سائر أعمال الحياة .

مضى عرف أهل المدن مقدار نعب الفلاح حتى تحصب أرضه وتنمو أشجاره يكفون عن حسده عما يجنيه من غلتها وثمرتها .

تتمثل أخلاق الظلم في أبناء الظلمة منذ الصغر ، كبعض الأمراض السارية فلما ينبو منها المصاب بها مها عاجلها بالحقن والعقاقير والطعام المغذي .

قيل ان فلاناً قرّبه صاحب الشأن على سوء سيرته المتعارفة ، فقلت لهم : لا تتمجلوا سيأتي اليوم الذي يلفظه فيه كما تلفظ النواة من التمرة .

تمت لو كانت علامات العالم في الأخلاق أوفر من علاماته في الثقافة ، ان أخلاقه سبب أول في نجاحه ونجاح من يبيع منهم بضاعته .

أكدوا أن فلاناً كان يستعين بالطلبة لما كان يدرس لهم في الجامعة المصرية حتى يأتوه بالنصوص اللازمة لتأليفه ، فيكلفهم في ذلك شططاً ، فقلت لهم : وكان في نشره كتب غيره لا يعاون أصحابها على طبعها الا اذا جعلوا له حصة من الأرباح ترضيه ، ودس اسمه الى جانب اسم المؤلف ، وتقرّد بكتابة مقدمة الكتاب . وليس وراء ذلك أثره . ما أقبح الطمع فيمن يجب أن تنجرد منه نفوسهم قبل كل أحد .

قال لي أحد لِداتي : الفرق طفيف بيننا وبين من تقدمناهم ، يوم كنا نجد في الدرس تركونا وانصرفوا للهو يعبثون ، فكانت النتيجة ما ترى فيهم وفينا .

أعرضت عن رجل وقع منه ما ساء في فأقسم وهو كاذب أنه ما أتى ما يكدرني ، وأنه لا يستغني عن صداقتي ، فقلت : انه يحاول أن يستخلصني لحظ نفسه فيكسب من اتصاله بي ما يجعل مني دريعة له فيما يهمه من هذه الصداقة .

نق أن من دأب على سلب الأمة ، وحدته عقله المأفون أنها لا تطلع على ما يأتبه في سر ، هو من البلادة بـكان عظيم ، الأمة لا تعرف لها سالباً غيره ، والمسلوب أول ما يقع نظره على سالبه .

من عدوا التمويه على قومهم مهارة يفتضحون بها متى رفعت الستارة التي كانوا وراءها يلعبون ، فيسقطون سقوطاً لا يرتفعون بعده .

غاية ما يرضي العامي منك أن تبادر للسلام عليه ، وتطيب خاطره ، وتوهمه أنك مشاركة في عواطفه . وإذا اتسعت حالك ورضخت له بدرجات أو دعوته الى طعامك استعبدته . ووطن نفسك اذا أبطلت عادتك معه أن ينقلب عليك ويغتتابك ويعيبك .

من طالت عشرته لطائفة تشبه بها من حيث لا يشعر ، فمن المعلمين من اقتبسوا من أخلاق الأطفال لطول اختلاطهم بهم ، وبعض من يعتبرون في العرف من الكبراء تدنت أخلاقهم لكثرة ما تنزلوا بعقولهم الى مستوى العقول المنحطة .

كانت الأمية من علامئ الضعة في العرف فأصبحت في الحرب الأخيرة علامة البسر وسعة العيش بما وبع التجار ، ومنهم نشأت طبقة الأغنياء المحدثين ، فأصبحت الأمية بذلك شارة الاثراء والنعماء .

ليس من الفضول تحقيقك في السؤال عن صحة صاحبك وصحة عياله وسير أشغاله ، عنايتك بكل أولئك دليل اهتمامك بأمره ، وهذا من أسباب دوام الصداقة .

أفرط أحد الرؤساء في قبول الهدايا بمن يطمع في الاستفادة من نفوذه حتى أصبح لباسه ولباس عياله ومعظم طعامه ونفقات رفايته تأتيه بالجمان وبعد هذا ما أخال مكبراً يدعي أنه يبقى له شيء يقال له نزاهة واستقامة .

تطول آجال بعض العلماء في الغرب الى أبعد مما قدر لها في العادة .
ليت الفاطر ين على كل من يستعملون عقولهم بطول الأجل .

قالوا ان فلاناً أساء لأتمته فاستحق ما حل به من البلاء أراحنا الله
منه ، فقلت الأولى أن تدعوا له بطول البقاء حتى يرى كل يوم نتيجة
عمله الأخرق ، وبصبح عبدة ان تحدته نفسه أن يسير على طريقته في الحياة .

من عاشر الأولاد نزل الى مستواهم في العقل بحكم العدوى والقذوة ،
ومن صاحب أصحاب الموبقات هونوا عليه ارتكابها .

ذكروا أن أحد الوزراء الانتدابيين على ايغاله في اقتناص الربح من
أي طريق كانت ، وعلى اقتراضه مبالغ جسيمة ما نوى يوماً ردها
لأصحابها - لا يزال يفرق في الديون وليس بينه وبين الفقر المدقع الا
خطوة يسيرة ، فقلت : ما في ذلك موضع للعجب ، فان الرجل الذي يجلس
الى منضدة القمار كل ليلة ويخسر الالف والالفين لا تأملوا أن يكون
مصيره غير هذا ، والعجب أن يجد في مواطنيه من يسلم عليه ، وما يُجيبه
في الواقع الا من كان على شاكلة في فساد الطيعة وخراب الذمة
وقلة الشرف .

لا تقبل قول من يصانعك بقبول حسن فهو يصانع غيرك كما يصانعك ،
ومصانعك أضر عليك ممن يذكر لك عيوبك في وجهك .

قيل لرجل أساء الى صاحبه بلا سبب : اصفح عنه ، بهذا تقضي مكارم
الاخلاق ، فما هو أول من أساء . فقال : أود أن أخرج على قواعدكم
وأذكره بالسوء وأذكر كذبه وفساده ، لأحول دون ظهور أمثاله
من الساقطين .

من سمح لنفسه بالتزوير كان أعظم مزور ، ومن استعمل الكذب على كل من يراه كان أعظم كذاب ، وليس بعد التزوير والكذب عيب .
ليت لي من القوة ما أقطع به لسان كل كذاب فالكذب رأس المآثم .

العَمَلَة من أشرف الناس ، يفيدون بما تصنعه أيديهم ، وبأكلوت رزقهم حلالاً ، وهم أقل الخلق فضولاً .

قيل ان فلانا تولى ولاية عظيمة فكان أول ما أتاها خيانة أمته ، فقلت لهم لا تعجبوا وهل كان الا صورة من والده ، وهل هذا الا نسخة صبيحة من أمه وكلهم سكة ظلمة .

كانت الفلاحة اشرف صناعة لو لم يعتد بعض الفلاحين استغلال السرقة من حاصلات جيرانهم .

لا تتوسع في أمانيك والزم النوسط فيها ، فان حصل ما جاوز رجاءك اغتبطت ، وان لم يحصل لم تكن لتشغل نفسك بالخيال .

منى أدرك السوق - والسوق هم كل الناس ماعدا المملك - انه ما سبق لفشاش ان نجح استقام امر الامة حتى تشبه بأخلاقها أخلاق المسلمين في عصر الصحابة .

قاومني بعض العمال مقاومة عنيفة حتى أحرم راتب التقاعد كأنني اقتاضه من ماله الخاص . ولو بحثت عن السبب ما رأيت الحامل له على ما أتى الا الاثوم الغريزي المغروس في الطباع .

بعض الناس يعادونك وانت لا تعرف انك أسأت اليهم ، هكذا كان حالي مع بعض كبار العمال وما ادري أكان ذلك عن منافسة او عن حسد .

صغار المأمورين أقدر من كبارهم على تصعيب اشغال ارباب المصالح ،
عندهم مخارج للتسهيل ومخارج للتعقيد ، يعمدون الى استعمال الاولى اذا
ارضيت خاطرهم بالمال او خافوك لمكانتك ، و يعمدون الى الاخرى اذا
انت لم ترضهم .

اولاد الفقراء احرص على اكتساب العلم من ابناء الاغنياء وابن الفقير
احسن خلقاً من ابن الغني ، والبنات اكثر من الصبيان رغبة في الدرس

لذوي اليسار اخلاق خاصة على ما هو الظاهر من حالهم ، هم فلما
يخلصون الود لا أحد ، ولا يقومون بما يترتب عليهم من الواجبات ،
وكيف يصدقون مع من يعتقدون انهم لا يملكون كما يملكون .

في الاصدقاء من يرعون صداقتك ماداموا ينتفعون بها ، فاذا حدث
ان كان لهم من هذه الصداقة ما يتوهمون انه يؤذيهم مشوا مع من
يتخيلون النفع منه وتحلوا عنك ، فاذا ايقنوا انه انكشف لك ما خافوا
فيه القواعد المرعية بين الاصدقاء اقبلوا يعتذرون اليك ، فاياك بعد هذا
ان تدعهم اصدقاء فهم معارف عرفتهم ، ولفظة الصديق كبيرة عليهم .

من يتساهل في بعض حقوقك عليه ويذهب الى انه يجوز عليك
ما ارتكبه في سر بما يغضبك ولا يرضيك احذف اسمه من جريدة اصدقائك
ومعارفك ، لا تكثر به سواد من تعرفهم ، اما هو فسيعود اليك متى
احتاجك ويتناسى اذاه لك .

راجع سجل من عددهم اصدقاءك كل مدة فربما تسقط على من بدلهم
الزمان ، وعندها تكون أنت بالخيار اما أن تركز اليهم ، أو تنفض
يدك من صحبتهم ، فالصداقة كسائر الامور تحول وتتحول .

قامت في الأعوام الاخيرة نضة مباركة لتجديد مظاهر المدن وتزيينها وتنظيم شوارعها وساحاتها وقصورها ومصانعها ، ومن لنا بحركة مثلها للقضاء على ما يلي من مصطلحاتنا العائقة عن تزيين النفوس بالفضائل .

في معاشرة الخلق أمور دقيقة قد لا يهتدي الى النفوذ اليها كل انسان . جرت العادة أن يتعاطف أبناء الحرفة الواحدة اذا ما التقوا ، فيرى بعضهم من الوفاء أن يكرم في بلده بعض من ينزلون عليه على ما اعتاد الناس منذ القديم . واذا نزل المضيف على من سبق له أن أكرمه في بلده قد ينكره أو يعامله معاملة جافة . ولم أجد مثل هذا الضرب من الضيفان اسماً أطلقه عليهم ، وأمثالهم اليوم غير فلائل في كل بلد . ومتى شهدت بعضهم يستنكفون عن قبول دعوتك لهم في بلدك أيقن أنهم على غير استعداد لان يعاملوك بالمثل على اكرامك في موطنهم ، هم لا يرغبون في أكل طعام غيرهم حتى لا يأكل أحد طعامهم .

بحث بحبي لبعضهم فما قابلني عليه بحب مثله ، فأدركت أن من القلوب ما لا يعرف الحب ، واذا قدر لها أن أحبت كان حبها مزعزعا يزول لأول عارض .

من يحاول أن يرأس قومه بالكر يفقد متى ظهر أمره حتى ما كان له من صفات حسنة .

لي صديقان من الاعيان المثقفين ما قصرت في رعايتها منذ أول نشأتهما وكانت لي يد في تحسين سمعتهما ، احتجت اليها مرة في أمر يهمني فحولوا وجههما عني ، واعتذرا بعد حين عن اجابة ملتمسي بأعذار لا تقنع طفلاً . أقبح بصداقة لا تتعدى المباشطة والمفاكهة .

قد يعيش المرء ستين سنة ولا يجتمع له أكثر من عشرة أصحاب

فاذا تمخض الزمان هما يدعو الى خيبة الرجاء في وفائهم ، ود" لو عاش حياته بلا صاحب ولا عشير .

ما ارتاحت نفسي الى صحبة المتكبر ولو كان ملكاً ، وكنت أفر من عشرة المتكبرين فرار السليم من الاجرب ، وكثيراً ما أتكبر عليهم بأكثر مما تكبروا علي" .

يتجلى التواضع في الملوك بما لا يتجلى في الصعاليك ، والملوك لا يترفعون عن الناس الا بقدر ما يرفعهم خدامهم وعالمهم .

لا يروق اللؤماء أن يسمعوا ثناء على أحد ، كأن في الثناء على من يستحقه نقصاً في تكرمتهم ، وخطأ من أقدارهم .

كنت أذهب الى أن من المبالغات المألوفة ما قبل من أن الحسد يكثر في أبناء الحرفة الواحدة وفي العلماء خاصة ، ويخف كلما تباعدت الاجسام وتراخت الصلات بينهم ، فعلمني الزمن أن ما قالوه صحيح وأن تحاسد العلماء أشنع تحاسد .

يصغر الحاسد من عمل المحسود أبداً ، وأنت لا تقطع لسان الحاسد الا اذا سأله أن يعده لك محامده ، وسؤالك هذا صفة في وجهه ، وضربة على أم رأسه .

من دخل في المسائل العامة استهدف للنقد ، تصامم عما يقولونه فيك ان كنت تعتقد الصواب فيما تأتي وتذر ، والليالي كفيلة بادخال الملل على ناقدك ، فيكفون ألسنتهم عن تزييف ما لا تدركه عقولهم ، وأنت أبداً وطن نفسك على تجويد عملك ففي تجويده قهر كل منافس .

العاقل يحسب حساباً لكل شيء ، والجاهل لا يبالي الا بما فيه نفعه الملموس الموقت . ولا يزال المتدبر بعد للمستقبل عدته ، والمتوحش لا يهتم لغير الساعة التي هو فيها .

صاحب صاحبي صاحبي كما يقولون ، بيد أني غير مضطر الى أن أوالي من والاه وأعادي من عاداه . أنت قد تحب رجلاً وتكره أخاه ، وللحب والكراهية أسباب منها طبيعي ومنها اتفاقي . قد تستلطف شخصاً وغيرك يستنقله ، فلا تطلب الى كل أحد أن يحب ما تحب ويكره ما تكره . مقاييس الحكم على الحب والبغض تختلف وقاعدتها لا تطرد .

قد ينفق أن يعرف أحدهم بين أهل حبه بالاستقامة وحسن الخلق ، فإذا دخل في الامور العامة أو اشتبك وغيره في مسائل اقتصادية تجلت حقيقة مجردة لا تقويه فيها أمام من طالما خدعهم بظواهره .
مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص ، ولو خلا كل الناس من العيوب اعدوا في مصاف الانبياء .

ذكروا أنه كان ينظر الى فلان في الحكومات السالفة بأنه من رجال الدولة ، فلما نُهي عن عمله قبع في بيته وما عاد يظهر في المجتمعات والمحافل ، ولا يسمع له صوت ولا رأي ، فقلت : انه عاقل اذ من الصعب أن يذال المرء الخطوة في دورين ، واذا أردتم معنى آخر فقولوا ان قيمته كانت بالكرسي ، وبمظاهرة من أجله على الكرسي فلما زحزح عنه لم يبق له الموقع الذي كان له في النفوس ، والتجلي لا يعاد .

إذا بالفت بمؤاساة صاحبك زدت صداقتك معه احكاماً ، وهو في حزنه أكثر أيام العمر احتياجاً اليك .

من غريب ما شهدته من صاحب لي يحب الدعابة كثيراً أن بصوغ

أمور الجدل في قالب من المزج أيضاً ، فإذا ما تخلّى عن المزج حتى في جده ظهرت البرودة على حديثه لخروجه عن مألوفه .

علمان مصريان مسلمان يمت كل منهما لأخيه بصلة القرابة ، دعا أحدهما الى اتخاذ الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، وتحمس الآخر للاستعاضة عن اللغة العربية الفصحى بالعامية المصرية ، ولو نجحت دعوتهما لنسلا الحبر الاول من بنية العربية والاسلام .

الحرس على الشهرة يورث طالبها سخيرة أحياناً ، وإذا غالى المرء في طلبها قد يكون فيها حتفه ، ومن وصل الى الشهرة في العادة ينهزم أمامها وهي تمنع في طلبه . الشهرة كالحسناء لا ينال وصالها كل من ركض وراءها .

الحقد يكمن في الحقد كمن النار في العود ، والحقد لا يرضيه من حقد عليه الا قطع رزقه واسقاطه وأحياناً هلاكه .

رأيت بعض البيوت في الشام ومصر منقسمة الى حزبين سياسيين متخالفين ، على ما ترى في البانيا نصف سكان البيت من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين .

لا تعتمد الا على من عرفت ما انطوت عليه جوانحهم ، اعنادك على من لا تعرف منشأه وتربيته يوقعك في مشاكل كانت يتأتى لك تفاديا من الأول .

المثابرة أس كل نجاح ، رأيت بيوتاً تجارية على شفير الافلاس ، وكان من مثابرة القائمين عليها ان استعادت بالصدق قوتها ومكانتها ورجعت الى خير ما كانت ترجو .

عجبت لمن يعتبرون على أنا لم نوفهم حقهم عند الكلام عليهم بالقدر

الذي تتطلبه الحقيقة . ان من تمحضوا للبحث في سيرتكم كشفوا منها
مالا تنوهمونه في أنفسكم .

من بنى مجده بيده أفضل ممن هبأه له أهله . ومن عمل لنفسه بنفسه
كان أقرب الى بقاء ما جنى ممن عمل له غيره ، ذلك لأن من تعب في
جمع ماله كان أحرص عليه بالفطرة .

يخرج أرباب العبقريات من صفوف الطبقة الرسطى والدنيا ، أكثر
بما يخرجون من صفوف الطبقة العليا ذلك لأن هؤلاء مشاغل بمباهج
الحياة عن كل ما يجلب الخير ويدفع الشر .

ماذا تقول في خلق من لا يستحي من التصريح بأنه لا يهنا له عيش
أو يرى الفتن مشتعلة الاوار في كل بيت من بيوت أهله وعشيرته .

أسقط الحرف حرفه الجاسوسية وأفظع أنواعها ما ينقله الجاسوس من
أسرار أمته الى أمة غريبة ، وما يكون فيه ضرر لمن ينقل عنهم وفائدة
لمن ينقل اليهم .

لغة ما يمر بالقروي من الحوادث يذكرك أبداً اذا أطعمته رغيفاً ،
وساكن المدينة بنسائك ولو أطعمته خروفاً .

قل أن شهدت أهل قرية لا يتعادون ، وما عهدت سكان ضيعة
يثنون على جيرانهم من أهل الضياع الاخرى ، وليس تعادي سكان المدن
بأقل من تعادي القرويين ، وبقدر ما يجب هؤلاء البعيد عنهم يفضون
القريب اليهم .

حري بمن جاوز السبعين وصحته منهزمة أن يتخلى عن الاعمال العامة
برضاه لمن كانوا في سن تساعدهم على السعي أكثر منه . رأيت الطمع

يقوى في مثل من كانوا في هذه السن من الشيوخ فظهر لي أن ما قالوه قديماً من أن المرء يشيب وتشيب معه خصلتان الحرص وطول الأمل ، ما كان صادراً إلا عن تجارب طويلة .

الغني كالشاعر قد لا يمتنع من تعاطي ما تهيج به أعصابه وتكثر بتأثيراته خيالاته ، وهو بالأفراط ينهك قواه فيعبد في المستهترين .

يطيب الغناء والموسيقى في أوقات مخصوصة والاكتثار من الاجتماع أشبه بالاكتثار من الهزل ، بعضه ولا كله .

إذا قابلت رجال الجلد بالهزل ظنوا بك السخرية بهم ، مازحت مرة من ليس ببني وبينهم غير الرسميات فتألموا وأدركت حالا ما فرط مني وعزمت بعدها ألا أبداً محدثي بشيء من الدعابة إن لم آانس منه استعداداً لقبوله .

كثيراً ما كانت الحال تحكم عليّ بتصفح بعض كتب الفلسفة التي كانت تصدر باللغة العربية منذ أوائل هذا القرن فكنت أخرج منها بعد غناء العينين بلا زبدة وانقلب آسفاً على ضياع وقتي في تلاوتها - كما أسفت لتصفح بعض كتب النصوص - واذ كنت لأرى أن أخدع الناس أصرح بأنني ما فهمت شيئاً مما تالوت ، بخالفاً بذلك بعض أدياء الفلسفة في مصر لعهدنا ، فانهم يبشرون بالفلسفة كأنهم من كبار العالمين بها ، ولا يجادلون من وضع أسماؤهم إلى جانب مترجمين ترجموا كتباً وهم لم يترجموا ولا يحسنون الترجمة من لغة من اللغات ، وأنا على ثقة أنهم لا يدرون ما في الكتاب المنشور . يأتون ذلك ليقال عنهم أنهم فلاسفة . ومنهم من يترجمون عن اللغات وهم لا يدرون ما ينقلون . الفاظ عربية ومعان الله أعلم بجلها . ومنهم من يلفقون من عندهم تلفيقات يسمونها مصنفات وهم عند التحقيق لا يدركون معنى لما ينشرون في الملاء ، ويبشرون به بين طلبتهم ومريديهم ، وما يسجل أني كنت أفهم ما نشره في الفلسفة من درسوها حق دراستها

من شباب العلماء وكهولهم وما اكتفوا بدعوى معرفتها وكنت أقرأ ما يقع في يدي من كتب الفلاسفة باللغة الفرنسية وأنفهمها ، ولكني ما جوزت لنفسي أن أدعيها قط أو أكتب فيها رسالة أو مقالة لأنها لم تنشرها نفسي كما هو الواجب .

يكثر بعض العطاء الى اليوم الزواج من عدة نساء عدا من يتمتعون بهم من السراري ، وبفضي بهم هذا الغرام الى تداعي صحتهم ، فاذا زيد على ذلك معاطاة الخمر أو المخدرات اجتمع عليهم داء آن ، وما اجتمع الداء آن الا ليمتلا . رأيت أميراً من هذا الصنف في أواخر العقد الثاني من عمره كان يجمع على عصته أربع زوجات ، وعرفت كبيراً تزوج من النساء مئة وثلاثين امرأة وبعد أولاده بالعشرات .

الفرق بين الجاهل والعاقل أن الجاهل يستهمل كل شيء من غير استعمال عقله ، والعاقل يفكر ابدأ في الامور قبل الاقدام عليها يعطيها حقها من النظر والرؤية .

لانتظر الى اخوانك نظر الزاهد في محبتهم ، اذا اشتهر ذلك عنك لا يبقى لك من يعطف عليك .

الموضوعات أكثر من الكاتبين ، والمشاركون أوفر من الاختصاصيين ، والعالمون أقل من العاملين .

من القرى ما سلم أهله من داء التعصب القديم بعض السلامة فباكروا تعليم أبنائهم ونجحوا نجاح أبناء المدن وزيادة . ومن أهل القرى من قتلهم تعصبهم فرضوا بالجهل لأولادهم مخافة أن يكون من التعليم بزعمهم ما يفسد عليهم دينهم ، فظلوا على جهالة بادية تناول ضررها دنياهم ودينهم معاً .

ما كنت أظن أن من أهل القرى في هذا العصر من يضنون بأولادهم على الدرس في مدارس مجانية منظمة ، ورسولون بهم الى قرية مجاورة ليتعلموا في كتاب فاسد الطريقة ، بدعوى أن مدارس الحكومة تخرجهم تخريجاً يبعدهم عن دينهم ، وهؤلاء التلاميذ هم أبناء فلاحين ضعفت عقول آبائهم بما لقنهم أدعياء التصوف من خيالات وأوهام .

من أعجب الظواهر الاجتماعية أن تجد الطرق الصوفية من يدين بها في زماننا زمان النور والمعارف . ليت الحكماء يشتدون في عقوبة من يخالف القوانين النافذة في الدولة فيقفلون مثلاً كل كتاب يؤخر ترقى الابناء والبنات ، ويفضون كل اجتماع لاينجلي الا عن سخف وهراء .

اقترحت غير مرة على صديق لي يشتغل بالسياسة وقد جمع بين ثقافتين أن ينصرف الى التأليف مدة فيكتب ما يثبت به كفايته باللغة العربية ليفتح له باب المجمع العلمي العربي وبشارك أعضائه في جهادهم فيفيد ويستفيد فكان يعدني وعداً ضعيفاً . ومن اخذت السياسة من قلبه وعقله لا شأن للعلوم والآداب في نظره .

قال العلامة كرينكو المستعرب المشهور : ما فرحت حياتي كفرحتي يوم تفضل المجمع العلمي العربي وضممني الى أعضائه . وأنا قلّ أن عهدت شرقياً انتخب عضواً في هذا المجمع وظهرت منه العاطفة التي ظهرت من صاحبنا الغربي . الغربيون اجمالاً أكثر من الشرقيين تقديراً للاشياء .

كان لي صديق من أعيان رجال المعارف وعلى جانب من العلم ، زينت له أن يكتب كتاباً في تاريخ التربية عند العرب ، ووعده أن أودع اليه ما عندي من المواد في هذا الموضوع ، وعندها أسمى لانتخابه عضواً في المجمع العلمي فكان يسكت ولا يجيب . والغالب أنه ملّ من الحاحي فأرسل اليّ مع صاحب لي وله يقول ان ما عساه في العالم وظيفته

وبها كفايته ، أما مسألة دخوله في المجمع فيرجو ألا أذكرها له بعد الآن فكففت عن الحاحي .

انتخب المجمع العلمي العربي بعض السنين عضواً مراسلاً فاعتذر . فسألته عن سبب رفضه ، فقال انه داخل في جمعية الصعاليك ولا يليق بالصعلوك أن يكون عضواً في مجمع علمي . ولما اختاره بجمع آخر عضواً فيه خرج عن جعلته فقبل العضوية ، لأن في المجمع الثاني فائدة مادية ، وفي المجمع الأول معنويات فقط ، والمعنويات لانهم على الغالب كل انسان .

من بدأ منذ فجر حياته بأشادة مجده على دعائم راسخة ، وما وثت له همه حتى سن الشيخوخة ، كان كمن شاد قصرأ منيفاً في شبابه وظل يتعاوره بالتحسين والتزيين بما يعجب به كل من دخله من أرباب الذوق السليم .

يظن بعض ضعاف العقول أن التزوير يندفع به من يرتكبه ماشاء الله أن يندفع ، ومتى افتضح المزور في مسألة واحدة يننثر عقد تزويراته بأجمعه ، ويتجلى ما كان مستوراً عن الأعين .

ارحم الظالم والمظلوم : الظالم لما سيلقى على ظله في الآجلة والمظلوم لما يناله في العاجلة من ظلمه ، وكلاهما جدير بالرحمة .

مجلس يضم عدة عناصر يحاول كل واحد فيه أن يستولي على عقول المجتمعين ويتكلم بلغته فقط ، كمجلس ينألف من أحزاب جهة كل فرد فيه يصحح مشربه وهواه .

دعوت أيام الوزارة الى الاجتماع الي في الديوان ثلاثة عشر دكتوراً في الحقوق والآداب وقلت لهم : ان الأمة علمتكم في جامعات الغرب وهي فقيرة ، على أن تعلموا أولادها ، فرجائي اليكم أن يعد كل واحد منكم لهذا العام محاضرة أو محاضرتين يلقيها في المجمع العلمي العربي زكاة

علمه ووفاء لحق وطنه ، واعلموا أن هذا المجمع ليس اليوم بحاجة الى محاضراتكم لأن له من علم اعضاءه الذين ستخلفونهم بعلمكم فقط ما فيه الكفاية الآن . واذا صح عزمكم على اجابة طلبي تجملون من هذه المحاضرات كتباً ينتفع بها القاصي والداني وتخلدون بها اسماءكم ، فوعدوني خيراً ، والى الآن لم يفوا بوعدهم ، وأظن أكثرهم نسوا مانعلموه في المدارس ولا يذكرون اليوم الا ما لا بد منه للتوظيف .

اجتمعت في سويسرا الى طالب من أهلها وهو في سن المراهقة ، ومن تلاميذ المدارس الثانوية ، فشاهدته يفكر في الموضوعات التي تطمح نفسه الى الخوض فيها في مستقبل أيامه ، وبعد لها العدة في مفكرات وجزائز ، وما رأيت من تخرجوا من أبنائنا من الجامعات من ساروا على هذا النهج السديد ، لاعتقادهم أن ما يلزمهم التفكير فيه هو تحت أيديهم متى أحبوا الكلام فيه ، ولذلك لا يرون أن لا يشغلوا أوقاتهم بأشياء قد تلزمهم وقد لا تلزمهم . وهذا من جملة الفوارق بين شبابنا وشبابهم .

شاهدت في بعض الرؤساء من الكذب والتزوير والدس ما لو قسم على أهل حي كانت من المدن الفاجرة ، ومع هذا يعد الاغبياء ذلك منه دهاء وسياسة .

استغرب بعض المفكرين اهداء أحد أمراء العرب ثلاث سيارات فخمة لمغنٍ وراقصتين في مصر وانفاقه أربعمئة ألف دولار على مآذب أقيمت في أميركا ، فقلت : هذا مال لم يتعب منفقته في جنيته .

لما زار الامبراطور غليوم الثاني الألماني السلطان عبد الحميد الثاني العثماني في عاصمة مملكته أهدى السلطان للامبراطورة تاجاً مرصعاً بالجواهر الكريمة قبل انه صرف فيه خمسمئة ألف ليرة عثمانية ذهباً ، فقال الامبراطور ان السلطان لا ينظر في العواقب ، وفي رواية انه يحنون . كان يكفي أن يهدي

صورته وعليها توقيعه ، وينفق هذا المبلغ العظيم في تعزيز أسطوله حتى ينافس بقرته أسطول اليونان جيرانه على الأقل .

بافتصاد بعض الممالك العربية ماتفقه على السيارات فقط توفر أموالاً عظيمة تكفي لتأسيس مدرسة في كل حي ومنزلة وقرية ومدينة من أرضها .

في أي طبقة من طبقات الملوك تضع ياترى من يبذر الاموال تبذير جنون ، وأهل بلاده يمرضون ولا من يطبهم ، ويجوعون ولا من يطعمهم ، ويعرون ولا من يلبسهم ، ويجهلون ولا من يعلمهم .

أولع الغربيون بالرجوع الى الاحصاءات ينون أحكامهم عليها في كل ما يجزئهم من المطالب . ليت من انتفخت أوداجهم بما أورتهم مناصبهم من الزهو يرجعون يوماً الى طريقة الاحصاء ليحصوا لنا ماتم على أيديهم خير أمتهم .

إذا لم يكن العالم على مستوى متقارب بين علمه وأخلاقه فأني مجلد من مجلدات العلم أنفع منه ومن علمه ، أي أن الجماد الصامت في هذه الحال أفضل من ذلك الانسان الناطق .

عرفت فنناً قضى شبابه وكهولته وهو يشرب ويطرب الى الهزيع الثاني من الليل ثم تاب وأخذ يصلي ويصوم ويتعبد ، ثم دخل في طريقة أجمع أهل الاسلام على أن تعاليمها الكفر بعينه ، ثم نخلى عنها وبقي على حالة لا تستطيع أن تحكم عليه مع من بقي . في الناس من يؤمنون بلا عقل ، ويكفرون بلا عقل . والنفع المادي هو المحرك الاول لشعورهم على الاغلب .

ماضنّ المهاجرون من السوريين بما يرفع من مكانة وطنهم الاول ، يهودون لانهاضه بالوف الالوف راضين مغتبطين . وطينة الشامي تزيد

كَلَّا شاهد المغتربين من الأمم الاخرى يبذلون كل نفيس لانعاش مساقط رؤوسهم .

باسم الطريقة عبث شيخ في الغوطة بعفاف بعض الابكار من بنات مريديه ، وباسم الطريقة ادعى مصري النبوة فيما قيل واعتصم بالغوطة يرتق فيها ويرفه عن نفسه . طريقة الاول شبكة لاستراق الجمال وطريقة الثاني أحبولة لسلب المال .

روى أحد السياح مذكروه له من المبالغة بمدح رئيس سابق فقلت له كذب من قال هذا ، ولا شك أنه كان عبداً من عبيده يلتقط فئات مائدته ، فلم ير عزاء لنفسه وقد رأى سيده هوى ، الا هذا الاختلاق البايخ يعزي به نفسه .

اصطحب رجلان سهلي وجبلي ، وكان السهلي صاحب دعاية ، فقال الثاني للأول : الآن يجيء ابني فتري جمال طلعتة وتشهد ظرفه ولطفه ، اني أحبه وأعجب بصفاته . وجاء الصبي وهو في نحو العاشرة فلما رآه السهلي قال لصاحبه : قل آمين ، وأكد عليه ثلاث مرات أن يقول آمين من أعماق قلبه فقال : الله يقصف لك عمره ، ما نظرت عيني صورة أبشع من صورته فهو كالسوخ ، ولا قذارة كقذارته ، تستقذره كل عين تراه ، ولا هنداماً أبشع من هندامه . لو كان الامهات لايعنين بغير تربية الجليل من أولادهم لهلك قسم عظيم من بلدن ، ولكن القرد في عين صاحبه غزال .

طبعت على تقدير أعمال الرجال والتنويه بالعاملين من النابتة ، وربما زدتهم من الثناء لأبعث همهم ، كنت اراني مسوقاً الى هذا الخلق لأني كنت في مقام يقتضي الاخذ بأيدي المقصرين حتى ينشطوا ، وكان بعضهم ينكر عليّ صنيعي هذا وآخر يعده بما ينافي الاعتدال ، والاعتدال يوجب

عندهم أن توزن أفعال الناشئة بالمقابل والا عدّ المشجع غالباً وربما حسبوه مصانعاً . ولا أدري أي الحلقين أجدى على المجتمع التنشيط أم التثبيط . أنا وفريق كبير من اخواني درجنا على أن الخير في مدح العاملين ليزيدوا نشطة ، وغيرنا آثر الاعتدال فقطع بعضهم في منتصف الطريق بما أوهم من عزائهم حتى لم يكده يظهر منهم رجل يعد شيئاً . وهذه الطريقة دفعت الشباب الى التعلم ، وأسعت الفيرة في نفوسهم ، وقويت المنافسة بينهم . أما صنف المعتدلين فقد أخفقوا هم ومن تطوعوا لاضعافهمهم . ما أشبه من يحقر عمل العاملين الا برجل قليل البضاعة يخشى عليها البوار اذا ترك المجال لمن يشاركونه في الاتجار بمنه . وأقبح بذلك من خلق فيه ضيق عين وضيق عطن .

أخطأت بأن فتمت قلبي لمن توهمت فيهم الصداقة فغششت نفسي بهم ، ونسيت أنهم ما بنوا صداقتهم الاعلى أغراض . فكان منهم من يتقلب تقلب الحرباء تراه في الصباح غيره في المساء ، وهو في الآخر غيره في الاول ولعله ما كان يشعر بما يأتي ويذر . وسواء كان الزسيان أو التناسي أو غير ذلك من حالات النفس هو الذي حملهم على ما حملهم فان هذا الخلق قبيح وجدث قبيح . بعض من توهمتهم من المصريين أصدقاء ثبت بعد التجربة أنهم معارف فقط أظهروا الميل الى المآرب من المآرب ، فكان ضررهم عليّ لا يعتد به ، أما الشاميون فكانت العلائق بهم اوشج ، ولذلك كان أذاهم أشد .

رأيت تجاراً لا يلزمهم الا أن يظهروا بمظهر التقوى والصلاح ، يستحلون اهداء بعض كبار رجال الدولة ابتغاء فائدة مادية يتوقعونها منهم ولولا ذلك ما أهدوا ولا تقربوا . من خلق التجار الشح لا يخرجون عنه الا اذا وقع في نفوسهم أن ما ينفقونه على غير العادة هو لزيادة ثروتهم . أنا لا ألوم التاجر على خلقه هذا ، فمن أخلاق التجار الاحتيال على الكسب

وانما ألوم ذاك الذي قبل هديته حتى يدوس القانون ويربجه الألوف من دم الفقير .

لورضيت أن أسكن مصر عاملاً من عمال قصر الملك فؤاد لأبغضني ثلاثة أرباع من تعرفت اليهم من اخواني المصريين ذلك انهم يفسرون رضي بالخدمة عندهم أنني جئت أشاركهم في خبزهم واعتدي على حقوقهم .

من المشاهير من تريد عظمة دولتهم في مكانتهم وتوليهم صيناً بعيداً ، ولا يرزق شهرة عالمية الا من اشتغل بالسياسة العامة ورددت صحف العالم اسمه شهوراً وأعواماً بالخير أو بالشر ، وشهرة العالم أقل من شهرة السياسي على كل حال .

منى أحب شعب القضاء على أحد رجاله جمع له من المساوي ما صح وما لم يصح . لما عزم الطامعون في الخلافة على دفع بعض خلفاء الأمويين عنها اتهموهم بتهم كاذبة لا يقع فيها المجانين .

إذا أراد امرؤ قتل كلبه ادعى انه مصاب بالكلب ينهش ويؤذي ، وإذا مالت نفس رجل الى طلاق امرأته نسب اليها من العيوب ما لا يجتمع مثله في عشر نساء قبيحات .

قلت لصاحب طلب اليّ أن انشر له في الجريدة مؤاخذات لعامل بلده ، وكان صديقي أيضاً ، ونشرت له ما اراد وانا موقن صدقه ، فلما عزل العامل بما كتب فيه عزمت على صاحبي أن يصدقني ، وقد تم له ما سعى اليه من عزل العامل فسألته هل صح كل ما اتهمته به فقال : لا والله مارأينا أعف منه يداً ولساناً وفرجاً الا أننا لا نختل هذا العيار من الرجال ونحب من حاكمنا أن يأخذ منا ويعطينا ، وهذا كان كالخشب قطعة واحدة لا يلين .

لا يظهر الرجل المثقف بظهوره الحقيقي من الاخلاق الا يوم يتولى عملاً تكون له فيه سلطة ، قد يكون الرجل ممن لا بأس بثقافته واذا كانت أخلاقه التي ورثها من أهله نافعة نقصاً فاحشاً تفقد ثقافته بعض نفعها .

كنت أذهب الى أن الكمل خاص بأهل مصر لمكان الحرارة في قطرم ، واذا به منتشر في سكان الشام وخصوصاً بين المعلمين ، ما أغنى عنهم جودة الهواء واعتدال الاقليم .

انك تشتغل بالعبث اذا حاولت أن تجعل من البخيل كريماً ، ومن الطائش حليماً ، ومن الجهول عليماً ، ومن المعجب بنفسه حكيماً .

ادعاء الوطنية

لقيت سورية من ادعاء الوطنية منذ قام الحكم العربي على عهد الامير فيصل ما أزعجها وأقض مضجعها ، فدخل الخلل على مصالحها من أول تأسيسها ، وسارت سيراً نكراً ترعزت له حالها الاقتصادية ، والاقتصاديات أول ما يحكم بها على أمة فهي معيار سير الدول والامم . قرأت في مذكرات صديقي الاستاذ فائز الغصين قوله : « دخلت البلاد في السنين اللتين دام فيها الحكم الفيصلي في عهد جديد ، الا أنه لم يدم طويلاً ، فقام بعض من يعتبرون أنفسهم وطنيين وعالمين بالسياسة أكثر من كل أحد ويعمدون سواهم من المارقين ، يوجهون الشعب نحو عداء الافرنسيين والانكليز على السواء . هذا وسورية ليس لها جيش يومئذ يصد عنها عادية العدو اذا أراد بها سوءاً ، فكنت ترى الشعب على اختلاف طبقاته متحمساً . يدلك على هذا التعمس ما أجابني به أحد المتطرفين من أن له قلباً يجارب به سبع دول . فسألته ولماذا

تحاربون فرنسا وانكلترا في آن واحد ؟ حاربوا احدهما حتى اذا ماتغلبن عليها تحاربون الاخرى ! وادرك الانكليز ألا فائدة في انجيازهم الى السوريين ، فتركوا سورية وانفقوا مع الفرنسيين ، فكان ما كان من احتلال الفرنسيين لسورية الداخلية وعجز الجيش العربي ، واستلامه السريع . وبان خطأ رأي هؤلاء المتبجحين وكانوا ولا يزالون شراً على البلاد بأراهم وتوجيهاتهم الخاطئة . هذا ما كتبته القاضي العادل في مذكراته ، وهكذا رأي العقلاء من هذه الفئة الجاهلة التي ولت نفسها الزعامة واستأثرت بحق الكلام عن السوريين من دون توكيل منهم ، وذلك في أخرج الأوقات التي صارت اليها حالة ديارنا بعد الحرب العامة الاولى . وما ننسى اليوم ما كان من تزعم «شيخ كتاب» عجلي ارادته على الأهلين وعلى الأمير فيصل ، ويبث في النفوس روح الثورة والعداء للأجانب ، وكان بعمله الأخرق سبباً في إزهاق أرواح مئات من الناس ، وما كانت غايته إلا الظهور والاستئثار بالمغانم ، وكان يزيد في رعونته كلما رأى آراءه مسموعة ودعوته في تضليل العقول ناجحة . وهو بما أتاه لم يخسر شيئاً ، وكان الحامرون من ساروا في ركبه مغرورين مخدوعين ، أما هو فجميع ثروة عاش بها حرفياً . ومن الغريب أن يظل مرجعاً يعتد برأيه الى عهد قريب ، بعد أن رأى الشعب خطأ جميع مناهجه في السياسة . وكان هؤلاء الدعاة الذين تولوا الكلام في سياسة الأمة زمناً يوقنون أنهم لا ينجحون فيما يحاولون بلوغه الا اذا نالوا من المؤتمنين العارفين . وكان أيسر شيء عليهم الطعن في وطنية من لا يشايعهم في أفكارهم . ولا يتعففون عن حمل الأذى اليهم ، وتراهم تحت الطلب لكل من يدعوهم الى القيام بهيجه سياسية أو حزبية وهم من الصنف الذي يخدم بضعة أحزاب ويبدل عدة مشارب ومذاهب في مدة قصيرة .

والى اليوم وبعد مضي زهاء احدى وثلاثين سنة قضتها سورية في محنة السياسة الحرقاء لا يزال من ساروا على طريق الضلالة يتعففون للوثبة كل ساعة وهم على قدم الاستعداد لالقاء الامة في تهلكة لقاء مغنم يتالونه ، لولا أن قلّمت القوانين من أظفارهم وعرفتهم الأيام أقدارهم .

الوزراء المرءجلون

قسم عظيم ممن تولوا الوزرات منذ أول عهد الانتداب في سورية ولبنان لم تسبق لهم خدمة الحكومات من قبل وكانوا وسطاً ، وأقل من الوسط في سياستهم ، وما تولوه من فروع الإدارة . وكان جهم بعض الأمور سبباً أكبر في اخفاقهم ، يخرجون على القوانين لأنهم لا يعرفونها ويرتكبون أغلاطاً فاحشة لا يدرون . وأدنى نظرة في حركاتهم تنفك على سيرتهم حتى وصلوا الى كرسي الوزارة ، وماذا كانت الوسائط التي تدعوا بها ومنهم من حرم الذكاء والتعليم الابتدائي ، وتولوا رئاسات الوزارات أيضاً ، وأتى عليهم زمن وهم يديرون عدة وزارات في آن واحد وجماع مالهم من رأس مال ، معرفة الطرق الى توجيه الوزارة إليهم واتقان الدسائس التي يستخدمونها يوم تخونهم قوتهم . وبما ساعدهم أن أرباب المقدرة لما شاهدوا الحكم يصل الى مثل هذه الأيدي عزفت نفوسهم عن تولي المناصب ، فكانت المصيبة مزدوجة ، لم ينتفع بالصالح للخدمة ، وتقلدها محدود الفكر ، قليل الخبرة .

من عيوب المجتمع

أليس من عيوب الحضارة أن تتوسل بعض الممالك الراقية الى الاحتفاظ بأسعار حاصلاتها من طريق ائتلاف الزائد عن حاجة الأسواق . فقد أتلفت هولاندة مئات الألوف من البقر والخنزير ، وجعلت كندا من حنطتها وقوداً للقاطرات ، وأحرقت أستراليا حبوبها ، وقطعت البرازيل مئات الألوف من أشجار البن لتخف غلاتها ، وفاضت حاصلات الولايات المتحدة من الحبوب والبطاطا فنصح بعضهم للحكومة أن تبعد الجزء الزائد منها لتصل الى السعر الذي يرضيها .

كل هذا وملايين من البشر في الصين والهند يموتون في المجاعات من قلة الغذاء ، وليس في الغربيين من ينجدهم بما هم مستغنون عنه .

خواطر

عهدي ببعض المتأخرين من شيوخ الأزهر وقد تمثلوا الشريعة صافية نقية كالشيخ المراغي ، ومنهم من مزجها بالطريقة والحقيقة كالشيخ الظواهري . مذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب الثاني مذهب ابن عربي الباطني المتصوف ، الأول هو الاسلام ما شابهته شائبة والثاني خطوط من الشريعة اختلطت بأوهام وأحلام . وشتان بين الطريقتين والشيخين .

كان انسلاخ الولايات العربية من جسم السلطنة العثمانية شراً على الترك وخيراً للعرب ، استقلت أربع دول عربية : العراق واليمن والحجاز ونجد ، وأربع دول في الشام : سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .

ودبت في جميعها الحياة السياسية والاقتصادية ، وكانت أيام البرك أشبه
بمدن الموتى لا حركة ولا سكون .

أسلوب الانكليز في القضاء أدخل في الأسلوب العملي منه في النظري ،
والنطويل في فصل الدعاوي طريقة الفرنسيين ، وكان العرب في الجاهلية
والاسلام يرغبون في الحكم الحاسم السريع وهم على ذلك الى اليوم .

من العظمة ان يفعل المرء الخير لا يمن^١ ولا يستكثر ، وأن يدفع
حتى عن عدوه غائلة تصيبه ، ولا يصرح بما تحمّل لانفاذه ، وان يقوم
بما يفرض عليه من الاحسان لقومه من غير أن يتوقع الاشادة بذكره
والتنويه بفضله ، وأن يحسن لمن هو في حاجة الى الاحسان ويتناسى ما اسدى
اليه ، وأن يتواضع للصغير قبل الكبير ، فالمتواضع يكتسب القلوب من
دون ثمن ولا غناء . ولا يكفي المرء أن يكون عظيماً كما قال أحد
عظماء الغرب ، والواجب أن تبدو عظمته في الوقت المناسب .

لك أن تُعرّف التجربة بأنّها زبدة النافع في الحياة من جهود الانسان ،
ومن التجارب نشأت بعض العلوم كالطب والسياسة ، ومعظم ما فيه
سعادة البشر على هذه الأرض هو ابن التجربة . وجيد مكتوباً على
احدى المذكرات : التجربة شعار أسلحة مؤلفة من كل سلاح جرحنا به .

لا يُنتفع بنصح الناصح ان لم يكن من نصح له حسن الظن بناصحه .

تكثر مشاريع أرباب الذكاء النادر فتتوزع قواهم ويكون نجاحهم
وسطاً . يقول كيتي شاعر الالمان : التفكير سهل والصعوبة في العمل ،
والعمل بحسب الفكر أصعب شيء في العالم .

كنت أتمنى ألا أعرف تراجم بعض الرجال على حقيقتها حتى لا يسوء ظني بالبشر ولا ينقطع أملي من اصلاحه . واليوم أتمنى ألا أقف الوقوف كله على أخبار دول الشرق الادنى ، وفي ديار العروبة خاصة ، حتى لا أصاب باليأس من نهضة شعوبه المؤلفة من أعضاء صالحة وأعضاء فاسدة .

نعيش الممالك بقوة التسلسل ، ولولا الخوف من القوانين ما قام في القرى والمدن حجر على حجر لأن الانسان في ذاته متوحش مخرب حدود طماع .

في احصاء دولي حديث أن سكان انكلترا يتقدمون الامم كلها في قراءة الكتب ، فقد تبين ان ٥٥ في المئة من الانكليز يقرأ الفرد منهم كتاباً واحداً في الشهر على أقل تقدير . ويحيى بعدم التزوجيون يقرأ منهم ١٥ في المئة والفرنسيين ٤٩ والكنديون ٤٢ والامان ٤١ والاطليان ٣٤ والسويديون ٣٣ والاميركان ٢٠ . ومن حقنا هنا أن نسأل كم واحد في الالف يقرأ الكتب يا ترى في مصر والشام ، أعظم بلاد العرب مدنية . واذا كان لا يقرأ الكتب عندنا واحد أو اثنان في الالف فيالشفاء الآداب في هذه الامة وبالأعمار يوم يجري التنظير بيننا وبين اقل أمم العرب قراءة .

كنت في الطفولة مولعاً بتسليق شجرتين الميس والزعرور أقطف من ثمرهما وأنخض أشجار الفواكه اللذيذة في مزرعتنا . دليل على أن الطفل أيضاً يحب الشيء النادر ويؤثره ولا يميل الى المبدول .

قلت لاحد كبار أعضاء الجامعة العربية ان معنى القرار الذي اتخذتموه في التزام الحياذ في حرب كوربا أن الدول العربية ستلزم الحيدة في النزاع القائم بين الدول الديموقراطية والدول الشيوعية . فقال : اذا ضغطوا علينا فلا فائدة من قرارنا .

أثرت في هذه المذكرات الى أن النظام الشيوعي لا تمضيه كل الأمم ، والمسلمون في مقدمة من ينبذونه ، لان تعاليم الاسلام تخالف مبادئ الشيوعية في بعض المسائل . وليست الاقطار العربية بحاجة الى هذا النظام الجديد لتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً في الجملة ، والثروات عندنا لا نشبه بسخامتها ثروات الغرب اللهم الا العراق ومصر ، وهذه تنظر الآن في غنى الأغنياء لما فيه مصلحة الفقراء ، ولذا يجب أن يكون هوأنا مع الدول الديمقراطية لانا ما عهدناها - ما عدا فرنسا - تدخلت في شؤوننا الدينية وما منعتنا من الاستمتاع بحرياتنا . ولو قد تيسر لنا ان نكون على الحياذ حقيقة في هذا الفزع الاكبر لكان من ذلك الخير لنا أما وهو متعذر فالحياد قد يضر بنا . لا تبني الدول الحازمة مستقبلها الا على العقل والتفكير الصحيح . حرب بشرط مقبولة أفضل من حياد عاقبته مجهولة .

كتب الي من نيويورك صديقي الاستاذ فارس الحوري عضو جمعية الامم يقول : نحن هنا نعالج أضخم القضايا المهددة للعرمان البشري كله باحتمال اشتباك ألفي مليون من البشر في حرب طاحنة لا تبقي ولا تذر . والظاهر أن العقائد الاجتماعية أشد تحكماً في النفوس من العقائد الدينية ، فالصراع الراهن هو بين نظامين اجتماعيين النظام الذي يسميه أصحابه الغربيون ديمقراطياً ، والنظام الشيوعي الذي يسميه آله الآخرون ديمقراطياً أيضاً . وهذا الثاني يطلب التوسع ويأخذ خطة الهجوم ، والأول منها يطلب العافية ويشدد في الدفاع عن نفسه ليحصر الشيوعية في دوائرها حذراً من أن تحتاج المعمور كله ويجرف تيارها ديار الغرب كما جرف الشرق ، والظاهر أيضاً أن الوقت أي الزمن يجري مع الشيوعية ويكسبها أنصاراً ومعتنقين سنة بعد سنة فمن مصلحة الغربيين أن يسرعوا بالقضاء عليها في مهدها ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهم يعرفون ذلك

ويمون بالعمل ولكنهم يحسبون لهذه المخاطرة ألف حساب . وها نحن في الامم المتحدة نصارع المفاجآت ونحاول خضد شوكتها وقد أقمنا أنفسنا نحن الدول الآسيوية الأخرى مقام الوسيط المحايد لعلنا ننجح في كشف هذه الغمة مع العلم أننا لا نعتقد آمالاً راجحة على النجاح . اهـ .

هذا ما كتبه الأستاذ يوم ٧ كانون الثاني ١٩٥١ ومعظم الامم في الشرق والغرب تستعد هذه الأيام للحرب والعالم كله من خشيته في بلاء لم يشهدوا مثله .

يتشابه المصريون والشاميون من وجوه وبتباينون في أخرى . تكثر الغبارة في مصر بمزوجة بذكاء وخفة روح وإهمال . ويكثر الدهاء في الشام بخاطره ذكاء على غلظة وجهل مع جد . واضر الغباء والوئاء ما يتراءى في بعض الطبقات التي درست الدروس العالية ونزلت امراً من امور السلطان .

انتدبت وزارة معارف احدى الدول العربية رجلاً من حملة الشهادات العالية ليتصل برجال المعاهد العلمية في بلد مجاور ، فأتى عليه أشهر لم يواجه خلالها أحداً ممن أمر بالاجتماع اليهم . وانتدبت بريطانيا العظمى رجلاً من أبنائها مثل هذا الغرض في حكومة عربية ، فاتصل ثاني يوم وحواله بأرباب هذا الشأن ودام على اجتماعه اليهم مرتين في الاسبوع ، حتى استوفى ما ندبته حكومته للوقوف عليه . تأمل همة العربي وهمة الغربي وقدر لنفسك جهل الأول بالواجب ومعرفة الثاني بكل ما في الواجب من تبعات .

يظن بعض من تحذعهم الظواهر أن في رجال الدولة ذكاء فائقاً وعلماً نادراً وتجربة عظيمة ، ولو خبروهم لرأوا جهرتهم من المتوسطين في مزايهم على الأغلب ، وبالمصادفة او الاحتيال فقط وصلوا الى ما وصلوا اليه

دأبت جريدة المقتبس على ذكر الحسن والقيس من أعمال رجال الادارة والقضاء على العهد العثماني . وكانت حكومة تلك الأيام تروح غالباً الى ملاحظاتها فتبادر الى نفل عمال سوء أو عزلهم أو انهاء خدمتهم ، وقد سرحت مرة محكمة الاستئناف بكل ما ضمت من رئيس وأعضاء وكتاب حتى الآذنين والحضرين . وبعد العشرات من كانت جريدتنا سبب زحزحتهم عن مراكزهم . ولما جئت أدون مذكراتي كان موضوع سيئات الموظفين من أهم اجاثها ، ذلك لأن طلائع الاصلاح لا تبدو الا يوم يطرد الخائنون من خدمة الحكومة .

كنت في الجريدة أكتب كتابة تؤثر في الحال وتضيع من الغد ، واليوم أكتب ما يحفظ وينتفع به في الحاضر والمستقبل ، ولا قصد لي الا نظير جهاز الحكم لبدأ الاصلاح سليماً من الشوائب . فيما مضى كنت أنطلب الممكن من الاصلاحات فوفقت الى الضرب على أيدي بعض الحونة ، وبالطبع لم يرض عما كتبت من نكبو برزقهم ، واقتضوا بسيئات أعمالهم . واقد اغتبطت بما أقدمت عليه لأنني أفضل أن ينكب الفاسدون الذين اعتادوا الاضرار بالناس والدولة ، وأن أكون واسطة لتخفيف الظلم عن هذه الأمة المسكينة ولو بعض التخفيف .

ابنتي صاحب الحجاز ونجد وولي عهده قصرين فحين في الطائف ومكة قيل انها قاما عليها مع فرسها بليونين من الجنيتات المصرية . ولو أنفقا هذا المال العظيم في نشر العلوم والصناعات وتعبيد الطرق والاصلاح والري بما يضمن للشعب القوت الضروري لأقام لهما قومها متى شبعوا عشرة قصور أفخم من هذين القصرين اعترافا بجميل الملك العربي وابنه .

كنت منذ أيام الشباب اذا قرأت كتاباً باللغة الافرنجية في موضوع طريف أحدث من اجتمع اليهم بخلاصة ما طالعت ، وأورد عليهم ما علق في ذهني من موضوعه ، فاذا أقمت حديثي لأعدم رجلاً من أهل المجلس

يشنى عليّ أن أنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ويصادق بعض من حضر على قوله . وقد يكون بعضهم ممن يحسن النقل من لغة غربية وعلى شيء من العلم . وما شهدت واحداً يقول : في نيتي اقتناء هذا السفر وترجمته فما رأيك ؟ اعتاد قومي ان يحتملوا جميع الأثقال على عاتق من يرون له بعض قوة ، لأن يتقاسموا الحمل ليخفف بحمله وبشتركوا جميعهم في أجر حمله .

اتقاء ثلاثة امور تحفظ على المرء بعض صفاته في الحياة وهي الا يتزوج من أقاربه ولا يزوجهم ولا يشارك صديقاً له في أمور مالية ولا يفرق ثروته على ورثته في حياته .

هدت رجالاً ظهوروا فجأة في عالم الشهرة ، واقتربت منهم أمعن في حالهم ، فاستبان لي انهم دون الوسط بعقولهم ، وأقل من الوسط بمعارفهم ، سادوا وليس لهم من أسباب السيادة شيء يذكر ، فصدق عليهم ما وصف به فولتير الفيلسوف احد مواطنيه يوم قال انه كان قائداً وما مست يده سلاحاً طول حياته ، وكان عضواً في المجمع العلمي ولم يسك القلم بيده .

كانت بريطانيا العظمى اذا جرى ذكر الدول تقول بلسان الحال انها ليس لها مع احدها صداقة ولا عداوة . وانها لانهم لغير مصالحها ولهذا لا يستغرب تخليها عن الصين الوطنية واعترافها بالصين الشيوعية ، وفي كل عصر كانت صداقة انكسرتا موقنة تستعين بمن تصادق على الخروج من مأزق وقعت فيه فاذا امنّت عدوتها تخلت عن صديقتها ، وسياستها على كل حال خالية من العاطفة .

مئات الالوف من السيارات صُرفت فيها عشرات الملايين من الجنيهات تجول في هذا الشرق القريب ، ناعية على أهله اسرافهم وعلى حكوماته

قلة بصيرتهم . ولقد كثرت السيارات في لبنان (فيه ٤٨ ألف سيارة مليون وربيع مليون من السكان) حتى كادت تصبح عاصمتها مستودع سيارات . وكل ذلك دالٌّ على أن أميركا - وفي معاملها تصنع معظم هذه الحوافل - تستعمر الشرق الأدنى استعماراً غير مباشر .

في حياة الشعوب أمور غامضة يصعب تحليلها . كتب الباحثون من أهل المشرق والمغرب في الخطاط المسلمين ألوماً من الصفحات ، ودوّن الموافقون والمخالفون ما هدمتهم اليه آراؤهم من أسباب التديني ، وما يجب على المسلمين التذرع به لاصلاح ما هم فيه من نقص ، وما أظن ما قالوه هو كل ما يجب أن يقال ، ولعل الايام تكشف عن أسباب ما مرت بخاطر أحد حتى اليوم .

قام مذهب الشيعة بدعوة أن صاحبهم (علي بن أبي طالب كرم الله وجهه) مظلوم في ابعاده عن الخلافة ، وما يروحوا الى اليوم يحملون على كل من لم يوافقهم على رأيهم . فهرون الرشيد مثلاً لما لم يوافق العلويين على مشاكستهم العباسيين وما التوى في سبيل الذب عن الخلافة وأخذ القائميين على دولته بذنوبهم ، اختلفوا عليه ما كان بعيداً عن أخلاقه كل البعد ورموه بالفسق والفجور ، وقال المعتدلون منهم انه كان سيئ التدبير وهو فرد الدهر محمود الصفات .

”يحتمل بعض ما وضعه الشيعة لتأييد دعوتهم الاشم الصحابة الكرام ، أما قذفهم في الامويين والعباسيين وفي كل من يستشم منه ريح الانحراف عن أمير المؤمنين فمن أيسر ما ارتكبه دعائهم . وما يروحوا منذ قرون يندبون ويبكون ويلعنون لا يفتنون ، وهذا من أعجب ما سمع في المذاهب .

تغلغلت الفلسفة في طبقات الخواص منذ خمسة آلاف سنة وانتشر
التصوف في طبقة العوام من المسلمين منذ ألف سنة فكان من الاول
توسيع المدارك ومن الثاني خمولها . عانى بعض النبهاء الفلسفة في كل
جيل وأمة فقوي العقل فيهم . وزعم المتصوفة انهم ينظمون الحياة
الاخرى بطريقةهم على حين هي مبسطة في كذب الدين فلا تحتاج الى
زيادة جديدة . خرجت الفلسفة رجلاً انتفع بهم العقل ، وخرج التصوف
رجلاً عبثوا بجوهر العقل .

قد تكظم أمة غيظها من انحراف راعيها عن الجادة ، وتغضي عن
عبثه وإهماله ، فإذا زلزل صبرها تنفجر فجأة انفجار الرجل بالحرارة الشديدة
وتقعده لتعاسبه على ما أتى ويأتي .

إذا جرأ عظيم على هناك شرف أمة وبدأ يهزأ بمقدساتها ومشخصاتها
لا يصدها شيء عن نشر مثالبه في الخاصة والعامة وبين الابعدين والاقربين ،
وقد تغضب عليه لأسباب يراها بعضهم غير جوهرية ، قال لي عالم سيامي
ان عظيمنا قد جمع حوله صنوف العناصر من سكان حوض البحر المتوسط
الا العرب فانه حرّمهم خدمته وهم أحق بها من غيرهم . وهذه الغلظة
كان قومه كثيراً ما يعدونها عليه وينسون ماله من حسنات .

نجاح الشباب في سياسة الممالك أقل من نجاح الكهول والشيوخ ،
ذلك لان في دم هؤلاء الصفاء ما ليس في دم أولئك . تكثر المغامرات
في الشبان خلافاً للشيب . والملك في الاربعين والخمسين من عمره أقرب
الى النجاح لانه يحسن اختيار رجاله ، وبرجاله يحكم على عقله وجودة
سياسته .

تكرر التآمر على سلامة الجمهورية السورية في هذه الايام . ومن المتآمرين من يحاول الدخول في الهلال الحبيب أي التحالف مع العراق ويقصد فريق انشاء سورية الكبرى أي ضم شرقي الاردن الى سورية أو ضم سورية الى شرق الاردن وقد اهدت حكومة الجمهورية الى ما يرادها وسلمت الى القضاء من جرؤا على القضاء عليها .

اعتاد الشرقيون أن يتسرعوا في الحكم على الرجال ويكيلوا الاماديح بأعظم المسكيل ان يتولى المناصب العالية من أول يوم يتولاها ، يعملون بالمصانعات ويطلقون عليهم من النعوت أفخمها ، حتى اذا بدت الأظفار غلطاتهم في تسرعهم يتراجعون عن أحكامهم الاولى . من عادة الناس أن يفرطوا في اثبات المناقب والمثالب ، وما كان أولام أن يجربوا من يمدحونهم أو يقدحون فيهم بايديه . بده حتى لا يساء الظن فيهم مادحين وقادحين .

رأيت دعياً في الشعر يطعن في جماعة من العلماء من دون سبب ورأيتهم يعود بعد حين يتراضم لانه بدا له أن يدخل في جمعيتهم وهم ما عرفوه الا متشرذماً طرد من بلده لسوء أخلاقه في تدخله فيما لا يعنيه وعاش وما يزال يعيش بالجاهلية القريب على قومه .

قبل ان نظام حيدر آباد الدكن أدخلته حكومة هندستان في جلستها وفقد استقلاله في امارته وتبددت أمواله العظيمة . وكان أغنى غني في العالم جمع ثروته من قاصديه ، فكان بدلاً من أن يعطيهم يأخذ منهم . وكان حريصاً بكل ما في الحرص من معنى قبيح ، وما رق قلبه يوماً فنزل عن جزء من ماله ليعاون قومه وينفع الانسانية .

قال أحد المفكرين لا يخلو بعض من دخلوا في جمعية الارهاب من ذكاء ومعرفة فكيف أقدموا على ما لا تضمن نتيجه ففرضوا سميتهم

لنزول ووطنيتهم للخطر ، فأجبت ما دفعهم الى ارتكاب ما ارتكبوه
الاحب الظهور والفرام بالمناصب وما تسرب اليهم من أموال اطلقنها
لهم بعض الدول المجاورة . ولو كان الدافع الى ذلك وطنيا صرفاً لكانوا
سلكوا طرقاً أخرى ليس فيها تدمير ولا قتل .

ما دام ، قامك في الارض غير طويل خفف عن نفسك وطأة الاحزان
واجلب لها السرور ما استطعت « لا تكن أنت والزمان عليها ، .

عوّد نفسك التدقيق في أكلك ومنامك ونزهتك واجتماعك وعملك
اليومي حتى يصبح لك كل ذلك عادة مستحكمة . وخذ أبناءك بهذا
الادب منذ زومة أطفالهم لينشأوا على حب النظام ويصبح ذلك طبيعة
ثانية لهم .

تربد قيمة المرء بما ينطوي عليه من صفات صالحة . من الناس من
قيمتهم قيمة الماس ومنهم من قيمتهم قيمة الخضا .

كلما تقدمت المدنية ندر الزواج وزاد الفحش وقلّ النسل . الافطار
التي ظلت على الفطرة بعض التسمية تنسل أكثر من الافطار التي سارت
في طريق المدنية الفاسدة ، وأهل المدن أقل نسلًا من أهل القرى لصعوبة
الحياة في الحواضر وسهولتها بين أهل الحرت والضرع .

لاحظ ملاحظ أنه كانت الأولى السكوت عن نقد أخلاق بعضهم
تفادياً من غضبهم ، وقد جاء ما بدر على ألسنتهم مصداقاً لما وصفوا به .
من تطلب رضا الناس كان عليه أن يعنى عن مساوئهم ، ومن كانت له
دعوة يريد توفيتها حقها لا يسعه الا قول الحق مهما كانه الامر .

من أجل العادات زيارة الأحياء قبور الأموات في الأعياد والمواسم

يكونهم ويذكرونهم ويترحمون عليهم . بيد ان زيارة الاحياء بعضهم بعضاً تنفع أكثر من زيارة الموتى ، ومن الحي يستفاد ما لا يستفاد من الميت

كان الناس قبل انتشار المفاهيم والملاهي والاندية يعقدون مجالسهم في بيوت مقدميهم يأنسون ويتعاطفون ، ويستفيد صغيرهم من كبيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم . وقد بطلت هذه الاجتماعات المفيدة بهجوم المدنية الحديثة علينا ، فندر اجتماع المتعابين والمثاليين الا اذا كانت عرضاً في الشوارع والمجمعات ، وقلت الفوائد التي كانت تجنى من التآلف . وكانت بيوت أعيان القوم أندية تقيض نفعاً ، فيها تعليم وتدريب وفيها طرب وسلوى ، وأجل ما فيها اخاء دائم متبادل ، وصداقة ذات تراحم .

أدركت طبقة تعد من العوام كان أساتذتها من عمار المجالس الخاصة وأصبوا بما أصابوا من تجارب وحفظوا من أحاديث جميلة ، ثم نلذ بمحادثتهم وينتفع ببعض آرائهم . بطلت هذه المجالس وبالأأسف وما أكثر ما أتت الايام والليالي على المفيد فأبطلته .

لايسوغ لك أن تعد بلدك آخذاً بأسباب الحضارة الا اذا شاهدت فيه صورة الماضي الى صورة الحاضر حتى تعلم فضل أجدادك وآبائك ، ويعلم أبنائك غداً فضلك عليهم .

كثيرا ما نوهت بما نم على ايدي اعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر من الفائدة العامة للعلوم والأدب ، بما وفقت الى نشره من الكتب المحررة المنقحة ، وما كان اعجابي اقل من ذلك باجتماع بعض اعضائها والطارئين على القاهرة من المصريين وغير المصريين في ناديهم كل اسبوع ، يستفيد المبتدئ من المنتهي ، ويأخذ كل طالب ما يفيد ، خصوصاً وأعضاء اللجنة من الاساتذة الراقين ومنهم المؤلفون والمترجمون والناشرون الذين انفقوا أعمارهم في خدمة الآداب .

كلما قلت قال المصريون كذا وارتأى الشاميون كذا ، وودع العراقيون كذا ، أقصد بقولي الخاصة من أهل كل قطر ، وفيهم يدخل القابضون على زمام الحكم وأرباب الافكار والصحافة والعلماء والأدباء وغيرهم ممن دخلوا في الطبقات الراقية وخرجوا من الطبقات النازلة . ولما هبطت مصر قبل نصف قرن اعتقدت أنها أرقى الافطار العربية ومازلت على رأيي الى هذا العهد ، بيد أن اقرارى هذا لا يحول دون نقد مواضع النقد فيها ، لأنني أريد لها الكمال في جميع خالاتها .

أنا لا أعتقد الى الآن ان المصريين يعرفون الشعوب العربية معرفة جيدة ، وكذلك هؤلاء لا يعرفون المصريين ، وحبذا لو اكثر المصريون من الرحلة الى الافطار العربية كما اشرت الى ذلك في هذه المذكرات على ان يطبلوا مقامهم فيها ويختلطوا بأهلها اختلاط من ينوي الافادة والاستفادة لا يقتصرون على لقاء من يصادفونهم في الفنادق والمتنزهات ودور اللهو والقصف ، ولا على الاجتماع ساعة الى بعض رجال الحكم ولا على الاختلاط بأهل المدن دون أهل القرى ، والواجب دخولهم في صميم الشعب ليعرفوه حق معرفته ، وكذلك يفعل الشاميون وكذلك العراقيون وسائر الشعوب العربية . ومن اطلع على خصائص قوم احبهم ومن طالت عشرته لأناس حن عليهم ونفعهم وانتفع بهم .

إذا عرف الناس قيمة الوقت مالوا الى الإيجاز في كل ما أمكنهم إيجازه ، يوجزون في زيارتهم وافرأهم واتراحهم كما يوجزون اذا تحدثوا او تناقشوا واذا كتبوا وخطبوا . أصبح الإيجاز في شرح العلوم وعرض الافكار من طبيعة هذا القرن ، كما عُدَّ الامرأع في كل شيء من ميزاته . حالة العصر لا تحتمل التطويل والبطء ، والكلام الموجز تنشره النفس ويبقى على ذكر من سامعه وتاليه على ما لا يكون مثله للطول .

ولا يبعد ان تستحيل الكتب بعد حين الى مقاطع صغيرة تنشرها النفوس بلا غناء وقد أصبح الانسان يفضل السفر في الطائرة والسيارة

على ركوب القطار ومتون البحار ، فكيف يسمح لنفسه ان يضيع اياماً طويلة في سفرة وفي وسعه ان يكتفي لاتمامها بساعات قليلة . وليس من المستبعد ايضاً ان تختصر احجام الكتب في المستقبل فتصدر في صفحات مصفرة بحجم الكف قليلة الاوراق ، دقيقة الحروف خفيفة المحمل هينة الثمن .

من حوادث هذا القرن : حشر البابا في رومية مليون كاثوليكي من اقطار العالم ليصرح لهم ان مريم العذراء رفعت الى السماء وعليهم ان يعتقدوا ذلك ، الا أن البرتستانت في جنوبي افريقية بعثوا الى قداسه يقولون ان رفع السيدة العذراء الى السماء « اسطورة » انتقلت من خرافات الوثنيين . وقد سئل شيخ الازهر عن صعود العذراء الى السماء فقال : لم يقع ذلك !

قال احد العلماء المعاصرين : ان الوسيلة الوحيدة ان تصل الى تحقيق الممكن هي الا تحلم بغير الممكن . وقالت العرب : إذا اردت ان تطاع فسل ما يستطيع .

كان غصناف الخامس ملك السويد من اعقل الملوك يقصد كل سنة الى جنوب أوربا للاستجمام وقال في آخر رحلة له الى نيس : ارجو أن اعود في السنة القادمة ان شاء الله . اقول هذا لأنه لم يبق اليوم غيره ملكاً مطلقاً .

فيما مضى سيطر رجال الدين على كل شيء في عالم المدنية وهام بعض من حرر العلم نفوسهم من الغربيين يحاولون نزع وصحات الدينين . قال فريق من الخبراء العالميين في بايز ان الكتاب الغربيين يعمدون غالباً عند وضع كتب التاريخ الى اغفال ما قدمته الامم الاسلامية والاسيوية من خدمات جليلة للعالم وقال احد هؤلاء الخبراء وهو استاذ التربية المقارنة بجامعة

لندن ان تشويه التاريخ على هذه الصورة كان سبباً في كثير من مناعب العالم . وقد اجتمع هؤلاء الخبراء لتقديم مجموعة من التوصيات لهيئة الفقه الدولية لوضع ترتيب يرشد المؤلفين والناشرين الى الطريقة المثلى لتأليف كتب التاريخ المدرسية . وصرح المستر سيثي الهندي والمستر ميونيخ السيامي بأن تاريخ أمم العالم يتضمن التنويه بمجد أميركا في الغالب على حين أغفل من كتب التاريخ ذكر الأمم الاسلامية ، والاسبوية ، والافريقية ، وجاء في توصيات الخبراء وجوب جمل التاريخ دولياً وأن يتضمن كل شيء عن الشرق وافريقية .

تطورت المنازع بتطور الزمان وأصبح الناس لا يحسم من العلوم الا ما يسليهم ويفيدهم في مادياتهم مباشرة ، ذلك لانهم شهدوا في الحرب الاخيرة نجاح الجهلاء اكثر من المتعلمين حتى لقد اقتنوا العقارات وعمروا القصور واستعمروا القرى والمزارع فزهده الناظرون الى كل ذلك في العلم لانه في نظرهم من العوائق عن جلب المال !

وأبت المجلات الهزلية على نشر صور كواكب السينما والرافصات والمغنيات في أوضاع مغرية . وكثيراً ما تصفحت هذه المجلات فرأيتها على الأكثر تافهة لانها كتبت للجمهور والجمهور لا يهمه أن يتعلم بقدر ما يهمه أن ينسلى واكثر ارباب هذه المجلات تجار ماهرون جسوا نبض قرائهم فثبت لهم انهم لا يقبلون الا هذا الصنف الرخيص من الادب .

لو نجحت بلادنا في سياستها الخارجية حتى تصبح بأمن من الاشتراك بالحروب مجارة للدول العظمى على أغراضها لكانت أسعد الممالك اليوم بما قدر لها من انصراف الهمم الى العلم والاخصاء في الفنون والاهتمام الى أساليب الاستغناء من طريق الزراعة والتجارة والصناعة على أحدث الاصول الحديثة .

نجحت مصر في العهد الاخير بانشاء الجرائد السياسية أكثر من نجاحها بالمجلات العلمية وذلك لسببين وهما رغبة الناس عن العلم والادب وغرامهم بالجرائد الفكاهية تنشر ما يلذ العامة من مناظر وحكايات ، وتمثل لذلك بربع مجلات في مصر وثلثين في الشام . فالمجلة الاولى أقدم المجلات مات منشؤها فلم تجد لها منشئاً من عياره ، ولا تميهاً لها من ينفق عليها لاستخدام أقلام كتاب بارعين فلفتت لفقات ثم قضت نجبتها . والثانية غير ورثتها صورتها ونقلوها من مجلة ادبية الى مجلة فكاهية لا تقصد من كل ما تنشر الا ارضاء العامة بما يناسب عقولهم . والثالثة والرابعة اتكل القائمون عليها في انشائها على مقالات المؤازرين فان انفق ان ظفرت المجلة بمقالة تعب كاتبها في تحضيرها والا اضطر قيّم المجلة أن يحشوها بما هب ودب . والمجلتان الشاميتان ليس فيها من المزايا الا الثبات على اصدارهما ، وهما تستجديان المقالات وتكون على الاغلب من الدرجة الخامسة والسادسة ، وقد تمر السنة على هاتين المجلتين ولا تسقط فيها على مبحث مفيد فيعمد صاحباهما الى النقل والاقباس . وعناك ولا نكران للعقبي مجلات علمية قليلة منها ما يصدر في الشام والعراق ومصر استوفت شروط الاجادة وهي ذات موضوعات معينة والقائمون على انشائها علماء اذكياء يعرفون ماله قيمة للنشر من الابحاث .

الناقموه والناقمون

من حسن التوفيق أن نشرت مذكراتي في حياتي ، فسمعت ما قاله فيها الناقدون والناقمون . زعم بعضهم أنني أغضبت الكثيرين وأرضيت القليلين ، وأنني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات . وكان عليه أن يعكس حكمه فيقول أنني أرضيت الكثيرين وأغضبت القليلين . ذلك أن مجموع من تصفحوا الكتاب ، ومن المثقفين خاصة ، قد أكبروا حريته ، وصفحوا للشدة على أبواب السير الرديئة من العمال وغيرهم . وما كان من غضبوا في الواقع الا طائفة قليلة من السياسيين والمتلاعبين ، وغير صحيح أنني تسرعت في الحكم على الحوادث والشخصيات ، فانا ذكرت الماضي ولم أتعرض للمستقبل على ما يلائم روح المذكرات . كتبت ما شهدته وأنكرته وشهده غيري وأنكره ، وما سجلت الا ما يجب تسجيله . أما ما كان محجوباً عن العيون فهو فيما أرى من علم الغيب ، وما أنا ولا غيري بعلم الغيب من العارفين ، حتى أضمن سلامة النفوس من العيوب أبداً ، أو أؤاخذ عما سيأتيه بعد حين من تعرضت لذكرهم . فحكمي اذاً كان على ما وقع لا على ما سبق أو سوف يقع .

وبعد فما كنت الا صادقاً في حكمي على صاحب الثورة الاولى المشير حسني الزعيم ، وقد أعجب بثورته عقلاء الامم ، وما اختلف العارفون في عظم شخصيته . أما ما كتبت في رئيس الجمهورية الثالث فكلام غير منقوض بما كتبه في جده مثلاً ، فهو غير جده ، هو كان طموحاً الى المجد بطرق له خاصة خالف فيها اصول الحكم فعتل الحدود ولم يرع القوانين ، وبذر الأموال ولم يصرفها في وجورها ، وقرّب الرعايا الجاهلين وأقصى النبلاء العارفين . وأنا لا أسأل عما يطرأ على أخلاق الافراد ما داموا طول

حياتهم عرضة لتغيير أفكارهم ومنازعتهم ، وارتكاب ما يبذل نظر الناس فيهم . ويقل في الخلق من يسير على وتيرة واحدة طول حياته . وواجب المؤرخ على أي حال ان يحكم على من يعرض لهم بماضيهم وحاضرهم ، ولا شأن له بمستقبلهم . فقد يكون الرجل في آخر عمره غيره في وسطه وأوله ، فلا ملام على من ترجم له اذا اعتمد على ما رأى وسمع ، مادام المرء مفطوراً على الطمع يفعل فيه الزمان والمكان .

وقال صديقي الاستاذ علي عبد الرازق باشا من علماء مصر من كتاب : وجدتك في بعض المواقف مهاجماً عنيفاً في صراحة لا يمازجها حذر ، وفي مواقف أخرى كنت أقرب الى المداورة وأدنى الى الابهام ولكنك في كلنا الحالتين واضح العبارة ومستظرف ومحبوب . ولقد اكون وقفت موقف الشك والتردد ازاء ما جرى به قلبك في بعض المواضع ، ولكن لم يخامرني اذى اثر للشك ولا للتردد في انك وضعت بهذه المذكرات سجلاً حافلاً بالحوادث مليئاً بالمعلومات .

وقال صديقي الاستاذ محمد بهجة الاثري من علماء العراق من كلام على المذكرات في الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي (١٣٦٩ - ١٩٥٠ ص ٣٥١ و ٣٥٣) : لست ازعم ان المؤلف قد سلم له كل مادونه في ارتساماته وآرائه ، ولا سيما في السياسة والرجال ، فانه هو نفسه يعترف في آخر هذه المذكرات (ص ٩٩١) بأنه ربما وقعت له هنات كان الاجدر ان يسلم منها كتابه ، ثم يذكر السبب في وقوع هذه الهنات له فيقول : وما كان السبب فيها الا بعض من أدلوا البنا بمعلومات وهموا فيها . وليته أشار الى هذه الهنات ، وبين وجه الخطأ الذي لم يعصم منه لتجيز مروياته عن انطباعاته وآرائه ، وليعرف الناس - ومن حقهم أن يعرفوا - هذه الهنات التي وقعت له « ومن فيك أحلى » قال وقد مررت في كتابه بأشياء لا أحسبها من هذه الهنات التي عناها بل هي من باب آخر مما يتصل بالسياسة وبالرجال ، وعلى بعضها

طابع العجلة والارتجال ، وعلى بعضها أثر الحدة والانفعال . وما يدرينا اذا أخذنا في سردها ، وهي ليست بالكثيرة أنه سيقول في ردنا ما قاله في تلك الهنات من ذا الذي عصم من الخطأ؟ . . . فبسد بوجهنا الطريق الى مجاذبته أطراف الحوار !

الى أن قال : وبدعي أن من يكتب بهذا الأسلوب المطلق عن أهل عصر يعيش بين ظهرائهم ، ويعطي كل انسان كتابه بشماله ، انما يعرض نفسه اغضب الناس وسوء قائلهم في حقه كالذي حدث له مع أصحابه وأحبائه بمصر حين نقد سلوكهم معه فتأدوا عليه يناوشونه المطاعن ، وقوارص الكلام . وليس بمثل هذه السهولة تنسخ المودات بين الأصدقاء وتنتسى العهود بين العلماء اه .

وتلطف الأستاذ أحمد شكري فلاحظ في جريدة النصر قائلاً : وان هذه المذكرات هي أكثر من مذكرات هي تاريخ وتحليل أشخاص واصدار أحكام مختلفة عليهم . وأشهد أن الأستاذ كرد علي كان مؤرخاً صارماً ، فأصدر أحكاماً جريئة على أشخاص أصبحوا ملك التاريخ ، ومنعتهم الامة العربية مكاناً رفيعاً في أفكارها وذكراياتها . وأنا لا أشك أن علامتنا الكبير صادق فيما يقول ، ولكن لعل الأمر جوانب أخرى ولعل ما انتقده في أولئك الاشخاص صحيح ، ولكنه عبارة عن هنات شخصية وتصرفات توجبها ظروف لا نستطيع تقديرها ، فان من المؤكد أن عبد الكريم الخليل والشيخ عبد الحميد الزهراوي والسيد عبد الغني العريسي والشيخ أحمد طيارة وغيرهم من الشهداء الذين علقهم أحمد جمال باشا على أعواد المشانق عام ١٩١٦ في ساحتي المرجة والبرج في دمشق وبيروت لم يكونوا معصومين من الأخطاء فهم بشر كغيرهم ، الا أن كونهم القافلة الأولى من شهداء النهضة العربية جعل لهم حرمة في النفوس ومكانة في القلوب ، فهم أول من فقدوا حياتهم لأنهم أعربوا عن عقيدة عربية . أما أخطاؤهم الشخصية فالأمة لا تأبه بها كثيراً . ثم قال : انه كان يود أن

أصدر عليهم أحكاماً عامة تتناول عقيدتهم القومية ومبلغ اخلاصهم لها في معزل عن التصرفات الجزئية التي قاموا بها . وقال انه فاني أن أبدي رأيي في أحمد جمال باشا مع أني أسهبت في ذكر العلاقات التي تربطه بي شخصياً والانصالات القائمة بيننا حتى أنه كاد يعتقد ان لي في جمال باشا رأياً آخر غير الرأي الذي اعتنقه المؤرخون العرب في أن هذا التركي كان سفاحاً غاشماً يبغض العرب . . .

وأجيب على هذا أني ماطعت في وطنية هؤلاء الرجال الأربعة الذين ذكرهم الأستاذ الناقد ، بل أشرت الى أن بعضهم ظلموني بنسبتهم اليّ أموراً ما فعلتها ولا دخل لي فيها لو صدقها القارئون بالأمر يومئذ لاودت بحياتي ، وأنا لم أشارك في الاحزاب العربية ، وما كان عملي منذ أنشأت المقتبس الا عمل صحافي حر ، ولذلك لم أفسر ما عزا اليّ الاستاذ الزهراوي الا أنه يعني اتهامي بما أنا منه بريء ، ولا يبالي عشت بعدها أو قتلت . هذا وجه تعريضي ببعضهم ، وماذا أعمل وواجب المؤرخ أن يكتب للناس ما وقع ، وأنا لا أكتب كتاب أدب وعواطف ، بل أكتب تاريخاً ومذكرات . جريت على هذا القانون معظم أيام حياتي في الصحافة أولاً والتأليف ثانياً ، مع علمي بأن عملي لا يرضي جميع الطبقات ، ولا يخلفني من ملامة . وكيف يريدني الأخ الناقد ألا أذكر من ذكرت الا بالخير لشرف المقصد الذي أخذوا به ، ومنهم من استخدم اسمي ليروج بضاعته وان اعتقد اعتقاداً جازماً أنه يلحق بي ضرراً ، ومنهم من حاول اتهامي زوراً بما صورته له أخلاقه ، وما عبأ بما يترتب على شهادته المعلولة وما أظن الناقد الحصيف الا موافقاً لي . على أن من قتلهم الأتراك في الحرب الأولى من رجال العرب ليسوا كلهم من طراز واحد وان فيهم الشريف ، وفيهم من تجسس للغريب وشهد الزور ، وهم كلهم ليسوا كالاسانذة عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي وسليم الجزائري وتوفيق بساط .

أما طلب رأيي في أحمد جمال باشا ، فأذكر أني وفيته حقه من وصف فظائعه في سورية والاستانة وأذنة وبغداد ، ولك أن تدعو من ارتكب هذه الجنايات الفظيعة سفاحاً ، وأكثر من سفاح . والانصاف يقضي مع هذا ألا تلقى عليه وحده كل ما وقع للعرب من قتل ، وأن نقسم هذا الظلم القادح بينه وبين حزبه ، حزب الاتحاد والترقي ، وهذا كان يقرر وجمال باشا ينفذ .

وجوز الدكتور احمد امين بك المصري لنفسه في نقد المذكرات ، الخروج على الانصاف وزيف كل ما عرفت به ، فطعن في أمانتي في التاريخ دون أن يأتي ببرهان ، وقال انه لا يرضيه أسلوبني في كتابتي ولا طريقي في البحث ، أما أنا فيرضيني أسلوبه وبجته ، ولا ترضيني بعض جوانب من أخلاقه . وادعى أني هيات لفرنسا تقسيم سورية ، فكافأني بتوسيد الوزارة الي ، وهي دعوى أشهد بها على نفسه أنه قليل البضاعة في التاريخ والسياسة ، كما هو ضعيف في الفلسفة . وعجيب كيف لم يعرف أن الوزراء ورؤساء الوزارات ما كانوا في عهد الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان أكثر من رؤساء دواوين وعلمهم اداري بحت . وكانت السياسة كلها بيد المفوض السامي يستوحي فيها وزارة خارجيته .

واقدر كنت منذ أول الاحتلال من أكبر المعارضين في هذا التقسيم ، وكنت بذلك أنا ورصفاي الى المفوض السامي الجنرال غورو نعترض على اقتطاع الاقضية الأربعة من جسم سورية والحاقها بلبنان . ثم طلبت الى المفوض السامي المسيو دي مارتيل أن يتقدم بضم لبنان الى سورية على صورة وحدة أو اتحاد ، فغضب غضباً شديداً وكان ذلك سبباً في اقصائي عن الوزارة . وقد كررت القول لأمين سر المفوضية المسيو روبردي كه في أوقات مختلفة بضم لبنان الى سورية ، وإذا تذكر ذلك أن يرجع لبنان الى ما كان عليه زمن العثمانيين متصرفية أو لواء مستقلاً فتألم

من مقترحي ايضاً وتقاطعنا من اجل هذه التصريحات (على ما فصلت ذلك في مكان آخر من المذكرات) وهكذا كنت في كل فرصة اطالب بالجمع بين سورية ولبنان وأطلب ضم جبل الدروز ودولة العلويين ولواء الاسكندرونة الى سورية الأم . فهل أكون بعد هذا أداة من ادوات الانفصال حتى تكافئني فرنسا بالوزارة ؟ على ان برنامجي كان اوسع من ذلك ، كنت من دعاة الوحدة العربية ، صرحت بذلك للفرنسيين غير مرة ، وقبلوني في الوزارة على علاني ، وما أنكرت قط دعوتي ، وكان تقسيم سورية من اعظم ما آلمني من هزل السياسة الفرنسية والانكليزية . كل هذا واحد امين لا يرضى الا ان يفترى عليّ وعلى التاريخ ليتخذ مما اختلق واسطة للطعن وما وجد غير الكذب سلاحاً يقانني به . اما انا فما زلت على رأيي في اخلاقه مهما تحامل وتبجح ، وكتب عن نفسه يجمل بقلبه سيرته . وكان من زميله أحمد حسن الزيات ان استعمل الشائعات على طريقة سفهاء الصحافيين في مصر اوائل هذا القرن ، والسفيه لاجواب له عندي .

محمد رسول الله

انصاف الخائف أشد وقعاً في النفس من انصاف الموافق . كتب العلماء المفكرون من الغربيين الاحرار في وصف رسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ما كانت الانصاف ظاهره وباطنه ومنهم كارلايل الانكليزي وقد أشرنا الى بعض ما قالوه فيه في كتابنا (الاسلام والحضارة العربية) وآخر ما قرأناه في سيرة النبي العربي وتحليل عمله العظيم ما قاله شاعر فرنسا العظيم لا مارتين قال : لم يقصد رجل قط مختاراً أو غير مختار الى غاية أسى ، لأث تلك الغاية كانت فوق طاقة البشر وهي القضاء على مادخل من الحرافات بين الخالق والمخلوق ليجعل

الله للعبد والعبد لله ، وأن يعدل فكرة الألوهية المعقولة في الوثنية المادية المشوهة . وما عهد قط رجل مثله قام في وقت قصير بثورة عظيمة مستديمة في العالم ، لان الاسلام بعد أقل من قرنين من انتشاره بالدعاة والقوة عم الاقطار العربية الثلاثة ودعا الى الله الواحد الاحد في فارس وخراسان وما وراء النهر والهند الغربية والشام ومصر والحبشة وجميع الاقطار المعروفة من شمالي افريقية وعدة اجزاء من البحر المتوسط واسبانيا وشطر من غاليا (فرنسا) .

فاذا كانت عظمة الغاية وقلة الوسائط ووفرة النتيجة هي الاسباب الثلاثة التي تبين عن نبوغ المرء ، فمن يجرؤ أن يشبه بمحمد رجلاً عظيماً من رجال التاريخ الحديث ، فان من اشتهر منهم لم يجيش الا جيوشاً ولم يسن الا قوانين ، ولم يؤسس الا ممالك ، فلم ينشئوا فيما أنشأوا الا دولاً عادية كان حظها أن تداعت أركانها بعدهم . اما ذاك الرجل فأباد جيوشاً ، ووضع شرائع ، وأسس ممالك ، وألف بين شعوب ، وأقام دولاً ، وضم شمل ملايين من البشر في ثلث العالم المعبور ، وزاد على ذلك أن بدل أفكاراً ومعتقدات وارواحاً ، واتى بكتاب اصبح كل حرف من حروفه شريعة قومية روحية سرت الى شعوب من جميع اللغات والعناصر ، وطبع هذه الجنسية الاسلامية بطابع ثابت ، وقضى على الارباب المصنوعة ودعا الى الاعتقاد بالله الواحد الاحد مجرداً عن المادة والهوى .

ومن يكون اكثر عظمة اذا قيس العظمة البشرية بكل مظاهرها بعظمة محمد الحكيم الخطيب الداعية المشرع المحارب المبدع في افكاره ، ومؤسس التعاليم القائمة على العقل ، وعلى عبادة لاصور فيها ، ومنشيء عشرين مملكة ارضية ، ومملكة روحية واحدة .

قال مؤلف كتاب اوجه الاسلام Les visages de l'Islam جورج ريفوار : من الجرأة ان يحاول المرء اضافة شيء الى صورة هذا النبي التي صوره بها لامارتين .

وصف الشيوخ

وصف باكون الفيلسوف الانكليزي جماعة الشيوخ وصفاً ينطبق عليهم من أكثر الوجوه قال : انهم يكثرّون من الاعتراض ، ويطلبون في استشارتهم ، ويخاطرون قليلاً ، ويسارعون الى ابداء التأسف ، ويندر فيهم من يعمل في الوقت المناسب ، ويقنعون بالنجاح الوسط . ويزيد عليه انهم اذا اجتمع بعضهم الى بعض يبدأون بالكلام عن أمراضهم ووصف ما يتناولون من أدوية وعقاقير .

النبوغ في اسبانيا

وصف هوفار أحد ساسة الانكليز في هذا العصر نبغاء اسبانيا فقال انها أخرجت للامبراطورية الرومانية أدريان وتراجان وسنيك وكنتلين وللكنيسة سان دومينيك وسان تريز وسان اغناطيوس دي لوبولا وسان جان دلاكروا وللأدب سرفنتس ولوب دي فيكا وكالدرون ، وللتصوير فلاسكين وموريللو وكويا - وأمة أنبغت مثل هؤلاء هي ولا شك ذات مدنية غير عادية . قال هذا وهو من رجال السياسة . وأجمع مؤرخو البريطانيين أو كادوا يجمعون على أن اسبانيا أحط أمة في قارة أوروبا . وقال العارفون انه قلما تمّ شيء في اسبانيا الا دير الاسكوريال ورواية دون كيشوت .

استعمار المحفوت

قلنا ان فرنسا أساءت باستعمارها الى المسلمين خاصة وإلى الشرقيين عامة . كتب روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق الى وزير خارجيته يقول مانصه :

عزيزي كوردل هول

قابلي أمس الورد هاليفاكس (سفير انكلترا في واشنطن) وطلب مني تأكيداً عن الحديث الذي روي على لساني والذي ألحت فيه الى وجوب وضع الهند الصينية بعد الحرب تحت الوصاية الدولية ثم منحها الاستقلال بعد ذلك .

لقد استعمر الفرنسيون هذه البلاد التي بلغ سكانها ثلاثين مليوناً مدة مائة سنة تقريباً ، وأهلها الآن لا يختلفون مطلقاً عما كانوا عليه قبل مائة عام . جلبت فرنسا هذه البقرة حتى لم يبق في ضرعها شيء ، والعدل يقضي بان تحرر الهند الصينية من نير هؤلاء ويعطى لها استقلالها في حينه .

فرانكلين بالاتور روزفلت

١٩٤٥/١/٢٤

هذا ما قاله سياسي غربي كبير خالي الغرض في استعمار فرنسا وقال الاستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية في مؤتمر الشعوب الآسيوية نحن شعوب الشرق من أطراف المحيط الأطلنطي الى أندونيسيا ذقنا الأمرين في الروح وفي العقل وفي المادة على أيدي الأوروبيين المستعمرين وما أمانينا سوى أن نضمد الجراح التي أحدثها الاستعمار في أجسادنا وما واجبتنا الا أن نرعى الحرية ونثبت دعائمها فقد دفعت شعوبنا من أجل ذلك ثمناً غالياً ولا يسعنا أن نغض أعيننا أبداً عن واجبتنا نحو تلك الشعوب الآسيوية التي ما برحت تزدح تحت عبء الاستعمار .

فهرس عام

ص		ص	
١٠٨٨	هل وفنت العربية بفرضها	٩٩٩	السياسة في مصر
١٠٩٦	الاستعمال محكم	١٠٠٣	عتاب أحباب
١١١٣	عجائب اللهجات	١٠٠٧	قبة حياء
١١٢١	نطور الألفاظ والتراكيب	١٠٠٩	لا تأليف ولا نشر
١١٣٣	الثورة الثانية	١٠١٢	التمويه البارد
١١٣٨	المجلس النأسيبي	١٠١٤	البدع الضارة
١١٤٠	سياسة سياسيين	١٠١٥	أخلاق وزير
١١٤٣	الرئيس القوتلي	١٠١٧	عليه ممة
١١٤٩	الثورة الثالثة	١٠١٨	صاحب غريب
١١٥٣	عزة نفس	١٠١٩	الرئيس المهوس
١١٥٤	قلة نبات	١٠٢٠	موجزات
١١٥٥	السبنا	١٠٤٠	مقووط المهجائين
١١٥٦	اصلاح الصحف	١٠٤٢	المغتربون الشاميون
١١٥٨	مؤامرة دنبة	١٠٤٣	داء الانكال
١١٥٩	خلال في الادارة	١٠٤٤	كتب الحبالات
١١٦٠	الدعايات الحديثة	١٠٤٤	نحن والقومية
١١٦٢	كتائب الفداء	١٠٤٦	القصة
١١٦٣	القسوة على العلماء	١٠٤٧	الاخلاص للدين
١١٦٤	مصر والنهضة العلمية	١٠٤٨	الحجاب والسفور
١١٦٧	نظرات	١٠٤٩	الماضي والحاضر
١١٩٢	ملكة الانشاء	١٠٧٠	قسط العرب من حضارة أوربا

ص		ص	
١٢٤٠	المعذبون في الأرض	١١٩٤	الرجوع الى الصواب
١٢٤١	عناية المستعربين	١١٩٥	حرية الكلام
١٢٤٢	الباكستان والهندستان	١١٩٦	الحكومة الناجية
١٢٤٣	الجمهورية عندنا	١٢٠٤	عزة العلماء
١٢٤٥	الأحكام العرفية	١٢٠٥	لباس الرأس والبدن
١٢٤٦	مؤلمات	١٢٠٦	الشعر الرمزي
١٢٥٨	ساسة الشرق	١٢٠٦	جريرة لا تغتفر
١٢٥٩	الحنبلات الضارة	١٢٠٧	عاطل ومعطل
١٢٦٠	أغراض السياسيين	١٢٠٨	الطيب والحديث
١٢٦١	مجمع مصر	١٢٠٩	اجتماعيات
١٢٦٢	الصحافة العربية	١٢٢١	علم لا ينفع
١٢٦٣	أرباب الاستبداد	١٢٢١	واجب المؤرخ
١٢٦٤	الفلاح أخرق	١٢٢٣	المصطلحات الجديدة
١٢٦٦	تأليف الممالك	١٢٢٤	تقايد
١٢٦٨	أمالي	١٢٢٩	مجالس الثلاثة
١٢٩١	أدعياء الوطنية	١٢٣١	وزارة تسلية
١٢٩٣	الوزراء المرتجلون	١٢٣٢	سخافة دولة
١٢٩٤	من عيوب المجتمع	١٢٣٣	العلامة جاز الله
١٢٩٤	خواطر	١٢٣٤	الغالب والمغلوب
١٣١٠	الناقدون والناقمون	١٢٣٥	أعظم اللغات انتشاراً
١٣١٥	محمد رسول الله	١٢٣٥	سكان الأرض
١٣١٧	وصف الشيوخ	١٢٣٦	صناع المدنية
١٣١٧	النبوغ في اسبانيا	١٢٣٧	تقسيم سورية
١٣١٨	الاستعمار المقوت	١٢٣٨	الدعوة الصهيونية
		١٢٣٩	دعابتنا ودعاية غيرها

